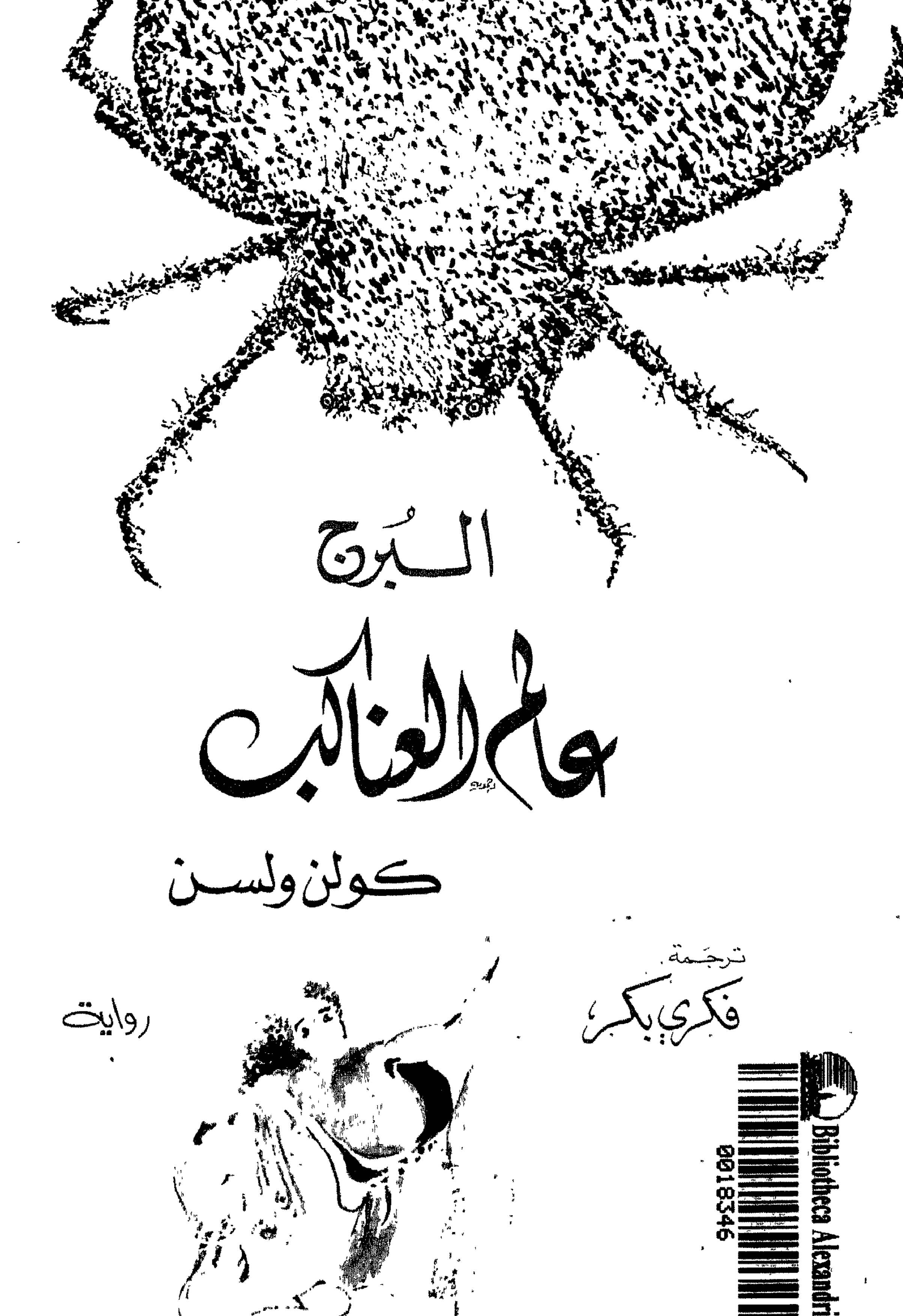


البرج

عالم العناكب

كولن ولسن

ترجمة

فكري بكر

رواية

دار الآداب

كولن ولسون

عالم العناكب

١ ـ البرج

رواية

ترجمة: فكري بحر

دار الآداب ـ بيروت

الجزء الأول

الصحراء

- ١ -

أصاخ «نيال» السمع، حينما هبّت أولى نسمات الفجر الباردة، تحت الحجر المسطّح، الذي غطّى الجحر، وأنصت بتركيز شديد. بدا الأمر، حينما فعل ذلك، كما لو أن بريقاً ضئيلاً من الضوء، قد سطع داخل رأسه. ران صمت مفاجىء، تتضخّم فيه أية ضوضاء، فتناهى إلى مسامعه الصوت الواهن لحشرة ضخمة تتحرّك فوق الرمال. عرف من خفة حركتها وسرعتها، أنها عنكبوت جمليّ. عبر مجال رؤيته، بعد لحظة، كان جسد مُشعِر، يماثل البرميل، يتلألأ تحت سنا الشمس: فكّان ضخمان يحملان بقايا عظاءة. مرّ بسرعة، ولم يعد يسمع سوى عصف الرياح، بين فروع صبّار اليتوع. بيد أن هذا أوحى له بما يريد معرفته، وهو عدم وجود عقرب أو خنفساء نمرّية في المكان.

يُعدّ العنكبوت الجمليّ أكثر الكائنات شراهة؛ إنه يأكل حتى تنتفخ معدته، فيوشك أن يعجز عن الحركة. وقد بدا له أن معدة هذا العنكبوت، نصف ممتلئة فقط. ولئن بدت أية دلالة أخرى على الحياة في المنطقة، فإنه كان سيتخلّى عن فريسته التي أتى على نصفها، ليشنّ هجومه.

بحذر، نحّى «نيال» جانباً الرمال، بحركة مزدوجة من يديه، مثلما يفعل سبّاح، ثم انسلّ بجسده، الذي يعاني من نقص التغذية، عبر الفجوة. كانت الشمس قد بدأت تلوح لتوّها في الأفق؛ بينما الرمال مازالت باردة بتأثير الصقيع أثناء الليل. تمدّد هدفه على بعد خمسين متراً، عند حافة أيكة الصبار: نبات الوارو الذي شكل لُبّه الأخضر، المماثل في كثافته لشحمة الأذن، فنجاناً يأسر الندى. في الساعة الماضية تمدّد يقظاً، وحلقه يحترق، مستحضراً في ذهنه متعة غمس شفتيه في السائل الثلجي. كان في الجحر ماءٌ جمعه العبيد من النمال من عمق خمسين قدماً تحت سطح الصحراء، لكنه أحمر اللون، يماثل مذاقه

الأملاح المعدنيّة. وبالمقارنة، فإن مذاق الندى البارد لنبات الوارو يحاكي الشمبانيا.

كان فنجانه، الذي يتشكل من ورقتين متجعّدتين، نصف ممتلىء، وعلى حوافه بلّورات من الثلج. ركع على أطرافه الأربعة، وقرّب وجهه من الكأس فرشف رشفة طويلة وعميقة. أصابت النشوة عضلاته بالاسترخاء. فبالنسبة لساكن الصحراء، تعدّ المياه المثلّجة من أهم الرفاهيات. كاد الإغراء يدفعه لارتشاف كلّ ما في الفنجان، لكن خبرته منعته من ذلك. فالجذور السطحية لنبات الوارو بحاجة لهذا الماء حتى تعيش؛ وإذا شرب الماء كله، فسيموت النبات، وسيتلاشى مصدر آخر للمياه. لذا توقّف نيال عن الارتواء، بينما كانت الكأس نصف ممتلئة. لكنه واصل الركوع هناك، محملقاً في السائل البارد، كما لو كان يشرب رحيقه، في الوقت الذي سرت فيه موجة باردة من البهجة، اكتنفته من أمّ رأسه حتى أخمص قدميه. وفي أعماقه، أُثيرت ذكريات عرقيّة غريبة: ذكريات عصر ذهبيّ، عندما كان الماء متوافراً، والبشر غير مجبرين على العيش تحت سطح الصحراء مثل الحشرات.

تلك الحالة النفسية من السكون العميق أنقذت حياته. فقد شاهد، وهو يرفع عينيه، المنطاد في الأفق الشرقيّ الشاحب. كان يبعد نحو نصف ميل، ويتحرّك مسرعاً باتجاهه. وسيطر نيال على امتداد الرعب اللاإراديّ، بصورة فورية وغريزية، وساعده على ذلك، الهدوء الداخلي الذي شعر به منذ لحظات قليلة. أدرك في الوقت ذاته، أنه يركع في ظلال الصبار الإبري الضخم، الذي تمتدّ جذوعه الأخدودية إلى ارتفاع سبعين قدماً فوق رأسه. كان لا بد وأن يكون جسمه الذي لوّحته الشمس مختفياً كلية، قبالة الجانب الغربي المظلم الذي يسبح في برك من الظلال. لم يكن هناك شيء يمكن أن يشي به، سوى ارتداد الرعب اللاإرادي، الذي كان من الصعب السيطرة عليه مع اندفاع المنطاد نحوه مسرعاً، كما لو أن الكائن بداخله قد اختاره ليكون ضحيّته. وراح يفكر في الآخرين، الراقدين بالأسفل في الجحر، وابتهل من أجل أن يكونوا مستغرقين في النوم. بعدئذ، اندفع المنطاد نحوه بسرعة، وأحس للمرة الأولى في حياته، بذلك التهديد الهائل الذي تشكله العناكب الصائدة. بدا الأمر كما لو أن قوة عدائية عنيدة، تمشّط الصحراء، مثل الضوء الكشّاف، تسبر كل المناطق المظلّلة بقوة توشك أن تكون ملموسة، ساعية لإثارة ارتداد الرعب الذي سيصعد إليها كالصرخة. حوّل نيال ناظريه عامداً نحو كأس الوارو، وحاول أن يجعل ذهنه هادئاً مثل الماء الصافي. وساوره عندئذ شعور غريب، أدرك فيه روح الوارو، الروح النباتية السلبية، التي يتمثّل هدفها الوحيد في الارتواء، وامتصاص ضوء الشمس، والبقاء على قيد الحياة. كما أدرك في اللحظة ذاتها، روح الصبار العملاق، الأكثر فخراً، ترتفع

فوقه كأنما تتحدّى السماء. بدت الأرض ذاتها كشيء شفّاف، استطاع خلاله الإحساس بوجود أسرته: والداه، شقيقه وشقيقتاه جميعهم مستغرقين في النوم، رغم أن أباه قد تحرّك، عندما مرت فوقه حزمة أشعّة الإرادة الحاقدة.

بعد بضع ثوانٍ، انحسرت الأشعّة، فقد ابتعد المنطاد بالفعل مسافة ربع ميل عبر الصحراء، متجهاً صوب الهضبة الداخلية الهائلة التي تبدو في الأفق. مشّطت القوة العنيدة الصحراء وهي منطلقة، وكان بمقدوره أن يشعر بوجودها واضحة، وكأنها أشعّة ضوء. وجلس دون حراك، وهو يشاهد المنطاد يتضاءل بعيداً في المسافات، ويراقبه باهتمام وهو ينحرف لتجنّب صخرة بارزة كإبرة.

حينما مضى المنطاد، هرع نيال عائداً إلى الجحر، متحركاً بسرعة وصمت، كما تعلّم ذلك منذ نعومة أظفاره. أيقظ دخوله أباه، الذي قفز في الحال، متحفزاً، ويده اليمنى تقبض على خنجر من العظم. عندما عرف أن القادم هو نيال، أحس أن أمراً سيّئاً قد وقع.

ـ ما الأمر؟

همس نيال: منطاد عنكبوتيّ.

ـ أين؟

ـ لقد ذهب الآن.

ـ هل رآك؟

ـ لا أعتقد ذلك.

أفسح «أولف» لتوتّره المجال لأن يتلاشى في تنهيدة عميقة. وتسلّق الصخور حتى وصل إلى مدخل الجحر، وأصاخ السمع للحظة، وهو يحدّق. كانت الشمس تلوح الآن في الأفق، والسماء زرقاء صافية، ماتزال مشوبة باللون الأبيض.

تساءل شقيقه الأكبر، «ڤيج»، وسط الظلام: «ما الأمر؟».

ردّ أولف قائلاً: «إنها تصطاد».

لم تكن هناك حاجة لأن يستفسر ڤيج عما يعنيه أبوه. فكلمة «إنها»، بهذه النبرة، لا يمكن أن تعني سوى العناكب القاتلة. وعندما تقوم هذه العناكب بالاصطياد، فإن هذا يعدّ أخطر الأمور التي يمكن أن تحدث لهذه المجموعة الصغيرة من البشر، الذين قضوا معظم حياتهم تحت الأرض. فمنذ أبعد السنوات التي يستطيعون تذكّرها، تعرّض البشر للاصطياد من قبل العقارب، الخنافس النمرية، الجعلان المخطّطة، والحشرات الضخمة، ولكن معظم عمليات الاصطياد قامت بها العناكب القاتلة. فالخنافس والبعوض

من الأعداء الطبيعيين، وكان يمكن قتلها، أحياناً. أما العناكب، سادة الأرض، فلا يمكن قهرها. ويتعيّن، لقتل عنكبوت، مواجهة انتقام مروّع.

عندما كان جومار، والد جدّ نيال، عبداً لدى العناكب، رأى ما حدث لمستوطنة صغيرة من البشر قتلت عنكبوتاً. فقد احتشد جيش بالآلاف لاصطيادهم، طابور من العناكب يزيد طوله عن عشرة أميال، سار عبر الصحراء، تغطّيه مئات من العناكب المنطاديّة. عندما وقع البشر، في النهاية، في الأسر، تمّت إعادة حوالي ثلاثين منهم بعضهم من الأطفال، إلى مدينة سيد الموت، في موكب أمام جموع الجماهير، ثم قامت بعد ذلك بأداء طقوس الحقن بسمّ يسري في الأعصاب ويحدث الشلل. ظلّ الضحايا في حالة وعي كامل، إلا أنهم لم يتمكّنوا من تحريك أيّ جزء من أعضائهم سوى عيونهم ورموشها. بعد ذلك أكلتهم العناكب ببطء، واستغرقت العملّية برمّتها بضعة أيام، وواصل زعيم المجموعة الحياة لمدة أسبوعين تقريباً، حتى أصبح مجرّد جسد بدون ذراعين وساقين.

لم يعرف أحد لماذا كرهت العناكب البشر إلى هذا الحدّ، ولا حتى جومار، الذي قضى حياته كلها بينها إلى أن هرب على متن منطاد عنكبوتي. كل ما عرفه جومار أن هنالك آلافاً من العناكب الصائدة التي قضت حياتها في رحلة بحث عن البشر. ربما يرجع ذلك إلى أنها كانت تنظر إلى الإنسان على أنه طعام شهيّ ممتاز. ومع ذلك، فإن هذا التفسير يبدو غير منطقيّ، نظراً لأن العناكب قامت بتربية البشر التابعين ليكونوا طعاماً لها. من الواضح أنها كانت تفضلهم ممتلئين، فلا يستطيعون المشي إلا بصعوبة. إذن لماذا يسعى العنكبوت وراء لحم إنسان الصحراء الذي يعاني من نقص التغذية؟ لا بدّ وأن هنالك سبباً آخر وراء البغض الشديد الذي تبديه العناكب تجاه الإنسان.

كان الآخرون قد استيقظوا الآن ـ أمّه، «سيريز»، وشقيقتاه الأصغر سناً منه، «رونا» و «مارا». لم تصل إلى مسامع الفتاتين، سوى عبارات قليلة مما قال أولف. ومع ذلك فقد أحسّتا بأن أمراً سيّئاً قد حدث. وكانت مخاوفهما مثل ذبذبة مقيتة أو رائحة تبعث على الغثيان.

عند صخرة المدخل، أشار ڤيج إلى والده. زحف نيال أيضاً إلى مدخل الجحر، وقبل أن يحجب الرأسان ضوء النهار، لمح المنطاد الأبيض يتحرّك بسرعة فوق قمم الصبّار الإبري الذي يبعد أكثر من ميل.

قال أولف بتؤدة: ينبغي أن تنام الطفلتان.

أومأ ڤيج، واختفى في أعماق الجحر، حيث تقطن النمال. عاد بعد عشر دقائق، حاملاً قرعاً مملوءاً بمادّة تماثل العصيدة أفرزتها النمال من حواصلها. كشطت سيريز بعضاً من هذه المادّة على أطباق كبيرة من الخشب، وأكلت الفتاتان، غير المعتادتين على هذه الوجبات الدسمة. عندما تناول نيال طبقه، اشتمّ الرائحة الورديّة القويّة لنبات الأورتيس الذي جُلب من غابة «الدلتا الكبرى». لكنه لم يكن يشعر برغبة في النوم. أحس الآن بثقة في قدرته على أن يتحكم في ردّ فعله على الخوف. وحتى يرضي أباه، ابتلع كمية من الطعام، ودفع بالطبق تحت كومة من التبن يتّخذونها فراشاً، قبل أن يراه أحد. بعد خمس دقائق استغرقت الفتاتان في النوم مرة أخرى. كما شعر نيال بثقل سار، من تأثير المادة المخدرة، خفّف انفعاله المحتدم من شعوره بالجوع، إلا أن ذهنه ظل يقظاً.

انتظرت سيريز حتى نامت الفتاتان، قبل أن تأكل في اقتصاد، عصيدة المنّ. أرادت، مثل نيال، أن تظل يقظة. لكن هذا لا يرجع إلى رغبتها في تقديم المساعدة للدفاع عن الجحر، وإنما كي تتمكن من قتل الطفلتين، ثم نفسها إذا ما اكتشفت العناكب القاتلة مكانهم.

كانت تبتلع اللقمة الأولى، عندما غزا مجسّ الخوف الجحر. بدا غزواً بالمعنى الحرفيّ للكلمة، كما لو أنّ أحد العناكب الضخمة، قد قفز إلى بيتهم الخفيّ تحت الأرض. أوشك نيال للحظة، أن يفقد السيطرة على نفسه، بيد أن عقله أدرك على الفور، أن هذا الرعب الخفيّ كان غير محسوس ومجرداً. لم تكن سيريز موفّقة مثله. لقد شعر نيال أن الخوف قد تدفّق خارجاً منها مثل صرخة. كما شعر أولف وڤيج بالخوف أيضاً ـ بدا أن إرادة عنكبوت الموت الباحثة، تتمتّع بقدر من الكفاءة، أدّى إلى تضخيم مشاعرهم، وإحداث نوبات لاإرادية من الخوف. ظل نيال وحده هادئاً، ومتحكماً في نفسه. فقد سيطر على ذهنه إلى حدّ ما، وبدا الضوء يتوهّج داخل رأسه، وشعر بأنه منفصل بشكل غريب عن المحيطين به، بل وعن شخصيته ذاتها.

بدا مجسّ الخوف متردداً، كما لو كان يتوقّف لإصاخة السمع. بيد أن الجميع تمكنوا الآن من السيطرة على خوفهم، وبدا الجحر ممتلئاً بصمت مرتجف. تنفّست الفتاتان في سلام. وعندما ابتعد مجسّ الخوف، مثلما يضمحلّ الصوت في المدى... زفر نيال زفرة رضا مقتضبة. لو أن الفتاتين يقظتان، لكان رعبهما قد أعلن عن وجودهم للعناكب، في صورة موجات من الهستيريا؛ وهكذا وشى المئات من الأطفال الآخرين بعائلاتهم بشكل لا إرادي. كان لعصير نبات الأورتيس بركة كبيرة، حتى على الرغم من أنه قد أودى بحياة عمه «ثورج» وابن عمه «هرولف»، حين تغلب النبات عليهما، والتهمهما.

غزت مجسّات الخوف الجحر خمس مرات أخرى في ذلك اليوم، إلا أن أذهان

البشر كانت ماتزال مثل أجسامهم، فلم يَشِ صدى الخوف بوجودهم. شعر نيال كما لو أنه قد تحوّل إلى حجر، وهو يستند على جدار الجحر الأملس، المكوّن من حبّات الرمل المتماسكة بفعل لعاب الخنافس النمرية.

عندما مرّت الساعات، ارتفعت الحرارة في الجحر بصورة مطّردة. لقد اعتادوا، في الظروف العادية، إغلاق المدخل بفروع الأشجار والصخور، بينما تقوم الرياح بإكمال العمل، وذلك بملء الشقوق بالرمال. لكن أولف كان يودّ رؤية المناطيد العنكبوتية وهي تقترب، ذلك أنه من الأيسر مقاومة مجسّات الخوف عندما يتوقّعونها. لذا فقد تُرك المنفذ تحت الحجر المسطّح مفتوحاً، وهبّت رياح الصحراء الساخنة لتدخل الجحر، حاملة الرمال التي فرشت الأرض. تصبّب العرق من الطفلتين النائمتين، أما الكبار فلم يبدوا اهتماماً بالحرارة. ذلك أن التوتّر جعلهم على درجة عالية من اليقظة والانتباه. جلبت سيريز الطعام مرتين أثناء النهار ـ كمشرى شوكية، ولحوماً مجففة من القوارض الصحراوية ـ لكنهم أكلوا كميات ضئيلة منها، حيث تركزت عيونهم على السماء الزرقاء.

عند العصر، كان نيال مايزال يراقب الوضع، عندما شاهد منطاداً يلوح في الأفق. بعد دقائق، بدا منطاد آخر على يساره ثم ثالث على يمينه. امتلأت السماء بعد ذلك بالمناطيد ـ توقّف عن العدّ عندما وصل إلى الرقم عشرين. أصاب العدد الكبير قلبه بالانقباض. همس منادياً الآخرين، فانضمّوا إليه، ووقفوا على بعد بضعة أقدام من الفتحة، حتى يتمكنوا جميعاً من رؤيتها.

قال أولف بهدوء: لماذا هذا العدد الكبير؟

شعر نيال بالحيرة، إزاء عدم تمكن أبيه من معرفة الإجابة. فقد عرفت العناكب أن عيوناً بشرية تراقبها. لا بد أن الأمر قد أثار حنق سادة الموت، عندما عرفوا أن ضحاياهم يراقبونهم من مخبأ ما في الصحراء، وأنه ليست هناك وسيلة لإخراجهم إلى العراء. فجاء هذا السرب من المناطيد بهدف إثارة رعبهم. كان من الممكن أن ينجح في هدفه إذا ما أتى من اتجاه آخر، حيث لا يمكن مشاهدته وهو يقترب. بيد أنه خلال الدقائق الخمس أو نحو ذلك، التي استغرقتها المناطيد للمرور فوق الرؤوس، كان أمام المراقبين الوقت للسيطرة على خوفهم. راحت الرياح تهبّ، الأمر الذي جعل المناطيد تمرّ مسرعة. طعنهم الخوف للحظة، وبدا أنها تلقي ضوءاً عليهم مثل الكشّاف، ثم ابتعدت عنهم.

كان بمقدور نيال أن يرى، من موقعه الممتاز على جانب الفتحة، المناطيد وقد انتشرت بطريقة متعرّجة متناسقة. عرف بغريزته سبب ذلك. فمنطاد بمفرده، لن تسنح له

فرصة تحديد مكان ضحيته، تحديداً دقيقاً. فقد كانت قدرات المناطيد على المراقبة تمتدّ إلى أسفل بطريقة مخروطية، وما لم يتركّز انتباه العنكبوت على النقطة المحدّدة التي تلقّى منها الصدى، فإنه لن يتمكّن بأية طريقة، من معرفة مصدره بالتحديد. فقد يكون قد صدر من نقطة تبلغ مساحتها ميلاً مربعاً. ولكن إذا ما تلقّى العنكبان الصدى في وقت واحد، فإنه بإمكان كل منهما أن يحدّد اتجاهه، ويمكن أن تكون ضحيتهما، في موقع يلتقي فيه الصَدَيان. وإذا ما تلقّى أكثر من منطادين الصدى، فإن مصدره سيكون أكثر وضوحاً.

جعلت هذه المعرفة نيال، يشعر بارتياح غريب. فذلك يعني أنه بدأ يفهم ما يدور في عقول العناكب، وأنها لم تعد تشكّل بالنسبة له الرعب المجهول. بيد أن غريزته، حذّرته من المبالغة في الرضا عن نفسه.

عند العصر، تقلّبت الفتاتان، وتوهّج وجهاهما من الحرارة، بينما كان حلقاهما جافّين ـ وهي نتيجة طبيعية لتأثير عصير الأورتيس. أعطتهما سيريز ماءً، ثم عصارة الصبّار بنكهته القابضة، كعلاج خاصّ لهما. بعد ذلك أعطت الطفلتين المزيد من العصيدة المخدّرة، فراحتا في النوم مرّة أخرى. علا تنفُّس «مارا» ـ الطفلة الأصغر ـ بسرعة بينما كان شعرها الطويل مندّى بالعرق. جلست أمها وذراعها ممدودة فوقها في إيماءة حماية. كانت مارا هي الأثيرة لدى الجميع، وقد ازدادت حمايتهم لها، عندما كادوا يفقدونها. فمنذ ثلاثة أشهر، هاجمها عقرب أصفر ضخم وهي تلهو عند أجمة اليتوع. وسمع نيال، الذي كان يجمع نبات الكمثرى الشوكية، صرخات رونا، فوصل في الوقت المناسب، ورأى العقرب، وهو يختفي في مخبأ تحت صخرة، محاصراً جسد الطفلة بذنبيه الضخمين. أصابه المشهد بشلل كالصدمة. كان قد شاهد كثيراً، وبافتتان مرضي، عقرباً وهو يصيب أحد الكائنات بالشلل، بذلك الترقيص السريع لذيله، ثم يقوم بتمزيق الجثّة بمخالبه القصيرة القوية الموجودة تحت الفم، وبعد ذلك يحقن الجروح بأنزيم معيّن، يحوّل الأنسجة إلى سائل حتى يستطيع أن يشربه. كان همّه الأول الآن، هو أن يسرع، ويحاول سحب أخته، بيد أن مشهد تلك اللدغة الرطبة، على ظهر الكائن، حذّره من أن هذا قد يكون انتحاراً. جرى عائداً إلى الجحر، ونادى أباه. تصرّف أولف بطريقة رجل، اعتمدت حياته، في أغلبها، على رباطة الجأش. دعا ڤيج قائلاً: «أشعل ناراً بسرعة!». بدا الأمر، وكأن وقتاً طويلاً قد مضى، قبل أن يظهر ڤيج من الجحر حاملاً مشعلاً من الحشائش. اندفعوا ـ حاملين بين أذرعهم الحلفاء الجافّة، التي تشبه القشّ ـ متعثّرين بالصبّار في طريقهم، إلى مخبأ العقرب، الذي يقع تحت حجر ضخم مسطّح. كانت الحشرة بانتظارهم، واستطاعوا أن يروا، صفّ عيونها وهي تلمع في الظلام، وراء ذنبيها

الضخمين. أوشك المشعل على الانطفاء، نفخ أولف فيه ليشعل الحلفاء، ثم اندفع، دون تردّد، نحو مدخل المخبأ.

أصدر العقرب فحيحه الجافّ المتوعّد، وتقهقر أمام اللهيب والدخان. ورفس أولف الشظايا المحترقة إلى داخل الجحر، ثم قفز إلى جانب، عندما اندفع العقرب إلى الخارج، وهو يُعدّ ذنبيه لتوجيه السمّ. كانت حركته غير رشيقة، بالمقارنة إلى الإنسان بسبب ذنبيه الضخمين، اللذين يماثلان ذنبي جراد بحر هائل. اندفع ڤيج للأمام، ومعه المزيد من الحشائش المحترقة، التي قذفها بين الذنبين، وتنحّى جانبا لتجنّب اندفاعه القويّ. أصدر العقرب فحيحاً غاضباً، محاولاً العودة نحو جحره تدفعه غريزته. إلا أنه عدل عن ذلك، بعد أن لوّح أولف بمشعل محترق. عرف نيال ما الذي سيفعله. فاندفع داخل الجحر، وتوقّف للحظة، بين القشور الفارغة للخنافس، ثم التقط أخته، وانطلق بها للخارج. ورأى العقرب ضحيته تهرب، فاندفع نحو نيال. وقفز ڤيج للأمام، ورشق رمحه بين قرني العقرب. سلّم نيال الجسد البارد، الذي مايزال صغيراً، إلى سيريز، وعاد ليرى عدوّهم، وهو يعدو مبتعداً في الصحراء. قال ڤيج بعد ذلك، إن رمحه قد فقأ اثنتين من عيونه.

بدا الأمر كما لو أن مارا قد ماتت. فالجسم العاري الأبيض كان بارداً ومشبعاً برائحة جحر العقرب الغريبة. لم يكن هناك ما يشير إلى أن ضربات القلب مستمرّة. إلا أنها بدأت، بعد يومين تتنفّس مرة أخرى، واستطاعت بعد أسبوع، أن تجرّ نفسها فوق أرضية الجحر. استغرق الأمر شهراً آخر، حتى اختفى تأثير السم بالكامل. كانت الدلالة الوحيدة على حادث العقرب هي وجود ندبة سوداء على ظهرها.

جاءت الموجة الرابعة لمناطيد العناكب بعد ساعة. وضع أبوه يده على كتفه بخفّة، فأدرك أن النعاس غلبه. وشعر، وهو ما يزال آمناً، بعد هدأة الإغفاءة، بالخوف يمرّ فوقه، مثل موجة باردة، أوقفت شعر ذراعيه. وحينما مرّت، أحس أنه من الغباء أن تكرّر العناكب ذلك. فهي بهذا تجعل البشر يعتادون الخوف، وتعلّمهم كيفية مقاومته. وأدرك أن العناكب ليست بمستوى الذكاء، الذي اعتقده دائماً.

كانت المرّة الأخيرة، أسوأ الموجات. فقد حدثت عندما أضفى الغسق على السماء لوناً أزرق قاتماً. أخذت الرياح تعصف، وبدا من غير المرجّح أن تشنّ العناكب حملة استطلاع أخرى. سمعوا جلبة فوق سقف الجحر، تحدثها حشرة ضخمة، قد تكون عقرباً أو خنفساء نمرية، أو حتى عنكبوتاً جملياً يجرّ ضحية ثقيلة. كان الصوت مصدراً لتشتيت الانتباه، لقي ترحيباً بعد ساعات من الصمت، فأرهفوا السمع لصوت الحشرة، التي تتحرّك باتجاه الجحر. جفل ڤيج، الذي كان يقف مراقباً، وشاهدوا، من فوق رأسه، المناطيد وقد أصبحت على ارتفاع عشرة أقدام من أرض الصحراء، وتنحرف باتجاههم. تساقطت، في اللحظة ذاتها،

الرمال من الفتحة، وبدا أمامهم فكّا العقرب، الشبيهان بفكي جراد البحر. لم يثر هذا ذعر أحدهم، فقد افترضوا أنه في سبيله للبحث عن طعام. بيد أن العقرب توقّف، وتساقط المزيد من الرمال في الجحر. تحرّكت الصخرة المسطّحة، فأدرك نيال، وهو غير مصدّق، أن هذا الكائن يسعى إلى اقتحام الجحر. ومع تزايد اقتراب المناطيد، أدرك أنهم يواجهون أسوأ ما يمكن أن يحدث. كان بمقدوره أن يشعر بذعر الآخرين، المتضخّم بالقلق من أن يشي بهم خوفهم. بدا الأمر للحظة، كما لو أن العناكب قد انتصرت.

تصرّف نيال لاإرادياً، دون أن يفكّر: وانتصب رمح أولف في مواجهة الجدار. كان رأسه مصنوعاً من عظم ابن آوى الحادّ كالإبرة. لم يجرؤ أولف أو ڤيج على استخدامه، خوفاً من أن يشي بهم الاندفاع العدواني، ويكشف عن وجودهم للصيادين. وأغلق نيال، بصورة طبيعية وتلقائية، عقله، كما لو كان يرسم مصراعاً على أفكاره ومشاعره. ثم خطا خطوة واسعة باتجاه المدخل، دافعاً ڤيج إلى أحد جوانب الجحر، ضارباً بكل قوته بين الفكّين، اللذين كانا يقومان بتوسيع المدخل. أصدر الكائن فحيحاً، وانبعث منه رائحة مقزّزة، فانسحب بارتداد خاطف، فتمكنوا من رؤية أقرب منطاد، وهو يحلق على بعد نحو مئة متر فقط، وينحرف باتجاههم. تجمّد نيال في مكانه، وواصل حماية ذهنه من أشعّة الإرادة العنيدة الباحثة. تحرك المنطاد فوقهم، وبات قريباً للغاية، حتى أوشك على الاقتناع، بأنه يشعر بتنفُّس الكائن، ووجوده المادّي. ولكنه مضى بعد ثوانٍ قليلة. ظلّوا كذلك عشر دقائق أخرى أو نحو ذلك، جميعهم يشعر بالخوف من أن تكون العناكب قد حدّدت موقعهم، وسوف تهبط في الصحراء وتحاصر الجحر. عندما مرت الدقائق ببطء، تراجع القلق. أطلّ نيال برأسه خارج الجحر، فرأى المناطيد وهي تبتعد، وسط الشمس ذات اللونين الأحمر والبنفسجي، الغاربة وراء الجبال. كان العقرب قد اختفى أيضاً. أما رأس الرمح فقد تلطّخ بالدماء، المختلطة بمادة بيضاء تشبه القيح.

وضع أولف ذراعه حول كتف نيال واحتضنه قائلاً: «أحسنت صنعاً!». وبدا الإطراء، الذي اعتاد أولف على قوله، للإشادة بطاعة أولاده لأوامره، غيرَ ملائم، بيد أن نيال فهم الامتنان الذي يكمن وراءه، وأحسّ بنوع من الفخر.

بعد ذلك بعشر دقائق، حينما أرخى الليل الاستوائي سدله بشكل مفاجىء، غرقوا في الظلام، كما لو أنهم وسط مياه سوداء. أغلق أولف وڤيج المدخل بالصخور والأحجار. ثم أضاء ڤيج السمار الذي يشتعل بدهن الحشرات، وتناولوا وجبة من لحوم مجفّفة وفاكهة الصبار. جلس نيال قابعاً في ركنه، وهو يشاهد ظلالهم على الجدار، شعر بالارتخاء الناجم عن الإجهاد. لقد عرف أن ما قام به أنقذ حياتهم، وأن الآخرين يدركون ذلك. لكنه عرف أيضاً أنه من المحتمل أن يكون مسؤولاً عما حدث اليوم. فقد قتل عنكبوتاً قاتلاً.

- ٢ -

كانت عشر سنوات قد انقضت تقريباً، منذ أن انتقلت أسرة نيال إلى الجحر. عاشوا قبل ذلك، في كهف عند سفح الهضبة الداخلية الكبيرة، التي تبعد نحو عشرين ميلاً إلى الشمال. وكانت درجة الحرارة تصل عادة إلى المئة خلال النهار، حتى مع سدّ مدخل الكهف بالأحجار وشظايا الصخور. وقد أمضى الرجال، الكثير من الوقت في حملات للبحث عن الطعام، وذلك لندرته. ووفّر المنطاد العنكبوتي، الذي هرب على متنه جومار، خيوط الحرير لعمل مظلاّت مؤقتة، تقيهم قيظ الظهيرة. وعثروا في مكان قريب من جدول جفّ ماؤه، على نباتات الصبار البرميلي، الذي تصلح عصارته للشرب (بعكس عصارة الصبار الإبري السامّة). ومع ذلك، فقد أصبحت الحياة بالنسبة لهذه المجموعة الصغيرة من البشر ـ وكان يعيش معهم في تلك الأيام «ثورج» وزوجته «انجيلد» وابنهما «هرولف» عبارة عن بؤسٍ متواصل: عطش وجوع شديدان، وحرّ لافح.

وفي وقت مبكر من أحد الأيام، شاهد الصيادون، بعد أن ابتعدوا عن بيتهم مسافة أكبر من المعتاد، خنفساء نمرية ضخمة، تختفي في جحرها تحت الأرض. كانت هذه المنطقة تبدو كالجنّة، بالمقارنة مع بيتهم عند سفح الهضبة. فقد دلّ نبات الوارو على وجود مياه عذبة، في حين كشف اخضرار حشائش الحلفاء الشديد، أن الليل قد أتاهم بالندى على شكل رذاذ رقيق. واستغلّوا هذه الحشائش في عمل حبال للفخاخ، أو جدلها لتصبح سلالاً وحُصُراً، واستخلصوا الزيت من حشرة الزُرَّاح.

شعر الرجال بالضجر والإرهاق بفعل القيظ، وربما كان هذا هو السبب الذي دفعهم لمهاجمة خنفساء نمرية كان بإمكان فكّيها تمزيق ذراع رجل أو ساقه، ولذا فقد خشيها الرجال بسبب رشاقتها، وسرعتها، وقوة فتكها. وكان نيال قد رأى في إحدى المرات،

خنفساء تقتنص اثنتي عشرة ذبابة ضخمة، وتلتهمها في أقل من نصف ساعة. ولكن إذا تمكنوا من إخراج الخنفساء من جحرها، ومهاجمتها لحظة محاولتها الخروج من المدخل الضيق، فإن الفرصة ستسنح أمامهم، لقتلها قبل أن تتمكن من استغلال سرعتها.

كانت الخطوة الأولى هي جمع كومة من شجيرات «الكريوسوت» اقتلعوها من الأرض، مستخدمين المُدى الصوّانية. وكانت هذه الشجيرات، ذات الفروع الهشة والرائحة القطرانية العفنة التي تنبعث من أوراقها، تتوهّج مثل شعلة بعد تعريضها للشمس، ساعات قليلة لتجف. وقد جمعوا أيضاً أكواماً من حشائش الحلفاء، وأثقلوها بالأحجار، لمنعها من التطاير. ثم جمعوا ما استطاعوا أن يجدوه من أكبر الأحجار، وراكموها على شكل أكوام، بجانب ملجأ الخنفساء. وقد راقبتهم الحشرة من ملجأها، مدركة كل تحركاتهم، لكنها لم تقم بأية محاولة للخروج، فقد كانوا كثيرين. وعندما دنا هرولف، اندفع للخارج فكّان مهدّدان، على شكل مخلبين من تحت الحجر، الذي يغطي المدخل.

أصبح من المستحيل مواصلة العمل أكثر من دقائق قليلة في المرة الواحدة، حيث أخذت الشمس ترتفع في السماء. كان عرقهم يجفّ ويتبخر، قبل أن يشعروا به، رغم احتمائهم بظلال نباتات الصبار الإبري.

عندما صارت الشمس فوق رؤوسهم مباشرة، ربضوا تحت ظلال مظلاّتهم، وأخذوا يرتشفون الماء بكميات ضئيلة، حتى لا يصابوا بالجفاف.

تراجعوا إلى أيكة الصبار، كي تشعر الخنفساء بالأمان. وعند الأصيل، رأى جومار أن الوقت قد حان للهجوم؛ حيث لا يتوقع أي كائن صحراوي خطراً في هذا الوقت من النهار. وأشعل ناراً، مستخدماً رقائق لحاء الأشجار الجافة، ثم أشعل كومة من حشائش الحلفاء. وكانت أشعة الشمس شديدة، فلم تظهر ألسنة اللهب، ولكن عندما امتدّت النيران لشجيرات الكريوسوت، تطاير الدخان الأسود في الهواء. كانوا يدركون أن هذه أكثر اللحظات خطورة؛ فقد ترى دورية بعيدة للعناكب الدخان. وكان أن أمسكوا الشجيرات المحترقة من جذورها بخفة، وجرّوها فوق الرمال. ورفع أولف، بحركة واحدة قوية من رمحه، الصخرة التي تغطي المدخل، واستعد الجميع لاندفاع الخنفساء المفاجيء. ولكنها لم تفعل، فدفع جومار بشجيرة الكريوسوت داخل الفتحة، وحذا الباقون حذوه، ثم ابتعدوا مترنّحين، أعينهم تفيض دمعاً ووجوههم مبلّلة بعرق غزير.

ربما تكون نصف دقيقة قد مرّت، قبل أن تظهر الخنفساء، مترنّحة بفعل اللهب والدخان الأسود. وبعد أن تحرّك الحجر الذي يغطي المدخل، أصبحت الفتحة أعلى

وأضيق، لذلك كان على الخنفساء أن تتخبّط لتخلّص نفسها. انتظر ثورج، الذي وقف فوق المدخل رافعاً ذراعيه فوق رأسه، إلى أن ظهرت بوضوح، قبل أن يدفع بالحجر الثقيل إلى أسفل بكل ما أوتي من قوة وضرب الحجر الصدر خلف العيون الناتئة مباشرة. وحطم آخر، ألقاه هرولف، قائمة أمامية عند المفصل. عندئذ نشرت الخنفساء جناحيها المخطّطين الضخمين في محاولة للطيران، فاندفع جومار إلى الأمام، وغرس رمحه في جوفها. تلوّت الحشرة من الألم المبرح، وأمسك الفكّان القويان بساق جومار الذي صرخ محاولاً تخليص نفسه. وبعد ذلك سقطت صخرة أخرى ضخمة، فأتلفت عيناً وهشّمت الغشاء السميك الذي يغطّي الرأس. وحرّر الفكّان جومار، الذي كان ينزف بغزارة من جرح في فخذه. ثم دفع هرولف برمحه عميقاً داخل اللحم، حيث يتصل الجناح بالجسم. واهتزت الخنفساء بطريقة متشنّجة، فأطاحت بأولف وجومار على الأرض، وانقلبت على ظهرها لتستقرّ على بعد عدة أمتار، مستمرّة في الارتجاف لمدة خمس دقائق أخرى.

حدّق ڤيج داخل الجحر، فلاحظ حركة خلف شجيرات الكريوسوت المحترقة. قال: «توجد أخرى هنا». وسرعان ما أخذوا حذرهم، مستعدين لهجوم آخر. بيد أنه لم يظهر شيء. واتجه جومار، وهو يعرج إلى ظلّ إحدى المظلات، فتناول جرعة كبيرة من الماء. وتولّى هرولف الجرح بعنايته، في حين أشعل الآخرون ما تبقى من شجيرات الكريوسوت، وقذفوا بها داخل الجحر. ثم تمدّدوا هناك، بعد أن أحسّوا فجأة بالإرهاق نتيجة للحر الشديد، وأخذوا يترقّبون ما يحدث وهم يلهثون. بعد نصف ساعة، عندما احترقت شجيرات الكريوسوت، وتحولت إلى رماد، كانت هناك حركة عند مدخل الجحر، وصهر القرنان الطويلان لحشرة. جرّت الخنفساءة، التي كانت أصغر كثيراً من زوجها المقتول، نفسها خارج الفتحة، تتبعها ست يرقات طول كل يرقة نحو قدمين. قال ڤيج، عندما وصفها بعد ذلك لأخيه الأصغر، إنه شعر فجأة بالأسى حيال الخنافس، على الرغم من إدراكه، أنه في حالة اقترابه منها، سيتعرض للهجوم، حتى من اليرقات. شاهد الرجال الخنافس وهي تجرّ نفسها فوق الرمال المحترقة، وتتحرك باتجاه أخدود على بعد نصف ميل. كانت تتصرف وكأن كارثة طبيعية قد حلّت بها، بينما حرّكتها غريزة واحدة فقط، هي الحفاظ على النفس.

عندما قاموا، في وقت لاحق، باستكشاف الجحر، أدهشهم مدى عمقه. كانت نظرية جومار، أنه استخدم فيما مضى عريناً لعائلة من العناكب الذئبية. لقد كان بالفعل كهفاً تحت سطح الأرض، جدرانه متماسكة بخليط من الرمال، ولعاب الخنافس. تمدّدت يرقتان، على وشك الموت، في أعمق موضع من الجحر، منهكتين بفعل الدخان. وقد

دفعت رياح الصحراء التي تهبّ مباشرة على المدخل، بالدخان والشرر وكأنه غاز سامّ. وقتلوا اليرقتين، وألقوا بجثتيهما خارج الجحر - فلحم الخنافس النمرية ذو نكهة كريهة، مما جعلها غير مستساغة كطعام. ثم سدّوا المدخل، وغرقوا في نوم عميق، في هوّة العرين الباردة التي مازالت تنبعث منها رائحة عفنة وكريهة بسبب الكريوسوت والدخان.

في اليوم التالي، قبل بزوغ الفجر بساعتين، انطلق أولف وثورج وهرولف لإحضار النساء ونيال البالغ من العمر سبع سنوات، من الكهف عند سفح الهضبة الداخلية. وقد مكث كل من جومار وفْيج في الملجأ، خوفاً من محاولة الخنافس النمرية، استعادة عرينها - ولكن ذلك لم يحدث. ففي وقت لاحق، اكتشفوا أن الخنفساء النمرية، تشعر بكراهية فطرية عميقة تجاه رائحة الكريوسوت المحترق، وأنها لن تعبر شريطاً من الأرض يكون لهذه الشجيرات أي أثر عليه.

وكان مايزال بمقدور نيال أن يتذكر انفعاله الشديد، لدى عودة أبيه. كان أول إحساس حميم شعر به عندما بدأت إنجيلد، زوجة ثورج، في البكاء ثم العويل، لما رأت ثلاثة رجال فقط، وافترضت أن الاثنين الآخرين قد قُتلا. وعندما وصل الرجال ووصفوا بيتهم الجديد، أصيبت بحالة من الهستيريا من شدة الانفعال - فقد كانت دائماً إمرأة ضعيفة السيطرة على عواطفها - وأرادت أن تنطلق في الحال، وبذلوا جهداً كبيراً لإقناعها وإفهامها بأن أحداً منهم لن يبقى على قيد الحياة، إذا رحلوا في قيظ الظهيرة. مع ذلك ظلت متكدِّرة، متبرمة بقية اليوم.

عندما رحلوا، في نهاية المطاف، قبل ساعتين من بزوغ الفجر، كان نيال أكثرهم شعورا بالانفعال. لقد اختاروا هذه الساعة للرحيل، حيث تكون معظم الضواري الصحراويه قد انتهت من صيد فرائسها أثناء الليل، وقفلت عائدة إلى جحورها قبل بزوغ الفجر. كانت درجة الحرارة عند نقطة التجمد تقريباً. وراح نيال يرتجف بصورة تعذّر معها أن يسيطر على نفسه، رغم أنه كان مختبئاً في لفافة، مصنوعة من جلود اليسروع. شعر، داخلها، بسعادة غامرة وهو يحدّق من فوق كتفي أمه - فقد كانت تحمله لبعض الوقت، في جراب. أمر مثير جعله يشعر كما لو أنه يعوم في الهواء، فقد ابتعد مرة واحدة فقط عن الكهف لمسافة تزيد عن بضع مئات من الأمتار. حدث ذلك في الأسبوع الذي هطلت فيه الأمطار. أصبحت الرياح باردة لطيفة، وجاءت السحب السوداء من الغرب، وفجأة انهمر الماء من السماء. كان نيال يقف في الأمطار الدافئة، يضحك ويقفز هنا وهناك، وأخذته أمه في نزهة إلى منطقة بها جدول جف ماؤه عند حافة الهضبة. وقف هناك وشاهد بذهول الأرض، وهي تجيش وتنفلق مفتوحة ليندفع منها ضفدع ضخم، وهو يشق طريقه للخارج.

حدث هذا في عشرة أماكن في التوّ واللحظة. وقفزت الكائنات إلى البرك التي بدأت تتكوّن، وفي الحال، كانت هناك جلبة لا تتوقف من أصوات نقيق مجموعة كبيرة منها، وهي تدعو إناثها لمشاركتها. افتتن نيال بالمشهد الهزلي الغريب، لأزواج الضفادع. وقهقه حينما غاصت قدماه في جدول الماء، الذي انبثق حوله. وبدأت النباتات والأزهار، تشق طريقها صاعدة، وسط الرمال، التي تحوّلت الآن إلى مستنقع من الوحل. ووقعت مئات من الانفجارات الصغيرة، عندما أطلقت القرنات الجافة، بذورها في الهواء كالرصاص. واكتست الأرض، في غضون ساعات، ببساط مدهش من الأزهار ذات الألوان البيضاء والخضراء والصفراء والحمراء والزرقاء والبنفسجية. وشعر نيال، وكأنه في أرض يسكنها الجانّ، حيث أنه لم ير أيّ لون بخلاف الأصفر المشوب باللون الرمادي، الذي تكتسي به الرمال والصخور، والأزرق الزاهي الذي تكتسي به السماء. وعندما توقفت الأمطار، ظهر النحل في كل مكان، واختبأ داخل الأزهار. وغصّت البرك البنّية اللون التي بدت مثل حساء الفطر، بأفراخ الضفادع، التي تتلوى وتتقلّب، ويلتهم بعضها بعضاً. وراح سمندل الماء الصغير، في برك أخرى أكثر صفاء، يلتهم الطحالب الخضراء. وغمر نيال إحساس بالنشوة، عندما وجد نفسه، فجأة، محاطاً بطبيعة مفعمة زاهرة، بعد أربع سنوات من العيش في قفر، لا حياة فيه. كما غمره الشعور بالسعادة، وهو يثب على ظهر أمه، أو يهرول إلى جانبها. لقد استخدم أبوه كلمة «خصيب» في وصف بيتهم الجديد، فتخيل مكاناً مليئاً بالأزهار، والأشجار، والحيوانات الصغيرة. وأيقظ ذلك في نفسه، توقّعات لا نهاية لها بقدوم معجزات. لو كان بمقدور أبيه ـ الذي قضى حياته بأكملها في الصحراء ـ قراءة ما يدور في ذهنه، لشعر بالأسف من أجله.

ـ حفر الرجال، رغم حرارة شمس الظهيرة اللافحة، حفراً عميقه، غطّوها بالمظلاّت، وأهالوا فوقها المزيد من الرمال. وجدوا أن الرمال رطبة، تحت السطح ببضع بوصات. رأوا، على مسافة تقلّ عن ميل، دعائم من الصخور الرملية المتآكلة، بفعل الرياح، يمكن أن تشكل ملجأ، ولكنهم أدركوا أنهم لن يتمكّنوا من الوصول إليها، وسط هذا الحرّ اللافح. وتمدّد نيال وأمه وأبوه في إحدى الحفر، وهم يتصبّبون عرقا، ويلوكون درنة ذات عصارة، كي يتجنّبوا الإصابة بالجفاف. غفا نيال قليلاً، فحلم بالأزهار، والمياه المترقرقة. ثم استأنفوا السير، من جديد.

غيّرت الريح اتجاهها، وبدت أبرد. وأشار نيال إلى الاتجاه الذي تهبّ منه، فسأل أباه: «ماذا هناك».

قال أولف: «الدلتا». ندّت عن صوته المتعب، نبرة عدم اكتراث، لكن شيئاً في تلك

الكلمة، جعل نيال يرتجف.

لقد شعروا جميعاً بالإرهاق، عندما وصلوا، قبل أن يرخي الليل سدوله بساعة. كان أول شيء وقعت عليه عينا نيال، عندما رأى بيته الجديد، أشجار السنط في الأفق، ثم نباتات الصبار الإبري الضخمة، بفروعها العديدة. لم يكن قد رأى من قبل شجرة على الإطلاق، رغم أن أباه، وصفها له قبل ذلك. وأصيب بخيبة أمل، لما دنا من الأشجار، حيث لم يجد الأزهار أو المياه الجارية التي رآها في الحلم. لكنه وجد، بدلاً منها، أرضاً صخرية قاحلة، تكسوها طبقة رقيقة من الرمال، بينما انتشرت شجيرات رمادية اللون، وشجيرات الكريوسوت، وحشائش الحلفاء، وصخور وأحجار. كانت تلك الأشجار، التي تماثل صبار اليتوع بأوراقها الخضراء الداكنة، هي الوحيدة التي تعطي أحساساً باللون. رأى، على مبعدة، المزيد من صفوف الصخور الحمراء، ذات الأشكال الغريبة والمشوّهة، وعندما تطلّع نحو الأفق الجنوبي خلف بيتهم، شاهد الهضبة الداخلية الشاهقة تشبه سلسلة من الجبال. وقد بدت، رغم كآبتها، أفضل من الكثبان الرملية اللامتناهية، التي يطلّ عليها بيتهم السابق.

خرج جومار وڤيج لاستقبالهم، رغم أن مدخل الجحر لم يكن مواجهاً للطريق الذي أتوا منه، لكن جومار شعر بوصولهم، عبْر ذلك الإدراك الطبيعي الحدسي، الذي يسلم به قاطنو الصحراء. وحتى لو كانوا يعرفون الكلمة، فلن يصفوا ذلك الحدس الغامض لبعضهم البعض، على أنه توارد خواطر؛ فهو بالنسبة لهم عملية طبيعية مثل السمع. وكانت عناكب الموت تتمتّع بذلك الحدس بدرجة مرعبة.

لم يستطع جومار المشي إلا بصعوبة؛ فقد تورّمت فخذه التي قبضت عليها الخنفساء النمرية بفكيها، حتى بدت مثل نبات يقطين أسود غريب الشكل. وغطّى ڤيج الجرح بجذور مسحوقة لنبات شيطاني، ينمو في الجوار، وله خواص علاجية قوية، بيد أنه لم يكن بإمكان ذلك النبات أن يشفي العضلة الممزقة، وسيضطر لأن يعرج بقية حياته. احتفلوا في تلك الليلة - أو على الأقل بدا الأمر وكأنه عيد لأناس، لم يتمكنوا مطلقاً من العيش فوق مستوى الجوع. كان ڤيج قد اصطاد بالرمح حيواناً ثديياً ضخماً يشبه السنجاب، وطها لحمه بوضعه على الصخور الملتهبة، عند الظهر. كانت نكهته جديدة تماماً لنيال، وكذلك فاكهة الصبّار، ذات اللون الأصفر والنكهة القابضة، وعصير الصبّار البرميلي. بدا واضحاً، بالرغم من المنظر الكئيب والمقفر لهذا المكان، أنه ينبض بالحياة بمعدل يزيد كثيراً عن الهضبة الداخلية، إلا أنه أكثر خطورة من الجحر السابق. وأدرك جميعهم ذلك، فقد امتلأ المكان بعقارب الرمال، والخنافس النمرية، والجعلان

المخططة بزبانيها السامّ، والدود الألفي، وعناكب الرمال الرمادية، التي لم تكن سامّة، ولكنها بالغة القوة والسرعة، وبمقدورها تقييد كائن بشري في حريرها اللزج في أقلّ من دقيقة.

كانت هذه الحشرات الضارية، لحسن الحظ، تواجه حشرات أخرى أكثر ضراوة منها. فقد كانت العناكب ضحيّة لدبور يدعى «بيبسيس» أو صقر العنكبوتة الذئبية، وهو حشرة لا تزيد كثيراً عن حجم يد الإنسان، تشلّ العناكب بزبانيها ثم تستخدمها بعد ذلك كمكان لمعيشة يرقاتها الدودية وإطعامها. وكان العنكبوت الجملي الضخم، وهو حشرة كريهة تشبه الخنفساء لها فكان كبيران، وتستطيع العدو بسرعة تجعلها تماثل كرة من زغب النباتات الشائكة تطيّرها الرياح في الصحراء، ينظر إلى معظم الحشرات والثدييات الصغيرة في الصحراء، على أنها من حقه ومباحة له. أما الأمر الذي يدعو للاستغراب، فهو أن العناكب الجملية لم تقم بأية محاولة للهجوم على بني البشر، وغالباً ما انتاب نيال، وهو يراقبها، احساس بأنها خيّرة بشكل غامض، لأنها تنظر إلى الإنسان على أنه حليف أو كائن رفيق من نوع ما، رغم أن بإمكان فكيها اللذين يشبهان فكّي الحوت شطر إنسان.

قضى نيال أيامه، لأسابيع عديدة، بعد أن انتقلوا لأول مرة إلى الجحر، محملقاً للمدخل وللحشرات التي تمرّ أمامه. لم يكن هناك الكثير منها ـ فخلال حرّ النهار، تتقهقر معظم الكائنات الصحراوية إلى جحورها ـ ولكن بالنسبة لطفل ترعرع في كهف يطلّ على كثبان لا تنتهي من الرمال، فقد بدا الأمر كما لو أنه عرض للصور. تعلم أن يميّز بين العديد من الكائنات من صوتها، لذا فإنه كان يميّز على الفور حركة عقرب أو عنكبوت صحراوي من حركة خنفساء نمرية أو دودة ألفية. وعندما ترامى إلى مسامعه، صوت حركة عنكبوت جمليّ، أدرك أن المغامرة بالخروج ستكون آمنة تماماً؛ فمعظم الكائنات الضخمة تبتعد عن طريقه.

خلال الأيام الأولى، كان يُترك بمفرده لفترات طويلة. فقد ابتهجت النساء بظروف البيئة المتنوعة، وكن يردن استكشاف ما حولهن. وبالنسبة للعين المتحضّرة، قد تبدو هذه المنطقة من السهول ذات الشجيرات القابعة على حافة الصحراء، منطقة موحشة منعزلة، ولكنها كانت تبدو للبشر الذين عاشوا في الصحراء القاحلة، وكأنها جنّة عدن. كانت الشجيرات العديدة تثمر فاكهة شائكة ذات قشور سميكة يتعيّن قطفها بحذر، ولكن ثبت أن بها الكثير من المواد التي تصلح للأكل عندما تنزع عنها القشور. أما النباتات بنية اللون، التي تبدو كالميتة، فكانت ذات جذور تماثل الدرنة وتختزن المياه. ويكون هذا السائل، في بعض الحالات، مريراً وكريهاً للغاية يحول دون شربه، بيد أنه يمكن استخدامه في

تهدئة البشرة. تجوّلت سيريز وإنجيلد، يحرسهما الرجال، بعيداً عن الجحر، حاملتين السلال المجدولة بحشائش الحلفاء، ثم عادتا وفي سلالهما كل ما لذّ وطاب من صنوف الطعام. وقد أصبح الرجال خبراء في إعداد المصايد، وغالباً ما يصطادون الأرانب البرية، السراقيط(*) وحتى الطيور. أصبحت إنجليد، بدينة بشكل ملحوظ، إذ كانت شرهة دوماً.

وقد طلبوا من نيال البقاء في أعماق الجحر، في الوقت الذي تكون فيه العائلة في الخارج، بيد أنه قام، لحظة رحيلهم عنه، بتندية الفروع والأحجار التي غطّت المدخل، ووقف فوق صخرة ضخمة، محدقاً في الكائنات الغريبة التي تمر أمامه. وإذا حاولت نملة، أو دودة ألفية أن تشقّ طريقها إلى الداخل، كما كان يحدث أحياناً، فإنه يثبط همتها، بدفع الرمح خارج الفتحة، وبمجرد أن تدرك أن الجحر مشغول، تسرع مبتعدة.

كان إحساس نيال بالخطر فيما مضى متضخماً، وغير واقعي. ففي البداية، شعر بالخوف من أيّ شيء يتحرك، لكنه بات واثقاً من نفسه أكثر من اللازم، عندما أدرك أن معظم الكائنات الصحراوية تخشى المجهول وتفضّل تجنّب المتاعب. وقد شعر ذات صباح بالملل من استمرار لعبة النظر خلال الفتحة، فقرّر القيام بجولة استكشافية. أغلق الجحر خلفه بعناية، ثم تجوّل بين نباتات الصبّار الإبري. ونظراً لأن الوقت مايزال مبكراً، فقد امتلأت كأس نبات الوارو إلى نصفها بالندى، الذي كان لذيذاً وبارداً على حلقه. وعثر على شجرة كمثرى شوكية، فحاول قطف إحدى ثمارها، لكنه أدرك أنه نسي أن يحضر معه نصلاً صوانياً، فالنبات شائك للغاية على أصابعه الصغيرة. وانحنى فوق نبات شيطاني، ففتنه شكله الغريب الذي يماثل المخلب. وسار نحو نبات اليتوع، الذي نما على بعد بضعة أقدام من الجحر، وبعد أن تأكد من عدم وجود كائن مختبىء وسط فروعه، تسلّقه ليجد نفسه في مكان مرتفع مريح، يشبه القفص، إلى جانب أنه أفضل كثيراً من مدخل الجحر، حيث أتاح له الرؤية لأميال. عندما جاءت خنفساء نمرية، لتستريح في ظلال اليتوع، كاد تنفُّسه يتوقّف، ثم استنتج أن الخنفساء، قد تكون واحدة من السكان الأصليين للجحر جاءت لتعتني ببيتها، وعليه أن يقاوم الخوف. وحطّت ذبابة ضخمة، يزيد طولها عن ثلاث بوصات، فوق فرع متدلٍّ، ونظفت قائمتيها الأماميتين. وشبّت الخنفساء النمرية فوق الأرض، بسرعة مذهلة. وعلى الرغم من أن الذبابة توقّفت عن الحركة، وبدأت ترتفع، إلا أنها تأخرت كثيراً، واختفت بسرعة داخل فكّي الخنفساء. انتابه

(*) السرقاط حيوان ثديي يعيش في جنوب أفريقيا.

الذهول، وهو يرى الخنفساء تمضغ الذبابة، وتلوكها بجلبة مقزّزة ثم تبتلعها. ومال إلى الأمام حتى يرى بشكل أفضل، فزلّت قدمه. ودفعت الخنفساء نفسها لأعلى، مستخدمة قائمتيها الأماميتين، وحدقت في الشجرة بعينيها الناتئتين اللتين تماثلان الزرّين. وتشبّث نيال بالفرع، وقد أحسّ أنه على وشك أن يُجرّ من عليائه، ويلتهم مثل الذبابة. وأخذت الخنفساء تحدّق فيه لفترة بدت كدهر، ورفرفت قرونها الطويلة بهدوء، ثم بدا أنها فقدت اهتمامها، وابتعدت متمهلة. لم يشعر نيال مطلقاً بمثل هذا الارتياح العميق. ومع ذلك، فإنه لم يكن للأحساس الذي مرّ به، عندما حدقت الخنفساء في عينيه، علاقة بالخوف، لكنه كان نوعاً من التجميد الغريب لأحاسيسه، كما لو أن كل أجهزة جسمه قد توقّفت عن تأدية وظائفها. وفي تلك الحالة التي كان عليها العقل، بدا أن كل شيء وقد اعتراه الصمت المطبق، وأن حالة تواصل قد أقيمت بينه وبين الخنفساء تماثل حالة التواصل مع أيّ إنسان آخر. مع ذلك، فقد هرع عائداً إلى الجحر بمجرد أن تأكّد من أن الخنفساء باتت بعيدة بالقدر الذي لن تستطيع معه الشعور بحركته، ومكث هناك بقية يومه.

بعد بضعة أيام، أنقذت الصدفة حياته. فبعد أن شُفي من خوفه، قرّر أن يذهب ليرى ما إذا كان هناك ماء في كأس نبات الوارو. وجدها فارغة ـ لا بد وأن كائناً آخر قد سبقه إليها ـ فقام بجولة بين شجيرات الصبار، ووقف يتطلّع إلى الصحراء. شاهد، على بعد مئات الأمتار، نباتات صبار أخرى من نوع مختلف، تتدلّى منها، عناقيد من الفاكهة القابضة التي كان مغرماً بها. لم يكن هناك خطر واضح، لذا فقد جلس تحت ظلال الصبّار، وحدّق في السهل الممتدّ أمامه. التقط دونما اكتراث حجراً مسطّحاً، وهزّه بين أصابعه، ووضع أصبع السبابة على حافته ثم قذف به، فدار في الهواء، وسقط على بعد عشرين قدماً، محدثاً سحابة من الرمال. في تلك اللحظة، حدث أمر ما، في غاية السرعة، فلم يصدق، عينيه. بدا أن هناك كائناً ضخماً يقف في مواجهته، وفي طرفة عين اختفى. حدّق بإمعان وقد تغضّن أنفه. لم يكن هناك شيء سوى الأرض الرملية المسطحة، التي تتبعثر عليها الصخور، الضاربة إلى السواد. وألقى بحجر آخر، وكان تصويبه جيداً؛ ولكن لم يحدث شيء، هذه المرة. أحس بسخونة الهواء، بفعل الحرّ، وتساءل، إذا كان ذلك الذي ظهر أمامه لبرهة، هو نوع من السراب. مع ذلك، باتت مساحة الأرض، التي تفصل بينه وبين نباتات الصبّار المثقلة بالفاكهة، تنقل الآن هواء عابقاً بالتهديد. وجلس ساكناً، ربما لمدة ساعة، مسنداً ذقنه على ركبتيه. ولمح، عندئذ، حشرة خلف الصبار، تشبه السرطان، يزيد طولها قليلاً عن قدم ـ سيميزها فيما بعد بخنفساء الظلام ـ ذات جلد أصفر يميل إلى الاخضرار، مماثل لجلد ضفدع الطين. تقدّمت بتمهل وبطء، وتوقّفت تحت الصبّار، لتدس رأسها داخل صدفة فارغة لخنفساء الروث. واصلت تقدّمها باتجاهه

مباشرة. فحبس أنفاسه عندما اقتربت من الموضع الذي سقط فيه الحجر. ثم حدث الشيء ذاته مرة أخرى. فقد بدا أن كائناً ضخماً، داكن اللون قد وثب بسرعة لا تصدّق، من على الأرض. توقّف الكائن، أثناء عملية اختطافه لخنفساء الظلام، لفترة كانت كافية كي يعرف أنه عنكبوت هائل مشعِر، يزيد طول جسمه ذي الفصوص على ثلاثة أقدام. اختفى في لحظة، وكأن باباً مسحوراً دوّاراً، قد أغلق خلفه. وبدت الرمال مستوية وساكنة. لو أن نيال قد ألقى نظرة خاطفة في البعيد، للحظة تماثل تلك التي يحتاجها لإدارة رأسه بدرجة ميل تسعين درجة، ما كان سيرى شيئاً. وعندما فكر فيما كان سيحدث له، إذا ما عبر تلك المساحة الخالية، شعر برعشة جليدية تعتري جلده.

حينما عادت أمه ـ حاملة سلّة نصف ممتلئة ببعض البذور البنية الملساء ـ حدّثها عن عنكبوت الباب المسحور، ورجاها ألا تخبر أباه، خوفاً من غضبه، وصفعاته التي تترك كدمات لا تختفي قبل أسابيع. لكن أولف لم يغضب، فقد أنصت باهتمام شديد، ثم طلب من نيال أن يحدّد له المكان الذي رأى فيه العنكبوت. ألقى أولف العديد من الأحجار الكبيرة، في محاولة لإغراء العنكبوت على الخروج من عرينه، في الوقت الذي وقف فيه ڤيج، وثورج وهرولف، على أهبة الاستعداد، شاهرين رماحهم. بيد أنه لم يحدث شيء، ومن المرجح أن يكون الكائن قد أدرك من الذبذبات السارية في الأرض، أن أعداءه كثيرو العدد. وتجنّب الرجال، فيما بعد، مساحة الأرض الممتدة ما بين شجيرات الصبّار.

مضى أكثر من أسبوع قبل أن يتركوا نيال بمفرده مرة أخرى في الجحر. وقد طلب منه أبوه، قبل أن يخرج، أن يعِده بالبقاء داخل الجحر، وألا يزحزح الأحجار، وفروع الأشجار التي تغطّي المدخل، مهما حدث. ووعد بكل إخلاص أن يفعل ذلك، من منطلق خوفه من أبيه. إلا أن الأمر الذي لم يضعه في الحسبان، هو شعوره بالتوتّر عندما يكون بمفرده. لقد تسلّلت أشعَة واهنة، وسط الظلام، فراح يتخيّل، وهو راقد على فراشه المكوّن من الحشائش، أن عنكبوت الباب المسحور يزحف باتجاه الجحر. وأقنعه صوت خفيض آتٍ من فوقه، بأنه تحت المراقبة. استلقى ساكناً، محاولاً التنفس بهدوء. ثم زحف نحو المدخل، ووقف فوق الحجر، محدقاً نحو الخارج. وقد اقتصر مجال رؤيته، على بضعة أقدام، فلم ير شيئاً، وشعر بأن العنكبوت ينتظر فوق سقف الجحر. بدأ يحس بألم في ساقيه، بعد أن ظل واقفاً لمدة نصف ساعة. فعاد بهدوء إلى فراشه، وتمدّد ممسكاً بالرمح، الذي كان موضوعاً بصفة دائمة، عند مدخل الجحر، لاستخدامه في حالة الدفاع السريع عن النفس.

تناهى إلى مسامعه، بعد نحو ساعة، صوت جعل قلبه يخفق بعنف. كانت هناك جلبة حفر آتية من الحائط وراء رأسه. فجلس وحملق فيه، متوقعاً أن يتصدّع، وتظهر قوائم عنكبوت الباب المسحور المشعِرة. مدّ يده، وتحسّس بحذر الحائط، فوجده صلباً، أملس، ومتماسكاً بلعاب الخنافس النمرية. تساءل: هل يمكن أن يتحمّل هذا الحائط هجوماً من الجانب الآخر؟ واستمرت الجلبة، فتقدّم نحو الحجر، واستعد لتنحية الفروع جانباً، والعدو للخارج. لكنه أدرك، وهو يحاول توسيع الفجوة، أن أباه قد حشر قطعة ملتوية من خشب السنط تحت الحجر، فأصبح من الصعب زحزحته. وبينما كان يدفعه، وهو يصرّ على أسنانه، اعتقد أنه سمع صوتاً خفيضاً آتياً من سقف الجحر. لقد صوّر له خياله، أن عنكبوتاً ثانياً ينتظر هناك، ليشنّ هجومه.

توقفت الجلبة الآتية من وراء الحائط، فمشى على أطراف أصابعه، حتى وصل إلى الجدار، ووضع أذنه على السطح الأملس. بدأت، بعد بضع دقائق الجلبة مرة أخرى. تخيّل وجود العديد من القوائم، فحاول أن يتذكّر كل ما قاله جدّه عن عناكب الجحور، التي تضطر إلى تغيير اتجاهها في النفق، إذا واجهت حجراً كبيراً. من المحتمل أن هذا قد حدث للكائن، على الجانب الآخر من الحائط، فقد أحس أنه تحرك بمحاذاة الحائط وليس باتجاهه.

استمرّت الجلبة، رغم أنها كانت أحياناً تتوقّف لدقائق، ثم تستأنف من جديد. راح يضع خطّة لشن هجوم على الكائن، فبمجرد أن يبدأ الجدار في التصدّع، سيندفع بالرمح بكل قوته، قبل أن يتاح له الوقت لتوسيع الفتحة...

أثار توتّره إحساساً غريباً داخل رأسه، وقد شعر بضغط كما لو أن قلبه يجتهد لدفع مزيد من الدم إلى المخ، ولم يختلف هذا عن الإحساس الذي يولده عصير نبات الأورتيس المخدّر. خفق قلبه بقوة، وراح يضغط بصورة مطردة على القفص الصدري. أدرك في الحال، أنه من الممكن أن يحدّد بدقّة موقع الكائن خلف الحائط، إذا ما ركّز اهتمامه على الضغط الذي يشعر به داخل رأسه، وعلى ضربات قلبه. راح يرهف السمع لأكثر من ساعة، وقد آستُنفِرت كلّ حواسّه. وخف إحساسه الأولي بالرعب - بعد أن أصبح واضحاً أنه ليست هناك أزمة عاجلة - بيد أن تركيز الانتباه المستمر دون توقّف، أدّى إلى تصاعد حدّة حواسّه، فأصبح يقظاً بشكل لم يحدث له من قبل. بدا الأمر كما لو أن نقطة ضوء صغيرة قد توهجت داخل رأسه. أثار هذا الإحساس انفعاله، فأوشك أن ينسيه خوفه من العدوّ غير المنظور. وبدلاً من أن تزداد خفقات قلبه بين ضلوعه، خفت وهدأت، حينما ركّز اهتمامه عليها. وأدرك أن بمقدوره السيطرة على قلبه - بجعل ضرباته تسرع أو

تبطىء، ترتفع أو تهدأ، حسبما يشاء. أثار هذا الإدراك، إحساساً غريباً بالتوافق، وبنوع من الثراء الداخلي. شعر، علاوة على ذلك، بنوع من التفاؤل الغريب تجاه المستقبل، يماثل سحابة باهتة لا شكل لها. وكان ذلك شيئاً في غاية الغرابة، إذ أنه لم يفكر بجدّية قط بشأن المستقبل. فقد عاش في الصحراء، بين أُناس لم يتحدّثوا مطلقاً أكثر مما ينبغي، حيث لم يكن هناك سوى القليل الذي يحفز خياله على أحلام اليقظة. كان من البديهيات التي يعرفها، أنه سيتدرّب على الصيد، بمجرد أن يبلغ رشده، ثم يقضي بعد ذلك حياته في البحث عن الطعام، والابتهال بأن يحقق نجاحاً في صيده. وتتركز حياة الصياد حول هاجس الحظ، وبالتالي ينتابه إحساس بأنه تحت رحمة الظروف. راوده إحساس غامض بأنه قد أصبح الآن محنكاً، وشعر بصعوبة ترجمته إلى كلمات، أو حتى أفكار. ومع ذلك فإن جوهر هذا الإحساس، هو اليقين بأن حياته ليست كلها تحت رحمة الظروف. أثار إحساس القوة الذي تولّد داخل رأسه، والذي يمكن أن يكثفه بشد قسمات الوجه وتقليص عضلات الجبهة، وهجاً من التفاؤل، وتوقّعاً لأحداث مثيرة. عرف أن القدر يخبىء له أمراً خاصاً.

بدأ الحفر مرة أخرى، فحوّل انتباهه إليه، ولكن هذه المرة من باب الفضول، وليس الخوف. كان قبل نصف ساعة يرهف السمع بنوع من الذعر الداخلي، كما لو أنه يفضل ألاّ يعرف ماهية هذه الجلبة. أما الآن، فإن الخوف مايزال موجوداً، لكنه سما فوقه، بطريقة أو بأخرى، كما لو أن هذا الخوف يعتري شخصاً آخر. وفيما كان يصغي، وقد تشكّل عقله داخل هذا الإطار، استطاع أن يدرك أن الحفر يقوم به كائن له قوائم وفكّان، على شكل أداة حفر. وذلك يشير بوضوح، إلى أنه خنفساء وليس عنكبوتاً. ثم بدا له، وبوضوح مفاجىء، وكأن عقله قد اخترق الأمتار متخلّلاً الأرض، أنه رأى جُعلاً بنّياً، يزيد طوله قليلاً عن ست بوصات، يشقّ طريقه تحت الأرض بحثاً عن نباتات مدفونة منذ زمن. تنّهدت فجأة الأنا الأخرى - الأنا السفلى - بارتياح. وتسرّبت نقطة الضوء إلى داخل رأسه. لم يعد، بعد الآن، شخصين، بل أصبح شخصاً واحداً، الصبيّ البالغ من العمر سبع سنوات المدعو نيال الذي تركوه بمفرده طيلة النهار، والذي يعرف الآن أنه في أمان، وأنه قد أصبح ناضجاً، وعلى قدم المساواة مع أبيه أو جومار، وربما أسمى منهما. وظلّت ذكرى كينونته واضحة وموضوعية، ولم تعد مثل حلم على الإطلاق. ذلك كان الصبيّ الذي بدا، بطريقة ما، غير واقعيّ.

ظلّت الكوابيس عن عنكبوت الباب المسحور تطارد نيال حتى جاء اليوم الذي قُضي فيه على ذلك العنكبوت.

فبعد مرور نحو شهر من رؤيته للعنكبوت، وهو يقتنص خنفساء الظلام، جلس في ظل نبات الصبّار الإبري، يشاهد جحره، والرمح يتمدّد عند قدميه. وأدرك أنه لو قرّر العنكبوت مهاجمته، فإن الارتداد والعدو لن يجديا فتيلاً، وأن فرصته المثلى هي مواجهته بالرمح. وقد أفزعته الفكرة، ولكن أوحت له غريزة عميقة، بأنه يتعيّن عليه أن يتعلم مواجهة خوفه. فقد شاهده، في الأسابيع الماضية، وهو يقتنص الحشرات والطيور، بل وعظاءة سامّة أيضاً.

طنّ دبّور بيبسيس ضخم، طوله نحو ست بوصات، متكاسلاً حول رأسه، وطار مبتعداً عندما هشّه بيده. كان كائناً جذّاباً يمتاز بجسم أزرق لامع، وجناحين أصفرين ضخمين. وانتابه إحساس غامض، بأنه خنفساء روث طائرة.

كتم بعد لحظة أنفاسه، عندما طنّ الدبّور ببطء فوق الباب المسحور للعنكبوت، وحام حوله ثم حطّ على الأرض، على بعد بضعة أقدام. وحدّق متوقعاً رؤية الدبور وهو ينطلق مذعوراً عندما يظهر له العنكبوت. لكن شيئاً لم يحدث. فقد استقر الدبور هناك، وهو غافل عن الخطر الذي يتربص به، وراح ينظف قائمتيه الأماميتين. وحملق بكل تركيز، دون أن تطرف عيناه، وتابع الحركة الطفيفة التي أحدثها العنكبوت، وهو يرفع بابه المسحور ليلقي نظرة على الدخيل، ثم أغلقه مرة أخرى. ظن نيال أن العنكبوت قد تناول وجبة عشاء مشبعة، جعلته لا يبدي اهتماماً بمجرد دبّور.

ما حدث بعد ذلك، جعله يلهث غير مصدّق لما يراه. فقد لاحظ الدبور بوضوح حركة الباب المسحور، فاتّجه نحوه، وتفقّده، ربما لدقيقة، ثم راح يحاول رفعه ليفتحه بفكيه وقائمتيه الأماميتين. توقع نيال أن يرى في أية لحظة، حركة تعشي البصر، يختفي على أثرها الدبور. لكن ما حدث فعلاً أثار دهشته، فتحرك للأمام عدة أقدام كي يتمكن من الرؤية على نحو أفضل.

نجح الدبّور في رفع الباب المسحور، وفتحه عدة بوصات، لكن نيال أدرك أن العنكبوت كان يشد الجانب السفلي ليبقيه مغلقاً. استمر الشد والجذب لفترة طويلة. وفي إحدى المراحل فاز العنكبوت، وأغلق الباب المسحور، لكن الدبّور رفع الباب بتأنٍ، وفتحه من جديد.

قرّر العنكبوت أن يقاتل. ارتفع الباب بعنف، على حين غرّة، فقفز الدبّور متقهقراً للخلف، وتقدم الجسم المشعر، الضخم ببطء نحو الخارج. وقف الدبّور في مكانه. معتمداً على قوائمه كلها، وكأنه يعوّض النقص في صغر حجمه. ومال العنكبوت أيضاً

للخلف، ليتخذ موقفاً دفاعياً، رافعاً قائمتيه الأماميتين فوق رأسه، فبدا كالمتضرّع الذي يبتهل لإنزال اللعنة على الدبَور. كان العنكبوت قد كشف الآن عن الزبانيين، اللذين يبدوان خطيرين، ونظراً لأنه يقف قبالة نيال، فقد استطاع أن يرى فكّيه الممتدّين. كان مشهداً مرعباً، لكن بدا واضحاً أن الدبور لم يكن خائفاً. فقد تقدّم، بحركة سريعة، وخطوات واثقة، باتجاه العنكبوت وكأنه يجبره على العودة داخل جحره. وقف العنكبوت على قوائمه حتى أنه علا حوالي متر فوق الدبور. وكان واضحاً أنه من الصعب الوصول إليه. لكن الدبَور اندفع كالسهم تحت البطن المقوّسة بحدّة وقبض بفكيه على القائمة الخلفية للعنكبوت، ثم ضرب، وهو مستلق على جنبه، بزبانيه إلى أعلى بين القائمتين الثالثة والرابعة. وفي المحاولة الثانية، اخترق الزباني جسد العنكبوت، الذي ضمّ قوائمه على عدوّه وراح يتدحرج على الأرض في محاولة للدغ الدبَور، الذي وضع العنكبوت في موقف حرج مستغلاً قوائمه الطويلة. بدأ زباني الدبور، الذي خرج من جسم العنكبوت عندما راح في التدحرج، يتحسّس درع العنكبوت، انسلّ داخلاً عند منطقة لينة أسفل القائمة الأولى. بات الاثنان، فجأة، ساكنين، العنكبوت مايزال يحاول التخلص من الزباني ليلدغ الدبَور، بينما يواصل الدبّور إحكام قبضته على قوائمه ودفع الزباني إلى جسمه. ثم أصبح واضحاً أن العنكبوت بدأ يضعف؛ وباتت حركاته أبطأ. بعد حوالي دقيقة، سحب الدبور زبانيه، وخلّص نفسه؛ فاستأنف العنكبوت، في الحال، وضعه السابق، وبطنه مقلوب لأعلى في الهواء. وبدت القائمة الخلفية، التي لدغها الدبّور، وكأنها تتحرّك في غير اتساق، بينما فقدت بقية قوائمه قوتها، ولم تعد تأخذ شكلها الطبيعي، حيث انحنت عند المفاصل: واتّجه الدبّور نحو العنكبوت برباطة جأش متناهية، وصعد فوق ظهره، ثم غرس، مرة أخرى، زبانيه بين مفاصله. استمر على هذا الوضع لفترة طويلة، وبدا وكأن العنكبوت يتحامل على نفسه. عندما سحب الدبور الزباني، سقط على بطنه واستلقى ساكناً.

قبض الدبَور على قائمة العنكبوت الأمامية بفكّيه، وراح يجرّ الجسم المشعر عائداً باتجاه الجحر. كان عليه أن يتحرّك للخلف، ويشبك قوائمه في كل مرة يشدّه فيها، فحرّكه بضع بوصات. في نهاية المطاف، وضع الدبّور الجسم على حافة الفتحة، ثم استدار إلى الجانب الآخر، وحشر نفسه تحته، ودفعه بكل قوته، فسقط العنكبوت الهامد في جحره. فرك الدبور قائمتيه الأماميتين معاً، وكأنه ينفض الغبار عنهما، واختفى تحت الفتحة.

أحس نيال برغبة عارمة في أن يجد أحداً يقصّ عليه ما رآه. فكر في أن يزحف فوق الرمال ليلقي نظرة على الجحر، لكنه رأى أن ذلك قد يكون عملاً أخرق؛ فقد يخطئه

الدبور ويحسبه عنكبوتاً آخر. لذلك فقد جلس ما يزيد على نصف ساعة، إلى أن خرج الدبّور من الفتحة، بجسمه اللامع الذي يومض تحت سنا الشمس، وطار في البعيد. مشى على أطراف أصابعه، باتجاه الجحر، بعد أن تأكد أنه قد اختفى. وما رآه جعل جلده يقشعرّ، وأحس بمزيج من الخوف والاشمئزاز. كان العنكبوت مستلقياً على ظهره، على بعد بضعة أقدام، باسطاً أطرافه على وضع سقوطه، وقد استقرت فوق بطنه المقلوب بيضه وحيدة شهباء، ماتزال رطبة ولامعة، ملتصقة بشعره.

أثار المشهد توتّره وذعره، رغم أن العنكبوت كان ممدداً على ظهره، بل إنه راح يتلفّت حوله ليتأكّد من أنّه ليس هناك عنكبوت آخرُ يزحف نحوه. ثم تلاشى توتّره تدريجيّاً وهو يحدّق في الجسم الضّخم الهامد في قاع الحفرة، ليحلَّ مكانه نوع من الفضول العلميّ. كان بمقدوره أن يرى القوائم الثماني متّصلة بالجزء الرئيسي من جسم العنكبوت، وهو الصدر الرأسي(*). أما ذلك البطن المستدير الهائل، الذي يشكل الأعظم من جسمه، فكان بدون دعامة. وقد رأى، في أقصى طرف البطن، عدداً من الزوائد على شكل أصابع، خمَّن أنها المغازل، أو تلك الأماكن التي ينبثق منها نسيج العنكبوت. لكن الجزء الذي افتتن به أكثر من غيره، كان الرأس، بقرنيه الطويلين، وزبانييه المخيفين اللذين ينتهيان بمخلب في نهاية كل منهما. في تلك اللحظة، كان المخلبان مطويين للداخل، بحيث استطاع أن يرى الفتحة الصغيرة التي يتدفّق منها السمّ. بدا منظر الزبانيين من القوة بحيث تسحق ذراع إنسان.

كانت عيون العنكبوت في قمة رأسه. وعندما غيرّ نيال مكانه، استطاع أن يرى اثنتين منها، فوق المخلبين مباشرة. كانتا سوداوين، لامعتين، وانتابه إحساس غير مريح بأنهما تراقبانه.

أما الجحر نفسه، فهو عبارة عن أنبوب، عريض بحيث لا يتسع إلاّ لجسم العنكبوت. وتحوّل المكان، الذي يقع خلف البقعة التي يرقد فيها جسم العنكبوت مباشرة، إلى مثلث منفرج الزاوية؛ لذا لم يستطع أن يرى ما في أعماقه. كانت جدرانه مبطنة بطبقة من حرير العنكبوت، واستطاع أن يرى أن الباب المسحور مكون من خليط مبتكر من الحرير والتربة، ومترابطاً بالحرير.

كان بمقدوره الآن أن يفحص هذه الأشياء بتمهّل، بعد أن خفّ رعبه. أخيراً، هبّ واقفاً وهو يخشى أن يعود الدبّور. وعندما وقف، أزاح قدراً من التربة، التي تساقطت فوق رأس العنكبوت. بدا وكأن العيون قد جفلت، فأدرك، فجأة، أن الكائن مايزال على قيد

(*) المنطقة الأمامية من الجسم التي تتكون من اندماج الرأس والصدر في العناكب.

الحياة. روّعته هذه الفكرة. فاستجمع شجاعته، والتقط حجراً وقذفه في الفتحة؛ وقد أصاب أحد المخلبين الملتفّين، فتدحرج أسفل الزباني، حيث سدّ الفم. مرة أخرى، بدا وكأن العينين قد تركزتا، للحظة، عليه. وانتابه، وهو في طريقه عائداً إلى الجحر، احساس غريب ومزعج، كان خليطاً من الاشمئزاز والشفقة.

عادت الأسرة من حملتها للبحث عن الطعام قبل حوالي ساعة من هبوط الليل، واستطاع أن يخمن من أصواتهم وهم يقتربون، أنهم قد نجحوا في مسعاهم. فقد عثروا على مكان يعجّ بأسراب الجراد الصحراوي، التي امتلأت سلالهم المجدولة به. وقد بدت الحشرات مماثلة إلى حد ما لكيزان كبيرة من الذرة، مازالت ملفوفة بأوراقها الخارجية، ولكنها كيزان بقوائم طويلة وعيون سوداء. وأشعلوا ناراً صغيرة عند مدخل الجحر، وقد ارتفعت معنوياتهم، ثم دفعوا إليها بالجراد، لشيّه، بعد أن نزعوا عنها رؤوسها، وقوائمها، وأجنحتها. وعندما أصبحت نصف ناضجة، سحبوها من النار، ولفّوها بالأعشاب، ثم أعادوها مرة أخرى للنيران. واكتشف نيال أن طعمها مستساغ، على عكس ما توقّع، مقرمشة ودسمة، وقد أعطتها الأعشاب ودخان الأخشاب طعماً لذيذاً.

عندما انتهوا من وجبتهم، وجلسوا متحلّقين في الظلام، محدّقين بسعادة في رماد النار، ربت جومار على شعر نيال المتجعّد، وسأله:

ـ ماذا كنت تفعل طوال اليوم؟

حدثهم نيال بما رآه، بعد أن كبح جماح نفسه فترة طويلة. وقد أرهف الجميع السمع لما يقوله، بشكل لم يعهده من قبل. وبالرغم من أن أحداً منهم لم يصدق ما قاله، إلا أن الرجال، باستثناء جومار، وجدوا أن عنكبوت الباب المسحور مخيف، بالقدر الذي شعر به نيال. كان جومار هو الوحيد الذي أتيحت له فرصة التخلّص من ذلك الاشمئزاز الإنساني الطبيعي تجاه العناكب، عندما راقبها عن كثب، إلا أنه رأى أن وجود عنكبوت الباب المسحور يثير الانزعاج ويشكّل في حد ذاته خطراً طبيعياً. ولذلك فقد رحّبوا بأخبار نيال بابتهاج. وراح يعيد وصفه للقتال، مرات عديدة ـ ليس لأنهم لم يتمكّنوا من استيعاب الرواية في المرة الأولى، ولكن لأنهم رغبوا في أن يستمتعوا بها إلى أبعد حد. والأكثر من ذلك، أن أباه لم يعلّق على عدم طاعته، والمغامرة بالخروج بمفرده من الجحر. وقد شعر نيال بالنعاس من شدة الانفعال، فنام ورأسه على حجر أمه. وبعد ذلك، رفعه جده بهدوء، وحمله إلى فراشه.

استيقظ، عندما كان جده يقوم بتغطيته بجلد اليسروع، وبالرغم من الظلمة، فقد

استطاع التعرف على جدّه من رائحته المميّزة. .

سأله وهو نصف مستيقظ: لماذا وضع الدبّور بيضته على بطن العنكبوت؟

ـ حتى تجد اليرقة شيئاً تأكله.

ـ ولكن ألن يتعفّن العنكبوت عندما يحين وقت فقس البيضة؟

ـ كلا بالطبع، فهو لم يمت.

اتسعت عينا نيال في الظلام. فهو لم يُشِر إلى شكوكه بأن العنكبوت ما يزال حياً، خوفاً من أن يسخر منه أحد. فقال لجدّه: «كيف عرفت أنه لم يمت؟».

أجابه قائلاً: الدبابير لا تقتل العناكب. إنها تريدها حيّة، لإطعام صغارها. والآن، عليك أن تنام.

لكن نيال أصبح الآن في تمام اليقظة. ظلّ راقداً في الظلام لفترة طويلة، وهو يشعر مرة أخرى بذلك الخليط الغريب من الاشمئزاز والشفقة، لكن الشفقة كانت هي الغالبة هذه المرة.

في الصباح الباكر، ذهب الجميع ليلقوا نظرة على ذلك العنكبوت المشلول. ودُهش نيال حينما رأى أن الباب المسحور كان مغلقاً. ورفعه جومار، بطرف رمحه ففتحه ـ لاحظ نيال أن أباه فعل ذلك بحذر شديد، رغم ثقته الكبيرة بنفسه. وأجفل حينما رأى أن العنكبوت لم يعد موجوداً في مكانه. ثم أدرك أنه قد تمّ جرّه إلى منعطف النفق. من الواضح أن الدبور عاد ونقله، ثم أغلق الباب المسحور ـ وهو عمل فذّ بالنسبة لكائن يبلغ طوله ست بوصات لا غير. ارتعدت النساء، وقالت إنجليد إنها ستصاب بالغثيان. لكن نيال لاحظ أن أخاه ڤيج أصبح هادئاً ومستغرقاً في التفكير بشكل غريب.

كان ڤيج مفتوناً على الدوام بالحشرات. وقد خرج ذات مرة، وهو صغير، من الكهف في وقت الأصيل، مستغلاً نوم أمه، التي عثرت عليه على بعد ربع ميل يقوم بفحص جحر تقطنه الخنافس السوداء. وفي مرة أخرى، بعد أن عاد الرجال من الصيد حاملين العديد من الزيزان الحية، يزيد طول الواحد منها عن قدم، توسّل إليهم، والدموع تملأ عينيه، أن يسمحوا به بالاحتفاظ بواحدة منها. لكنهم رفضوا طلبه، لاحتياجهم لها في سدّ جزء من جوعهم الشديد.

لذلك لم يندهش نيال، عندما رأى أخاه، بعد ذلك بيومين، يتسلّل بهدوء، متجهاً نحو جحر العنكبوت. انتظر حتى غاب عن نظره، ثم تبعه. خمّن أنه يريد أن يلقي نظرة عن قرب على العنكبوت. وثبتت صحة تخمينه، فقد رآه من وراء الصبار، وهو يرفع الباب

المسحور ليفتحه، ويستلقي على بطنه ليحدق داخل الجحر. ثم رآه، بعد ذلك بثوانٍ قليلة، وهو ينزل بحذر من على الحافة. جرى نيال بهدوء فوق الرمال، ووقف بزاوية لا يخونه منها ظلّه. كان ڤيج جاثماً دونه بقدمين، يحدّق وهو في غاية الاستغراق. عندما فضح نيال نفسه بحركة طفيفة، وثب ڤيج واقفاً، شاهراً رمحه. تنهّد بارتياح عندما أدرك أنه شقيقه.

ـ أيها الأحمق! لقد أفزعتني.

ـ آسف. ولكن ماذا تصنع؟

أشار ڤيج إلى العنكبوت. رأى نيال، وهو مستند إلى الحافة، البيضة وقد فقست، وأن يرقة سوداء كبيرة، تتلوى فوق بطن العنكبوت المقلوب إلى أعلى، وبدت قوائمها الصغيرة في غاية الضعف حتى لتوشك أن تعجز عن الحركة. لكن عندما لكزها ڤيج بأصبعه بخفّة، قبض فكاها الصغيران القويان في الحال على جلد بطن العنكبوت، ذلك لأنها إذا ما تدحرجت بعيداً، فإنها ستتضور جوعاً. عندما ربت ڤيج على اليرقة، تلوّت وحاولت أن تنتقم بزبانيها الصغير غير المكتمل. بيد أن ڤيج واصل الربت، فتقبّلت اليرقة، بعد نصف ساعة، الربت الخفيف واعتبرته أمراً طبيعياً. تركز اهتمامها في محاولة اختراق الجلد السميك المُشعر لبطن العنكبوت. وقد أمضيا ساعتين في مراقبتها، إلى أن اضطرتهما وقدة الشمس على العودة إلى الجحر. كانت اليرقة قد نجحت، في ذلك الوقت، في اختراق الجلد، وشعر نيال بعدم رغبة في رؤية المزيد. وأغلق ڤيج الباب المسحور بحرص خلفه، قبل أن يمضيا.

سأله نيال: ما عساك تفعل لو أن الدبّور عاد، وأنت هناك؟

ـ لن يعود.

ـ كيف عرفت؟

ـ مجرّد تخمين.

كان ڤيج كتوماً بطبعه، ولكنه بدا وكأنه يعرف أموراً بالبديهة.

لقد تعوّد، في الأسابيع القليلة التالية، على قضاء ساعة على الأقل يومياً، في جحر عنكبوت الباب المسحور. وذهب نيال معه مرة واحدة فقط، فقد أثار منظر التجويف الأحمر في بطن العنكبوت اشمئزازه، ولم يجد متعة في سقوط عدوّه. كان من الصعب عليه رؤية ڤيج وهو يقطع بأناة، شرائح صغيرة من لحم العنكبوت، ويطعمها لليرقة النهمة. سرعان ما وجد ڤيج أنه لا بد من إغلاق الباب المسحور، وإسناده بحجر لإبقائه مفتوحاً بوصة أو نحو ذلك، حتى لا تجتذب الأمعاء المكشوفة ذباب الصحراء الأسود، وهو أصغر قليلاً من ذباب المنازل المألوف، حيث يبلغ طول الواحدة حوالي ثلاث بوصات، لكن خرطومها الذي يمتصّ الدم، وفكّيها الحادّين، تجعلها قادرة على التهام جثة مكشوفة في غضون ساعات.

عاد ڤيج ذات يوم إلى الجحر، والدبّور الصغير على معصمه. كاد الآن أن يكتمل نموه، وبدا للوهلة الأولى جميلاً وخطيراً، بجسده الأزرق اللامع، وجناحيه الأصفرين، وقوائمه الطويلة الرشيقة. مع ذلك بدا أنه يثق في ڤيج ثقة تامة، والمدهش أنه كان يدعه يقلبه على ظهره، ويلكزه بسبابته، بينما يلف قوائمه الطويلة حول يده، ويعضّ أصبعه بفكّيه الحادّين، ويترك، بين الفينة والفينة، زبانيه الأسود الطويل، ينسلّ للخارج مثل خنجر. كان مغرماً أيضاً بالصعود على ذراع ڤيج، والاختفاء بين خصلات شعره، الذي يتدلّى حتى كتفه، ثم يقوم بعد ذلك بمداعبة شحمة أذنه بقرنيه، حتى يغرق في نوبة من الضحك.

سمحوا لنيال، في الصباح التالي، بأن يرافق ڤيج وأولف، عندما أخذا الدبّور للاصطياد، للمرة الأولى. ساروا إلى أشجار السنط، التي رآها نيال في الأفق عندما جاءوا في البداية إلى الجحر، حيث عثروا في الحال على ما كانوا يبحثون عنه: أنسجة عنكبوت الصحراء الرمادي، وهو كائن أصغر حجماً من العنكبوت الذئبي، يزيد طول جسمه بالكاد عن قدم، لكن قوائمه، بالمقارنة، تعدّ أطول. كان يوجد في زاوية أحد هذه الأنسجة، جندب مقيد، لا حيلة له في شرنقتها الحريرية. دار ڤيج حول الشجرة، إلى أن رأى العنكبوت، وقد اختفى في شعبة يلتقي عندها أحد الفروع بالجذع الرئيسي. قذف بحجر، فارتد عن الجذع، لكن الثاني أصاب العنكبوت. هبط، في لحظة، إلى الأرض على خيط من الحرير. وبالسرعة ذاتها، طنّ الدبّور باتجاهه، مثلما ينقضّ صقر على فريسته. لم يجد العنكبوت وقتاً ليتخذ وضع القتال في مواجهة خصمه، فوجد الدبّور تحته، يقبض على قائمته الخلفية، ويقوّس جسمه إلى أعلى. رأوا جميعاً الزباني وهو يخترق العنكبوت، وشاهدوا الجسم اللامع يرتعش بخفة، وهو يحقن سمّه العصبي. وأخذ العنكبوت يتخبّط، ويحاول لفّ قوائمه حول الدبّور، لكن مقدرته الطبيعية لم تكفل له عنصر الدفاع. بعد دقائق قليلة، وقع على الأرض، يعرج مثل دمية منبوذة. وقف الدبّور متردداً، لكنه زحف، بعد أن انصاع لغريزته، فوق الجسم الرمادي البدين، وبدا وكأنه يتشممه. تقدم ڤيج وجثا بهدوء إلى جانبه، مدّ يده برفق شديد، ونقل الدبّور فوق معصمه. ثم أخذ، من جراب معلّق حول خصره، شريحة من لحم العنكبوت الذئبي وأطعمها للدبّور. استأصلوا، بعد ذلك، قوائم العنكبوت، حتى يسهل حمله، ثم أسقطه أولف داخل سلته. وقد وفّر لحمه وجبات غذائية للدبور لمدة شهر.

كانت انجيلد تنظر إلى الدبور باشمئزاز وارتياب، وتصرخ إذا ما اقترب منها. (أثبت أنه كائن ودود، أحب السير صعوداً ونزولاً على أذرعتهم العارية). كما قالت أيضاً

إن للعنكبوت النافق رائحة كريهة . وكانت محقة في هذا إلى حد ما ؛ فالعناكب لها رائحتها المميزة الغريبة ، التي تزداد بعد أن تنفق . لكنهم احتفظوا بلحمه في أعمق أعماق الجحر، مغطى بطبقة سميكة من العشب ، فحال دون وصول الرائحة إلى أماكن المعيشة . وعلى أي حال فإن البشر الذين يعيشون في تقارب وثيق ، وفرصهم للاغتسال ضئيلة ، سرعان ما يعتادون على روائح طبيعية متعددة . وقد لاحظ نيال بالحدس الذي يتمتع به ، أن احتجاج انجيلد نابع من رغبة في أن تحظى بقدر من الاهتمام ، وشعر بالابتهاج عندما أدرك سرعة تغيّر موقفها ، حينما عاد ڤيج ، بعد ذلك بأيام قليلة ، ومعه طائر هاجمه الدبّور في جناحه . كان واحداً من عائلة الحبارى ، يماثل في الحجم تقريباً ، بطة كبيرة . وصف ڤيج رؤيته للطائر ، وهو يحطّ على قمة شجرة ، وانقضاض الدبّور عليه . (بدا الدبّور يستجيب بالحرف الواحد لتوجيهات ڤيج الذهنية) . تنبه الطائر حين سمع الطنين ، وراح يحلّق مبتعداً ، ثم أخذ يصيح باهتياج شديد ، حينما تشبّث الدبّور بقائمته وغرز فيها زبانيه . لقد تعيّن على ڤيج أن يسير لمسافة ميلين ليكتشف مكان طيور الحبارى ؛ كان الدبّور يجثم بهدوء فوق ظهر الطائر ، الذي رقد ناشراً جناحيه ، وكأنه قد هوى من علٍ . كافأ ڤيج الدبّور بقطعة من لحم العنكبوت ، ثم قتل الحبارى بدقّ عنقه بيديه القويتين .

شعرت النساء بشيء من الارتياب تجاه تناول لحم طائر أصابه سمّ الدبّور بالشلل ، فلم يمسسنه لبعض الوقت . كان أيضاً أول طائر تشاهده النساء عن قرب ، ولم يعرفن كيف يتصرفن بريشه . وفي نهاية المطاف ، تغلّب جوعهن على هواجسهن ، وبعد أن شوى ڤيج الطائر وأكل شريحة من الصدر ، دون أن يبدو عليه أثر للامتعاض ، أتى الآخرون على بقيته ، ولم يتبق سوى القوائم . كان السمّ العصبي ـ الذي ينتفي ضرره عندما يُتناول عن طريق الفم ـ قد جعل اللحم سهل المضغ ، وبالتالي شهياً . ومنذ ذلك الحين ، اندرج الحبارى المشوي ، جنباً إلى جنب مع المياه الجارية والزهور الملونة ، ضمن الرموز في فكرة نيال عن الجنة .

تعلم نيال المشي ، بعد أن تدرّب على مراقبة المناطيد العنكبوتية . كان عليه ، قبل أن يغامر بالخروج من الكهف عند سفح الهضبة ، أن يبلّل أصبعه ، ليحدّد اتجاه الريح . ثم تعيّن عليه أن يمشط الأفق بحثاً عن أي شيء يعكس ضوء الشمس ، وألا يخرج من الكهف ، إلا بعد أن يقتنع بأن السماء صافية تماماً .

كانت التعليمات لديه ، أنه إذا ما رأى منطاداً يسير باتجاهه ، فإن عليه أن يدفن نفسه في الرمال ـ إذا توفرت لديه فسحة من الوقت ـ أو أن يتجمّد في مكانه ، وألا يتتبع المنطاد بعينيه ، ولكن ينظر إلى الرمال ، ويركز في أي شيء يراه . فعناكب الموت ، كما أوضح

أولف، ضعيفة البصر، لذلك فإنه من المرجح ألا تراه. كانت تصطاد بالإرادة، وليس بحاسة البصر، كما أن بإمكانها تشمم الخوف. وقد أثار هذا حيرة نيال، الذي لم يستطع استيعاب فكرة أن للخوف رائحة. أوضح أولف أن الخوف يولد ذبذبة، تماثل تماماً صرخة رعب، تلتقطها حواس العناكب. لذلك، فإنه إذا مرت المناطيد العنكبوتية فوق الرؤوس، فإنه لا بد من تجميد أنشطة الذهن تماماً. ويماثل إفساح المجال للخوف، القفز لأعلى وأسفل والصياح لجذب انتباه العنكبوت.

لم يشعر نيال، الطفل المرح الواثق في نفسه، بالشك في أن هذه ستكون مهمة سهلة. فكل ما عليه أن يفعله، هو أن يفرغ ذهنه ويقنع نفسه بأنه ليس هناك ما يدعو للخوف. لكن هذه الثقة تتبخر، عندما يرخي الليل سدله، ويستلقي يقظاً، وهو ينصت إلى السكون، متخيلاً أنه يسمع شيئاً يزحف فوق الرمال في الخارج. سرعان ما تستحضر مخيلته عنكبوتاً عملاقاً يحاول زحزحة الصخرة التي تسدّ باب المدخل. ثم تبدأ دقات قلبه في التسارع، ويصبح مدركاً أنه يقوم بإرسال إشارات الفزع. وكلما حاول أن يكبتها، كلما زاد إلحاحها. شعر أنه وقع في دائرة مفرغة، خوفه يزيد من خوفه. ولكنه تعلم في النهاية، نتيجة لصغر سنه وثقته بنفسه، مواجهة الخوف، قبل أن يفرز مادة «الأدرينالين» لتتدفق في مجرى الدم، وإصدار الأوامر لقلبه بالإبطاء من ضرباته.

كانت أمه هي الوحيدة من بين أفراد العائلة التي تتحدث عن العناكب. فهم بعد ذلك السبب؛ فقد خشي الرجال من أن تسيطر على مخيلته الهواجس بشأن تلك الكائنات. وأن يشي خوفه بهم جميعاً، عندما تصبح المناطيد قريبة للغاية. كانت أمه تعلم أن الخوف من المجهول قد يولد التأثير ذاته؛ لذلك عندما تكون بمفردها معه، تجيب على أسئلته بحرية دون أي قيود. بيد أنه عرف بغريزته أنها تطلعه على نصف الحقيقة فقط، فعندما سألها لماذا تريد العناكب أسر البشر، قالت لأنها تريد أن تستعبدهم. وعندما سألها إذا ما كانت تأكل البشر، نفت ذلك، وأشارت إلى أن جومار هرب دون أن يلحق به أي أذى. لكنه عندما سأل جومار عن العناكب، كان يتظاهر دوماً بالنوم أو بثقل السمع.

عرف نيال القليل عن العناكب، من أطراف الحديث الهامش الذي تسقّطه، في الوقت الذي يُفترض فيه أنه نائم. وأكد هذا الحديث أن العناكب ليست آكلة للحوم فقط، بل إنها أيضاً قاسية بشكل مرعب.

بدا أن المناطيد العنكبوتية تتجنب، لحسن الحظ، الصحراء - إما لشدة الحر، أو لاعتقادها بأنه لا يمكن لأي إنسان أن يبقى على قيد الحياة في مثل هذه الظروف. كان نيال قد رأى، قبل نزوحهم من الكهف إلى الجحر، اثني عشر منطاداً، في الأفق.

بات الوضع مختلفاً على حافة الصحراء، حيث تقوم العناكب بدوريات منتظمة، وقت الفجر أو الغسق عادة. وبالرغم من أنها دوريات وتيرية، إلا أنها تثير القلق دائماً. بدا الأمر كما لو أن العناكب تعرف أن بني البشر لا بد وأن يخرجوا - إن عاجلاً أو آجلاً - من الصحراء تجتذبهم تلك المناطق الأقل جفافاً التي تتوفر فيها فاكهة الصبار والحيوانات الصغيرة والجراد.

ذات يوم، عندما مرّ منطاد عنكبوتي فوق رؤوسهم مباشرة بحثوا بجدية مسألة عودتهم إلى الصحراء حيث الأمان. وأبدى أولف وسيريز رغبة في العودة، حتى على الرغم من أن سيريز كانت حاملاً مرة أخرى، بيد أن انجيلد رفضت رفضاً باتاً مجرد بحث الفكرة، وقالت إنها تفضل الموت على أن تعود مرة أخرى إلى الكهف، وتناوُل الكمثرى الشائكة. شعر نيال بالارتياح لرفضها، فهو أيضاً يفضل الطعام والخطر على التضور جوعاً والسأم.

عندما وُلدت أخته رونا، لم يعد نيال الطفل المدلّل في العائلة. كان قد بلغ نحو إحدى عشرة سنة وبدأ يرافق الرجال في رحلات الصيد. وجدها في البداية مرهقة؛ فقد كانوا يقطعون، في بعض الأحيان، عشرين ميلاً في حرّ النهار اللافح، وكانت عيناه متيقظتين دوماً للمناطيد العنكبوتية، أو للعلامات الدالة على جحر لعنكبوت الباب المسحور أو عقرب الصحراء الأصفر. وسرعان ما أدرك الرجال أن إحساس نيال بالخطر كان أكثر حدة من إحساسهم. وقد اقتربوا، ذات يوم، من أيكة لأشجار الصحراء الشائكة، حيث نصبوا فخاخاً للطيور، فانتاب نيال شعور بعدم الرغبة في مواصلة السير، وكأن قوة ما تحاول شدّه للخلف. وضع يده على ذراع هرولف، فانتقل إحساسه بالخطر للآخرين، الذين توقفوا، وحدقوا بتركيز في الأشجار. رأى أولف، بعد نحو عشر دقائق، حركة خفيفة، ولمحوا جميعاً القائمة الطويلة الرفيعة لصرار الليل. قال أولف: «إنها دكتا» - وهو اسم يطلق على صرار الليل غير المؤذي. لكن إحساس نيال بالخطر استمر، ورفض أن يتحرك. قرر الرجال، في نهاية المطاف، أن يتجنبوا الأشجار، وأن يمروا عبر القفر الذي تنتشر فيه الصخور باتجاه أجمة من أشجار الصبار المحملة بالفاكهة.

مروا ثانية، وهم عائدون، وقت الغسق، بالأشجار التي كانت تبعد عنهم بضع مئات من الأمتار. تحركوا بهدوء شديد، لكنهم روّعوا صرار الليل، الذي أخافهم جميعاً، حينما وثب فجأة في الهواء، واختفى وهو يقفز قفزات يصل ارتفاعها إلى عشرين قدماً باتجاه الأشجار. ثم ثارت، على حين غرة، سحابة تُعشي البصر، وبدا الصرار وهو يتخبط بعد أن وقع في قبضة كائن مروِّع، طار في الهواء ليصبح فوقه. كان يماثل صراراً ليلياً ضخماً للغاية، قد يصل طوله إلى ثمانية أقدام، لكن قوائمه الرمادية، الخضراء، غطّتها المسامير أو الشعر الخشن. بدا رأسه غريباً، يماثل وجهاً طويلاً مُصمتاً، تعلوه عينان كرويّتان، وفي أسفل هذا

الوجه يوجد فكّان طويلان حادّان، لا يختلفان عن فكّي عقرب. شاهدوه وهو يضغط بشدة على صدر الصرار. ويرفع قائمتيه الخلفيتين عن الأرض، فترفسان الهواء. ثم وجّه ضربة واحدة بفكّيه الصلبين إلى الصرار فمزّق رقبته. شعروا برعب شديد إزاء ما يحدث، فوقفوا محملقين. لم يبد الكائن أيّ اهتمام بهم، لكنه أخذ يلتهم الصرار حتى وصل إلى رأسه، الذي انهار بزاوية ميل غير طبيعية.

بدت العينان الجاحظتان لهذا الشيطان محدّقة دون اكتراث في الصحراء، وهو يواصل التهام جثة ضحيته. وعندما أوشك على الانتهاء، أدرك الصيادون أنه ربما مايزال جائعاً، وأنه من الأفضل الابتعاد عن المنطقة القريبة منه. هرعوا عائدين باتجاه الجحر، وهم يشعرون بصدمة حقيقية.

تعرف جومار، الذي تخلّف عن الركب في ذلك اليوم، حيث زادت حدة الألم في ساقه، على الكائن من وصفهم له، بالرغم من أنه لم يره من قبل. إنه النوع الشرس ضمن عائلة صرار الليل، تكسوه درعٌ تجعل من المتعذر اصابته، وله قوائم طويلة تساعده على الوثب فوق فريسته من مسافة تصل إلى مائة متر. لو أنهم اقتربوا أكثر من الأشجار، لتعرّض أحدهم دون شك للالتهام، بالشراهة ذاتها التي التهم بها الصرار الصحراوي.

اقتنع الرجال، بعد تلك التجربة، بأن حدس نيال بالخطر أكثر حدة من حدسهم، فأصبح عضواً منتظماً له قيمته في فريق الصيد.

كان أولف وثورج من الصيادين المهرة، لكنهما اعتبرا أن الصيد مسألة حاجة، فعندما يكون هناك ما يكفي من طعام، فإنهما يفضلان الراحة في الأعماق الباردة للكهف، المضاء بمصباح زيتي يشتعل بصورة متقطعة، وتجاذب أطراف الحديث بأصوات خفيضة. أما ڤيج وهرولف ـ الأصغر سناً ـ فاعتبرا الصيد نوعاً من الرياضة والمغامرة. إذا كان هذا القفر الصخري يمثل جنة بالمقارنة مع الصحراء، إذن فمن المحتمل أن تحوي الأراضي الواقعة باتجاه الشمال طرائد أكثر تنوعاً. وحذّرهم أولف من أن الشمال تقطنه عناكب الموت، لكن جومار قال لهم، إن بحراً عريضاً يفصل بين هذه الأراضي، وبلد العناكب. كما حدثهم عن الدلتا الكبرى، التي تقع في الشمال الشرقي، وهي منطقة خضراء شاسعة من الغابات والحياة النّباتية الخصبة. وكان صيادون آخرون قد حدّثوهم عن الدلتا ذات النباتات الآكلة للحوم، لكن ڤيج وهرولف شعرا بثقة الشباب، ولم يساورهما شك في أن نباتاً يأكل الإنسان يمكن أن يكون أقل خطورة من خنفساء نمرية أو عقرب عملاق. سيجتازان ذات يوم، خلال الموسم البارد، البرية ليصلا إلى الدلتا الكبرى. كانت أرض الشمال، في الوقت ذاته، تمثّل وعداً بالمغامرة.

غادر كل من ڤيج، وهرولف، ونيال الجحر، في صباح أحد الأيام، سائرين باتجاه

الأفق الشمالي. وكانوا قد تسلّحوا بالمُدى الصوانية، والرماح والمقاليع، وحملوا طعامهم في ملاءات من حرير العناكب الذي سيستخدم فيما بعد كمظلات مؤقتة تقيهم من الشمس. كان نيال يحب أن يتحسّس حرير العناكب، الأملس الرطب، الذي يبدو كأنه يترقرق تحت أصابعه مثلما السائل. حمل نيال أصغر الصرات الثلاث التي تحوي فاكهة الصبار وقرعةً محكمة مملوءة بالماء.

ومرّوا، بعد ساعة، بأعمدة مشوّهة من الأحجار الرملية الحمراء، التي تآكلت وتحولت إلى أشكال غريبة بفعل الرياح المحمّلة بالرمال. جلسوا ليستريحوا في ظلالها، وأكلوا بعضاً من فاكهة الصبّار. وقد بات بمقدورهم أن يروا، من هذا المكان، الأرض وقد انحدرت لتتحول إلى تجويف ضحل، تكسوه صخور ضخمة مكوّرة. وكان من الأهمية بمكان أن يواصلوا السير بسرعة، فبعد ساعات قليلة ستصبح تلك الصخور ملتهبةً فيتعذر لمسها. وقد استطاعوا رؤية أشجار على الحافة البعيدة للتجويف. وقال ڤيج، الذي يمتلك أحدّ حاسة إبصار، إن بمقدوره أيضاً رؤية مياه.

بدت المسافة أطول مما اعتقدوا، فعندما حلّ الظهر، كانوا ما يزالون في وسط القفر الصخري، رغم أن الصخور الضخمة المكوّرة قد أفسحت مجالاً الآن لأحجار الصوّان والأحجار الجرانيتية الحرشفية. ونظفوا مكاناً تبلغ مساحته بضعة أمتار مربعة، وغرزوا الرماح في التربة الصخرية، لتكون بديلاً لقوائم خيمة مؤقتة، ثم نشروا فوقها حرير العناكب. كان الظل ضئيلاً، نظراً لتعامد الشمس فوق رؤوسهم مباشرة، لكنه أفضل من لا شيء. لم تكن الأرض الصلبة وغير المستوية صالحة للاستلقاء، لذلك فقد جلسوا فوقها، متخذين وضع القرفصاء ومحدّقين عبر القفر الكئيب، باتجاه الأشجار في الأفق الشمالي، والنباتات الخضراء التي لاحت بجلاء الآن. واستغرق نيال، مرة أخرى، في أحلام اليقظة عن الأزهار اليانعة والمياه الجارية.

واصلوا المسير مرة أخرى باتجاه الشمال، بعد ثلاث ساعات من الراحة. كان الجوّ مايزال حاراً، لكن عليهم أن يتحركوا كي يتمكنوا من الوصول للأشجار مع هبوط الليل. وباتت ساقا نيال ثقيلتين بفعل الارهاق، وأصابه الحنين للعودة إلى أسرته، لكنه وضع نصب عينيه الأشجار التي يقتربون منها. وقال ڤيج إنها أشجار نخيل، تبشّر، على الأقل، بالطعام. كان نيال يهيم حباً بالتمر، ولكن نادراً ما أتيحت له فرصة تناوله.

تغيّرت طبيعة الأرض الآن، فالصخور تحت أقدامهم أصبحت أصغر حجماً، وقلما وجدت صخرة أكبر من قبضة اليد. وعلى حين غرة، شعر نيال، الذي مشى بتثاقل وسأم، وعيناه مركّزتان على الأشجار، بقدميه تزلاّن، ليسقط على ظهره، وينكشط جلد كوعيه. وقد

أراد أن يستريح لبضع دقائق، لكن ڤيج أصرّ على ضرورة مواصلة السير. وجرّ نيال نفسه جراً، مركزاً عينيه على الأرض، ليتفادى حادثاً آخر، من جهة، وليخفي، دموع التعب، من جهة أخرى. وقد لمح، بعد لحظات قليلة، هرولف وڤيج يتبادلان نظرة ضيق خاطفة، فأدرك أنهما تمنّيا لو كانا قد تركاه في البيت. وقد تأثّر كثيراً، فأطبق أسنانه وأكره نفسه على بذل جهد للتحكّم في ألمه، الذي أصبح، للحظات قصيرة، أكثر حدّة، فشعر وكأنه يريد أن يرتمي على الأرض، ويطلق العنان لدموعه. وأثناء محاولات التركيز التي بذلها، ومضت نقطة الضوء داخل رأسه. فتلاشى التعب فجأة -أو بالأحرى، كان مايزال موجوداً في أطرافه، ولكنه شعر بانفصال تامّ عنه، وكأنما يراقبه من علٍ. وبات مسيطراً على تعبه بدلاً من أن يسيطر عليه التعب. كان إحساساً مبهجاً جعله يبتسم بارتياح. تطلع ڤيج إليه في دهشة، وذهل حين عاد نيال للابتسام من جديد بمرح.

استمروا في السير بخطى واسعة فوق الصخور الملتهبة، التي تومض في الحرّ. وبدا الريف الأخضر أمامهم، عبر الهواء اللافح، واعداً بالراحة والاستجمام. وقد لاحظ نيال الآن تغيراً آخر في طبيعة الأرض. فالأحجار تبدو أصغر، تتراوح في الحجم بين بيضة الدجاجة ومجرد الحصاة، كما ظهرت، على مسافات متساوية تقريباً، حفر في الأرض على شكل أقماع، يصل عمق كل واحدة نحو عشرين قدماً. وعندما اقتربوا من حفرة ضخمة بشكل ملحوظ، توقّفوا للتطلّع إلى عمقها. لو أنهم أقل ارهاقاً، لهبطوا فيها، لمجرد إرضاء فضولهم، ولكن في هذا الجوّ الحار، فإن ذلك يعدّ بمثابة هدر للطاقة لا معنى له. وركل نيال حجراً إلى الحفرة وتابعه وهو يندفع نحو القاع. ثم لاحظ نباتاً أخضر، لا يختلف عن نبات الوارو، ينمو فوق جانب الحفرة على بعد مسافة أقدام قليلة منه، في وسط النبات، توجد فاكهة كروية لونها أخضر باهت تماثل فاكهة الصبار. وجلس نيال، وانزلق بحذر إلى الأسفل، باتجاه النبات. كانت الكرة، التي بحجم التفاحة تقريباً، صلبة حين لمسها، وقد لواها بقوة وقطفها، ثم قذف بها إلى هرولف. وأزاحت هذه الحركة، الأحجار التي جلس عليها، فشعر بنفسه ينزلق، فاستلقى على ظهره، وحاول أن يتشبّث بعقبيه؛ وأفلحت هذه المحاولة للحظة، لكن الأحجار كانت مفككة إلى حد كبير، فاندفعت بغزارة من تحت قدميه. وقد جعلت قوته الدافعة استخدام يديه أو قدميه كمكابح أمراً أكثر صعوبة. وفي نهاية المطاف، توقّف في منتصف الطريق إلى الأسفل، فانتصب جالساً في حذر وهو يدرك أن أية حركة مفاجئة ستجعله ينزلق مرة أخرى.

اعتمد على يديه وركبتيه ببطء شديد، وراح يحاول التسلق صاعداً من جديد.

وأطلق ڤيج صرخة، جعلته يتلفّت حوله، وانقبض قلبه من الرعب. لقد تحركت

الأحجار في قرار الحفرة، وراحت تجيش وترتفع، كأنما يدفعها حيوان ضخم. في بداية الأمر، برز قرنان طويلان يعكسان أشعة الشمس، وكأنما صُنعا من معدن أزرق. كانت أم الرأس عبارة عن قبة زرقاء مغطاة بشعر أزغب، وعلى جانبي الرأس أنصاف كرات معدنية زرقاء، لا تختلف عن أعين حشرة هائلة. ومع ذلك، بدا لنيال أن هناك زوجاً ثانياً من العيون عند منبت القرنين، ضيقتين، ضّاريتين، ومحاطتين بدرع صفراء. كان بقية الوجه أصفر اللون أيضاً، بيد أن الخطوط الزرقاء، والفك الناتىء على هيئة منجل، جعل شكله لا يختلف عن السعدان. ثم ظهرت، بعد الرأس، رقبة متحركة، وقائمتان أماميتان تبدوان قويتين. كان الجسم المدرّع ذو اللونين الأصفر والأسود يماثل جسم المدرع الملون(*).

أخذ الكائن ينظر إلى نيال، الذي حاول، مذعوراً، أن يتسلّق المنحدر. تقدم بضع خطوات، ثم راح ينزلق مرة أخرى. تلفت حوله متوقعاً رؤية الوحش المدرع ذي القرنين، يتقدم نحوه، لكنه كان يجلس هناك، وقد أدار وجهه الجامد، الغريب، الشبيه بوجه القرد، باتجاهه.

لطم شيء ما يده، تبيّن أنه طرف الحبل المجدول من حشائش الحلفاء، الذي يحملونه معهم دوماً، في كل رحلة صيد يقومون بها. تشبّث بطرف الحبل، بكلتا يديه، راح ڤيج وهرولف، اللذان كانا يلهثان عند الطرف الآخر، يشدان الحبل لأعلى المنحدر.

أصابت نيال، على حين غرة، ضربة على رأسه، وأخرى على الجزء الأصغر من ظهره، مما جعل أنفاسه تتدافع من رئتيه. اعتقد، للحظة مروعة، أن الكائن ذا الوجه القردي، قد أمسك به، لكنه عندما نظر إلى الأسفل، وجده قابعاً في وسط الحفرة، وقد أشاح عنه. حينما راقبه نيال، بدا وكأنه يدفن رأسه في الأحجار المنهارة، ويقذفها بعنف إلى الوراء. أصاب وابل الأحجار، بدقة تدعو للدهشة، جانب الحفرة، فوقه مباشرة، فتدحرجت عليه، أصاب حجرٌ عينه، وأحس بالدم يسيل فوق خده. سقط وابل آخر من الأحجار على جسمه، مما جعله يلهث متألماً. في تلك اللحظة، هز ڤيج الحبل بعنف، فتخلّت يداه المجروحتان عنه، وراح ينزلق على جانب الحفرة. حوّل الكائن، في نهاية الأمر، عينيه نحوه وراح يتحرك باتجاهه، ببطء ينم عنه ثقته التامة في اقتناص فريسته. قذف ڤيج مرة أخرى الحبل، لكنه كان قصيراً للغاية، وسقط على بعد بضعة أقدام من يدي ڤيج.

(*) المدرع حيوان ثديي يقطن في جنوب أميركا لرأسه وجسمه درع من الصفائح العظميّة الصغيرة يستطيع أن ينكمش فيها.

راح ڤيج ، بعد أن أدرك أن فكّي الكائن باتا قريبين من قدمي أخيه ، ينحدر إلى أسفل وهو يهيل الأحجار في طريقه. أصابت واحدة منها الكائن في رأسه ، فتوقّف ليلقي نظرة على مهاجمه . كان ثمة شيء مخيف للغاية في ذلك الوجه الملون للكائن الشبيه بالإنسان الآلي. حاول ڤيج أن يوقف نفسه عن الانزلاق على الأحجار، فاستلقى على ظهره حتى يبطىء من هبوطه . نجح في أن يتشبث بعقبيه ، واستلقى بعد أن أحنى ظهره ، وثنى ركبتيه ، أدرك فجأة مدى حماقته حين غامر بالنزول إلى الحفرة. انتهز نيال تحوّل نظر الكائن عنه ، ليتسلق بضعة أقدام باتجاه نهاية الحبل. انقلب ڤيج ، ببطء ، على بطنه وحاول التشبث بأظافره بالأحجار حتى يتسلق المنحدر. سقط عليه في الحال وابل من الأحجار التي أصابت رأسه وكتفيه ، فطرحته أرضاً.

كان بمقدور نيال أن يرى هرولف ، وقد تمدّد على معدته وهو يتكىء على حافة الحفرة، محاولاً أن يمده ببضع بوصات إضافية من الحبل. انزلق، لكنه نجح في إنقاذ نفسه ، والرجوع لأعلى الحفرة ، ليتلقى وابلاً آخر من الأحجار التي سقطت فوقه . أصابت واحدة منها رأس الكائن ، وأوقفت تحركه لفترة قصيرة.

صاح نيال قائلاً: «لا يهم الحبل. اقذف بالأحجار!». راح هرولف يقذف الكائن بالأحجار ، لكن معظمها ارتدّ عن ظهره المدرّع . قال ڤيج وهو يتابع ما يحدث: «استخدم المقلاع!». كان هرولف أفضل رامٍ بالمقلاع في العائلة. اختفى عن النظر، للحظة، ثم ظهر من جديد حاملاً المقلاع . أخذ يلفه حول رأسه ، ثم أحس نيال بالحجر وهو يئز بالقرب منه . كان تصويب هرولف ممتازاً ، لكن الكائن عاود دفن رأسه تحت الأحجار، لذلك فقد ارتدّت القذيفة عن ظهره مرة أخرى. بعد لحظة ، سقط وابل آخر من الأحجار فوق ڤيج ، وهو يحاول التسلّق، فانزلق من جديد.

أصاب حجر آخر قذفه هرولف نصف الدماغ الأزرق للكائن الذي يتحرك باتجاه ڤيج . كان هناك صوت سحق ، وبدا أن القبة قد تحطمت ونزفت منها الدماء. صاح كل من ڤيج ونيال بفرح . توقف الكائن ، وأظهر للمرة الأولى دلائل حيرة وتردد. أخطأه حجر ثانٍ ، وارتد عن درعه ، أما الحجر الثالث فقد أخطأه تماماً. بات هرولف منفعلاً إلى أقصى حد.

قال ڤيج : «أصغ إليّ يا هرولف!». كان صوته خفيضاً متوتراً. ألقى هرولف حجراً آخر، فارتدّ عن الدرع . صاح ڤيج ، بصوت هادىء ومنضبط، رغم توتّره : «توقّف! أصغ إليّ! تمهّل! هل بمقدورك أن تصيب عينه الأخرى». ألقى هو الآخر بحجر على الكائن ، أدى إلى جعله يزحف نحوه مرة أخرى. تمهل هرولف ، وطوّح المقلاع عدة مرات قبل أن يطلق

الحجر. كانت تصويبة ممتازة، فقد سقطت عند نقطة التقى فيها أحد القرنين بالرأس، فحطمتها. أصاب حجر آخر وسط الوجه. توقف الكائن، وأخذ يتلفت حوله، كما لو أنه يحاول رؤية مهاجمه، ثم استدار ودفن رأسه في الأحجار. اعتقد نيال أنه سيلقي وابلاً آخر من الأحجار، ثم أدرك بارتياح شديد أنه يدفن نفسه. انتفضت قائمتاه الخلفيتان انتفاضة أخيرة، واختفى الكائن الضخم المخطط عن أنظارهم.

كست الرضوض جسم كل من نيال وڤيج، كما راحا يلهثان بشدة حتى أوشكا على التوقف عن الحركة لعدة دقائق. جلسا يحدقان في المكان الذي اختفى فيه الكائن، ويتوقعان رؤيته وهو يتطلع إليهما. عندما بات واضحاً أنه قد انسحب من القتال، أعادا من جديد الكرة للخروج من الحفرة. كان بمقدورهما الآن أن يتحركا على مهل، فتمكّنا، بتأنٍ، من التقدّم بضع بوصات في كل مرة. وصل نيال، في الحال إلى طرف الحبل، فرفعه هرولف إلى حيث الأمان. ثم فعل نيال وهرولف الشيء نفسه مع ڤيج. جلس ثلاثتهم عند حافة الحفرة، وهم يتطلعون إلى المكان الذي اختفى فيه الكائن. كست الرضوض نيال وڤيج من أم الرأس حتى أخمص القدم، وكانت أيديهم وأقدامهم وركبهم مكشوطة الجلد، لكن هذا بدا غير مهمّ مقارناً بسلامتهما.

وضع ڤيج يده على كتف هرولف قائلاً:

ـ شكراً.

هزّ هرولف كتفيه في ارتباك قائلاً: «من الأفضل أن نتحرك».

كانا يعرفان أنه على صواب. فلم يكن هذا القفر بالمكان الملائم لتمضية الليل. جمعوا صررهم وأسلحتهم، وساروا وهم يعرجون فوق الأحجار، باتجاه الأرض الخضراء، التي تعد بالراحة والماء.

اقتربوا بعد ساعة من الأشجار، ووصلوا إلى بداية المزروعات: أجمة الكريوسوت، أعشاب الحلفاء ونباتات الوارو. بعد ذلك، كانت ثمة حشائش حقيقية تحت أقدامهم، حشائش خشنة، شبيهة بالأسلاك، لكنها ناعمة بشكل مدهش على جلدهم المكسو بالرضوض. أدركوا الآن أن الأشجار كانت أكبر من أية أشجار شاهدوها من قبل، تمتد لأعلى بمعدل يزيد عن مثلي طول أشجار الصبار العملاقة. أحسوا بالرمال تحت أقدامهم، لكنها لم تكن رمالاً صحراوية ناعمة مثل المسحوق، بل كانت رمالاً أكثر خشونة، مريحة في السير. نمت بين هذه الرمال، نباتات وشجيرات بوفرة لا يمكن تصورها: صبّار في ريعانه يحمل أزهاراً زاهية وردية اللون، نباتات خضراء لحيمة مثل نباتات الوارو، لكنها ذات أزهار صفراء كبيرة، أشجار الغبيراء(*)، وورود أريحا، نباتات اليتوع الخضراء الزاهية،

(*) الغبيراء: أشجار تشبه أشجار التفاح.

وعشرات من النباتات الأخرى، لم يرها أو يتخيلها نيال من قبل. اندفعت العظاءات كالسهام تحت أقدامهم، وطنّ نمل كثير بين الأزهار. كان هناك أيضاً تغريد الطيور. وجد نيال في كل هذه الأشياء جواً فاتناً للغاية أوشك أن ينسيه تعبه وجروحه. بدا له فجأة، أن الأمر يستحقّ عناء سفر لمدة أسبوع في البرية لرؤية مكان جميل وممتلىء بالأشياء النابضة بالحياة.

عندما اقتربوا من الأشجار، أدرك نيال أنها نمت على جانبي جدول ضحل تتعرج مياهه في قاعه الصخري. ألقوا بأمتعتهم وأسلحتهم، واندفعوا صوب الماء دون تردد، تدلت أيديهم وركبهم في الماء، وراحوا ينهلون منه. شعر نيال بالنشوة. فقد كانت مياه الجدول ضحلة، يصل سطحها إلى الركبة بالكاد. لذلك عندما جلس كانت المياه قلما تصل إلى خصره. وولّدت الحركة الدائمة للمياه، وهو يحدق فيها، أحساساً بالرغبة في النوم. استرخى عقله، واندمج في التدفق المترقرق. أوحت إليه غريزة متعمقة داخله بأن المياه والنباتات الخضراء ما هي إلا جزء من حقوق مولده.

لمحت عينه، وهو جالس ورذاذ المياه يتناثر على وجهه وصدره، حركة على الضفة. حدق باستغراب في الكائن الهائل قاني اللون الذي راح يعدو بسرعة عبر الرمال، ليختفي في أجمة يانعة.

قال وهو يلهث: «ما هذا الكائن؟». تجمد ثلاثتهم على الفور، وأدركوا فجأة مدى الخطر الذي يتعرضون له، وهم جالسون بدون سلاح. ثم راح كائن آخر من هذه الكائنات يعدو في العراء بقوائمه العنكبوتية. تنهّد ڤيج بارتياح قائلاً:

ـ إنها نملة فحسب.
ـ هل تهاجم الإنسان؟
أجاب ڤيج، بلهجة تنِمّ عن عدم التيقن قائلاً: «لا أعتقد ذلك».

تركوا الماء، على مضض، وعادوا إلى أسلحتهم. ظهرت النمال، على الضفة الأخرى، بصورة متكررة واختفت وسط النباتات. راحت تتوقف أحياناً، لسبب غير واضح، ثم تنطلق في اتجاه آخر. يبلغ معظمها نحو قدمين، ولها وجوه جامدة تماثل وجوه الوحش الضخم، وحشرة الحفرة، وبدا الفكّان اللذان يماثلان المخلبين هائلين. علاوة على ذلك فإن أمراً ما، يتعلق برؤوسها مثلثة الشكل، وعيونها التي تبدو جامدة، وزبانيها المنحني الذي يماثل شاربا مرفوعاً، جعلها تبدو غير خطرة.

تطلع ڤيج نحو السماء، فأدرك أن الشمس اقتربت من الأفق. قال: «من الأفضل أن نتحرك!». تحامل على نفسه ليقف. كانت الحرارة قد جففت بالفعل مئزره المبلل. أردف: «انتظرا هنا!».

تابعاه، وهو يجتاز الجدول، ويمضي نحو الضفة البعيدة. توقّفت نملة حمراء عن عدوها السريع، في حركة مفاجئة، وراقبته للحظة، ثم واصلت العدو. تقدم بضعة أقدام، وقد شجّعه عدم اكتراثها، فاعترض طريق نملة مقبلة. كان كل ما فعلته هو أنها غيرّت مسارها، وهرعت بعيداً عنه. عندما حدث هذا ست مرات أخرى، وبات واضحاً أن النمال لا تبدي اهتماماً بالإنسان، حمل نيال وهرولف صرتيهما واجتازا الجدول. توقّفت نملة، مرة أخرى، لمراقبتهما، وتأملهما للحظة، ثم مضت في طريقها. بعد ذلك، تجاهلتهم النمال الأخرى. كان الأمر يبدو كما لو أن النملة الأولى قد بعثت برسالة، وصفتهم فيها بأنهم لا يشكّلون أي أذى.

تقدموا، مع ذلك، بحذر. فهذه المزروعات يمكن أن تخفي جحراً لعقرب أو خنفساء نمرية - أو حتى حشرة هائلة. لكن على الرغم من أنهم شاهدوا العديد من الخنافس، اليروت(*)، بل ودود ألفي يصل طوله إلى سبعة أقدام، لم تظهر أية دلالة على وجود حشرات آكلة للحوم البشر. وصلوا، بعد نصف ميل، إلى موقع دل على إمكانية تحويله إلى ملجأ لقضاء الليل فيه. كانت ثمة حفرة في الرمال، عند سفح صخرة ضخمة. نزلوا إلى قاعها شاهرين رماحهم، للتأكد من أنه ليس هناك ما يشغلها، ثم استقروا فيها وأخذوا يوسعونها بأيديهم وبالمدى الصوانية. تحولت الحفرة، في أقل من ساعة، إلى عرين صغير، تخفي الشجيرات مدخله. بإمكانهم هنا أن يشعروا، في النهاية، بأمان نسبي.

كانت الشمس تبدو في الأفق، بينما لف الظلام الأرض الواقعة باتجاه الشرق. تعينّ على ڤيج أن يؤدي مهمة أخرى، قبل أن يخلدوا للنوم، وهي أن يسعى لإجراء اتصال مع عائلته. فعندما تعود سيريز إلى الجحر، ستتساءل إذا ما كان أولادها في أمان أم لا. حينما تغيب الشمس وراء الأفق، فإنها ستكون جالسة بمفردها، ستقوم بتصفية ما في ذهنها، آملة في تلقي رسالة. اختار ڤيج لنفسه، بالتالي، مكاناً مريحاً عند سفح الصخرة، حيث يكون بمقدوره أن يحدق باتجاه بيتهم. ثم استرخى هو أيضاً، وصفّى ذهنه. كان ينبغي عليه أن يفعل ذلك قبل نصف ساعة، حتى يسمح لأفكاره وأحاسيسه بأن تصبح هادئة، لكنهم انشغلوا بإعداد ملجأهم لقضاء الليل.

أصبح ضوء النهار غسقاً، وسرعان ما تحول إلى ظلام. ولفّتهم، على حين غرة، ظلمة دامسة، تماثل ظلمة قاع الجحر، دون أي بريق من الضوء. بدا الأمر كما لو أنهم أصيبوا بالعمى. لكن وسط هذا الظلام المخملي، أدرك ڤيج، على نحو مفاجىء، أن أمه تصغي إليه، كما لو أنها جالسة على بعد بضعة أقدام منه. نقل إليها، من أعماق سكونه الداخلي،

(*) حشرات تمتص عصارات النباتات.

صورة للمكان الذي يقيمون فيه، والعرين الذي يعتزمون تمضية الليل فيه. تعين نقل الصور بسرعة، لأن عملية اتصال كهذه كانت منهكة، وتتطلب تركيزاً من الصعب مواصلته. كما عرض عليها صورة القفر الصخري الذي اجتازوه، ثم الجدول، والنمال الحمراء تعدو مسرعة. استمر تبادل الأفكار لمدة عشر ثوانٍ تقريباً، ثم تلاشى، قبل أن يتمكن من التوديع. كان بمقدوره أن يجدد الاتصال ببذل المزيد من الجهد، ولكن هذا سيصبح هدراً للجهد. فقد عرفت الآن أنهم في أمان، وبمقدورها أن تنام دون قلق. سار ڤيج حول الصخرة، متحسساً سطحها بيديه، ثم تلمس طريقه وهو يمر بمحاذاة أغصان شائكة، إلى أن وصل إلى الملجأ، فسحب الشجيرة إلى الفجوة الضيقة. لم يكن هناك ما يدعو إلى الاستفسار عما إذا كان قد أجرى اتصالاً، فقد أوحى لها سكونه بالإجابة.

شعروا بالجوع، لكنهم كانوا يعانون من تعب شديد منعهم من تناول الطعام. راحوا جميعاً في سبات عميق، في غضون دقائق. ارتفع القمر في السماء، بالخارج، وخرجت كائنات ليلية تبحث عن فرائسها.

- ٣ -

استيقظ نيال على تغريد الطيور، وسقسقة الحشرات. تثاءب وتمطّى، ثم تنهّد بألم. شعر بتيبّس ورضوض في جسمه، وعندما حاول الجلوس، أضطرّه ألم حادّ في كوعه إلى العودة للاستلقاء. لكن شعوره بالبهجة الناشىء عن هذه الأشياء الجديدة والغريبة التي تحيط به، جعل إحساسه بالتعب يبدو تافهاً.

كان ڤيج يواجه الحالة ذاتها. فجلد ظهره مكسوّ بالرضوض بعد أن أمطرته حشرة الحفرة بالصخور، كما أصيب بورم خلف رأسه يماثل بيضة صغيرة. أما هرولف فقد نجا من الاصابات والرضوض، لكنه اعترف بأنه وجد من الصعب ثني ركبتيه. رأوا أنه ليس من الصواب التفكير في العودة إلى بيتهم اليوم، بحالتهم الحالية؛ فقد يموتون في البرّيّة.

راح نيال يزيح الحاجز جانباً، إلا أنه ارتدّ عائداً. فقد اندفع عبر السماء، منطاد عنكبوتي على ارتفاع خمسين قدماً فوق الأرض. خلّف المنطاد ذيلاً من نسيج العنكبوت في الهواء. لم يكن قد رآه من قبل بمثل هذا القرب. كان ڤيج وهرولف يجلسان وظهراهما نحوه، فلم يلحظا حركته المفاجئة. أغلق عقله، وراقب المنطاد وهو ينحرف بعيداً عن مدى رؤيته. إذا حذّرهما، فإنهما قد يمران بذعر خاطف، يمكن أن يشي بهم للعنكبوت. وأدرك أن هذه مجرد دورية عادية، وأن العنكبوت داخل المنطاد قد يكون نائماً أو غير منتبه.

بعد خمس دقائق، أخرج رأسه من العرين، ومسح السماء بعينيه. بدا المنطاد الآن مثل بقعة في المدى، كما لم تكن هناك مناطيد أخرى في الأفق. انتظر حتى اختفى، ثم قصّ على ڤيج وهرولف ما رآه. انتفضا، فعرف أنه كان على صواب عندما لم يحذرهما.

تساءل ڤيج، الذي خشى أن تعرف العناكب مكانهم: بأيّ ارتفاع كان يحلّق؟
ردّ نيال: فوق تلك الأشجار بالكاد.
تنهّد ڤيج بارتياح قائلاً: «لقد كنّا محظوظين...».

بيد أن نيال، الذي شعر بتفاؤل وارتياح، عرف أن الأمر يتجاوز مجرّد الحظّ.

عندما تأكّدوا، بعد مضيّ ساعة، أنه لم تعد هناك أية مناطيد، عادوا أدراجهم إلى الجدول. نفعوا أنفسهم مرة أخرى في الماء البارد، وتمدّدوا بالكامل فوق سطحه وراحوا يلهون. استغرب نيال أن تكون الطبيعة بمثل هذا الإسراف في مادة ثمينة. ففي الصحراء، يمكن أن تعني قطرات قليلة من الماء، الفرق بين الحياة والموت، وكذلك يمكن أن يكون الحال مع فاكهة صبّار أو إحدى القوارض الرملية. فوفرة بهذا الشكل المبالغ فيه تثير النشوة، لكنها تثير أيضاً الحذر.

ساروا أكثر من ميل بمحاذاة المجرى المائي، الذي كان ينبع من تلال بعيدة. كانت توجد على الجانب الآخر للتلال، كما يقول جومار، الدلتا الكبرى حيث المزيد من الوفرة، والمزيد من الخطر. وفي مكان ما، على الجانب القصيّ من الدلتا، في الجهة الأخرى من البحر، تقع مدينة عناكب الموت. وقد أراد أن يسأل ڤيج وهرولف عن العناكب، لكنه عرف أنهما سيرفضان التحدث عنها؛ فقد كانا صائدين، ويؤمنان بأن التحدث عما يخشاه المرء، يُعدّ فألاً سيئاً. شعروا جميعاً، هنا في هذه الجنة متعددة الألوان، بجو من البهجة مشوب بالخوف. تثير ذعرهم أيّ حشرة تتحرّك، حيث لم تكن لديهم الخبرة الكافية لمعرفة مدى خطورتها. كانت هناك أنواع من اليعاسيب الضخمة، يماثل حجمها، حجم إنسان، يشكل جناحاها الشفّافان المجزّعان، غطاءً فوق جسمها عندما تكون واقفة لتستريح، بينما يتحولان إلى شبحين هائلين يئزّان عندما تنطلق فجأة في الهواء. (لم يساور نيال شكّ في أن هذه الكائنات المتألّقة، ما هي إلا نسخ مكتملة النموّ من حشرة الحفرة التي كادت تقتلهم). كانت هناك ذبابات فطرية خضراء زاهية، بدت كأنها تستمتع بالطنين قرب آذانهم. فجعلت رؤوسهم تهتز من الضجة الحادة التي تحدثها. شاهدوا، عندما مروا بالقرب من بعض الأشجار الضخمة، نسيج العناكب الرمادية، يمتدّ مثل شبكات هائلة. راح كائن حي كبير بحجم إنسان، يتخبط في أحد هذه الأنسجة، داخل حرير العنكبوت. فبدا من المستحيل التخمين لمعرفة نوع هذا الكائن. خفقت بكسل فراشات ضخمة بجوارهم، فأحدثت أجنحتها الكبيزة تياراً منعشاً من الهواء.

وجد نيال أحد هذه الأجنحة ملقى على الأرض، فاندهش من مَدى خفّته وقوته، رأى أن بمقدوره أن يستلقي عليه فوق مياه الجدول، ويظل طافياً كما لو أنه على متن قارب.

استبد بهم الجوع؛ فقد تركوا طعامهم خلفهم في الملجأ. كانت المشكلة التي تواجههم هي عدم معرفتهم بهذه الفاكهة المختلفة التي تحيط بهم. وأيّ منها صالح للطعام. قضم نيال قضمة مجربة من فاكهة أرجوانية اللون، تماثل حبة عنب كبيرة الحجم، لكنه لفظها بسرعة، فقد كان طعمها حريفاً غريباً، وظل مذاقها في فمه عشر دقائق. كما فشلت تجربة أخرى مع ثمرة فاكهة ريانة صفراء اللون؛ فقد كان طعمها مماثلاً لقطعة لحم عفنة. بينما وجد في ثمرة فاكهة كروية حمراء، طعماً حريفاً مشبعاً بالزيت.

شاهدوا بعد ذلك، وهم سائرون، والرمال تبدو ممتدة أمامهم، عدداً من النمال السوداء الضخمة، التي يبلغ حجمها مثلي حجم النمال الحمراء، تحمل كل نملة فاكهة كبيرة لونها أخضر فاتح. ساروا بعكس اتجاه طابور النمال، وقد أخذوا حذرهم خوفاً من أن تكون عدوانية، حتى وصلوا إلى أجمة مغطاة بكتلة متشابكة من النباتات الخضراء، من بينها الفاكهة الخضراء، في مراحل نضج مختلفة. رأوا أنواعاً عديدة من الحشرات هناك، تأكل الفاكهة الناضجة. وسط هواء مفعم برائحة طيبة سارّة. عثر نيال على ثمرة فاكهة كبيرة، مغطاة بكتلة متشابكة من أغصان الأشجار والكرمات، قطعها بمُديَته الصوانية، ففتحها، واستخرج منها حفنة من اللبّ الطازج. كانت باردة طيبة، ولذيذة، على الرغم من صعوبة تناول بذورها الصفراء. ولأن هذه هي المرة الأولى التي تذوّق فيها طعم البطيخ، فقد راح يقشّر ويأكل حتى لم يتبقّ سوى القشر والبذور.

هدأت حدّة جوعهم، فجلسوا وراحوا يراقبون النمال السوداء، وهي تجمع الفاكهة. كانت النمال تقطع الكرمة، بفكوكها الكبيرة التي تبدو خطيرة، ثم تلتقط البطيخ بقائمتيها الأماميتين، وتمضي مبتعدة على قوائمها الأربع الأخرى. بدت وكأنها تتجاهل تماماً، أيّ كائن حيّ آخر يقطع عليها طريقها. سارت إحدى النمال نحو بطيخة ضخمة ناضجة، تقف عليها فراشة وتتغذّى منها، فقطعت النملة الكرمة، وواصلت تقدّمها لتقطف البطيخة بقائمتيها الأماميتين، بينما ظلت الفراشة فوقها، غير عابئة، على ما يبدو، بالنملة، وواصلت الأكل، إلى أن اختفت الثمرة فجأة. طارت مبتعدة من فوق رؤوسهم، محدثة تيارات من الهواء بجناحيها.

وجدوا في كل هذا النشاط متعة لا حدّ لها؛ فقد اعتادوا على الصحراء، حيث تندر تلك الأمور التي تشد الانتباه، ولا يوجد ما يفعلونه سوى الجلوس لساعات كسالى، في أعماق الجحر. أما هذا العالم الجديد المتنوع بغير حدود، فيماثل عرضاً رائعاً للصور، وحينما يشعرون بالملل، تثيرهم مرة أخرى أعجوبة جديدة.

انهمك ڤيج وهرولف في مناقشة حول ما إذا كانت النمال نباتية. هرولف مقتنع بأنها

كذلك، بينما ذهب ڤيج إلى القول بأن فكوكها المنشارية تبدو كما لو أنها مُعدّة لتمزيق اللحم. وسُوّي هذا الخلاف، حينما لاحظ نيال حركة في البعيد، ورأى نملة سوداء تجرّ جثّة جندب تزيد في الحجم عن مثلي حجمها. اضطرّت النملة للتراجع، وبالرغم من ذلك، فقد اقتفت أثر النمال الأخرى، دون أن تخطىء أو تنظر ولو مرة واحدة، حولها للتأكّد من اتجاهها. توصّل نيال إلى حلّ لهذا اللغز، عندما لاحظ وجود نقاط صغيرة لزجة على الأثر، وشاهد إحدى النمال وهي تسقط نقطة مماثلة من مؤخرة جسمها، كان من الواضح أنها تترك أثراً تتبعه النمال الأخرى عن طريق حاسّة الشم.

تتبعوا، من باب الفضول، النملة، وهي تجرّ جثّة الجندب، وتمشي فوق الأثر. وعند موضع معين، دنت نملتان أخريان، بدا أنهما تعرضان المساعدة. وراح البشر يراقبون ذلك المشهد، باهتمام، متوقّعين رؤية نموذج تعليمي، يظهر كفاءة النمال. والواقع أنه لم يكن لدى النمال الثلاث خطة محدّدة. فقد حاولت إحداها أن تدفع نفسها تحت جثة الجندب، بقصد حمله، بينما قبضت الأخرى على جناحه بفكّيها، في حين واصلت النملة الأصلية جرّه للخلف. وقد جعل هذا الوضع جثة الجندب تتأرجح على جانبي ظهر النملة، ثم تنزلق، في الوقت الذي تمزّق فيه غشاء الجناح نتيجة لقوّة الجندب، فأصبحت هذه الشريحة الرقيقة من نصيب النملة الثالثة. بعد ذلك، واصلت النمال الثلاث السير، بين شدّ وجذب لجثّة الجندب دون أيّ تنسيق للجهود، الأمر الذي أدى إلى فعالية أقل مما لو كانت نملة واحدة قد سحبت الجثة. وجد البشر في ذلك الارتباك صورة هزلية صاخبة، فانفجروا ضاحكين.

سرعان ما عثروا على جحر النمال، وهو عبارة عن حفرة واسعة في الأرض، على مقربة من جذور شجرة سنط. وقفت نمال كبيرة الحجم، مثل الجند، في نوبة حراسة، وكانت تلمس برفق، بواسطة قرونها، كل نملة تدخل الجحر، وهو ما يعني افتراضاً أنها تتحقّق من هويتها. جلسوا على مبعدة، وراء شجرة سنط شائكة، وراحوا يراقبون حركة المرور، التي لا تتوقف. لم يدركوا أن الاختباء كان غير ضروري، ذلك أن جنود الحرس من النمال عميان، والشغيلة ضعيفو البصر، وحاسة الشم الحادّة هي التي توجه النمال، التي كانت قد عرفت أن كائنات من ذوات الدم الحار تراقبها من وراء الشجيرة الشائكة. لكن لم يكن لديها سبب لشنّ هجوم، نظراً لوفرة الطعام، وعدم ظهور دلالة على أن الكائنات تنوي إلحاق الأذى بها.

بدأ هرولف يشعر بالضجر من متابعة المشهد، وأحسّ نيال أن دفء الشمس جعله ينعس، رغم أنهم تحت ظلال السنط. بيد أن ڤيج، الذي كانت تتملكه غرائز حب

الطبيعة، راح يراقب الموقف كله، باستغراق تام. إنه هو الذي اكتشف أن الشجرة التي تظلّلهم، والشجيرات المحيطة بهم، ما هي إلا جزء لا يتجزأ من قرية النمال. فوسط فروع الشجرة، وفي جذور الشجيرات، تقطن اليرقات الخضراء، التي تبدو مثل كرمات كبيرة، تقتات على الأوراق والسوائل التي تجري في أوعية النبات. قد تقترب نملة، في بعض الأحيان، من يرقة وتضرب البطن، البصليّ الشكل، بقرنيها، فتخرج كريّة كبيرة عبارة عن مادّة شفافة لزجة من القناة الشرجية، فتلتهمها النملة، التي قد تطلب المزيد، فتضرب بطن اليرقة. جرَّب ڤيج الأمر بنفسه، بأن ضرب بخفّة على بطن يرقة ترقد عند جذور شجيرة، في البداية لم تكن هناك استجابة، حيث كانت لمسته تعوزها البراعة، لكنه حقّق في النهاية الضربة الصحيحة بظفر أصبعه، فخرجت الكريّة ذات المادّة اللزجة. تذوّقها ڤيج، بحذر، ثم قطّب وتلمّظ، وتذّوقها مرة أخرى. أغرى ذلك نيال وڤيج على خوض التجربة، فكانت المفاجأة كبيرة، فالمادة عبارة عن شراب طيّب، ورغم أنها ذات نكهة نباتية غريبة، فإنها أرضت المعدة. لم يجدوا، باعتبارهم من قاطني الصحراء، أي غضاضة في تناول إفرازات الجهاز الهضمي لذبابة خضراء، وغالباً ما تناولوا أشياء أسوأ منها.

قال هرولف وهو مستغرق في التفكير: «يا للأسف! لن نستطيع أن نحمل معنا للبيت بعضاً من هذه الحشرات».

رد ڤيج: لقد حصلنا عليها بالفعل. ها هي ذي بين أيدينا.

لم يكن هناك أي كائن حي على مسافة ميل من الجحر، لا يعرف ڤيج عاداته.

شاهدوا بعد ذلك كائناً غريباً آخر، خنفساء ضخمة قاطعة طريق، ذات ظهر مدرّع عريض، سارت باضطراب أمامهم في اتجاه مدخل الجحر. توقّعوا أن تتعرض على الفور لهجوم، أو مواجهة مع النمال الجنود. اقتربت من نملة شغّيلة عابرة، ومدّت وجهها نحوها، كما لو كانت تدعوها لقُبلة، ثم ربتت في الوقت ذاته على النملة بقرنيها القصيرين. توقفت النملة في مكانها، وأخرجت قطرة صغيرة، متلألئة من فمها، لتدخل فم الخنفساء. بعد لحظة، أحسّت النملة أنها قد أوقفت بناء على إدّعاء كاذب، فهاجمت الخنفساء بضراوة. أقبلت نملتان أخريان عابرتان، وشاركتا في الهجوم. بدا أن الخنفساء لم تأبه للخطر، واستلقت على ظهرها، ثم رفعت قائمتيها في الهواء، كما لو كانت ميتة. حاولت نملتان قضم بطنها المدرّع بفكوكها، وبذلت أخرى أقصى ما بوسعها، لضرب الرأس المشدود للداخل. كفّت، بعد خمس دقائق عن المتابعة، وواصلت السير. تقدمت الخنفساء ببطء، مقتربة من نملة أخرى من الشغيلة، فكررت ما فعلته مع الأولى.

فهموا ما حدث، عندما ظهرت نملة شغيلة من الجحر، واقتربت من شغيلة عائدة، وربتت عليها بقرنيها، رافعة، في الوقت ذاته، فمها نحوها. كان من الواضح أن الشغيلة تقوم بجمع الرحيق من الأزهار، وتخزنه، على ما يبدو، في الجزء الأعلى من أجسامها. وإذا ما أرادت نملة أخرى تناول الطعام، فإنها تقترب من حاملة الرحيق، وتعبر عن رغبتها تلك بقرنيها، ثم تحصل على قطرة من الرحيق الذي تلفظه الأخرى. وجد هرولف ونيال صعوبة بالغة في ثني ڤيج عن تجريب ذلك، فإذا ما قرّرت النملة الشغيلة مهاجمته، فلن يجديه نفعاً الاستلقاء على ظهره، ورفع ساقيه في الهواء. اقتنع، في نهاية المطاف، إلا أنهما لم ينجحا في إبعاده عن جحر النمال. فقد فتنته أنشطتها، وأراد أن يفهم على نحو دقيق كيف يعمل مجتمع النمال. في النهاية، ذهب هرولف ونيال، وهما يشعران بالاشمئزاز، بحثاً عن طعام، والاستمتاع ببرودة مياه الجدول. وشعر نيال بسعادة غامرة وهو جالس في أعمق مكان في الجدول، حيث تتدفّق المياه فوق كتفيه، بينما كل ما يفعله هو الاسترخاء، ودراسة الضوء المنعكس على السطح المترقرق. لم يؤدّ هذا الوضع إلى تهدئة ساقيه الممتلئتين بالرضوض، ويديه اللتين تنتشر فيهما الخدوش فحسب، بل ساعده أيضاً على الإحساس بسيطرة داخلية على نفسه على نحو غريب.

انحرف منطادان عنكبوتيان، قبل ساعة من حلول الظلام، ليصبحا فوق مستوى قمم الأشجار. في هذا الوقت، كان الثلاثة مستقرّين في ملجأهم تحت الصخرة، وقد أغلقوا المدخل بحاجز مزدوج من الشجيرات الشائكة. راقبوا المنطادين من خلال فجوات صغيرة وسط الفروع، واتّفق ڤيج وهرولف، على أن هذه لا بد وأن تكون دورية وتيرية، حيث لم تولد حركتهما إحساساً بأنهما في مهمة مراقبة.

تمدّدوا في الظلام، وقد لفّوا أنوفهم ببطاطين من حرير العناكب، مُسْتلقين فوق حشايا سميكة من أعشاب ذيل الثعلب ذات الرائحة الطيبة، والتي كانت ليّنة، مرنة، بعكس أعشاب الحلفاء في الصحراء. حاول ڤيج أن يقنعهما بالبقاء لأسبوع آخر. بدا أن هرولف قد اقتنع، لكن نيال شعر بالحنين للعودة إلى بيته، فقد افتقد أمّه وأخته. وبالإضافة إلى ذلك، أوحت إليه حاسّته السادسة أن شقيقه يدبّر خطة خطيرة.

تأكّدت صحّة ما أحسّ به. فبينما كانوا يستحمّون في الجدول في اليوم التالي، كشف لهما ڤيج عما يدور في ذهنه. بل إن هرولف، الذي عادة ما يكون على استعداد للسير على خطى ڤيج ـ ساورته الشكوك.

قال له: سوف تأكلك حياً!

ـ إذا ما كنت شديد الحماقة.

كان ڤيج يخطط للحصول على بعض يرقات النمال ـ وهي الفراخ المفقسة ـ ويربيها في الجحر مثلما ربى دبّور البيبسيس. وحتى يستطيع اختطاف اليرقات، فقد أراد المخاطرة باقتحام جحر النمال. واعتقد أن كلمة السر تكمن في تغيير رائحته. وقد استنتج في البداية، بعد أن ظل يراقب النمال طوال اليوم السابق، أنها تتعرف على بعضها البعض عن طريق حاسّة اللمس، حيث يلامس الجند من النمال الشغيلة، قبل أن يسمح لها بالدخول ـ الأمر الذي يعني افتراضاً كذلك أن الجند عميان. بيد أنه راقب الخنافس والديدان الألفية، وهي تقترب من مدخل الجحر، والجند من النمال تصدّها بينما كانت لاتزال بعيدة عن المدخل. كما قامت أيضاً بصدّ نمالٍ بنية ضخمة، من الواضح أنها جاءت من قرية أخرى. بل إن النمال الشغيلة أبدت، بشكل حاسم دلائل عدم ثقة تجاه هؤلاء الأجانب. أوحى له ذلك بأن النمال تميّز الأصدقاء من الغرباء، من خلال حاسّة الشم. كما بدا أيضاً أن هذا يفسر السبب في أن كائنات معينة ـ مثل الخنفساء قاطعة الطريق ـ تستطيع إقناع النمال بلفظ الطعام من حواصلها. لقد نجحت هذه الكائنات إلى حدّ ما، في تزوير رائحة النمال.

سأل نيال: وكيف ستجعل رائحتك مثل رائحة نملة؟

ـ تلك المادّة التي تستخدمها لتمييز أثَرها ـ إنها نوع من الزيت.

ـ ولكن إن لم تنجح، فإنها ستقتلك. لقد رأيت الطريقة التي هاجمت ثلاث منها تلك الخنفساء.

أما ڤيج، الذي لا يتكلم إلا قليلاً، فقد قال بعناد: سوف أخوض التجربة، على أية حال.

انتظر هرولف ونيال على مبعدة، بينما أخفى ڤيج نفسه وراء شجيرة، بجانب قافلة النمال. عندما أسقطت نملة عابرة نقطتها من المادة الزيتية، اندفع ڤيج كالسهم، والتقطها ومسحها في جلده. في غضون نصف ساعة، كان جسمه مكسواً بخليط من الزيت والرمل والتراب، بل إنه مسح المادة في شعره. اقتربت نملة سوداء من القافلة، وسار ڤيج دون تردد نحوها. كان لزاماً على نيال أن يعجب بشجاعة أخيه، فعلى الرغم من أن النملة أصغر من إنسان، إلا أنها بدت مرعبة بقوائمها العنكبوتية الطويلة، وفكّيها القويين. لم تتوقف النملة، بل واصلت السير ودارت حول الإنسان الذي اعترض طريقها، واستمرت دون أن تغير سرعة خطوها. وكانت تلك دلالة طيبة. جرى نيال للأمام واختفى وراء شجيرة. مرّت عدة نمال من أمام أخيه، ولم تبد أيّ اهتمام به. تابع نيال الموقف، وقد حبس أنفاسه، محاولاً السيطرة على خفقان قلبه. اقترب ڤيج ـ الذي مايزال يبعد بضع مئات من الأمتار ـ

ببطء شديد. رأى نيال أنه من الأفضل أن يحاول تهدئة دقات قلبه المتسارعة، وهو أمر تعلمه منذ نعومة أظفاره. لذلك فقد تناسى ڤيج، وحوّل انتباهه إلى خوفه، فأصدر إليه الأوامر بالتوقف. تجاهل الخوف، للحظة، الأوامر، لكنه سرعان ما انصاع لها. حاول بشكل أكبر، فالتمعت نقطة الضوء داخل رأسه. وعندما رفع ناظريه مرة أخرى، رأى ڤيج يقف على بعد خمسين متراً فقط، وجعله جلده اللامع المكسو بطبقة من الطين، يبدو مضحكاً. واستطاع نيال أن يشعر بخوفه وتصميمه. وكان ڤيج يسيطر على توتّره، مثل نيال. وقد خرجت نملة شغيلة من الجحر، وتقدّمت نحوه. أدرك نيال مدى اضطرابها، عندما اقترب ڤيج منها. فالرائحة مألوفة، لكنها ليست الرائحة الصحيحة. إلا أنها أحسّت بأن هذا الكائن لا يشكّل أيّ عداء، نظراً لأن رائحته مثل رائحة نملة. . لم يدرك نيال أنه قرأ ما بداخل ذهن النملة، إلا بعد أن تجاوزت النملة وڤيج، كل منهما الآخر. إنه إحساس يماثل إحساس التحول فعلياً إلى نملة، كما لو أنه تَلَبّس للحظة جسمها. وبينما كان داخل جسم النملة، أصبح أيضاً مطّلعاً على كل النمال الأخرى في الجحر. كان إحساساً مذهلاً كما لو أن ذهنه قد انشطر إلى آلاف الشرائح، بيد أن كل شريحة ظلت جزءاً لا يتجزأ من الكل.

اقترب ڤيج من النمال الجنود، فلم تبد عليها أي ظلال للشك في أن الكائن، الذي يسير على مهل نحوها، غريب يتعيّن مواجهته. هذه الفكرة جالت في خاطرة نحو ست منها، بدرجة من الوضوح كما لو أنها تتحدث بصوت مرتفع، بيد أن اثنتين منها فقط استجابتا لفكرة القيام بحركة عدوانية تجاه ڤيج، تنبه لها فاستدار وسار مبتعداً. تلاشى تركيز نيال، وكذلك نفاذ بصيرته داخل أذهان النمال.

ساورت نيال فكرة مثيرة. إنّ بإمكانه، إذا ما أراد، أن يتداخل مع نمط الاتصال بين النمال. فعلى سبيل المثال، بينما يكون داخل جسم نملة، بمقدوره أن يوحي لها بأن تقف في مكانها، بدلاً من أن تسير نحو ڤيج. إذا ما فعل ذلك، فإن النملة لن تدرك أنها تتصرف وفقاً لأوامره، بل إنها ستفترض أنها تطيع نفسها. . . وهكذا تسيطر العناكب على عبيدها من البشر؟

انضم ڤيج إليه خلف الشجيرة.

ـ محاولة غير موفقة. لا بد وأن المادة لم تكن هي الصحيحة.

ـ بطبيعة الحال. فتلك المادة تستخدمها النمال لترتيب سير القافلة، وليس للتعرف على بعضها البعض.

نظر ڤيج إليه بدهشة قائلاً: كيف عرفت؟

لم يكن بمقدور نيال أن يشرح له، فقد عرف ذلك بفطرته.

أصبحت الشمس الآن عمودية على رؤوسهم مباشرة، وتراجعت النمال إلى جحرها حيث الجوّ الرطب. وذهب ڤيج ليغتسل في الجدول، فاستمتعوا خلال الساعة التالية برفاهية الانتقاع في المياه الجارية، ثم الاستلقاء تحت ظلال النخيل، لتجفيف أنفسهم. وتسلّق هرولف إحدى أشجار النخيل، وهبط حاملاً فرعاً من البلح، بعد أن امتلأ ذراعاه وساقاه بالخدوش، بسبب الجذع الشائك، لم يكن البلح قد نضج، إلا أنه كان طيباً.

ثم عاد ڤيج ليدرس نماله، بينما راح نيال وهرولف يستكشفان طبيعة الأرض القريبة من الجدول. حدثت حركة حادة، عندما خرج خُنظُب(*) كبير من جحره تحت شجيرة واندفع نحوهما، ولكن عندما لاذا بالفرار، تخلى عن تعقّبهما. بدا أن معظم الحشرات في هذه المنطقة من أكلة الفاكهة، كما أن الطعام متوفر بكثرة. كانت هناك أنواع عديدة من الفاكهة، لم يعرفوا سوى القليل منها. من هذه الأنواع جميعها، بدا من الأسلم تناول أية فاكهة، وجدت الحشرات أنها قابلة للأكل، بالرغم من أن أكثرها إغراء، وهي كرة أرجوانية كبيرة ذات خطوط خضراء وصفراء، كانت زيتية المذاق ومريرة الطعم. أما الأنواع الأخرى، مثل الفاكهة المستديرة الصلبة، التي أوقعت نيال في حفرة الخنفساء، فكانت طيبة، ذات مذاق قابض، وبدت أنها الأثيرة لدى النمال.

نمت شجيرة، لا تختلف عن الصبار البرميلي، على حافة قفر صخري. كانت ذات أوراق طويلة جافة، امتدت إلى أن طالت الأرض - من المرجح أن ذلك بغرض جمع الماء - وبدت جافّة مثل حشائش الحلفاء. قطع نيال ثلاث أوراق وجدلها معاً لتصبح حبلاً. وكان صنع الحبال مهنة تعلمها منذ صغره، وأصبح ماهراً فيها، فلم يعد يستطيع أحد أن يميز بين ما يصنعه، وبين ما تجدله أمه. أما هذه المادة الجديدة، فبدت أسهل في جدلها، حيث راح يمزق شرائح الأوراق ويطيل الحبل، حتى وصل إلى ثمانية أمثال طولها الأصلي.

كان هرولف يجلس، في ذلك الوقت، فوق قمة حفرة صنعتها خنفساء، وراح يحثّها على الخروج بالقاء الأحجار. جعل الحجر الأول، الذي تدحرج إلى أسفل المنحدر، الخنفساء تحدّق خارج الحفرة، ولكن عندما أصاب الحجر الثاني رأسها، دفنت نفسها في الأرض، ورفضت الظهور مرة أخرى.

(*) ضرب من الخنافس لذكوره فكّان طويلان شبيهان بقرن الأيل.

راح نيال، الذي لم يجد شيئاً أفضل من ذلك يفعله، يلقي الأحجار في الحفرة، في محاولة لإصابة النتوء الخفيف الذي أشار إلى وجود الحشرة. ثم خطر بباله أن باستطاعتهم أن يُغروها للخروج إلى العراء، إذا ما عرض نفسه عليها كطعم، فبربط الحبل حول خصره، لن تكون هناك خطورة كبيرة. وقد اختبروا، في البداية، الحبل، فأمسك هرولف بطرفه، وشدّ نيال بكل قوته. بدا على أيّة حال، أقوى من الحبل المجدول من الأعشاب الذي يحملونه معهم. جلس نيال على حافة الحفرة، وراح يهبط، بينما الأحجار تتساقط. وقبل أن يصل إلى قرار الحفرة، برز رأس الحشرة من بين الأحجار. وانزلق نيال قدمين آخرين، ثم جلس ساكناً. كان هرولف يدفع بالحبل حسب القدر المطلوب. وقد خرجت الحشرة من بين الأحجار وجثت متطلعة إلى نيال. ولاح وجهها المصمت المتوعّد مروّعاً. ساورته الشكوك، وافترض أنها من الممكن أن تصعد إليه، قبل أن يتمكن من أن يصل إلى برّ الأمان.

أحسّ أن الحبل غير محكم حول خصره، وعرف أن هرولف يستعدّ لاستخدام مقلاعه. كان الطرف الآخر من الحبل، مربوطاً حول خصر هرولف. ثم طنّ الحجر فوق رأسه مباشرة، فجعل شعر رأسه يقف. كان تصويب هرولف موفّقاً، فقد أصاب الحشرة في وجهها، مما جعلها تجفل وترتدّ للخلف، فتسقط على قوائمها القصيرة. ولم يساعدها جسمها المدرّع الضخم على القيام بحركة سريعة، فتدحرجت على جانبيها. وأصاب حجر آخر جانب الوجه، فألحق به ضرراً واضحاً. وعندما أصاب حجر ثالث منطقة ما بين قرنيها، اتخذت الحشرة قراراً مفاجئاً بالتقهقر. وبدت العلامة الوحيدة لوجود الحشرة، بعد ذلك بثوان، مجرد نتوء وسط الأحجار، ثم اختفى أيضاً. وشدّ هرولف الحبل وسحب نيال إلى الأمان. تعانقا ثم ضحكا في صخب.

عثروا على حفرة أخرى على بعد بضعة مئات من الأمتار. ومجدداً ألقوا وابلاً من الأحجار، جعل الحشرة تخرج من بين الأحجار. انتظرت دون حركة متوعدة، عندما هبط نيال إليها. كان هذا الجمود، هو الذي يضيف التوابل إلى اللعبة. بدا الكائن المروع واثقاً من أن ضحيته لن تتمكن من الفرار. أحسّوا بدهشته وغضبه عندما وجد نفسه معرضاً للهجوم. استشاط غضباً حينما دمّر أول حجر ألقاه هرولف قرنه، الذي حاول رفعه إلى أعلى نحو نيال. وانتابه، للحظة، رعب حيواني، لكنه تحول إلى ارتياح حينما أخطأت الحشرة الثقيلة موطىء قائمتها وانزلقت على الأحجار. وأدت أربع تصويبات ممتازة بالمقلاع إلى تقهقرها بسرعة، ولم تبذل أية محاولة للانتقام بإمطار نيال بالأحجار. وبدا واضحاً أن هذا بسبب محاولة الضحية الهرب.

حينما عثروا على حفرة ثالثة، أقل عمقاً من الحفرتين الأخريين، شعر نيال بثقة أكبر

جعلته يتقدم باتجاه الخنفساء وهو منتصب القامة، ثم انحنى عندما أمطرها هرولف بالأحجار. ألقى ببضعة أحجار، لكنها ارتدت عن الدرع دون أن تلحق ضرراً بها، إلا أن تصويبات مقلاع هرولف جعلتها توليهم الأدبار.

ضاق نيال ذرعاً بدوره كطعم، أراد أن يجرّب استخدام مقلاع هرولف. وقد أبدى هرولف استعداداً لأداء دور نيال، لكن ضخامته، وثقل وزنه جعلا من المتعذر عليه القيام بدور الطعم. كما كان من غير الممكن أن يستطيع نيال سحبه من الحفرة. ثم طرأت لنيال فكرة جديدة. وقف هرولف على بعد بضعة أقدام من حافة الحجر، مباعداً ما بين ساقيه، ووقف نيال عند أقصى نقطة يسمح بها طول الحبل. ثم جرى باتجاه حافة الحجر عند زاوية، ينحدر عندها، ثم يعود مرة أخرى، مثل ثِقل عند طرف رقّاص الساعة، بينما مال هرولف للخلف ليتلقى ثقله. دفع وابل الأحجار، الخنفساء للخروج من ملجأها. نظرت حولها في حيرة، وفي عينيها تساؤل عما قد حلّ بضحيتها، بينما أتيح الوقت لنيال ليطلق قذائف عديدة من المقلاع. ورغم أن تصويبه لم يكن بارعاً، بالمقارنة مع هرولف، ولم تصب سوى واحدة منها الكائن في رأسه، إلا أنها جعلت الخنفساء تدفن نفسها في الأحجار.

شعرا بالحر من جراء الحركة، فعادا أدراجهما إلى الجدول، لترطيب جسميهما. حقّقت اللعبة مع حشرات الحفر، الغرض منها، وتخلصا من خوف المواجهة الأولى. وشعرا مرة أخرى بأنهما «محظوظان». وقد أثار نيال، وهما جالسان وسط مياه الجدول، الفكرة التي كانت تراوده على مدى اليومين السابقين، وهي إقناع العائلة بالانتقال من الصحراء إلى هذه الأرض التي يتوفر فيها الغذاء والماء. والتمعت عينا هرولف حماساً، لكن ذلك استمر للحظة فقط.

ـ لن يوافق الرجل القوي (جومار) على القدوم مطلقاً. إنه يخشى العناكب.

ـ لكن دوريات العناكب تأتي مرتين في اليوم فقط.

ـ أما في المكان الذي نقطن فيه الآن، فتأتي مرتين في الشهر فقط. وفي الصحراء لا تأتي على الإطلاق.

ثم أضاف بعد فترة صمت: وفي المكان الذي تقطن فيه عائلة أمي، تأتي مرة كل أسبوع.

لم يطرأ على ذهن نيال مطلقاً أن انجيلد جاءت أصلاً من مكان آخر، كان قد افترض

أنها من الأفراد الدائمين في العائلة.

- أين هذا المكان؟
- في منطقة الأنقاض، على مسيرة ثلاثة أيام نحو الجنوب.
- وما هي الأنقاض؟

لم يَجِرْ هرولف جواباً، فقد شعر بالحيرة، حيث لم تتبادر إلى ذهنه كلمات تشرح ما يقصده لكنه قال: «إنها مكان عاش فيه البشر في الأيام التي سبقت ظهور العناكب».

تساءل نيال وقد أذهلته الجملة: «الأيام التي سبقت ظهور العناكب؟».

- تقول الأسطورة إن هذه الأيام تعود إلى وقت حكم فيه البشر الأرض، وعاش الألوف منهم معاً في الأنقاض.

كانت الفكرة غير معقولة لنيال، فقد تصوّر أنه من المستحيل وجود عدد يزيد عن عشرات البشر معاً.

قال: الألوف؟ ولكن كيف يمكن لآلاف أن يعيشوا في جحور أو كهوف؟.

حاول أن يتصور مدينة مبنية من حفر تحت الأرض. إذا ما كانت الأرض قد امتلأت بالثقوب كقرص العسل، فإنها ستنهار حتماً.

- لم يقطنوا الجحور أو الكهوف. هل رأيت قرية النمل الأبيض؟ إن الإنسان اعتاد أن يقطن أماكن مثلها، فوق الأرض.

كان نيال قد شاهد قرية غريبة، مخروطية الشكل في إحدى رحلات الصيد.

- ألم تخفهم عناكب الموت؟

- يقول الرجل القوي إنه مر وقت كانت فيه العناكب صغيرة حتى لتوشك أن تكون بحجم قبضة يدي، وكانت تخاف الإنسان.

احتاج نيال للحظات حتى يستطيع استيعاب هذه الفكرة الغريبة. وشعر بانفعال قوي تلفّه لمسة خوف. فقد لقي البشر الذين تحدّوا العناكب حتفهم على نحو مرعب. كان نيال واسع الخيال حتى ليوشك أن يفقد شجاعته. ومع ذلك فإن هذه الفكرة المثيرة للدهشة القائلة بأن الإنسان كان ذات يوم سيداً على الأرض، جعلته يشعر بإحساس من البهجة يعادل إحساسه بالمياه الجارية. وعلى حين غرة، تصاعدت إلى رأسه مئات الأسئلة التي أراد أن يطرحها.

شتّتت تركيزه حركة في المجرى المائي، وللحظة، خفق قلبه من الذعر، ثم رأى أخاه قَيج وقد وقف في منتصف الجدول ملوحاً لهما. خاضا في المياه إلى أن وصلا إلى الشاطىء، وجمعا الحبل والرماح وهرعا للانضمام إليه.

بدا قَيج في حالة من الانفعال المكبوت.

ـ أين كنت؟ لقد بحثت عنك في كل مكان.

راح نيال يحدّثه عن حشرة الجحر، لكن قَيج قاطعه، وأشار باتجاه جحر النمال قائلاً: «إنها تتقاتل».

ـ بعضها البعض؟

ـ لا، أيها الأحمق. النمال الحمراء تقاتل النمال السوداء. هلمّ لترى! كان مشهداً مذهلاً. تمدّدت مئات من النمال المقتولة على الأرض، تحت ظلال الشجرة الهائلة، نمال حمراء وسوداء. ولاحت أعداد ضخمة من النمال الحمراء، تتدفّق خارجة من تحت الأرض في طابور منتظم. ورغم أنها أصغر كثيراً من النمال السوداء، إلا أنها بدت أكثر شراسة في القتال، وأسرع، وأكثر تنظيماً. حينما واجهت نملة حمراء، أخرى سوداء، اندفعت نحوها بتصميم وتركيز، ساعية لقضم القائمة الأمامية. كانت قوائم النملة السوداء طويلة وعنكبوتية بشكل يفوق قوائم النملة الحمراء، وإذا ما نجحت النملة الحمراء في تجنّب فكّي عدوّها، فإنها ستقبض على قائمتها، وتباعد ما بين قائمتيها وتصارع. أما النملة السوداء، فبمقدورها أن تحاول قضم ظهرها المدرّع فقط. وفي حالات عديدة، تقوم نملة ثانية حمراء، بالإمساك بالقائمة الخلفية أيضاً. وفي غضون لحظات، تدلّت القوائم المصابة وأصبحت عقيمة، أو تمدّدت مصابة على الأرض. بدت النملة ضعيفة مع إصابة أثنتين من قوائمها الست. هاجمتها النملة الحمراء من الجانب محاولة قلبها على ظهرها، ثم اندفعت نحو «الرقبة» حيث يتصل الرأس بالصدر. وبينما كانت النملة ترفس بيأس، هاجمت النملة الثانية نقطة يتّصل عندها الصدر بالجزء الخلفي، الذُنيب. وكان كل ما أثار انفعال نيال أن العملية برمتها بدت متعمّدة، ومخططاً لها بشكل محكم، بل لاح أن النمال الحمراء تقضم بشكل متناسق.

كان بمقدور النملة السوداء أحياناً ـ وليس غالباً ـ أن تفوقها براعة في المناورة. فإذا ما تمكنت من إبعاد قائمتيها الأماميتين عن فكيّ النملة المهاجمة، فإن النملة الحمراء ستختفي تحت بطنها، وستتمكّن السوداء من مهاجمة قوائمها الخلفية، أو «الخصر» بين

الصدر والذنيب. وبمقدور نملة حمراء أخرى أن تهاجم القوائم التي يصعب الدفاع عنها.

تابعوا المعركة بانفعال شديد. وقد تجاهلتهم النمال تماماً، حتى عندما مشت باضطراب بعد أن أصيبت قوائمها. وكان من الواضح أنها حرب ضروس حتى الموت، فالنمال الحمراء صمّمت على شقّ طريقها لاقتحام جحر الخصم.

سأل نيال: ولكن ما الهدف من هذا القتال؟

بدا من غير المعقول أن تدخل فصيلتا النمل بشكل مفاجىء في مذبحة متبادلة، وهما اللتان تقيمان في مكانين يبعدان عن بعضهما بنحو ميل فقط، وتتعايشان في سلام ـ حيث شاهد نيال النمال السوداء والحمراء تُغير على البطيخ معاً. ولاح الأمر، في البداية، كما لو أن النمال الحمراء على وشك الانتصار. لكن بعد نصف ساعة أو نحو ذلك، تغيّر الوضع. ورغم أن عدد النمال الحمراء تزايد حول الجحر، بيد أنه كلما تعرضت النمال السوداء للقتل أو الإصابة، تدفّق منها عدد آخر من الفتحة الموجودة في الأرض. وبدا أن خطتها في القتال لا تقوم على أساس السعي لمنازلة أعداد كبيرة من أفراد العدوّ، وإنما على أساس عدم تمكين النمال الحمراء من غزو جحرها. وقد رأى نيال في ذلك مثلاً فريداً للشجاعة والإيثار. فعندما تخرج عشر نمال سوداء من الجحر، يتعيّن أن تعرف كل نملة منها أنها سوف تتعرّض للقتل في غضون دقائق، ومع ذلك، فلم تكن هناك أية دلالة على التردّد أو الخوف. إذا ما كان هناك عدد كافٍ من النمال السوداء تحت الأرض، فإنها ستتمكّن في النهاية من صدّ العدوّ بالشجاعة والصمود.

وقع عندئذٍ حادث غريب. فقد جاء طابور من النمال السوداء من جهة جحر النمال الحمراء. افترض نيال أنها شغّيلة خرجت للبحث عن طعام، وأنها تعود الآن للدفاع عن جحرها. انتابته الحيرة، حينما تقدّم القادمون الجدد نحو المدخل، وراحوا فجأة يهاجمون الحرس. بدا واضحاً أن الارتباك قد أصاب المدافعين الذين ضلّلتهم رائحتهم، وظنّوا أنهم من نوعهم ذاته: أصدقاء يمكن السماح لهم بدخول الجحر. مع ذلك سعى الأصدقاء إلى قتلهم. ودافعوا عن أنفسهم على مضض، كما لو أنهم مقتنعون بأنّ في الأمر خطأ ما.

منح هذا الارتباك الفرصة للنمال الحمراء، التي اندفعت إلى داخل الجحر، في الوقت الذي قاوم فيه الحرس القادمين الجدد. وتدفّقت موجة جديدة من المدافعين لخارج الجحر، لتواجه مشهداً مثيراً للحيرة، فالحرس يقاتلون حتى الموت، نمالاً من نوعهم ذاته.

وندّت عن ڤيج فجأة ضحكة خافتة، لم تكن متوقعة، مما جعلهما يحدّقان فيه بدهشة.

قال ڤيج: الآن فهمت. إن جومار يعرف كل شيء عن النمال. فقد أصبحت النمال السوداء عبيداً. ذلك أن النمال الحمراء استولت على يرقات النمال السوداء، وأعادتها في صورة عبيد، وتسعى إلى دخول الجحر لسرقة المزيد من اليرقات.

أدركوا الآن ما يحدث. فالقادمون الجدد من النمال السوداء هم عبيد تمّ استدعاؤهم للهجوم على النوع الذي ينتمون إليه، فنفّذوا الأمر بطاعة عمياء. وطرأ على ذهن النمال الحمراء، في إحدى مراحل المعركة، أن بإمكانها استخدام عبيدها كجنود للصدام. وقد كشف هذا عن درجة من الذكاء. لكنه لم يكن بالقدر الكافي، حيث كان من الممكن تجنُّب هذا القتال وتحقيق الهدف. فمن المرجّح أنه باستطاعة العبيد دخول بيت النمال السوداء، وخطف كل اليرقات التي يريدونها، دون أية مصادمات.

تحطّم الآن دفاع النمال السوداء، واندفعت النمال الحمراء لداخل الجحر. وقد وقعت داخل الدهاليز المظلمة مذبحة سببها الإرتباك. وشعر نيال فجأة بالحزن. فقد كان يحدوه الأمل في أن تنتصر النمال السوداء. وابتعد خائفاً في المجرى المائي باتجاه أشجار النخيل، وبدأ يشعر بالجوع مرة أخرى.

بعد أن سار نحو خمسين متراً في الجدول، توقّف وراح يحدّق. تدافع طابور من النمال السوداء خارج الشجيرات ـ من الواضح أنه يتقهقر منسحباً من المعركة. وحينما حدّق بتركيز، فهم السبب. كانت النمال تسير في ثلاثة طوابير معاً، بينما حملت النمال في طابور الوسط اليرقات بقوائمها الأمامية. وبدا واضحاً أنها عملية إجلاء عن بيت الحضانة.

ألقى نيال نظرة خاطفة على المجرى المائي، فرأى أن النمال الحمراء تتغلّب على المدافعين من النمال السوداء. وبدا الأمر مثيراً للدهشة، حيث لم يلمح أحدٌ الطابور المنسحب من ساحة المعركة.

وشاهد النمال وقد فتحت مخرجاً خلفياً بالقرب من الشجيرات لترحل منه. لا بد وأن يكون الجحر تحت الأرض كبيراً ـ ليصبح بمثابة مدينة نمال تضمّ مئات الآلاف. وقد اشتمّ أحد الجنود من النمال السوداء رائحته، فقام بحركة مهدّدة باتجاهه. وكان أن انسحب نيال بسرعة إلى الماء. لقد بدا واضحاً أن النمال تخاطر بنفسها من أجل حماية اليرقات الثمينة.

لكن إلى أين تحملها؟ هل إلى معقل آخر؟ أم أنها تعتزم حفر جحر آخر في مكان بعيد؟

غادرت آخر نمال الطابور المنسحب الجحر. ولفت نيال انتباه ڤيج، ولوّح له. انهمك ڤيج وهرولف، في متابعة المعركة، فلم يلحظا النمال وهي تنسحب. وقد هرعا إلى المجرى لمتابعة هذا التطوّر الجديد. قامت مجموعة كبيرة من الجنود بتشكيل دفاعي مشدّد حول المخرج من الجحر. لاحت أول أعداد من النمال الحمراء الغازية عند المخرج، وشاهدوها وهي تشنّ هجوماً سريعاً. ولكن، كما توقّع نيال، فقد غيّرت النمال الحمراء، التي تدفّقت على المدخل، على بعد خمسين متراً، اتجاهها بشكل مفاجىء، واندفعت نحو المخرج. لا بد وأن إشارة خطّة التغيير قد اتّخذت بشكل فوريّ. وحاصر البعضُ مجموعة جنود النمال السوداء وهاجموها، وهرع آخرون في أعقاب الطابور المتقهقر. وجرى نيال بمحاذاة الضفّة البعيدة للجدول لمعرفة ما إذا كان الطابور سيشعر بأن هناك من يتعقّبه ويسرع الخطى. وقد أصابهما ما حدث بالدهشة: تحوّل طابور النمال نحو الجدول، دون تردّد، وخاض قادة الطابور في المياه. ولم يحجم عن القيام بذلك سوى النمال التي تحمل اليرقات. ونظراً لأن طول النمال أقل من قدم، فقد غمرتهما المياه، وجرف التيار القادة بعيداً. لكنها واصلت الإندفاع نحو المياه، وهي تتخبّط فوق ظهور قادتها الغرقى. وفي أقل من دقيقة، امتدّ جسر صلب من جثث النمال عبر الجدول، عريضاً بما يكفي لمقاومة القوة المتزايدة للمياه المرتفعة، ثم اندفعت النمال التي تحمل اليرقات فوق الجسر، وكأن إشارة قد صدرت لها. واحتشد الجنود على ضفة الماء لمقاومة انقضاض المتعقّبين.

واصل الثلاثة السير بمحاذاة النمال الهاربة، التي تحرّكت بسرعة، ولكن ليس بالقدر الذي بإمكانها التحرك به. لقد كان انسحاباً منظماً. بدا الآن القليل من الجنود الذين يحرسون الطابور، معظمهم ظلّ وراء الضفة البعيدة لصدّ المطاردين. وعبرت آخر النمال الحاملة لليرقات الجسر. وبدا الأمر كما لو أنها قد أصبحت في أمان، بينما كانت حشود الجنود من النمال السوداء كبيرة بالقدر الذي يكفي لصدّ المهاجمين لبقية اليوم.

بيد أن النمال الحمراء دبّرت خططاً أخرى. فقد انحرف طابور المطاردة نحو المياه، التي كانت ضحلة، بعد أن شكّلت جثث النمال السوداء سداً على بعد أمتار قليلة. ثم مدّ جسر آخر من الجثث، وفي غضون دقائق، أغلقت النمال الحمراء الطريق على الطابور المنسحب. وعندما اقتربت النمال الحمراء من المؤخرة، أسرعت النمال السوداء، التي كانت تدافع عن الجسر، في مطاردتها. بدا الأمر، مرة أخرى، كما لو أن أحداً قد نفخ في بوق وأصدر لها أوامر جديدة. أدرك ثلاثتهم بذعر أنهم وقعوا بين الجيشين، في الوقت الذي تندفع نحوهم النمال الحمراء. لكنهم كانوا غير ظاهرين للنمال. للحظة، وقعوا في وسط بحر من النمال الحمراء، بينما تخبطت الجثث في

سيقانهم. لم يضيعوا وقتاً في الانسحاب إلى مكان آمن.

وقعت حالة من الفوضى. لقد تعرّضت النمال الحاملة لليرقات للهجوم، وفي بعض الأحيان كان يصل عدد المهاجمين إلى ست نمال في المرة الواحدة، فاضطرت إلى التخلي عن حملها للدفاع عن نفسها. وعلى الفور، كانت نملة حمراء تلتقط اليرقات، وتتقهقر وظهرها باتجاه الجدول. وهنا تواجه بعض الجنود من النمال السوداء، حيث يقع مزيد من القتال، ينتهي أحياناً بأن تستردّ النمال السوداء اليرقات.

تطلع نيال إلى قيج، فعرف ما يفكر فيه. فقد تمدّدت على الأرض يرقات عديدة تمّ التخلي عنها بينما استمرّ الصراع بين النمال. وشاهدا يرقات بيضاء يبلغ طول الواحدة منها حوالي ثلاث بوصات.

التقت عيناهما. وطلب ڤيج، في لحظة الأزمة هذه، النصيحة من أخيه قائلاً: «هل تستحق المغامرة؟». وعرف، من وجه نيال، أن الردّ بالايجاب.

اندفع قيج وسط النمال المتصارعة، وجمع في غضون ثوان، نحو ست يرقات. كان ينال يحمل جراباً يحتوي على بلح، وقليل من الفاكهة. أفرغ هذه الأشياء على الأرض، عندما عاد ڤيج حاملاً اليرقات.

قال ڤيج: لنذهب!

بيد أنه على بعد عدة أمتار، تعرّضت نملة سوداء لهجوم من قبل العديد من النمال الحمراء، فاضطرت للتخلّي عن اليرقات للدفاع عن نفسها. اختطفت احدى النمال الحمراء اليرقة من على الأرض واندفعت نحوهما. وانحنى ڤيج فاختطف يرقة بحركة سريعة. وقد بدا أن النملة قد لاحظت، لأول مرة، وجودهما، فاندفعت، دون تردّد، نحو ساق ڤيج الذي تنحّى جانباً بينما كان فكّاها القويان على وشك قضم ربلة ساقه. وركلها، فطارت في الهواء، ثم هبطت على بعد ستة أقدام في قلب ساحة القتال.

هتف ڤيج قائلاً: اركض!

لم يكن من المناسب العودة إلى الجدول، حيث امتدّت المعارك على جانبيه. وباتت البرّيّة منطقة الأمان، على الأقل في الوقت الحالي.

وتطلّع نيال للخلف، أثناء عدوهما. فأكّد ما رآه مخاوفه، فقد انحرف طابور من النمال الحمراء عن المجموعة الرئيسية، وتحرك نحوهما. فأمسك بخفّة ذراع ڤيج مشيراً إلى الطابور. وصبّ ڤيج اللعنات، وقد ساوره الفزع.

سأله نيال: هل أتخلص من اليرقات؟

ارتسم العناد على وجه ڤيج، وقال: «لا. لن تتمكّن من اللحاق بنا».

لم تكن النمال، في الواقع، تتحرّك بسرعة. بيد أنها واصلت السير نحوهما دون أن تخطئهما، وبدت حركتها متّسمة بعزم مخيف.

وخرجا من بين الشجيرات عند حافة القفر. لم تظهر النمال، للحظة، فأشار ڤيج نحو صخرة كبيرة تبعد عشرين متراً إلى اليسار، فهرعا نحوها. بعد لحظات قليلة، خرج طابور النمال من تحت الشجيرات، مندفعاً، دون تردد، نحو الصخرة، فقد كانت النمال تتبع رائحة اليرقات.

قال هرولف: لا أريد أن أعدو أكثر من ذلك فوق هذه الأحجار. لماذا لا نحاول العودة إلى الجدول؟

بيد أنهم حين هرعوا عائدين إلى الشجيرات، ظهر المزيد من النمال الحمراء، تقدّمت العشرات منها في صفّ خرج من تحت الشجيرات. بدأ نيال، فجأة، يشعر بالذعر. فقد كانت هناك نمال أمامهم، وأخرى على يمينهم. وإن لم يتصرفوا بحذر، فسيجدون أنفسهم محاصرين. وكان أن استداروا، عائدين نحو القفر. وشعروا، في الحال، بالأحجار الصلبة، المستديرة تحت أقدامهم. أحسّ نيال، الذي كان يحمل الجراب الذي يحوي اليرقات ويهتزّ فوق ظهره، والحبل الملفوف حول كتفيه، ويمسك برمحه في يده اليمنى، بأنّ من الصعب عليه الاحتفاظ بتوازنه على هذه الأحجار الزلقة، التي تتحرك تحت قدميه، وكاد يسقط على ركبته، فاستخدم رمحه لاستعادة توازنه، بينما بدا أن النمال لا تواجه صعوبة في السير فوق الأحجار.

فجأة، انحرف هرولف، الذي تقدّمه بنحو عشرة أمتار. كان على وشك أن يسقط في جحر حشرة الحفرة. وقد تعيّن عليهم أن يجروا حول حافتها، وكلّفهم تغيير المسار ثواني ثمينة. فقد أصبحت أقرب النمال إليهم على بعد خمسين متراً.

ولاحظ ڤيج المحنة التي يواجهها نيال، فخطف الجراب منه قائلاً: «سوف أحمله». طرحه على ظهره، وواصل العدو.

وبعد بضعة أمتار، واجهوا حفرة أخرى. فانحرف نيال وهرولف نحو اليسار، بينما استدار ڤيج إلى اليمين. وغيّرت أقرب النمال مسارها وتبعت ڤيج. ولم تكن إحداها سريعة بما فيه الكفاية؛ فسقطت في الحفرة. وألقى نيال نظرة سريعة للخلف، فلمح النمال

وقد اقتفت كلها أثر ڤيج، فشعر بالارتياح. كما لاحظ أن النملة التي وقعت في الحفرة تجد صعوبة في الصعود مرة أخرى. أدرك نيال الحلّ، بشكل مفاجىء، كما لو أن أحداً قد همس في أذنه. وبدا أن الهاماً قد منحه قوة جديدة، فجرى خلف ڤيج بخطى مسترخية، يسيرة. لم يكن صعباً عليه أن يلحق به. كان ڤيج يسير بخطى متزنة بشكل متعمّد، وهو يقبض على الجراب المتدلي على جنبه، حتى يمنعه من الاهتزاز، بيد أنه بدأ يشعر بالقلق.

صاح نيال: توقف، يا ڤيج. لحظة!.

ردّ ڤيج دون أن يخفف من سرعة عدوه: ولِم؟

ـ لقد عرفت طريقة تمكّننا من التخلّص منها.

توقّف ڤيج هذه المرة قائلاً: كيف؟

ردّ نيال: سأريك. أعطني الجراب!

فكّ الحبل من حول كتفيه، وربط طرفه حول خصره. ثم أعطى هرولف الطرف الآخر، قائلاً: «سأحاول أن أضلّلها إلى إحدى حفر الحشرات».

اقتربت النمال بشكل خطير، يتقدّمها ڤيج.

وشاهدوا، على بعد مئة متر، حفرة على يسارهم. فانحرف نيال باتجاهها. وتوقّف، للحظة، عند قمتها، ثم جثم، وانزلق على الحافة. وتوقّف على بعد نحو عشرة أقدام. وانهمرت الأحجار نحو القاع، فاهتزت الأرض، وظهر وجه حشرة الحفرة البشع.

بعد لحظة، ظهرت النملة الأولى، عند قمة الحفرة. استمرّت تعدو، دون تردد، وراء نيال. إلا أن قوائمها انزلقت على الأحجار، وراحت تنزلق، وهي تحاول إبطاء سرعة انهيارها، ومرّت مسرعة من جانبه. وتبعتها نملة أخرى، وقد اندفعت باتجاهه، فاضطر إلى القفز لأحد الجوانب، ليمنعها من الاصطدام بساقيه. ثم اندفعت عشر نمال من فتحة الحفرة، هابطة نحوه. واجه جميعها المشكلة ذاتها، فحركتها المنزلقة، جعلت من الصعب عليها التوقّف، فهبطت وسط وابل من الأحجار. واصطدمت نمال أخرى بها، فانزلقت معاً لأسفل.

كان هرولف وڤيج يقفان عند أعلى الحفرة، وقد أمسكا بالحبل، الذي بات مشدوداً. ولسعت إحدى النمال، ساق نيال أثناء انزلاقها، فأدمتها.

أدرك أن الأمر سيكون خطيراً إذا ما مكث أطول من ذلك. فراح يتسلّق بعجلة وحذر المنحدر من جهة الحافة الأخرى. وتبعه العديد من النمال، بيد أنها وجدت من المستحيل

التشبّث بقوائمها دون وجود ميزة الحبل المشدود. وصل نيال، بعد لحظات، إلى الأمان عند حافة الحفرة، بعد أن سحبه قيج وهرولف. وبدت الحفرة وراءه، قد امتلأت بالنمال التي تتخبّط محاولة الخروج. راح المزيد من النمال يتدفّق فوق حافة الحفرة من الجهة الأخرى لينضمّ لحشود النمال بالأسفل.

أخذت حشرة الحفرة، عند القاع، تستعرض قوّتها الهائلة: ارتفعت فوق النمال، بجسمها المدرّع الضخم. وبمجرد أن اقتربت نملة منها، هبطت عليها بكل قوتها، وسحبتها بقائمتيها الأماميتين القويتين. وهشّمت قضمة واحدة من فكيها الشبيهين بفكي القرد، الرأس، وراحت تقضم خصرها بين الصدر والذنيب. وقد بدا واضحاً أن الحشرة لم ترهب الحشود الكبيرة من الأجسام المتصارعة التي انزلقت إلى مصيدتها، فراحت تقتل كالآلة. وتحوّل القاع في الحال إلى بركة دم. وحاولت النمال الدفاع عن نفسها مستخدمة قرونها، ولكن دون جدوى، فحتى عندما نجحت نملة وهي تنفق في غرس زبانيها في رقبة الكائن، حطّمته الحشرة بسهولة بفكّيها.

انزلقت آخر دفعة من مطارديهم في الحفرة، بدا أن هناك أكثر من مئة نملة، تتدافع فوق بعضها في الحفرة. وكان من المستحيل على هذا العدد الكبير أن يتمكّن من الهرب. فقد حالت حشود الأجسام دون إتمام أية محاولة لتسلّق جوانب الحفرة. ونجحت بضع نمال في سحب نفسها بعيداً عن الحشود، والوصول إلى حافة الحفرة، لتواجه البشر، الذين دفعوها برماحهم لتتدحرج مرة أخرى إلى القاع.

فهم نيال الآن، مثالب نظام الاتصال بين النمال. فقد أصبحت وسيلة الاتصال بين أذهان النمال، والتي جعلتها على هذه الدرجة المرعبة من القدرة على المطاردة، وسيلة معوقة، تسببت في جعل كل منها تشارك في الاحساس العام بالاضطراب والهزيمة.

ظلوا يشاهدونها لمدة نصف ساعة تقريباً، حتى أصبح من الصعب على حشرة الحفرة أن تتحرك وسط أكوام جثث النمال. باتت النمال نفسها، بليدة الحركة، كما لو أنها فقدت القدرة على المواجهة.

وأدار الثلاثة ظهورهم للحفرة التي تحولت إلى مذبح، وساروا عائدين إلى الجدول، بعد أن بدأت الشمس تقترب من الأفق الغربي. ساروا ببطء، بعد أن أصاب الركض فوق الأحجار، أقدامهم بالتيبّس. وشعر نيال بثقل غريب داخل رأسه، كما لو أن كل انفعالاته، قد استنزفت. بل إنه لم يشعر، عندما شاهد المناطيد العنكبوتية وهي تحوم بارتفاع منخفض فوق الأشجار أمامهم، بأي رعب، وشاهدها، كما لو أنها سحب عابرة.

سلكوا طرقاً جانبية، ووصلوا إلى الجدول عند نقطة تبعد نحو ميلين عن جحر النمال السوداء. كان الأمر الذي أثار رعبهم هو احتمال أن تشتمّ النمال الحمراء رائحة حملهم من اليرقات، فقد أدركوا أنه ليس بينهم أحد لديه القوة التي تمكنه من العدو عائداً إلى القفر.

إلا أنهم لم يواجهوا أية نمال، بل مجرد بضع خنافس وديدان ألفية، وعنكبوت رمادي كبير، تأملهم بنهم عَبْر نسيجه الممتدّ بين شجرتين، بيد أنه لم يقم بأية محاولة لملاحقتهم.

وصلوا، في النهاية، عندما هبط الظلام، إلى ملجأهم تحت الصخرة. اكتشفت ذبابات ضخمة عديدة مخزنهم للبطيخ، إلا أنهم أبعدوها مستخدمين فروع الأشجار في ضربها. ثم سحبوا الشجيرات فوق المدخل، وغطّوا أنفسهم بالبطاطين المصنوعة من حرير العناكب، وراحوا في سبات عميق.

في اليوم التالي، انطلقوا قبل بزوغ الفجر. فبلغوا القفر، عندما ارتفعت الشمس. ولما شاهدوا من بعيد، قبل أن يهبط الليل بساعة، الأعمدة الكبيرة للصخرة الحمراء المشوّهة، شعر نيال بسعادة غامرة لأنه عاد مرة أخرى لأهله، فكاد أن يبكي. أحسّوا أنهم قد ابتعدوا عن الجحر لأشهر وليس لأيام.

وتحوّلت اليرقات، في غضون أيام، إلى نمال صغيرة، رمادية اللون، لا حول لها ولا قوة، ذات أفواه مفتوحة شرهة. وقد قضى قيج أيامه، وهو يجمع لها الطعام. وراح يبحث حوله عن فاكهة ناضجة يمكن هرسها لتصبح عصارة طيّبة. وقضى فترات الصباح بأكملها في إطعام النمال الصغيرة، بالعصير الذي جمعه في قرعة صغيرة. ووجد نيال أن النمال مبهجة ومسلّية، إذ أنهم لم يربّوا أية حشرات من قبل - فقد كان دبور البيبسير هائلاً، معتمداً على نفسه، بحيث يصعب إدراجه ضمن الحيوانات الأليفة. ووجدها مسلّية مثل أخته، مفعمة بالحياة ومولعة باللهو، بشكل يفوقها بكثير. صنع قيج لها عشّاً من أرقّ حشائش عثر عليها، فكانت تزحف خلف بعضها البعض، وتقضم قوائم بعضها بفكوكها، وحاولت أن تقضم أصبع نيال عندما نَخَسها. وتصلّبت بعد فترة قصيرة طبقتها القشرية الناعمة، وراح نيال يسلّي نفسه بنقرها بظفره، فيحدث ذلك صلصلة معدنية. وأحب أن يسترخي حتى يتآلف مع عقولها البسيطة الغريزية. وقد بدا الأمر كما لو أنه أصبح نملة صغيرة، فاستهوته فكرة أن يصبح طفلاً من جديد. وشعر أنه جزء من حالة تشوّش هائلة، سارّة، طنّانة، وأحس بدفء متوهّج، وأمان بدا أنه يمتدّ ليلفّ الكرة الأرضية برمّتها. وخرج بعد أن استلقى إلى جانب النمال، فواصل الإحساس بالأمان الكامل ذاته. ولاح له

ان نباتات الصبار والشجيرات شعرت بوجوده، ليس بشكل حاد وواعٍ ، ولكن على نحو دافىء ومتواني الفهم، كما لو كان ينبع من أعماق نوم هادىء. وحينما حاولت ذبابة ضخمة، أن تحطّ على ذراعه لتمتص بعضاً من دمه، لم يشعر بأي غضب أو اشمئزاز، ولكنه شعر بتفهّم متسامح لاحتياجها، وهشّها بعيداً بهدوء، دون استياء.

في غضون أسابيع، أصبحت النمال ضخمة، وراحت تفتّش في كل ركن من الجحر. وتعيّن على ڤيج أن يقضي وقتاً أكبر في البحث عن طعام لها، فقد بدا أن شهيّتها هائلة.

وذات صباح، استيقظ نيال من نومه مبكراً للغاية على جلبة نبش غريبة، آتية من أعماق الحجر، حيث توجد النمال. وتلمّس طريقه إلى أسفل النفق المنحدر، الذي يؤدي إلى المستوى المنخفض من الجحر، وتحسّس بحذر فراش الأعشاب الجافّة التي شكّلت عشّها، فوجده خاوياً. استدار ببطء وسط الظلام، فارتطم ببروز في الأرض. بدا أن جلبة النبش آتية من الظلام، خلف البروز. كان من الممكن التغلب على الغموض بمساعدة أي ضوء، ولكن حتى لا يزعج الآخرين، أخذ علبة القَدْح معه إلى أسفل النفق، وأشعل كومة من رقاقات الخشب. ومشى بحذر - حتى لا يتسبّب في إشعال النار في فراش الحشائش - ثم انسلّ إلى حجرة النمال. كانت خالية، ولكن وراء البروز الأرضي في أقصى طرف الحجرة، رأى فجوة في الجدار، وعندما أدخل شعلة النار فيها، اكتشف أنها منحدرة إلى أسفل. وتمكّن من أن يرى في قاع الحفرة انعكاساً للدرع الصلبة لنملة. وبعد لحظة، صعدت إحدى النمال النفق، وقد تشبّثت قائمتاها الأماميتان بحمل من التربة. ثم أودعته بنظام فوق الكومة على الأرض. وبعد لحظات، ظهرت نملة أخرى، حاملة الشيء ذاته.

ثمّ حلّ اللغز بعد ساعات عديدة، حينما كادت كومة الأرض الرملية تصل إلى السقف. كسا الطين القوائم الأمامية للنمال، بينما كانت الأرض رطبة. فقد حفرت النمال حتى وصلت إلى المياه الجوفية تحت الصحراء. بعد ساعة، لم يعد الطين يكسوها، وعندما أمسك ثورج بالمصباح الزيتي وأنزله في نفق النمال، تمكّنوا من رؤية اللهب وقد انعكس على الماء على بعد نحو ثلاثين قدماً تحت السطح. وحينما خمش ڤيج برقّة زور حدى النمال بأصابعه، وضعت فمها في مقابل أصبعه، ولفظت كمية من الماء. كان لون المياه بنّياً، ويميل مذاقها إلى الأملاح المعدنيّة، لكنّها باردة ومنعشة. ودرّب ڤيج، في لحال، النمال على لفظ الماء في قرعة، بعد ذلك، أصبح لديهم مصدر دائم للماء في لجحر. وقد بدت هذه الرفاهية مسألة لا يمكن تخيُّلها.

كبرت النمال، بين عشيّة وضحاها. وراحت تتجوّل خارج الجحر، تفتّش عن طعام

لها. وكانت تعود، أحياناً، وهي تحمل الفاكهة أو التوت. بينما دلّت اللزوجة المحيطة بأفواهها، في أحيان أخرى، على أنها أرضعت اليرقات من «المنّ» الذي لـديها. وبدت غريزتها للطعام غير عادية، فعندما كانت تغادر الجحر في الصباح، تنطلق في الصحراء وقد عزمت على شيء ما، وكأنها تعرف على وجه الدقّة، ما الذي ستفعله. كان نيال وڤيج، يتبعانها أحياناً، إلا أنهما عادة ما يكفّان عن المتابعة بعـد بضعـة أميال؛ فقـد كانـت تسير بسرعة، وتبدو وكأن التعب لا يعرف طريقاً إليها. كما أنها لم تكن أنانية قط. وعندما كانت تعود بعد ساعات، غالباً بعد أن يهبط الليل، تقوم على الفـور بلفـظ الطعـام فور صدور الأوامر إليها. وقد بات واضحاً أن الجزء العلوي من الجسم يعدّ بمثابة مستودع يتمّ ضغط الطعام فيه. وحينما تشعر النملة بالجوع، فإنها تهضم جزءاً قليلاً من مخزونها، فتسمح له بأن ينزل إلى معدتها. وفي غضون ذلك، فإن بمقدور أي شخص أن يصل إلى المخزن بمجرد أن يقوم بوخز زورها بخفة ويقدم لها الفم، أو قرعة صغيرة. وقد أبدت رونا أخت نيال ـ التي بلغت نحو العام من عمرها في ذلك الوقت ـ ولعاً شديداً برحيق المنّ اللزج، وباللّب الوردي الخفيف لثمرة تماثل البـطيخ. وتعلّمـت في الحـال إقنـاع النمـال لفـظ الطعام. وفي غضون بضعة أسابيع، تحوّلت من طفلة هزيلة، بالغة النحافة، ذات ذراعين شبيهتين بالغُصينات الجافة، إلى فتاة صغيرة بضّة، ذات وجه مستدير كالبدر.

فجأة، أصبحت الحياة مريحة بشكل أكبر مما عرفوه من قبل. ففـي ظلّ الظـروف الطبيعية، تكون حياة معظم الحيوانات بمثابة بحث مستمرّ عن الطعام، وهذا بات يطبّق دوماً على هذه المجموعة الصغيرة من البشر. لم يكن الأمر يعني شيئاً بالنسبة لهـم، أن يسيروا لمسافة عشرين ميلاً من أجل الوصول إلى فاكهة صبار أو بضع ثمار كمثرى شوكية. كان نيال، منذ نعومة أظفاره، معتاداً على الشعور الدائم بالجوع. أما الآن فقد كادوا أن ينسوا معنى الجوع، بعد أن راحت النمال ودبّور البيبسيس تقوم بمهمتها في البحث عن الطعام واصطياد الفرائس. لكنهم ظلّوا، من منطلق العـادة، ينفقـون بعض الوقـت في البحث عن الطعام، إذ لم يكن يضيرهم أن يعثروا على طعام. وقد حفر أولف حفرة عميقة في جدار الجحر، ليستخدموها كمكان لحفظ الطعام، وغطّاها بالأحجار. كانت الفاكهـة تحفظ في أعماقها الباردة لأسابيع في المرة الواحدة. وحتى إذا ما تعفّنت، فإنها لا تذهب هباءً. لقد تذكّر جومار أنه إذا ما تُركت الفاكهة المتعفّنة في الماء، فإنها تتخمّر وتنبعث منها رائحة غريبة تبعث على الغثيان، وبعد عدة أسابيع، يتحول السائل المتعكّر إلـى شراب لاذع يطفىء الظمأ، ويولّد إحساساً بالنشوة يدير الـرأس. وحينمـا احتسـى الرجـال هذا السائل، وهم جالسون في الجحر بعد هبوط الظلام، بينما عكس اللهب الضئيل للمصباح الزيتي ظلالاً هائلة على الجدران، راحوا فجأة يثرثرون ويسـتعيدون ذكريات حمـلات

الصيد التي قاموا بها. في الماضي، كان مثل هذا الحديث نادراً، حيث يعودون وقد أنهكهم التعب، ويشعرون بجوع شديد يجعلهم غير راغبين في هدر طاقتهم في تجاذب أطراف الحديث. أما الآن فإنهم لا يشعرون بالإنهاك أو الجوع، فيستمّرون غالباً في تبادل الأحاديث حتى ينطفىء المصباح الزيتي. ثم تأتي النمال، التي بدت أنها تستجيب لمزاج سادتها، وتتمدّد عند أقدامهم، وتشغل معظم الفراغ على الأرض، بينما ينام دبّور البيبسيس في عشّه المكسوّ بالفرو الموجود بأعلى الجدار.

استمع نيال، للمرة الأولى، إلى قصص الأجيال الأولى: عن «ايفار» القوي، الذي حصّن مدينة كورش القديمة، وقاوم كل محاولات العناكب لطرده إلى الصحراء، وعن «سكابتا» البارع الذي نقل الحرب إلى أرض العناكب، وأحرق عاصمتها، وعن «فاكين» الحكيم، الذي عاش مثل الرجال الآخرين، ودرّب عناكب الصحراء الرمادية على التجسّس في أرض عناكب الموت. وبدأ نيال يفهم، رويداً رويداً، سرّ كراهية العناكب للإنسان، وشعورها بالخوف منه، وسبب وصولها إلى حدّ القضاء عليه، واستعباده. لقد كانت حرباً طويلة ووحشية بين العناكب والإنسان، وانتصرت فيها العناكب لأنها تعلّمت أن تفهم أفكار الإنسان. تقول الأسطورة، كما رواها جومار، إن هذا قد حدث، لأن أميراً يدعى «هالات» أحب فتاة جميلة تدعى «تيرول»، لكنها فضّلت أن تتزوّج من محارب فقير يدعى «باسات». وجُنّ جنون هالات من الغيرة، وظل يحلم بتيرول ليلاً ونهاراً، فدبّر خطة لاختطافها من مخيّم باسات. كان كلب تيرول الوفي «أويكل» يصطاد الفئران خارج المخيم، فتعرّف على هالات من رائحته اللاذعة، فأيقظ سكّان المخيّم، وتمّ طرد هالات. ثارت ثائرة هالات حتى أنه أقسم على الانتقام وانطلق نحو مدينة العناكب. وهناك جعل الحرس يأسرونه، وطلب رؤية سيّد العناكب، وهو عنكبوت ذئبيّ هائل له مئة عين يدعى «شيب». عرض هالات، عندما وقف أمام العنكبوت الهائل، خيانة حليفه الملك «روجر» كدليل على حسن نواياه، وأُسلمت مدينة الملك روجر للعناكب، التي التهمت ألفي إنسان خلال وليمة كبيرة. بعد ذلك، وعد هالات شيب أن يعلّمه قراءة أفكار البشر إذا ما قضى على باسات وسبى «تيرول». وافق شيب، لكنه طالب بالدفع مقدماً، فأنفق هالات عاماً في تعليمه كل أسرار روح الإنسان. ولم تتمكن العناكب من فهم تعقيدات ذهن الإنسان، إلى أن حدثت الخيانة العظمى - وهو الوصف الذي أطلق عليها في أساطير البشر - إذ كانت أرواح البشر أكثر تعقيداً وغرابة من أرواح العناكب. ولكن شيئاً فشيئاً، بدأ شيب يفهم أسرار الروح الإنسانية. ويقال إنه أحضر سجناء ليقفوا أمامه لساعات، وهو يقرأ عقولهم، حتى عرف كلّ تفاصيل حياتهم. ثم جعلهم يروون قصص حياتهم حتى أدرك معنى كل الأشياء التي فشل في فهمها. بعد ذلك، أكلهم شيب، لأنه شعر أنه ليس بمقدوره

أن يفهمهم بشكل حقيقي إلا حينما يمتصّ كل ذرة من أجسامهم.

وفى شيب بوعده، عندما فهم أسرار الروح البشرية. وكان أن باغتت آلاف العناكب معسكر باسات أثناء الليل، وكان الهجوم مفاجئاً، فتمّ أسر الجميع أحياء، ما عدا قلّة لقيت مصرعها. واقتيد باسات وتيرول إلى حضرة هالات، الذي جعل باسات يركع أمامه، فاجتزّ رأسه بيده. بيد أن قسوته جعلته يفقد الجائزة التي ضحى من أجلها، وهي تيرول التي جنّ جنونها وشعرت بحزن شديد. فضحّت بحياتها عندما هاجمت أحد حرّاسها بمدية، حقنها العنكبوت بسمّه، فماتت في الحال.

ظلّ هناك لغز كبير لم يتمكن شيب من حله، وهو غموض البرج الأبيض. كان هذا البرج قد شيّده البشر في الماضي، وانتصب في وسط مدينة عناكب الموت (حيث كان الإنسان يسكن في فترة من الفترات). لم تكن للبرج أبواب، أو نوافذ، وقد بُني من مادة ناعمة بدت غير قابلة للاختراق. وذات مرة، صدرت الأوامر للعبيد من الخنافس ـ المدفعية بقصفه بالمتفجرات لاقتحامه، بيد أنه لم تلحق به أية أضرار. بل ولم يصبه خدش. وقد عرض شيب على هالات أن ينصّبه ملكاً على البشر جميعاً، إذا ما ساعده في اختراق غموض البرج الأبيض. وأغرت الفكرة هالات. فقد كان يطمع دائماً في السلطة. وراح يعذّب العديد من المسنّين والحكماء، في محاولته لمعرفة سرّ البرج. وفي نهاية المطاف، عرضت امرأة عجوز ـ زوجة رئيس قبيلة ـ أن تكشف له السرّ، إذا أطلق سراح زوجها. قالت له إن هناك تقاليد عائلية قديمة، تشير إلى أن سرّ البرج هو «قفل عقليّ». فعقل الإنسان يجب أن يتفاعل مع الشبكية الذرية للجدران، التي سوف ترقّ بسهولة عندئذ، كما لو كانت قد صُنعت من دخان. أما مفتاح هذا التفاعل، فهو عصا سحرية، يلمس بها الإنسان الجدار. وقد امتلك الرئيس القديم مثل هذه العصا كرمز لملكه. واستولى هالات على العصا منه بالقوة، واتجه إلى البرج عند بزوغ فجر اليوم التالي، حيث تقول الأسطورة، إنه في ذلك الوقت، تسقط أول أشعة للشمس على باب مختبىء في جدار البرج. لكنه عندما حاول الاقتراب من البرج، بالعصا السحرية، ألقته قوّة ما على الأرض. وحاول مرّة ثانية، فحدث الشيء ذاته. وفي المرة الثالثة، مدّ كلتا ذراعيه نحو البرج، وصاح قائلاً: «آمرك، أن تفتح بابك!». لكنه عندما حاول لمسه بالعصا السحرية، التمع وميض كالبرق، فاحترق هالات وتحوّل إلى قطعة من الفحم الأسود. وعندما سمع شيب بما حدث قتل كلّ المسجونين، بما فيهم الرئيس العجوز وزوجته. وظلّ الغموض الذي اكتنف البرج الأبيض دون حلّ.

جعلت هذه القصّة نيال يرتجف، واستيقظ في تلك الليلة، من كابوس سمع فيه جلبة خارج الجحر، فخرج ليواجه عنكبوتاً ذئبياً ضخماً، يصل طوله إلى طول الصبّار الإبري، له

صفّ مزدوج من العيون الصفراء اللامعة وفكّان ضخمان بإمكانهما تمزيق شجرة. واختفى الخوف، بمجرّد أن أصبح في تمام اليقظة. لقد تمّ تخويفه، منذ أن كان صبياً، من فكرة العناكب، رغم أنه تعينّ أن يتمّ تخويفه من الأشباح إذا ما كان قد سمع عن مثل هذه الأشياء. لكن المعرفة بأن العناكب يمكن قهرها، وأن ايفار القوي، وسكابتا البارع حقّقا انتصارات باهرة ضدها، زوّدتهم بحقيقة أكثر تعقيداً، ومن ثم، أقل إثارة للرعب. وأسرته، على سبيل المثال، فكرة قيام هالات بتعليم سيّد العناكب أسرار فهم عقول البشر. لم يتعلم هو مطلقاً فهم عقلي أولف أو جومار، أو حتى النال. وكانت هناك لحظات عرف فيها فيم يفكرون أو يشعرون، كما لو أنه داخل رؤوسهم. لذا فإنه إذا ما وجدت العناكب أنه من الصعب فهم البشر، فهذا يعني أن عقولها مختلفة كلية، كما لو أنها تتحدث لغة ذهنية أخرى. وقد ملأه هذا بمزيج من الانفعال والرعب. وإذا ما كان فهم عقول البشر قد جعل العناكب سادة الجنس البشري، إذن لماذا لا يكون العكس محتملاً؟ إذا ما استطاع البشر أن يفهموا عقول العناكب، أليس بإمكانهم في يوم من الأيام غزو أرض العناكب؟

خرج في اليوم التالي محاولاً أن يجد إجابة لهذه التساؤلات. وقد رأى على بعد نصف ميل، أيكة من أشجار الفستق الضخمة، هي أرض عناكب الصحراء الرمادية. وحينما بلغها قبل أن يمضي وقت طويل على شروق الشمس، لاحظ أن الفروع المنخفضة للأشجار متصلة بأنسجة عنكبوتية رقيقة، ومعلّق فوقها كيس بيض، خرجت منه فراخ العناكب مؤخراً. ولاحظ بصعوبة خيوط النسيج الأكبر للعنكبوتة الأمّ بين الأفرع العالية.

ولما اتخذ نيال موضعه في ظلال شجيرة صحراوية، أدرك أن العنكبوتة الأنثى لاحظت اقترابه، فراحت تراقبه بحذر، على أمل أن يسير تحت الشجرة، حتى يعطيها الفرصة للسقوط فوق ظهره. جلس بعيداً، وحاول أن يضفي على ذهنه حالة من الاسترخاء، لكن ذلك كان أمراً صعباً، فقد أدّت معرفته بأنه مراقب، إلى جعل جرس الخطر يرنّ باستمرار في عقله الباطن.

طنّت ذبابة زرقاء ضخمة، وهي تمرّ بجانبه، وفي أعقابها ذبابة قاطعة طريق. هاجمت الذبابة، وهي ضخمة صفراء اللون تماثل الدبور، فريستها في جناحها، منقضّة عليها كالصقر، بيد أن هجومها الأول باء بالفشل. واتجهت الذبابة الزرقاء، التي أصابها الرعب، إلى أعلى، حتى تتجنّب خيوط النسيج الرقيقة، التي أفرزتها العناكب المفقّسة حديثاً، ثم راحت تتخبّط في نسيج الأم، كما اندفعت الذبابة قاطعة الطريق، التي لم تستطع تغيير مسارها، نحو الحرير اللزج. لم تصدق العنكبوتة الأم الرمادية حظّها بهذا الصيد المزدوج فهبطت مسرعة على النسيج، لتوثق الفريستين بخيوط الحرير، ثم عرفت

أن أقرب الضحيتين هي الذبابة المطارِدة الخطرة، ذات الخرطوم الطويل المدبّب الذي يمكن أن يحقن سماً عصبياً قوياً. وتوقفت، متعلقة بالنسيج المهتزّ، بينما راحت الحشرتان تتخبّطان لتحرير نفسيهما. وكادت الذبابة الزرقاء أن تنجح، لكن بعد أن حرّرت خمس قوائم من قوائمها الستّ من الألياف اللزجة، انقلبت على جانبها، وأمسك النسيج بجناحها.

شعر نيال، وهو يتابع كل هذا، باستغراق تام، وباسترخاء عميق لم يكن يشعر بهما قبل بضع دقائق. وركّز، فومضت الشرارة في رأسه، والتقط، فجأة ذبذبات الرعب من الذبابة الزرقاء، والغضب من الذبابة قاطعة الطريق التي تجاوزت شجاعتها بكثير شجاعة الأولى، تحوّل ردّ فعلها على الوضع الذي باتت فيه، إلى تصميم على مواجهة عدوّها، مهماكلّفها الأمر. وقد لاح له وكأنها تقول للعنكبوتة الأم، التي راحت تحدّق فيها محملقة: «اقتربي مني، وسوف أنفذ إلى جسمك!». وأثار هذا التحدّي إحباط الأم، التي كانت معتادة على إثارة الرعب.

أحسّ نيال بتردّدها، لكنه عندما حاول أن يضع عقله وراء عيونها، شعر بالحيرة. بدا كما لو أنه لا يوجد أي شيء في ذهنها. وحاول مرة أخرى بمثابرة كان من الممكن أن تجعل العنكبوتة تشعر بوجوده لو لم تكن منشغلة كلية بمشكلتها الأكثر الحاحاً.

أحس بأن هناك عنكبوتة أنثى أخرى تتابع الصراع باهتمام، وسط فروع شجرة فستق مجاورة. وحاول أن يضع نفسه على ذبذبة طولها الموجي، ليرى العالم بعيونها. ومرة أخرى، كان هناك الإحساس الحائر بالفراغ ذاته. عند تلك النقطة، شتّت الصراع الشرس للذبابة قاطعة الطريق، انتباهه، فانقطع حبل تركيزه. ومرّت عدة دقائق، قبل أن يشعر بقدرته على تجديد جهده الذهني. وقد أدّت محاولته المرتبكة، هذه المرة، لوضع نفسه وراء عيون العنكبوتة التي تتابع الصراع، إلى إدراكها، بشكل مفاجىء، لما يحدث. أحسّ باهتمامها يمشط المكان بأشعة باحثة، في محاولة لتحديد مكان المتطفّل. لم تتمكّن من رؤيته، فقد كان مختبئاً وراء الشجيرة، بيد أن مراقبتها أفسحت المجال للإحساس بالذعر. ثم بدأ يفهم للمرة الأولى، سبب عدم قدرته على التقاط الذبذبة الذهنية للعنكبوتة. فقد كان ذهنها سلبياً مثل نبات. وبدا أنها توجد في عالم موغل في القدم، يتّسم بالمراقبة الخالصة. وبالمقارنة، فقد بدا أن الذبابتين تتمتّعان بدوّامة من الطاقة المفعمة بالضجيج والعدوانية، كما أدركت العنكبوتة، نتيجة لذهنها السلبي، مدى الطاقة المفعمة بالحياة الصاخبة التي تتمتع بها ضحيتاها.

وفهم، فجأة، المسألة. فقد قضت العنكبوتة حياتها كلها في ركن من النسيج، تنتظر الحشرات العابرة. وكانت ذبذبات النسيج، بالنسبة لها، تعني شكلاً من أشكال الحديث. تماثل كل ذبذبة كلمة. وما كان عليها سوى الانتظار بسلبية، ودراسة آلاف الذبذبات التي أحاطت بها ـ الذبذبات الحيّة للشجرة، ذبذبات الحشرات داخل أنفاق الجذور، الذبذبة المجرّدة للرياح بين أوراق الأشجار، الذبذبة الغريبة الخافقة لضوء الشمس التي تضرب عبر الغلاف الجوّي مثل آلة ضخمة. كانت العنكبوتة قد أحسّت بوجوده قبل أن تصبح الأشجار في مدى رؤيته، بفترة طويلة، حيث تعتبر ذبذبات الإنسان عالية مثل طنين نحلة.

فهم نيال، في الوقت ذاته، الكيفية التي تسيطر بها عناكب الموت على الكائنات الأخرى بالإرادة وحدها. ويعني مجرّد النظر إلى شيء، إرسال أشعة إرادة نحوه. بمقدوره أن يتذكر أوقاتاً عديدة، اعتقد فيها أنه بمفرده، لكن أحساساً قلقاً انتابه بأنه مراقب ـ وتلفّت حوله علّه يجد أحداً يتطلّع إليه. كان هذا هو السبب الذي جعل العنكبوتة الرمادية تشعر بالقلق عندما حاول أن يسبر غور ذهنها ـ فقد امتدّت إرادته لتلمسها مثل يد.

كاد وعي العنكبوت أن يصبح بمثابة نفاذ بصيرة صرف. فالعنكبوت هو الكائن الحيّ الوحيد الذي يقضي حياته متربصاً في انتظار على أمل أن تقع الضحايا في مصيدته، بينما يتعيّن على كل الكائنات الأخرى أن تخرج باحثة عن طعام. وبالتالي فقد عزّزت العناكب قدرتها على تحويل الوعي إلى أشعة من الإرادة الصرفة. فعندما تئزّ ذبابة في الهواء، يسعى العنكبوت المراقب إلى إصدار الأوامر إليها بالدّخول في نسيجه.

ما السبب الذي يجعل عناكب الصحراء الرمادية إذن غير مؤذية؟

لقد أوحى له حدسه بالإجابة، لأنها غير واعية تماماً بأنها استخدمت قوة الإرادة لجذب الذباب إلى نسيجها. فعندما تصدر الأوامر إلى ذبابة بتغيير مسارها والوقوع في المصيدة، فإنها تعتقد أن هذا حدث من قبيل المصادفة. أما عناكب الموت فقد أصبحت سادة الأرض، عندما تعلمت أن قوة الإرادة يمكن استخدامها كسلاح.

ما حدث بعد ذلك كان درساً عملياً في قوة الإرادة غير الواعية. لقد عادت العنكبوتة إلى ركن نسيجها. ثم انتقلت إلى الجانب الآخر، حتى لا تفصل الذبابة بينها وبين الذبابة الزرقاء. وحينما تقدمت العنكبوتة إلى النسيج، انتابت الذبابة الزرقاء حمّى من النشاط في محاولاتها للفرار، ولكن خلال هذا الذعر، التصق جناحها الآخر بالنسيج. وبينما تابعت العنكبوتة تقدُّمها، وقد ركزت عيونها على فريستها، انهارت الذبابة فجأة، وأصيبت بحالة

من الاستنزاف. وألقت العنكبوتة، بسرعة، بجديلة من الحرير فوق جسمها، ثم بجديلة أخرى، فربطتها بالنسيج. وبعد دقائق قليلة، أصبحت الذبابة مثل شرنقة. وبينما راحت تتخبّط في النسيج، تزايد اقتناع الذبابة الأخرى، بقدرها المشؤوم هي أيضاً ـ وهو اقتناع يكاد يرجع كلية إلى الضغط الهادىء، المحطم للمعنويات في الوقت ذاته، الذي تمارسه إرادة العنكبوتة. كانت الذبابة قاطعة الطريق، في الواقع، ما تزال خطرة، فهي تتمتّع بحرية حركة تكفي للدفاع عن نفسها من أية زاوية تقريباً، وأي اندفاع من ذلك الخرطوم المسمّم سوف يشلّ العنكبوتة في وسط نسيجها. مع ذلك، عندما أنهت العنكبوتة تطويقها للذبابة الزرقاء، وتحرَّكت باتجاه الذبابة الأخرى بتؤدة وثقة، راحت الذبابة تراقبها فحسب وهي تقترب، ثم تركت العنكبوتة، بعد محاولة يائسة أخرى لتحرير نفسها، تقوم بإيثاقها. وقد دخل نيال، للحظة، مجرى وعيها، وروّعه استنزافها وهزيمتها. شعر، وهو يسحب ذهنه، كأنه يستيقظ من كابوس.

عاد إلى البيت، وهو غارق في أفكاره، وقد هزّته التجربة، رغم أنها فتنته أيضاً. فقد كان نفاذ البصيرة داخل قوة الإرادة بمثابة مفاجأة. ولأن العالم حوله قد بدا مليئاً بالرعب والخطر، فقد ظلّ ذهنه حذراً من أي شيء يشير إلى وجود إرادة معادية. وحينما أصبح على بعد عشرين متراً من جحر عقرب أصفر، أحس بأنه يحدق فيه وهو يراقبه في الظلام. كان العقرب قد أصيب بالتعب بعد الاصطياد طوال الليل، وبالتالي فإنه لم يشأ أن يقوم بحملة نهاريّة. وأدرك نيال عدم رغبته هذه، فتعمّد تعزيزها بإرسال ما يوحي بأنه مسلّح وخطير. رأى العقرب أن الأمر لا يستحقّ، رغم كل شيء، بذل أيّ مجهود، والمخاطرة بمهاجمته.

حينما أصبح داخل الجحر البارد نسبيّاً، ألقى بنفسه على الحشيّة وهو يشعر بالاستنزاف التامّ. إلا أن التعب كان في رأسه، وليس في جسمه، وذلك نتيجة لمحاولته استخدام عضلة إرادة لم يتعود على استخدامها، فأصيب بهذا الإنهاك.

- ٤ -

كان نيال يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً، عندما وضعت سيريز طفلة أخرى، ولدت مبتسرة. لم يكن معروفاً خلال الأسبوعين الأولين، ما إذا كانت ستبقى على قيد الحياة. أطلقوا عليها اسم مارا، ويعني «طفلة سمراء نحيلة» حيث بدا وجهها الصغير المتغضّن، مصطبغاً بلون بنّي غريب. ولما تجاوزت مرحلة الخطر، راحت تصرح صرخات حادّة متقطّعة، أثارت ضيق الجميع ما عدا أمّها. وفي الأوقات التي لم تشعر فيها بالجوع، عانت من مغص، أو طفح جلدي مصحوبٍ بحمّى، أو رشح. وظلّت تواصل الصراخ ساعات عديدة كل ليلة خلال الستة الأشهر الأولى من عمرها. وباتت انجيلد ـ التي لم تكن تحب الأطفال على الاطلاق ـ عصبيّة المزاج، وراحت تحثّ ثورج وهرولف على البحث عن بيت آخر. وقد عثروا، في الواقع، على جحر، واسع على بعد ميل، لا يبعد كثيراً عن الصخور الحمراء المشوّهة، فقام الرجال، في الحال، بطرد خنافس الروشا، والإقامة فيه. لم تقض انجيلد سوى ليلة واحدة فقط في بيتها الجديد، ثم قالت إنها شعرت بالتوتّر. وفي اليوم التالي، عادوا مرة أخرى إلى الجحر، بينما أحسّ نيال بالاشمئزاز.

بدأت صحّة مارا تتحسّن، عندما بلغت من العمر ستة أشهر، ولكن بدا واضحاً أنها كانت عصبية المزاج؛ فأية حركة مفاجئة كانت تجعلها تنتفض، وتأخذ في البكاء. كما جعلتها الجلبة الحادّة تعاني من نوبات تشنّج. وراحت تصرخ بخوف، في كل مرّة تقترب نملة منها. وفي وقت مبكر من صباح أحد الأيام، حينما اعتقد ثورج وانجيلد أنهما بمفردهما في الجحر، سمع نيال حديثهما، مصادفة، عن مارا. تساءل ثورج: «ماذا سيحدث عندما تكبر، وتعرف بأمر العناكب؟ قالت انجيلد في حزن: «إنها ستعرّضنا جميعاً للقتل!». شعر نيال بمزيج من الغضب والاحتقار، ومع ذلك عرف أنها على حق. فالرعب الذي يعتري مارا،

يمكن أن يشي بهم جميعاً. ولكن ماذا عساهم يصنعون؟ لن يلجأوا، بطبيعة الحال، إلى قتل الطفلة.

اقترح جومار حلاً: وهو عصير نبات الأورتيس: فعندما كان طفلاً، غامر عشرة صائدين بواسل، بالذهاب إلى الدلتا الكبرى، وعادوا بقرع مملوءة بالعصير. كان النبات يتغذّى على الحشرات، ويجتذب فريسته برائحة طيّبة بشكل مثير للدهشة ـ رائحة مبهجة حتى يكاد الرجال يعيشون في الحلم. عندما تحطّ حشرة طائرة فوق زهرة نبات الأورتيس، يغرز النبات نقطة واحدة من سائل صافٍ، فتنهل الحشرة منه، فيغلب عليها النعاس. وتبدأ حوالق النبات في دفعها، مثل أصابع رقيقة، نحو فم الزهرة الذي يماثل المعدة، كفتاة جميلة تضع لقمة من طعام شهيّ في فمها، ثم تقبض التويجات عليها وتهضمها.

وكيف تجنّب الصائدون هذا المصير؟ كانوا يختارون، بشكل متعمّد، نباتات الأورتيس الصغيرة، الضعيفة للغاية بحيث لا تتمكن من قتل رجل مكتمل النموّ. كان أحد الصائدين يقوم بتلمس الزهرة بأصبعه بخفة، فتفرز العصير في كأس صغيرة. وإذا ما تغلّبت رائحة النبات عليه، فإن الآخرين يهرعون إليه ويسحبونه، ويخلصونه من الرائحة. كان من الواضح أن المشكلة تكمن في أن الشذى يثير حالة من النشوة، تجعل البعض لا يرغب في بذل أيّ جهد لمقاومته، فيتركون أنفسهم، ليتغلّب عليهم النبات، وعندما يوقظون بعد ذلك، ترتسم على وجوههم ابتسامة حالمة غريبة. وقد ترك رجل نفسه ينهار في نبات صغير، فسارعت، على الفور، عشرة من الحوالق، على شكل معدة. للالتفاف حول وجهه وذراعيه وساقيه. وفي الوقت الذي حاول الآخرون سحبه لتحريره، راحت الحوالق تقاوم، محاولة جذبه إليها من جديد. وقد اضطرّوا إلى تمزيقها بالمدى الصوانيّة، بينما أصيب رجلان بغيبوبة نتيجة لسُحب الشذى الذكيّ. وحينما أبعدوا الحوالق عنه، رأوا بقعاً من الدم مثل النّدى سحبتها الحوالق من جلده. ظلّ الرجل غائباً عن الوعي لمدة يومين، ولما استيقظ، ظلّ يتحرك كالسائر في نومه. وعاد مع الآخرين، لكنه أصبح بطيئاً، كسولاً، وعديم الحيلة، بعد أن كان دائم الحركة في سعيه لاستخلاص عصير الأورتيس، تنفيذاً للأمر الصادر ممن يكبره سناً.

فيما راح جومار يتحدّث، كان أولف يتطلع متأملاً نحو مارا، التي ترضع من ثدي أمها. والتفت إلى ثورج قائلاً:

ـ هل لك أن ترافقني؟

ـ بالطبع.

- ليكن. سوف ننطلق حينما يصبح القمر بدراً.

قال نيال: هل من الممكن أن أصحبكما؟

وضع أولف يده على رأسه: وقال: لا يا ولدي! لا بدّ وأن يبقى أحد منّا ليرعى النساء.

بعد عشرة أيام، انطلق أولف وثورج، وڤيج وهرولف، باتجاه الدلتا. كان قد ظهر سبب آخر، في ذلك الوقت، دفعهم للحصول على عصير نبات الأورتيس: فقد تكرّرت نوبات الدوار التي تنتاب انجيلد خلال فترات الصباح، فتأكّدت من حملها.

كانت بعثة جيّدة التجهيز؛ فقد ارتدى الرجال ثياباً مصنوعة من جلد الدود الألفي ليحميهم من الحر، واعتمروا قبعات، وانتعلوا أخفافاً متينة ذات نعال مزدوجة، كما حملوا على أكتافهم، أجربة مصنوعة من الأعشاب المجدولة. لم تكن هناك حاجة لحمل كميات كبيرة من الطعام أو الماء، نظراً لأنها ستكون متوفّرة طوال الطريق؛ لذلك فقد حملوا كمية من اللحوم المجفّفة في الشمس وقرعاً من الماء. وتسلّحوا بالرماح، والمقاليع، والمدى، كما حملوا معهم الحبال.

غادروا عند الغسق، في ليلة اكتمل فيها القمر، متّجهين صوب الشمال، باتجاه القفر الصخري. أربعة رجال مسلحين، عرّضوا أنفسهم لخطر هجوم من العناكب، والخنافس النمرية، والحشرات الليلية الأخرى. وقد أراد نيال أن يرافقهم إلى حافة البرية، لكن أباه رفض؛ فقد يكون فريسة سهلة، حينما يعود بمفرده، وهو صبي يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً.

شعرت سيريز وانجيلد بالقلق. فقد كان الرجال يقضون، في أحوال كثيرة، أياماً بعيدين عن بيتهم في حملات صيد، بيد أن النساء عرفن أن هذه المرة، تختلف عن سابقاتها. عرف الصيادون عادات الحشرات العملاقة، وساعدتهم الحاسّة السادسة على تجنّبها. لكن الدلتا كانت منطقة مملؤة بمخاطر مجهولة. بل إن جومار لم يذهب إلى هناك من قبل، رغم أنه قد عبرها على متن منطاد عنكبوتيّ.

جلست سيريز عند غسق اليوم التالي، بمفردها في أعماق الجحر، في الوقت الذي لفّ الصمت الباقين جميعاً. وتناولت مارا، قبل ساعتين، وجبة جيدة، وراحت الآن في نوم هادىء. بعد نصف ساعة، أو نحو ذلك، سمعوا سيريز تتنفّس بعمق، فعرفوا أنها قد أجرت اتصالاً. أوقد نيال المصباح الزيتيّ، عندما انضمت إليهم. وقالت لهم: «إنهم في أمان، لقد هاجمت بعوضةٌ هرولف، لكنهم قتلوها قبل أن تتمكّن من امتصاص دمه». كان الرجال

يحملون أعشاباً طبّية، للعلاج في حالة الإصابة بالملاريا، أو أنواع أخرى من الحمى.

تساءلت انجيلد: هل ثورج في حالة طيبة؟

ـ لقد التوى كاحله، لكنه ليس في حالة خطيرة.

كان بمقدور انجيلد أن تجري اتصالاً مع ثورج، إذا ما رغبت في بذل أيّ جهد. لكن نفاد صبرها جعل من الصعب عليها أن تسترخي، وتصفّي ذهنها. كما أن كسلها جعلها تفضل أن تترك هذه المسألة لسيريز، التي كانت ذات ضمير يقظ، فراحت تؤدّي كلّ الأشياء المتوقع أن تقوم بها.

في اليوم التالي، خرجت النساء للبحث عن فاكهة صبّار طازجة، فرافقهن نيال لحراستهن، وقد حمل دبّور البيبسيس، الذي أصبح الآن هرماً، وفقد الكثير من مهاراته. بدا أن الدبّور يعرف، بطريقة ما، أن سيده، ڤيج، بات بعيداً، وأنه يتوقّع منه أن يحرس العائلة من عناكب الباب المسحور، والضواري الأخرى. عندما استرخى نيال، وسمح لعقله أن يتمازج مع عقل الحشرة، لفّه إحساس من الشفقة والحنوّ أقوى من أيّ إحساس عرفه من قبل. ولما عادوا، وقد استنزفهم الحرّ، رأى نيال بقعة بعيدة في السماء ـ ليست منطاداً عنكبوتياً، بل طائر ضخم. وعندما حدّق فيه، أدرك أنه يطير باتجاههم مباشرة. حاول أن يسلّط ذهنه على عقل الطائر، ويحثّه على عدم تغيير اتجاهه. وأحسّ الدبّور بانفعاله، فبات متيقظاً. أصبح الطائر، فجأة، على بعد بضع مئات من الأمتار، ويطير بارتفاع يصل إلى ارتفاع شجرة سامقة، فأصدر نيال الأوامر إلى الدبّور لمهاجمته. انطلق من فوق رسغه مباشرة في الهواء، بسرعة وقوّة لم يشاهدوها منذ فترة طويلة. مضى بجانبْ طائر الحبارى، مثل صاروخ، وصعد لأعلى لمسافة مائة قدم أخرى، أو نحو ذلك، ثم غير اتجاهه، وراح يهبط بشكل مفاجىء. لم يكن الطائر مستعداً على الاطلاق. ومن الواضح أنه شعر بأنه ليس هناك ما يدعو إلى الخوف من الدبابير. وقد صفّق بجناحيه بألم حينما تصادما، وأحس نيال بالمحنة التي واجهها عندما انغرس قرن الدبّور في جسمه. بعد ثوانٍ قليلة، ارتمى على الأرض على بعد بضع مئات من الأمتار. ولما وصل نيال، كان الدبّور يجلس بهدوء فوق الجناح الملتوي، بينما اكتست عينا الطائر بغشاوة الموت. كان ضخماً، وامتلأ الجحر في هذه الليلة برائحة شواء لحمه، بل إن انجيلد باتت مرحة وصفا مزاجها.

إلا أن ذلك المساء كان نهاية لأوقات راحة البال. فقد هبّت، في اليوم التالي، ريح قوية، عارمة آتية من ناحية الدلتا، واقتحمت مدخل الجحر. وحينما غامر نيال بالخروج، جعلت عيناه تدمعان، بينما راحت أسنانه تصطكّ بفعل الرمال. وأخذت مارا تصرخ معظم ساعات

النهار، حتى ودّ أن يخنقها. ولم يتمّ إجراء أيّ اتصال مع أولف أو ڤيج في ذلك المساء، رغم أن سيريز جلست لأكثر من ساعة. وطلب منهم جومار ألا ينتابهم القلق، ففي أحيان كثيرة، تكون للصيادين أمور أخرى يقومون بها عندما يهبط الليل. بيد أن الشيء ذاته حدث في اليوم التالي. ولكن هذه المرة، شعرت انجيلد بقلق شديد، فجلست القرفصاء على الأرض، عند الغسق، وحاولت تصفية ذهنها، إلا أن نيال أدرك من تنفّسها أنها لن تنجح.

شعروا جميعاً بالقلق والتوتّر، في اليوم التالي. وعندما أرخى الليل سدله، جلست سيريز وانجيلد مرة أخرى، وقد ابتعدتا عن بعضهما البعض بضعة أقدام، وأحنتا رأسيهما، في الوقت الذي تمدّد جومار ونيال على حشيّتيهما، وحاولا عدم التحرّك، حتى لا تشتّت الخشخشة ذهني المرأتين. ولاحظا التغيّر الذي طرأ على تنفس سيريز حينما أجرت اتصالاً، فتنهّد نيال بارتياح. ثم أطلقت سيريز، في الحال، صرخة مدوية، وسقطت. عندما وصل إليها، وجدها ملقاة على ظهرها، بينما كان وجهها بارداً. راحت انجيلد تتلفظ بأشياء عن الموت، فنهرها جومار بحدّة، وطلب منها أن تلزم الصمت. أجلس نيال أمه، فيما أخذ جومار يدفع الماء بين شفتيها، فراحت تلهث وبدأت تسعل. ولما تحدثت كانت أولى كلماتها: «لقد ماتوا.. لقي ثورج وهرولف حتفهما». صرخت انجيلد وأخذت في العويل، فاستيقظت الطفلتان وراحتا تصرخان. كما أخذت سيريز تنتحب. كل ما استطاعت أن تقوله، هو أن نبات الأورتيس قتل الرجلين، بينما تمكّن أولف وڤيج من أن يفلتا بجلدهما.

بدأت انجيلد تصرخ بغضب قائلة: «لِم أصابت المنية رجليّ؟ لماذا لم تصب الآخرين؟».

تركوها تصرخ، حتى شعرت بالتعب، فراحت تنتحب. ظلّت تبكي طوال الليل. أحسّ نيال بالخجل إذ شعر بالسعادة لأن أباه وأخاه بقيا على قيد الحياة.

حينما عاد أولف وڤيج بعد عشرة أيام، بدا عليهما الإنهاك. وقد غطّت علامات مستديرة بدت كالحروق ثدي أولف الأيمن وكتفه، أما ڤيج فقد أصبح نحيلاً للغاية، وكان هناك تعبير في عينيه، وجده نيال مثيراً للانزعاج، تعبير ينم عن نظرة رجل تأثر بأمر ما لا يستطيع نسيانه. انهار كلاهما فوق فراشيهما وراحا في نوم عميق.

كان العصير الذي كلف ثورج وهرولف حياتهما موضوعاً في قرعة صغيرة تحتوي على ما يزيد قليلاً عن لتر، وقد أغلق بإحكام بأوراق الأشجار والسيور الجلدية. وعندما عادت مارا للصراخ المتواصل، بعد عودة أولف ببضع ساعات، فكّت سيريز السيور بحذر، وأمالت القربة ثم أعطت الطفلة كمية ضئيلة من السائل الرائق في ملعقة خشبية. راحت في

نوم عميق، في أقل من دقيقة. وظلت نائمة لمدة ست عشرة ساعة حينما استيقظ أولف.

آشتمّ نيال عصير الأورتيس، حينما سنحت أول فرصة له. كان مستساغاً، طيّب الرائحة لا يختلف عن العسل، مع لمسة زهرة بنفسجيّة، رآها في بلاد النال، ولكن بعد القصّة التي رواها جومار عن النبات، فإنه وجده مخيباً للآمال.

بدا أولف وڤيج، لأيّام بعد عودتهما، فاتري الهمّة ومكتئبين. اعترف ڤيج بعد ذلك، لنيال، بأنهما كانا يترنّحان كسكيرين خلال الساعات الست وثلاثين الأخيرة من رحلة العودة، وأنهما لم يتوقعا أن يصلا إلى البيت وهما على قيد الحياة. وقد انهار ڤيج ثلاث مرات في القفر الصخري، وحمله أولف على كتفيه، في المرة الأخيرة، لفترة من الوقت. ولحسن حظّهما، فإنهما لم يواجها أية ضوارٍ، ولو أن ذلك حدث فإنهما كانا سيصبحان في موقف حرج، فقد باتا مستنزفين حتى لم يتمكنا من تمشيط السماء بحثاً عن مناطيد عنكبوتية.

عادت انجيلد الآن إلى رشدها بعد الصدمة الأولى، إلا أنها باتت عصبيّة، وفظّة. وتحمّلوا غضبها لأنهم شعروا نحوها بالأسف. لكنها حينما شربت في أحد الأيام عصير النبات المتخمّر، تجاوزت الحدود، واتهمت أولف وڤيج بالجبن، حيث تركا رجليها يلقيان حتفهما. أمسك أولف ذراعها بشدة حتى صرخت من الألم.

- لا تتفوّهي بمثل هذا القول مرة أخرى، وإلا فسأشبعك ضرباً، رغم أنك زوجة أخي.

انهارت على الأرض وراحت تنتحب، ثم قالت: «إنني أصغر من أن أكون أرملة. هل من المنطقي أن أعيش بقية حياتي دون أن يعانقني رجل؟».

شعر أولف بوجاهة حجّتها؛ فهي ما تزال دون الأربعين عاماً، وسيرى العديد من الرجال أنها جميلة. استغرق في التأمّل، ثم قال: «ليس هنا رجال يصلحون لك. ولكن بإمكانك أن تعودي إلى أهلك».

تطلّعت إليه وقد أحسّت ببريق من الأمل. كانت تودّ حدوث أيّ نوع من التغيير. فقالت: «كيف يمكنني أن أصل إليهم؟».

- بإمكاننا أن نأخذك إلى هناك.

وضعت يديها فوق بطنها وقالت: قريباً سوف أصبح ثقيلة، فلا أستطيع السفر.

راح أولف يقلّب الأمر ثم قال: «ليكن. سوف نرحل في الليلة التالية لاكتمال القمر».

احتجّت سيريز على رحيلهم بهذه السرعة، حيث أنهم ما زالوا يشعرون بالارهاق منذ عودتهم من الدلتا. لكن نيال لاحظ نظرة صارمة، عنيدة ارتسمت على وجه انجيلد، فعرف أنها مصمّمة على المضيّ في طريقها. كما أن أيّ تفكير في التأجيل يعني أمراً لا يمكن أن تتحمّله، وعلى الرغم من أنها عرفت أن سيريز على صواب، نظراً لأنه من الأسلم تأجيل الرحيل لشهر آخر، إلا أنه لن يضيرها الأمر في شيء إذا ما لقي أولف وڤيج حتفهما في طريق العودة، حيث ستكون في أمان وسط عائلتها.

لما أوشك القمر على الاكتمال، أصبح واضحاً أن ڤيج ليس مهيّأ تماماً للرحيل، فهو ما يزال ضعيفاً بشكل يحول دون خروجه، كما أنه يعاني من حمّى راجعة وجعل الألم الذي أصاب ساق جومار، من الصعب عليه السير لأكثر من بضعة أميال. وقد حاولت سيريز أن تقنع انجيلد بأن تنتظر شهراً آخر، فأجابت، بعد أن أشاحت بعيداً حتى تخفي مشاعرها الحقيقية، بأنها إذا ما تأخرّت كثيراً، فإنها لن تستطيع قطع مثل هذه المسافة سيراً على الأقدام. وهزّت سيريز، في نهاية المطاف، كتفيها، وتخلّت عن مواصلة الجدل، وأحسّ الجميع بأنهم سيكونون سعداء إذا ما ودّعوا انجيلد.

لاحظ نيال أباه وهو يتطلع إليه متأمّلاً، فعرف ما يفكرّ فيه.

- أمن الممكن أن أذهب بدلاً من ڤيج؟

- وهل تعتقد أن باستطاعتك السير كل هذه المسافة؟

- بمقدوري أن أقطع المسافة ذاتها التي يقطعها ڤيج.

- لكن هذه رحلة تستغرق خمسة أيام، وربما أكثر.

رسم له أولف خريطة على الرمال. كان أهل انجيلد يقطنون بالقرب من شواطىء بحيرة مالحة تسمّى «ثيلام» على مسيرة نحو يومين إلى الجنوب من الهضبة الكبرى. ويعدّ الجزء الأكثر صعوبة في الرحلة منطقة الصحراء، الممتدّة عند سفح الهضبة، حيث لا توجد سوى معالم قليلة. وعند أقصى طرف الصحراء، تقع منطقة تضمّ صخرة هائلة، والوديان، التي تنحدر نحو بحيرة الملح. كما توجد حياة نباتية، وبعض الماء، ولكن هناك حشرات من ذوات الأربع والأربعين السامّة.

أشار نيال إلى الهضبة قائلاً: أبمقدورنا أن نتجنّب الصحراء، بصعود الهضبة؟

- ليس هناك شيء سوى الصخرة الجرداء، والهواء.

- لكن الصخرة الجرداء أفضل من الكثبان الرملية التي تتغير كل يوم.

رد أولف باقتضاب قائلاً: ربما.

استعاد أولف قوته، عندما أصبح القمر بدراً. أما ڤيج فما زال يعاني من الضعف، وبدت عيناه مرهقتين. وقد شعرت سيريز باستياء من فكرة سفر نيال لمسافة بعيدة، لكنها عرفت أنه ليس هناك من بديل. وسيكون الأمر خطيراً على أولف إذا ما حاول العودة من الرحلة بمفرده؛ فهناك العديد من الضواري التي تهاجم من يسافر منفرداً، لكنها تتردّد قبل أن تهاجم رجلين.

أخيراً، تم إمدادهما بالمؤن. فقبل يوم من الرحيل، خرج ڤيج ليصطاد مصطحباً دبور البيبسيس، وعاد ومعه قارض صحراوي ضخم. وقامت سيريز بحشوه بالأعشاب والبذور ثم شوته، كما خبزت لها رقائق رفيعة من دقيق ذرة برّية. وكانت النساء، قد قامت قبل أيام عديدة من السفر، بجلب مياه نقيّة من نبات الوارو، فقد تعلّمن أيضاً طريقة وضع القرع تحت الأوراق الطويلة، الملتوية للنبات، للحصول على الندى الذي يخزنه النبات ليسقي به جذوره. لم تكن المياه المالحة التي جمعتها النمال من أعماق الجحر ملائمة لرحلات طويلة، لأنها كانت مشبعة بالمعادن التي تترك مذاقاً مريراً في الفم وتجعل الحلق جافّاً.

انطلقا قبل ساعة من الغسق، وقد حمل كل منهما سلّتين معلّقتين في كتفيهما. كان الجوّ حارّاً، رغم أن الريح قد توقّفت. وحيثما حلّ الظلام، استراحوا لمدّة ساعة فوق الرمال، بينما غلب نيال النوم ـ فقد جعله الانفعال يقظاً معظم ساعات الليلة السابقة. وواصلوا السير، بمجرّد أن ارتفع القمر. كان الجوّ بارداً، لكن السير جعلهم يشعرون بالدفء. ومشت انجيلد متثاقلة وقد لفّها الصمت، ولم تبد أيّ شكوى من سرعة السير، فقد حصلت على ما تريده، وراحت تشعر الآن بخجل طفيف من نفسها. لاحت الصحراء رائعة تحت ضوء القمر، وتمكّنوا من رؤية الهضبة واضحة أمامهم، لكنها كانت أبعد بكثير مما بدت. ولما غاب القمر، استطاعوا مواصلة السير تحت ضوء النجوم، فتعوّدت عيونهم الظلام. وصلوا إلى سفح الهضبة، قبل ساعة من انبلاج الفجر، وعندما ارتفعت الشمس، دخلوا الكهف الذي قضى فيه نيال السنوات السبع الأولى من حياته. تناولوا وجبة خفيفة من خبز الذرة والجراد المطهوّ، ثم ناموا ليتجنّبوا وقدة النهار.

ابتهج نيال عندما رأى بيته القديم مرة أخرى، لكنه بدا أصغر ومختلفاً إلى حدّ ما. كان قد نسي أيضاً مدى الحرّ الذي يمكن أن يصيبه في الظهيرة، إذا ما هبّت الريح من الاتجاه الخاطىء. ولذا فإنه لم يشعر بأسفٍ وهو يبتعد عن بيته رغم إحساسه بالحنين.

انطلقوا، في حين كانت الشمس لا تزال متوهّجة، فقد رأى أولف أن يأخذ بنصيحة نيال، ويصعدوا الهضبة التي ارتفعت مئات الأمتار في الهواء فوق الكهف، ثم وصلوا إلى مكان يمكن منه مواصلة الصعود، فقد كان لزاماً عليهم السير مسافة عشرة أميال أو نحو ذلك.

وصلوا إلى قاع النهر الذي جفّ ماؤه قبل ساعة من الغسق. وقرّروا، بعد أن شعروا بالحرّ والإجهاد، أن يستريحوا قبل أن يحاولوا الخروج من القاع شديد الانحدار. بدأوا، عندما ارتفع القمر، في الصعود من قاع النهر، الذي أصبح شديد الانحدار بشكل متزايد. بات الطريق ضيّقاً وملتوياً باتجاه التل، ومنحدراً بشكل يصعب تسلّقه ما لم يمش المرء على أربع. ثم بدا شديد الأغوار، مما جعل نيال يشعر بالدوار عندما ينظر إلى أسفل. وحينما داروا حول الحافة، أدركوا مدى العمق في الأسفل. وأصبح ثدياً انجيلد الضّخمان يشكلان عائقاً لها هنا، وقد رفضت، في إحدى المرّات، أن تواصل التقدّم، حتى يربط أولف حبلاً حول خصرها. وقبل أن يصلوا إلى قمّة الهضبة، بعد منتصف الليل، كانت تترنّح بينما راحت قدماها تتعثّران، وبات واضحاً أنها تتمنى لو أنها قرّرت البقاء في البيت.

لاح المنظر أمامهم رائعاً، فمن خلفهم كانت تمتدّ الصحراء، بلونها الفضّي، وسكونها الآمن. ومن أمامهم، كانت تنحدر الهضبة نحو الجنوب الشرقي، وقد كستها الصخور والشجيرات والأشجار الشائكة. بدت موحشة، بيد أن الصخرة البيضاء لاحت رائعة الجمال تحت ضوء القمر. وأغراهم هذا المنظر لأخذ قسط من الراحة، لكن الأرض كانت غير مريحة، ففضلوا مواصلة السير. بعد أن تعثّرت أقدامهم على مدى نصف الساعة، فوق أرض غير مستوية، وقاحلة، عادوا مرة أخرى إلى قاع المجرى، المغطّى بالحصى الأبيض، الذي يسهل السير فوقه. وتنهّد أولف، فجأة، بارتياح، وهو يشير بأصبعه. فقد عكس ضوء القمر، على بعد مئة متر أمامهم، شيئاً كالمرآة الفضّية. كانت بركة ماء صغيرة، يزيد عرضها قليلاً عن متر، في تجويف وسط الحصى. وتوقّفوا عندها وتخفّفوا من أحمالهم وهم يشعرون بالراحة. بدا الماء أشهب اللون، مثل الحليب المخفّف بالماء؛ كما اتّسم بنكهة طيّبة. وظلّوا يتقاسمون الماء منذ أن بدأوا الرحلة، أما الآن فقد شعروا ببهجة لا يمكن تخيّلها حيث بات بمقدورهم أن يشربوا قدر استطاعتهم. وأكلوا بعضاً من فاكهة الصبار، وأعادوا ملء قرعهم، ثم واصلوا السير، على مضض إذ أخذت أقدامهم تؤلمهم. كان المضيّ قدماً سلساً بشكل غير متوقّع، وحتى عندما غاب القمر، تمكّنوا من مواصلة السير فوق الحصى الصغيرة.

أرادت انجيلد أن تستريح عندما انبلج الفجر، إلا أن أولف رفض. ففي غضون ساعات قليلة، ستكون الشمس فوق الرؤوس مباشرة، وعليهم أن يجدوا ملجأ يحميهم من القيظ.

رأوا، قبل أن تشرق الشمس، منطقة كثيفة الأشجار عند الأفق الجنوبي، فاتّجهوا نحوها، وقد بدت مثل شجيرات مبالغ في نموها، يصل ارتفاعها إلى حوالي ستة أقدام، بينما شكّلت فروعها المنخفضة قنطرة مقوّسة. تمكّنوا من مدّ ملاءات من حرير العناكب فوقها لتصبح بمثابة مظلّة تقيهم الشمس، بينما استخدموا ملاءة أخرى، ثبّتوها على الأرض بأحجار ثقيلة، لصدّ الريح. بدا وكأنهم في كهف، فناموا بعمق حتى انخفضت الشمس في السماء. واصلوا المسير مرة أخرى بعد أن تناولوا وجبة خفيفة.

امتدّ الطريق الآن عبر حقل من الحلفاء، تتناثر فيه صخور ضخمة، تحوّلت بعد أميال قليلة، إلى أحجار ناعمة على نحو غير متوقّع مثل الرمال كبيرة الحجم. بدأت انجيلد تشكو من آلام في قدميها، وتبادل أولف ونيال النظرات فيما بينهما، وتوقّعا أن تكون فترة سلوكها الحسن قد انتهت وأن شكاواها سوف تزيد من وعثاء الرحلة. ولحسن الحظ، مرّوا ببركة ماء أخرى، أكبر وأعمق من الأولى، وبعد أن ارتووا، وأعادوا ملء قرعهم، طلبت انجيلد منهما أن يستديرا، ثم خلعت ثيابها ونزلت في الماء. بدت عليها السعادة بعد أن انضمّ إليها نيال، وهي تقف في البركة والمياه تصل إلى خصرها. كانت المياه ما تزال دافئة من تأثير حرّ النهار، ومنعشة للأطراف. حينما انطلقوا مرة أخرى، شعر نيال كما لو أنه استيقظ من نوم جميل.

عندما بزغ الفجر، مضت الأرض بهم صعداً من جديد، ونظراً لأن الهضبة تأخذ شكل الحوض، فقد افترضوا أنهم قريبون من حافتها الجنوبية، التي وقفوا عندها. بعد ساعة تطلّعوا إلى انعكاس أشعّة الشمس على المياه البعيدة لبحيرة الملح التي تسمّى «ثيلام». واكتسى وجه انجيلد بالانفعال، وشعرت بأن مسيرة يوم آخر سوف تنقلها إلى أهلها. وقد أشار أولف إلى أن الارتفاع يضلّل المسافرين وأنهم على الأرجح سيقطعون مسافة خمسين ميلاً أخرى على الأقل.

ونظراً لعدم وجود أيّ مكان يمكن أن يستخدم كملجأ عند قمة الهضبة، فلم يكن أمامهم سوى البحث عن طريق للهبوط، والبحث عن ملجأ في السهل عند سفح الهضبة. وقد ذهب نيال إلى الحافة وتطلّع، فأصابه عمق الانحدار بالدوار. لا بدّ وأن هذا العمق يصل إلى ألف قدم. وعلاوة على ذلك فقد كانت هناك منعطفات عديدة بالجرف تحته، وقد

أدّت ريح الصحراء إلى حدوث تجاويف عديدة في الهضبة . وإذا ما انهارت الحافة ، فإن شيئاً لن يوقف سقوطه إلى القاع حيث تقوم الصخور .

بات الأمر يستوجب التحرّك باتجاه اليسار أو اليمين ، أو صوب الغرب أو الشرق . ونظراً لأن السير باتجاه الغرب سوف يفضي بهم ، في نهاية المطاف ، إلى المكان الذي صعدوا منه ، فقد قرّروا الاتجاه نحو الشرق . كما اختاروا أيضاً العودة لمسافة نصف ميل ، حيث كانت الأرض ، عند حافة الهضبة ، صخرية ، متصدّعة ، أما السير وسط الهضبة فأكثر سلاسة ، لكن الجوّ بات ملتهباً ، فقد انعكست أشعّة الشمس من الحصى الأبيض تحت الأقدام . وألقى نيال نظرة خاطفة من زاوية عينه على أبيه ، فلاحظ أنه يشعر بإجهاد بالغ ، حيث لم يستعد عافيته بعد من الرحلة إلى الدلتا . ثم ألقى نظرة على انجيلد ، فلاحظ أنها تمشِ متثاقلة ، وقد تجهّم وجهها ، وبدت كما لو كانت تقبل على تضحية كبرى ، وأفصحت ملامحها عن وميض كراهية .

وبعد ساعة ، رأى هيكلاً ضخماً في مواجهة الأفق الغربي ، قد يكون تلاً ، لكن شكله بدا غير منتظم .

قال أولف : «لا بدّ وأن تكون تلك قلعة المحاربين » . كان الإجهاد واضحاً عليه فقرّر نيال ألا يطلب منه مزيداً من المعلومات ، لكنهم عندما اقتربوا أكثر ، اندهش من حجم القلعة الهائل . لا بدّ وأن يكون ارتفاعها خمسمئة قدم . إنه لم يَرَ قط شيئاً بمثل هذه العظمة والروعة . واستطاع أن يرى الآن أنها شيّدت فوق تلال طبيعية من الصخور ، بطريقة بدت وكأنها استمرار للتل . وقد تمّ بناؤها من أحجار ضخمة ، يصل طول كل واخد منها إلى حوالي ستة أقدام ، بينما يصل ارتفاعه إلى ثلاثة أقدام . وفي أعلى القلعة كان ثمة بقايا لأبراج مستطيلة الشكل ، بعضها نصف متهدّم . وهناك في الأسفل دعامات ضخمة تسند هذه الأبراج . وعندما اقتربوا أكثر ، رأوا بوضوح مدى الدمار الذي لحق بالقلعة . كانت هناك أعمدة مستطيلة ضخمة ، يزيد عرضها عن عشرة أقدام ، استخدمت في فترة من الفترات كدعامات لسقف ، ولم يتبقّ الآن سوى اثنين يحتفظان بارتفاعهما الأصلي ، أما الأعمدة الأخرى فقد أصبحت أطلالاً .

توقّفوا عند سفح التل للراحة ، وشرب قليل من الماء . بيد أن الحرّ كان شديداً ، رغم هبوب الريح من جهة الجنوب ، فخافوا من الإصابة بضربة شمس . وجرّوا أنفسهم جراً ، على مضض ، وراحوا يبحثون عن أسهل طريق للصعود .

وجدوا الطريق عند منتصف المسافة نحو الجهة الشمالية ، وكان حلزونياً ، يصل

عرضه إلى قدم بالكاد، محفوراً وسط الصخور. وبدا أنه يمتدّ إلى ما لانهاية. ولكن نظراً لأنه لم يكن هناك بديل، فقد راحوا يصعدون ببطء، وهم يجرّون سلالهم على الدرج، غير المستوي، فبعض الدرجات ضيّق، والآخر عميق، أو متفتتّ أو متآكل. وقد صعد أولف في المقدمة، وتبعه نيال، ثم انجيلد في المؤخرة (وجاء هذا الترتيب بدافع من الحياء ـ فقد كان رداؤها المصنوع من حرير العناكب قصيراً ويغطي أعلى فخذيها فقط). أخذ نيال يصعد الطريق متثاقلاً، وقد ركّز عينيه على الدرجات التالية، وحينما توقّف في نهاية المطاف، ليتطلّع حوله، دُهش لأنهم وصلوا إلى ارتفاع شاهق فوق السهل، وباتت جدران القلعة أعلى منهم ببضعة أقدام فقط. مرّوا متثاقلين، بعد بضع دقائق، بممشى مقنطرة الشكل يفضي إلى الفناء الخارجي.

وأصابت الدهشة نيال، فنسي كل تعبه. لو أن أحداً قد وصف له مكاناً مثل هذا، فإنه سيفترض أنه يبالغ كثيراً. كان الفناء ممتلئاً بالحصى، وأجزاء محطمة ضخمة من الجدران، ومع ذلك فقد بدا واسعاً وخالياً. وأدّت كلّ الأقواس المحيطة بالفناء إلى القاعات الكبرى. كان جزء من المبنى الرئيسي قد اقتطع من الصخرة ذاتها، بينما أعطته الصخرة ذات اللونين الأحمر والأصفر، مظهر قلعة على غرار قلاع الروايات. كان أعلى مكان في القلعة ما يزال يعلوهم بأكثر من مئة قدم.

راحوا يبحثون عن مكان ظليل، ليستريحوا فيه. عبروا الفناء، واجتازوا أحد المداخل المقوّسة. وقد وجدوا أنفسهم في قاعة على غاية الضخامة، فأوشكت الجدران البعيدة والسقف أن تتلاشى في الظلال. كانت باردة بشكل مذهل، حيث احتلّت جانب المبنى الذي لا يتعرّض لشمس الصباح. ونشروا بطاطينهم، ثم استلقوا فوقها وهم يلهثون وينصتون إلى عصف الرياح الذي لا ينتهي. وفي غضون دقائق، راح نيال في سبات عميق.

راوده حلم غريب، بأن سيد العناكب، «شيب»، يتطلع إليه من مكان شاهق ويسخر منه. وعندما راح يبذل جهداً للعودة إلى وعيه، أدرك أنه يشعر بالبرودة، بينما كانت أشعة الشمس قوية باهرة، بالخارج فوق الفناء الأبيض. واستغرق أبوه، الذي يرقد بجانبه، وانجليد في نوم عميق. وقد جلس، وسحب جزءاً من البطانية من تحت جسمه، ولفّها لتشكل كيساً للنوم. كان لديه في إحدى السلال، بطانية خفيفة أخرى مصنوعة من حرير اليسروع، بيد أن النوم غالبه، فتكاسل عن إخراجها. عكّرت ذكرى الحلم نومه، فقد كان سيد العناكب يجلس فوق أعلى أبراج القلعة ويتطلّع إليه. لكنه شعر بالأمان لوجود أبيه إلى جانبه، وبعد بضع دقائق راح في النوم.

استيقظ وهو يشعر بأن أحداً قد لمس كتفه. كانت ذبابة تئزّ فوقه، بينما انزلقت البطانية من فوق كتفه، فشعر بالبرد. حاول أن يغطّي كتفه، ولكنه وجد صعوبة في رفع ذراعه، بدا الأمر كما لو أن بطانيته قد التصقت تحته، فقيّدت حرية حركته. وأثار الأزيز ذعره، وفي الوقت ذاته، انحبس صوت الذبابة داخل نسيج. رفع رأسه وتطلع نحو القاعة، فبدا أن هناك شيئاً ما يحدّق في الظلام. واعتقد أنه رأى مائة نقطة تبرق. أصبح في تمام اليقظة، فجأة، فحاول أن يجلس. ثم رأى ما منعه؛ شرائط من نسيج العناكب امتدّت فوقه وقد شُدّت على الأرض، بطريقة ما. كان النسيج يغطّيه تماماً، مثل بطانية ناعمة. نظر إلى أبيه وانجيلد، فوجدهما وقد تغطيا بنسيج يشبه الشباك من حرير العناكب، الذي ما يزال رطباً ولزجاً من جراء إفرازات العناكب. اكتشف الآن أن النقاط التي تبرق، ما هي إلا عيون عشرات العناكب تراقبهم من الظلال.

أيقظت صرخته الاثنين الآخرين. وبمجرّد أن حاولا الجلوس، وجدا نفسيهما وقد التصقا بالبطاطين اللزجة التي غطّتهما. لقد امتدّ النسيج فوقهما مثل ملاءة، قبل أن يحاولا التحرّك. وبمجرد أن جلسا التصق جسماهما بالحرير اللزج، الذي تعلّق بهما، وكلما حاولا تخليص نفسيهما، التصقت أيديهما وأذرعهما.

تحرّكت العناكب الآن قدماً إلى الأمام، خارجة من الظلام، كما لو أنها تريد أن تلقي نظرة عن قرب. شعر نيال بالارتياح عندما رأى أنها صغيرة الحجم، فطول أجسامها يبلغ نحو ست بوصات، والمسافة بين القائمتين تبلغ نحو ثماني عشرة بوصة. استطاع أيضاً أن يعرف بلمحة خاطفة أنها تندرج تحت نوع عناكب الصحراء الرماديّة، وأنها غير سامّة.

شعر نيال بأنه محظوظ عندما استيقظ وغطّى نفسه بالبطانية. فقد غطّت شبكة العناكب بطّانيته، ولم تلتصق سوى بكتفه، ويده اليمنى، وقدمه اليسرى. استطاع أن يحرّك يده اليسرى ويسحب نحوه جزء ثوبه الذي يطوّق العنق والكتفين ويتصل بالسلال. وعثر على المدية الصوّانية، فقام بتقطيع النسيج حول خصره، ثم حرّر كتفه وقدمه اليسرى. وانسلّ من البطانية، ووقف، فتراجعت العناكب إلى الظلال. التقط حجراً كبيراً، وقذف به نحوها، فسمعها وهي تعدو مبتعدة.

قال لانجيلد: «ارقدي دون حراك!». تركت الذعر الذي تشعر به يفارقها في تنهيدة، وأخذت تحدث جلبة، وهي تلهث بطريقة كريهة أثناء تقطيعها للنسيج. واستطاع أن يقرأ في عينيها أنها اعتقدت أن تلك هي النهاية. فراح يقطع أطراف النسيج الذي التصق بالأرض، وبعد بضع دقائق استطاعت أن تقف مترنّحة، رغم أنها ما زالت مكسوّة بالحرير اللزج.

قال لها نيال: «اتّجهي للخارج!». لم تكن بحاجة لأيّ تشجيع، فبعد أن تخلّصت من أطراف النسيج، إندفعت نحو ضوء الشمس. وخلّص نيال بعد ذلك أباه. وعندما فعل ذلك، بدأت العناكب تتقدّم نحوهما من جديد، فألقى بالمزيد من الأحجار، فتراجعت مرة أخرى. أصبح واضحاً الآن أنهم لا يتعرّضون لخطر عاجل؛ فالعناكب لن تجرؤ على مهاجمتهم بعد أن استيقظوا.

بدا ضوء الشمس باهراً في الخارج، فالوقت كان عصراً. وقد ساعدهما نيال على الابتعاد عن النسيج، بالتعلّق عليه، بينما انسحبا من الاتجاه المعاكس. وترك النسيج على بشرتهم خيوطاً لزجة، وخطوطاً من الدبق اللامع. وقد احتاج الأمر نحو ساعة حتى خلّص نيال وانجيلد نفسيهما من الخيوط.

كانت أكياسهم ما تزال بالداخل، وعندما دخلوا للبحث عنها، وجدوا أنفسهم مرة أخرى مراقبين من مئات العيون الضيّقة، التي لمعت وسط الظلام. وبدت أطراف النسيج، وهي ما تزال متصّلة بالأرض، صلبة وراسخة، كما لو أن صمغ العناكب قد تماسك ليتحوّل إلى نوع من الراتينج. أفرزت العناكب خيوطها الرقيقة، وألقت بها فوق البشر النائمين، حتى تستقر هناك كما لو أنها رقائق من الجليد. وقد أيقظت نيال لمسةُ أحدها. لو أنه لم يتغطّ بالبطانية، لكان التصق بشدّة متلهما، ولبات الثلاثة داخل شرنقة من حرير العناكب.

أدّى الخطر إلى تلاشي آخر آثار الإرهاق. فقد شعروا جميعاً بالقدرة على السير لمسافة مئة ميل لمجرّد الهرب من هذا المكان المفزع. مع ذلك، لم يكن هناك معنى لمغادرة المكان قبل أن يحدّدوا وجهتهم. لقد تركوا أكياسهم في الظلّ، وانطلقوا للبحث عن موقع ممتاز فوق السهل الجنوبيّ. وعثروا على ما يفتّشون عنه في فناء مجاور، مجموعة من الدرجات الحجرية، تأخذ في الصعود إلى جانب الحائط الخارجي. كان هذا واحداً من الأماكن القليلة التي لم يلحق بها الخراب. أوصلتهم أكثر من مئة درجة عادية إلى أعلى الحائط، الذي يبلغ عرضه نحو ستة أقدام، بينما كان يوجد كشك حجريّ للحراسة عند ملتقى جدارين. دخل نيال الكشك وتطلّع من نافذته، فشعر بالأمان بشكل أكبر من وقوفه عند أعلى الحائط وسط الرياح الشديدة.

وتمكّن من أن يرى، على بُعد، وميض مياه بحيرة الملح. وإلى أسفل، كان هناك جرف عميق يصل إلى خمسة عشر قدماً، يفضي إلى السهول. ومن هنا لم يكن جدار الجرف شديد الانحدار، بيد أن نزوله بدا صعباً.

توصل أولف إلى الاستنتاج ذاته. قال متشائماً: «ليس أمامنا طريق للنزول قبل أن نقطع أميالاً».

وقف نيال محدّقاً باتجاه السهل، وقال: «ولكن ماذا كانوا يفعلون، عندما يريدون الذهاب إلى هناك؟».

ردّت انجيلد بانفعال: سيراً على الأقدام.

- ولكن أي طريق كانوا يسلكون؟ لا أعتقد أنهم كانوا يذهبون إلى الجانب الآخر من الهضبة.

استوقفت أولف هذه الملاحظة، فقال: «لا. لا بدّ أنك على حقّ. يتعيّن أن يكون هناك طريق آخر للنزول».

راحوا يسيرون فوق أعلى الجدار. وجدوا أكشاكاً للحراسة، عند كل فاصل في الجدار، يبعد كل واحد عن الآخر مسافة عشرين متراً، ويقام عادة عند زاوية منفرجة بين فناءين. جعلهم السير على طول الجدران يدركون حجم المكان، الذي بدا أكبر بكثير بالمقارنة مع حجمه من أسفل.

تساءل نيال: هل تعتقد أن العمالقة شيّدوا هذا المكان؟.

هزّ أولف رأسه قائلاً: لا. هذا الدرج بُني ليصعد فوقه بشر مثلنا.

وجد نيال الفكرة مذهلة. فرجال مثله شيّدوا هذه القلعة المترامية الأطراف. ولكن لا بدّ وأنها أخذت أعمار بشر عديدين. ذلك يعتمد، بطبيعة الحال، على عدد الذين كانوا موجودين في ذلك الوقت... خطرت له، للمرة الأولى، فكرة أن يكون قد مرّ زمن كان فيه البشر سادة الأرض. قبل هذه اللحظة، كان يتعامل معها على أنها مجرّد فكرة، لكنه لم يدرك أنها يمكن أن تكون احتمالاً حقيقياً. أما الآن، فإن فكرة وجود آلاف البشر ينحتون كتل الأحجار، ويشيدون هذه الجدران الهائلة، أثارت إحساساً غريباً بالابتهاج يماثل الإحساس بماء بارد يصبّ فوق رأسه.

عثر نيال، عند كشك الحراسة التالي، على ما كانوا يبحثون عنه: درج مقام على جانب الجرف، يمكن رؤيته من أعلى مباشرة. عند هذا المكان، لم يعد الجرف مجرد وجه صخرة منحدرة. لقد أدّت الرياح المحمّلة بالرمال إلى تآكلها، فبدت الصخرة مثل سلسلة أعمدة ونتوءات غير منتظمة. خرجت الأشجار، والشجيرات من بين شقوقها وصخورها. يشبه هذا المكان كثيراً، المنطقة التي صعدوا منها إلى الهضبة. رأوا تحتهم مباشرة درجاً يفضي إلى أسفل، ويختفي عن الأنظار عند صخرة ضخمة محدبة، تعرّضت للتآكل، فباتت متجعّدة مثل بشرة كائن حي.

عثروا على المزيد من الدرجات، فهبطوا إلى الفناء. لكن لم يكن هناك مدخل في الجدار الخارجيّ، فساروا حتى بلغوا الفناء التالي ثم الذي يليه. لم تكن ثمة أبواب، فأشار أولف إلى أن هناك مغزى معقولاً وراء ذلك، فما جدوى بناء قلعة محصّنة ضخمة وقد تمّ وضع مئات الأبواب في جدرانها تمكّن الأعداء من النفاذ إليها؟

إلا أن الطريقة التي تصرّف بها سكان القلعة للوصول إلى أعلى الدرج، ما تزال تثير مشكلة لم يتّم حلها. صعد نيال عائداً إلى قمة الحائط ـ نظراً لأنه الأصغر سناً والأكثر نشاطاً ـ ثم تطلّع إلى أسفل مباشرة على سلسلة الدرج. لاحظ الآن أمراً لم يلحظه من قبل، عندما تفقّدها من الجانب. من الواضح أن الدرج ارتفع عن الجرف مسافة عشرين متراً، ولكن إذا ما توقّفت هناك، فكيف يمكن لأولئك الذين تسلّقوا كل هذا الارتفاع أن يصلوا إلى القلعة؟

اتّجه إلى الجهة الأخرى من الحدار ونظر إلى الفناء. كانت توجد، دونه مباشرة، علامة مستديرة قاتمة على الأرض، يبلغ قطرها نحو ستة أقدام. ونادى على أولف قائلاً: «ما هذا الشيء؟».

ـ أيّ شيء؟

ـ توجد دائرة على الأرض، دوني مباشرة حيث أقف.

ـ لا أستطيع رؤيتها.

ـ أنت تقف فوقها تماماً الآن.

هبط الدرج مسرعاً، وعاد إلى الفناء. بدت الدائرة غير مرئيّة، ولكن نظراً لأنه يعرف أن أباه يقف بداخلها، فقد انحنى ليصبح على أطرافه الأربعة، وراح يفحص الأرض فحصاً دقيقاً. بدأ يكشط بمديته الصوّانية، في الأماكن التي كان الغبار فيها ناعماً. وحدثت طقطقة بين حجرين. وراح الجميع، أولف، نيال وانجيلد يستخدمون الآن المُدى، وفي غضون خمس دقائق، كشفوا النقاب عن الدائرة الحجرّية. وقد أدّى المزيد من التنقيب إلى اكتشاف حلقة معدنّية. لم يكن نيال قد رأى من قبل على الإطلاق أيّ نوع من المعدن، فاعتقد أنه قد يكون نوعاً نادراً من الحجر. بلغ قطر الحلقة نحو ست بوصات، فكانت عريضة بما يسمح لثلاثتهم بأن يمسكوا بها في وقت واحد. وقد باعدوا ما بين أقدامهم، وراحوا يشدّون، فلم يحدث شيء. حاولوا مرة أخرى، وفي هذه المرة، بدا أن الحجر السحريّ الضخم قد تحرّك بشكل طفيف للغاية. حاولوا لمدة خمس دقائق حتى نال منهم التعب، لكنهم نجحوا في رفع الغطاء نحو بوصتين.

قرّروا الآن أن يلقوا نظرة على القاعة عبر الفناء، رغم كراهيتهم للحجرات الداخلية.

بدت هذه أصغر من الأولى التي ناموا فيها، كما امتلأت بأشياء غريبة مصنوعة من الخشب. ونظراً لأنهم لم يروا من قبل مقعداً أو طاولة قط، فإن أحداً منهم لم يستطع أن يخمّن بأنهم في غرفةطعام الضباط. لقد نخر السوس معظم الأثاث، وتهاوى مقعد عندما حاول نيال أن يرفعه من على الأرض. وحوّلت أشعة الشمس بقايا سجادة على الأرض إلى اللون الأبيض، رغم أن الزوايا البعيدة، التي لم تطلها الشمس، ظلّت تحتفظ بأشكال ملوّنة، باهتة للغاية، ولكنها ألوان غنيّة ومبهجة. كانت هناك عارضة خشبية ناتئة، وسط كومة من الدبش، يبلغ طولها عشرة أقدام، وعرضها أربع بوصات. أمسكها أولف من طرفها، وضغط بقدمه فوقها، فبدا الخشب صلباً. أمسك نيال بالطرف الآخر، وحملاها إلى الفناء.

أدخلاها في الحلقة المعدنية، وأمسك نيال وانجيلد بطرف، بينما أمسك أولف بالآخر. باعدوا ما بين ركبهم، وشدوا بكل قوتهم، فبرز الغطاء الحجريّ من الأرض، وظهرت فجوة تبلغ ست بوصات. كان الثقل شديداً، فاضطروا إلى أن يتركوا العارضة تسقط. وعاد نيال إلى الحجرة، فعثر على قطعة خشب أخرى. ورفعوا في المرة الثانية، الغطاء الحجري، واستخدم نيال قدمه، لإدخال قطعة الخشب في الفجوة. واستخدموا العارضة الأخرى كأداة رفع، فانفتح الباب المسحور، ونجحوا في دفعه لأحد الجوانب. هبّت ريح على وجوههم، ورأوا دونهم، درجاً يهبط إلى الظلام.

راحوا يهبطون بحذر. بعد عشر دقائق، أصبح النفق، بعد عشرين قدماً أو نحو ذلك، مظلماً، فاضطروا إلى التحرّك ببطء شديد، وهم يختبرون كل درجة بأقدامهم. ثم ظهرت بارقة ضوء، وعند المنحنى التالي، نفذت من المدخل أشعّة شمس باهرة. وجدوا أنفسهم، بعد ذلك، يقفون عند ممشى ضيّق وهم يشعرون بالدوار حيث كانوا على شفا جرف شديد الانحدار بينما يمتدّ الأفق في البعيد.

بدا الدرج، من أعلى، كما لو أنه يهبط بشكل عموديّ متل سلّم من حبال. جلست انجيلد وقد تشبّثت بجدار النفق.

- آسفة. لا أستطيع أن أهبط، فليس بمقدوري أن أتحمل الأماكن المرتفعة.
نظر أولف إليها مندهشاً، وقال: لقد صعدت الجانب الآخر.
- لكن ذلك كان صعوداً، بالإضافة إلى أنه كاد أن يكون مُظلماً.
كشر أولف استهزاء وقال: ليكن. سوف ننتظر حتى يحلّ الظلام.
راحت تبكي قائلة: آسفة، لكنني لن أستطيع النزول.
هزّ أولف كتفيه استهجاناً، وقال: أتريدين قضاء الليل، جالسة هنا؟

ـ ولكن لا بدّ وأن هناك طريقاً أفضل للهبوط.

ـ ليس هناك أيّ ضرر في هذا.

ارتسمت على وجهها، نظرة عناد كئيبة، وقالت: لن أنزل من هذا الطريق.

كان هذا آخر ردّ يودّ أولف أن يسمعه، فقد شعر في أحيان كثيرة بالغضب تجاه ثورج، لاستسلامه لاصرار زوجته على أن تفعل ما يحلو لها. حدّق الآن في انجيلد، وقد ارتسم على وجهه تعبير صارم، وقال لها: «بإمكانك أن تفعلي ما تشائين، ولكننا سننزل، لنقضي الليل في الأسفل».

لم تكن انجيلد معتادة على عدم تلبية طلباتها، فقالت: وماذا عساي أن أفعل؟

ـ بإمكانك العودة، وقضاء الليل في القلعة.

ـ وماذا عن العناكب؟

ـ ما الذي يخيفك أكثر ـ العناكب أم الأماكن المرتفعة؟

راح يهبط الدرج بحذر، ثم قال: «هلمّ، يا نيال!».

أخذ نيال ينزل على مضض، إذ شعر بالأسف لها، رغم ضيقه منها. كان الدرج، في الواقع، أقلّ خطورة مما بدا؛ فعلى الرغم من أن اتساع كل درجة لم يزد عن نحو بضع بوصات لا غير، إلا أنهما وجدا مقابض للأيدي حفرت في الصخور بجانب الدرج. أصبح المنحدر أقل حدّة، بعد مئة متر، حيث دار الدرج، بزاوية وراء الصخرة المحدبة. طلب أولف من نيال أن يجلس، بعد أن باتا بعيدين عن أنظار انجيلد. ثم ترك صرّته، وصعد الجرف عائداً. ثم ظهر، بعد بضع دقائق، ومعه انجيلد. كانت الدموع تبلّل وجهها المتجهم، بيد أن نظرتها العنيدة قد اختفت.

وصل عدد الدرجات إلى ما يزيد عن ثلاثة آلاف. ساروا متتبعين منحنى متعرّجاً، يختفي في شقوق وسط الصخور تارة، ثم يرتفع على وجه الجرف تارة أخرى، ويمرّ أحياناً بوادٍ تغطّيه صخور ضخمة، مستطيلة الشكل، حفرت عليها نقوش بارزة لحيوانات غريبة. بدت بعض الكائنات تماثل إلى حدّ ما القوارض الصحراوية، لكنها أكثر ضخامة منها. وقفوا وراحوا يفكّرون في هذه الأشياء، وقد اعتراهم شعور بالرعب. أشار نيال إلى كائن يلوح شكله شرساً على نحو خاص، وقد أحاط به، على ما يبدو، الصيادون، وقال: «ما هذا؟».

ـ لست متأكداً.

قالت انجيلد بازدراء: إنه نمر.

ـ هل مثل هذه الكائنات تعيش حقاً على الأرض؟

ـ بطبيعة الحال .

قال أولف : لقد قتلت العناكب كلّ الحيوانات الضخمة .

ـ إذن لماذا سمحت للإنسان بالبقاء على قيد الحياة؟

ـ لأن الإنسان لا يستطيع أن يحمي نفسه . فليست لديه مخالب ، أو أنياب أو أسنان حادّة .

ـ لكنه يمتلك أسلحة .

قال أولف متجّهماً : ولكن من الممكن تجريده من هذه الأسلحة ، بينما لا يمكن تجريد النمر من مخالبه ، دون أن تقتله أولاً .

نزلوا متثاقلين ، بعد أن زادت صعوبة الهبوط خلال المئة قدم الماضية ، حيث بدا الجرف متحطّماً ومتآكلاً . وأدّت الرياح إلى إحداث تجويف عند قاعدة الجرف ، فتعيّن عليهم أن يلقوا بصررهم ويقفزوا العشرة الأقدام الأخيرة ، ليهبطوا فوق رمل ناعم . تطلّعوا إلى الخلف ، فرأوا أن الدرج قد اختفى الآن ، فقد حرص أولئك الذين شيّدوه على إخفائه عن عيون الأعداء .

كانوا قد تجنّبوا أسوأ ما في الصحراء ، بالسير فوق الهضبة . لم تكن البرّية تختلف عن المنطقة المحيطة بالجحر ، ولكنها تمتاز بوجود المزيد من الحياة النباتية . بدا الجوّ هنا حارّاً وقابضاً للصدر بالمقارنة مع جوّ الهضبة . وعلى الرغم من التهديد الذي شكلته العناكب ، التي تركوها خلفهم الآن ، فإن نيال شعر بغصّة وأسف لمغادرته القلعة المتهدّمة ؛ فهي تمثل له شيئاً لم يره من قبل قط، شيئاً حالماً وغامضاً .

باتت الشمس قريبة من الأفق الغربي . شعروا بالتعب من جراء نزول الدرج لمسافة طويلة . ورأى أولف أن يستريحوا ، إلى أن يرتفع القمر . كان هناك احتمال لوجود كهوف يستريحون فيها ، بين التجاويف ، في قاعدة الجرف . وقد ساروا غرباً ، مسافة ميل ، لكنهم لم يجدوا مكاناً أعمق من بضعة أقدام . ومع ذلك ، فقد مرّوا بمجموعة أخرى من الأشجار المنخفضة أو الشجيرات ، التي كانوا قد ناموا تحتها فوق الهضبة . اختاروا أكثر الأشجار انخفاضاً ، ونشروا البطاطين ، لتقيهم أشعّة الشمس ، ثم استلقوا حتى يستريحوا . استلقت انجيلد بعيداً عنهما ببضعة أمتار ، فلم تغتفر لأولف أنه جعلها تهبط الدرج .

لما اقتربت الشمس من حافة الأفق ، سحب أولف نفسه وسط الشجيرات ، وجلس القرفصاء ، وقد أعطى ظهره لجذور شجرة ملتوية . كان ذلك هو الوقت الذي يحاول فيه

إجراء اتصال بسيريز، ونظراً لأنهم على خطّ طول واحد، فإنهما سيشاهدان غروب الشمس ـ في وقت واحد. واتّفقا على محاولة الاتصال، عندما تلامس الشمس الأفق، حيث أن تلك اللحظة تسهل عملية الإتصال بين الأذهان.

ابتعد نيال عن موضعه قليلاً، ليتمكّن من مراقبة أبيه، الذي بدا متعباً، وقد ينام بسهولة أثناء عملية الاسترخاء. وبالتالي، فإنه عزم على متابعته لإثارة انتباهه إذا ما غلبه النعاس.

تصلّبت مفاصله من الرعب، على حين غرّة؛ فقد تحرّك شيء ما، في الجذور الملتوية خلف أبيه. رأى الجسم الطويل الأفعواني «لحشرة» من ذوات الأربع والأربعين، رمادية اللون، يزحف باتجاه العراء. كان طولها يبلغ نحو ثلاثة أقدام، وقرونها العديدة المتشابكة، تتذبذب مستطلعة، فقد أحسّت بوجود غرباء على أرضها. لكنها لم تكن قد لاحظت حتى الآن أولف، الذي جلس ساكناً مثل حجر. رأى نيال من قبل، أعداداً قليلة منها، وقد فتنته حركة قوائمها القصيرة، إلا أنها أثارت اشمئزازه. وتعدّ ذات الأربع والأربعين، من الحشرات السامّة، على عكس الدودة الألفية، وتقطن جحوراً في التربة. وحينما تدرك أن هناك إنساناً قد دخل منطقتها، فإن رأسها يرتفع، ويأخذ وضع الترقّب والحذر، بينما تكشف عن فكيها السامّين، المماثلين لفكّي عنكبوت.

وطالما ظلّ أولف دون حراك، فإنه لن يتعرّض لأي خطر. لكنه إذا ما أحسّ بوجود الحشرة، وتحرك على نحو مفاجىء، فإنه سيتعرض في الحال للدغتها.

عرف نيال أيضاً أن أنجيلد ترقد في مكان يمكن منه رؤية أولف. بيد أن عينيها كانتا مغمضتين، لكن إذا ما فتحتهما، فإنها سترى ذات الأربع والأربعين، وبالتالي ستطلق لصراخها العنان.

كبح نيال جماح الذعر، الذي يتصاعد في عروقه، وراح يهدىء من روع عقله. في تلك اللحظة، دلّ تنفس أولف بعمق على أنه أجرى اتصالاً. ظلت ذات الأربع والأربعين على وضعها، حيث ابتعد فكّاها المسمّمان بضع بوصات عن ظهر أولف العاري. بيد أنه نظراً لبقائه دون حراك، فقد بدأ هذا الوضع المتربّص يهدأ تدريجياً. راح نيال، بحذر شديد، يتلفّت حوله بحثاً عن رمحه، فوجده بجوار جذع الشجرة على بعد بضعة أقدام. تحرك ببطء شديد، حتى لا يوقظ انجيلد، إلى أن بلغ الشجرة، فأمسك بالرمح ورفعه بحيث أصبح في وضع الرمي. إلا أن طريقة تنفس أولف جعلته يدرك أن الإتصال ما يزال

مستمراً. ولفّ الصمت كل شيء. ثم تقلّبت انجيلد، فأحدثت الأساور في معظميها قعقعة. وعادت الحشرة على الفور إلى وضع الهجوم. وعندما لفّ الصمت المكان مرة أخرى، عادت إلى الاسترخاء. مرّت دقيقة كاملة، وفجأة تنفّس أولف بعمق وتحرّك، فقذف نيال بالرمح دون تردّد. اصطدم بالأرض، على بعض بضع بوصات من الحشرة، بيد أن قوة الدفع جعلته يندفع حتى شقّ الأرض ودخل رأسه في بطن ذات الأربع والأربعين. تلفت أولف حوله جافلاً. قذف الرمح بالحشرة بعيداً لعدة أقدام. وقف نيال، بعد لحظة، فوقها شاهراً رمح أبيه. طاعناً الجسم الذي يتلوّى المرة تلو الأخرى. واستيقظت أنجيلد، فرأت ما يحدث وصرخت صراخاً حاداً، ولو أنها صرخت قبل دقيقتين، لكانت صرختها قد كلفت أولف حياته. أما الآن فقد دفعته للعمل، حيث أمسك بالرمح الآخر وراح يساعد نيال في قتل الحشرة التي لم يعد فكّاها سامّين بعد أن كاد رأسها ينفصل عن الجسم.

عندما تمدّدت الحشرة دون حراك، وضع أولف يده على رأس نيال، وقال له: «أحسنت صنعاً، يا ولدي!». كان نادراً ما يناديه بكلمة «ولدي»، فاحمرّ وجهه خجلاً، لكنه شعر بالسعادة.

قالت انجيلد، التي ما زالت تشعر بالذعر: «لنبتعد عن هذا المكان! إنه مرعب...».

هزّ أولف كتفيه قائلاً: «لقد بات آمناً بما فيه الكفاية الآن». وراح يدفع برمحه في أعماق جذور الشجرة.

قالت بصوت متهدّج من الانفعال: لا أستطيع أن أتحمّل البقاء هنا.

تنهّد أولف قائلاً: ليس هناك جدوى من التحرّك حتى يرتفع القمر. فليس بمقدورنا تحديد الوجهة التي نقصدها.

ردّت قائلة: إذن سأسير إلى هناك.

خرجت إلى العراء، وسارت لمسافة خمسين متراً، وجلست هناك بطريقة تنمّ على التحدّي. أراد نيال أن يقول لها، إنها تواجه خطراً في العراء أكبر من وجودها تحت الشجيرات، حيث يمكن أن تتعرض لعنكبوت أو ذات الأربع والأربعين، لكنه رأى أن الأمر لا يتسحقّ هذا الجهد. فقد ملأه الشعور، باحتمال التخلّص قريباً منها، بالارتياح.

بزغ القمر، بعد ساعة، فبدأوا السير جنوباً. وصلوا، بعد بضعة أميال، إلى طريق قديم، بدا أنه يربط بين الهضبة وبحيرة الملح. ساروا فيه بقية الليل. أثارت ذعرهم، في

أحيان كثيرة، حركات صادرة من الصحراء على جانبي الطريق ـ جلبة خمش، أصوات عدو، وهسهسة مهددة، في بعض الأحيان ـ لكنهم لم يروا شيئاً، فالقليل من الكائنات الصحراوية يغامر بمهاجمة مجموعة من ثلاثة أفراد.

لما أفل القمر، جلسوا للراحة لمدة ساعة. ألقت انجيلد بنفسها على الأرض وتنهّدت بعمق. تمدّد أولف على ظهره، وقد توسّد حجراً مسطحاً. أما نيال فقد فضل الجلوس، مسنداً ظهره إلى صخرة ضخمة، وقد وتّرت الأصوات الصادرة من الصحراء، أعصابه. غفا، لكن جلبة أيقظته، فاصاخ السمع بتركيز، فوجد أن الجلبة توقّفت. استرخى، ولكنه واصل التركيز في الوقت ذاته. ونظراً لأنه كان يشعر بالإرهاق، فقد استرخى بشكل أسهل من المعتاد، ولفّه، فجأة، هذا الهدوء الداخلي العميق، لكما لو أنه قد مشى إلى داخل قاعة كبيرة خالية. تقلّبت انجيلد، فتحوّل انتباهه إليها. عرف ما تفكّر فيه، وشعورها بالضجر والاستياء من المجهود الذي أُجبرت على بذله. وأحسّ بأنها لا تكنّ أي عرفانٍ بالجميل تجاهه أو تجاه أبيه لمرافقتها إلى هذا المكان البعيد، وأن كل ما تشعر به هو ازدراء غاضب. أدرك الآن أنها تحسّ باستياء بالغ إزاء وفاة ثورج وهرولف، وتوجه لومها إلى أولف وفيج. راحت في النوم، وهي ما تزال تغذي إحساسها بالظلم. عندما حوّل نيال اهتمامه إلى أبيه، وجده نائماً فأدرك ما ينتابه من إحساس بموسيقى رمادية نابضة مملوءة بالصور والأحلام.

عندما استخدم هذا الإحساس الجديد الاستبطانيّ في مسح الصحراء، شعر في الحال، بوجود المئات من الكائنات الحيّة: الخنافس، العناكب، النمال، ذوات الأربع والأربعين، والقوارض، وجميعها تفكر في الطعام. كان إحساساً غريباً يماثل تحوّله هو نفسه إلى صحراء. وأدركت بعض الكائنات، مثل العناكب الرمادية، على سبيل المثال، أن ذهنه يمشطها، أما الكائنات الأخرى، فقد كانت في غفلة تامة.

أزعجه أمر ما، يماثل قلقاً متصلاً في خلفية ذهنه. عاد ذهنه إلى المكان والزمان الحالي، فعرف أن الوقت قد أصبح بالفعل نهاراً. ثم تحرك في الوقت الذي مسّ شيء ما ساقه. كان جالساً وسط أجسام صغيرة تتحرّك، لكائنات مُشعِرة مثل اليساريع التي خرجت من تحت الشجيرة على بعد بضعة أقدام من الطريق. اعتقد في البداية أنها ذوات الأربع والأربعين السامّة، ولكنه عندما حدّق، أدرك أنهما يساريع محدبة الظهر، تراوحت أطوالها بين ست بوصات وقدم. رقدت انجيلد على ظهرها، وفمها مفتوح، وقد وضعت ذراعها فوق رأسها. راح أحد اليساريع يزحف فوق ثوبها. حثّ نيال نفسه على إيقاظها. في تلك اللحظة، تقدّم اليسروع نحو صدرها باندفاع ثعبان. استيقظت أنجيلد،

وهي تشعر بالاختناق. أدرك نيال، وقد انتابه الرعب، أن الحشرة قد دخلت فمها، وأن نحو ست بوصات منه تتأرجح فوق ذقنها. تراجعت الست بوصات، وهو يتابع الموقف، إلى ثلاث. راحت أنجيلد تتقلّب وتتخبّط وهي عاجزة عن فعل شيء. اندفع وأمسك بجسم الكائن الذي يماثل الفرو وجذبه بعنف. خرج وهو يتخبّط ويتلوى، وشعر أن فكّيه الحادّين قد قضما رسغه. شعرت أنجيلد بالغثيان. وحينما قذف بالكائن على الأرض، أدرك أن حشرات أخرى تزحف فوق ساقيه، كما رأى أن جسم أبيه قد غطّته الحشرات. ولما صرخ، استيقظ أولف جافلاً، وهبّ واقفاً، وحاولت إحدى الحشرات المشعرة اقتحام فمه، لكنه أطبق أسنانه فقضم رأسها، وألقى بالحشرات الأخرى على الأرض.

هرعوا، متجاهلين أمتعتهم، وهم يصدّون اليساريع التي حاولت تسلّق سيقانهم. توقّفوا على بعد خمسين متراً، حيث لم تحاول اليساريع اقتفاء أثرهم. أخذت أنجيلد تلهث بتشنّج، بينما راح أولف، الذي غطّى الضيق وجهه، يبصق مراراً لتنظيف فمه. امتلأ الهواء برائحة مثيرة للغثيان مثل رائحة نبات متعفّن.

قال نيال: ما هذه الحشرات؟

قال أولف وهو يبصق: ديدان قذرة، من أوضع الحشرات في الصحراء.

قالت أنجيلد، وهي تنتحب مثل طفل خائف: لقد حاولت الدخول في فمي.

أومأ أولف قائلاً: وإذا ما نجحت، فإنك كنت ستصبحين في عداد الموتى الآن. إنها تتغذى على الأمعاء.

كان ذلك كثيراً جداً عليها، فانهارت على الأرض وأخذت تنتحب بشكل هستيري. لم يبذل أولف أية محاولة لتهدئتها، فقد عرف أن هذه أسرع طريقة تتخلّص بها من الغثيان.

بعد بضع دقائق، ذهبت الديدان، واختفت في الشجيرات على الجانب الآخر من الطريق. عادوا ليجمعوا أسلحتهم وأمتعتهم، ولكنهم وجدوا أن طعامهم لم يعد صالحاً للأكل. لم تكن الديدان قد التهمته، ولكنها غطّت أرغفة الذرة واللحم وفاكهة الصبار، بافرازات رقيقة ذات رائحة كريهة مثيرة للغثيان. أفرغوا سلالهم، على مضض، في الطريق، فخفّفت من حملهم، على الأقلّ، وباتت تحوي الآن قرع الماء فقط، فواصلوا السير. ولكن عندما ارتفعت الشمس، بدأت تنبعث من المادة الرقيقة التي غطّت السلال، رائحة نتنة، عفنة، فقرّروا في النهاية، التخلّي عنها. كانت الرائحة تثير الغثيان، فلم يشعروا بأيّ أسف عليها.

سمع نيال، بعد نصف ساعة، صوتاً جعل قلبه يثب من الفرح: رقرقة مياه جارية. دخلوا بين مجموعة شجيرات على جانب الطريق، فعثروا على جدول صغير، تدفّقت منه مياه صافية فوق حصى أبيض ناعم. خاضوا في الماء، ونزلوا على أطرافهم الأربعة ليشربوا. جلس نيال في الماء واغتسل. لما غادروا المجرى بعد نصف ساعة، لم تعد هناك رائحة عفنة يشتمّونها.

أفضى الطريق، بعد بضعة أميال، إلى منحدرات يغطّيها الحصى الأبيض، بعد أن كان يكسوها الحجر الجيري. استطاعوا أن يروا الآن بوضوح جانباً من بحيرة الملح. أثار منظر الماء في نيال إحساساً بالانفعال الشديد. وأخذ الطريق في الانحدار إلى أن أصبح وادياً بين جدران صخرة، وكان يوجد فوق أحد هذه الجدران عدد من المنحوتات الضخمة، لرجال يعتمرون أغطية رأس غريبة، وتكسو وجوههم لحى مستطيلة ويرتدون ثياباً إضافية.

سأل نيال: مَن هؤلاء؟

قال أولف: لا أحد يعرف.

قالت أنجيلد: أنا أعرف. إنهم أجدادي.

ثم ألقت نظرة خاطفة عليها، اتسمت بالازدراء.

في تلك اللحظة، تردّد صوت جعل قلب نيال يرتجف من الدهشة. لقد كانت صيحة بشرية. تقدّم نحوهم، عند المنحنى التالي للطريق، على بعد نصف ميل، رجال يلوّحون بأيديهم.

قالت أنجيلد بفخر: أترى ـ لقد جاء أهلي للقائي.

ردّ نيال وقد ساوره الشكّ: وكيف عرفوا أنك قادمة؟

ابتسمت باستعلاء قائلة: إنهم يعرفون أموراً عديدة تتجاوز فهمك.

ألقى أولف بنظرة خاطفة، ساخرة عليها، لكنه لم يحر ردّاً.

بعد بضع دقائق، تمكّنوا من رؤية الرجال بوضوح. كانوا حوالي عشرة رجال، وبدا من يتقدّمهم، طويلاً، وقد ارتدى ثوباً أبيض. رفع يده ملوّحاً، وعندما باتوا على مسافة قريبة، صاح: «مرحباً بكم في أرض ديرا».

تردّد صدى صوته بين الأجراف. وقد أدهش هذا، في حدّ ذاته، نيال، الذي تعلّم منذ طفولته، ألا يصيح مطلقاً، إلا في حالات الضرورة القصوى؛ فالبقاء على قيد الحياة

اعتمد على ألاّ تسمعه العناكب أو تراه. بيد أن هذا الرجل الطويل تصرّف كما لو أنه لا يعبأ بتنبيه كلّ الضواري لأميال حوله.

صافح الرجل أولف قائلاً: اسمي «هامنا بن كازاك»، وهؤلاء أقاربي. لقد طُلب منا القدوم لتحيّتكم واستقبالكم.

سأل نيال: وكيف عرفتم أننا آتون؟

ـ لقد تلقّت أمي «سيفنا» رسالة من أختها تقول فيها إنكم وصلتم أرضنا.

ابتسم أولف لانجيلد، ابتسامة يعلوها الاستهجان، وقال لها: «إذن فهم لا يتجاوزون فهمنا. لقد قالت سيريز إنها ستحاول الاتصال بأختها».

تجاهلته أنجيلد، وخطت لتعانق هامنا قائلة: «إنني ابنة عمك أنجيلد». ثم أضافت بعد أن ألقت نظرة خاطفة على أولف «إنني سعيدة بعودتي إلى أهلي».

قال هامنا بطريقة رسمية: مرحباً بك.

قال أولف بجفاء: نحن أيضاً سعداء بعودتها إلى أهلها.

وبدا أن أحداً لم يفهم، لحسن الحظ، هذا التعليق الغامض.

بعد ذلك جرى التعريف بالجميع. افتتن نيال بكلّ شخص التقى به. بدوا جميعاً أكبر وأقوى من الذكور في عائلته. كان من الواضح أنّهم أفضل تغذية. وبدلاً من الأردية المصنوعة من جلد اليسروع أو حرير العنكبوت، فقد ارتدوا ملابس منسوجة، بيد أن ما أدهش نيال هو أن ملابسهم كانت متعدّدة الألوان، حيث لم يكن قد سمع قطّ عن المصبغة. أما الأخفاف التي ينتعلونها فقد بدت موحّدة التصميم.

انطلق هامنا ورفاقه، بمجرّد أن انبلج الفجر، نظراً لأن الطريق الذي سيقطعونه ما يزال طويلاً.

تبدّد التعب الذي شعر به نيال، بعد أن أصبح وسط هؤلاء الرجال، ولم يعد يأبه بالحرّ.

كان أصغر رفاق هامنا سناً، شاباً يدعى «ماسيج»، بدا من الواضح أنه في عمر نيال تقريباً، إلا أنه أطول منه بحوالي ست بوصات، ويتمتّع بصدر عريض وقوي. افتتن نيال بشعره الذي تراءى له مصفّفاً على نحو غريب، وكل جدائله متوازية، وقد ثبتها حول جبهته بشريط أبيض. وقد بدا ماسيج شاباً لطيفاً، حسن الخلق، راح يسأل نيال عن كل ما يتعلّق

بالرحلة. ومضى بعض الوقت، قبل أن يدرك نيال بشيء من الدهشة، أن ماسيج حسده لأنه سافر كل هذه المسافة بعيداً عن بيته. كما لاحظ أيضاً أن ماسيج يلقي نظرات إعجاب خاطفة نحو أنجيلد. لم يكن يخطر على باله قط أن أحداً قد يرى فيها أية جاذبية. أما أنجيلد نفسها، فقد شعرت بنشوة لأنها باتت محاطة بذكور أقوياء، فالتمعت عيناها، وتوهّجت وجنتاها. لم يكن نيال قد رأى من قبل مثل تلك النظرة في عينيها. كان الأمر الوحيد الذي ضايقه، هو أن أباه بات يعرج بشكل أكبر، وقد تزايد تعبه، بعد أن استنزفت هذه الرحلة قواه.

سأل نيال ماسيج عن المنحوتات الضخمة فوق الأجراف، إلا أن ماسيج لم يكن يعرف سوى القليل عنها، لكنه قال: «لقد نحتها بشر من عصر سحيق ـ منذ زمن بعيد لا يعرف أحد شيئاً عنه. كما أن هناك، في مواجهة الجرف، مقابر دُفن فيها قدامى البشر».

ـ هل ذهبت إلى هناك؟

ـ لا. يقولون إنها مسكونة بالأشباح.

ـ مسكونة بالأشباح؟

أخذ ماسيج يوضّح له طبيعة الأشباح، وأرواح الموتى. ارتجف نيال الذي لم يكن قد ذكر له أحد من أفراد عائلته أيّ شيء عن الأشباح.

قدم المضيفون الطعام والشراب، فأكلوا وهم سائرون في وقدة الظهيرة. كان الشراب عبارة عن ماء مضاف إليه نكهة فاكهة لم يتذوّقها نيال قط، هي نكهة الليمون. جعلت النكهة الحادّة الماء منعشاً بشكل يدعو إلى الدهشة. أما اللحم المجفّف، فهو من النوع ذاته الذي تخلّصوا منه، لكنّه كان أكثر دسامة وأفضل طعماً. كما قدّموا فاكهة الصبّار وثمار البرسيمون، وأيضاً البرتقال الذي أثار دهشة نيال.

لم تعد الطبيعة قاحلة، إلى حدّ ما، وأثارت أشجار النخيل والشجيرات اليانعة ذكريات نيال عن بلد النمال. ولاحت البحيرة أمامهم، وكان يجري أحد الجداول موازياً للطريق. وقد شعر نيال فجأة بأسف بالغ لأن أمه وأخته ليستا معه لتريا كلّ هذه الأشياء. لو أنها معه وشاركتاه أحساسه بالدهشة، لأصبح الأمر مجسداً له بشكل أكبر.

ثم تحوّل الركب وسط دهشة نيال، بعيداً عن البحيرة، واتخذوا طريقاً أفضى إلى الصحراء مرة أخرى. بدأ الطريق ينحدر، وأصبحت الطبيعة قاحلة. سأل ماسيج: «لماذا لا تقطنون بجوار الماء؟».

ـ بسبب العناكب. إنها تتوقّع أن يقطن البشر بجوار الماء، لذا فإننا نقطن في

الصحراء. ولقد مرّ زمن عاش فيه أهلنا بالقرب من الماء، لكن العناكب عثرت علينا، وأسرت الكثيرين منا.

شعر نيال بالحزن، وهو يفكر بأنه حتى في هذه الأرض التي تتّسم بالوفرة، ليس بمقدور أحد أن ينسى العناكب.

مسحت عيناه المكان المحيط به، علّه يعثر على أيّ شيء يدلّ على وجود المستوطنات التي وصفها ڤيج. لكن لم يكن هناك شيء، سوى الصخور والرمال الممتدّة نحو الهضبة البعيدة. راح يتساءل عن المسافة التي سيتعيّن عليهم أن يقطعوها.

جاءه الردّ على سؤاله في الحال. فقد توقّف هامنا في وسط رقعة من الرمال، مغطّاة بالصخور، بدا من الصعب تمييزها عن بقيّة المكان المحيط بهم. التقط حجراً ثقيلاً، وأسند إحدى ركبتيه على الأرض، وأخذ يضرب الحجر في الأرض بعنف عدّة مرات. تردّد صوت مكتوم. وبعد لحظات قليلة، ارتفعت رقعة غير مستوية من الأرض، وظهر رأس رجل.

استدار هامنا، وطلب من ضيوفه أن يتبعوه. ووجد نيال نفسه يتطلّع لأسفل إلى سلسلة من الدرج الضيّق يبلغ عرضه بضعة أقدام فقط. كما لاحظ باهتمام أن الرمال والصخور فوق السطح العلويّ للباب المسحور، قد التصقت معاً بشدة، ولا تنزلق حتى عندما يقلب الباب رأساً على عقب.

نزل هامنا في المقدّمة. فوجدوا أنفسهم، بعد أن هبطوا الدرج، في ظلام دامس، واضطروا أن يتحسّسوا طريقهم بأيديهم. راح ممرّ ضيق، لا يختلف عن ذلك الذي يؤدّي إلى قاع الجحر الذي يقطنون فيه، ينحدر مثل زاوية حادّة، مما جعلهم يضغطون بكلتا أيديهم على الجدار، الذي بدا أنه منحوت من الحجر. اشتمّ نيال، في الهواء، الرائحة المميّزة لزيت الخنافس المحترق، رغم أنه لم يستطع أن يرى شيئاً وسط الظلام.

توقّفوا، فسمعوا ثلاث طرقات مدوية. سمعوا، بعد لحظة صمت، صوت شيء ثقيل يتزحزح. ثم جاء أول وميض ضوء من فوق رؤوسهم، فاكتشفوا أنهم في حجرة منخفضة السقف، تبلغ نحو عشرة أقدام مربّعة. تغلغل الضوء وسط أكوام من الأحجار التي أزيحت جانباً، وهبّ هواء بارد على وجوههم. تمّت إزاحة حجرين كبيرين، حيث قام أربعة رجال برفع كل حجر. بدت وراء هذين الحجرين عشرات المصابيح المنيرة التي أضاءت حجرة عريضة. دُهش نيال، فقد بدت ضخمة، يصل طولها إلى خمسين قدماً على الأقل، بينما وضعت المصابيح في فجوات بالجدران، مما جعلها ساطعة مثل ضوء النهار.

اتضح أنها مجرّد ممرّ. فقد قادهم هامنا للأمام، فأزاحوا المزيد من الأحجار جانباً. ولاحت حجرة مضاءة أخرى، سقفها أعلى من الحجرة السابقة، وجدرانها مستندة على أكتاف من الأحجار. بيد أنها بدت أيضاً مجرّد ممرّ، حيث تمكن من أن يرى بعدها حجرة واسعة دُفعت أبوابها الحجريّة جانباً. رأى، حينما اقتربوا، أنها قد امتلأت بحشد من الناس، من بينهم نساء وأطفال. أفسحوا الطريق لهامنا، ورأى نيال، في الممر الذي يفصل بينهم، كرسياً كبيراً مصنوعاً من الحجر، يبعد عنه بضع خطوات، اقتعده رجل طويل متين الجسم، عقد شعره الرماديّ بعصابة ذهبيّة اللون، بينما اقترب طرف الرداء ابيض الذي يرتديه، من قدميه. وقف الرجل العجوز، مبتسماً، ومدّ يده مصافحاً أولف.

ـ مرحباً بكم في ديرا. اسمي كازاك.

بدت قسمات وجهه قوية، عريضة، مترهّلة إلى حدّ ما، أما نظرته، فكانت نظرة رجل ينتظر من الشخص الذي يواجهه طاعة عمياء.

لم يُبْدِ نيال اهتماماً كبيراً بالرجل العجوز، فقد ركز معظم اهتمامه على فتاة هيفاء، رشيقة تقف بجوار العرش. كان وجهها يحمل قسمات عائلة انجيلد، بيد أنها أكثر تحديداً. وكان شعرها الأشقر معقوداً بحلية من معدن براق. عندما لاحظ أنها تتطلع إليه أيضاً بفضول، أشاح عنها في الحال.

قدّم أولف نفسه، ثم نيال فانجيلد. لاحظ نيال أن الملك العجوز تطلّع إلى أنجيلد باهتمام بالغ، حيث كان ثوبها القصير المصنوع من حرير العناكب يكشف عن ثنايا جسدها. وبدا ثوبها أقصر بكثير من الثياب التي ترتديها النساء الأخريات، ومن بينهن الفتاة الجميلة التي تقف بجوار العرش.

قال كازاك: «هذه هي ابنتي «ميرلو»، التي تدير شؤون بيتي». عندما صافحها نيال، أدهشته نعومة بشرتها، والعبق الفاتن الذي يفوح منها، والذي يختلف تماماً عن رائحة العرق التي تفوح منه. حينما ابتسمت له، فكشفت عن أسنان بيضاء مستوية، بدا أن قلبه قد انهار من الانفعال الذي كان مثل الخوف، ولكنه خوف مرغوب. بيد أنه استطاع أن يسيطر على نفسه، فلم يكشف عن مشاعره.

وجد نيال نفسه وقد قبّلته واحتضنته امرأة ذات نهدين ضخمين، وكتفين ناصعتي البياض، وذقن مكتنزة. خمن أنها خالته سيفنا. راحت تمسح على شعره وهي تقول: «يا ولدي، لا بد وأنك متعب. هلمّ لتأكل، ولتسترح بعد ذلك!».

انحنت باحترام أمام كازاك، حتى اقتربت ركبتها اليمنى من الأرض، ثم أخذت بيد

نيال، وخرجت. لوّح له ماسيج بمرح وقال له: «سأراك فيما بعد».

أفضى ممرّ منحدر آخر إلى حجرة المعيشة. توقّع نيال أن يجد نفسه في حجرة واسعة، إلا أنه دخل حجرة عريضة ذات ممرّات أخرى تؤدّي لخارجها. كان الأمر الذي أثاره هو استقامة الجدران، والزوايا الدقيقة للمداخل، التي شعر أنها مدهشة بشكل لا يمكن تخيّله.

توقّفت سيفنا أمام باب في ممرّ جانبي، وبعد خطوتين دخلا إلى حجرة كبيرة، مربّعة تغطّيها نباتات السُمار. كانت تنتشر بالحجرة مقاعد مصنوعة من قطع منتظمة من الخشب، وطاولة منخفضة تتكوّن من قطعة خشب دائرية كبيرة، يصل قطرها إلى ثلاثة أقدام. وأطلّت، من باب منخفض في الجدار، فتاة ذات شعر داكن. قالت لها سيفنا: اقتربي يا «دونا» لتتعرّفي على ابن خالتك نيال!!

دخلت الفتاة، وصافحته على استحياء. كانت ذات عينين بنيتين واسعتين، وبشرة خمرية اللون. خمّن نيال أنها تبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة.

راحت سيفنا تعدّ له الطعام، رغم تأكيده على أنه لا يشعر بالجوع. وقد أحسّ فجأة بتعب شديد لم يستطع معه أن يبقي عينيه مفتوحتين. فقد كان الوقت عصراً، وهي الفترة التي اعتاد أن ينام خلالها المسافرون. وآخر مرة نام فيها، عندما وصلوا إلى الحصن الضخم الكائن فوق الهضبة. واسترخى فوق كومة أوراق الشجر محاولاً أن يجيب على أسئلة دونا. وراح أطفال آخرون، يطلّون على الحجرة، من وقت لآخر، بيد أن دونا أبعدتهم بكبرياء. فقد اتضح أن نيال بات موضعاً للفضول العام، وأصبحت دونا محور الحسد لأنه ضيفها. وسط نشوة التملّك هذه، سرعان ما تخلّصت دونا من خجلها، ووجد نيال نفسه يعاملها كما لو أنها أخته الأكبر سناً من دونا، فراح يشاكسها، ويقص عليها الحكايات، ففتنتها حكايته عن بلد النمال، فأعادها عليها مرتين.

لما وصل الطعام، أحسّ بالجوع رغم كل شيء، وربما يعود ذلك إلى أنه كان ساخناً، وهي رفاهية لم يتعوّدها. بذل أقصى ما في وسعه، أثناء تناول الطعام، للردّ على أسئلة سيفنا، إلا أن التعب الشديد، جعل جفونه ترتخي. وشعر بالارتياح عندما وصل أبوه، يرافقه كازاك، فلم يعد محور الاهتمام. وغفا خلال معظم المناقشات التي دارت بعد ذلك. وتمّ اصطحابه، في نهاية المطاف، مع أبيه إلى غرفة أصغر، بها مضاجع من الحشائش، عليها أغطية منسوجة، بدت ناعمة مُترفة، فغلبه في الحال نوم لم تتخلّله أية أحلام.

حينما استيقظ، وجد دونا تجلس بجانب مضجعة، تنتظر صابرة أن يفتح عينيه. قالت له، إنه في غضون ساعة، سيقيم كازاك وليمة تكريماً لضيوفه. وإنها سترشده خلال هذه الساعة، للمكان الذي يغتسل فيه، ثم تصحبه في جولة «بالقصر» الذي أطلق عليه سكانه اسم «الملجأ».

شعر بالإعجاب عندما عرف أن هناك مستوى آخر دون هذا. كان سكان الملجأ، قد حفروا الأرض حتى بلغوا مستوى الماء، بعمق ثلاثين قدماً، ثم حفروا سلسلة من الطوابق تحت الأرض، حيث الآبار المشاعة للجميع، والحجرات المخصّصة لاستحمام الرجال والنساء. وقد توفّرت في هذه الطوابق تجهيزات صحّية تدعو للدهشة، وجيش من خنافس الروث مهمّته التخلّص من فضلات الإنسان.

كما قام أهالي ديرا بتربية النمال، والعناكب الرماديّة. كانت النمال من النوع الذي يمتصّ عصارات النبات، وقاموا بحفر ممرات عميقة في الجدران، بنوا فيها جحورها، التي ربّوا فيها يرقات النمال حتى تكبر، ويقوموا بنقلها إلى العالم الخارجي، حيث ترعى وسط الخضرة على شواطىء البحيرة، مثلما ترعى الماشية، ويحلب المنّ منها عدة مرات في اليوم. ويعدّ هذا المن، أهم مصدر للغذاء في «القصر». أما العناكب، فتتمّ تربيتها من أجل الحرير، الذي يعالج بطريقة ما، وتُزال منه اللزوجة، ويتمّ نسجه وتحويله إلى ملابس. كانت هناك ورش، تقوم فيها النساء بنسج الملابس، من القطن وحرير العناكب، ومشاغل يتمّ فيها إعداد أحجار البناء من كتل كبيرة، يجري نقلها من مسافات بعيدة على مدحرجات، وقد استخدمت في بناء قاعات، وممرات جديدة.

بدت هذه المدينة الكائنة تحت الأرض، في حالة نشاط دائم، مثلما الحال في قرية للنمال. بيد أن مثل هذا النشاط لم يكن ضروريًا لتوفير الطعام والكساء للجميع. وقد عرف أن إحدى المشكلات الرئيسية للحياة تحت الأرض، هي الملل. وكانت نسبة ضئيلة من سكان ديرا قد اعتادت على الخروج إلى العراء أكثر من مرة واحدة كل شهر. ومع ذلك، فإن الفترة التي يقضونها في الخارج تبلغ قرابة الساعة في المرة الواحدة. وقد عرفت العناكب، أن ثمة بشراً في مكان ما في المنطقة المحيطة ببحيرة الملح، وكانت قد أسرت، منذ سنوات عديدة مضت، المئات منهم خلال غارة كبيرة، (وكان جومار، جدّ نيال، من بين الأسرى). ولكن في تلك الأيام، عاش البشر في كهوف بالقرب من مدينة مهدمة، تبعد نحو عشرة أميال عن شواطىء البحيرة. وقد تفرّق الناجون، بعد الغارة، في الصحراء، ولقي الكثيرون حتفهم. ثم أعاد كازاك تنظيمهم، واستعان بالنيران، لإجبار مستوطنة من النمال على إخلاء مدينتها الكائنة تحت الأرض عند حافة الصحراء. أصبحت هذه المدينة

«الملجأ». وحوّل شعب كازاك، في غضون عشرين عاماً، الملجأ إلى قصر، ثم إلى حصن منيع. لم يكن الغرض من وراء كميات الأحجار الضخمة التي غطّت الجدران، هو منع الأرض من الانهيار، بل منع الحشرات من حفر أنفاق داخل القصر.

عرف نيال المزيد عن تاريخ شعب كازاك، أثناء الوليمة التي أقيمت في تلك الليلة. تناولوا طعامهم على موائد منخفضة مصنوعة من جذوع الأشجار. أما الأرض، فغطّاها سجاد مصنوع من جلود الحيوانات، بعضها مكوّن من عشرات الجلود لقوارض صغيرة، تم حياكتها معاً، بمهارة وفن. وقد جلس أولف إلى جانب كازاك، بينما جلس نيال إلى جانب أبيه من الجهة الأخرى، ونظراً لأن صوت كازاك كان عميقاً ومؤثراً، فقد أنصت نيال لكل كلمة. وصف كازاك الطريقة التي اكتشفوا بها الأدوات في الحصن الكبير فوق الهضبة من رؤوس فؤوس معدنيّة ومناشير، مطارق وكماشات، ومدى ما تعلّموه من الرسوم فوق جدران المقابر. تعين نقل كتل الأحجار أثناء الليل، بسبب دوريات العناكب؛ بل إنه تعيّن على «الرعاة» الذين كانوا يعتنون بالنمال، أن يأخذوها لمكان بعيد قبل ساعة من انبلاج الفجر ثم يعودوا بها بعد حلول الظلام.

كانت الإضاءة، في بداية الأمر، هي أكبر مشكلة واجهت سكان المدينة الكائنة تحت الأرض. وعلى الرغم من توفّر «الخنفساء النحاسية» الخضراء، التي يتمّ منها الحصول على الزيت، فلم يكن عددها كافياً لتوفير كل الزيت للجماعة بأكملها. ثم أخبرهم رجل قام بحملة استكشاف على الجانب البعيد من البحيرة، بوجود مادّة قطرانية سوداء، ظهرت على شكل فقاعات فوق سطح الماء في جون قصيّ، تماثل في رائحتها زيت الخنافس المحترق. وقد أرسل كازاك برجلين لإحضار عينات من هذه المادّة، فاكتشف، كما توقّع، أن هذا الزيت اللزج الأسود يحدث لهيباً دخانياً عندما يحترق. وإذا ما تم الإبقاء على اللهيب منخفضاً، لا يحدث أيّ دخان. منذ ذلك الوقت، تمّ خلط الزيت الأسود، بزيت الخنفساء النحاسية، وأصبح للمدينة الكائنة تحت الأرض شبكة إضاءة تغطي شوارعها. وراحت فرق من الرجال تتناوب على إحضار الزيت من الجانب الآخر من البحيرة ـ وهي رحلة تستغرق ستة أيام ـ بينما تقوم النساء والصبايا، بمهمة ملء مصابيح الزيت، وقصّ الفتائل لمنع حدوث الدخان.

أصغى نيال لكل هذا أثناء تناوله أصناف الطعام المختلفة. لم يكن قد رأى من قبل مثل هذه الوفرة والتنوّع في الطعام، بل إن الكثير من الأصناف يعدّ جديداً تماماً عليه. كان جومار قد حدّثهم عن السمك، لكنه لم يكن قد تذوّق واحدة قط، أما الآن فقد أكل ثلاثة أنواع مختلفة منها، تمّ صيدها من النهر الذي يصبّ في بحيرة الملح. كما رأى كمية كبيرة

من اللحوم، معظمها مملّح. (تحدّث كازاك بفخر عن مخزونهم من الطعام الذي يعتبر كبيراً ـ كما زعم ـ فيكاد يكفيهم لتحمّل حصار يستمرّ ستة أشهر). وقد أعجب نيال بشكل خاص، بفأر صغير، أكبر بالكاد من طرف أصبعه، تمّ سلخه وشيّه بعد خلطه بنوع من الحبوب. وتناول سلطانية بأكملها من حساء المنّ المخفّف بالماء، أو المضاف إليه عصير الفاكهة. وكان هذا العصير يثير نشوة، على نحو يفوق النوع الذي تذوّقه في البيت، ولاحظ أن انجيلد قد تناولت الكثير من هذا العصير، وأصبحت ثرثارة بشكل أكبر من ذي قبل. لم تخْفِ أيضاً اهتمامها بهامنا، وشقيقه الأصغر كورڤيج، وأخذت تربّت على شعر كورڤيج الأشقر الذي يصل إلى كتفيه، وتضغط على عضلات هامنا. وتعثّرت قدما الفتاة الجذّابة، التي تخدم الضيوف، في السجادة، فأفرغت سلطانية من سلاطة زيتية فوق رأس انجيلد. واعتذرت الفتاة، إلا أن نيال، الذي رأى ما حدث على وجه الدقّة، عرف أن هذا ليس حادثاً. والتقت عينه بعين الفتاة، وابتسم، فابتسمت له بكياسة. وقد اضطرت انجيلد، التي حاولت إخفاء غضبها، للعودة إلى الحجرة المخصّصة لها، لإزالة الزيت من شعرها. لكنها عادت بعد نصف ساعة، وقد عقصت شعرها بشريطة، وسرعان ما عادت للثرثرة من جديد وكأنّ شيئاً لم يحدث.

كان كازاك ينتمي إلى ذلك النوع من الرجال ذوي التأثير، رغم لغده، وأنفه اللحيم. ولكن بدا أنه يستمتع بممارسة السلطة، وإصدار الأوامر للخادمات، ومعاملة رعاياه كما لو كانوا أطفالاً جامحين. وقد أبدى الجميع احتراماً جماً له، ووافقوا على كل ما يقوله. أصبح متبجّحاً، بعد كأس النبيذ الثالثة، فأخذ يروي قصصاً تظهر حكمته وبعد نظره. لم يكن هناك شكّ في أن هذه القصص حقيقية، لكن نيال ظلّ يشعرُ بأنه لم يكن ضرورياً لزعيم عظيم مثله أن يدلّل على فضائله.

نهض كازاك واقفاً، عندما انتهت الوليمة، واقترح تناول الأنخاب تكريماً للضيوف. وقف الجميع واحتسوا الأنخاب. ربت كازاك على كتف أولف، وطلب منه أن يحضر عائلته لتعيش مع أهالي ديرا. أثارت الفكرة نيال وأدخلت البهجة إلى قلبه، رأى أن الإقامة بشكل دائم في هذا القصر الرائع فكرة صائبة تماماً. مع ذلك، فقد شعر أن أباه أقل حماساً للفكرة. أدرك ذلك من الطريقة التي أومأ بها أولف ببطء، ومن الإشاحة عن محدّثه، فقرّر أن يبذل أقصى ما في وسعه لإقناعه بتغيير رأيه.

طلب كازاك من ابنته ميرلو أن تغنّي، بعد أن انتهى تبادل الأنخاب. ووجد نيال الفكرة مثيرة للحيرة والحرج. فقد اعتادت أمّه على أن تغني له لينام عندما كان طفلاً، وما

تزال تغنّي هدهـدات لأختيه. ولـكن فكرة الغنـاء علـى المـلأ بهـدف التسـلية، أصابتـه بالدهشة، وأحسّ أنها غير لائقة.

ولكن شكوكه تلاشت عندما بدأت ميرلو في الغناء. كان صوتها رقيقاً ونقياً، بينمـا راحت كلمات الأغنية تتحدّث عن فتـاة غرق محبوبهـا صيّاد السمـك في البحيرة. بدت الكلمات بسيطة، فشعر نيال برغبة في البـكاء. حينمـا انتهـت الأغنية، صفّـق الجميع، بضرب الطاولات بقبضات أيديهم. صفّق نيال بشكل أعلى من الجميع. أدرك الآن بما لا يدع مجالاً للشك، أنه لا يحبّ ميرلو فحسب، بل ينظر إليها على أنها آلهة، تستحقّ أن تعبد، كلّ شيء فيها أثار نشوته، من قوامها الأهيف، إلـى شعرهـا الأشقـر، وابتسامتهـا المشرقة. كان مجرّد النظر إليها، يشعره كما لو أنه يذوب داخلها. شعـر أن المـوت في سبيلها، سيدخل البهجة إلى قلبه.

شَدَتْ ميرلو بأغنيتين أخريين، الأولى مرثاة ملكة لمحارب قُتل في معركة، والثانية أغنية عاطفية خفيفة عن فتاة وقعت في حبّ سمكة كبيرة لامعة. ضحك نيال وراح يصفق بحماس أكبر، ثم شعر، فجأة، بالارتباك، حينما تطلّعت إليه وابتسمت. جلس هناك وقلبه يخفق بقوّة ويضغط على ضلوعه، وقد أدرك أن وجهه تضرّج بالحمرة، بينما تمنّى ألا تكون انجليد قد لاحظت شيئاً. أحسّ بسعادة غامرة وهو يفكّر في أن ميرلو لم تلحظه فقط، بل إنها منحته ابتسامة أيضاً.

بعد أن جلست ميرلو، وقف هامنا، فألقى قصيدة مثيرة عن ملك خرج ليحارب أعداء كثيري العدد. كانت المرة الأولى التي يستمع فيها نيال إلى أبيات شعرية، فشعر مرة أخرى بالتأثّر لدرجة جعلت عينيه تدمعان. وأحس بالارتياح لأن هامنا هو شقيق ميرلو؛ فقـد بدا وسيماً وراح يلقي أشعاراً بشكل مؤثّر، مما جعله على يقين من أنه لن تكون هناك بين النساء امرأة تستطيع مقاومته. عندما جلس هامنا، أخذت انجيلد يده، وقبلتها، فشعر بالارتباك.

شَدَوا، بعد ذلك، بالمزيد من الأغاني، وألقوا الـكثير من القصائـد. كانـت هذه تجربة سحريّة بالنسبة لنيال، فقد حملته كلّ أغنية، وكلّ قصيدة، بعيداً إلى أرض أخرى، لذلك عندما انتهى الإنشاد، أحسّ كما لو أنه كان في رحلة طويلة. لقد جعلته حكايات الأعمال البطولية يشعر بالفخر لأنه إنسان، شعر في الوقت ذاته بالحزن لأن حياته كانت خالية من البطولات. وقرّر أن يقوم، عند أول فرصة، بعمل يؤكّد به شجاعته. ظلّ يلقي نظرات سريعة حذرة على الممرات، على أمل أن تبتسم له ميرلو مرة أخرى، بيد أنهَ بدا واضحاً أنها قد نسيت أنه هناك. من ناحية أخرى، راح يلقي نظرات عجلى عبر الطاولة المقابلة، فوجد أن دونا تتابعه. وأرضى إعجابها الواضح به غروره، لكنه قَبِلَه على أنـه

واجب، مثلما يتقبّل إعجاب أخته رونا. إذا ما قيل له إن مشاعر دونا تجاهه هي نفسها مشاعره تجاه ميرلو، لشعر بالحيرة واللامبالاة أيضاً.

دخل صبيّ وهمس في أذن كازاك. وقف الزعيم ورفع ذراعه من أجل أن يصمت الجميع، وهي إشارة غير ضرورية، نظراً لأن صمتاً فورياً قد عمّ المكان عندما وقف، وقال لقد حان الوقت الذي يتعيّن فيه أن يخرج الرعاة ومعهم النمال إلى شاطىء البحيرة. نهض نحو ستة من الشباب، ثم خرجوا، ووقفوا عند الباب منحنين أمام كازاك. وبدا أن الجميع فهموا هذا على أنه إشارة بانتهاء الوليمة. وخرجت ميرلو أيضاً، فتوقّف اهتمام نيال بما يجري. وطلب كازاك من انجيلد أن تأتي، وتأخذ مكانها، وربت على الكرسي بجانبه، ففعلت هذا طائعة. وراح الآخرون يخرجون، وقد انحنوا جميعاً لكازاك، وهم في طريقهم إلى خارج القاعة. كان مشغولاً بانجيلد، فلم يلحظهم.

سأل نيال، هامنا: كيف تعرفون الوقت وأنتم تعيشون تحت الأرض؟

ـ لدينا ساعات.

ـ وما هي الساعة؟

ـ دلو من الماء، له فتحة صغيرة في قاعه. ويحتاج الأمر نصف نهار على وجه الدقّة، حتى يفرغ الدلو.

فهم نيال الآن، وعلى نحو مفاجىء، الغرض من وجود الدلو في بيت دونا، وقد عُلّق في السقف ليتقطر منه الماء، بشكل متواصل، وينزل في دلو آخر. تعجّب من عبقرية شعب كازاك وتمنّى مرة أخرى، أن يكون واحداً منهم.

قال هامنا: أمتعب أنت؟

ـ لا، إنني في تمام اليقظة.

ـ أتحب أن تخرج مع الرعاة.

ـ بالتأكيد.

ـ سأمضي للأستئذان من الملك، حيث لا يسمح لأحد بالخروج دون تصريح.

ذهب، فانحنى أمام كازاك، الذي بد أنه تضايق لمقاطعته، وهزّ رأسه، ثم أومأ بصبر نافد. عاد هامنا وهو يشعر بالسعادة.

ـ لنذهب قبل أن يغيّر رأيه!

غادروا القصر من مخرج قصيّ. وأكّد هامنا للحرّاس بأنه قد حصل من كازاك على

تصريح بالخروج، فأعطى الحرس لكل منهما قطعة خشبية صغيرة. وضع هامنا القطعتين داخل جراب يحمله على خصره، وقال لنيال: «إذا فقدناهما، فلن يُسمح لنا بدخول القصر مرة أخرى».

شعر نيال بالحيرة، وقال: ولِمَ كلّ هذه الصرامة؟

- من أجل السلامة. لا يحقّ لأحد سوى الملك بالدخول والخروج دون تصريح. فمع وجود الكثير منا في الملجأ، كما ترى، فإن كارثة ستحدث إذا ما خرج أحد منا دون تصريح، ولمحته دورية من العناكب. يتعيّن أن نكون صارمين.

- ولماذا يطبّق عليك هذا؟
- ولِمَ لا؟
- إنك ابن الملك.
هزّ هامنا كتفيه، قائلاً: كلنا أبناء الملك.

كانت ليلة صافية، امتلأت فيها السماء بالنجوم، ولاح الفجر في الأفق الشرقي. وهبّ نسيم بارد من البحيرة، فدهش نيال من النشوة التي شعر بها، عندما لامس النسيم وجهه مرة أخرى.

سار أحد الرعاة في المقدّمة، بينما تبعته ست نمال، مثل الكلاب. لحقه هامنا، وراحا يتحدّثان عن اليرقات، التي كانت وفيرة هذا العام، على نحو غير عاديّ. شعر نيال بالسعادة، لأنه قد تُرك لأفكاره. أخذ يحلم بميرلو، وبالأغاني، والقصص التي استمع إليها، فملأته بانفعال، كاد أن يكون مؤلماً. ولما شحبت السماء، شيئاً فشيئاً، وانعكس الضوء الرمادي، على مياه البحيرة، حاول أن يتخيّل طبيعة العالم الذي كانوا سيعيشون فيه، دون تهديد العناكب - عالم يعيش فيه الإنسان فوق الأرض، ويسافر لأيّ مكان يفضّله.

عندما انحرف الرعاة عن طريق، ودخلوا وسط شجيرات، بجانب الجدول، سأل نيال هامنا:

- ترى ما الذي يحدث، في اعتقادك، إذا ما عثرت العناكب على ملجأكم؟
- ستصبح الحياة في غاية الخطورة. لكننا سندخل معها في قتال شرس.
- ولكن هل من الممكن أن تنتصروا عليها؟

- أعتقد ذلك. لقد حاولنا، كما ترى، جعل الملجأ منيعاً. وثمة مدخلان فقط له،

وهما ضيّقان، وبالتالي يمكن لرجل واحد أن يدافع عن كل مدخل منهما. ومن هنا، فإنه سيتعين على العناكب، أن تحاصرنا على أمل تجويعنا حتى نستسلم. ولكن لدينا مخزوناً من الغذاء، يكفينا لمدة ستة أشهر، وربما أكثر. لقد قيل لي إن العناكب لا تحبّ الحرّ، وهذا المكان يصبح أتونا في الصيف. ولذلك، فإنني أعتقد أن أمامنا فرصة جيدة.

- إذن، فأنتم لا تخافون العناكب؟
- كلا. نحن لا نخافها.
قال هامنا ذلك، بصوت واثق، جعل نيال يصدّقه.

وصلوا إلى شاطىء البحيرة، فظهرت على الجانب البعيد، في المواجهة مباشرة، تلال منخفضة، تعلو تدريجياً لتصبح جبالاً، تماثل في ارتفاعها الهضبة. كان عرض البحيرة، عند هذا المكان، يبلغ نحو عشرة أميال. وقد وجد نيال أن صفحة مياهها الفضّية - الرمادية، رائعة الجمال على نحو يثير القلق. لكن عينيه مسحتا، بحكم العادة، الأفق الشرقي، بحثاً عن المناطيد العنكبوتية، فقد تكوّن لديه ارتباط شرطيّ بين الجمال والخطر. بدت السماء صافية، وقد تحوّلت إلى اللون الأزرق. قال هامنا: «آه!»، ثم خلع رداءه بسرعة. وبثلاث خطوات، كان يسبح في البحيرة. عاد بعد لحظة، إلى الشاطىء وقد أمسك بسمكة كبيرة.

- هذا النوع من السمك يسبح في النهر، لكنه لا يستطيع أن يعيش في المياه المالحة. وعادة ما تأكله الطيور، ما لم نصل إليه قبلها.

وضع هامنا كومة من الأحجار، وخبأ السمكة تحتها. ثم هرع نحو المياه.
- هلمّ!
- لا أستطيع السباحة.
- تستطيع. بمقدور أيّ شخص السباحة في هذه المياه.

تأكّدت صحّة هذا، وسط دهشة نيال. فعندما خاض في البحيرة، حتى وصلت المياه إلى صدره، شعر بنفسه يطفو فوق سطح الماء. بعد لحظة، راح يدفع نفسه للأمام، وكتفاه خارج الماء. وعلّمه هامنا أن يحرّك ذراعيه وساقيه بطريقة متّسقة، وسرعان ما أخذ يسبح في المياه، التي كان مذاقها كريهاً، مثل المياه في أعماق الجحر، لكنه أكثر حدّة. واصطدم بشيء، فصرخ في ذعر. وغاص هامنا، الذي يسبح إلى جانبه، فعثر على سمكة أخرى. اصطادا ست سمكات في غضون نصف ساعة. خرجا بعد ذلك إلى الشاطىء، ثم لفّا كل السمك في قطعة قماش حملها هامنا في جرابه، ثم سارا على امتداد الشاطىء

الرمليّ. حتى بلغا نقطة تصبّ عندها مياه النهر في البحيرة. جفّت المياه فوق جسميهما، واكتشف نيال أنها قد تركت لزوجة كريهة. لكن هذه اللزوجة سرعان ما تخلّصا منها في مياه النهر. بعد ذلك، تمدّدا فوق الرمال، في ظلال شجرة نخيل، وأغفيا حيث كان الهواء دافئاً.

ظلّت جعبة نيال مليئة بالأسئلة، فقال: لِمَ تقول إنكم جميعاً أبناء الملك؟

ـ لأننا نتمتّع ـ في مدينتنا ـ بحقوق متساوية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن للملك أبناء كثيرين.

ـ كم عددهم؟

ـ ربما خمسون.

ـ ولكن كم عدد زوجاته؟

أخذ هامنا يفكّر باهتمام ثم قال: حوالي مئة وثمانين.

أحسّ نيال بالحيرة، وقال: وأين يُقِمنَ؟

ـ مع أزواجهن، معظم الوقت.

ـ لكنك قلت إن الملك هو زوجهن.

أجاب هامنا متمهلاً، كما لو أنه يشرح أمراً لطفل: لهنّ أزواجهن، بطبيعة الحال، ولكنهن ضمن ممتلكات الملك أيضاً ـ مثلنا تماماً. بمقدوره أن يختار أية امرأة يفضّلها.

أصابت هذه الفكرة نيال بالدهشة، فقال: ولكن ألا يحتجّ الأزواج؟

ـ كلا، بالطبع. إذا أرادوا الاحتجاج، فبإمكانهم تركنا، والبحث عن مكان آخر يعيشون فيه. لكنهم يفضّلون البقاء.

راح نيال يفكر في هذه الأمور، ثم قال: إذا ما جئنا لنقطن معكم. هل ستصبح أمي أيضاً زوجة الملك؟

ـ افترض ذلك. إذا ما راقته.

وهنت عزيمة نيال. فقد عرف على نحو مفاجىء، وبشكل لا يدع أي ظلال من الشك، أن أباه لن يوافق مطلقاً على الإقامة هنا. وطرح السؤال، الذي أثار قلقه منذ وصوله: هل للأميرة ميرلو زوج؟

ـ ليس بعد. إنها تبلغ السابعة عشرة من عمرها فقط. وإلى جانب هذا، فإنها في غاية الانشغال. فمنذ وفاة أمها، وهي تدير شؤون بيت الملك.

أدخل هذا الكلام الراحة إلى قلب نيال.

وجلس هامنا، وراح يتثاءب، وقال: من الأفضل أن نعود؛ فقد تأتي العناكب في أي وقت.

ـ أتأتي كل يوم؟

ـ لا. خاصّة في هذا الوقت من العام. إنه موسم العواصف الرمليّة.

عندما عادا إلى الملجأ، ألفياه غارقاً في ظلام دامس. أضيئت مصابيح قليلة فقط في الممرات. وعرف نيال أن هذه هي الحالة العادية للحياة هنا. فبالأمس، أصدر الملك أوامره، بإضاءة كل المصابيح تكريماً للضيوف، أما الآن فقد عادت الأمور إلى مجراها الطبيعي.

راحت دونا تحيك الثياب تحت ضوء مصباح وحيد، في مسكن سيفنا، التي أنهمكت بدورها، في بعض الأعمال، فقد تعيّن أن يعمل كل فرد فوق سن الثانية عشرة، لبضع ساعات كل يوم. حينما رأت دونا نيال، أشرقت أساريرها، وسألته عما إذا كان يودّ أن يلعب.

ـ وماذا نلعب؟

أخرجت علبة تحوي عدداً من الأحجار الملّونة، وأظهرت براعة في ألعاب مختلفة ـ إذ وضعت الأحجار في راحة يدها، ثم ألقت بها في الهواء، وحاولت أن تجعلها تنزل كلها على ظهر يدها. راحت تقوم بالعديد من الألعاب المعقّدة الأخرى. ثم لعبا بعد ذلك، ألعاب التخمين، كل منهما يحاول أن يخمن عدد الأحجار المختفية في يد الآخر. ألقت دونا نظرة عجلى على ساعة الماء، وسألته: «أتحبّ أن تنضمّ لتلهو مع الآخرين، في القاعة الكبرى؟».

شعر نيال بالنعاس، فقال: أعتقد أنه من الأفضل أن أستريح، ماذا يفعلون؟

ـ يقوم الصبية بألعاب بعد الساعة العاشرة ـ الغُمّيضة، عصا الرجل الأعمى، والمصارعة...

ـ ألست كبيراً في العمر على هذه الألعاب؟

ـ كلا. إن ميرلو غالباً ما تشاركنا، وهي تبلغ السبعة عشر عاماً.

ـ ليكن.

نجح في إخفاء اهتمامه، إلى حدّ أثار ذهوله.

كان هناك في القاعة الكبرى، نحو ثلاثين أو أربعين صبياً، تتراوح أعمارهم بين حوالي عشرة وخمسة عشر عاماً. وشعر نيال بالاحباط، عندما لم يعثر على الأميرة بينهم. وبدا أن صبياً مشاغباً يدعى «إريك» هو المسؤول عن الآخرين، ونظراً لأن عمره بلغ نحو أحد عشر عاماً، فقد أحس نيال بالحرج، إلى أن أوضحت له دونا أنهم يختارون في كل أسبوع قائداً مختلفاً لمجموعة اللعب. وبدت أنها محاولة لصقل مهارات الزعامة. حينما تم التعارف بينهما، صافح إريك نيال وسأله عن عمره.

- ستة عشر عاماً.

- لا يبدو عليك أن عمرك ستة عشر عاماً، «كليس» الواقف هناك، أكبر منك في الحجم، مع أنه يبلغ أربعة عشر عاماً فقط.

- في المكان الذي نقطن فيه، لا يتوفّر لنا الغذاء الذي تحظون به.

تنهّد إريك، وقال: «هنا لا يوجد شيء نفعله سوى تناول الطعام». وجعلت هذه الملاحظة نيال يستغرق في التفكير.

صفق إريك بيديه وقال: «ليكن، فلنبدأ لعبة الناي. أنت يا دونا، اعزفي على الناي! وليجلس الباقون!» وجلسوا في صفوف على الأرض، بينما ابتعدت عنهم دونا بضعة أمتار، وقد أدارت ظهرها لهم. تم تسليم نيال، الذي جلس في نهاية الصف الأمامي، عصا خشبية ناعمة، يبلغ طولها نحو ست بوصات.

شرح إريك اللعبة قائلاً: «سنمرّر العصا من يد لأخرى، بينما يستمرّ عزف الناي. وعندما يتوقّف العزف، يتعيّن على الشخص الممسك بالعصا، تقبيل من يجاوره في الصف، ويصبح خارج اللعبة. «جلس نيال بجوار فتاة صغيرة ذات عينين زرقاوين تبلغ من العمر عشر سنوات، ألقت عليه نظرة عجلى رزينة.

لما بدأت دونا العزف، صاح إريك: «توقّفي! هل ستشتركين معنا يا ميرلو؟ طفر قلب نيال، فقد دخلت الأميرة من الباب الخلفيّ. وكانت ترتدي ثوباً من قطعة واحدة، مصنوعاً من فراء منقط ترك ذراعيها وساقيها الطويلتين عارية.

قالت: آسفة، لتأخُّري.

تقبّل إريك اعتذارها بايماءة، وقال: «ليكن! اجلسي هناك بالصفّ الأول!» وحرص نيال على ألا ينظر إليها، حينما جلست بجواره. وشعر بالدفء الذي يشعّه جسدها على ذراعه العارية.

بدأت دونا تعزف مرة أخرى، فانبهر نيال لبراعتها، عزفت موسيقى راقصة مرحة، كرّرتها أكثر من مرة. ومرّر الجميع العصا بسرعة فائقة. وتوقّفت دونا بشكل دوري، وفي كل مرة، يتصاعد الضحك، حيث يضطر الشخص الممسك بالعصا أن يُقبّل الجالس بجانبه. كانت الفراغات في الصفوف نتيجة لخروج الصبية من اللعبة، تعني أن الصبية أضطروا، في العادة، إلى تقبيل صبية آخرين، وأثار هذا صيحات مرحة وسط احمرار مرتبك للوجوه.

ضحك نيال بصوت مرتفع مثل الآخرين. ولم يعد هناك، بعد بضع دقائق، سوى عشرة مشاركين في اللعبة، فطلب منهم إريك أن يشكّلوا حلقة. مرت العصا الآن بسرعة فائقة، وتعمّدت دونا أن تطيل عزفها، حتى تزيد من حدّة التوتر. تمنّى نيال أن تتوقف الموسيقى، في كل مرة تصل فيها العصا إلى ميرلو. وقد حدث هذا بعد دقائق قليلة. فقد كانت على وشك أن تضع العصا في يده، عندما توقّف الناي عن العزف. ابتسم ابتسامة عريضة في محاولة لإخفاء دقّات قلبه. ومالت ميرلو، فأمسكت ببرود شديد برأسه بين يديها، ثم طبعت قبلة قوية فوق شفتيه. ضحك الجميع موافقين. التقت عيناها بعينيه، للحظة، فبدتا هادئتين، هازئتين. وفي المرة التالية، وجد نيال نفسه ممسكاً بالعصا، عندما توقّفت الموسيقى. فرفعت الفتاة الصغيرة وجهها نحوه، والتصقت شفتاها بشفتيه لفترة أطول من اللازم. علت صيحات استهجان، فخرج نيال من حلقة اللعبة، بينما أحمّر وجه الفتاة خجلاً.

انقضت الفترة المتبقّية من الصباح، بالنسبة لنيال، بغاية السرعة. اكتشف، وهو يشعر بدهشة سارّة، أنه موضع للفضول، خاصّة بالنسبة للإناث، وأن الصبية مالوا للإعجاب به، وليس للنفور منه. وحينما طُلب من الفتيات أختيار شركاء لهنّ في سباق السيقان الثلاث، حاولت أربع منهن الامساك به في وقت واحد، وكانت الفتاة الفائزة، قوية الجسم، ذات شعر داكن تدعى «نيريس». وقد فاز الاثنان بالسباق، ووصلا قبل ميرلو وشريكها. وجلس الصبية الأصغر سناً، بعد ذلك، ليستريحوا، وأعلن إريك أن اللعبة الأخيرة للصباح هي بطولة في المصارعة للجميع فوق سن الثالثة عشرة. دهش نيال، ولكنه لم يشعر بالاستياء، عندما علم أنه من المتوقع أن تشارك الفتيات. وُضعت حشايا ناعمة مملوءة بالحشائش على الأرض. تم السماح للفتيات، مرة أخرى، بأن يخترن شركاءهنّ، فوجد نيال نفسه وقد اختارته نيريس.

بدأت كل جولة بالمتصارعيْن وقد واجه كل منهما الآخر، فارتفعت الأذرع، واستراح الساعد على الآخر وتشابكت الأصابع. وعند إشارة البدء، باعد كلّ متصارع ما

بين قدميه وراحا يتدافعان، وكل منهما يسعى إلى الإلقاء بالآخر على ظهره. حينما سقطا على الحشية، وتباعدا، تشابكت أذرعهما وأقدامهما، بينما راح كل منهما يصارع الآخر، ساعياً لإلقائه على الأرض. ثم دخلا معاً في صراع، على الأرض، حتى تمكن أحدهما من إجلاس الآخر منفرج الساقين، وراح يضغط على يديه نحو الخلف. كانت هناك نقاط، يعطيها الحكام - الصبية الأصغر سناً - لكل جولة.

فازت نيريس بسهولة على نيال في الجولة الأولى، حيث كانت أثقل منه. بيد أن وزنها لم يكن يباري قوة أعصابه، وسرعان ما أجلسها منفرجة الساقين، وضغط على يديها وشدّهما نحو الأرض. ولاحظ، بينما كان واقفاً، أن ميرلو قد هزمت منافسها، وهو شابّ عريض الكتفين، لكنها تغلّبت عليه وطرحته أرضاً بكل قوتها. وبدا واضحاً أنها تتمتّع بقوة أكبر بكثير مما يشير إليه مظهرها.

كان المنافسان التاليان لنيال من الذكور، ورغم أنهما أكبر من حيث الحجم والوزن منه، إلا أنهما افتقرا، مثل نيريس، لخفّة الحركة، وتمكّن من هزيمتهما دون صعوبة.

ووجد أنه قد وصل مع ميرلو، كما تمنّى، إلى الدور النهائي. كان الاثنان يلهثان، فسمح لهما إريك، قبل أن يبدأ الصراع، أن يلتقطا أنفاسهما. ثم واجه كل منهما الآخر، وتشابكت الأيدي. التصق شعرها، المبلل بالعرق، بجبهتها، فرآها نيال فاتنة.

أعطى إريك إشارة البدء. باعدت ميرلو، بصورة مباغتة، ما بين ساقيها ودفعت نيال بكل قوتها، فتقهقر مترنحاً، وسط تصفيق الجميع، وتقدّمت نحوه، في الحال، محاولة طرحه أرضاً قبل أن تتاح له فرصة استعادة توازنه. بيد أنه لم يكن من السهل أن تدفعه مرة ثانية، فقد تشابكت أذرعهما، وتداخلت سيقانهما، وحاول كل منهما أن يُفْقِد الآخر توازنه. ضغط وجهها على وجهه، وراحت تتنفّس بقوّة في أذنه. وكان الإحساس في غاية الإثارة فتوقّف عن محاولة إخلال توازنها، وسمح لنفسه بأن يستمتع بلحظة وجودها بين ذراعيه. وقد حاولت أن تفقده توازنه بالاسترخاء، إلا أنه انتهز هذه الفرصة، وزاد ضغطه عليها.

أدرك، في تلك اللحظة، أن هناك متفرجيْن آخرين، هما كازاك، وقد ظهر من مسكنه، الذي يفتح بابه على القاعة، وانجيلد التي وقفت إلى جانبه. تساءل نيال، للحظة، عما إذا كان الملك سيغضب عندما يرى ابنته بين ذراعي ضيفه، فأرخى قبضته. وكان أن ألقت به ميرلو، بحركة قويّة من جسمها، على الأرض ثم اعتلته. وراحا يتخبّطان، وهما يلهثان، لبضع دقائق، حتى ضغطت على إحدى يديه وأنزلتها للخلف نحو

الأرض. حاول الآن أن يستغلّ الحيلة التي استخدمتها ضده منذ لحظة. فترك نفسه يسترخي فجأة، كما لو أنه يستسلم. استرخت هي الأخرى كردّ فعل على ذلك.

وبحركة عنيفة من فخذيه، طرحها جانباً، وراح يلوي ذراعها ويشدّه نحو الأرض، همست بازدراء: «غشّاش!» إلا أن ثقله جعلها تسقط على الأرض. وتحرّك جانباً، بحذر، حتى يكون جسماهما متوازيين، وأبقى على رأسها منخفضاً، محاولاً أن يلوي رسغيها. كان تنفسها دافئاً في أذنه. وبدا أنهما قد التحما في وضع ليس لأحد فيه أية ميزة، ورغم أن بإمكانه التغلب عليها باستخدام القوة، فإنه شعر أن هذا سيكون فوزاً بالقوّة وليس بالمهارة.

شعر، في تلك اللحظة، بشفتيها في أذنه، كما لو أنها على وشك أن تهمس، ثم انفرجتا، وعضّت بأسنانها عضاً خفيفاً شحمة أذنه. كان الاحساس الذي شعر به في التوّ، مثيراً ومحيّراً، فتجمّد في مكانه. وقبل أن يدرك ما يحدث، تزحزحت من تحته، وخلّصت يديها. قبضت، بعد لحظة، على رسغيه، وراحت تدفعها للخلف.

همس قائلاً: غشّاشة!.

ردّت قائلة: هذا ما فعلناه معاً.

سمح لها، ضاحكاً، بأن تدفع ظهر يديه نحو الحشية. وحتى تؤكد فوزها، جلست فوقه. وباعدت بين فخذيه. أخذ المتفرّجون يصفّقون بحدّة. وقد لاحظ أن ابتسامة ساخرة قد ارتسمت فوق شفتي انجيلد.

تقدّم كازاك، وربت على رأس ابنته بحنو. فقفزت ميرلو واقفة بخفة، دون أن تلقي نظرة ثانية على نيال. التفت كازاك إلى انجيلد وقال لها: «ولعلّك عرفت السبب الذي جعلني أعيّنها مديرة لشؤون بيتي».

بدت ابتسامة انجيلد مبهمة عندما قالت: إنها حقاً فتاة تسترعي الانتباه.

ركلت انجيلد، نيال ركلة خفيفة في ضلوعه بقدمها العارية، قائلة: «هلمّ، يا فتى، انهض!».

عندما سار نيال مع دونا عائدين لبيتها، بعد ذلك، قالت له «لم يكن ينبغي أن تتركها تضربك».

ـ لم أتمكّن من ذلك.

ـ لقد رأيت ما فعلته. إنها قضمت أذنك. ألم تؤلمك؟

ـ كلا ، ليس كثيراً .
قالت دونا باقتناع : لقد غشّت بشكل صارخ .
جعلت نبرة صوتها نيال يشعر بالذنب ، فقال : ربما قمت أنا أيضاً بغشّها .
ـ لا ، لم تفعل ذلك . لقد أمسكت بذراعك ، ووضعت خدّها على كتفك .

قال أولف لنيال ، في تلك الليلة ، وهما على وشك الذهاب للفراش : «سوف نرحل غداً» .

ردّ نيال بنبرة لم يتمكن من إخفاء فزعه فيها : غداً!
ـ ألا تريد أن تذهب إلى البيت؟

أجاب ، وقد افتقر صوته للاقتناع : بلى ، بطبيعة الحال . ولكن ألا نستطيع أن نبقى هنا لبضعة أيام أخرى؟

وضع أولف يده على رأس نيال وقال : هل تعتقد أنك ستكون مستعداً للذهاب بعد تلك الأيّام؟

ردّ نيال وقد ساورته الشكوك : نعم .

حدّق أولف فيه ، وقد قطّب حاجبيه ، ثم هزّ رأسه وقال : أتحبّ أن تعيش هنا؛ لم يتمكّن نيال من أن يخفي شغفه بذلك وقال : نعم ، بالطبع . إذا ما عشنا جميعاً هنا .

هزّ أولف رأسه وقال : ذلك مستحيل .
ـ ولكن لماذا يا أبي؟ ألا تحبّ الإقامة هنا؟
ـ بلى أحب الإقامة هنا . لكنني لا أعتقد أنّ بمقدوري العيش هنا .
ـ ولِم لا؟
ـ إن الأمر أصعب من أن أشرحه لك . ولكن إذا ما أردت البقاء هنا فبمقدوري العودة بمفردي .

ثم صعد فوق الحشية ، وسحب البطانية حول كتفيه .
قال نيال بفزع : لا ، لن تستطيع العودة بمفردك .

ـ ولِم لا؟ إنني أعرف طريق العودة . ويريد هامنا أن يصحبني حتى الجانب البعيد من الهضبة . وعندئذ سأكون قريباً من البيت .

ـ وتتركني هنا؟
ـ بمقدورنا أن نعيدك بعد ذلك . تقول سيفنا إنها تحب أن تبقى معهم .

بدا الأمر مغرياً للغاية ـ أن يبقى في البيت حيث تقطن دونا التي تماثل أختاً صغرى تهيم به، وحيث يستطيع أن يرى ميرلو كل يوم. . .

ـ وما رأي الملك؟

ـ إن كازاك هو الذي اقترح ذلك.

ـ وماذا تعتقد؟

ـ أريدك أن تقرّر بنفسك.

راح أولف يتنفّس بانتظام، بعد بضع دقائق، فعرف نيال أن النوم قد غلبه. لكن رغبته هو في النوم اختفت. وقد تخلّل ضوء خافت من مصباح وحيد، في الحجرة المجاورة، المجاورة، الستارة المعلّقة في الممرّ، فألقى ظلالاً تتحرّك على السقف. سمع أصواتاً، في الممشى بالخارج. أصوات بشر يمضون في طريقهم ـ فقد كان الوقت ما يزال قبل منتصف الليل بساعتين، ولم يكن قصر كازاك يهدأ قط حتى الساعات الأولى من الصباح. (أدى الحرمان من ضوء النهار إلى سهولة التخلّي عن عادة النوم أثناء الليل).

بدا إغراء الإقامة هنا قوياً،.فليس هناك ما يدعو إلى وجوده في الجحر. فمنذ أن ربّى قيج النمال ودبّور البيبسيس. أصبح الصيد مجرد رياضة، وليس ضرورة ملحّة. كما توفّر الغذاء على بعد خمسة أميال من الجحر، وبمقدوره، كما قال أولف، أن يعود إلى البيت في أيّ وقت يشاء. فلِمَ لا يبقى لبضعة أسابيع، بضعة شهور، أو أكثر من ذلك. . .؟

أراد نيال بشدّة، أن يقنع نفسه، بيد أن فكرة هجر عائلته حركت ضميره، وجعلته يتساءل عن دوافعه. كان يدرك تمام الإدراك، أن الدافع الرئيسي هو ميرلو. راح يفكّر في لمسة شفتيها الباردة، وفي أسنانها الصغيرة، البيضاء، وهي تقضم أذنه، وفي ساقيها النحيلتين، وهما تحكمان القبض على ساقيه، انشرح قلبه وهو يشعر بهذا الابتهاج. ترك نفسه يحلم بأنه قد أصبح زوجاً لميرلو، وملكاً يسكن قصر كازاك. لكنه شعر فجأة بشكوك باردة، فقد تذكّر ما قاله إريك: «ليس هناك أشياء كثيرة نقوم بها سوى تناول الطعام. . .» وحاول أن يتخيّل ما ستكون عليه الحياة تحت الأرض عاماً بعد عام. إنه يشعر، في بيته بحريّة الحركة، إنه يمضي ويجيء حيثما يحلو له. ثمة عالم بأكمله يمكن استكشافه، عالم مليء بالعجائب، مثل بلد النمال، والحصن الكبير فوق الهضبة. أما هنا، فإنهم يقضون حياتهم في الاختباء من العناكب.

أدرك الآن المشكلة، بوضوح كامل. إذا عاش هنا، فإن الحياة ستكون سارّة وآمنة. لكنها ستكون أيضاً وتيرية. فيمكن أن يولد طفل هنا، ويشبّ عن الطوق هنا، ويموت هنا، دون

أن يجرّب، ولو مرة واحدة، الإحساس بالاستكشاف. لماذا تطرح عليه دونا أسئلة لا تنتهي عن حياته في الجحر، ورحلته إلى بلاد النمال؟ لأن هذا، يمثّل بالنسبة لها، عالماً خطيراً، ومليئاً بالأحداث المثيرة. وبالنسبة للأطفال في هذه المدينة الكائنة تحت الأرض، فإن الحياة ما هي إلا سلسلة من العادات المتكرّرة.

أدرك، على نحو مفاجىء، أن هذا هو لبّ المشكلة: العادة التي تُعدّ بمثابة بطانية دافئة، خانقة، تهدّد بالخنق وبإسكات العقل، ليصبح في حالة من عدم الرضا والتذمّر المستمّرين. تعني العادة عدم القدرة على الهروب من النفس، وعلى التغيير والتطور...

شتّت تركيزه ضحكاتٌ آتية من الخارج، صبّيان أخذا يعدوان في الممرّ. جعله هذا يتذكّر الألعاب في القاعة الكبرى، ويفكر في ميرلو. تلاشى كل يقينه. كيف له أن يضجر وهو يرى ميرلو كل يوم؟

استلقى لأكثر من ساعة وما أحسّ برغبة في النوم، وراح يفكر في كازاك. لماذا سأل الملك أباه ما إذا كان بمقدوره أن يبقى؟ هل ميرلو هي التي اقترحت ذلك؟ هل من الممكن أن يتحدّثَ في هذه المسألة مع أحد بدلاً من أن يظلّ مستلقياً وقد امتلأ رأسه بأسئلة ليست لها إجابات؟..

ربما تكون سيفنا ما تزال يقظة.

انسلّ من تحت الغطاء، ببطء شديد، حتى لا يوقظ أباه، وسار على أطراف أصابعه نحو الباب. لكن الحجرة المجاورة كانت خالية. عبرها على أطراف أصابعه، وراح يصيخ السمع بجوار ستارة الحجرة التي تنام فيها سيفنا ودونا. عرف من صوت التنفّس المنتظم أنهما نائمتان أيضاً. ذهب إلى الباب الرئيسي، وأنعم النظر في الممشى. رأى كورفْيج، الأخ الأصغر لهامنا، يسير، وقد لفّ ذراعه حول خصر فتاة.

قال له: مرحباً يا نيال. ماذا تفعل؟

- لا شيء. لم أستطع النوم.

- النوم! إن الوقت مبكر جداً. نحن ذاهبان إلى بيت نيريس لنلعب لعبة المسامير. لِمَ لا تأتي معنا؟

قال معتذراً: اعتقد أن من الأفضل ألا أصحبكما. فقد نرحل في الصباح، ويتعيّن أن أنام جيداً.

شعر بالإحباط لأن فتاة كانت ترافق كورڤيج. فقد أراد أن يسأله المشورة. تأبّط كورڤيج ذراع نيال، وقال له: ليكن، سر معنا على أية حال!

سألته الفتاة، التي بدت عيناها واسعتين، جذّابتين: لماذا سترحل بهذه السرعة؟
ـ لأن أبي يريد العودة. وأنا أتمنى أن أستطيع إقناعه بالبقاء لبضعة أيام.

ثم استدار إلى كورڤيج وقال: ألا تستطيع أن تطلب من أبيك أن يحادثه في ذلك؟
خرجوا إلى الممر الرئيسي الذي يؤدّي إلى القاعة الكبرى.

قال كورڤيج: إنه هناك. لِم لا تسأله أنت بنفسك؟

كان الملك يسير بمفرده، يديم النظر في مخطوطة يمسك بها على بعد بضع بوصات من أنفه. حيّاه المارّة باحترام، إلا أنه لم يُعرهم انتباهاً. اقترب منه كورڤيج، وقد أحنى رأسه، وقال له: «يا أبت..!» ألقى كازاك نظرة عجلى، غاضبة، لكنه ابتسم عندما رأى نيال.

قال كورڤيج: «معذرة يا سيدي، ولكن نيال يريد أن يطلب منك شيئاً».
ـ نعم. نعم. على الرحب.
وأخذ ذراع نيال، وقال: «ما الأمر، يا ولدي؟».
ـ إنه بشأن رحيلنا غداً يا سيدي..
قطب كازاك وقال: غداً؟ بهذه السرعة! لِم لا تبقى معنا وقتاً أطول؟
ـ ذلك ما أريد أن أحدّثك بشأنه. هل لك أن تطلب من أبي ذلك؟
ـ هزّ كازاك كتفيه بشدّة وقال: «لقد طلبت منه ذلك بالفعل. قال إنه يشعر بالقلق على عائلته. ولكن ذلك ليس سبباً يدعو لعدم بقائك.

ـ إنني أرغب في البقاء يا سيدي.
ـ أترغب في ذلك؟ حسناً!

اقترب حارس منهم وحيّا الملك. قال كازاك: «إنني مشغول الآن، كما ترى، ولكن لم لا تذهب وتتحدث إلى ميرلو، من المحتمل أن تجدها بمفردها.

ـ شكراً لك، سيدي!

كان مقر إقامة الملك مكوّناً من طابقين، وتفضي سلسلة قصيرة من الدرجات إلى الباب الرئيسي. وقد أفسح الحارس، الذي وقف أمام الممرّ، الطريق لنيال، الذي دخل، ليجد نفسه في بهو عريض، يعتمد على أعمدة من الحجر، أما الجدران، فقد أُسدلت عليها ستائر، مصبوغة بلون أخضر ملكي. جعلت عشرة مصابيح البهو مضيئاً مثل النهار.

بدا أنه لا يوجد أحد في القصر. اجتاز البهو ليصل إلى مدخلٍ ستائرُه مسدلة، وحدق فرأى قطعاً عديدة من أثاث مصنوع من الخشب، منتشرة في أركان الحجرة الواسعة، المريحة، المضاءة أيضاً بالعديد من المصابيح، ولكن لم يكن هناك أحد.

رأى على يمين البهو سلسلة من الدرجات. وعندما وقف على أول درجة، اعتقد أنه يسمع أصواتاً. تردّد؛ فقد شعر أنه من غير اللائق التجوّل في جنبات البيت بهذا الشكل، لكنه تذكر أن الملك أذن له. لم يكن هناك صوت لوقع قدميه العاريتين. وجد نفسه في ممشى جيّد الإضاءة، له مداخل عديدة، مسدل بالستائر على اليمين واليسار، تردّدت من وراء إحداها، أصوات نسائية. فاقترب متردّداً، وأوشك أن ينادي: «هل من أحد هنا؟» حينما سمع امرأة تضحك، عرف، في الحال، أنها انجيلد. فكر مرة أخرى في العودة من حيث أتى، ولكن عندما استدار، سمع اسمه يتردّد، وتناهت إلى مسامعه كلمات انجيلد، وهي تقول: «ليس خطأه، إنني ألوم أباه وأخاه».

سمع صوت ميرلو تسألها: «كيف حدث ذلك؟».

ـ لا أعرف. لم يخبروني، ولذلك ساورتني الشكوك. أتعتقدين أنهم كانوا سيقولون لي كيف لقي زوجي وولدي مصرعهما؟

ـ ربما أرادوا ألا يثيروا قلقك.

ـ يثيرون قلقي! أتظنين أنهم يهتمّون بذلك؟ سأروي لك بعضاً مما فعلاه معي. لقد أوشكا على تركي أموت في ذلك الحصن فوق قمّة الهضبة.

ـ غير معقول! ماذا حدث؟

ـ إنني أخاف الأماكن المرتفعة، وعندما نظرت إلى أسفل، ورأيت كل تلك الدرجات، ارتعبت، بينما أدارا ظهريهما لي، وسارا مبتعدين.

ـ هذا مشين! وما عساك قد صنعت؟

ـ لم يكن أمامي سوى أن أغمض عيني، وأتبعهما. كانا قد اختفيا عن ناظري بالفعل، ولم أتحمّل التفكير في كل تلك العناكب المخيفة.

اتسم صوت ميرلو بنبرة غضب حقيقية، وهي تقول: المفروض ألا يعاملا امرأة بمثل تلك الطريقة.

ردّت انجيلد: إنهما لا يعرفان كيف يعاملان امرأة. إنهما وحشان.

عمّ صمت كئيب، فشعر نيال أن الوقت حان للانسحاب. فقد أحس بالخجل لأنه

استرق السمع لكل هذا الحوار. ولكنه حينما استدار مبتعداً، سمع انجيلد تقول: يبدو أنك تحبّين الفتى.

ـ ما الذي جعلك تقولين ذلك؟

ـ من الطريقة التي تصارعت بها معه، هذا الصباح...

وصله صوت ميرلو، بارداً وهي تقول: لا أعرف ماذا تعنين. إن المصارعة إحدى عاداتنا.

ـ يظنّ الملك أنك ترينه جذّاباً.

ـ جذّاب! ذلك الفتى مهزول الجسم! لا بد وأنك تمزحين!

ـ يبدو أن كل الآخرين يحبّونه.

ـ إنهم يحبونه، بالطبع، لأنه غريب. ولكن هذه الجدّة، ستزول تدريجياً.

انسحب نيال، على أطراف أصابعه، مبتعداً بعد أن اكتسى خدّاه بحمرة شديدة. انتابه شعور غريب، كئيب، يماثل إحساسه، عندما سمع أن ثورج وهرولف، لقيا حتفهما. شعر بالإهانة، وتصوّر، وهو يتجاوز الجندي عند الباب، أن وجهه سيكشف حتماً، عن كل ما يعتمل بداخله. بيد أن الرجل أومأ له بودّ. تكرّر صوت ميرلو، داخل عقله، مرّات عديدة: «جذّاب! ذلك الفتى مهزول الجسم! لا بد وأنك تمزحين!». إنها لم تقل سوى الحقيقة، بإمكانه أن يدرك ذلك الآن. فبالنسبة لأبنة الملك، بدا أنه يعاني من سوء التغذية، وصغر الحجم. مع ذلك، تخيّل أنها وجدته جذّاباً. أثارت هذه الفكرة، حيرته وارتباكه.

لم يشعر، مع ذلك، عندما فكر مرة أخرى، فيما حدث هذا الصباح، بذرّة شكّ في أنها كانت تغازله. لماذا عضّت أذنه؟ لماذا منحته تلك الابتسامة الغامضة عندما افترقا؟ هل كانت تداعبه فحسب؟ وتحوّل بؤسه، إلى غضب كئيب، فشعر أنه يكرهها. رأى أن هذا أفضل، على الأقل، من الاهتياج العاطفي، الذي جعله يكاد ينفجر باكياً.

لما دخل حجرة النوم، سأله أولف: أين كنت؟

ـ لم أستطع النوم، فخرجت.

رقد على الحشية، وسحب البطانية، ليغطي نفسه حتى ذقنه.

قال بعد فترة صمت: كنت أفكر في الغد. سآتي معك.

ردّ أولف: إذن من الأفضل أن تنام، أريد أن أنطلق مبكراً.

كان نيال يعرف أباه، بالقدر الذي جعله يلاحظ نبرة السعادة في صوته.

غادرا المدينة، قبل ساعة من انبلاج الفجر، في الوقت نفسه الذي خرج فيه رعاة النمال. رافقهما هامنا وكورڤيج، اللذان حصلا على تصريح خاصّ من الملك. كما صحبهما كازاك، حتى باب المدينة، وعانقهما، وقبّلهما على الجبهة والخدّين. شعر نيال بالارتياح، لأن كازاك لم يَنْتَبِهْ أيّ فضول، بشأن عدوله عن البقاء. بدت شوارع المدينة الكائنة تحت الأرض، خالية من المارّة في تلك الساعة. أحسّ بالأسف الشديد، وهو يلقي النظرة الأخيرة عليها.

قال كازاك: «تذكّر أنني قد أعطيتك تصريحاً بالعودة إلى هنا مع أسرتك». ثم أضاف متأمّلاً: «إنني لم أر سيريز منذ كانت صبيّة صغيرة».

انحنى أولف باحترام، وقال: «سوف أبحث الأمر معها، يا سيدي». لكن نيال عرف أنه لا يعتزم ذلك.

قال له كازاك: «فلتفعل!» ثم عاد مسرعاً إلى الداخل، فقد كانت رياح الفجر شديدة البرودة.

ظهرت سلسلة من الخطوط الرماديّة، في الأفق الشرقي، بيد أن السماء فوقهم مازالت مظلمة، وعكست بحيرة الملح، أمامهم، النجوم، التي بدت رائعة الجمال، حتى أن نيال، نسي للحظة، صرارته إزاء ميرلو. ثم تذكّر عبارتها «ذلك الفتى مهزول الجسم»، فعاد إلى حالة الهدوء الكئيب. راحت تراوده، على مدى نصف ساعة، أحلام يقظة، أدخلت السرور إلى نفسه، ورأى فيها مواقف مختلفة، دفعت ميرلو فيها ثمن الإهانة. فقد سَبَتْها عناكب الموت، وحملتها بعيداً إلى مدينتها، وكان نيال مخلّصها الوحيد...

قال أولف: قرّرنا أن نتجنّب الهضبة، حيث من الأسرع، كما يقول كازاك، عبور الجبال إلى الشمال الغربي.

ردّ هامنا: ليس بمقدوري أن أسدي لكما أية نصيحة- لأنني لم أبتعد كثيراً قط. لكنني سمعت أنه من السهل اجتياز الأرض، الواقعة على الجهة الأخرى من الجبال. فقد هطلت عليها أمطار غزيرة على مدى الأعوام العشرة الماضية.

وصلا إلى شواطىء البحيرة، وهما يمضيان في طريقهما نحو الغرب. كان حملهما أثقل من ذلك الذي غادرا به الجحر منذ أسبوع - فقد أظهر كازاك كرماً عظيماً، وأعطاهما زاداً من الطعام - لكنهما شعرا أن حملهما أخفّ، لأنّهما حصلا على سلال كبيرة تُحمل على المنكبين، وتُشدّ بأربطة حول الكتفين والخصر.

ألقى نيال نظرة خاطفة، من فوق كتفه، حينما أشرقت الشمس، فرأى مناطيد عنكبوتية، تعكس أشعّة الشمس. ارتفع اثنان منها، وتحرّكا باتجاه بحيرة الملح. حذر الآخرين، فاتخذوا من فروع شجرة شائكة ملتوية، بين الشجيرات، ساتراً. بدا من غير المحتمل، أن تكون العناكب قد رأتهم؛ فالضوء ما يزال خافتاً، بالإضافة إلى أن ارتفاع المناطيد، بلغ نحو مئة قدم على الأقل.

لاحظ أن هامنا وكورڤيج، لم يعترهما الاضطراب أو القلق، بل إنهما أخرجا فاكهة، وخبزاً، ولحماً من صرّتيهما، وجلسا يأكلان بمرح، كما لو أنهما في نزهة خلوية.

لما اختفت المناطيد في الأفق، واصلوا السير من جديد، بجانب شاطىء البحيرة.
قال لهما نيال: لم تثر العناكب أضطرابكما وقلقكما.
هزّ هامنا كتفيه وقال: تعلمنا أن نتعايش معها.
- ولكن...
لمح نيال نظرة تحذير خاطفة، من أبيه، فعاد إلى الصمت.

هبّت الريح، مع بزوغ الفجر، وأخذت تغيّر اتجاهها، حتى أصبحت تهبّ من الغرب. ازدادت حدّتها، عندما تقدّم النهار، وباتت جافّة، ساخنة، كأنها تهبّ من الجحيم. تحوّلت، في نهاية المطاف، إلى ريح هوجاء، حملت معها الغبار، وحبيبات الرمال، التي آلمت أعينهم. شعر هامنا وكورڤيج بالضجر، لأن نزهتهما تحوّلت إلى اختبار لقوّة الاحتمال. لفّا عباءتيهما حول رأسيهما بإحكام، فلم يبد منهما سوى عيونهما، وسارا بعناد. نصحهما أولف بالعودة، بعد أن سارا بهذا الشكل نحو نصف ساعة. رفضا في البداية، حيث شعرا أن مرافقة المسافرين، في اليوم الأول من الرحلة، أمر واجب. وأشار أولف إلى أن الغرض من الصحبة، هو تجاذب أطراف الحديث، وفي ظلّ طقس مثل هذا، يصبح تبادل الحديث أمراً مستحيلاً. اقتنع هامنا، وتعانقوا، وتواعدوا على الالتقاء مرة أخرى، في وقت قريب، وافترقوا. أدار هامنا وكورڤيج، ظهريهما للريح، بارتياح ظاهر.

راح أولف يتساءل الآن بينه وبين نفسه، عما إذا كان من الحكمة أن يختار طريق الجبال، وهو أطول من طريق الهضبة، رغم أنه أقلّ انحداراً. ولكن وسط هذه الريح العاتية، التي جفّفت فميهما، ولفحت وجهيهما، تكون الميزة قد انتفت. تقدّما بمعدّل خمسة أميال في الساعة تقريباً، وهما يحدّقان من بين فتحات العباءات التي غطّت رأسيهما. نظر نيال بشغف إلى مياه بحيرة الملح، متلاطمة الأمواج، لكنه اقتنع أن

الاستحمام فيها، مسألة غير عملية، فمع عدم وجود نهر، يغتسل فيه من المياه المالحة، فإنه لن يشعر بالراحة.

تعامدت الشمس عليهما، فشعرا بالإجهاد، وقرّرا استغلال أوّل أجمة أشجار، أو شجيرات تقابلهما، ليتوقّفا ويتناولا طعام الغداء. لكنهما قطعا ميلين، ولم يلمحا، ولو شجرة واحدة. أدركا، بعد نصف ساعة، أنهما باتا على حافة البحيرة الغربية، وأنهما يتّجهان صوب الصحراء، نحو التلال والأودية الجافة.

رأى نيال شيئاً يماثل صخرة ضخمة، يبعد بضعة مئات من الأمتار، إلى يمينهما. ولفت انتباه أبيه إليها، فأومأ أولف، وهرعا باتجاهها. اتضح، بعد مائة متر، أنها ليست صخرة، لكنّها أنقاض بناء، دفن معظمه تحت الرمال، وما تبقّى منه، عبارة عن جوانب منهارة من الجدران.

شكّلت الرمال، منحدراً على الجانب الغربي من البناء. وصعدا فوق الرمال إلى مكان بأعلى الجدار المنهار، استطاعا منه الإطلال إلى أسفل، على الفناء الذي كسته الرمال. أفضت سلسلة شديدة التآكل من الدرجات، في الجانب البعيد، إلى بقايا برج محطّم. فأدركا أنهما أمام مبنى يماثل الحصن الذي عثرا عليه فوق الهضبة، ولكن هذا الذي أمامهما، يبدو أنه تعرّض لدمار أكبر. وقد وفّر لهما البناء ملجأ من الرياح. شعرا بارتياح كبير، وهما في ملاذ يلفّه السكون، بعد أن هبطا فوق الرمال الناعمة، داخل المكان.

أحسّا بالاجهاد الشديد، فجلسا لمدة نصف ساعة في الظلال، وقد أسندا ظهريهما إلى الجدار، فشعرا بمتعة الاسترخاء.

عصفت الرياح، وكأنها تسعى للوصول إليهما. وأحسّ نيال، وهو يجلس مغمض العينين، بضربات قلبه تهدأ لتعود إلى معدّلها الطبيعي، ولتحمله أمواج من الاسترخاء إلى عالم من الحرية خالٍ من كافة المخاوف.

ربت أولف على ذراعه، فأدرك أن النوم قد غلبه. تطلّع إلى السماء، ليحدّد موقع الشمس، فدُهش عندما رأى سحباً قاتمة. تزايدت حدّة عصف الرياح، ورغم أنهما بمنأى عنها، فإن الرمال في أقصى الفناء، تطايرت وتحوّلت إلى غمامات. تلبّدت السماء بالغيوم، ولفّهما فجأة، ظلام دامس، وسط حبيبات الرمال المتطايرة. باتت الرياح في غاية القوة، فخشي نيال من انهيار الجدار الذي يحتميان به.

أخرجا من سلّتيهما، أغطية حرير العناكب، ولفّا نفسيهما بداخلها. بدا الآن أن

الريح تهبّ من كل الاتجاهات، في وقت واحد، كما لو أنها صمّمت على الوصول إليهما، وتطايرت الرمال، لتضرب الجدار خلفهما، مثل مياه ترتفع فوق حواجز الأمواج في أحَدِ المرافىء. فكر نيال في هامنا وكورڤيج، وتمنّى أن يكونا قد وصلا إلى الملجأ، قبل أن تبدأ العاصفة. شعر كما لو أن العناية الإلّهيّة تدخّلت، عندما اكتشفا، في الوقت المناسب، هذا الحصن المنهار. وبمقدورهما إذا ما اضطرّتهما الظروف، قضاء الليل كلّه هنا.

هدأت الرياح، شيئاً فشيئاً، وصفت السماء، وبدأ الضوء يعود من جديد، مثل بزوغ الفجر. سكنت الرياح تماماً، على حين غرّة، وازداد الضوء سطوعاً. كانت الشمس ما تزال فوقهما، لا بدّ أن الوقت قد تجاوز بعد الظهر، بحوالي ساعتين. غطّتهما الرمال حتى الرقبة، وتراكمت في الجانب الآخر من الفناء، فوق الجدار، لتصنع تلاً. وقف نيال ببطء، وقد تصلّبت قدماه، وأخذتا تؤلمانه. تمطّى، وحاول أن يلقي نظرة، على ما وراء الجدار، لكن ارتفاعه فوق مستوى بصره، ببضع بوصات، حال دون ذلك، سار في الفناء، بينما غاصت قدماه في الرمال الناعمة، وصعد فوقها، ليصل إلى أعلى الجدار.

ادهشه ما رآه، فقد امتدّت أطلال مدينة تحته. كانت بناياتها المنهارة دون الجدار، الذي يقف فوقه، بمسافة عشرين قدماً على الأقل، وقد أزاحت العاصفة، الرمال عنها. رأى، في مواجهته مبنى له أعمدة طويلة ـ ليست مربعة، مثل أعمدة الحصن فوق الهضبة، لكنها أسطوانية، ما تزال تسند أجزاء من الجدران. لمح شيئاً يلمع تحت سنا الشمس، بين هذه الأعمدة، فقال: «يا أبت، هلمّ لترى!».

انضمّ أولف إليه، بعد لحظة، وقال: آه، نعم، أعرفها. إنها المدينة التي حكمها «بيراك» والد كازاك.

ـ أتعني أنهم عاشوا فوق سطح الأرض؟
ـ إلى أن طردتهم العناكب.
ـ وهل بنى بيراك هذا المكان؟

ـ لا، لقد شيد منذ فترة طويلة. يقولون إن بعض القدامى، ويطلق عليهم اسم «لاتينا»؛ قد بنوه.

أشار نيال إلى الشيء اللامع، وقال: وما عساك أن تقول عن هذا؟
هزّ أولف كتفيه، وقال: لا أعرف. أياًّ كان الأمر، فإنه مصنوع من المعدن.

مضت عشر دقائق، حتى عثرا على طريق أفضى بهما إلى رمال، بدت دونهما، فانحدرا على الجدران المنهارة. لاحظا من الخارج، أن الحصن عبارة عن مبنى مربع،

وقد كسا الإسمنت، أجزاء من الجدران. كما لاحظا وجود نوافذ، طويلة وضيّقة، وباب في مواجهة مدخل المدينة. وقد حفرت على الجدار فوقه، رموز غريبة. سدّت الرمال، وأجزاء منهارة من البناء، الباب تماماً. اصطفّت على جانبي الطريق، المفضي إلى المدينة المنهارة، أعمدة معظمها مهشّم، وملقى على الطريق. نحتت قمم بعضها على شكل أوراق أشجار وكرمات.

كانت معظم البيوت مجرّد جدران محطمة، رغم أن القليل منها، يحمل بقايا طوابق علوية، بنيت بخليط من الطين المجفّف والآجّر. وبدت الحجرات صغيرة للغاية، لا تزيد مساحة بعضها عن بضعة أقدام.

راح أولف يتفقّد أنقاض البيوت، بينما تجوّل نيال داخل البناء ذي الأعمدة، القائم في نهاية الممرّ. شاهدا تحت أقدامهما قطعاً من الأحجار متماسكة بنوع من الأسمنت. ووجد بين الأعمدة عدداً من الصناديق المستطيلة، الضخمة منحوتة من الصخور. وحينما ركّز نيال، وسمح لنفسه بالاسترخاء، تكّون لديه انطباع قويّ بأن لهذه الصناديق علاقة بالأموات.

انتهى الممر بسلسلة من الدرجات، يبلغ عرض كل واحدة اثني عشر قدماً، وتؤدّي إلى أنقاض بوابة. لم يتبقّ شيء من المعبد الذي كانت تفضي إليه هذه البوابة من قبل، سوى دائرة واسعة من الأعمدة، ينتصب كل واحد منها فوق مكعب من الجرانيت يبلغ ارتفاعه ستة أقدام. اندهش نيال عندما رأى أن الأرضية المرصوفة تحت قدميه مصنوعة من مربعات صغيرة من الأحجار الملوّنة، تشكّل صوراً لطيور وحيوانات. انتصب شيء لامع في وسط هذه الأرضية الفسيفسائية، فأسره شكله. ولما اقترب منه، دُهش وهو يرى انعكاساً لصورته على سطح معدنيّ محفور. لكن صورته بدت مشوّهة، بشكل مخيف، وتغيّرت عندما اقترب منها. بدا الشيء ضئيلاً، مثل خنفساء ضخمة، مستنداً على قوائم معدنية، وله عيون زجاجيّة حول واجهة رأسه. غير أنه أدرك أن هذه القوائم المستقيمة، المتباعدة عن بعضها، لا تصلح للسير عليها.

حاول نيال أن يفهم الغرض من هذا الشيء، فمنح ذهنه فترة استرخاء، ليستوعب الأمر، لكن الانطباعات الواهنة التي تلقّاها، كانت متضاربة للغاية، وبالتالي لم تكن تعني شيئاً، وبدت العمليّة مثل محاولة قراءة الرموز الغريبة فوق باب الحصن. لا بدّ وأن من صنع هذا الكائن الغريب البرّاق، بسطحه الذي يماثل المرآة، يختلف تماماً عن البشر الذي عرفهم. ومع ذلك، كان هناك أمر إنسانيّ في هذا الهيكل، ولا يمكن أن يكون قد صنعه سوى إنسان. ولكن لأي غرض؟ هل يمكن أن تكون هذه الحشرة المعدنية قد

صنعت لتحمل البشر عبر الصحراء فوق قوائمها المتباعدة؟

كان هناك، في الجانب المتقوّس، تحت «العيون» وخلفها، هيكل لا بد وأن يكون باباً. عرف نيال هذا بالفطرة المستقاة من ذكريات بني جلدته، دون أن يرى باباً حقيقياً. لمسه، فوجد المعدن ساخناً بفعل حرارة الشمس، ولكن ليس بالدرجة التي توقّعها. عثر، في الباب، على مقبض معدنيّ مقوّس، فقبض عليه، ودفعه، وسحبه، وهزّه، وضربه بشدة بيده. عرف، بغريزته، أن هذا مفتاح الدخول لهذه الحشرة الغريبة. بيد أن الباب خلفه، لم يهتزّ. ثم لان شيء بين أصابعه، وهو يمسك بالمقبض بصبر نافد، وترنّح عندما راح الباب ينفتح. ارتدّ للخلف مذعوراً، فقد تحرّك الباب، كما لو أن رجلاً خفياً قد فتحه. لكن لم تظهر أية دلالة على وجود أيّ شخص بالداخل. أنعم النظر، بحذر، عبر المدخل، ثم قفز إلى الداخل. وعندئذ فقط، أدرك أن «عيون» هذه الحشرة، صنعت من مادة شفافة، مثل الرمل الأبيض عندما يتعرّض لنار، وأن هذه العيون سمحت بدخول ضوء النهار.

وجد نفسه في «حجرة» ضيّقة، بها مقاعد صغيرة للغاية، مكسوّة بالجلد. أثارت محتويات هذه الحجرة دهشته، وبدت مثل أشياء سحرية، بل ومثيرة للحيرة أيضاً. لم يكن في حياته العملية شيء يمكن أن يقارن به لوحة التحكّم، بمؤشراتها وأقراصها المدرجة، أو أعمدة القيادة، أمام أحد المقاعد. وكلّ ما عرفه أن هذه الحشرة المعدنية، صنعت بدقة، وعناية أذهلت خياله. ونظراً لأنه لم تكن لديه أية أفكار تمكّنه من تفسير انطباعاته، فقد غلبه إحساس مروّع، أقنعه بأن هذه الآلة المبهمة قد استحدثت لأغراض العبادات.

اقتعد بحذر، مقعداً دافئاً بفعل حرارة الشمس، وضغط بخفّة على لوحة التحكّم بأصبعه. لم يحدث شيء. تحدّت فضوله كجدار مصمت. بيد أنه كان يوجد تحت اللوحة، جزء مستقلّ مفتوح، يحتوي على عدد من الأشياء، راح يفحصها الواحد تلو الآخر. وحينما ضغط على مقبض مَزْيَتةٍ، انبجس الزيت، وأغرق وجهه، مما جعله ينتفض، وتذوّقه بلسانه، فوجده كريهاً. مسح وجهه بيده. لم يتمكن من معرفة أسرار مفاتيح الربط، المفككات، والصواميل. لم يشعر قط بمثل هذه الحيرة والارتباك. أثارت فضوله قطعة معدنيّة قصيرة، أسطوانية الشكل، يبلغ قطرها نحو نصف البوصة وطولها قدم، وذلك لثقلها. فقد بدت أثقل من حجر جرانيت. وقرّر في الحال أن يمتلك هذه القطعة، مهما حدث، وأن أحداً لن يرغمه على تركها، حتى لو كان أباه أو أخاه أو حتى الملك كازاك شخصياً. حملها ووضعها في راحة يده الأخرى، ورأى أنها يمكن أن تقتل نملة بضربة

واحدة، وتصعق الخنفساء المدرعة. لن يخشى بعد الآن، أية حشرة، حتى لو كانت حشرة الحفرة، مادام هذا السلاح في يده.

فحصها عن قرب، فبدت الأطراف مصنوعة من دوائر موحدة المركز، وكان قرب نهاية أحد الطرفين، على السطح المقوس، دائرة محفورة على نحو رائع، ويبلغ قطرها نحو نصف البوصة. وضع الأسطوانة بين أسنانه، وحاول أن يقضمها، ولكنها استطالت، وتمدّدت، بين أصابعه، مما أثار دهشته. وضرب الطرف الآخر زراً على لوحة التحكّم، فسمع، على الفور، طنيناً غريباً، عالياً، وبدأ المقعد يتذبذب تحته. وبوثبة واحدة، وجد نفسه خارج الباب، يقف فوق الأرض الصلبة، وينظر برعب إلى الآلة التي تنبض بالحياة.

سمع أبوه الجلبة، فهرع نحوه. أدرك نيال أنه ترك سلاحه الجديد خلفه، فقد تجاوز خوفه من الجلبة، تصميمه على الاحتفاظ به، فاقترب وأمسك بالقضيب المتداخل، الذي وصل طوله الآن إلى خمسة أقدام.

قال أولف: ماذا جرى؟

ـ لا أعرف.

وَمَضَى ضوء أخضر على لوحة التحكم، ثم توقّفت الجلبة العالية. ودارا حول الآلة، وحاولا هزّها، ثم سارا تحتها، وأخيراً قرّرا أنها لا تستحقّ بذل أيّ جهد آخر. وعندما طلب أولف رؤية القضيب المتداخل، سلّمه نيال له على مضض. فحصه بعناية، وهزّه في الهواء، ثم أعاده إليه مرة أخرى.

حينما تناوله نيال، قبض على الطرف العريض، فحدثت قرقعة، وانكمش القضيب، ليصبح مرة أخرى، قطعة أسطوانية ثقيلة وقصيرة.

بعد أن فحصه بعناية اكتشف أن السرّ يكمن في الدائرة المحفورة، فوق السطح المقوّس. وعندما ضغط عليها، تمدّدت الأسطوانة وتحوّلت إلى قضيب، له سنّ مدبّبة. أمسك به في يده، وأخذ يؤرجحه بخفّة، في محاولة لفهم الغرض منه. ولاحظ إحساساً بوخز خفيف، غريب في أصابعه، فإذا ما أمسك بطرفي القضيب، ونشر ذراعيه إلى أقصى مدى، فإنه يصبح أقوى.

ضغط على الدائرة مرة أخرى فحدثت قرقعة، وانكمش القضيب من جديد متحوّلاً إلى أسطوانة. وقد أثارت هذه الآلية حيرته، فقضى خمس دقائق في تمديد القضيب وتصغيره، وفي النهاية رأى أنه يتجاوز فهمه. ومع ذلك، فإن إحساس الوخز الخفيف الذي انتابه عندما قام بتمديد القضيب لأقصى مدى كان مألوفاً له على نحو غريب.

مرّ الوقت، إلى أن حلّ العصر، عندئذ فكّرا في التحرّك. بعد أن عادا إلى الحصن، صعدا التل الرملي، ثم قفز أولف إلى الفناء، وتناول سلّته. وبينما كان نيال ينحني للإمساك بالسلّة الثانية، فقدت الأولى توازنها، وتدحرجت فوق تلّ الرمل. لم يبذل أية محاولة لوقفها، ففتحتها المغلقة، ستحول دون أن يتبعثر ما بداخلها. لكنه عندما راح يساعد أولف، على صعود الجدار، تخيّل أنه رأى شيئاً يتحرّك عند سفح التلّ. حدّق في الرمل، واستنتج أن السلة لا بد وأن تكون قد انزلقت نتيجة لثقلها، فأحدثت هذه الحركة. هبط، بحذر، وأمسك بها، ولكنه شعر في تلك اللحظة بالرمل يتحرّك تحته، ثم برزت منه، قائمة أمامية مشعرة، فأثارت رعبه وتبعتها قائمة أخرى. بعد لحظة وجد نفسه ينظر إلى عيون عنكبوت ضخم، يحاول أن يتخلّص من الرمل الذي دفن تحته. كان ردّ فعله سريعاً وغريزياً. فقد رفع القضيب المتداخل، وضرب بكل قوته، الوجه المُشعر الخالي من التعبير. وأصدر العنكبوت فحيحاً من شدّة الألم، فتراجع نيال، حيث شعر بالقوة المحسوسة لإرادته، تتجه نحوه مثل قرن مسمّم. شعر بيقين كامل، أنه إذا ما أخرج العنكبوت نفسه من الرمل، سيصبح فوقه، بقفزة واحدة، ويكبله بقائمتيه الأماميتين، بينما يغرس فكيه في لحمه. وكان أن سحب القضيب، وراح يضرب به مرات ومرات - في الفم، والعينين، والجسم اللين وراء الرأس. وبدا أن قوة إرادة الكائن تكبّله، كما لو أنها ذراع، بينما قاومتها إرادته، المتوتّرة بفعل الرعب. ثم توقفت مقاومة إرادته، فجأة. فقد أدرك أن العنكبوت قد توقّف عن الحركة.

وقف أبوه فوقهما، ينظر إلى أسفل في رعب. وعندما رأى العنكبوت وقد توقّف عن الحركة، دار حوله، ووقف إلى جانب نيال.

كان نصف جسم العنكبوت خارج الرمال، وتمكّنا من معرفة حجمه الذي بدا أكبر من العناكب الرمادية التي قابلاها في الحصن فوق الهضبة، لكنه في حجم عنكبوت الباب المسحور الذي وضع عليه دبور البيبسيس بيضته. وعرفا من شكل فكّيه، وقناته الخاصّة بالسم، أنه ينتمي لفصيلة العناكب الذئبية. ولكن في الوقت الذي يكون لون الجسم المُشعر للعناكب الذئبية بنّياً، وأحياناً مشوباً بلطع صفراء، فإن هذا العنكبوت كان لونه أسود فاحماً. وبدلاً من الصفّ المزدوج للعيون في مقدمة الرأس، فإن لهذا صفاً واحداً، بدا ممتداً على شكل نطاق مستمرّ حول الرأس.

فكرا في الشيء ذاته في وقت واحد. فلم يكن هذا نوعاً من العناكب الصحراوية البدائية التي تعيش في الحجرات الخالية للحصن، بل إنه أحد عناكب الموت.

تذكّر نيال المنطادين العنكبوتيين، اللذين انحرفا فوق رأسه قبل أن تغيّر الريح

اتجاهها. واستخدم القضيب المتداخل كرافعة، لإخراج الجثّة السوداء من الرمال. تمكّن من رؤية حرير المنطاد تحتها.

نظر أولف بتوتّر من فوق كتفه، وقال: «لا بد وأن الآخر في مكان ما بهذه المنطقة حولنا. من الأفضل أن نمضي».

ـ وماذا عن العنكبوت؟ إذا ما اكتشف الآخر مكانه، فستعرف العناكب أنه قد قتل.

تذكّر، فجأة، قصة إعدام البشر المتمرّدين، الذين قتلوا واحداً من عناكب الموت، والعذاب البطيء، القاسي، الذي استمر عدة أيام ـ فأخذته الرعدة.

ـ نعم، ينبغي أن ندفنه.

استغرق دفنه في الرمل، بضع دقائق، ثم وضعا عدداً من الأحجار المسطحة فوق الرمل. وعندما ابتعدا، ألقى نيال نظرة من على بعد عشرة أمتار، فلم ير أي شيء يمكن أن يشي بمكان العنكبوت.

سار نيال إلى حافة البحيرة، وغسل رمحه في المياه المالحة، وأزال الدم، والمادة البيضاء الصمغية بحفنة من العشب. بعد ذلك قام بتقليص القضيب، ووضعه في قاع السلّة. هرعا باتجاه الجبال البعيدة، وقد انتابهما، على حين غرة، إحساس بالخطر، كما لو أن عيوناً غير مرئية تمسح المنطقة بحثاً عنهما.

تأكدت صحّة نصيحة كازاك. فقد حوّلت الأمطار، على الجانب البعيد من الجبال، القفر إلى أرض من الوفرة المعتدلة. لم تكن المنطقة تختلف عن المكان القريب من الجحر. وبالرغم من أن الالتفاف، كلفهما يوماً إضافياً، فقد جنّبهما مشقّة الرحلة فوق الهضبة. كان قد مر أكثر من عشرة أعوام منذ آخر مرة، سار فيها أولف في هذه المنطقة، عندما كانت مجرد صحراء صخرية. أما الآن، فإن تغيرات غير طبيعية في المناخ، حوّلتها إلى منطقة تصلح للإقامة. وهذا يعني أيضاً، تزايد خطر التعرّض للخنافس النمرية، والعقارب، والضواري الليلية الأخرى. ولهذا السبب، واصلا السير، أثناء النهار، رغم الحرّ، وقضيا الليل في ملاجىء من الصعب اقتحامها.

استيقظ نيال، صباح اليوم الثالث، بعد أن نام في ملجأ محصّن بالصخور، وشجيرات الزعرور، ليشتمّ رائحة غريبة، تماثل رائحة جلد اليسروع، عندما يوضع ليجفّف في الشمس. وأخذت الرياح تهبّ من الشمال الغربي. ولما سأل أباه عنها، هزّ كتفيه قائلاً: «إنها رائحة الدلتا». كانت رائحة نباتات متعفّنة، ممتزجة برائحة مثيرة

للاشمئزاز. وقد لاحظ أن أولف، ظل مكتئباً، إلى أن غيّرت الريح اتجاهها.

واجه أولف حادثاً خطيراً، صباح اليوم الرابع. فبينما كانا يستظلاّن بشجرة من وقدة النهار، لاحظا حركة داخل أجمة تبعد عنهما نحو خمسين متراً. فقد وقف قارض ضخم بدون ذيل، على قوائمه الخلفية، في محاولة للوصول إلى بعض ثمار التوت. ولأنهما ظلا دون حراك، فإنه لم يلحظ وجودهما. أمسك أولف برمحه، وتحرّك بحذر، بعيداً عن مدى رؤية القارض، ثم اتجه نحوه بحرص، محتمياً بشجيرات الكريوسوت. قبض نيال، على رمحه المتداخل، بعد أن أخرجه من السلّة، وضغط على الزر، فتمدّد. وفي تلك اللحظة، سمع صرخة ألم، فأصيب القارض بذعر، واختفى.

جثم أولف على ركبة واحدة، بينما هوت قدمه اليمنى، وقصبة ساقه في حفرة، فافترض نيال، للحظة، أنه تعثّر في أحد الشقوق بالأرض الجافّة. سحب أولف قدمه، فرأى نيال أن كائناً داكناً مشعراً، لا يختلف عن اليسروع، قد تعلّق بها. فاندفع، بدون تردّد، وغرس طرف الرمح في جسم الكائن، الذي ظل، مع ذلك، متعلقاً بها، بل إنه سحبها، من جديد، إلى الحفرة، بعد أن تقلّص في حركة متشنّجة. وأخيراً، تحرّرت قدم أولف، تاركة الخفّ وراءها، فيما أخذ الدم يتدفقّ من الكاحل.

دفع نيال رمحه داخل الحفرة، عدة مرات، حتى توقّف الكائن عن الحركة، فسأل: «ما هذا؟» جلس أولف، ليتفحّص الإصابة، وقال: «إنها يرقة خنفساء أسدية، تختبىء في الحفر، مثل عنكبوت الباب المسحور».

استغرق تضميد الجراح ساعة، فقد أصيبت القدم بعدد من الخدوش المتوازية، نتيجة لتعرّضها للأسنان الحادّة، أو الفكّين. كان أولف يحمل مرهماً مركباً من جذور النبات الشيطاني، فوضعه فوق قطع من القماش، ولفّها حول كاحله وقدمه. شعر بالأسف، لأنه استخدم هذا القماش، الذي أهدته سيفنا إلى سيريز، لكن لم يكن هناك مفرّ. انتعل خفّين إضافيّين، قدّمهما له هامنا، وراح يسير وهو يعرج بقية اليوم.

وبحلول المساء، بلغا منطقة تعرّفا عليها، تبعد نحو عشرين ميلاً عن الجحر. وناما، مرة أخرى، في ملجأ من الصخور والشجيرات. ولكن مع طلوع الصباح، تورّمت قدم أولف، واصطبغت باللون الأزرق. وأخذ نيال سلّة أولف، وسار متثاقلاً، حاملاً السلّتين على كتفيه، بينما استخدم أولف فرع شجرة كعكاز. وأدرك كلاهما أنه من الضروري الآن الوصول إلى الجحر، قبل أن يرخي الليل سدله، فمع حلول الغد، يمكن أن تتفاقم حالة التسمّم في قدم أولف، ومن المرجّح ألا يتمكّن من السير عليها. لذلك فقد واصلا التقدّم،

رغم حرّ النهار، وقطعا أقل من عشرة أميال، ثم توقّفا عند ظلال صخرة، ليأكلا ويشربا. وغفا أولف لفترةٍ قصيرة. تزايد تورُّم قدمه، فلم يستطع أن يريح ثقله عليها، وأصبح العكاز يتحمّل كلّ ثقل جانبه الأيمن، أثناء السير على دفعات، تصل إلى عشرة أمتار في المرة، يتوقّفان بعدها للراحة. وعندما راحت الشمس تهبط نحو الأفق، أخذ أولف يتحامل على نفسه، مستخدماً كل ما لديه من قوة للتحرّك. ولاحت الصخور الحمراء الضخمة على يمينهما، ثم ظهرت أيكة الصبار. لقد أصبحا الآن في غاية الإرهاق، ويمكن أن يكونا فريسة سهلة لأيّ عقرب، أو خنفساء نمرية، أو عنكبوت الباب المسحور، إذا ما تعرّضا لهجوم أيّ منها. قبض نيال على رمحه المتداخل، واستخدمه كعكاز، وراح يسير مترنحاً، والسلتان تتأرجحان فوق ظهره.

وعلى حين غرة، شاهدا ڤيج وسيريز، يهرعان نحوهما فوق الرمال، بينما راحت رونا تهرول خلفهما. تخفّف نيال من حمله. فشعر، في الحال، بالخفّة، كما لو أنه على وشك أن يطير في الهواء. لفّت سيريز ذراعها، حول خصر زوجها، وجعلته يتساند عليها طوال الخمسين متراً المتبقية للوصول إلى الجحر. تطلّع نيال، الذي وقف ينتظر دخولهما، عبر الصحراء، نحو الهضبة البعيدة، وأحس بنوع من عدم التصديق، وهو يفكر في أنه سافر كل هذه المسافة بعيداً عن البيت، بل إنه رأى أن تفكيره في ميرلو لم يعد حقيقياً.

كان ثمة سبب واحد يدعو للحزن، وسط الاحساس بالراحة، بعد أن عاد إلى البيت. فقد بدا جومار في غاية الضعف، حتى أنه لم يستطع أن ينهض من فراشه لاستقبالهما. اتّضح لهما، تحت ضوء مصابيح الزيت ـ فقد أضاءوا كل المصابيح الستة كنوع من الاحتفال ـ أنه يحتضر. لقد أصبح وجهه ـ خلال الأسبوعين اللذين ابتعدا فيهما عنه ـ هضيماً للغاية، بينما باتت عيناه غائرتين. قالت سيريز لهما إنه شفي لتوّه من حمّى. بيد أن الحمى الحقيقية كانت الضجر، الإحساس بأنه رأى كل ما يتعيّن رؤيته، وأن الحياة لم تعد تثير أيّ اهتمام بالنسبة له. لقد فقد جومار بهجته في الحياة، بعد أن رحل ثورج وهرولف وانجيلد، وبعد أن فقد القدرة على السير لأكثر من بضعة أمتار بعيداً عن مدخل الجحر. وقد أصغى باهتمام واضح إلى وصف مدينة كازاك الكائنة تحت الأرض، ولكن بدا واضحاً أنه لم يستوعب الوصف عندما سأل: «هل ما تزال هناك فئران بين الأنقاض؟».

فهم نيال سبب لامبالاته. فبعد قصر كازاك، بدت الحياة في البيت مملّة بشكل لا يمكن تحمّله. وعلى الرغم من أنه مكث في ديرا ليومين فقط، فقد تعلّم فيها معنى الحياة وسط جماعة، والانسجام مع آخرين في مثل عمره وتبادل الأفكار والمشاعر معهم. وعندما يستعيد أحداث هذين اليومين، يجد أن المدينة مثالية، كل شيء عن ديرا بدا الآن فاتناً،

ومثيراً. ولقد حسد انجيلد لأنها ستتمكّن من الإقامة هناك بقية أيامها. كان غالباً ما يفكّر بحنان في دونا، ويشعر بالحزن لأنه تركها دون أن يودّعها، فقد كانت نائمة عندما رحل، ويجفل عندما يتذكّر ميرلو.

بدا الجحر خالياً على نحو غريب، مع عدم وجود ثورج وهرولف، وانجيلد، وأدّى الشعور بأن جومار يحتضر، إلى إحساس فادح، وبأن شيئاً ما بات يقترب من نهايته. لقد نقلوا الرجل الهرم إلى حجرة داخلية بالجحر، حتى ينام دون أن يقلقه شيء. وكانوا يساعدونه على الخروج ليرى ضوء الشمس، كل صباح، حيث يجلس إلى أن تشتدّ حرارتها، ينعس ويصغي لأزيز الذباب. اعتادوا، في بعض الأحيان، عندما تسكن الريح، على نقله إلى ظلال أشجار اليتوع، بينما يجلس نيال على الأرض، وقد أمسك برمحه استعداداً لأيّ هجوم من أحد الضواري. لاحظ، عندما طلب العجوز إعادته إلى الداخل، أن يديه باتتا في غاية البرودة، كما لو أنهما لم تتعرضا إلى ضوء النهار. ولقد لعبت مارا، خلال الأسابيع الأخيرة، دوراً هاماً في إبقاء ذهن الرجل العجوز يقظاً. بلغت من العمر الآن عاماً، وتغيّرت كثيراً، فقد حوّلها عصير نبات الأورتيس من طفلة عصبية، نكدة، إلى طفلة نابضة بالحياة، تبدي اهتماماً بكل شيء. قضت فترة طويلة من الوقت جالسة على ركبة جدّها، تطرح عليه السؤال تلو الآخر، وإذا فشل في الإجابة، تخبط بيديها على صدره وتقول له: «قل لي! قل لي!». قصّ عليها جومار حكايات عن طفولته، وأساطير الصيادين العظام في الماضي. وجلس نيال في الزاوية، وقد أحاط ركبتيه بيديه، وحاول أن يتذكر كل شيء قاله الرجل العجوز. فقد أحبّ دائماً الحكايات، ولكن منذ أن سافر إلى ديرا، لم تعد لديه رغبة في معرفة الماضي.

سأله نيال، ذات يوم، عندما نامت مارا على ركبته، عن المدينة التي تحوّلت إلى أنقاض. كان جومار قد ولد على بعد بضعة أميال منها، عند سفوح التلال، ولعب هناك خلال سنوات طفولته. واعتادت الطيور والقوارض، على الاقامة هناك، وكان غالباً ما يضع لها المصايد.

سأله نيال عن المبنى ذي الأعمدة الطويلة، فقال له إنه كان معبداً للآلهة. ولكن عندما سأله نيال عن الصناديق الغريبة المنحوتة من الحجر الصلد، اعترف جومار بأنه لم يرها قط. وأوضح وصفه بأن المدينة غطّتها الرمال لعمق بلغ نحو عشرة أقدام، وهذا يوضح سبب عدم تمكّنه من رؤية الصناديق، أو الهيكل المعدني اللامع في وسط المعبد.

سأله نيال: كم كان عمرك عندما حملتك العناكب إلى مدينتها؟

لم يحر الرجل العجوز رداً، فافترض نيال أنه راغب في الحديث عن ذلك. ولكن بعد فترة صمت طويلة، قال جومار: «لا بد وأن هذا قد حدث عندما بلغت من العمر الثمانية عشر صيفاً. الثمانية عشر أو نحو ذلك . . . كان يوماً أسود لأهالي ديرا».

- ماذا حدث؟

- باغتتنا العناكب قرب الفجر. لا بد وأنها كانت بالمئات. عرفت أنها أغارت علينا، بمجرد أن أستيقظت.

- كيف؟

- لم أستطع أن أتحرّك في فراشي. حاولت الجلوس، ولكني شعرت كما لو أن صخرة كبيرة قد استقرّت فوق صدري. ثم حاولت تحريك ذراعي، لكنهما ظلّتا دون حراك، كما لو أنني أنام فوقهما.

- ولكن ماذا حدث؟

- ثبتّونا في المضاجع، جميعاً.

- ولكن كيف؟

- بقوة الإرادة.

شعر نيال بجذور شعره تقبّ، فقد راح يفكر في مدينة كازاك. ثم قال: «وماذا حدث بعد ذلك؟

- لا شيء، حتى عثرت علينا.

سأله نيال، وقد شعر بالحيرة: عثرت عليكم؟ ألم تكن تعرف مكانكم؟

- ليس بالضبط. عرفت أننا هناك في مكان ما.

- ولكن إذا ما ثبتتكم في أماكنكم، فإنها لا بد وأن تكون قد عرفت مكانكم؟

- لا، لقد قيّدتنا حتى تتوصل إلى مكاننا.

- ماذا حدث بعد ذلك؟

نقل جومار مارا من فوق ركبتيه، وأرقدها بعناية على فراشها، كما لو أنه لا يريد أن يكون على اتصال معها وهو يتذكر الماضي.

قال العجوز: لقد قتلت كل أولئك الذين قاوموا. قتلت أبي، ورئيسنا هالاد.

- هل حاولا مهاجمة العناكب؟

- فعلياً، لا، لكنهما حاولا صدّ الهجوم باستخدام ارادتهما. ولا تحبّ العناكب ذلك. لقد كان هالاد رجلاً قوي الإرادة.

وصف جومار الطريقة التي أبقتهم بها العناكب مسجونين في كهوف طوال ذلك اليوم، حيث أنها تكره الحرّ، وتفضل السفر أثناء الليل. التهمت العناكب، أثناء النهار، الرجال الذين قتلتهم. وتتحرّك فكوك عناكب الموت بطريقة جانبية، على عكس فكوك البشر. لم يحتمل جومار رؤية أبيه وقد راحت أربعة عناكب تلتهمه، أشاح بعينيه، لكنه ظل يسمع صوت لحمه والعناكب تفتك به.

مع وجود متسع من الوقت، تفضّل العناكب تليين لحم ضحاياها، بحقنها بالسمّ، وتناولها بعد مرور عدة أيام عليها. أما في ذلك الحين، إذ لم يكن أمامها متسع من الوقت وتريد العودة إلى مدينتها بسرعة، فقد فضلت التهامهم في الحال.

بحلول مساء ذلك اليوم، بدأت العناكب، عندما غربت الشمس، رحلة العودة الطويلة. وقد استغلّ بعضها فرصة تغيّر اتجاه الريح، لتسافر بالمنطاد، الذي حمل معها الأطفال. أما الكبار من البشر فكانوا أثقل من أن تحملهم المناطيد، فاضطروا للسير. كانت رحلة طويلة استغرقت أسابيع عديدة، واضطروا للدوران حول البحر الذي يقطع عليهم الطريق. ولم تكن العناكب في عجلة من أمرها، فقد صمّمت على العودة بكل الأسرى أحياء.

أراد نيال أن يعرف سبب رغبة العناكب في الحفاظ على الأسرى. وتطلع بشغف لاكتشاف بعض الجوانب الأقل رعباً عن العناكب، كي تساعده في تخفيف حدّة خوفه منها. بيد أن أجابة جومار لم تحقّق له الراحة التي ينشدها.

قال جومار، بصوت أجشّ، بعد أن استنزفه الجهد الذي بذله لمواصلة الحديث: إنها تريدهم للاستيلادِ ـ خاصة النساء. أما الرجال فليسوا بالقدر ذاته من الأهمية فرجل واحد يمكن أن يكون أباً للعديد من الأطفال. وكانت مشكلة العناكب هي عدم وجود عدد كاف من النساء.

راحت مارا تحدث حركات متشنّجة وهي نائمة. وأدرك نيال في الحال، أنه المخطىء في هذا، فقد تواصل خوفه واشمئزازه معها. اقترب جومار منها، ووضع يده فوق جبهتها، فتنهدت، وعادت إلى هدوئها. قال جومار بحزن: «لا، لم يكن لديها عدد كاف من النساء».

ـ وكيف هربت، يا جدّي؟

ابتسم الرجل العجوز. واستدعى الأمر لحظات عديدة، ليستجمع طاقته على الحديث، وقال: «في منطاد. لقد أخذنا مناطيد» انتظر نيال لحظة، قبل أن يستكمل جومار

حديثه قائلاً: «عمل الاثنان الآخران لدى خنافس المدفعية. لقد كانت فكرتهما، فقد اتسما بالذكاء - بخلاف البشر في مدينة العناكب. فقد قتلت العناكب كل الرجال المهرة. أرادت أن تجعلنا بدينين وأغبياء. لكن الخنافس لم تهتم، كل ما كانت تريده هو التفجيرات. . . ».

- التفجيرات؟

- كانت تحب الانفجارات الكبيرة - الأكبر هو الأفضل. وهذا هو سبب رغبتها في اقتناء البشر - خبراء المتفجرات. قرّر هذان الاثنان - وهما «جيبل» و «ثياج» - الهرب. اكتشفا طريقة صنع غاز لملء المناطيد - ويسمى هذا الغاز «الهيدروجين». طلبا مني المساعدة. في ذلك اليوم اكتشفت أن العناكب تريد قتلي. لذا لم يكن هناك ما أخسره. واصطحبتهما إلى المكان الذي تصنع فيه النساء المناطيد.

- النساء تصنعها؟

- نعم، تحت إشراف العناكب التي لديها مخزن به مئات المناطيد. دخلنا المخزن، وقمنا بتنفيذ مهمتنا. لم يحاول الحراس منعنا، فقد اعتقدوا أنه قد طُلب منا إحضار المناطيد. ولماذا يفكّرون في غير ذلك؟ . . . لم يحاول إنسان من قبل الهرب بهذه الطريقة. وتركونا نخرج. ضحك، لكن ضحكته كشفت عن إرهاقه. مرّت خمس دقائق، فافترض نيال أن الرجل العجوز قد نام. إلا أن جومار راح يتحدّث من جديد: «لقي الاثنان الآخران حتفهما. أحدهما سقط في البحر، والآخر في الدلتا. لا بدّ وأن عيباً ما قد لحق بمنطاديهما. لكن منطادي حملني إلى الجبال بالقرب من البحيرة. هبطت على بعد خمسين ميلاً من المكان الذي أسرت فيه».

- هل جاءت العناكب تبحث عنك؟

ضحك العجوز ضحكة جافة وقال: إنها تبحث عني منذ ذلك الوقت.

راحت مارا تتشنّج مرة أخرى. قال جومار: «صه!» ووضع يده من جديد فوق رأسها. كشف تنفّسه المنتظم، بعد بضع دقائق، أنه قد نام.

توفّي جومار، بعد يومين. وقد جاءت رونا في وقت مبكر، بينما كانوا نائمين وقالت: «جدّي لا يريد أن يتكلم». عرفوا جميعاً، على نحو مفاجىء، أنه قد مات، وهو أمر يتّسم بيقين تلقائي سلموا به جميعهم. تمدد جومار، ووجهه نحو الأرض، ويداه مبسوطتان، كما لو أنه سقط من ارتفاع عظيم. ولكن عندما قلبوه على ظهره، بدا وجهه في حالة من الطمأنينة. كان واضحاً أنه لم يَنْتَبْهُ، في لحظاته الأخيرة، الخوف من العناكب.

قضى أولف وقيج، ونيال، ذلك اليوم بأكمله في حفر قبره، تحت جذور شجرة اليتوع، حفروا لأعماق كبيرة، حتى يحفظوا الجثة بعيداً عن الحشرات. لكن نيال وجد القبر، بعد بضعة أيام، وقد امتلأ بالفجوات المميزة التي تحدثها الجعلان. ففي الصحراء، قلما يُترك الطعام هباء.

حاولت سيريز، في مساء اليوم الذي مات فيه جومار، أن تتصل بأختها في ديرا. وقد استخدمت الحجرة الداخلية ـ التي قضى فيها جومار نحبه ـ بينما جلس بقيتهم في الحجرة المجاورة، وقد لفّهم صمت مطبق، يصيخون السمع إلى تنفّسها، وينتظرون تغيّر إيقاعه، ليتأكدوا أن الاتصال قد نجح. جلسوا لمدة نصف ساعة، ثم تنهدّت، وأنضمّت إليهم. بدا عليها قلق واضح، أثناء تناول الطعام بعد ذلك.

قال أولف أخيراً: لِمَ القلق؟ في مدينة كازاك، لا يعرف أحد أن الشمس قد غابت سوى رعاة النمال. أما الباقون فيفقدون أيّ إحساس بالوقت.

أومأت سيريز، لكنها لم تحر جواباً.

حاولت مرة أخرى عند فجر اليوم التالي، على أمل أن توقظ سيفنا من نومها. لكنها لم تصل أيضاً إلى نتيجة. وقد فهم نيال، وهو يستمع إلى تنفّسها، شعورها في هذه اللحظة. تبدأ المرحلة الأولى لمحاولة الإتصال برسم صورة واضحة للشخص الآخر، وبإرسال موجات أفكار. ويكون الاتصال أكثر يسراً، إذا ما قام كلا الشخصين بالمحاولة في الوقت ذاته. ولكن هذا ليس ضرورياً، فإذا كان يجمع بين الشخصين تعاطف أساسيّ معيّن، فإن المرسل يمكن أن يجذب اهتمام الشخص الآخر، الذي سيشعر على نحو مفاجىء بقلق مستمرّ. وعندما يحدث الاتصال، ينتاب الاثنين إحساس قوي، بوجود الآخر، كما يحدث في المحادثة العادية تماماً.

وإذا ما فشل المرسل في إجراء الاتصال، فإنه يواجه مساحة رماديّة يلفّها صمت من نوع غريب ـ أحياناً ما يكسره صدى لأصوات أخرى. وهذا غالباً ما يشير إلى أن الشخص المراد الاتصال به مشغول، وربما منهمك في نشاط ما. مع ذلك، فإنه بعد أن يتخلى المرسل عن محاولة إجراء الاتصال، فإن الشخص الآخر يصبح مدركاً، بشكل مفاجىء، أن المحاولة قد جرت. وغالباً ما يحدث هذا بين أختين، وفي مثل هذه الظروف، تظلّ كل منهما في حالة استعداد، لمحاولة اتصال أخرى، وذلك لأطول فترة ممكنة.

هذا هو السبب الذي أثار قلق سيريز. لقد أحسّت بنذير شر وبأن أمراً سيّئاً قد حدث،

وهي تحدق في المساحة الرمادية، الفارغة إلا من الأصوات الأخرى. وأصبح هذا النذير أمراً مؤكداً، مع مرور الأيام دون اتصال.

شعر نيال نفسه بالحزن بعد أن ظهر الشرّ للعيان. لم يكن قد تحدّث هو أو أولف عن قتل عنكبوت الموت، إلا أن هذا لم يغب مطلقاً عن تفكيرهما. تذكّرا قصة جومار عن طقوس تعذيب مجموعة صغيرة من ساكني الصحراء، الذين قتلوا أحد عناكب الموت. كما تذكرا أن منطادين عنكبوتيين قد مرّا فوق الرؤوس، في اليوم الذي هبّت فيه العاصفة الرملية. منذ اللحظة التي نظر فيها نيال في عيون عنكبوت الموت حتى اللحظة التي شاهد فيها الحياة، وهي تتلاشى من أطرافه المتّصلة، انقضى وقت قصير - ربما نصف دقيقة، لكنه كان كافياً لأن يبعث الحيوان المحتضر برسالة تحذير إلى رفيقه.

لقد اعتقد كازاك أن مدينته حصينة. وعرف نيال أن هذا التفكير مبنيّ على الآمال وليس على الحقيقة. فقد شعر بمدى قوّة إرادة العناكب عندما حاولت شلّ حركته. كما أشارت قصة جومار عن وقوعه في الأسر، إلى مدى أمكانيّة استخدام هذه القوّة.

تأكّد نذير الشرّ الذي أحسّ به نيال، بعد أسبوع من وفاة جومار. فقد شعر، في صباح أحد الأيام، عندما راح يرتشف الندى من فوق نبات الوارو، أن المنطاد العنكبوتيّ يهبط فوقه. وفي الساعات التي تلت ذلك، عندما انحرفت عشرات المناطيد باتجاهه، وغزت مجسّات الخوف الجحر، حاول ألاّ يسمح لنفسه بأن يعكس للعناكب إحساسه بأنه المسؤول عن هذا الحادث المؤسف. بدلاً من ذلك، أخذ يهدّىء من روعه بأن أقنع نفسه بأن العناكب ليست لديها فكرة واضحة عن المكان الذي تختبىء فيه فريستها، ولهذا فإنها تشنّ هذه الحملة، واسعة المجال.

حينما غرق في النوم، في تلك الليلة، أيقظته فكرة مباغتة. إذا سَبَت العناكب أنجيلد، فإنها ستصف لها مكانهم، وصفاً دقيقاً.

وطرأت على ذهن أولف الفكرة ذاتها، فقال في اليوم التالي، أثناء تناولهم الطعام: «يتعيّن علينا أن نترك هذا المكان، ونعود إلى بيتنا القديم عند سفح الهضبة».

تساءلت سيريز، التي ذبلت عيناها بسبب الأرق: متى؟

- الليلة عند الغسق. فمن الغباء أن نؤجّل الرحيل. إن العناكب ستواصل حملاتها، إلى أن تعثر علينا.

نظر نيال إلى قدم أبيه، التي ما زالت متورّمة، وقال: هل تعتقد أن باستطاعتك السير عليها لمسافة طويلة؟

ـ ليس ثمة بديل .
قال ڤيج : نحتاج إلى أوراق نبات «الجيريث» .

تنمو أيكة هذا النبات عند حافة الصحراء، وتتمتّع أوراقه بخواصّ طبيّة قويّة، وإذا ما تمّ استخدامها مثل الكمادات، فإنها يمكن أن تذهب بالورم في غضون ساعات .

قال نيال : لقد رأيت شجرة في طريق عودتنا من ديرا .
ـ أين ؟
ـ ليس بعيداً ـ ربما على بعد مسيرة ساعتين .
ـ سأرافقك .

هزّ أولف رأسه وقال : سوف نحتاجك هنا، يا ڤيج . ثمة أمور لا بدّ من القيام بها إذا ما اعتزمنا الرحيل الليلة . لقد أصبح نيال متمرّساً الآن، وبإمكانه الذهاب بمفرده .

رحل نيال، بمجرد أن انتهى من تناول طعامه . حمل معه سلّة من النسيج لوضع أوراق النبات فيها، وقرعة صغيرة للماء، ورمحه المعدنيّ، الذي استخدمه، بعد أن أطاله، كعكاز . وقد شعر بالثقة وهو يحسّ بثقل الرمح في يده اليمنى . فبهذا الرمح، بإمكانه الدفاع عن نفسه ضد معظم الضواري .

كان النهار ما يزال في مقتبله . وإذا لم يواجه أية مشاكل، فإنه سيعود للبيت قبل الظهر بساعة .

ظلّ نيال على حذر دائم طوال مسيرة الأميال العشرة، وأخذ يمسح الأرض بحثاً عن منطقة محدّبة تشير إلى وجود جحر لعنكبوت الباب المسحور، ويمشّط السماء للتأكدّ من خلوّها من المناطيد العنكبوتية . كما ابتعد كثيراً عن الصخور الضخمة التي عرف أن العقارب تفضل أن تبني جحورها تحتها . كان يركّز ذهنه، بين حين وآخر، ليتأكد من عدم وجود أية إنذارات خطر في عقله الباطني . فعندما يكون في تمام اليقظة، تحذّره الحاسّة السادسة من معظم المخاطر، قبل وقوعها . لكنه لم يواجه أيّ شيء أكثر خطورة من عنكبوت جملي، اقترب منه حتى يعرف ما إذا كان قارضاً أو غطاءة، وحين عرف أنه لا هذا ولا ذاك، مضى في طريقه . لم يفهم نيال مطلقاً سرّ عدم اهتمام هذا النوع من الحشرات بالإنسان .

عثر نيال على الشجيرة التي لاحظ وجودها مسبقاً، وذلك على بعد ميل من أجمة الأشجار التي واجهوا عندها من قبلُ الحشرة الضخمة . وقد وجد أنها ترتفع لمسافة أربعة أقدام، وأن لأوراقها العريضة، اللامعة براعم حمراء صغيرة، في طرفها العلوي، تتحول

إلى أزهار مدبّبة. اندهش حينما رأى الشجيرة بأكملها وقد تغطّت الآن بنسيج حريري، مشدود حولها مثل خيمة. ورأى، وهو ينعم النظر، من خلال إحدى فتحات النسيج، عشرات من صغار العناكب، لا يزيد قطر كل واحد منها على بوصة. ولما لمس النسيج بخفّة، بسنّ رمحه، خرجت العنكبوتة الأم من مخبأها لترى ما يحدث. كان لونها بنّياً فاتحاً، وجسمها ضخماً بديناً، ولها قوائم أمامية طويلة للغاية، يغطّيها شعر قصير، فبدا مثل الشوك. كان قطر جسمها يبلغ نحو قدم، وقد راحت عيونها السوداء الصغيرة، تتطلع نحو نيال بنوع من الذكاء.

لم يكن نيال قد رأى من قبل عنكبوتة الخيمة، ولم تكن لديه فكرة عما إذا كانت سامّة. وحتى يحصل على الأوراق، كان عليه أن يقطع النسيج بمديته، الأمر الذي سيجعل العنكبوتة تهاجمه للدفاع عن صغارها.

راح كل منهما يتأمل الآخر لبضع دقائق، ثم فقدت عنكبوتة الخيمة اهتمامها به، وعادت أدراجها إلى الأغصان العريضة. وقد جلس نيال في مكان يستطيع منه رؤية أطراف القوائم الأمامية الناتئة، وصفّى ذهنه. استغرق بضع ثوان كي يصفّي ذهنه من الأفكار، ويستحثّ الأحساس بالسرمدية، وهو ضروري لهذا النوع من الإتصال. وحينما حدث ذلك، شعر للحظة، كما لو أنه ينظر إلى العنكبوتة من ارتفاع شاهق. ثم أصبح، فجأة، العنكبوتة.

أصيب بالدهشة، فعندما حاول أن يمازج ذهنه مع عناكب الصحراء الرمادية، أدرك هوياتها المنفصلة عنه. بدا كما لو أنها تتمتّع بنوع من الدفاع الغريزي، ضد محاولته سبر غورها. أما بالنسبة لعنكبوتة الخيمة فقد اتضح أنها تفتقر لهذا النوع من الدفاع، إذ أنها لا تميّز بين ذهنه وذهنها. وتمازج وعيه بشكل طبيعي مع وعيها. ولكن مع العناكب الرمادية، لا يوجد تمازج، مثلما الزيت والماء. أما مع عنكبوت الموت، فهناك رفض نَشِطٌ لأية محاولة لاختراق ذهنه.

ولقد وجد في هذا أمراً فاتناً، ذلك أن علاقته بعنكبوتة الخيمة، تماثل علاقة عنكبوت الموت به. وسمع صوت طنين، حينما اندفعت ذبابة ندى بجوار رأسه، متّجهة نحو النسيج. فقد جذبها شذا الأزهار الحمراء، ولم تتمكّن من رؤية خيوط النسيج الرقيقة الشفّافة. وتحرّكت عنكبوتة الخيمة، في الحال، فأدرك نيال أنها جائعة، إذ نجحت الحشرات القليلة التي اندفعت إلى نسجها، في الهرب، لأنها كانت أكبر وأقوى من أن تفتك بها. أما ذبابة الندى، اللامعة، السوداء، فكان طولها لا يزيد عن ثلاث بوصات. وقد وقعت قوائمها في شرك النسيج اللزج. اقتربت منها عنكبوتة الخيمة، بوثبتين، والتفّت

إلى الجهة الأخرى للنسيج، وضربتها بفكّيها. كان لسمّها العصبي تأثير سريع، إذ راحت الذبابة، في غضون ثوانٍ، تتخبّط ببطء. وقد جذبت العنكبوتة نسيجها، بقوائمها الطويلة، فشدّته للداخل. نسيت تماماً، في تلك اللحظة، المتطفّل الذي يراقبها. فقد كان أكبر من أن تأخذه للداخل. قضم فكاها المنطقة الليّنة تحت بطن ذبابة الندى، التي كانت ما تزال حيّة، لكنها لم تكن قادرة على المقاومة.

انتاب نيال إحساس مقزّز، وهو داخل ذهن العنكبوتة، حينما كانت تلتهم اللحم الحيّ. لقد جعله هذا المنظر يشعر بالغثيان. ومع ذلك استمرّ افتتانه بصفاء الأحاسيس. تعرّف على مجال رؤية العنكبوتة، الذي امتدّ في المنطقة حول رأسها، وشعر بارتياحها عندما ملأت معدتها بأول وجبة في يومها. كان عليه أن يتطلع إلى ذراعيه، ليقنع نفسه بأنهما ليسا قائمتين طويلتين يغطيهما الشعر الشائك. وأحسّ أيضاً بدفء واقٍ لصغار العناكب، التي تسلّقت الفروع لتبحث عن فجوة في النسيج، تنظر منها إلى العالم الخارجيّ المشمس. كما أحسّ أيضاً بصراع غريزي يدور داخل العنكبوتة. فقد كانت جائعة، ونظراً لأنها تحمي صغارها، فإنه ليس بمقدورها أن تصطاد لتوفير الغذاء. (عرف نيال أن هذه العنكبوتة البدائية تقوم باصطياد فريستها، بأن تكمن منتظرة الحشرات العابرة، بدلاً من أن تستخدم النسيج كمصيدة لها.) وهي أيضاً أمّ، وتعرف أن صغارها جوعى، وينبغي عليها أن تقدّم لها ما تبقّى من الوليمة. لكن جوعها تغلّب على رغبتها في إطعام صغارها. لم يكن أمامها خيار حقيقي، فقد سيطرت الغريزة عليها سيطرة مطلقة.

تعمد نيال السيطرة على إرادتها، لجعلها تتوقّف عن الأكل، ثم جعلها تلقي بما تبقّى من الذبابة لصغارها، التي ازدردته في الحال، وراحت تعض بعضها ـ البعض في محاولاتها المتلهفة للوصول إلى اللحم. شعر بالأسف من الدعابة التي لعبها حينما أحسّ بجوع الأمّ غير المشبع.

كان هذا أغرب الأحاسيس التي عرفها حتى الآن، وربما أكثرها إثارة. فقد شعر وهو يسيطر على إرادة كائن آخر، بعاطفة قوية تجاه هذه العنكبوتة، التي أصبحت جزءاً منه. عرف، في الوقت ذاته، أنها تماثل تلك العاطفة التي أحسّ بها تجاه ميرلو، والرغبة في مزج ذهنه، بذهنها، وامتلاك إرادتها. أدرك أن هذا هو السبب الذي جعله يغرم بها بشكل مثير عندما قبّلته، وحينما عضّت أذنه: فقد بدا ذلك بمثابة اعتراف برغبتها في إخضاع إرادتها له. وهذا هو السبب الذي جعله يصدم ويغضب عندما سمعها تصفه بأنه «ذلك الفتى مهزول الجسم». شعر بأنها قد خدعته، لمجرد نشوة الشعور بأن إرادته قد خضعت لإرادتها. . .

أدّت انفعالاته إلى اضطراب عنكبوتة الخيمة، التي لم تشعر بالغيرة قط، فوجدت ذلك بمثابة إحساس محيّر ومخيف. بدت بريئة وسريعة التأثر، رغم سمّها، وميلها لالتهام الكائنات الحية. وربما كان هذا أغرب إحساس انتابه. فقد واجه شعوراً يماثل الحب تجاه كائن يعيش على التهام الحشرات الحية.

باعد نيال بعناية بين خيوط النسيج عند قمة الشجيرة، وراح يجمع الأوراق، خاصة الأصغر والأسمك، التي تعد الأفضل لعمل الكمادات. كان مشغولاً بأحاسيس العنكبوتة، التي أخذت تتساءل عما يحدث لنسيجها، حتى أنه لم يلحظ الظلال التي انتشرت على بعد بضعة أقدام منه. شدّت انتباهه، موجة ظلال أخرى، بدت مثل ظلال سحابة صغيرة تتحرك بسرعة. لكن السماء بدت صافية، ولم يكن في الجو سوى هبات خفيفة من النسيم. وهذا ما جعل المناطيد العنكبوتية تنحرف ببطء شديد وتقترب من الأرض.

ساعده استغراقه التام، كما حدث من قبل، في كبت ردّ فعله على الخوف قبل أن يبدأ. كانت المناطيد المنخفضة للغاية، فبدا له أنه من المحتم أن تراه في غضون لحظات، فتقبّل هذا الوضع بهدوء رجل يعرف أنه ليس هناك مفرّ. وقف في العراء، دون أن يختبىء. لم يقم بأية حركة، وظل ينظر إلى الشجيرة، وقد سمح لارادته بالامتزاج بإرادة العنكبوتة. كان على يقين من أن العناكب قد عرفت بوجوده، حيث أنها تدرك مجال الحياة لكل شيء حيّ على الأرض دونها. رفع ناظريه بعد أن مضت خمس دقائق: فرأى أن آخر المناطيد قد مرّ بالفعل مبتعداً عنه، كما استطاع أن يرى بوضوح شكل العنكبوت داخل الكيس شبه الشفّاف أسفل المنطاد، وقد التفّت قوائمه لتأخذ شكل العقدة.

زال الخطر الآن، فتعيّن عليه أن يبذل جهداً لمنع خروج ردّ الفعل المؤجّل لخوفه وارتياحه. جلس على الأرض وحدق نحوها. فرأى في البعيد، باتجاه الشمال الغربي، قمم الصخرة الحمراء تلوح في الأفق، حيث يقوم إلى الجنوب منها مباشرة، الجحر الذي انحرفت العناكب باتجاهه مباشرة. لم يساوره أي شك في أن هذا هو هدفها.

كانت المعاناة قد استحوذت على تفكيره، حين استغرقته الأحداث بالكامل. وفوق كل ذلك، فإنه ما يزال فتى، قضى حياته بأكملها في ظل حماية عائلته. بدا عالمه الآن، وعلى نحو مفاجىء تماماً، وقد تشظّى. كان ردّ فعله الأول، هو الارتداد إلى الطفولة، حيث شعر باليأس الذي هدّد بإغراقه في بحر من الرعب والرثاء للذات. ثم عاد إليه قدر من الرجولة التي ظهرت عليه مؤخراً لتؤكد نفسها. وأدرك، في الوقت نفسه، أنه ما يزال بإمكانه تحذير أسرته. جلس القرفصاء وأحنى رأسه، ثم بعث برسالة ذهنية عاجلة إلى أمه. استمرّ لبضع دقائق، حتى خف تركيزه وشعر بأنه قد استنزف ذهنياً. حاول مرة أخرى. وبذل

جهداً لاجبار عقله على الهدوء، بيد أن لهفته واستعجاله، جعلا من المستحيل تحقيق ذلك. لم يكن بمقدوره أن يسترخي ويندمج في حالة التلقي السرمدية التي يستطيع من خلالها إجراء اتّصال.

مرّ وقت طويل قبل أن يتمكن من التغلب على الإحساس بالضعف الذي ولّده الاكتئاب. إلا أن الحرّ المتزايد جعله يدرك عدم جدوى جلوسه أكثر من ذلك. وشعر بالتحسن، حينما بدأ يسير عائداً باتجاه الجحر. لم يبال الحرّ، مما جعله يفخر بنفسه، وإن شابت الكآبة إحساسه. ولاحظ مدى الارهاق الذي اعتراه، والعرق الذي يتصبّب منه، ولكن على نحو متجرّد وكأنه يشعر بتعب شخص آخر.

حينما اقترب من نباتات الصبار الإبري، شعر ببريق من الأمل؛ فكل شيء بدا عادياً. لكنه أدرك، وهو ما يزال على بعد مائة متر من الجحر، أن أمراً سيّئاً قد وقع. فقد أزيحت الصخرة الكبيرة والشجيرة الشائكة اللتان تخفيان، عادة، مدخل الجحر، والقيت الشجيرة على بعد عشرة أقدام. ازدادت حدة ألمه الآن، وبشكل مفاجيء، حتى كادت أن تمزّق صدره، فقد كان شديداً، كما لو أنه ألم جسماني. صرخ وهو يقطع بقية الأمتار القليلة عدواً، فهزّه صوته وجعله يرى الواقع.

تمدّدت جثة رجل أمام عتبة الجحر. عرف أنها جثة رجل لأن صدره كان عارياً. وشعر، للحظة، بالارتياح، إذ ظنّ أنه غريب بسبب وجهه الأسود المنتفخ. لكنه تعرف على السوار الذي يلف أعلى الذراع، فأدرك أنه ينظر إلى جثة أبيه. وقد أدّى سمّ العناكب الذي تفاعل مع الحرّ إلى بدء عملية التحلّل.

كانت مصابيح الزيت الثلاثة ما تزال مشتعلة؛ فقد قرروا في اليوم الأخير من وجودهم في الجحر أن بإمكانهم تحمل الإسراف. بدت السلال التي تحوي الغذاء والماء، وقد وضعت بشكل مرتب بجوار الجدار، بينما رصّت الثياب التي جلبها نيال معه من ديرا في صُرَّة. لم تكن هناك أية دلالة على حدوث صراع. فقد انتصبت الرماح في وضعها المألوف، بجوار الباب، وألقي وعاء به عصيدة النمال، نصف مأكولة، فوق فراش رونا. كان سيعتقد أن الأسرة قد خرجت لفترة، لو لم يجد الجثة المتحلّلة بجوار المدخل.

حمل مصباحاً زيتياً، وراح يفتش بقية الجحر. لم يكن هناك أحد، بل إن النمال ذهبت هي الأخرى.

توقّف عن الحركة علّه يشعر بأية عاطفة. بدا أن ثقل الواقع قد حطّم أحاسيسه. بل إن جثة أبيه بدت في غاية الواقعية، فأوشكت ألا تثير فيه أي ردّ فعل.

جلس على فراشه، يحملق في الفراغ، محاولاً التكيّف مع هذا الواقع الجديد المفرغ من كل شيء. ووقعت عيناه على وعاء العصيدة، فتذكر أنه من المرجح أن تكون رونا ومارا ما زالتا على قيد الحياة. ودفعه هذا للخروج من حالة اللامبالاة. خرج وتفحّص الأرض، فوجدها جافّة، صلبة، إلا أن عينه المدرّبة، لمحت بضع علامات على السطح المترب، لم تترك له مجالاً للشك بالاتجاه الذي سارت فيه العناكب. فقد اتجهت صوب الشمال الغربي، نحو البحر.

عاد إلى الجحر، وتحامل على نفسه، لنقل الجثة، وسحبها من الثياب إلى فراش أبيه. كان الوجه منتفخاً، فبدا كتمثال مشوّه الخلقة، ولاحت الأسنان صفراء بين شفتين سوداوين. أشاح بعينيه عنها، ثم غطّاها بالثياب التي جلبها من ديرا ـ وذلك من منطلق عدم الرغبة في النظر إليها، وليس من منطلق الإحساس بالتوقير. ثم قام بعد ذلك، بنقل الغذاء ورمحه المتداخل إلى السلّة.

لم تكن لديه، في تلك اللحظة، أية خطّة عمل محددة، بل مجرّد رغبة في الخروج من إحساسه بالأسى الداخلي، بإجبار نفسه على التحرّك. كان من الممكن أن يظل باقياً في الجحر لأجل غير محدّد، لو لم يجد جثة أبيه، وقد ملأت الجوّ برائحة تحلّل مثيرة للاشمئزاز.

حينما خرج، سحب الحجر ليضعه عند المدخل، ثم قضى نحو نصف ساعة يحشره بأحجار صغيرة. ارتفعت الشمس لتصبح فوق رأسه تماماً، إلا أنه لم يبال؛ فقد أراد أن يجعل الجحر بمنأى عن الحشرات، بعد أن أصبح المكان الذي ظل يأويهم طوال السنوات العشر الماضية، قبراً لأولف، يسجّي أباه فيه، دون أن يطرأ عليه أي طارىء، حتى يعود أبناؤه ويقوموا بدفنه في مقبرة تليق بمحارب.

الجزء الثاني

البرج

- ٥ -

حالف الحظ نيال، لأنه لم يواجه أية ضوارٍ في ذلك الأصيل. فقد أصيب بصدمة، وشعر برغبة في التمرّد على القدر. وأحسّ بأنه تعرّض لضغوط هائلة، وأن عواطفه قد استنزفت بالكامل. ولو أن عقرباً أو خنفساء نمرية، سدّت عليه الطريق، لحملق فيها بنوع من الاشمئزاز الممتزج بالسأم، لمجيئها متأخّرة للغاية. إنه لأمر يدعو للغبطة، المشوبة بقليل من الرهبة، كون المرء لا يشعر بالخوف.

تحرّك بسرعة، مقتفياً الآثار فوق الرمال. إن العناكب تتمتع بقوائم خفيفة للغاية، فلا تترك سوى علامات طفيفة تدلّ على الطريق الذي سلكته. كما كان من غير الممكن معرفة عددها. أما آثار اقدام ڤيج وسيريز، فبدت واضحة تماماً، وعرف من عمقها في الرمال الناعمة، أنهما كانا يحملان أثقالاً، من المرجّح أنهما رونا ومارا. لكنه لم يستطع أن يلمحهما، رغم أنه راح يحدق باستمرار في الأفق البعيد.

كان الطريق يمتد بطول الحافة الغربية للقفر الصخري، بين الجحور وقرى النمال. وكان الزعرور والطرفاء يشكلان أساس الحياة النباتية، بينما كسا الحصى البركاني الأسود الرمال. وكان سطح الأرض يعلو تدريجياً، مكوّناً سلسلة من الجبال لاحت في البعيد، وامتدّت إلى الشرق قمم البراكين الخامدة السوداء. كانت أرضاً جدباء قاحلة، وقد راحت الريح، الآتية من الغرب، تجفف عرقه بمجرد تحدّره فوق جسمه. وأدخل شعوره باللامبالاة الكئيبة تجاه كل هذه المشقّة، الارتياح في نفسه. وحينما أخذ يفكر في جثة أولف المنتفخة، أحسّ بأن الألم الجسماني، ما هو إلا شيء تافه ومضجر.

وفقد كلّ احساسه بالوقت، ولم يندهش كثيراً، عندما لاحظ أن الشمس لم تكن بعيدة فوق

الأفق الغربي. لقد أضحت التلال أكثر قرباً الآن، وبدت الأرض تحت قدميه حمراء اللـون، وامتدّت صخور حمراء في البعيد، بعضها على شكل أعمدة طويلة تنتصب بارتفاع يزيد عن مئة قدم. وحان وقت البحث عن مكان للنوم. ولكن لا يبدو أن هناك موقعاً أفضل من الآخر، وسط هذه الأرض الجرداء المكشوفة. وأخيراً، عثر على حجر أحمر كبير، مدفون في الأرض، بزاوية تصل إلى حوالى ثلاثين درجة، وقد نمت في ظلّه شجيرة زعرور. وأمضى نصف ساعة في خلعها من الأرض، ثم سوّى التربة التي نمت فيها. وتناول عشاءه، لحماً مجففاً، وفاكهة الصبّار. وقد أثار المذاق المرير لمياه الآبار، التي تمّ جلبها من أعماق الجحر، شجونه، فانتابته رغبة مفاجئة في البكاء. قاومها وصرّ على أسنانه، وراح يجمع الأحجار ليجعل ملجأه حصيناً في مواجهـة الضواري الليلية. بدا ذلك الإجراء الوقائي، في هذه الأرض القاحلة، غير ضروري، لكن هذا النشاط، ساعده على كبح جماح شعوره المتزايد بالأسى، الذي أخذ يشقّ طريقه ليصعد فوق حالة اللامبالاة.

سرّته التدابير الوقائية التي اتخذها، عندما أيقظته، في وقت مبكر، حركة عنـد الجانـب الآخر من شجيرة الزعرور. وقد استطاع أن يرى، بعـد أن أصبـح ضوء القمـر شاحبـاً الآن، الخطوط العامة لكائن ضخم، من المرجح أن يكون عقرباً، اكتشف وجوده، ربمـا من خلال حركة لاإرادية أثناء نومه.

مدّ يده، وقبض على الأسطوانة المعدنية. وسمع الجلبة التي يحدثها الجسم المـدرع للكائن على الأحجار. ثم تحركت شجيرة الزعرور. قبض على أقرب فرع بكلتا يديه، وقـاوم الشدّ. وبدأ الكائن يدور حول الشجيرة باحثاً عن مدخل، بعد أن أدرك وجود مقاومة. أخذ نيال وضع القرفصاء، وراح يضغط برأسه على الصخرة التي تغطي الملجأ، وعندمـا شعـر الكائـن بحركته، ضاعف من جهده. وانعكس ضوء القمر للحظات من عين متعدّدة العدسات القرنية. حاول أن يحـدث فجـوة بين الصخـور المتراكمـة، وقمـة شجيرة الزعـرور، مستخدمـاً كتفيه المدرعتين كإسفين. وأحسّ نيال بلمسة خفيفة في قدمه من أحد قرني الكائن، فضغط بقوة على جانب الأسطوانة، وهو يميل للأمام، فانفتحت محدثة قرقعة، فأخذ يطعن بها بكل قوة. سمع صوت تألّم، وجُذبت شجيرة الزعرور لعدة أقدام. طعن برمحه مرة أخرى في الظلام، وهو يتوقّع أن يقبض فكّان على لحمه، في أية لحظة. وقد أصابت الطعنة الكائن من جديد، حيث غاص الرمح في شيء لين. واستدار الكائن، فرأى نيال انعكاس ضوء القمر على ظهره المحرشف وهو يعدو مبتعداً. أياً كان ذلك الكائن، فقد أدرك أن الفريسة التي كان يعتزم اقتناصها، تمتلك زبانياً خطيراً. وجرّ نيال الشجيرة، وأعادها إلى موقعها، ثم استلقى مرة أخرى، والرمح بجانبه. وعندما فتح عينيه بعد ذلك، كان الفجر قد انبلج. وتمدّد، وشاهد شروق الشمس، وهو يرتعش من الهواء البارد، ثم تناول بعض اللحم المجفّف، وانطلق من جديد باتجاه التلال.

أصبح الهواء أكثر اعتدالاً، عندما أخذ سطح الأرض يرتفع، وبات الجوّ دافئاً وغائماً. ورغم أن الأرض كانت في غاية الصلابة، حيث لا يمكن لآثار الأقدام أن تظهر فوقها، فإنه أيقن أن أسرته قد سارت فعلاً في هذا الطريق. لقد كان هذا الدرب القديم المكسوّ بالعشب، في وقت من الأوقات، طريقاً عتيقاً، ومسلكاً مؤدياً إلى التلال. واستطاع مرة أخرى، في مكان انحدر فيه الطريق، ليتحوّل إلى وادٍ ضيق، تجمّع فيه الغبار، أن يتبيَّن بوضوح، آثار أقدام سيريز وقيبج، والعلامات الخفيفة التي تركتها العناكب.

وبعد بضعة أميال، عثر على حوض ماء بجانب الطريق مبنيّ من صخور الجرانيت الضخمة، من الواضح أنها جُلبت من مكان آخر. كان عرضه حوالى قدمين، وقد غطّت صخرة ضخمة مفلطحة جزءاً من فتحته العلوية. وبدت المياه، صافية للغاية، وتعلّقت الطحالب الخضراء بجدران الحوض تحت سطح الماء. وقد تناول كوباً من صرّته، كان جومار قد صنعه من الخشب. وغمره في الماء شديد البرودة. وبعد أن ارتوى، راح يصبّ الماء فوق رأسه وكتفيه، وهو يقهقه، وقد أحسّ براحة ونشوة، والماء البارد يشكّل خطوطاً عبر الغبار المتراكم فوق بشرته.

بدت أيضاً علامات واضحة تدلّ على أن أمه وأخاه، قد توقّفا هنا، وتعرّف على علامة لخفّ كانت سيفنا قد أهدته لأختها. ومع ذلك لم يستطع العثور على آثار لأقدام الطفلتين رغم أنه أخذ يفتّش الأرض بدقة.

وعندما حدّق في المياه، والطحالب حول الأحجار التي سقطت في الحوض، أحسّ بتوقّد طاقة متيقّظة، أخمدها، في الحال، تفكيره في أبيه المتوفى. لكن تلك كانت المرة الأولى منذ يومين، التي يشعر فيها بانتشاء تلقائي لبقائه على قيد الحياة. وحدّق في المياه، وجعل عقله يسترخي، وكأنه يغوص في الأعماق الباردة بأضوائها ذات الظلال الخضر. شعر وكأنه يسترخي فوق فراش مريح، ومع ذلك ظلّ عقله في تمام اليقظة، كما هو دائماً. أحسّ، بجزء من وعيه، بشعره المبلل، وبأشعة الشمس المسلّطة على ظهره. وصلابة الأرض، التي يستند عليها بركبتيه، بينما شعر، بأن الجزء الآخر من وعيه، يطفو فوق صفحة المياه الباردة الظليلة، وقد استرخى بسلام، وكأن الزمن قد توقّف.

اختفت المياه، فجأة، ووجد نفسه ينظر إلى أخيه ڤيج، الذي استلقى على ظهره، وقد أغمض عينيه، بينما وسّد رأسه على جذور شجرة. كان التعب واضحاً عليه، وعلى فمه المفتوح، المتدلّي، ووجهه الكئيب الذي تعوزه الحيوية. لكنه لم يكن قد فارق الحياة، إذ أن صدره راح يعلو ويهبط، جثم، بالقرب من رأسه، دبور البيبسيس، وكأنه يحرسه في نومه.

وكانت أمه، جالسة في مكان قريب، تشرب الماء في رشفات ضئيلة من قرعة. وقد بدت هي الأخرى، متعبة، وغطّت خطوط سوداء وجهها، حيث امتزج العرق بوعثاء السفر. لم يدرك نيال سرّ معرفته بذلك، لكنه تحقّق من أن هذا المشهد يحدث في هذه اللحظة. لاحظ أنه لم يكن هناك أيّ أثر للطفلتين، وأن العناكب الأربعة، التي تمددت تحت سنا الشمس، ذات لون بنّي وليس أسود. وبمجرد أن حوّل انتباهه، تمكّن من فحصها بدقّة، وكأنه يقف بجانبها. وقد غطّى شعر بنيّ، مخمليّ، أجسامها، أما وجوهها، التي رآها من الأمام، فقد بدت قريبة من وجوه البشر، ذلك أن لها عينين سوداوين ضخمتين، تحت ما يمكن أن يكون جبهة. ودون هاتين العينين، يوجد صفّ منحنٍ من عيون أصغر حجماً. ويقع تحتها نتوء يشبه أنفاً مفلطحاً، أما المخالب الملتوية فتشبه اللحية. وقد بدت القوائم الأمامية في غاية القوة، أما البطن فكان أصغر وأكثر نحولاً، عما هو عليه الحال في معظم العناكب. وإذ يرفع أحدها نفسه مستنداً على قوائمه، ليدير وجهه باتجاه أشعة الشمس، فإنه ينقل انطباعاً بقوّة عضلاته. وقد لاحظ أن هذه الكائنات تستمتع فعلاً بضوء الشمس.

لم يكن نيال قد رأى من قبل عنكبوتاً ذئبياً، بيد أنه بدا واضحاً له أن هذه من نوع العناكب الصائدة، التي تقتنص فريستها بسرعة فائقة. كما لاحظ أيضاً وجود عينين أخريين سوداوين واسعتين، في مؤخرة الرأس، مما يعطيها مجالاً للرؤية في كل الاتجاهات.

بدت المنطقة من حولهم، مماثلة لقرية النمال: سهول خضراء تتخلّلها الأشجار والشجيرات. كان بمقدوره أن يرى ثمار التوت الأحمر تتدلى من أقرب شجيرة. وقد لاحت أمامه أيضاً أشجار النخيل والأرز الشاهقة. لكن مجال رؤيته اقتصر على المنطقة المحيطة بالعناكب.

أدرك نيال أن ذهنه يتابع ما يدور في أذهان العناكب الذئبية المستلقية في الشمس. وقد بدا أسلوبها الذهنيّ أقرب إلى البشر منها إلى العناكب الناسجة للخيوط، نظراً لاعتمادها على اقتناص الفريسة، بدلاً من انتظارها حتى تقع متخبّطة في الفخّ. كما بدت عملياتها العقلية إيجابية وليست سلبية. فهذا العنكبوت ذو اللون البني المخمليّ الذي يتلقّى وجهه الآن أشعة شمس الظهيرة، يفكّر في عدد الأيام التي سيقضيها حتى يعود إلى وطنه مرة أخرى. حاول أن يفهم معنى «وطن» فارتسمت في ذهنه صورة محيّرة لمدينة ضخمة تنتشر فيها الأبراج مربّعة الشكل، على نحو غريب، وتمتلىء بالنوافذ، وامتدّت، بين هذه الأبراج، خيوط من نسيج العناكب، تماثل في سماكتها، حبله المجدول من الحشائش. واختبأ، بداخل أحد هذه الأبراج الغريبة، كائن يثير اسمه الخوف في نفوس الجميع. وعندما حاول نيال أن يتعرّف على مصدر ذلك الخوف، بدا وكأنه قد وجد نفسه في ردهة فسيحة، مظلمة، امتدت عبرها مئات من خيوط العناكب الرمادية. ومن مكان في أكثر الزوايا ظلمة، ومن خلال نفق من خيوط العناكب، راحت عيون سوداء تراقب، بالفضول البارد الذي يتّسم به عنكبوت الموت.

راح نيال يشعر الآن، وبشكل مفاجىء، بانزعاج شديد، جعل لحمه يتخدّر. كان يحسّ، حتى هذه اللحظة، بأنه مراقِب، منفصل عما يجري، وبالتالي فهو حصين. أما الآن، فقد شعر، وهو يحدق في هذه الأعين التي تراقبه من بين خطوط النسيج، وكأنه هناك بالفعل في تلك الردهة المظلمة، يتفحّصه كائن ذكيّ، قاسي القلب. أغمض عينيه بطريقة غريزية، عندما أخذ الانزعاج يتحول إلى فزع، فاختفت الصورة التي رآها، في الحال، ووجد نفسه يديم النظر مرة أخرى، في الحوض، والطحالب الخضراء اللزجة، التي نبتت على جوانبه.

نظر حوله بعصبية، إلا أنه شعر بالراحة عندما وجد نفسه بمفرده. وأحسّ ببرودة كالثلج، رغم حرّ النهار. ومع أنه عاد الآن إلى الأرض القاحلة، ذات الأحجار الرمليّة الحمراء، فقد استمرّ يشعر بأن العيون السوداء، تراقبه من وسط الخيوط العنكبوتية المتشابكة. وقد اقتضى الأمر عدة دقائق كي يخبو هذا الإحساس.

أدرك، بدهشة، أنه جائع، عندما راح جسمه يمتصّ حرارة الشمس. لم يشعر برغبة في الطعام، نتيجة لما ألم به من بؤس وضغوط، خلال اليومين الماضيين. لكن شهيته عادت إليه، مرة أخرى. فتناول طعامه ببطء، وطحن بأسنانه بعض الخبز الجافّ، الذي يشبه البسكويت، أحضره مع أبيه من ديرا، واستمتع برفاهية شرب جرعات من الماء البارد، وهو يزدرد طعامه.

استرخى في ظلّ شجرة زعرور، بعد أن أعاد ملء القرعة بالماء. إلا أنه دفع برمحه، قبل أن يسترخي، بين الجذور، ليتأكّد من عدم وجود ذات الأربع والأربعين. وأدرك، وهو مستلق يحدّق في السماء الزرقاء اللبنية من خلال فروع الشجرة، أن تفاؤله قد عاد إليه مع شهيّته. اتضح له الآن، أنه منذ موت أبيه، جثمت سحابة على عقله وحوّلته إلى كائن يسير وهو نائم. ويبدو الأمر الآن، كما لو أنه استيقظ من جديد، وبدأت قواه العقلية تؤكّد وجودها.

كانت طاقاته، منذ أن غادر الجحر، موجّهة نحو هدف واحد، وهو اللحاق بأسرته. وقد أقنع نفسه، دون تفكير واضح، بأنه سيحقّق هذا الهدف حتى ولو سقط أسيراً لدى العناكب.

لكنه افترض أن أسرته، قد وقعت أسيرة في أيدي عناكب الموت. بيد أنه عرف الآن، أن الأمر ليس بهذه الصورة، وأن الوضع لا يبدو ميؤوساً منه كلية. فإذا ما سمح للعناكب أن تأسره، فإنها ستكون في وضع يتيح لها مراقبة كل تحركاته، ولكن إذا ما ظلّ طليقاً، فسيكون بإمكانه مراقبتها، واستغلال أية فرصة، لإطلاق سراح أسرته. . .

ولكن عليه أن يصل إليهم، قبل أن يتمكّن من تنفيذ كلّ هذه الخطط. ونهض، على

مضض، إذ ما يزال جسمه يشعر بألم وإرهاق، ثم سحب صرّته، واستأنف الصعود إلى قمة الطريق.

تعرّج الطريق صاعداً، بين صفوف من الأحجار الرملية، تآكلت بفعل العوامل الجويّة، وكان بعضها ملقى في عرض الطريق، وكأن هزة أرضية قد دفعت به. وجد أنه كلما صعد إلى أعلى، ازدادت حدّة الارتفاع. واستدار، عندما بلغ هذا القدر، ليلقي نظرة على الطريق الذي صعد منه، فرأى في الأفق البعيد، الهضبة الكبرى، وقد أحاطت بها الصحراء. بدا وكأنه الكائن الحيّ الوحيد على هذه الأرض الفضاء، مترامية الأطراف. وظلّ يحملق لفترة طويلة، فتلك الأرض قضى عليها كل حياته حتى الآن. ثم استدار، وتحامل على ساقيه المتعبتين، ليصعد الألف قدم المتبقية، ليبلغ القمة.

شعر، فجأة، بالنسيم يهبّ بارداً، على جسمه المتصبّب عرقاً، من منطقة محصورة بين جرفين شاهقين من الأحجار الرملية، ويحمل شذى لم يصادف مثله من قبل، شذى قوياً ونقياً جعل قلبه يطفر. راح ينظر لأسفل، بعد عشر دقائق، على شريط من الأرض الخضراء المنبسطة، التي امتدّ خلفها البحر باتساعه الهائل. وحملت الريح القوية، رغم بعد الشقة، رائحة رذاذ الملح. فامتلأ قلبه بالغبطة، إذ أحسّ بأنه يتطلع إلى أرض عرفها في الماضي الغابر، قبل أن تصبح العناكب سادة الأرض.

كان الوقت عصراً، وتعيّن عليه أن يتحرّك، إذا ما أراد الوصول إلى السهل قبل الغسق. ورفع القرعة إلى فمه، ليرطب حلقه قبل أن يستهلّ رحلة الهبوط الطويلة. تردّد في أذنه، وهو يقوم بذلك، صوت يقول له بنبرة واضحة: «نيال، احترس!».

كادت الصدمة تجعله يلقي بالقرعة، ونزلت قطرات من الماء في القصبة الهوائية مما جعله يَشرَق. توقّع أن يرى أمه تقف خلفه، لكن أحداً لم يكن هناك، بل لم يكن يوجد أي ساتر يمكن أن يتوارى وراءه أحد. كان يقف في وسط الطريق، الذي ترتفع على جانبيه الأجراف الشديدة الانحدار.

شعر بأنه يترنّح، فجلس فوق أقرب صخرة. عندئذٍ عرف، بعد أن استعاد إلى ذهنه ما شعر به، أن الصوت لم يهمس في أذنه، ولكنه دار داخل رأسه.

حدّق في السهل الأخضر المنبسط الممتدّ دونه، بأشجاره وشجيراته، لكنه لم يستطع رؤية أي شيء يدلّ على وجود كائنات حيّة. مع ذلك، كانت سيريز تراقبه، في مكان ما هناك. لا بد وأنها رأت ملامحه في الأفق. إذا كانت تراقبه، فلا بدّ وأن تكون العناكب الصائدة البنية، تراقبه هي الأخرى.

عندما أخذ يحدّق في السهل، وهو يحاول أن يخمن المكان الذي تتوارى فيه العيون المختبئة، تحدّث صوتها مرة أخرى: «تراجع! تراجع!». أحسّ هذه المرة، بأن الصوت داخل صدره، لا شكّ في ذلك، وأنه على شكل نبضة، وليس رسالة شفهية.

تطلّع إلى الخلف، إلى الطريق الذي قطعه، ورأى أنه من غير المنطقي أن ينصحه الصوت بالتراجع؛ فليس هناك مكان بإمكانه الذهاب إليه. فقد ينجح في الاختباء، داخل كهف أو أخدود لبضع ساعات، ولكن اكتشاف مكانه سيكون أمراً حتمياً، إذ لا يوجد فوق هذه الأرض الجرداء أي مكان يمكن الاختفاء فيه.

بقي أمامه خياران، إما أن يبقى في مكانه، أو أن يواصل تقدّمه. وقد اختار دون تردّد، فمن الأفضل له أن يتصرّف على أن يقف مكتوف اليدين. وكان أن ألقى بسلته فوق كتفيه، وبدأ رحلة النزول الطويلة من التلّ إلى السهل.

عندما بدأ يتحرّك، شعر بغبطة تدعو للدهشة. فقد كان فتى صغيراً، لم يخض تجارب، يتعرف من خلالها على معنى الخوف الحقيقي. لو أن أباه الذي أوجده قد واجه الخيار ذاته، لاختار دون تردّد التراجع والاختباء، ليس من منطلق الخوف، ولكن بدافع الاقتناع بأن الإنسان، الذي يلقي بنفسه في أيدي العناكب، يحكم على نفسه، فعلياً، بالسجن مدى الحياة. وقد ساعده جهله، على أن يخطو نحو الأسر دون أن تساوره أية شكوك قويّة، ونظراً لأن المستقبل في علم الغيب، فقد بدا واعداً.

كان الطريق المؤدي لأسفل التل، أكثر استقامة، وبالتالي أشدّ انحداراً، من الطريق الجنوبي المؤدّي للممر، فشعر بالألم يكاد يمزّق ربلتي ساقيه. واختفى البحر خلف الأفق، عندما أخذ يهبط باتجاه السهل، فتلاشى قدر من الغبطة التي كانت تملأ فؤاده، لكنه ظل منتشياً وهو يفكر في أنه سيرى أمه وأخاه من جديد، وأخذ يحدق باستمرار علّه يلمح أية حركة فوق الأرض الخضراء دونه. ثمة مواقع عديدة يمكن أن تختبيء فيها العناكب، فراح قلبه ينقبض، وهو يقترب من مثل هذه الأماكن. ولكن بعد أن مرت ساعتان، وأصبح الطريق أقل انحداراً، واقترب من الأشجار، لتصبح على بعد بضع مئات من الأمتار فقط، راح يتساءل ما إذا كان قد أخطأ، عندما اعتقد أن العناكب عرفت بوجوده. أصابه هذا التفكير بوخز الاحباط. لم تعد أمامه الآن أية صخور ضخمة، بل لم يكن هناك شيء سوى شجيرة لا يمكن أن يختفي خلفها كائن يزيد حجمه عن جندب صغير.

عندما عبرت هذه الفكرة ذهنه، لمح بطرف عينه حركة غير واضحة. اندفع عندئذٍ، للأمام بقوة، وألقى بنفسه على الأرض، وقد علا تنفّسه. قبضت عليه قوائم أمامية قويّة، وقلبته، ثم

رفعته من على الأرض، بعد أن ضغطت ذراعيه إلى جانبيه. صرخ عندما وجد نفسه يتطلّع إلى عيون سوداء جامدة، بينما ارتفعت مخالب منبسطة لتهاجمه. تجمّد بشكل غريزي، على أمل أن يخفّف ثباته من حدّة العدوان. ثم قبضت عليه مخالب من الخلف، فشعر أن السلّة قد انخلعت من فوق ظهره، وأن عقدة من الحرير اللزج قد التفّت حول جسمه مكبّلة ذراعيه.

لما انحسرت الصدمة الأولى، أحس بهدوء غريب، وربما تكون النظرة الإنسانية التي لاحت في الوجوه قد أعادت الطمأنينة إليه، وقد تكون سرطانات بحرية ذكية، ذات وجوه لبشر متقدّمين في السن. كانت للعناكب الصائدة ـ عن قرب ـ رائحة مميّزة، وطيّبة شبيهة بالمسك. أما مخالبها فتكون مخيفة حين تبسطها، وإذا طوتها وكانت عادية، لا يختلف شكلها عن خصلتين معقوصتين باتقان من الشعر عند طرف اللحية.

بعد انقضاء تلك الثواني الأولى القليلة المفزعة، التي توقّع فيها حقنه بالسمّ، أدرك أنها لا تعتزم إيذاءه، فأظهر لها استسلامه التامّ، وعدم اعتزامه محاولة الهرب.

رفع العنكبوت، الذي يقبض عليه، جسمه من على الأرض، حتى يتمكّن العنكبوت الآخر من تقييد كاحليه. كان الحرير رطباً، وليناً ومرناً، ورغم أنه أكثر سمكاً بالكاد من ورقة عشب، فقد بدا قوياً لا يمكن فكّه. وشعر بأن كاحليه قد التصقا معاً.

بعد أن تمّ تقييد ذراعيه وساقيه، وُضع فوق ظهر العنكبوت، ثم تحركت العناكب، فجأة. أصابه الدوار من سرعة حركة العناكب فوق الأرض الصلبة.

راح العنكبوت يقفز منطلقاً على الطريق، فأخذ نيال يتأرجح، وشعر، بين فترة وأخرى، بأنه سيقع من فوق الظهر المخمليّ، لكن القوائم الأمامية كانت تمتدّ إليه، دون أن تبطىء من حركة السير، وتعيد تعديل موضعه، وجرى خلفهما، العنكبوت الذئبي الآخر، حاملاً سلّة نيال.

شاهد نيال مراراً، العنكبوت الجمليّ وهو ينطلق في الصحراء بمثل هذه السرعة، فيبدو مثل كرة من العشب تطيرها الرياح، لكنه لم يتوقّع مطلقاً، أن ينظر إلى الأرض وهي تجري أمام بصره بسرعة خمسين ميلاً في الساعة. حاول أن يبعد رأسه، ويركز عينيه على الأفق، فقلّل ذلك من احساسه بالدوار بيد أن ارتطام رأسه، بظهر العنكبوت، جعل من المستحيل أن يركز عينيه أكثر من بضع لحظات في المرة الواحدة، وفي نهاية المطاف، أغمض عينيه وصرّ على أسنانه، مركزاً على الحركة المهتزّة التي جعلت الدم يهدر في أذنيه.

وعلى حين غرة، وجد نفسه ممدداً على الأرض، ووجه يتطلّع إليه. بعد لحظة،

تعرّف على رائحة شعر أمه المألوفة لديه، عندما ضمّته بشدّة إليها وقبّلت وجهه. ثم ساعده ڤيج على الجلوس، وقرّب كوباً من الماء نحو شفتيه. أحس بأن فمه جافّ، وحلقه مملوء بالغبار، فسعل سعالاً حاداً حينما حاول أن يبلع الماء. وأدرك أن يديه وساقيه، قد تحرّرت الآن، رغم أن الجلد قد تمزق في الأماكن التي نُزع منها النسيج اللزج.

عاد إلى وعيه، فأدرك أنه قد أصيب بالإغماء. كان العنكبوت الذي سافر على ظهره ـ وهو أضخم العناكب الأربعة، ومن الواضح أنه قائدها ـ يقف، متفحّصاً إياه بعيونه السوداء الصمّاء، وبدا الخط بين فمه وفكّيه المضمومين، مثل شفتين مقلوبتين، بينما بدا صفّ العيون الأصغر، تحت العيون الأساسية، مثل تشويه غريب، أو صفّ من النتوءات السوداء اللامعة.

قال له ڤيج: هل أنت قادر على السير؟

وقف مترنّحاً، وقال: «أعتقد ذلك».

انخرطت سيريز في البكاء.

قال ڤيج: تقول العناكب إنه يتعيّن علينا مواصلة السير.

رأى محتويات سلّته، وقد أفرغت على الأرض، وأحد العناكب يتفحّصها، الشيء تلو الآخر، بقائمته الأمامية. التقط الأنبوب المعدني، ونظر إليه، ثم ألقى به بين ثمار الكمثرى الشوكية، والخبز المجفّف. شعر نيال، في الوقت ذاته، أن ذهن العنكبوت الضخم يسبر غور ذهنه، محاولاً أن يعرف ردّ فعله، على عملية تفتيش مقتنياته. لكنها كانت محاولة غير بارعة، مثل عمليّة فحص محتويات سلّته، التي بدت، وكأنها تنفذ بأصابع متبلّدة الحسّ.

تشتّت انتباهه، بعد ذلك، بينما راح العنكبوت الآخر، ينظر باهتمام إلى ملاءة حرير العناكب المطوية، التي استخدمها نيال، كفراش للنوم. وأخذ العنكبوت الضخم يتفحّصها بعناية، فأحسّ نيال بنبضات الاتصال، التي مرّت بينهما. لم تكن اللغة المتبادلة بينهما شفهية، بل تكوّنت من سلسلة مشاعر وحدوس. لم يتمكن أي منهما من القول: «إنني أتساءل، من أين جاءت هذه الملاءة؟». وانتقلت بينهما، نبضة متسائلة، ومعها صورة لعنكبوت الموت، الذي اختفى في الصحراء. بدا أن ذهنيهما، عملا بصورة منسّقة. فقد أدرك العنكبوتان، في وقت واحد، أن هذا الحرير قديم للغاية، ولا يمكن أن يكون له علاقة بمنطاد عنكبوت الموت، مما جعلهما يفقدان الاهتمام به، في الحال.

انتبه العنكبوتان، على نحو مفاجىء. لم يجد نيال سبباً واضحاً لهذا الانتباه المفاجىء. هرع العنكبوت الضخم، باتجاه شجرة زعرور قريبة. وعندما حدّق فيها، رأى

أن العناكب نسجت خيوطاً بين الفروع المنخفضة والجذع. وقفز جندب كبير، ليقع في قلب النسيج، وأخذ يتخبط بشكل مسعور، إلا أنه لم يحدث أيّ صوت، وذلك أمر غير مهمّ، على أية حال، حيث أن العناكب تعاني من الصمم، بيد أن ذبذبات ذعره، حقّقت الاتصال الفوري معها.

أصاب العنكبوت الضخم، الجندب بالشلل، من خلال طعنة سريعة بمخلبه، ثم خلصه من النسيج، بقضم الخيوط، وراح يلتهمه بنهم واضح.

انتهز نيال الفرصة، ليطرح السؤال الذي ظلّ يشغل باله:

ـ أين رونا ومارا؟

ـ لقد انطلقت بهما المناطيد.

ـ والدبور والنمال؟

أومأ ڤيج، باتجاه العناكب، وقال بجفاء: في معدتها.

أطاحت به على الأرض، ضربة عنيفة، وبعد لحظة، وقف أحد العناكب فوقه. وقد امتدّت مخالبه استعداداً لتوجيه ضربات أخرى. حينما حاول ڤيج الجلوس، دفعه للاستلقاء من جديد، بلطمة من قائمته الأمامية القوية. رقد بسلبّية، وهو ينظر إلى المخلب الممتدّ، الذي لوّح مهدّداً في وجهه. وشعر نيال، مرة أخرى، بقائد العناكب، يتغلغل داخل ذهنه، بعد أن انتهى من تناول وجبته. أراد أن يحكم على ردّ فعله إزاء التهديد الذي يتعرّض له أخوه. وأحسّ نيال بالسعادة، لأن القلق كان هو هاجسه الأكبر، وخمن أن أية دلالة على الغضب أو العدوان، سوف يكون نتيجتها العقاب الفوري.

عندما حقّق العنكبوت غرضه، بأن الكلام غير مسموح به، ابتعد، وترك ڤيج يجلس. ثم دفع نيال بقائمته، وأشار إلى محتويات السلّة، بدا واضحاً أنه أمر لإعادتها من جديد. شعر نيال مرة أخرى، وهو يعيد المحتويات، بأن القائد يسبر غوره. أدرك بارتياح، أنه استطاع أن يجعل ذهنه صافياً، وسلبياً، وأن العنكبوت قد بدا راضياً.

تحركوا من جديد، بعد خمس دقائق. بدت سيريز حزينة ومهمومة، فأدرك نيال أنها ماتزال في حالة صدمة بعد وفاة زوجها، وانفصالها عن طفلتيها. كما لاحظ أن إحساسها بالسعادة، بعد أن رأته من جديد، غطّى عليه شعور باليأس، بعد أن أصبح أسيراً. شعرت بالذنب، كما لو أنها مسؤولة عن الخطأ الذي وقع. اشتاق نيال إلى تبادل أطراف الحديث معها، ولكن لم يكن ذلك ممكناً، في ظل مراقبة العناكب المستمرة لهم.

تحركت العناكب بسرعة، وتوقّعت أن يجاريها الأسرى. وفهم نيال، الآن، سرّ

اجتيازها كل هذه المسافة. فالإنسان بالنسبة لها، يسير ببطء لا يحتمل، وبالتالي فقد أُجبر الأسرى على الهرولة، بينما مشت العناكب هوناً، وكأنها في نزهة خلوية. أعاقت السلّة نيال، في بداية الأمر، إذ راحت تهتزّ فوق ظهره. وعندما لاحظ القائد ذلك، أخذها منه، وأعطاها لأحد العناكب، فشعر بالارتياح لتخلّصه من هذا العبء.

أخذ نيال يستمتع برفاهية مشاهدة البيئة المحيطة به، وبالبرّية التي كانوا يمرّون بها الآن. لم يكن قد شاهد من قبل مكاناً بمثل هذا الاخضرار قطّ. لقد كان هذا السهل الساحلي الخصب، ذات يوم، أرضاً زراعية عامرة بالمحاصيل، وبالمزارع التي خرب معظمها، لكنها عادت الآن إلى حالتها الطبيعية، حيث توجد أنواع عديدة من الأشجار، بينما تنبت الحشائش في الأرض التي تطأها أقدامهم. وراحت الحشرات تئزّ حولهم - ذباب، دبابير ويعاسيب - وأخذت الجنادب تسقسق في جحورها. بدا المكان، بالنسبة لنيال، مثل جنة، إلا أن الأمر الذي يدعو للسخرية، أنه يراه لأول مرة، وهو أسير.

بعد ساعة، توقّفوا لقضاء الليل، حين بدأت الشمس تهبط، وراء الجبال. وشعر البشر بالاستنزاف، فألقوا بأنفسهم على الأرض، ووجوههم إلى السماء، وهم يلتقطون أنفاسهم. وأخذ أحد العناكب ينسج خيوطه، عند أقرب شجرة منخفضة، فيما راحت العناكب الأخرى تستدفىء تحت ضوء الشمس الغاربة. عندما هدأت حدّة ضربات قلب نيال، شعر بحالة من الاسترخاء. أحسّ، من حين إلى آخر، بذهن القائد يسبر غور ذهنه، لكنها كانت مسألة وتيرية، شعر فيها بعدم الاهتمام. تمازج مع أذهان العناكب، وهو في حالة تشبه الحلم. كانت العملية بمثابة تنصّت على أحاديثها، رغم إدراكه بأنها يمكن أن تكتشف ذلك. بدا أن الجوع قد استبدّ، في تلك اللحظة، بقائدها، وعرف الآن أن العناكب، لا تأكل سوى الطعام الحيّ، وبالتالي فإنها لا تحمل معها أية مؤن عندما تسافر. لم يكن الأمر يعني أنها تفضّل مذاق اللحم الطازج، ولكن كان الأمر متعلقاً بمسألة قوّة الحياة ذاتها - التي استمتعت بها واستوعبتها.

كما اتضح لنيال، أن هذه الكائنات تكاد تستعبدها غرائزها، بالمقارنة مع الإنسان. فعلى مدار ملايين السنين، لم تكن سوى آلات مهمتها اصطياد الطعام، تتركّز حياتها حول اقتناص فريستها، وحقنها بالسمّ، وليس لها أيّ اهتمام آخر في الحياة. وقد راح يستمتع بالبيئة المحيطة، ويفكر في الأماكن القصيّة، ويُعمل خياله. أما العناكب الذئبية فلم تبد اهتماماً بالبيئة المحيطة بها، سوى أنها يمكن أن تكون مصدراً للطعام، وكانت تفتقر لتلك الأمور التي يمكن تصنيفها تحت بند الخيال.

كان الطعام، لحسن الحظ، يحيطهم من كل جانب. وقبل أن يتلاشى آخر ضوء،

سقطت في النسيج، ستّ ذبابات، ودبّوران، وفراشة، وأصيبت جميعها بالشلل، وتم تسليمها للعناكب حسب ترتيبها القيادي. غمر الرضا التام أذهانها، وهي تتناول الفرائس الحية. أدرك نيال بذعر، أن جزءاً من عدائها للبشر، يرجع إلى أنها تعتبرهم مصدراً محتملاً للطعام. وحينما يستبدّ بها الجوع، تشعر بسخافة فكرة اصطحابها لهؤلاء الأسرى، بدلاً من التهامهم. ولكن يختفي مثل هذا الاستفزاز، بمجرّد أن تشبع شهيّتها. لم تحاول العناكب منع الأسرى من جلب الفاكهة من فوق الشجيرات، وراقبت بتسامح، نيال وهو يتسلّق شجرة جوز هند، ويلقي بالثمار الخضراء إلى ڤيج. وجدوا في الحليب، الذي يميل قليلاً إلى الطعم القابض، شراباً لذيذاً منعشاً، ومثالياً، مع لحم القوارض المجفّفة والخبز. ارتفعت معنوياتهم، بعد أن تناولوا وجبة دسمة، وبعد أن خيّم جو غريب من التسامح المتبادل بينهم وبين العناكب. وأدرك نيال أن هذه الكائنات القوية الهائلة، تستعبدها عناكب الموت، وأنها تكنّ احتراماً لسادتها، لكنه احترام يشوبه الخوف والاستياء. فقد كانت كارهة لإطاعة الأوامر، وبدت أنها تفضل أن تحصل على حريتها، حتى تتمدّد في الشمس، وتصطاد الحشرات، بل إن إفراز النسيج، لم يكن عملاً طبيعياً بالنسبة لها، إلا أنها تقوم به لأنه أسهل طريقة لاصطياد الفرائس. لكنها تميل بصورة طبيعية إلى اصطياد فرائسها بالانقضاض عليها بسرعة وقوة، فالصيد يحقّق لها أكبر ارتياح.

شعر بتعب شديد، ونام تلك الليلة، بدون غطاء، فوق فراش مؤقت من الحشائش وأوراق الشجر. حينما فتح عينيه بعد ذلك، كان الفجر قد بزغ، ورأى أحد العناكب، وهو يلتهم خنفساء طائرة وقعت في خيوط النسيج. أما بقية العناكب، فقد غلبها النعاس تحت أشعة الشمس. وهذه العناكب الصائدة، بخلاف عناكب الموت، لا تحب ساعات الظلام، وتشعر بارتياح عندما يعود ضوء النهار. تذكّر النمال، وهو يراقب أذهانها الكسولة، بطيئة الحركة. وجعلته هذه القدرة، على فهم ما يدور في أذهان تلك العناكب التي تأسره، يشعر بانفعال غريب. فطوال حياته، ينتابه الرعب من العناكب، أما الآن، فإن حدسا عميقاً أوحى له بأن هذا الانتصار على الخوف ما هو إلا بداية لفتح أكبر.

تناولوا إفطارهم، وهو عبارة عن فاكهة ولحم مجفّف، مع حليب جوز الهند الأخضر. كانت العناكب قد تناولت وجبات دسمة في ذلك الوقت، حيث تساقط المزيد من الحشرات الطائرة في النسيج، عندما ارتفعت الشمس. ولاحظ نيال، حينما اقترب من النسيج، أن رائحته طيبة، فعرف سبب انجذاب الحشرات إليه.

همس ڤيج قائلاً: «إنني مستغرب، فيم انتظارنا؟

قال نيال: «إنها تنتظر. . » وتردّد، ولم يتمكن من استكمال الجملة.

ـ أعرف ذلك، ولكن لِم؟
ـ تنتظر. . . قدوم أحد.
تطلع ڤيج وسيريز إليه، بفضول.
ـ وكيف عرفت ذلك؟

هزّ نيال كتفيه ورأسه. لم يشأ أن يوضّح هذا الأمر أمام العناكب.

مضى نصف ساعة، وازدادت حرارة الشمس، لكن نسيماً رقيقاً هبّ من الشمال. انتقلوا إلى ظلال شجرة زعرور، بينما استمرت العناكب مستلقية تحت أشعة الشمس، فقد بدا أن بمقدورها امتصاص درجة حرارة تصيب الإنسان بضربة شمس. استلقى أحدها على ظهره، وعرّض بطنه الرماديّ الناعم للدفء. لقد شعرت العناكب بالثقة في قدرتها على قراءة عقول البشر، وبالتالي لم تر ضرورة لاتخاذ أية احتياطات.

قرّر نيال إجراء تجربة، فقد كان شغوفاً بمعرفة إلى أي مدى ستستجيب العناكب، لإشارات الخطر الذهنيّ المحض. تخيّل أنه يأخذ الأنبوب المعدنيّ من السلّة، ويفتحه ليتحول إلى رمح ويدفعه في بطن العنكبوت، المعرض للشمس. ولم يبد العنكبوت أيّ ردّ فعل على ذلك. ثم تخيّل أنه يلتقط حجراً كبيراً مفلطحاً، ملقى بجواره، ويقذفه بكل قوته، على رأس العنكبوت المستلقي. فلم يجد أي ردّ فعل على ذلك أيضاً. وأدرك أن هذا يرجع إلى أنه يتلاعب بالفكرة فقط، مع عدم وجود نيّة لتطبيقها عملياً. وبالتالي، تعمّد أن يبذل جهداً قوياً في التخيل، وحاول أن يتصوّر كما لو أنه يجري نحو الحجر المفلطح، ويرفعه إلى ما فوق رأسه، ويقذف به بطن العنكبوت. في هذه المرة، بدا العنكبوت مضطرباً، وحرك رأسه، حتى تتمكّن عيونه من رؤية كل الاتجاهات، ثم نظر إلى بطنه، وتطلّع بريبة إلى البشر، فشعر نيال أن العملية التي أجراها ذهنه لسبر غوره، تعوزها البراعة. وقد جعل ذهنه يسترخي، ويتوقف عن النشاط، وتعمّد توليد موجة ذهنية طويلة. واسترخى العنكبوت مرة أخرى، وعاد ذهنه، بعد بضع ثوان، إلى حالة الهدوء، والإيقاع المتواتر والمتعة الجسدية. أحسّ قائد العناكب، فجأة، بالخطر، فقفز، وحدّق باتجاه الشمال. وأتيحت لنيال مرة أخرى فرصة مراقبة سرعة ردود أفعاله، فأصاخ السمع، لكنه لم يسمع شيئاً، سوى أصوات الصباح العادية. ومضت دقيقة أخرى، قبل أن يتمكّن من التقاط صوت شيء يتحرّك وسط الشجيرات. وقد أعجب، مرّة أخرى، بحدّة حواسّ العنكبوت. ودُهش، عندما رأى، بعد لحظة، إنساناً يخرج من بين الأشجار. فعرف من ردّ فعل العناكب، في اللحظة ذاتها، أنه الشخص الذي ينتظرونه.

بدا الرجل، الذي راح يتّجه بثقة نحوهم، فارهاً، يزيد طوله عن ستّ أقدام، يتمتّع

بكتفين قويتين، وصدر عريض، ويرتدي ثوباً منسوجاً، ويعقد شعره الأشقر الذي يصل إلى كتفيه، بحلية معدنية. وظنّ نيال، للحظة قصيرة، أنه يشبه هامنا، ولكنه عندما اقترب، أدرك أنه غريب.

توقّف الرجل، على بعد عشر أقدام منهم، وركع على ركبة واحدة، وانحنى باحترام للعناكب. أرسل القائد نبضة تعارف فظّة، تضمّنت شعوراً بنفاد الصبر، وكأنه يقول له: «أين كنت؟». وعكس أسلوب الرجل، خنوعاً تاماً. وبثّ العنكبوت أمراً ذهنياً وكأنه يقول: «ليكن. فلنمضِ!»، فأحنى الرجل رأسه، من جديد.

توقع نيال أن يحيّيهم القادم الجديد، أو أن يبادلهم نظرة تعاطف، على الأقل، لكنه تجاهلهم. والتقط سلّة نيال، استجابة لإيماءة من القائد، وعلّقها على ظهره، ثم وقف هناك، في انتظار صدور الأمر التالي. تفحّص نيال وجهه باهتمام. كانت عيناه زرقاوي اللون تتسمان بالبرود، وثمة ما يوحي بالوهن في شفتيه المتهدلتين، وذقنه التي لا تشي بالصرامة. وقد تحرّك في خطوات ثابتة، فظنّ، للوهلة الأولى، أن ذلك ثقة بالنفس، لكنه أدرك بعد ذلك، أنها لامبالاة حيوان مدرّب تدريباً جيداً.

عندما نهضت سيريز، واستخدمت جزءاً من الحبل المجدول من الحشائش، لعقد شعرها الطويل، نظر إليها الرجل، باهتمام خاطف، سرعان ما انتهى في أقل من جزء من الثانية، ثم ألقى نظرة على العناكب، بانتظار أوامرها. بدا واضحاً، أنه لم يشعر بإحساس الرفقة في الأسر.

أصدر العنكبوت الضخم، أوامره بالسير، فاتجه الرجل صوب الشمال، وهو يخطو بخطى واسعةٍ، وسريعة. سار نيال وسيريز وڤيج خلفه، ولكنهم اضطروا للهرولة، لمحاولة مسايرة خطى القادم الجديد. أما العناكب، فقد سارت في المؤخرة، وهي تتهادى. أحس نيال أنها تشعر بالارتياح لأن الجزء الأساسي من رحلتها قد انتهى.

حاول نيال أن يسبر غور ذهن الرجل الذي يتقدمهم، بعد أن تأكد من أن العناكب مشغولة بإجراء اتصالات فيما بينها. وجد أنها عملية محبطة، فقد بدا ذهنه مفرغاً، ولا مبالياً، مثل ذهن عنكبوت صحراوي رمادي. ولكنه لم يدرك على الاطلاق أن نيال يحاول سبر أفكاره ومشاعره، وذلك على عكس العناكب الصحراوية. وهذا لا يرجع إلى يقظة ذهنه، ولكن إلى توجّه اهتمامه للعالم الخارجي فقط، وعدم اهتمامه بأي شيء عداه.

كانت الرحلة أقل استنزافاً من اليوم السابق، حيث حدّد القادم الجديد معدل السير. ستراحوا وجددوا نشاطهم بعد أن ناموا جيداً خلال الليل، كما هبّ النسيم عليلاً. أحسّ

نيال بالنشوة، وهو يشتم رائحة النباتات التي تعرضت لدفء الشمس. ثم تناهى إلى مسامعه صوت جديد عليه، صيحات النورس، فتجمد الدم في عروقه من فرط الانفعال. عندما وصلوا، بعد عشر دقائق، إلى قمة تل صغير، ونظروا إلى البحر، انتابته نوبة من الانشراح، ولدّت لديه رغبة في القهقهة. بدا البحر مختلفاً تماماً عن بحيرة الملح. فقد كانت المياه زرقاء، وأكثر عمقاً، وامتدت على مدى الشوف. تحطّمت الأمواج على الشاطىء، حيث انتظرتهم ثلاثة مراكب صغيرة، وتطاير رذاذ الماء على وجهه، مثل المطر. بدا هذا الامتداد اللانهائي للمياه المالحة، التي كساها الزبد الأبيض، أروع شيء رآه حتى الآن.

كان هناك أناس مستلقون فوق الرمال، وعندما نادى عليهم الرجل الضخم هبّوا واقفين متخذين وضع الانتباه. ولما رأوا العناكب، جثوا جميعاً على ركبة واحدة، وقدموا فروض الطاعة. أصدر الرجل الضخم أمراً، بصوت عالٍ فوقفوا متخذين وضع الانتباه مرة أخرى. دُهش نيال، عندما رأى نسوة بينهم؛ قويات، ذوات نهود مكتنزة، وشعور أطول من شعر أمه. وقفن محدقات أمامهن، وقد وضعن أذرعهن بجانبهن، بينما راح الهواء يطير شعورهن، حول وجوههن. وحينما وقف نيال وڤيج في مواجهتهن مباشرة، لم يطرف لهن جفن. رأى نيال، الذي لم يكن معتاداً على الاطلاق، على الطاعة العسكرية، في ذلك، أمراً غريباً، ومثيراً للانزعاج، فهؤلاء البشر، يحاولون التظاهر بأنهم أشجار أو أحجار.

رأى أن الرجال، أقوياء البنية، مثل دليلهم، وجميعهم يتمتع بعضلات مفتولة. إلا أن وجوههم تفتقر للشخصية، رغم وسامة قسماتها. أما النساء - وكن ثلاثاً - فبدين جميلات، ذوات أجسام نحيلة، قوية، حسنة الشكل. لم يرتدين، مثل الرجال، شيئاً بالنصف الأعلى من أجسامهن، وبدت نهودهن العارية، وقد لوحتها الشمس. تفحّصهن ڤيج بانشراح، غير مصدق لما يراه، مثلما جائع أمام وجبة دسمة.

أصدر الرجل الكبير أمراً، بلغة وجدها نيال غير مفهومة، فتدافع الرجال والنساء، وراحوا يدفعون القوارب إلى المياه. بلغ طول كل مركب، نحو ثلاثين قدماً، بينما كانت المقدمة والمؤخرة على شكل منحنٍ. عندما صعد الجميع، وصلت العناكب إلى الشاطىء، وتوقّفت على بعد عشرة أقدام من الأمواج المتلاطمة. طوت العناكب قوائمها تحتها، واقترب رجلان من كل عنكبوت، وحملوها إلى القوارب. ثم صعدت النساء، كل امرأة على قارب. كما صدرت الأوامر إلى نيال وڤيج وسيريز بالانفصال كل على قارب. وجد نيال نفسه فوق قارب مع العنكبوت الضخم وأحد اتباعه.

كانت هذه القوارب الطويلة، الرشيقة، من النوع الذي حمل الفايكنج، إلى البحار الشمالية، فقد صنعت من ألواح خشبية متداخلة. والقارب عريض من الوسط، وضيق عند المؤخرة، مما يعطيه شكلاً مماثلاً للأوزة. أما في وسط القارب، فتوجد خيمة أقام فيها العنكبوت الضخم، وأقام تابعه، فيما يشبه سلة تحميها المقدمة. أحس نيال أن كليهما يشعر بالقلق، فالابحار يتنافى مع أقوى غرائزها.

افتتن نيال بكل شيء يتعلق بالقوارب الطويلة، أما الرجال الذين أبحروا على متنها، فقد شعروا بالضيق والانزعاج، لكنه رآها معجزات لحرفية غامضة. لم يكن لها أسطح أو قمرات يجلس بداخلها الإنسان، باستثناء الخيمة المصنوعة من القماش. امتدت المقاعد الخشبية بطول الجانبين، وفتحت بكل جانب سبع فجوات للمجاذيف. أما حيّز الفراغ بالوسط، فقد تم حجزه للصاري، الذي تمدد في القاع، وللبراميل والحبال. طُلب من نيال الجلوس فوق مقعد في المؤخرة، وأعيدت إليه صرته. جلس هناك، محاولاً استيعاب كل ما يدور حوله. اقتعد الرجال، المقاعد الطويلة في مواجهته، ورفعوا مجاذيفهم. وقفت المرأة فوق منصة خشبية منخفضة، ذات سياج يسندها، في مواجهة البحارة. دفع رجل القارب بعمود طويل، إلى أن ابتعد نحو عشرة أمتار عن الشاطىء، وعن القاربين الآخرين. مال الرجال للأمام، بعد أن تلقوا أمراً من المرأة، وأمسكوا بالمجاذيف. راحت المرأة تنشد، وتضبط الايقاع مصفقة، فجذف البحارة في تناغم مع الانشاد. أحس نيال بالابتهاج، وهو يراهم يتقدمون وسط الأمواج، فكاد يصرخ من النشوة.

لم يكن كل الرجال يجذفون، فقد جلس نصفهم على مقاعد بين المجاذيف، أو راحوا يتمشون في القارب، ويتحدثون مع بعضهم البعض. وقف نيال أيضاً، وألقى نظرة من فوق الحافة، ولم يعترض أحد. كان مشهد الأمواج، وهي تتكسر عند مقدمة القارب، في غاية الروعة.

أخذ ينصت باهتمام إلى الرجال، فأدرك الآن، أنهم لا يتحدثون لغة غريبة، بل مماثلة لتلك التي يتحدث بها، لكنهم ينطقونها بلهجة غريبة، مما جعله ينصت بتركيز أكبر، حتى يفهم ما يقولون. وعندما أصدرت المرأة أوامرها، بصوت عالٍ، بدت لغتها، هي الأخرى، غير مفهومة.

أدرك أنها، أهم شخص على متن القارب. وشعر أن كل الرجال يبجلونها، بل يعبدونها. وهذا أمر مفهوم، فهي هيفاء، شقراء، مستوية الأسنان، لكنه لاحظ، أن هذا التبجيل، ليس مرده جمالها. فعندما أشارت إلى رجل، بعد نصف ساعة، وأمرته بأن يأخذ مكانها على المنصة، جثا على ركبة واحدة، ولثم يدها، ثم ظل على هذا الوضع، إلى أن

نزلت. ولما شعرت بالبرد، ناولها أحدهم رداء مصنوعاً من جلد حيوان، فغطت به كتفيها. اتجهت، بعد ذلك، إلى نيال، الذي جلس منكمشاً محاولاً تدفئة نفسه، فنظرت إليه بفضول امتزج بالازدراء. وجد من السهل قراءة عقلها، فقد قالت - دون أن تتكلم - «هذا الفتى لا جدوى منه». جعله شيء ما في نظرة الازدراء التي ندّت عنها، يتذكر الأميرة ميرلو، والاهانة التي يجفل، كلما تذكرها.

استكانت العناكب، وأصبحت في حالة بائسة من السلبية، وبدا أن المرأة تعرف هذا. فعلى متن هذا القارب، تكون هي، القائد الأعلى، وليس العناكب. لما حوّل نيال انتباهه إلى العنكبوت الضخم، القابع في خيمته المصنوعة من القماش، دُهش لشدة خوفه وقلقه؛ فهو يبحر على متن قارب، ليس بمقدوره السيطرة عليه، وتصيبه كل حركة، أو هزّة منه بالغثيان. كما لم يبد أي اهتمام بشيء، عدا إحساسه بالدوار، ورغبته في العودة إلى اليابسة.

تولى الفريق المناوب من البحارة التجذيف، بعد مرور ساعتين على الإبحار، وتم ذلك بأن جلس كل رجل بجوار مجذاف، وأفسح المجال للآخر ليبتعد، حتى لا تضيع ضربة مجذاف واحدة. ألقى الرجال، الذين أنهوا مهمتهم، بأنفسهم على أرضية القارب، وراحوا ينعمون بحالة من الاسترخاء.

سكنت الرياح، عند الظهر، ثم غيرت اتجاهها إلى الجنوب الشرقي. أصدرت المرأة أمراً، فنهض البحارة، الذين استلقوا في الشمس، وقاموا برفع الصاري، ووضعوه في وعاء مصنوع من جذع شجرة مجوف، ثم رفعوا شراعاً مثلثاً. تشوق نيال لمعرفة الطريقة، التي يمكن أن يواصل بها القارب إبحاره نحو الشمال، رغم أن الريح تهب من الجنوب الشرقي. فتنه الدقل، الذي يستخدم لاطالة قاعدة الشراع، ويسمح للشراع بالدوران، ويمسك بالريح عند الزاوية الصحيحة. ساعدته قدرته على قراءة أذهان البحارة، في أن يفهم ما يفعلونه بالتحديد.

راح القارب يمخر عباب الماء معتمداً على الشراع، مما أعطى البحارة فرصة للاسترخاء. تم تقديم الطعام، وحصل نيال على طبق. كان جوعه شديداً، وبدا الطعام شهياً، حيث تكوّن من خبز أبيض رقيق، وجوز، ومشروب أبيض دسم، لم يتذوق مثله من قبل على الاطلاق، لم يكن، في الواقع، سوى حليب أبقار. جاء رجل، وجلس إلى جانبه، وحاول أن يتبادل معه أطراف الحديث، لكنه وجد صعوبة كبيرة في فهم لهجته. وعندما حاول أن يتغلغل لداخل ذهنه ليفهمه، لم يخرج بشيء. فقد بدا ذهنه أجوف، لا

يحوي سوى استجابات بحتة، لأحاسيسه الفعلية. تخلى الرجل عن محاولته. وابتعد عنه، ليتحدث إلى شخص آخر. ارتاح نيال لأنه تُرك بمفرده، فقد بدا غريباً أن تحوي رؤوس هؤلاء الأشخاص، ذوي الأجسام الهائلة، عقولاً ضعيفة جوفاء.

جعله الطعام يشعر بالنعاس، فاستلقى على أرضية القارب، وأراح رأسه على صرته. ولكن بعد أن بدأ نومه هادئاً ومريحاً، هاجمه كابوس، رأى نفسه فيه وهو يختنق، ويشعر بالغثيان. عندما عاد إلى وعيه، أدرك أن عقله استشعر المحنة الذهنية الرهيبة التي يعاني منها العنكبوتان. ويرجع السبب في ذلك إلى القارب، الذي أخذ يتأرجح بعنف، فقد اشتد عصف الرياح، مما أدى إلى قيام ثلاثة رجال بمحاولات للسيطرة على الشراع. تلبدت السماء بالغيوم، فوقف، وتطلع من فوق الحافة، ليرى القاربين الآخرين، على مرمى بصره، يبعدان عنهم نحو نصف ميل، وتدفعهما الرياح للأمام بسرعة كبيرة. اشتدت الرياح في تلك اللحظة، فانكسرت، فجأة، موجة فوق حافة القارب، فغطتهم جميعاً برذاذها. مع ذلك، لم يشعر البحارة بالقلق، فقد أبحروا في طقس أسوأ من هذا، وثقتهم مطلقة في قاربهم.

لما هددت الرياح بقلب القارب، أصدرت القائدة أوامرها، إلى الرجال، بطي الشراع. أخذ المجذفون أماكنهم، مرة أخرى، على المقاعد. راحت الأمطار، في تلك اللحظة، تهطل، لكن نيال استطاع بالكاد، أن يميزها عن الرذاذ المالح. انتابه إحساس هائل بالابتهاج، ببهجة ساكن صحراء، تمثل المياه بالنسبة له، بركة نادرة.

اندفعت موجة أخرى فوق الحافة، فقذفت ببعض المجذفين، بعيداً عن مقاعدهم. لكن لم يحدث شيء، فقد تولى آخرون، أماكنهم، في الحال. وواصلوا التجذيف، على نحو ايقاعي، بينما جعل الرذاذ، أجسامهم تلمع. أمسك آخرون، بأوعية خشبية، وبدأوا ينزحون الماء الذي ملأ القارب. أخذت مؤخرة القارب، تغطس في الماء، فتدفقت المياه على الخيمة القماشية، وبعد لحظة، انفصلت جوانبها من أماكنها، فخرج العنكبوت الضخم، الذي تحول فراؤه المخملي، إلى نسيج ناعم أملس، بفعل الماء الذي كساه. فبدا عليه البؤس والعجز. رأته المرأة، فدفعته في الحال إلى الخيمة، وأغلقت جوانبها. أما العنكبوت، الذي كان في المقدمة، فقد استلقى في قاع السلة، التي تدفقت المياه فيها، وطوى قوائمه بشدة تحته. لم تكن هناك دلالة على أنه مازال حياً، سوى حركة عيونه السوداء.

تطلع نيال، ليعرف ماذا حدث للقاربين الآخرين، فشاهد موجة عاتية، تندفع نحو قاربه، وأخفى رأسه بين يديه لمواجهتها. امتلأ القارب، في لحظة، بالماء، وكان على

وشك أن ينقلب رأساً على عقب، لكنه استقام، على نحو عجيب. أحس بشيء يلمس جسمه المثلج، فنظر إلى أسفل، ليجد قوائم العنكبوت، تلتف حول خصره، فقد دفعته المياه، خارج الخيمة إلى ظهر القارب. جن جنونه من الخوف، وشعر أنه قد يضربه بمخلبيه، إذا حاول التخلص من قبضته. لذلك، وقف متشبثاً بحافة القارب، بينما وصلت المياه إلى خصره. خفف العنكبوت، فجأة، قبضته، ودفعته المياه إلى الممشى بين المقاعد، عندما غمرت الأمواج القارب.

دفعت الغريزة نيال، للاستجابة لبؤس العنكبوت. لم يشعر بأي قلق إزاء المياه، التي راحت تتدافع حوله، وتهدد بإغراقه. فقد رأى أن القارب، واجه من قبل موجة عاتية، وأدرك أنه يطفو مثل قطعة فلين. بل حتى إذا امتلأ بالماء، فإنه لن يغرق، إذ سيحميه القاع المسطح العريض، والعارضة العميقة، من الانقلاب. رأى أن كل ما عليه أن يفعله، هو التأكد من أن المياه لن تجرفه. لما اصطدمت عقدة حبل، بقدميه، انتهز الفرصة، وربط أحد الطرفين حول خصره، والآخر في الأداة التي ترفع المرساة.

دفعت المياه العنكبوت باتجاهه، مرة أخرى، وبدا من الممكن أن تجرفه معها، لخارج القارب، فأمسكه نيال من قوائمه، وجره إليه. فهم العنكبوت ذلك على انه إيماءة مساعدة، وحاول أن يلف قوائمه الأخرى حوله. ونظراً لأن العنكبوت، أضخم منه، فقد كان من المستحيل أن يتحقق ذلك، وأدت موجة جديدة، إلى دفعه بعيداً، مرة أخرى. كانت المشكلة أن جسم العنكبوت، قابل للطفو بشكل أكبر من جسم نيال، ولذلك، فأي اندفاع للمياه، يهدد بدفعه بطول القارب. شعر نيال بالشفقة عليه، خاصة وأن مخالبه، التي توجد عند أطراف قوائمه، غير ملائمة للتشبث بحافة القارب، وذلك بخلاف أيدي البشر.

أصبح واضحاً أمام نيال، أن العنكبوت بحاجة إلى أي شيء، يستطيع التعلق به. أدرك أن أكثر الأماكن أماناً على متن القارب، هي السلة، التي ظلت في موضعها داخل الفتحة الواسعة للمقدمة. ورغم أن هذه الفتحة تمتلىء بالماء، عندما تنكسر موجة فوق القارب، فإنها توفر قدراً من الأمان، على الأقل. تقدم للأمام، مترنحاً، حيث عرقل العنكبوت تقدمه، بعد أن ظلت مخالبه ممدودة، كرد فعل غريزي للرعب، ثم تشبث بالمقدمة، التي ارتفعت فوقه، مثلما ثعبان يستعد للدغ فريسته. توازن القارب، للحظات قليلة، بعد أن استقر في قاع موجة. وحاول نيال، الذي تعمد استخدام عقله، أن يجعل العنكبوت، يفهم أنه يتعين عليه العودة إلى مكانه في المقدمة، والتشبث بجوانب السلة المنسوجة، التي تسمح نتوءاتها، المماثلة لنافذة متصالبة الشكل، لمخالبه بأن تتعلق بها.

أجبرته موجة أخرى على فك قبضته، فجر نفسه، مثل قطة ضخمة، وعاد إلى السلة. كادت موجة جديدة، اندفعت بعد لحظة، أن تقذف بنيال فوق السلة، وامتلأت المقدمة بالماء، ولكن عندما تراجعت الموجة، كان العنكبوت مايزال متشبثاً بجوانب السلة.

ربتت القائدة على كتفه، وأعطته دلواً خشبياً، وطلبت منه، بلغة الإشارة، أن ينزح الماء. فأطاعها، لكنه وجد أنه من الصعب عليه، تأدية هذا العمل، فقد كان أقصر، بقدم على الأقل من معظم البحارة، ولذلك اضطر لرفع الدلو بأكمله فوق رأسه، مما جعل معظم الماء ينسكب فوقه، فجلس وتشبث بالمقعد.

سمع صوت تمزّق، ووجد نفسه محصوراً بين قطعة قماش مبللة، فقد قطعت الرياح حبلين من الحبال التي تُشد بها الخيمة، التي تمزقت، وأصبحت ترفرف مثل شراع هائل. اندفع العنكبوت للداخل، مثل حجر قُذف من مقلاع، واصطدم ببحار، فألقى به من مقعده. وجد نيال نفسه، يجلس على المقعد ذاته، مع العنكبوت الذي راح يتخبط. حاول أن يخلص نفسه من هذه المحنة، ولكن القارب مال، في تلك اللحظة، على جانبه. لطمه قماش الخيمة بعنف على كتفه، فاندفع نحو حافة القارب.

حدث كل هذا بسرعة، فلم تتوفر له فرصة الإحساس بالذعر. حملته الموجة للخلف، وأغرقته إلى عمق ستة أقدام، ثم رفعته، وهو يلهث، إلى السطح مرة أخرى. رأى، عندما اتضحت الرؤية أمامه، القارب يستقيم على الماء. اهتز الحبل حول خصره، وكاد أن يرفعه لخارج الماء. أمسك به بيديه، بعد أن هدأ الموج، في تلك اللحظة، محاولاً رفع نفسه باتجاه القارب. شعر، عندئذ، بذراع فوق ظهره، تحاول شده إلى أسفل، فأصيب في الحال، بذعر أعمى هائل. حاولت قائمة أمامية مُشعرة أن تلفّ نفسها حول رقبته. رفس بقدميه، تلقائياً، محاولاً تخليص نفسه. وقام البحر بالباقي، فانهارت قبضة العنكبوت، وسحبه الماء بعيداً عنه.

عندما حدث هذا، حدق نيال، للحظة، في العيون السوداء، الخالية من أي تعبير، فأدرك إحساسه باليأس والبؤس، وبدا واضحاً أنه يطلب مساعدته. اختفى خوفه، فجأة، فالعنكبوت يطلب المساعدة، مدركاً أن نيال يمتلك مفتاح حياته أو موته. كان ردّ فعل نيال الغريزي، هو أن يخلص قبضته من الحبل، ويصعد نحوه. توقف العنكبوت، عندئذ، عن التخبط. ووصل نيال إليه، بعد لحظة، وتعين عليه أن يكبت ذعره، عندما لفّ قوائمه حوله. ثم تذكر الحبل، فجذبه بيديه، وحاول رفع نفسه نحو القارب. غمرته موجة، لكنه استمر في التعلق بالحبل. امتدت إليه ذراعان، فقد كان العنكبوت، مايزال متشبثاً، في الوقت الذي خرجا معاً من الماء. أمسكت أيد به، من تحت الإبطين، وسحبته فوق

الحافة. سقط البحارة، الذين رفعوه، وسقط، هو أيضاً، فوقهم. كانت قوائم العنكبوت، ماتزال ملفوفة حوله. شعر بإحداها تطبق عليه، وهي تتخبط في المقعد.

أحس أن رئتيه امتلأتا بالماء، فركع ورأسه فوق المقعد، وأخذ يسعل، ويتقيأ. شعر، على الرغم من تمايل القارب، الأمر الذي جعل الماء يرتفع إلى خصره، بارتياح وأمان عميقين، لأنه استطاع التعلق، مرة أخرى، بشيء صلب.

ظل متشبثاً بالمقعد، بعد أن هدأت العاصفة بنصف ساعة. حدث هذا على نحو مفاجيء تماماً، فمنذ لحظة، كان القارب يتمايل بشدة، أما الآن فقد سكن كل شيء. رفع ناظريه، فرأى السماء وقد صفت، فوق رأسه. تحولت الرياح إلى مجرد نسيم، وتوقفت المياه، في قاع القارب، عن الارتفاع والتدفق، وسكنت فجأة مثل مياه بركة. شعر بدفء أشعة الشمس، فوق ظهره العاري، فسرى في كيانه إحساس بالبهجة، لم يشعر به من قبل على الاطلاق.

كانت السفينة في حالة من الفوضى. بدا كل شيء طافياً، الحبال، البراميل والمجاذيف. وقف، وحدق من فوق حافة القارب، فلم ير أي أثر للقاربين الآخرين. خاض في الماء، ليصل إلى الحافة الأخرى، ونظر فلم ير شيئاً. ولكنه لمح عند الأفق الشمالي أرضاً.

ارتفع الشراع، وتم ربط ذراع الدفة في مكانه. ثم قام الجميع بنزح المياه من القارب، فلم يتبق، بعد نصف ساعة، سوى شريط ضيق من المياه في الوسط. قدم نيال يد المساعدة، مستخدماً مغرفة خشبية، مما جعله يشعر بسعادة غامرة، وهو يعمل، جنباً إلى جنب، مع البحارة مفتولي العضلات، مشاركاً بدور صغير، في التغلب على حالة الفوضى، التي خلفتها العاصفة. زال الخطر الآن، واسترخى الجميع، وعلت الابتسامات الوجوه، كما شعر نيال، بالسرور، لأنهم ما عادوا يتجاهلونه، بل راحوا يعاملونه كواحد منهم.

سلمه أحد البحارة صرّته، فوجد أن كل الطعام بداخلها، قد تعرض للتلف، باستثناء الكمثرى الشوكية. لكنه عثر على الأنبوب المعدني الثقيل بداخلها، فقد أدى ثقله، إلى الحيلولة دون انجراف الصرة.

بدت العاصفة الآن، مثل حلم. فقد أشرقت السماء، واشتدت أشعة الشمس، ولم يعد هناك أي أثر للرطوبة، على متن القارب. تمدد العنكبوتان، وهما يستوعبان حر الشمس، واحتل كل واحد منهما طرف السفينة. فقد العنكبوت، الذي أنقذه نيال، مخلبه

الأمامي، عندما اصطدما بالمقعد، وجرى خيط من الدم من قائمته المصابة. لاحظ نيال أن البحارة، اهتموا بعدم الاقتراب كثيراً منه، ليس من منطلق الخوف، بل من منطلق الاحترام والقلق عليه. فقد بدا أنهم يكنّون للعناكب، احتراماً دينياً.

ربتت القائدة على كتف نيال، عندما كان يحدق، وهو يقف فوق المقعد، نحو اليابسة التي اقتربوا منها. قدمت إليه، بكلتا يديها، قدحاً معدنياً ممتلئاً بسائل ذهبي، تلألأ في الشمس. قبله بابتسامة امتنان ـ فقد شعر بالعطش بعد أن تعرض لمياه البحر ـ ورفعه إلى شفتيه، بكلتا يديه. كان شراباً طيباً، معتقاً، يماثل ذلك الذي خمره أبوه، لكنه أقوى وأطيب. أخذت المرأة، القدح منه، ثم نظرت في عينيه، وأخذت رشفة، من حافة الكأس الأخرى. لاحظ نيال، فجأة، أن البحارة توقفوا عن العمل، وتطلعوا إليه. أدرك أن الشراب، لا يعني مجرد إيماءة صداقة، لكنه يمثل نوعاً من الاحتفال. ولكن لِم هذا؟ خمن الاجابة، عندما تجاوز بنظره، المرأة إلى العنكبوت الضخم، الذي تمدد باسطاً قوائمه، في الشمس، وقد التوت إحداها، بزاوية غير طبيعية.

ابتسمت له بعد أن احتست ما في القدح، ثم قلبته، وجعلت آخر قطرة منه تسقط على أرضية القارب. ابتعدت، واستأنف البحارة عملهم.

أدار الشراب رأسه قليلاً، وشعر بالدفء، يسري في عروقه. اختفى ضجره، وأدرك، في اللحظة ذاتها، أن عقله راح يتغلغل في عقول البحارة، فشعر بحبورهم، لأن العاصفة انتهت، والقارب يقترب من اليابسة. لكن ما أدهشه، أنه لم يتمكن من معرفة أفكارهم كأفراد. وعندما حاول أن يتعرف على عقل كل بحار على حدة، اكتشف أنهم متشابهون، فتذكر تغلغله في أذهان النمال، التي بدت متماثلة.

كانت القائدة، هي الاستثناء الوحيد. فقد تمتعت بثقة في النفس، وشخصية متفردة، إذ تعيّن عليها أن تتخذ القرارات وتتحمل المسؤوليات. مع ذلك، لم تكن شخصيتها، مثل تلك التي تعود عليها مع أمه وانجيلد، كما لا تماثل على الاطلاق ثقة ميرلو في نفسها. بدا الأمر، كما لو أن جزءاً من عقلها، بلغ درجة من الشفافية، مثل مياه صافية، لا يعكرها أي انعكاس، أو إدراك للذات.

هتف أحد البحارة، وأشار بيده، من فوق ميمنة القارب. نهض نيال واقفاً، وحدق عبر مياه البحر الهادىء، فرأى في الأفق الأزرق، القاربين الآخرين. كان هذا هو كل ما يحتاج إليه، لتكتمل سعادته.

- ٦ -

بات الشاطىء قريباً الآن، ورأى نيال بوضوح، الساحل الصخري، بأطرافه المتموجة، وصخوره الجرانيتية المدببة المتآكلة، بفعل المياه، والحقول الخضراء، التي تنحدر باتجاه البحر. أصبحت الرياح، مثل نسيم عليل، دفعتهم بهدوء نحو اليابسة، كما لو أنها تعوضهم عن عصفها السابق. شاهد نيال، عندما دنوا، أشجاراً، ونباتات الوزال الصفراء، بينما راحت نحلة كبيرة تطنّ حول أذنه. لكنه لم ير أي دلالة على وجود بشر، أو مستوطنات بشرية.

أخذ البحارة يجذفون، والقائدة تضبط الايقاع مصفقة. سار القارب بمحاذاة الساحل، متجهاً نحو الغرب، لمسافة قد تصل إلى ميلين. لمح نيال، عندما استداروا، أول دليل على وجود أشياء صنعتها يد الإنسان ـ ميناء من الحجر الأبيض، عكس أشعة الشمس. سكن النسيم الآن، وزادت حرارة الجو. تجاوزوا جزيرة صغيرة، توجد فوقها، أطلال برج، انتشر حول قاعدته، معظم أحجاره الجرانيتية المنحوتة، المتهاوية.

كان الميناء في حد ذاته، أكثر المشاهد التي أثارت شجونه، منذ أن رأى القلعة فوق الهضبة؛ فقد نحت جداره الهائل، بسمك يصل إلى عشرين قدماً، داخل البحر، بينما أقيم حاجز من كتل الأحجار الضخمة، لوقايته، وارتفعت آلة خشبية غريبة في الهواء، عند نهاية الرصيف، ورسا أسطول من القوارب داخل الميناء. شعر، مرة أخرى، بانفعال غريب، وهو يفكر في أن بشراً مثله، شيدوا ذات يوم هذا الصرح الهائل. اكتشف، عندما أنعم النظر، أن هذا الميناء، قد شيد منذ أمد طويل، وأنه قد تحول إلى ما يشبه الأنقاض.

عندما دخل البحارة حاجز الميناء، توقفوا عن دفع القارب، الذي واصل تقدمه وسط

المياه الراكدة نتيجة لقوة الدفع السابقة. ألقى رجل، يقف على الرصيف، بأغلظ حبلين رآهما نيال في حياته، فأحكما حركة المقدمة والمؤخرة. تم انزال لوح خشبي، عبرت عليه، أولاً، القائدة التي حنت رأسها، وقد تبعها العنكبوتان.

أبدى العمال فوق الرصيف، امارات التبجيل ذاتها، وظلوا على هذا الوضع، حتى مر العنكبوتان.

لمس بحار، نيال من كوعه، وأشار إلى أن دوره قد أتى. ظن أن أحداً سيرافقه باعتباره أسيراً، لكنه دُهش عندما أدرك أنهم ينتظرون نزوله بمفرده، وأحس بالحيرة حينما وقف البحارة، في وضع الانتباه، وهو يمر. مدت القائدة يدها لمساعدته على النزول من فوق المعبر.

سألته، في أول حديث تتبادله معه: ما اسمك؟

- نيال.

- اسم محظوظ.

لم يستطع نيال فهم تعليقها، فقال: ولِم؟

- لقد حظيت بعطف العناكب، وليس هناك حظ أفضل من هذا.

تأبّطته، وتقدّمت به فوق الرصيف. استمر عمال الميناء في وضع الانتباه، وهما يمران. لاحظ أنهم أضخم وأقوى من البحارة، فلم يكن قد رأى من قبل، مثل تلك العضلات.

تساءل على استحياء: إلى أين سنمضي؟

تطلعت إليه عابسة، فظن أنها ستتجاهله. بيد أنها أقرت حقه في سؤالها.

- إلى سيد الميناء.

وأشارت إلى المبنى المربع ذي الأحجار الرمادية، عند طرف الرصيف، الذي بدا، مثل الرصيف نفسه، في حالة ترميم سيئة. قرعت القائدة الباب، وفي لحظة، فتحه أحد العناكب الذئبية، الذي تنحى جانباً حتى يسمح لهما بالدخول. مضى بضع دقائق، قبل أن تتعود عينا نيال على الظلام، بعد أن تعرضتا لوقدة ضوء النهار. وجد نفسه في حجرة رحبة، خالية، اشتم فيها رائحة الرطوبة والتحلل، حيث لم تتعرض الحجرة سوى لضوء قليل ينفذ من شقوق في السقف، فكاد يصطدم بالعنكبوت الذئبي الضخم.

تدلى نسيج العناكب من زوايا الحجرة، فكاد أن يقترب من رأسيهما، حيث وقفا.

تطلع إليهما مباشرة، من وسط هذا النسيج، عنكبوت موت أسود. كان أصغر من العناكب الذئبية، إلا أن جسمه الفاحم، اللامع، بدا أكثر ترهلاً من أجسامها. امتد الصف الوحيد للعيون السوداء حول رأسه، كعقد من الخرز. أضفت هذه العيون، مع المخالب السامة المطوية، على الوجه، التعبير المخيف والمبهم ذاته، الذي لاحظه على وجه العنكبوت الذي قتله.

انتاب نيال إحساس هائل بالخوف، لم يستطع السيطرة عليه، شعر به العنكبوت على الفور. أحس بإرادته تتغلغل داخله ـ ليس بالطريقة الخرقاء للعناكب الذئبية، ولكن بمهارة وحذق عكسا ذكاء حاداً. أصابته فكرة، طرأت على باله، بالرعب؛ فقد يتمكن العنكبوت من قراءة عقله، ويكتشف أنه قتل أحد عناكب الموت.

أوحت له استجابته الغريزية على سبر ذهنه، بمحاولة أن يكون سلبياً، وأن يصفي ذهنه من كل شيء. حاول عنكبوت الموت أن يتغلغل إلى داخل عقله، مثلما تغلغل هو إلى عقل عنكبوتة الخيمة. ونظراً لعدم جدوى المقاومة، فقد قلد الذبذبات الذهنية لعنكبوتة الخيمة، فأصبح مثلها، كما لو أنه حرباء تُغير لونها.

أدرك أن عنكبوت الموت أصيب بحيرة، من جراء ذلك؛ إذ تعرف إلى حد ما على الذبذبة، لكنه وجدها غريبة وغير مألوفة. بث ذهنه رسالة إلى ذهن العنكبوت الذئبي الضخم، كانت ذات نبضة واحدة كالإشارة، وبالتالي من السهل تفسيرها مثل تعبير الوجه. فقد قال له: «يبدو أنه أبله».

أما إشارة الإجابة، فجاءت على شكل إيماءة مترددة، تعني الموافقة وكأنه يقول «أخشى ذلك».

لو أن هذا الحديث المتبادل قد جرى بالكلمات، لكانت مشاعر نيال قد وشت به. فالعنكبوتان الذئبيان يعرفان حقيقة أمره. فقد اتصل ذهنه مباشرة، خلال أزمة العاصفة، بذهنيهما، بشكل واضح لا يدع مجالاً للشك. ولكن التبادل السريع للنبضات الذهنية، لم يترك له مجالاً للخوف، أو حتى للارتياح إلى أن العنكبوت الذئبي لن يشي به.

حول عنكبوت الموت انتباهه إلى القائدة، وأصدرت إرادته أمراً صارماً إليها: «خذيه بعيداً!». أصبح، بعد لحظة، في الخارج، تحت ضوء الشمس الساطع، غير مصدق أنه تجاوز مرحلة الخطر.

لاحظت أنه يرتعش، فقالت له: أخائف أنت؟
أومأ قائلاً: نعم.

بدا في عينيها وميض تعاطف، وقالت: يتعين ألا تخاف؛ إنها تحسن معاملة خدمها. أراد أن يطرح المزيد من الأسئلة، لكنها قاطعته قائلة: «ينبغي أن أقدم تقريراً للقبطان. من الأفضل أن تذهب، وتنتظر وصول أسرتك».

عاد إلى نهاية الرصيف، فوجد أن جميع البحارة قد نزلوا من القارب، الذي بات خالياً. لم يبد أحد أي اهتمام به. سأل أحد عمال المرفأ، عن الموعد الذي يتوقعون فيه وصول القاربين الآخرين. هز الرجل كتفه، وقال: «قريباً». ونظراً لأنه لم ير شيئاً على مدى البصر، فقد استدار وعاد، قاطعاً الرصيف بطوله. بدا أن الهيكل الخشبي الهائل المماثل للبرج، يعمل الآن، فأثار فضوله، ورغب في أن يعرف الغرض من استخدامه.

وجده داخل مرفأ داخلي. حيث يتم تفريغ سفينة، ذات قاع مسطح، وجسم أعرض من تلك التي أبحر على متنها. من الواضح أنها سفينة شحن، حيث تم تقسيم ظهرها إلى ممرات للحيلولة دون تحرك شحنتها، عندما تشتد الأمواج. امتلأت السفينة بأكياس من القماش البني الخشن. ساعدت عجلة عند قاعدة الهيكل الخشبي، في حرية حركته فوق السفينة، وتم انزال منصة مربعة، إلى ظهر السفينة، على حبال، وعندما امتلأت بالأكياس، تم رفعها مرة أخرى، وتحركت نحو الرصيف، حيث تم تفريغ الأكياس في عربة. كان هذا، بالنسبة لنيال، معجزة هندسية، فجلس وأخذ يراقب تحركاته، مفتوناً.

كما أثار فضوله، الرجل الذي يشرف على عملية التفريغ. فقد كان أقصر كثيراً من عمال المرفأ الذين أحاطوا به، وأطول بالكاد من نيال. ارتدى ثوباً قصيراً أصفر، واعتمر قبعة غريبة الشكل، ذات حافة، لتقي عينيه من الشمس. أصدر أوامره بصوت سريع وحاد، ولكن بلهجة غريبة، لم يفهمها نيال.

كان واضحاً أن الرجل ليس من عمال المرفأ، أو من البحارة، راح نيال، بتكاسل، يقرأ الأفكار في ذهن الرجل القصير، فعرف في الحال أن تخمينه صحيح، فقد اتسمت ذبذباتها بالنشاط والتشوش، على عكس أذهان البحارة وعمال المرفأ التي اتسمت بسلبية مضطربة مثل النمال.

عندما حاول تركيز تغلغله، تلفت الرجل حوله متبرماً، وقد أدرك تلك المحاولة، لغزو خصوصية رأسه، مثلما تفعل أسرة نيال. ألقى، بعد لحظة، بنظرة خاطفة على نيال، الذي ظن أنه على وشك أن يتحدث إليه. إلا أن بحاراً يحمل كيساً، اصطدم به، فانفجر الرجل القصير، بصبر نافد، صائحاً فيه: «انظر إلى أين تقودك قدماك، أيها الأخرق!».

ولكن بعد عشر دقائق، حينما تم تفريغ آخر الأكياس صعد الدرج، وسار نحو نيال

الذي جلس فوق أحد الأعمدة التي يربطون فيها مراسي السفن، وقد تطلع إليه في براءة. كان الرجل ذا وجه حاد هضيم، بأنف كبير، ورأس أصلع. وضع يده فوق كتف نيال، وحدق في وجهه بنظرة عدوانية هازئة، وقال:

- أية لعبة تظن أنك تمارسها، بحق الشيطان؟
- أخشى أنني لم أفهم ما تقصده.
- أنت تفهمني جيداً.

ثم جلس فوق كيس، وقال بنبرة ودية: من أي مكان قدمت؟
أشار نيال بأصبعه، وقال: الصحراء الكبرى.
قال الرجل القصير: آه. أنت واحد منهم، أليس كذلك؟
سأله نيال: ما اسمك؟

- بيل.
- اسم غريب.
- إنه ليس كذلك. فهو اسم عادي في المكان الذي أتيت منه. وما اسمك؟
- نيال.
- هذا ليس اسماً، إنه نهر!

وجد نيال أن الحديث معه مربك، مثل لهجته. اتضح من ابتسامته أنه يمزح، لكن الدعابة لم تكن مفهومة.

نظر الرجل القصير إليه من تحت حاجبين، أخفضهما وكأنه يحاول اتخاذ قرار. انعم النظر طويلاً، فبدأ نيال يشعر بالضيق. ثم قال الرجل: «مَن علمك قراءة الأذهان؟».

أجاب نيال بسرعة: لم يعلمني أحد.
- آه. هلمّ!

أحس نيال بالارتباك، فقرر الرجل القصير استخدام أسلوب آخر في الاستجواب.

- متى وصلت؟
- منذ نصف ساعة. ومازلت بانتظار وصول أمي وأخي، إنهما هناك.

وأشار إلى البحر. عندما فعل ذلك، رأى القاربين في الأفق، على بعد ميل من الشاطىء.

حدق الرجل القصير مرة أخرى، في عينيه، لفترة طويلة من الوقت الأمر الذي أثار ضيقه، فأصبح متلهفاً للانصراف حتى يستقبل القاربين، وتململ في مكانه بصبر نافد.

قال له الرجل: كررها مرة أخرى.

ـ أكرر ماذا؟

ـ ما فعلته من قبل.

بدا أن من الأيسر الرضوخ لطلبه، فحدق في عيني الرجل، وتغلغل إلى موجات أفكاره، ثم استخدم ذهنه، على نحو متعمد، كمِجسّ.

ذُهل الرجل القصير، فهزّ رأسه، وقال بهدوء: طيّب، طيّب.

فهم نيال ذلك، وقال: طيّب، ماذا؟

ـ لا أدري، ما الذي ستفعله الزواحف.

ـ الزواحف؟

ـ الحشرات السوداء، العناكب. الزواحف.

ـ ماذا تظن أنها فاعلة؟

فرك الرجل القصير طرف إبهامه، على راحة يده الأخرى، بعنف. بدا ما يعنيه في غاية الوضوح. أحس نيال بأن وجهه قد شحب، ولم يعد يشعر الآن بأية لهفة للانصراف.

سأله: أتعتقد أنها ستكتشف ذلك؟

هزّ الرجل كتفيه وقال: «لا أعرف. لم استنبط مطلقاً، ما الذي تستطيع أن تفعله، وما الذي لا تستطيعه». وأخذ يلوك شفتيه متأملاً، ثم قال: لكنني أشعر بأنها لا تعرف نصف ما ترغب في أن تجعلنا نعتقد أنها تعرفه.

ألقى نيال نظرة خاطفة على البحر، فرأى أن القاربين لم يقتربا بعد، فسأله: «هل أنت خادم لدى العناكب»؟

هزّ الرجل رأسه بعنف، وقال: «لا، وأحمد الله على ذلك. فأنا لا أستطيع تحمّلها. إنها توقع الذعر في نفسي».

ـ إذن، ماذا تصنع؟

ـ أعمل مع المدفعية.

ـ الخنافس؟

ـ نعم. هذا صحيح.

ـ أي نوع من العمل؟

قطب الرجل، ثم قال: «نصنع المتفجرات. إنني كبير خبراء المفرقعات». ثم أشار

إلى الأكياس، وأضاف «إن ما بداخل هذه الأكياس يستخدم لصنع البارود».

قاطعهما أحد عمال المرفأ. وقف في وضع الانتباه، وحيا الرجل القصير، وقال إن العربة مستعدة للتحرك.

ـ حسناً. سألحق بك بعد دقيقة. استعدّ للتحرك.

ثم صرفه، وانتظر حتى ابتعد، ومال على نيال، وقال له بصوت خفيض: «خذ بنصيحتي، لا تجعل الزواحف تكتشف ذلك».

حاول نيال أن يبدو شجاعاً على نحو أكبر مما يشعر به، وقال: حسناً.

صعد الرجل القصير، فوق الأكياس على العربة التي تسير على عجلتين هائلتين، وذات عريشين، يصل طول كل منهما إلى حوالي عشرة أقدام. أمسك أربعة عمال مفتولو العضلات، بكل عريش، وبدأوا يتحركون، بمجرد أن أصدر الرجل القصير أوامره. أخذوا يهرولون وهم يجرون العربة. استدار الرجل ولوح بيده، فرد نيال التحية ملوحاً، وأخذ يتابع العربة حتى اختفت عن نظره. ثم سار متأملاً، عائداً نحو المرفأ الرئيسي.

التقى، وهو في طريقه، بالقائدة، التي ابتسمت له، فأحس بأنها صافية المزاج، ثم ضربت كتفه بإبهامها وقبضتها مطبقة. عرف أن هذه إيماءة ودية، لكنه أحس أن كتفه كادت تنخلع.

قالت له: أنت بحاجة للتغذية، كي تصبح بديناً.
ـ بديناً؟
كان ثمة شيء في الطريقة التي قالت بها ذلك، جعلته يشعر بالقلق.
أشارت إلى عامل يمر من أمامهما، مفتول العضلات، وقالت: السادة يفضلون أن نكون أقوياء، وأصحاء مثل ذلك الرجل.

قال نيال دون اقتناع: نعم، أفضل ذلك.

حدق في وجهها، محاولاً قراءة تعبيرها، فوجد أنه تغلغل على الفوْر في ذهنها. أحس باضطراب عصبي، كما لو أنه ارتطم دون أن يقصد بها، فسحب ذهنه منها في الحال. اكتشف، بعد لحظة، أنها لم تدرك هذا الاتصال بين ذهنيهما. حاول من جديد، بحذر، وقد أعد نفسه لانسحاب فوري. عرف في الحال ما يدور في خلدها. فقد شعرت بالرضا تجاه نفسها، وتجاهه، حيث هنأها ضابط القيادة، تواً، لأنها أعادت العناكب الذئبية سالمة، إلى اليابسة. فلو أن ضرراً قد لحق بها، لتعرضت للوم والعقاب، وكانت

ستتقبلهما، رغم أنها لم ترتكب أي خطأ: ولكن نظراً لنجاحها في مهمتها، فقد تلقت المديح فقط، وبالتالي اتخذت موقفاً ودياً تجاه نيال.

أدرك نيال كل هذا، على الفور، من خلال تغلغله في موجات مشاعرها. واصل سبر غور ذهنها، بمجرد أن أطمأن لأنها لم تكتشف ذلك. كان شعوراً غريباً. فقد أحس، وهو يتغلغل في وعيها، كما لو أنه أصبح داخل رأسها، يتطلع في عينيها، ويتأمل جسدها الأنثوي، وثدييها البرونزيين، اللذين راحا يهتزان مع خطوات سيرها، وساقيها الطويلتين اللتين أجبره خطوهما الواسع على الهرولة لمسايرتهما. توقف، في تلك اللحظة، عن أن يكون نيال، وتحول ليصبح هذه المرأة الجميلة، الهيفاء. فقد عرف أيضاً اسمها وهو «أودينا».

ولكن ما الذي جعلها لا تدرك أنه قد دخل رأسها؟ أدرك أن الإجابة تكمن في الخواء الغريب الذي أحس به داخل أذهان هؤلاء العمال. بدا الأمر كما لو أن جزءاً من وعيهم، قد أصبح مخدراً.

بدأ بعد ذلك، وعلى حين غرة، يرى الخطوط العامة للإجابة. وأحس أن للعناكب علاقة بذلك. فهؤلاء الناس تعودوا أن تسبر العناكب أغوار أذهانهم، فبات الأمر بمثابة مسألة مسلم بها، وأصبحت أذهانهم مثل أبواب مفتوحة، يستطيع أي كائن، الدخول والخروج منها، كما يشاء... مثل دبّور البيبسيس، الذي تعود على أن يداعبه الجميع، دون أن يحاول اللدغ، حتى عندما يضربه أحد الأطفال.

وصلا إلى نهاية الرصيف، فرأى نيال أن أقرب سفينة، قد مرت لتوها من جانب حائط الميناء الخارجي. شعر ببهجة غامرة، عندما تعرف على وجه ڤيج، يتطلع من على حافة السفينة، فلوح له بانفعال، فرد ڤيج التحية. حينما وقفت بمحاذاة الرصيف، رأى أن جانبها الذي تقارب به المرفأ، قد تعرض لأضرار، وأن ألواحها الخشبية العليا قد تهشمت، كما لو أنها تعرضت لضربة عنيفة.

نزلت القائدة على الشاطىء، بعد دقائق، وتبعها العنكبوت الذئبي المرافق للقارب، ومن خلفهما ڤيج. هرع نيال باتجاه أخيه، لكن شيئاً أوقفه، فكاد يوقف تنفسه. فقد حملق العنكبوت الذئبي فيه غاضباً، فألجمته أشعة ارادته، وشعر كما لو أنه تلقى ضربة عنيفة. ثم سار العنكبوت، بعد أن حقق غرضه، وسط القائدات الراكعات، وبدا واضحاً أنه متعكر المزاج.

لمست أودينا كتف نيال، ورفعت أصبعها، مؤنبة.

ـ عندما يسير السادة، يخفض العبيد أبصارهم.

قال نيال بخنوع: آسف.

تنحى هو وڤيج جانباً، عندما نزل البحارة. همس نيال: «أين كنت؟ وما الذي حدث؟».

ـ تحطم الصاري في العاصفة ـ وكاد القارب ينقلب بنا. ولحسن حظنا، ظل القارب الآخر معنا.

حدقت قائدة القارب في ڤيج، غاضبة، وقالت له: تبادل الأحاديث بين الأسرى، ممنوع.

رد ڤيج: آسف.

وقفا صامتين، وأخذا يراقبان القارب الآخر، وهو يقترب. لاحظ نيال، بطرف عينه، القائدتين تتحدثان. من الواضح أن أودينا تقص على زميلتها ما حدث خلال العاصفة. حدقت المرأة في نيال بدهشة واستغراب. ثم اتجهت نحوهما، وتطلعت في وجهيهما للحظة، وقالت: «حسناً»، الحديث مسموح به. ثم استدارت عائدة.

قال ڤيج: ما هذا الذي يحدث؟

همس نيال: سأخبرك فيما بعد.

رست السفينة الأخرى عند الرصيف. لزم نيال وڤيج، الصمت، هذه المرة، وأشاحا بوجهيهما عندما نزلت القائدة، وفي أعقابها العنكبوت الذئبي، ثم تبعتهما سيريز. انتظرا حتى ابتعد العنكبوت لمسافة عشرين متراً، قبل أن يندفعا لمعانقتها. بدا عليها الشحوب والغثيان. وبينما راح ڤيج يحتضنها، تسقّط نيال أفكار أحد عمال المرفأ، وهو يقول متأملاً: «يا لها من امرأة مهزولة ـ إنني لا أفضل تقبيلها...» تفجر غضبه، وهو يتطلع إلى أمه، فهي تبدو له نحيلة وجميلة. أما عبيد العناكب هؤلاء فلديهم فكرة غريبة عن الجمال....

لمست أودينا ذراع نيال، وقالت: هلمّ!

عندما ساروا خلفها، بامتداد الرصيف، سمعوا إحدى القائدات تسألها، دون أن تحاول خفض صوتها: «لماذا يأتون معنا؟».

قالت أودينا: هذه هي أوامر السيّد.

بعد أن انتهت الأرصفة، عبروا منطقة واسعة مملوءة بالنفايات، وتنتشر فيها قوارب

وعربات محطمة، وأكوام من الفضلات. كما تهدمت الجدران المحيطة بأحواض السفن، وأصبحت أنقاضاً. من الواضح أن ذلك كان ميناء ضخماً ومزدهراً في وقت من الأوقات، أما الآن فقد انكمش، ليتحول إلى مرفأ صغير. لم يتبق في حالة جيدة، سوى الطريق الذي يسيرون عليه، فقد اكتسى بمادة صلبة ملساء، تشبه سطحاً ممتداً من الرخام.

وصلوا، بعد أن تجاوزوا حائط الحوض، إلى صف من عربات اليد. تماثل في تصميمها، تلك التي رآها نيال، ولكنها أصغر. وقف نحو عشرة رجال، يبدو السأم على وجوههم، وعندما فرقعت أودينا بأصابعها، هرع ستة نحوها، وانحنوا أمامها. صعدت هي، والقائدتان، إحدى العربات، وأمسك رجلان بكل عريش، وانتظروا صدور أوامر أخرى. أشارت أودينا إلى عربة أخرى، ثم طلبت من نيال وڤيج وسيريز أن يصعدوا عليها. عندما فعلوا ذلك، صاح أحد الرجال الذين أمسكوا بالعريشين قائلاً: «نيال!».

ـ ماسيج!

تعرف نيال عليه في الحال، إذ كان أحد أفراد المجموعة التي رافقته إلى مدينة كازاك الكائنة تحت الأرض.

صاحت إحدى القائدات، بعد أن تصافحا: «ذلك يكفي!» شحب وجه ماسيج، ووقف في وضع الانتباه. أصدرت أودينا أمراً، فانطلق الرجال الأربعة، الذين يجرون عربتها مهرولين، وتبعتهم العربة الأخرى. تطلع نيال بقلق ودهشة إلى خلفية رأس ماسيج، لقد أصبح شعره متجعداً وقذراً بعد أن كان نظيفاً ومصففاً على نحو بديع.

لاحت الأرض حولهم، مسطحة ومقفرة، ورأوا أنقاض بيوت على جانبي الطريق، معظمها لا يزيد ارتفاعه عن بضعة أقدام. كان الطريق أمامهم مستقيماً كالسهم، وممتداً ليصل إلى قمة سلسلة من التلال محدودة الارتفاع. تحسن الوضع، خارج مدينة الأنقاض، حيث رأوا الحقول والأشجار الخضراء، لكنهم ظلوا يشعرون بالكآبة، وهم يشاهدون كتلاً متشابكة من الأعشاب والشجيرات، ويمرون على جدار أو مخزن حبوب منهار، بدا وكأنه قد نجا من كارثة رهيبة.

يتقدم الرجال الذين يجرون العربتين بسرعة، حيث يكون الطريق مستوياً، ولكن عندما يأخذ في الصعود نحو التلال، تتباطأ سرعة سيرهم. أدرك نيال من حركات ماسيج، أن التعب قد حل به، فأصابه هذا التفكير بالاكتئاب، ومع ذلك لم يكن هناك شيء يستطيع القيام به. عندما ازدادت حدة صعود الطريق، اضطر الرجال، في نهاية المطاف، إلى السير. انحنى للأمام، وربت فوق كتف أقرب الرجال إليه وقال:

ـ أتفضل أن نترجل، ونسير على أقدامنا؟

دُهش الرجل لهذا السؤال، فتوقف عن السير، واضطر الآخرون للتوقف أيضاً.

هزّ الرجل رأسه، وقد التبس عليه الأمر، وقال: تسيرون؟ لماذا؟
ـ حتى لا يصيبكم التعب.

هزّ رأسه وقال: لا. إننا سنواجه متاعب شديدة، إذا ما فعلتم ذلك.
ـ لِم؟

ـ لأن وظيفتنا هي جرّكم. وإذا لم نؤد عملنا، فإن أسيادنا سيرغبون في معرفة السبب. ثم استدار مرة أخرى، وبدأ يتحرك. ألقى ماسيج على نيال نظرة تعاطف خاطفة، كما لو أنه يقول له: شكراً على المحاولة، على أية حال.

وصلت العربة، بعد نصف ساعة، إلى قمة التل. رأى دونه، في واد تحيط به التلال، مدينة العناكب، كما تراءت له في خياله بجانب البئر. كانت مدينة ذات أبراج مربعة سامقة ـ أبراج بدت، في الواقع، أكبر من تلك التي رآها في خياله. ورغم بُعد المسافة، فقد رأى أنسجة العناكب الضخمة التي امتدت بين الأبراج، التي كان معظمها رمادي اللون، والقليل منها يميل للسواد. بدا واضحاً أن العديد منها أقرب لأن يكون أطلالاً، رغم أنها أطول من الأعمدة الهائلة، للصخرة المشوهة بالقرب من بيتهم في الصحراء. لم يكن قد رأى من قبل شيئاً مثيراً مثل تلك المدينة التي تبدو كمدينة شيدها عمالقة.

انتصب، في وسط هذه المدينة الرمادية، البرج الأبيض وحيداً، وقد أحاطت به مساحة خضراء. لم يكن سامقاً مثل العديد من المباني المحيطة به، لكن لونه ناصع البياض، جعله يبرز بينها. تلألأ، في ضوء النهار، كما لو أن شمساً شديدة الوهج، تضيئه من الداخل. كان أسطواني الشكل، بخلاف الأبراج الأخرى، رغم أن قمته أضيق قليلاً من قاعدته، مما يشير إلى أنه كان له رأس أبيض مدبب يشير نحو السماء.

تطلع نيال في وجهي أمه وأخيه، فأدرك أن أحاسيسهما تماثل أحاسيسه. كانت لحظة غريبة، فقد عرفوا منذ عدة أيام، أن هذه هي وجهتهم، ومع ذلك ظلت مدينة العناكب حلماً. لم يشعروا بخوف تجاهها، لأنها بدت غير واقعية. أما الآن، فقد أصبحت، على نحو مفاجىء، حقيقية، وكان الإحساس يماثل الاستيقاظ من حلم. بدت واقعية ومَخيفة بشكل أكبر بكثير مما تخيل نيال؛ فأبراجها الملطخة تماثل أسناناً خربة في جمجمة. بل إن شكلها كئيب وخطر، حتى بدون خيوط العناكب الضخمة. ومع ذلك لاح البرج الأبيض،

داخل حديقته المربعة الخضراء، غير مبالٍ بجو الكآبة والخطر المحيط به. أثار البرج في نيال إحساساً غريباً بالبهجة، وأدرك أن قيج وسيريز، شعرا بالشيء ذاته. بدا مألوفاً لديه، كما لو أنه رآه كثيراً في أحلامه.

شرع سائقو العربات، في النزول إلى المدينة، بعد أن توقفوا لالتقاط الأنفاس. ورغم أن الطريق انحدر بشكل حاد، إلا أن ذلك، لم يخلق أية صعوبات، نظراً لوجود كوابح في العربة، يتم التحكم فيها من العريشين، مما يقلل اندفاعها.

استرخى نيال، واهتم على نحو أكبر، بما يحيط به، بعد أن خف قلقه تجاه ماسيج، الذي راح يسير الآن بخطى مريحة. أدهشته روعة المشاهد التي يراها من حوله. لا بد وأن المطر قد هطل منذ فترة قليلة، إذ ماتزال السحب السوداء تنتشر فوق التلال البعيدة، بينما تلألأت الأعشاب والشجيرات، بقطرات المياه.

دخلوا، عند منتصف المنحدر، وسط أشجار كثيفة، حجبت عنهم ضوء الشمس. لم تكن مثل الأشجار الصحراوية الجرداء، فقد بلغ قطر جذوع بعضها خمسة أقدام، وظللت فروعها الطريق، وصنعت نفقاً أخضر، فيما سمقت أشجار أخرى، فلم يتمكن من رؤية السماء، من خلال فروعها المتشابكة. بدا العشب، الذي نما بين الأشجار، شديد الاخضرار، مثل النباتات التي تنمو في قاع جدول تترقرق مياهه. تمكن نيال، عندما مروا بين ضفتين مرتفعتين، من اقتلاع بضع أوراق من الشجر، وراح يمضغها، فوجدها طيبة وريانة، وأثار مذاقها، إحساساً بأنه في غابات لانهائية.

خرجوا، فجأة، من الغابة، فبهرتهم، من جديد، أشعة الشمس الغاربة، ولاحت أمامهم المدينة الرمادية، الضاربة إلى السواد. بدا التناقض غريباً، صعب التصديق، كما لو أن أحدهما وهم: الغابة أو المدينة. شاهدوا حقولاً مزروعة على جانبي الطريق، وأناساً يعملون فيها. امتد الطريق، الذي ظل أملس كالرخام، بجانب نهر بدت مياهه عميقة وقاتمة. عبروا، بعد نصف ميل، جسراً، أبراجه الحديدية شبه صدئة. شاهدوا تحت الجسر، نسيجاً طوله خمسون قدماً، يتدلى من ركنه، وسط ظلمة البناء، الملطخ بالصدأ. لمح نيال عيوناً سوداء تحدق فيهم.

وصلوا أخيراً إلى مدينة العناكب، حيث شكلت الأبراج الهائلة، صفوفاً صلبة على جانبي الطريق. كانت سامقة، حتى ان نيال اضطر لاحناء رأسه للخلف، حتى يرى السماء الزرقاء فوقه. كما بدا العديد منها وقد تهدم، إذ شاهد من خلال نوافذها الخالية، حجراتها الجرداء ذات الجدران المنهارة. كانت هناك درجات، بمستوى الشارع، وراء سياج

حديدي صدىء، تفضي إلى حجرات خفية في الأسفل، وبدا أن رجالاً ونساء يستخدمون هذه الحجرات بصورة مستديمة. حبس أنفاسه، وهو يرى أعداداً كبيرة من البشر، يهرعون في كل اتجاه، مثل النمال فيما وراء القفر الصخري. شكل الرجال الأغلبية ـ وجميعهم طوال القامة، أقوياء البنية، مفتولو العضلات، لكن كان هناك أيضاً عدد من النساء والفتيات، ترتدي معظمهن ثياباً قصيرة، غطت صدورهن، لكنها تركت أذرعهن عارية. عبرت امرأة، هيفاء، عارية الصدر، الطريق من أمامهم، ولشدة الشبه بينها وبين أودينا. حدق نيال في البعيد، ليتأكد من أن القائدات الثلاث مازلن في عربتهن التي سبقتهم بنحو ربع ميل.

أقبل الليل، وحجبت البنايات الشاهقة ضوء الشمس. اختفى الناس، عندما أظلمت الشوارع. ولما توقفت عربتهم، في نهاية المطاف، بدت الشوارع خالية من المارة. وضع سائقو العربات، العُرّش على الأرض، وساعدوهم في النزول. أقبلت أودينا من وسط الظلام، ووضعت يدها، فوق كتف نيال وأشارت قائلة:

ـ سوف يدلونك على المكان الذي ستنام فيه. سوف تقطن مع سائقي العربات.

لم يدر نيال ماذا يقول، فأعرب عن امتنانه.

ـ لا تشكرني. أشكر «كرول».

ـ ومن يكون كرول؟

ـ السيد الذي أنقذته.

ـ العنكبوت الذي . . .

ـ صه!

وضعت يدها بعنَف فوق فمه، وألقت نظرة خاطفة نحو السماء، وقالت: لا تستخدم هذه الكلمة على الاطلاق! إنهم السادة هنا. إذا ما اقترب أحدهم، انحنِ أمامه، وإلا فستجد نفسك في أرض السعادة الكبرى!

ـ أرض السعادة الكبرى؟

ـ لا تطرح الكثير من الأسئلة. ولا تكن كالباحث عن حتفه بظِلْفه.

ثم استدارت نحو أحد سائقي العربات، وقالت له: ما اسمك؟

ـ دارول.

ـ سوف تكون مسؤولاً عنهم يا دارول. حياتك في مقابل سلامتهم.

أومأ الرجل بمزيد من التوقير.

أمسكت بأذن نيال، ولوتها بطريقة ودية، مما جعل عينيه تدمعان، وقالت له: سوف تتلقى الأوامر في الصباح. نم جيداً، أيها المتوحش!

ـ شكراً.

ابتعدت، واختفت في الظلام.

كان الرجل يدعى دارول، هو الذي اقترح عليه نيال، أن يترجلوا. وعندما رأى أن القائدة تعامله بشيء من الألفة، أصبح أسلوبه ودوداً، وقال: «ليتبعني الجميع. كونوا على حذر من الدرجات ـ فإنها مهشمة!».

أمسك ماسيج بذراع نيال، وقال: سأساعدك.

هبطوا الدرج، إلى الطابق التحتاني المظلم. دفع أحدهم الباب، فانفتح مطقطقاً. قابلتهم رائحة زيت محترق، ودخلوا حجرة رحبة، خافتة الإضاءة. بدت مملوءة بالرجال، وقد استلقى، أو جلس، العديد منهم فوق مضاجع منخفضة، أو فُرُش. حينما دخلت سيريز الحجرة، اتخذ البعض منهم وضع الانتباه، بينما جثا أحدهم على ركبة واحدة.

قال دارول: ليس هناك حاجة لذلك. هؤلاء مجرد متوحشين من الصحراء.

ذكر ذلك دون أي ازدراء، وكأنه يقول الحقيقة مجردة.

قال أحد الرجال: إذن ما الذي سيصنعونه هنا؟

ـ لا أدري. إنها أوامر عليا.

ابتعد الرجال، وتجاهلوا القادمين الجدد، وكأنهم قد تخففوا من عبء. راح بعضهم يتناول طعاماً في أوانٍ، بينما يقوم آخرون بحياكة الملابس أو إصلاح الخفاف. كانت الحجرة دافئة، بفعل حرارة أجسامهم، التي تفوح منها رائحة العرق.

لمس ماسيج ذراع دارول، وقال له: سوف اعتني بهم، إذا شئت، وسأجد لهم مكاناً ينامون فيه.

نظر دارول إليه بالطريقة غير المتفهمة ذاتها، التي أبداها عندما عرض عليه نيال أن يترجلوا من العربة. وضع ماسيج يده على كتف نيال، وقال: «إنه صديقي. ونرغب في تبادل أطراف الحديث».

تساءل دارول: في أي شأن.

ـ في كل الأمور، الطريقة التي وصلنا بها إلى هنا، على سبيل المثال.

هزّ دارول كتفيه، وهو مايزال ينظر بالطريقة المرتبكة ذاتها وقال: آه: طيب!

أدرك نيال أن دارول، مثل معظم الرجال الآخرين في الحجرة، يتسم بقدر ضئيل من الذكاء، لكنه غير عدائي تجاههم.

عثر ماسيج، خلال النصف ساعة التالية، على مضاجع لهم. اضطروا لحمل مصابيح زيتية، والسير على امتداد ممر مظلم، للوصول إلى مكان قصي في الطابق التحتي. وجدوا، في حجرة واسعة، ذات رائحة عفنة، عشرات المضاجع في حالات عطب مختلفة. بدت قوائمها، لحسن الحظ، قابلة للتبديل، حيث كانت مثبتة في تجاويف خشبية، لذلك فقد استطاعوا تجميع ثلاثة اطارات سليمة إلى حد ما، وعادوا بها إلى الحجرة الأساسية. وساعد ماسيج سيريز على حمل اطارها. عثروا في حجرة متربة، على أكوام من الحشايا القديمة، محشوة بأسمال بالية، بينما امتلأت حجرة أخرى، ببطاطين، العديد منها متعطن بفعل الرطوبة. شعر نيال بارهاق بالغ، فلم يبد اهتماماً، وتثاءبت سيريز، فتركوها تستلقي، فوق فراش ماسيج، بينما ذهبوا للبحث عن وسادات كانت مصنوعة من الخشب وتكسوها طبقة رقيقة من الجلد، وعندما عادوا، وجدوها وقد راحت في نوم عميق.

اصطحبهم ماسيج، بعد ذلك، إلى المطبخ المشاع للجميع. وجدوه حاراً بدرجة مثيرة للضيق، نتيجة لإشعال أتون حديدي هائل. بدا أن هناك وفرة في الخضروات، كما امتلأ إناء معدني كبير، حتى حافته، بلحوم، يثير شكلها الريبة. شعر نيال بالتعب الشديد، ولم يكن مستعداً لإعداد أي طعام. وقع اختياره على إناء يحوي حساء أخضر اللون من وعاء فوق الأتون، على قطعة خبز جاف بني اللون. بدا طعم الحساء أفضل كثيراً من شكله، فقد امتلأ بمنكهات عديدة، مما جعله يعود مرة أخرى طلباً للمزيد. انتصبت مضاجعهم في زاوية من الحجرة التحتية، وجلسوا وتناولوا طعامهم، وظهورهم إلى الجدار. نظر الرجل في الفراش المجاور، بمودة لنيال، وقال له: «أنت في غاية النحافة. سوف نقوم بتسمينك قريباً». ترددت هذه الملاحظة على مسامعه، بشكل مستمر، طوال اليوم التالي. لم تكن مجرد تعليق، الغرض منه المزاح، أو بدء حديث، بل ملاحظة جادة، قيلت باقتناع عميق. بدا تناول الطعام بمثابة عقيدة بين سائقي العربات.

أصاخ نيال السمع للأحاديث التي جرت حولهم، أثناء تناولهم الطعام. كان يأمل في أن يتغلغل في عقول ساكني مدينة العناكب من البشر. لكنه سرعان ما شعر بالسأم. بدا أن ألعاباً عديدة تتملك الرجال ـ فقد لعب العديد منهم، لعبة تضمنت حفنة من العصي الخشبية ـ كما تحدثوا طويلاً عن مباراة طال انتظارها بين سائقي العربات، وجامعي

الطعام، تدخل فيها كرة ما. مرت على نيال أوقات، انتابه فيها شعور بالهلوسة وبأنه يتغلغل في الذهن الجماعي للنمال. ورغم افتقار هؤلاء الرجال، الواضح للذكاء، فقد بدوا ودودين وعلى سجيتهم، وعندما تعودوا وجود نيال، ورفقائه، عاملوهم، كما لو كانوا جزءاً من مجموعة عائلية ضخمة. وجد نيال أن هذا الشعور بوحدة الجماعة، يعكس جواً ساراً ومريحاً، بعد أن عاش معتمداً على نفسه وأسرته الصغيرة.

وصف ماسيج، أثناء تناولهم الطعام، الطريقة التي تم بها اقتحام مدينة كازاك. وأخذ يروي القصة. فبعد يومين من رحيل أولف ونيال، عائدين إلى بيتهما، لم يتمكن رعاة النمال من العودة في المساء. كما لم يتمكن فريق بحث، بقيادة هامنا، من العودة.

وعندما استيقظ ماسيج، في صباح اليوم التالي، وجد نفسه غير قادر على الحركة . . . استطاع نيال أن يخمن بقية القصة. فقد توجهت العناكب صوب المدينة، يتقدمها أحد رعاة النمال، الذي فقد صوابه، من شدة الخوف. لم تسنح أية فرصة لأحد للمقاومة، فقُتل العديد من الرجال. ويعتقد ماسيج أن هذا لا يرجع إلى أنهم أبدوا دلائل مقاومة، ولكن لأن العناكب كانت جائعة. كما تم أيضاً قتل والتهام عدد من الأطفال، أما بقيتهم، فتم أسرهم، ونُقلوا إلى هنا في مدينة العناكب حيث تعتني المربيات بهم.

بدا أن هناك حشوداً من العناكب ـ المئات منها، معظمها من العناكب الذئبية بنية اللون (سماها ماسيج الجنود)، وهي التي نظمت عملية نقل الأسرى إلى البحر. اعترف ماسيج بأن المحنة كانت أقل وطأة مما توقع. فقد تناولوا وجبات دسمة، وسمحت العناكب لبعضهم بالراحة، ووافقت على حملهم فوق نقالات، عندما ظهرت عليهم دلائل الانهاك. ولما وصل الأسرى إلى مدينة العناكب، بدوا جميعاً في صحة جيدة.

وصف ماسيج الطريقة التي سار بها موكبهم في الساحة الرئيسية، أمام البرج الأبيض، وانضمام الأمهات من جديد لأطفالهن. لكن هذا لم يستمر طويلاً. فقد تم تقسيم الرجال إلى مجموعات، وطُلب منهم القيام بمهام مختلفة. أصبح بعضهم من جامعي الطعام، والبعض الآخر من عمال الزراعة، وآخرون عمال بالمدن، وبعضهم من سائقي العربات ـ مثل ماسيج. أما النساء فلم يتم تقسيمهن، ونقلوا كلهن إلى الجزء المركزي من المدينة، المخصص للنساء. وأوضح ماسيج أن النساء يلقين التبجيل في مدينة العناكب. فأنثى العنكبوت تعد أكثر أهمية من الذكر ـ وعادة ما تلتهمه بعد اللحظات الحميمة. كما وجدت العناكب أن النظام البشري، الذي يقضي بمعاملة النساء كإماء في البيوت، مزعج لغرائزها الطبيعية. ونظراً لأن النساء في مدينة كازاك أصبحن معتادات على هيمنة الذكور،

فإنه تعين إعادة تربيتهن من جديد، وفصلهن عن أزواجهن، إلى أن تتعلمن الاضطلاع بدورهن الجديد كنوع أرقى.

سأل نيال، وهو يفكر في شقيقتيه: وماذا عن الأطفال؟

ـ يعيشون في حضانة، ليست بعيدة عن النساء، ولكن لا يسمح لهن برؤيتهم إلى أن يعاد تربيتهن.

مر على وجود ماسيج هنا نحو شهر، والعمل الذي يؤديه شاق، ولكنه لا يشكو من معاناة حقيقية. ويتعين على سائقي العربات أن يتوجهوا كل صباح إلى الميدان في وسط حي النساء، ويقومون بمهمة نقل المشرفين إلى أعمالهم ـ بعضهم إلى الحقول، والبعض الآخر إلى أحواض السفن، أو إلى أجزاء أخرى من المدينة. وهي ليست مهمة سيئة، خاصة إذا وقع الاختيار على طريق المدينة. أما طريق الحوض فهو أصعبها، ويشك ماسيج في أنه قد أسندت إليه مهمة السير في هذا الطريق كنوع من العقاب. فقد سمعته إحدى النساء يشير إلى السادة على أنها «عناكب» وقبل أن يقول ماسيج الكلمة الأخيرة، خفض صوته، وتلفت حوله بعصبية.

شعر نيال بالحيرة، وقال: ولكن ما الخطأ في ذلك؟

ـ تقول إنها كلمة تتسم بالازدراء، إنها تصفها كما لو أنها حشرات.
قال نيال: لكنني التقيت رجلاً في الأحواض وصفها بأنها زواحف.
تلفت ماسيج حوله مذعوراً، فلم يجد أحداً منصتاً، وقال: صه! مَن يكون هذا؟
ـ رجل له اسم مضحك، اعتقد أنه قال بيل.
ـ آه. إنه ليس واحداً منا. إنه يعمل للخنافس. اسمه بيل دوجينز.

نطق ماسيج اسمه بازدراء، وتسلى نيال سراً بالطريقة التي تعلم بها ماسيج معرفة رفاقه من العمال.

بيلدوجينز.
ـ بيل دوجينز. إن له اسمين لسبب ما. يقول الرجال الذين يعملون للخنافس إنها عادة قديمة.

مال ڤيج للأمام، وسأل بصوت خفيض: أتعتقد أن هناك فرصة للهرب من هنا؟ نظر إليه ماسيج مذعوراً، وقال: لا، ليست هناك أية فرصة على الاطلاق. وإلى أين ستهرب؟ إنها ستصطادك بسهولة. ولكن لماذا ترغب في الهرب؟ إن الحياة ليست سيئة هنا.

ـ بداية، لا أزيد أن أكون عبداً.

ـ عبداً، ولكننا لسنا عبيداً.

تساءل ڤيج ساخراً: لا؟ إذن ماذا تكونون؟

ـ نحنْ خدم. وهو أمر مختلف تماماً. إن العبيد الحقيقيين، يقطنون الجانب الآخر من النهر، وهم جميعاً بلهاء.

ـ لِم، ما الذي ألمّ بهم؟

ـ قلت لك إنهم بلهاء، وهم كذلك بالمعنى الحرفي للكلمة. إنهم يبدون مثل المسوخ.

وقام ماسيج بتقليد رجل له فك مرتخ، وعينان لامعتان، وشفتان مترهلتان.

سأله نيال: ولِم ترغب العناكب في وجود عبيد، طالما لديها خدم؟

ـ للأعمال القذرة، مثل تنظيف المجاري. كما أنها تأكلهم.

قال نيال وڤيج معاً، بصوت مرتفع، جعل سيريز تفتح عينيها للحظة: تأكلهم؟

ـ نعم. العناكب تربيهم لتلتهمهم.

فتنت الفكرة نيال، ولكنها أثارت رعبه أيضاً، فقال: هل يعرفون ذلك؟

هزّ ماسيج كتفيه، وقال: اعتقد ذلك. إنهم يتقبلون ذلك كمسألة مسلم بها. إنهم مثل النمال في ذكائها.

ألقى نيال نظرة على الرجال المحيطين بهم، لكنه لم يحر قولاً.

سأل ڤيج: وماذا عن الـ. . . خدم. هل تعرضوا للالتهام؟

هزّ ماسيج رأسه بتأكيد، وقال: لا. لم يحدث ذلك سوى تحت ظروف غير عادية للغاية.

ـ اعطنا مثلاً على ذلك.

ـ لا يسمح لأحد، على سبيل المثال، بالخروج بعد أن يحل الظلام. هناك قاعدة عامة بأن العناكب يمكن أن تلتهم أي فرد تصطاده أثناء الليل.

لكنه استطرد قائلاً: ولكن لم يحدث ذلك، بطبيعة الحال، لأن من الغباء أن يخرج أحد ليلاً.

ـ ولكن لماذا لا تريد العناكب أن يخرج أحد بعد حلول الظلام؟

ـ أعتقد أنها تريد أن توقف الأزواج الذين يتسللون لرؤية زوجاتهم، أو الأمهات اللائي يحاولن رؤية أطفالهن.

قال ڤيج ساخراً: وتقول إنك تفضل البقاء هنا؟

رد ماسيج مدافعاً عن نفسه: لم أقل إنني أفضل هذا المكان، ولكن. . . لقد افترضت أنه أسوأ من ذلك. فلدينا هنا، على الأقل، الكثير من أشعة الشمس. أما في ديرا، فكنا نعد أنفسنا محظوظين، إذا رأينا العالم الخارجي، مرة في الشهر. كما أن الطعام هنا متوفر بكثرة ـ وتفضل العناكب أن نتغذى بصورة جيدة، كما تسمح لنا بمزاولة الرياضة بعد ظهر أيام السبت. وبإمكاننا التقدم بطلبات لتغيير وظائفنا مرة كل عام ـ وسوف أحاول أن أعمل بحاراً في العام المقبل. كما أننا نحال إلى الاستيداع، بطبيعة الحال، في سن الأربعين.

ـ الاستيداع؟ وما ذلك؟

ـ لا يتعين علينا العمل بعد ذلك. وبدلاً من ذلك، نذهب إلى أرض السعادة الكبرى.

ـ أرض ماذا؟

قبل أن يتمكن ماسيج من الاجابة، دوى صوت غريب في الخارج، جعل شعر رأس نيال يقف. تكرر الصوت عدة مرات ـ صوت يماثل أنين كائن هائل يتألم.

تساءل ڤيج: يا إلهي. ما هذا؟

ـ هذا يعني أنه حان وقت إطفاء الأنوار. يتعين علينا أن ننام مبكرين، حتى نستيقظ عند الفجر.

بدأ الرجال في الحجرة، يطفئون مصابيحهم الزيتية، ويصعدون فوق مضاجعهم. لم يبق سوى مصباح واحد مضاء، وتوقفت كل الأحاديث.

همس نيال في أذن ماسيج قائلاً: ما هي أرض السعادة الكبرى؟

قال ماسيج: صه! ليس مسموحاً لنا، التحدث بعد انطفاء الأضواء.

ـ لِمَ؟

ـ سأوضح لك الأمر في الصباح. طابت ليلتك.

أدار ظهره، وسحب الغطاء حول كتفيه. باتت الحجرة ساكنة تماماً الآن، باستثناء صوت التنفس الثقيل. شعر بارتياح غريب، لأنه أصبح بين هذا العدد الكبير من البشر. استغرق، في غضون دقائق قليلة، في نوم عميق هادىء.

بدا الأمر، وكأنه لم يغف إلا قليلاً حين أيقظته حركة حوله. أضيئت المصابيح،

الواحد تلو الآخر. لم يكن ڤيج، الذي يستيقظ من أقل حركة، في فراشه، بينما جلست سيريز، بشعرها الطويل، المتجعد من تأثير النوم، وراحت تتثاءب. انحنى أمامها رجل مرّ بجانب فراشها.

فتّح ماسيج عينيه، ونظر حوله بعينين غلبهما النوم، ثم سحب البطانية فوق وجهه، وراح يشخر بهدوء.

جثا كل الرجال في الحجرة، على ركبة واحدة، وسط دهشة نيال، بطريقة تنم عن التبجيل. مرت عدة لحظات، قبل أن يلاحظ وجود امرأة، تقف عند الباب، تشبه أودينا. لكنه أدرك أن كل القائدات متماثلات في الشكل.

قالت بصوت واضح، ودقيق: سينضم الغرباء، في ساحة العرض، إلى الآخرين. ثم استدارت وخرجت. عادت الحجرة إلى نشاطها العادي. نحّى ماسيج، الذي أيقظه صوتها، البطانية، ثم نزل من فوق الفراش. بدا شاحباً، وأخذ يرتعش.

سأل نيال: أتظن أنها لاحظت وجودي؟

ـ لا. من المؤكد أنها لم تلحظ شيئاً.

تنفس ماسيج الصعداء، وقال: إنهن صارمات، تجاه الكسولين.

تساءل نيال، الذي لم يسمع قط مثل هذه الكلمة: الكسولون؟

قال متثائباً: نعم، هؤلاء الذين لا يستطيعون الاستيقاظ في الصباح الباكر. وهذا من الأشياء، التي لا أحبها هنا ـ إنهم يوقظونك في وقت مبكر للغاية. لم نكن ننام في ديرا، أقل من اثنتي عشرة ساعة، مطلقاً. وذات مرة، بعد حفل استمر طوال الليل، نمت في الصباح، وضاع عليّ يوم. . .

تساءل نيال: ما الذي سنصنعه الآن؟

ـ سنأكل. يتعين أن نكون في ساحة العرض، في غضون ساعة.

قادهم إلى المطبخ، حيث وضعت أواني الطعام، فوق الأتون. كان الطباخون يعملون قبل الفجر بساعة. تناول ماسيج بعض الطعام، وملأ إناء بالحساء الأخضر، وطبقاً بالخضروات واللحوم. تناول نيال وسيريز، كميات مماثلة. وجدوا بجوار المطبخ، قاعة طعام ضخمة، بها موائد خشبية طويلة. كان ڤيج جالساً بالفعل، وأمامه طبق ممتلىء. لوح لهم، بملعقة في يديه.

ـ هذا اللحم ممتاز. ما نوعه؟

ـ أرنب.

ـ وما هو؟

ـ نوع من الفئران، طويل الأذنين. لكنه يتكاثر على نحو أسرع من أنواع الفئران الأخرى.

بعد ذلك، جلس ماسيج، وراح يتناول طعامه باهتمام، وأخذ يهمهم وهو يرد على أسئلتهم.

لاحظ نيال ندرة تبادل الأحاديث في الحجرة، ولم يكن هناك سوى صوت الملاعق في الأطباق الخشبية، والفكوك التي راحت تمضغ الطعام بقوة.

تناولت سيريز وجبة دسمة، واستعاد خداها لونهما الطبيعي، بعد أن نامت طوال الليل. كان مستحيلاً ألا تلاحظ، نظرات الإعجاب، التي يلقيها عليها الرجال الذين مروا من أمام مائدتهم، ورغم أنها ركزت عينيها في طبقها، إلا ان نيال أدرك استمتاعها بذلك. فعلى امتداد العشرين عاماً الماضية، لم تر سيريز رجالاً سوى أفراد عائلتها. لا بد وأنه إحساس غريب أن تجد نفسها مثار إعجاب ذكور أقوياء وُسماء.

بعد أن تناولوا طعامهم، قادهم ماسيج إلى مكان الاغتسال. امتلأت حجرة مجاورة، بعشرات من الدلاء الخشبية، الممتلئة حتى الحافة بالماء. كانت التعليمات، أن يحملوا أحد هذه الدلاء، إلى حجرة أخرى مجاورة، واسعة، لا تكتسي أرضيتها بشيء، وحفرت فيها قنوات ضيقة. طُلب من نيال وڤيج أن يخلعا ملابسهما المتسخة بعد الرحلة الطويلة، وأن يسكبا الماء فوق جسميهما. أما سيريز، فقد ذهبت إلى حجرة مجاورة مماثلة. أعطاهما ماسيج قطعاً من جذور رمادية اللون، وأوضح لهما طريقة غمسها في الماء، ثم تدليك جلدهما بها. وجدا أن القطع تحدث رغوة ذات رائحة طيبة، بدت أنها تذيب الأوساخ. سمح لهما باستخدام العدد الذي يحتاجون إليه من دلاء الماء. وهذا يعتبر، بالنسبة لقاطني الصحراء، إسرافاً مثيراً للنشوة وصعب التصديق. وينطبق هذا على طريقة تجفيف أنفسهم من الماء، التي أوضحها ماسيج لهما ـ بأن يدلكا جسميهما بقماش خشن مستطيل، كبير، يمتص الماء.

عندما خرجت سيريز من حجرتها، وقد لمعت بشرتها، وتندى شعرها بالماء، اكتشف نيال، أنه لم ير أمه بمثل هذا الجمال من قبل. تأمل بشرته اللامعة، ويديه وقدميه النظيفة، وشعر بارتياح عميق، وبدأ يفهم سر حب ماسيج لهذا المكان.

تجمعوا، بعد عشر دقائق، في شارع بالخارج. تمكن نيال من رؤية المدينة بوضوح، في ضوء النهار الساطع، وشعر، في الحال، بالخوف والانفعال. فقد ارتفعت

البنايات الرمادية السامقة، فوقهم، مثل الأجراف، وامتدت بينها أنسجة العناكب بخيوطها التي تماثل الحبال، بعضها أفقي الشكل، والآخر رأسي. بدا واضحاً أن العديد من هذه الأنسجة موجود منذ سنوات، إذ كانت سميكة، وقد تراكم فوقها الغبار. اصطدمت ذبابة ضخمة، يماثل حجم جسمها رأس إنسان، في أحد هذه الأنسجة، فسقطت بقايا أشياء كانت معلقة في النسيج، من بينها أجنحة ذباب نفق منذ أمد. ارتدّت الذبابة، وصعدت إلى أعلى، لكنها اصطدمت بنسيج آخر، غير مرئي، فأخذت تئزّ بداخله، باهتياج شديد. اندفع، في اللحظة ذاتها، عنكبوت أسود عبر النسيج، وقفز فوق الذبابة، وبعد ثانية، توقّف الأزيز، وتعلقت دون حراك بعد أن ربطها العنكبوت في الحرير. فهم نيال الآن، سبب ترك العناكب لنسيجها القديم معلقاً، بدلاً من امتصاصه من جديد لداخل أجسامها، بالطريقة الاقتصادية، التي يتبعها معظم العناكب. لقد حرصت الكائنات الطائرة على تجنب خيوط النسيج القديمة، التي بدت واضحة، لكنها سقطت في الخيوط الجديدة، الشفافة تقريباً.

وقف الرجال في وضع الانتباه، بعد أمر من دارول، ثم راحوا يسيرون، بناء على أمر آخر، عند مفترق في الطريق، اتجهوا يميناً ليدخلوا شارعاً أكثر اتساعاً. شعر نيال بنشوة، وهو يرى، في البعيد، البرج الأبيض يلوح في الأفق الأزرق.

مروا بجانب مجموعة من الرجال، يسيرون في الاتجاه المعاكس. عرف نيال، بنظرة خاطفة، أنهم العبيد الذين تحدث ماسيج عنهم. ارتدوا أسمالاً رمادية ضافية، وراحوا يسيرون متثاقلين، ووجوههم مشدوهة، ويسيل من أفواههم اللعاب، وعيونهم تائهة، وأطرافهم تبدو ملتوية ومشوهة. همس نيال في أذن ماسيج، قائلاً: إلى أي مكان يذهبون؟

هزّ كتفيه، وقال: إلى العمل. إنهم إما مجموعة المراحيض، أو مجموعة المجاري.

بدا هذا الشارع المتسع، في حالة أفضل من الشوارع الأضيق. وكانت بناياته شاهقة الارتفاع، فلم يستطع نيال، رغم إلقاء رأسه للخلف، رؤية نهايتها. وظهرت القباب فوق بعض هذه البنايات. وكان هناك مبنى ضخم، مربع الشكل، من الرخام الأخضر، له أعمدة مثل تلك الموجودة في المعبد المتهدم في الصحراء. وضمت بنايات أخرى، نوافذ في الطابق الأرضي، مصنوعة من مادة صافية، شفافة، عاكسة للضوء. وقد اكتسى مبنى آخر بأكمله بهذه المادة، فعكست أسطحها المستوية الغريبة، البنايات المجاورة على نحو مشوّه. حاول نيال أن يتخيل شكل السكان الأصليين، الذين عاشوا في

هذه المدينة الرائعة، لكنه وجد أن المهمة تتجاوز تجربته المحدودة. فلم يتمكن من التوصل لشيء، سوى أن يفترض أنهم عمالقة، أو سحرة. ولكن في هذه الحالة، كيف استطاعت العناكب هزيمتهم؟

كان الشارع أطول مما بدا. مضى نصف ساعة، قبل أن يصلوا إلى ساحة مفتوحة، واسعة، في مواجهة البرج الأبيض مباشرة، مرصوفة بمادة ناعمة، تشبه الرخام، في أقصى طرفها توجد المرجة الخضراء الزمردية المحيطة بالبرج الأبيض، وينتصب في مواجهته، عند نهاية الشارع، مبنى شاهق الارتفاع، ازدانت واجهة طوابقه السفلى برخام أسود، بينما بدا الجزء العلوي في حالة جيدة. ارتفع هذا المبنى ليتجاوز أي مبنى آخر في الساحة. كما بدا مختلفاً عن البنايات الأخرى المماثلة. إذ لم يكن له نوافذ. عندما حدق فيه نيال عن قرب، وجد نوافذه وقد أغلقت تماماً، بمادة بيضاء، فبدت كمربعات باهتة، وسط اللون الرمادي الذي يحيط بها. أعطى المبنى، الذي يقع في مواجهة البرج الأبيض، عبر الساحة المفتوحة الواسعة، انطباعاً لا يمكن تجاهله، بالتحدي السافر للبرج.

شكلوا، بناء على أوامر دارول، صفين أمام الواجهة السوداء. ثم أمر نيال وڤيج وسيريز بأن يقفوا معاً في أحد الجوانب. خرجت، بعد دقائق قليلة، امرأة من المبنى. ظن نيال، للحظة، أنها أودينا، لكنه اكتشف أن هذه المرأة أطول قامة، وارتدت زياً من مادة سوداء لامعة كشف عن ذراعيها.

صاح دارول: انتباه. للأمام انظروا!

اتجهت المرأة نحوهم، وتفقدت، بنظرة صارمة متفحصة، الرجال الذين حملقوا أمامهم وكأنهم صنعوا من خشب. وقفت، عند منتصف الصف، أمام رجل، أقصر قامة من الآخرين، بمسافة قليلة، ومفتول العضلات، وله ذقن تماثل صخرة.

قالت له: عيناك تحركتا.

ردّ الرجل، وهو مايزال يحملق أمامه: آسف، يا قائدة!

رفعت المرأة يدها، كما لو أنها ستلطم وجهه، فشدّ الرجل عضلاته لتلقيّ اللطمة. ثم بدا، على حين غرة، أنها غيّرت رأيها. أطبقت قبضتها، ثم ضربته، بقوة هائلة، في فم معدته. أخذ الرجل يلهث ويتلوى. تراجعت المرأة، ثم ركلته في وجهه. كان ثقيل الوزن، فلم تنجح الركلة في زحزحته للخلف، لكنه سقط على ركبتيه. تراجعت المرأة من جديد، وركلته مرة أخرى، تحت ذقنه. أخذ الرجل يئنّ، ثم انهار بينما تمددت ذراعاه، وانسال خيط من الدم فوق الرخام. لم يتحرك أحد من الآخرين من مكانه قيد

أنملة. ألقت القائدة بنظرات خاطفة على الصف، حتى تتأكد أن أحداً لم يتحرك، ثم سارت واستكملت تفقدها. عادت في النهاية إلى دارول.

ـ حسناً، وزع عليهم مهامهم!

ثم اقتربت لتقف أمام نيال، وڤيج، وسيريز، الذين حاولوا الوقوف في وضع الانتباه دون حراك. لاحظ أن ابتسامة واهنة ساخرة ندت عنها.

ـ مَن منكم نيال؟

قال نيال، بعد أن تجرأ بالكاد على تحريك شفتيه: أنا.

تطلعت إليه في دهشة، قائلة: آه!

وقفت أمام ڤيج لفترة طويلة من الوقت، وتحسست عضلاته، ثم ضربته بخفة في معدته بقبضتها قائلة: إنك أقوى مما تبدو.

حملق ڤيج أمامه، دون أن يتحرك.

نظرت بازدراء إلى سيريز، وتحسست ذراعها، ثم مرت بيدها فوق جسمها، شعر نيال بأن أمه تبذل أقصى ما في وسعها حتى لا تجفل.

قالت لها: تبدين قوية، لكنك بحاجة إلى أن تكوني بدينة. كما أننا سوف نتدبر أمر ثدييك.

دارت على عقبيها، ثم فرقعت بأصابعها قائلة: اتبعوني!

سارت عائدة إلى المبنى ذي الواجهة السوداء. تبادل نيال وڤيج، النظرات، ثم سارا في أثرها. راح دارول، خلفهما، يصدر الأوامر.

كانت الأبواب المزدوجة، للمبنى، مرتفعة وعريضة. وقف في الخارج، في ظل رواق الأعمدة، عنكبوتان ذئبيان للحراسة. كان من الواضح، أنهما من مرتبة متدنية، فقد تجاهلتهما المرأة، التي اقتادت نيال وڤيج وسيريز إلى مدخل خافت الإضاءة، فاحتاج الأمر إلى بعض الوقت، حتى تتعود عيونهم الظلام، بعد ضوء النهار الباهر. رأوا عن يمينهم، درجاً رخامياً عريضاً، ووقف عنكبوتان ذئبيان آخران، أمامه. ورغم أن نيال رآهما بصعوبة، في الظلام، إلا أنه لاحظ باهتمام، متابعتهما له بفضول، وشعر بالنبضة التي مرت بينهما.

ساروا خلفها إلى الطابق التالي، حيث توقفت لتتحدث إلى امرأة ارتدت الزيّ الأسود ذاته، وبدت، في الضوء الخافت، وكأنها شقيقتها التوأم. شعر نيال في هذا

المكان بذبذبات إرادات قوية ،' صادرة من باب مفتوح. حدق فرأى قاعة واسعة ممتلئة بالعناكب الذئبية، التي وقفت في صفوف منتظمة، فوق منصة مرتفعة، ووقف أمامها، عنكبوت موت أسود هائل، يصدر لها الأوامر، أو ما يمكن أن يكون أوامر، بلغة الإنسان. كانت ذبذبات إرادة التخاطر، بالغة القوة، مما جعل فُيج نفسه يشعر بها. لكنها بدت بعيدة عن إطار سيريز العقلي، رغم أنها دُهشت، عندما تردد صدى صيحة غاضبة هائلة، في أركان المبنى.

أنهت المرأة محادثتها، وأشارت إليهم أن يتبعوها، مرة أخرى. قادتهم إلى ثلاث مجموعات أخرى من الدرج، كل مجموعة يحرسها عنكبوتان ذئبيان. أما المجموعة الثالثة، فقد كستها سجادة سميكة، شعروا بنعومتها تحت أقدامهم. أما الحارسان اللذان وقفا عند قمة هذه الدرجات، فكانا من عناكب الموت. تحدثت المرأة إليهما قائلة: لقد جاء الأسرى، لمقابلة سيد الموت.

لاحظ نيال أنها تتحدث، بصوت عالٍ واضح النبرات، كما لو أنها تتحدث لشخص ثقيل السمع. فهم العنكبوتان، من ذبذبات صوتها، دون أن يتمكنا من سماعها، ما تريده. بعث أحدهما برسالة إلى المرأة تعني «أدخليهم!». فهمت المرأة في الحال الأمر، وكانت هذه المرة الأولى التي يلاحظ فيها نيال قيام اتصال مباشر بين إنسان وعنكبوت.

أومأت إليهم، فشعر نيال، فجأة ولأول مرة منذ دخوله المدينة، بذعر بالغ. تذكر قصص جومار عن «شيب» ذي المائة عين، وأسطورة الخيانة العظمى، عندما علّم الأمير «هالات»، شيب الطريقة التي يفهم بها أسرار الروح البشرية.

اكتسحه هذا الإحساس بالقلق في الحال، كما لو أنه عاصفة مفاجئة. وكلما حاول تهدئته، حطمت موجات الذعر، دفاعاته. ما الذي يمكن أن يحدث، إذا ما عرف سيد العناكب أنه المسؤول عن موت العنكبوت في الصحراء؟ فكر، في لحظة جنون، في الاعتراف بكل شيء، وطلب الرحمة من سيد العناكب. أحس ببارقة أمل، لكنه سرعان ما تذكر جثة أبيه المنتفخة، وعرف أن هذا مجرد وهم.

اكتسى الباب الأسود، في مواجهته، بمادة لامعة، تماثل زي المرأة، ثبتت بمسامير صفراء لمعت في الضوء الخافت. بدا أن عنكبوتي الموت اللذين وقفا يحرسان الباب، ينتظران صدور أمر لهما. حدّق نيال، وقد تجمد من الرعب والبؤس. ثم لاحظ أن مرافقتهم تشعر أيضاً بالتوتر، فأدخلت هذه الملاحظة، لسبب ما، الارتياح إلى نفسه، ربما لأنها قد ركلت رجلاً في وجهه، ولكن ثمة سبباً آخر أعمق لارتياحه، لم يستطع معرفته.

وجد نفسه يفكر في القلعة الكائنة فوق الهضبة، فساعده هذا التفكير، على مواجهة الذعر. أخذ يفكر في أن البشر هم الذين شيدوها، وأنهم كانوا، في وقت من الأوقات، سادة الأرض، فجعله هذا يلملم أطراف شجاعته المبعثرة. ركز بقوة، فوجد أنه من الصعب الاستمرار في مواجهة الذعر، ولكنه واصل التركيز. ثم توهجت، فجأة، نقطة الضوء داخل جمجمته، فعادت إليه سيطرته على نفسه وتفاؤله. أدرك، خلال لحظة الهدوء التي تلت ذلك، أنهم لا ينتظرون لحظة مثولهم أمام سيد الموت. حيث أنهم في حضرته بالفعل. فسيد الموت هو الذي أرسل ذبذبة الذعر تلك، التي كادت تدمر سيطرته.

انفتح الباب، فانبطحت مرافقتهم، على الأرض. ثم دخلت، بناء على أمر من الحارس، إلى الحجرة على يديها وركبتيها. كانت في غاية التوتر، فنسيت أن تومىء إليهم أن يتبعوها. تقدمت سيريز، وأخذت بأيدي ابنيها، لتكون أول من يجتاز عتبة سيّد الموت.

أدرك نيال، بدهشة، أن هذه القاعة المظلمة، مألوفة لديه، وكذلك العيون الخفية التي راقبته، من نفق الخيوط الرمادية. إنه المكان الذي رآه، عندما حدق في البئر عند الحجر الرملي الأحمر.

أصدرت إرادة الكائن غير المنظور، أمراً، فزحفت المرأة إلى جانب الحجرة، وظلت راكعة. راحت العيون تتأمل، وسط الظلال، الأسرى الثلاثة، وتحاول قراءة أذهانهم. لم يظهر شيء بين الخيوط، ولو مجرد حركة طفيفة. ظل نيال ساكناً، حيث أدرك أن أقل حركة، سواء بجسمه أو عقله، يمكن أن تعرضهم جميعاً للخطر.

انتابه إحساس غريب، وهو يواجه هذه الشبكة من الخيوط، ويدرك وجود شخصية تحدق فيهم من وسط الظلام. لقد أدرك من قبل، عندما كان طفلاً، أن أحداً يتطلع إليه من وراء رأسه. أما هذه المرة، فقد بدت مماثلة، لكنها أقوى مائة مرة. كان الملك كازاك، قبل هذه اللحظة، أقوى شخصية التقى بها. لكن كازاك بدا طفلاً، بالمقارنة مع الإرادة التي تسبر غور إرادته الآن.

لم يحاول نيال، تقليد الذبذبات الذهنية لعنكبوتة الخيمة، فقد أوحت له غريزته، بأن هذه المحاولة لن تكون مجدية. فهو يتعامل مع كائن يفوقه ذكاء بكثير، ولن تنطلي عليه الخدعة. وبدلاً من ذلك، أغلق ذهنه، في الوقت الذي بدا أنه قد تركه مفتوحاً وسلبياً.

لطمته ضربة عنيفة في صدره، فألقت به. سقط على الأرض الخشبية، محدثاً ضجة شديدة. تطلعت سيريز، التي سمعت الضجة لكنها لم تشعر بشيء حولها، في دهشة، ثم

هرعت لمساعدته. أصابتها لطمة أخرى خفية، فسقطت مترنحة على ركبة واحدة. حدق ڤَيج حائراً فيهما، وتساءل عما يجري. فقد شعر كما لو أن أمه وأخاه، يطرحان نفسيهما أرضاً على نحو مفاجىء في حركة عشوائية.

صاح صوت، داخل صدر نيال قائلاً: انهض! . بدا الصوت واضحاً، كما لو أنه يهمس في أذنه. اصطدم دافع نيال، لاطاعة الأمر، بدافع آخر أعمق، طلب منه تجاهله، وهذا الدافع بدا مثل أمر مضاد، وتغلب على خوفه.

قال الصوت، من جديد: انهض! . أخذ نيال وضعية الجلوس، ثم نهض متثاقلاً. أصيبت كتفه بكدمات، بينما ارتجّ رأسه من الاصطدام بالأرض. ومع ذلك كان للألم الجسماني مزاياه. فقد مكنه من إبعاد ذهنه عن الإرادة القاسية، التي حاولت إجباره على كشف النقاب عن نفسه.

شعر بالقوة تحاصر جسمه، مثل قبضة هائلة تعصره. حاولت أن تظهر له، أن بإمكانها، إذا شاءت، أن تطحنه فتحوله إلى عجينة. تيقن من إمكانية حدوث هذا، لكنها لم ترهبه. أوحى إليه منطق حدسي أن معذبه الخفي، ما كان ليحاول إخافته، لو أراد القضاء عليه.

بدا الأمر لڤيج وسيريز، كما لو أن نيال يطفو فوق الأرض، ويحوم في الهواء. ثم رأى ڤيج الألم، على وجه أخيه فهرع نحوه. التقت يداه، بكتفي نيال، اللتين تعرضتا للضغط والاعتصار، وحاول أن يشده إلى الأرض، مرة أخرى. ضربت القوة ڤيج، وجعلته يتدحرج على أرض الحجرة، إلى أن اصطدم بالجدار. صرخت سيريز، وهرعت لمساعدته، وفي هذه المرة، سمح لها بالوصول إليه. وفي اللحظة ذاتها، تم تحرير نيال، فجأة، فسقط على ركبتيه.

هبت الحارسة واقفة، عندما اصطدم ڤيج بالجدار، على بعد بضعة أقدام منها. صرخت قائلة: «قف في وضع الانتباه!»، لكن نيال أدرك أن الأمر ليس صادراً منها، بل من ذلك المراقب، وسط الظلال.

أطاعوها، على نحو آلي. وقف ثلاثتهم، محدقين في الظلام، بانتظار ما سيحدث بعد ذلك. أدرك نيال، أن سيد الموت متردد في قتلهم، كما اكتشف حقيقة لا يمكن تصديقها، وهي أن هذه الإرادة القوية، التي تواجههم، انقسمت على نفسها، وتعاني من الاضطراب. راوغتها طبيعة الصراع. عرف أن سيد الموت يريد قتلهم، لكنه ارتأى، في الوقت ذاته، أن هذا لن يكون مجدياً.

لم يكن خائفاً، بعد أن باتت حياته معلقة في الميزان، ولم يكن هناك وقت للخوف، وبالتالي، لم يشعر بالارتياح، عندما أدرك، بعد لحظة، أنه قد تقرر الابقاء على حياتهم.

قال الصوت في صدره: «بإمكانكم الذهاب». كاد، للحظة، أن يتحرك. أوقفته، مرة أخرى، نبضة أعمق. بدا كما لو أن شخصاً ثالثاً، موجود داخله. وقف منتظراً، والدقائق تمر. خيم جو من الصمت المطبق، في الحجرة ولم تحدث أدنى حركة، بين خيوط النسيج.

أحس بصدور الأمر، قبل أن تترجمه الحارسة. صاحت: «استديروا!» وحينما أطاعوها، قالت: «اتبعوني!». فتحت الباب، وتنحت حتى يمرّوا. ثم انحنت، قبل أن تغلق الباب، من جديد. أدرك نيال أن المراقب الخفي استمر في مراقبته، وهم يتبعونها، هابطين الدرج. توقف عن المتابعة، عندما أصبحوا في الخارج، تحت ضوء الشمس.

بدا أن ڤيج وسيريز، قد أصيبا بصدمة عنيفة، فكلاهما اعتقد أنه بات على حافة الموت، بل إنهما لم يصدقا أن الخطر قد زال.

أدركت الحارسة، أن أمراً غريباً قد وقع، وأن نيال مسؤول إلى حد ما عنه. تطلعت إليه، مستغربة، محاولة فهم سبب اهتمام السيد، الذي سيطر على مصائر العديدين، بهذا الشاب النحيف، ذي البشرة التي لفحتها الشمس، والعينين الزرقاوين، والملامح الحادة.

كان بمقدور نيال أن يجيب على تساؤلها. فقد عرف الاجابة، منذ اللحظة التي سمع فيها صوت سيد العناكب، داخل صدره، وشعر بالقوة الهائلة لإرادته، تعتصر جسمه.

لقد التقى الاثنان، من قبل. وتواجه ذهناهما، الواحد في مواجهة الآخر، عندما حدق نيال في الحوض، في الصحراء الحمراء. ومنذ ذلك الوقت، وسيد الموت، يسعى بفضول لمعرفة المزيد عن هذا الكائن البشري، الذي يستطيع ذهنه، أن يتجاوز حواجز المكان. أراد أن يعرف ما إذا كان نيال يدرك طبيعة قواه، ويعرف طريقة السيطرة عليها.

وبعد أن شاهد نيال، الآن، فإنه لم يعرف عنه سوى القليل. وظلت الأسئلة، معلقة دون إجابات. لكنه قادر على الانتظار، فصبر العنكبوت، ليس له حدود.

جلس رجل، واضعاً رأسه بين يديه، عند حائط منخفض يحيط بالمبنى، نهض، متخذاً، وضع الانتباه، عندما اقتربت الحارسة. أدرك نيال أنه ذلك الرجل، الذي ركلته

في وجهه. تورّم أحد خديه، على نحو بشع، وجرحت قصبة الأنف، وتكونت هالة سوداء حول عينه.

قالت له المرأة: خذ هؤلاء إلى المشرف!
أومأ الرجل، بينما استدارت، عائدة إلى المبنى.

قال لهم الرجل: «هلموا!»، وقادهم، عبر الساحة، إلى عربة ذات عجلتين، تقف فوق العشب. رفع عريشيها، وطلب منهم، أن يصعدوا. قالت سيريز، التي نظرت بتعاطف إلى وجهه المتورم: «بإمكاننا السير على أقدامنا. قل لنا فقط الطريق الذي نسلكه!».

هزّ الرجل رأسه، وعرف نيال أنه لن يوافق. قال لهم: «عليّ أن أطيع الأوامر». فصعدوا، على مضض، فوق العربة.

لاحظ نيال الآن، ولأول مرة، رجالاً عند قاعدة البرج الأبيض، وأن واحداً منهم ارتدى ثوباً قصيراً أصفر. ربت على كتف الرجل، وقال: ماذا يصنعون؟

ألقى الرجل نظرة خاطفة، عبر العشب، بشيء من عدم الاهتمام، وقال: إنهم رجال الخنافس. ليس مسموحاً لنا، التحدث إليهم.

- ولِم؟
- لا أدري. لا نطرح أسئلة.

ثم أخذ الرجل يهرول، فأخذوا يهتزون في مقاعدهم. نظر نيال خلفه، في فضول، تجاه البرج. كان الرجال ينقلون براميل، من عربات ذات أربع عجلات، ويضعونها عند قاعدة البرج. لاحظ أن الرجل الذي يرتدي ثوباً قصيراً أصفر، هو الذي يصدر الأوامر إليهم.

هرول سائق العربة، في الشارع العريض، وبدا واضحاً أنه لم يبذل جهداً. كان الشارع خالياً من المارة، باستثناء القليل من العناكب الذئبية، ومجموعة من العبيد، تسير في البعيد. مال نيال للأمام، وسأل سائق العربة: «أين الناس!».

قال الرجل، باقتضاب: يعملون.

اتصل نيال ذهنياً، بذهن سائق العربة، فلاحظ مندهشاً، أنه لا يشعر بأي استياء تجاه المرأة التي ركلته، بل أحس أنه المخطىء، ويستحق العقاب. وجد نيال في هذا الموقف، أمراً غير مفهوم.

توقف سائق العربة، أمام مبنى أخضر اللون، ذي أعمدة مماثلة لأعمدة المعبد المتهدم، ثم وضع العريشين على الأرض، وساعدهم على النزول.

قال لهم: سنمضي في هذا الطريق.

تقدمهم، صاعداً سلسلة من الدرجات شديدة التآكل، ليصلوا إلى بابين برونزيين، عليهما نقوش دقيقة، ثم فتح أحدهما، فوجدوا أنفسهم داخل قاعة واسعة، ذات أرضية من الرخام الرمادي. اصطفت بجوار الحائط، مقاعد رخامية. ملأ ضوء الشمس المكان، نتيجة لوجود نوافذ واسعة.

راحت امرأة تصعد الدرج العريض. تنحنح سائق العربة، وقال: «معذرة...».
استدارت المرأة، وقالت: يا إلهي، سيريز! ما الذي تصنعينه هنا؟.

تعرفت سيريز على الصوت، وتطلب منها الأمر لحظة، حتى تربطه بالوجه. ثم صاحت: «انجيلد!»، وهرعت نحوها تعانقها. أخذت المرأتان، لبضع لحظات، تقهقهان، ورفعت انجيلد، سيريز من على الأرض. لاحظت وجود سائق العربة، الذي جثا على ركبة واحدة.

سألته: أين ستذهب بهم؟
- إلى المشرف، يا سيدتي.
- حسناً. سوف أصطحبهم. انتظر في الأسفل.

نظرت إلى نيال وڤيج، وقالت: إذن لقد أسرتكما أيضاً. كنت اعتقد ذلك.

سألتها سيريز: هل أنت أسيرة؟
ابتسمت انجيلد ورفعت حاجبيها ثم قالت: ليس بالضبط....
نظر ڤيج إلى بطنها، وقال: أظن أنك كنت حاملاً؟
قالت انجيلد، بصورة عرضية: كان، لحسن الحظ، حملاً كاذباً.

تبادل نيال وڤيج نظرات خاطفة. عرف نيال ما يفكر فيه أخوه، وهو أن انجيلد اختلقت قصة حملها، حتى تقنع أولف، باعادتها إلى ديرا.

لفّت انجيلد ذراعها حول خصر سيريز، قائلة: هلمّي، لتري كازاك!
قالت سيريز التي تعرف الاسم حق المعرفة: كازاك؟
- نعم، إنه المشرف.
أومأت إليهم، ثم تقدمتهم في صعود الدرج.

بدا واضحاً أن انجيلد قد تغيرت كثيراً، منذ آخر مرة رأوها فيها. فقد أصبح شعرها الأسود، مصففاً الآن على نحو بديع، وعُقد فوق رأسها، وثبتته بحلية ذهبية، كما ازداد وزنها، فبات جسمها جميلاً. ارتدت ثوباً قصيراً أبيض لامعاً، أظهر روعة ساقيها البرونزيين، وانتعلت خفاً أبيض. بدت شفتاها أكثر حمرة عن ذي قبل، من الواضح أنها تنعم بالرفاهية والصحة. بدت سيريز، بجانبها، نحيفة، وذات بشرة لفحتها الشمس.

كان الطابق التالي، محبطاً للآمال إلى حد ما، في مكان مثل هذا القصر. فقد شاهدوا دهليزاً عريضاً بسيطاً، على جانبيه العديد من الأبواب. وقف حارسان أمام الأرض. وبدلاً من أن يبتسما له في ودّ ـ كما توقع ـ فقد حملقا ببلاهة، واستقاما في وقفتيهما، عندما مرت انجيلد من أمامهما.

كانت أروع حجرة رآها نيال حتى الآن. فقد كست الأرضية، سجادة خضراء ملكية، وسدلت فوق الجدران، ستائر خضراء ثقيلة. أما السقف فكان ذهبي اللون، تدلت منه ثريات هائلة تلألأت بالبلور. لم يكن بالحجرة أثاث، ولكن الأرضية امتلأت بالوسائد. اتكأ كازاك، في طرف الحجرة، فوق كومة منها، بينما راحت امرأتان تجلبان الهواء حوله، بمراوح مصنوعة من ريش النعام. عبرت وجهه، ظلال ضيق، عندما رأى غرباء يسيرون في أثر انجيلد، لكن هذا الضيق تحول إلى دهشة، عندما شاهد نيال. بدأ يستعد للوقوف، فأسرعت المرأتان لمساعدته.

ـ ابني العزيز! إن هذا لمذهل. لماذا لم يخبرني أحد بأنك هنا؟
احمر وجه نيال لهذا الترحيب الحار.

ثم استمر كازاك قائلاً: أمن الممكن أن تكون هذه سيريز؟ نعم، بالطبع، إنها هي! إنك تبدين مثل أختك. مرحباً يا عزيزتي. طيب، طيب، وأنت . . . ؟

ـ ڤيج.
ـ نعم، ڤيج، بالطبع. وأين . . .
حاول أن يستجمع الاسم، ثم قال «وأين أولف؟».
قالت سيريز: قتلته العناكب.

هزّ كازاكِ رأسه، وكذلك لغده، ثم قال: «يا له من أمر فظيع. أنا جدّ آسف. تفضلوا بالجلوس». ثم نظر إلى إحدى المرأتين، وقال: «احضري لنا بعض الشراب!» وواصل حديثه قائلاً: نعم، أجلسي هناك يا عزيزتي!». لاحظ نيال بريق الاهتمام في عينيه، عندما تطلع إلى سيريز، ثم أردف: «أجلس، يا نيال، وأنت يا . . .» بدا واضحاً أنه نسي اسم

ڤيج. استطرد: «نعم، أنا جد آسف، لسماع نبأ مقتل أولف. لكنه قتل، بطبيعة الحال، عنكبوتاً، أليس كذلك؟».

قال نيال: ذلك هو السبب الذي جعلنا جميعاً هنا.

كاد أن يطلعه على حقيقة الأمر، لكنه غيّر رأيه، حيث اعتقد أن من الأفضل الاحتفاظ بهذا السر بين أقل عدد ممكن.

سألته سيريز: أين سيفنا؟
- إنها في حيّ النساء. سوف تتمكنين من الانضمام إليها، في وقت لاحق.
- وهل سأتمكن من رؤية طفلتيّ - رونا ومارا؟
- آه، نعم، أنا على يقين، من إمكانية ترتيب ذلك.

عادت الفتاة، حاملة صحفة عليها أكواب معدنية طويلة. كان الشراب الذهبي، طيباً وبارداً، وله نكهة الليمون. أما شراب كازاك فقد وضع في كوب فضي، مطعّم بأحجار كريمة. قال وهو يربت على فخذ الفتاة «أشكرك، يا عزيزتي!» ثم ابتسم لسيريز قائلاً: «لنشرب نخب صحتك، يا عزيزتي!». لمح نيال، بطرف عينه، ظل غيظ، عبر وجه انجيلد.

سأل كازاك: مَن الذي أرسلكم إلى هنا؟
- امرأة ترتدي ثوباً أسود لامعاً.
رفع حاجبيه، وقال: إحدى خادمات سيد العناكب. كيف التقيتم بها؟
- لقد اصطحبتنا لمقابلته.

بدا واضحاً أن كازاك قد شعر بالارتباك، فقال: ورأيتم السيد العظيم شخصياً؟ ولكن لِم؟

ترك نيال، ڤيج وسيريز، يصفان له ما حدث. أصاخ كازاك السمع بتركيز، وعبرت عينيه، نظرات فضولية، متأملة، وحينما انتهيا من الوصف، نظر إلى نيال قائلاً: أتفهم، لِم كل هذا؟

قال نيال محاذراً: أظن أن للأمر علاقة بمقتل العنكبوت.
سأله كازاك بسرعة: هل سألك عن ذلك؟
- لا.
- إذن فليس من الممكن أن يكون الأمر كذلك.

ثم ألقى على نيال، نظرة متفحصة سريعة، فأحس بقوة شخصيته، وقال: هل أنت على يقين من أنه ليست لديك فكرة؟ كن صريحاً معي! فأنت بين أصدقاء.

قاوم دافع عميق، مماثل لذلك الذي صحح موقف نيال، في حضور سيد العناكب، أي باعث حركه لقول الحقيقة. هزّ رأسه بحزم، وقال: ليس لدي فكرة.

احتسى كازاك شرابه متأملاً، ثم قال: «آه. هذا أمر غريب». وراح، على مدى الدقائق العشر التالية، يستجوبهم بحرص، طالباً منهم أن يصفوا له كل ما حدث، منذ أن تمّ أسرهم. قصّ نيال رواية حقيقية، دقيقة، لكنه أدرك أن كازاك لم يشعر بالارتياح. أحس الملك، بالحدس الذي يتمتع به، أن الحل لهذا اللغز يكمن عند نيال نفسه، لكنه لم يستطع أن يجزم بما إذا كان يحجب أمراً عنه أم لا. وقد لاحظ نيال، المرة تلو الأخرى، نظرة الملك المتفحصة، تحاول اختراقه، للوصول إلى سره.

تململت انجيلد، في جلستها. وحينما توقف كازاك عن الكلام، ليحتسي رشفة من شرابه، قالت له: هل لي أن أصحب سيريز لرؤية حيّ النساء.

هزّ كازاك رأسه، وقال: نعم، أظنّ ذلك. ومن الأفضل أن تصحبيها لرؤية طفلتيها. ثم ابتسم لسيريز، واستطرد: هذا ضد اللوائح، ولكن من أجلك...

تساءلت سيريز: أيسمح لي بالبقاء معهما؟

هزّ رأسه، قائلاً: هذا مستحيل يا عزيزتي!. ستوضح انجيلد لك الأسباب. ولكن لا تيأسي. أنا على يقين، أن بإمكاننا ترتيب ذلك.

ثم لمسها بخفة تحت ذقنها، وأضاف: سوف أحدثك في هذا الأمر، فيما بعد.

نهض واقفاً، وسار معهم مجتازاً الحجرة، وقد وضع يده فوق كتف سيريز. وعند الباب، استدار إلى نيال وڤيج، وقال: «سيتعين عليكما أنتما الاثنان العمل، بطبيعة الحال. هذه هي اللوائح هنا. على الجميع أن يعمل، حتى أنا مضطر لذلك. ولكن لستما مضطرين للبدء الآن، وبإمكانكما الانتظار حتى الغد». وربت على كتفيهما، ثم استدار عائداً، بعد أن أذن لهم بالانصراف.

سأل ڤيج، انجيلد عند الممر: ما نوع العمل الذي يؤديه؟

ـ نوع العمل؟ إنه الملك!

ـ وماتزال تسمح له بأن يكون ملكاً، حتى هنا؟

ـ نعم. إنه يتولى، في الواقع، مسؤولية الإشراف على كل البشر هنا.

شعرت بالسعادة، وهي توضح لهم الأمر. أضافت: إنه بمجرد أن رأى سيد العناكب، كازاك، أدرك أنه الشخص، الذي يحتاج إليه. إن الناس هنا في منتهى الغباء، كما ترى، والعناكب بحاجة إلى من يقوم بتنظيمهم.

قال نيال: أظن أن القائدات تفعل ذلك.

- نعم، ولكن كل القائدات متساويات، ولذلك لا تستطيع تعيين واحدة منهن رئيساً على الأخريات.

- أليس بمقدورها تعيين عنكبوت؟

- كلا. لن يحدث مثل هذا الأمر. فأولاً، لا تفهم العناكب البشر، كما أنها لا تستطيع، بطبيعة الحال، التحدث.

ثم ألقت بنظرة خاطفة، من فوق كتفها، وأضافت: وبالمناسبة، يتعين علينا ألا نسميها عناكب - فهي لا تحب هذه التسمية. وينبغي أن نشير إليها على أنها سادة.

فتحت امرأة الباب، وهم يعبرون القاعة، ودخلت. انتفض قلب نيال، حينما عرف أنها ميرلو. نادت انجيلد عليها، قائلة: «انظري، من جاء إلينا!».

تطلعت ميرلو إلى نيال، بدهشة يشوبها السرور، وقالت: إنه المصارع الشاب. فاحمر وجه نيال.

بدت بشرة ميرلو وقد لوّحتها الشمس، ولاحت في ردائها الأبيض القصير، رائعة الجمال. أدرك، وقد طفر فؤاده، أنه وجدها أكثر فتنة عن ذي قبل.

شعر بالغيرة، عندما ابتسمت لفَيج.

تساءلت ميرلو: إلى أين أنتم ذاهبون؟

- سأصطحبهم إلى الحضانة. لِم لا تأتين معنا؟

- لا. شكراً. يتعين علي أن أصنع بعض الثياب. ولكن لِم لا توجهين لهم دعوة على العشاء هذا المساء؟

بدا واضحاً أن هذه الفكرة، لم ترق لانجيلد، فقالت: «ينبغي أن أسأل أباك، أولاً».

قالت ميرلو: هراء. إنني سيدة هذا البيت. وأنا أدعوهم.

احمر وجه انجيلد، وقالت: طيّب. عليك أن تتحملي المسؤولية.

ابتسمت لهم، قائلة: سأتحمّلها. أراكم الليلة.

لاحظ نيال التعبير على وجه ڤيج، وهو يحدّق فيها، بعد أن سارت. لقد حققت ميرلو فتحاً آخر.

عندما خرجوا، نهض سائق العربة، واقفاً، لكن انجيلد، نظرت إلى العربة ذات العجلتين، بازدراء، قائلة: «إنها تبدو غير مريحة، إلى حد كبير. من الأفضل أن نستقل عرباتنا». ثم لوحت للسائق بأن ينصرف قائلة: «بإمكانك أن تذهب». عادت بهم إلى داخل المبنى، ثم خرجت إلى فناء ممهد. رأوا سائقي عربتين يجلسان تحت الظل، يلعبان بعصي خشبية منقوشة. حينما فرقعت انجيلد بأصابعها، نهضا واقفين. لمح نيال ابتسامة رضا تعلو وجهها، من الواضح أنها تستمتع بعرض قدراتها وسلطاتها، أمام أقاربها.

أدرك نيال سبب تفضيلها لعربتها، ذات العجلتين، التي بدت واسعة وتتسع لنحو ستة أشخاص، وذات مقاعد وثيرة ومريحة. كانت مصنوعة من خشب أصفر فاتح، ولها عجلتان كبيرتان وأنيقتان. حينما أخذوا أماكنهم فيها، قالت انجيلد: إلى حي النساء. فانطلق بهم السائقان، خارجين من خلف المبنى.

التفتت سيريز إلى انجيلد، وقالت: هل يتعين عليك أن تعملي؟

رفعت انجيلد حاجبيها، وقالت: «لا. في هذه المدينة، يقوم الرجال بمعظم الأعمال. إن العناكب تنظر إلى النساء على أنها نوع أرقى، وهذا أمر سارّ». ثم ابتسمت لنيال وڤيج، وأضافت: ««لكنني لا أعمل، على كل حال. بإمكانك أن تقولي، إنني الملكة».

ـ أتزوجت من كازاك؟
ـ لا، ليس بالضبط. لكنني مسؤولة عن بيته.
قال نيال: اعتقد أن ميرلو هي المسؤولة.
ردّت ببرود: إننا نتقاسم العمل.

عندما اقتربوا من البرج الأبيض، رأى نيال الساحة الرئيسية، وقد تحولت إلى شعلة نشاط. بدت مزدحمة بالحشرات الخضراء الضخمة. سأل انجيلد: ما هذه؟

اكتسى وجهها بالازدراء، وقالت: «إنها الخنافس. لا أستطيع أن أتصور، ما الذي تصنعه». مالت إلى الأمام، وسألت السائقين: «أتدريان ما هذا الذي يحدث؟».

قال أحدهما: اعتقد أنها سوف تقوم بتفجير آخر في البرج.
ـ آه. هذا يستحق المشاهدة. توقفا حيث يمكننا متابعة ما يجري.

توقفا عند طرف الساحة، في مواجهة المبنى، الذي يقطن فيه سيد العناكب. بدت الساحة، مكسوة بالخنافس ذوات الظهر أخضر اللون، والقوائم الأمامية القوية الطويلة، والرؤوس الصفراء، والذيول القصيرة التي لاحت وكأنها أطراف اضافية. كانت في غاية الضخامة، ومن المرجح أن أكبرها يصل طوله إلى ما يزيد عن ستة أقدام، وراحت أجسامها الكبيرة تتخبط في بعضها البعض وهي تتدافع، وتتزاحم. حينما تغلغل نيال في أذهانها، انتابه في الحال إحساس بالانفعال الشديد، حتى أنه أراد أن يقهقه، حيث أنها مختلفة تماماً عن يقظة العناكب، أو عن الوعي الجماعي الغريب الذي تتسم به النمال. بدت هذه الكائنات تعمل بروح معنوية مرتفعة. ولو أنها كائنات بشرية، لراحت كل منها تصفع الأخرى على ظهرها، وتدفع بعضها البعض في الضلوع. أخذت تتزاحم من فرط حيويتها ونشاطها.

خرج بعض العناكب السوداء من المبنى، لكنها ظلت قابعة، في ظلال رواق الأعمدة. أحس نيال، أنها تزدري الخنافس، ولكن بحذر يشوبه شيء من الخوف.

وضع الرجال، عند قاعدة البرج الأبيض، أكواماً من البراميل، في صف مزدوج. ثم سحبوا العربات الخالية بعيداً، إلى أقصى طرف الساحة، حيث تمركزوا خلفها. لم يبق سوى الرجل القصير الذي يكتسي برداء أصفر، بالقرب من البرج. التقط برميلاً صغيراً، وتقدم برش شريط المسحوق عبر الحديقة، ثم توقف عند الحائط المنخفض، الذي يفصل العشب المحيط بالبرج، عن الساحة الرئيسية. سكنت حركة الخنافس، فجأة، حينما أشعل الرجل ناراً، مستخدماً علبة قدح. ارتفع، بعد لحظة، خيط من الدخان الأبيض، من طرف شريط المسحوق، واندفع عبر العشب. انبطح الرجل القصير، وراء الجدار، وغطى أذنيه، بيديه. أثار توتر ذراعيه حدس نيال بأن خطراً سيقع. قبض على ذراعي ڤيج وسيريز قائلاً: «اسرعا!».

استجابوا له متأثرين بنبرة الإلحاح في صوته، وتبعوه، وهو يندفع مذعوراً خارج العربة. ترددت انجيلد، ربما لشعورها بأن الإسراع في النزول سيقلل من وقارها، ولكنها تبعتهم، في نهاية المطاف. حينما لمست قدمها الأرض، دوى صوت حاد، يماثل قرقعة الرعد، وانبعث ضوء مبهر. وجد نيال نفسه، بعد لحظة، وسط رياح عاتية، طوحته للخلف. تلقت العربة، لحسن الحظ، معظم الصدمة، فانقلبت على جانبها. راح نيال في غيبوبة خفيفة، عندما أخذ يدور حول نفسه، ثم ارتطم بجدار المبنى. اصطدم شيء بظهره، وحينما استعاد وعيه، أدرك أنه ڤيج، الذي تمدد على الأرض. كما تمددت سيريز على بعد بضعة أقدام منه. أما انجيلد، التي فاجأها الانفجار، فقد هرعت لمسافة عشرين

قدماً لتصل إلى منتصف الشارع ، وكذلك فعل سائقا العربة . كسا اللون الأسود ، البرج الأبيض ، لكنه لم يلحق به أي ضرر.

اختلط الحابل بالنابل في الساحة ، أخذت الخنافس تتخبط ، والعديد منها انقلب رأساً على عقب ، وأخذت ترفس بقوائمها في الهواء ، وبعضها قذف به الانفجار في الهواء ، ليصطدم بجدار المبنى الخلفي ، لتهبط فوق العناكب.

امتلأ الهواء برائحة نتنة مريعة ، جعلته يسعل ويدمع . اقتضى الأمر بضع لحظات ، ليدرك أن مصدر هذا الدخان الخانق ، ليس الانفجار ، وإنما الخنافس نفسها. راح أحد العناكب السوداء يدفع بمخالبه ، وهو يحاول سحب نفسه من تحت جسم خنفساء متخبطة ، حتى خدش ظهرها المدرع الأخضر. تردد صوت انفجار ، فأحاطت العنكبوت ، في الحال ، سحابة من الغاز الأخضر السام ، نفثته الخنفساء من جزء في مؤخرتها مماثل للذيل . أحس نيال بالسخونة ، التي رافقت السحابة ، نظراً لقربه من المكان . سحب العنكبوت نفسه ، خارجاً ، وقد ترك خلفه ، الجزء الأخير من إحدى قوائمه ، وأسرع بالابتعاد عن منطقة الدخان الخانق.

أصبح واضحاً ، بعد أن استتب النظام ، أن أحداً لم يصب اصابات خطيرة . كانت انجيلد تقف ، وقد تمزق رداؤها الأبيض ، وتلطّخ بالدم ، ولكن عندما هرع نيال لمساعدتها ، اكتشف أن الدم ناتج عن الرعاف ، وقد أصيب خداها ، ويداها ، وركبتاها بخدوش ، ولكنها بدت سليمة ، ولم تلحق بها أية اصابات أخرى . شعر ڤيج وسيريز بالدوار ، ولكن لم يلحق بهما أي أذى ـ أما سائقا العربة ، فكانا أقل حظاً ، فأحدهما تشقلب فوق العربة ، وأصيب بكسر في ساقه ، والآخر راح ينزف من اصابات عديدة في رأسه وكتفيه . كان حدس نيال بالخطر ، صحيحاً ، فلو أنهم ظلوا في العربة ، فإن الانفجار كان سيقذف بهم في الهواء ، ويلقي بهم للوراء . فهم الآن السبب الذي جعل الرجال يسحبون عرباتهم ، بعيداً عن الساحة.

شقّ الرجل القصير ، ذو الرداء الأصفر ، طريقه نحوهم . عرف نيال أنه بيل دوجينز ، الذي أخذ يتجنب الاصطدام بالخنافس ، بمهارة أثبتت أنه يتمتع بتجربة طويلة في هذا المجال . اندفعت انجيلد نحوه ، صارخة : «أيها المعتوه!» ثم أوقفها السعال عن مواصلة سبّها.

قال الرجل : آسف لما حدث.

سأله نيال : ما الذي حدث؟

ـ لقد استخدمنا كمية أكبر قليلاً من البارود. إنه ليس خطأي، فهذه هي أوامر صاحب السمو شخصياً. (وأشار باتجاه مقر سيد العناكب). التقطت انجيلد، التي كانت ماتزال تسعل، أنفاسها، وقالت له: أنت مجنون خطير. سأبلغ الملك بأمرك.

هزّ الرجل القصير رأسه قائلاً: أبلغي من تشائين.

حملقت فيه بانشداه. وقالت: «سأفعل». ثم استدارت إلى سيريز، وأضافت: «سأعود لأبدل ثيابي». ابتعدت، وهي تعرج، عرجاً خفيفاً.

لم تلحظها سيريز، وهي تبتعد، فقد حدقت في الرجل القصير بانبهار، وقالت له: «كيف صنعت ذلك؟ هل أنت ساحر؟».

ضحك، ثم قال: «لن أقول ذلك، لقد اعتادوا على أن يطلقوا عليّ لقب خبير، وهو الشخص الذي يفجر الأشياء». ثم مد يده، وقال: «بالمناسبة، اسمي بيل دوجينز. ما اسمك؟».

عندما انتهت عملية التعريف، قال دوجينز: من الأفضل أن نتحقق مما فعلناه. لنمضِ، ونَرَ، ما الذي أحدثه الانفجار في البرج.

تبعوه عبر العشب. تجمّع عماله، حول قاعدة البرج، فقال لهم: هل حالفنا أي حظّ؟

هزّ أحد الرجال رأسه وقال: «لم يحدث خدش واحد». غمس قطعة قماش في دلو ماء، ثم مسح بها فوق السناج الأسود، الذي خلّفه الانفجار. تركت قطعة القماش المبللة علامة بيضاء نظيفة، فقال: «انظر إلى تلك البقعة، إن الانفجار لم ينجح حتى في خدشه!».

استطاع نيال أن يرى، عن قرب، أن البرج ليس ناصع البياض، ولكن يشوبه لون أزرق ـ رمادي خفيف، مما جعله يبدو شفافاً، إلى حد ما. انتابه إحساس غريب، حينما حدق فيه، مثل ذلك الإحساس المماثل للتحديق في مياه عميقة. شعر نيال بأنه في مقدور عينيه أن تريا، من خلال سطحه، إذا ما بذل جهداً أكبر في التركيز. ومع ذلك، كلما حاول بجهد أكبر، ازداد إدراكه لانعكاس وجهه على حائط البرج. أصابه هذا الجهد الذي بذله بدوار خفيف. تذكّر المناسبة التي علّمه فيها أبوه أن يبحث عن الماء مستعيناً، بغصن مشعّب. تلوى الغصن في يديه، في لحظة معينة، كما لو أنه قد نفخت فيه الحياة، فأحس بالدوار الغريب ذاته، وشعر بأنه يسقط ببطء في هوة سحيقة.

مدّ يده، ومسح البارود الأسود، باصبعه، فانمسح، ليترك السطح أملس وبراقاً.

لكنه لاحظ الوخزة الكهربائية الخفيفة، عندما لمس البرج. ضغط براحة يده، فوق المكان الذي تم تنظيفه، فبدأ الإحساس أكثر قوة. انتابه، في الوقت ذاته، إحساس في رأسه، يفوق الوصف، يماثل شم رائحة معدنية حريفة، مختلفة تماماً عن الرائحة الكبريتية التي تركها البارود. حدث ذلك مرة أخرى، عندما ضغط بيده، فوق السطح، مرة ثانية، وتزايدت قوة الإحساس، حينما استخدم كلتا يديه.

أخذ دوجينز يحدق نحو قمة البرج، وقد اتسمت قسمات وجهه بالحيرة.
ـ لماذا قاموا بتشييده، ماداموا لا يرغبون في أن يدخله أحد؟
قال ڤيج: ربما يكون مصمتاً.
نظر دوجينز إلى نيال وقال: أتعتقد ذلك؟
راح نيال يتأمل البرج، ثم هزّ رأسه.
ـ لا، أليس كذلك؟
ـ كلا.
ـ ولِم لا؟
هزّ دوجينز رأسه وقال: للسبب نفسه الذي تحسّ به. فأنا لا أدري فحسب.

انضم إليهم عدد من خنافس المدفعية. أحس نيال باحباطها، وهي تتفحص السطح الأبيض، باحثة عن أي أثر لتشقّق. اقتربت واحدة من دوجينز، وبدت أنها تفرك قرنيها معاً. دُهش نيال، عندما رفع دوجينز يديه أمام وجهه، وقام بحركات مماثلة، بأصابعه، وأخذ يلامس، من حين لآخر، كلتا يديه معاً. قامت الخنفساء بمزيد من الحركات بقرنيها.

همس ڤيج، غير مصدق، قائلاً: أظن أنهما يتحدثان.

قطب دوجينز، الذي تسقط الملاحظة، وقال: «بالطبع، نحن نتحدث». أحدث مزيداً من الاشارات بأصابعه. ردت الخنفساء. ثم استدارت مبتعدة. بالنسبة لحشرة في مثل حجمها، فقد تحركت بخفة ملحوظة.

سأله نيال: ما الذي قاله لها؟

ـ قال، إنه يتعين علينا، أن نحفر خندقاً حول قاعدة البرج، ونحاول وضع البارود في قاعه.

قالت سيريز: ولكن لماذا يريدون تفجيره؟ إنه آية في الجمال.
ـ إنهم لا يهتمون كثيراً به. وتلك الزواحف هي التي تريد نسفه.
ـ ولكن لِم؟

تنهد دوجينز، وقال: لا أدري. إنها لا تحب أي شيء لا تستطيع فهمه.

ألقى نظرة جانبية سريعة على عدد من عناكب الموت، التي اقتربت من البرج، مع مجموعة من القادة، ثم أضاف: «ولكنني لا أعتقد أنها ستنجح. ليس بالبارود على أية حال، ربما إذا ما حصلنا على كمية من الديناميت أو ثالث نترات التولوين «تي. إن. تي»...».

سار نيال ببطء حول البرج، وراح ينعم النظر في سطحه، محاولاً العثور على أي شيء يشير إلى وجود مدخل. لم يظهر أي تصدع في السطح المرمري الأملس. واصل الشعور، بإحساس الوخز الغريب، والرائحة المعدنية الحريفة.

قال صوت من خلفه: ماذا عساك تصنع هنا؟

شعر كما لو أنه استيقظ من حلم. وقفت أودينا بالقرب منه، فاصطدم بها حينما استدار.

- كنت اتطلع في البرج.
- تعرف أنه محظور على الخدم، الاقتراب منه.
- لا أعرف.

- ليكن، إنه كذلك. ولتعرف أن الجهل، في هذه المدينة، ليس عذراً. إذا ما تكرر هذا، فسوف تُعاقب.

- آسف.

لانت نظرتها الصارمة، وقالت له: ما عساك تصنع هنا؟ لماذا لا تعمل؟

- قال الملك كازاك إن بإمكاننا البدء غداً.

انتابتها الحيرة، للحظة، ثم قالت: الملك كازاك؟ آه، المشرف الجديد. ليكن، إنه يخضع للقانون، مثل بقيتنا. إن التبطل ضد القانون.

قال نيال: إننا في طريقنا لمشاهدة حي النساء والحضانة. لكن مرشدتنا أُصيبت من جراء الانفجار.

- انتظر هنا!.

تركته وعادت إلى مجموعة القائدات، اللائي حدقن بإمعان في الحفرة التي خلفها الانفجار. تحدثت بجدية، للحظات، فحدقت عدة نساء بفضول، في نيال، ثم في سيريز وڤيج. وعادت، بعد بضع دقائق.

ـ هلم، سأرافقك!

ذهبت إلى ڤيج، الذي أخذ يتحدث إلى دوجينز، وربتت على كتفه، قائلة: «اتبعني!».

جفل، لكنه أطاعها. وحينما استدارت سيريز لتسير خلفهم، أومأ لها دوجينز إيماءة وقورة.

هزت أودينا رأسها، وهي تقول لڤيج: لا يُسمح للخدم بالتحدث إلى عبيد الخنافس.

ـ ولِم لا؟

أثار السؤال حفيظتها، فقالت: «لأن هذا هو القانون. ويجب علينا جميعاً اطاعته. وليس من المسموح أن يطرح الخدم أية أسئلة.

ـ آسف.

بدا أن اعتذاره، جعلها تهدأ. أومأت بطريقة متعجرفة، إلى مجموعة من سائقي العربات كانوا يجلسون إلى جدار أحاط بالساحة. فوقف جميعهم، بانتظار صدور الأوامر، فقالت لهم: اذهبوا بنا إلى حي النساء. سحب أربعة رجال، عربة نحوهم، ووقفوا متخذين وضع الانتباه، وهم يرتقونها. اتسعت العربة لأربعة أشخاص فقط، واضطر ڤيج ونيال أن ينحشرا على جانبي أودينا. أحس نيال باضطراب غريب، وهو يلامس ذراعيها وفخذيها العارية. لاحظ أن وجه أودينا ضرّجته الحمرة، رغم سمرة بشرتها، التي لوحتها الشمس.

- ٧ -

عرج سائقو العربة إلى شارع جانبي، متفرع من الساحة. حجبت البنايات السامقة، ضوء الشمس عنهم.

قالت أودينا: بإمكانكم طرح أية اسئلة.

رد ڤيج، الذي يكره الأوامر: لكنك قلت لنا، إنه محظور علينا طرح أسئلة.

قالت بلهجة جافة، تماثل ملامح وجهها: اسمح لكم بذلك الآن.

ساد الصمت، وهم يحاولون، التفكير في شيء يسألون عنه.

ثم تحدثت سيريز، فقالت: من الذي شيد هذه المدينة؟

- لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال.

قال ڤيج: لماذا لا يسمح لنا بالتحدث إلى خدم الخنافس؟

- لا استطيع الإجابة عن هذا السؤال.

قال نيال: أين توجد أرض السعادة الكبرى؟

- لا أستطيع الاجابة عن هذا السؤال.

تساءل ڤيج: لأنك لا تعرفين الإجابة، أم لأنه غير مسموح لك بالإجابة عليها؟

- لأنني لا أعرف الإجابة.

قال نيال: ما هي أرض السعادة الكبرى؟

- إنها أرض على الجانب الآخر من النهر، حيث يقضي خدم السادة المخلصون بقية حياتهم في سلام.

قال نيال: هل من الممكن أن أطرح سؤالاً آخر؟

ـ نعم.

ـ طلبت مني ليلة أمس، عندما أطلقت على السادة اسم «العناكب»، عدم استخدام هذه الكلمة، وإلا فإنني سأجد نفسي في أرض السعادة الكبرى، ماذا كنت تعنين؟

ابتسمت، وقالت: نستخدمها أيضاً للإشارة إلى المكان الذي تمضي إليه الروح بعد الموت.

قال ڤيج: ولكن الخدم لا يموتون، قبل أن يتمكنوا من الذهاب إلى هناك؟

بدا أنها روِّعت، فقالت: كلا، بطبيعة الحال. إنهم يذهبون إلى هناك، كمكافأة على خدمتهم المخلصة.

عبرت العربة شارعين عريضين. لاح الشارع أمامهم الآن، وقد سده جدار شاهق. ولكن عندما اقتربوا، أدرك نيال، أن الجدار ينتصب في وسط شارع عريض. بدا شكله رائعاً، حيث تشكل من كتل رمادية منحوتة، يزيد طول كل كتلة عن قدمين، منحوتة على نحو دقيق، ولم تتطلب أي ملاط حتى تتماسك معاً. امتد صف من القطع الحديدية المدببة أعلى الجدار، الذي توسطته، بوابة صغيرة، مغلقة. وقف عنكبوتان ذئبيان، على جانبيها. وعندما دنوا، خرجت امرأة ترتدي زياً أسود، مثل ذلك الذي ترتديه القائدات، من مبنى حجري صغير بجانب البوابة.

قالت لها أودينا: هؤلاء الأسرى، وصلوا حديثاً. سوف أنقل المرأة إلى حيها.

حدّقت القائدة في نيال وڤيج، بازدراء واضح، وقالت: إذن لماذا يذهب الرجلان معكما؟

ـ إنهما ابناها، وسيزوران شقيقتيهما في الحضانة.

هزّت المرأة كتفيها، وفتحت البوابة، بمفتاح حديدي ضخم، ثم تنحّت جانباً، حتى تسمح لهم بالدخول. أشاح نيال وڤيج بعيونهما حتى لا يشاهدا نظرتها الهازئة.

سأل نيال أودينا: «لماذا تبدو غاضبة». كان يعني «سيئة الطبع»، لكنه شعر بأنه تعبير تعوزه اللباقة.

ـ محظور على الرجال دخول هذا الجزء من المدينة. ومن يضبط هنا بدون اذن فإن عقوبته الموت.

بدت الشوارع خالية تماماً من المارة. ولم تظهر أية مجموعات من العبيد، أو

العناكب الذئبية، أو سائقي العربات بانتظار الركاب. بل إن خيوط العناكب التي امتدت عبر الشوارع، بدت مغبرة وبالية، كما لو أنها مهجورة منذ أمد طويل. كانت معظم النوافذ مهشمة، فتمكنوا من رؤية الحجرات الخالية، بجدرانها المنهارة.

وجدوا أنفسهم في ساحة واسعة، بعد أن وصلوا إلى نهاية شارع آخر ضيق وطويل. شاهدوا في وسطها عموداً مرتفعاً، أحاطت به مروج وأحواض زهور. بدت الألوان باهرة، بعد أن تعودوا على المباني رمادية اللون.

قالت أودينا: هذا هو المكان الذي تقطنه النساء.

كانت البنايات المحيطة بالساحة، في حالة جيدة، فالنوافذ تلمع تحت ضوء الشمس، والعديد منها له أعمدة رائعة في مواجهة الباب الرئيسي. قامت قائدة ترتدي زياً أسود، بتدريب مجموعة من النساء، عند مرجة في الطرف الأقصى للساحة، بينما جثت مجموعة أخرى، ترتدي سترات بيضاء متماثلة، على ركبها في أحواض الزهور.

أشارت أودينا إلى مبنى ذي واجهة قرنفلية اللون، وقالت: ذلك هو نزل السبايا اللائي وصلن حديثاً. ربتت على كتف أحد سائقي العربة، وقالت: توقف هنا!. وأوضحت لنيال وڤيج قائلة: محظور على الرجال الاقتراب لمسافة مئة خطوة، وإلا واجهوا عقوبة الإعدام. توقّفت العربة في وسط الساحة. نزلت هي وسيريز. تابعهما نيال بنظره، وهما تعبران المرجة، ثم تختفيان في المبنى قرنفلي اللون.

وقف سائقو العربة، في وضع الانتباه، ممسكين بعريشي العربة، بينما جلس نيال وڤيج، في ضوء الشمس، محدقين بإعجاب، في أحواض الزهور. لم يكن قد شاهد من قبل، أزهاراً متعددة الألوان، حمراء، بنفسجية، زرقاء، وصفراء، وقد أحاطت بها كلها، المرجة الخضراء. رأى أيضاً شجيرات، العديد منها مكسو بأزهار حمراء صغيرة، أو زهرات بنفسجية رائعة.

أدركا، في الحال، أنهما موضع للفضول. فقد توقفت النساء عن العمل، وحدقن فيهما. ثم اتجهت نحوهما امرأة شقراء هيفاء، كانت تشذب، بالقرب منها، حوافي الحشائش بمنجل صغير. ابتسم نيال لها، قائلاً: مرحباً، لكنها تجاهلته. فقد نظرت باهتمام، إلى ڤيج، ومدت يدها، وتحسست ذراعه مفتول العضلات. احمر وجه ڤيج خجلاً، فندت عنها ابتسامة مغرية، وراحت تلمس خده.

لاحظ نيال أن فتاة تقف عند حافة حوض الأزهار تلوّح له. وعندما حدّق فيها، أومأت بإلحاح، وقالت: «أنت أيها العبد!». أشار نيال إلى نفسه متسائلاً، فأومأت، مؤكدة أنه

هو المقصود. نظر إلى سائقي العربة، لطلب مشورتهم، لكنهم كانوا في وضع الانتباه. ترجل، في نهاية المطاف، حيث أحس أن صبر الفتاة قد نفد، وذهب نحوها. وجدها فتاة رقيقة، ذات شعر أسود، وأنف أفطس، وذقن مكتنزة، ذكّره شيء ما فيها، بميرلو.

ـ ما اسمك؟

ـ نيال.

ـ هلم يا نيال!

استدارت الفتاة، وسارت مبتعدة عنه. تبعها، وهو يشعر بقليل من الارتباك، نحو الشجيرات، التي شكلت قلب حوض الزهور. واجهته، عندما أصبحا في الظل، وقالت له بصبر نافد: «قبّلني!».

حبس أنفاسه، فقد كان هذا آخر الأشياء التي توقّعها. تزايد ضيق الفتاة من تردده، فسحبته نحوها، ولفت ذراعيها حول عنقه. ثم ضغطت جسدها بشدة، إلى جسده، وطبعت شفتاها قبلات سريعة ومتكررة. وقد وجد، بعد أن تلاشى أثر المفاجأة الأولية، الإحساس بشفتيها، مثيراً للنشوة، فترك نفسه يستمتع بهذا الشعور.

تنهدت الفتاة، بعد لحظات قليلة، في نشوة، وتراجعت للوراء، لتنظر إليه، ثم قالت: «قبّلني الآن». أطاعها دون تردد. باعدت ما بين شفتيها الناعمتين، ووضعت ذراعيها وراء رأسه، حتى تجعل وجهيهما متلاصقين. ظلا كذلك، حتى كاد أن يختنق.

سحبت الفتاة نفسها، مبتعدة عنه برقة، ونظرت حول حافة الأيكة. أخذته من يده، بعد أن شعرت بالارتياح لأن أحداً لا يراقبهما، وقالت: «هلم هنا!». كان صوتها يرتعش. تركها تقتاده إلى رقعة من الحشائش الطويلة، غير المشذبة. استلقت عليها، ومدت ذراعيها إليه، فأحس بالارتباك، حيث لم يجد أية ميزة في تقبيلها وهما في وضع أفقي وليس رأسياً. ومع ذلك، فقد أطاعها، وتركها تجره إلى جانبها. وضعت يديها، مرة أخرى، خلف رأسه، بينما راحت تقبله في فمه بلهفة، فشعر كما لو أنها تحتسيه.

أصابته ضربة قوية على أذنه، بالدوار. نظر فرأى أودينا تنحني فوقهما، وتستعد لضربه مرة أخرى. طنت رأسه، ونهض متعثراً. اتقدت عينا أودينا غضباً، وركلت الفتاة بحذائها، ركلة عنيفة قائلة: «انهضي، أيتها العاهرة!» ثم استدارت نحو نيال، فاضطر أن يتفادى لطمة أخرى.

لم يظهر على الفتاة أي خوف، بل إن التعبير الأساسي الذي كسا وجهها، كان

الأسف. وعندما سحبت أودينا قدما لتركلها من جديد، ندت عنها نظرة ذات تعبير خطير، فغيرت أودينا رأيها.

قالت لها: عودي إلى العمل! سوف أحاسبك فيما بعد.

ثم استدارت إلى نيال، قائلة: وأنت، عد إلى العربة!

وجد العربة خالية، والسائقين الأربعة يمسكون بالعريشين، وهم في وضع الانتباه، مثل الجياد الصبورة. اتجهت أودينا إلى أجمة من الشجيرات اليانعة في وسط حوض الأزهار التالي. فكر نيال في أن يصيح محذراً أخاه، لكنه تذكر عيني أودينا المستشيطتين غضباً، فتخلى عن الفكرة. تناهت إلى مسامعه صرخة ألم، ثم اندفعت أودينا، خارجة من الأيكة، وهي تجر ڤيج من أذنه. لم يستطع نيال منع نفسه من الضحك، ولكن نظرة غاضبة من أودينا، قيدت مرحه. تبعتهما المرأة الشقراء، مذعورة. أشارت أودينا، بصمت نحو العربة. صعد ڤيج لينضم إلى نيال. سارت، دون أن تنظر إليها، عائدة إلى المبنى قرنفلي الواجهة. استأنفت النساء عملهن، وكأن شيئاً لم يحدث. سمعا، من أقصى طرف الساحة، وقع أقدام تسير في تناسق.

قال ڤيج: أتعتقد أنها غاضبة؟

- تبدو متميزة غيظاً، لكني لست المخطىء. اعتقدت أن تلك الفتاة تريد أن تريني شيئاً ما.

ابتسم ڤيج، قائلاً: وقد فعلت.

مر ربع ساعة، ثم عادت، أخيراً، أودينا تتبعها سيريز. أصدرت أمراً إلى سائقي العربة، فتحركوا، في الحال. نظرت إلى ڤيج ونيال، لكنهما تجنبا النظر إليها، فقالت لهما:

- أنتما محظوظان، لأنني رأيتكما وليست أي قائدة أخرى. فعقوبة ما حدث خمسون جلدة، لأنه مخالف للقانون.

قالت سيريز، التي لم تفهم شيئاً: ماذا فعلتما؟

قال ڤيج: لقد طلبت مني أن أساعدها في تحريك عجلة يد ثقيلة. وحينما أصبحنا وسط الشجيرات، قفزت فوقي. لقد اعتقدت أنها سوف تلتهمني.

نظرت أودينا إلى نيال، بصرامة، قائلة: أظن أن الفتاة ذات الشعر الأسود، قد طلبت منك أن تساعدها هي الأخرى.

- لا، ولكنها أشارت لي باصبعها، فذهبت لأرى ما تريد.

ـ إنكما أحمقان. ألا تعرفان أن حي النساء، منطقة محرمة على الرجال؟ إنني إذا ما كتبت تقريراً بما وقع، فانكما ستفقدان آذانكما.

لكن نبرة صوتها أوحت بأنها لا تسعى إلى إلحاق الأذى بهما. فقال لها نيال:

ـ ولكن ما الضرر في التقبيل؟ ولماذا هو مخالف للقانون؟

تنهدت أودينا، وبدت، للحظة، وكأنها ستغضب من جديد، ثم هزت رأسها، وقالت:

ـ ينبغي أن تتعلما الكثير. ليس هناك أي ضرر في التقبيل، بشرط أن يمارسه الناس المناسبون. ولكن أحياناً، ما يمارسه غير المناسبين.

ـ ومن هم غير المناسبين؟

ـ أرأيت أحداً من العبيد؟

ـ نعم، لقد مررنا ببعضهم هذا الصباح.

ـ أرأيت أشكالهم المخيفة؟

ـ نعم.

ـ هذا لأن آباءهم غير مناسبين. أترى مدى القوة والصحة التي أتمتع بها؟

ثم فردت ذراعها المتناسقة، وراحت تعرض عضلاتها.

ـ نعم.

ـ هذا لأن والديّ متناسبان.

ثم ابتسمت لهما، بشفقة حقيقية، وكأنها قد أوضحت كل شيء.

استوعبا هذا في صمت، للحظة، ثم سألها نيال: أي نوع من الناس والداك؟

باغتها السؤال، فقالت: لا أدري.

حملقوا فيها جميعاً، في دهشة.

ـ لا تدرين؟

ـ كلا، بطبيعة الحال.

قال نيال: ولكني أعرف أبوي.

أومأت أودينا، وقالت: لأنكم متوحشون. فأنتم تتركون عملية الانجاب، والاستيلاد، للظروف. لماذا تجد كل القائدات قويات وصحيحات؟ لأنه قد تم اختيار آبائهن بعناية. ولماذا تجد كل رجالنا طوال القامة، وُسماء؟ لأننا لا نترك مسألة استيلادهم، للظروف.

سألتها سيريز: ولكن هل كل أطفالكم يولدون أقوياء، أصحّاء؟

ـ لا، بطبيعة الحال. ولكن إذا ما كانوا ضعفاء، غير أصحاء، فإنه لا يسمح لهم بالبقاء على قيد الحياة.

تساءلت سيريز، بهدوء: ألا يتسم ذلك بالقسوة؟

ـ كلا. إن القسوة أن نتركهم يعيشون، ذلك لأن أطفالهم سيكونون ضعفاء أيضاً. ولكننا نضمن، بعدم السماح باستمرارهم على قيد الحياة، ان جنسنا بالكامل، سيظل يتمتع بالقوة والصحة.

سألها ڤيج: وماذا عن العبيد؟

ـ العبيد طبقة متدنية. نبقي عليهم، لأننا بحاجة إلى من يؤدي المهام القذرة. وبطبيعة الحال، فإن العناكب... ثم استدركت بسرعة، وقالت: السادة يحتاجون إليهم في المآدب التي يقيمونها.

تساءل نيال، وقد انتابته الشكوك: كخدم؟

بدا أن صبرها كاد ينفد، فقالت: لا. لا، كطبق أساسي. إنهم يفضلون لحوم البشر. نحن نربي، بطبيعة الحال، الأبقار والجياد والأغنام، لكنهم يقولون، إن لحوم البشر هي الأفضل مذاقاً بينها جميعها.

هزّهم ما قالته. فتساءل ڤيج، بعد فترة صمت طويلة: أيثير هذا قلقك؟

هزّت رأسها بقوة، وقالت: «لا، بالطبع. إنهم لا يلتهمون خدمهم، ما لم يخرجوا بعد حلول الظلام، أو يخرجوا عن القانون، بطريقة أو بأخرى، مثل السعي لدخول حي النساء». قالت الجملة الأخيرة، بلهجة تحذيرية، وهي تنظر إليهما بطرف عينيها.

أخذت العربة تسير، على مدى الدقائق العشر الماضية، على طول الطريق العريض ذاته، باتجاه النهر، الذي بدا أمامهم الآن، حيث تلألأت مياهه تحت سنا الشمس. جاهد سائقو العربة، لمنعها من الاندفاع على المنحدر. كان الجسر الهائل الذي امتد فوق النهر قد تحطم، والتوت عوارضه الحديدية. أمرت أودينا السائقين بالتوقف، وأشارت إلى مبنى أبيض منخفض، على الجانب الآخر من المياه.

ـ هذه هي الحضانة.

سألتها سيريز بلهفة: ولكن كيف نستطيع العبور إلى هناك؟

أشارت أودينا إلى قارب، ملقى على الشاطىء، عند أسفل سلسلة درجات. ربتت

على أكتاف اثنين من السائقين، وقالت: «أنتما ستقومان بنقلنا إلى هناك. أما الآخـران فسوف ينتظران هنا».

كانوا، بعد بضع دقائق، وسط النهر، على متن قارب، أصغر من قارب الفايكنج، أخذ يشق عباب الماء، مع كل ضربة مجذاف.

سألها نيال: كيف تحطم الجسر؟

ـ لقد فجره خدم الخنافس، وذلك لمنع الأمهات من محاولة عبوره لرؤية أطفالهن.

تساءلت سيريز: ولكن ألا يسمح للأمهات على الأطلاق برؤية أطفالهن؟

ـ يسمح لهن، بالطبع، برؤيتهم مرتين في العام. وعندئذ، يمكنهن، إذا ما رغبن في ذلك، قضاء يوم بأكمله معهم. لكن العديد من الأمهات يفضل عدم مضايقتهم. فأنا لم أر أطفالي منذ ولادتهم.

ألديك أطفال؟

صحّحت السؤال قائلة: أنجبت أطفالاً. ولكن ليس لدي أطفال.

سألتها سيريز: ولكن ألا ترغبين في رؤيتهم؟

هزت كتفيها قائلة: شعرت بأنني افتقدتهم قليلاً، خلال الأسبوع الأول، ثم تلاشى هذا الإحساس. فقد عرفت أنه يتم الاعتناء بهم على أفضل وجه.

سألتها سيريز: ولكن من هو... من هو أبوهم؟

ـ رجل يدعى «بروسيس»، وآخر يدعى «مارداك»، وثالث يدعى «كريفون».

قالت سيريز بدهشة: وهل ما زلت تقابلينهم؟

تنهدت أودينا، فقد بدا واضحاً أنها وجدت أسئلة سيريز ساذجة، ولكنها قالت: «أقابلهم مصادفة في الشارع. ولكن من الحماقة أن نظهر معرفتنا ببعضنا البعض، فهم مجـرد خدم، مهمتهم إنجاب الأطفال. وسوف يشعرون بالحرج إذا ما تحدثت إليهم».

ـ ولكن ألا تشعرين بأي شيء تجاههم؟

ـ ولِم؟ أتتوقعين مني أن أشعر بشيء تجاه هؤلاء الرجال..؟

وأشارت إلى سائقي العربة، ثم أضافت: «لأنهم يجذفون بنا عبر النهر؟».

ألقى نيال نظرة حذرة إلى الرجلين، ليرى ما إذا كانا قد شعرا بالضيق من ملاحظتها، لكنه

وجدهما يحدقان أمامهما ولم يبديا أي شيء يشير إلى أنهما قد سمعا ما قالته.

وقف القارب عند سلسلة من الدرجات، وقفز أحدهما إلى الشاطىء، وربط القارب في حلقة، ثم ساعد أودينا على النزول.

عند رأس الدرج، قابلوا امرأة هيفاء، قوية البنية، ترتدي ثوباً أزرق ضافياً، بدت قريبة الشبه من أودينا، وكأنها شقيقتها، وذلك مثل معظم القائدات. حملت في يدها فأساً أطول منها. حيَّت أودينا، ثم نظرت إلى بطن سيريز وقالت: «كم شهراً؟».

قالت أودينا: «إنها ليست حاملاً. لقد جاءت لزيارة طفلتيها، اللتين وصلتا، منذ بضعة أيام.

قالت المرأة: آمل أن تسيطري عليها.

وقفت في وضع الانتباه، وهم يمرون من أمامها.

تساءلت سيريز هامسة: ماذا تعني؟

هزت أودينا كتفيها، وقالت: بعض الأمهات يرفض ترك أطفالهن. وقد اضطرت، في الأسبوع الماضي، إلى قتل إحداهن.

ـ قتلتها!

ـ نعم، اضطرت لقطع رأسها بالفأس.

قال فيج: ألم تستطع مجرد ضربها فتفقد وعيها؟

هزت أودينا رأسها بحسم قائلة: كلا. لقد كانت تعاني من مرض عاطفي. وربما تعدي الآخرين.

ـ مرض عاطفي؟

ـ نطلق عليه هذه التسمية، عندما يرفض الناس السيطرة على أنفسهم. وقد تنجب هذه المرأة، بطبيعة الحال، أطفالاً فاسدين. وهو ما أدى إلى ضرورة قتلها.

اجتازوا مرجة رائعة، ذات حوض زهور كبير. رأوا أمامهم مبنى أبيض شاهقاً، تقي ظُلات ذات ألوان مبهجة، نوافذه من الشمس. راح العديد من النساء، في أوضاع حمل مختلفة، يتجولن في المرج، بينما جلست أخريات تحت ظلال الأشجار. شاهدوا أيضاً عدداً قليلاً من النساء يرتدين ثياباً زرقاء متماثلة، وقد حملت كل منهن فأساً صغيراً تدلى من حزامها.

أشارت أودينا إلى مقعد خشبي عند حافة المرجة، وقالت: «سيتعين عليكما أنتما الاثنان، الانتظار هنا؛ حيث لا يسمح للرجال بدخول قسم الأطفال. ولكن ابقيا في

مكانكما حتى نعود، فالحرس لديهم أوامر بقتل أي رجل يتجول في المكان بدون اذن.

جلس نيال وڤيج، فوق المقعد، في وقدة الشمس، وكان في الواقع ملتهباً إلى حد مزعج. راقبا سيريز وأودينا، وهما تختفيان عند زاوية المبنى. سمع نيال هسهسة غريبة، ورقرقة مياه جارية. مال للوراء، وحدق من خلف شجرة، حجبت الرؤية عنه، فرأى نافورة تندفع منها المياه إلى أعلى في الهواء. ففتنته، وأراد أن يذهب إليها، ويتفقدها، ولكنه لاحظ وجود امرأة ترتدي زياً أزرق، تقف عند حافة المرجة، تراقبهما باستهجان واضح، مما جعله يشعر بالتوتر. تخيلها وهي تجز رأسه، بضربة شرسة من الفأس التي تحملها.

أشار ڤيج إلى النساء، ومباني الحضانة، وقال: ما رأيك في كل هذا؟

ـ غاية في الروعة.

كان لا بد وأن يكون هذا المكان، بالنسبة لواحد من قاطني الصحراء، بمثابة جنة عدن.

قال ڤيج: إنه رائع، لكنه يصيبني بالرعشة. إنه مثل المرأة التي نقلتنا إلى هنا.

ـ ماذا تعني؟

ـ إنها جميلة، وتبدو لطيفة، ومع ذلك تقول أموراً مرعبة. لقد شعرت بالغثيان، عندما قصت علينا حادثة المرأة التي قطعت رأسها، لمجرد أنها تريد أن تبقى مع طفلها.

ـ صه!

شك نيال في أن تكون المرأة التي ترتدي زياً أزرق تتسقط حديثهما، وقد تعود أودينا لتجد جسمين بدون رأسين.

ـ لا أدري ما السبب الذي يجعلني أظل ساكتاً.

ومع ذلك، فقد خفض ڤيج من صوته.

قال له نيال: سأقول لك ما يثير حيرتي. إذا كانوا يبذلون كل هذا الجهد، للتأكد من أن جميع الأطفال يتمتعون بالقوة والصحة، إذن لماذا يتسم الجميع بالغباء؟

دهش ڤيج من هذه الملاحظة، وقال: نعم، أنت على حق. إنهم أغبياء، أليس كذلك؟ ربما لأن كل أعمالهم تثير الضجر والسأم.

هز نيال رأسه، قائلاً: لا، إن الأمر يتجاوز ذلك. لقد انتابني إحساس. . .

قاطعته صيحة منفعلة، قبل أن يتمكن من تجسيد إحساسه في كلمات. وبعد لحظة، فردت رونا ذراعيها حولهما، وهي تحاول معانقتهما وتقبيلهما معاً، في الوقت ذاته.

جاءت سيريز في أعقابها، حاملة مارا. وظهرت خلف سيريز، مع أودينا، فتاة نحيلة، ترتدي ثوباً أزرق قصيراً. ابتهج نيال، عندما عرف أنها دونا. حرر نفسه من رونا، ونهض واقفاً، بينما هرعت دونا نحوه، مادة يديها، وقد لمعت عيناها من فرط الانفعال. لف نيال ذراعيه حول خصرها، وأخذ يدور بها بعد أن رفعها في الهواء. كان هذا كثيراً بالنسبة للحارسة التي ترتدي زياً أزرق، فتقدمت نحوها غاضبة، وقالت:

- هذا يكفي. وإذا لم تكونا على حذر، فسوف تفقدان آذانكما.

وضعها على الأرض، وقد شعر بالذنب، وابتعدت دونا، وقد أحست بالخجل.
دهش نيال، عندما قالت أودينا للحارسة:

- أنت محقة تماماً، أيتها الحارسة. ولكن هؤلاء القوم متوحشون، ولم يروا بعضهم البعض، منذ فترة طويلة. أؤكد لك أنهما سيحسنان التصرف.

هزت الحارسة كتفيها، في استياء، ثم ابتعدت.
همس نيال لدونا: سوف أعانقك، في وقت لاحق، عندما لا يكون أحد حولنا.

تضرج وجهها بحمرة الخجل، وانتفض قلب نيال، الذي لم يلحظ مدى جمالها، أثناء وجوده في مدينة كازاك شبه المظلمة. لكنه رآها الآن وقد امتلأ جسدها النحيل، ولوحت الشمس ذراعيها وكتفيها. كما بدت رونا ومارا وقد لوحتهما الشمس وتمتعتا بصحة جيدة، بعد أن امتلأ جسماهما. عندما سألته رونا: «أين أبي؟»، أدرك أنها لم تعرف أن أباها قد مات. غيرت مارا، لحسن الحظ، الموضوع، وطلبت من ڤيج أن يقصّ عليها حكاية. جلس نيال ودونا عند طرف المقعد، وراحا يتبادلان النظرات. شعر بالامتنان تجاه أودينا، حينما راحت تتجول في المرجة، وتتحدث مع الحارسة.

سألها: لِم ترتدين الزي الأزرق؟

- إنني ممرضة، وأساعد في رعاية الأطفال. وقد عهد إلي برعاية رونا ومارا.

- أتحبين الإقامة هنا؟

- نعم، أحب الأطفال. ولكن المكان موحش بدون أمي.

- سأرى كازاك الليلة. أترغبين في أن أطلب منه، أن ينقلك إليه لتعملي عنده؟ إنه يقطن في قصر بديع.

أشرقت عيناها، للحظة، ثم سألته: هل ستقيم هناك؟

ـ لا . سيتعين أن أبدأ العمل غداً .

ارتسم الحزن على وجهها. تبادلا من جديد النظرات ، وأدركا أنه سيمر وقت طويل ، قبل أن يلتقيا مرة أخرى . شعر فجأة بأن أقصى ما يريده في الدنيا هو أن يحتضنها ويقبلها. أدرك ، عندما نظر في عينيها، أنها تشاركه رغبته. لكن كان من المستحيل أن يتحقق ذلك ، مع وجود الحارسة ، التي ظلت تنظر إليهما بريبة . تلامست أيديهما في حذر ، كبديل للتقبيل .

حرص نيال على مراقبة مدى تآلف ذهنيهما. لم يبذل أي جهد واع ، لقراءة أفكارها ، ومع ذلك ، فقد تجسدت له ، كما لو أنها تدور داخل رأسه . وبدا الأمر، كما لو أن حياتهما الذهنية ، قد تداخلت ، وسط انفعال إعادة اكتشاف كل منهما للآخر.

غيرت الحارسة وضعها، حتى تتمكن من مراقبتهما، من فوق كتف أودينا. حاول نيال سبر غور ذهنها، بعد أن زاد فضوله لمعرفة سبب عدائها. وجد أن المحاولة صعبة ، على نحو غير متوقع ، واعتراه ، للحظة ، شك في أنها أدركت محاولته ، فتعمد أن يتوقف عن مواصلة جهده. مع ذلك ، لم يش وجهها، وهي تصغي لأودينا ، بأنها قد أدركت أي شيء . حاول مرة أخرى ، فاعتراه إحساس غريب ، على نحو مفاجيء. فذهن هذه المرأة، غير قابل للاختراق ، لأنه لا يؤدي وظائفه ، بالمعدل الإنساني العادي. نجحت جهوده ، بعد لحظة ، وأدرك ، وقد أصابته الصدمة ، أنه على صواب. فالذي شعر به ليس الذهن الأجوف ، الذي يتميز به سكان مدينة العناكب شاردو الذهن ، بل إنه الذهن الذي يتسم بالسلبية المراقبة ، الغريبة لعنكبوت يتربص ، بانتظار سقوط ضحيته في النسيج. وجد نفسه ، ينظر إلى كائن بشري ، يؤدي ذهنه وظائف مماثلة لما يؤديه ذهن عنكبوت .

لاحظ أن دونا تنظر إليه بفضول ، مدركة أن أمراً غير عادي يحدث . ونظراً لأن ذهنيهما في حالة تناغم، فلم تبذل أية محاولة لجذب انتباهه ، رغم أنها تلهفت لمعرفة السبب الذي أثار اهتمامه إلى هذا الحد.

أدرك نيال الآن ، وعلى حين غرة ، السبب الحقيقي وراء مراقبة الحارسة لهما ، بهذا القدر الكبير من الكراهية ؛ فقد كانت تشعر بحقد هائل تجاه المتوحشين ، وتنظر إليهم باستعلاء مشوب بالازدراء. ولكن نظراً لأن أودينا أعلى مرتبة منها ، فإنه ليس من حق الحارسة الاعتراض ، ما لم يخرج نيال أو فيج عن اللوائح. وقد ظهر مقتها لهم واضحاً وشديداً ، مما جعل نيال يستشيط غضباً.

بدت غير مدركة بالمرة ، لمراقبة نيال لذهنها. أثار أمر ما في تصرفاتها ، ذكرياته عن

عنكبوتة الخيمة، رغم أن قوة حيويتها تفوقها بكثير. وحاول، بدافع من الحقد، من جهة، والفضول، من جهة أخرى، أن يجرب زرع فكرة ما في ذهنها. وسعى لجعلها تشعر بأن أحداً يحدق فيها، من نافذة بمبنى الحضانة. لم يحدث شيء، لبضع ثوانٍ، حيث ظلت المرأة تصغي لأودينا، وتومىء برأسها، بينما واصلت، في الوقت نفسه، مراقبة نيال ودونا. إلا أنها التفتت بعصبية، وحدقت نحو الحضانة، وكأنها لم تعد تستطيع التحمل أكثر من ذلك. دهش نيال لنجاح تجربته. حاول أن يجعلها ترفع يدها، وتهرش أنفها، فأطاعت دون تردد، هذه المرة. وجد في ذلك أمراً لا يكاد يصدق؛ فهي تطيع إرادته، حتى دون أن تدركها. جعلها تبدل قدماً بأخرى، وتعبث بأصابعها، في الفأس المتدلية من حزامها، وتمد يدها للخلف لتهرش ظهرها. ثم جعلها، في نهاية المطاف، تنظر عمداً نحو مبنى الحضانة، في محاولة منها لتحديد مصدر قلقها الغامض. استغل هذه الفرصة، ومال للأمام، ثم اختطف قبلة من دونا. وعندما التفتت إليهما، كانا قد انفصلا.

استدارت أودينا، بعد دقائق، ووجهت اشارة إلى دونا، من الواضح أنه تم ترتيبها من قبل.

همست دونا قائلة: يتعين أن أمضي الآن. لقد طلب مني أن أصرف انتباه شقيقتيك، حتى لا تبكيا عندما ترحلون. ألقت نظرة خاطفة حولها، حتى تتأكد من أن الحارسة تنظر في الاتجاه الآخر، ثم اقتربت منه، وقبلته في خده. وقفت، وأمسكت بيد مارا قائلة لها: «هيا نلعب الغُميضة. اختبئي أنت ورونا، وسوف أحاول أن أعثر عليكما».

اختفت رونا ومارا، بعد لحظة، عن الأنظار، وسط الشجيرات، وأشارت أودينا إلى أنه حان وقت الانصراف. حاول نيال أن يلقي نظرة أخيرة على دونا، لكنها أسرعت مبتعدة، عبر المرجة.

امتلأ ذهن نيال بالأسئلة، عندما صعد إلى سطح القارب. شعر وكأن رأسه سينفجر، نظراً لأنه لم يتعود على التفكير العقلاني.

بدا أمر واحد في غاية الوضوح، وهو أن حارسة الحضانة، ليست عنكبوتة، ولكنها كائن بشري. إذن، إذا كان ذهنها مماثلاً لذهن العناكب، فلا بد أن ذلك يرجع إلى أن العناكب هي التي قامت بتشكيل وصياغة عقلها، في سن مبكرة، فانطبعت على ذهنها سمات العناكب. وعلى أية حال، فإن ڤيج قد شكل أذهان دبّور البيبسيس والنمال حتى أصبحت إنسانية، في نواح عديدة...

وهذا يفسر كيفية سيطرة العناكب على خدمها. فقد بدا أنها لا تملك شكلاً واضحاً من

أشكال الاتصال، وذلك بخلاف خنافس المدفعية. وربما يعود ذلك إلى عدم أهمية الاتصال، فالأمر لا يتطلب سوى مجرد زرع فكرة، أو اقتراح. ويضم كل فرد من خدم سيد الموت، بين ضلوعه، «ذاتاً ثانية» وهذه الذات الثانية هي عنكبوت. . .

وطالما أن العناكب تسيطر على هذه الذات الثانية، فإنها تظل سادة العبيد من البشر بلا منازع، ولكن الذي لم تضعه العناكب في الحسبان، هو أن يستغل ذهن إنساني آخر أسلوبها، ويمارس سيطرة مباشرة، على عبيدها.

أدرك نيال الآن، على نحو مفاجىء، وللمرة الأولى، سبب شغف سيد الموت، بكشف النقاب عن سره. ففي حالة اتقان البشر لفنون السيطرة على العقل، سيعني ذلك أن أيام تفوّق العناكب، باتت معدودة. فذهن العبد، مثل ذهن حشرة أليفة، له مزلاج يمكن فتحه بأكثر من مفتاح.

راح نيال يدرس أودينا، بينما جاهدت أفكاره، لتعبر عن نفسها بالكلمات. بدت أودينا، بالمقارنة مع حارسة الحضانة، نموذجاً لا ينازع لكائن بشري حقيقي. ومع ذلك، تمكن من اكتشاف ذلك الفراغ الغريب، وكأن جزءاً من ذهنها قد نام. عرف الآن أن هذا الفراغ يمثل دلالة على أن العناكب قد انتهكت ذهنها، وسرقت خصوصيتها حتى دون أن تعي بذلك.

فهي تتساءل بينها وبين نفسها في الوقت الحالي، عما يتعين أن تفعله مع «المتوحشين». وجعلها وضعها الحالي تشعر بتعاسة غامضة. فقد تعودت أن تعيش أيامها وفقاً لنظام صارم. ورغم أن النظام يتنوع، وتتسم لوائحه بالمرونة، فكل مشكلة تضع لها القوانين حلاً، إلا أنها لا تعرف الآن، على وجه اليقين، أية لائحة يتم تطبيقها. فقد طُلب منها أن تتولى مسؤولية المتوحشين، لأنه من الخطأ أن يتجولوا في المدينة، بمفردهم. وبعد أن أدّت مهمتها الآن، فإنها لا تعرف الخطوة التالية التي يتعين عليها القيام بها. تعتزم، في الوقت الحالي، أن تعيد سيريز إلى حي النساء. ولكن ستظل المشكلة قائمة بشأن ما ستفعله مع ڤيج ونيال. . .

حينما فكر نيال، في أنه سينفصل عن أمه، قرر أن يزرع ايحاء في ذهن أودينا. اقترب القارب من الشاطىء، ولم يتبق سوى القليل من الوقت. حدق في جانب وجهها، محاولاً الايحاء إليها، بأن تعود بهم جميعاً إلى قصر كازاك. كان من الصعب تقييم رد فعلها. سألها، عندما لامست مقدمة القارب ضفة النهر برفق: «أين سنذهب الآن؟».

قالت بوضوح وحسم: «سوف أعود بكم إلى المشرف الجديد». لاحظ اعجابها

بنفسها لأنها توصلت إلى هذا الحل المعقول. أحس بالذنب، ولكن عندما نظر إلى وجه أمه الحزين، حيث راحت تفكر في طفلتيها، تغلب شعوره بالرضا، لأنه حقق لها هذا التأجيل المؤقت، على إحساسه بالذنب.

عادوا إلى الساحة الرئيسية، عند العصر. شعر نيال بالشفقة على سائقي العربة، فقد أمرتهم أودينا بالعودة من خلال الطريق الأطول، الممتد بمحاذاة ضفة النهر، مما جعلهم يشعرون بالاستنزاف. بدت غير مبالية بالمرة لبؤسهم، بل إنها أخذت تحثّهم على الإسراع. أدرك نيال أن هذا لا يدل على قسوتها، ذلك أن خيالها لم يصل إلى معاملتهم، على أنهم بشر مثلها، وهذا هو ما أثار انزعاجه تجاهها. فقد بدت لطيفة، شفوقة، ودودة، ومع ذلك كانت مجردة بالكامل من الخيال.

جرّت مجموعة من العبيد عربة ممتلئة بالطين عبر الساحة، بينما دفعها آخرون للوراء. أخذ مزيد من العبيد، عند قاعدة البرج، يطمرون الحفرة. كان من بين هؤلاء، عدد من الرجال، كشف حجمهم، وعضلاتهم، عن أنهم خدم، وليسوا من أفراد طبقة العبيد.

سألها نيال: لماذا يعمل هؤلاء مع العبيد؟

ردت أودينا: إنه نوع من العقاب. فالخدم الذين لا يطيعون الأوامر، أو يتكاسلون، يعاقبون، وينحطون إلى مرتبة العبيد. إنها أفضل طريقة، للحفاظ على النظام. فمعظم الخدم يفضلون الموت، على أن يصبحوا عبيداً.

سألها ڤيج: أيعني ذلك أنهم قد يتعرضون للالتهام؟

- بطبيعة الحال، إذ أنهم يفقدون كل امتيازاتهم.

- وما هي مظاهر عدم الطاعة؟

هزت كتفيها، قائلة: عدم إظهار الاحترام المناسب لإحدى القائدات، أو البقاء في الفراش، لفترة طويلة في الصباح.

فهم نيال الآن، سبب انزعاج ماسيج صباح اليوم.

وقفت قائدتان ترتديان ثياباً سوداء، في الحراسة، عند المدخل الرئيسي لمقر كازاك. لمح نيال خلفهما، عبر الباب المفتوح، أحد عناكب الموت. انتفض قلبه، وشعر بخوف مفاجىء، في الوقت الذي انحرف سائقو العربة، نحو الشارع الخلفي، وولجوا من المدخل الخلفي، المفضي إلى الفناء. استلقى عنكبوتان ذئبيان في الشمس، ووقفت قائدتان أخريان، على جانبي مدخل المبنى، ترجلت أودينا، وانحنت للعنكبوتين، وحيّت القائدتين.

ـ سوف أعيد المتوحشين إلى المشرف كازاك .

حدقت المرأة بازدراء في نيال وڤيج ، وقالت : سوف أحيط المشرف علماً . اتركيهم هنا!

حيّتها أودينا ، وارتقت العربة مرة أخرى ، وأصدرت أمراً للسائقين ، وتركتهم دون أن تنظر خلفها إليهم .

تركتهم القائدة ينتظرون ، لمدة عشر دقائق ، وتجاهلتهم كما لو أنهم غير موجودين . وجد نيال نفسه ، وهو يحدق فيها ، يسبر غور ذبذباتها العاطفية . انتابته فورة غضب ، عندما أدرك شعورها تجاههم ؛ فهي تنظر إلى «المتوحشين» على أنهم شكل مزدرى من أشكال الحياة الحيوانية ، وكانت على يقين بأن لهم رائحة كريهة . لكنها وجهت معظم ازدرائها لسيريز ، التي رأتها مهزولة الجسم على نحو منفر ، ولا تتمتع بأي أنوثة . رأى أمه ، للحظة ، بعيني الحارسة . كانت تجربة مزعجة ، حيث بدت له سيريز كما لو أنها قد تحولت إلى نوع من القردة .

صفق باب ، من مكان ما داخل المبنى ، ووصل إلى أسماعهم صوت امرأة تصدر أمراً . استدارت حارستهم ، واختفت داخل المبنى ، لنحو عشر دقائق . حملقت الحارسة الأخرى ببلاهة أمامها ، فقد سعت إلى التغلب على ازدرائها للمتوحشين ، بالتظاهر بأنهم غير موجودين .

انفتح الباب ، وفرقعت الحارسة بأصابعها ، قائلة : اتبعوني!

أحس نيال ، حتى قبل أن يدخل ، بالعداء الذي ينتظره بالداخل . والأمر الذي لم يكن يتوقعه ، هو أن يجد القاعة ، وقد اكتظت بعناكب الموت السوداء ، حتى أنه مر بصعوبة بينها . اضطر أن يكبت رغبة قوية تستحثه على العودة والعدو للخارج . حدقت فيه أقرب العناكب إليه ، كما لو أنها تستعد للانقضاض عليه ، وغرس مخالبها في جلده العاري . أحس ، وقد انتابه الذعر ، للحظة قصيرة ، أن النهاية قد حانت ، واستعد للدخول في قتال . لكن العيون السوداء التي لم تنفذ إليه ، راقبته فحسب ، وهو يتبع الحارسة . أدرك أنها تحس بمزيج من الخوف والاشمئزاز ، كما لو أنه حشرة ذات سم زعاف . كما لاحظ أن هذه الرقابة من قوة الإرادة العدائية ، ولدت إحساساً فعلياً ببرد جسماني ، مثل ريح ثلجية . تركزت هذه القوة على ظهره ، وهو يتبع الحارسة ، صاعداً الدرج . اختفت هذه القوة ، عندما استدار عند الزاوية . كان من المستحيل أن يشك بأن تحديق العناكب حمل معه شحنة سالبة .

تجاوزوا الدهليز، الذي يفضي إلى حجرة كازاك، وواصلوا صعود الدرج، الذي بات أضيق، بعد الطابق الرابع، فأدرك نيال أنهم متجهون إلى سطح المبنى. وقفت العناكب الذئبية في الحراسة، عند نهاية كل دهليز، رغم أن هذا الجزء من المبنى، بدا مهجوراً، وفي حالة سيئة؛ فالجدران مشوهة، حيث انهارت أجزاء من الجص مما كشف عن الألواح الخشبية تحتها.

ولجوا دهليزاً خافت الإضاءة، أخذت أرضيته الخشبية تحدث قرقعة تحت وقع أقدامهم. فتحت الحارسة باباً، وأومأت إلى سيريز قائلة: «ستمكثين هنا، حتى نطلبك».

بدت الحجرة خاوية، إلا من فراش، وكرسي خشبي. قالت سيريز بشفتين في غاية الشحوب: «شكراً». صفقت الحارسة الباب وراءها، وأغلقته بمزلاج.

أومأت لڤيج، عند باب آخر، فدخل، ثم أغلقته خلفه.

صحبت نيال إلى أقصى طرف الدهليز، حيث رأى باباً مفتوحاً بالفعل. طلبت منه أن يدخل، فسألها: «هل نحن سجناء؟».

قالت له: لا تتكلم إلا عندما يوجه أحد الحديث إليك.

وقفت مبتعدة، عندما دخل الحجرة، كما لو أنها تتجنب أي تلامس يمكن أن يؤدي إلى تلوثها. صفقت الباب، وأغلقته بالمزلاج. سمع وقع قدميها وهي تبتعد محدثة قرقعة فوق الألواح الخشبية.

كانت الحجرة خافتة الإضاءة، فتطلب الأمر بضع لحظات، إلى أن رأى أن الحجرة خاوية تماماً، باستثناء بضع وسائد ملقاة على الأرض. اشتم رائحة غبار وعفن. دخل الضوء من نافذة مرتفعة يكسوها السخام.

انحنى، والتقط وسادة، فوجدها رطبة، عفنة الرائحة. شعر، على حين غرة، برغبة جارفة في الارتماء على الأرض، والبكاء. لقد حمل، منذ أن عثر على جثة أبيه المنتفخة، عبئاً ثقيلاً من البؤس، أما الآن، فقد تزايد هذا العبء بداخله، مثلما عاصفة، اكتسحت كل محاولات المقاومة. لكن بقية باقية من كبرياء، حالت دون استسلامه. جلس في زاوية فوق الوسادة الرطبة، ضاغطاً جبهته على ركبتيه. وشعر، في تلك اللحظة، بوحدة لم يشعر بها في حياته.

تفسير واحد فقط يتناسب مع الحقائق، وهو أنهم اكتشفوا، بطريقة ما، أنه المسؤول عن مقتل العنكبوت في الصحراء. وفي تلك الحالة، لا يمكن أن تكون هناك، سوى نتيجة

واحدة، وهي إعدام ثلاثتهم على الملأ . . . جعله الإحساس بأنه جلب الكثير من البؤس على أمه وقيج، يشعر كما لو أنه يئن بصوت مرتفع.

ولكن كيف اكتشفوا سره؟ بإمكانه أن يتصور احتمالاً واحداً فقط: وهو أن الرمح المعدني، الذي يتمدد، قد وشى به. لقد نظفه بعناية بعد الحادث، لإزالة أي أثر لدم العنكبوت. ولكن لا بد وأن حواس العناكب الأكثر حدة من حواسه، قد عثرت على شيء. لعن غباءه لأنه أحضر معه الرمح، بدلاً من أن يتركه في الجحر.

انتابه شعور غريب بأنه مُراقَب، فتطلع محدقاً نحو الباب، المصنوع من ألواح خشبية ثقيلة، فبدا صلدا. وعندما فحصه بعناية، لم يعثر على أي تشقق يمكن أن يراقبه أحد منه. ظن أن أعصابه تتلاعب به، فعاد للجلوس من جديد. ولكن حينما أغمض عينيه، وأراح جبهته فوق ركبتيه، ظل الإحساس غير المريح بأنه مراقب، يعتريه. ولكن كلما رفع رأسه، ونظر صوب الباب، تلاشى هذا الإحساس.

بدا أن الوقت قد توقّف، وأن دهنه قد بات في حالة من السلبية الراكدة. راحت جفونه، من حين إلى آخر، ترتخي، إلا أنه كان يستيقظ، كلما اهتزّ رأسه. أحس أن الوقت قد توقّف. وأثار صوت واهن انتباهه، بعد مرور نحو ساعتين، بدتا له دهراً. كان صوت صرير باب. أصاخ السمع، لكنه لم يسمع شيئاً. سمع، في نهاية المطاف، بعد فترة صمت طويلة أخرى، قرقعة لوح خشبي بالأرضية. اتجه إلى الباب، ووضع أذنه عليه. لم يسمع أي صوت آخر.

لا يمكن أن يعني هذا سوى أمر واحد لا غير، وهو أن الذي تراجع في الدهليز، ليس إنساناً. ففي ذلك السكون، لا يمكن لأي إنسان، مهما كان خفيف الوزن، أن يسير دون أن يسمع وقع قدميه. ولكن بمقدور العنكبوت، الذي تتباعد قوائمه، أن يطأ الألواح الصلبة، على جانبي الدهليز. ويؤكد صرير الباب، أنه كان موجوداً في الحجرة المجاورة.

فهم الآن، وعلى نحو مفاجىء، سر شعوره بأنه مُراقب. لم تكن هناك أعين تراقبه، من خلال تشقّقات في الباب، ولكن ذهناً هو الذي راح يسبر غور ذهنه. ونظراً لإرهاقه ويأسه، فإنه لم يبذل أي جهد لحماية أفكاره. أخذ يسترجع كل حركة وفكرة طرأت على ذهنه منذ أن سمع وقع أقدام الحارسة، وهي تبتعد. شعر بنوع من اللامبالاة الذهنية، مدركاً أن الأمر لا طائل من ورائه، فالوقت بات متأخراً للغاية، لعمل أي شيء.

بدا الوقت، وقد توقف، مرة أخرى. لا بد وأن يكون المساء قد حل، وأن الظلام

سيعم قريباً. شعر بالجوع والعطش، لكنه لم يعط أهمية لذلك.

أثارت قرقعة في الدهليز، انتباهه. دنت خطوات شخص، حافي القدمين، من الباب. توقفت، أمام بابه، وبدأ المزلاج يتحرك بصعوبة. ثم انفتح الباب لبضع بوصات، وسمع صوتاً نسائياً يناديه.

ـ ميرلو!

ـ صه!

دخلت على أطراف أصابع قدميها، وأغلقت الباب خلفها، وسألته: أين أنت؟

ـ هنا في الركن.

شعر بسعادة غامرة لرؤيتها، ورغب في معانقتها، لكنه خشي من رد فعلها.

أنعمت ميرلو النظر حولها مشمئزة، وقالت: يا له من مكان مرعب. أيوجد أي شيء يمكن الجلوس فوقه؟

ـ بعض الوسائد.

ـ آه، طيب.

أعاد صوتها إليه، إحساسه بحالته السوية. اتسمت تصرفاتها بالعملية، فقد وضعت وسادة بجوار الجدار، وجلست بهدوء فوقها.

جلس بجوارها، وقال: لِم أتيت إلى هنا؟

ـ لأعرف ما يحدث لك.

ـ لِم؟

ـ لأنني شعرت بالقلق عليك، بطبيعة الحال!

طار قلبه من الفرح، فجأة، ولم تعد لهموم الساعات الماضية، أية أهمية.

ـ لماذا أغلقوا علينا الأبواب، بهذا الشكل؟

ـ صه، لا ترفع صوتك!

وضعت يدها فوق شفتيه، فأحس بنعومتها، ورائحتها الزكيّة، وقاوم إغراء تقبيلها.

ـ لا أستطيع أن أبقى هنا لفترة أطول.

ـ هل يعرف أبوك أنك هنا؟

ـ لا، ويجب أن تعدني بألا تقول له!.

همست بالقرب من أذنه، فشعر بالنشوة من تأثير تنفسها الدافىء، وملاصقة جسدها لجسمه.

ـ لن أقول له شيئاً، بالطبع. ولكن لماذا أغلق علينا الأبواب على هذا النحو؟
ـ ليس خطأه. إنه يضطر لتنفيذ أوامر العناكب، التي اقتحمت هذا المكان عصر اليوم.

ـ ماذا تريد؟

همست له: لا أدري، وآمل أن تطلعني أنت.

أشاح عنها، وهو يهز رأسه.

قالت، بعد فترة صمت: هل لديك أية فكرة؟

رد قائلاً: لا أدري.

وضعت يدها فوق خديه، وأدارت وجهه نحوها، وسألته: هل تثق بي؟

أثار السؤال دهشته، فقال: أثق بك بالطبع!

ـ وتريد مني أن أساعدك؟

ـ طالما أن ذلك لن يلحق بك أي ضرر.

أدرك، فجأة، أنها تريد تقبيله. لم يكن عليه سوى أن يميل قليلاً للأمام حتى تتلامس شفاههما. حركت إحدى يديها من فوق خده، ووضعتها وراء رأسه، وضغطت وجهها بشدة، على وجهه. أما هو فقد لفّ ذراعيه حولها، وجذبها نحوه.

باعدت نفسها عنه، فالوضع لم يكن مريحاً، حيث استندت كتفاها العاريتان، على الحائط البارد. شعر بالبهجة ولم يصدق نفسه، وهو يراها ترتب بقية الوسائد، على الأرض. بدا واضحاً أنها لم تشعر بأي تعارض بين عدم استكمال قبلة، وبين القيام بهذه العملية التافهة. سحبته، بعد لحظة، إلى جوارها على الأرض، وألصقت جسدها بجسده بشدة.

وجد الأمر مثيراً للدهشة، فكاد ألاّ يصدّق ما يحدث. فمنذ عشر دقائق، كان قد تخلى عن أي أمل، أما الآن، فإنه يمتلك كل شيء أراده بين ذراعيه. لو قيل له إنه سيعدم صباح غد، لظل يشعر بالبهجة دون أن يُنتقص منها شيء. أحسّ بساقيها العاريتين وهما تضغطان على ساقيه، بقماش ثوبها الحريري القصير، وهو يلمسه بأطراف أصابعه، بثدييها اللذين يهتزان فوق صدره، بشذا تنفسها على وجهه. راح يُقبل أذنها، وعنقها حيث ينبت الشعر، وجفون عينيها، وجبهتها. ربتت على شعره، وقبلت فمه. شعر الاثنان بالسعادة، في هذا الجوّ من البهجة المطلقة للاتصال الجسدي، فاستلقيا على الوسائد الرطبة بقية الليل.

صُفق باب، في الطابق الأسفل. جلست وأصاخت السمع، ثم ذهبت إلى الباب، واختلست النظر للخارج. عادت، بعد لحظة، على أطراف أصابعها. جلس نيال،

فجلست بجواره، وأخذت تقبله مرة أخرى. ولكنها أبعدت شفتيها عنه، وقالت: «اصغ إليّ، سأحاول أن أعرف من أبي أسباب ما يحدث لكم، ولكن أليست لديك أية فكرة؟

قال: لقد قتلت عنكبوتاً.

نظرت إليه مستغربة: أنت، ماذا؟

- حدث ذلك وأنا في طريق عودتي مع أبي من مدينتكم.

حكى لها القصة بأكملها: العاصفة الرملية، وعثوره على الرمح المتداخل، وكيف وجد نفسه، على حين غرة، في مواجهة عنكبوت الموت المدفون تحت الرمال، والذي أخذ يتخبط للخروج من تحته. ارتعدت، وهو يصف لها الطريقة التي ضرب بها العنكبوت في وجهه بالرمح. ولكن عندما انتهى من قصته، هزت رأسها، وقالت:

- لا أعتقد أنها تعرف هذا الأمر. إنها تفترض أنه أبوك.

- لكنها تستطيع قراءة الأذهان.

هزت كتفيها، وقد نفد صبرها، وقالت: لا أعتقد ذلك. فإذا ما استطاعت أن تقرأ ذهني، لكانت قد التهمتني منذ فترة طويلة.

- كان هناك عنكبوت، في الحجرة المجاورة، عندما نقلوني إلى هنا. وأعتقد أنه حاول قراءة ذهني.

نظرت إليه مستغربة: وقالت: ما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟

- سمعت الباب يطقطق، عندما ذهب. كما سمعت الألواح الخشبية في الدهليز.

- إذن، ما الذي يجعلك تظن أنه كان يراقبك؟

- لدي نوع من الإحساس... أتدرين بما تشعرين به عندما يحدق فيك شخص من الخلف؟

- أتشعر غالباً بأحاسيس مثل تلك؟

ابتسم، وقال: عندما يحدق فيّ أحد من الخلف فقط.

تنهدت قائلة: لم أفهم شيئاً. هل أنت علي يقين بأنه ليس هناك أمر آخر؟

- أتظنين أن قتل عنكبوت سيفسر ذلك؟

- ربما - إذا ما عرفت...

نهضت واقفة، على نحو مفاجىء.

- إلى أين ستذهبين؟

- لأتحدث إلى أبي. سأحاول إقناعه بالتحدث إليك.

ـ لا تحكي له قصة العنكبوت!

استدارت، وجثت على الأرض بجانبه، وقالت: سوف أحيطه علماً بها. وعليك أن تثق بي.

ـ لكنه يعمل لديها.

ـ يعمل لديها، بالطبع. لأنه لا يستطيع أن يقوم بعمل آخر، وهو محظوظ للغاية لأنه يعمل لديها، فهذا أفضل من تنظيف المجاري. لكنه لا يحبها. وكيف يحبها وقد رآها وهي تقتل العديد من أهلنا؟ لقد التهمت أيضاً فيريس المسكينة.

ـ ما أزال أشعر بأنه لا ينبغي أن نطلعه على حادث العنكبوت. فمن الأفضل الاحتفاظ بالسرّ بين أقل عدد ممكن. إن أخي وأمي لا يعرفان شيئاً عنه.

وضعت يدها وراء رأسه، وقالت: عليك أن تثق بي. لن يكون بمقدور أبي أن يساعدك، ما لم يعرف الحقيقة.

أدرك أنه من المستحيل أن يعترض، خاصة وأن وجهها قد دنا من وجهه، فقال: «ليكن. تصرفي بالطريقة التي تظنين أنها الأفضل».

مالت للأمام، ومنحته قبلة طويلة، ثم نهضت، وانصرفت. سمع المزلاج وهو يغلق مرة أخرى.

حالت السعادة دون إمعانه في التفكير. ولكنه أخذ يسترجع المرة تلو الأخرى، كل تفاصيل ربع الساعة الماضية. عندما تذكر إلى أي مدى كان يكرهها، وكم مرة راح يحلم أثناء اليقظة، بأنه يعذبها، شعر بالخجل من نفسه. بدا سخيفاً أن يشعر بالضيق لأنها وصفته بذلك «الفتى مهزول الجسم». فتلك ببساطة طبيعتها. إنها إنسانة صريحة، اعتادت إصدار الأوامر. ومع ذلك فهي رقيقة ولطيفة. شعر بالنشوة وهو يفكر في شفتيها وهما تضغطان على شفتيه. ومايزال شذاها باقياً على ذراعيه، وحينما أغمض عينيه، تخيلها وهي تضطجع بجانبه.

عم الظلام، فجأة. جلس محتضناً ركبتيه، ولم تعد رائحة الرطوبة والعفن تثير اشمئزازه، بل أصبحت تذكره بميرلو. فمجرد التفكير في اسمها يثير لديه إحساساً كالموسيقى.

راح في نوم عميق، ثم أيقظه مذعوراً ضوء مفاجىء، سمع صوت ميرلو، وهي تقول

له: «لا تقلق». رآها وقد حملت مصباحاً زيتياً صغيراً، وقالت له: «يمكنك الخروج الآن، فأبي يريد أن يراك».

تبعها في الدهليز، وقال لها: وماذا عن أمي وڤيج؟

- لقد ذهبا بالفعل. انظر! ثم فتحت آخر باب في الدهليز، فرأى على ضوء المصباح، أن الحجرة خالية.

هبطا الدرج، فلم يجد أثراً للعناكب الحارسة. أضيئت الطوابق التحتية للمبنى بالعديد من المصابيح الزيتية، التي كان بعضها ضخماً ذهبي اللون، وله زجاجة طويلة. أطفأت ميرلو مصباحها، وفتحت باباً قائلة: «أدخل!».

وجد نفسه في حجرة رحبة، ذات جدران مكسوة بستائر زرقاء وذهبية. رأى أن الأثاث من النوع ذاته، الذي شاهده في قصر كازاك في ديرا، لكنه مريح على نحو أكبر. وقعت عيناه على نحو ست فتيات جالسات، أو مضطجعات على آرائك، ورأى فتاة تداعب بأصابعها شعر فتاة أخرى.

صفقت ميرلو بيديها، قائلة: «بيريس، نيلا!»، فنهضت فتاتان، كان نيال قد رآهما وهما تجلبان الهواء بمروحتين أمام الملك كازاك. نظرت إحداهما إليه، وضحكت.

- ما الذي يضحكك؟

أشارت إلى مرآة معدنية، معلقة على الحائط، فرأى أن الجانب الأيسر من وجهه قد اكتسى بالغبار، وكذلك الجانب الأيسر من جسمه. حدقت الفتيات الأخريات فيه، وضحكن.

إحمر وجه ميرلو غضباً، وقالت: «هذا يكفي. لا تضيعن الوقت!».

لكن الفتيات لم يتأثرن كثيراً بنبرة ميرلو، وظلت فتاة تضحك، وهي تضع يدها على ذراع نيال، وتسحبه لخارج الحجرة. سار خلفها في دهليز، ومنه إلى حجرة واسعة، ذات جدران بيضاء، امتلأت بسحب من البخار المعطر. اكتست الأرضية بآجر من الفسيفساء، يماثل تلك التي رآها في المعبد في الصحراء. شاهد في وسط الأرضية، حماماً غاطساً، مستدير الشكل، مملوءاً بماء أزرق اللون، راح يتبخر برفق.

قادته الفتاتان، اللتان تمتعتا ببشرة خمرية وعيون سوداء، إلى حافة الحمام. وأفضت عدة درجات، إلى المياه ذكية الرائحة. شعر بالتوتر عندما أخذت إحداهما تخلع رداءه، وحاول التشبث به، فضحكت الفتاتان.

ـ لا تكن أحمق! لا يمكن أن تستحم بثيابك!

ـ لكنني أستطيع أن أخلع ملابسي بنفسي.

اعتادت أمه وانجيلد، عندما كانوا في الجحر، أن تخلعا ملابسهما في الظلام، بينما يشيح الرجال بعيداً.

قالت الفتاة الهيفاء، وهي تربت على رأسه: «إنها وظيفتنا. يتعين عليك ألا تخجل، إننا نساعد الملك على الاستحمام كل صباح».

استسلم نيال لهما، وأمسكت الفتاتان بيديه وهو ينزل إلى المياه. كانت إحدى الدرجات زلقه، وكاد أن يفقد توازنه، لولا أنهما أمسكتا به بشدة.

كانت المياه دافئة، وتعرف على الرائحة التي اشتمها في شعر ويدي ميرلو. عندما وقف في الماء الذي وصل إلى كتفيه، خلعت الفتاتان ثيابهما، وقفزتا إلى جواره، فارتفع الماء وبلل شعره. وبينما راحت فتاة تدلك وجهه وجذعه، دلكت الأخرى شعره بسائل أخضر، أحدث سحابة من الزبد.

أجلستاه، بعد ذلك، على الدرجات، بينما صبتا أباريق من المياه فوقه. وكلما أدار رأسه، في كل مرة، ليلقي نظرة خاطفة على الأفخاذ العارية، أغمض عينيه لاحظت الفتاتان ذلك، فراحتا تثيرانه، وتسحبان وجهه نحوهما، وهما تغسلان رأسه. أدرك، بعد بضع دقائق، أن شكله مثير للسخرية، فشاركهما الضحك.

أوقفتاه، لتجّففاه، بمناشف كبيرة، وتدلكا رأسه بقوة، مما جعل عينيه تدمعان. اقتادتاه إلى فراش حيث راحتا تدلكان جسمه بالزيت، وتشذبان أظافره وشعره. ومشطتا شعره وقامتا بتثبيته بشريط قماشي حول جبهته. ارتدت إحداهما، في نهاية المطاف، ثيابها وخرجت. ثم عادت حاملة رداء أزرق غامقاً وخفاً من الجلد الأصفر. عندما ألبستاه هذه الثياب، مسحت إحداهما البخار من فوق مرآة كبيرة، وجعلته يرى صورته في صقالها. كان عليه أن يقر بأنه لم ير نفسه قط بمثل هذه النظافة والجاذبية. لم يعد يبدو مثل أحد المتوحشين، ولكن مثل واحد من الشباب الذين أقبلوا لتحيته هو وأبيه عندما اقتربا من ديرا.

انفتح الباب، ونظرت ميرلو وهي تقول: «أهو جاهز؟ آه، نعم! يا له من وسيم!».

احمر وجه نيال خجلاً، لكن المرأة قالت له إنها تقول الحقيقة.

ـ اللون الأزرق يناسبك. إن هذا الرداء لكورڤيج.

ـ وأين كورڤيج؟

ـ يعمل في مزرعة الأرانب. لم تسمح العناكب لأبي بأن يجعله يبقى هنا.

أومأت إلى الفتاتين قائلة: «إذهبا الآن!». وبمجرد أن أُغلق الباب خلفهما، لفّت ذراعيها حول عنقه وسحبت وجهه نحو وجهها، لكنها أبعدته، وهي تتنهد على مضض.

ـ لا ينبغي علينا أن نجعل الملك ينتظرنا أكثر من ذلك. عندما تذهب إليه، أريدك أن تفعل ذلك.

ثم جثت على ركبة واحدة، وقد حنت رأسها، وقالت: «حاول أن تفعل ذلك». قلّدها، لكنه شعر بالارتباك، فقال لها: هل يتعين عليّ القيام بذلك؟ إنني لم أفعلها قط.

وضعت أصبعها على فمه، وقالت: «إفعلها من أجلي. أريدك أن تترك انطباعاً قوياً لدى أبي». ثم طبعت قبلة مقتضبة على شفتيه، وقالت: «أريده أن يحبك».

ـ ليكن.

لو أنها طلبت منه أن يلقي بنفسه، بكامل ثيابه، في الحمام، لفعل ذلك دون أي تردّد.

أمسكت بيده، وقادته للخارج، فأحس بالهواء بارداً على بشرته، وشعر كما لو أنه يطأ وسادة من الزبد اللدن.

فتحت باباً في نهاية الدهليز، فرأى الحجرة وقد أضيئت بمصابيح عديدة، فبدت وكأن ضوء النهار أنارها. اتكأ الملك فوق كومة من الوسائد، وحوله نحو ست فتيات، فبدا كما لو أنه لم يتحرك منذ الصباح.

ـ آه، ابني العزيز، أقبل!

اتجه إليه نيال جاثياً على ركبة واحدة، وقد أشاح برأسه. فابتسم كازاك، وشعر بالبهجة، وقال: إنك تضاهي أحد رجال الحاشية الملكية. ممتاز!». نهض الملك واقفاً، وساعدته الفتيات، وعَبر الحجرة وقال: هلمّ لنجلس. لا بد وأنك تتضور جوعاً!». ووضع يده بخفة فوق كتفه.

طقطق الباب، وخرجت ميرلو.

ناولت فتاةٌ نيال، بمجرد أن جلس، قدحاً معدنياً، واترعته فتاة أخرى، من إبريق طويل العنق. إنه السائل الذهبي، الذي احتساه مع أودينا فوق القارب. راقبه كازاك باستحسان، وهو يفرغه في جوفه. بدا الشراب لذيذاً على نحو لا يوصف، وراح يشيع

البرودة في حلقه المحترق مثلما رحيق مثلج. وأحس، في الحال، أن رأسه قد دار، وأن شرايينه قد توهجت بالدفء.

وضعت الفتيات أواني خشبية منحوتة أمامه، مليئة طعاماً وفاكهة، وجوزاً، خبزاً أبيض ناعماً، وصحناً يحوي طيوراً صغيرة مطهوّة، خرجت من الأتون لتوها. قال الملك كازاك، عندما نظر إليه نيال مستفسراً: «كل هذا من أجلك. لقد تناولت طعامي بالفعل». أومأ إلى إحدى الفتيات، وقال: «كريستا، أعزفي لضيفنا، بعض الموسيقى، لمساعدته على الهضم!».

تناولت آلة وترية، وجلست على الأرض، أمامهما، وراحت تشدو بصوت، شجيّ واضح النبرات. اتكأ كازاك على وسائده، وأغمض عينيه بارتياح. أما نيال، فكان جوعه شديداً، فلم يبد اهتماماً بالموسيقى. ولكن رغم ذلك، أخذ يتناول طعامه باقتصاد. أوحى إليه حدس ما، أن عليه الاحتفاظ بصوابه. وقاوم، للسبب نفسه، إغراء احتساء القدح الثاني من السائل عسليّ اللون، وارتشفه على مهل.

لما انتهى من تناول طعامه، تقدّمت منه إحدى الفتيات، ومعها قطعة قماش معطرة، رطبة، فمسحت بها يديه وفمه، بينما قامت فتاة أخرى بتجفيفه بمنشفة ناعمة.

توقّفت الفتاة عن العزف. بدا أن كازاك قد استيقظ، إذ نظر إلى نيال، وقد ندّت عنه ابتسامة عطوف.

ـ هل اكتفيت؟
ـ نعم، شكراً، يا سيدي!
ـ طيب. إذن بإمكاننا أن نتحدث.

استدار إلى الفتيات، وصفق بيديه، فقمن بجمع أواني الطعام، وخرجن.
أعاد كازاك ترتيب الوسائد، ليقترب من نيال، وجلس عليها القرفصاء، وقال:
ـ طيب، أيها الشاب، يبدو أنك تسبّب لنا الكثير من المتاعب.
تضرّج وجهه بالحمرة، وقال: أنا جدّ آسف. ولكنني لا أعرف السبب.
نظر كازاك في عينيه مباشرة، وقال: ألا تعرف؟
رد بصدق: كلا.

قطّب كازاك، وحدق في قدميه، فأظهرت هذه الحركة شكل لغده. قال في نهاية المطاف: لقد قتلت عنكبوتاً.

حاول نيال منع صوته من الارتعاش، وهو يردّ قائلاً: نعم.
حدق فيه، وهو يقول: كيف؟
- برمح معيّن.
أخرج كازاك الأسطوانة المعدنية، من تحت وسادة، وقال: هذه؟
- نعم.
مدّ الملك يده بها، وقال: أرني كيف تعمل!
أخذها منه، وحدّد مكان الدائرة متّحدة المركز في المعدن، وضغط عليها، فانفتح القضيب. تابعه كازاك بتركيز. ضغط نيال عليها مرة أخرى، فانكمش القضيب. مدّ كازاك يده، فأعطاها نيال له. حدّد كازاك الدائرة، وضغط عليها بإبهامه. لم يحدث شيء. ضغط عليها مرات عديدة. وفي نهاية المطاف سلّمها لنيال من جديد.
- أثمة حيلة ما؟
- لا أظن ذلك.
ضغط نيال، فتمرّد القضيب. أخذها كازاك منه، وحاول مرة أخرى، فلم يحدث شيء. ألقاها كازاك، بعد أن حاول لمدة دقيقة، على الأرض، وقد استشاط غضباً.
- ما السبب الذي يجعلك تستطيع تشغيلها، بينما أنا لا أستطيع؟
- لا أدري.
لم يطرأ على ذهنه، من قبل، أنه ليس بمقدور أحد سواه، تشغيل هذه الأسطوانة.
- قصّ عليّ حكاية عثورك عليها!
كرّر نيال، طائعاً، قصّة العاصفة الرملية بالمدينة المتهدمة، والآلة المتألقة.
مدّ كازاك يده خلفه، فعثر على لوح أبيض، وقطعة من الفحم.
- أتستطيع رسمها؟
رسم نيال الآلة، بصورة غير متقنة، وأدرك أنه نسي العديد من التفاصيل. حدق كازاك فيها لفترة طويلة، وسأله:
- هل بمقدور بقية أسرتك أن تفتح وتغلق القضيب؟
- لا أدري.
- ولِم لا؟
- لم أعرضه عليهم.
أومأ كازاك متعاطفاً، وقال: أتخشى أن يأخذه أخوك منك؟
- أجل.
- ليكن. حدّثني عن مقتل العنكبوت.

كرّر القصة التي أسمعها لميرلو.
قاطعه كازاك متسائلاً: أكنت تنظر في وجهه؟

ـ نعم. .

ـ ومع ذلك استطعت قتله؟

ـ نعم.

ـ يكاد يكون من المستحيل على أي إنسان، قتل عنكبوت ما لم يكن قد فقد وعيه. بإمكانه أن يصرع إنساناً بقوة الإرادة الجبارة. ما السبب ـ في اعتقادك ـ الذي جعلك تستطيع قتل هذا العنكبوت؟

ـ ربما أصيب بالدوار، عندما دفن تحت الرمال.

هزّ رأسه قائلاً: لا. لقد أتيح له الوقت، ليرسل إشارة خطر قبل أن يموت. ألم يحاول مقاومتك؟

ـ بلى.

ـ بقوة إرادته؟

ـ نعم

ـ إذن كيف استطعت قتله؟

ـ لا أدري.

بدا السؤال لنيال سخيفاً. فقد حدث كل شيء، في غمضة عين، ولم يفكر من قبل، في كيفية حدوث ذلك.

ملأ كازاك قدحه مرة أخرى، من الإبريق، وأخذ يرتشف متأملاً. نظر إلى نيال، من تحت حاجبيه السميكين، وسأله: هل بدأت تفهم سر اهتمام العناكب بك؟

ـ لأنني قتلت عنكبوتاً.

ـ ليس لأنك قتلت عنكبوتاً، ولكن لأنك استطعت قتل عنكبوت.

هزّ نيال رأسه، فقال كازاك بصبر:

ـ سوف أوضح لك الأمر. عندما عثرت العناكب على جثة العنكبوت، اكتشفت أنه ضرب على مخه، فمات في الحال. ومع ذلك كان أمامه متسع من الوقت، ليرسل إشارة إنذار. وذلك يعني أن إرادته في تمام اليقظة والنشاط. وبالتالي كان من المستحيل أن تتمكن من رفع ذلك الرمح.

حدق في وجه نيال، ليراقب رد فعله، لكنه أومأ فقط بطريقة تنم عن عدم الفهم، فواصل كازاك توضيحه:

ـ إنها المرة الأولى منذ أكثر من مائتي عام، التي يُقتل فيها عنكبوت على يد كائن آخر.

وقد أثارت جريمة القتل هذه ـ هكذا ينظرون إليها ـ نوعاً من الذعر. إنها تعني أن العناكب، لم تعد حصينة. لقد شعرت بأنه يتعيّن عليها أن تعثر على القاتل مهما كلفها الأمر. وهذا هو السبب الذي يفسّر غزوها لأرض ديرا. وهذا هو السبب الذي أدّى إلى مقتل أكثر من ٥٠ شخصاً من شعبي.

قال نيال: آسف.

تنهد كازاك، وقال: لا جدوى من الأسف. فهذا أيضاً هو السبب وراء مقتل أبيك. إن الأمر لم يتطلّب منها وقتاً طويلاً لتعرف أنكما بالقرب من الحصن، في ذلك الوقت.

تجنّب عيني نيال، وهو يقول ذلك، ثم أضاف: والآن، هل بدأت تفهم سبب اهتمامها بالعثور عليك؟

أشاح نيال بعينيه، وقال: لتقتلني؟

دُهش حينما قال كازاك: لا، ليس بالضرورة. لقد ظننت أن أباك هو الذي قتل العنكبوت.

سأله نيال، بعد فترة صمت طويلة: إذن فما سرّ اهتمامها بي؟

ـ لو أنك الشخص الوحيد، لأدركت أهمية قتلك. أتفهم أنه عندما تحدث أشياء مثل هذه، فإنها عادة ما تحدث لأشخاص عديدين، في الوقت ذاته. لا أفهم السبب. يبدو أن ذلك هو قانون الطبيعة. وإذا ما قتلتك، فسيظل هناك العشرات ـ وربما المئات ـ مثلك.

ثم حدق في عيني نيال، واستطرد قائلاً: ولكن طالما أنك على قيد الحياة، فبإمكانها الاستفادة منك.

هزّ رأسه، وقال: كيف؟

ـ أتعتقد أن بمقدورك التعرّف على آخرين مثلك؟

حتى لو أن عيني كازاك، لم تكونا تتغلغلان داخل عينيه، لعرف نيال أن كل شيء يعتمد على هذا السؤال. فكازاك يطالبه بالاعتراف بأنه مختلف عن الآخرين، وهو يعرف أنه مختلف. إنها لحظة عرف فيها الاثنان ما يدور في ذهن كل منهما.

قال نيال في النهاية: اعتقد ذلك.

انبسطت عضلات وجه كازاك الذي ابتسم، ومال للأمام، وضرب نيال على كتفه، وقال: «هذا ما أريد أن اسمعه منك». استطاع نيال أن يحس بارتياحه، وشعر بالدهشة، لأنه لم تكن هناك لحظة، لم يكن فيها كازاك سيّد الموقف.

أبعد كازاك الوسائد، ومدّد ساقيه، ثم استرخى مرة أخرى، وأسند ظهره للحائط، وقال: «طيب، والآن بمقدورنا أن نبحث هذا بطريقة معقولة». ملأ قدحه مرة أخرى، وناول الإبريق لنيال، الذي ملأ قدحه، لكنه أخذ رشفة صغيرة.

قال كازاك: لنكن واضحين من البداية، تجاه أمر واحد. هل أنت على استعداد، للعمل عند العناكب؟

ردّ نيال بدهشة: أعمل عندها؟

قال كازاك الذي كاد ينفد صبره: تساعدها على تحديد أماكن الآخرين مثلك.

ـ ولكن كيف بمقدوري أن أفعل ذلك؟

ابتسم كازاك، وقال: إنها مسألة في غاية البساطة. ستقوم العناكب بتمشيط الصحاري، بحثاً عن المتوحشين. وهي تعرف بالفعل أماكن معظمهم.

ـ أتعرف أماكنهم؟

ـ بطبيعة الحال. ألم تفكر في سبب إرسالها تلك المناطيد، طوال الوقت؟

قال نيال: ولكن في تلك الحالة...

لكنه توقف عن استكمال ما يريد قوله، فقد أحس بالحيرة والارتباك.

رد كازاك: في تلك الحالة، لماذا لا تأسرهم في الحال؟ لأنها تريد البشر الأحرار ـ المتوحشين، كما تسميهم.

ازدادت حيرة نيال، فقال: لأي غرض؟

ابتسم، وقال: للاستيلاد. إن هذا ما يفعله معظم أبناء شعبي. ألم تلحظ أي خطأ في معظم الناس في هذه المدينة؟ إنهم أغبياء. معظمهم ليسوا أفضل من البلهاء كثيراً. وذلك يرجع إلى أن العناكب تتعمد اتخامهم كي يصبحوا أغبياء. ولو أن طفلاً بدا أكثر ذكاءً، أو أكثر نشاطاً من الآخرين، فإنها تقوم بقتله.

أحس نيال بالحيرة، فقال: ولكن لِمَ؟

ـ لِمَ؟ لأن البشر الأذكياء يشكلون خطراً عليها. فبداية، لا يفضلون أن تلتهمهم العناكب. ففي الأيام التي كان فيها البشر سادة هذا الكوكب، اعتادوا تربية الماشية، لتوفير الطعام. أما الآن، فإن العناكب تربي البشر للغرض ذاته.

قال نيال: ولكنها تلتهم العبيد فقط.

ابتسم كازاك مشفقاً عليه، وقال: العبيد فقط! وماذا تعتقد أنها تفعل مع الآخرين؟

ـ إنهم يعملون لديها.

ـ وعندما ينتهي عملهم؟

قال نيال، الذي كان يعرف بالفعل الإجابة: يرسلون إلى أرض السعادة الكبرى.

ندت عن كازاك ضحكة مغتصبة، وقال: المذبح.

هزّ نيال رأسه، وقال: أتعني أنها تلتهم الجميع ـ كل الخدم، كل القائدات؟

عندما قال الكلمة الأخيرة، طرأت أودينا على ذهنه.

أومأ كازاك موافقاً: «هذا صحيح. الجميع ما عدا الذين يعملون في الخدمة السرية».

وأضاف متأملاً: «لا أعتقد أنها ستزعج نفسها وتلتهمني. فأنا عسير المضغ، وكذلك ميرلو».

ـ هل ميرلو في الخدمة السرية أيضاً؟

ـ بطبيعة الحال.

أحس نيال بقشعريرة، وصدمة. فمن الصعب الاعتقاد بأن ميرلو متواطئة في هذا الخداع والقتل الجماعي.

بدا أن كازاك يقرأ أفكاره، حيث قال له: «يتعين عليك أن تنظر إلى هذا الأمر بطريقة منطقية. فالعناكب هي السادة، بإمكانها أن تفعل ما يحلو لها، شئنا أم أبينا. ورغم أنك قد لا تصدق ما أقوله، فإنها حقاً ليست سيئة بالدرجة التي تظنها. بعضها أناس جديرون بالاحترام. ويتعين عليك بالمناسبة أن تنظر إليها على أنها أناس، وليست حشرات. إن بمقدورها أن تدرك مشاعرنا تجاهها، وهي لا تحب أن يُنظر إليها على أنها حشرات. ولذلك عليك أن تتعود على اعتبارها أناساً. وهي السادة، بإمكانها أن تفعل ما يحلو لها. فلن يضايقك الأمر في شيء أن تأكل طائراً نافقاً، أليس كذلك؟ وهي أيضاً لن يضايقها أن تأكل إنساناً ميتاً. إننا بالنسبة لها، مجرد ماشية ذكية. ومع ذلك أعرف أناساً قامت بتربية الطيور على أنها أليفة ـ وأحبوها مثل أطفالهم. وتشعر العناكب بالشيء ذاته، حيال البشر. إنها أحياناً ما تغرم بنا. وإذا ما كان هناك خيار الآن، بين أن أتعرض للالتهام وبين أن أكون أليفاً، فإنني أعرف أي أرض سأقف عليها، إذ انني أفضل أن أبقى على قيد الحياة.

أعجب نيال بعبارات كازاك المتدفقة، مثلما أعجب بمنطقه. إنها المرة الأولى في حياته، التي يسمع فيها أحداً يتحدث بطلاقة. لقد تكلم كازاك بصوت واضح النبرات، قوي، متعدد الطبقات، فتارة كان يتحدث بنبرة تتسم بالود والملاحظة، وتارة أخرى بنبرة تتسم بالحزم والانفعال. وجد أنه يصغي إليه باستمتاع كما لو أنه يصغي إلى موسيقى. ومع ذلك شعر أن كازاك يتحدث بهذه الطريقة، للتأثير عليه.

تعين عليه أن يجمع شتات أفكاره، ليطرح السؤال الذي يزعجه: إذا ما قتلت العناكب الأطفال الأذكياء، فلماذا تحتاج إلى قاطني الصحراء للاستيلاد؟ فنحن أكثر ذكاء من معظم خدم العناكب.

بدا كازاك مثل مدرّس وهو يقول له: «سؤال وجيه» فشعر نيال بالفخر. وأضاف الملك قائلاً: تنفق العناكب عشرة أجيال لتحويل خدمها إلى كائنات غبية، ثم تجد خدمها

يتحولون إلى بلهاء. من أين تظن جاءت العبيد؟ إنهم الجيل العاشر من البشر الذين ربّتهم العناكب بشكل متعمد ليصبحوا أغبياء. وهذا هو السبب الذي يجعلها في حاجة إلى سلالة استيلاد جديدة ـ مثلك.

دهش نيال، فقال: مثلي؟

ـ بطبيعة الحال. ستكون وظيفتك إنجاب الأطفال.

تضرج وجهه بالحمرة، وقال: وماذا عن النساء... كيف سيكون شعورهن حيال ذلك؟

قال كازاك، بصوت وقور: إنهن لا يعترضن على أي شيء. باستثناء إحباطهن، بطبيعة الحال، لعزلهن.

تذكر نيال فجأة، الفتاة ذات الأنف الأفطس، التي أغرته للدخول بين الشجيرات. فهم، للمرة الأولى، طبيعة ما حدث. أصاب التفكير عقله بالدوار.

قال كازاك: لذلك أعتقد أنك بدأت تدرك سبب اختياري للتعاون مع سكان مدينة العناكب. إن ذلك لا يرجع إلى رغبتي في البقاء، بل إنها رغبة لبذل أقصى ما يمكن من جهد لخدمة شعبي. لا يتعرض الرجال، بطبيعة الحال، لأوضاع سيئة، لكنني لا أريد أن أرى النساء وقد تحوّلن إلى آلات للاستيلاد ـ خاصة ابنتي. وبالمناسبة فإنها تبدو مغرمة بك.

تورّد وجه نيال، وشعر بالسعادة، وتجنّب النظر في عيني كازاك، الذي أضاف قائلاً: «وهناك أيضاً أمك، وكيف ستستطيع تحمل سجنها في حي النساء، تلد طفلاً غريباً، مرة كل عام؟ إن لديك القوة التي تحول بالتأكيد دون حدوث ذلك».

افرغ كازاك قدحه في جوفه، وأعاد ملأه ببطء، ليعطي نيال وقتاً ليفكر فيما قاله. حدق نيال عبر النافذة، فوجد القمر بدراً، يرتفع في سماء الليل الأسود.

سأله في نهاية المطاف: هل أنت على يقين، أن العناكب... شعب العناكب، يريدون أن أعمل معهم؟

أومأ كازاك قائلاً: كل الثقة.

ـ عندما قدمت إلى هنا بعد ظهر اليوم، شعرت أنهم جميعاً يريدون قتلي.

ـ بطبيعة الحال، لأنك تمثل، بالنسبة لهم جميعاً، خطراً.. وإذا ما تأكدوا ـ وشدد على الكلمة ـ أنك حليف لهم، فإن شعورهم سيكون مختلفاً.

نظر نيال إليه غير مصدق قائلاً بأدب: أتظن أنهم سيغيرون شعورهم؟

ـ بالطبع ، إنهم بحاجة لمساعدتك .
ـ لكنني قتلت عنكبوتاً من بين جلدتهم .
ـ إنهم لا يعرفون ذلك ، ولن أبلغهم .
ـ ألن يتمكنوا من التخمين؟

ـ كلا ، إن لم تسمح لهم بذلك . إنها تعتقد أن الرجل الذي قتل العنكبوت ، قد مات ـ وهو أبوك المأسوف عليه . وبالمناسبة ، فقد شعرت بالأسف لوفاته ، فقد كنت أحبّه . ولكن علينا أن ننظر للأمور بطريقة عملية . لقد قتلت عنكبوتاً ، وهي قتلت أباك . الآن أصبحتم متعادلين ، وحان الوقت لنسيان أحقادك ، لتتعاونوا معاً .

ـ وماذا عساي أن أفعل؟

ـ سنبحث ذلك غداً ، حيث سأصطحبك لمقابلة سيّد العناكب . شحب وجه نيال ، فواصل كازاك كلامه : ليس هناك ما يدعو للخوف . أعتقد أنك ستجد الحديث ممتعاً . وسوف أجري معظم الحديث .

ـ هل لي أن أطرح سؤالاً آخر؟
ـ كل ما تريد أن تسأله ، يا ولدي العزيز!
ـ من أين لك أن تتأكد من أنها لن تخدعني؟

ندت عن كازاك ابتسامة عكست رباطة جأشه ، وقال : «تعني كيف لي أن أثق في أنها لن تقتلني ، عندما أصبح عديم الفائدة لها؟ الإجابة المنطقية البسيطة ، هي أنها تحتاج إليّ . إنها بحاجة إلى شخص يقوم بتنظيم كل البشر في هذه المدينة . شخص يمكنها الثقة فيه . هذه هي النقطة المحورية ، يا نيال!!» . كانت هذه هي المرة الأولى التي ينادي فيها نيال باسمه . وأضاف : «إنها بحاجة إلى أشخاص يكونون موضع ثقتها . فلماذا تلتهمك أو تلتهمني؟ إن هناك الآلاف ـ مئات الآلاف ـ من البشر الذين تستطيع التهامهم في أي وقت تشاء . ولكن ليس لديها تقريباً أي كائن بشري ذكي ، يمكنها أن تثق فيه . وهذا الإنسان هو ما تحتاج إليه بالفعل . وعلاوة على ذلك ، فإنهم ليسوا متوحّشين ، كما تعلم . إنها كائنات في غاية التحضّر . فهي لديها مفكروها ، وفنانوها ، وساستها ـ وكنت أتحدث مع كبير سياسييها بعد ظهر اليوم ، وهو عنكبوت يدعى دراڤيج . إنك لتعجب من مدى عبقرية هؤلاء القوم ، عندما تتعرف عليهم . (وتفحص التعبير الذي بدا على ملامح نيال ، وأحس بظلال شك على وجهه ، فواصل حديثه قائلاً) : أعرف ما تفكر فيه ـ فأنت ترى أنه من الصعب عليك أن تشعر بودّ تجاه قوم يأكلون البشر . إنني أشعر بالاحساس نفسه ، ولكن إذا ما وثقوا

فيك، فإنهم لن يهتموا كثيراً إذا ما قمت بحماية الأشخاص المقربين منك. إنهم يقبلون ذلك على أنه أمر عاديّ وطبيعيّ.

ـ وماذا عن أمي وأخي؟ هل ستدخلهما في الخدمة السرية؟

قطب كازاك متأملاً، وقال: «لا أدري. ليس بعد، على أي الأحوال. يتعيّن أن أقرر أنهما من أهل الثقة. فأنت تعرف أنه إذا لم تثق بهما العناكب، وسمحنا نحن لهما بالدخول في الخدمة السرية، فإننا نعرض حياتنا للخطر. إنني لم أسمح حتى لأبنائي بدخول الخدمة السرية. إنه من الأفضل لهما ألا يعرفا شيئاً عن ذلك». ونظر إلى عيني نيال، وقال: «ولست بحاجة لأن أؤكد لك أنه من المهم الاحتفاظ بكل هذا لنفسك، وعدم البوح بشيء. فقوم العناكب لا يرحمون من يخونون ثقتهم.

أومأ نيال، وقال: أعرف.

مال كازاك للأمام، وربت على كتفه، قائلاً: «طيب. أعتقد أننا سنصبح شريكين جيّدين». صفق بيديه وقال: والآن هل ترغب في مزيد من الموسيقى؟.

دخلت الفتيات، وبدون تلقّي أية دعوة، تناولت عازفة العود آلتها، وراحت تغني، وقد شاركتها الفتيات الأخريات. كان شدوهن يتسم بمهارة وروعة لا تصدق. ولكن نيال وجد أنه من الصعب عليه التركيز، فتفكيره في الخدمة السرية، ملأه بانفعال امتزج بالقلق. فقد أدرك بالفعل أن ڤيج سيرفض التعاون. فطبيعته تتسم بالوضوح والاستقامة، ولن يشعر بأي شيء، سوى كراهيته المطلقة للعناكب. أما أمه، فكيف تستطيع أن تغفر لقتلة زوجها جريمتهم؟ وإذا ما رفض الآن التعاون مع كازاك، فإنه يحكم عليهما بالموت...

وضع كازاك يده بخفة، على كتفه، وقال: «أخشى أن يكون النوم قد غلبك». وفي الواقع فإنه وجد صعوبة كبيرة في إبقاء عينيه مفتوحتين. وأضاف: «أتحب أن تذهب إلى حجرة نومك؟» أومأ نيال ممتناً. فقال كازاك: ميريس سوف تريك حجرتك ـ إنها تواجه حجرة ميرلو». وابتسم له، وأردف: «نم قدر ما تحبّ! فأمامك يوم طويل غداً. لا تنسَ هذا!». ثم ناوله الأسطوانة المعدنية.

كانت ميريس إحدى الفتاتين اللتين قامتا بمساعدته في الاستحمام. ألقت نظرة خاطفة عليه، وهي تقوده ليصعد الدرج، وقالت: «يبدو أن الملك مولع بك».

ـ أترين ذلك؟

ـ من المؤكد أنك تعرف ذلك.

تقدمته عبر دهليز كست أرضيته سجادة امتصّت وقع أقدامهما، وفتحت باباً. تبعها إلى حجرة نوم فخمة، فشعر للحظة أنه لا بد وأن هناك خطأ ما.

ـ هل أنت واثقة من أن هذه هي حجرتي؟
ـ كل الثقة.

كان الفراش يرتفع عن الأرضية بنحو قدمين على الأقل، وكسته ملاءات ذهبية اللون. وشعر بسجادة تحت قدميه ناعمة مثل عشب صغير، وأشعلت أوان بللورية صغيرة، فانبعث منها وهج ورديّ اللون.

سحبت أغطية الفراش، وقالت: «هذه هي ملابس النوم»، وأشارت إلى رداء أزرق، علق عند طرف الفراش، وأضافت: «هل لي أن أساعدك في خلع ملابسك؟

ظن للحظة أنها تمزح، ولكن عندما رأى الجدّية في عينيها، ابتسم وقال: «لا. اعتقد أن باستطاعتي القيام بذلك بمفردي».

حدقت فيه، فأحس بالحرارة التي تشعّ من جسدها.

قالت له: لكنك الآن تعيش في القصر، ولا يتعيّن عليك أن تفعل شيئاً بمفردك. نحن هنا لنقوم بهذه الأشياء. بإمكاني أن أكون خادمتك الخاصة. أترغب في ذلك؟

ـ أنا متأكد من أن الملك سيرفض ذلك.
ـ آه. لا، أنا على يقين من أنه لن يعترض. أتحب أن أسأله؟

أحس نيال، على حين غرّة، أنه يعرف ما يدور في خلدها من أفكار. بدا أن ذلك قد حدث، لأنه كان ينظر في عينيها، وشعر بنوع من التعاطف الطبيعي بين ذهنيهما. وأدرك، في الحال، أنها تعرض نفسها عليه، لأن الملك قد أمرها بذلك. وهي سعيدة بهذا الأمر ـ وأنه ليس هناك شيء تفعله أكثر من أن تكون خادمته. وما عليه سوى أن يقول الكلمة، وسوف تعتبر نفسها ضمن ممتلكاته، يفعل بها ما يشاء.

ثم عبرت ميرلو مجال تفكيره. هزّ رأسه وقال: لا أعتقد أن هذه ستكون فكرة وجيهة.

غمرت وجهها سحب من الإحباط، وقالت: ولِمَ لا؟ إنك بحاجة إلى خادمة.
ـ قد لا توافق الأميرة.

شعرت بالارتباك، فقالت: ولِمَ لا؟ إنني مجرّد خادمة، ولن يكون هناك ما يدعو إلى الغيرة.

أثار ما لمحه نيال في ذهنها حيرته وانزعاجه. وبدا الأمر كما لو أنهما يتحدثان عن شخصيتين مختلفتين لميرلو. واقشعر جسده فجأة، حيث أحس بنذير شر، وبمعرفة أمر ما يفضل ألا يعرفه.

اغتصب ابتسامة، وقال لها: دعيني أسألها أولاً!

أشرق وجهها من جديد، وقالت: ليكن. أتريد أن أقدم لك شيئاً، قبل أن تنام - شراباً، شيئاً تأكله؟

هزّ رأسه، وقال: لا، شكراً.

انحنت أمامه، قبل أن تخرج، فأدرك أنها قد اعتبرت نفسها خادمته.

جلس على حافة الفراش، الذي لان بنعومة تحته، وحملق في صورته على صقال المرآة، الموضوعة على الجدار، فبدا كما لو أنه ينظر إلى شخص غريب عنه. لم يرجع ذلك إلى مظهره الخارجي فقط - الزي الأزرق لابن ملك، والشريط الأبيض حول رأسه - بل إلى إحساسه بأن كل يقينه الداخلي قد تقوّض.

منذ ساعتين فقط، كان يشعر بسعادة غامرة، لأنه أدرك أن ميرلو قد وجدته جذاباً. بدا مستحيلاً أنها يمكن أن تحبّه، ولكن عندما قبّلته في الحمام، شعر بأن ذلك أمر لا يمكن تصديقه، ولكنه حقيقي.

أما الآن، فقد تبخّرت هذه الثقة. حدث ذلك عندما حدقت الخادمة في وجهه. أدرك فجأة أنها كانت بمثابة رشوة. فقد عمدت إلى جعله يشعر بالسعادة. لكنها لم تكاشفه بالحقيقة، وهي أن كازاك قد أمرها بأن تكون خادمته. لقد طرحت الفكرة، وكأنها نابعة منها، بل وإنها ستطلب من الملك الاذن بذلك. كان يتعيّن تملّقه، لجعله يتعاون معهم.

هل طلب الملك من ميرلو أيضاً أن ترشوه - بالقبلات، ووعود الحب الضمنيّة؟ بدا له فجأة، أنه يسمع صوتها، وهي تقول: «ماذا، ذلك الفتى مهزول الجسم؟ لا بد وانك تمزحين!» فراح قلبه يذوي بداخله.

كانت الشكوك غير محتملة. خلع خفّه، وسار في الحجرة ثم فتح الباب دون أن يحدث أيّ ضجة. واجهه، عبر الدهليز، باب ذو لون أخضر ملكي، يتّخذ مقبضه شكل ثعبان. حينما مدّ يده ليمسك به، تمنى، للحظة، أن يجد الباب مغلقاً، إلا أنه حتى قبل أن يلمسه، عرف أنه سينفتح. تحرّك المقبض، وأصبح الباب مواربا.

كانت الحجرة مضاءة بسنا وردي اللون، مثل ذلك الذي في حجرته. كانت ميرلو

جالسة تصفّف شعرها أمام المرآة. وكانت ترتدي ثوباً حريرياً ضافياً لونه أبيض قشدي، وقد بدت مستغرقة تماماً. لو أنها حركت عينيها، جزءاً من البوصة، لرأت وجهه، يراقبها من فتحة الباب، لكنها حدقت في عينيها، الغارقتين في التأمل.

فتح فمه ليحدثها، لكنه غيّر رأيه. بدا أن جمالها يؤذي أحاسيسه، لم يكن على استعداد لتعريض نفسه لمزيد من البؤس. وراح ذهنه، وهو يراقب وجهها، يبحث عن ذبذبات تفكيرها. شعر بيقين تام، للحظة، أنها ستدرك وجوده، وتستدير. لكن استغراقها جعلها تغفل وجوده.

وجد نفسه، على حين غرّة، داخل جسمها، يندفع مع تيار أحاسيسها ومشاعرها. تلاشى، في تلك اللحظة، كل بؤسه وغيرته؛ فنظراً لأن هويته امتزجت بهويتها، فإن الغيرة أصبحت أمراً سخيفاً. أحس بجوهرها، بحقيقتها. فقبل بضع لحظات، كانت فتاة خيالية، صورة رائعة الجمال، خلقتها رغبته وعدم خبرته. أما الآن، فقد أصبحت فجأة، شخصاً واقعياً، فخجل من غبائه. فالفتاة التي يتطلع إليها الآن، هي ميرلو، التي لمحها في ذهن الخادمة، التي عرفتها منذ الطفولة. بدا هذا الواقع، في الحال، أكثر تعقيداً، ومألوفاً بشكل أكبر من صورة الأنوثة التي راودته في أحلامه.

بدت ميرلو الواقعية، كريمة، طلقة المحيا، من السهل إرضاؤها. كما كانت أيضاً متعجرفة، متقلبة المزاج، فقد نظرت إلى تصرفاتها على أنها قانون الطبيعة.

راحت تتساءل، في هذه اللحظة، عمّا ألمّ بنيال. فقد أحبته، ولقد تحسن هذا الفتى مهزول الجسم، الذي وجدته مثيراً للاهتمام، وأيضاً للضحك إلى حد ما، خلال شهور، منذ أن رأته لآخر مرة. لقد أصبح أطول قامة، وأقوى، وأضفت عليه بعض الخبرة، المزيد من النضج. ورغم أنها كانت تنفّذ أوامر أبيها، إلا أنها شعرت بالبهجة وهي تجعله يقع في غرامها. فهو شابّ وسيم، وقد أحبّت الشباب الوُسماء. فقد أحاطوها في مدينتها، أما هنا في مدينة العناكب، فهي تشعر بالحرمان. كان نيال، بطبيعة الحال، خجولاً ومرتبكاً، عديم الخبرة في شؤون الحب، لكنها تستطيع بسرعة علاج ذلك. وقد تطلّعت، في الواقع، لتصبح مدرّسته، لقد شعرت بالسعادة وهي تعلّم الرجال مبادىء الغزل...

أغلق نيال الباب بهدوء، وعاد إلى حجرته. شعر وكأنه يقهقه. بدا من غير المعقول أن يتلاشى بؤسه وغيرته بهذه السرعة. مايزال يرى ميرلو جميلة ومرغوبة لكن هذا الشعور غلفته الأوهام. أحس وكأنه قد تزوّجها لمدة عشرة أعوام، وأحس كما لو أن عمره قد زاد عشرة أعوام. ولكن ذلك لم يكن شعوراً مقززاً.

أمسك طرفي القضيب، بكلتا يديه، فانتابه شعور بالدوار، جعله يحس بالأرض تميد من تحته. رفع ناظريه، فبدا البرج هائلاً، ممتداً على مدى الشوف. لمس القضيب المعدني واجهة البرج، فتحول الدوار إلى غثيان حادّ مفاجيء، وشعر بالاختناق. انثنت ركبتاه، وراح يجرّ نفسه للأمام، داخل دوامة من الظلام. ثم شعر باحاسيسه ترتد إليه، وبالظلام يتحول إلى ضوء. ووجد نفسه يقف داخل البرج.

- ٨ -

لم يستمر هذا الإحساس أكثر من بضع ثوانٍ، تمكّنت فيها عيناه من التركيز مرة أخرى. ثم وجد نفسه يقف أمام شاطىء، في أعقاب صدمة، جعلته يشعر بأن تنفّسه قد توقّف. أحسّ للحظة، بأنه يحلم. لكنه لم يشك في واقعية الأمواج، التي تتلاطم على بعد بضعة أقدام من قدميه، أو في حقيقة الصخور المكسوة بالعشب، والتي تمتد نحو البحر.

لم تنتبه الشكوك إزاء ما حدث. فقد قص عليه جدّه، حكايات عديدة عن السحر، جعلت من السهل عليه التعرف على بعض أمثلة من فنون السحرة. وحدق في السماء الزرقاء الشاحبة فوقه، وفي الأجراف التي امتدّت في البعيد، وسعى إلى فهم الوضع الذي يواجهه حالياً. جعلته برودة النسيم، والسحب البيضاء المندفعة في السماء، يدرك أنه أصبح بعيداً عن الصحراء. كما اكتشف أن الأشجار المزروعة فوق قمم الأجراف، تختلف تماماً عن أية أشجار رآها من قبل؛ فقد بدت أطول، وأكثر اخضراراً. كما بدا البحر نفسه رمادياً بارداً، على نحو يفوق البحر الذي اجتازه منذ يومين.

شاهد وهو ينظر إلى الشاطىء مرة ثانية، الرجل العجوز يقتعد صخرة. جعله المشهد يجفل، فقد شعر بيقين أن الشاطىء خالٍ، منذ لحظات. لم يعد يشك الآن، في وجود الساحر.

تلقّى صدمة أخرى، عندما رفع العجوز رأسه، فقد كان جدّه جومار. انتابته الشكوك، حينما دنا منه. فهذا الرجل، أطول قامة، وتختلف نظرته اختلافاً بيّناً عن نظرة جدّه. ومع ذلك فإن التماثل ملحوظ، لا بدّ وأنه شقيق جومار.

وقف الرجل، عندما اقترب منه نيال، الذي لاحظ أن ثيابه غير مألوفة على الاطلاق.

فهي عبارة عن زيّ لونه رمادي باهت، يكسو جسمه بأكمله من عنقه، حتى قدميه. وقد انتعل حذاء أسود لامعاً.

رفع نيال يده، وراحته للخارج، وهي التحية التي يؤديها قاطنو الصحراء. ونظراً لأن الرجل أكبر سناً، فليس من اللائق أن يبادر نيال بالحديث.

ابتسم العجوز، الذي كانت عيناه مائلتين للون الأزرق الباهت. وقال بلهجة تقريرية وكأنه لا يسأله: اسمك نيال.

- نعم يا سيدي.

- لا داعي لأن تناديني بسيدي. اسمي ستيج. فهذا، على الأقل، أفضل ما يمكن أن تناديني به. كيف حالك؟

ولكن عندما حاول نيال مصافحته، تراجع للخلف، وقال: «أعتقد أنه من الأفضل ألا تحاول لمسي». اتضح من ابتسامته أن هذا ليس توبيخاً. وأشار إلى صخرة، وقال: أتحب أن تجلس؟

جلس نيال فوق الصخرة المستديرة التي كساها العشب، بينما عاد الرجل العجوز للجلوس من جديد فوق صخرته. نظر إلى نيال للحظات عديدة دون أن يتكلم، ثم سأله:

- أتدري أين أنت؟

- داخل... أنا بداخل البرج الأبيض.

- أنت بداخل البرج الأبيض. أغمض عينيك!

وعندما أطاعه نيال، استطرد قائلاً: والآن تحسّس الصخرة التي تجلس فوقها. فعل نيال ما طلب منه، ودهش حينما وجد أن سطحها أملس. فتح عينيه، ونظر لأسفل، على العشب الأخضر، والجرانيت المتآكل بفعل ماء البحر. ولما لمسه، عرف أنه وهم، فقد اصطدمت أطراف أصابعه بشيء مماثل للخشب الأملس.

قال العجوز: اخلع حذاءك وتحسّس الرمل!

أطاعه نيال، فوجد أن قدميه تطآن فوق سطح صلب، أملس. ولما سار فوقه، لم يشك لحظة أنه رمل، لأنه يبدو مثل الرمل.

قال نيال: لا بد وأنك ساحر عظيم.

هزّ الرجل رأسه، وقال: «أنا لست ساحراً على الإطلاق». وأشار إلى الشاطىء، وقال: «وهذا ليس وهماً سحرياً». إنه ذلك الشيء الذي تعودنا على تسمية بجهاز الرؤية

الشاملة. وعندما كان البشر ما يزالون على الأرض، استخدموه لتسلية الأطفال في الملاهي.

سأله نيال بلهفة: أتعرف الزمن الذي كان فيه البشر سادة الأرض؟

ـ أعرف كل شيء عنه.

ـ وهل أنت واحد من القدماء؟

هزّ العجوز رأسه، وقال: «لا. لم أكن، في الواقع، هنا، على الاطلاق. ويمكن أن تعرف ذلك، إذا ما حاولت لمسي». ومدّ يده، ولما حاول نيال لمسها، مرت أصابعه من خلالها. لم يشعر بأي ذعر. ندّت عن العجوز ابتسامة لطيفة، وأصبح أسلوبه دمثاً وودوداً، كما لو أنه ليس هناك ما يدعو للخوف.

ـ ولكن لا بد وأنك عجوز جداً.

ـ لا. إنني أصغر سناً بكثير منك. في الواقع أنا أبلغ من العمر، بضع دقائق. ابتسم وهو يرى علامات الحيرة على وجه نيال، وقال: «لا داعي للقلق. فسيتم توضيح كل شيء في الوقت المناسب. ولكن قبل أن نبدأ، اعتقد أنه من الأفضل أن نصعد الدرج».

ألقى نيال نظرة عجلى، في حيرة، إلى السماء، التي اختفت، ليجد نفسه يتطلع إلى سقف أبيض، مضيء. وحلّت جدران البرج البيضاء المنحنية، مكان الأجراف، والأفق البعيد. اكتشف أنه لا يجلس فوق صخرة مكسوة بالعشب، بل على كرسي صلب بلا ظهر ولا ذراعين، مصنوع من خشب باهت. كما جلس العجوز على كرسي مماثل. بدت هذه الحجرة المستديرة، خالية، باستثناء عمود منتصب من الأرض إلى السقف. إلا أن سطحه بدا متموجاً، كما لو أنه يتحرك ببطء مثل الدخان.

وقف العجوز، وسأل نيال: هل لك في أن تتبعني!

سار باتجاه العمود، واختفى داخله، تماماً. لكن صوته جاء من وسط السطح الأبيض الدخاني، قائلاً: «أخط إلى داخله، كما فعلت!».

لمّا أطاعه نيال، وجد نفسه محاطاً بضباب أبيض. ثم راح يطفو إلى أعلى. توقّف، بعد لحظة، وقد شعر بهزة خفيفة.

ظن نيال، لحظة، أنه تحت سماء الليل، حيث رأى القمر والنجوم، بينما امتدت مدينة العناكب، حولها. رأى، على بعد بضع مئات من الأمتار، المبنى ذا الواجهة سوداء اللون، الذي يقطنه سيد العناكب. بل إنه شاهد العناكب الذئبية، وهي تقف في نوبة

الحراسة أمام بابه. لكنه عندما خطا للأمام، اصطدمت يده الممدودة بزجاج. كان شفافاً للغاية، فلم يعكس الضوء الذي ملأ الحجرة.

أشار إلى الحراس العناكب، وقال: ولكن أليس بمقدورها أن ترانا؟

- كلا. إن الضوء ينفذ عبر الجدران، ولكن لا يخرج مرة أخرى.

كانت الحجرة مؤثثة على نحو مريح، فالأثاث مماثل لذلك الذي في قصر كازاك. وكست المقاعد والأريكة، مادة سوداء كالجلد. وغطت الأرضية سجادة سوداء اللون، ناعمة. أما الأمر الوحيد غير العادي في الحجرة، فهو جهاز يماثل صندوقاً أسود طويلاً، انتصب بجوار الجدار الزجاجي. رأى نيال فوق سطحه العلوي المنحدر، لوحة من الزجاج الأبيض غير الشفاف. جعله صفٌ من أزرار التحكم تحت اللوحة، يتذكّر الآلة الغريبة في الصحراء.

تساءل: ما هذا؟

- هذا أكثر الأشياء قيمة في هذا المكان. إنه يتكلف أكثر من تكلفة صنع كل هذه المدينة.

- ولكن ما الذي يفعله هذا الشيء؟

- بداية، إنه صنعني.

تذكر نيال أساطير الخلق التي حكتها له أمه وهو صبي، فسأله: «أهذا إله؟».

- لا. إنه مجرد آلة.

- لكنني كنت أعتقد أن إلهاً وحده هو الذي يستطيع خلق إنسان.

- هذا غير صحيح. أترى، لقد خلقتني أنت أيضاً.

بدا هذا كلاماً غير معقول لنيال الذي راح يحملق، فقال العجوز: «إنني أرد على أسئلتك واستجاباتك. بل إن ظهوري مقتبس من ذكرياتك.

تطلّب الأمر بعض الوقت حتى يتمكن نيال من استيعاب هذا الكلام، ثم قال:

- وهذا البرج؟

- هذا البرج شيّده بشر قبل أن يتركوا الأرض. لقد بني ليكون متحفاً. مكان يحتفظ فيه بتاريخ الأرض. وعندما أصبح على وشك الاستكمال، أدرك البشر أن الأرض ستعاني من مذنّب مشعّ هائل.

- وما هو المذنّب؟

ـ سأريك. أنظر!

عندما تحدث، تغيرت السماء فوقه، وأصبح البدر له هلالاً. تغيّر شكل مباني المدينة، على نحو مفاجىء، وامتلأت نوافذها بالأضواء، وأنار ضوء كشاف واجهات المباني في الساحة. وعند الأفق الجنوبي، فوق الشارع العريض مباشرة، تعلّق ذيل لامع من بخار أبيض، ينتهي طرفه المنخفض، بضوء أخضر ضارب إلى الزرقة. بدا كالنجوم المتساقطة، التي عادة ما رآها نيال في الصحراء، باستثناء أنه معلّق دون حركة بينما النجوم كانت تتحرك، وهي تهوي.

قال العجوز: إنه المذنب «أوبيك» الذي يبلغ قطره اثني عشر ألف ميل، وتبلغ ذؤابته ـ وهي الغلاف المحيط برأس المذنب ـ خمسين ألف ميل. أما ذيله فيبلغ طوله سبعة ملايين ميل. إنه ليس مثيراً للرعب، كما يبدو. فهذا الرأس يمتلىء بجسيمات صغيرة، معظمها لا يزيد حجمه عن حبة الرمل. وحتى إذا ما اصطدم بالأرض مباشرة، فإنه ما كان ليدمرها. لكن أوبيك جاء من مكان فيما وراء النظام الشمسي مصطحباً معه كمية كبيرة من الاشعاعات ـ وهذا يعني أنه يحوي مواد يمكن أن تقضي على معظم الحيوانات. كان أمام البشر أقل من عام لإعداد أنفسهم لإخلاء الأرض. وقد فر أكثر من مئة مليون إنسان ـ هم معظم سكان الأرض ـ في وسائل نقل فضائية هائلة. ولكن قبل أن يرحلوا، أتموا بناء هذا البرج، تحسّباً للأيام التي يعودون فيها للأرض مرة أخرى.

هزّ نيال رأسه، وقال: لا أفهم شيئاً.

ـ هذا هو السبب الذي جعلهم يشيدون البرج ـ وسوف يفهم البشر في المستقبل ذلك.

قال نيال، وقد شعر بالاكتئاب: أخشى أن أكون شديد الغباء.

ـ هذا غير صحيح. فذكاؤك يعادل ذكاء الإنسان، الذي بنى هذه الآلة ـ «توروالد ستيج». لكن ستيج توفي منذ فترة طويلة، وأنت تجد لغته صعبة الفهم.

ـ لكنك قلت إن اسمك ستيج.

ابتسم العجوز. وقال: «من حقي حمل هذا الاسم. فأنا أمثّل كل ما تبقى من ذهنه». وأشار إلى الصندوق الأسود، وأضاف: أترى، إنني لست هنا. إنني بداخل ذلك الحاسب الآلي. وأنت لا تتحدث، في الواقع، إليّ، وإنما تتحدث إلى ذلك الحاسب الآلي.

ـ وما هو الحاسب الآلي؟

ـ ستتم الإجابة على كل أسئلتك. ولكن ذلك سيحتاج فترة من الوقت: هل أنت على استعداد للبقاء هنا، إلى أن تعرف الإجابات على كل أسئلتك؟

ـ نعم... بالطبع. ولكن...

ـ ولكنك تشعر بالقلق على أمك وأخيك.

شعر نيال بخوف بالغ، وتوتّر عصبي، عندما اكتشف أن أفكاره لم تعد خاصة به.

ـ كيف عرفت؟

ـ لقد أصبحت أعرف كل شيء عنك ـ أو بالأحرى أصبح السيد ستيج يعرف كل شيء عنك.

وأشار إلى الحاسب الآلي، وقال: عندما قمت بتنشيط الآلة الطائرة في الصحراء، بدأنا في مراقبتك. إن السيد ستيج هو الذي استدعاك للقدوم إلى هنا الليلة.

ـ لِم؟

ـ عند السؤال سوف يجاب عليه أيضاً. ولكن هناك أشياء أخرى عديدة ينبغي أولاً، أن تعرفها. هل أنت على استعداد للبدء الآن؟ أم أنك تفضل أن تنام؟

ـ لا أشعر بحاجة إلى النوم. وبالإضافة إلى ذلك...

ـ تشعر بقلق على أمك وأخيك.

ـ نعم. أخشى أن يفعل بهما كازاك شيئاً عندما يكتشف أنني هربت.

ـ لن يفعل شيئاً. ولن يجرؤ على إبلاغ سيّد العناكب أنه سمح لك بالخروج. وبالتالي سيزعم أنه يحتفظ بك تحت المراقبة في قصره. وسوف يعامل أمك وأخاك كضيوف موقّرين، لأنه يعرف أنك ستعود مادام يحتجزهما في قصره.

ـ كيف عرفت هذا؟ أتستطيع قراءة ذهنه؟

ـ لا، ليس مثلك. لكننا ظللنا نراقب كازاك أيضاً، لفترة طويلة. بمقدورنا أن نتكهن بردود أفعاله. ورغم كل مكره، فإنه ليس صعب الفهم.

ـ وسيد العناكب؟ أبمقدورك أن تفهم ذهنه؟

ـ بيسر بالغ. أتدرك أن له رغبة وحيدة، وهي أن يبقى سيد الأرض. إن رغبته الأساسية، في الوقت الحاضر، هي إقناعك بمساعدته.

ـ لِم؟

ـ لأنه يخشى أن يكون هناك آخرون من نوعك. إنه يريد العثور عليهم جميعاً،

للقضاء عليهم. وعندما يحقّق غرضه، سوف يقضي عليك، وعلى كل أفراد أسرتك.

كان هذا هو ما يشكّ فيه نيال، ولكن عندما سمعه بهذه الطريقة المباشرة، انقبض قلبه.

تساءل: هل يمكن قهره؟

ـ لو أنه لا يمكن قهره، ما خافك.

طرح سؤالاً آخر بسرعة: وكيف يمكن أن يتحقق ذلك؟

هزّ العجوز رأسه، وقال: أنت تحاول أن تتعلم بأسرع مما ينبغي. يجب علينا أن نبدأ من البداية. هيّا معي!

عندما مر بجانب نيال، شعر بملابسه تحتكّ بذراعه العارية، لكنه لم يحس بشيء، مع ذلك لاحظ أن ثيابه تحدث حفيفاً، وأن وقع قدميه مسموع على السجادة.

اقتفى أثر الرجل العجوز في العمود، فوجد أن الضباب الأبيض، قد أحاطه من جديد. وراح جسمه يغوص بخفة، كأنه قد أصبح ريشة.

عرف، بمجرد أن خطا داخل الحجرة، أنه أحد أوهام ستيج السحرية. فقد كانت قاعة رحبة، يصل طولها إلى مئة قدم، وتكتسي جدرانها بقماش مطرز، أزرق وذهبي اللون، معلق عليه الكثير من الصور. ووضعت، عند فواصل منتظمة، قواعد انتصبت عليها تماثيل نصفية، وأخرى كاملة، وتدلّت ثريات بللورية من السقف المزخرف.

لمح نيال، من خلال النوافذ، مدينة غير معروفة، أصغر من مدينة العناكب، وتزيد بالكاد عن بلدة صغيرة، أما منازلها فلم يتجاوز عدد طوابقها الاثنين أو الثلاثة. شطرها نهر، وانتصب البرج على ضفته. وأقيم فوق النهر العديد من الجسور. وأحاط بالمدينة سور به أبراج مربعة، تتباعد بشكل منتظم. رأى تلالاً خضراء وراء المدينة، بينما شاهد الناس، وقد ارتدوا ملابس ذات ألوان زاهية، وهم يمضون إلى أعمالهم، قاطعين الشوارع والساحات.

افتتن نيال بالصور المعلقة على الجدران. كانت المرة الأولى التي يرى فيها رسماً زيتياً، وذهل من إمكانية رسم صور لبشر بمثل هذه الدقة. أدرك بوضوح أنه ينظر إلى سطح أملس، إلا أن الشوارع والأفق بدت كما لو أنها جزء من منظر يراه من نافذة.

ـ أين نحن؟

ـ في مدينة لم تعد موجودة، اسمها البندقية، كانت في وقت من الأوقات المركز الثقافي للعالم الغربي.

هزّ نيال رأسه، وقال: لا أستطيع أن أفهم كلماتك. ماذا يعني مركز ثقافي؟ وما هو العالم الغربي؟

ـ ستفهم قريباً كل هذه الأشياء. ولكن يتعين أولاً أن يكون ذهنك على استعداد لاستقبال المعارف. أريدك أن تستلقي هنا!

رأى في وسط القاعة آلة من معدن أزرق اللون، يتكون جزؤها الأسفل من فراش أو أريكة علقت فوقها ظُلّة معدنية، اكتسى وجهها المنخفض بزجاج غير شفّاف.

ـ ما هذه؟

ـ إننا نسميها آلة السلام. إنها تقوم بإزالة كل التوترات من الجسم والعقل. وبعد ذلك، ستكون مستعداً لبدء عملية الاستيعاب.

ـ الاستيعاب؟

ـ الاسم الحقيقي للتعلم. إن ما تتعلمه يستوعبه ذهنك مثلما يستوعب الجسم الطعام، ويصبح جزءاً منك.

كان سطح الفراش ناعماً للغاية، فغاص نيال فيه، كما لو أنه مصنوع من زغب النعام. سطع ضوء، بمجرد أن فعل ذلك، من وراء الزجاج فوقه، وندّ صوت همهمة واهنة. انتابه في الحال إحساس بالاسترخاء العميق، كاد أن يكون مؤلماً. أصبحت الآلام والتوترات، التي لم يكن مدركاً وجودها من قبل، ظاهرة الآن، وهي تمر بعملية التبدد. ارتجف رأسه، عندما ازدادت حدة صداع خفيف، للحظة، ثم تلاشى. بدا كما لو أن أصابع رقيقة خفية، تتغلغل داخل جسمه، وتفك عقداً من الاحباط. وحينما تنهد بعمق، شعر كما لو أنه يطرد كل البؤس الذي واجهه في حياته. بدا السلام كالأمان التام، الذي يشعر به الطفل وهو ينام على صدر أمه. طافت بتكاسل صور داخل ذهنه، مثل أصوات من عالم آخر. غرق، دون أن يحاول المقاومة، في أعماق اللاوعي الدافئة.

مرت بذهنه، عندما عاد وعيه، ذكريات مقتضبة لأحلام وأحداث غريبة، سرعان ما تلاشت، بمجرد أن فتح عينيه. حاول جاهداً، للحظة، أن يتذكر المكان الذي كان فيه؛ فقد بدا كما لو أنه يستيقظ من حلم، ليدخل في حلم آخر. بدا العالم الواقعي بسيطاً وواضحاً بشكل غريب، بمقارنته بعالم الأحلام المعقد.

أدار رأسه، فوجد نفسه يتطلع إلى تمثال نصفي لرجل ملتح له أنف حادّ، وفم ينم عن العزم. قرأ تحت التمثال كلمة: أفلاطون. مرت لحظة، قبل أن يدرك أنه استطاع قراءة الكلمة المحفورة فوق قاعدة التمثال، فجلس وقد انتابته حالة من الانفعال. كان

وحيداً في القاعة، التي دخلتها الشمس من خلال النوافذ. هبط بصعوبة من الفراش، ووقف أمام التمثال. وجد تحت الكلمة، ملاحظة مكتوبة تحت زجاج. قرأها بصوت عالٍ، وهو يشعر ببهجة جعلته في حالة نشوة: «ولد أفلاطون في أثينا عام ٤٢٧ قبل الميلاد. واسمه الحقيقي اريستوكليس. أما كلمة أفلاطون فتعني «العريض»، إشارة إلى كتفيه العريضتين. أسس الأكاديمية، بعد فشله في تحقيق طموحاته السياسية...». ذهل نيال لأنه فهم معنى الكلمات؛ فقد عرف أن أثينا مدينة من مدن اليونان القديمة، وأن الطموحات السياسية تعني محاولة أن يصبح رجلاً سياسياً، وأن الأكاديمية هي مدرسة للتعليم العالي. عرف، عندما نظر من النافذة، أنه يتطلع إلى مدينة، وصلت إلى مكانة هامة في ايطاليا العصور الوسطى، وأن النهر هو أرنو، وأن المبنى الأبيض الشاهق، ذا القبة الحمراء، هو الكاتدرائية، وأن المبنى القاتم المربع المجاور، هو قصر المديتشي القديم، الذي أحرق أمامه سافونارولا...

اقتعد كرسياً بالقرب من النافذة، وراح يحدق في النهر. كان من الصعب أن يعرف على وجه الدقة، مدى معارفه، حيث تعيّن عليه أن يصوغ سؤالاً ذهنياً، قبل أن يحدد ما إذا كان يعرف الإجابة أم لا. بدا الأمر كما لو انه ورث مكتبة شخص آخر، وليس على يقين تام مما تحويه من كتب.

خرج العجوز من العمود الأبيض، وقال: «طبت صباحاً. هل نمت جيداً؟».

ـ اعتقد ذلك.

ـ أجائع أنت؟

ـ نعم.

كان في غاية الانفعال، مما أنساه شعوره بالجوع.

ـ إذن عليك أن تتناول طعاماً دسماً، قبل أن نفعل أي شيء آخر.

قاد العجوز نيال إلى حجرة صغيرة، تحتوي على عدد قليل من الموائد والكراسي. رأى من النافذة، أقصى طرف النهر، وسور المدينة الرمادي. انتصب بجوار النافذة، مستنداً إلى الجدار، صندوق معدني مستطيل، لون سطحه فضي معتم.

ـ هذا جهاز إعداد الطعام. أخشى ألا يكون لدينا طعام طازج هنا. لكن فن تصنيع الطعام وصل إلى مرحلة ملحوظة من الاتقان في الأيام الأخيرة، قبل أن يرحل الإنسان عن الكوكب. اختر ما تشاء بمجرد الضغط على زر، وسوف يخرج لك من الفتحة التحتية.

رأى نيال أمامه، فوق الجدار بجوار الآلة، ورقة كتبت عليها قائمة الطعام والشراب: شرائح لحم، لحم خنزير مع بيض، ديك رومي مشوي، ضلع لحم مشوي

بالجوز، فطيرة تفاح مع القشدة، فطيرة جوز البقان، كعكة بالجبن، مثلوجات. . . وبجوار كل نوع، صورة وزر أصفر.

قال العجوز: لو كنت مكانك، لاخترت الطعام الذي أستطيع تناوله بأصابعي. وعادة ما تكون قطع لحم الضأن المشوي ممتازة، وكذلك البط المشوي. كما اعتقد أن حساء الطماطم على درجة عالية من الجودة. حدثت جلبة داخل الصندوق المعدني، عندما ضغط نيال على الأزرار التي اختارها. انفتح باب صغير، بعد دقيقتين، محدثاً طقطقة، وانزلقت ثلاثة أطباق، وكوب فوق صحفة معدنية. حملها إلى مائدة، بالقرب من النافذة، التي كان أحد مصراعيها مفتوحاً، فهب عليه نسيم عليل. تناهت إلى مسامعه، من الخارج، أصوات عديدة: هتاف بحارة على متن قارب في النهر، اندفاع المجاذيف في الماء، صهيل جياد، وقعقعة عربات.

دُهش عندما سحب العجوز كرسياً، واقتعده، في مواجهته.

قال له نيال: كيف استطعت ذلك، وجسمك غير مجسّم؟

ـ هذه بيئة خاضعة لسيطرة تامة، فالسيد ستيج بمقدوره أن يفعل أي شيء.

لوح بيده، فتحركت كل المقاعد أمام الطاولات، ثم سبحت الطاولات وتراقصت في الهواء، قبل أن تستقر على الأرض مرة أخرى. ندّت عن نيال، الذي تعوّد على العجائب، ابتسامة.

كان الطعام ممتازاً، لم يتذوق شيئاً بمثل نكهته من قبل: فحساء الطماطم دسم، ولحم الخروف، الذي لُفّت عظامه بدوائر من الورق، ذو لون بني خفيف من الخارج، وقرنفلي اللون من الداخل، أما كعكة الجبن فقد اتسمت بنكهة الكرز وامتازت بجودة فائقة، حتى أنه طلب كعكة ثانية. وأثارت المثلوجات بالفستق والبندق إعجابه، فقد كانت من ألذّ الأطعمة التي تذوقها. ومع ذلك، فقد ابتلع بصعوبة القطعة الأخيرة منها. شعر بالامتلاء، وكادت معدته تحتجّ على ذلك، فاستند إلى ظهر الكرسي، وأخذ يمسح أصابعه اللزجة، بقطعة قماش مبللة كانت داخل علبة مغلقة.

ـ أولئك الذين يتناولون طعاماً مثل هذا، لا بد وأنهم عاشوا حياة الآلهة.

ـ ملاحظة جديرة بالاهتمام. ولكن حياة الآلهة تكونت من الإدراك لكونهم مثل الآلهة، وقد انشغل البشر الذين صنعوا جهاز إعداد الطعام هذا، بمشاكل تافهة. لم يشبهوا الآلهة بشكل أكبر من الملك كازاك أو أبيك.

أحس نيال بالبهجة، لأنه فهم كل شيء قاله العجوز، فقبل ساعات قليلة، كان من شأن هذه الجملة أن تستعصي على فهمه.

تساءل: كيف علمتني القراءة؟

فنّ بسيط يعرف باسم التعلم أثناء النوم. لقد تمّ زرع المعرفة بصورة مباشرة في خلايا التذكّر في ذهنك.

ـ لماذا لم تعلمني شيئاً عن البشر الذين صنعوا آلة صنع الطعام في الوقت ذاته؟

ـ كنت ستفقد، في تلك الحالة، كل بهجة التعلم بنفسك. وتعدّ البهجة أهم جزء في عملية التعليم.

تعوّد نيال على العجوز، وبدأ يلاحظ أن استجاباته ليست طبيعية وتلقائية مثل استجابات الإنسان. لم يكن سيلاحظ ذلك، لو لم يعرف أن ستيج وهم صنعته يد إنسان، وكان سيفترض أن التقدم في السن قد قضى على بعض تلقائيته. لكنه أخذ يدرك الآن أن إطار استجابات ستيج محدودة. فقد ابتسم في اللحظات المناسبة، وأومأ رداً على تعليقات نيال، وبلل شفته بلسانه، أو هرش أنفه بسبابته، لكنه بدا مثل إنسان متبلد الذهن، وأن نصف أفكاره في مكان آخر، كما يضطر إلى التوقف للحظة قصيرة، ليسجل كل سؤال. لم تكن هناك استجابات تعاطف إنسانية رقيقة، يتم تبادلها باستمرار بين اثنين من البشر خلال عملية تبادل الحديث بينهما. وحينما حاول نيال أن يسبر غور موجات أفكاره، لم يجد شيئاً. لقد كان شعوراً مخيفاً، يماثل التحدث إلى شبح.

تنهد العجوز، وقال: نعم، إنني، في الواقع، مجرد آلة غير بارعة. لقد كانت أجهزة الحاسب الآلي، عندما اضطر البشر إلى الرحيل عن الأرض، قد اخترعت قبل قرنين ونصف قرن فقط. لقد أتقن البشر الآن، بلا شك، تصنيع حاسبات آلية متطورة، يكاد يصعب تمييزها عن البشر الحقيقيين.

ـ كيف تمكنت من قراءة أفكاري؟

ـ إن دوائر اللغة بالنصف الأيسر لمخّك تعمل على موجة بسيطة. وحينما تفكر بالكلمات، يكون بمقدور السيد ستيج رصدها. لكنه لا يستطيع رصد أحاسيسك وحدسك. وفي هذا المجال يكون أدنى مرتبة بكثير من ذهنك.

ـ أتمنى أن أتمكن من فهم كل ما تقوله. ما هي دائرة اللغة؟

ـ من السهل أن أريك على أن أحاول توضيحها لك. هيا بنا نعد!

دفع ستيج كرسيه للوراء بساقيه، وهو يقف. افتتن نيال به، وهو يراقب دقة استجاباته، لم يكن هناك ما يشير إلى أنه بدون جسم.

عندما عادا إلى قاعة الصور، كانت الشمس قد ارتفعت في السماء.

سأله نيال: أهذه هي الشمس الحقيقية؟

ـ لا. لو أنها الشمس الحقيقية، لرأيت مدينة العناكب، في ضوئها. ولكن توقف عن طرح المزيد من الأسئلة، ففي غضون ساعات قليلة، ستتمكن من الإجابة عليها جميعها بنفسك. أرجوك أن تستلقي مرة أخرى!

تمدّد نيال، من جديد، فوق الفراش، تحت الظُّلة المعدنية الزرقاء، وانبعث الضوء منها، مرة أخرى، بمجرد أن غاص جسمه في سطحه اللدن. ثم تغلغل إحساس هائل بالسلام والاسترخاء، في جهازه العصبي، مما جعله يشعر ببهجة غامرة. لكنه لم يرغب، هذه المرة، في النوم. أدرك أن هناك شيئاً فوق رأسه يشبه العين، تنظر إليه من وراء الزجاج غير الشفاف، وتنقل صوراً إلى ذهنه. أحس بأنها عملية غريبة، مثل الحلم. بدا أن هناك، في الوقت نفسه، صوتاً يتحدث داخل صدره، ورغم أنه لا يستخدم لغة إنسانية، إلا أنه أثار فيه الاستجابات ذاتها التي تثيرها اللغة.

رأى، حينما أغمض عينيه، مدينة العناكب منبسطة أمامه، كما شاهدها للمرة الأولى من الفجوة في التلال: تلك المدينة ذات الأبراج المربعة الضخمة ـ التي عرف الآن أنها تسمى ناطحات السحاب ـ التي يشطرها النهر. ثم بدت المدينة دونه، كما لو أنه يرتفع رأسياً في الهواء. شاهد، بعد لحظات، البحر والميناء وكتله الصخرية الكبيرة. ثم تضاءلت المدينة والميناء دونه، حتى تقلصا إلى مجرد نقطة واحدة في سهل أخضر فسيح. رأى الأرض على الجانب الآخر من المحيط، والصحراء الحمراء فيما وراء الجبال. ثمة، في مكان ما، الجحر، حيث تتمدد جثة أبيه. أصبحت الصورة الذهنية، بمجرد أن حاول الرؤية على نحو أوضح، ثابتة، وتمكن من تتبع خطوط الهضبة الكبرى، وبحيرة الملح الواقعة جنوبي ديرا. واصل الارتفاع إلى أعلى حتى تمكن من رؤية الأرض إلى الجنوب من بحيرة الملح، وإلى الشمال من مدينة العناكب. زادت سرعته إلى أن وضحت له انحناءة سطح الأرض، وبدأت الأراضي الخضراء دونه تمتزج باللون الأزرق الفاتح، بينما أصبح البحر نفسه، أكثر قتامة. ثم بدت الأرض مثل كرة مكسوة بالفراء، تدور ببطء في الفضاء، والنجوم هائلة ولامعة، كما لو أنها صنعت من ثلج بللوري، ينبعث الضوء من داخله. رأى، إلى يمينه، الشمس، كرة ذات إشعاع متفجر آلم عينيه، ولذلك فقد اضطر أن يشيح عنها بوجهه. ورأى القمر مثل كرة فضية هائلة. اندهش حينما أدرك أنه جسم

كروي، وكان يعتقد طوال حياته أنه مثل طبق ذهبي مسطح، يسبح وسط السحب. ورغم أن الشمس تضيء جزءاً فقط من سطحه، فقد استطاع أن يرى بوضوح، من خلال الضوء الباهر للنجوم، أجزاءه المظلمة.

ثم خرجا إلى الفضاء، أعلى كثيراً من مستوى النظام الشمسي، حتى أن الشمس نفسها بدت أكبر بالكاد من مقلة العين. راح نيال يتعرف على الكواكب، وهي في مداراتها بيضاوية الشكل، الواحد تلو الآخر، عطارد، تلك الكرة الصغيرة الحديدية الساخنة الحمراء ذات السطح المنبعج، كما لو أنها تفاحة ذابلة، المريخ، بصحاريه الحمراء المتجمدة، المشتري، ذلك الكوكب الأحمر الهائل المكون من سائل فقاعي، زحل الكوكب الرمادي الذي يحتوي جسمه الضخم، بشكل أساسي، على الهيدروجين المتجمد، أورانوس، ونبتون وبلوتو وهي كواكب ذات درجات حرارة منخفضة للغاية، فتوشك أن تكون بمثابة كرات سابحة من الثلج. أحس نيال بالبرد والهول لمدى ضخامة حجم النظام الشمسي. فقد ظهرت الشمس من بلوتو، أبعد الكواكب عنها، في حجم حبة البازلاء، بينما بدت الكرة الأرضية كرأس دبوس، يمكن رؤيته بصعوبة. مع ذلك ظل أقرب النجوم بعيداً للغاية، مثل بعد خط الاستواء عن قطبي الأرض.

أدرك نيال، عندما عاد اهتمامه إلى الحاضر، أنه نسي هويته، فأصيب بصدمة. فقد استوعبته التجربة بالكامل، فبدت هويته كشيء قليل القدر. كان قد «فقد نفسه» مراراً، في الماضي خلال أحلام اليقظة، أو خلال القصص التي روتها له أمه أو جده، فأثارت خياله، ولكن بالمقارنة مع هذه التجربة، فإنها تبدو مجرد شرارة بالنسبة لنار مضرمة. تركته يلهث وقد شعر بأنه مثل رجل استيقظ فجأة من حلم. تحركت داخله قوى هائلة، وسعى لطرح ألف سؤال، ولزيارة كل كوكب بالترتيب، وللسفر إلى الفضاء لرؤية نجوم وأنظمة شمسية أخرى. أحس بما يشبه اليأس، عندما أدرك أن المعرفة لانهائية، وأن حياته قصيرة.

ولما أفسدت هذه الأفكار سلامه الداخلي مثل زلزال، نصحه الصوت الهامس بداخله، بالصبر. تلاشت العواطف السلبية، وشعر بدلاً من ذلك، بتوق شديد للمعرفة، وبرغبة لتكريس بقية حياته للتعلم والفهم.

سمع صوت العجوز وهو يقول: سل ما تشاء من الأسئلة! فالسيد ستيج يلم بكل المعرفة الإنسانية. وعليك أن تختار ما تريد أن تعرفه.

ـ هل لك أن توضح لي قصة الأرض قبل أن تأتي إليها العناكب، وقصة البشر الذين شيّدوا هذه المدينة؟

ـ تتطلب الإجابة على ذلك، الرجوع نحو خمسة آلاف مليون عام، لنصل إلى مولد النظام الشمسي...

لما أغمض عينيه، لم يعد الصوت يأتيه من العجوز، بل من داخله. راح يراقب الآن انفجاراً مدوياً ملأ الجو، وتدافع الغاز على نحو لولبي من مركزه مثل أذرع أخطبوط. بدا أن الانفجار يستمر إلى ما لا نهاية، نافثاً الموجة تلو الأخرى من الطاقة اللافحة المدمرة في الفضاء. ثم خمد الانفجار ببطء، وحول ثقله، الانفجار الأولي إلى انفجار داخلي. بدأت الغازات المتبقية، التي تجمعت للداخل مرة أخرى، تدور في دوامة هائلة. فقد بالتدريج حرارته، وسط برد الفضاء الشديد، إلى أن تكثفت الغازات، وتحوّلت إلى قطرات سائل. وبعد نصف بليون عام، تكثّفت هذه القطرات، وتحولّت إلى عشرة كواكب، بعضها، مثل عطارد، شديد الحرارة، وبعضها الآخر مثل المريخ في منتهى الصغر والبرودة. أما الأرض، التي تبعد نحو مائة مليون ميل عن الشمس، فهي الكوكب الوحيد الذي يمتاز بحرارة أو برودة معتدلة.

لقد كان تشكيل الكوكب عنيفاً مثل مولده، فقد تحطمت عليه المذنبات، وشظايا الكواكب، لتحوله إلى كتلة من الطين المغلي. اقتضى الأمر بليوني عام كي تبرد الأرض، وتتحول من جحيم إلى كوكب تشكله البحار والقارات. وبحلول ذلك الوقت، كان قد تقلص لحوالي واحد على ألف من حجمه الأصلي. كما تقلص حجم الشمس بالتدريج، حتى وصلت إلى نقطة بدأت منها ردود الفعل النووية، وتحولت من كرة مظلمة، إلى كتلة حمراء باهتة، ثم إلى أتون درّي متّقد، واخترقت أشعتها فوق البنفسجية الغلاف الجوي الرقيق للأرض ـ ومعظمه من الهيدروجين والأمونيا ـ وسببت عواصف كهربائية عنيفة. وعندما تعرضت الغازات وبخار الماء لهذا القصف، بدأت أول جزيئات معقدة تتشكل ـ وهي السكريات والأحماض الأمينية. كما ظهر أيضاً جُزيء يسمى د. ن. أ ـ حامض ديوكسيريبونوكليك ـ الذي اتسم بقدرة غريبة على مضاعفة نفسه. وهذا الجزيء هو الذي أنشأ أول أشكال الحياة على الأرض. إنها البكتريا التي امتلكت غريزة بسيطة واحدة ـ وهي التهام المركبات العضوية التي تحوم حولها في البحار الساخنة، وبالتالي تسرق طاقتها. لقد بدأت الحياة من خلال امتصاصها للطاقة.

وفي هذه المرحلة المبكرة، كاد نجاح البكتريا أن يدمر الحياة. فقد ازدهرت البكتريا، وتضاعف عددها بشكل رهيب، مما أدى إلى التهامها لمعظم المركبات العضوية في البحر. كانت الحياة ستختفي بالسرعة نفسها التي بدأت بها، ما لم تكتشف واحدة من هذه البكتريا حيلة جديدة، وهي تصنيع غذائها باستيعاب طاقة الشمس. وتعلمت البكتريا ـ بهذه العملية، التي عرفت باسم التركيب الضوئي ـ أن تصنع السكر من ثاني أكسيد الكربون والماء. لقد استوعبت ضوء الشمس، من خلال مادة كيمائية تسمى كلوروفيل، أعطت هذه الكائنات لوناً أخضر. وسرعان ما تلطخت الصخور المحيطة بقارات الأرض ـ وكانت توجد أربع قارات هائلة في ذلك الوقت ـ بمادة خضراء لزجة، هي الطحالب الأولى. وشربت الطحالب ذات اللون الأزرق

المشوب بالأخضر، ثاني أكسيد الكربون من الغلاف الجوي المحيط بالأرض، وأعادته في صورة أكسجين.

تراكمت فترة هائلة أخرى من الزمن، أصبح خلالها الغلاف الجوي للأرض، غنياً بالأكسجين. وتعرضت الحياة، مرة أخرى، لخطر أن تدمّر نفسها، من خلال النجاح الذي أحرزته ـ فبالنسبة للنباتات، يعد الأكسجين سماً. وأرض لا يوجد عليها سوى النباتات، تموت من الافتقار لثاني أكسيد الكربون. ولكن قبل أن يحدث هذا، ظهر شكل جديد للحياة ـ شكل بمقدوره امتصاص الأوكسجين، وتحويله إلى ثاني أكسيد الكربون. وكانت هذه النقاط الصغيرة من الهلاميات السابحة، أوّل الحيوانات.

رأى نيال، وهو ينظر إلى الأرض قبل بليون عام، كوكباً يتمتع بالسلام والاستقرار، راحت مياه بحاره الساخنة تتلاطم برفق، على شواطىء قاراته القاحلة ـ أو بالأحرى، على شواطىء القارة القاحلة، حيث كانت القارات الأربع قد تلاقت معاً، لتشكل كتلة هائلة من اليابسة سماها الجيولوجيون «بانجاي». ولم يتغير أي شيء، فوق هذه الكرة الأرضية الهادئة. بل والغريب أن الموت لم يكن موجوداً؟ فالأميبات، والديدان والطحالب كانت تتخلص من خلاياها القديمة، وتفرز خلايا جديدة، وتواصل الحياة إلى ما لانهاية.

ثم اخترعت الحياة، بعد ذلك وبطريقة ما، الموت، وباتت كل تعقيدات التطور المذهل ممكنة. فقد حدث وتعلمت هذه الكائنات الحية البسيطة طريقة التوالد، بحيث أصبح من الممكن أن يموت الوالدان، ويتولى الصغار القيام بدورها.

لقد أدى إحساس الكائن بمواصلة الحياة لملايين السنين، إلى سقوطه في ايقاع الوجود الكسول. فقد عرف كيفية البقاء على قيد الحياة، وكفى. ولكن عندما ولد كائن جديد، فإنه لم يكن يعرف أي شيء، وتعيّن عليه أن يجتهد لينتزع موطىء قدم لنفسه، وأن يطور القدرة على التذكر ليستفيد مما تعلمه. أما الكائن السرمدي فلم يكن بحاجة إلى التذكر، فقد تعلم الحيل الأساسية للبقاء على قيد الحياة منذ ملايين السنين. . . وتعين على الكائن حديث الولادة، أن يعلم نفسه في فترة قصيرة للغاية، وإلا فإنه لن يبقى على قيد الحياة. وكانت الكائنات الحية السرمدية القديمة مجرد كائنات نباتية، أما أشكال الحياة الجديدة فكانت من المقاتلين والمتعلمين.

وبدأ التاريخ، مع اختراع الموت. ولم تعد هذه الكائنات الجديدة متماثلة، بل أصبحت كائنات متميزة بفرديتها، التي تعني أنها اكتشفت بيئات جديدة، ولذلك بدأت في تغيير نفسها، فظهرت أنواع وأجناس جديدة. وأدت تغيرات طارئة، أحياناً في د. ن. أ ـ حيث كانت تظهر كائنات لها عين أو أصبع أضافي ـ إلى مساعدته في التكيف مع البيئة على نحو أفضل من أشقائه

وشقيقاته، وبالتالي نجا بينما مات الآخرون. وتحولت الكائنات الهلامية إلى ديدان وأسماك ورخويات. ونجح بعض تلك الأسماك بشكل مذهل، فلم يتطلب الأمر إجراء أي تغيير آخر. ووصل سمك القرش العملاق إلى الأرض، منذ نحو أربعمائة مليون عام، وتماثله سلالته في كل شيء.

ومع ذلك فإن القانون الأساسي للحياة، الذي يدعو للمفارقة، هو أن الأنواع الأقل نجاحاً، هي الأكثر نجاحاً. فهذه الأنواع تستمر في التقدم والتطور بصعوبة، بينما تظل الأنواع الناجحة تراوح مكانها. وفي الوقت الذي ظهر فيه سمك القرش على الأرض، تعودت أنواع معينة من الأسماك، ذات الزعانف الضخمة على التخبط للوصول إلى الشاطىء، للهروب من أعدائها والاسترخاء في أشعة الشمس. لكنها لم تكن مهيأة للحياة خارج الماء، فإذا ما ذهب المد، تجد صعوبة كبيرة في العودة إلى البحر، وتبدأ خياشيمها في استقبال الهواء غير المخفف بالماء، مما أدى إلى فقدان العديد منها للوعي والاختناق قبل التمكن من العودة إلى البحر. ومع ذلك ظلت اليابسة أكثر أماناً من البحر ـ حيث لم تكن عليها أية كائنات حية أخرى ـ ففضلت هذه البرمائيات الأولية مواجهة خطر الاستنزاف والموت، على بقائها بين سمك القرش. وبالتالي أصبحت أولى الزواحف، بعد مائتي مليون عام من التطور، سادة الأرض. لقد كانت الديناصورات الآكلة للنباتات، أضخم الكائنات التي شهدتها الأرض ـ وكان طول البرونتوصورات يصل في العادة إلى خمسة وعشرين متراً، بينما تزن ثلاثين طناً. أما الديناصورات آكلة اللحوم ـ مثل التيرانوصور ـ فكانت أشرس الكائنات التي عرفتها الأرض. وأصبحت الديناصورات الطائرة ـ مثل الطائر الأولي البدائي، والزاحف المجنح ـ أكثر الكائنات حركة على اليابسة. وظلت الديناصورات مهيمنة لمائة وخمسين مليون سنة، ثم أصبحت بعد ذلك ضحايا لنجاحها. فقد تعرضت الأرض، لكارثة هائلة ـ من المرجح أنها سقوط شهاب ضخم ـ منذ خمسة وستين مليون سنة، نتج عنها سحابة من البخار، حولت الجو إلى بيت زجاجي. ارتفعت درجة الحرارة، ونفقت الديناصورات الآكلة للنباتات، ذات الأجسام الضخمة، نتيجة لذلك. أما آكلة اللحوم ـ التي عاشت على آكلة النباتات ـ فقد نفقت من الجوع. وسنحت أمام الحيوانات ذات الدم الحار، للمرة الأولى، فرصة للتكاثر والازدهار. وأدى موت الديناصورات إلى إعداد الساحة لظهور الإنسان.

وكان الجد الثديي الأعلى للإنسان، قارضاً ـ زَبَابَة صغيرة متسلقة للأشجار، ذات ذيل طويل، وعمود فقري مرن. وطورت هذه القوارض، على مدار عشرة ملايين سنة، إبهاماً مرناً بجانب أصابعها، ليساعدها على تسلق الأشجار. وتطورت الزبابة إلى نسناس، تحول بدوره، بعد عشرة ملايين سنة، إلى قرد. وتطور الشمبانزي، منذ خمسة ملايين سنة فقط، إلى نوعين جديدين من القردة: الغوريلا، والإنسان ـ القرد. ووصل الإنسان ـ القرد إلى الأرض، في وقت

استمر فيه قحط اثني عشر مليون عام، عرف باسم العصر الحديث القريب. وهبط الإنسان القرد من أشجاره ـ بعد أن قل الزرع ـ ليقضي وقتاً أكبر على الأرض، التي راح ينبشها بحثاً عن الجذور والديدان. وبدأ يطور أقدم وأهم موهبة ـ وهي المشي منتصباً على قائمتيه الخلفيتين. ونظراً لأنه لم يعد يعتمد على الغابة للحصول على غذائه، فقد اضطر إلى تعلم أشياء عامة، والعمل بجد للعثور على أي شيء حي في أي بيئة ـ في الصحراء، والغابات، والجبال، والتندرا المتجمدة. ومن أجل مواجهة هذه المشاكل الجديدة، فقد طور أكبر عقل لكائن حيّ.

وحينما تغير الطقس، منذ نحو ثلاثة ملايين غام، أصبح الإنسان ـ القرد أكثر الحيوانات قابلية للتكيّف في العالم. وظهرت، فجأة، البحيرات والأنهار والسهول الشاسعة التي كستها الأعشاب، وانتشرت فوق هذه السهول قطعان من الحيوانات الآكلة للعشب. وكان الإنسان ـ القرد يتمتع دوماً بقدرة على التعاون مع الآخرين من نوعه، ولكن الفرصة لقيام مثل هذا التعاون كانت ضئيلة، خلال القحط في سنوات العصر الحديث القريب. ولكن بعد ذلك أصبح التعاون ضرورة. ولم يحقق إنسان بمفرده نجاحاً، في مواجهة الفيل الضخم المنقرض، ودبّ الكهوف، والكركدن الصوفي، والغزال الأحمر الهائل، والنمر المسيّف الأسنان، ولكن مثل هذا النجاح حالف مجموعة من الصيادين ،الذين ترصّدوا هذه الحيوانات في كمائن ومعهم الرماح والهراوات المصنوعة من العظام. وقد أعطى الوضع المنتصب الإنسان ميزة كبيرة، كما أدت المهارة المطلوبة للصيد، إلى تطوير ذهنه بمعدل لا يمكن تصديقه. وتمتع القرد البدائي «رامابثيكوس» بعقل يزن حوالي أربعمائة جرام. أما عقل الصياد، فكان نحو نصف عقل القرد. ولكن في غضون مليوني عام، وصل عقل الإنسان منتصب القامة إلى ألف جرام، ثم زاد وزنه، قبل نصف مليون سنة فقط، بمعدل خمسين في المائة. ويظل هذا متوسط وزن العقل للإنسان الحديث.

اخترع الإنسان منتصب القامة الفأس اليدوي، لسلخ جلود الحيوانات، ولكنه لم يحاول، خلال مليون عام، أن يطور هذه الأداة البسيطة ـ أن يزوّدها، على سبيل المثال، بمقبض ويستخدمها كسلاح. ومنذ حوالي سبعمائة وخمسين ألف عام، وصلت مجموعة من منتصبي القامة إلى أوروبا، قادمين من أفريقيا وآسيا، وتطوروا إلى الإنسان، وهو الذي تنتمي إليه أجناس الإنسان الحديث. ولم يعرف هذا النوع الجديد من الإنسان طريقة إشعال النار، ولكن عندما أشعل البرق النار في الغابات، أبقى بحذر على النار وحافظ عليها مضطرمة، عاماً بعد عام، واستخدمها في إضرام النار في الشجيرات، وفي إيقاع الحيوانات في الشراك، كما استخدمها في طهو الطعام. وجاءت العصور الجليدية الكبرى، فاستخدم النار للتدفئة في الكهوف. ولعل النار هي التي ولدت الانفجار العقلي منذ نصف مليون سنة، إذ أنها أجبرت الإنسان على العيش في مجتمعات مندمجة، واضطرته إلى تعلم قواعد النظام وأن يكون حيواناً

اجتماعياً. فبمقدور قبيلة صغيرة مكونة من عشرين أو ثلاثين إنساناً، أن تعيش حياة بسيطة كقطيع من الماشية، ولكن يتعين على مجموعة مكونة من مائة أو مائتي إنسان، أن تتعلم كيفية تنظيم نفسها. فأصبح من الضروري سن القوانين والأعراف. كما تعين أن يتعلم الإنسان تقويم تصرفاته، فبدلاً من الصيحات البدائية التي استخدمها لإجراء اتصال بغيره، أخذ يطور لغة أرقى.

لقد ظهر نوعان فرعيان أساسيان للإنسان، منذ حوالي مائة وعشرين ألف عام. النوع الأول بدا مثل الإنسان الحديث، وظهر في أفريقيا أساساً، والآخر، الإنسان النياندرتالي(*)، وهو أكثر بدائية، وشبهاً بالقرد، ومع ذلك يتمتع بقدر الذكاء ذاته للنوع الأول. فقد اخترع القوس والسهم، مما يعني أن الصائدين استطاعوا قتل فرائسهم من مسافة بعيدة. أما نساء هذا الإنسان فقد زيّن أنفسهن باللون الأحمر الطوبي. وعلاوة على ذلك، عبد الشمس، واعتقد في الحياة بعد الموت - أو على الأقل، بإمكاننا وضع هذه الفرضية، على أساس الحقيقة القائلة بأنه قام بتصنيع الكرات والاسطوانات من الحجر، ودفن موتاه، بعد القيام بنوع من الطقوس، تضمنت استخدام الزهور. وظل الإنسان النياندرتالي، لأكثر من خمسين ألف عام، هو النوع البشري المهيمن. ثم اختفى، بشكل مفاجىء. وتوافق اختفاؤه مع الظهور المفاجىء لشقيقه الأكثر إنسانية، وهو «إنسان كرومانيون». ويبدو من المرجح أن أسلافنا قد قضوا على منافسيهم من النياندرتاليين منذ فترة تتراوح بين ثلاثين وأربعين ألف سنة، واضطلعوا بأمور قارة أوروبا بأنفسهم.

وكان إنسان كرومانيون، بالمقارنة مع إنسان نياندرتالي، متفوقاً. فقد تعلموا الاتصال فيما بينهم، بالتحدث بجمل وليس بصيحات. واستخدم كهانهم - أو الشمانيون - نوعاً من السحر لمساعدة الصائدين، ورسموا صوراً لفرائسهم، على جدران الكهوف، وقاموا بأداء طقوس معينة لحثّها على السير إلى مصيدة الصائد. بل إنهم طوّروا أول شكل من أشكال الكتابة، ووضعوا علامات على العظام تمكنهم من التنبؤ بمراحل القمر وفصول السنة. وتعلموا صنع القوارب لعبور الأنهار، وسرعان ما استخدموها لاجتياز البحار. وبعد أن تمكنوا من التحدث فيما بينهم، أصبح في مقدور بشر، يعيشون متباعدين مسافة تصل إلى مئات الأميال، أن يبرموا صفقات تجارية فيما بينهم، ويتبادلوا الصوان، والفخار، وجلود الحيوانات. وتعلموا تربية الحيوانات - الذئب (الذي أصبح بعد ذلك الكلب)، الحصان، العنز - والماشية والأغنام. وبدأوا، منذ حوالي عشرة آلاف سنة، في تعلم فنون الزراعة، فزرعوا القمح والشعير. ولم يمر وقت طويل بعد ذلك، حتى بنوا أول مدن مسورة، وشرع الإنسان في الإعداد لمرحلة جديدة من تطوّره.

(*) الإنسان النياندرتالي منسوب إلى وادي نياندرتال قرب دوسيلدورف بألمانيا حيث وجدت بقايا هيكل عظمي لإنسان قديم.

- ٩ -

ـ إذن فقد عرفت أن المزارعين الأوائل، قد وصلوا إلى المرحلة نفسها التي يعيش فيها الإنسان اليوم. لقد أعادت العناكب ساعة التطور الإنساني للخلف عشرة آلاف سنة.

فتح نيال عينيه، وهو غير متيقن ما إذا كان ستيج هو الذي تحدث، لكنه لم ير العجوز حوله.

شعر كأنه يستيقظ من نوم بالغ العمق، ولاحت الحجرة التي استلقى فيها في غاية الغرابة. ثم لاحظ أن الشمس تسطع خلال النوافذ بالجانب الآخر من القاعة، فقد كان الوقت عصراً. قدر أنه استلقى لمدة ثماني ساعات، وأن إحساسه بالاسترخاء العميق، هو من تأثير آلة السلام، التي أزالت جميع التوترات الجسمانية، التي عادة ما تتراكم خلال النشاط الذهني الطويل، ومكنت ذهنه من مواصلة التركيز على السلسلة المتواصلة للصور التي مرت أمام بصيرته الداخلية، مثل الحلم.

مضى عائداً إلى آلة الطعام، بإيحاء من دافع داخلي، وتناول وعاء من الحساء، وتفاحة، ولاحظ بعد أن ازدرد القضمة الأخيرة من التفاحة أنها بدون لبّ. لكنه لم يكن مهتماً بالطعام، فكل جوارحه اتجهت نحو محاولة استيعاب كلّ ما تعلّمه وفهم مضامينه.

أخذ حماماً وساير الأشياء المعقدة التي وجدها في الحمام، وذلك بيقين آلي مثل ذلك الذي يشعر به السائر وهو نائم. عاد بعد نصف ساعة، وهو ما يزال مبللاً، إلى آلة السلام، واستلقى تحت ظُلتها، وقد أغمض عينيه.

وجد نفسه، بدون أية فترة انتقالية، يقف في مكان، بدا مألوفاً لديه على نحو

غامض. شعر بوجوده الفعلي، هذه المرة، ولكنه لم يحس بجسمه المستلقي فوق الفراش. كان يقف عند شاطىء البحر، ينظر صوب سلسلة من التلال تقع في البعيد. رأى العديد من الشجيرات، وأشجار النخيل، والتربة الجافة. وتقع على بعد نصف ميل، مدينة محاطة بالأسوار، مبانيها من الطين المحروق، وقد أحيط السور بمزيج من اللبن والطوب المحروق. عرف المكان، على نحو مفاجىء، حينما حدق في سلسلة التلال. فهذه هي بحيرة الملح الكبرى في ديرا. وأقيمت المدينة على موقع المدينة المهدمة حيث قتل نيال العنكبوت.

تناهى إليه الصوت قائلاً: لماذا تفترض أن للمدينة سوراً؟

ـ لحمايتها من الحيوانات الشرسة.

ـ لا. لحمايتها من البشر الآخرين. فقد تعلم البشر الذين أقاموا الحضارة أنه من الأسهل سرقة حبوب وماشية الجيران من زراعتها وتربيتها. وهذا هو سر احتياجهم للأسوار. لقد ولدت الجريمة والحضارة في وقت واحد.

أثار التعليق اضطراب نيال، فقد بدا غير منطقي إلى حد ما. فالحضارة إنجاز له أهميته البالغة، وهي أعظم خطوة حققها الإنسان في سعيه نحو السيطرة على حياته. أما الجريمة، بالمقارنة معها، فتبدو تافهة وغير مهمة. لماذا تحدث الصوت عنهما كما لو أنهما على قدر متساوٍ من الأهمية؟

ـ لأن الجريمة أهمّ بكثير مما تظن ـ ليست في حد ذاتها، بل كأحد أعراض أكبر مشكلة واجهها الجنس البشري. فكِّر في معنى أن يعيش البشر في مدن! إنه لم يعد من الضروري أن يصبح كل رجل صياداً أو مزارعاً، وأن تصبح كل امرأة أماً أو ربة بيت. فبعد أن بات العديد من البشر يعيشون معاً، أصبح من الممكن أن يقوم كل فرد بعمل مختلف، فهناك البناؤون والمزارعون والنسّاجون وصانعو الأدوات، والكهان. وتعيّن على كل فرد أن يركز اهتمامه على وظيفة واحدة متخصّصة. لقد قضيت حياتك في الصحراء، تجدّ للحصول على طعام وشراب. وبالتالي فقد نظرت إلى مدينة كازاك، على أنها قطعة من الجنة. ولكن ماذا عن أولئك الذين عاشوا فيها طيلة حياتهم؟ هل ينظرون إليها على أنها جنة؟

ـ لا.

ـ ولِم لا؟

ـ لأنهم اعتادوا عليها.

ـ تماماً. وقد حدث الشيء نفسه لقاطني المدن الأوائل. لقد اقتضى الأمر من الإنسان مائتي مليون سنة ليتحول من حيوان يكمن فوق الأشجار، ويتعرض في أحيان كثيرة للانقراض، ويدخل في معارك ضد كل أنواع الخطر والكوارث الطبيعية، لمجرد أن يبقى على قيد الحياة. ثم نَعِمَ، في طرفة عين، بالراحة والأمن. . . وبالتخصّص، لقد حدث ذلك، على نحو سريع للغاية. فلم يستطع تغيير عادات ملايين السنين في عمر واحد. لذا فقد ظل يرتد إلى ذاته القديمة ـ الصائد ـ المحارب. وهذا هو سبب دخوله في حروب مع جيرانه، فقد جعلته يشعر من جديد بأنه على قيد الحياة.

ـ ولكن هل دمر ببساطة كل شيء ناضل من أجله؟

ـ لا. وذلك لأن الحاجة إلى الراحة والأمان تظل أقوى من الحاجة للإثارة والمغامرة. نحن ننشد الأمان، أولاً، ثم المغامرة في مرتبة لاحقة ـ وليس العكس. وإلى جانب ذلك، فإن مجرد الحرب والإثارة فشلتا في إرضاء شهيته النهمة وعبقريته. إن دافعاً أعمق من توقه للإثارة، هو الذي جعله يخترع الفأس والمحراث، الدراجة الهوائية والمركب الشراعي.

تلاشت الكلمات، ووجد نيال نفسه مرة أخرى يراقب سلسلة داخلية من الصور التاريخية، فهمها دون حاجة إلى تعليق عليها. رأى بناء المدن الأولى في بلاد ما بين النهرين، ومصر والصين، وظهور الملوك المحاربين، بناء المعابد والأهرام من الصخر، اكتشاف البرونز، ثم الحديد. شاهد نشأة وسقوط امبراطوريات: السومريون، المصريون، المينويون(*)، الكلدانيون والآشوريون. كما شاهد أعمالاً وحشية أصابته بالقشعريرة والغثيان الجسماني. لم يترك شيئاً لم يره، من عمليات تدمير المدن، وتعذيب سكانها وقتلهم. شاهد عصر الحضارة الآشورية، وعمليات جلد الأسرى، وقطع رؤوسهم، وحرقهم أحياء، وتعذيبهم حتى الموت على الخوازيق، فاستشاط غضباً. ورأى سقوط سادة الحرب الآشوريين واختفاءهم فشعر بارتياح بالغ.

ثم تحول المشهد، إلى اليونان القديمة، واختفى ازدراؤه، وهو يرى قصة ظهور الحضارة الهيلينية، ومولد الديمقراطية والفلسفة، وابتكار الدراما، واكتشاف علم الهندسة، والعلوم التجريبية. شعر مرة أخرى بانفعال هائل، وهو يرى اتساع آفاق التطور الإنساني، وأحس بالفخر لأنه ينتمي إلى الجنس البشري.

رغم شعوره بالارتياح داخل آلة السلام، إلا أن التوتر الذي انتابه من جراء استيعاب

(*) حضارة جزيرة اقريطش (كريت) القديمة (٣٠٠٠ ـ ١١٠٠ قبل الميلاد).

هذا الكم الهائل من المعلومات، أنهك قواه. وبينما أخذ يتابع قصة الحرب بين أثينا واسبرطة، بدأت الصور تمتزج معاً، ثم ذابت في الحلم. استيقظ بعد مرور بضع ساعات، ليجد نفسه وسط الظلام، وقد تغطى ببطانية. رأى، من خلال النافذة، قبة الكاتدرائية في الأفق، وسط النجوم. ولما استيقظ مرة أخرى، كان الوقت صباحاً، ووصلت إلى مسامعه هتافات البحارة، والباعة في السوق. وجد، مرة أخرى، آلة الطعام، وراح يستخدمها بطريقة آلية للحصول على الطعام والشراب، اللذين تراجعت أهميتهما بالمقارنة مع توقه لمعرفة بقية قصة الإنسان. فهرع عائداً واستلقى من جديد تحت الشاشة الزجاجية المصنفرة.

شاهد في الحلم، هذه المرة، قصة روما القديمة، فرأى عصر الحكومة الديمقراطية، والحروب ضد قرطاجة، وظهور الأباطرة الاستبداديين: ماريوس، سولا، يوليوس قيصر، أوجوست، تيبريوس، كاليجولا، كلوديوس، ونيرون. شعر، مرة أخرى، بالرعب، والافتتان المَرضي، إزاء قصة الدم والغباء هذه، التي لا تنتهي. ولّدت قصة مولد المسيحية، إحساساً بالأمل! فقد بدت عقيدة الحب والأخوة هذه، أهم تطور واعد منذ ظهور الحضارة. جعله تاريخ وصول الكنيسة إلى السلطة في ظل حكم الأمبراطور قسطنطين، يدرك أن تفاؤله كان سابقاً لأوانه. فقد أظهر هؤلاء المسيحيون قدراً من التسامح تجاه مناوئيهم الدينيين، أقل حتى من ذلك الذي أظهره الرومانيون. بل إنهم قتلوا بعضهم البعض بسبب خلافات عقيدية مبهمة. وبعد أن شهد سقوط روما بعد هجوم البرابرة، شعر باستسلام بائس. وحينما تلاشت الصورة، وأحس من جديد، بما يحيط به من أشياء، تساءل:

-أتستمر الأمور على هذا المنوال؟ هل كل التاريخ الإنساني محبط على هذا النحو؟

سمع الصوت من داخله يقول: ليس كله. إن السنوات الألف التالية محبطة، لأن الكنيسة حاولت الاستمرار في إحكام قبضتها على أذهان البشر، وقتلت أيّ شخص يحاول إعمال فكره. لكن كل هذا بدأ يتغير، عندما شيّد برونلسكي قبة تلك الكاتدرائية، الكائنة هناك.

جلس نيال، وهو يدلك عينيه، بينما واصل الصوت حديثه: لقد بدأ التغيير، بسلسلة من الحروب الكبرى سميت الحروب الصليبية، عندما بدأ البشر يسافرون، بدلاً من البقاء في المكان نفسه، طوال الوقت. وأدى هذا إلى توسيع مداركهم، فبنوا السفن، وراحوا يستكشفون العالم. ثم اخترع رجل يدعى جون جوزفليش الطباعة، بينما تعلم رجل آخر كيفية صنع الورق الرخيص، وفجأة طبعت ملايين الكتب. ثم بدأت الكنيسة تخسر معركة منع الناس من التفكير.

تلاشى تعب نيال فجأة، فاستلقى مرة أخرى، وأغمض عينيه.
- أرني!

كان الجزء الجديد من القصة، الأكثر تشويقاً حتى الآن. فقد تابع قصة حركة الاصلاح، ثم كيفية إدراك فلكي هاوٍ يدعى كوبرنيكوس أن الأرض تدور حول الشمس. وتابع اختراع التلسكوب، والمعركة الشرسة بين جاليليو والبابا بولس الخامس حول إذا ما كانت الأرض هي مركز الكون حقاً أم لا. وشاهد اكتشافات سير اسحق نيوتن وتأسيس «الجمعية الملكية». وتابع مسروراً رفض صوت عصر الفكر للصمت أمام تهديدات الكنيسة. بدأ يشعر أن الإنسانية، قد اكتشفت في نهاية المطاف، سر السلام والعظمة. كما تحمّس لاقتحام الباستيل وإعدام لويس السادس عشر - فإعدام بضعة طغاة أمر له ما يبرّره باسم الحرية وأخوة الإنسان.

بدا أن القرن التاسع عشر يبرر انفعاله، حيث أصبح واعداً بظهور إنسان جديد، مع اختراع السكك الحديدية، والسفينة التجارية، والتلغراف، والضوء الكهربائي. ولكن بعد أن دفعته هذه الأشياء للتفاؤل، تغيّر المشهد إلى سلسلة من الأحداث والحروب والثورات التي شهدها القرن التاسع عشر: حروب نابليون، ثورات ١٨٤٨، الانتفاضة الهندية، الحرب الأهلية الأميركية، الحرب الفرنسية - البروسية، الحرب الروسية - التركية، فشعر، مرة أخرى، بالاحباط. بدا من غير المعقول أن يكون في مقدور أبناء جلدته تحقيق كل هذه الانجازات العظيمة، وارتكاب هذا الكم من الحماقات. ولكن عندما تململ، سمع الصوت يقول:

- على رسلك. ماتزال هناك تطورات مثيرة.

أغمض عينيه، من جديد، وحاول أن يعلق حكمه، وهو يشاهد تاريخ القرن العشرين: الحرب العظمى، الثورة الروسية، ظهور الفاشيين والنازيين، الحرب الصينية - اليابانية، الحرب العالمية الثانية، اختراع القنبلتين الذرية والهيدروجينية، والسلام المسلح المضطرب الذي أفضت إليه هاتان القنبلتان. تزايد انفعاله من حجم الانجازات الإنسانية: الطائرة، المذياع والتلفاز، الآلة الحاسبة، واستكشاف الفضاء. لكنه أصبح مدركاً الآن للنمط الأساسي، وبدأ يشعر بالخوف من أن يتوقف التقدم. بات واضحاً على نحو محبط، أن الإنسان تحول إلى عملاق مفكر، وفي الوقت نفسه، ظل قزماً من الناحية العاطفية.

قرأ الصوت أفكاره، فقال له: نعم هذا صحيح، فتاريخ الجنس البشري يتجه نحو كارثة. ولكن هذا يرجع إلى أنني مجبر على الإفراط في التبسيط. وإذا كان بمقدورك أن

تقضي ستة أشهر هنا، تدرس كل شيء بتفصيل أكبر، فإنك ستجد ما يدعو إلى الأمل. فالإنسان يتمتّع حقاً بقوى ملحوظة على التكيف.

- ولكن هل استمروا على هذا القدر من الغباء إلى أن اضطرهم النيزك لهجرة الأرض؟

- نعم، استمروا كذلك، لفترة من الوقت. ورغم أن الأسلحة الذريّة أجبرتهم على وقف الدخول في حروب عالمية، إلا أنهم عوّضوها بمئات من الحروب الصغيرة. وفي الوقت نفسه، تزايد معدل الجريمة على نحو مرعب، مما اضطر الكثيرين إلى تحويل منازلهم إلى حصون. واستمر سكان العالم في الزيادة، رغم كل المحاولات للحيلولة دون ذلك، حتى أصبحت المدن مثل كثبان النمال، وبات من الخطر السير في الشوارع. لقد اخترعوا، في أوائل القرن الحادي والعشرين، سلاحاً جعل الحرب أكثر إثارة وتدميراً عن ذي قبل - وهو سلاح يسمى «الحاصد» عبارة عن رشاش يطلق أشعة من الطاقة الذرية، بإمكانها اقتلاع شجرة، أو دكّ شارع بأكمله، بمنازله. لقد وجد الإنسان أن من المستحيل مقاومة استخدام قوته المدمرة، فأصبح السلاح الأثير لدى الإرهابيين - وهم هؤلاء الذين يسعون إلى تحقيق أهدافهم السياسية من خلال العنف - وشعرت الحكومات بأنه من المستحيل عملياً السيطرة عليهم.

وبحلول منتصف القرن الحادي والعشرين، بنى أستاذان - أحدهما متخصص في علم وظائف الأعضاء، والآخر في علم النفس - أول آلة سلام، تعد إحدى أهم الاختراعات في تاريخ الجنس البشري. فقد توصّل الإنسان، فجأة، إلى وسيلة بسيطة للتخلص من كل التوتّرات التي جعلته مدمراً. وكان قد اخترع، في الماضي، عقاقير عديدة حققت تأثيراً مماثلاً، لكن البشر أدمنوها وبددوا حياتهم. ولم تكن آلة السلام مسببة للادمان - بل إنها جعلتهم يشعرون بالاسترخاء والحيوية والشجاعة. لقد كاد المرض العقلي أن يختفي، وكذلك الجريمة العنيفة. وباتت الحروب نادرة. ولفترة من الوقت، هنّأ البشر أنفسهم بحلّ أكبر مشكلة، واعتُبر العالمان - وهما شاتر وتاكاهاشي - بمثابة قدّيسين، وأصبح تاكاهاشي رئيساً للدول الأفرو - أوروبية المتحدة. كما بدأ معدل السكان ينخفض، ليصل بحلول العام ٢١٠٠ إلى أقل من معدل سكان الأرض في العام ١٩٠٠.

إلا أنه أصبح واضحاً، بحلول ذلك الوقت، أن أكبر المشكلات ماتزال قائمة بدون حلّ. فالإنسان لم يعرف سرّ السعادة. ورغم انخفاض معدّل الجريمة، والتحرّر من التوتّر، فقد ظل يشعر على نحو غريب، بأن احتياجاته لم يتم تلبيتها كلها، وأحسّ بأن

الحياة ليست مجرد روتين سلمي سارّ، وأنه بحاجة إلى عوالم جديدة ليغزوها. ونظراً لأن البشر عرفوا أنه لا توجد مثل هذه العوالم في نظامهم الشمسي، فقد بدأوا إجراء تجارب بسفن الفضاء، في محاولة للوصول إلى النجوم. وتلقّوا إشارات من الفضاء، تفيد بأن هناك حياة ذكية في عنقود نجمي يسمى «ألفا سنتاوري». ولكن حتى الضوء من سنتاوري يحتاج خمسة أعوام، للوصول إلى الأرض. وقد تستغرق أسرع مركبة فضاء لديهم، قروناً للوصول إلى أقرب نجم. فقرروا أن الإجابة على ذلك، هي ببناء مركبة فضاء. تماثل الكواكب الصغيرة، بحيث تضمّ حدائق وأنهاراً - بل وجبالاً. وتم إطلاق أول هذه المركبات في العام ٢١٠٠، نحو نظام «بروكسيما سنتاوري» السيّار. وبعد عشرين عاماً، توصلوا لأول نوع جديد من مركبات الفضاء التي تعمل بأشعة الليزر - وهي طاقة تمكنها من الوصول إلى نصف سرعة الضوء. ووصلت أول مركبة إلى نظام «سنتاوري» في العام ٢١٣٠ وتم تأسيس مستعمرة صغيرة سميت «الأرض الجديدة». لكن معظم سكانها شعروا بالحنين إلى الأرض، وقضوا عشرة أعوام أخرى في رحلة العودة.

وعندما عادوا إلى الأرض، وجدوا أن الوضع مايزال على حاله. بل إن معدل الجريمة بدأ يرتفع مرة أخرى، حيث راح الناس يرتكبون الجرائم بدافع من الملل. لكن البشر اتسموا بقدر من الذكاء جعلهم يفهمون طبيعة المشكلة. فالأمر ببساطة هو أن الإنسان تطوّر على نحو سريع للغاية. فبعد أن استغرق أكثر من مليون سنة ليتحول من قاطن للكهوف إلى قاطن للمدينة، تحول في أقل من سبعة آلاف سنة - أي أقل من ثلاثمائة جيل - من قاطن للمدينة إلى مستكشف للفضاء. بل إن جسمه لم يكن مستعداً للتغيير. فقد خُلق للأعمال والجهود الشاقة، وليس للجلوس أمام المكاتب. فقد كانت كل غرائزه موجهة نحو بذل الجهد، فشعر بالاختناق من حضارته المريحة، السلمية. وراح البشر يستعيدون بحنين ذكريات الماضي عندما أضفت الحرب والجريمة على الحياة طابعاً محفوفاً بالمخاطر. وألف عالم أحياء شهير كتاباً، أكد فيه أن الجنس البشري سيفنى، في نهاية المطاف، متأثراً بالسأم.

عرف البشر، في ذلك الوقت، وعلى نحو مفاجىء، أن الحياة معرّضة لخطر الدمار نتيجة لمذنّب مشعّ. بدا الأمر بمثابة الاستيقاظ من سبات عميق. أصبح صوب أعينهم الآن، هدف واحد - هو تجنّب الكارثة. فكروا، في البداية، في تدمير المذنّب، أو محاولة تغيير مساره، ولكنه كان في غاية الضخامة، فقطره يصل إلى خمسين ألف ميل. وعندما اتضح أن الاصطدام بات حتمياً، وأنه سيحدث في أقل من خمسة أعوام، بدأوا يكرسون خبراتهم الفنية الهائلة في تصنيع أكثر من ألف مركبة فضاء عملاقة، بينما سعى علماء آخرون إلى إيجاد وسائل لتحصين البشر من النشاط الإشعاعي، من خلال دراسة

العقارب التي تستطيع امتصاص إشعاعات بمعدل يزيد مئات المرات عن الحيوانات. اعتقدوا أنهم اكتشفوا الحل، لكن لم يكن أحد على استعداد لتجربته سوى القليلين. وتم إخلاء الكرة الأرضية، في نهاية المطاف، في العام ٢١٧٥. وبعد ذلك بستة أسابيع، مرّ المذنّب بجوار الأرض، ومسّها بذيله، فدمّر تسعة أعشار الحياة الحيوانية، بما في ذلك معظم البشر الذين بقوا على سطح الأرض.

غادرت آخر مركبات الفضاء، النظام الشمسي بعد ذلك ببضعة أسابيع. والتقط فلكي على متنها آخر صور للمذنّب وهو يتأرجح حول الشمس، ويتّجه صوب الفضاء. رأى شيئاً أثار حيرته. فذيل أي مذنّب يكون دائماً مرفوعاً بعيداً عن الشمس، لأنه نشأ نتيجة لضغط ضوء الشمس على الغازات الخفيفة. ومع ذلك، فإن «أوبيك» بدأ يترك النظام الشمسي، وذيله مايزال متجهاً للخلف. وقد رفض معظم العلماء قبول الدليل الذي أظهرته الصور، لأنهم قالوا بأن ذلك مستحيل. لكن القليل منهم بدأوا يتساءلون عما إذا كان التصادم بين المذنب والأرض هو احتمال قائم على أساس واحد في المليون، كما افترضوا جميعاً. . .

لقد شيد هذا البرج، وتسعة وأربعون آخرون مثله، في أماكن عديدة على الأرض. وهذا أول هذه الأبراج. لقد شُيّد في الأصل ليكون متحفاً ـ أو كبسولة الزمن، كما سمّوه ـ يضمّ كل المعارف الإنسانية. كما خُطّط له أن يضم معلومات عما حدث على الأرض بعد النزوح الكبير.

ـ ولكن كيف يمكنك جمع المعلومات دون أن تغادر البرج؟

ـ من عقول البشر. لقد تمّ اختراع آلات قراءة الأفكار في أواخر القرن الحادي والعشرين، كنتاج فرعي للأبحاث في مجال التعلم أثناء النوم. وحينما عرف البشر كيفية تغذية المعرفة مباشرة في دوائر الذاكرة الإنسانية، اكتشفوا أيضاً كيفية فكّ طلاسم ما تمّ تخزينه بالفعل في تلك الدوائر.

وجد نيال في هذه الفكرة ما يثير القلق، فقال: إذن بإمكانك أن تقرأ كل ما يدور في ذهني؟

ـ لا، لقد قلت آلات قراءة الأفكار، وليس آلات قراءة الأذهان. إن أفكارك تشكل أعلى طبقة لذهنك. إنها تعمل على أساس سلسلة من الإشارات الشفرية يمكن تتبعها مثل الموجات اللاسلكية. وباستطاعة آلة قراءة أفكار قوية أن تفك طلاسم معظم محتويات ذاكرتك على المدى الطويل. ولكنها لا تتمتع بقوة تتبع أحاسيسك أو حدسك ـ أو قرارات إرادتك. إننا نجمع معظم معلوماتنا من عقول البشر أثناء نومهم.

ـ ولكن ماذا تريد من وراء جمعها؟

ـ حتى يظل البشر فوق «الأرض الجديدة» على اتصال بما يجري فوق الأرض. قفز قلب نيال، وقال: أتستطيع التحدث إليهم؟

ـ إن كل المعلومات التي يجمعها السيد ستيج، يتم بثّها مباشرة إلى الأرض الجديدة.

ـ إذن فهم يعرفون كل شيء عني.

ـ ليس بعد. إن الأمر يحتاج إلى خمسة أعوام حتى تصل إليهم الإشارات اللاسلكية.

ـ لكنهم يعرفون كل شيء عن العناكب؟

ـ بطبيعة الحال.

قال نيال بلهفة: أتظن أنهم قد يعودون إلى الأرض، ويساعدونا في قتالها؟

ـ لا. لِم يفعلون ذلك؟

أذهلته هذه الإجابة الفظّة، وأثارت رعبه، فقال بحزن: لأن... لأنهم بشر أيضاً.

ـ هذا صحيح. ولكنهم بحاجة إلى عشرة أعوام حتى يعودوا إلى الأرض، حتى بعد أن يتلقّوا رسالتك. ولماذا يواجهون كل هذه المتاعب لمساعدتك، في الوقت الذي تستطيع فيه مساعدة نفسك؟

أعاد إليه هذا الردّ إحساسه بالأمل، فقال: أتعتقد أن باستطاعتنا أن نحقّق ذلك بأنفسنا؟

ـ إن لم تستطع، فلا تستحق أن تكون حراً. قانون الحياة يقضي بأن البقاء للأقوى. إن لم تتمكن من قهر العناكب، فلن تكون أهلاً للبقاء، وستبقى العناكب سادة الأرض.

تأمل نيال ما قاله الصوت، وقال في نهاية المطاف: لقد وعدتني، عندما وصلت إلى هنا، بأن تريني كيفية قهر العناكب. أبمقدورك أن تفعل ذلك؟

ـ بمقدوري.

ـ ولكن هل ستفعل؟

ـ أخشى أنه غير مصرّح لي بذلك.

انقبض قلب نيال، وقال: ولِم لا؟

صمت الصوت، ثم عاد ليقول: سأعقد معك صفقة. إذا فسّرت لي سبب امتناعي، فسوف أسعى لمساعدتك.

هزّ نيال رأسه في حيرة، وتساءل: أهذه أُحجية؟

ـ لا. ولكن مجرد صفقة.

ـ ولكن . . . ما المدة التي ينبغي علي أن أفكر خلالها؟

ـ بالنسبة لي، فإنها مسألة غير هامة. ولكنني لا أنصحك بأن تستغرق وقتاً طويلاً.

ـ ولِم لا؟

ـ لأنه كلما طالت فترة بقائك في البرج، زادت صعوبة خروجك منه. إن العناكب ماتزال غير مدركة لاختفائك. وعندما تكتشف ذلك، فإنها لن تحتاج لوقت طويل لتخمن المكان الذي اختبأت فيه. وحينما يحدث ذلك، سيقف جيش من العناكب، ليمنعك من مغادرة البرج.

ـ ولكن كيف سيخمّنون مكاني؟

ـ لقد شوهدت وأنت تتّجه صوب البرج ـ أنسيت؟

تذكر العناكب الذئبية التي كانت تحرس مقرّ سيد الموت، فقال: ولماذا لم يدقّ أحد جرس الانذار؟

ـ لأن أحداً لم يعرف بعد أنك اختفيت.

نظر نيال بصورة تلقائية عبر النافذة، لكنه شعر بالإحباط عندما رأى مواطني البندقية يمضون بهدوء إلى أعمالهم، فتساءل: «أتعرف ما يحدث لأمي وأخي؟».

ـ نعم.

ـ أبمقدورك أن تخبرني؟

ـ أغمض عينيك!

وجد نيال نفسه، بمجرد أن أرخى جفونه، في قصر كازاك. لم تشبه تلك التجربة الحلم في شيء. فقد وقف في ركن الحجرة التي تحدث فيها آخر مرة مع كازاك. ضمت الحجرة أربعة أشخاص، هم: كازاك، ڤيج، أمه، والحارسة ذات الزي الأسود، التي حبسته في الحجرة العلوية. وقد وقفت المرأة في وضع الانتباه، دون أن يطرف لها جفن. واقتعدت سيريز كومة من الحشايا، وقد ارتسم الاجهاد على وجهها. أما الملك فقد وقف، وظهره لهم يتطلع من النافذة، بينما وقف ڤيج، ففهم نيال من ملامحه أنه بائس وغير واثق في نفسه.

قال كازاك: نحن واثقون من أنه مختبيء في مكان ما في هذه المدينة. وإذا كنتم تريدونه حياً، فإنه يتعين علينا أن نعثر عليه قبل أن تجده العناكب.

هز ڤيج رأسه، وقال: لو اننا نفهم سبب هروبه. . .

قاطعه كازاك قائلاً: قلت لك، لا أعرف. إنه تصرّف أحمق. لقد بدا أن الأمور ستسير على ما يرام. . .

قال ڤيج: اعتقد أنه قد يحاول العودة إلى الحضانة.

صرخت سيريز جافلة، فقد كانت تحدق في نيال، انتفض كازاك قائلاً: «ماذا ألمّ بك بحق الشيطان. . .» ثم رأى أيضاً نيال، فارتسمت على وجهه علامات الدهشة والارتياح.

ـ شكراً لله على ذلك! في أيّ مكان على الأرض كنت؟

اكتشف نيال أنه فقد صوته، حينما حاول الإجابة. انتابه إحساس كالكابوس، وهو يحرّك شفتيه، دون أن يخرج أيّ صوت. ثم شعر بالمشهد يتلاشى. وعندما فتح عينيه، وجد نفسه مايزال واقفاً بجوار النافذة المفتوحة. ويقف العجوز على بعد بضعة أقدام، وهو ينظر إليه بابتسامة ساخرة. لقد استغرقت التجربة بأكملها بضع ثوانٍ لا غير.

سأله نيال: ماذا جرى؟

ـ لقد قطعت الاتصال.

أحس نيال بالدوار، فاقتعد أقرب كرسي. راح قلبه ينبض بعنف، والعرق يتحدّر فوق وجهه. ظن للحظة، أنه سيصاب بالإغماء، ولكن الدوار تلاشى، واستعاد توازنه، لكنه شعر بالاجهاد الشديد.

ـ لقد رأوني.

ـ رأتك أمّك، وكذلك كازاك.

ـ ولم يرني الاثنان الآخران؟ لقد حدث كل شيء في غاية السرعة، فلم يلحظا شيئاً.

ـ لا.

دفن وجهه في يديه، وشعر بالتحسّن.

ـ لماذا ينتابني ذلك الشعور الغريب في رأسي؟

ـ حاولت أن تتكلم، فاستنزفت كل طاقتك النفسية. . .

ـ لكنهما رأياني، لقد كنت هناك.

ـ لقد رأياك بذهنيهما، وليس بعيونهما.

توقّف خفقان قلبه، بعد دقيقة، وشعر بجفاف في حلقه، فقال:

ـ سأذهب لأشرب.

مشى في الدهليز إلى أن وصل لآلة الطعام. لم يدهش عندما وجد ستيج قد وصل قبله، وجلس أمام مائدة بجوار النافذة. ضغط نيال على واحد من أزرار «المشروبات» بشكل عشوائي، فخرج، بعد نصف دقيقة، كوب من عصير البرتقال البارد، من فتحة في أسفل الآلة، وقد طافت فوق سطح العصير بتلات صغيرة من البرتقال. أطفأ ظمأه، وجلس في مواجهة العجوز، وسأله:

ـ ماذا سيحدث الآن؟

ـ سيزداد تصميم كازاك عن أي وقت مضى على العثور عليك. فهو يعتقد أنك تمتلك قدرات غير عادية، ولا يستطيع تحمّل خسارتك.

أصابه إحساس بالذنب وهو يتذكّر وجه أمه الشاحب. فكر للحظة في العودة إلى قصر كازاك.

هزّ ستيج رأسه، وقال: سيكون هذا تصرّفاً أحمق، فهذه المرة لن يتركوك مطلقاً تغيب عن نظرهم.

حدق نيال من النافذة، مكتئباً وقال: إلى أين يمكنني الذهاب؟

ابتسم العجوز، وقال: ينبغي عليك، أولاً، أن تستكمل نصيبك من الصفقة.

ـ اللغز؟

ـ ليس لغزاً، لكنه سؤال بسيط.

دفن نيال وجهه بين يديه، لكن ذلك لم يساعده على تصفية أفكاره.

ـ تريدني أن أقول لك . . . سبب عدم قدرتك على مساعدتي للقضاء على العناكب.

ـ ليس تماماً. سألتني إذا كان باستطاعتي أن أوضح لك كيفية هزيمة العناكب. قلت لك إنه غير مسموح لي بذلك. لكنني لا أرفض أن أساعدك.

ـ لكنك تريدني أن أفكّر بنفسي؟

أومأ قائلاً: لقد بدأت تفهم.

قال نيال ببطء: ليس بمقدورك أن توضح لي كيفية القضاء على العناكب، لأن ذلك أمر في غاية اليسر، حيث يتعيّن على البشر أن يناضلوا من أجل نيل الحرية، وإلا فإنهم لا يستحقّون أن يكونوا أحراراً.

نظر إلى العجوز، وسأله: أليست هذه هي الإجابة على أحجيتك؟

ـ إنها جزء من الإجابة.

هز نيال رأسه، وأحس بأن ذهنه ما يزال مرهقاً، وقال: لا أستطيع أن أفكر في أي شيء آخر.

ـ إذن هذا يفي بالغرض، في الوقت الحالي.

سأله نيال بسرعة: إذن سوف تساعدني؟

ـ دعني أولاً أطرح عليك سؤالاً آخر. لماذا تريد القضاء على العناكب؟

ـ لأنها أعداؤنا.

ـ لكنها ليست عدوّي. أريد أن أعرف لماذا تعتقد أنها تستحقّ الفناء، بينما يستحق الإنسان البقاء. هل الإنسان أفضل من العناكب؟

أثار السؤال حيرة نيال، وشكّ في أنه مصيدة منطقية.

قال في النهاية: لقد بنى البشر هذه المدينة، ولم تشيد العناكب أية مدن، على الاطلاق. إنها تقطن مدناً هجرها البشر.

ـ لكنها سادة الأرض. ألا يؤكد ذلك أنها متفوقة على البشر؟

ـ كلا. إن كل ما في الأمر، أنها تتمتع بإرادات أقوى. وهذا لا يجعلها في وضع أفضل.

ـ ولِم لا؟

تأمل نيال، وهز رأسه قائلاً: لا أستطيع التوضيح، ولكنني أشعر أن ما قلته هو الحقيقة.

قال العجوز بهدوء: لو أنك تعتزم قتال العناكب، فأنت بحاجة لأن تعرف سبب هذا الشعور.

ـ أتستطيع أن تقول لي أنت؟

ـ أستطيع ما هو أفضل من ذلك. أستطيع أن أريك. هلم!

تبعه نيال إلى خارج الحجرة، وإلى الدهليز، ليعود إلى القاعة. توقع أن يأخذه العجوز إلى آلة السلام، لكنه تخطاها، ودخل العمود الأبيض. تبعه نيال، فشعر بنفسه يرتقي ليصل إلى الحجرة الكائنة فوق قمة البرج، والتي تطل على المدينة. بدا غريباً أن يراها مرة أخرى، فقد كان وهم البندقية كاملاً، فظن أنه ابتعد كثيراً عنها. دنت الشمس من الأفق الغربي.

أشار ستيج إلى الأريكة المكسوة بجلد أسود اللون وقال: «ارقد هنا!».

رأى فوق طاولة من الزجاج الأسود، بجانب الأريكة، أداة مصنوعة من شرائح معدنية مقوسة، قد تكون قبّعة بدائية. كانت متّصلة بالسيد ستيج من خلال أسلاك طويلة.

قال له ستيج: اعتمرها!

صاحبت صورة ذهنية هذا الأمر، فأذعن نيال لما طلبه. ضغطت ضمادات خفيفة على جبهته وصدغيه.

- تمدّد بارتياح، وضع رأسك فوق الوسادة! هل أنت مستعدّ؟

أومأ نيال. شعر برعشة كهربائية ضعيفة إذ لمست الضمادات جلده. أغمض عينيه.

توقع أن يتلقى صورة ذهنية ما، قد يرافقها تدفّق من الرؤى الصامتة.

ولكن ما حدث في الواقع، هو أن النبضات الكهربائية أخذت تزيد حتى دغدغت الجلد. ورافق إحساس بالنشوة، كما لو أنه أصبح بدون جسد، يطفو بحرية، مثل منطاد، ثم تزايدت حدّة النشوة. لم يكن مستعدًّا لأيّ شيء مبهج. بدا أن النبض قد تحوّل إلى نوع من الضوء الأبيض، غمر كل جسمه، كما لو أنه قد أصبح شفافاً. لم تختلف النشوة عن تلك التي شعر بها، وهو يضغط جسد ميرلو ليلتصق بجسده، لكنها زادت بدرجة أعلى بكثير.

بدا الوضع على حين غرّة، كما لو أن درجة أعلى من الحدّة قد تردّدت داخل الضوء الأبيض، درجة كانت في حد ذاتها أكثر حدّة من الضوء. وأخذت ترتفع إلى أعلى، وأعلى، حتى أصبح الضوء ساطعاً، كشمس الظهيرة. كل ذلك كان مقدمة لتجربة استمرّت نحو خمس ثوانٍ.

كان قد تقبّل، حتى الآن، كلّ ما حدث، على نحو سلبي، وبامتنان كبير. ولكنه وصل إلى نقطة، أدرك بعدها أن هذه الأحاسيس، لا تُفرض عليه من الخارج، بل إنها مجرد انعكاس لشيء يحدث بالداخل، كما لو أن الشمس ترتفع من خلف أفق ما، في كيانه الداخلي. ثم شعر، لبضع ثوانٍ، بقوة هائلة ساحقة تثور من أعماقه. ورافقت ذلك رؤى، جعلته، لسبب ما، يريد أن يضحك. بدا كل شيء عرفه بمثابة دعابة كبيرة - البرج، السيد ستيج، الرجل العجوز، بل والعناكب أيضاً. كما أصبح هو كذلك دعابة، حيث شعر بأنه انتحل شخصية امرىء آخر. وكان هذا في الواقع، أمراً غير معقول، إذ أنه لم يكن موجوداً في الحقيقة.

ثم تلاشى الضوء، وتضاءل الإحساس بالقوة، إلى أن أصبح مجرّد شعور بالنشوة،

وأحسّ كما لو أن موجة منحسرة قوية تدفعه برفق فوق شاطىء. ومع ذلك استمرت الرؤى. وعرف الآن أن القوة جاءت من داخله.

لم تعد الضمادات التي تضغط على جلده، تصيبه بالوخز. بل وبدت الحجرة بأكملها وقد تغيّر شكلها، أخذ ينعم النظر فشعر كما لو أنه هو الذي أثّثها، ولم يجد فيها شيئاً غريباً.

ظلّ ساكناً تماماً لعدّة دقائق، يصغي إلى صدى الصوت المتضائل، الذي حمله خارج شخصيته. ثم تنهّد بعمق، وأبعد الأداة عن رأسه، ليعيدها إلى الطاولة. شعر بضعف وإرهاق شديدين، لكن حالة من الهدوء لفّته بالكامل.

لم يعد العجوز موجوداً، لكن الصوت بداخل صدره قال: الآن فهمت؟

لم يكن هناك داع للإجابة، فقد أدرك بوضوح، للمرة الأولى، أن الصوت ما هو إلا مجرد صوت آلة، مبرمجة للردّ على أسئلته. كان قد عرف ذلك من قبل، ولكن نظراً لأنها تصرّفت كشخص، فإن مستوى أعمق من ذهنه رفض قبول ذلك. أما الآن، فإنه أدرك حقيقة الموقف.

أراد أن يتمدّد ساكناً ليستوعب ما تعلمه.

كانت القوة هي الحقيقة الرئيسية. ورغم أنها كانت بسيطة، وواضحة، فإنها بدت محيّرة أيضاً. فمصدر القوّة بداخله، واستخدمها في كل مرة يرفع فيها يده أو يرخي جفونه. ومع ذلك فإنها على درجة عالية من الخطورة مما يجعلها قادرة على تغيير الكون. لماذا لم يدرك البشر سوى القليل من قوتهم الداخلية؟ ولماذا لم يستغلوا سوى قدر ضئيل منها؟ لقد باتت الإجابة واضحة الآن. لأنه يتعين على الإنسان أن يستدعيها قبل أن يستغلها. وينبغي عليه، إذا أراد ذلك، أن يغوص إلى داخل نفسه، ويسيطر على ذهنه إلى حدّ ما. وبما أن عملية النوم تبدأ بالطريقة نفسها، بذلك الانسحاب من العالم البدني، والغوص في الذهن. لذلك فإن الإنسان نادراً ما أدرك القوة، لأنه غالباً ما كان ينام قبل أن يصل إليها...

قطب نيال جبينه، واستجمع كل ما لديه من طاقة، في محاولة للتركيز. أحس في الحال بقوة استمرت لفترة قصيرة. كانت شاحبة وضعيفة، بالمقارنة مع التركيز الذي حدث منذ لحظات، لكن ذلك لم يكن مهماً. فالمهم أن بمقدوره إحداثها ـ بغضّ النظر عن درجتها ـ باستخدام الإرادة.

استطاع الآن أن يدرك سبب عدم إحراز العناكب لتقدّم يتجاوز نقطة معيّنة. فعلى مدار ملايين السنين من تطورها، ظلت سلبية. ولكن هذا مكّنها من فهم سر هام، لم يعرفه

البشر، وهو أن قوة الإرادة هي قوة جسمانية. لم يكتشف الإنسان هذا على الاطلاق، لأنه انشغل باستخدام عقله وعضلاته ـ التي تمثّل أدوات إرادته. وعندما يستحثّ عنكبوت ذبابة للدخول في نسيجه بقوة إرادته، فإنه يعرف أنه من الممكن إعمال تلك القوة، بدون استخدام أي وسيط جسماني. ولذلك عندما أصبحت العناكب عملاقة، طوّرت قوة إرادة عملاقة.

ورغم أن هذه كانت خطوة في الاتجاه الخاطىء، إلا أنها تعلمت استخدام الإرادة، مثلما تعلّم البشر استخدام عضلاتهم، بجعل الواقع يمتثل لما تريد، فوجّهتها إلى الخارج، تجاه الكائنات الأخرى. ولكن نظراً لأنها لم تتعلم قط استخدام أذهانها على نحو نشط، فإنها لم تسأل أنفسها عن مصدر هذه القوة. لذلك ظلت غير مدركة للقوة الهائلة، التي تكمن داخلها. وهذا هو السبب الذي سيجعل البشر يبطلون مفعولها. وهذا هو سبب إدراكها بأن مفعولها سيبطل. وهذا أيضاً هو السبب وراء خوف سيد العناكب من البشر.

خطا إلى الحائط الشفّاف، الذي ينتصب بمواجهة الشمال. كان الطريق العريض ممتداً في شكل مستقيم لمسافة تصل إلى نصف ميل آخر، على الجانب الآخر من المرجة، المحيطة بالبرج. وقد لمح فيما وراء ذلك، بين المباني شبه المتهدمة، النهر. ونظراً لأن الطريق يبدو مستمراً دون انقطاع، فلا بد أن هناك جسراً.

سأل نيال، العجوز: هل معك خريطة لمدينة العناكب؟

غرقت الحجرة، في الحال، في الظلام، وأصبحت جدرانها معتمة. ظهرت على الجدار المواجه لنيال، وكأن أشعة ضوء قد سلطت عليه، خريطة هائلة، رسمت عليها المباني، وفقاً لقواعد الرسم المنظوري، وكأنها قد صُوّرت من الجو بزاوية معينة. تمكّن الآن من رؤية المدينة وقد صمّمت على شكل دائرة، حيث امتد الشارع الرئيسي الكبير من الشمال إلى الجنوب، بينما كان النهر بمثابة قطر من الشرق للغرب. احتلّ حيّ النساء الجزء الجنوبي الغربي، بينما انتصب الجدار المركزي الذي يفصلها إلى ما وراء الحدود الجنوبية للمدينة.

أما الجزء الأكبر، فكان عبارة عن شبه دائرة إلى الجنوب من النهر. وقد كتب على هذا الجزء اسم «حيّ العبيد». وكشفت الرسوم ذات الخطوط القصيرة، النقاب عن أن العديد من المباني متهدّم. وحوى هو أيضاً، مثل القسم الجنوبي، ساحة مركزية فسيحة، يحتلّها مبنى ذو قبّة، تحيط به المروج.

تساءل نيال: ما هذا؟

ـ لقد كان من قبل مركز المدينة الإداري ـ البلدية. أما الآن فإنه يستخدم كمصنع للحرير.

ـ لمناطيد العناكب؟

ـ نعم، ولأغراض أخرى.

ـ هل تصنع المناطيد هنا؟

ـ لا. يتمّ نقل الحرير إلى مدينة خنافس المدفعية، على بعد خمسة أميال إلى الشمال.

ـ ولماذا لا يُصنع هنا؟

لأن خدم العناكب تعوزهم البراعة اليدوية. إن صناعة المناطيد، مهنة تتطلب مهارات عالية، وخدم الخنافس أكثر مهارةِ وحذقاً.

ـ مادامت العناكب تخشى ذكاء البشر، فلماذا تسمح للخنافس بالاحتفاظ بخدم أذكياء؟

ـ ليس أمامها خيار. فالخنافس محصنة ضد سمّ العناكب، ويمكن أن تكون خطيرة عندما تستنفر.

ـ ولكن لماذا تريد الخنافس خدماً أذكياء؟

ـ لأن الإنجاز البشري يفتنها، على عكس العناكب. كما تفتنها أيضاً، قدرة الإنسان على التدمير. إنه، كما ترى، ميراث ناتج عن التطوّر. إنها دائماً ما تدافع عن نفسها بتصنيع المتفجرات ـ وعليه فإن المتفجرات في غاية الأهمية بالنسبة لها. وهي تحتاج عند تصنيعها لدرجة عالية من الذكاء.

ـ لا بد وأن هذا يثير قلق العناكب.

ـ حدث ذلك من قبل، وتوصّلت الخنافس والعناكب إلى اتفاق. ويقوم الجانبان الآن بتسيير نظام تبادل الخدم. وتتم مقايضة خدم الخنافس الأذكياء من الرجال، بأناث فاتنات من مدينة العناكب.

ـ ألا يثير ذلك غضب خدم الخنافس ـ وهم يرون رجالهم يباعون كالعبيد؟

ـ كلا. إنهم يشعرون بالغبطة، إذ يؤدّي ذلك إلى تعرّفهم على نساء جميلات. وبالإضافة إلى ذلك، فإن خدم الخنافس ينظرون إلى المسألة على أنها وظيفة يحسدون عليها ـ وهي استخدامهم للاستيلاد.

أخذ نيال يتفحص الخريطة لفترة طويلة من الوقت.

ـ ما هو أفضل مكان أستطيع الاختباء فيه؟

ـ أي مكان في حيّ الخدم، إذ سيوافقون على وجودك، دون طرح أية أسئلة.

ـ ولكن ألا توجد عناكب هناك؟

ـ العديد منها. ولكنها لا تفرق بين إنسان وآخر. كل ما تحتاج إليه هو درجة معقولة من الحذر.

أحس نيال فجأة بذعر بالغ. فهو يشعر، داخل هذا البرج، بالراحة والأمان. أما الآن، وهو على وشك اقتحام أخطار مجهولة، فقد سيطرت عليه رغبة طفولية جامحة في الأمن والسلام. وبدت كل المعارف والخبرات، التي اكتسبها خلال اليومين الماضيين غير مهمة. وشعر للحظة بما يشبه اليأس.

بدا أن السيد ستيج لا يدرك هذا الصراع الداخلي. فسمع الصوت وهو يقول: قبل أن تغادر البرج، عليك أن تخزن الخريطة في ذاكرتك.

قال، محاولاً إخفاء علامات الإرهاق في نبرات صوته: قد يتطلّب ذلك وقتاً طويلاً.

ـ ليس أطول مما تفكر. أنظر في الخزانة بجانب السيد ستيج.

فتح نيال باب الخزانة المعدنية الرمادية، فوجد نفسه ينظر إلى وجهه، فقد تكوّن جدارها الخلفي من مرآة. رأى، وهو ينظر في عينيه، مدى البؤس والشك اللذين ينعكسان منهما.

رأى سلسلة معدنية رقيقة، معلقة فوق المرآة، بخطّاف ذهبي صغير، وفي طرفها أسطوانة دائرية صغيرة يزيد قطرها قليلاً عن بوصة.

جاءه الصوت يقول: خذها! وعلقها حول رقبتك! إنها مرآة تأمّل.

فكّ نيال الخطّاف، ونظر فيها باهتمام. كانت الأسطوانة مقعرة على نحو خفيف، وذات لون بني ـ ذهبي. أدام النظر فيها، فرأى أنها ليست مستديرة تماماً، فشكلها أقرب إلى ماسة ذات جوانب مقوّسة. بدا سطحها معتماً، إلى حد يجعلها أبعد من أن تكون مرآة، انعكست صورة وجهه، بلون ذهبي وشكل مشوه، كما لو أنها تنعكس من خلال سحابة سديم.

سمع الصوت يقول له، وهو يعلقها حول رقبته: لا، من الجانب الآخر.

أدارها حتى يواجه السطح المقعر صدره، لتتدلى بخفة فوق فم المعدة. شعر في

الحال، بإحساس غريب لا يوصف، كما لو أن صدمة ما قد أدّت إلى انقباض قلبه. التقت عيناه مرة أخرى، بانعكاسهما في المرآة، ولاحظ أن الشكوك قد اختفت.

سمع الصوت يقول: لقد اتقنتْ صنعَ مرآة التأمّل حضارةٌ قديمة تدعى الأزيتكية، واستخدمها الكهنة في التأمل، قبل أن يبدأوا طقوس التضحية بإنسان. وقد توصّل إلى هذا السر باحثون في الظواهر الخارقة في أواخر القرن التاسع عشر. إنها تمتاز بقوة تنسق الذبذبات الذهنية بين العقل والقلب وفم المعدة. والآن حاول أن تخزن الخريطة في الذاكرة.

حدق نيال عامداً في الخريطة. دهش حين وجد أنها لم تعد تكلفه جهداً ذهنياً لاستيعابها بأكملها. بدا الأمر كما لو أن المرآة المعلقة على صدره، تساعده على التركيز، بل وتزيد من حدته. فمنذ خمس دقائق فقط، بدت الخريطة معقدة وعسيرة الاستيعاب، أما الآن، فقد أصبحت، على نحو مفاجىء، سهلة الاستيعاب بالنسبة لذهنه، مثل سهولة استيعاب معدته للطعام. وحفظ كل شيء فيها، في أقل من دقيقة، عن ظهر قلب.

تساءل: ما هو الحصن؟

ـ لقد تم التعود على استخدامه باعتباره ثكنات رئيسية لهذه المدينة. والثكنات هي المبنى الذي يؤوي الجنود.

ـ وما هي الترسانة؟

ـ مكان تتكدس فيه الأسلحة.

أشار إلى الخريطة، وسأله: هل يخضع الجسر للحراسة؟

ـ نعم. لقد قُبض على إحدى القائدات، في الأسبوع الماضي، وهي تحاول عبوره ـ فقد أرادت الوصول إلى الحضانة لرؤية رضيعها. وتحرس العناكب الذئبية الآن، طرفيه.

ـ ماذا حدث لها؟

ـ تمّ إعدامها والتهامها على مرأى من الناس.

ـ أهناك أي مكان يمكن منه عبور النهر؟

ـ يظلّ الجسر هو أفضل مكان، فعنده تكون مياه النهر في غاية الضحالة.

ـ ما هو أفضل وقت لمحاولة خوض المياه؟

ـ عند الفجر، لدى تغيير الحرس.

تفحّص نيال الخريطة مرة أخرى. أدرك أنّ محاولة استخدام الطريق الرئيسي

للاقتراب من الجسر ستكون بمثابة عملية انتحارية. لكن ظهرت على الخريطة سلسلة من الدرجات تفضي إلى النهر، عند قواطع تصل إلى حوالي نصف ميل بامتداد ضفته. وإذا ما تمكن من الوصول إلى النهر بالقرب من الحائط الذي يشطر المدينة، فيستطيع شقّ طريقه إلى الجسر عند الضفة المنخفضة.

تساءل: أين يتعين عليّ أن أبحث عن ملجأ في حيّ العبيد؟

ـ لقد انهارت الطوابق العليا في العديد من المباني، ولا تفضل العناكب استخدامها لنصب خيوط نسيجها. وسوف تكون في أمان في أحد هذه المباني.

استشعر نيال وخزاً مؤلماً وراء عينيه، وعندما دلك خدّيه وجبهته بيديه، ذهب الوخز.

سمع الصوت يقول له: إن مرآة التأمل هي التي سبّبت لك هذا الألم. إنك لم تتعود على استخدامها، وما لم تركز انتباهك، فإنها ستسبّب لك صداعاً. عندما يحدث ذلك، أقلبها على الجانب الآخر!

أدار المرآة، حتى يبتعد وجهها عن صدره، فتلاشى شعوره بالتوتّر. لكنه لاحظ أنه شعر الآن بإجهاد غريب. وخزه الدم في خديه، فتمدّد فوق الأريكة وأغمض عينيه، فبدأ نعاس لذيذ يباغته.

قال الصوت: لا أنصحك بالنوم الآن. لقد بعث سيد العناكب تواً رسالة إلى كازاك، يطلب منه فيها أن يحضرك إليه. وعندما يعترف كازاك بأنك هربت، فإن جميع العناكب في المدينة ستقوم بحملة للبحث عنك.

جلس نيال، فاختفى الإجهاد في الحال. اضطر مرة أخرى للسيطرة على خوفه، الذي جرى في أوعيته الدموية.

حاول أن يسأل العجوز بثبات: ماذا سيفعل سيد العناكب بكازاك؟

ـ لا شيء. إن سيد العناكب واقعي. ولكن يجب عليك أن تغادر البرج الآن.

أدّى جهده في التركيز إلى تراجع حدّة خوفه وتجدّد تصميمه، وقال: نعم. هل سأستطيع مواصلة الاتصال بك؟

ـ نعم من خلال القضيب المتداخل. إنه متناغم مع نمط تفكير السيد ستيج. ولكن استخدمه من حين لآخر، لأن بمقدور الكثير من العناكب التقاط نشاطاته. ولذا فإنك عندما تستخدمه، ستتعرّض لخطر الاكتشاف.

ظهر الرجل العجوز فجأة، ووقف بجوار العمود الأبيض. قال لنيال: «أنصحك بأن

تأكل، قبل أن تغادر البرج، فإن أمامك ليلة طويلة».

ردّ نيال الذي لم يشعر بأي شهيّة: لا أرغب في تناول شيء.

- إذن خذ طعاماً معك، فإنه يتعيّن عليك أيضاً أن ترتدي زيّ العبيد. اتبعني! . ليس هناك وقت لإضاعته.

خطا نيال إلى داخل العمود، وشعر بنفسه يهبط درجاً. وكان الإحساس بأنه ريشة، مريراً هذه المرة، مما يؤكد توتّره العصبي.

دخلا الحجرة ذات الجدران المنحنية البيضاء. وجد فوق أحد المقاعد - ذلك الذي ظنه نيال خطأً أنه صخرة مكسوة بالعشب على الشاطىء - القضيب المتداخل وزياً رمادياً رديئاً لأحد العبيد، عندما ارتداه فوق ملابسه، تغضّن أنفه في اشمئزاز، من رائحة العرق الكريهة.

كان لزي العبد جيبان كبيران، على عكس ملابسه. وقد أحسّ بوجود أشياء فيهما، وعندما تفحصهما، عثر على صندوق خشبي صغير في أحدهما، بينما وجد أنبوباً رمادياً خفيفاً، يبلغ طوله ست بوصات، وقطره بوصة، في الجيب الآخر. عثر على عدد من الأقراص البنية الصغيرة، في الصندوق، تحت طبقة من الصوف القطني.

قال العجوز: هذه أقراص طعام - وقد اخترعها البشر لتمدّهم بالغذاء خلال الرحلات الطويلة في الفضاء.

- وهذا؟

- ملابس خفيفة الوزن، تمّ تطويرها لاستخدامها في الفضاء أيضاً. ألمس الأسطوانة الموجودة في طرفه!

لما ضغط نيال على طرف الأنبوب بإبهامه، تمدّد ليصل إلى مثلي طوله، ثم انبسط، فكشف عن ملابس منتفخة ذات لون رمادي معدني باهت، وذات مقياس يناسب حجم رجل في مثل حجم نيال.

تساءل: هل هذا ضروري؟

- خذه! قد تمتنّ لذلك. عندما تضغط على الطرف، سوف يطوي نفسه مرة أخرى.

تابع نيال ذلك عابثاً، إذ تحوّل إلى أنبوب رمادي أنيق، ودهش لأن الأنبوب أتى بهذه الحركة بهدوء وبدون جلبة كان يتوقعها.

ـ امضِ الآن، وإلا فإن كل ما أعددنا له، سيضيع هباء!

اختفى، فشعر نيال بالارتباك نتيجة لهذا الاختفاء المفاجىء، لكنه أكّد أهمية العجلة.

استشعر وخزاً في أصابعه، بمجرد أن التقط القضيب المعدني. وعندما مدّ يده، ولمس الجدار بطرفه، شعر بالوهن في ساقيه، وطغى عليه دوار مفاجىء. خطا إلى الأمام، وأحسّ مرة أخرى كما لو أنه سقط في دوامة. انتابه للحظة، غثيان حادّ، ثم صفت أحاسيسه، ليجد نفسه واقفاً فوق العشب، خارج البرج.

١

الجزء الثالث

الحصن

- ١٠ -

أعادته الرياح الباردة، التي هبّت على وجهه، إلى حالته السويّة. وجد نفسه وسط ظلام دامس. إلا أن القمر أطلّ لفترة قصيرة، من وراء سحب سوداء، فتمكن من تحديد طريقه. أحسّ بالعشب الذي يطأه بقدميه، مبللاً وزلقاً، فأدرك أن المطر قد هطل بغزارة. اضطر إلى السير بحذر، حتى لا يقع. أمسك بالقضيب المعدنيّ من طرفه الدقيق، واستخدمه عكازاً، ثم أحسّ، بعد بضع دقائق، بالأرض الصلبة تحت قدميه. تفرّقت السحب مرة أخرى، فأضاء القمر الطريق، الذي امتدّ نحو الشمال، باتجاه الجسر. استدار يساراً، وسار باتجاه حي النساء بالمدينة.

اشتدّت الرياح، وهو يجتاز الجانب القصيّ من الساحة، فاضطر إلى أن ينحني لها. أحسّ بالارتياح وهو يحتمي بالمباني الشاهقة. كان هذا الجزء من المدينة، وفقاً لخريطته، مهجوراً، إذ شكّل نوعاً من الأرض الفاصلة بين القطاع الجنوبي وحيّ العبيد. توقّف عند مدخل ليحتمي من الرياح، التي جعلت أسنانه تصطكّ، ولينتظر ظهور القمر. رأى، بمجرد أن وقف، شيئاً جعل قلبه ينقبض خوفاً. ومضى البرج الأبيض تحت ضوء القمر، فبدا كما لو أنّ جوهراً فوسفورياً بداخله يجعله يلمع. كانت هناك حركة لظلال سوداء تتخبّط، حول قاعدته، بدت واضحة، لتضارب لونها مع لونه ناصع البياض. أقنع نفسه، للحظة، بأنها مجرّد ظلال سُحُب، ثم أدرك، عندما زاد ضوء القمر، الذي ظهر وسط سماء زرقاء صافية، أنها كائنات حيّة. بدت الظلال، عندما خفت الضوء من جديد، تتحرّك عبر العشب وتتّجه نحوه.

كانت الاستجابة الفورية على ذلك، هي العَدْو، لكنه عرف في الحال، أنه سيرتكب خطأً إذا ما فعل ذلك. استخدم كل قدرته على ضبط النفس، لكبح جماح ذعره، الذي

سيخرج عن إطار سيطرته، لو أطلق له العنان، فسعى إلى اللجوء لأقرب مبنى. لكنه رفض هذا التوجّه أيضاً، حيث سيتمّ تفتيش كل مبنى في المدينة، عاجلاً أو آجلاً، كما أن العناكب تتمتّع بصبر لا ينفد، وسيتحوّل مخبأه إلى سجن. رأى أن الحلّ الصحيح هو مواصلة السير، على أمل أن يؤجل الظلام والريح، عملية البحث.

بدأ يتحرك صوب الغرب، نحو حيّ النساء، لكنه اتجه نحو الشمال عند كل نقطة تقاطع إذ راح يتحرك أيضاً باتجاه النهر. لفّ الظلام كل شيء، في هذه الأودية الضيّقة التي صنعها الإنسان، فاضطر لأن يمشي مثل رجل أعمى، يقوده القضيب المعدنيّ كمجسّ في يده، أما يده الأخرى فراحت تتحسّس جدران المباني. بدت الأرض تحت قدميه متشقّقة وغير مستوية. عرف أنه وصل إلى زاوية الشارع نتيجة لهبوب الرياح عليه من اتجاهين - تعثّر في حاجز حجري، ووقع في حفرة، فسقط القضيب من يده. جثا على أطرافه الأربعة، وراح يبحث عنه، وقد غمرته فكرة فقدان القضيب باليأس. ثم تذكّر مرآة التأمّل، فوضع يده داخل قميصه، وقلبها على صدره، وجلس وسط الظلام، مركزاً انتباهه. شعر بألم خاطف في خلفية جمجمته، ثم أحسّ بالقوة والسيطرة على نفسه. نهض واقفاً، ومدّ يديه لمسافة قدم من الأرض، وراح يسير على مهل. قاده إحساس بوخز في أطراف أصابع يده اليمنى نحو الشيء الذي يبحث عنه. صفا ذهنه، كما لو أنه قد التقط إشارة واهنة من القضيب المعدني. وعثر عليه ملقى في الحفرة. فأعاد وضع المرآة مرة أخرى بعيداً عن صدره، بعد أن أدرك مدى استنزاف هذا النوع من التركيز لطاقته.

وعندما ظهر القمر مرة أخرى، رأى أنه وصل إلى شارع عريض. وقد أوحت له الخريطة، التي استوعبتها ذاكرته، أن النهر على بعد بنايتين إلى الشمال. توقّف عند أحد المداخل، ومسح الشارع بحثاً عن ظلال متحركة، فبدا خالياً. أخذت الريح تؤرجح نسيجاً عنكبوتياً هائلاً، ولكن في عاصفة مثل هذه لا بد وأن يكون العنكبوت منكمشاً في إحدى الحجرات المغلقة. سار مسرعاً في الشارع، بعد أن تعوّدت عيناه على الظلام. وبدأ يشعر بتخدّر وجهه وذراعيه العاريتين في هذه الرياح الشديدة البرودة، إلا أن هذا البرد جعله يشعر بالراحة، فقد كان يعرف أن العناكب تكره البرد بدرجة تفوق كراهيته له.

توقّف عند زاوية بالشارع للراحة، بعد أن تبقّى مبنى واحد للوصول إلى النهر. غطّت سحابة سوداء هائلة القمر من فوقه، ورأى أن الأمر قد يستغرق عشر دقائق على الأقل لتمرّ. لم يكن يرغب في الوصول إلى ضفة النهر وسط الظلام الدامس، حيث من المحتمل أن تقوم العناكب بدوريات عند النهر، إذا ما كانت تحرس الجسر.

جلس على الرصيف مسنداً ظهره إلى درابزين بالدور الأرضي لأحد المباني. وتحرّك

شيء، فأدرك أنه يستند إلى بوابة، أغرته بالدخول للاحتماء من الرياح، ولو لبضع لحظات. دفع البوابة، التي انفتحت محدثة قرقعة من مفصلاتها الصدئة. وشعر، وهو جاثٍ على ركبتيه، بالدرجات الحجرية المتآكلة الزلقة بفعل المطر. ونزل بحذر حتى أصبح تحت مستوى سطح الشارع. واشتمّ رائحة كريهة. مثل رائحة نباتات عفنة، لكنه شعر بأنه قد وجد على الأقل ملجأ من الرياح. وتوهّم أنه يشعر بالدفء، بعد أن أصبح جلده غير معرّض للهواء. جلس وهو يرتعش، ولفّ ذراعيه حول ركبتيه، وراح يتساءل عن سبب تزايد قوة رائحة النباتات المتعطّنة في هذا المكان.

أحسّ بلمسة خفيفة على ذراعه، فجفل. وتجمّد في مكانه عندما افترض أن فكّيْ عنكبوت على وشك قضم لحمه العاري. صعدت اللمسة إلى كتفه، بينما مسّ شيء ربلة ساقه اليسرى. وعندما قفز واقفاً، التفّ شيء ناعم بارد حول كاحله، وأصبحت الرائحة النتنة مثيرة للغثيان. خلّص قدمه، لكنه وجد أن الشيء الناعم البارد ذاته قد التفّ حول ذراعه. وعندما حاول إبعاده، التف حول عضده، ودفعه نحو الدرابزين.

شعر بالارتياح، رغم الخوف والغثيان، بعد إدراكه أنه لا يواجه عنكبوتاً. تحركت قرون رطبة باردة ببطء، وانزلقت إحداها إلى ما بين ساقيه، والتفّت حول ركبته اليمنى. وعندما انحنى، التقت يده بشيء رقيق بارد ولزج. بدا كأنه يتسرب من بين أصابعه، حينما حاول اعتصاره بيده. لا بد وأنها دودة من ذوات الدم البارد.

حاولت أصابع أخرى تماثل الدودة سحب القضيب المعدني من يده اليمنى، فقبض عليه بشدّة، وأخذ يدفع به بين قضبان الدرابزين. أحس أنه ينغرس في شيء لين. دفعه المرة تلو الأخرى بكل قوته، وفي كل مرة يشعر بأنه ينغرس في شيء. مع ذلك واصلت القرون تحرّكها ملتفّة حول جسمه على مهل.

وحينما شعر بلمسة باردة على وجهه، تحوّل اشمئزازه إلى غضب بارد. أمسك مرة أخرى بطرف القضيب ودفعه بين القضبان بأقصى امتداد ذراعه. بدا أن كراهيته زلزلت مخّه مثل صدمة، وشعر بأن قوتها تسري في عضلات ذراعه لتصل إلى القضيب. قبض عليه بإحكام، وصرّ على أسنانه، فشعر مرة أخرى بالصدمة تسري في ذراعه. أرخت القرون، فجأة، قبضتها. استند إلى الحائط وهو يترنّح، ثم ارتقى الدرج وسقط في الشارع. أخذ يسير متعثراً، وهو يسعل ويتقيأ، ثم استعاد توازنه فراح يعدو. أحسّ بالريح الباردة وكأنها تربت عليه.

استعاد قدرته على ضبط التنفس قبل أن يقطع عدة أمتار وهو يعدو. اتجه إلى مدخل ووقف عنده، بعد أن أغمض عينيه، وأسند رأسه إلى الجدار حتى عادت ضربات قلبه إلى معدّلها الطبيعي. شعر بألم في جلده في الأماكن التي قبضت عليها القرون. وقلب مرآة التأمل على

صدره لتساعده مرة أخرى على التركيز. أصابه الألم في خلفية رأسه بالغثيان للحظة، ثم تلاشى وشعر من جديد بالرضا لسيطرته على جسمه وذهنه.

لم يكن هناك وقت لتضييعه، إذا ما كانت العناكب تتقدم باتجاه النهر. وقد اقترب من الضفة بحذر وانتظر ظهور القمر. واكتشف، تحت ضوئه أنه اقترب من قوس الجسر الضخم بدرجة أثارت دهشته، وأن الشارع المفضي إليه خالٍ. انتظر حتى اختفى القمر وراء السحب، ثم عبر الطريق. كانْ سوّر حجري منخفض يبلغ ارتفاعه نحو أربعة أقدام، يمتدّ على طول الضفة. وقد شقّ طريقه بامتداد هذا السور إلى أن عثر على فتحة. كشف القضيب المعدني - الذي استخدمه كعصا الأعمى - عن فجوة تفضي إلى درجات هابطة. ربض وراء السور حتى مكّنه ضوء القمر من تحديد اتجاهه، فوجد الدرج بدون حراسة، فهبط إلى طريق ممتدّ بطول النهر. وأدرك الآن أنه يتعيّن عليه أن يتحرك بسرعة. فإذا ما كان هناك حرس على الجسر، فإن أي ضوء مفاجىء للقمر يمكن أن يشي به. تقدّم إلى الأمام مسرعاً حتى تخلّل ضوء القمر سحابة، فتوقف، والتصق بشدة إلى الجدار، ثم واصل السير بمجرد أن عاد الظلام. استغرق أكثر من نصف ساعة للوصول إلى الجسر، على هذا النمط من السير. وعندما أصبح على بعد خمسين متراً، احتمى بدعامة حائط وانتظر حتى يسمح له ظهور القمر لفترة معقولة، بدراسة الجسر بعناية. لم ير شيئاً يشير إلى وجود حرس من العناكب، ولكنه شاهد عند طرفي الجسر هيكلين مستطيلين، قد يكونان كشكين للحراسة. رضخ لغريزة حثّته على البقاء في مكانه، بينما كان على وشك أن يتحرك من مخبأه. وسطع ضوء القمر فوق صفحة النهر بعد فترة إظلام، فأضاء أقرب كشك إليه، فمكنه ذلك من رؤية نافذة مربعة الشكل، لاحظ حركة وراءها، سرعان ما توقّفت، لكنها كانت كافية كي يتأكد مما يريد معرفته، وهو أن الحرس من العناكب تراقب الحركة على امتداد النهر، وكذلك الطريق المفضي إلى البرج الأبيض.

أصبحت الريح التي تهبّ عبر النهر شديدة البرودة، فلم يستطع أن يشعر بيديه أو قدميه. لو أنه ظل في مكانه لفترة أطول، لفقد القدرة على التحرك. ولذلك، فإنه بمجرد أن غطت سحابة قاتمة القمر، جرى وهو منحنٍ إلى أن وجد نفسه تحت ملجأ الجسر. تمكن في نهاية المطاف، بعد أن احتمى بظلال الجسر السوداء من الجلوس وظهره للجدار، وضغط ركبتيه بشدة إلى صدره في محاولة لتدفئة نفسه.

تمكن الآن من تقليص القضيب المعدنيّ، ليضعه في جيب الزيّ الرماديّ. أحسّ، عندما فعل ذلك، بالأنبوب الذي يحتوي على الملابس المعدنية الفضفاضة، فشعر بالامتنان تجاه السيد ستيج. فهذه الملابس سوف تحميه من الريح. وأخرج الأنبوب من الجيب بحذر، وضغط على طرفه بإبهامه. ولما انبسط الأنبوب، جذبت الرياح الرداء وكادت تطيّره من يديه، مثيرة صوتاً

عالياً. شدّه بسرعة تحت جسمه وجلس فوقه. تلمّس طريقه، خلال الدقائق العشر التالية، وسط الظلام وقد جعل الرداء بمستوى الأرض، محافظاً عليه عند هذا الوضع بقدميه المتجمّدتين، بينما حاولت أصابعه المخدرة نشره. حدّدت أصابعه في النهاية سحّاباً، فأدرك بارتياح أنه قد فهم الغرض منه. فقد غذّت أداة التعلم أثناء النوم ذاكرته بالعديد من المعلومات المفيدة. فتح مقدمة الرداء إلى أن وصل إلى الخصر، ثم وضع قدميه بداخله، وأدخل بعد ذلك يديه، ورفع السحّاب إلى أعلى حتى وصل إلى أسفل ذقنه. كان تأثير الرداء مثيراً للدهشة، فعلى الرغم من أن الريح واصلت الضغط على الرداء الذي لا يفصله شيء عن جلده العاري، فإن التيارات البـاردة لم تخترق القماش. لا بد وأنه يلبس رداء من فراء حيوان سميك. لم يتعرض للهـواء سوى يديه وقدميه ورأسه، إلا أن الرداء كان فضفاضاً فاستطاع سحب يديه وقدميه إلى الداخل. واكتشف وهو يتفقّد الرداء، وجود غطاء للرأس ملفوف بعناية وراء عنقه. عندما تعلمت أصابعه سرّ فتحه، وجد أنه غطّى رأسه بالكامل، وحينما ربطه، لم يتبق سوى أنفه وعينيه معرضة للهـواء. كمـا اكتشف دوائر مماثلة عند الرسغ والكاحلين، إلا أنه قرّر التخلي عن عملية الفحص إلى أن يبزغ الفجر؛ فقد رأى أنه من الأسهل مواجهة الريح بالإمساك بأطراف كمي الثوب بأصابعه، وأن يثني البوصات الست الأخيرة من أسفل الرداء تحت قدميهْ.

عندما قلب مرة أخرى مرآة التأمل بعيداً عن صدره، انتابته موجة من التعب تحولت إلى ضجر لذيذ نتيجة للدفـء الذي اكتسى به، بل إن برودة الجدار الذي يستنـد عليه لم تستطـع اختراق القماش الذي يماثل في سمكه الورقة. وسقطت قطرات قليلة من المياه على الرداء، فعرف أن المطر يهطل. وحينما ظهر القمر من جديد، رأى أن المطر ينهمر فوق سطح المياه القاتم، إلا أن عينيه لم تتمكنا من التركيز أكثر من بضع ثوانٍ. وارتخت جفونه وامتزج وعيه مع الظلام.

حينما استيقظ، كانت السماء فوق اللسان الشرقي من النهر قد تحوّلت إلى اللون الرمادي. وشعر بتصلّب في عنقه إذ أسند خده إلى الحائط، بيد أن هذا الوضع منعه من التدحرج، ورغم أنه غير مريح، فقد أحس بالاسترخاء والراحة. كان الشيء الوحيد الذي يتعبه هو تقلّص في ساقه اليمنى، وإحساس بالوخز في الأماكن التي أمسكت فيها المجسّات لحمه.

قرقرت معدته من الجوع، وكاد يشعر بالأسف لأنه لم يتزوّد بالطعام، لكنه تذكّر الأقراص البنّية، فتح الثوب. فهاجمته في الحال موجة من الهواء البارد، وأخرج الصندوق من جيبه. بدت الأقراص صغيرة على نحو يدعو للشفقة، مما أغراه بابتلاع حفنة. أخذ قرصاً ووضعه على لسانه، فوجد أن طعمه ليموني مقبول، وذاب بسرعة عندما مصّه، فشعـر بدفء لطيف، زاد عندمـا ابتلعه، فنزل في حلقه مثل نار سائلة. وصل بعد بضع لحظات إلى معدته، فتلاشى فجأة جوعه،

وحلّ مكانه إحساس متّقد كما لو أنه تناول وجبة ساخنة. شعر بالسعادة لأنه قاوم إغراء ابتلاع العديد من الأقراص، فليس هناك شكّ بأن أكثر من قرص كان سيجعله يصاب بالغثيان.

حان الوقت الآن لتحديد الوجهة التي سيقصدها. خلع أولاً الثوب المعدني، فأصيب بقشعريرة من ريح الفجر التي هبّت من النهر. وضع الثوب على الأرض بعناية، ثم لفّه وضغط على زر فتحوّل إلى أنبوب صلب كالمعدن، ووضعه في جيب الزيّ الرمادي.

سار بعد ذلك على أطراف أصابعه نحو الجهة الغربية من الجسر وتطلّع إلى أعلى. رأى من هذا المكان، كشك الحراسة المستطيل، ولكن كان من المستحيل، بدون التحرّك للأمام، أن يرى بوضوح ما يحدث وراء النافذة. وأدرك أن احتمال اكتشاف وجوده كبير للغاية.

لم يكن هناك كشك للحراسة على الجانب الآخر من الجسر. واكتشف وجود سلسلة من الدرجات تفضي إلى الشارع. صعد الدرجات محاذراً، ووقف فوق كل درجة لمدة نصف دقيقة على الأقل. ورأى، عندما أطل برأسه من فوق الدرجة الأخيرة، الضفة الأخرى المواجهة عبر الجسر المتهدم. كان كشك الحراسة عبارة عن مبنى صغير مفتوح الواجهة، ضمّ مقعداً من الحجر. ومن الواضح أنه كان مأوى للمشاة في الأيام التي قطن البشر هذه المدينة. وقد التصق العنكبوت الذئبي داخل الكشك بالجدار دون حراك تماماً، فوجد نيال صعوبة في التأكد من وجوده. وأجبر عقله على الهدوء العميق وهو يراقبه، إذ كان يعرف أن تحركات ذهنه يمكن أن تشي بوجوده على نحو أكبر من تحركات جسمه. جاهد عامداً ليقف دون حراك مثل العنكبوت، متجاهلاً الريح الباردة التي خدّرت ذراعيه وساقيه.

ارتفعت الشمس فوق الأفق الشرقي، بعد نصف ساعة، فشعر بدفئها الحنون، كما لو أن عزيزاً يربت عليه. حينما تنهّد بارتياح وحبور، انتابه إحساس جارف بالسعادة، صاحبه شعور غريب كما لو أن شيئاً بداخله يتضاءل وينكمش. عندما حدث هذا، باتت السعادة غير محتملة، واضطر إلى إغماض عينيه للحيلولة دون أن تكتسحه.

توقّف الشعور بالانكماش الداخلي، ليتركه في حالة من الهدوء العميق، لم يشعر بها من قبل. أصبح عندئذ مدركاً لعمليات التفكير التي تدور في ذهن العنكبوت الذئبي على الجانب الآخر من الطريق. فقد كان إدراكه متجمداً أيضاً كلهيب شمعة في ليلة لا ريح فيها. لو أن رجلاً يقف في هذا الكشك لشعر بالسأم ونفاد الصبر. أما العنكبوت الذئبي فإنه ينظر إلى تلك المشاعر على أنها مسّ من الجنون. فهو يعرف أن عليه الانتظار، حتى يحلّ بديله مكانه، وبالتالي فإن نفاد الصبر ليس له ما يبرّره. غمرت الشمس العنكبوت بأشعة دافئة، إلا أنها لم تؤثّر في درجة يقظته. وأدرك نيال بدهشة أنه لا يشعر بأيّ عداء أو خوف تجاه العنكبوت، بل يشعر بتعاطف ودّي مشوب بنبرة إعجاب قوية.

أثار الدفء إحساساً بوخز خفيف في كتفيه العاريتين وفي ربلتي ساقيه، مما أدى إلى توقّد ذهنه مثل موجة، نقلته برفق إلى منبع عميق من السلام. بدا الآن كما لو أن حاسّة السمع لديه قد زادت حدّتها فجأة بمعدل مئة مرة، وأن بمقدوره أن يسمع مجرّد الهمس. أثار هذا حيرته للحظة، لكنه حدّد مصدر ذلك الإحساس. فهو يأتي من شجرة دردار هائلة تنتصب على بعد خمسين متراً من ضفة النهر. أدرك على نحو مفاجىء كالصدمة أن الدردار كائن حيّ، ليس بالمعنى البسيط أو بالطريقة السلبية للخشب والأوراق اليانعة، ولكن بمعنى أنها من دم ولحم. نشرت الشجرة ذراعيها لاستقبال الشمس، وأفرزت إحساساً بالسعادة مماثلاً تماماً للطبيعة البشرية. راحت كل أوراقها تتموج سعيدة وهي تستوعب الضوء الذهبي، كما لو أنها مجموعة أطفال تتصايح فرحاً.

بدأ يتعرف على نبرة اتصال عميقة مع الشجرة، بعد أن أصبح مدركاً للصوت الصادر منها. استغرق الأمر بعض الوقت كي يدرك أن هذا الصوت يأتي من الأرض تحت قدميه. واضطر لبذل جهد ذهني لتعميق هدوئه الداخلي. وعندما تحقق له ذلك أحس بموجات الطاقة تترقرق أمامه مثل تموّجات ماء بركة حينما يلقي طفل بحجر فيها. أخذت الشجرة تستقبل هذه الطاقة، وتقوم بدورها ببثّ استجابتها الشخصية. فهم فجأة سبب إحاطة التلال والغابات الخضراء بالمدينة، فهي تركز موجات الطاقة التي تتدفق من الأرض وتعيد إليها استجابتها الحيوية. وكانت النتيجة هي أن هذه المدينة المكسوّة بالإسمنت المسلّح والقار ينتشر فيها شذا طاقة حيّة. بمقدوره أن يفهم الآن سرّ قدرة العنكبوت الذئبي على الانتظار صابراً ساعة تلو الأخرى. فهذا لا يرجع إلى أن العناكب ولدت وقد منحها الله موهبة الصبر، كما كان يعتقد، ولكن إلى إدراكها بأنها جزء من هذا النمط النابض من الحيوية.

أثارت هذه النبضة الحيوية بكثافتها الهائلة فضوله، وأصبح مدركاً لها، بعد أن ذكّرته بالاندفاع الإيقاعي للرياح المحمّلة بالأمطار، التي واجهها خلال العاصفة في البحر؛ فقد هبت ستائر من الأمطار على القارب في موجات عاتية. ولكن بخلاف الريح، التي يرجع اندفاعها إلى حركة القارب وسط الأمواج، فإن هذا الجيشان للطاقة الحيوية ولّد انطباعاً بأن هناك غرضاً من ورائه، كما لو أنه وكالة استخبارات قد ولدتها. خمن للحظة أن يكون مصدرها سيّد العناكب نفسه.

أدرك في تلك اللحظة أن تغيراً قد طرأ على نمط وعي العنكبوت الذئبي، جعله يعود، بطريقة مماثلة إلى حالة الاستيقاظ من نوم عميق، إلى المستوى الظاهري لوعيه اليومي. إن ما أعاد العنكبوت إلى نشاطه هو اقترابه من درجة الارتياح. ولاحظ نيال باهتمام أن الحارس مايزال داخل كشك الحراسة، ولذلك فإن ارتياحه خارج مجال رؤيته، ومع ذلك وبدون التحرك لخارج

الكشك أدرك تقدّم عنكبوت ذئبي آخر على امتداد الطريق المفضي إلى البرج الأبيض. عندما خفّ اهتمامه مرة أخرى، أصبح مدركاً لطبيعة هذا الوعي. تسبب الارتياح في حدوث سلسلة من «النبضات» الفرعية الصغيرة داخل مجال النبضات الأكبر، مما أدّى إلى اضطراب إيقاعها الطبيعي.

لم يكن لديه متّسع من الوقت، فالشمس ساطعة، وأي تأجيل سيكون خطيراً. انسل بهدوء هابطاً الدرج، واتجه إلى أسفل الجسر. ينخفض النهر حوالي أربعة أقدام عن الطريق، الذي قضى فيه الليل. رأى طبقة مكونة من الطين الرمادي، عرضها نحو ستة أقدام بجانب النهر. خلع خفّيه ـ اللذين كانا قد جلبهما من ديرا ـ ووضعهما في جيب الرداء العريض، ثم هبط إلى المنحدر الحجري، ومنه إلى الطين الذي بدا صلباً فلم تترك قدماه آثاراً عليه. وأخذ، بعد لحظة، يخوض في مياه النهر.

وجد أن الطين قد أصبح ليناً ولزجاً على نحو كريه وقذر. ونظراً لأنه لم يكن معتاداً على الخوض فيه، فقد أحسّ بلحظة ذعر عندما غاصت قدماه فيه. كانت قدماه تخوضان في الطين، وتغوصان حتى عمق يصل إلى قدم تقريباً، مع كل خطوة يخطوها. التفّ كائن حيّ صغير حول أصابع قدميه، فاضطرّ لأن يكبت صرخة ذعر. وقف ساكناً، في محاولة للسيطرة على ضربات قلبه. ولكن الأمر الذي أثار ذعره، هو إدراكه بأن ضوء الشمس المشرقة سوف يجعل أيّ كائن على ضفة النهر يراه، وكلما طالت فترة خوضه في الطين لعبور النهر، ستكون الفرصة أكبر لأن يلحظه أي كائن. راودته، للحظة، فكرة العودة وقضاء النهار مختبئاً في مكان منعزل، لكنه رأى أن هذه، الفكرة ستعرضه لخطر أكبر حيث سيرصده أي شخص من الضفة الأخرى. واصل الخوض في النهر حتى وصل الماء إلى إبطيه. واجه تياراً أقوى مما توقّع، فاضطر إلى الميل يميناً ويساراً حتى يحافظ على توزانه. أحسّ فجأة بأن القاع لم يعد تحت قدميه، فراح يتعثّر. وخطر له في البداية أن يحاول العودة، لكنه وجد أن ذلك لن يكون مجدياً، فالسلامة تكمن في المضيّ قدماً. وأخذ يحرك يديه في الماء، لكنه شعر بأنه يغرق. أصيب بالذعر للحظة، حينما دخل الماء أنفه وفمه، فراح يتخبط إلى أن بلغ السطح، وهو يسعل ويشرق. فكر مذعوراً في احتمال أن يجرّه التيار بعيداً عن الجسر ويتركه مكشوفاً بالكامل. اندفع للأمام بضعة أمتار، ثم أحسّ بالطين تحت قدميه مرة أخرى، فشعر بالراحة. وقف فوقه لمدة دقيقة تقريباً، لمجرّد أن يلتقط أنفاسه ولمحاولة السيطرة على ذعره، وخاض من جديد متجهاً نحو الضفة. راح يجتاز، بعد لحظات قليلة، الطين الصلب المنحدر داخل الماء، لكنه أدرك أنه قد خسر المعركة ضد الذعر.

قاوم إغراء التوقّف والتقاط أنفاسه بالاتكاء على الحاجز الحجري، واتجه، بدلاً من ذلك، نحو سلسلة الدرجات القائمة بجانب الجسر. كان قد صعد بالفعل الدرجات الست الأولى،

عندما أدرك أن الوقت تأخر كثيراً؛ فقد انتظره فوق قمّة الدرج العنكبوت الذئبي، وقد مدّ مخلبيه، ونظر إليه بعيونه السوداء الهائلة، الخالية من أي تعبير.

حينما أطاع دافعه للهرب، ضربته قوة إرادة العنكبوت في ظهره، فجعلته يلهث. انتابته فكرة غامضة بأن يلجأ للنهر، على أمل أن العنكبوت لن يجرؤ على اقتفاء أثره. لكنه بمجرد أن وصل إلى حاجز الأحجار، اصطدم جسم العنكبوت سريع الحركة بجسمه، وألقى به في الطين. غاص ركبتاه وكوعاه، فاستحال عليه أن يتحرك. وعندما سقط العنكبوت بوزنه الثقيل على ظهره، شعر بأن الوقت يتحرك ببطء، وأحس بأنه يتخبّط في حركة بطيئة، وأخذ يراقب رعب كيانه الجسدي، كما لو أنه يراقب شخصاً غريباً. ثم غاص وجهه في الطين بشدة وأحس بأنه يفقد وعيه.

استيقظ كما لو أنه يصحو من كابوس، فأدرك أنه يتمدّد على ظهره. بهر ضوء الشمس الساطع عينيه، وعندما تذكر العنكبوت، مد يده ليدافع عن رقبته، ثم أدرك أنه بمفرده. تطلّع متوقعاً أن يرى العنكبوت يراقبه من الحاجز، لكنه لم ير أي كائن حيّ أمامه. ترنّح حتى جلس على ركبتيه ثم وقف، وهو يقاوم موجات الدوار. بذل جهداً خارقاً وهو يجر نفسه إلى أن بلغ المنحدر الحجري. قاوم رغبة في التقيؤ، وهو يترنّح حتى بلغ الجدار، فتهالك مسنداً ظهره إليه.

تذكّر حينئذ مرآة التأمل. وضع يده في صدره وقلبها. شعر بتأثيرها في الحال، إذ انتابه هذا الإحساس الغريب بالتركيز والراحة، كما لو أنه يتذكر أمراً ما. لكنه أصبح الآن معتاداً بما فيه الكفاية على مظاهرها، فأخذ يراقبها بدقة. في البداية بدا الأمر كما لو أن قلبه يتقلّص نتيجة لشعور لا يختلف عن الإحساس بالخوف. ومع ذلك، فإنه نظراً لمصاحبة هذا التقلّص لشعور بسيطرة متزايدة على النفس، فإنها ولدت شعوراً خاطفاً بالمرح والقوة. بدا أن هذا الشعور ينتشر سريعاً ليشمل الأمعاء، حيث امتزج بشكل أكثر مادّية مع أشكال الطاقة. ثم بدا أن العقل يقوم بتوحيد هذين الإحساسين، كما لو أنه تحول إلى يد تضغط على مادّة صلبة ولكنها ليّنة. لو أنه كان متعباً، لافتقر عمل العقل إلى القوة، وعانى من آلام خلف عينيه. وهذا ما حدث الآن. ثم زادت قوة العقل ـ التي أدرك أنها الذهن نفسه ـ من سيطرتها، وتلاشى الصداع. أحس العقل كما لو أن ثلاثة إشعاعات من الطاقة تنبعث من القلب والرأس والأمعاء تتجمّع فوق المرآة، التي عكستها مرة أخرى، فضاعفت من حدّتها. كما أدرك ـ في لحظة تبصّر خاطفة ـ أن المرآة غير ضرورية، وأنها مجرّد بديل ميكانيكي لإدراك الذات.

حاول، بعد أن جمع شتات قوته وحيويته من أعماقه، أن يفهم ما حدث. كيف بقي على قيد الحياة؟ من المرجّح أن سيد الموت قد أصدر أوامره بأسره حياً. إذن أين ذهب العنكبوت

الذي هاجمه؟ لعله قد ذهب ليستدعي الحارس الآخر، لكنه شعر في الحال بعدم منطقية هذا التفسير، فما أسهل أن يوثق يديه وقدميه ويحمله على ظهره.

نهض واقفاً، فشعر بآلام خلف عنقه، لكنه لم يعثر على أية علامة تدل على وجود جرح فيه. بدأ الأمل يشرق. فقد تركه العنكبوت دون أن يلحق به أيّ أذى لسبب ما يتجاوز فهمه. هل حدث ذلك نتيجة لتدخّل من السيد ستيج؟

صعد الدرج مرة أخرى بحذر، حتى وصل إلى الشارع هذه المرة. كانت آثار البلل نتيجة محاولة صعوده السابقة ماتزال فوق الدرج، فعرف أنه قد غاب عن الوعي لفترة قصيرة. ورفع رأسه وتطلع عبر الجسر، فوجده خالياً، وكذلك شوارع حي العبيد. كان على وشك أن يهرع إلى أقرب مبنى، عندما لمح الطين فوق ذراعيه، فغيّر رأيه حيث كانت حالته الراهنة منافية للمظهر العادي. وقف مكانه لمدة دقيقة، وهو يمسح الشارع والضفة بعينيه بحثاً عن أي شيء يدل على وجود حركة، وعندما تأكد بأنهما خاليان، هرع عائداً إلى النهر، حيث خاض حتى بلغ الماء ركبتيه، فأزال الطين عن ذراعيه، وساقيه ووجهه.

طرأت على ذهنه، وهو يخوض في الماء عائداً إلى الشاطىء، فكرة غريبة. نظر إلى العلامات التي تركها جسمه عندما سقط على المنحدر، فأدرك أن الآثار التي خلّفتها ركبتاه وكوعاه واضحة. كما لاحظ وجود علامات في الطين اللين، تركتها مخالب العنكبوت، وهو يقف فوق جسمه. رأى بجانب يده اليسرى أربع علامات واضحة، أما بجانب يده اليمنى فقد رأى ثلاث علامات فقط. إذن فإن مهاجمة عنكبوت ذئبي بمخلب أمامي مفقود.

استحضر ذهنه، بعد أن تصاعد الوضوح ليتحوّل إلى إدراك حسي، صورة عنكبوت ذئبي خائر القوى يتمدّد في الشمس، وخيط من الدم ينزف من قائمته الأمامية المبتورة على سطح القارب، فتأكّد فجأة دون أدنى شكّ أن حدسه قد اكتشف الإجابة. صعد الحبور والامتنان بداخله مثل فقاعة. وأدى إدراكه بأن الحظّ قد وقف بجانبه إلى إحساسه بهدوء داخلي غريب. صعد الدرج متمهلاً، وهو ينظر يميناً ويساراً ليتأكد من أن الطريق خال، ثم عبر الشارع مثل رجل في طريقه إلى عمله العادي.

كانت البيوت المواجهة للنهر ذات طرز معمارية مثيرة للإعجاب، تهدّم معظمها، وكست الأرصفة المتكسرة، شظايا من الزجاج وإسمنت متحلل. كما رأى للمرة الأولى في حياته هياكل محطمة لسيارات صدئة، العديد منها بزوائد لطائرات عمودية، مما جعلها تبدو مثل حشرات مجنّحة نافقة. أما في الجزء الجنوبي من المدينة، فقد كان معظم النوافذ والأبواب مايزال سليماً، وبدت فتحات النوافذ خالية، بينما ظلت الأبواب محتفظة

بمفصلاتها. لاح حيّ العبيد كما لو أنه قد تعرّض لتخريب من جانب جيش من الصبية المولعين بتحطيم الأشياء.

كان معلقاً، فوق الشارع الرئيسي، الذي يمتدّ من الجسر، خيوط نسيج العناكب، التي كانت سميكة للغاية في بعض الأماكن فبدت مثل ظُلّة. وقد حذرته غريزته من السير تحت الخيوط. فدخل، بدلاً من ذلك، مَبنى كتبت فوق واجهته المتآكلة بعض الكلمات: «هيئة الضمان العالمي». شقّ طريقه عبر أرضية من الرخام المتسخ تناثرت فوقه شرائح خشبية وجصّ، ثم سار في سلسلة من الدهاليز تفضي إلى شارع ضيق. نظر بحذر ثم سحب رأسه بسرعة، فقد رأى فوق رأسه بمسافة ثلاثين قدماً تقريباً، عنكبوت موت يعدل نسيجه. وكبت ومضة الذعر قبل أن تبدأ، وتقهقر عائداً إلى الدهليز.

كانت أقرب حجرة تضمّ بعض الأثاث المهشّم، ويستند بابها إلى الصوان المواجه لفتحة النافذة الخالية. وقد رأى بوضوح وهو يتحرك في المنطقة الواقعة بين الباب والصوان، الشارع، وراقب العنكبوت وهو يعدل بصبر نسيجه. تناهى إلى مسامعه، بعد نصف ساعة، أول صوت يدل على وجود حياة: وقع أقدام واصطفاف أبواب. وشاهد عبر الشارع أناساً يتحركون من وراء فتحة نافذة الطابق الأول. كانت امرأة ذات نهدين مكتنزين وساقين ممتلئتين تسير على نحو غير متناسق في الشارع محدثة جلبة خفيفة. ولاحظ أنها كانت تسير تحت نسيج العنكبوت دون أن ينتابها أي توتّر.

تزايد الضجيج، وظهر الأطفال على الأرصفة، عندما ارتفعت الشمس وتغلغلت أشعتها في الشارع الضيق، وأخذ العديد منهم يلوكون كسرات من الخبز الرمادي اللون. وأخذ بعضهم يصيحون ويهرولون ويتضاحكون، وبدا معظمهم هادئين فاتري الشعور. وقد لاحظ انتشار الجبهات الخفيضة وعظام الوجنتين المفلطحة، والعيون الضيقة التي تبدو مثل اللوزة. واقترب فتى قوي البنية ذو قدم مشوهة من فتاة بدينة صغيرة، وخطف الطعام الذي في يدها، فراحت تبكي، لكن أحداً لم يلتفت إليها. استند الفتى إلى الجدار على بعد بضعة أقدام، وأكل الخبز. ثم اقترب من فتاة أخرى كانت قد خرجت لتوّها إلى الشارع، وخطف مرة أخرى الطعام من يديها. حاولت الفتاة استعادة طعامها، فدفعها الصبي في صدرها بقوة، فسقطت وسط الطريق مترنّحة. ورغم ذلك جلس الأطفال الآخرون عند مداخل البيوت أو على حافة الرصيف، وراحوا يأكلون ببلاهة، دون أن يحاولوا إخفاء طعامهم.

جرى صبي صغير في وسط الشارع، ناشراً ذراعيه كما لو أنه طائر، محدثاً ضجيجاً. جرى تحت خيوط النسيج التي تمّ تعديل وضعها حديثاً، وتوقّف ليتطلع إليها. دهش نيال

حينما انحنى الصغير، والتقط قطعة خشبية، ألقى بها في الهواء، فسقطت مرة أخرى على الأرض دون أن تصطدم بالنسيج. طوحها الصبي من جديد فارتفعت هذه المرة إلى أعلى قليلاً. التقط الفتى القوي البنية قطعة الخشب وطوّحها بكل قوته في الهواء، فاصطدمت هذه المرة بالنسيج، والتصقت به. وجفل نيال عندما وجد العنكبوت يهبط بسرعة فوق خيوط النسيج وينقضّ على الصبي الصغير. توقع نيال أن يرى مخالبه وهي تنغرس في لحمه العاري. ولكن بدلاً من ذلك راح الصبي يقهقه حينما ألقى به العنكبوت على الأرض، وشاركه العديد من الصبية في ضحكه. تسلّق العنكبوت، بعد بضع لحظات، خيوط نسيجه مرتفعاً في الهواء، بينما قفز الصبي واقفاً، وراح يعدو مبتعداً. وجد نيال في كل ذلك أمراً مثيراً للحيرة، فمن الواضح أن العنكبوت كان يلهو مع الصبي.

شعر نيال بعدم الراحة إذ كانت ثيابه رطبة، وعندما نظر صبيّ في النافذة وحدق فيه بفضول، رأى أنه لا جدوى من الاختباء أكثر من ذلك، فسار متجهاً نحو الشارع. لم يعره أحد أي اهتمام. وراح العنكبوت فوق رأسه يبني نسيجاً آخر، وهو غافل عما يجري تحته. وألقى الصبي ذو القدم المشوهة نظرة خاطفة عليه جعلته يشعر بعدم الارتياح ـ فقد اتسمت النظرة بالعداء والسخرية.

زادت مرآة التأمل من حدة أحاسيسه، فجعلت ملاحظته حادّة على نحو غير طبيعي. ولاحظ أن حيّ العبيد مليء بالروائح الطيّبة والكريهة على السواء، روائح طهي مختلطة بروائح فاكهة عفنة ومجارير. وقد امتلأت البالوعات بفضلات طعام وبكل أنواع مخلفات المنازل. واكتشف في الحال وجود سكان من غير البشر في حي العبيد. فحينما ألقى صبي بقطعة خبز كبيرة، انقض طائر بجوار رأسه والتقطها. كما رأى في زقاق مهجور مظلل فأراً رمادياً كبيراً يأكل من بطيخة مهشّمة. ونظر الفأر إليه بعينيه الصغيرتين الحادّتين، ثم قرر أن يتجاهله، وواصل التهام طعامه. اندفع عنكبوت بعد جزء من الثانية، من السماء، وهبط فوق الفأر، الذي لم يسعفه الوقت ليفعل شيئاً سوى إصدار صوت قصير حادّ، قبل أن تفترسه المخالب. وفي غضون بضع ثوانٍ، اختفى العنكبوت والفأر. حدث كل هذا بسرعة، فلم تكن هناك فرصة أمام نيال ليشعر بالخوف، أو حتى بالدهشة. وألقى نظرة خاطفة عصبية على النسيج فوق رأسه، الذي اختفى العنكبوت بداخله، ومشى مسرعاً.

اشتمّ أنفه وهو يمرّ من أمام مدخل مفتوح، بعد بضع لحظات، رائحة كريهة للحم متعطّن. توقّف متردداً، ثم خطا إلى الداخل، وهو يطأ بحذر فوق الأرضية ذات الألواح الخشبية المهشمة. شاهد في الحال مصدر الرائحة العفنة، وهي جثة متحللة متمددة في أحد زوايا الحجرة. لم تزد كثيراً عن هيكل عظمي، وقد غطت شرائح منفصلة من ملابس

العبيد الرمادية القفص الصدري، بينما راحت يرقات تزحف خارجة من محجري العينين. غطى سبب الموت ـ وهو كتلة هائلة من المبنى سقطت من السقف ـ الأرض بالقرب من الجمجمة المهشمة. وكبت نيال رغبة في الغثيان، وأسرع عائداً إلى الشارع.

كان حي العبيد قذراً مزدحماً بالسكان، وغير منظم على الاطلاق. وقد بدت بنايات عديدة مثل محارات محروقة، وأخرى ظهرت كما لو أن قوة دفع هائلة قد أدّت إلى انهيار جدرانها. وكان من السهل تمييز المباني الآهلة بالسكان، حيث بدت في حالة أفضل من البنايات المنهارة الأخرى. دخل إحدى هذه البنايات، وشق طريقه بين أطفال يتشاجرون، تجاهلوه. شاهد حجرة بدون باب إلى اليمين، من الواضح أنها حجرة نوم، إذ اكتست الأرضية بحشية ملوثة بالشحم. وفي حجرة أخرى، جلس أناس فوق أرضية عارية ذات ألواح خشبية، أو فوق أثاث مهشم، وراحوا يشربون حساء من آنية فخارية مكسورة، أو يقضمون قوائم أرانب أو كسرات خبز رمادي. كان من السهل تحديد مكان المطبخ باقتفاء أثر الروائح السائدة من الدهن المحترق، ودخان الخشب والثوم والفاكهة والخضروات الناضجة التي تجاوزت قمة نضجها. تصاعد البخار من قدر حساء هائل فوق الموقد الخشبي. راحت الطاهية، وهي امرأة بدينة بشكل غير مألوف، تزيد استدارة ساعدها عن معظم أفخاذ الرجال، تقطع مزيجاً من الفاكهة، والخضروات، ولحم أرانب على لوح عريض. وصبّت هذا المزيج في القدر مستخدمة مدية مقوّسة. دخل نيال، وكذلك رجلان استيقظا متأخرين، وراحا يتثاءبان ويدلكان عيونهما. تناولا صحنين متسخين من وسط كومة في الحوض المعدني، وغرفا بهما الحساء من القدر، دون أن يقوما بغسلهما، كما بدا أنهما لم يبديا اهتماماً بما إذا كان الحساء يحتوي على قدر من اللحم والخضروات. تناولا شرائح خبز من رغيف يزيد طوله عن أربعة أقدام، ووضعوه في إناء خشبي به زبد نصف ذائب، موضوع فوق عتبة النافذة ليتلقى أشعة شمس الصباح. ولاحظ نيال وجود مستودع معدني ضخم يضم أنواعاً عديدة من الفاكهة: تفاح، برتقال، رمان، بطيخ وكمثرى شوكية. بدا واضحاً أن العبيد يتناولون غذاء جيداً.

دخل رجل طويل أحمر شعر الرأس المطبخ. وخمن نيال أنه أحد أفراد طبقة الخدم، حكم عليه بالعمل كواحد من العبيد. وبدا منزعجاً ومستنفراً. تجاهل نيال، وسحب إناء من الحوض، وغسله بماء الصنبور وملأه بالحساء. وعلى عكس العبيد، فقد تحمّل مشقّة غمس المغرفة في قاع القدر. وأخذ نيال يسبر غور ذهنه، فوجد أن مرآة التأمل قد جعلت المهمة أسهل من المعتاد، واكتشف أن الرجل مشغول تماماً بعد أن نام أكثر من اللازم، وأنه يتعيّن عليه التوجه إلى العمل في غضون عشر دقائق. قطع الرجل ـ واسمه

لوريس ـ شريحة خبز من الرغيف، وبدأ يأكل بنهم. كان مزاجه متعكراً وعدائياً، فشعر نيال بالسعادة لأنه توقف عن سبر ذهنه، وذلك لأن حالة الرجل الذهنية ولّدت انطباعاً يماثل تماماً رائحة كريهة.

بدا أن لوريس ـ بعدما فرغ من تناول إناء الحساء ـ قد لاحظ نيال للمرة الأولى.

سأله: ما الذي أتى بك إلى هنا؟

فكر نيال بسرعة، وقال: جادلت إحدى القائدات. وأنت؟

أعاد ملء الإناء بالحساء، وقال: تأخير مستمر.

قال نيال: لقد وصلت لتوّي. أيوجد شخص مسؤول هنا؟

ـ مورلاج في المبنى ك ـ ٢.

ـ أين ذلك المبنى؟

أشار بإصبعه قائلاً: سِرْ في هذا الطريق، إنه أول مبنى على اليسار.

ـ شكراً.

لاحظ عندما خرج إلى الشارع، أن العديد من العبيد يسيرون في اتجاه واحد. إلا أن محاولات سبر غور أذهانهم باءت بالفشل. فقد كانوا لا يتمتّعون تقريباً بأيّ نشاط ذهني بالمعنى الطبيعي، فهم يعيشون وفقاً لروتين آلي، وبدا أن كل فرد فيهم ينظر إلى نفسه على أنه مجرّد جزء من حشد، تحركوا كالسائرين وهم نيام. وجد أنه في مكان لا يختلف عن كونه بين مجموعة من نمال بشرية. ولاحظ عندما مروا من أمام البيت الذي وجد فيه الجثة ـ التي أصبحت رائحتها العفنة أقوى من ذي قبل ـ أنهم لم يعيروا أدنى اهتمام لمقتل واحد منهم. بدا أن كل واحد منهم يشعر بأن هذا أمر لا يخصّه. فقد كانوا منهمكين تماماً في شؤونهم الخاصة.

لاحظ نيال، وهو يشق طريقه وسط الشوارع المزدحمة، مدى التفاوت الجسماني الكبير بين أفراد طبقة العبيد. فعلى عكس الخدم والقائدات ـ اللائي يجمع بينهن تشابه أسري قوي ـ بدا العبيد مختلفين في الشكل والحجم. فالعديد منهم أشكالهم مشوّهة، البعض منهم يبدو يقظاً وذكياً، والبعض الآخر كئيب وبَرِم، والقليل منهم تبدو عليه علامات قناعة حالمة. كان الأفراد الأذكياء في العادة من أصحاب الأجسام الصغيرة والمشوهة، أما العبيد الأطول والذين يتمتعون بجاذبية جسمانية أكبر فغالباً ما ترتسم على وجوههم ابتسامة بلهاء لا معنى لها. لاحظ الفروق ذاتها بين النساء، اللائي وقف العديد منهن في النوافذ والمداخل يشاهدن الرجال وهم يمضون. فاللائي بدت عليهن علامات الذكاء، كن قصيرات ودميمات، أما ممشوقات القوام، الجذابات، فقد كن يحملقن ببلاهة، ومن

الواضح أنهن يدركن بالكاد الأماكن المحيطة بهن. وقد استرعى انتباهه وجود نسبة كبيرة من النساء في مراحل حمل متقدّمة، ووجود عدد هائل من الأطفال، يميل الكثير منهم خارج نوافذ مرتفعة على نحو خطير. وبدا أن حي العبيد يضمّ عدداً من الأطفال يفوق عدد البالغين.

وجد نفسه في ساحة صغيرة، اصطفّت فيها عدة فصائل من العبيد. وقف رجل ضخم ذو لحية سوداء أمامهم، وقد ارتسمت على وجهه علامات الاشمئزاز والمقت. كان الضجيج يصمّ الآذان، إذ راح الصبية يتصايحون وهم يلهون، بينما يتبادل الكبار الأحاديث بأصوات مرتفعة، وراحت امرأتان في مراحل حمل متقدمة تتصارعان.

اقترب نيال من الرجل ذي اللحية السوداء وقال له: إنني أبحث عن مورلاج.
ـ أنا مورلاج. ماذا تريد؟
ـ طُلب مني أن أسلّم نفسي لك.

صاح مورلاج فجأة قائلاً: «اصمتوا!» بصوت مدوٍ، أصاب نيال مثل لطمة. وران صمت مطبق على الساحة، وأفلتت المرأتان اللتان تتشاجران شعر كل منهما وجلستا. قال مورلاج: «هذا أفضل. وإذا حدثت أية ضجة أخرى سوف تكونون جميعاً طعاماً للعناكب». نظر إلى نيال، الذي كان وجهه على مستوى واحد مع صدره.

ـ ما السبب الذي أرسلوك من أجله؟
ـ جادلت قائدة.

صاح مورلاج قائلاً: استريحوا! فعادت الجلبة من جديد. ثم قال لنيال: «ما الوظيفة التي تؤديها؟».

ـ سائق عربة.
ـ ليكن. انتظر هنا!
أشار إلى الرصيف من ورائه حيث يقف أربعة خدم مفتولي العضلات.

شعر نيال بوخزة ألم في خلفية جمجمته جعلته يدرك أنه استخدم مرآة التأمل لفترة طويلة. مدّ يده بحذر داخل قميصه، وقلبها. أحس براحة كبيرة، جعلته يشعر للحظة بدوار، فاضطر إلى أن يغمض عينيه. لفّه مرة أخرى، حتى قبل أن يفتحهما، ذلك الشعور بالهدوء التام الذي أحسّ به عند النهر. وبدت هويته تتلاشى، ليصبح جزءاً من حياة الجماعة المحيطة به. وجد نفسه في الحال داخل أذهان كل هؤلاء الأشخاص المتجمّعين في الساحة، يشاركهم إحساسهم بالسعادة غير المبرّرة. كما أدرك مرة أخرى نبض الحياة

الإيقاعي الذي تحرك في موجات دورية من خلال الأرض تحت قدميه، كمدّ يتدافع متكسراً بهدوء فوق شاطىء. كما لاحظ العبيد على نحو طفيف هذه النبضة، فعزّزت سعادتهم بأنهم على قيد الحياة.

أما رفاق نيال الأربعة، فلم يدركوا هذه النبضة، فقد انشغلت أذهانهم بنوع الوظيفة التي سيحدّدها المشرف لكل فرد. أثار نفادُ بصيرة نيال داخل أذهانهم، فضوله، فقد أحسّ أنهم جميعاً يشعرون بالإهانة، لأنه قد حُكم عليهم بالعيش بين العبيد، وأن هذا قد عزّز من استيائهم تجاه العناكب. كما شعر كل فرد فيهم، في الوقت ذاته، بأن هناك ما يعوّض ما يتعرضون له، فهم بين رفاقهم من الخدم، بدون هوّية، لكنهم يعاملون هنا كآلهة، إذ تقدم لهم أفضل صنوف الطعام، ويُسمح لهم باختيار أكثر النساء جاذبية. وأدى كل هذا إلى تطوير روح مستقلة في كل واحد منهم، إذ لم يعد أحد بينهم يريد أن يعود ليعيش بين رفقائه من الخدم. شعر نيال بأن مثل هؤلاء الرجال يمكن أن يكونوا حلفاء معه ضد العناكب.

كان موقفهم تجاه نيال، في الوقت الحالي، غير ودّي، فقد نظروا إليه على أنه غريب، وأنه قد يحصل على إحدى الوظائف الجيدة، مثل العمل في المزارع أو جمع الغذاء، التي تحقق درجة كبيرة من الحرية. كما كره الجميع، من ناحية أخرى، مهام تنظيف الشوارع والعمل في المجاري، نظراً لأن هذه الأعمال تتم تحت إشراف العناكب المباشر. كما اعتبروا، لسبب ما، العمل لصالح خنافس المدفعية، منفراً للغاية.

عندما حول نيال اهتمامه إلى مورلاج، أدرك بفزع أن المشرف يعتزم تعيينه في مفرزة تنظيف الشوارع، الأمر الذي سيؤدي إلى كارثة، إذ سيتمّ التعرّف عليه بمجرّد عبوره الجسر. فكر للحظة في التسلل بهدوء مبتعداً عن الصف، لكنه استبعد هذه الفكرة، إذ سيحاول مورلاج معرفة ما حدث له. وجد أن البديل هو محاولة التأثير على ذهن المشرف، بزرع فكرة تجعله يعيّنه في مفرزة أخرى.

حدق نيال في خلفية رأس مورلاج، ومدّ يده في الوقت ذاته، داخل قميصه، وقلب مرآة التأمل. ولكنه أدرك، حينما لمستها أصابعه أن هذا ليس حلاً. لقد عكست مرآة التأمل قدراته مرة أخرى داخل نفسه، وبالتالي قلّلت من قدرته على التأثير على الآخرين. وعندما قلبها مرة أخرى، توصل إلى اكتشاف آخر، وهو أنه حينما يديرها يبدو الأمر كما لو أن انتباهه المُركز يبتعد عنه في صورة أشعّة مركزة. فهم ما يحدث على نحو مفاجىء. فعندما يقلب المرآة نحو صدره، فإنها تكثف أفكاره وأحاسيسه. وحينما يقلبها للخارج، يمكن استخدامها كأداة عاكسة. تطلق أشعة أفكاره وأحاسيسه على الآخرين. وبالتالي فإن كل ما يتعين عليه القيام به هو توجيه تركيزه في المرآة.

جرّب ذلك، وهو يحدق عامداً في خلفية رأس مورلاج. وتجاوزت النتيجة توقّعاته. فقد نجح في التأثير على مورلاج وهو على وشك إصدار الأمر إليه، إذ زأر فيه قائلاً: قف في وضع الانتباه، وانضمّ للصف أيها الأحمق! . . . ثم تلاشى صوته، وارتسم على وجهه تعبير لا معنى له. هزّ رأسه كما لو أن حشرة تئزّ حوله، وأخذ يداعب لحيته بعصبية. حدق فيه رفاق نيال بدهشة متسائلين عما يمكن أن يكون قد حدث له. ثم بدا أن مورلاج يجمع شتات نفسه، ليقول: «لقد حان الوقت». والتفت إلى أقرب عبد قائلاً: «أنت. . . خذ هؤلاء إلى مزرعة الأرانب. وأنت وأنت إلى الساحة الرئيسية لتنظيف الشوارع». ثم نظر إلى نيال وقال «وأنت . . . » بدا أن ذاكرته خانته للحظة، وفي تلك اللحظة، اختار نيال من ذهنه نوع العمل الذي يفضل القيام به. قال مورلاج: «أنت اذهب إلى خنافس المدفعية. وأنت خذ هؤلاء إلى أشغال المجاري . . . » وحينما مرّ على الصف، أشاح نيال بعينيه ليخفي ارتياحه.

اتجه نيال، بعد خمس دقائق، نحو الشمال بطول الشارع الرئيسي، على رأس مفرزة مكونة من عشرين عبداً.

- ١١ -

كان اليوم مشرقاً وصافياً، وأشاعت الرياح الشمالية الشرقية، التي هبّت في ساعات الصباح الأولى في الجو، برودة منعشة، وجدها نيال مثيرة للنشوة، بعد أن تعوّد على رياح الصحراء الساخنة الجافة، بل إن التصاق ملابسه الرطبة بجلده جعله يشعر بالسرور. كان الشارع أمامهم يمتد مستقيماً باتجاه التلال الخضراء في الأفق، التي أثارت رؤيتها بهجة غريبة وشعوراً بأن الحرية تكمن على الجانب الآخر.

بدت معظم المباني على الجانب الآخر متهدمة، بعضها أسود محترق، وقد شقّت الأشجار والأعشاب البنفسجية الطويلة طريقها خارجة من الأبواب والنوافذ. ورأى أن نسيج العناكب الكثيف المغبر فوقهم أقل كثافة منه في وسط المدينة، وشعر بوجود مراقبة مستمرة عليه من عيون خفية، كما لو أن أشعة فضولية تمشطه. تعمد إغلاق ذهنه، رافضاً السماح له بأن يعكس أي شيء سوى الأشياء المحيطة به.

تغيّرت طبيعة الأشياء، بعد أن ساروا لمسافة ميل، فقد حل مكان ناطحات السحاب وبنايات الأبراج المتهدمة، بنايات أصغر، العديد منها محاط بمروج خضراء. من الواضح أن هذه هي المنطقة السكنية في المدينة، واختفت، في الحال، خيوط النسيج إذ أصبحت المسافات بين البنايات عريضة للغاية بحيث يستحيل مدّ الخيوط بينها. وأحسّ في نهاية المطاف بالاسترخاء، فأطلق العنان لأفكاره وأحاسيسه التي ملأته بالانفعال. راح من فترة إلى أخرى يمدّ يده داخل قميصه، ويقلب المرآة، وفي كل مرة يشعر بجيشان حبوره وعدم تصديقه، وهو يشعر بأن ذهنه يتركز مثل نبع مضغوط، ثم يطلق طاقته في موجة قوية قصيرة. ودهش عندما شعر بأن لذهنه القوة ذاتها التي تتمتع بها يداه، ليس بالقدرة على الإمساك فقط، ولكن على تغيير الأشياء أيضاً.

إنها بطبيعة الحال القوة ذاتها التي تمتلكها العناكب، ومرة أخرى طغت عليه فكرة بسيطة ولكنها أساسية، وهي أن البشر أصبحوا عبيداً لعادة تغيير العالم باستخدام أيديهم، أما العناكب فتتمتع بميزة هائلة، وهي أنهم لم يشكلوا قط مثل هذه العادة.

بدا الأمر فجأة منافياً للطبيعة، أن يعيش البشر فوق الأرض لعدة ملايين من السنين دون أن يكتشفوا الاستخدام الحقيقي للعقل، بل والأمر المؤسف على نحو مروع، هو أن بعضهم، مثل العبيد، فقدوا تماماً أذهانهم، مثل أسماك البحار العميقة التي فقدت قدرتها على الإبصار.

جعله التفكير في العبيد يتلفت حوله، فوجدهم قد تخلّوا عن السير في صفوف، وراحوا يتحركون بتثاقل وأكتافهم مقوسة، والبعض يجرّ نفسه جرًّا بعد أن تأخروا عن الباقين مسافة خمسين متراً. ركز نيال إرادته وأرسل أشعة آمرة، فأثارت النتيجة دهشته، فقد ترنح عدد من أقرب العبيد، وكأن هبة ريح عاتية قد لطمتهم، أما أولئك الذين في المؤخرة، فأخذوا يهتزون بعصبية ثم وقفوا في وضع الانتباه. أصابت الصدمة والحيرة الجميع. حاول مرة أخرى، ولكن برفق، فانتظم العبيد في صفوف في الحال، وألقوا برؤوسهم إلى الوراء وراحوا يسيرون مثل جنود مدرّبين. شعر بقوته نتيجة لرد فعل العبيد، وأحس بفورة حيوية هائلة. اعتقد لخمس دقائق ـ حتى خف انتباه العبيد ـ أنهم ينتمون جميعاً لكائن عضوي واحد ـ لعله حشرة ضخمة من ذوات الأربع والأربعين تسير فوق جيش من القوائم المتعددة.

انتهى فجأة صفّ البنايات، ووجدوا أنفسهم يطلّون من فوق تل خفيض على مزارع مفتوحة، وحقول مزروعة بالشعير والخضروات. مروا بجانب بستان، حيث راح العبيد يقطفون الفاكهة، وتشرف عليهم امرأة لعلها أخت أودينا. حيّاها نيال إذ أدرك أنها تتوقع ذلك، وطلب من العبيد أن يفعلوا الشيء ذاته. حذرته دهشتها بأنه قد ارتكب خطأ بهذه التحية، فقام بصياغة ملحوظة ذهنية ليتجنب إيماءات مسرفة.

توغل الطريق بعد ميل في منطقة ذات أشجار كثيفة، غطت الشارع بأغصانها الخضراء الزمردية. وشعر بالارتياح لأنه سمح للعبيد بالسير على راحتهم، وبخطى بطيئة. مروا بجانب جدول صغير، جرت مياهه تحت الطريق، وهي تترقرق فوق الحصى. هبط العبيد إليه، وأخذوا يلهون في المياه الضحلة، بينما شعر نيال ببرد مؤلم في قدميه وكاحليه.

رأى عند سفح التلال باتجاه الشمال الغربي، بعد أن خرجوا من منطقة الأشجار، سلسلة من الأبراج الحمراء تماثل أبراج الكنائس لولبية الشكل. التفت نحو أقرب عبد، وهو شابّ أحول العينين، وشفته العليا مشقوقة، وسأله: «ما هذا؟».

ـ كراشفيل .

ـ كراشفيل؟

أومأ الشاب مبتهجاً، وصاح: «طاخ!» وراح يلوّح في الوقت ذاته بذراعيه مقلداً حركة انفجار. أخذ العبيد الآخرون يتضاحكون ويقهقهون، وهم يكررون كلمة «طاخ!» بطبقات صوت مختلفة تراوحت بين الزئير الخفيض والصيحة المنفعلة. لا بد وأن تكون كلمة كراشفيل هي كناية عن مدينة خنافس المدفعية.

التقوا، بعد نصف ساعة، برجل طويل القامة أصلع الرأس، يرتدي ثوباً أصفر، ويضع ظلالاً خضراء اللون في عينيه. بدا وجهه أحمر ومنهكاً.

ـ أين كنت؟ لقد تأخرت!

قال نيال: آسف. لم يرغبوا في السير بسرعة.

ـ أين سوطك؟

ـ ليس عندي سوط.

زأر الرجل وتطلع إلى السماء، وقال «سأعيرك سوطي». ثم أخرج من جيب كبير في ثوبه سوطاً جلدياً ملتفاً، نظر إليه العبيد بعصبية. قال نيال: لا أعتقد أنني أعرف طريقة استخدامه.

ـ سأريك في الحال.

فك السوط، وطرقعه، ثم التفّ وراء العبيد، وأخذ يضرب به كواحل المتثاقلين، فانضموا إلى الصفوف وهم يهرولون. سار الرجل في أعقابهم لبضعة أمتار، وهو يسبّهم، ويضربهم، ثم أبطأ من سيره، ليمشي بجانب نيال.

ـ أرأيت؟ هذه هي الطريقة الوحيدة لجعلهم يسرعون الخطى.

قال نيال بتواضع: نعم رأيت.

ـ لماذا أحضرت تسعة عشر شخصاً فقط؟

ردّ نيال وهو يحصيهم: لقد كانوا عشرين عندما انطلقنا.

هزّ الرجل كتفيه قائلاً: اعتقد أن أحد العناكب أخذ واحداً منهم.

روّع نيال وقال: أتعني أنه قد تمّ التهام واحد منهم؟

تطلع الرجل إليه مشفقاً وقال: أنت جديد هنا، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ أنت محظوظ لأنك لم تتعرض للالتهام. على أي حال بإمكاننا أن نبدأ عملنا بالتسعة عشر عبداً.

دخلوا مدينة الأبراج الحمراء، ولاحَ كل برج بشكل مخروطي لولبي هائل، وكأنه مصنوع من مادة شمعية لامعة. بدا وكأن عملاقاً أمسك به، وهو مايزال ليناً، وقام بهزّه باتجاه حركة عقارب الساعة. رأى نيال، من خلال الباب عند قاعدة أقرب برج، سلماً صاعداً وفتحات تشبه النوافذ في الجوانب الملتوية، كما شاهد خنفساء مدفعية تحملق فيهم من فتحة بالأعلى، تحت قمة البرج مباشرة. كان يقوم حول قاعدة البرج خندق يبلغ عرضه نحو قدمين، تمددت فيه خنفساء صغيرة، يزيد حجمها بالكاد عن رضيع، وقد عرضت بطنها الأخضر الفضيّ لأشعة الشمس.

ضمّت مستعمرة خنافس المدفعية عدة مئات من هذه الأبراج، تفصل بينها مروج خضراء، وبنايات منخفضة من طابق واحد مشيدة بمادة زرقاء تماثل الزجاج الملون، وذات نوافذ دائرية صغيرة تشبه كوات السفن، ، من الواضح أنها منازل الخدم من البشر. وقد أحيطت البيوت، مثل الأبراج، بمروج خضراء أنيقة، تفصل بينها قنوات مائية وطرق مكسوة بمادة قرنفلية اللون كالرخام. توقف الأطفال الذين يرتدون ثياباً صفراء قصيرة عن اللعب، وراحوا يحدقون فيهم بفضول، وهم يمرون بجوارهم. جلست نساء فاتنات، العديد منهن أمام دواليب غزل، في ظلال المداخل الزجاجية الزرقاء. كان شعر معظمهن طويلاً للغاية، وصل عند بعضهن لأسفل الخصر، بينما قصعته بعضهن فوق رؤوسهن.

تساءل نيال، وهو يشير إلى برج يصل ارتفاعه إلى مثلي ارتفاع الأبراج الأخرى: «مَن يقطن هناك؟».

ـ لا أحد. إنه دار البلدية.

دخلوا الساحة المركزية، حيث رأى نيال المروج الخضراء مستطيلة الشكل تفصل بين الطرق. رأى الآن أن المبنى الأساسي يتكون من نصفين: مبنى من الزجاج الأزرق يعلوه برج أحمر، تفضي سلسلة درجات ملتوية إلى مدخله الرئيسي.

وقف العبيد، وكان من الواضح أنهم جاؤوا إلى هنا من قبل، في صفوف عند أسفل الدرج. وتجاهلتهم خنافس المدفعية، التي راحت تتحرك داخل المبنى وخارجه. وعندما اقترب نيال ورفيقه، خرج رجل يرتدي ثوباً أصفر قصيراً من الباب الرئيسي، وهبط الدرج. تعرّف نيال، رغم بعد المسافة، على الساقين الطويلتين والأنف الأعقف. كان على وشك أن يبتسم ويلوح بيده، عندما نظر دوجنز مباشرة في عينيه. ودُهش لأنه لم يبد أي دلالة تشير إلى أنه تعرف عليه، بل إنه أشاح بعينيه، ووجه كلامه إلى رفيق نيال:

ـ من الأفضل أن تتحركوا، وإلا سنبدأ متأخرين.

ـ هذا ليس خطأي. هذا الشاب، (وألقى نظرة خاطفة شفوقة على نيال) نسي أن يحضر معه سوطه.

نظر دوجنز مرة أخرى إلى نيال، كما لو أنه يتطلع إلى غريب، وقال: هذا إهمال. ليكن. انقلهم إلى المحجر!.

حيّاه الرجل الأصلع قائلاً: سأنقلهم في الحال أيها القائد!
ثم نظر إلى نيال، وقال: وأنت تعال معي!

قال دوجنز بسرعة: لا. سوف احتاجه في الساعة التالية، اذهب أنت مع هؤلاء، ولا تجعلهم يقتربون من الأعمال النارية!

أدار ظهره لهم، وقال بطريقة عرضية: أنت ـ اتبعني!

صعد نيال الدرج في أثره، ودخلا قاعة رحبة خافتة الإضاءة، فشعر بالراحة في الضوء الأزرق الهادىء بعد تعرّضه لوهج الشمس في الخارج، راحت خنافس المدفعية وخدمها تتحرك في نشاط حولها، وتعلو الخنافس فوق البشر. لاحظ نيال فيها روح الصداقة اللاهية، التي أحس بها لدى عناكب الصحراء الجميلة. قاده دوجنز، دون أن ينظر خلفه، عبر القاعة، ودفع باباً كتب عليه: «مدير المتفجرات». لم تكن للحجرة نوافذ، لكن الضوء الأزرق الهادىء تغلغل عبر الجدران، فأشاع جواً لطيفاً على نحو غريب. اقتعد دوجنز كرسياً وراء مكتب ضخم وحدّق في نيال.

ـ إنك آخر شخص كنت أريد رؤيته.
قال نيال، الذي توقّع استقبالاً أفضل من ذلك: آسف.
ـ ماذا عسانا نفعل معك؟

قال نيال معتذراً: لست مضطراً لأن تفعل شيئاً معي. فمن المفترض أنني مسؤول عن العبيد.

ـ أعرف ذلك. وإلى أين ستذهب الليلة؟
ـ سأعود إلى حيّ العبيد.

حدّق دوجنز فيه باستغراب قائلاً: لا بد وأنك قد جُننت، إنهم يبحثون عنك، لقد جاؤوا إلى هنا صباح اليوم.

سأله نيال بسرعة: ما الذي حدث؟
ـ ماذا تظن؟ لقد وعدناهم بالبحث عنك، وإعادتك إليهم إذا ما قبضنا عليك.

ـ وهل ستفعلون ذلك؟

هزّ دوجنز كتفيه بعصبية وقال: اسمع الآن يا بني! لا بد وأن تفهم أمراً واحداً وهو أننا توصلنا إلى اتفاق مع الحشرات، يقضي بأن لا يتدخل أحد في شؤون الآخر. وإذا ما أويناك، واكتشفت هي ذلك، ستقوم الحرب. ونحن لا نستطيع أن نخاطر بذلك. كان ينبغي عليّ ألا أتبادل معك الحديث الآن.

نهض نيال واقفاً، وقال: آسف جداً. لا أريد أن أسبّب لكم المتاعب سوف أرحل.

هدأت حدّة غضب دوجنز قليلاً، وقال: إلى أين تعتقد أنك تستطيع الذهاب؟

ـ سوف اختبىء في مكان ما، حتى يحين وقت العودة.

ـ ليس هناك طائل من وراء ذلك. إنها لن تعود إلى هنا للبحث عنك، ومن الأفضل أن تبقى هنا وتتصرّف بشكل طبيعي، وإذا سألني أحد، فإنني لا أعرف شيئاً. اتفقنا؟

أومأ نيال قائلاً: اتفقنا.

حدق دوجنز في عينيه لفترة طويلة، ثم قال في النهاية: إذن لقد عرفت حقيقة الأمر.

ـ نعم.

ـ لقد حذرتك. وقلت لك إنها ستقتلك، إذا ما اكتشفت ذلك.

ـ أدري.

عمّت فترة صمت طويلة أخرى، ثم قال دوجنز: إن أملك الوحيد هو في عودتك إلى بلادك. وقد نتمكن من تهريبك فوق أحد مراكبنا.

ـ إن هذا لعطف كبير منك، ولكنني لا أريد العودة، فأنا لا أستطيع ترك أمي وأخي.

ـ لن يكون بمقدورك مساعدتهما، وأنت في عداد الموتى.

ـ سأحاول الاختباء في حي العبيد.

ـ ستعثر عليك عاجلاً أو آجلاً.

ـ ربما. ولكن ليس بمقدوري الاستسلام، وليس أمامي سوى المحاولة.

هزّ دوجنز رأسه ساخطاً وقال: أية محاولة؟ ما الذي تأمل تحقيقه؟

نظر نيال في عينيه وقال: القضاء على العناكب.

ابتسم دوجنز ساخراً، وقال: وكيف يمكنك تحقيق ذلك؟

ـ إن العناكب ليست أقوى، من الناحية الجسمانية، منا، وكل ما تمتاز به علينا هو

أنها تتمتع بقوة إرادة أقوى. وهذا لا يختلف كثيراً عن تفوّقنا عليها بعضلات أقوى، ويمكننا الدخول معها في قتال إذا ما استخدمنا ذكاءنا.

حدق دوجنز فيه متأملاً، وقال: نعم. الآن عرفت السبب الذي يجعلها تراك خطيراً.

أدرك نيال أنه كان يركّز انتباهه ـ دون أن يقصد ـ من خلال مرآة التأمل، مما جعل كلامه مقنعاً لدوجنز، فاستغلّ الفرصة قائلاً:

ـ بإمكانكم أن تنسفوا مدينة العناكب بأكملها بمتفجراتكم.

ـ نستطيع بطبيعة الحال، إذا ما كان لدينا ما يكفي من المتفجّرات. وهذا غير متوفر، كما أنها تعرف أننا لن نفعل ذلك.

ـ لماذا؟

ـ لأن الخنافس لن تأمرنا مطلقاً بذلك.

ـ ولكن لماذا تكون خادماً؟ لقد كان البشر في وقت من الأوقات سادة الأرض.

ضحك دوجنز وقال: ثم حدثت فوضى دموية نتيجة لذلك! أتريد حقاً أن تعرف سبب كراهية الحشرات للبشر؟ تعال معي وسأريك.

نهض واقفاً، وقاد نيال إلى القاعة، التي بدت خالية تماماً. صعدا سلسلة قصيرة من الدرجات، وتوقّفا أمام باب مصنوع من معدن ذهبي اللون. سحبه دوجنز ليفتحه، وأومأ إلى نيال ليتبعه إلى الداخل، فألفى الحجرة مظلمة.

دوى بعد لحظة صوت تحطّم هائل، أعقبه بريق ضوء يغشي البصر. قفز نيال للخلف، فاصطدم بدوجنز، الذي أمسكه من مرفقه، قائلاً: «أثبت! كل شيء على ما يرام، قف هادئاً!».

حدّق نيال، الذي ظل يرتعش بفعل الصدمة، بدهشة يلفّها الرعب. وتحوّل الجدار المواجه إلى مساحة شاسعة من السماء الزرقاء، تتخلّلها سحب بيضاء، وعبر هذه المساحة اندفعت آلات، عرف أنها طائرات، محدثة زئيراً يصم الآذان. تغيّر المنظر على حين غرة، ووجد نفسه ينظر من داخل طائرة إلى أسفل، ويشاهد أشياء ذات أشكال بيضاوية تهوي نحو الأرض. استمر سقوطها حتى صغر حجمها، وأصبحت مجرد نقاط ثم اختفت. رأى تحته سلسلة من الدخان الأبيض في خط مستقيم. كانت الانفجارات هذه المرة بعيدة ومكتومة الصوت.

وحينما تعودت عيناه على الظلام، وجد نفسه في قاعة رحبة أخرى، ويقف أمام أعداد من خنافس المدفعية، أحس بانتباهها البالغ. وأدرك الآن أن المشهد الذي كان يشاهده ليس نوعاً من السحر، وعرف من ضوء مخروطي متموج فوق رأسه أنه مجرد صورة تسلط على شاشة بعرض الحائط.

أمسكه دوجنز من مرفقه، وقاده وسط الظلام إلى كرسي اقتعده دون أن يشيح بعينيه عن الشاشة. كان يشاهد غارة بالقنابل على مدينة كبيرة، وراح يلهث وهو يرى حجم الدمار، والبنايات العالية وهي تهتز بعنف، ثم تنهار على الأرض، مثيرة سحابة من الغبار. ارتفعت النيران لتصل إلى السحب التي اصطبغت باللونين الأحمر والأصفر، ثم تحولت إلى دوامة من الدخان الأسود. ووجّه رجال الأطفاء خراطيم المياه إلى ألسنة اللهب، قبل أن ينهار مبنى آخر فوقهم.

همس دوجنز في أذنه: هذا مجرّد فيلم قديم، وليس حادثاً حقيقياً، ولكنه سيأتي بعد ذلك.

قال نيال: إنه أمر مروع.

ـ لا تجعلها تسمعك تقول ذلك. إنها تعتقد أنه أمر رائع.

أصبحت الشاشة بيضاء للحظة، ثم سُمعت موسيقى عسكرية مدوية، وأعلن رجل بصوت عميق: «تدمير». سمع عاصفة من التصفيق من جمهور الحاضرين، فمن الواضح أن هذه هي الفقرة الأثيرة لديهم. ظهر على الشاشة برج شبه دائري، تم تصويره من أسفل، حتى تبدو جدرانه سامقة مثل سطح جرف هائل. ثم تحركت آلة التصوير، بحيلة ما، في الهواء ببطء، وارتفعت نحو سقف المبنى. وأكد الوقت الذي استغرقته هذه العملية، مدى ارتفاع البرج الهائل، الذي صوّرته في نهاية المطاف آلة التصوير من أعلى. تراجعت لمسافة آمنة، فكتم نيال أنفاسه. ورأى سحابة من الدخان عند إحدى زوايا المبنى، ثم سحابة أخرى. وعندما شاهد الثالثة بدأت الجدران تهتز، ثم راحت تتداعى ببطء، وتصاعدت سحابة من الغبار عندما انهار البرج ليتحول إلى كومة من الدبش. كان على نيال أن يعترف بوجود شيء ما رائع في هذا المشهد.

استمر الفيلم على هذا المنوال؛ ناطحات سحاب، مبانٍ، مداخن مصانع، بل وكاتدرائيات، جميعها ينهار ليثير السحابة ذاتها من الغبار والدخان، وكلما انهار مبنى على الأرض، تصفّق الخنافس تصفيقاً حادًّا ـ وبدا أنها تفعل ذلك بحكّ قرونها معاً.

كانت هذه تجربة مرهقة لأعصاب نيال. وعندما قلب مرآة التأمل نحو صدره، تمكن

من استيعاب تأثير التجربة بالكامل، وعرف أنها حقيقية. لقد مكنته الرؤى داخل البرج الأبيض من إدراك مدى الدمار البشري. ولكن هذه الصورة الشاملة التي لا تنتهي من أعمال العنف، جعلته يدرك أنه لم يستوعب بعد مدى فداحتها. شاهد فيلماً قديماً عن الحرب العالمية الأولى، وعمليات القصف بالمدفعية التي سبقت هجوماً، ورأى الجثث وقد خرجت الأحشاء منها، ملقاة فوق الأسلاك الشائكة، كما شاهد جرائد مصوّرة عن أحداث الحرب العالمية الثانية وعن إسقاط القنابل فوق المدن غير الحصينة. وكانت هناك مادة في السجلات عن إسقاط أول قنبلتين ذريتين على اليابان، ثم اختبار القنبلة الهيدروجينية فوق «بيكيني أتول». وحينما ارتفعت سحابة الدخان فوق الأرض، وكشفت النقاب عن اختفاء أتول من الوجود، أصيبت الخنافس من هول الصدمة، فعجزت عن التصفيق.

لكزه دوجنز قائلاً: أيكفي ما رأيت؟
- أظن ذلك.

لكنه ظل مركزاً عينيه على الشاشة حتى وجد نفسه في الخارج في ضوء النهار. أحس بأن هناك أمراً فاتناً في العنف جعله يشعر وكأنه منوم مغناطيسياً. انتابه إحساس غريب، عندما وجد نفسه في القاعة الخالية، يماثل الاستيقاظ من حلم.

اضطر نيال أن يستر عينيه، وهما يسيران في ضوء الشمس، كما شعر بأنه يدخل في حمّام ساخن، بعد أن تعوّد على برودة المبنى.

- كم يستمرّ هذا العرض؟
- بقية فترة العصر. إن لدينا نحو مائتي ساعة من العرض السينمائي.

- هل شاهدت الخنافس هذا من قبل؟
- عشرات المرات، لكنها لم تشعر بالضجر قط.

بدت المروج الخضراء حول المباني المتناسقة، كأنها خيالية. شعرا بأن السلام يحوم فوقهما مهدداً، بعد صوت الانفجارات التي لا تنتهي.

اجتازا الساحة، واقتربا من بيت ينتصب في الزاوية، أكبر من البيوت الأخرى المجاورة له، وراحت المياه تخرج من نافورة في وسط المرج. وجدا نحو عشرة أطفال يلهون بأقدامهم في المياه الخضراء، العديد منهم لهم أنوف تماثل أنف دوجنز المميزة. وعندما رأوا دوجنز، هرع نحو ستة منهم عبر الحشائش نحوهما، ولفوا أذرعهم حوله. خرجت فتاة جميلة ذات شعر أسود من البيت. قائلة: «دعوا أبي وشأنه! إنه مشغول».

عاد الصبية، على مضض إلى النافورة. دُهش نيال عندما رأى الفتاة تمسك بيدي دوجنزَ وتقبلهما، فبدا مرتبكاً، ثم قال «إنها زوجتي سليما».

شعر نيال بشيء من الغيرة، فقد بدت الفتاة أكبر قليلاً في السن من دونا. ثم ذُهل عندما جثت الفتاة على ركبة واحدة، وأمسكت بيده وقبلت راحتها.

تنحنح دوجنز، وقال: فلتحضري لنا شيئاً نأكله!

ـ نعم يابل.

واختفت داخل البيت.

قال دوجنز: إنها فتاة في غاية الرقة.

عندما دخلا البيت، سمعا صوتاً يقول: مَن القادم؟

ـ أنا، يا حبيبتي!

ظهرت امرأة بدينة رقيقة الملامح شقراء الشعر من المدخل. أمسكت هي أيضاً بيدي دوجنز وقبلتهما.

قال دوجنز: إنها زوجتي «لوكريتيا».

ابتسمت المرأة لنيال ابتسامة مشرقة، فجعل الضوء الأزرق الآتي من الممشى أسنانها تبدو كأحجار كريمة.

قالت له: أنا زوجته الأولى.

ندّت عن نيال، الذي أُخذ على غرة، ابتسامة غير مريحة.

سألت لوكريتيا دوجنز: ما اسمه؟

ـ السيد ريفرز.

ـ هل هو بل؟

ـ لا، مجرد رجل.

اختفت داخل أقرب مدخل، وهي تقول: يا للأسف!

ألقى نيال نظرة خاطفة على المطبخ، حيث تقوم عدة فتيات بإعداد الطعام.

قال نيال، وهو يشعر بالحيرة: ماذا كانت تعني عندما سألت: هل أنا بل؟

ـ لقد قلت لها إن بل يعني «رجلاً يتمتع بالقوة والعظمة». لقد كانت تجاملك.

قاد دوجنز نيال إلى حجرة رحبة ذات أثاث مريح. وهبّت فتاة نحيلة ذات ذراعين عاريتين، كانت تجلس على الأريكة، واقفة وقبلت يديه، وعندما جلس جثت وخلعت خفّيه.

ـ هذه هي «جيسيلا» الزوجة رقم ثمانية، وهذا السيد ريفرز صديقي الأثير.

ألقت الفتاة نظرة سريعة خجلى إلى نيال، ثم أشاحت بعينيها وتضرّجت وجنتاها، فخمن أنها أصغر سناً من دونا. سألت زوجها:

ـ أتريد أن أغسل قدميك الآن؟
ـ لا، احضري لنا بعض الجعة الباردة.
ـ حاضر يا بل!

لاحظ نيال أنها نطقت اسمه بوقار، كما لو أنها تقول له «يا سيدي».

قطب دوجنز، حينما أصبحا بمفردهما، وقال: «لعلك فهمت الآن سبب عدم رغبتي في إقحام نفسي في أي حرب مع الحشرات؟».

قال نيال بحزن: نعم.

ـ إن الأمر لا يعني انني لا أريد مساعدتك، لكنك لن تتمكن من الانتصار عليها بأية طريقة.

وعندما لم يحر نيال رداً، واصل حديثه قائلاً: إنني أعني، أن نكون واقعيين. ثمة ملايين العناكب، ماذا بمقدور أيّ منا أن يفعل ضدها؟

هزّ نيال رأسه بعناد قائلاً: لا بد وأن هناك وسيلة، وإلا ما خافت منا. لماذا تخاف منا؟

هزّ دوجنز كتفيه قائلاً: لأننا نتمتع بروح تدميرية، وهذا هو السبب. لقد شاهدت الأفلام.

ـ إذن لماذا لا تخشاك؟ إنك تعرف أسرار المتفجرات.
ـ ولماذا تخشاني؟ إن الأمور تسير على ما يرام، بل إن بمقدوري أن أصبح في غضون عشرة أعوام مراقباً عاماً.

دخلت الفتاة الشقراء الحجرة، تتبعها عدة فتيات يحملن الصحاف. وضعت طاولة منخفضة بين نيال وزوجها، ونشرت فوقها قطعة قماش بيضاء، وسألت وهي تصبّ الجعة:

ـ هل قضيت صباحاً جيداً، يا عزيزي؟
ـ جيدجداً. إنك تعرفين ماذا يعني يوم التفجيرات.
ـ ما الذي تريده تلك العناكب؟
ـ إنها تبحث عن عبد هارب.

ـ عبد؟ كل تلك العناكب؟ ما الذي فعله؟

تجنب دوجنز عيني نيال وهو يقول: لا أعرف، إنها لم تحطني علماً.

حفلت المائدة الآن بأصناف عديدة من الطعام: المحار، بلح البحر، بيض السمان، طيور مشوية صغيرة، وأنواع عديدة من السلاطة والخضروات. كانت الجعة ذات لون بني قاتم، وشعر نيال بقوتها بعد أن احتسى نصف كوب لإخماد ظمأه. قدمت الفتيات، قبل أن يتناولا الطعام، أواني من الماء الدافىء ليغسلا أيديهما، ثم جفّفاها بمناشف ناعمة كريش النعام، وانسحبت النساء بعد ذلك بهدوء.

ركز الاثنان كل اهتمامهما في الطعام. انتاب نيال شعور بالاكتئاب لكنه لم يكن بغيضاً تماماً، فقد أدت رؤيته لهذا العدد الكبير من الفتيات الصغيرات إلى تذكره لدونا، فأحس بأنه يفتقدها.

كان من الواضح أن دوجنز غرق في التأمل، فقد بدا شارداً وهو يأكل بيض السمان بالصلصة البيضاء، وراح ينظر إلى نيال بين الفينة والأخرى من تحت حاجبيه الخفيضين.

قال له في نهاية المطاف: افترض أننا تمكنا من التوصّل إلى صفقة مع العناكب. . . إنني لا أعد بشيء، ولكن افترض أننا تمكنا من ذلك، ألن يحلّ ذلك مشكلتك؟

ـ أيّ نوع من الصفقات؟

ـ افترض أنها وافقت على السماح لك بالبقاء والعمل معنا؟

سأل نيال بحذر: ما الذي يجعلك تعتقد أنها ستوافق؟

ـ إنها تدين لنا ببعض الأمور، وأظن أنها تشعر بالقلق لأنها تخشى أن تسبب لها المتاعب. أليس كذلك؟ وإذا ما استطعنا أن نضمن لها ـ وشدد على الكلمة الأخيرة ـ أنك لن تثير المتاعب، فإنها من المحتمل أن توافق على الصفقة.

ـ وسأقيم هنا. . . وأعمل مع الخنافس؟

ـ سوف تعمل معي. إنني بحاجة إلى مساعد جديد. ألديك أية خبرة في المتفجرات؟

ـ لا.

ـ لا يهمّ، فسرعان ما تتعلم. إن تصنيع البارود أمر سهل ـ ملح صخري، كبريت، وفحم نباتي، وكل ما يتعينّ عليك أن تفعله هو أن تحدّد الكميات المناسبة. أما تصنيع الديناميت فهو أكثر صعوبة ـ لقد نسف مساعدي الأخير نفسه، وهو يصنع النتروغلسرين. ولكنك لن تقوم بهذا العمل. إن وظيفتك الأولى ستكون تقطير منتجات قطران الفحم.

ثم راح يشرح لنيال، أثناء تناوله الطعام، مبادىء التقطير الجزئي.

على الرغم من أن نيال بدا منصتاً بانتباه، كان ذهنه شارداً، ولم يستطع تصديق أن العناكب ستسمح له بأن يكون خادماً للخنافس، مع ذلك فقد بدا أن دوجنز كان واثقاً من نجاح الفكرة، التي رآها مغرية. لم يفكر سوى في أن يعيش في بيت مثل هذا مع دونا. شعر أن هذا التفكير يماثل أحلام اليقظة.

صبّ دوجنز الكأس الأخيرة من الجعة في جوفه، ودفع بكرسيه إلى الوراء، ونهض واقفاً. ربت على كتف نيال قائلاً له: لا عليك أيها الفتى! إن دوجنز القوي، العظيم يتمتع بقدر من النفوذ، سأمضي الآن لتغيير ملابسي. احتسِ الجعة!

شعر نيال بالسرور لأنه قد أصبح بمفرده، حيث وجدها فرصة كي يلملم أفكاره. ما أثار قلقه الآن، هو ما سيحدث إذا علمت العناكب بمكانه. وإذا ما أسرته، فسيصبح في وضع أسوأ من ذي قبل، وإذا لم تقتله فسوف تأخذ كل الاحتياطات، التي تحول دون منحه فرصة أخرى للهرب. إذن هل يخاطر بالسماح لدوجنز أن يسعى للتفاوض بشأنه؟

وحتى إذا ما سمحت له العناكب بالبقاء حراً، فهل سيكون في وضع أفضل؟ فالخنافس حليفة للعناكب. وبالتالي فإن العمل معها سيكون سيّئاً مثل العمل مع العناكب.

وكلما أكثر من التفكير في هذا الموضوع، تراجعت قدرته على تصور أي حل. راح يتجول بهدوء في أنحاء الحجرة، وقد وضع يديه في جيبيه، ويتوقف في كل مرة يصل فيها إلى النافذة للتحديق في النافورة. لقد دخل الصبية الآن إلى بيوتهم، فبدا المكان مهجوراً على نحو غريب، والمياه المندفعة منها تنطلق إلى ضوء الشمس، وكأنها تحاول الهرب في السماء، ثم تتقوّس لتعود مرة أخرى إلى الأرض، مثل أفكاره.

لفتت انتباهه رعشة في أصابع يده اليمنى، فقد كانت أطراف أصابعه تداعب القضيب المتداخل. أخرجه، ووضعه في راحة يده متأملاً، فشعر بإحساس غريب بالراحة من ثقله. ثم ضغط على الزرّ، فتمدد القضيب. دُهش من حدّة إحساسه بالوخز، الذي أقام اتصالاً مع بشرته الرطبة إلى حدّ ما. كانت الذبذبة أقوى من أية ذبذبة شعر بها من قبل. ركز كل انتباهه على الذبذبة، وهو يمسك بالقضيب بين الإبهام والسبابة.

تحدّث صوت السيد ستيج داخل صدره بنبرة واضحة جعلته يقفز.

ـ حدّثه عن الحصن!

أصبح ذهن نيال، للحظة، مصمتاً. تساءل في حيرة: «الحصن؟». كان قد نسي بالفعل معنى الكلمة. ولكنه بمجرد أن تكلّم، تلاشى الإحساس بالوخز. حدّق في

القضيب، وقد شعر بالاضطراب والإحباط، وتساءل عن جدوى محاولة إعادة الاتصال. تناهى إلى مسامعه، في تلك اللحظة، صوت دوجنز في الدهليز، فضغط على الزرّ، فانكمش القضيب. وعندما دخل دوجنز الحجرة، كان قد وضعه في جيبه.

بدا دوجنز أنيقاً على نحو غير متوقّع، فبدلاً من الرداء الأصفر المتّسخ، ارتدى ثوباً أسود فضفاضاً له سلسلة ذهبية حول الخصر، كما انتعل خفًّا جلدياً أسود اللون، واعتمر قلنسوة سوداء جعلته يبدو راهباً.

ـ هل تأهّبت؟ من الأفضل أن نتحرّك.

وقفت النساء والصبية، في الدهليز، بانتظارهما، وقد ارتدوا ملابس ذات ألوان مبهجة. كانت لوكريتيا هي الاستثناء الوحيد، إذ أنها ارتدت ثوباً من الكتان الأسود، لتؤكّد على ما يبدو مركزها كزوجة أولى. وعندما خرج دوجنز ونيال إلى ضوء الشمس، تحركت الأسرة بنظام، الأطول في المقدمة، والأقصر في المؤخرة.

اجتازا الحشائش أمام مبنى البلدية، ثم سارا بامتداد الطريق الرئيسي. بدا أن كل ساكن في المدينة يمضي في الاتجاه ذاته، وسار الخدم من البشر حاملين الخنافس ذات الظهور الخضراء الزمردية، والرؤوس الصفراء الزاهية، التي راحت تتبادل أطراف الحديث فيما بينها بصرير كالصفير. بدا الانفعال والمرح على البشر، ولم يكترث أحد عندما تعلّق الصبية بقوائم الخنافس. دُهش نيال للعلاقات الودّية اليسيرة القائمة بين الخنافس والبشر. فقد بدا أن هذه الكائنات الضخمة ذات الظهور المدرّعة لا تثير الخوف أو التبجيل، وذلك على عكس العناكب، بل إنها أليفة بشكل رقيق.

تذكّر نيال فجأة، عندما تجاوزا الساحة، الكلمة التي كان يحاول تذكّرها. فسأل دوجنز: «ما هي الثكنة؟».

ـ إنها المكان الذي يؤوي الجنود. لِمَ؟
ـ لقد رأيت الكلمة فوق خريطة قديمة.

ألقى دوجنز نظرة سريعة عليه، وقال: «خريطة لمدينة العناكب؟».
ـ نعم.
سأله دوجنز بصورة عرضية: بالمناسبة، أليس اسمها الحصن؟
ـ أجل. وكيف عرفت؟
هزّ دوجنز كتفيه قائلاً: لقد سمعت شائعات عنه. أتظن أن بمقدورك وصف مكانه؟
ـ أعتقد ذلك. إنه في حيّ العبيد.

وصلا إلى مشارف المدينة، ودهش نيال وهو يرى أن أحد الأبراج الحمراء مايزال قيد البناء، وأن سحابة هائلة من الحشرات الذهبية تحوم وتطنّ حول الجدران غير المكتملة.

سأله: ماذا تفعل؟

ـ تقوم ببنائه.

سأل نيال في دهشة: الحشرات؟

ـ هذا صحيح. إنها تسمى الذباب الصمغيّ.

كان الطنين يصمّ الآذان، عندما اقتربا من البرج. صاح نيال وسط الضجيج: «أتشيده لنفسها؟».

ـ لا.

توقّف دوجنز، فتوقّف طابور زوجاته وأطفاله أيضاً، وقال: إنها تعيش في أعشاش من أوراق الأشجار الملتصقة معاً بالصمغ.

ـ إذن كيف تجعلها تقوم ببناء البيوت؟

ـ إنها مدرّبة تدريباً خاصاً، انظر!.

عبس وقطب جبهته، وحدق في الحشرات الذهبية، التي بدأت تستقر، بعد لحظة، فوق الجدران. ثم توقف الطنين، في نهاية الثلاثين ثانية، وأخذت الحشرات تزحف فوق ظهور بعضها البعض. تحدرت قطرات من العرق فوق وجه دوجنز. تنهّد واسترخى، فشرعت الحشرات، في الحال، في الطيران من جديد.

بدا دوجنز مسروراً بنفسه.

ـ كيف فعلت ذلك؟

ـ إنها مدرّبة على الاستجابة للأوامر الذهنية. لماذا لا تحاول ذلك؟

حدق نيال في الذباب الصمغي وركز انتباهه. أدرك في الحال وجود كل حشرة على حدة، كما لو أنها قد أصبحت جزءاً من جسمه. مثل أصابع يديه أو قدميه، بل إنه عرف عددها بدقة: ثمانية عشر ألفاً وسبعمائة وثماني عشرة ذبابة. ولكنه تذكر، وهو على وشك بثّ أمر ذهني إليها لتستقرّ، قراره السابق بتجنّب أية إيماءات مسرفة، فغيّر رأيه.

ـ أخشى ألا أستطيع القيام بذلك.

ابتسم دوجنز متعاطفاً، إلا أنه بدت عليه دلائل الارتياح، وهو يقول: «لا. إن الأمر يحتاج لكثير من التدريب».

أدرك نيال الآن، وهما يواصلان السير، أن لحظة التقمّص العاطفي مع الذباب الصمغيّ قد ولدت إحساساً بالاتصال مع مجرى الحياة المتدفّق حوله، يختلف على نحو مدهش عن الشعور الذي انتابه ذلك الصباح، وهو يقف في الساحة بين العبيد. شعر بأنه قد بات بين آخرين مثله، بشراً يتمتعون بالقدرة ذاتها على التفكير والسيطرة على أنفسهم. لم يكن هناك سوىٰ اختلاف واحد؛ هو أنهم لا يعرفون أنهم يمتلكون هذه القدرة.

سأل دوجنز عرضاً: كيف تعلمت السيطرة على الذباب الصمغيّ؟

ـ إنه ليس أمراً صعباً. لقد تعوّدت أن تسيطر عليها الخنافس. ونظراً لأنني قضيت وقتاً طويلاً مع الخنافس، فقد أصبحت على الموجة الذهنية ذاتها، وبالتالي فإنني أستطيع القيام بالشيء نفسه. . .

إنه مخطىء بطبيعة الحال، فالأمر ليس له علاقة بالموجة الذهنية؛ بل هو يتعلّق بقوّة الإرادة. وقد انتابت نيال رغبة في توضيح الأمر، لكنه رأى أن هذا ليس الوقت أو المكان المناسبين لذلك.

استدار الطريق، بعد نصف ميل من تجاوز حافة المدينة، فوجد نيال نفسه، على حين غرة، يتطلع إلى حفرة هائلة في الأرض، فأصابه شعور بالدوار.

ـ ما هذه؟

ـ محجر رخام قديم.

ـ ولكن من حفره؟

قطب دوجنز قائلاً: بشر.

رأى نيال، من حافتي المحجر العميقتين، طبقات جيولوجية مطمورة، كان لون أعرض طبقة فيها مماثلاً للون الطريق تحت أقدامهما. بدا واضحاً أن هذا هو مصدر المادّة التي يمهّد بها الطريق.

هبط الطريق إلى المحجر متخذاً شكل المنحدر البسيط، تدافعت خنافس المدفعية والبشر إليه في طابور مبهج الألوان. رأى فوق أرضية المحجر عشرات من الخيام الملونة، كانت إحداها ـ ولها خطوط خضراء وبيضاء ـ أكبر بكثير من الأخريات، كما تناهى إلى مسامعه صوت جعل قلبه يثب في مرح مفاجىء: ضجيج الآلات النحاسية الموسيقية، التي راحت تعزف في تناغم.

استغرق هبوطهما للقاع نصف ساعة. كان مايزال هناك العديد من برك المياه الكبيرة نتيجة لهطول الأمطار في الليلة السابقة، وراح الصبية يَعْدُون، وهم حفاة الأقدام وسط

هذه البرك، ويتضاحكون، وهم يلهون بالماء، بينما تجمّع صبية آخرون حول مشهد قراقوزي بالدمى. هبّت عليهما روائح طهو طيبة، وسكر محروق من الخيام الملونة. وقف أعضاء الفرقة النحاسية، يرتدون ملابس حمراء زاهية، وأوشحة صفراء، فوق منصّة، عبارة عن صخرة طبيعية، وضَخّم مدرّج خلفهم الأنغامَ مثل مكبّر قويّ.

كان هذا الطرف من المحجر يشغل مدرجاً مسقوفاً، يتسع لنحو ألف مقعد، وتغطّيه قبة شفافة، مثل فقاعة ذات لون أخضر فاتح.

قال دوجنز: إذا أردت أن ترى العرض من مكان جيّد، فحاول أن تختار مقعداً في الصف الأعلى. فالعرض سيبدأ في غضون نصف ساعة. سأتركك الآن، فأمامي أمور كثيرة يتعيّن أن أنجزها.

شكره نيال وهو يتطلّع للأمام لاستكشاف العروض الجانبية.
لكن دوجنز عاد بعد لحظة، وقال له بهدوء: إننا نواجه متاعب.

نظر نيال في الاتجاه الذي يحدق فيه دوجنز، وأحس بقلبه ينقبض. فقد رأى وسط الحشود التي راحت تهبط المنحدر، مجموعة من النساء عاريات الصدور، عرف في الحال أنهن القائدات، فأحس للحظة بالذعر.

ـ أتعتقد أنهن يبحثن عني؟
ـ لا. فهن عادة ما يأتين إلى هنا في يوم التفجير.
ـ ماذا عساي أفعل؟

ـ لا عليك. لا أظن أنهن سيتعرفن عليك. فأنت بالنسبة لهن مجرد عبد آخر. ولكن من الأفضل أن تختفي عن أنظارهن.

أشار إلى سرادق مخطّط مواجه للمدرج المسقوف، وقال له: «ستجد العبيد يعملون هناك. أنت تعرف بالفعل موستيج، إنه ذلك الرجل الأصلع الذي قابلته هذا الصباح. امضِ واسأله إذا كان هناك أيّ عمل يمكن أن تؤديه».

دخل نيال السرادق، فألفاه شعلة من النشاط. كانت الأرضية تحتلّها منصّة متقنة، تمثّل جزيرة تغطّيها الأشجار. رست سفينة وسط أمواج زرقاء مقلدة، بجوار خور تصبّ مياهه في البحر. انتشرت فوق الشاطىء أكواخ من القش، وراحت طبيبة ساحرة على صدرها عقد من الجماجم، ترقص حول قدر للطعام حوت بحّاراً بائس الملامح. اكتشف نيال عندما دنا أن الطبيبة الساحرة مصنّوعة، مثل الجزيرة نفسها، من الخشب والورق المعجن، معظمه ماتزال الأيدي تقوم بتلوينه.

رأى نيال في مواجهة خلفية السرادق المفتوحة، جدار المحجر المشدود بالحبال والبكرات. كان يوجد خلف السرادق مباشرة كهف في الصخرة، راح العبيد أمامه يشحنون عربة بالبراميل. بدا الرجل الأصلع مستنزفاً ومرهقاً، وهو يحاول الإشراف على الجميع في وقت واحد. وعندما سأله نيال ما إذا كان هناك أي شيء يستطيع القيام به، قال بعصبية: «ابتعد من هنا!» وعندما حدق فيه قال: «آه. أنت. كان بإمكاني أن أنتهي بمساعدتك منذ ساعتين. أين كنت؟

ـ أساعد السيد دوجنز.

ـ اذهب إلى هؤلاء العبيد، لتحثّهم على الإسراع في إنجاز ما يقومون به! خذ هذا!

وناوله سوطاً. شقّ طريقه إلى الكهف. كان الطريق منحرفاً إلى الجرف، ممتلئاً من الأرض حتى السقف بالبراميل الخشبية وصناديق الذخيرة. وقد سقط أحد هذه البراميل على الأرض فتحطّم، وراح الشابّ الأحول يحاول إعادة البارود بمكنسة. اكتشف نيال في الحال أن المشكلة لا تكمن في إقناع العبيد بالاسراع، ولكن في حثّهم على الإبطاء. فقد انتابهم جميعاً انفعال قويّ نتيجة لجوّ الاحتفال، وراحوا يتدافعون للأمام والخلف مثل النمل الأبيض الذي فقد اتزانه، يدحرجون البراميل، ويسحبون صناديق الذخيرة، ثم يغفلون المهمة التي يتعيّن عليهم إنجازها ويتركون البراميل والصناديق يتعثّر فوقها العبيد الآخرون. وراح شاب أحمر الشعر له ركبتان ملتفّتان، من الواضح أنه مساعد الرجل الأصلع، يبذل قصارى جهده للسيطرة عليهم، لكنه وجد المهمة تتجاوز قدراته.

قدم نيال نفسه، وحدّد بدقة ما يتعيّن القيام به. ثم نظم العبيد وقسمهم إلى ثلاث فرق، وحدّد لكل فرقة مهمّة منفصلة. تظاهر بأنه سيستخدم سوطه، وهو أمر لم يكن ضرورياً، فقد استجاب العبيد لجهد الإرادة المركّز باستعداد ذكّره بالذباب الصمغيّ. بحث فريق عن البراميل في خلفية الكهف، وقام آخر بشحنها فوق عربات يد صغيرة، بينما جرّها فريق ثالث إلى السرادق، حيث تمّ وضعها في فجوة تحت الجزيرة. وفي غضون ربع ساعة، كان العمل قد انتهى، وأخذ الرجل الأصلع ينظر إلى نيال باحترام. وعندما سأله نيال إذا ما كان هناك أي شيء يمكن أن يقوم به، قال له: «احجز هؤلاء العبيد بعيداً عن الطريق، حتى نكون على استعداد للبدء!».

دخل دوجنز في تلك اللحظة، من المدخل الأمامي للسرادق. وعندما لوّح له نيال، قطب وهزّ رأسه وكأنه لا يعرفه. فهم بعد لحظة السبب، فقد سارت في أعقاب دوجنز نحو ست قائدات، وكانت المرأة التي تسير في المقدمة هي أودينا. أدارت وجهها، لحسن

الحظ، بعيداً عن نيال، وراحت تتحدث إلى امرأة خلفها. استدار نيال وهرع إلى الخارج، من خلفية السرادق.

لم يكن هناك أحد الآن في كهف البارود. وجد البرميل المكسور مايزال ملقى على الأرض، وحوله البارود الرمادي المتناثر، فتخطّاه إلى خلفية الكهف، حيث شعر بالجو الرطب، واشتم رائحة فطر نديّ. شعر بسعادة الاسترخاء، بعد اضطرابه في السرادق، واختار زاوية مظلمة وراء كومة من البراميل، جالساً فوق صندوق ذخيرة. أغمض، بعد لحظات قليلة، عينيه وأسند رأسه على الجدار.

أيقظته لمسة خفيفة على خده، فجلس مذعوراً وراح يحدق في الظلال. أحس بحركة خفيفة، وظنّ للحظة أنه ينظر إلى دودة ألفيّة صغيرة. أزاح بحذر برميل بارود حتى يدخل ضوء النهار. لم ير شيئاً سوى انتفاخ فطري أخضر مشوب باللون الأصفر، يخرج من بين شقوق الجدار مثل فطر مشوّه. أخرج القضيب المتداخل من جيبه، ونخسه، فبدا صلباً. تساءل عما إذا كان بمقدور كائن صغير أن يستخدم الفطر كمكان يختبىء فيه، ونخسه بأصبعه، فخرجت شواة كاذبة رمادية صغيرة، مثل أصبع مندّى، من حافة القطر، وحاولت لمس يده. تراجع بصورة غريزية إلى الوراء، إلا أن الشواة الكاذبة بدت غير مؤذية كدودة، فمدّ أصبعه مرة أخرى، وسمح لها بأن تلمسه. دهش عندما وجد أنها قد أصبحت الآن أرفع وأطول، ثم لفّت نفسها بسرعة البرق حول أصبعه، مثل حبل. مدّ يده الأخرى للمس الكائن، لكن شواة كاذبة أخرى خرجت كثعبان من الفطر، وأمسكت بأصبعه. حاول سحبه بهدوء، فشعر بأنها تحكم إمساكه، وتسعى لسحب يده إلى الفطر. سحب يده بشدة على نحو مفاجىء، وحرّر أصبعيه، اللذين اصطبغا بالحمرة في المكانين اللذين قبضت عليهما الشواة.

بدا واضحاً له أنها تماثل الكائن الذي واجهه الليلة الماضية، لكنها أصغر حجماً. فقد ذكّرته الحركات الحذرة المترددة، بقرني حلزون، وطريقة التعلق القادرة على بذل قدر مدهش من القوة. دفع القضيب المتداخل تحت الفطر ورفعه بعيداً عن الجدار. بدا أنه متصل بجذور مركزية، ولكنه رأى عند قاعدة هذه الجذور دائرة من الفتحات الصغيرة مثل أفواه جائعة صغيرة. عندما قرب طرف أصبعه الصغير من هذه الأفواه، انفتحت في الحال وراحت تمصّه، بينما تمددت ست من الشواة، محاولة الإمساك بيده. بدا أنها كانت تخرج من سطح فطري دبق، كما لو أنها تتكون من سائل لزج. عندما حرّر نيال يده، اكتسى طرف اصبعه بمادّة دبقة لزجة، فأخذ يمسح أصبعه في ردائه لينظفه.

استرخى عامداً، وهو يحدق في الشواة الكاذبة، وسمح لذهنه أن ينفتح تماماً، وقد

سعى إلى اكتشاف ما إذا كان الكائن حيواناً أو نباتاً. بدا للحظة أن ذهنه يشاركها وعيها الجائع الضاري، ثم انسلّ ذهنه وراء ذلك، وأصبح مدركاً لإحساس الطاقة النابضة، كما لو أنه ينظر إلى الكائن من خلال ترقرق الماء فوق سطح جدول.

ـ ماذا تصنع؟

بدا الصوت مفاجئاً مثل لطمة مباغتة. كان يركز ذهنه على الفطر، فلم يلحظ أودينا وهي تقترب منه حافية القدمين.

كررت سؤالها: ماذا تصنع؟

وجد نفسه يقول: إنني مختبىء.

ـ أدرك ذلك. ولكن مِمّ؟

سمح لقلقه أن يخرج في شكل مزيج من الارتياح والذنب؛ الارتياح لإدراكه المفاجىء بأنها قد سرّت عندما رأته، والذنب لانتهاكه الفوري والغريزي لذهنها. كان يعرفها جيداً، فبدا من الطبيعي تماماً أن يتغلغل في خصوصية أفكارها، ومع ذلك فإنه أحسّ بأنه لصّ يقتحم حجرة نومها.

افسح لها مكاناً فوق صندوق الذخيرة، فجلست بجانبه. لم يكن متأكداً إذا ما كان هذا الاقتراح قد جاء من ذهنه أو من ذهنها. نظر في وجهها للحظة ثم أخذها، بالدافع الغريزي ذاته، بين ذراعيه وقبّل شفتيها. لفّت ذراعيها حول عنقه، والتصقا معاً. بدا الأمر طبيعياً تماماً، وأحسّ كلاهما بالراحة والبهجة لأن هذا قد حدث في نهاية المطاف. أدرك أيضاً أنها كانت تريده أن يفعل ذلك منذ أن ضبطته وهو يُقبّل الفتاة ذات الشعر الداكن في حيّ النساء.

أبعدت نفسها، وعادت إليها طبيعة القائدة المدربة.

ـ ممّ تهرب؟

ـ لقد هربت من المدينة.

ـ ولكن لِم؟

بدت عليها علامات الحيرة. فالعناكب، بالنسبة لها، صارمون، ولكنهم سادة أخيار.

ـ لقد قتلتْ أبي.

ـ أعرف ذلك. وهو أمر مؤسف، لكنه حاول مهاجمة أحدها.

ـ أعرف. ولكنني أجد صعوبة حتى الآن في اغتفار جريمتها.

ـ عليك أن تغفر. إنها السادة، ولا يحق لنا أن ننتقد أيّ عمل تقوم به.

وجد أنه من الغريب أن يتحدّث معها بهذا الأسلوب، فقد أدرك أن كلماتها تتشكل في ذهنها قبل أن تنطقها، وبالتالي فإن هناك تأثيراً غريباً لعمل مؤجل وهي تتحدث. رغب للحظة في أن يقصّ عليها ما قاله كازاك له، ولكنه استبعد الفكرة. فليس من العدل أن يسمح لها بمعرفة أمور كثيرة، فذهنها ليس مهيّأً لتحمّل مثل هذا العبء.

قالت له بدماثة: يجب أن تعود معي إلى المدينة. إنها ستفهم سبب هربك، وسوف تسامحك.

لفّت ذراعيها بشدة حول عنقه، فلم يعد يستطيع رؤية وجهها، وأضافت: ومن الممكن أن تصبح زوجي.

أدرك نيال أن هذا عرض غير عاديّ، مثل أن تعرض أميرة أن تتزوّج من مزارع.

ـ لا تستطيع قائدة أن تتزوّج من عبد هارب.

أخذت وجهه بين يديها، ونظرت في عينيه، قائلة: تستطيع قائدة الزواج من أيّ شخص تحبّه ـ هذه هي الميزة التي تتمتع بها.

قبّلته من جديد، برقّة شديدة هذه المرة، ولكنها أبقت على التلامس لفترة طويلة. بدا أن شيئاً يمرّ من شفتيها إليه، ومن شفتيه إليها ـ تبادلاً لطاقة حيوية. أدرك نيال بعد ذلك أنها لم تترك له أيّ خيار. في الواقع كان من السهل عليه أن يقنعها بالابتعاد، والتظاهر بأنها لم تره قط، وكانت ستفعل أي شيء يطلبه منها، لأنها أحبته. ولكنه إذا ما فعل ذلك، فإنه سيحوّلها إلى خائنة، وسوف يغلب عليها الإحساس بالذنب. عرف أنه من المستحيل أن يفعل ذلك، فقد جعلته يشعر بالحماية.

قال لها: ليكن، سوف أفعل ما تطلبين.

لفّت ذراعيها بشدة هذه المرة حول رقبته، وقبّلته بنهم، واستسلم كلاهما لنشوة هذا الدفء المتبادل. ثم أحسّ نيال بشيء يمسّ شعره، فجفل عندما رأى شواة كاذبة تستكشف قفاه. سألته: ماذا حدث؟

أشار بيده قائلاً: ما هذا الشيء؟
ضحكت وقالت: إنها مجرد فطر رخويّ.

وقفت وسحبت خنجراً من حزامها، وطعنت الفطر، فسقط على الأرض. دهش نيال عندما انحنت وغرزت الخنجر فيه، ثم وضعته في جيب جلدي في خصرها.

ـ ما الذي ستفعلينه بهذا الشيء؟
ـ إنه طعام طيّب.

ثم ربتت على شعره قائلة: «عندما تصير زوجي، سوف أطهوه لك». تناهى إلى سمعهما من الخارج عزف الموسيقى النحاسية، فقالت له: «يتعيّن علينا أن نمضي الآن»، ثم أمسكت بيده.

ـ هل من الصواب أن نُشاهد معاً؟
ضحكت قائلة: ولِم لا؟ إن ذلك سيثير غيرة الأخريات.

شعر نيال، عندما سحبته إلى ضوء النهار، بمزيج من البهجة والحزن؛ البهجة لأنه مع أودينا، والحزن لأنه عرف أن محاولته للهرب قد باءت بالفشل.

نظر دوجنز، الذي وقف في مؤخرة السرادق، إلى نيال بدهشة وذعر. أشاح نيال عنه.
امتلأ المدرج المسقوف بالبشر الذين التصقوا بمقاعدهم، وبخنافس المدفعية التي وقفت فوق منصّات عريضة بين الصفوف. قادت أودينا نيال إلى مقعد، من الواضح أنه محجوز للقائدات. جلست وأفسحت مكاناً له عند طرف المقعد، فألقت القائدات الأخريات نظرات سريعة عليه بفضول واضح، ولاحظ أنهن لا يعرفنه، فقد احتفظت أودينا على ما يبدو بالسرّ لنفسها، ولم تكشف النقاب عنه.

جلس كل أفراد عائلة دوجنز في الصفّ الذي أمامها، وهم يحدقون في السرادق باستغراق تامّ، وأمسك الصبية بأعواد في طرفها قطع حلوى ذات ألوان مبهجة. بدت القبّة الفقاعية الخضراء، من الداخل زرقاء اللون، كما كان زجاجها شفافاً، فكاد ألاّ يكون مرئياً. وبدا أنه يخفّف من حدّة وقدة الشمس، ويحول حرارة عزّ الصيف، إلى دفء هادىء لعصر أحد أيام الشتاء.

راحت أودينا تتحدّث إلى فتاة تجلس بجوارها. نظر إليها نيال بزهو واضح، فبدت أنها الأكثر جاذبية بين القائدات، بشعرها العسلي، ونهديها اللذين لوّحتهما الشمس، وأسنانها البيضاء. أضفت عليها السعادة وهجاً يشعّ من داخلها. هل وقع في غرامها؟ كان السؤال لا معنى له. فهو في السنّ التي يريد فيها أي شخص أن يحبّ، وأن ينجذب إلى أية فتاة تبدي اهتماماً به. وبالنسبة لنيال فإن السؤال عما إذا كان يحبّها، يعد ثانوياً في مواجهة الحقيقة، التي تؤكّد أنها تحبّه.

عزفت الفرقة لحناً آخر، فعمّ صمت تامّ، وتركّزت عيون الجميع على السرادق. راح العبيد يسحبون الأوتاد، التي تثبت السرادق على الأرض. وتقدّم بل دوجنز وانحنى للجمهور، ثم استدار إلى السرادق، ورفع ذراعيه إلى أعلى فوق رأسه في إيماءة آمرة. ارتفع السرادق ببطء في الهواء، مندفعاً إلى الخلف نحو الجرف معتمداً على البكرات المختفية

بداخله، ثم انخفض فوق كهف البارود. تعالى الهتاف والتصفيق عند رؤية الجزيرة. انتقل دوجنز، الذي أثبت قدرته على الترفيه، إلى أحد الجوانب برشاقة. ثم قفز قبطان قرصان ذو لحية سوداء فوق سطح القارب، بساقه الخشبية، وهو يحدق بغضب في الجمهور وزأر قائلاً: «أراكم تنظرون إليّ! إنكم لا تخيفون» «بيجليج بيت»!». واستدار صائحاً: «أيها الرجال! هناك حشد من البلهاء يحدقون فينا! لنذهب إليهم ونقطعهم إرباً!» في تلك اللحظة وقع انفجار مدوٍّ خلفه، وقفز «بيجليج بيت» في الهواء مثل أيل مذعور، فطارت قبعته، وسقط منظاره. علت موجة من الضحك وسط الجمهور، وقامت الخنافس بحركة ارتعاش غريبة، وحكّت قرونها معاً، محدثة صوتاً يماثل صوت صرار الليل. ضحك نيال، الذي كان فن التمثيل الصامت بالنسبة له بمثابة ذكرى بعيدة، بصوت أعلى من الجميع.

استمر العرض الترفيهي. كان بيجليج بيت وطاقمه قد وصلوا إلى الجزيرة بحثاً عن كنز مدفون، وقال بيت إنه يأمل أن يتقاعد ويصبح جلاداً في أوقات الفراغ. لكن الجزيرة كانت مملوءة بأكلة لحوم البشر القتلة (ولعب هذا الدور العبيد بعد أن دهنوا أذرعهم ووجوههم باللون الأسود). كان قائد المدفعية الجديد لبيت - بعد أن التهم حُوتٌ القائد السابق - غير كفؤ، فلم يستطع أن يشعل عود ثقاب دون أن يحدث انفجار. عندما أعطى القبطان إشارة خطر كاذبة ليجذب سفينة عابرة إلى كمين، وأذعن قائد المدفعية بنظرة خبيثة من عينه الحولاء، ضحك جميع الصبية، لأنهم عرفوا أن النتيجة ستكون كارثة أخرى. ولما ظهر قائد المدفعية فوق سطح السفينة بعد لحظة، حاملاً مجموعة من الصواريخ، راح الطاقم بأكمله - بما فيهم بيجليج بيت - يبحثون عن مخبأ، وتزايد الضحك وقرقعة الأقدام، فاضطرّ نيال إلى وضع يديه فوق أذنيه. تفجّرت الصواريخ في كل الاتجاهات، ونجح قائد المدفعية في صدّ هجوم مباغت من الخلف، وتحقّقت المعجزة ولم يصب. بدا واضحاً أنه بهلوان مدرّب.

كانت هناك قصة حب، وجدها نيال شيّقة على نحو أكبر من التفجيرات المتتالية. فقد وقع الرفيق الثاني، وهو شاب شريف، أَسَرَهُ القراصنة في اشتباك، في غرام سيّدة جميلة كانت على متن السفينة التجارية المنهوبة، وقرّرا الهرب، إلا أن أكلة لحوم البشر قبضوا عليهما، واضطرا أن يشاهدا من وراء قضبان السجن هؤلاء وهم يعدّون وليمة سيكونان الطبق الأساسي فيها. لم يكن اكلة لحوم البشر على علم، لحسن الحظ، بأن الوقود الذي جمعوه لإشعال النار به حزمة من صواريخ الإشارة. وفي الوقت المناسب، انفجرت وهرب أكلة لحوم البشر، كما هرب المسجونان. وفهم نيال الآن سبب وجودهم في القبّة الفقاعية، فقد اصطدمت ثلاثة صواريخ بها بعنف وانفجرت دون أن يحدث شيء.

وفي المشهد الثالث - بعد أن استمر التمثيل الصامت نحو ساعتين - ظهر الشاب ومحبوبته موثوقين إلى صواري سفينة القراصنة، وحولهما براميل البارود معدّة للانفجار،

بينما يستعدّ القبطان والطاقم للهرب على متن السفينة التجارية. وقد اختار أكلة لحوم البشر هذه الفرصة للإغارة على سفينة القراصنة. وبينما راح البطل يقطع، ببراعة لا تصـدّق، وثاق محبوبته بخنجر أمسكه بين أسنانه، اندفع آكلة لحوم البشر إلى السفينة مستخدمين سلّماً من الحبال. ونظراً لأن العبيد لم يتمرّنوا بما فيه الكفاية، حدثت فجوة في التوقيت، ووقف أكلة لحوم البشر في دائرة يشاهدون البطل وهو يتلوّى، بينما بذل قصارى جهده ليتجاهلهم. كما شوهد دوجنز، وهو يقف بعيداً يلوّح بذراعيه، لكنه لم يجذب انتباه أحد. تحرّر البطلان، في نهاية المطاف، وقطع البطل الفتيل الحارق بخنجره، وألقى بالطرف من فوق كتفه، فسقطت في دلو من صواريخ الإشارة، التي انفجرت في كل الاتجاهات، فأثارت شرارتها ألعاباً نارية، تُركت ـ لأسباب غير معروفة ـ فوق سطح السفينة. وكان هذا ذروة المشاهد. وبينما راح البطل والبطلة يجذفان مبتعدين إلى الأمان ـ يسحبهما حبل غير مرئيّ ـ تحولت السفينة إلى شعلة من النار في عرضٍ ضمّ شرارات ملوّنة تخرج من القمرات، والكوات، بل ومن أعلى الصواري.

أصبح واضحاً، عند هذا المشهد، أن أكلة لحوم البشر لم ينفذوا التعليمات الموجهة إليهم، وأخذوا يرقصون بمرح وسط الشرر، ويتضاحكون، ويلوّحون بأيديهم. وراح أحدهم يئن من الألم، عندما اندفع صاروخ بين ساقيه، وقفز من فوق القارب، لكن الآخرين بدوا أنهم يستمتعون بكل ذلك، فلم يشعروا بأيّ خوف. اندفع دوجنز، في نهاية المطاف خارجاً من جانب المنصّة، وصاح فيهم، إلا أن صوته تلاشى وسط انفجار الصواريخ والقهقهات.

ثم حدث بعد ذلك أول انفجار، وتحطّمت السفينة إلى شظايا بحجم أعواد الثقاب. هبط الصمت على العبيد، وحدّقوا بدهشة، كما لو أنهم يظنّونه مجرد مزحة. ووسط هذا السكون المؤقت، ظهر صوت دوجنز وهو يصيح غاضباً: «اهبطوا من القارب أيّها البلهاء!». ثم استدار وأطلق ساقيه للريح، عندما هزّ القارب انفجار هائل.

تعالى دخان أسود من سطح السفينة، وتساقطت الشظايا فوق القبّة الفقاعية. راح الصبية أمام نيال يصفّقون ويهلّلون بانفعال، وقد ظنّوا على ما يبدو أن ما يحدث هو جزء من المسرحية. راحت الألعاب النارية تتفجّر في كل مكان فوق الجزيرة، ولاحظ نيال أن السرادق المعلّق في مواجهة الجرف قد اشتعلت فيه النيران، وأخذت ألسنة اللهب تعلو منه. كما انطلقت من الجزيرة نفسها انفجارات تصمّ الآذان. تذكر نيال البارود المتناثر فوق أرضية الكهف. اهتزّ المدرّج المسقوف، بعد ثانية، بينما راحت الأرض تهتزّ، فارتمى الصبية على الأرض. بدأت النساء في الصراخ، ورحن يسعلن عندما شكل الدخان

الأسود سحابة هائلة تحت القبّة الزجاجية الفقاعية. كان الاهتزاز بقوة زلزال، وتساقطت شظايا الصخور فوق القبة مثل وابل أسود. انهارت بعض المقاعد رغم أن معظمها بدا مستقراً بشكل ملحوظ. شقّت صخرة هائلة، بحجم إنسان، طريقها من خلال الزجاج الفقاعيّ، وسقطت فوق الدرجات، التي دون نيال. إلا أنها أحدثت تشقّقات على شكل نجوم في الزجاج، الذي كان قوياً كالصلب رغم شفافيته.

والأمر المثير للدهشة، أن أحداً لم يتدافع للهرب، فقد أدرك الجميع أنهم في أمان بالداخل. جثم الصبية على الأرض، محملقين في الزجاج فوقهم، وقد اصطبغ باللون الأسود، نتيجة لسقوط الحجارة. أمسكت أودينا بيد نيال، ودفنت وجهها في كتفه. أخذ التحطّم والاهتزاز يهدأ تدريجياً مثل الرعد، حتى سكن كل شيء من جديد.

قال نيال: سأذهب لأطمئنّ على دوجنز.

هبط الدرج، متشبثاً بسور حديدي، ومتجنباً فجوة أحدثتها الصخرة، التي انهارت منذ لحظات. كانت رائحة الغبار وثاني أكسيد الكبريت خانقة، فلم يتمكن من ابتلاع لعابه. بدا الأمر كما لو أنه يسير وسط ضباب كثيف، وأدرك، عندما هدأ الغبار وكشف ضوء الشمس عما حدث، أنهم كانوا محظوظين لوجودهم تحت القبّة الزجاجية، فقد تفجّرت جميع الخيام والمشاهد الجانبية. رأى حفرة عميقة في أرضية المحجر، في المكان الذي كانت تحتلّه الجزيرة. كما اختفى كهف المتفجرات، وانهار الجرف فوقه، ولم يكن هناك سوى كومة كبيرة من الأحجار.

وجد دوجنز مغبراً وغاضباً وقد حدّق في الحفرة.

قال نيال: الحمد لله. إنك بخير.

- آه. أنا بخير. لكنني فقدت مائة طن من المتفجرات.

وأشار بغضب إلى كومة الأحجار.

- وماذا حدث للعبيد؟

قال دوجنز بمرارة: لقد نالوا ما يستحقّون، هؤلاء الحمقى. ولكن ماذا عساي أن أفعل بقية العام بدون متفجّرات؟

- من الأفضل أن تذهب وتبحث عن زوجتك؟ أتوقّع أن تكون قلقة بشأنك.

لم يكن نيال قد تعوّد على الإشارة إلى الزوجات بصيغة الجمع.

- نعم، أتوقّع ذلك.

استدار دوجنز، وهو يزأر من الغيظ، عائداً نحو المدرج المسقوف، الذي كسا الغبار والدبش قبّته، وتلطّخ جزء منه باللون الأحمر. حدث خلفهما انهيار هائل في جزء آخر من الجرف.

خرج موستيج، المساعد الأصلع، مسرعاً من النفق تحت المدرج المسقوف، ودهش نيال عندما رأى أن ابتسامة عريضة قد ارتسمت على وجهه، الذي تهلّل وهو يربت على كتف دوجنز.

- رائع، إنك تستحقّ ترقية على ذلك!

حدّق دوجنز فيه، وقد اعتراه شك في أنه ينتقده بسخرية.

- عمّ تتحدث؟

خفض موستيج صوته، وقال: إنها تعتقد أن ذلك كان جزءاً من العرض، ولو أنني مكانك لما قلت لها شيئاً مختلفاً.

ظهرت مجموعة كبيرة من خنافس المدفعية من تحت القبّة، وأحاطت بدوجنز، وهي تلوّح بقرونها، وتُحدث ضوضاء شديدة، فهم منها نيال أنها تعرب عن تهانيها. تنقّل دوجنز بينها وعلى فمه ابتسامة حائرة، ولوّح بأصابعه، إيماءة على التقليل من قدر العمل الذي أنجزه. شعر نيال بالحيرة عندما رفع أكبر الخنافس قائمته اليمنى الأمامية، ووضعها برفق فوق رأس دوجنز، الذي انبطح في الحال على الأرض. همس في أذن موستيج متسائلاً: «ماذا يعني ذلك؟».

كان موستيج يحدّق باهتمام، فاضطرّ نيال إلى أن يعيد السؤال عليه.

- يعني... يعني أنها تعتبر «بل» واحداً منها.

بدا وكأن موستيج لا يستطيع تصديق عينيه.

- وهل هذا إطراء عظيم؟

- بطبيعة الحال. إنه مثل... أن تنصب ملكاً.

حثّت الخنافس دوجنز على النهوض، فوقف بتواضع جمّ. التقت عينا نيال للحظة بعينيه، فدهش عندما رأى فيهما تعبيراً ينمّ عن الكرب.

انجابت سحب الدخان الآن، وراح الخنافس والبشر يخرجون من المدرج المسقوف. بدت لوكريتيا، وهي تنفض الغبار من فوق ثوبها الأسود، على وشك البكاء، وعمّ جوّ من الاكتئاب بقيّة الزوجات والصبية. وعندما رأت زوجها وقد أحاطت به الخنافس، بدا عليها الخوف، ولكن حينما استمعت إلى الأصوات الحادّة، تحوّل خوفها إلى دهشة مفعمة بالسرور، ثم إلى عدم تصديق لما يحدث. كما راحت الزوجات

الأخريات والصبية يراقبون ما يحدث في صمت بعد أن أدركوا أن هناك شيئاً هاماً. بدأت الخنافس، في نهاية المطاف، تغادر المكان، وانبطح دوجنز من جديد على الأرض، وظل على هذا الوضع حتى ابتعدت عن الأنظار. وعندما نهض واقفاً، لفّت لوكريتيا ذراعيها حول عنقه، وتزاحم الصبية والزوجات الأخريات حوله. همس موستيج في أذن نيال قائلاً: «البعض يولد محظوظاً».

راح نيال يفتّش عن أودينا، ثم رآها بين الحشود التي تتدفّق خارج المدرج المسقوف. كان واضحاً أنها تبحث عنه هي الأخرى. بدأ يشقّ طريقه باتجاهها، ولكن قبل أن يتقدّم بضعة أمتار، أمسك دوجنز بذراعه.

ـ لا تبتعد! أريد أن أتحدّث معك.

ـ ليكن. ولكن يتعيّن أن أتحدث مع تلك القائدة التي تقف هناك...

لوّح لأودينا، ولكنها كانت تنظر في الاتجاه الآخر.

قال دوجنز: فيما بعد.

وأمسك نيال من ذراعيه، وقاده إلى الاتجاه المعاكس، نحو المنصّة التي كان يعزف فوقها الموسيقيون، ثم اختفيا عن الأنظار وراء المنصّة.

ـ ذلك الحصن ـ أبمقدورك أن تشرح لي موقعه؟

ـ نعم. ولكن عليّ أن أرسم لكِ خريطة.

ـ الخريطة لا تهمّ. أبمقدورك أن تصطحبني إلى هناك؟

حدّق نيال فيه مندهشاً، وقد اعتقد أن هناك سوء تفاهم.

ـ لكنه في حي العبيد في المدينة.

أومأ دوجنز بصبر نافد قائلاً: اعرف ذلك، أبمقدورك أن تصطحبني؟

سأله نيال وهو يفكر في أودينا: متى؟

ـ الآن ـ الليلة.

ـ آسف، فذلك مستحيل.

ـ لِم؟ إن الأمر جدّ خطير.

ـ لأنني وعدت بأن أعود إلى العناكب.

هزّ دوجنز ذراعه، وقال: عمّ تتحدّث، أيها الأبله؟ لقد قلت لك إنني سأعالج هذه المسألة.

ـ ولكن ذلك كان قبل أن تجدني تلك القائدة التي تقف هناك...

دمدم دوجنز قائلاً: أتعني أنك مقبوض عليك.
ـ ليس تماماً. إنني قد وعدتها فقط. . .
ـ ما الذي يجري بينكما أنتما الاثنين؟ إن في الأمر شيئاً، أليس كذلك؟

شعر نيال بالذنب نيابة عن أودينا. قال في نهاية المطاف: إنها تريد أن تتزوّجني.

دهش عندما وجد أن دوجنز يتنهّد بارتياح، ويلكمه في ذراعه وهو يقول له: الحمد لله! إذن إذا كانت تريد أن تتزوّجك، فإنها لن تعيدك إلى الحشرات، أليس كذلك؟

ـ ولكنها تريدني أن أعود، وقد وعدتها. . .
ـ ليكن. بإمكانك أن تفعل ذلك غداً.

ثم تحوّل صوته إلى نبرة الرجاء، وهو يقول: بمقدورك أن تقنعها. قل لها إنك وعدت بمساعدتي هذه الليلة. قل لها ما تريد، وبإمكانها البقاء هنا الليلة ثم لكما ماتشاءان بحلول الصباح.

ـ ولكن لماذا تريدني أن أذهب معك؟ بإمكاني أن أرسم لك خريطة.

هزّ دوجنز رأسه، وقال: لن يكون هذا مناسباً. لقد أحضرت العبيد إلى هنا هذا الصباح. وعليك أن تعيدهم هذا المساء. صحيح؟

شعر نيال بالحيرة وقال: العبيد؟
ـ نعم. العبيد.

بدأ نيال يفهم ما يدور في ذهن دوجنز، فجفل. أشاح وجهه حتى يخفي الأمل الذي جعل ضربات قلبه تتسارع، فأحسّ دوجنز أن هذا يعود إلى تردّده.

ـ هلمّ الآن. إنها ليست خدمة كبيرة.

تنفّس نيال بعمق، ثم قال: يتعيّن أن أتحدّث مع أودينا أولاً.
ضغط دوجنز على ذراعه وقال: سوف أذهب وأحضرها.

عندما ابتعد دوجنز، راح ذهن نيال يعمل بسرعة. وجد من الصعب أن يؤمن بحظه المواتي، ومع ذلك فقد امتزج ارتياحه بالشكوك. فخلال الساعات القليلة الماضية، كان يتساءل عن الطريقة التي يستطيع بها إقناع دوجنز بأن يكون حليفه، أما الآن فالأمر يبدو كما لو أنه قرّر القيام بهذا الدور بناء على رغبته المحضة. إلا أن ما أثار حيرة نيال هو السبب الذي جعله على استعداد للقيام بمثل هذه المخاطرة.

أقبلت أودينا بمفردها. عرف نيال، بمجرد رؤيتها، أنها ستفعل أي شيء يطلبه منها. مدّ يديه ليمسك بيديها، ثم التفّت ذراعاها حول عنقه.

قال لها: اصغي إليّ! يتعيّن أن نمضي الليلة هنا. هل يُسمح لك بذلك؟ أومأت بالايجاب، فاستطرد قائلاً: عظيم. لقد وعدت دوجنز، ولا أريد أن أحنث بوعدي.

لكنه رأى أن توضيح مهمّته أمر غير ضروريّ، فهي ستقبل أيّ شيء يقوله، فسألها: هل ستتساءل القائدات الأخريات عن المكان الذي تقيمين فيه؟

ـ لا. إنه مسموح لنا البقاء في المكان الذي نرغب الإقامة فيه.

طرأت على ذهنه صورة غريبة غير ملائمة، وهي تقبّله مراراً، في قبلات قصيرة متأنّية، صورة الشواة الكاذبة وهي تتمدّد للإمساك بأصبعه. ثم طردها من ذهنه، واستسلم للراحة الجسدية وهو يشعر بأودينا تضغط عليه.

ظهر دوجنز عند طرف المنصة، فجعلهما يجفلان. ابتسم معتذراً قائلاً: آسف. لقد حان وقت الرحيل.

- ١٢ -

لفّ الطريق ضباب رقيق، عندما انطلقوا، ولذلك فقد جعل ضوء القمر ظلالهم واضحة على الأرض. كان الجوّ رطباً وبارداً، وشعر نيال بسعادة الوهج الداخلي، الذي خلّفه طاس النبيذ القوي، الذي تقاسمه مع دوجنز قبل أن ينطلقوا. سار في المقدمة، بينما مشى الآخرون خلفه في طابورين منتشرين في غير نظام. ارتدوا ملابس رمادية رثّة، وإذا ما مرّ أي شخص بهم على الطريق، فإنه سيعتقد أنهم مجموعة مُجهَدة من العبيد، عائدة بعد يوم عمل طويل. والواقع أن الرجل الذي سار خلف نيال، والذي كانت كتفه اليسرى أعلى من اليُمنى، هو الممثل الذي أدّى دور القبطان القرصان، أما الشاب الأحدب الذي مشى متثاقلاً بجانبه، فهو مساعد موستيج، ويرتدي وسادة محاكة داخل ثيابه. كان معظمهم شباباً، تمّ اختيارهم لصغر حجمهم.

كان التقدّم بطيئاً، حيث أن دوجنز، الذي يسير في المؤخرة، لم يسمح لهم بقطع المسافة إلى مدينة العناكب بمعدّل سيرهم العادي، وأصرّ على ضرورة ترسيخ الاعتقاد بأنهم عبيد منهكون، وأن يسيروا وفقاً لذلك. اتبعوا تعليماته بأمانة، فقطعوا المسافة إلى المشارف الشمالية في نحو ساعتين.

بدأ نيال، الذي كان يتشكّك في البداية من هذه المغامرة، يشعر بثقة متزايدة وهم يقتربون من المدينة. تخوّف من احتمال أن يشي هؤلاء الشباب عديمو الخبرة بأنفسهم من خلال القلق أو التوتّر العصبي، لكنه أدرك في الحال خطأ تقديره. فلم يكن هناك أيّ سبب يجعل خدم الخنافس يخشون العناكب، وبالتالي فإنهم اعتبروا هذا الغزو لمعقلها مغامرة مسلّية. وكان هذا هو السبب الذي جعله، وهو يسير تحت ضوء القمر، ويتنفس رائحة

أوراق الأشجار، والأرض الرطبة، يشعر بالمرح الناتج عن قيامه بالعمل وهو يدرك استحالة أن يكون هناك خطّ رجعة.

بدا الطريق الرئيسي خالياً من المارة على نحو غريب، ولاحت البنايات البيضاء المتهدمة خالية مثل قفر. شعر نيال في هذه المرة بأنه لا يتعرّض للمراقبة من أعين غير مرئية، وإذا ما كانت العناكب تراقبهم، فإن ذلك يحدث دون فضول.

اتفق نيال ودوجنز على تفاصيل خطّتهما، فسوف يقودهم نيال إلى الساحة الصغيرة حيث تجمّع العبيد ذلك الصباح، وهناك سيتفرقون، ويشقّون طريقهم، في مجموعات مكوّنة من اثنين أو ثلاثة أفراد، إلى الثكنات التي تبعد مسافة ثلاث بنايات إلى الشمال الشرقي، وسوف يتخذون من أقرب بيت مسكون ملجأ لهم، وينتظرون هناك حتى يتجمّعوا مرة أخرى، ثم يقومون بتنفيذ محاولتهم في الساعات الأولى من الصباح. عرف نيال أنه عندما ينام كل حيّ العبيد، فإنه لا يكون هناك سبب يدعو العناكب إلى اليقظة.

انتابته الشكوك الأولى عندما بدأوا يقتربون من النهر. وعلى الرغم من أن المصابيح الزيتية توهّجت من خلف ألواح النوافذ المهشّمة، وتسرّبت روائح الطعام من الأبواب المفتوحة، فإن الشوارع نفسها ظلّت خالية. اعتقد نيال، على نحو مسلّم به، أن حيّ العبيد سيظلّ مكتظًّا بالسكان في المساء، مثلما كان عند الفجر. وملأه هذا السكون بالهواجس. إذا كان العبيد لا يخشون العناكب، فما السبب الذي جعلهم جميعاً يمكثون بالداخل؟

استدار نيال يساراً تاركاً الشارع الرئيسي، ليصل بمجموعته بعد بضع دقائق إلى الساحة، وبرغم أنها كانت خالية. فإن البيوت المحيطة بها بدت مفعمة بالنشاط. تناهى إلى مسامعه صراخ الأطفال الرضّع، وصياح النساء والصبية. قال نيال بصوت مرتفع حتى يظهر أحد: فرقة قف! انصراف!

مشى دوجنز الهوينى، ويداه في جيبيه، وأشار إلى أقرب باب مفتوح، بهزة من رأسه، وقال: «إن هذا يحقّق الغرض، لنبحث عن شيء نأكله». كان السير قد جعلهم يشعرون جميعاً بالجوع.

ولكن عندما حاول نيال دخول البيت، اندفعت امرأة حامل نحوهم وهي تلوّح بذراعيها صائحة: لا يوجد مكان، لا يوجد مكان! تقدّمت نحوهم في إصرار وأجبرتهم على التقهقر. ثم صفقت الباب خلفهم. تبادل نيال ودوجنز النظرات في دهشة، وقال نيال: «وماذا عسانا نفعل الآن؟».

ـ لنجرب الباب التالي!

ولكن الشيء ذاته حدث هناك. كان رجل شاحب الوجه، غائر الصدر له غدة درقية متضخمة، يجلس عند أسفل الدرج، ويتناول الطعام من وعاء به حساء. صاح، بمجرد أن فتح نيال الباب الأمامي: «آسف، لا يوجد مكان. ابحثوا عن بيت آخر!». نهض واقفاً، عندما حاول نيال التقدّم، وأوصد الدهليز. فكر نيال للحظة، في أن ينحيه جانباً، ولكنه وجد أن ذلك قد يلفت الانتباه. وبالإضافة إلى ذلك، فقد بدا واضحاً أن الرجل يقول الحقيقة، فقد رأى أن الحجرة المواجهة مكتظّة بالبشر.

انتاب القلق دوجنز، الواقف في الخارج. كما أن مجموعة من عشرين عبداً تقف في ساحة خالية، لا بدّ وأنها تثير الشكوك، وبالتالي فمن الضروري العثور على ملجأ بأسرع ما يمكن. ولكن بنظرة خاطفة إلى بعض النوافذ المضاءة الأخرى، اتضح أن معظم المنازل في الساحة مكتظّة.

رأى على جدار البيت، عند الزاوية، لافتة كُتب عليها بخط اليد «ك ـ ٢» بدت مألوفة له، ثم تذكّر أنه قد قيل له: ابحث في هذا البيت عن مورلاج المشرف ذي اللحية السوداء. فتح الباب، وشعر بالارتياح عندما لم يندفع إليه أحد. ولكنه عندما دخل الدهليز، صاح صوت من أعلى الدرج قائلاً: «اخرج!» حدّق وجه من فوق الدرابزين، فعرف أنه الرجل الذي يدعى «لوريس».

ـ لقد عدنا لتوّنا. إلى أين بمقدورنا أن نذهب؟

ـ تعرّف لوريس عليه، فقال: آه. أنت. ادخل، كنت أعتقد أنك أحد العبيد.

ـ ولكن معي عشرين عبداً في الخارج، إلى أين نمضي؟

هزّ لوريس كتفيه قائلاً: ليمضوا إلى أيّ مكان يشاءون ـ طالما أنه ليس المكان ذاته الذي قضوا فيه الليلة الماضية.

شعر نيال بالحيرة وقال: ماذا تعني؟

ـ هذه هي اللوائح. فليس مسموحاً لهم أن يقضوا ليلتين في مكان واحد.

ـ ولِم لا؟

طوّح لوريس بيديه، في عصبية، وقال: وكيف لي أن أعرف؟ إنني لا أضع اللوائح.

ـ شكراً.

قال نيال بعد أن خرج: من الأفضل أن نتحرّك، ولنجرّب الشارع التالي!

ـ أليس من الأفضل أن نكون قريبين من الثكنات؟
ـ أتريد المخاطرة بذلك؟
ـ إنه أفضل من الوقوف هنا.

أشار دوجنز إلى زقاق، عند الزاوية الشمالية الشرقية من الساحة، وقال: «لنمضِ في هذا الطريق!».

ـ قد يكون من الأفضل العثور على مكان في الشوارع الرئيسية.

هزّ دوجنز رأسه، وقال: لنسلك أقصر الطرق، من الأفضل أن تمضي أولاً.

قرّر نيال ألاّ يجادل. قادهم عبر الساحة، ثم إلى الزقاق. ولكن بعد أن قطعوا نحو عشرة أمتار، وجدوا أن الظلام يلفّهم تماماً، فاضطروا إلى التوقف. بدا الأمر كما لو أن ستائر من المخمل الأسود تحيط بهم.

قال دوجنز: توقّفوا دقيقة حتى أشعل ضوءًا!
قال صوت آخر، عرف نيال أنه مساعد موستيج: ماذا يحدث؟
ظن نيال أنه التقط إشارة ذعر.

ثم شمله، على نحو مفاجىء تماماً، إحساس بالخطر الشديد جعل الشعر في قفاه يقف. كان إحساساً بأنهم على شفا كارثة مروّعة. أمسك بمعصم دوجنز، وقال: أعتقد أنه من الأفضل أن نعود.

ـ لِم؟
ـ نفِّذ ما أطلبه!

أذعنوا نظراً للإلحاح في صوته، وعادوا، بعد لحظة، إلى الساحة. قال مساعد موستيج: أين ماركوس؟

قال دوجنز: ماركوس؟
لم يكن هناك ردّ، فعرف نيال أن الكارثة قد حلّت بالفعل.

عاد دوجنز نحو الزقاق، وهو ينادي: «ماركوس!» وقبل أن يتقدم نحو الظلام، قبض نيال على ذراعه بشدة، وقال: لا تتقدّم!

حاول دوجنز تخليص ذراعه وهو يقول: لا أستطيع أن اتركه يموت.

انحنى نيال إلى الأمام وقال له بصوت خفيض: «لقد مات بالفعل». كان بمقدوره أن يرى بعين ذهنه جثة أبيه المتفحّمة.

ـ يا إلّهي!

أحس نيال بذعره المتصاعد، وإدراكه للخطر الذي يتعرّضون له. كان يتعيّن أن تصبح استجابته مركزة بشكل متزايد ومسيطراً عليها. واستخدم عامداً مرآة التأمل، لتسليط القوة الكاملة لارادته، ومال إلى الأمام ليهمس في أذن دوجنز:

ـ قل لهم إنك قد عثرت عليه! ثم أبلغهم بأنه يتعيّن علينا أن نتحرك!

أحسّ بتأثير القيادة، وبتراجع الذعر.

استدار دوجنز نحو الآخرين قائلاً: «لقد عثرنا عليه». ثم أضاف بصوت هادىء: والآن لنتحرك!

قال نيال: شكلوا صفوفاً واتبعوني!

أحسّ بالارتياح، عندما أطاعوه دون طرح أية أسئلة. لو أن القمر كان ظاهراً، لانكشفت الخدعة في الحال، لكن القمر اختفى وراء البنايات الشاهقة الكائنة إلى الجنوب الشرقي، كما كان الظلام دامساً. ساروا بعد بضع لحظات باتجاه الشرق على امتداد وسط الشارع الضيّق.

كان نيال قد أصيب بصدمة، فهو لا يشك فيما حدث. لقد تمّ الإمساك بماركوس في الظلام، من المرجّح من قبل عنكبوت انقضّ من أعلى، وشلّت قوة إرادته الجبارة أية محاولة للصراخ أو التخبّط، ومن المحتمل أنه يلتهمه في هذه اللحظة. أدرك أن الخطر لم ينته بعد، وإذا ما عرف الآخرون أن ماركوس لم يعد بينهم، فقد تنطلق موجة من الذعر تشي بهم للعناكب.

شعر نيال بالارتياح عندما اجتازوا مفترق طرق ظهر فيه ضوء القمر، ولم يلتفت أحد يميناً أو يساراً. كان دوجنز قد قال لهم إنه عثر على ماركوس، ولم يشكّ أحد في ذلك.

عرف نيال المكان الذي وصلوا إليه بدقّة، وكان بمقدوره أن يرى خريطة حيّ العبيد في غاية الوضوح، كما لو أنها معلّقة أمام عينيه. ونظراً لأن حالة من التركيز المكثّف قد شملته، فإنه قد رأى كلّ التفاصيل بوضوح بالغ. رأى أن الثكنات تبعد مسافة بنايتين إلى الشمال. كان أبسط السبل للوصول إلى الثكنات هو من خلال ذلك الطريق العريض، الذي يمتدّ من مبنى البلدية إلى النهر، لكنه لم يفضل ذلك لأنه قد يكون محفوفاً بالمخاطر. قرّر بدلاً من ذلك مواصلة السير بطول الشارع الضيق، ثم الانحراف لليسار عند ملتقى الطرق التالي.

دخلوا، عند الجانب الآخر من الطريق العريض، منطقة تعرّضت ذات مرة لحريق. كانت معظم البيوت مثل محارات خالية، وانتشرت في الهواء رائحة خشب محترق. هبط ضوء القمر، إلى الجنوب، على أكوام من الدبش ورأى وراء هذه الأكوام النهر. أمرهم نيال، عندما وصلوا إلى الشارع التالي، بالانحراف يساراً. تعرّضت المنازل هنا أيضاً للحريق، ولكن معظمها ظل قائماً. أحسّ بالارتياح عندما لاحظ عدم وجود خيوط النسيج فوق رؤوسهم. بدا من غير المحتمل أن تكون العناكب مختفية داخل هذه المباني المحترقة.

وجدوا، عندما وصلوا إلى منتصف الشارع، شجرة ملتوية تنمو داخل مبنى متهدّم، برزت وتعلّقت فروعها فوق الطريق. كان البيت المقابل لها مباشرة قد انهار، وأغلق الشارع بكومة من الدبش المبعثر، بلغ أقل ارتفاع للكومة نحو ستة أقدام. اختار نيال هذه المنطقة لتجاوز الحاجز، وراح يميل إلى الأمام لاختبار كل خطوة بيديه، قبل أن يطأها بكامل ثقله. وصل بهذه الطريقة إلى الجانب الأقصى دون أن يصاب بشيء أكثر من خدوش في معصمه وكاحله، والتفت بانتظار الآخرين. كان القمر خلفهم مباشرة، يلقي بأشعته الفضّية على فروع الأشجار، التي لاحظ أنها تحدث حفيفاً واهناً، كما لو أن نسيماً يحرّكها.

أحسّ أن في هذا الأمر شيئاً غريباً، نظراً لأن الليلة كانت هادئة دون رياح، وفي تلك اللحظة انقضّ العنكبوت من وسط الظلام. حدث ذلك على نحو سريع للغاية، فبدا كما لو أنه ومضة ظل خاطفة. لم يصدر أي صوت سوى صرخة مكتومة ندّت عن الرجل، الذي سقط فوقه العنكبوت، كانت واهنة للغاية، فلم يبد أن أحداً من الآخرين قد لاحظ شيئاً. عندما حدّق نيال للحظة، وقد شلّه عدم تصديق ما يحدث، رأى حركة الرأس مما يعني أن المخلبين قد انغرسا في الضحيّة. ثم صاح، فنظر الآخرون حولهم في ذعر. كان الرجل الذي هاجمه العنكبوت آخر السائرين، لو أن نيال لم يلحظ حركة الانقضاض، لما عرف أحد أنه اختفى. أدرك الآن ما حدث للعبد المفقود عندما كانوا يسيرون باتجاه مدينة الخنافس.

راح نيال، دون تفكير، يندفع وجلاً فوق الدبش عائداً، وقد أفقد أحد الأشخاص توازنه وهو يندفع. وصل إلى قمة الكومة ليرى العنكبوت وهو يختفي داخل أحد الأبواب المفتوحة، حاملاً جثة الرجل الهامدة مثل دمية كبيرة.

كان ردّ فعله تلقائياً تماماً، فقد التقط أقرب حجر كبير، وألقى به نحوه، فأحدث صوتاً مكتوماً خفيفاً عندما اصطدم بالجسم المُشعِر. توقّف العنكبوت في الحال ـ وشعر نيال

بدهشته ـ وألقى بالجثة واستدار. لقد أدرك نيال، في اللحظة التي انطلق فيها الحجر من يده، أن ما فعله يعد عملاً طائشاً. حاول الآن أن يستدير ويطلق ساقيه للريح. ولكن ذلك كان أمراً مستحيلاً، فقد تجمدت حركة جسمه، كما لو أن العضلات قد غطّتها كتلة من الجليد القوي. وبينما راح الآخرون يراقبون في ذعر، تقدّم العنكبوت نحوه ماداً مخلبيه، ورأى نيال، في عينيه الجامدتين، نية القتل. لقد ارتكب عملاً لا يصدق بمهاجمته عنكبوتاً.

ثم صرخ أحد أفراد المجموعة، فأدرك نيال أن جسمه لم يصب بشلل تام. كانت مرآة التأمل تحرق صدره، كما لو أنها قد سُخنت في النار. شعر وهو يتابع الحركة البطيئة للعنكبوت ـ الذي بدا أنه يتعمّد الإبطاء ـ بموجة من الغضب المرير إزاء هذا التفوق المطلق الذي يحس به العنكبوت، وقام بمحاولة متشنجة ليخلص نفسه. أصبحت المرآة ساخنة بشكل مؤلم، فخشي أن تحرق صدره، مما جعله يكثف جهده. بدت إرادة العنكبوت فجأة، وقد ارتدّت على نفسها، وأحجمت، وواجهتها بصلابة القوة المركزة لاشمئزاز نيال. جثم العنكبوت مرتعداً، مثل كلب ينكمش خوفاً من لطمة. ثم تغلب غضبه على دهشته، وأصبح نيال مدركاً من جديد للقوة الكاملة لإرادته، وهي تحاول ضرب مركز السيطرة لجهازه العصبي.

توقّعها في هذه المرة، وأخذ يقاومها، وقد شجّعته معرفته بأنه ليس كائناً لا يقهر، فسلّط إرادته عليه، كما لو أنها طلقة غضب. رآه مرة أخرى يجفل، ومع ذلك واصلت إرادته تقييد نيال، ولذلك ظلّت جهوده غير فعالة، مثل رجل يحاول إصابة شيء يتجاوز مدى الرمي. حاول أن ينقضّ على العنكبوت، وراح يميل إلى الأمام كأنه يسير وسط عاصفة، وشعر بأن إرادة العنكبوت تتقوّض، ثم تخلّى العنكبوت فجأة عن المواجهة، مما جعل نيال يترنّح. بدت قوائمه، للحظة، تتلوى، ثم استدار ومضى، حاملاً معه الجثة الهامدة. شعر نيال بالابتهاج والجذل، لعله أكبر شعور بالنصر يحسّ به في حياته. ثم شمله، على نحو مفاجىء، إرهاق هائل غطّاه من رأسه حتى أخمص قدميه. ارتعشت ركبتاه، للحظة، لكن يديه حالتا دون سقوطه. كان قد عاد إلى الأرض في ذلك الوقت، وحلّ صداع شديد مكان الإرهاق.

قال دوجنز: كيف جعلته يمضي مبتعداً؟

تثاقل لسانه كما لو أنه مخمور وهو يردّ قائلاً: سوف أوضح لك فيما بعد، يتعين علينا أن نبتعد من هنا.

أحسّ بخوفهم، وهم يسرعون الخطى، وعرف أن الخطر بات أكبر من أي وقت مضى، منذ دخلوا حي العبيد. لو كان هناك المزيد من العناكب في هذه البنايات، فسيتعرضون لهجومها قبل أن يصلوا إلى نهاية الشارع. وقد أدى استنزافه إلى شعوره

بالضعف، لكن الألم الحارق في صدره شتّت انتباهه. لقد كان هذا الألم الجسماني الحادّ هو الذي دفعه إلى مدّ أطراف أصابعه داخل ملابسه، ليتحسّس المكان الذي بدا أنه قد كسته قروح صغيرة أو بثرات. ثم أدار، من منطلق التجربة، مرآة التأمل حتى يواجه جانبها المقعر صدره. تزايد الألم في الحال، فتنهد بصوت عالٍ، ونظر إليه دوجنز بطرف عينه نظرة متسائلة. أصبح عقله، ربما لدقيقة، مثل قارب تتقاذفه أمواج البحر العاتية. نجح هذا الألم في النهاية في تركيز إرادته، وانتابه إحساس بعودة السيطرة على نفسه، فكان شعوره بالنشوة يماثل الإحساس بقهر العنكبوت. لقد أصبح متعوداً، طوال حياته، على الاستسلام للألم أو الاستنزاف بدرجة معينة. أما الآن فقد تغلّب على هذه العادة التي استمرت معه طوال هذه السنين، وشعر للحظة بأنه أشبه برجل يقف فوق قمة جبل.

بلغوا نهاية الشارع، فوجدوا أنفسهم ينظرون عبر شارع عريض آخر، بدت مبانيه المسودة بفعل الزمن، مثل نصب تذكارية. كان ينتصب في مواجهتهم، عند الزاوية، جدار يصل ارتفاعه إلى عشرين قدماً، تعلوه أسلاك شائكة. بدا سطح الجدار أملس، كما لو أنه قد قطع من صخرة صلبة، لاح من المستحيل تسلّقه، كما لو أنه جرف رأسي. ذكّرت الثكنات نيال، وسط ضوء القمر، بالقلعة الكائنة فوق الهضبة.

حدّق الآخرون في الجدار بفزع. كان دوجنز هو الوحيد الذي لم يبد اكتراثاً. أحس نيال ببريق فوز في ملامحه، فسأله: ما الذي تأمل أن تعثر عليه هناك؟

قال وهو ينظر إلى نيال بطرف عينه: متفجرات وأسلحة.

ـ أسلحة؟

قال دوجنز بهدوء: «نعم، أسلحة» ثم التفت إلى الآخرين، وأضاف: «ليكن. ابقوا قريبين مني! وحاولوا أن تمكثوا في الظل!».

وجدوا أنفسهم بعد خمسين متراً في مواجهة البوابات الرئيسية للحصن. رأوا أمامهم أبواباً صلدة ضخمة، أعلى من الجدران، تعلوها أيضاً مسامير شائكة، بدت حادّة كالابر. شاهدوا بجانبهم في الجدار باباً صغيراً مصنوعاً من معدن صدىء، حاول ستة منهم دفعه بأكتافهم، لكنه بدا صلباً مثل الجدار نفسه.

وصلوا بعد خمسين متراً أخرى إلى الزاوية الجنوبية الغربية، وإلى الطريق الذي يفضي إلى النهر. عرفوا بنظرة عجلى واحدة أن الجدار المواجه للغرب حصين مثل بقية الجدران. بدا واضحاً أن هذه الجدران قد شيدت لتبقى على مدار قرون، بعكس البنايات في الشارع.

وجدوا مدخلاً آخر، بعد أن قطعوا نصف الطريق بامتداد الحائط المواجه للشمال. كانت هذه بوابة وحيدة من المعدن الصلد عليها صف من الأسلاك الشائكة. توقّف دوجنز

وقام بدراستها باهتمام كبير أثار حيرة نيال ـ فقد بدا صعب الاقتحام من أي مدخل آخر ـ ثم قال: «ميلو، أعطني الحبل!».

خلع أحد الرجال رداء العبيد الرمادي، فظهر الثوب الأصفر التحتي الذي يرتديه خدم الخنافس. فكّ حبلاً من حول خصره، فبدا رفيعاً للغاية. ثم أخرج دوجنز من جيبه خطافاً معدنياً، تحول إلى ثلاثة خطافات منفصلة تشكل كُلاّباً حديدياً، أوصله بطرف الحبل ثم ألقى به إلى أعلى، فتعلّق بالمسامير في البوابة. راح دوجنز يتسلق الحبل، بعد أن شدّه بكل قوته ليختبره. وقف بعد لحظة فوق عمود البوابة، وحافظ على توازنه بالامساك بالمسمار. عرف نيال الآن سبب اختياره لهذا المكان؛ فالعمود عريض، والمسافة بين كل مسمار تسمح لرجل نحيف، بالوقوف بينهما.

ألقي حبل آخر، فربطه دوجنز في المسمار، وأسقطه على الجانب الآخر للجدار. وبعد لحظة، اختفى.

صعد نيال حتى وصل إلى أعلى البوابة، ثم تسلّق إلى أن بلغ العمود. رأى الأسقف المترامية لمباني الثكنات ممتدة تحته في ضوء القمر. واستطاع أن يرى أيضاً، من مكانه، الجهة الجنوبية للنهر، وخلفها ناطحات السحاب بمدينة العناكب. تألّق البرج الأبيض تحت ضوء القمر بوميضه الفوسفوري الأخضر الخافت، كما رأى وراءه الجزء الأسود لمقرّ سيد العناكب. أحسّ فجأة بأنه قد أصبح مكشوفاً، فانحشر بين المسامير، ونزل على الحبل إلى الأرض.

وقف نيال ودوجنز، بعد أن انضم إليهما الآخرون الواحد تلو الآخر، ينظران عبر أرض العرض المهجورة نحو البنايات العريضة المنخفضة، التي كانت تؤوي الجنود. لم يجدا أي أثر لنسيج العناكب، وتألّق زجاج النوافذ غير المهشم تحت ضوء القمر. أثار أمر ما بالمكان في نيال إحساساً غريباً بالوحدة والحزن. وعندما تحدث إلى دوجنز، وجد نفسه يخفض صوته بصورة آلية، كما لو أنه يخشى إثارة قلق السكون.

ـ لماذا تفترض أن العناكب لا تأتي إلى هنا مطلقاً؟

ـ ولماذا تأتي؟ ليس هنا شيء تهتمّ به.

ـ إذن فإن هذا المكان لم يتغيّر منذ أن هجر الإنسان الأرض؟

ندّت عن دوجنز ابتسامة ماكرة، وقال: آمل ذلك.

لمع شيء ما أبيض عند أسفل الجدار، على بعد بضعة أمتار إلى اليسار. ذهب نيال ليتفقّده، فوجد نفسه أمام كومة من العظام. بدا واضحاً أن هذا الهيكل العظمي موجود هنا منذ أمد طويل، وأن الأحوال الجوية قد جعلت الجمجمة رقيقة وهشّة.

التفت إلى دوجنز قائلاً: لقد حاول أحد الأشخاص الدخول إلى هنا.

قلب دوجنز العظام بقدمه، فانفصل بعضها، ثم قال: «أريد أن أعرف سبب موته هنا». ثم تطلع متأمّلاً أعلى الجدار.

ـ لعلّ عنكبوتاً قد أمسك به.

قال بغير اقتناع: ربما.

هزّهما عويل حادّ عالٍ، بدا مثل صرخة طائر غريب، ثم أدرك نيال أن العويل آتٍ من المجموعة عند أسفل الجدار. صاح دوجنز: «ماذا جرى؟».

ـ إنه «سيبريان».

كان هناك رجل يتلوّى على الأرض، وقد تقوّس جسمه من الألم.

جلس دوجنز على ركبتيه بجانبه، وقال: سيبريان، ماذا حدث؟

حاول الرجل أن يتكلّم، لكن الألم أصاب شفتيه بالتشنّج، وظهر زبد أبيض فوق شفتيه، وهو يشرق. ثم اهتزّ بعنف وتوقّف عن التخبّط. ارتفعت عيناه لأعلى، فلم يظهر منهما سوى البياض. حاول دوجنز جسّ نبضه، إلا أنه بدا واضحاً أنه قدمات. لقد استغرق الأمر برمّته أقلّ من عشر ثوانٍ.

وقف دوجنز، وقد بدا في غاية الشحوب، وقال: هل يعرف أحد ماذا جرى؟

هزّوا رؤوسهم علامة النفي، ورأى نيال أنهم قد أصيبوا بالدهشة، وباتوا قريبين من الهستيريا.

رفع دوجنز ذراع الرجل الميت اليمين، وأداره فوجد على الساعد خدشاً طوله نحو بوصة واحدة.

ـ هذا هو سبب موته. إن المسامير مسمّمة.

جعلهم التفكير في أنهم كانوا قاب قوسين من الموت يشعرون بالذعر، إلا أن دوجنز صمّم على ألا يتيح لهم الوقت للتفكير في ذلك.

ـ يتعيّن أن نتحرك. انصتوا إليّ الآن بتركيز! أحد هذه المباني يضم ترسانة أسلحة. أريدكم أن تعثروا على هذا المبنى!

أشار نيال إلى مبنى في الزاوية الشمالية الشرقية، وقال: اعتقد أنه ذلك المبنى.

ـ لِم؟

ـ لقد وضعت عليه علامة في الخريطة.

هزّ دوجنز رأسه، وقال: إنه يبدو لي مثل مبنى إداري، ولكن دعونا نتفحّصه.

أثبت التفقّد عن قرب أنه كان على صواب. فتحوا الباب مستخدمين أكتافهم، ثم أضاءوا مصابيح زيتية، وانتشروا في كافة أرجاء المبنى. حوى معظم الحجرات، مكاتب

وخزائن ملفّات. كان الهواء ذا رائحة عطنة، مُثل هواء مقبرة، واسودّت أيديهم بسبب الغبار الموجود فوق الأشياء. عندما استند نيال إلى ستارة، تمزّقت مثل ورق مبلّل.

راح دوجنز يفتح كل أدراج المكاتب. وعندما وجد أحدهـا مغلقـاً، أخـرج مدية، وحاول بصبر نافد فتح الدرج، حتى تحقّق له ذلك، ثم تنهّد بارتياح، وهو يزن في راحة يده مسدساً طويل الماسورة.

ـ ما هذا؟

ـ مسدس «فليكنو».

ذهب إلى النافذة، وراح يتفحّصه في ضوء القمر.

ـ ماذا يفعل؟

ـ يطلق طاقة خالصة. انظر!

أطلق المسدس وميضاً أزرق، جعل نيال يقفز، وبدا أن خيطـاً من الضـوء لولبي الشكل قد انطلق من الماسورة، واشتمّ في الوقت ذاته رائحة معـدن ساخـن وأوزون. استطاع نيال أن يرى من خلال الجدار بجوار النافذة، ضوء القمر، فقد أدّت الطلقة إلى إحداث فجوة دائرية يبلغ قطرها نحو ست بوصات.

ـ كيف عرفت أنه موجود هنا؟

ـ مجرد تخمين، ليست هذه أول ثكنة أدخلها.

ثم وضع يده على المسدّس قائلاً: الآن نحن على استعداد لمواجهة أي عنكبوت.

ـ هل هذا هو الذي كنت تأمل في العثور عليه؟

ـ أحد الأشياء.

ظهر ميلو في المدخل، وقال: لا يوجد شيء هنا، يا سيدي! إنه مجرّد مبنى إداري، كما قلت.

سأل دوجنز نيال: هل أنت متأكد من أن هذا هو موقع الترسانة؟

أغمض نيال عينيه. لم يكن قد بذل جهداً خاصاً لتسجيل مكان الثكنات في ذاكرته، فقد بدت غير مهمّة في ذلك الوقت، لكنه مايزال يرى كلمة «ترسانة» في الزاوية الشمالية الشرقية من الخريطة.

ـ نعم. متأكد تماماً.

هزّ دوجنز رأسه قائلاً: في هذه الحالة، لا بد وأن الخريطة غير دقيقة على نحو متعمّد.

ـ ولكن لماذا؟

ـ لأن منشآت الجيش كانت في القـرن الحـادي والعشرين عرضـة دائماً لهجمات

الإرهابيين السياسيين. وهذا هو السبب الذي يجعل هذا المكان حصيناً.

ـ ولكن في هذه الحالة، فمن المؤكد أنهم خبأوا الترسانة.

فرقع دوجنز بأصابعه، وقال: بطبيعة الحال ـ هذا هو الجواب. تحت الأرض.

التفت إلى ميلو قائلاً: أيوجد قبو في هذا المكان؟

ـ نعم، ولكنه موصد.

ـ أرني مكانه!

قاده ميلو في الدهليز، ثم هبطوا سلسلة درجات. وفي الأسفل رأى باباً مغطى بالصلب. حاول أن يستخدم مقبض الباب، ولكنه لم يتحرك، فوضع دوجنز المسدس عليه، وأطلق النار. انفتح الباب، وتساقطت قطرات من المعدن المصهور على الأرض.

إلا أن الحجرات خلفه أثبتت أنها مخازن، فقد حوت خزانات ملفّات، وصناديق أوراق، وأشرطة تسجيل ميكروفيلم. وأمر دوجنز الجميع بتفقّد الجدران، بحثاً عن باب سرّي، ولكن لم يتمّ التوصل إلى شيء بعد فترة طويلة من البحث.

قال دوجنز: إنك على حق. فهُم ما كانوا يخاطرون بعرض ترسانة الأسلحة، لتكون سهلة الوصول إليها مع وجود الثكنات في وسط المدينة، فأية قنبلة يلقيها الإرهابيون يمكن أن تنسفهم جميعاً، والأمر المنطقي الوحيد هو أن يقيموا هذه الترسانة تحت الأرض.

حدق محبطاً في الأرض تحت قدميه.

ـ لم تكن كلمة «ترسانة» مكتوبة فوق المبنى ذاته، بل في مكان ما أمامه. وشت عينا دوجنز بومضة ارتياح، وقال: أرني!

أشار نيال، عندما أصبحا في الخارج، إلى المنطقة المجاورة لجدار المبنى الشمالي وقال: في تلك المنطقة.

التفت دوجنز إلى الآخرين، وقال: إننا نبحث عن مدخل ما هناك، من المحتمل أن يكون باباً مسحوراً مختفياً. انتشروا هناك، ودوسوا الأرض بأقدامكم!. واصلوا ضرب الأرض إلى أن تحدث صوتاً مكتوماً!

انضمّ نيال إليهم، بعد أن انتشروا في منطقة تبلغ مساحتها عشرين متراً مربعاً. كانت الأرض تحت أقدامهم ناعمة وسوداء، وشعر، بعد عشر دقائق، بقدميه تؤلمانه. راح دوجنز يزحف على يديه وركبتيه، باحثاً عن تصدّع طفيف فوق السطح، واستطاع نيال أن يشعر بإحباطه المتزايد. توقّف الآخرون تدريجياً عن البحث.

قال مساعد موستيج ضجراً: لو أننا نبحث عن ماء لكان جدّي قد عثر عليه في

دقيقتين، لقد كان أفضل باحث لمسافة تصل إلى أميال.

جعل هذا الكلام نيال يتذكر أنه حدّد بنفسه مواقع الآبار الجوفية، فمثل هذه القدرة هي جزء من الأدوات الأساسية لأيّ قاطن في الصحراء، بل إن جومار زعم أن بمقدوره معرفة جحور القوارض، فأخذ القضيب المتداخل من جيبه وجعله يتمدّد.

سأله دوجنز بفضول: ما هذا؟

ابتسم قائلاً: عصا سحرية.

تابع المعدن، وهو يحدث وخزاً في أطراف أصابعه. أمسك طرفيه بقبضتيه، وأدار يديه للخارج، حتى يتقوّس المعدن المرن مثل قوس قويّة. ثم جذب يديه لأسفل كي يصبح التقوّس موازياً للأرض، وسار إلى الأمام ببطء مغمضاً عينيه لزيادة تركيزه. استدار عندما وصل إلى جدار المبنى، وتتبع أثر طريق مائل باتجاه الجدار، الذي يطوّق الثكنات. اهتزّ القضيب، بعد مسافة عشرة أقدام، إلى أعلى بقوة لا يمكن مقاومتها. توقّف نيال وأشار إلى قدميه.

ـ ثمة شيء ما دوني.

قال دوجنز: أحضروا المشاعل!

جثم كلاهما على أطرافه الأربعة، وتفقّدا القار الصلد. إلا أنهما لم يعثرا على أي دليل يشير إلى وجود باب مسحور.

سأله دوجنز: أواثق من وجود شيء هنا؟

ـ نعم. لقد تكلم القضيب بلغة أكثر وضوحاً من الكلمات.

نهض دوجنز واقفاً، وهو يقول: ليكن، تراجع!.

ثم صوّب المسدس نحو الأرض، وسحب الزناد. أحدث الخيط الأزرق فرقعة مثل صاعقة مصغرة لبرق متشعّب، وامتلأ الجو برائحة الأوزون واحتراق القار. رأوا الأرض وقد انهارت، ثم تحلّلت. تصاعدت الفقاقيع من جوانب فجوة تصل إلى قدمين، وأخذ دخان أسود ينفث منها. انضمّ نيال إلى دوجنز عند الحافة، فشعر بسخونة الأرض من خلال خفّيه.

قال دوجنز، وقد طفرت السعادة من وجهه: انظر إلى هذا! لذلك لم يحدث أيّ صوت مكتوم.

رأيا، من مكانيهما فوق الفجوة مباشرة، أن طبقة القار تزيد سماكتها عند هذا

الموضع عن قدمين، ثم شاهدا من خلال ضوء مصباح زيتيّ سلسلة من الدرجات من الصلب المسلّح تنحدر إلى الظلام.

أمرهم دوجنز بأن يحضروا الستائر، فعادوا حاملين قماشاً متفسّخاً، تم وضعه فوق الجوانب المنصهرة، ثم هبط دوجنز في الحفرة، وقد ربط حبلاً تحت إبطيه، وتبعه كل من نيال وميلو.

رأى نيال من أسفل أن القار قد كسا باباً مسحوراً عريضاً تسند جوانبه دعائم من الصلب المقوّس، يبلغ عرض كل منها ست بوصات.

تساءل قائلاً: كيف يمكن لأيّ شخص رفع هذا من أعلى، لا بد وأنه يزن نصف طن.

ـ إنه لم يصمّم ليتمّ رفعه من أعلى، فالأبواب تخضع لسيطرة من أسفل، ومن المرجح أن هناك لوحة مفاتيح في المبنى الإداري.

خطا دوجنز بعناية حول بركة القار، التي تصلّبت ببطء فوق الدرجات، وقال: اتبعني وكن على حذر! فهذا المكان قد يكون شركاً خدّاعاً.

قال نيال: في هذه الحالة، من الأفضل أن أكون في المقدمة، فسوف استخدم هذا.

ومدّ القضيب المتداخل أمامه.

ـ ليكن، ولكن بالله كن . . .

لم تكتمل هذه الجملة قط، إذ أنه بمجرد أن خطا نيال خطوته الأولى من أسفل الدرج، حدثت قرقعة، أعقبها ارتطام شيء. ولمع أمام عينيه شيء، ووجد نفسه ينظر إلى حاجز معدنيّ صلب، امتدّ عبر الدهليز في طرفة عين. خطف الحاجز القضيب المتداخل من يده، وألقى به على الحائط المواجه. لم يكن هناك أدنى شكّ في أنه لو كان جسم نيال هو الذي اعترض الباب، لأصبح محطماً على الأرض، أو ربما انشطر كما لو أن فأساً ضخمة قد جزّته.

لكن الإحساس بالسيطرة على النفس، الذي ولّدته مرآة التأمل، كان في غاية القوة، فلم يشعر سوى بصدمة خفيفة، فقد أبطل عقله بالفعل عملية تدفّق الأدرينالين قبل أن يتاح له الوقت للوصول إلى مجرى الدم. وحينما مدّ يده لمحاولة تخليص القضيب، كانت يده ثابتة تماماً. ولكن القضيب كان محصوراً كما لو أنه في مِلزمة.

قال دوجنز بجفاف، وقد نمّت قسمات وجهه عن شعوره بصدمة عميقة: أرأيت ما كنت أعنيه. تراجع!

صوّب المسدس على حافة الباب، على بعد قدم دون القضيب. جعل الضوء الأزرق، في الظلام، المكان المغلق يبدو مثل كهف مسحور. لاحظ نيال أنه أطلق شرراً خافتاً فرقع في شعر دوجنز. اضطرا للتقهقر فوق الدرج، بعد أن أصبح الباب أحمر ساخناً، ثم أبيض ساخناً. انسابت قطرات من المعدن المصهور، مثل قطرات ماء، ثم ظهرت فجوة في حجم قبضة اليد. حدث صوت تصدّع، ثم لم يعد الباب موجوداً. لقد أزيل بسرعة، فلم يتبق سوى شيء ضبابي لا أكثر، ثم اختفى في الجدار قبل أن يصل القضيب المتداخل إلى الأرض.

انحنى نيال لالتقاطه، ثم لعن وسبّ عندما حرق المعدن أصابعه. جثا وفحصه تحت ضوء المصباح. وجد أن المعدن لم يصب بأي شيء.

أطال، مرة أخرى، القضيب ليصل إلى طول الذراع. لم يحدث شيء هذه المرة، لقد دمّرت الحرارة أية آلية أدّت إلى ظهور الباب.

وصلوا بعد عشرين متراً أخرى إلى شبكة قضبان معدنيّة صلبة مثل بوابة سجن، بدت هائلة، لكن قفلها ذاب في الحال، بفعل حرارة المسدس. ثم واجها بعد عشرة أقدام بعد ذلك باباً آخر من الصلب الصلد، له قفل ذو أرقام. رفع دوجنز المسدّس، لكنه غيّر رأيه، قائلاً: «لا. لنجرب فتحه». راقبه نيال بافتتان، وهو يضع أذنه فوق القرص المدرج؛ ثم وهو يحرك المقبض برفق إلى الخلف والأمام بأطراف أصابعه. حدثت بعد عشر دقائق سلسلة من القرقعات، وتمكن دوجنز من سحب الباب وفتحه. وأدركا عندئذ الحكمة من وراء قراره بعدم استخدام المسدس؛ فقد وجدا خلف الباب مباشرة أكواماً من صناديق المتفجرات الحمراء، وقد رسمت فوق كل صندوق جمجمة وعظمتان متصالبتان.

تأكّدا أن هذه الصناديق تمثّل الحاجز الأخير، وعندما نقلها الرجال إلى الدهليز، رأوا تحت ضوء مصابيحهم حجرة طويلة خفيضة السقف تمتلىء بصناديق خشبية ومعدنية. لمح نيال، وهم وقوف في المدخل، وقد رفعوا المصابيح إلى ما فوق رؤوسهم، وجه دوجنز وقد التمعت عيناه وندّ عنهما تعبير رجل حقّق أهمّ هدف في حياته.

سأله نيال بفضول: اتعرف أن هذا المكان كان موجوداً؟

حدّق دوجنز فيه، مثل رجل استيقظ من حلم، وقال: «سمعت شائعات، فقد تردد الكثير من الشائعات، لكنني لم أصدقها». تنهّد واستطرد قائلاً: «يا إلّهي، إن الأسلحة التي تملأ المكان تكفي لشنّ حرب». تقدّم مُنعماً النظر في الملصقات فوق الصناديق، التي

كُتب عليها: «صواريخ، قنابل حارقة، كبسولات انشطارية، قنابل ذرية. . .»، فبدا مثل رجل يردّد ابتهالات مقدسة.

التفت نيال إلى ميلو، وقال له: من الأفضل أن تذهب وتحضر الآخرين! وعندما مضى ميلو، هرع إلى دوجنز الذي انعكس ضوء المصباح، الذي يحمله على الجانب الأقصى من المخزن. وجده جالساً فوق صندوق ذخيرة، وقد تدلّت يداه بين ركبتيه.

ـ هل أنت على ما يرام؟
ـ نعم، لماذا؟
ـ تبدو عليلاً.
هزّ دوجنز رأسه ببطء، وقال: لست مريضاً. إنه مجرّد شعور بالرعب.
ـ مم؟
ـ من كل هذه القوة.

ثم راح يحدّق أمامه، فجلس نيال بجانبه، وقال: أتدرك ما تمثّله هذه الأسلحة؟ وقدرتها على تغيير العالم، وتحقيق ما ترغب فيه. . .

ـ للتخلّص من العناكب؟
ـ نعم، حتى ذلك تستطيع تحقيقه.

شعر نيال بالحيرة، وقال له: لا أفهمك. إن المتفجّرات تحت تصرُّفك دائماً.
أشار بيده قائلاً: «ليس مجرّد المتفجّرات. أترى ذلك؟».

كان يشير إلى كومة من الصناديق المعدنية السوداء، يبلغ سمك كل صندوق نحو ثلاث بوصات، وطوله ثماني عشرة بوصة، وقد كُتب على الملصق الموضوع على الجدار فوقها ثلاثة أحرف هي «أ. ف. ل».

ـ ماذا تعني هذه الحروف؟
ـ تعني الليزر الانشطاري الآلي.

خاض وسط الصناديق، وفتح أحدها قائلاً: وتشتهر هذه الأسلحة باسم الحاصدات.

ـ نعم، لقد سمعت عنها.

لكن دوجنز لم يكن منصتاً، فقد راح يحدّق في الصندوق متأملاً. ثم مدّ يده وحمل السلاح. وجده نيال صغير الحجم على نحوٍ أحبطه، إذ لم يزد حجمه عن دُمية. كان أسود

اللون، لا يزيد طوله عن قدم، وله عقب خشبية قصيرة، وماسورة قوية قصيرة، يوجد تحتها مقبض مقوّس.

أعاده دوجنز إلى الكرسي، وهو يتفحّصه بهدوء وعناية، كما لو أنه يتعامل مع طفل حديث الولادة.

سأله نيال: ألم تر مثل هذا السلاح من قبل؟

ـ ليس بإمعان وعن قرب.

وقف الآخرون ينتظرون عند الباب، فأومأ لهم دوجنز قائلاً: «هلمّوا! لديّ شيء أريد أن أريكم إياه. جعل دوجنز السلاح يتأرجح، وهو يمسك بشريطته الكتفية، قائلاً: إنكم لن تتخيلوا أن هذا هو أفتك سلاح تمّ اختراعه، أليس كذلك؟

بدا واضحاً أنهم لم يروا أيّ سلاح حاصد من قبل. سأله ميلو: أهو أكثر فتكاً من القنبلة الهيدروجينية؟

ـ أكثر فتكاً منها بكثير. لم يجرؤ أحد على استخدام القنبلة الهيدروجينية لأنها لا تميّز بين الأشخاص، أما هذا السلاح الصغير، فبإمكانه إبادة شخص أو جيش بأكمله.

سأله نيال: أهو أقوى من مسدسك؟

ـ أقوى بكثير، وأكثر دقة في التصويب؛ فالمشكلة التي تكمن في المسدس أن أشعته تنتشر فوق رقعة كبيرة، وبالتالي فهو عديم الجدوى في مجال يزيد عن أربعين متراً، أما هذا فيصل مداه إلى ميلين.

ـ أليس ذلك بالغ القوة؟

ـ كلا، إذ بالإمكان تعديله. فهذه الرافعة يمكن زيادة مداها وتخفيضه. أضبطه على الصفر، فلن يطلق النار على الاطلاق، واضبطه على أول درجة، فيصل مداه إلى خمسين قدماً، وهكذا حتى الدرجة العاشرة التي إن أردت بها تحطيم جدار، فستجد أنك تدمر نصف المدينة.

التفت إلى مساعد موستيج، وقال له: أوليس! أريد أن تسلم واحداً لكل شخص، ثم أريدكم جميعاً أن تقضوا بضع دقائق في التعرّف على كيفية ضبطه وتعديله! لا تنس مطلقاً ـ بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ـ ألاّ تصوبه على شخص آخر ما لم يَعْنِ ذلك أنك تريد قتله!

أثارت كلمة «قتل» في نيال قشعريرة داخلية غريبة، كما لو أن ريحاً باردة قد جعلت

قلبه ينقبض. لم يكن ذلك بسبب الكلمة نفسها، ولكن بالطريقة التي قالها دوجنز، والتي جعلت القتل يبدو كما لو أنه نشاط عاديّ ومشروع تماماً.

سلّمه ميلو حاصداً، فدهش عندما وجده ثقيلاً بالمقارنة مع حجمه ـ فهو يزن أربعة عشر رطلاً على الأقل ـ ويبدو أن معظم هذا الثقل يتركز في التجويف الأسطواني المنتفخ، الذي يقع فوق واقي الزناد مباشرة. جعل ثقله من الطبيعي الإمساك به، وقد ضغط عقبه فوق العضلات أعلى الفخذ، وقبضت اليد اليسرى بشدّة حول النتوء أسفل الماسورة.

انتاب نيال إحساس، وهو ممسك به على هذا الوضع، جعله يشعر بالحيرة والاضطراب؛ فقد بدا الوضع مألوفاً، كما لو أنه يتعامل مع الأسلحة طوال حياته.

راح دوجنز، في الوقت ذاته، يتفقّد الجوانب الأخرى في المخزن. وعثر على عتلة، ففتح بها صندوقاً خشبياً طويلاً، ليجد فيه أنبوباً معدنياً طوله ثمانية أقدام، وعدداً من القذائف تماثل القنابل. وضحك دوجنز بارتياح، وهو يقذف بإحدى هذه القذائف في الهواء ويتلقّفها بيده.

ـ انظر إلى هذه الجميلة الصغيرة!

ـ ما هذه؟

أشار دوجنز إلى الأنبوب قائلاً: إنها منجنيق «برودسكي»، وهو أعظم سلاح مضادّ للدبابات تم اختراعه. إنه دقيق التصويب لمدى يصل إلى ميل. ثم نظر بإعجاب إلى القذيفة، وقال: هذا الشيء بإمكانه إحداث فجوة في جدار ارتفاعه عشرة أقدام.

أدرك نيال فجأة السبب الذي أثار انزعاجه منذ بضع دقائق، فالحاصد أثار فيه إحساساً بالسيطرة والقوة. إنه قوة سلبية تماماً، نظراً لأن الغرض منه هو الدمار لا غير ـ ومع ذلك فإنه يلبّي رغبته على نحو غريب، فقد جعل الحاصد إرادته تتركز بالطريقة ذاتها التي تحقّقها مرآة التأمل.

اقترب ميلو منهما قائلاً: ما هذه الأشياء؟

كان يقبض على حفنة من أجسام كروية معدنية لامعة، يصل قطر كل جسم منها بالكاد إلى بوصة واحدة.

ـ إنها قنابل حارقة، ما عددها؟

ـ عشرة صناديق.

ـ حسناً. تأكد أن كل فرد قد ملأ جيوبه بها! ثم استعدّ لمغادرة المكان! فقد حان وقت الرحيل.

سأله نيال: هل تمانع في أن أطرح عليك سؤالاً؟

ـ هلمّ!

ـ عندما انطلقنا هذا المساء، أكنت تأمل في العثور على الحاصدات؟

ـ بالطبع.

ـ إذن ما الذي جعلك تغيّر رأيك؟

ـ فيمَ؟

ـ بشأن محاربة العناكب؟

هزّ دوجنز رأسه قائلاً: لنكن واضحين، إنني لا أعتزم محاربة العناكب. (ثم رفع الحاصد بيده واستطرد): هذا ليس لقتالها، ولكن لمساومتها.

ـ على ماذا؟

ـ على الحرية.

ـ ولكنني أظن . .

قاطعه دوجنز، قائلاً: الحرية وعدم التدخّل. لماذا تعتقد أننا نستخدم المصابيح الزيتية، وليس البطاريات الكهربائية؟ ولماذا تظن أنني أشعل هذه الأشياء بعلبة قدح بدلاً من الثقاب؟ بسبب العناكب.

ـ إنني لا أظن أنها تملك أية سيطرة على الخنافس.

ـ إن معاهدة السلام تنصّ على عدم السماح لأيّ خادم لدى الخنافس باستخدام أو بناء آلة أو مولّد أو محرّك أو آلة حاسبة، أو حتى ساعة. وقد سار الوضع على هذه الوتيرة منذ أكثر من مائتي عام.

ـ وماذا عساها تصنع إذا خرقتم الاتفاق؟

ـ تشنّ الحرب على ما أعتقد، وسوف تحاول القضاء علينا هذه المرة.

ـ أبامكانها القضاء عليكم؟

ـ بسهولة، فعندما وضعت المعاهدة، كان عدد الخنافس يماثل عدد العناكب. أما الآن فإن عدد العناكب يفوق الخنافس بمعدل ألف إلى واحد.

قطب وربت على الحاصد، قائلاً: ولكن مع وجود هذا الشيء، فإننا نفوق العناكب بمعدل ألف إلى واحد.

اقترب ميلو وحياهما قائلاً: نحن على استعداد يا سيدي!

ـ طيب. تقدّمهم إلى ساحة الثكنات وانتظرني!
سأله نيال: ما الذي سيحدث لو أن العناكب اكتشفت هذا المكان؟
ـ لا يهمّ. كما أنها لن تتمكّن من دخوله.
ـ لا يتعيّن عليك أن تقلّل من قدر كازاك.
ـ لا أبالي.
كانا قد وصلا إلى الباب فقال له: ساعدني في نقل هذه الصناديق!

وضع نيال ودوجنز صناديق المتفجّرات الحمراء وراء الباب، كما وجدوها. وعندما وضعا آخر صندوق، أغلق دوجنز الباب الهائل، وأدار قرص القفل ذي الأرقام. ثم ضرب القرص بالعتلة حتى تمدّد مهشماً فوق الأرض.

قال دوجنز: وحتى كازاك لن يتمكّن من فتحه. وإذا ما نجح، فسوف يندم على ذلك.

توقّف دوجنز، وهما يصعدان الدرجات الاسمنتية، ووضع يده على ذراع نيال قائلاً: ثمة أمر أريد أن أقوله لك.

ـ هات ما عندك!
ـ أشكر لك مساعدتي في العثور على هذا المكان، ولعلني أستطيع أن أردّ لك هذا الصنيع في أحد الأيام.

ابتسم نيال وقال: لقد قمت بذلك بالفعل.

- ١٣ -

كان الظلام قد انتشر في الخارج على نحو غير متوقّع. وهبّت الريح، وحجبت سحابة ممطرة قاتمة القمر. بدا لهيب المصابيح الزيتية الخافت كما لو أنه يزيد الظلمة المحيطة، فأخذ دوجنز يسبّ ويلعن بصوت هامس.

ـ لا أحبّ هذا الجوّ، فهو يعني أن بمقدور العناكب رؤيتنا، ولا نستطيع نحن ذلك.

ـ إذن لننتظر حتى طلوع الفجر.

هزّ دوجنز رأسه، فشعر نيال بتردّده، وقال: لا أرغب في البقاء هنا دقيقة واحدة أكثر مما ينبغي.

سأله أحد الرجال: ماذا عسانا فاعلين مع التعس سيبريان؟

ـ سيتعين علينا تركه حيث يوجد.

ـ هل بمقدورنا البحث عن مكان لدفنه فيه؟

هزّ دوجنز كتفيه، وقال: ليكن. لنحمله معنا.

رفع أربعة منهم الجثة، اثنان أمسكا بالذراعين، وآخران بالساقين. تقدمهم دوجنز إلى البوابة الخلفية، وسحب المسدس من جيبه.

ـ أريد أن أريكم شيئاً. انظروا!

صوّب المسدس في وسط الباب المعدني، وسحب الزناد. امتلأ الجو، عندما ومض خيط البرق الأزرق من الماسورة، برائحة معدن ساخن، وتحولت البوابة إلى اللون الأحمر الساخن، ثم الأبيض. لكن نيال دهش حينما لم تظهر أية دلالة على انصهار المعدن. خفض دوجنز المسدس وقال:

ـ إنه معدن خاص مقاوم للصاهر، يسمى «لاتريكس» ـ مصمّم لصدّ الارهابيين. والجدار مصنوع من معدن مماثل. انظروا الآن!.

عدّل الرافعة على الحاصد، ثم صوبه على البوابة. انطلقت الأشعة الزرقاء الرفيعة من الماسورة، مثل قضيب زجاجي مضيء. ظهرت فجوة صغيرة في المعدن، حيث أصابت الأشعة البوابة. رفع دوجنز، عَرَضاً، الحاصد فأحدث لهيباً أزرق بالغ الصغر، مرق خطاً مستقيماً رفيعاً، وشطر جزءاً كبيراً من البوابة، فسقط للخلف محدثاً صوتاً مكتوماً أكّد ثقله. رأى نيال أن سماكة المعدن تصل إلى ست بوصات.

قال دوجنز: ضعوا المصابيح في الخارج، واتبعوني! اجعلوا مسدساتكم في وضع التأهب! ولكن لا تطلقوا النار دون أوامر مني!

تقدمهم، وعندما عبر نيال الفجوة في البوابة، مر بأصبعه على المعدن، فوجده بارد الملمس.

توقّف الآخرون، فظنّ نيال أنهم يرفعون أحمالهم، إلى أن سمع صوتاً مكتوماً، كان بدون شك صوت سقوط جسم. أصابه الشلل، بمجرد أن اجتاز البوابة، فتجمد في مكانه دون حراك. رأى، حينما ظهر القمر من وراء السحب، العناكب التي كانت بانتظارهم على الجانب الآخر من الطريق. فبدت مثل تماثيل سوداء، وانعكس ضوء القمر على عيونها الجامدة.

لم يشعر نيال، هذه المرة، بأي خوف، بل إنه لاحظ، على الرغم من التسلل الذي أصاب عضلاته، فجعل ذراعيه جامدين دون حراك، كما لو أن ضاغطاً قد قطع الدورة الدموية عنهما، أن عينيه ماتزالان قادرتين على التحرك بصورة طبيعية، كما أن ذهنه لم يتأثر على الاطلاق. وعلاوة على ذلك، فقد استطاع، نظراً لأن مرآة التأمل ماتزال نحو الداخل، تكثيف تركيزه واستعادة إحساسه بالقوة المركزة. بدأ الشلل في ذراعيه وكتفيه، عندما فعل ذلك، يتلاشى. لكنه إذا ما خفف التركيز، يعود مرة أخرى. كان إحساساً مريحاً على نحو غريب، مثل دفع موجة من العجز. وبذل جهداً أقوى، فانحسرت الموجة، وتحرّر جسمه بالكامل. بدا واضحاً أن العناكب لم تكن على علم بما يجري.

ثم تحرّك أحد العناكب متّجهاً نحوهم، فقرّر أن الوقت قد حان للقيام بشيء. رفع الحاصد وسحب الزناد، فلم يحدث شيء. أدرك أن الرافعة ماتزال في وضع الأمان، دفعه للأمام بإبهامه وسحب الزناد.

اختفى العنكبوت، وكذلك الدرابزين خلفه، وجزء كبير من واجهة المبنى. بهر خط

الضوء الأزرق بصره، وارتدّ السلاح بعنف في عضلات معدته. وعندما رفع يده من فوق الزناد، كانت عيناه ماتزالان منبهرتين بتأثير قوة الضوء. بدا السكون، الذي لم يدم طويلاً، مخيفاً وغير طبيعي.

كانت العناكب الأخرى - ويبلغ عددها نحو ستة - ماتزال مشلولة الحركة من جراء الصدمة. أدرك، عندما صوب الحاصد عليها، أن ذلك غير ضروري. فقد انهارت قوة إرادتها في اللحظة التي اختفى فيها العنكبوت الأول. بدا الأمر كما لو انها متصلة ببعضها البعض، وأن الهلاك الذي لحق بواحد منها قد أثر عليها جميعها. كان هذا هو السبب الذي جعله لا يحاول سحب الزناد، رغم أنه قد صوب السلاح إليها؛ فقد أدى بؤسها إلى عدم استغلاله لقوة السلاح الذي في يده.

حينما تردّد، انطلقت أشعة أخرى من وسط الظلام، وأصابت أقرب عنكبوت، ثم تحركت فشطرت العناكب الأخرى قبل أن تتمكن من العدو. كان تأثير ذلك فاتناً ومثيراً للغثيان. فقد شطرتها الأشعة، مثل مدية هائلة، قطعت، في الوقت ذاته، الدرابزين خلفها. ملأت بعد لحظة رائحة لحم يحترق في الهواء. تدحرج النصف الأعلى لجسم عنكبوت في بالوعة، بينما سقطت قوائمه والجزء الأسفل من بطنه فوق الرصيف. لم تحدث أية انتفاضة. أو أي شيء يشير إلى عملية قتل بالعنف؛ فقد بدت الجثث كما لو أنها لم تكن على قيد الحياة ذات يوم. حدث كل هذا في غاية السرعة، وكأنه لم يتجاوز لحظة.

خفض دوجنز الحاصد، وأشار إلى السلاح في يدي نيال، وقال:

- لقد رفعته إلى أعلى كثيراً.

- أعرف، فقد كانت الرافعة على الدرجة الخامسة.

- لكنك حقّقت الإنجاز ذاته.

كانت هذه الكلمة بمثابة إشارة جعلت الآخرين يحيطون به، وبعضهم حاول احتضانه، والبعض الآخر راح يصافحه، والبعض ربت على ظهره حتى جفل. طغى عليهم الامتنان - سواء العاطفي أو الجسماني - وحل مكان الإحساس بالرعب.

لم يمرّ أحدهم من قبل بتجربة شلل الإرادة، وقد هزهم الموقف بشكل يفوق وفاة رفاقهم. فهم نيال ذلك، فقد أدرك أنه إنكار لأهم صفة إنسانية، وهي السيطرة على الجسم. لقد كانت التجربة أشبه بالصراع مع الموت.

قال دوجنز: ليكن. ذلك يكفي، يتعيّن علينا أن نتحرك.

أخذ يعدل الرافعة فوق مسدسه، وأغمض نيال عينيه بصورة غير إرادية، عندما ضغط على الزناد. ولما فتحهما، وجد أن بقايا العناكب قد اختفت، وأن حفرة صغيرة على الرصيف قد حلت مكانها.

سأله نيال: أليس أفضل أن نحتمي بالحصن حتى شروق الشمس؟

- نعم، ولكن ليس في الحصن، إنه أول مكان ستقوم بتفتيشه. قد نعثر على دور تحتي في أي مبنى.

التفت إلى ميلو قائلاً: أما زلت ترغب في نقل سيبريان؟

تردد ميلو، وقال: كما تشاء.

صوّب دوجنز الحاصد على الجثة، ثم بدا أنه غيّر رأيه.

- لنحمله معنا. سوف نحاول أن نخبئه في مكان حتى نعود.

تساقطت قطرات قليلة من المطر فوق الرصيف، وهم يرفعون الجثة. لم يتمكنوا من رؤية بعضهم البعض، وسط الظلام والرياح، تعثروا وهم سائرون في غير نظام، وأخذوا يتخبّطون، إلا أن ذلك الاحتكاك ولد إحساساً بالارتياح. وهبّت ريح باردة فعرفوا أنهم وصلوا إلى زاوية الشارع.

سأل دوجنز نيال: ألديك فكرة عن المكان الذي نحن فيه؟

- إن مبنى البلدية يقع هناك.

- ليكن. سوف نتجه إليه.

كشف شعاع من ضوء القمر عن شارع يمتدّ نحو الاتجاه الشمالي. كان عريضاً، ولاحت بناياته سليمة نسبياً. ساروا في وسط الطريق، نظراً لعدم وجود أنسجة العناكب فوق رؤوسهم. إلا أن ثقل الجثة أبطأ من تقدمهم، فقال دوجنز، بعد أن ساروا حتى منتصف صفّ من البيوت المتجاورة: توقّفوا هنا! ضعوه على الأرض! وسوف أحاول العثور على دور تحتي.

انتظروا في الظلام، وهم يرتعشون وسط الريح، التي هبّت عليهم مثل تيار ثلجي. رأوا بعد لحظات وميض ضوء أصفر، من تحت مستوى الرصيف، ثم تبعه الوميض الأزرق للحاصد. ناداهم دوجنز قائلاً: أحضروه إلى هنا!

انتظر عند أسفل سلسلة درجات، أفضت إلى طابق تحتي، يقوم خلفه باب مفتوح. وبدأت الأمطار تنهمر بغزارة، عندما دخلوا، ودفعت الريح الباب المفتوح، وصفقته خلفهم.

كشف المصباح أنهم في حجرة رحبة مؤثّثة، فقد كست السجاجيد الأرض، وانتشرت الطاولات والكراسي، وانتصبت خزانة كتب ذات واجهة زجاجية. وأدرك نيال أنها كانت شقّة مريحة ذات يوم، أما الآن فإن رائحة الغبار، والتعطّن تنتشر فيها. إلا أن هطول الأمطار فوق الرصيف، والريح التي لطمت النوافذ بعنف، جعلتهم يشعرون بالارتياح والسكينة.

كانت ستائر النوافذ مصنوعة من قماش ثقيل متين، غير ممزّق أو متآكل، على عكس الستائر في الثكنات. وقد طلب دوجنز منهم، بعد أن أسدل الستائر، إضاءة كل المصابيح. ثم وضع كرسياً ثقيلاً وراء الباب، ليمنع الريح من فتحه بعد أن هشم الحاصد قفله. ثم استراحوا واستقروا، بانتظار بزوغ الفجر.

بدوا جميعاً متوتّرين ومستنزفين، ولاحظ نيال أن بعضهم قد أوشك على الانهيار، بعد أن كانوا قبل بضع ساعات ممتلئين بالحيوية والمرح نتيجة لتحدّيهم سلطة العناكب. أما الآن فإن ثلاثة منهم قد لقوا حتفهم، ويدرك الباقون أنهم قد لا يرون مطلقاً بيوتهم مرة أخرى. ومع ذلك فلم يبد أحد منهم أي استياء، أو يوجه أي لوم لدوجنز لأنه قد زجّ بهم في هذا الموقف الكئيب. وشعر نيال، وهو يتطلع إلى وجوههم الشاحبة المجهدة، بالإعجاب والشفقة عليهم في الوقت ذاته.

تذكر نيال، عندما أخرج أحدهم تفاحة من جيبه، وبدأ يقضمها، أقراص الطعام، فأخرج الصندوق من جيبه.

ـ أثمة أحد يشعر بالجوع؟

تهلّلت وجوههم جميعاً، لكنها سرعان ما عادت لحالتها المكتئبة بعد أن رأوا الكبسولات البنّية الصغيرة. مع ذلك تناول كل واحد منهم قرصاً، بل إن دوجنز، الذي أشاح بيديه عنها في البداية في سأم وبصبر نافد، ابتلع قرصاً. مضغ نيال قرصه، فأحس في غضون دقائق بموجة من البهجة والارتياح تغمره، بعد أن تغلغل الدفء في حلقه، ثم اتسع نطاقه ببطء حتى امتلأت معدته بوجبة ساخنة أثارت فيه شعوراً بالنشوة. ظهر التأثير على الآخرين في الحال، وتلاشى جوّ الفتور والتواني، بعد أن صعد الدم إلى وجناتهم، ثم راحوا فجأة يتحدثون بحيوية كما لو أن الساعات القليلة الماضية كانت مجرد حلم.

سأله دوجنز: من أين حصلت على هذه الأقراص؟

ـ من آلة.

ألقى عليه نظرة مستغربة، لكنه لم يحر جواباً.

اتضح لهم أن بقية الشقة تتكوّن من مطبخ وحجرتي نوم. اكتست جدران المطبخ بقوالب سوداء اللون، بينما كاد الجص المتساقط من السقف أن يغطي قرميد الأرضية الحمراء، لكن غرفتي النوم كانتا جافّتين بشكل مدهش، وعثروا فيهما على بطاطين، وألحفة ووسائد. اجتذبتهم الملابس، التي عثروا عليها في الخزانات، وتسابق البعض منهم ليقيسوها. بدا أن هناك اتفاقاً عاماً على أن تكون ملابس رجال هذه العصور القديمة ـ وخاصة السراويل ـ غريبة وقبيحة أيضاً، بينما بدت ملابس النساء عملية بصورة أكبر.

اكتشفت أوليس خزانة بالحائط مليئة بالقوارير والأكواب. لمعت عينا دوجنز وهو يتفحص قنينة بها سائل كهرماني اللون.

ـ ويسكي اسكتلندي. إنه مشروب قديم مثل النبيذ، لقد أعجبت مرة بقنينة في طلل مغمور.

نزع الغطاء المعدني الرقيق من حول العنق، وأزال الفلين وأخذ يشمّها. ثم رفعها، وسط ذعرهم، إلى شفتيه. راقبه الجميع بقلق، وهم يتوقّعون أن ينهار أو أن يلفظ السائل. إلا أنه احتساه مستسيغاً طعمه، وأخذ رشفة أطول، ثم ناول الزجاجة لنيال قائلاً له: «جرِّبه!».

وجد نيال مذاقه مروعاً وغير مستساغ، يختلف تماماً عن السائل الذهبي، الذي شارك أودينا في احتسائه فوق القارب. لكنه أدرك، بعد بضع دقائق، أن تأثيره مماثل إلى حدّ كبير: فهو مهدّىء، يثير إحساساً محتدماً بالانفعال والحيوية. انتابه، وهو يراقب الآخرين، وهم يصبون السائل الأحمر بلون النار في الأكواب، فيضان من العواطف أذهله. بدا الأمر كما لو أنهم يشاركون في مراسم دينية، أو في طقوس معينة. واستمر ذلك لبضع لحظات فقط، ولكن خلال ذلك الوقت تحققّت لديه درجة عالية من التركيز. فقد طغى عليه، لأول مرة في حياته، شعور بالحب تجاه رفاقه والجنس البشري كنوع. وأصبح هؤلاء الشباب الذين يعرف أسماءهم بالكاد ـ أوليس، ميلو، يورج، كريسبين، هاستور، رنفرد، كوزمين ـ من الأشخاص الأعزّاء عليه، مثل أمه وشقيقه.

باتت الحجرة دافئة على نحو أدخل في أفئدتهم السرور، بعد أن رفعت حرارة المصابيح الزيتية والحرارة الناتجة من أجسامهم بالتدريج من درجة الحرارة. اشتمّ جميعهم رائحة كريهة مثل رائحة لحم متحلّل. أدرك نيال، الذي اشتمّها قبلهم ـ أنها آتية من الجثة الممدّدة عند الزاوية. تحوّل الوجه إلى اللون الأرجواني، بينما بدأ الكاحلان والرسغان في الانتفاخ. أصبح الخدش فوق الجانب السفلي للساعد جرحاً أسود غائراً، وبدا أن هذا هو مصدر معظم الرائحة العطنة. سحبوا جثة سيريان إلى المطبخ، وتركوها

تحت طاولة، وغطّاها نيال بعد تفكير، بمفرش مائدة لدن. وأصرّ ميلو، من باب التوقير، على ترك أحد المصابيح مضاءً فوق كرسي بجانب الجثة، فقد كان سيبريان ابن عمه.

شعروا جميعاً، فجأة، بالاجهاد. حاول نيال تصفّح الكتب في المكتبة، لكن عينيه رفضتا التركيز؛ فقد مرت أربع وعشرون ساعة منذ آخر مرة نام فيها. اقتعد كرسياً بذراعين، ولفّ بطانية حول كتفيه، واستسلم للنعاس. بدت الأصوات حوله، وكأنها ترشحت من خلال وسيط كثيف، كاتم للصوت، ومع ذلك أثارت إحساساً بالدفء والقرابة. حمله هذا الشعور بالرضا، مثل موجة ليدخل في نوم هادىء بدون أحلام.

استيقظ وهو يشعر باضطراب غريب، كما لو أن شيئاً دبقاً يضغط على وجهه، بدا أنه يتحلّل عندما رفع يديه في محاولة لدفعه بعيداً. أضيئت الحجرة الآن بمصباح وحيد، وكان الجميع نائمين. وأثار السكون قلقه للحظة، ثم أدرك أن الريح قد هدأت، وأن الأمطار لم تعد تتساقط على النوافذ. راح دوجنز، على الكرسي المجاور، يشخر بهدوء. كما وجد عند قدميه، شاباً أسود الشعر يسمّى كوزمين نائماً على ظهره، وفمه مفتوح. بدا أن كابوساً قد انتابه، فظلّ يلهث باضطراب.

ثم أصبح مدركاً للصوت، الذي كان ضعيفاً للغاية ومن الصعب تحديده؛ جلبة سائل مترقرق، تتداخل فيها خشخشة أوراق شجر جافة. ربط نيال هذا الصوت بالاحساس الخانق الذي أيقظه. بدا، في بداية الأمر، أنه آتٍ من الجانب الآخر للباب الأمامي، وتصور أنه مرتبط بمياه الأمطار، ثم أدرك أنه يتناهى من المطبخ. أصاب الألم جمجمته، عندما حاول التحرك، فعرف أنه قد نام ومرآة التأمل مقلوبة للداخل، فمد يده إلى صدره وقلبها، فعاد إليه الإحساس بالراحة في الحال.

نهض واقفاً بحذر، تاركاً البطانية تنزلق على الأرض، وأخذ المصباح من فوق الطاولة، ثم اتجه نحو المطبخ.

جعله ما رآه يلهث ويتقهقر خطوة. بدا المكان تحت الطاولة وقد تحوّل إلى كتلة من مادة لزجة رمادية تجيش مثل زبد فوق مِرجل. أدرك، حينما انحنى وقرّب المصباح، ما حدث. فقد تغلغل فطر من خلال فتحة في السقف، وراح يلتهم الجثة، فالتقط مقشّة من الأرض، ودفعه بها، لكن الفطر تجاهله.

همس دوجنز، الذي أيقظته حركة نيال: ما هذا؟

وعندما رأى الفطر، تراجع مشمئزاً. هزّ كتفيه، بعد أن ظل يراقبه لبضع لحظات، ثم قال: «لعل ذلك أفضل ما يمكن أن يحدث».

ـ أهناك أية وسيلة لقتله؟
ـ النار أو الحاصد، وإلا فإن من المستحيل قتله.
ـ ماذا يحدث لو شطرته؟
ـ لا شيء.

أخرج دوجنز المدية المكسورة، وشرطه عند مجسّ رمادي ملتوٍ، فسقط على الأرض متلوياً مثل دودة. راقب نيال، بدهشة مشوبة بالذعر، جسم الفطر الرئيسي، وهو ينتشر مثل سائل دبق، بينما تحرك الجزء الملتوي باتجاه الفطر. التحما معاً، والتهمت أفواه غير مرئية الجزء المنفصل.

ـ أهي خطيرة؟

ـ إذا لم تستطع الابتعاد عنها، إذ انها تتحرّك ببطء شديد، يحول دون إلحاق ضرر بالغ.

ـ وعلى أي شيء تتغذّى معظم الوقت؟

ـ لا أحد يعرف. يبدو أن بمقدورها مواصلة الحياة لسنوات بدون غذاء.

تثاءب دوجنز وهو يقول الجملة الأخيرة، ثم عاد إلى كرسيّه.

واصل نيال، لمدة خمس دقائق أخرى، مراقبة الفطر بمزيج من الافتتان والاشمئزاز حيث راح ينشر رائحة تماثل النباتات العطنة، وأثارت الآلاف من أفواهه الصغيرة جلبة مستمرة وهي تلتهم الجثة. كشف خط من المادة اللزجة، يمتد من الفتحة في السقف ويهبط بامتداد جدار المطبخ، عن أن الكائن لديه القدرة على تسلق الأسطح الملساء. كما بدا أنه يأكل بسرعة غير عادية، مما أدى إلى اختفاء ملامح جثة سيريان.

حينما أفسح الاشمئزاز مجالاً للفضول، ركز نيال عامداً على عملية التقلص الداخلي، إلى أن أصبح كيانه الداخلي ساكناً مثل ماء في يوم لا ريح فيه. شارك للحظة في وعي الفطر الملتهم، واستغراقه التام في عملية الهضم، وأثار انتباهه إدراك الكائن لوجوده، ولعله ينظر إليه على أنه كتلة منتشرة من قوة الحياة؛ وجبة محتملة وخطر كامن. لم يبد نيال اهتماماً، بينما راح الفطر يلتهم الجثة. ثم انسل وعيه إلى ما وراء وعي الفطر المتدني، وأدرك من جديد الطاقة المترقرقة النابضة، التي بدا أنها تنتشر من خلال الأرض، مثل مويجات فوق جدول. عرف فجأة، بما لا يدع أي مجال للشك أن حياة الفطر تعتمد إلى حد ما على مصدر الطاقة هذا، ومن الصعب معرفة طبيعة هذا الاعتماد.

كان مستعداً في البداية للاقتناع بأنه ليست للفطر حياة خاصة به، وانه يتلقى الحياة من الطاقة النابضة، لكن ذلك لم يكن تفكيراً معقولاً. أما التفكير الأدق فهو أن الفطر يحصل على العون من نبض الطاقة، مثل شجرة تستعين بالتربة الحية. وهذا يوضح سر إمكانية بقاء الفطر على قيد الحياة في البنايات الخالية لسنوات دون أن يتضور جوعاً. . .

قبّ شعر نيال، ولفّه إحساس بالانفعال، كما لو أن أحداً قد أفرغ دلوا من الماء المثلج فوق رأسه. كان التبصر الذي طرأ على ذهنه غامضاً وغير كامل التشكيل، لكنه شعر بأن له أهمية هائلة. ليس شجرة، ولكن نباتاً. . .إن هذا الكائن نوع من النبات المتحرك. فهو يتغذى الآن على هذه الجثة، مثلما تتغذى جذور نبات على الكائنات الحية المتحللة في التربة.

لكن نبض الطاقة يحاول رفع هذه الكتلة من النبات الفطري إلى مستوى أعلى، إنه يحاول تحويله إلى نوع حيواني، وهذا هو جزء من التبصر الذي ملأ نيال بالانفعال. وعلى الرغم من عدم امتلاك هذا الكائن لملكة الذكاء، فإن قوة تتمتع بالذكاء تقوده وتسيطر عليه. ملأه هذا الإدراك بشعور بالبهجة مشوب بذعر غامض، لكنه أحس أيضاً بفضول تجاه فهم المزيد عن النبضة الغامضة. أبمقدورها، على سبيل المثال، الإحساس بوجوده؟

عاد إلى الحجرة الأخرى، متفادياً الأجسام المضطجعة.

ـ هل لي أن استعير سلاحك؟

سأله دوجنز، الذي كان مايزال متيقظاً: لِم؟

ـ أريد أن أجرب شيئاً.

سحب دوجنز الحاصد من جيبه، وهو يقول له: كن حذراً، لقد وضعته على الدرجة المنخفضة، ومع ذلك بإمكانه إحراق المكان.

عاد نيال إلى المطبخ. انحنى، وصوب الحاصد على حافة الكتلة اللزجة، وسحب الزناد. ملأ الوميض الأزرق الجو برائحة الأوزون. تحول جزء يبلغ ست بوصات من الفطر إلى لون الفحم الأسود، واهتز الجزء المتبقي من الفطر، وانكمش مذعوراً. كما تداعت النبضة ذاتها، عندما حدث ذلك. ثم انسحبت المادة الحية الأساسية الرمادية من المنطقة التي ملأها الكربون، تاركة الجزء المحترق ملتصقاً بالأرض. واصل الكائن التهامه، كما لو أن شيئاً لم يحدث؛ فقد افتقر للذكاء الذي يدعوه للهرب.

مع ذلك، كشف هذا عما يريد أن يعرفه؛ فقد تمكن من الإحساس بتوقف وجيز للنبض، عندما أصابه الحاصد، الأمر الذي يعني أنه مدرك للهجوم. لقد كانت هناك علاقة متبادلة بين الفطر ومصدر الطاقة.

توقف الفطر بعد خمس دقائق عن الالتهام، وتحرك ببطء، وانسل من تحت الطاولة بحرّكة منقبضة، لا تختلف عن حركة اليرقة، وتسلق الجدار. لم يتبق شيء من جثة سيبريان، ولم يكن هناك فوق الآجر المكسو بالمادة اللزجة سوى بضعة أزرار، وأشياء أخرى غير قابلة للهضم. صوب الحاصد إلى الكائن، راغباً في إفنائه، لكن التفكير في الرائحة منعه من القيام بذلك. بدا أن الفطر قد أحس بنيته، فتحرك فوق الجدار بسرعة مدهشة، واختفى بعد لحظات قليلة داخل الفجوة في السقف.

ركز نيال إرادته بتكاسل، لمجرد مراقبة التأثير، وأصدر أمراً إلى الكائن بالتوقف عن الحركة. وعلى الرغم من أنه لم يعد مرئياً، فإنه تمكن من الإحساس بوجوده، كما شعر أيضاً بما نعته في إطاعة الأمر؛ فقد كان يرغب في التقهقر إلى ركن مظلم رطب، لهضم الطعام الذي استوعبه بفعالية. أمره نيال بالعودة مستخدماً مرآة التأمل لتوجيه إرادته. بدأ الكائن في القيام بذلك، وظهر مجسّ رمادي حول حافة الحفرة. تدخل نبض الطاقة، عندما حدث ذلك، وتصدّى لأمر نيال، فانسحب المجسّ. ركز نيال، الذي راح يتأمل بفضول، قوته الداخلية، وأمره من جديد بالعودة. نشب صراع عنيف للحظة، ثم بدا أن مصدر الطاقة قد استسلم. اقتنع نيال بأن السبب يرجع إلى إحساسه بأن الأمر ليس مهماً. تلوّى الفطر عبر الفتحة، وبدأ يعبر السقف.

فقد نيال اهتمامه، وجعل إرادته تسترخي، وتوقّع أن يتوقّف الكائن، ثم يتقهقر. إلا أنه واصل، بدلاً من ذلك، التقدّم وهو يتلوى عبر السقف، يهبط الجدار. أخذ يراقبه وهو يتقدم، حتى وصل إلى الأرض، ثم جرى فوق الآجر، وهو ينحي جانباً الجص الذي تساقط من السقف، إلى أن وصل عند قدمي نيال. صوب الحاصد نحوه وقد استعد للقضاء عليه، إذا ما حاول شن هجوم عليه. لكن هذه الكتلة النابضة من اللون الرمادي شبه النباتي، وشبه السائلة، ظلت ساكنة بانتظار صدور أية أوامر أخرى. أدرك نيال، بدهشة، أنه قد تقبّله على أنه مصدر التعليمات التي ينفذها. اختفى فجأة الدافع للقضاء عليه، فأمره بالعودة. جعل إرادته تسترخي من جديد بمجرد أن أصدر الأمر، فتراجع الفطر طائعاً، وتسلّق الجدار ليختفي في الفتحة.

أصبح المطبخ خالياً الآن، وبدا من غير المنطقي ترك المصباح مضاءً. مال نيال، فأمسك بزجاجة المصباح البصلية الشكل، وأطفأ النار، فنفذ ضوء رمادي عبر زجاج النافذة

المغبر، وعندما أنعم النظر أدرك أن الأشعة الأولى لضوء الشمس قد تغلغلت وسط السحب فوق أعلى المنازل من الجهة الشرقية. أدرك مذعوراً أن المصباح كان مرئياً من الشارع. وقف لمدة خمس دقائق محدقاً في اللون الرمادي، ثم عاد إلى الحجرة الأخرى، بعد أن لاحظ عدم وجود أية دلالة على الحركة. كان دوجنز هو الوحيد المستيقظ، فأخذ الحاصد دون تعليق، وأعاده إلى جيبه.

قال نيال: لقد أوشك النهار أن ينبلج.

ردّ دوجنز وهو يتمدّد ويتثاءب: حمداً لله على ذلك. استيقظوا أيها الرفاق! إذا حالفنا الحظ، فسوف نتناول افطارنا في بيوتنا.

اتجه نحو أقرب نافذة، ونظر من خلال الستائر، وقال: سنتحرك في غضون عشر دقائق.

استيقظوا، وهم يتنهدون ويتثاءبون، لكنهم أصبحوا في الحال حذرين، عندما تذكروا المكان الذي يقيمون فيه.

ذهب ميلو إلى المطبخ، ثم صاح بعد لحظة: لقد اختفى سيبريان!

ردّ دوجنز بعصبية: عرفنا ذلك بالفعل، سوف نتحدث عن الأمر في وقت لاحق. استعدّ للرحيل!

لكن كلمات ميلو كانت بمثابة نذير شر، وراحت تحوم حولهم، وهم ينهضون، ويفركون أعينهم، لإبعاد النوم عنها. وفقدوا شغفهم للمخاطرة بالخروج.

قال لهم دوجنز: أريد أن أقول لكم شيئاً، قبل أن ننطلق، وأريد منكم أن تنصتوا إليّ، فحياتكم تعتمد على ما سأقوله. الآن أصغوا!

أمسك بالحاصد واستطرد قائلاً: هذا السلاح يماثل قوة عنكبوت، بل ويتفوّق عليها. بإمكانكم أن تتحدّوا به جيشاً من العناكب، لكن تذكروا أنه يشكل خطراً مماثلاً على البشر، فأية خطوة خاطئة، ستؤدي إلى قتل الإنسان الذي يقف قبالتكم -أو يؤدي إلى قطع ذراعه أو ساقه. وبالتالي فإنه عندما نتعرض لهجوم، يتعين عليكم ألاّ تصابوا بالذعر. حافظوا على رباطة جأشكم، ولا تسحبوا الزناد قبل أن تروا الطريق خالياً، ولا تخاطروا مهما كان الأمر!

أريد أن أقول لكم شيئاً آخر الآن. قد تشعرون بالخوف من قدرة العنكبوت على شلّ إرادتكم، قبل أن تتمكنوا من سحب الزناد. وأريد أن أكشف لكم عن سرّ احتفظت به

لنفسي. لقد أدركت منذ زمن طويل، أن قوة الإرادة هذه التي تتمتع بها العناكب ليست حصينة لا يمكن مقاومتها كما نعتقد، والواقع أنه من الخطأ أن نسميها قوة إرادة. إنها أكثر شبهاً بقوة الإيحاء.

بدا واضحاً أنهم شعروا بالحيرة والشك، فابتسم دوجنز بثقة قائلاً: سأطرح عليكم سؤالاً، لماذا تطيعونني عندما أصدر إليكم أمراً؟ إنني لا أجبركم على اطاعته، أليس كذلك؟ إنكم تطيعونه لقبولكم فكرة أن أصدر الأوامر. افترضوا أن شخصاً جاء من خلفكم، وصاح في آدانكم: «قفوا انتباه!» من المرجّح أنكم ستطيعونه ـ ولكن ليس لقوة إرادته، بل لأنكم تعلمتم إطاعة الأوامر. واعتقد أنه عندما يشلّ عنكبوت إرادتكم، فإنه يرسل نوعاً من أشعة الإيماء، تؤثّر على عقلكم الباطن. بإمكانكم القول إنه نوع من التنويم المغناطيسي، إذا كنتم تعرفون معنى ذلك. ولكن بمقدوركم رفض التنويم المغناطيسي، مع وجود مثل هذا السلاح بين أيديكم. ولذلك عندما يحاول عنكبوت، في المرة القادمة، شلّ إرادتكم، لا تتركوه يفعل ذلك، بل قاوموا. ولتقنعوا أنفسكم بأنه ليس هناك ما يدعو للخوف، يكفي هذا. وعندما يفتح الباب سوف أخرج أولاً، واتبعوني الواحد تلو الآخر! وأنت يا نيال، لتكن آخر من يخرج! حدّدوا أسلحتكم على الدرجة الأولى، ولكن لا تطلقوا النار قبل أن أصدر الأوامر! يا كريسبين! أبعد هذا الكرسي عن طريقنا! وأنت يا ميلو، افتح الباب!

قال نيال: انتظروا!

أدرك ما يوشك أن يحدث، عندما خطا الشاب أشقر الشعر نحو الكرسي، وذلك لأن ذهنه كان ما يزال مفتوحاً على ذبذبات نبضة الطاقة. بدا الأمر مثل تنفّس الريح، الذي يشير إلى قدوم العاصفة. قلّص بصورة غريزية إرادته، كما لو أنه يقلص عضلاته لتلقّي ضربة. ولذلك فعندما ضربه الشلل بعد لحظة، مثل سلسلة من معدن متجمد، كان ذهنه قد أطبق بإحكام مثل قبضة، فأدرك، خلال تلك اللحظة الوجيزة من الاستعداد، أن دوجنز على حق؛ فقوة إرادة العناكب مثل أمر يصدر فجأة من أعماق العقل. ولكن رغم أن عضلاته بدت، كما لو أنها غاصت في مياه متجمدة، فإن إرادته ظلت غير متأثرة. وعندما أبعد صمام الأمان عن زناد الحاصد، شعر بأصابعه وقد تخدّرت، لكنها أطاعت إرادته.

دُفع الباب بغاية القوة مما جعل الكرسي الثقيل يتحرك، رغم أنه مثبت بشدة تحت مقبض الباب. انتظر نيال بهدوء، وقد لفّ أصبعه حول الزناد، إلا أن حركة جعلته يلتفت حوله. بدا وجه دوجنز، وقد ارتسمت على قسماته دلائل الكرب، كوجه رجل يبذل جهداً كبيراً لرفع ثقل هائل. ثم اهتزّت ذراعه، وانطلق اللهيب الأزرق من فوهة مسدسه،

فاخترق ظهر الكرسي والباب، كما أطلق نيال النار بعد لحظة على الفجوة المتّسعة.

انسحبت قوة الإرادة، في الحال، فحرّرتهم، واندفع نيال كالسهم، وأعاد الكرسي إلى مكانه أمام الباب، فلم يلق أية مقاومة. ترنّح الآخرون، وتعثّر البعض وسقط عدد منهم على الأرض، فالتفت دوجنز نحوهم مقطباً، وقال:

ـ أيها الرفاق! لقد فزنا بالجولة الأولى، تذكروا ما قلته لكم: لا تفقدوا أعصابكم!

لكن صوته كان متوتراً ومرهقاً، وامتقع وجهه فجأة، وتقهقر خطوة، وجلس منهاراً.

سأله نيال: هل أنت على ما يرام؟

أومأ دوجنز قائلاً: أنا بخير. أمهلني خمس دقائق، وسأكون مستعداً للرحيل!

سأله متشككاً: هل ستمضي إلى الخارج؟

ـ بطبيعة الحال، ليس بمقدورنا البقاء هنا طوال اليوم.

أغمض عينيه وألقى برأسه للخلف، فمنح أنفه، الشبيه بالمنقار، وجهه الشاحب منظراً يبدو كالجثة.

لم ينطق أحد، لمدة خمس دقائق، ببنت شفة. ظل الجميع يراقبون الباب، وأسلحتهم في وضع الاستعداد، ولاحظ نيال أنه ليس بين الجميع مَن يبدو عليه التوتّر أو القلق، وأدرك أنه في ظل حالة الخطر القصوى هذه، لا يكون للشكوك موضع.

جعلهم صوت قرقعة يتأهبون لأية حركة. كان الصوت صادراً دون شك من البوابة في منطقة الدرابزين. تناهى إلى أسماعهم بعد لحظة وقع أقدام تهبط الدرج، فلم يتحرك أحد. قُرع الباب، وصاح صوت قائلاً: هل لي في الدخول؟

قال نيال: إنه كازاك.

صاح دوجنز: هل أنت بمفردك؟

ـ نعم.

أومأ دوجنز إلى أوليس، الذي أزاح الكرسي جانباً، وفتح الباب. لاح ضوء النهار بالخارج، وانحنى كازاك وابتسم عندما دخل الحجرة.

ـ أنا الملك كازاك.

رمق نيال بنوع من التأثر الساخر، وقال: نعم، لقد خمنت أن أجدك هنا.

وعندما وقف دوجنز، قال له: ولا بد أنك السيد دوجنز، هل لي أن أجلس؟

أسرع أحدهم بتقديم كرسي، كان من الواضح أن جلال كازاك، وتماسكه الواضح قد تركا أثراً في الشباب. جلس بهدوء على نحو متعمد، وجلس دوجنز أيضاً.

قال كازاك: لقد جئت إلى هنا بوصفي مبعوثاً من قِبل العناكب، جئت لأطرح عليكم عرضهم. لقد طلبت مني أن أقول لكم بأنكم جميعاً أحرار في الذهاب.

أثارت كلماته دهشة الجميع، وقال نيال وقد اعترته الشكوك: تقصد أن بمقدورنا العودة إلى بيوتنا؟

ـ هذا صحيح، ولكن بشرط واحد ـ أن تسلّموا كل أسلحتكم.

هزّ دوجنز رأسه بعنف وقال: كلا مطلقاً.

ارتسمت علامات الدهشة فوق وجه كازاك الذي قال: هل لي أن أعرف السبب؟

ـ لأنني لا أثق بها. إننا لن نخرج من هنا أحياء على الاطلاق.

هزّ كازاك رأسه قائلاً باقتناع تام، أحس نيال أنه صادق: أنت مخطىء، فإذا ما سلمتم أسلحتكم، ستتوصل العناكب إلى اتفاق مع خنافس المدفعية. وعندما يحدث ذلك، فإنها ستلتزم بعهدها، وسوف تضمن سلامتكم. إنها لا ترغب في نشوب حرب.

قال نيال: إذا ما سلّمنا أسلحتنا، فإنها لن تكون بحاجة للدخول في حرب، وسيكون بمقدورها القضاء علينا حينما تشاء.

أومأ كازاك قائلاً: هذا ممكن، ولكنني على ثقة بأنها ستفي بوعدها.

سأله دوجنز: وكيف لك أن تثق في ذلك؟

ـ لأنني على يقين بأن العناكب تريد السلام.

هزّ دوجنز رأسه قائلاً: أخشى أن الردّ سيكون بالنفي.

بدا واضحاً أن كازاك لم يدهش من هذا الردّ؛ فقد درسه بعناية للحظة، وهو متجهّم، وقال في نهاية المطاف: إذن أنتم تعتزمون القضاء على العناكب؟

ـ لا. بل نريد السلام.

ـ لقد عرضت عليكم السلام.

ـ ولكن بشروطها، وقد تُغيّر رأيها عندما نستسلم.

ـ اعتقد أنك مخطىء. ولكن على أي حال دعني أطرح اقتراحاً آخر. افترض أننا استطعنا التوصّل إلى اتفاق لتدمير هذه الأسلحة، حتى لا يمتلكها أي طرف. أتوافق على هذا؟

تأمل دوجنز الاقتراح مطولاً، ثم هزّ رأسه، وقال، كما توقع نيال: لا.

ـ هل لي أن أسألك ولِم لا؟

ـ لأننا ما دمنا نمتلك هذه الأشياء، فإننا نتمتع بقوة المساومة. لقد كلفتنا فقدان ثلاثة من رجالنا، لماذا نطيح بكل هذا؟

ـ إنها أدّت أيضاً إلى مقتل سبعة عناكب، وبذلك تصبحون متعادلين.

دُهش نيال لأنه عرف عدد القتلى من العناكب بالتحديد.

ردّ دوجنز بأناة: لسبب بسيط للغاية، أنت في الوقت الحالي، عبد وأنا كذلك. أما مع وجود هذه الأشياء، فإننا لسنا بحاجة لأن نكون عبيداً بعد اليوم.

ـ إنني لا أشعر بأنني عبد.

قطب كازاك، فبدا واضحاً أن الكلمة جرحت مشاعره.

هزّ دوجنز رأسه بعناد: أنت مثلي تماماً، فأنا عبد للخنافس.

ردّ كازاك غاضباً: وهل العناكب أسوأ من الخنافس؟

قال نيال: أسوأ بكثير، فعندما وصلت إلى مدينة العناكب، تحدثت مع ابن أخيك ماسيج، فوجدته مقتنعاً تماماً بأنه ليس هناك ما يدعو للخوف من العناكب، ويعتقد أنه سيقضي العشرين عاماً القادمة من حياته يعمل في خدمتها، ثم يُسمح له بالتقاعد في أرض السعادة الكبرى. بل إن العبيد يعتقدون أنهم في أمان تام، وعندما جئت إلى حيّ العبيد، رأيت صبياً يلقي بشيء على عنكبوت في نسيجه، فتوقعت أن يقتله على الفور، ولكن العنكبوت ألقى به على الأرض، وظن الجميع أن ذلك مجرد دعابة مدهشة. ولم أدرك سوى ليلة أمس حقيقة ما يجري. إن العبيد ينتقلون من مكان إلى آخر طوال الوقت، بل إنه لا يسمح لهم بالنوم في المكان ذاته ليلتين على التوالي، وذلك حتى لا يلاحظ أحد شيئاً عندما يلتهم عنكبوت عبداً. لقد عرف ماسيج أن العناكب تلتهم العبيد، لكن ذلك لم يثر قلقه، فهو على يقين تام بأنه في أمان.

استمع كازاك بكياسة، لكن شفتيه المزمومتين كشفتا عن نفاد صبره، فقال: أعرف كل ذلك.

ـ ومع ذلك فأنت ماتزال تثق بالعناكب؟

هزّ كتفيه وقال: ليس أمامي بديل، في الوقت الحالي، إنها السادة. ما الرسالة التي تريدون أن تنقلوها إليها ـ أترغبون في أن تصبحوا السادة؟

قال دوجنز: لا نريد أن نكون سادة، نرغب في المساواة فقط.

أومأ كازاك متأملاً، وقال: حتى هذا المطلب من الممكن ترتيبه.

ندّت عن دوجنز ابتسامة عريضة وقال: لو استطعت تحقيق ذلك، فستكون قد توصلت إلى صفقة.

نهض كازاك واقفاً وقال: سأمضي لأرى ما يمكن تحقيقه.

تحرك باتجاه الباب، فأزاح أوليس وميلو الكرسي جانباً.

التفت كازاك، عندما وصل إلى الباب، وقال: هل أنتم على استعداد للتخلي عن واحد فقط من أسلحتكم؛ كمجرد إيماءة على حسن النوايا؟

ربت دوجنز على الحاصد وقال: لن نفرط في أي منها، فهي تستطيع به القضاء علينا جميعاً، وتدمير هذا المكان قبل أن يرتدّ إلينا طرفنا.

- هل لديكم ما تعرضونه في المقابل؟ شيء أستطيع أن أعرضه عليها كرمز لحسن نواياكم؟

سحب دوجنز المسدس من جيبه، وقال له: ما رأيك في هذا؟

أخذه كازاك من الماسورة، ووضعه في جيب ردائه، وقال: جيد جداً. سأعود في غضون بضع دقائق.

عندما أغلق الباب خلفه، سأل نيال: أهذه فكرة صائبة؟

هزّ دوجنز كتفيه، وابتسم قائلاً: ولِم لا. إن هذه الأشياء تافهة بالمقارنة بالحاصد، وعلى أي حال فإن قوته قد نفدت. لقد لاحظت ذلك عندما استخدمته في تحطيم القفل، ولن يستمر طويلاً.

قال الشاب المدعو كوزمين: هل لي في أن أطرح سؤالاً؟

- بالطبع.

قال كوزمين متحرجاً: إنني لا أشكك في تقييمك، ولكن أليس من الخطأ رفض عرضهم؟

قال ميلو: لقد كنت على وشك طرح الشيء ذاته.

قال كوزمين: لنفترض أننا وافقنا على تدمير الأسلحة الحاصدة، وتوصّلت العناكب إلى اتفاق دبلوماسي مع الخنافس - أليس ذلك في صالح الجميع؟

قال آخر: ما دمنا نمتلك هذه الأسلحة، فإنها لن تتوقف عن محاولاتها للقضاء علينا.

أومأ دوجنز قائلاً: هذا صحيح، يا هستور! ولكن ما دامت لدينا هذه الأسلحة، فإننا نمتلك القوة للقضاء عليها، وسوف نصبح تحت رحمتها بمجرد أن نسلمها لها، أو نسمح لها بتدميرها.

قال ميلو: ولكن هل تعتقد أن بمقدورنا الخروج من هذا المكان، دون أن نقدّم بعض التنازلات؟

قال دوجنز: نعم. أظن ذلك، لسببين، الأول أننا أقوى منها، والثاني لأنها تعرف ذلك. وهذا هو السبب الذي جعلها تبعث بكازاك لمساومتنا، وسوف نكون حمقى إذا ما فرطنا في هذه الميزة.

قال نيال: قد يكون لديها سبب آخر.

نظر دوجنز إليه بفضول قائلاً: ما هو؟

ـ أن تكسب وقتاً.

قُرع الباب، قبل أن يتمكن دوجنز من الإجابة، وصاح كازاك قائلاً: هل لي في الدخول؟

أزاح ميلو الكرسي جانباً، ودخل كازاك. وقف هذه المرة بالقرب من الباب، فظن نيال أنه يظهر دلائل عدم ارتياح.

تنحنح ثم قال: بداية، لقد توسلت إليَّ العناكب أن أحاول مرة أخرى، فهي تؤكد على رغبتها في السلام، بل إنها على استعداد لأن تعودوا إلى مدينة الخنافس بأسلحتكم، بشرط أن تتعهدوا بتدميرها هناك.

قال دوجنز: لا يبدو أنها تثق بالبشر.

استطرد كازاك قائلاً: إنني لا أعني انها تشك في وعدك، لكنها لا تعتقد بإمكانية قيام أي سلام دائم، وأنتم مسلحون بالأسلحة الحاصدة. إنها تظن أن البشر يعانون من روح إجرامية أو مدمّرة غريبة، وأن الأسلحة ستوجّه ضد العناكب إن عاجلاً أو آجلاً، ولا بد أن اعترف، كإنسان، بميلي لهذا التفسير، ألستم معي في هذا؟

تلفّت حوله وهو يتحدّث، ولاحظ نيال أن معظم الشباب يومىء موافقاً على ما يقوله، فكازاك يتمتّع دون شك بقدرة كبيرة على التأثير.

لكن دوجنز هزّ رأسه بحسم قائلاً: آسف يا كازاك! ليس هناك من سبيل للاتفاق على التخلّي عن أسلحتنا الحاصدة. وإذا لم تسمح لنا العناكب بمغادرة المكان من غير شروط،

فسوف نشقّ طريقنا للخارج بالقوة. وإذا لزم الأمر، فسوف نبيد عشرة آلاف عنكبوت ـ وأعني ما أقول، سنبيدها.

تنهّد كازاك، وقال: إنك تجبرني، في هذه الحالة، على طرح الجزء الثاني من الرسالة ـ وأؤكد لكم إنني أكرهه مثلما ستكرهونه، فأنا مجرد رسول. ثم ألقى على دوجنز ونيال، الذي وقف بجانبه، نظرة متفحصة، وقال: لقد طلبت مني أن أبلغكم بأنها تحتجز أم نيال وأخاه رهينتين. . .

صمت، فأحس نيال بتوتّره، ثم استطرد قائلاً: كما طلبت مني أن أقول لكم إنها استولت الآن على مدينة خنافس المدفعية، وأن جميع عائلاتكم رهائن. وإذا ما سلّمتم أسلحتكم، أو وافقتم على تدميرها، فسوف يطلق سراحهم. وعلاوة على ذلك، فسوف يُسمح لأم نيال وأخيه، وأي شخص آخر بالانتقال إلى مدينة الخنافس.

غضّ من بصره، وقال: هذه هي رسالتي.

احمر وجه دوجنز غضباً، وبرزت عروقه فوق جبهته، وقال: لو ألحق هؤلاء الحمقى ضرراً بفرد واحد من أهلي، فإنني أقسم بأن أقضي على كل عنكبوت في هذه المدينة.

نظر شزراً إلى كازاك الذي أشاح بعينيه بعيداً عنه، وتنحنح ثم قال: بمقدوري أن أكرر فقط ما قلته. إنها لا تعتزم إلحاق الضرر بأحد، وإنما هي ترغب في تحقيق السلام فقط، وسوف تبادل الأسلحة الحاصدة بحياة عائلاتكم.

ألقى نيال نظرة عجلى على دوجنز، فأدرك، من ارتباكه وغضبه البائس، شعوره بعدم وجود أي بديل.

لمس نيال ذراعه وقال: ثمة أمر نحتاج إلى بحثه.

ابتسم كازاك براحة وقال: أرجوكما أن تأخذا كل الوقت الذي يناسبكما، هل تريدونني أن انسحب؟

قال نيال بسرعة: نعم، ربما يكون هذا أفضل شيء.

انحنى كازاك بوقار، وابتسم شاكراً لميلو، الذي فتح له الباب، وخرج وظهره للخارج. لم يتحدث حتى وصل إلى مستوى الشارع. وكان بمقدور نيال أن يشعر، وسط هذا الصمت، بصدمتهم وفزعهم.

قال دوجنز بصوت فاتر: أخشى أنها ستحصل على ما تريده.

إلا أن نيال قلب مرآة التأمل للداخل، فبدّد تركيزه المفاجىء، إحساسه بالهزيمة، وقال: اتعتزم الاستسلام؟

هزّ دوجنز كتفيه، وقال: هل ترى أي بديل؟

ـ نعم. أن نرفض.

ـ كيف يمكننا المخاطرة بهذا؟ إنها لن تتردّد في قتل عائلاتنا.

نظر نيال حوله إلى الآخرين، فشعر بأنهم يشاركونه جميعاً الرأي. فقال: أصغوا إليّ، إنها تحتجز أسرتي أيضاً، وبالتالي فإنني أتفهم مشاعركم. ولكن ما الأمر السارّ الذي سيتحقق لو استسلمنا؟ إنكم لا تثقون بالعناكب. حاولوا أن تضعوا أنفسكم مكان سيد العناكب، لقد تحدّيتموه مرة، وقد تكرّرون ذلك كرة أخرى، والسبيل الوحيد للحيلولة دون حدوث ذلك هو القضاء عليكم وعلى عائلاتكم. هل تظنون أنها ستتردّد إذا وضعتم أنفسكم تحت سلطتها؟

رأى أن كلماته قد ملأتهم بالاكتئاب والهواجس، فاستطرد بسرعة قائلاً: ولكن افترضوا أنكم ترفضون الاستسلام، صحيح أنها ستنفذ تهديدها ضد عائلاتنا. ولكنها إذا فعلت ذلك، فإنها ستعرف أنكم لن تستريحوا مطلقاً قبل أن تقتلوا مئة عنكبوت مقابل كل إنسان. إنكم ستكونون في وضع قوي، ما دمتم تمتلكون الأسلحة، ولن يكون أمامها سبيل لنزعها عنكم سوى بالقضاء عليكم. لماذا تلقون بأنفسكم تحت رحمتها؟ إنكم بهذا توجهون إليها الدعوة لقتلكم أيضاً.

التفت إلى دوجنز وقال: وكيف لك أن تعرف أنها تقول الحقيقة؟ هل مدينة الخنافس غير حصينة؟

ـ لا، بالطبع. ولكن من الممكن الاستيلاء عليها ـ خاصة إذا ما شنت هجوماً مباغتاً.

ـ وهل من السهل حدوث ذلك؟

ندّت عنه ابتسامة كالحة وقال: لا. فالخنافس لا تثق بالعناكب.

ـ لذلك فقد تحاول العناكب خداعك، إلى أن تسلّم أسلحتك.

أخذ دوجنز يفكر في ذلك وهو يحملق في الأرض. نظر إلى الآخرين وقال: ما رأيكم؟

أثار السؤال ارتباكهم، فقد تعودوا أن ينصاعوا للأوامر.

قال ميلو متردداً: اعتقد أن نيال على صواب.

توصّل دوجنز إلى قرار، فقال: افتح الباب! ونحِّ الكرسي جانباً!

دخل ضوء النهار، فأعشى أبصارهم جميعاً للحظة. تقدم دوجنز إلى المدخل، وصاح: يا كازاك! هل تسمعني؟

تناهى إليهم صوت كازاك: نعم.

- قل لها إننا سنخرج!

التفت إلى الآخرين وقال: ابقوا أسلحتكم في وضع الاستعداد، ولكن لا تطلقوا النار دون أوامر مني، وانتبهوا إلى ما فوق رؤوسكم، ولا تنسوا أن بمقدورها الانقضاض من السماء!

تقدّم نحو ضوء النهار، وصعد الدرج، فتبعه الآخرون في صفّ واحد، وقد أمسكوا بأسلحتهم في وضع الاستعداد. نظر نيال إلى أعلى، وهو يصعد الدرج، فلمح خيوطاً من النسيج ممتدة عبر الشارع، بين أسطح المنازل، لكنه لم ير أية دلالة على وجود كمين.

دهش نيال، عندما عبر البوابة، وهو يرى عدداً كبيراً من العناكب في انتظارهم، لا بد أنها نحو عشرة آلاف عنكبوت، مصطفّة على الجانبين، حتى زوايا الشارع وما وراءه. كانت المنطقة المواجهة للبوابة هي المكان الوحيد الخالي، فقد تراجعت العناكب في شبه دائرة عريضة، وكان أقرب عنكبوت يقف مع كازاك، عند أقصى طرف من الطريق. وشعر نيال، رغم وجود هذه الدائرة العريضة، بأنهم قد وقعوا في مصيدة. أدرك أن العناكب تنظر إلى البشر باشمئزاز، كما ينظر البشر إلى العناكب أو الثعابين السامّة؛ فهي تراه كائناً مثيراً للاشمئزاز، هزيلاً، ساماً، يهدد حياتها، وأنها ستشعر بالبهجة إذا ما غرست مخالبها في عنقه. أحس مرة أخرى بقشعريرة، عندما راحت العيون الجامدة تحدّق فيه.

رأى أن الآخرين قد فقدوا أعصابهم. شاهد ميلو وهو يحاول منع يديه من الارتعاش، بالقبض بشدة على سلاحه، فبدت أشاجعه بيضاء اللون. كما شعر بأن كوزمين على وشك الغثيان. أما دوجنز فبدا في غاية الشحوب، وقد تحدّر العرق فوق وجهه. لاح أن جدار العداء المطبق قد استنزف حيويتهم. شعر نيال، برغم وضع مرآة التأمل للداخل، بأن سيطرته على نفسه على وشك الانهيار.

هتف كازاك: هل قررتم قبول شروطنا؟

أعاد صوته إلى نيال حالته السوية، وتلاشى الشعور بالاختناق فجأة، فتقدم الآخرين، وأجاب بحسم: أخشى أن تكون الإجابة بالنفي.

بدت علامات الدهشة واضحة فوق وجه كازاك، الذي تساءل: ألا تعتقد أن هذا قرار متسرّع؟

- كلا.

أدرك نيال فجأة أن وقت الكلام قد انتهى، وأن هذه الورطة لا يمكن التخلص منها

سوى باتخاذ عمل ما. قال: «أترى ذلك المبنى؟» أشار بسلاحه نحو بناء من عشرة طوابق، عند الركن الجنوبي الشرقي من الشارع، ورفعه فبدا كأنه مصوّب فوق رؤوس العناكب، ثم سحب الزناد.

صدمه ما حدث، رغم أنه كان يتوقعه. تراجع المسدس بعنف، واهتز حتى كاد أن يسقط من يديه، وأصاب وميض الطاقة الأزرق الباهر المبنى، وبدا أنه قد حوله إلى ضباب أزرق باهر. وأدّى الارتداد إلى اهتزاز ماسورة المسدس بزاوية تبلغ بضع درجات، ومع ذلك فقد كانت هذه الحركة كافية لإحداث فجوة تبلغ خمسين قدماً في الجدار. أدرك نيال، وهو غير مصدق، أن الانفجار قد مزق المبنى كما لو أنه صنع من الورق، واستطاع أن يرى السماء الزرقاء من خلال الحائط، ثم تهاوى المبنى بأكمله وانهار، وتساقط وابل من أحجار المبنى في الشارع.

رفع نيال يده من على الزناد في الحال، وقد أرعبه حجم الكارثة التي تسبّب في حدوثها، إلا أن الانهيار استمر، كما لو أن المبنى قد دمره انفجار هائل. سقط جزء كبير من الجدار إلى الشارع، الذي تحته مباشرة، ووسط صفوف العناكب المحتشدة. اندفعت العناكب التي تواجههم، في اللحظة ذاتها، إلى الأمام، إذ أدت كارثة العناكب المقتولة إلى سحقها مثل موجة عاتية. أدرك نيال أن الرعب دمّر أذهانها للحظة، لكن رفاقه، الذين لم يدركوا هذا، فتحوا النار. انطلقت القذائف من أسلحتهم الحاصدة، التي كانت مضبوطة على مستوى أقل من الدرجة الموضوع عليها سلاح نيال، مثل قاذفات لهب، فأصابت في طريقها أجسام العناكب المحتشدة، وملأت الجو برائحة لحم العناكب المحترق، الكريه، المثير للغثيان. ثم أحاطتهم فجأة العناكب الهاربة، التي لم يبذل أحد منها جهداً لمهاجمتهم، بعد أن تلاشت سيطرتها على الموقف، ودمّرت المصيبة، التي انتقلت من ذهن إلى آخر، الناجين مثلما دمّرت القتلى.

كان نيال هو الوحيد الذي فهم ما حدث، أما الآخرون فقد ظنّوا أنها معجزة محيّرة. لقد كانوا يتوقعون أن تقتلهم العناكب؟ أما الآن فإن أعداءهم قد اختفوا. ولكن هزيمة العناكب خلفت وراءها، بالنسبة لنيال، حالة من الغثيان الروحي، وليس الجسدي.

تحرّك شيء في حفرة بأقصى جانب من الطريق. لقد كان كازاك الذي وقف ببطء. ثم اجتاز الطريق باتجاههم، بخطوات مترنّحة، وكأنه مخمور. تمزّق رداؤه، وأصيبت ركبتاه، وراحتا تنزفان، وكذلك وجهه، بينما تدلّت قطعة من جلده تحت عينه اليسرى، التي بدأت تتحول إلى اللون الأسود. توقف أمام نيال، وسأله بصوت غليظ:

ـ أكان هذا ضرورياً؟

حاول نيال أن يتكلم، لكن صوته بدا وقد احتبس في حنجرته.

رد دوجنـز: لقد بدا أن هناك حيلة، ولا أظن أننا كنا سنخرج من هنا أحياء.

قال نيال الذي عاد إليه صوته: آسف، لم أكن أريد أن يحدث ذلك. كنت أرغب في أن أريها فقط مدى قوة هذه الأشياء.

دهش نيال عندما أحسّ بموجات الهدوء تتدفق الآن عليه.
ضحك دوجنز قائلاً: لقد نجحت بالتأكيد.
والتفت إلى كازاك، وقال: هل ستنضمّ إلينا؟

بدا كازاك مثل حيوان متعب، وراح الدم يتحدّر فوق خديه. حدّق في دوجنز فترة طويلة، وكان من الصعب تخمين ما يدور في ذهنه، ثم قال في نهاية المطاف: «لا» واستدار وأخذ يعرج ببطء مبتعداً عنهم، متجهاً نحو النهر.

وجد دوجنز قراره غير مفهوم، فسأل نيال: أهو ماكر، أم أحمق؟
لكن نيال شعر بالحيرة، وراح يحدق في الجسم الأعرج بإحساس غريب طغى عليه القلق.

ـ لا أدري.
هزّ دوجنز كتفيه بمرح وقال: لا يهمّ هذا أو ذاك.
ثم التفت إلى الآخرين قائلاً: هل أنتم على استعداد للرحيل؟

- ١٤ -

ساروا باتجاه الشمال، متقدّمين في وسط الشارع العريض لتجنّب مخاطرة التعرض لهجوم مباغت. شعروا جميعاً، بشكل غريزي، أن هذا أمر غير محتمل، ولكن كان من غير المعقول أن يتخلّوا عن حذرهم. استخدم دوجنز سلاحه لتقطيع الأنسجة، التي تمتدّ فوق رؤوسهم، وقد تعلقت خيوطها مثل رايات المهرجانات، التي ترفرف فوق جدران المباني، وسط هبّات النسيم من جهة الجنوب.

وجدوا أنفسهم، عند طرف الشارع، أمام حافة ساحة البلدية الكائنة في مبنى هائل على الطراز اليوناني، له أعمدة يماثل شكلها الناي، تحوّلت منذ فترة طويلة إلى اللون الأسود، إلا أن المروج المحيطة بها كانت لطيفة ومعتنى بها. وعلى الرغم من أن الساحة كانت خالية تماماً، إلا أنهم توقّفوا لإلقاء نظرة متفحصة عليها، وأخذوا يتساءلون عما إذا كان هناك مَن يراقبهم من المباني المحيطة، أو من مبنى البلدية ذاته.

قال دوجنز: إن هذا لا يريحني، لا يمكن أن تكون العناكب من الحمق بحيث تسمح لنا بمواصلة السير حتى نخرج من مدينتها، دون أن تبذل أية محاولة لوقفنا.

خطرت لنيال الفكرة ذاتها، فقد انخفضت معنويات العناكب بشكل كبير، ومع ذلك فإن سيد العناكب لا بدّ وأنه يعرف أنه إذا ما سمح لهم بالهرب الآن، فسيفقد فرصة كبرى، ربما تكون الوحيدة، للقضاء عليهم. شعر أنهم سيتعرضون لخطر هجوم مباغت، وهم محاطون بهذه البنايات، ويصعب مقاومة العناكب من مسافة قصيرة، فبمجرد أن تشلّ ضحيتها، ولو للحظة بقوة إرادتها الهائلة، يصبح بمقدورها غرس مخالبها السامّة في جسمه في الحال.

حدق نيال متأملاً في مبنى البلدية، وقال: أتعرف أيّ شيء عن المناطيد العنكبوتية؟

ـ بالطبع، فرجالنا يقومون بتصنيعها.

أشار نيال بأصبعه وقال: ذلك المكان هو مصنع الحرير، ولعلها تُخزّن أيضاً المناطيد هناك.

قطّب دوجنز، وهزّ رأسه قائلاً: هذا لن يجدي، فنحن بحاجة أيضاً إلى الاسفنج العطن.

ـ الاسفنج العطن؟

ـ نعم، إنه الشيء الذي يجعل المناطيد تطير. إنه نوع من الاسفنج ينتج غازاً أخف من الهواء.

ـ ولكن إذا كانت هناك مناطيد، فقد يوجد الاسفنج العطن أيضاً.

ألقى دوجنز نظرة سريعة إلى الشمس لمعرفة الوقت، وقال: ليكن، أظنّ أن الأمر يستحق القيام بمحاولة.

دنوا من مبنى البلدية محاذرين، شاهرين أسلحتهم، ولكن لم تظهر أية دلالة على وجود حياة. وكانت صفوف من الزهور الملونة تملأ الجو بعبق يماثل الربيع خارج المبنى. وقد سمعوا الطيور وهي تغرّد فوق الأشجار المجاورة التي تُحدث أوراقها حفيفاً وسط النسيم البارد. وأدرك نيال أن إحساسه بحجم الخطر، زاد من حدّة تقديره لكل هذه الأشياء.

كانت الأبواب المصنوعة من خشب البلوط المنحوت موصدة، لكنها سرعان ما انفتحت تحت تأثير أشعة الحاصد الرفيعة. وجدوا أنفسهم في دهليز به أعمدة رخامية، وسلسلتان عريضتان من الدرجات، تؤدي إلى الطابق العلوي. كان المكان مماثلاً لقصر كاراك، لكنه أكبر حجماً.

وجدوا في مواجهتهم بابين خشبيين هائلين، كانا موصدين أيضاً. وقد حطّم دوجنز القفل بالحاصد، وفتح الباب. وتهلّل فرحاً، ولفّ ذراعه حول رقبة نيال.

ـ إنك فتى رائع. كيف عرفت ذلك؟

كان واضحاً أن القاعة المواجهة لهم قد استخدمت ذات مرة للمراسم العامة، فجدرانها مكسوّة برايات تحمل شعارات البلدية، أما الآن فقد تحولت إلى ورشة ومخزن بهما الكثير من السلالم والألواح الخشبية، وعربات اليد، ومواد البناء. أما في أقصى

الزاوية فقد تكدّست أكوام من الحرير الملفوف بعناية، عرف نيال أنها المناطيد العنكبوتية.

هزّ نيال كتفيه متواضعاً، وقال: إنه مجرّد تخمين.

التفت دوجنز للآخرين وقال: انتشروا في كافة أرجاء المبنى! وقفوا في الحراسة عند النوافذ! فنحن لا نريد أن نواجه هجوماً مباغتاً. سدّوا الأبواب الأمامية! وإذا ما رأيتم أية حركة، أبلغوني في الحال!

التفت مرة أخرى إلى نيال، وقال له: لنر ما إذا كان هناك إسفنج عطن!

- في أي مكان يحتفظون به عادة؟

- في مكان يشبه الصهريج.

وجدا باباً موصداً في فجوة خلف المناطيد، وعندما انفتح واجهتهما رائحة نبات عطن جعلتهما يرتدّان للخلف. انعم دوجنز النظر في الحجرة، وهو يسدّ أنفه. أومأ بارتياح وقال: «هذا ما نبتغيه».

كان هناك صهريج زجاجيّ هائل، يصل ارتفاع جوانبه إلى قامة رجل، يحتوي على ماء أخضر لزج، وأُسند بجواره عدد من الشباك، ذات مقابض طويلة. أنعم نيال النظر في السائل المكتسي بالزبد، لكنه لم ير سوى القليل. صعد دوجنز فوق سلّم خشبي إلى جانب الصهريج، وأخذ إحدى الشباك فطرحها في الماء.

- ها نحن قد حققنا تقدّماً.

ألقى بالشبكة على الأرض، فوجدا بين العشب اللزج في قاع الشبكة، شيئاً أخضر اللون نابضاً يشبه في شكله كعكة محلاة مقلية بالزيت. كانت الفتحة في وسطها مغلقة، ولكن عندما نخسها دوجنز بأصبعه انفتحت للحظة، ثم أغلقت على أصبعه. لمح نيال داخل هذا الفم لساناً أخضر مدبباً. سحب دوجنز أصبعه، فامتلأ الجو في الحال برائحة عطنة مثيرة للاشمئزاز.

-- ولكن كيف يجعل هذا الشيء المناطيد تطير؟

- سأريك!

انتقل دوجنز إلى صهريج معدنيّ أسطوانيّ الشكل، انتصب فوق طاولة عند الزاوية. اختلطت رائحة لحم متحلّل مع الرائحة النباتية، عندما رفع الغطاء. التقط قدراً صدئاً من على الطاولة، وغمره في الأسطوانة، ثم رفعه، وقد امتلأ إلى نصفه بيرقات كبيرة، يصل طول بعضها إلى بوصتين، وسمكها إلى أصبع. أمال، وهو مايزال ممسكاً

بأنفه في اشمئزاز، القدر، فسقطت اليرقات فوق الكائن المماثل في شكله للكعكة. انفتح الفم في الحال، وأغلق مرة أخرى بنهم قابضاً على اليرقات المتلوية. امتلأ الجو من جديد برائحة التعطن.

وضع دوجنز القدر على الأرض قائلاً: أف! لنخرج من هنا!

أغلق الباب بعناية خلفه، بعد أن خرجا. ولاحظ نيال أن بعض الإسفنج يسبح عند حافة الصهريج، على أمل التهام اليرقات.

بعد أن عادا إلى القاعة، حملا أحد المناطيد المطوية، ووضعاه على الأرض، ثم نشراه فغطى مساحة ثلاثين قدماً. كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها نيال منطاداً عنكبوتياً عن قرب، ففحصه بفضول. ودأب مراراً على التساؤل عن كيفية وجود العنكبوت بداخله، فرأى الآن أن هناك كيساً مسطحاً حريرياً أسفل المنطاد، يتسع لجسم هائل ويمكن أن يجلس فيه اثنان أو ثلاثة أشخاص.

لم يكن المنطاد نفسه كروياً، بل كان مفلطحاً مثل صحنين متواجهين، أما الحرير المنسوج بعناية، فقد بدا لزجاً عند لمسه.

بدا المنطاد، وهو منشور على الأرض، مثل أسطوانة زرقاء وبيضاء هائلة، توجد على حافتها عقدة حبل تبلغ ست بوصات، مثبتة بمشبك قوي. وعندما تم فكّ المشبك ؛وسحب الحبل، انفتح جانب المنطاد مثل سمكة. وجد نيال، الذي لم يكن على دراية كبيرة بطريقة استخدام السحّاب، في ذلك أمراً ملفتاً للنظر. رأى داخل المنطاد، عند نقطة محورية منه، كوباً مقوى يبلغ قطره نحو قدم، مغطى برباطين عريضين.

أشار إليه دوجنز قائلاً: إن الإسفنج العطن يصعد من هذا المكان.

ـ ولكن كيف تجعله ينفث الغاز؟

ـ لست مضطراً لذلك. فالعناكب تكره الظلام، ولذلك فإنها بمجرد أن تغلق عليها المنطاد، تبدأ في نفث الغاز.

ـ وكيف تنفثه؟

ـ من خلال صمام تحت المنطاد. ساعدني كي أخرج هذا الشيء!

كشفت نوافذ واسعة وراء منصة عن فناء في وسط المبنى. سحبا المنطاد للخارج، ونشراه على الأحجار المسطحة. بحث دوجنز عن شبكة الصيد، وأفرغ الإسفنج في وعاء يشبه الكوب، وأغلقه بأشرطة ـ وذلك لمنع الكائن من السقوط وليس الهرب، نظراً لأنه لا يتمتع، على ما يبدو، بقوة دافعة. ثم أغلق المنطاد، وسدّه بالسحّاب. بدأ ينتفخ رغم ما

حدث. وعثر دوجنز على عقدة حبل، فربط المنطاد بحلقة معدنية في الأحجار المسطحة. إلا أن المنطاد بدأ يرتفع فوق الأرض، وهو يفعل ذلك. انتفخ تماماً بعد نصف دقيقة، وراح يرتفع بيما أصبح الحبل مشدوداً، ليرتفع فوق رأسيهما بمسافة عشرين قدماً. حاول نيال شدّ الحبل، إلا أن المنطاد قاوم أية محاولة لجذبه نحو الأرض.

ـ كيف لنا أن ندخله؟

ـ سأريك!

وضع دوجنز يديه على ركبه، وحدق في المنطاد، مقطباً جبينه في عملية تركيز مكثف. احمّر وجهه، وراح وريد في وسط جبهته ينبض. لم يحدث شيء في البداية، ثم بدأ المنطاد يتخلّص من الغاز، ويتّجه إلى أسفل نحوهما. زفر دوجنز في تنهيدة طويلة، ومسح العرق المتحدر على وجهه.

ـ إنه عمل شاقّ. لكن قيل لي إنه يصبح سهلاً عندما تتعوّد عليه، وبمقدورك أن تجعل المناطيد تستوعب الغاز من جديد. وهذه هي الطريقة التي تسيطر بها العناكب عليها.

انتفخ المنطاد وراح يرتفع مرة أخرى.

تناهى إلى مسامعهما وقع أقدام تعدو في القاعة، ثم دخل ميلو الفناء بعْد لحظة.

ـ ثمة شيء يحدث بالخارج، يا سيدي!

وجدا في الدهليز أوليس وهستور ينظران من النوافذ، وقد وضعا سلاحيهما في حالة استعداد. كانت المروج المحيطة بالمبنى ماتزال خالية، وكذلك شقّة الأرض الممهدة العريضة أمامهما. لكنهما رأيا فوق الأرصفة عند حافة الساحة، حركة مستمرة لعناكب وبشر.

صاح «رنفرد» من أعلى الدرج قائلاً: إنها تحيط بنا من كل جانب، بإمكانكم رؤية ذلك بوضوح من السطح.

صعدا خلفه إلى الطابق الثالث، ومنه عَبْر باب إلى السطح المستوى. كانت تمتدّ أمامهما، من هذا الموقع الممتاز، الساحة بكاملها، وجميع الشوارع المحيطة، التي امتلأت بالعناكب والبشر. ومع ذلك لم تبد أية دلالة على وجود محاولة للتقدم نحوهم، إذ ظلت الساحة نفسها خالية.

قطب دوجنز، وقال: أريد أن أعرف ماذا يدور في أذهانها؟ أحسب أنها تحاول مهاجمتنا.

بدا رنفرد متوتراً، وهو يقول: أرى أنه يتعيّن علينا إطلاق النار لشقّ طريقنا إلى الخارج.

هزّ دوجنز رأسه قائلاً: سوف نغادر المكان على متن منطاد. هستور، ميلو!

استدعيا الآخرين، واحضراهم إلى الفناء. أما أنت يا رنفرد فامكث مكانك، وراقب الموقف! لا تتردد في إطلاق النار بكل قوة إذا ما شنّت هجوماً!

قال نيال: من الأفضل أن أمكث هنا وأراقب الوضع، فسيكون رنفرد ضحية سهلة إذا ما شنّت العناكب هجوماً مباغتاً.

ـ ليكن. سوف نستدعيك بمجرد استعدادنا للانطلاق.

استخدم نيال، وهو فوق السطح بمفرده، مرآة التأمل لتركيز ذهنه. لقد أثارت تحركات العناكب والبشر قلقه. حاول أن يضع نفسه في مكان سيد العناكب. ماذا سيفعل إذا ما أراد منع مجموعة من الأعداء الخطرين من الهرب؟ سيكون الهجوم المباغت هو أبسط الوسائل؛ فبمقدور عنكبوت أن يعدو بسرعة هائلة، وهذه المسافة الفاصلة التي تصل إلى خمسمائة متر يمكن قطعها في عشرين ثانية. ولكن إذا كانت تعتزم شنّ مثل هذا الهجوم، فلماذا لا تتجمّع في صفوف فوق الأرصفة عند طرف الساحة؟

حاول أن يسترخي، ويتواصل بذهنه مع ما يجري، ولكنه وجد ذلك صعباً. فقد كان هناك العديد من العناكب، وجميعها منشغل بشؤونه. توقّع الشعور بجوّ من العداء، وتصميم على إفناء أعدائها من البشر، إلا أنها بدت بانتظار أمر ما. ولكن ما طبيعة هذا الأمر؟ أهو أمر بشنّ الهجوم؟ ولكن هذا يبدو غير محتمل، فليس هناك ما يشير إلى الاستعداد لذلك.

سار إلى الحافة الداخلية للسطح، ونظر إلى الفناء. رآهم وهم يسحبون المناطيد للخارج، الواحد تلو الآخر، ويكدسونها فوق بعضها البعض. وراح دوجنز يتحدث باهتمام مع مجموعة صغيرة ضمّت ميلو وكوزمين، من الواضح أنه يشرح لهم آلية قيادة المناطيد. وأخذ المنطاد المنتفخ يعلو حتى بات على بعد بضعة أقدام من وجه نيال، وبدا أن الإسفنج بداخله ينفث كميات كبيرة من الغاز، تتسرب من صمام ما، فهبّت الرائحة العطنة نحوه، فتحرك مسرعاً بعيداً عن التيار.

راقب أوليس، وهو يحضر اسفنجاً آخر في شبكته، ويضعه بداخل المنطاد بأعلى الكومة، فبدأ بعد لحظات قليلة ينتفخ. تسلق ميلو وكورمين وهستور بسرعة إلى الكيس التحتي، وأشار دوجنز مرة أخرى إلى مكان صمام الإطلاق. كان المحمل التحتي مصمماً

ليتسع لجسم هائل مسطّح لعنكبوت، وليس لجسم قائم لإنسان، ولذلك فقد اتخذوا أوضاعاً غير مريحة، حيث انحنت أجسامهم إلى الوراء بزاوية ميل تصل إلى خمس وأربعين درجة، بينما التقت أقدامهم عند المركز. استخدموا فتحات أفقية كنوافذ ينظرون من خلالها. بدأ المنطاد يرتفع في الهواء، واضطر من يحاولون شدّه إلى أسفل، إلى تركه يصعد. مرّ بعد لحظة بجوار نيال دافعاً المنطاد الآخر جانباً. والتقت عينا نيال بعين هستور، فأحس في الحال برعبه واهتياجه. ثم ارتفع المنطاد فوق السطح، وتقاذفه النسيم القوي. واصل الصعود إلى أعلى بسرعة هائلة، ليتحول في غضون ثلاثين ثانية إلى مجرد نقطة في السماء الزرقاء الصافية بالأفق الشمالي.

توقفت كل الحركة عند طرف الساحة، وراح العناكب والبشر يحدّقون إلى أعلى. أحكم نيال قبضته على الحاصد. فإذا كان سيحدث هجوم مباغت، فإنه لا بدّ وأن يُشن الآن، بعد أن أدركت العناكب أن أعداءها يهربون. إلا أن المنطاد تحول إلى نقطة، ثم اختفى، فاستأنفت العناكب حركتها. حاول نيال مرة أخرى أن يسبر غور أذهانها، ولكنه وجد ذلك مستحيلاً، فقد حدث الكثير من الاضطراب والنشاط، لكنه تلقى من جديد انطباعاً بأنها في انتظار أمر ما.

صعد منطاد آخر بعد مرور خمس دقائق، ومرة أخرى توقّفت الحركة بين العناكب. شعر نيال هذه المرة بقدرته على تتبع توتّر ما، لكنه تلاشى بمجرد أن اختفى المنطاد عن الأنظار. إلا أنه عندما ارتفع منطاد ثالث، ثم رابع من الفناء، شعر بحدوث تغيير، فقد نفد صبرها، وهي ترى الأعداء يهربون. توقفت الحركة التي كانت بلا هدف، وأحسّ من جديد بشعور غريب بالقشعريرة، فعرف أنه موضع للتفحص. ورغم دفء الصباح، إلا أنه شعر ببرد شديد، وكأنه يقف في مواجهة ريح باردة.

تطلع دوجنز إليه، فقد كان المنطاد الخامس قد انتفخ بالفعل، وقال له: انزل! إننا على استعداد للانطلاق في أية لحظة.

لكن نيال شعر برغبة غريبة في البقاء، ووجد أنه من الأفضل المكوث في مكانه لرؤية العناكب.

- إني أفضل البقاء إلى أن ينطلق الاثنان الآخران.

هزّ دوجنز كتفيه، فقد أحس أن نيال يبالغ في الحذر.

زاد شعوره بالبرودة، عندما تجاوز المنطاد الخامس السقف. بدأ ينتابه الإحساس بالدوار، الذي شعر به قبل نصف ساعة، عندما أحاطت به العناكب، مما أثر بشكل غريب على تشتيت عينيه، وجعل العرق يتصبّب فوق جبهته، رغم أنه كان بارداً كالمطر. أصبح

مدركاً أن هذا ليس بسبب عداء موجّه بشكل متعمد، ولكن لشعوره بالاشمئزاز لكونه موضع فحص. تعين عليه أن يتنفس بعمق يحافظ على يقظة أحاسيسه.

اندفع بجانبه المنطاد السادس، مما جعله يحدق بخوف. لم يبق سوى دوجنز في الفناء، فقال له: اهبط الآن، إننا على استعداد.

ألقى نيال نظرة حول الساحة، ثم هرع عبر الباب الذي يفضي إلى أسفل. تلاشى في تلك اللحظة شعوره بالضيق على نحو مفاجىء، فأحس كما لو أن حملاً ثقيلاً قد أزيح عن رأسه. ثم فهم، وهو يمر بجوار نافذة عند الدرج، سبب ذلك. فقد تحولت الساحة إلى كتلة سوداء من العناكب، جميعها يتسابق باتجاه المبنى. اجتاز أول العناكب المروج المحيطة. هبط نيال الدرج قافزاً ثلاث درجات في كل خطوة، ولكن الأبواب الضخمة ارتجّت من تأثير اصطدام جسم ثقيل بها، عندما وصل إلى الدهليز. رفع سلاحه وبدأ يضغط على الزناد، ثم رأى أن الباب قد سُدّ بكتلة ثقيلة من الخشب، وأن الأمر سيتطلب آلة لدكّه، للمرور من خلاله. جرى عبر المخزن، ثم للخارج إلى الفناء.

- بسرعة، إننا نتعرض لهجوم.

عندما وصل دوى صوت تهشّم زجاج آتٍ من الرواق، وبدأ دوجنز يتسلق إلى المحمل التحتي من المنطاد، الذي ارتفع عن الأرض مسافة أربعة أقدام. وصفق نيال باب الفناء خلفه، قاذفاً بآنية زهور حجرية ضخمة عليه، فدهش من مدى قوته. ثم أخذ يصعد إلى المحمل التحتي بمساعدة دوجنز، فدخل فيه ورأسه إلى أسفل. أحس بالمنطاد يرتفع، عندما اعتدل في وضعه. وصل في الوقت ذاته أول العناكب إلى طرف الحائط المحيط بالفناء. قفز، فسمعا وقع سقوطه الهادىء فوق المنطاد. حاول دوجنز قطع الحبل الذي يمسكان به، لكن ارتخاءه جعل من الصعب قطعه. أدرك نيال أن المنطاد يعود نحو الأحجار المسطحة بدلاً من أن يصعد. سبّ دوجنز ولعن، وضرب مكاناً فوق رأسه بقبضته، حيث أشارت بقعة رطبة إلى وجود الإسفنج. ظهر تأثير ذلك في الحال، فقد حدث اندفاع عنيف إلى أعلى، وانفصل الحبل منسول الخيوط. وقفز عنكبوت آخر من السقف، فاصطدم بالمنطاد واندفع نحو الأحجار في الأسفل. ثم أصبح السقف تحتهما، وتمكنا من رؤية أجسام العناكب السوداء المحتشدة. انحرف المنطاد بسبب عصف الريح، فاندفع عنكبوت من جانبهما متجهاً نحو السطح، فاصطدم بحافة الحاجز، الذي قذفه إلى المرجة بالأسفل فارتمى دون حراك. راحا يضحكان دون سيطرة على نفسيهما، ولو أن المحمل التحتي كان مريحاً على نحو أكبر، لكانا قد تعانقا.

أصبح مبنى البلدية في أقل من دقيقة مجرد مبنى بين العديد من المباني. شاهدا

الثكنات والنهر وما خلفهما، الساحة الرئيسية، وبوسطها البرج الأبيض، ومقرّ سيّد العناكب. رأى نيال في فناء الثكنات شيئاً جعل قلبه ينقبض: حشد من الرجال والعناكب تجمعوا عند الزاوية حيث يقوم مستودع الأسلحة.

تمكّنا من توجيه المنطاد عن طريق حبلين اتّصلا بالدفّة، التي تشبه زعنفة السمكة على الجانب التحتي. بدأ دوجنز يوجه الدفة نحو مدينة الخنافس، التي بدت في الأفق بأبراجها الحمراء. كما سحب حبل صمام إطلاق الغاز، فشعرا بالغثيان للحظة من تأثير الرائحة العطنة. وبدأ المنطاد في الهبوط، بعد أن ارتخت أليافه.

أعاد نيال التحديق في المدينة، وقد أثاره المنظر الشامل الذي ذكّره برؤياه داخل البرج، فامتلأ بإحساس غريب، بأنه أخف من الهواء. تألّق البحر تحت سنا الشمس، مثل مرآة ضبابية، في البعيد وراء تلال حافة المدينة الجنوبية، وشاهد إلى الشرق برية من الغابات الكثيفة، ذات جبال شاهقة، تلوح في الأفق.

ثم عاد انتباهه إلى المدينة التي تركوها لتوٌهم. كان هناك وميض برتقالي، تبعه دويّ انفجار، ورأى بوضوح أنه جاء من الثكنات. بدأت سحابة دخان سوداء تصعد في الهواء، حاملة معها شظايا كبيرة من مادة معدنية. وقع انفجار ثانٍ أعظم في الوقت الذي نادى فيه على دوجنز، وأشار بأصبعه باتجاه الانفجار، الذي تبعته سلسلة من الانفجارات الصغيرة، بدا أنها تنتشر فوق منطقة أكبر بكثير من المنطقة التي توجد فيها الثكنات. عندما دوت الجلبة في آذانهما، لطمتهما الريح، وجعلت المنطاد يدور في السماء، ويندفع صعوداً وهبوطاً، ولمح نيال الأرض تحته. فأدرك برعب مفاجىء أنه قد أصبح فوق سطح المنطاد، وباتت السماء فوقه مباشرة بينما انهار المحمل التحتي حوله. راح دوجنز يتخبط بشدة في محاولة للهرب من ثنايا الحرير المطوية، وأصيب نيال بالدوار، عندما أطيح به على جانب رأسه. لطمتهما عصفة ريح أخرى، فراح المنطاد يدور من جديد، فتعلّق نيال مذعوراً بالحرير. وحينما بدأت قبضته تتراخى، وأحس بنفسه ينزلق من على الحافة، انقلب المنطاد، ووجد نفسه مرة أخرى في المحمل التحتي حيث الأمان. أخذ الحاصد يحزّ في ظهره، بينما تمدّد دوجنز فوق صدره، فخنقه ثقله. سحب نيال نفسه من تحته، ونجح في أن ينقلب ليصبح على ركبتيه. ظل المنطاد يتأرجح مثل سفينة في عاصفة، واستمرت أصوات الانفجارات تدوي مثل وابل من الرعد. نجح نيال في نهاية المطاف، في إبعاد نفسه عن دوجنز والوقوف منتصباً.

أصابه ما رآه بالصدمة. فقد بدا الأمر كما لو أن المدينة بأسرها قد اختفت. وبدلاً من ذلك ارتفعت كتلة من سحب الغبار والدخان الأسود، بدت تتحرك وترتفع ببطء، مثل رمل

أُثير في قاع نهر. أول ما طرأ على ذهن نيال هو أسرته، لكنه رأى بارتياح أن الانفجار اقتصر على حي العبيد، واستطاع أن يشاهد بوضوح البرج الأبيض، ومقرّ سيد العناكب وراء السحب الهائلة.

سحب دوجنز نفسه إلى أعلى بجانبه، وقال: «يا إلهي، إنها النهاية». بدا واضحاً أنه قد تأثر مما شاهده. ابيضّت أشاجعه، وهو يتعلّق بنسيج المحمل التحتي. وأحس بالرعب، وهو يرى سحب الدخان، فتنهّد بعمق وقال:

- إن هذا آخر ما تراه من صديقك كازاك.

لم يفهم نيال للحظة ما يعنيه، فقال: كازاك؟ ما الذي جعلك تعتقد أنه المسؤول؟

قطب دوجنز وقال: إنه كازاك الذي حاول دخول مستودع الأسلحة مستخدماً مسدسي.

ارتجف نيال عندما أدرك مدى الخطر الذي كانوا قريبين منه، وقال: إذن هذا هو ما كانوا ينتظرون القيام به!

أشاح دوجنز بعيداً وقال: لقد تلقّى الخائن ما يستحقه، ولكن يا له من هدر لِكمّ هائل من المتفجرات!

افتتن كلاهما بالسحب السوداء المنتشرة، فلم يبديا اهتماماً بالأرض التي باتت دونهما مباشرة.

صرخ دوجنز فجأة مذعوراً، وسحب بعنف حبل صمام الغاز، فانبعثت الرائحة العطنة، لكن الريح دفعتها بعيداً عنهما. اهتزّ المنطاد، ثم بدأ يهبط، وأصبحا فوق أبراج مدينة الخنافس، التي أحاط بها جيش من العناكب.

راح دوجنز يضحك، فحدّق فيه نيال في دهشة، ثم أدرك أنه يضحك بارتياح عميق، بل إنه أوشك على البكاء. وضع دوجنز يده على كتفه، وقال: لقد كنت على صواب. لقد حاولت خداعنا، فهي لم تستول على المدينة.

قال نيال، الذي كان ما يزال متشككاً في وجود مصيدة: هل أنت واثق من ذلك؟

- أنظر!

اتجهت عينا نيال في الاتجاه الذي أشار فيه بأصبعه، لم يكن واثقاً في البداية من الشيء الذي حاول دوجنز الإشارة إليه. وبدا أنه يشير إلى الساحة الرئيسية ذات المرجة الخضراء العريضة. ثم لاحظ حركة، وأدرك أن المرجة تحتشد بمجموع من الخنافس خضراء الظهر.

ـ ولكن لماذا تتواجد كلها في ذلك المكان؟ لماذا لا تدافع عن المدينة؟

ـ إنها . .

ـ لا أفهم . . .

ولكن لم يعد دوجنز منصتاً إليه ، فقد راح يحدق إلى أسفل ، ويضرب في الوقت ذاته المنطاد فوق رأسه بقبضته. ولما نظر نيال إلى أسفل فهم السبب. وبدلاً من أن يهبطا بزاوية نحو المدينة ، فإنهما راحا يهبطان بشكل رأسي ، على نحو سيدفع بهما للسقوط وسط جيش العناكب. جعلته القشعريرة ، التي شعر بها في الوقت ذاته ، يدرك ما يجري؛ فالإرادة الجماعية للعناكب توجّه الأسفنج داخل المنطاد ، فتجعله يمتص مرة أخرى الغاز مما يؤدي إلى سقوط المنطاد نصف الممتلىء ، مثل حجر.

قال دوجنز من بين أسنانه : ليكن ، إذا كان هذا ما تريدونه.

وسحب الحاصد من جيبه ، والتصق بجانب المحمل التحتي ، وصوّب سلاحه لأسفل.

لم تكن أشعة الطاقة منظورة تقريباً ، وسط ضوء الشمس القوي ، ولكنها عندما وصلت إلى الأرض ، انتشر اللهيب الأزرق في كافة الاتجاهات ، كبحر من النار الزرقاء. انكمشت العناكب واختفت ، واكتست الأرض باللون الأسود. ثم راحت أجسام سوداء تعدو ، وتتصادم ، وتتسلق فوق بعضها البعض ، وهي في حالة رعب. افتتن نيال ، وهو يراقب تلك العناكب التي تهرب باتجاه مدينة الخنافس ، وقد توقّفت فجأة ، وكأنها قد اصطدمت بجدار غير مرئي . ثم تخبّطت لتقف على قوائمها ، وهربت في اتجاه آخر. راح يتابع حالة الذعر نفسها ، التي شهدها في وقت سابق من هذا الصباح ـ ذعر أدّى فيه الاتصال الفوري فيما بينها إلى توليد رعب أهوج ، وفقدان كامل للسيطرة.

لطمت قوة كالإعصار المنطاد مرة أخرى ، لكنها كانت هذه المرة من جراء الحرارة الشديدة ، التي ارتفعت من الأرض مثل ألسنة النار. وجثا نيال على ركبتيه ، وباتت الحرارة في غاية الشدة ، فخشى أن تحرق نسيج المنطاد . راح المحمل التحتي يتدافع من جانب إلى آخر بشدة ، بينما اندفع المنطاد إلى أعلى. وعندما نهض واقفاً وأطلّ من الجانب ، وجد الأرض ترتدّ إلى الوراء بسرعة.

صاح دوجنز : سوف أوجّه الدفة ، وعليك أن تطلق الغاز.

وسلّم نيال حبل صمام الغاز. حقّق دوجنز ، على مدى الدقائق الخمس التالية ، معجزة بالتحكّم في المنطاد . وأمسك نيال بالحبل ، ولكنه لم يبذل أية محاولة لاستخدامه ،

فقد كان من الأسهل التحكّم في الاسفنج بقوة الإرادة، حيث بدا أن الكائن حسّاس بشكل ملحوظ للأوامر الذهنية، وأخذ يطلق الغاز ويستوعبه من جديد، بدقة متناهية، جعلت من الممكن تحقيق سيطرة تامة أثناء نزول المنطاد بشكل عمودي. وحينما حملتهما الريح إلى أعلى وكادت تلقي بهما فوق أحد الأبراج، جعل نيال المنطاد يرتفع، فتفادى قمة البرج ببضع بوصات.

راح الناس الآن يهرعون تحتهما، محاولين مجاراة المنطاد. ورأى نيال «سليما» زوجة دوجنز في مقدمة الحشود. اشتبك المنطاد للحظات بأغصان شجرة سامقة، واحتكّ بجدار أحد المنازل، ثم مسَّ الأرض، في نهاية المطاف، بجوار بركة ماء. امتدّت الأيدي لإخراجها من المحمل التحتي المنهار. وألقت سليما بذراعيها حول عنق دوجنز، وقبّلته مراراً. ووجد نيال نفسه وسط أناس يطرحون العديد من الأسئلة، بينما وضعت فتاة سلسلة من الورق الملون حول رقبته. تعلق فتى صغير بيده وسأله ما إذا كان بمقدوره أن يستقلّ المنطاد. وقع اضطراب عندما بدأ المنطاد يرتفع من جديد، ولكن حينما سحب دوجنز السحّاب ليطلق الضغط، تصاعدت صرخات الاشمئزاز، وأصيب صبي بالغثيان. حبس نيال أنفاسه إلى أن ابتعد عن الرائحة العطنة.

أخذ يبحث بين الوجوه علّه يرى أودينا، ولكنه لم يعثر عليها. رأى على بُعد رأساً أشقر، فتزايدت ضربات قلبه للحظة، إلا أنه أدرك أنها «لوكريتيا» زوجة دوجنز، فشق طريقه نحوها.

- أين أودينا؟

بدت أنها لم تفهمه للحظة، وقالت: أودينا؟ آه، إنها مع الخنافس.

لاحظ علامات الاجهاد على وجهها، فقال لها: أفي الأمر شيء؟

ألقت عليه نظرة خاطفة غريبة بطرف عينها وقالت: ماذا تظنّ؟

اندفعت نحو زوجها، ونحّت سليما بصبر نافد جانباً، وهمست بشيء في أذنه. تلاشت ابتسامة دوجنز، في الحال، وارتسمت على وجهه نظرة قلق. وصل نيال إليه بصعوبة وقال:

- ما الأمر؟
- ثمة متاعب.
- العناكب؟

ابتسم دوجنز وقال: بل أسوأ من هذا؛ فقد تم استدعائي للمثول أمام المجلس.

ـ ولكن لِم؟

هزّ دوجنز كتفيه، وقال: إثارة المتاعب، على ما أظن.

ـ هل آتي معك؟

قاطعتها لوكريتيا بحدة قائلة: لقد أرسل السيد طالباً مثولك بمفردك.

كشر دوجنز وقال: غير مسموح بذلك. عد أنت مع لوكريتيا.

ـ إلى اللقاء.

استدار، وسار باتجاه مبنى البلدية. نظرت سليما إليه، كما لو أنها على وشك العدو خلفه، ولكن نظرة من لوكريتيا جعلتها تغير رأيها.

التفت نيال إلى لوكريتيا، فوجدها تنظر إليه شزراً. فسألها:

ـ هل لك أن توضّحي لي الأمر؟

رفعت حاجبيها في سخرية واضحة، وقالت: الأمر؟ ليس هناك شيء سوى أنك قد أشعلت حرباً، هذا كل شيء.

لمست سليما ذراعه برفق قائلة: عد معنا الآن، لا بدّ وأنك متعب!

نظرت لوكريتيا بازدراء، ثم سارت.

قال نيال: لا أفهمك. لقد أنقذ حياتكم.

ـ هذا ما سيقرّره السيد.

أثاره خنوعها، فقال: ولكن ألا تفخرين به؟ لقد أنقذ مدينتكم من العناكب.

ـ ربما كان هذا صحيحاً، ولكننا لم ندخل في قتال مع العناكب منذ أمد بعيد.

صمت كلاهما، وهما يعبران المروج الخضراء، ويسيران في الطريق الرخامي الأملس، الذي يفضي إلى مبنى البلدية، ثم جعله منظر منطاد ملقى على جانب الطريق، يتذكّر الآخرين.

ـ كم عدد المناطيد التي هبطت؟

ـ أثنان. ولكن رأينا منطاداً آخر يمرّ من فوقنا.

وصلوا إلى ساحة البلدية. ولكن لم تكن مرجتها الفسيحة حافلة بالخنافس. اندفعت امرأة، وهم يجتازون المرجة، نحو نيال، وأمسكته من ذراعه.

ـ هل لك أن تخبرني عما حدث لابني «يورج»؟

ـ لقد هرب على متن منطاد، وإن لم يكن بين الذين هبطوا، فإنه يكون قد تجاوز حدود المدينة، ولا بد أنه في أمان.

اقتربت امرأة أخرى منه وقالت: وابني «ماركوس»؟

أشاح بعينيه ليتفادى النظر في وجهها، وقال: إني آسف. لقد مات.

انهارت المرأة على الأرض، وراحت تنوح، وتبكي، وتضرب جبهتها على الأرض الصلبة، فأحس بالذنب.

سألته المرأة الأخرى: كيف قُتل؟

ـ لقد... قتله عنكبوت.

كان على وشك أن يقول التهمه، لكنه أحجم في الوقت المناسب.

أحاطته مجموعة صغيرة، فقالت سليما: إنه لا يستطيع الردّ على مزيد من الأسئلة الآن، حيث يتعيّن علينا أن نعود.

ولكن في تلك اللحظة هبطت خنفساء من فوق درج البلدية، وهرعت نحوهم. مدت قائمتها الأمامية الطويلة، ولمست كتف نيال، ثم قامت بسلسلة من الإيماءات بقرونها.

قالت سليما: إنها تقول إنك لا بد وأن تذهب معها، فالخنافس تريد التحدّث معك.

حدق نيال في الوجه الجامد والعيون الجاحظة، لم يكن يختلف عن وجه عنكبوت، لكنه لم ينقل إليه إحساساً بالتهديد، ورغم حجم الخنافس الهائل، وقوة قوائمها المدرّعة الواضحة، فإنها أثارت جواً من الألفة والودّ، فتبعها دون تردّد إلى مبنى البلدية.

مرّت لحظات عديدة قبل أن تتعوّد عيناه على الضوء الخافت. ثم رأى أن الرواق قد حفل بالخنافس، التي راحت تتواصل فيما بينها بتلك الأصوات الغريبة المماثلة للصفير، التي لا تختلف كثيراً عن سقسقة الزيز. رأى بعد لحظة أودينا جالسة، فوق مقعد عند الزاوية، فتهلّل فرحاً. اندفع نحوها، وأمسك يديها.

ـ هل أنت بخير؟

رفعت عينيها إلى وجهه، فدهش لأنها بدت لا تعرفه.

ـ ألا تعرفينني؟

تحرّكت شفتاها بالكاد قائلة: بلى.

ـ إذن ما الأمر؟

أصابه الخواء في نظرتها بالقشعريرة. مسّت الخنفساء كتفه. وبدت أودينا كما لو أنها على وشك التحدّث، ثم هزّت رأسها. ابتعد نيال وسار خلف مرافقه وهو يشعر بالحزن والصدمة. ألقى عليها نظرة خاطفة، لكنه لم يرها وسط الخنافس.

هبط منحدراً أفضى به إلى طابق تحتي، فوجد أن الضوء خافت على نحو يفوق الطابق الأعلى من المبنى. كانت الجدران مشيدة من أحجار خشنة، وشعر وهو يتبع دليله في ممر منحدر طويل، كما لو أنه يدخل عالماً سفلياً. أحس بالأرض تحت قدميه خشنة أيضاً، واضطر للسير بحذر كي لا يتعثّر. ومع ذلك استطاع أن يفهم بحدسه سبب ترك هذا الجزء التحتي من المبنى في هذه الحالة؛ فالأرض بالنسبة للخنافس مكان آمن. وبالتالي فمن الطبيعي أن تختار قاعة المجلس تحت الأرض لتوفّر جواً من الأمان أثناء المداولات الهادئة، التي تتطلب تفكيراً عميقاً.

انحرف النفق إلى اليمين، وأصبح المنحدر أكثر حدّة، وتشكّلت الجدران هنا من تربة خشنة تسندها عوارض خشبية غير مستوية. أضيء هذا الممر، مثل مدينة كازاك الكائنة تحت الأرض، بمصابيح زيتية موضوعة في فجوات بالجدار. وصلا إلى مكان انقسمت فيه الجدران، وبدا أن الممرّ قد بلغ نهايته. كان الجدار الذي يقفان أمامه عبارة عن باب هائل مصنوع من مادة ليفية كالبنجر. انتظر إلى أن انفتح الباب ببطء، وتوقّع أن يجد نفسه أمام حارس حشرة يقف عند عتبته. لكنه فوجىء وهو يرى دوجنز يبذل جهداً كبيراً لفتح الباب الثقيل، الذي تزيد سماكته عن قدم. أومأ له دوجنز بإيماءة تعارف مقتضبة، فوجد نيال أنه يبدو مكتئباً ومرهقاً. عندما أصبحوا بالداخل، اغلقت الخنفساء المرافقة لنيال الباب بدفعة واحدة قوية من قوائمها الأمامية.

وجد نفسه في حجرة رحبة خافتة الإضاءة، ذات أرضية محدبة، بيضاوية الشكل. جدرانها من الطين تسندها أعمدة. جاء الضوء من مصابيح زيتية غمّازة، موضوعة في أماكن قريبة من السقف. كانت الأرضية البيضاوية تحوي عدداً من النتوءات، مثل هضاب صغيرة، جلست فوق كل منها خنفساء مدفعية. ورأى، بعد أن تعوّدت عيناه على الإضاءة الخافتة، أن لكل هضبة سطحاً علوياً، يجعل بمقدور الخنافس أن تستريح فوقه في وضع منتصب.

وجد أنه محاط بخمس عشرة خنفساء، تنتشر حوله في شكل شبه بيضاوي. ذكّرته وجوهها الصماء بضفادع الطين. كان من الواضح أن الخنفساء الموجودة في وسط الدائرة أكبر سناً من الأخريات، وبدت بشرتها الخشنة متشقّقة ومرقشة. وكانت إحدى عيونها

السوداء الجاحظة مرقطة باللون الأبيض. أحسّ في الحال أن هذا الخنفساء هو السيّد.

أمسكه دوجنز من ذراعه، وقاده إلى وسط الدائرة، ووقف بجانبه.

شعر نيال بالسعادة لدعم دوجنز المعنوي له. أثار فيه تحديق الخنافس إحساساً غريباً وغير مريح، يختلف كلية عن القشعريرة التي تثيرها العناكب، التي تبدي نوعاً من التعبير العدائي. مع ذلك فقد شعر كما لو أن عيونها تخترق سطح جلده، وترى ما بداخل جسمه. تكوّن لديه انطباع بأنها تتجاهل مظهره الجسدي، وأنها تنظر مباشرة إلى مشاعره وأحاسيسه، فانتابه شعور بعدم الارتياح، كما لو أنه يقف عارياً، وأدرك أن محاولة الكذب أو الخداع لن تكون مجدية، إذ ستكتشف كذبه قبل أن يتكلم.

رفع الخنفساء الجالس إلى اليمين من السيد قرونه، وأدى إشارات سريعة.

ترجم دوجنز هذه الإشارات قائلاً: يسألك «سارلب» عن عمرك.

أجاب نيال: لست متأكداً، لعلني أبلغ من العمر سبعة عشر صيفاً.

طرح الخنفساء على الجانب الآخر من السيد سؤالاً، ترجمه دوجنز قائلاً: يسأل سارلب عن سبب قدومك لهذه البلاد.

كان من الواضح أن كلمة «سارلب» لقب وليست اسماً.

ردّ نيال: لقد أُسرتُ بعد أن قتلت العناكب أبي.

عندما ترجم دوجنز الإجابة، عمّت فكرة صمت طويلة، ثم سأله خنفساء على يمينه:

ـ أتريد الانتقام من العنكبوت الذي قتل أباك؟

ردّ نيال صادقاً: لا.

سأله خنفساء آخر: أتريد الانتقام من جميع العناكب؟

فكّر نيال في السؤال قبل أن يردّ قائلاً: لا أريد الانتقام، ولكن أريد نيل حرّيتي.

عمّت فترة صمت أخرى. ثم تحدّث السيد للمرة الأولى: إذا ما سمحت لك العناكب بمغادرة المكان في سلام، هل تكون راضياً؟

ـ لا.

ـ ولم لا؟

فكّر نيال في كيفية صياغة ردّه، عندما سمع دوجنز يكرّر السؤال في دهشة، فادرك أن السيّد يوجّه الكلام إليه مباشرة. إنتابه شعور، يختلف تماماً عن ذلك الذي أحسّه عندما

حدّثه سيّد العناكب أو السيد ستيج بالتخاطر، حيث ظن أن الصوت يأتي من صدره أو رأسه. ولكن بدا الآن أن السيّد يوجّه إليه السؤال، كما لو أنه يتحدّث بصوت عالٍ.

نظر نيال في الوجه المصمت، وأجاب: لأننا لسنا أحراراً، حتى في بلادنا، ونضطر لقضاء عمرنا في الاختباء من العناكب.

حينما بدأ دوجنز يترجم هذا الردّ، أشار إليه السيّد بأن يلزم الصمت. نظر دوجنز مندهشا. ثم التقط نيال، من جديد، تفكير السيّد بشكل طبيعي، كما لو أنهما يجريان محادثة طبيعية.

ـ هل يرضيك أن يُسمح لأهلك بالحياة دون أية عوائق؟

لم يقم السيّد بأية إشارات مصاحبة، وكان واضحاً من تعبير دوجنز المرتبك أنه لم يسمع شيئاً. فكر نيال لفترة طويلة قبل أن يردّ قائلاً:

ـ لا. لقد رأيت الطريقة التي تعامل بها العناكب خدمها وعبيدها. واعتبرها أعدائي، ولن أكون سعيداً في أرضي.

أثارت هذه الكلمات عاصفة من المناقشات بين الخنافس، التي راحت تحادث بعضها بعضاً بلغتها الصفيرية الغريبة، وبالتلويح بقرونها. وكان السيّد هو الوحيد الذي واصل التطلّع إلى نيال بوجهه، الذي يبدو مثل القناع. نظر نيال بطرف عينه إلى دوجنز، فأحس في الحال بأنه قلق.

ساد الصمت من جديد، بعد بضع دقائق، ثم قال السيد:

ـ ما قلته يضعنا في موقف مختلف، إننا لا ندخل في قتال مع العناكب. أبمقدورك أن تذكر لنا مبرراً يدعونا لعدم تسليمك لها؟

بذل نيال جهداً كبيراً للتركيز، مستخدماً مرآة التأمل لتنقية حدسه. كان يدرك أن السيّد لا يطلب منه الاعتذار أو التبرير، ولا يطلب منه تقديم الحجج أو الاقناع. فوراء سؤاله يكمن تقييمه الموضوعي للموقف. إنها تريد السلام مع العناكب، والمفتاح لهذا السلام هو تسليمه لسيد العناكب، إنها تسأله بروح موضوعية خالصة، ما إذا كان يتفق معها على أن هذا هو أكثر الأشياء التي يتعيّن القيام بها حساسية. وقد فهم في الحال الشكل الذي يتعيّن أن تكون عليه الإجابة. وحدّق في الأرض، ووضع يديه خلفه في محاولة لتنقية أفكاره، فقد كان من الضروري عدم افتقاد الخيط.

ـ لقد كان أهلي يوماً ما سادة الأرض. أما الآن فنحن إما خدم أو هاربون. وأعتقد أن ما نحن فيه الآن، يتلخص في أننا فقدنا وضعنا بسبب ضعفنا. والعديد من أهلي

يشعرون بالرضا وهم يعملون خدماً، وهذا بطبيعة الحال خيارهم. وقد عُرض عليّ أيضاً أن أكون خادماً لدى العناكب، وأدركت أن ذلك مستحيل. وهذا لا يرجع إلى أن العناكب قد قتلت أبي، ولكن لأنني لا أرغب في أن أكون خادماً، فأقوى رغبة لدي هي أن أكون حراً.

قاطعه السيد قائلاً: ولكنك حرّ. فأن تكون حياً معناه أنك حرّ.

هزّ رأسه وقال: هذا قد يكون صحيحاً بالنسبة للخنافس والعناكب. ولكنه ليس صحيحاً بالنسبة للبشر، ويبدو أن لدينا نوعاً من. . . دالّة الحرية.

أحسّ بحيرة سيّد الخنافس فاستطرد: إنه شعور بأن أذهاننا يمكن أن تكون حرّة مثل أجسامنا.

شعربالارتباك نتيجة لعدم تفهّمها ما يقول، ووجد من الصعب توضيحه، فأنهى حديثه قائلاً: ليس صحيحاً بالنسبة للبشر أن الحياة تعني الحرية.

عمّ صمت طويل. ثم قال السيّد في نهاية المطاف: ما قلته الآن أمر من اثنين إما أنه في غاية العمق، أو في غاية الحمق، وأعترف بعدم فهمه. فأنا حر، وأنت حر، وليس هناك نوع آخر من الحرية.

سأله نيال: هل تعني أنني حرّ في المضي الآن؟

- لا. إن هذه المسألة يتعين أن نتخذ فيها قراراً. يجب أن نتشاور مع سيد العناكب.

أومأ إلى الخنفساء، الذي يقف في الحراسة عند الباب، وقال: اذهب وأحضر سيد العناكب!

أخرست الصدمة نيال، الذي انتابته الدهشة، وأحسّ بعضلات فروة رأسه تنقبض. وألقى نظرة خاطفة على دوجنز، عندما خرج الخنفساء، فانتابته الحيرة، حينما لم تندّ عنه أية دلالة تنم عن الدهشة، فقد حملق في الأرض وبدا متوتّراً وقانطاً.

سيطر نيال بصعوبة على خفقات قلبه، ولكنه ظل يشعر بالدم يتفجر في أطراف أصابع قدميه ويديه. وبدا أن الدقائق تمر بطيئة، وأحس أن أمله الأخير قد تلاشى؛ فإذا كانت الخنافس قد سمحت لسيد العناكب بدخول مدينتها، فهذا يعني أنها متعطّشة للسلام بأيّ ثمن، وأن الأمر لا يعدو كونه مجرّد وقت، قبل أن ترضخ لمطالبه.

انفتح الباب، وانتابت نيال موجة من الدهشة والارتياح، عندما وجد الحارس يتنحّى جانباً، ليسمح لأودينا بدخول الحجرة. لكنه رأى عندما دنت، أن تعبيراً مصمتاً ذاهلاً،

مثل ذلك الذي شاهده عند المدخل، قد ارتسم على وجهها. التقت عيناها بعينيه فلم تعرفه. بدت كما لو أنها مغشيّ عليها. تقدّمت ووقفت بجانبه، متخذة وضع الانتباه مثل جندي. انتابه فيضان من البؤس لفقدها حينما ألقى نظرة عجلى من طرف عينه على نهديها العاريين، وذراعيها اللذين لوّحتهما الشمس.

أومأ السيد إلى الحارس قائلاً: أحضر كرسياً لسيّد الموت!

ـ أفضّل الوقوف.

حدق نيال في أودينا بدهشة؛ فقد صدر الصوت من شفتيها، لكنه كان صوت سيّد العناكب المميّز، كما تغيّرت في الوقت ذاته ملامح وجهها، ليكتسي بالصرامة والقوة، فبدا كوجه إمرأة عجوز قاسية.

تحدث السيّد بلغة الصفير الغريبة، التي تتحدّث بها الخنافس، لكن نيال تمكن من فهم الكلمات بوضوح.

ـ تحياتي مرة أخرى إلى سيّد الموت.

ردّ الصوت بصبر نافد: تحياتي.

ـ لقد تحدثنا إلى خادمنا «بلدو» وأكّد لنا ما قلته.

مضت لحظة قبل أن يدرك نيال أن بلدو هو دوجنز.

واصل السيد حديثه قائلاً: إنه يقرّ بدخوله مدينتك دون إذن، لكنه يزعم أن غرضه الوحيد كان الحصول على المتفجّرات.

قال سيّد العناكب: ليس من حقّ خادم أن يقوم بأشياء دون إذن.

ـ يقول إنه ترقّى إلى منصب «سارلب» بعد ظهر أمس، ويحق له بالتالي اتخاذ ذلك القرار. ولكن هذا ليس عذراً، بطبيعة الحال. فقد كان ينبغي عليه أولاً طرح المسألة على المجلس، الذي كان سيرفض الإذن له بذلك.

ـ هل هذا يعطي له الحق في قتل العناكب؟

ـ لا، بطبيعة الحال. هذا هو القانون. ليس من المسموح لإنسان أن يرفع يده على خنفساء، أو أي حليف لها.

قال سيد العناكب: وما هي عقوبة خرق القانون؟

ـ الإعدام.

ـ وهل ستنفذ هذه العقوبة؟

ـ أجل، إذا كنت تصرّ على ذلك.

نظر نيال إلى دوجنز، فوجده يحملق في الأرض، دون أن يندّ عن وجهه أي انفعال.

ـ هل ستنفذ ذلك بنفسك، أم ستسلّمه لنا؟

قال السيّد: سنسلمه لك.

بدت علامات الهدوء واضحة على وجه سيّد الموت، الذي قال: هذا ما ينبغي أن يكون. وماذا عن الأسير الآخر؟

تردّد السيد، وهو يقول: هذه حالة أكثر صعوبة. إنه ليس خادماً، ولكنه أسير، وبالتالي له كل الحق في محاولة الهرب.

ـ هل له الحق أيضاً في قتل العناكب؟

ـ يقول إن العناكب قتلت أباه، وانه يعتبرها أعداءه. وذلك يبدو بالنسبة لي موقفاً منطقياً.

ـ لكنه عدوّ للعناكب. وأنت حليفنا، وبالتالي فإن من واجبك أن تسلّمه لنا.

ـ اتفق معك في ذلك. ولكن يبدو أن هناك بعض الشكوك بين أعضاء مجلسي. فهم يشيرون إلى أن بيننا مجرد معاهدة بعدم الاعتداء، لا تنصّ على توريطنا في معارككم.

ـ هذا الموقف غير ودّي.

ـ الأمر ليس كذلك. إننا نرغب في اتخاذ ما هو صحيح فقط وفقاً للقانون.

ـ إذن فأنت تعتزم أن تتركه يرحل.

بدأ سيد الموت يفقد أعصابه، وركّز نيال اهتمامه على دلالة الضعف هذه، التي تعدّ مؤشراً على خوفه.

ـ لم نتخذ بعد قراراً بهذا الشأن، وأعرب المجلس عن رغبته في سماع ما تريد قوله في هذه المسألة.

ساد صمت طويل، ثم قال سيد الموت: إذا كان هناك وزن لما سأقوله، فإنني أدعوكم للانصات لي بتركيز!

ـ نحن على استعداد دائماً لذلك.

بدا الضيق واضحاً على وجه سيّد الموت لمقاطعته، ثم قال: طيب: فلتنصتوا إذن!

إنكم تعرفون، مثلي، أن هذه الكائنات البشرية كانت سادة الأرض في فترة من التاريخ. وهذا يرجع إلى أن أسلافي وأسلافكم كانوا من الضآلة بحيث تمّ تجاهلهم. ولكننا نعرف أيضاً أنهم قضوا معظم عصورهم في معارك وقتال، ولم يتمكنوا من العيش في سلام. وفي نهاية المطاف ضاقت الآلهة ذرعاً بها، وجعلتنا السادة. ومنذ ذلك الوقت نعمت الأرض بحياة حافلة بالسلام. لقد عاملتم، أنتم معشر الخنافس، خدمكم بتسامح، وأدّى هذا إلى نشوب معارك بيننا، انتهت بتوقيع المعاهدة الكبرى التي وافقتم بمقتضاها، على عدم السماح لخدمكم مطلقاً بالحصول على استقلالهم. ومنذ ذلك الوقت أصبحنا حلفاء، أليس ذلك صحيحا؟

قال السيد، وكأنه يؤدي نوعاً من الطقوس: نعم هذا صحيح.

استطرد سيد الموت بارتياح واضح: حسناً. ضعوا هذا في الاعتبار، ولن نتسبّب في نشوب معارك بيننا، انتهت بتوقيع المعاهدة الكبرى، التي وافقتم بمقتضاها، على عدم عليه. قد تشعرون أن الأمر لا يعني شيئاً أن تتركوا واحداً من أعدائنا يمضي بحرية، ولكن إذا لم يعد البشر خدمنا، فسوف نعرف قريباً الفرق. إن هذه الكائنات لا تستطيع العيش في سلام، ولن تشعر بالارتياح إلا بعد أن تصبح السادة، ونغدو نحن وأنتم الخدم. أهذا ما تريدونه؟

لاحظ نيال نبرة الضيق في صوت السيّد وهو يقول: الإجابة على هذا السؤال واضحة. لكنني غير قادر على فهم حججك. لماذا سيؤدّي إطلاق سراح كائن شابّ إلى حدوث هذه الكارثة؟ إنه لا يبدو خطيراً.

ـ أتفق معك. ولكنك تخطىء لو اعتقدت ذلك. لقد نجح في إغراء خادمك بلدو بدخول مدينة العناكب بدون إذن.

حول السيد عينيه إلى دوجنز وقال: أهذا صحيح؟

تنحنح دوجنز، وقال بتردد: لا، على حدّ علمي.

سأل السيد نيال: أهذا صحيح؟

هز نيال رأسه في ارتباك قائلاً: لا.

قال سيد الموت: أطلب منه أن يريك ما يضعه بجوار قلبه!

تطلع السيّد إلى نيال، وقال: ما الذي تضعه بجوار قلبك؟

زحفت يد نيال إلى داخل ردائه، وقبضت على مرآة التأمل. غمرته فكرة الابتعاد عنها بالذعر والرعب، ولكنه عندما شعر بعيني السيد تحدّقان فيه، أخرجها من بين ملابسه.

قال السيد: أعطني إيّاها.

رغم أن نيال أراد الاحتفاظ بها أكثر من أي شيء آخر في العالم، لكنه عرف أنه ليس هناك مجال للرفض، فقد جعلته سلطة السيّد يشعر وكأنه طفل. انتزع السلسلة من عنقه، وسلمها إلى السيّد، الذي التقطها بمخلبه. ثم نظر إلى سيّد الموت قائلاً: إنها مضخم بسيط للتأمل، ولدينا واحدة مثلها في متحف التاريخ، وأعادها مرة أخرى إلى نيال الذي شعر بارتياح بالغ.

- هل استخدمتها للتأثير على خادمنا بلدو؟

عرف نيال فجأة، وهو يفتح فمه للرد، أنه من المستحيل الإجابة على هذا السؤال بالنفي. أدرك أن سيد الموت على صواب، فقد غيّر دوجنز رأيه بمجرد أن رغب في قيامه بذلك. عكس صوته عدم يقينه، وهو يرد قائلاً: لا أعتقد ذلك. ولكنني غير متأكّد.

التفت السيّد بعينيه إلى سيّد الموت، وقال: أتقول إنه تعمّد ذلك؟

- أقول هذا، وذلك هو سبب خطورته.

رأى نيال شيئاً أثار دهشته، وهو يعود إلى مكانه بجوار سيّد الموت. فقد التقت عيناه، للحظة قصيرة، بعيني سيّد الموت، فوجد نفسه ينظر إلى أودينا. كانت ما تزال هناك داخل جسمها، تستمع إلى كل ما يقال. وبدا له، وهو يعود إلى مكانه بجوارها، أنه قد تعرّض لنظرة تحذير. وقد أثار هذا اضطرابه، فتوقّف عن الاهتمام بمتابعة ما يقال. ولما أصبح مدركاً من جديد للأصوات، وجد سيّد الموت يقول:

- ما الوقت الذي سيستغرقه مجلسك ليتخذ قراراً في هذا الشأن؟

- ليس بمقدوري إطلاعك، ولكن القرار سيصدر في وقت قريب.

بدا سيد العناكب متأهّباً لمغادرة المكان، وهو يقول: طيّب. ولكن دعني أقول لك مرة أخرى ما قلته من قبل. إذا ما قررتم إطلاق سراح عدوّنا، فذلك سيُعدّ بمثابة إعلان حرب.

حملت نبرة كلامه تهديداً واضحاً. وأدرك نيال، عندما راح سيّد الخنافس وسيّد الموت يتبادلان النظرات، أن الارادتين القويتين تتصارعان. وعرف، شأن جميع من في الحجرة، أن السيّد يشعر بحنق، بسبب محاولة تهديد مجلسه. مع ذلك كان صوته هادئاً عندما قال: «أتقول إن العناكب ستعلن الحرب على الخنافس؟».

- أقول لقد حان الوقت للجوء إلى الحكمة.

كان ثمة شيء في طريقة لفظ هذه الكلمة الأخيرة أثار حذر نيال، فبدأ يستدير.

وعندما فعل ذلك، أطبقت يدا سيد العناكب على رقبته، وانغرست أصابعه مثل الصلب في لحمه. لكن لحظة الحذر سمحت له بالتحرّك، فأخطأت اليدان هدفهما، وبدلاً من أن تهشّم الأصابع قصبته الهوائية، راحت تضغط على اللحم تحت زاوية الفكّ. مع ذلك كانت قوة الضغط هائلة، فشعر بنفسه ينحني للخلف، كما لو أن عضلاته قد شُلّت. ووجد نفسه، في الوقت ذاته، ينظر في عيني سيّد الموت، فأحسّ مرة أخرى بوجود أودينا، وأدرك مندهشاً أنها تقاوم إرادة سيّد الموت، وتحاول منع عضلاتها من إطاعة أوامره بقتله.

ثم رأى من فوق كتفها وجه الحارس الخنفساء. حدثت هزّة عنيفة، وشعر بقدميه ترتفعان عن الأرض. تراخت فجأة القبضة الخانقة، ووجد نفسه على ركبتيه يحاول الزحف، وشعر وكأنه يسبح. بدأ دوجنز يساعده في الجلوس بعد أن استعاد وعيه.

كانت أودينا هي أول ما رآه، ووجدها ملقاة بالقرب من الباب، ويبدو أنها قد ماتت. تقوّس جسمها على نحو غريب، وتباعدت ركبتاها، والتفّت ذراعها تحتها. ورأى عندما جلس بجوارها أن رقبتها قد دقّت. ولما أمسك برأسها بين يديه، تحرّك وكأنه لم يعد متصلاً بالجسم. من الواضح أن الجانب الأيمن من رأسها قد اصطدم بالباب بقوة هائلة، بينما لاحظ وجود جرح مفتوح بالخد الأيمن، وراح خيط من الدم يسيل من زاوية فمها. بدا الحارس الخنفساء، الذي خلّصها، حائراً كما لو أنه قد اندهش من مدى قوته.

حاول نيال الوقوف، لكن ساقيه خانتاه، فاقتعد الأرض، ورأسه بين ركبتيه، وهو يشعر بالنبض الذي يضرب خلف جفني عينيه المغمضتين، وتناهى إلى مسامعه الحديث الصافر بين الخنافس، كما لو أنه يأتي من حجرة أخرى. وقد جعله الألم يلهث، حينما حاول ابتلاع ريقه، فبدا الأمر كما لو أن أحداً قد ملأ المريء بشظايا من الزجاج المهشّم.

بدّد التفكير في أودينا إحساسه بالإشفاق على حاله. واستخدم مرآة التأمل لتركيز انتباهه، فشعر في الحال بالتحسّن. لكنه قرّر عدم بذل أية محاولة أخرى للوقوف منتصب القامة. وأخذ يحدق، بدلاً من ذلك، في سيّد الخنافس من مكانه على الأرض.

أومأ السيّد، فساد الصمت. وعندما تحدّث، وشى صوته بالغضب، الذي يشعر به: إنّ ما رأيناه لتوّنا هو خيانة متعمّدة، كما أنه عمل يدلّ على احتقار صريح لمجلسنا. لقد حاول قتل أسير ما يزال تحت حمايتنا. وهذا يعني أنه أضاع كل حقّ للحصول على تعاوننا، ولا بد أن يعرف أنه ليس أمامنا من بديل سوى إطلاق سراح الأسير.

حاول نيال أن يتكلم، لكن صوته خرج مثل حشرجة. ثم أدرك أن التحدّث أمر غير ضروري، فقد نقل تفكيره سؤاله.

قال السيد: بإمكانك أن تذهب حيثما تشاء. لقد قرّرنا أنه ليس لنا الحقّ في تقييد حريتك، لكنني أنصحك بالعودة إلى بلدك والبقاء هناك، فالعناكب لن تتوقّف عن محاولة التخلص منك. وأعتقد أننا سنشعر بالأسف إذا ما نجحت في ذلك؛ فهذا سيكون أكثر مما تستحقّه خيانتها.

أجبر نيال نفسه على الوقوف، والانحناء في إيماءة شكر. ولكنه بمجرد أن وقف، غيّب الظلام أحاسيسه، فأدركه دوجنز وهو يسقط.

مؤلفات كولن ولسون

ضياع في سوهو	ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق
المعقول واللامعقول في الأدب الحديث	ترجمة أنيس زكي حسن
أصول الدافع الجنسي	ترجمة يوسف شرورو وسمير كتاب
اللامنتمي	ترجمة أنيس زكي حسن
ما بعد اللامنتمي	ترجمة يوسف شرورو وسمير كتاب
القفص الزجاجي	ترجمة سامي خشبة
طقوس في الظلام	ترجمة فاروق محمد يوسف
سقوط الحضارة	ترجمة أنيس زكي حسن
رحلة نحو البداية	ترجمة سامي خشبة
الشعر والصوفية	ترجمة عمر الدايراوي
الحالم	ترجمة سامي خشبة
إله المتاهة	ترجمة سامي خشبة
الإنسان وقواه الخفية	ترجمة سامي خشبة
الشك	ترجمة يوسف شرورو
خفايا الحياة	ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد
ما بعد الحياة	ترجمة محمد جلال عباس

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣
ص. ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت

تصميم الغلاف:
نجاح طاهر




الدلتا
عالم العناكب
كولن ولسن
رواية
Bibliotheca Alexandrina
0019001

عالم العناكب

٢ ـ الدلتا

رواية

ترجمة : فكري بكر

دار الآداب ـ بيروت

الطبعة الأولى
١٩٨٩

في المجلد الأول من عالم العناكب

منذ فترة طويلة، هيمنت حشرات ضخمة على الأرض، وحكمتها عناكب سامّة، تتمتع بقدرة هائلة على التخاطر، ربّت البشر لالتهامهم. واشتهر «شيب» سيد العناكب بحجمه الضخم، وبعيونه المليئة، وبأنه خالد لا يموت. قطن البشر القليلون، الذين بقوا أحراراً، في كهوف تحت الأرض في الصحراء، وتعرضوا دوماً لهجمات عناكب الموت، التي تطير داخل مناطيد من الحرير، وتمشط قوة إرادتها الصحراء، مثل كشافات.

كان نيال وأسرته يعيشون في جحر تحت الأرض، سكنته من قبل خنفساء غسرية. استمع نيال من جده «جومار» إلى قصص تلك الأيام، التي كان فيها البشر سادة الأرض، لكنه وجد مس الصعب تصديقها. كما استمع إلى قصص عن مدينة «ديرا» الكائنة تحت الأرض، التي تعد أكبر مستوطنة للبشر الأحرار»، وعن الدلتا الكبرى، وهي منطقة غابات تنمو فيها نباتات آكلة للبشر، وحشرات قاتلة.

حين قُتل اثنان من أفراد الأسرة، انطلق نيال وأبوه إلى مدينة ديرا الكبائنة تحت الأرض، واجتازا الصحراء، وبرفقتهما الحسناء انجيلي ـ التي ترملت ـ ليعيداها إلى ذويها. وفوق الهضبة الكبرى، اتخذوا من أطلال قلعة هائلة ملجأ لهم. وبدأ نيال، للمرة الأولى، يعتقد أن البشر حكموا في يوم من الأيام الأرض. وقابل في ديرا ابنة عمه الفاتنة «دونا». لكنه وقع في حب الأميرة «ميرلو» ابنة الملك كازاك، الذي أغراه بالإقامة في المدينة الكائنة تحت الأرض، لكنه عرف بعد ذلك أن ميرلو تنظر إليه على أنه مجرد صبي. فانطلق عائداً مع أبيه من حيث أتى، وقد غمره شعور بالحنق والإحباط. اتخذا من أطلال مدينة قديمة، ملجأ لهما، وهما في طريق العودة، حين تعرّضا لعاصفة رملية، وعثر نيال هناك على آلة غريبة، ترجع إلى القرن الحادي والعشرين، ووجد بداخلها قضيباً معدنياً متداخلاً، رأى أن بوسعه استخدامه كرمح. وبهذا القضيب، قتل عنكبوت موت، ليجلب على عائلته، وعلى مدينة كازاك، نقمة سيد العناكب نفسه. وعاد ذات يوم إلى الجحر ليجد أباه مقتولاً، وبقية أسرته وقد اختطفتها العناكب.

اقتفى أثرهم، على أمل أن تسنح له فرصة إطلاق سراح أمه وأختيه، لكنه وقع في أسر العناكب، التي اجتازت به البحر، ليصل إلى مدينة عظيمة، كان يسكنها البشر في وقت من الأوقات، لكنها تحولت إلى أنقاض، وانتشرت بين بناياتها الشاهقة أنسجة العناكب. وهناك عرف أن البشر يلقون معاملة أقل سوءاً مما توقّع. فالنساء يحكمن خدم العناكب ـ حيث أن الإناث هن الجنس المهيمن بين العناكب. وأقيمت الحواجز بينهن وبين الرجال، بينما كانت العناكب تأكل العبيد فقط.

كان يوجد في وسط المدينة، البرج الأبيض، الذي شيده قدماء البشر، لغرض ما طوته سنوات النسيان. وفشلت كل محاولات العناكب لاختراق جدرانه الناعمة، التي تشبه الزجاج. وشاهد نيال المحاولة الأخيرة، التي قام بها خدم خنافس المدفعية، يتقدمهم خبير الألغام بل دوجنز، وبدا أن هناك سراً مهماً يكتنف البرج.

أصبح كازاك زعيماً للبشر في مدينة العناكب، من خلال تعاونه مع العناكب. وحين قابل نيال ميرلو مرة أخرى، بدأ يعتقد أنها تحبه. وأخبره كازاك بالحقيقة المرعبة عن مصير خدم العناكب، وعرض عليه أن يكون حليفاً له. ولكنه رفض العرض، بعد أن أدرك مشاعر ميرلو الحقيقية تجاهه.

تعلم سر دخول البرج الأبيض، بمساعدة القضيب المتداخل. اكتشف أنه كبسولة زمنية، تركها قدماء البشر، قبل أن يرحلوا عن الأرض في مركبات فضاء هائلة. وتعلم، خلال الأيام القليلة التالية، تاريخ الجنس البشري من حاسب آلي رسمي «السيد ستيج»، لكنه رفض كشف النقاب عن سر واحد فقط، وهو كيف يمكن للبشر قهر العناكب، وترك له مهمة اكتشافه بنفسه.

اتخذ حيّ العبيد بالمدينة ملجأ له، بعد أن طاردته العناكب. ونجح في أن يصبح مشرفاً على فصيلة من العبيد، الذين قادهم إلى مدينة خنافس المدفعية، التي يطلق عليها العبيد اسم «كراشفيل». كانت الخنافس، التي دأبت على الدفاع عن نفسها بنفث النار الساخن، تقدس المتفجرات، خاصة الأعلى صوتاً. وصل نيال في يوم التفجير، وهو يوم مهرجانات الانفجارات، التي نظمها خبير المفرقعات بل دوجنز. وخلال المهرجان، كسب نيال حليفاً غير متوقع، هو الحسناء «أودينا» القائدة التي أحبته. وحين وصل يوم التفجير في كراشفيل إلى ذروته بكارثة غير منتظرة، وافق دوجنز أيضاً على أن يكون حليف نيال، في مقابل أن يوافق على الذهاب معهم إلى الحصن، وهو عبارة عن ثكنات مهجورة، كائنة في حي العبيد، يأمل دوجنز أن يعثر فيها على متفجرات.

وجد كميات تفوق بكثير ما كان يتوقعه، ليس المتفجرات فقط، بل «الحاصدات» أيضاً، وهي أخطر سلاح اخترعه الإنسان، بصرف النظر عن القنبلة الهيدروجينية. ورغم حصار العناكب لهم، إلا أنهم نجحوا في الهرب إلى مدينة الخنافس، على متن مناطيد عنكبوتية مسروقة، لكن دوجنز اضطر لاستخدام حاصدةٍ لإفناء جيش من العناكب حاصر المدينة. وبهروبهم بدأت حرب بين الخنافس والعناكب.

مثلوا أمام حاكم الخنافس ـ السيد ـ لتبرير عصيانهم. وواجهوا سيد العناكب، الذي تحدث من خلال فم أودينا، التي سيطر على ذهنها. وافقت الخنافس على تسليم دوجنز ليلقى عقابه، لكنها أبدت تحفظات بشأن شرعية تسليمها نيال، باعتباره إنساناً حراً له الحق في الهرب. حاول سيد العناكب، الذي اعترته ثورة غضب، وهو يرى أن طريدته تفلت من عقابه، خنق نيال. وخلال هذه المحاولة، قُتلت أودينا. وقررت الخنافس، بعد أن أثارت هذه الخيانة سخطها، أن يبقى نيال حراً. حاول أن يعبر لها عن شكره وامتنانه، لكنه فقد وعيه...

الجزء الأول

المجالس

- ١ -

شعر نيال، حين استيقظ، بالكرب، وبألم في حلقه، كأنـه قد ابتلع سيفـاً محمّى، بينـما أخذت عيناه تؤلمانه بشدة. حاول الجلوس، لكن يداً باردة اسـتراحت فوق جبهتـه، وأعادتـه بهدوء للنوم على الوسادة، فبدأ الألم يتلاشى.

وجد، عندما استيقظ في المرة التالية، أن الشمس قد سطعت، ومـلأت الحجرة بضـوء أزرق شاحب. كان يرقد فوق فراش عريض، وذراعاه العاريتان ملقاتان فوق الغـطاء. رأى، من خـلال الجـدار الأزرق الشفـاف، شجـرة ضخمـة ذات أزهـار صفــراء، حجبت أشعـة الشمس عن الحجرة. وكان السقف مكسواً بنقوش تماثل أوراق أشجار خضراء متموجة.

رفع يديه إلى عنقه، فالتقت أصابعه بشيء صلب. كانت رقبته ملفوفة بمادة، بدت مثل صلصال جاف، مثبتـة بأربـطة. أدرك فجأة أنـه عارٍ، وأن مـرآة التأمـل لم تعد حـول رقبته. جلس مذعوراً، ثم رأى ملابسه فوق مقعد بجانب الفراش، ومرآة التأمل موضـوعة فـوقها، وبجانبها القضيب المتداخل، فتنهد بارتياح.

انفتح الباب، ودخلت سليما إلى الحجرة. ابتسمت حين رأته مستيقظاً.

ـ أتشعر بتحسن؟

قال بصوت أجش، على نحو غير طبيعي:

ـ أشعر بتحسن كبير.

ضحكت، وقالت:

ـ صوتك يذكرني بجدي.

جلست بجواره على الفراش، ووضعت كلتا يديها فوق وجنتيه.

انتابه في الحال ذلك الإحساس المبهج البارد، الذي شعر به أثنـاء الليل، واختفى الألم من حلقه.

سألها: كيف تفعلين ذلك؟ أتضعين شيئاً ما في يديك؟ أجابت وهي تريه راحتي يديها: لا. إنها قوة انتقلت إليّ من أمي. فعائلتنا تمتلك موهبة المداواة.

شعر وكأنه يطفو فوق مياه جدول تنساب ببطء، تحت فروع أشجار خضراء متقوسة، فترك نفسه يغرق في النوم.

وجد، حينما استيقظ مرة أخرى، دوجنز يقف بجوار الفراش. كانت النافذة مفتوحة، فتناهت إلى مسامعه أصوات الأطفال، وهم يلهون عند النافورة. وقف خلف دوجنز، عجوز اكتسى وجهه، الذي لوحته الشمس، بالتجاعيد والخطوط، وغاصت عيناه الرماديتان الثاقبتان في محجريها. كان يلبس رداء قصيراً رثاً، لونه أخضر باهت، ويحمل كيساً من القماش ذاته.

قال دوجنز: إنه طبيبنا «سيميون».

أومأ نيال، وحيّا الرجل، بصوت بدا كما لو أنه يخرج من وسط أوراق جافة. حدق سيميون فيه عامداً، بعينيه الرماديتين الغريبتين، اللتين بدتا تشعان نقاط ضوء، ثم أمسك برسغه، ليقيس نبضه، ووضع يده فوق خديه، فانتابه إحساس بوخز خفيف، استمرّ فترة قصيرة. وضع الرجل الكيس فوق الفراش، وأخرج منه مدية قصيرة، لها نصل مدبب ثقيل، وراح يقطع بعناية المادة اللاصقة حول رقبته. تمكن من نزعها، بعد أن أحدث بضعة شقوق طولية عميقة. شعر نيال بالهواء البارد يلفح بشرته المكشوفة. مد العجوز يده، ولمس رقبته بسبابته، مما جعله يجفل.

سأله دوجنز بقلق: ما رأيك؟

رد سيميون بصوت عميق، بدا مثل دمدمة: إنه محظوظ، بوصة أخرى إلى اليمين، وكان الآن في عداد الموتى.

حاول نيال أن يلقي نظرة على رقبته، لكنه وجد أن دلك مستحيل. التقط دوجنز مرآة يد، من فوق طاولة للزينة، وأعطاه إياها. صُدم عندما رأى انعكاس وجهه الملطخ فوق الصلب المصقول. كانت عيناه محتقنتين، وتكسو علامات حمراء وبنفسجية، بدت كالرضوض، وجنتيه، وأحيطت رقبته بعلامات أصابع صفراء وبنفسجية.

سأل دوجنز: ماذا حدث لأودينا؟

ـ دفنّاها هذا الصباح..

ـ هذا الصباح؟

ـ نعم. إنك ترقد هنا منذ أمس الأول. لقد كنت تعاني من حمى.

أخرج سيميون من كيسه قارورة بها سائل بني اللون، وقال لنيال: «افتح فمك!». وعندما أطاعه، أحس بقطرات قليلة من سائل بارد على لسانه. قال الطبيب: «إنه سائل قوي» أغمض عينيك، وحاول ألا تبلعه».

بدا كأن السائل يتحول إلى حريق، بعد أن انتشر في جميع جوانب فمه، ووصل إلى حلقه، فازدادت حدة الألم. أغمض عينيه، وأسند رأسه إلى الوسادة. تحول الألم، بعد لحظات قليلة، إلى شعور دافىء بالنشوة. لم يستطع منع نفسه من بلع السائل، فأدى الدفء إلى تسكين الخدوش في القصبة الهوائية. ثم أحس، فجأة، بكل جسمه يسترخي.

قال كالحالم: يا له من دواء عجيب.
ـ إنه يسمى «سم ابن آوى»، ويُجلب من الدلتا الكبرى.

فتح نيال عينيه، وقال: هل ذهبت من قبل إلى هناك؟
ـ مرات عديدة.
ـ هل ستروي لي أشياء عنها؟
ـ نعم، ولكن ليس الآن، يجب أن تستريح.

غادرا الحجرة، ليتركاه بمفرده. ولكن رغم أنه شعر باسترخاء عميق، وأصبح الألم مجرد وجع بعيد، لم تعد لديه أية رغبة في النوم، بل راح يفكر في أودينا، وأحس بالاكتئاب لافتقادها. وحين تذكر آخر قبلة تبادلها معها، عندما ترك البيت في طريقه إلى مدينة العناكب، انهمرت الدموع من عينيه، ولم يحاول وقفها، أو مسحها وهي تنحدر على خديه. لقد أصابته وفاة أبيه بصدمة عنيفة، لكنها كانت صدمة صبي شعر فجأة بالوحدة. أما الآن فقد أحس بحزن رجل فقد محبوبته. انتابته حالة من الحنق والإهانة أن يواري التراب امرأة بجمال أودينا، فغرق على مدى ساعة في حالة من الحزن والتشاؤم العميقين. أدرك، في هذه الأثناء، أن الحياة برمتها ما هي سوى خطأ مأساوي، وأن القوى الخفية، التي تسيطر على مصيرنا، تنظر إلينا بنوع من الازدراء. هزته هذه الأفكار بعنف، كما لو كان ينظر إلى هاوية. جرفه النعاس، بعد أن أصابه الملل، في النهاية، من هذه الحالة.

أيقظته سليما، التي كانت تحمل صحفة، وانفرجت أساريرها، حينما رأت أنه قد تحسن.

ـ لقد تحسنت كثيراً.
ـ احقاً؟

وضعت المرآة أمامه، فرأى أن الاحتقان قد تـلاشى من عينيه، وأن النـزيف توقف من وجهه، كما تحولت الرضوض البنفسجية على رقبته، إلى مجرد بقع صفراء بنية.

جلست فوق الفراش، ووضعت الصحفة على حجره، وقالت: جرِّب هذا!

تذوق الحساء الخفيف، فوجده لذيذاً. فـوجىء بأنـه يستطيـع ابتلاعـه بدون ألم، لكن قطعة خبز سميكة بنية محببة، مغطاة بزبد أصفر شاحب، آلمته، إلا أن شعوره بالـراحة جعله يتجاهل ذلك. غسلت موجة متصاعـدة، من الارتياح النفسي، أثنـاء تناولـه الطعـام، البقية الباقية من حزنه.

سأل سليما: هل أصابك الفزع عندما حاصرت العناكب المدينة؟

- بـالطبـع. ولكن هناك آخـرين لم ينتبهم الفزع، لأنهم كـانوا عـلى ثقة بـأن الخنافس ستحميهم. لكنني ترعرعت وسط العناكب، وأعرف مدى خطورتها.

- كيف تمكنت الخنافس من منع العناكب من الاستيلاء على مدينتك؟

بدا السؤال مفاجئاً لها، فقالت: ألا تعرف؟ إنها تستخدم قوة الإرادة. لقد نسيت الاسم الذي يطلق عليها، ولكنها تعني أنها تغلق إراداتها معاً، لتتحول إلى نوع من الشِباك.

- فهمت، العنـاكب تفعـل الشيء ذاتــه. ولكن كيف عـرفت الخنــافس أنها ستتعـرَّض للهجوم؟

- لقد توقَّعت ذلك. فبمجرّد أن علمت بذهابكم إلى مدينة العناكب لسرقة المتفجـرات، عرفت أن العناكب ستأتي إلى هنا.

- وهل تظنّين أنها ستهاجم المدينة مرّة أخرى؟

هزت رأسها، وابتسمت قائلة: لا. ليس الآن، فلدينا الأسلحة الحاصدة.

- أتعرفين ذلك؟

- بطبيعة الحال. فالجميع يعرف ذلك.

حملت الصحفـة من أمامـه، وقالت: والآن يجب أن تعـود للراحة. ثم سـألتـه، وهي تفتح الباب: أهناك أية أخبار عن الرجال في المناطيد الأخرى؟

- نعم لقد عادوا جميعاً سالمـين. ورغم سقوط منـطاد هاستـور في النهر، لكنهم سبحـوا حتى وصلوا للشاطىء. كما أعاد ميلو بعض الأطفال الذين عثر عليهم في الغابة.

- أي أطفال؟

- بعض الأطفال من الحضانة بمدينة العناكب.

سألها بلهفة: أتعرفين أسماءهم؟

ألقت عليه نظرة سريعة، غريبة، غامضة.

ـ ليست بينهم شقيقتاك.

حملق فيها بدهشة، وقال: وكيف عرفت بأمر شقيقتيّ؟

ألقت عليه مرة أخرى، نظرة غريبة، مريبة، ثم غادرت الحجرة، تاركة الباب مفتوحاً. حدق بعد أن مضت، وهو يتساءل عما سيحدث. تناهى إلى مسامعه وقع أقدام في الممر، ورأى فتاة ترتدي رداء أزرق تقف عند المدخل

ـ دونا!

اندفعت نحو الفراش، ولفت ذراعيها حول رقبته، وقبّلته قبلة طويلة.

كان قد نسي دفء شفتيها المثير، فشعر بأنه لا يستطيع التنفس.

دخلت سليما الحجرة، وقالت بلهجة تأنيب خفيفة: الانفعال مضرّ بصحته، فما زال بحاجة إلى قدر كبير من الراحة.

تركته دونا، وجلست عند حافة الفراش، وهي تقول: أعِدُك بألا أفعل ذلك. رنا كل منهما إلى الآخر، وهما يبتسمان، غير مصدقين أنهما قد التقيا مرة أخرى.

قالت سليما: سأعود بعد بضع دقائق.

غادرت الحجرة، بعد أن أغلقت الباب وراءها بهدوء.

سألها بلهفة: ماذا ألم بشقيقتي؟

تلاشت ابتسامتها، قالت: غادرتا الحضانة منذ يومين. لقد أخبرتني القائدة، التي رافقتهما، أنهما ستذهبان إلى أمهما.

ـ هل حدث ذلك في يوم التفجيرات؟

ـ قبل حوالي ساعتين.

لم تكن الأخبار غير متوقعة بالكامل. فقبل ساعتين، كانوا يتفاوضون مع كازاك، ودخلت شقيقتاه ضمن تلك المساومات.

مدت دونا يدها، ولمست يده، قائلة: إني آسفة.

هز كتفيه قائلاً: قد يكون هذا أفضل شيء حدث. فلو أن العناكب تحتجزهما كرهينتين، فإنه من غير المرجح أن تلحق أي أذى بهما.

أغلق ذهنه عامداً أمام المخاوف، التي تحاول غزوه، وقال: ولكن أخبريني كيف هربت؟

ـ عندما وقع الانفجار، كنت في المرجة مع بعض الأطفال. ثم بدأت الأرض تهتز، فخلت أنها هزة أرضية ـ فقد تعرضنا لواحدة في ديرا، مما أدى إلى انهيار بعض الجدران. طلبت من الأطفال الجلوس على الأرض، وألا يخافوا شيئاً. ولكن بدا أن العناكب قد جن جنونها، فقد راحت تجري بطريقة غريبة، كما لو أنها غير واعية بما تفعله، بل إن عنكبوتاً اندفع نحو النهر. أتعرف سبباً لهذه التصرفات؟

ـ نعم. فهناك اتصال بين عقول العناكب، وإذا ما تعرَّض أحدها لضرر، فإن الآخرين يشعرون به. لقد أحسوا بألم موت العناكب الأخرى. ولكن ماذا حدث بعد ذلك؟

ـ أصبحت السماء قاتمة بفعل الدخان الأسود، وراح الأطفال يسعلون. تهشمت نوافذ الحضانة كلها، لكن أحداً لم يصب بأذى على ما يبدو. وغادرت القائدات المكان، على متن القوارب، وعدن عبر النهر. ازدادت كمية الدخان، فاعتقدت أننا سنختنق جميعاً حتى الموت، وطلبت من الأطفال السير خلفي، حتى خرجنا. ولم يحاول أحد إيقافنا، وكانت كل الشوارع خالية، فاتجهنا نحو التلال.

ـ ولكن إلى أين كنت تأملين الوصول؟

ـ لم أكترث. كنت أريد الهرب فقط من العناكب. فواصلنا السير حتى وصلنا إلى المزارع. وبعد فترة شعر الأطفال بالإجهاد والجوع. لكننا وجدنا بستاناً به أشجار تفاح وبرقوق، وجدول ماء، فاسترحنا لمدة ساعة، ثم قالت لي طفلة إنها رأت منطاداً عنكبوتياً، فزحفت إلى أن وصلت لحافة البستان، وتطلعت. رأيت أن هناك رجالاً في المنطاد، يرتدون ملابس صفراء فعرفت أنهم خدم الخنافس. أخذنا نتابع المنطاد حتى بدا أنه سقط فوق أشجار كثيفة. ثم طلبت من الأطفال أن يسيروا وسط الحقول، حتى وصلنا إلى الغابة. رحنا نصيح جميعاً، فأقبل الرجال، وأعادونا إلى هنا.

ـ أكانت الرحلة طويلة إلى مدينة الخنافس؟

ـ ليس كثيراً، ولكنها استغرقت وقتاً، نظراً لأننا كنا نضطر إلى الاختباء من العناكب. لقد رأينا الكثير منها في الحقول، واعتقدنا في البداية أنها تبحث عنا. ثم كدنا نصطدم بواحد منها، حيث خرج فجأة من خلف الأشجار، لكنه لم يتمكن حتى من رؤيتنا. لقد شعرت أنه يعاني من شيء.

ـ كيف؟

ـ كان يسير كما لو أنه مصاب بدوار أو بجرح، أو بانهاك شديد...

انفتح الباب، ونظرت سليما داخل الحجرة، وقالت:
ـ ينبغي أن يخلد للراحة الآن.

ردت دونا قائلة: «ليكن»، وحيته بابتسامة، ومضت. عندئذ أدرك أنه يشعر بإجهاد بالغ. حاول التفكير فيما قالته دونا، ولكن كان من المستحيل عليه أن يجعل ذهنه يركز في شيء. لكن معرفته بأنها باتت في أمان، غمرته بالسعادة، وظل يفكر فيها إلى أن استغرق في النوم.

ثم حلم بأنه يحلق فوق مدينة العناكب، على متن منطاد. كانت هناك رائحة شيء يحترق في الهواء، ورأى الدخان يتصاعد من داخل البيوت المحترقة، في حي العبيد. كان الدمار هائلاً، فقد تحول شارع إثر آخر إلى أنقاض. بدت ساحة البلدية مرئية بوضوح، بمروجها الخضراء، ولكن البناء نفسه تحول إلى انفاض، باستثناء جدارين متهالكين، كانا ما يزالان على حالهما. وإلى الجنوب، حيث توجد الثكنات، أصبح هناك الآن امتداد من المياه المتصلة بالنهر، من خلال قناة عريضة وعرة. رأى، وهو يمر فوقها، جثث العناكب تطفو فوق سطح مياهها العكرة.

عبر المنطاد النهر، ومر فوق البرج الأبيض مرتفعاً عنه ببضعة أقدام. بدا معظم البنايات في هذا الجزء من المدينة غير متهدم، لكن الشوارع كانت مكسوة بالزجاج المتهشم. مر بالقرب من قصر كازاك، ومال برأسه خارج المحل، في محاولة للنظر إلى داخله، من خلال نوافذه. سمع، عندما فعل ذلك، صوت أمه يناديه باسمه. رفع يديه وهو يصيح: أنا هنا! أين أنت؟ تردد صوتها مرة أخرى، وهي تقول: «هنا في حجرة النوم». بدا الصوت في غاية الوضوح، كأنها تبعد عنه بضعة أقدام لا أكثر.

استيقظ جافلاً، ونظر حوله في أرجاء الحجرة، متوقعاً رؤيتها. كان الغسق قد حل، والحجرة خالية. شعر للحظة، برغبة في البكاء من الأسى والإحباط. أدرك، فجأة، وهو يحدق في السماء البنفسجية خارج النافذة، وجودها. رآها، بمجرد أن أغمض عينيه وركز ذهنه، جالسة القرفصاء على أرضية حجرة نومها في قصر كازاك، وعيناها مغمضتان أيضاً. جرى اتصال بين ذهنيهما، وأحس بالسعادة والراحة، وهو يتلقى رسالتها بأنهم في أمان. لكن تركيزه خف، عندما حاول أن يرسل إليها صورة عن وضعه؛ فقد كان عقله ما يزال متخدراً بفعل النوم. وانتهى الاتصال، وأصبح بمفرده.

نظر دوجنز بحذر من خلال الباب، وقال:
ـ أتشعر بتحسن؟

ـ أفضل كثيراً. أشكرك.

ـ بالقدر الذي يسمح لك بحضور اجتماع؟

خفق قلبه شدة، وقال: اجتماع آخر للمجلس؟

ـ لا. مجرد اجتماع بشري هذه المرة. ولكني في حاجة لمساندتك.

فاجأته الفكرة، فقال: مساندتي؟

ـ إنه مجلسنا المدني. لقد علمت أنهم يعتزمون توجيه اللوم لي.

ـ وهل سيغير هذا من شيء؟

ـ نعم. بإمكانهم أن يأمروني بتدمير الأسلحة الحاصدة.

ـ ألن يكون هذا تصرفاً أحمق؟

تناهى إلى مسامعها طرق خفيف على الباب، قبل أن يتمكن دوجنز من الرد، ودخلت سليها، حاملة مصباحاً غمر ضياءه الحجرة. وضعته فوق الطاولة، وانصرفت. حدق نيال فيه بدهشة.

ـ ما هذا؟

ـ إنه مصباح ضغط بسيط، وهو نوع من الأسرار العائلية. لقد اخترعه جدي منذ ثمانين عاماً، ولكن لم يُسمح لنا مطلقاً باستخدامه.

ـ ولم لا؟

هز كتفيه اشمئزازاً، وقال: الحشرات تقول إنه آلة.

ـ وكيف يعمل؟

نقر دوجنز على الكرة المعدنية اللامعة عند قاعدة المصباح، وقال: إنه يحتوي على الزيت، الذي تقوم مضخة بدفعه في هذا الأنبوب، ثم يتبخر عندما يصل إلى هذا الغطاء المخرم الخزفي. إنه بسيط حقاً!

حدق نيال بانبهار في المصباح. لم يكن التصميم هو الذي أثار فضوله، بل إحساسه بأنه مألوف بالفعل لديه. ثم أمده حدس واتاه سريعاً بالرد. لقد زرع السيد ستيج في ذاكرته هذه المعرفة، مثل قدرته على القراءة. استدعى، حين أدرك ذلك، أشياء عديدة أخرى من المعارف، التي ترقد في سُبات، في أعماق ذاكرته. واجه، لبضع ثوانٍ، إحساساً بالحيرة، كما لو أن هويته قد تعرضت فجأة للشكوك.

مدَّ دوجنز يده في درج، وقال: وهذا شيء آخر من المعرفة المحظورة. وألقى بكتاب فوق

الفراش. قرأ نيال العنوان «مبادىء الإلكترونيات»، ثم قال: «ولماذا يُحظر؟».

ـ لأن الكتب محظورة. تنص المادة الحادية والعشرون من معاهدة السلام على «أن كل من يطبع أو يوزع كتاباً سيتعرض للإعدام». وبالتالي فإن معظم الكتب موجودة في المتاحف، حبيسة صناديق زجاجية.

ـ ولكن هل بإمكانك القراءة؟

ـ بالطبع. معظمنا يستطيع القراءة. إنه سر ينتقل من الأب إلى الابن. ولكن إذا ما عرفت العناكب ذلك، فسنتعرض للمتاعب. لقد اكتشفت منذ عشرين عاماً أن هناك رجلاً بيننا يستطيع القراءة، وهو عجوز في التسعين من عمره، فأصرت على إعدامه.

ـ وهل وافقت الخنافس؟

ـ لم يكن أمامها بديل آخر؛ فالمعاهدة تنص على ذلك.

راح نيال يتصفح الكتاب، وهو يشعر بالحيرة أمام الرموز الرياضية.

سأله دوجنز بصورة عرضية: مَن علمك القراءة؟

ـ كيف عرفت أنني أستطيع القراءة؟

ـ أرى عينيك تنتقل بين السطور. مَن علمك؟

ندّت عن نيال ابتسامة عريضة، وقال: آلة.

ألقى دوجنز عليه نظرة متسائلة، وقال: الآلة ذاتها التي أعطتك أقراص الطعام؟

ضحك نيال لفطنته، وقال: هذا صحيح.

ـ وأين هذه الآلة؟

ـ في البرج الأبيض.

اتسعت عينا دوجنز، وقال: أجادٌ أنت؟

أومأ نيال بالإعجاب، فقال دوجنز: هل كنت هناك؟

ـ نعم.

امتقع وجه دوجنز فجأة، وقال: وكيف دخلت البرج؟

مال نيال، والتقط القضيب المتداخل، الذي كان موضوعاً فوق ملابسه، وقال: «بهذا». ثم ضغط على الزر، فتمرد. سلمه إلى دوجنز، قائلاً: هل تشعر بشيء؟

ـ نوع من الوخز.

حاول دوجنز التحدث برباطة جأش، ولكن ارتعاشة يده وشت بانفعاله.

ـ أين عثرت عليه؟

ـ في الصحراء.

وراح نيال يصف الطريقة التي احتموا بها من العاصفة الرمليّة التي أدَّت إلى تعرية المدينة الصحراوية. ولما وصف له الآلة المتألّقة، أومأ دوجنز، وقال: «إنه جندب، وهو الشكل الرئيسي لوسيلة النقل للمسافات الطويلة في نهاية القرن الحادي والعشرين». نظر إلى القضيب في يديه، وأضاف: «لكنني لم أرَ مطلقاً واحدة منها من قبل. آسف. . . واصل قصتك».

تزايد انفعال دوجنز، عندما راح نيال يصف الطريقة التي وجد بها نفسه داخل البرج، ومن الواضح أنه وجد من الصعب الجلوس دون حراك. احمر وجهه بعد أن كان شاحباً. وجد نيال أن باستطاعته الشعور بهذا الانفعال يشع من دوجنز، مثل قوة مادية، ورأى أن ذلك يثير اضطرابه وإجهاده. وشعر بالارتياح، حينما قاطعه دوجنز، وهو يصف السيد ستيج.

ـ ذلك يثبت أنني على صواب! يقول جلورفن: «يتعين أن نشعر بالرضا لبقائنا على حالنا. . .»

ـ جلورفن؟

ـ زعيم مدينتنا، رئيس مجلس المدينة. يقول: يجب أن نكون راضين، ونحن نخدم الخنافس، ونعيش حياة آمنة. ولكن ما السبب الذي جعل القدماء يراكمون كل تلك المعرفة، إذا لم يكونوا راغبين في أن نستغلها؟

ـ إنهم كانوا يريدون منا أن نستغلها، عندما نكون على استعداد لذلك.

قال دوجنز بصبر نافد: نحن على استعداد الآن. وقد كنت على استعداد طوال حياتي.

هز نيال رأسه، وقال: لقد أخبرني العجوز أن هناك بعض الأشياء لا يستطيع أن يطلعني عليها ـ أشياء يتعين عليّ أن أكتشفها بنفسي. . .

ـ ما هي هذه الأشياء؟

ـ الطريقة التي نهزم بها العناكب، على سبيل المثال.

قال دوجنز بانفعال وصل إلى الذروة: لقد عرفنا ذلك بالفعل. ما هي الأشياء الأخرى.

هز نيال رأسه، وقال: لا أستطيع تذكّرها. ولكنه يعتقد أن هناك أشياء معينة يتعين عليّ تعلمها بنفسي.

وقف دوجنز، وراح يذرع الحجرة جيئة وذهاباً، وتجسد الانفعال في ظله الأسود الذي عكسه المصباح، ثم قال: «بطبيعة الحال، إنه الأمر ذاته مع أي شيء ـ إننا لا نعتز بالشيء الذي نحصل عليه بسهولة. لكنني دأبت على انتظار هذا طوال حياتي. . .».

قرع الباب، فقال دوجنز: اللعنة!

تطلعت سليبا إلى داخل الحجرة، فقد كانت تشعر بالحيرة من كل هذا الصياح، ولا تعرف له سبباً.

قالت: لقد وصل أعضاء المجلس، وهم في حجرة الطعام. زمجر دوجنز وهو يحاول السيطرة على أعصابه: «يا لها من لحظة تلك التي يقاطعوننا فيها. ليكن، أبلغيهم بأننا سنأتي في غضون بضع دقائق.

فتح درجاً، بعد أن خرجت سليبا، وقال لنيال: ارتد هذا! وأعطاه رداء أصفر قصيراً، من ذلك الذي يرتديه خدم الخنافس.

ارتدى نيال الرداء بسرعة، وعلق مرآة التأمل حول رقبته. لاحظ، عندما فعل ذلك، الحبل حول رقبة دوجنز.

ـ ما هذا؟

ابتسم دوجنز ابتسامة غريبة، وسحب من تحت ردائه مرآة تأمل، مماثلة تقريباً للمرآة التي يضعها نيال حول رقبته، إلا أن لونها فضيّ. فهم نيال فجأة الوضع.

ـ ذلك هو السبب الذي جعلني أفهم ما تشعر به. لقد وجهت ذلك الشيء نحوي.

حملها دوجنز في يده، وقال: لقد استعرتها من المتحف. قل لي، هل تجعلك تشعر بالإجهاد؟

ـ يحدث ذلك في البداية، ثم تتعود عليها.

ـ الحمد لله على ذلك. إنني أظل أشعر بالإرهاق طوال اليوم. هل حصلت على مرآتك من البرج؟

ـ نعم.

ـ اتسمح لي بأن أجربها؟

سلمه نيال مرآته، وأخذ مرآة دوجنز في المقابل. أحس بالفرق، بمجرد أن وضعها حول رقبته. بدت هذه المرآة في البداية، أقوى بكثير، ثم أدرك أنها ليست مرآة قوة. فهي، مثل مرآته، تحول القوة إلى أشعة مركزة، عندما تُقلب إلى الداخل، وتبث التركيز للخارج،

حين تقلب على الجهة الأخرى. ولكن هناك شيئاً قاسياً وعنيفاً في قوتها، مثل شخص يصدر أمراً. وجد أن وضعها لبضع لحظات فقط، يصيب رأسه بصداع شديد.

قال دوجنز: هذه لا تبدو قوية.

ثم أعادها إلى نيال، الذي وضعها في جيب ردائه، بدلاً من أن يعلقها حول رقبته. فقد أوحت إليه غريزته بأن مرآة التأمل ستشكل عقبة في طريق شفائه، وهو في هذه الحالة من الضعف.

أخذ الأطفال يحملقون فيه من الأبواب، وهو يسير خلف دوجنز في الممر، فعرف أنه موضوع لفضول الكثيرين منهم.

دخلا حجرة رحبة، كانت أهم قطعة أثاث فيها طاولة لامعة بيضاوية الشكل، تتسع ليجلس حولها نحو عشرين شخصاً، وقد انشغل معظم المقاعد. تعرف نيال على ثلاثة وجوه فقط، هم ميلو، أوليس، وسيميون، وهو الطبيب الذي عالجه

وقف الجميع، حينما دخل دوجنز الحجرة، لكن نيال لاحظ أن هذا يعكس تحية رسمية محضة. اقتعد دوجنز كرسياً في نهاية الطاولة، وطلب من نيال أن يجلس بجواره.

تنحنح رجل قصير، ذو لحية رمادية اللون، يجلس عند الطرف الآخر للطاولة، وقال: أرجو المعذرة، لكن هل يُسمح للأجانب بالمشاركة في اجتماعات المجلس الرسمية؟

رد دوجنز: لقد قال جلورفن بنفسه إنه يريد استجواب ضيفنا. وسيكون من الصعب تحقيق ذلك إذا لم يكن موجوداً.

احمر وجه الرجل القصير، وقال: أهناك أي سبب يحول دون انتظاره بالخارج، حتى نكون على استعداد لاستجوابه؟

احمر وجه دوجنز، وحملق فيه بغضب قائلاً: نعم يا «بايبس» ثمة سبب. إنه رجل حر، وليس هناك ما يجبره على الانصياع لأسئلتنا، وبمقدوره الانسحاب، وهو يسبنا جميعاً. وعلاوة على ذلك فإنه ضيفي.

امتقع لون الرجل القصير، ونكس عينيه أمام ثورة دوجنز. تنحنح الرجل الذي يجلس بجواره، وهو رجل طويل أصلع، له وجه شديد الشحوب، ووجنتان غائرتان ـ وقال باقتضاب: «حُسم الموضوع. ولنبدأ الاجتماع». ولكن كان من الواضح أنه يشعر بالاستياء.

نكس دوجنز عينيه فوق الطاولة، كما لو أنه يقبل التوبيخ، لكن اتضح من شكل فمه المطبق، أن مزاجه متعكر.

قال الأصلع: هل لك أن تقدم لنا ضيفك، قبل أن نبدأ؟

رد دوجنز: اسمه نيال، وهو قادم من منطقة الشمال «خابياد» الصحراوية.

قال رجل بدين، غطت رأسه عقصات مشدودة من الشعر الأشقر:

ـ هل أكون مصيباً إذا افترضت أنه العبد الهارب، الذي تبحث عنه العناكب؟

نظر إليه دوجنز شزراً، وقال: الافتراضان خاطئان يا «كوربن». فهو ليس عبداً، لأنه ولد حراً. وهو ليس هارباً، لأنه جاء إلى هنا بغير ارادته، وبالتالي له كل الحق في الهرب.

ندت عن كوربن ابتسامة باهتة، وقال: ألا يكون هذا بمثابة حكم مسبق على القضية؟

هز دوجنز رأسه، وقال: كلا. أنت الذي تريد أن تصدر حكماً مسبقاً.

تدخل الرجل الأصلع، وقد نفد صبره: لنوقف هذه المشاحنات! فالسؤال الذي نريد أن نعرف له إجابة هو ببساطة: هل خرجت عن القانون؟ هل تجيب بنعم أم لا؟

نظر إليه دوجنز، للحظة، قبل أن يردّ قائلاً: لا يا جلورفن، لم أخرج عن القانون.

حدق جلورفن فيه بنظرة استنكار، وبدا واضحاً أنه قد تضايق من لهجة دوجنز.

ـ من الصعب تصديق ذلك. ألم تتزعّم حملة إلى مدينة العناكب؟

أومأ دوجنز قائلاً: بلى.

ـ هل حصلت على إذن من هذا المجلس، أو من مجلس سادتنا؟

ـ لا.

ـ إذن، فقد خرجت عن القانون.

هز دوجنز رأسه بشدة، وقال: لا أستطيع الموافقة على هذا. فقبل ساعتين من انطلاقنا من حي العبيد، وضع نائب كبير الوزراء يده فوق رأسي، وقال لي، إنه يعتبرني من الآن واحداً منهم. وذلك يعني أنه قد رفعني إلى رتبة سارلاب شرف، وهو ما يعني حصولي على حق اتخاذ قراري بدون مشاورة هذا المجلس.

قاطعه بايبس قائلاً: أهذا يعني منحك الحق في اتخاذ قرار شنّ حرب ضد حلفائنا؟

ـ لم تكن هناك حرب ـ كل ما حدث هو دفاع عن النفس فقط. وبإمكان ميلو وأوليس أن يقصا عليكم ما حدث.

قال جلورفن: لقد روى لنا ميلو وأوليس قصتهما. ونرغب الآن في الاستماع إلى قصتك قبل الحكم عليها.

رد دوجنز: وهو كذلك. جميعكم يعرف أن مخزوني بالكامل من المتفجرات قد دمره حادث.

قاطعه رجل قصير ذو وجه حاد، قائلاً:

- هل هذا الحادث هو الذي أدى إلى ترقيتك؟

- نعم.

- إذن فإن ترقيتك قد تمت بناء على ادعاء كاذب؟

بدا دوجنز في غاية الهدوء، وقال: نعم، إذا كنت تريد أن تفسر الأمر هكذا يا «زوراب».

أومأ الرجل القصير، وقال: طيِّب! استمرّ، أرجوك.

- شكراً. لقد وجدت نفسي في وضع الرجل المسؤول عن التفجيرات بدون متفجرات تجعلني أواصل مهمتي. عندئذ اتخذت قراري بالبحث عن المتفجرات في ثكنات حي العبيد، لأنني أعرف أنه عادة ما توجد أسلحة في أماكن الثكنات. وكان هذا هو دافعي الوحيد، الذي جعلني أقود حملة إلى حي العبيد. أتفق معكم على أنه كان قراراً متهوراً، ولكنني شعرت بأن لي الحق في اتخاذه. لم أكن أعتقد أن هناك أي خطر. فلو كان قد أُلقي القبض علينا، كنا سنكشف عن هويتنا كخدم للخنافس، وكنت سأتقبل أي عقاب تقررونه. وقد وافق جميع من جاء معي على ذلك، قبل أن ننطلق. لقد وقعنا في خطأ خطير، وأنا على استعداد لتقبل أي لوم على ذلك. ووجدنا أنفسنا مضطرين، ونحن نحاول الهرب، إلى الدفاع عن أنفسنا ضد العناكب. وأنا آسف على هذا، ولكن لم يكن هناك مفر. فوظيفتي تحتم علي عدم تعريض المزيد من شعبنا للقتل. لقد فقدنا ثلاثة، ولم أكن مستعداً لفقد أكثر من ذلك.

ثم عاد دوجنز إلى الجلوس فوق مقعده، ونكس عينيه مرة أخرى. ساد صمت طويل. بدا أن الجميع قد اقتنع بالرواية، بل إن نيال اقتنع بها، رغم معرفته بأن قوة الحجة التي ساقها ترجع إلى مرآة التأمل، وليس إلى الكلمات التي تفوه بها.

تنهد جلورفن، وقال: إذن فإنه يبدو أن مشكلتنا الأساسية هي أن نبحث عن طريقة نقنع بها العناكب، بأن ما حدث لم يكن حرباً متعمدة.

تساءل زوراب بريبة: وهل تظن أن هذا ممكن؟

رد جلورفن الذي بدا عليه الاضطراب: لا أعرف، ولكن لنحاول على الأقل.

تركّزت عيناه على نيال، وكذلك كورين.

ـ قد يكون من الضروري، بطبيعة الحال، أن نبدأ بتسليم العبد الهارب إلى العناكب، فهذا سوف يظهر حسن نوايانا.

حملق دوجنز فيه، ببرود شديد، وقال: لقد رفض السيد نفسه ذلك، فما الذي يجعلك تفكر في اتخاذ موقف مضاد لقراره؟

احمر وجه كوربن، ونكس عينيه.

هز جلورفن رأسه، وقال: ومع ذلك، فإنه ينبغي علينا الوصول إلى قرار ما. ويتعين أن نكون واقعيين. ففي الوقت الحالي، نحن في حالة حرب فعلية مع العناكب، وهو أمر لا يجب أن يستمر.

نظر دوجنز إليه، وقد ندت عنه ابتسامة، ثم قال: أتعني أنك تعتزم أن تكون تحت رحمتها؟

ـ وهل لديك أي اقتراح أفضل من هذا؟

لم يشعر نيال بشيء سوى الاعجاب بصبر جلورفن، ورباطة جأشه. تلفت دوجنز حوله، وقال: نعم، أقترح أن نبدأ في قبول الوضع الحالي.

بدا الذعر على وجه جلورفن، ووجوه معظم الحاضرين، وقال: أتريد منا أن نظل في حالة حرب معها؟

كان من الواضح أنه يظن أن دوجنز قد جُنّ.

تلفت دوجنز حوله مرة أخرى، وأدرك نيال أنه يستخدم قوة مرآة التأمل لإضعاف مقاومتهم، وقال: لا. أريد أن يعود السلام. ولكن ليس بالشروط السابقة ذاتها. إنكم تعرفون أن معاهدة السلام أعطت كل المزايا للعناكب، وأرغب في أن نحصل على هذه المزايا.

التفت دوجنز نحو الباب، ونادى: سليما!

انفتح الباب، ودخلت سليما حاملة مصباح الضغط، فبدا واضحاً أن الأمر قد تم ترتيبه مسبقاً. غمر ضوءه الأبيض الوهّاج كل أركان الحجرة، مما جعل ألسنة اللهب الضئيلة للمصابيح الزيتية تفقد أهميتها. وضعته سليما في منتصف الطاولة، واستدارت منصرفة.

حدق بايبس في المصباح مذعوراً، وقال: «هل أصابك مس من الجنون؟ إنك تخرق القانون».

ندت عن دوجنز ابتسامة ماكرة، وقال: قانون ضد الإضاءة؟

- تعرف أن ذلك ضد شروط معاهدة السلام.

تنهد دوجنز، وقال: إذن قد يكون الوقت حان لإعادة التفاوض بشأن معاهدة السلام.

حدَّق جلورفن فيه بصرامة، وقال: يبدو أنك غير متفهِّم تماماً للموقف. إن مشكلتنا تكمن في إقناع العناكب للعودة إلى السلام، و. . .

حاول جاهداً العثور على الكلمة، فقطب دوجنز بخبث، وقال: والتسامح معنا؟

رد جلورفن بتحدٍ: نعم، والتسامح معنا. لقد ارتكبنا جرماً خطيراً ضد حلفائنا. وتريد أن تزيد الطين بلة، بمحاولة إجبارها على تغيير المعاهدة، وهذا أمر ليس له أية علاقة بمشكلتنا.

إلا أن عيني دوجنز المحدقتين فيه، جعلتا صوته يفتقر إلى الاقناع

هز دوجنز رأسه، وقال: لا أجد سبباً لذلك.

رد كوربن بعصبية: الأفضل أن توضح لنا ما يدور في دهنك.

مال دوجنز للأمام، واضعاً يديه فوق الطاولة، وقال: نعم، بكل سرور، وسأكون واقعياً. إنكم تسعون إلى معرفة السبل التي تؤدي إلى إعادة الساعة للوراء، وتريدون العودة للوضع الذي كنتم عليه قبل أسبوع. أقول لكم هذا مستحيل، فالعناكب لن تغفر لكم، ولن تنسى. إنها على استعداد لإقامة سلام، بطبيعة الحال - فهي لا تريد خوض أية حرب أخرى. ولكنه لن يكون سلاماً حقيقياً، فقد عرفت الآن أننا خطرون، ولن يهنأ لها بال قبل أن تقتلنا، أو تستعبدنا. إنها ستنتظر حتى تتهيأ لها فرصة أخرى لمهاجمتنا، وسوف نتيح لها هذه الفرصة، عندما ندمر الأسلحة الحاصدة. وسوف فصبح عُزّلاً، بمجرد أن نفعل ذلك.

هز جلورفن رأسه، وقال: إن لديها أكثر من سبب لمهاجمتنا، إذا لم ندمر الأسلحة الحاصدة.

قطب دوجنز، وقال بسخرية: ربما سيكون لديها أكثر من سبب، لكنها لن تجرؤ على مهاجمتنا.

بدت الصدمة على ملامح جلورفن، الذي قال: إذن فأنت تقترح أن نبقى أعداء.

حدق دوجنز فيه، وقال: دعني أكون في غاية الوضوح إزاء ما أقترحه.

صمت لفترة طويلة، ثم أضاف: إن العناكب تعامل الخنافس على قدم المساواة. وأعتقد أن الوقت قد حان لاقناعها بمعاملتنا بالطريقة ذاتها.

هز بايبس رأسه وقال: هذا مستحيل. أتتوقع منها أن تطلق سراح كل عبيدها وخدمها؟

تطلع دوجنز إليه بجدية، وردّ: إنها ليست مضطرة لذلك، فخدمها يعتقدون أنهم يتمتعون بالحرية بالفعل. ولكنك تعرف ـ مثلما أعرف ـ ما يحدث عندما ترسلهم إلى أرض السعادة الكبرى، أليس كذلك؟

هز بايبس رأسه، وقال: هذه مجرد إشاعة.

ـ تعني أنك تفضل الاعتقاد بأنها مجرد إشاعة. إنك تعرف ـ مثلي ـ أنها الحقيقة.

بدت التعاسة على وجه بايبس، وأحس نيال أنه غير مقتنع، لكنه شعر بأن اقتناع دوجنز يحمله على تغيير رأيه.

قال دوجنز ملطفاً الجو: فلنترك مناقشة ذلك. إنني أتحدث عما سيجري لنا. لقد دأبتم على خرق المعاهدة، منذ أن كنتم في الخامسة من عمركم؛ فبإمكانكم جميعاً القراءة، كما أنكم تخبئون الكتب في الأقبية بمنازلكم. وذلك ضد المعاهدة. ألستم ترغبون في أن يتعلم أحفادكم القراءة في المدرسة، بدلاً من التعلم في السر؟

قال جلورفن بصرامة: يبدو أنك تبالغ؟ هل يهم المكان الذي نتعلّم فيه القراءة، طالما أننا نتعلم؟ أنرغب حقاً في مصابيح مثل ذلك المصباح، طالما بوسعنا امتلاك ما نشاء من المصابيح الزيتية؟ إننا نتمتع بالفعل بالقدر الذي نريده من الحرية.

قال دوجنز: كما تريد؟

ـ نعم، كما أريد، وكما تريد عائلتي. لِمَ لا نترك الأمور على ما هي عليه؟

ندت عن دوجنز ابتسامة مصالحة، وقال: أتفق معك في هذا. إنني أود أن أترك الأمور كما هي، أو بالأحرى، كما كانت. ولكن ليس بمقدورنا ذلك. لقد تغيرت الأشياء، وعلينا أن نعترف بذلك.

خفض صوته، ونقر على الطاولة بأظافره، وقال: إن العناكب ستقدم تنازلات، لمجرد إحلال السلام. لقد قتلنا العشرات، وربما المئات منها. وبمقتضى قانونها، فإنه يتعين تسليمنا جميعاً لها، وكذلك زوجاتنا وأطفالنا، لإعدامنا. بل إن ذلك لن يكفيها ـ فالعناكب

تقول إن واحداً منها يساوي مائة إنسان وإذا ما أرادت قيام سلام، فإنه يتعينَّ عليها أن تنسى كل هذا. إذن لِمَ لا نستغل الفرصة لنجعلها تغيِّر معاهدة السلام؟

ساد صمت، وظلَّت عينا دوجنز تحدِّقان فيهم، للتأثير عليهم.

ثم نظر جلورفن إلى نيال، وقال: أود سماع رأي ضيفنا.

جفل نيال، وألقى بنظرة متسائلة على دوجنز، ثم أدرك أنه قد بدأ يعامله، مثل الآخرين، كزعيم.

قال: لست متأكِّداً أن رأيي سوف يكون مفيداً لكم. فقد قضيت معظم حياتي مقيماً في حفرة بالصحراء، مختبئاً من العناكب. لقد قَتَلت أبي، وأسرت أسرتي. وكل ما أريده هو أن أرى العناكب وقد أُطيح بها.

كاد أن يضيف قائلاً: وبذلك يمكن أن يصبح البشر سادة الأرض من جديد»، لكنه أحجم، حيث أدرك أن مثل هذا القول قد يصدمهم نظر جلورفن إلى دوجنز، وقال: نعم. أستطيع تفهم ذلك. وهل هذا هو ما ترغب أنت أيضاً في تحقيقه؟

فكر دوجنز ملياً قبل أن يجيب: ذهنياً، نعم. فأنا لم أحب العناكب مطلقاً، لكنني أعرف أن ذلك ليس عملياً، ولذلك فإنني أقترح أن نطلب منها تغيير معاهدة السلام فقط.

تلفت جلورفن حوله متطلعاً إلى الوجوه، وقال: كم عدد الذين يؤيدون ذلك الرأي؟

رفع ميلو وأوليس أيديهما، وفوجىء نيال بسيميون يفعل الشيء ذاته، بعد أن كان يصغي إلى المناقشة، وقد كسا وجهه تعبير غامض.

تساءل جلورفن: وكم عدد المعارضين؟

رفع الآخرون أيديهم.

قال جلورفن: «سبعة عشر إلى ثلاثة». ونظر إلى دوجنز، وقال: «أنا آسف. لقد عرضت قضيتك بمهارة، لكن غالبية المجلس تجدها غير مقنعة. علينا أن نقرر الآن أي إجراء يتعين اتخاذه».

بدأ بعض أعضاء المجلس يزيح مقاعده إلى الوراء، فقال دوجنز: «لحظة واحدة، من فضلكم، لدي اقتراح قد يحل المعضلة». فانتظر الجميع. ثم سادت فترة صمت طويلة، وأدرك نيال أن فنون الخطابة قد عادت إليه بشكل طبيعي. قال دوجنز: تريدون اقناع العناكب بنسيان ما حدث، وأعتقد أن هذا مستحيل. وليست لديّ رغبةٌ، على أية حال، في

النسيان. وأعتقد، مثل نيال، أنه يجب أن يصبح البشر أحـراراً، ولا أستطيـع العيش هنا إذا ما استسلمنا للعناكب. إذن فإنني أعتقد أن أفضل حلّ، بالنسبة لي، هو أن أرحل

نظر جلورفن إليه، كما لو أنه لا يصدق ما تسمعه أذناه، وقال: ترحل؟

ـ نعم، هذا صحيح. أترك هذا المجتمع، وأرحل إلى مكـان آخر. إنني أعـرف أماكن عديدة فيما وراء البحار، نكون فيها آمنين من العناكب. وأنـا على استعـداد لاصطحـاب أي شخص يرغب في القدوم معي.

وابتسم ميلو وأوليس.

قال بايبس: وستحمل معك الأسلحة الحاصدة؟

ـ بالطبع. نحن في حاجة إليها للدفاع عن أنفسنا.

التزموا الصمت، وهم يستـوعبون هـذه الفكرة المـذهلة. رأى نيال أنهم قـد استملحوا الفكرة باعتبارها حـلاً مثاليـاً. وعلى الـرغم من أنهم مانعـوا في الكشف عن موافقتهم، فـإن عيونهم وشت بحماسهم. فرحيل دوجنز سيزيل العقبات أمام إقامة سـلام مع العناكـب.

تساءل جلورفن بحذر: أترغب في أن ندرس هذه الفكرة كـاقتراح محـدد؟

أومأ دوجنز بالإيجاب.

نهض جلورفن واقفاً، وقال: إن لم يكن هناك شيء يود أحدكم أن يقوله، فإنني أقتـرح اختتام هذه المناقشة، حتى تسنح لي الفرصة للتحدث إلى السيد.

أضاف، عندما صمت الجميع: «إذن فقد انتهى الاجتماع» ندت عنه ابتسـامة تنم عن صداقة حقيقية تجاه دوجنز، وقال: «أشكرك على الصراحة التي أبديتها في المناقشة معنا».

توقف العديد من أعضاء المجلس، وهم منصرفون، لمصافحة دوجنز، فبدا الموقف كـما لو أنهم يودعونه، ويعربون عن أسفهم. تـابعهم نيال بسخـرية، وأحس بنفـاد صبر دوجنـز، وهو يودع آخر من صافحه.

لم يتبقّ سوى ميلو، أوليس، وسيميون. وبينـما كان دوجنـز يودّع أعضـاء المجلس حتى خارج المبنى، أحسّ نيال بـأن الباقـين يفكّرون في الآفـاق الغريبـة والمرعبـة بعد رحيلهم عن المجتمع الذي عاشوا فيه حتى الآن، كما شعر بأنهم يتمنّون سرّاً أن يتم التوصّل لحلّ آخر.

قال دوجنز: هل لنا أن ننتقل إلى مكان آخر أكثر راحة؟

كانت لو كريتيا، وامرأتان أخريان يمشطن خيوط الكتّان في الحجرة، التي تناول فيها نيـال طعام الغداء، عندما دخل الرجال. وقفن دون أن ينبسن ببنت شفة، وغـادرن الحجرة. اقتعـد

دوجنز كرسياً ذا ذراع، وقال: يا سيميون، إنك لم تقل كلمة واحدة طوال هذا المساء!

قطب سيميون باكتئاب، فبدا وجهه العجوز مثل خشب الساج المغضن، وقال: لقد حققت نتيجة طيبة بدون تدخلي.

وأضاف ميلو: لا أدري كيف فعلت ذلك. لقد اتخذوا قرارهم قبل أن يبدأ الاجتماع. وكان بايبس يريد أن يأمرك بتدمير الأسلحة الحاصدة، ثم يسلمك إلى العناكب.

هز دوجنز رأسه، وقال: جميعهم حمقى وجبناء.

وقال سيميون بهدوء: هذا ليس عدلاً يا بلدو. إن لهم العذر فيما يفعلونه. فكر فيما كان سيحدث، لو لم نعثر على الأسلحة الحاصدة، كنا سنتعرض جميعاً للقتل، وتتعرض مدينتنا للحصار إلى أن تستسلم.

رد دوجنز برزانة: أتظن أنني لا أعرف ذلك؟ عندما أفكر فيما كان سيحدث يقف شعر رأسي. ولكن ذلك لم يحدث، مما يجعلنا في وضع جديد تماماً. وهؤلاء الحمقى في المجلس لا يرون ذلك، ولا يرون أنه لم يعد هناك أي سبيل للرجوع.

أومأ سيميون، وقال: وهذا هو السبب الذي جعلني أنضم إليك. لكن ذلك يجعلنا نواجه المشكلة الأساسية، وهي أي طريق سنسلك؟

قال دوجنز: قبل أن نبحث ذلك، ثمة شيء يجب أن تعرفوه جميعاً.

عندما قال ذلك، انفتح الباب، ودخل صبيان يحملان صحفتين، ووضعاهما فوق الطاولة. وُضع فوق الأولى الطعام، وفوق الأخرى آنية خزفية ضخمة، ومعها خمسة أقداح خزفية. وحين أمال دوجنز الآنية، ابتهج نيال، وهو يرى أنها تحتوي على السائل الذهبي الصافي، الذي احتساه على القارب. لكنه سرعان ما شعر بالأسى، وهو يتذوقه، حيث تذكر أودينا. أحس فجأة بأنه قد كبر سنوات عديدة.

تساءل أوليس: هل أنت جادّ في الرحيل إلى بلاد أخرى؟

أومأ دوجنز، وهو يقضم فخذ طائر الحجل المجمر، وقال: إذا كان ذلك ضرورياً، ولكن قد لا يحدث هذا.

لمعت عينا أوليس ببريق أمل، وتساءل: ولم لا؟

ـ لأمر ما علمت به قبيل الاجتماع.

والتفت إلى نيال، وقال: قصّ عليهم روايتك!

أعاد نيال على مسامع الحاضرين قصة البرج الأبيض، من جديد، كما وصف هذه المرة

أيضاً ما حدث له عندما تمدّد تحت آلة السلام. أحس مرة أخرى، وهو يتحدث، بذلك الشعور الغريب لكونه في مكانين في وقت واحد: في هذه الحجرة اللطيفة المريحة، وفي عالم الواقع الأكثر برودة، لكنه الأكثر إثارة مع ذلك. سيطرت عليه فكرة بأن البشر يعيشون في عالم من الأوهام الحسية، إلا أن عقولهم قادرة، في الوقت ذاته، على التغلغل إلى الواقع الموضوعي الكامن وراء هذه الأوهام.

استغرفته هذه الرؤى، وهذا التفهم الجديد لها بشكل هائل، وكاد ألا يلاحظ تأثير ما يقوله على سامعيه. أدرك، حين توقف في نهاية المطاف وراح يبلل حلقة الجاف، أنه ظل يتكلم لمدة نصف ساعة، وأن أحداً لم يقاطعه.

كان دوجنز هو أول من كسر جدار الصمت، حيث قال: أعرفتم الآن سبب عدم رغبتي مغادرة المكان؟ إننا لا نستطيع ترك كل تلك المعرفة وراءنا.

جفل سيميون، كما لو أنه أوقظ من حلم، وقال: لقد اعتاد جدي القول بأنه كان هناك عصر سيطر فيه البشر على الأرض، لكنني اعتقدت أن هذا مجرد قصة خيالية.

تطلع فيه نيال باستغراب، وتساءل: لِمَ؟ إن مدينة العناكب تبرهن على أن البشر كانوا في وقت من الأوقات أعظم بكثير مما هم عليه الآن.

ـ هذا حقيقي. ولكن لا بد وأن الخنافس والعناكب كانت موجودة أيضاً في ذلك العصر، وأجد صعوبة شديدة في تصديق أنها كانت بحجم ظفري. وأنا، بوصفي طبيباً، أجد الفكرة غير معقولة.

ـ ولكن المذنّب «أوبيك» كان مشعاً...

أومأ سيميون، وقال: أعرف كل شيء عن الإشعاع. وقد يُحدث بعض التغيرات الطفيفة، لكنه لن يخلق عالماً مملوءاً بالحشرات الهائلة.

تساءل نيال: «إذن ما هو تفسيرك لما حدث؟

قاطعهما دوجنز بصبر نافد، وقال: ماذا يهم تفسيرنا لما حدث؟ العناكب موجودة، وعلينا أن نقرر ماذا نفعل في مواجهتها.

قال ميلو بتردد: هل لي أن أتكلم؟

ـ بالطبع.

ـ أظن أن هدفنا الحقيقي، هو أن نشق طريقنا، لندخل البرج الأبيض.

وعندما أومأ دوجنز بالإيجاب، واصل ميلو قائلاً: في هذه الحالة، فإنه ليس أمامنا بالتأكيد أي خيار، وعلينا أن نطرد العناكب خارج المدينة.

قال دوجنز: كيف؟

ـ هناك وسائل عديدة، ولكن أبسط وسيلة هي استخدام الأسلحة الحاصدة.

لاحظ نيال نبرة الرضا الكئيبة في صوته، وهو يقول ذلك، وبدا واضحاً أن ميلو تـذكر رفاقه القتلى.

قال دوجنز: اتفق معك في ذلك. فسوف نستطيع، بالأسلحة الحاصدة، تدمـير المدينـة في غضون نصف ساعة. ولكننا سنقتل أيضاً الكثير من البشر.

خمدت قوة رفضه، خلال فترة الصمت التي أعقبت تلك الحملة.

قال أوليس: لِمَ لا ندمر الجزء المحيط بـالبرج فقط؟ إن هنـاك القليل من البشر في تلك المنطقة.

تدخل سيميون في الحديث، وقـال: أياً كـان ما تفعلونـه، فإنكم ستقتلون الكثـير من البشر. كما أن العناكب ستأمرهم بمهاجمتنا إذا حاولنا غزو المدينة.

قال ميلو، وقد سيطرت عليه حالة من التفكـير: ماذا سيحـدث لو اضـطررنا لمـواجهة البشر؟ إن لنـا جميعاً العـديد من الأصـدقاء بينهم. وإذا أوضحنـا لهم أنـنا نـريـد أن نمنحهم حريتهم فقط، فإنهم لن يكونوا حمقى بالقدر الذي يجعلهم يضحون بحياتهم من أجل هذا.

هز نيال رأسه، وقال: ذلك مستحيل. فـالقائـدات يدنّ بـولاء كامـل للعناكب، مثـل ولائكم للخنافس. أما الآخرون فينفذون ما يؤمرون به، ولن يعصوا الأوامر مطلقاً.

ساد صمت، ثم قال ميلو: في تلك الحالة، علينا أن نقرر أيهما أكثر أهمية: مصرع عدد قليل من البشر، أم القضاء على العناكب؟

هز سيميون رأسه بعنف، فأدرك نيال أن الفكرة هزته بشدة.

قال نيال: أعتقد أنه يمكن التوصل لطريقة أخرى.

تطلع الجميع إليه، وهو يضيف: القضاء على سيد الموت نفسه.

قطب دوجنز، وتسـاءل: وماذا عن بقيـة العناكب؟ سيتعـين علينا أن نـدخل معهـا في قتال.

ـ ليس بالضرورة. لقد رأيت ما حدث حـين تعرضت العنـاكب للهجوم، إنها تصـاب بالذعر، عندمـا تتعرض للهـزيمة. لقـد اعتادت أن تكـون السادة. وإذا مـا قضينا عـلى سيد العناكب، فإن الأمر سيماثل قطع رأس الأفعى، ولن تُلحِق البقية أي ضرر بنا.

شعر بأنهم غير مقتنعين بما قاله، فاستطرد: دعني أوضح لكم سبب اعتقادي هذا. لما وصلت إلى هذا المكان منذ أسبوع، لم أكن أعرف شيئاً عن العناكب سوى ما حكاه لي جدي جومار، الذي قص عليّ الأساطير عن «فاكين» الحكيم، و «سكابتا» الماكر، و «ايفار» القوي، والقتال الذي خاضوه ضد العناكب.

بدا من تعبيراتهم أنهم لم يسمعوا قط بهذه الأسماء من قبل، لكنه استمر قائلاً: كما حكى لي جدي قصة الخيانة العظمى ـ عندما توجه الأمير الخائن «صالات» إلى «شيب» سيد العناكب، وعرض عليه تعليمه أسرار الروح الإنسانية، في مقابل أن يساعده شيب في سبي الأميرة «تيرول». وقص عليّ جدي الطريقة، التي كان يجلب بها شيب أسراه من البشر، ويجعلهم يقفون أمامه، ويقرأ ما يدور في أذهانهم، حتى يعرف كل تفاصيل حياتهم. وبعد ذلك يلتهمهم، لأنه شعر بأن هذه هي الطريقة الوحيدة لفهمهم على أفضل نحو. وعلى الرغم من أنني لم أدرك مغزى ذلك عندما كنت صغيراً، إلا أن جدي أعطاني مفتاح فهم العناكب. نحن نعرف أن التهام شخص ما لن يساعدنا على فهمه، لكن غريزة العنكبوت موجهة نحو الالتهام. إنها تقضي كل حياتها قابعة في نسيجها، بانتظار الطعام ولم تعد عناكب الموت تشعر الآن بقلق إزاء تأمين طعامها. لكنها ما تزال قابعة في نسيجها. ولكن لا تتمتع العناكب، كما ترون، بالقدرة على التخيل. ولم أتمكن من فهم ذلك، إلى أن قابلت عنكبوتاً ذئبياً. وجدت صعوبة في استيعاب فكرة أن يجمع كائن صفتين في وقت واحد؛ الخطورة الشديدة والغباء. ثم بدأت أستوعب ذلك بالتدريج. لم يكن للعناكب مطلقاً أي هدف سوى اصطياد الطعام، ولذلك فإنها لم تكن في حاجة أبداً إلى تطوير قدرتها على التخيل. ذلك هو السبب الذي يكمن وراء اعتماد حياة العناكب على الطاعة.

أومأ سيميون، وقال: لقد لاحظت مراراً أن العناكب لا تستطيع التفكير لنفسها.

ـ هذا لا يرجع إلى أنها لا تستطيع ذلك، لكنها ترى أنه ليس هناك سبب يجعلها تفكر لنفسها. ولماذا تفكر؟ إن لديها إمدادات منتظمة من الطعام، وليس هناك ما يدعو للخوف من الأعداء. إذن ما الذي يدفعها إلى التفكير؟

هز دوجنز رأسه، وقال: يجب أن تمتلك القدرة على التفكير. فلا بد لأحد أن يقوم بتنظيم المدينة.

ـ هذا صحيح. على سيد العناكب أن يفكر. إنه مثل الملكة في بيت النمال، يصدر الأوامر، وينفذها الآخرون. ولكن إذا ما قُتلت الملكة، فإن النمال ستعاني حالة من الفوضى. وإذا ما قتلنا سيد العناكب، سيحدث الشيء ذاته للعناكب.

تبادل الجميع النظرات فيما بينهم. قال دوجنز في نهاية المطاف: «ربما تكون محقاً». بدا واضحاً أنه ما يزال متشككاً من جدوى الفكرة.

عكست عينا ميلو انفعاله، وهو يقول: أظن أنه على صواب.

وقال سيميون: ولكن هل نكون على صواب إذا ما قتلنا سيد العناكب؟ فعلى المدى الطويل، لن يكون بمقدور أحد الاستفادة من أية خيانة. ونظراً لعدم وجود حالة حرب رسمية بين العناكب والخنافس، فإن أية محاولة لقتل سيد العناكب ستكون خيانة.

تساءل نيال: ألم تحدث خيانة عندما حاول سيد العناكب قتلي؟

ـ ولكن هذا ليس مبرراً كافياً.

ـ ألا تتفق معي أنها تعطيني الحق في محاولة قتل سيد العناكب؟

قطب سيميون، وتنهد بعمق.

ـ نعم، أتفق معك في ذلك.

قال نيال: إذن لِم لا تتركني أقرر ما ينبغي القيام به؟

ـ هل ستقوم به بمفردك؟

ـ إذا لزم الأمر.

قاطعها ميلو قائلاً: هذا تفكير خاطىء، وسوف نوصم بالجبن إذا ما تركنا نيال يقوم بذلك بمفرده، وأنا على استعداد، من جانبي، لمساعدته.

قال أوليس: وأنا أيضاً.

قاطعهم دوجنز بلطف، قائلاً: دعونا نفضّ المناقشة، فنحن غير مضطرين لاتخاذ قرار الليلة. أليس كذلك؟ ووضع يده على كتف ميلو، وقال: لننتظر حتى نرى ما سيحدث. وإن لم أكن مخطئاً، فإن العناكب ستقوم بالخطوة التالية. وبوسعنا الانتظار.

ابتسم ميلو، مذعناً لسلطة الرجل الأكبر سناً، ولكن بدا واضحاً شعوره بالاستياء إزاء الاقتراح. ضغط دوجنز على ذراعه، وقال: لا عليك، سوف تنال فرصتك لقتال العناكب.

ـ آمل ذلك.

تناول دوجنز الآنية، وملأ من جديد كؤوسهم.

رفعوا الكؤوس، وهم يقولون: لنشرب نخب القضاء على العناكب. لم يحاول نيال احتساء الشراب، رغم أنه رفع كأسه إلى شفتيه. فقد ذكّرته رائحة السائل بأودينا، وأحس باشمئزاز مفاجىء، عندما ربط ذهنه بين ذكراها وفكرة القتل.

انتاب نيال عند الفجر كابوس مريع. رأى نفسه وحيداً في مدينة العناكب، أثناء الليل، حيث شق طريقه لقتل سيد العناكب. تأهب للمواجهة، ووضع اصبعه على زناد الحاصد، وهو يعبر الساحة، باتجاه مقر سيد الموت. لكن الساحة كانت خالية، ولم يجد أي حارس يقف عند الباب، ولما ركله، انفتح بسهولة، ليجد الصالة خالية. صعد الدرج، وقد أدار ظهره للحائط، تأهباً لحدوث أي هجوم مفاجىء. لف السكون كل شيء. وعندما وصل إلى الطابق الثالث، أحس بنعومة السجادة تحت قدميه، ووجد نفسه في مواجهة الباب المكسو بالجلد الأسود، الذي يفضي إلى قاعة سيد الموت.

تقدم بحذر، وهو مقتنع بوجود شرك. أصاخ السمع، ولكن لم يكن هناك أي صوت. ركل الباب فانفتح، وضغط على زناد الحاصد. انتابه الذعر، حين أدرك أنه يطلق النار على أخيه ڤيج. كان الوقت قد تأخر لإنقاذ الموقف، فقد تحللت جثة ڤيج، وتحولت إلى رذاذ أزرق. انطلقت صرخة يأس، وخرجت أمه من بين الظلال، صارخة: ماذا فعلت بأخيك؟

استيقظ وقد تسارعت دقات قلبه، بفعل الصدمة، وتحدر العرق فوق جسمه. أحس بارتياح هائل، عندما أدرك أنه كان يحلم. أزاح الأغطية، وجلس محاولاً التخلص من حالة اليأس والإحساس بالذنب. ولما ثاب إلى رشده، بدأ يشعر بالتحسن. لكن الكابوس أثار حيرته ومخاوفه. لماذا حلم بأنه يقتل أخاه؟

كانت الحجرة مظلمة، والستائر الطويلة المسدلة، تغطي الجدران من الأرض حتى السقف. لكنه رأى، من خلال النافذة المستديرة، ضوء الفجر الرمادي في السماء. جلس محدقاً فيه، وقد صفى ذهنه من كل الأفكار والمشاعر، عاد تنفسه إلى معدله الطبيعي. ثم ركز ذهنه بصورة متعمدة، محضّراً نقطة الضوء المتوهجة داخل ذهنه. لف سكون غريب الحجرة، للحظة، ثم استرخى بصورة مفاجئة فأحس كما لو أن باباً مسحوراً قد انفتح تحت قدميه.

لاحظ، وهو غارق في هذا الهدوء المطبق، الظلال التي حجبت عنه السماء، والتي راح

البرق يضيئها انحـدرت الظلال عـبر ألواح النـافذة الـزجاجيـة الدائـرية، بـزاوية تبلغ خمساً وأربعين درجة، مثل فرع شجيرة. حدق فيهـا بفضول، دون أي ذعـر محاولاً أن يحـدد بدقـة ماهيتها. انفتح زجاج النافذة من محوريه بأعلى وأسفل، وبات موارباً. وصلت إلى مسـامعه، وهو يراقب، قرقعة خفيفة، وانفتح الزجاج، ثم رأى أن الـظل المماثـل لفرع شجـرة يتحرك. أدرك، وقد انتابته الدهشة، أنها حشرة ضخمة، تماثل اليسروع، تزحف لتدخـل من أعرض نقـطة في الزجـاج المفتوح. لكنهـا بدت أطـول بشكـل مثير من اليسروع. غـير أنـه عـرف من حركتها، وهي تتلوى، أنها دودة ألفية، أو حشرة من ذوات الأربع والأربعين.

تناهى إلى مسامعه، وسط السكون المطبق، صوت احتكاك جسمها بإطار النافذة. كانت طويلة للغاية، واعتقد بعد أن تلوى ذيلها، في النهاية، وهو يمر من الفجوة، أن رأسها لا بـد وأن يكون قـد اقترب من الأرض. سمع، بعد لحظة، صـوت ارتطامهـا بهدوء عـلى السجادة بعد أن فقدت تشبثها بالجدار.

أحس في تلك اللحظة فقط بالخطر، بعد أن غابت عن عينيه. مد يده بهـدوء ووضعها فوق ردائه، الموجود على الكرسي بجوار الفراش، أحس بـالملمس الصلب للقضيب المتداخـل. دهش لما شعر بالوخز الكهربائي في أصابعه حينما قبض عـلى المعدن البارد. لم يعد يحس بـأنه مهدد، بعد أن أمسك بالأنبوب الصلب في يده.

سمـع حفيف الحشرة، وهي تتلوى فـوق الأرض. خشي أن تختفي تحت الفـراش، فتجبره على البحث عنها، ثم أدرك من حركة خفيفة، فوق الأغطيـة، أنها تصعد إليـه. حدق في طرف الفراش، منتظراً ظهورها.

مس شيء ما قدمه، فأدرك أنها زحفت تحت الغطاء، كان رد فعله الفـوري هو سحب قدميه، والانكماش متخذاً وضع الجلوس، فوق الوسادة. وعندما شعر بحركتها، ضرب بكل قـوته، مستخـدماً القضيب المتـداخل، المـرة تلو المرة الأخرى. انزاح الغـطاء، وأخذ الكـائن يتقلب في غضب. ضغط بيده على الغطاء، وأخذ يـواصل الضرب بـاليد الأخـرى، وأسنانـه مطبقة. كان ذيله ظاهراً، ويتراقص لأعلى، ويضربه فوق رأسه، لكنه تجاهله؛ فهو يعرف أن سم ذات الأربع والأربعين، مثل سم العنكبوت، يوجد في الفكـوك السامـة، خلف الرأس. واصل ضرب الجسم اللين، ومع ذلك أبدى الكائن مقاومة غريبـة، وراح يتلوى مثل أفعى. استمر في توجيه الضربات بجنـون، إلى أن انهار الذيـل على الأرض، وتبلل الغـطاء بـالـدم الذي غطى يديه.

شعرة ببرودة غريبة، رغم انفعـاله، كـما لو أن درجـة حرارة الحجـرة قد انخفضت إلى

الصفر. راحت أسنانه تصطك، وهو يغادر الفراش، ويقف منتصباً على الأرض المكسوة بالسجاد. فتح الستائر بهدوء، خشية إيقاظ بقية النائمين في البيت، فتغلغلت أشعة شمس الصباح الشاحبة، من خلال الجدران، ذات اللون الأزرق الخفيف. سحب الغطاء بيده اليسرى، بينما رفع القضيب لأعلى رأسه، وارتد للوراء، عندما اهتز الجسم الغارق في الدماء بعنف، قبل أن ينهار.

ضغط على الزر، فتمدد القضيب، ونخس الكائن المقتول بحذر، ثم وضع الأغطية على الأرض، واستخدم القضيب لرفع الجسم المهشم، بعيداً عن الفراش. ولاحظ أن الكائن من ذوات الأربع والأربعين، ويميل لونه إلى الرمادي الأخضر، وتتخلله خطوط سوداء. كان بسماكة ساعد صبي، ويزيد طوله على أربعة أقدام. تمددت القوائم، التي بدت مثل أصابع مكتنزة، على جانبي الجسم، وتقطعت القرون المتصلة الطويلة، نتيجة لضرباته. كانت هذه القرون هي التي مست قدمه، وأنذرته. تساقطت قطرات من سم صافي اللون من المخالب فوق الفراش، فتح النافذة وألقى بذات الأربع والأربعين على المرجة.

لم تعد الحجرة باردة، وأحس في الحال بإجهاد شديد، ولو لم يكن الفراش مغطى بالدم، لكان قد ألقى بنفسه فوقه، وراح في نوم عميق. ارتدى، بدلاً من ذلك ثيابه، وانتعل خفه، ثم خرج على أطراف أصابعه إلى الممر. كان يعرف أن حجرة نوم دوجنز مجاورة لحجرته. رفع ببطء المزلاج الخشبي، ودفع الباب، بدت الحجرة غارقة في ظلام دامس، ولكن عندما تعودت عيناه على الظلام رأى دوجنز نائماً بمفرده. هزه من كتفه بهدوء، فاستيقظ جافلاً، فقال له:

ـ لقد حدث أمر ما.

غادر دوجنز الفراش، دون أن ينبس ببنت شفة، وارتدى ملابسه، وسار وراء نيال، الذي عادة مرة أخرى إلى حجرة نومه، وأغلق الباب خلفهما بهدوء. ندت عنه صيحة دهشة، حين رأى بقع الدم فوق الفراش، وقال: ما هذا؟

سحب نيال دوجنز من يده، ليريه ذات الأربع والأربعين النافقة الممددة وسط الزهور. ثم وصف له ما حدث باقتضاب.

قال دوجنز: يجب أن نتخلص منها، قبل أن يستيقظ الآخرون، خاصة الأطفال. اسحب هذه الأغطية من فوق الفراش!

خرج، ثم عاد بعد بضع دقائق، حاملاً عدداً من الملاءات والبطاطين. كانت أغطية

الفراش الملطخة بالدم ملقاة على الأرض. خلّف الدم بقعة صغيرة فقط، لحسن الحظ، على الحشية القطنية، فقاما معاً بقلبها على الجانب الآخر، ثم أعاد نيال ترتيب الفراش، واختفى دوجنز ومعه الملاءات الملطخة بالدم. رآه بعد ذلك من النافذة، وهو يرفع ذات الأربع والأربعين النافقة بعصاتين خشبيتين. تصاعدت سحب الدخان بعد عشر دقائق، فعرف أن الموقد خلف المنزل يقوم بمهمته.

ولما عاد دوجنز، وجد نيال ينظف القضيب المتداخل من الدم، فقال له: لا تروِ ما حدث للنساء.

- بالطبع لن أقول شيئاً. ولكن كيف نتأكد من أنه لن يخطر على بالهن وقوع حادث؟

- لا. فالحشرة ما هي سوى مبعوث من سيد العناكب.

- وكيف عرفت ذلك؟

- إنها من ذوات الأربع والأربعين الصائدة، التي تربيها العناكب لاصطياد الأرانب البرية، عند سفوح التلال، حيث تقوم بإلقائها في الحفرة، فتخرج الأرانب. ولكن هذه أكبر حشرة رأيتها حتى الآن. عليك من الآن فصاعداً أن تنام والنافذة مغلقة.

- يتعين عليّ مغادرة بيتك، فقد يتعرض الآخرون للخطر.

- سوف نتحدث في ذلك فيما بعد، ولنأخذ قسطاً من النوم الآن.

لكنه لم يعد يشعر بالإرهاق، فعاد إلى الفراش، بعد أن خرج دوجنز، ووضع مرآة التأمل حول رقبته، فأحس في الحال بنوبة ألم، كما لو أن ضربة فأس قد شطرت جمجمته. زادت حدته، فأطبق أسنانه، ووضع يديه فوق عينيه. تحول، بعد بضع ثوان، إلى صداع يدق في مؤخرة رأسه. قاوم إغراء خلع مرآة التأمل، وحاول تقبل الألم، والاندماج معه، كما لو أنه أمر طبيعي. توصل، وهو يبذل هذه المحاولة، إلى اكتشاف مثير، وهو أن بإمكان مرآة التأمل منحه التركيز لمقاومة الألم، الذي تسببت فيه. فحينما يركز، تزداد حدته، وفي الوقت ذاته تتزايد طاقته على تحمله. فهم الآن أن هذا الألم يرجع إلى الاستنزاف الجسدي؛ فقد أدى هجوم سيد العناكب إلى استنزاف طاقاته الحيوية. ومع ذلك فقد أحس بارتياح غريب بتحديه للإرهاق. ولما زاد من تركيزه، أصبح لا يطاق، وشعر بقطرات العرض وهي تتحدر فوق وجهه، وبنبضه يدق داخل جمجمته، مثل مطرقة. ولكن موجة من الابتهاج والقوة غمرته، رغم تزايد الألم.

أصبح الألم ذاته، عند نقطة معينة، حليفاً يزيد قدرته على التركيز. بات الأمر مثل عصر حفنة من الزجاج المهشم، ومحاولة سحقه، على نحو متعمد، ليتحول إلى مسحوق.

جلس، وقد أطبق قبضتي يديه، وأغمض عينيه نصف إغماضة ليعبر الضوء عنهما. سيطر فجأة على الألم، وانتابه إحساس غريب، كما لو أنه يدفع نفسه لأعلى من فوق الأرض، وعلى ظهره حمل ثقيل. ضغط على إرادته حتى تمكن من الوقوف منتصباً، وهو يترنح بشكل طفيف، ودُهش عندما وجد نفسه في هذا الوضع غير العادي، مثل دهشة حيوان نجح في الوقوف على قائمتيه الخلفيتين

فتح عينيه، ونظر حوله، بدت الحجرة كما هي، لم يطرأ عليها أي تغيير، ومع ذلك لاحت مختلفة تماماً. لقد حقق تركيزه درجة من الحدّة، لم يشعر بها من قبل قط. بدا كل شيء يراه مثيراً للاهتمام، بل إن المزلاج الخشبي فوق الباب تراءى له فاتناً، وأحس أن بوسعه التحديق فيه لساعات، ليتفقد إمكانياته. أدرك أن كل شيء في الحجرة يكشف عن ألف مغزى، كان عادة ما يغفل عن فهمه.

لم يكن في يوم من الأيام مدركاً لمعنى حريته أكثر من الآن. عرف أن بإمكانه اختيار ما يريده بعقله، سواء بالتفكير في حياته الماضية، أو في مشكلة العناكب، أو بالسماح لنفسه باكتشاف هذا العالم الغريب، المثير، المحيط به استطاع أن يدرك بوضوح شديد أن أحاسيسنا الإنسانية تحجبها الستائر، وأن الضوء. اعتراه انفعال، يماثل هبة نسيم بارد على وجهه. اتسع نطاق هذا الإحساس سريعاً، ليتحول إلى ما يشبه الحساسية السحرية. أدرك أن فروع الشجرة، التي تطل النافذة عليها تستجيب لرياح الفجر، مثلما قطة تموء في سرور، وأن هذه الفروع لا تحدث حفيفاً فحسب، بل تتحدث أيضاً بلغة خاصة بها.

أثار اهتمامه، حين ارتفعت الشمس، صوت غريب أت من البعيد، بدا يعلو وينخفض مع النسيم. كانت جلبة قرع خافتة، يمكن مقارنتها بقرع مليون جرس صغير. اتجه نحو النافذة، وفتحها، فأدرك أنها ليست جلبة صوت، ولكنها نوع من الذبذبة، أغرتها أشعة الشمس للانجذاب نحو الأزهار. كانت تنثر وابلاً متألقاً من الطاقة، خرج منها مثلما تنطلق الشرارة من النار، ليعود ويهبط بهدوء على الأرض. بدا المشهد مثيراً للدهشة. كان العديد من الزهور ما تزال في الظلال، وراحت هذه تطلق القليل من شرر الطاقة كيفما اتفق. وعندما وصلت الشمس إليها، تحولت إلى مطر خفيف، مثل مياه تخرج من نافورة، ولما سقطت أشعة الشمس بكاملها فوق التويجيات المفتوحة، ·ازدادت حدة طاقة الشرر، وتوهج، حتى أصبح الهواء فوق المرجة مثل كتلة متألقة من الضوء الملون.

أطلق عشب المرجة ذبذبة أخف وأهدأ، وكساه ضباب أزرق رقيق. اهتم، بعد أن تعودت عيناه على ذلك، أن يرى بيوت الخنافس الحمراء الطويلة، وقد لفها اللون الأزرق

ذاتـه، الـذي تحـركت حـدوده مثـل لهب يحـترق ببطء. أدرك الآن أن الغـرض من التصميم اللولبي، هو منع هذه الطاقة من الارتفاع لأعـلى مباشرة، لتبدد نفسها في الجو. ولكن المنازل بهذا التصميم تتيح وقتاً أطول لامتصاص هذا التيار الحي، بإجباره على التدفق بشكل لـولبي مغلق من أعلى.

أما المساكن التي يقطنها الإنسان فتبدو، بالمقارنـة، عقيمة لا حيـاة فيها. وتمتص بعض الجدران الزرقاء قدراً من الطاقة، ولكن المعظم ينعكس مرة أخرى، ويتبدد في الجو.

انتابه دوار قصير، وهو يبتعد عن النافذة، فاضطر إلى الاستناد بظهره للجـدار. لم يكن جسمـه معتاداً عـلى هذا الـثراء في الأحاسيس، وأخـذت مشاعـره تتراجـع. أسدل، بحـركة متعمـدة من إرادته، الستـائر الـداخلية، ليـوقف عملية الـتركيز. تـلاشى القـرع في الحـال، وأصبحت الحجرة ساكنة. سار عائداً إلى الفراش، بخطوات ثقيلة، مثل سكير، وخلع مـرآة التأمل، واستلقى على ظهره. ثم اكتسحته موجة سلام عميقة، حملته إلى أن نام.

وجـد، عندمـا فتح عينيـه، صحفة طعـام موضـوعة فـوق الكرسي بجـانب الفراش، والشمس قد ارتفعت في السماء.

شعر بأن قـوته بـدأت تعود إليـه، وهو يتنـاول الخبز الأبيض المغـطى بقرص العسـل، ويشرب الحليب البارد.

انفتح الباب بضع بوصات، وأطل منه وجه سيميون.

ـ آه. لقد استيقظت. هل أنت بخير؟

وأمسك بمعصم نيال، ليقيس النبض.

ـ لقد تحسنت كثيراً الآن.

وضع يده على جبهة نيال، وقال: تشعر بتحسن، لكنني أظن أنه من الأفضل أن تبقى في الفراش يوماً آخر.

قال له نيال: هذا مستحيل. يجب أن أترك هذا المكان اليوم.

تطلع إليه بدهشة، وتساءل: ترحل؟ عم تتحدث؟

ـ ألم يخبرك دوجنز بما حدث؟

ـ لم أره اليوم، إنه في مبنى البلدية.

تقلصت عضلات وجه سيميون، وهو يستمع إلى وصف نيال لعملية قتله لذات الأربع والأربعين، ثم قال: أكانت رمادية ذات خطوط سوداء؟

ـ نعم.

ـ إنها من ذوات الأربع والأربعين الصائدة، وسمّها كفيل بقتل فيل أنت محظوظ.

ـ لن أكون محظوظاً في المرة التالية. وقد تدخل إلى إحدى حجرات نوم الأطفال. هذا هو السبب، الذي يجعلني لا أريد البقاء هنا.

هز سيميون رأسه، وقال: لا عليك من هذه المخاوف، فهي لن تهاجم أي شخص سواك.

ـ كيف عرفت؟

ـ إنها تصطاد فريستها، بالذبذبات، التي هي مثل رائحة مميزة للغاية.

ـ ولكن كيف تتعرف على ذبذباتي؟

ـ ذلك أمر لا أفهمه. قيل لي إن هناك حيواناً يسمى «دموم» بمقدوره تعقب أي شخص، بعد أن يحصل على أي شيء يخصه. وتستطيع ذوات الأربع والأربعين الصائدة القيام بالأمر ذاته، ولكنني لا أعرف طريقة تمييزها للرائحة من أول مرة، ربما بنوع ما من الاستشعار عن بعد.

ـ إذن يتعين عليّ النوم والأبواب والنوافذ مغلقة؟

ابتسم سيميون فجأة، وقال: «لا أظن أنه من الضروري القيام بهذه الإجراءات». وأضاف بعد أن وقف: «أعتقد أن بوسعي إعطاءك شيئاً يحل المشكلة. انته من أفكارك أولاً!».

عاد بعد عشر دقائق، وهو يحمل أصيصاً خشبياً كبيراً، وقد حجب كيس النباتات. وضعه تحت النافذة، ثم رفع الكيس. حدق نيال بفضول في النبات الأخضر الزاهي، الذي بدت حوالقه المتموجة متدلية، كما لو أنها مجهدة. رأى أن ارتفاع النبات يبلغ نحو خمسة أقدام، وله رائحة غريبة، لكنها غير كريهة، تماثل رائحة الأدوية. وللنبات، بالإضافة إلى الحوالق، سيقان صفراء مخضرة لحمية، يعلو كل ساق رأس مصفر، ذكره شكلها برأس الأفعى. انحنى لأسفل ليراها عن قرب، ثم ارتد للخلف جافلاً. فقد تحرك بعض الحوالق الخضراء ناحيته، مثل الشواة الكاذبة للفطر الرخوي.

ضحك سيميون، وقال: إنها لا تلحق أي أذى بالإنسان.

مد يده نحو النبات، فتحرك أحد الحوالق بتردد، ثم التف حول اصبعه، كما لو أنه يربت عليه.

ـ ما اسم هذا النبات؟.

ـ لا أعرف، ولكن اعتادت زوجتي على تسميته بالنبات الأفعواني. لقد جَلبنا بذوره من الدلتا. انظر!

أخرج من جيبه علبة حبوب كبيرة، عرف من الأزيز الصادر منها أن بداخلها ذبابة. رفع سيميون الغطاء، فانطلقت ذبابة ضخمة خضراء لامعة، يصل طول جناحها إلى بوصتين، أخذت تطير بهياج شديد في الحجرة، وهي تتخبط في الجدران.

ثم تتبعت النسيم، وطارت ناحيته، باتجاه النافذة. كان ما حدث بعد ذلك خاطفاً، فلم يتمكن نيال من متابعته. فقد تحرك النبات بسرعة أفعى، واختفت الذبابة. كشف أزيز مكتوم، أنها باتت داخل رأسٍ يشبه رأس الأفعى. وتوقف الأزيز في الحال.

ـ إنه نبات مثير، لن يسمح وجوده بالقرب من النافذة، بدخول أية حشرة لحجرتك. انظر!

أخرج من جيبه علبة أخرى، ورفع الغطاء، وقلبها على الأرض. سقطت خنفساء روت بنية على ظهرها، فعدلها سيميون بظفره. دفعها إلى أن اقتربت من النبات. انقض عليها أحد الحوالق، وهي ما تزال على بعد قدمين، ورفعها بعد ثانية في الهواء، ثم التف طرف الحالق حول الحجاب الحاجز، مثل أصلة. رفع الخنفساء إلى أعلى لرأس أقرب ساق. شاهد نيال، هذه المرة، عن قرب، ما حدث بوضوح. فقد انفتحت قمة الرأس، وكشفت عما يماثل صفين من الأسنان البيضاء المدببة. بدا الحالق كما لو أنه ينفض الخنفساء على الفم المفتوح، بحركة تماثل ضربة السوط. انغلق الفم في الحال، رغم أن حركة خفيفة من الجلد الأخضر كشفت عن أن الخنفساء تتخبط بعصبية. ثم تدلى الحالق مرة أخرى، وسكنت حركة النبات برمته، فبدا كما لو أنه قد أصيب بالشلل.

قال نيال: أتظن أن باستطاعته إيقاف حشرة من ذوات الأربع والأربعين، لها أربع قوائم؟

ـ بالتأكيد. لقد رأيته وهو يلتهم فأراً ضخماً.

حدق نيال فيه بانبهار غريب.

ـ ألا يشكل خطراً على الإنسان؟

ـ قد يكون خطيراً في الدلتا، أما هنا، فلا.

ـ ولِمَ في الدلتا؟

ـ لأن النباتات هناك يصل حجمها إلى أربعة أمثال هذا النبات.

ـ لماذا؟

هز سيميون رأسه، وقال: ربما يرجع ذلك إلى التربة. فالمكان يفيض وينبض بالحياة، مثل جبن يمتلىء بالديدان. إن الأمر يبدو كما لو أن الطبيعة قد جن جنونها.

ربت بعطف على النبات، وأضاف: ولكنها كائنات غاية في اللطف، إذا ما تعودت عليها.

اتجه نيال، بعد أن مضى سيميون، نحو النبات. بذل جهداً كبيراً حتى لا يجفل، حينما تحركت الرؤوس، التي تشبه رؤوس الأفاعي، ناحيته، وتمددت الحوالق، وربتت على ساقيه. انتابه شعور غريب، يماثل الإحساس، الذي يشعر به المرء عندما يتشممه حيوان فضولي. بدا أن النبات فقد اهتمامه، بعد مضي بضع دقائق، وعاد إلى سكونه من جديد. ولكنه ضغط على يده حينما خدشت أحد رؤوسه. وجد نيال في هذه الحركة أمراً مثيراً للانزعاج والحيرة، رغم أنه اكتشف صعوبة تحديد مصدر انزعاجه.

خرج من هذه الحالة، حينما تناهت إلى مسامعه أصوات عجلات ذات حواف معدنية على الأرض. رأى من النافذة عربة، يجرها أربعة سائقين، وصلت إلى الساحة بسرعة كبيرة، وتوقفت أمام مبنى البلدية. ضمت العربة شخصين، امرأة ترتدي زي قائدات الحرس الأسود، ورجلاً أشقر يكسوه رداء خدم الخنافس الأصفر. راقبهما وهما يصعدان الدرج، ويختفيان داخل مبنى البلدية. دفع السائقان العربة نحو الظل، وجلسا على الدرج، يمسحان جبهتيهما.

غادر نيال المنزل من باب جانبي، وعبر العشب متجهاً نحوهما. أدرك، عندما اقترب منهما، أن أحد السائقين هو ماسيج، فشعر بالبهجة. تعرف ماسيج عليه في اللحظة ذاتها، وهب واقفاً، محدقاً فيه بدهشة فاغراً فمه.

ـ ماذا تصنع هنا؟ لقد اعتقدت أنك مت!

ضحك نيال، وقال: علك ترى أنني لم أمت. من قال لك ذلك؟

ـ أحد سائقي عربة كازاك. قال إنك لقيت حتفك مع الملك.

ـ إذن فقد مات كازاك؟

ـ نعم، لقد مات في الانفجار.

شعر بحزن عميق، فرغم أنه لم يكن يثق في كازاك، إلا أنه أحبه. جلسا معاً على الدرجة، وسأله نيال: من ذلك الرجل الملتحي، الذي أحضرته؟

ـ إنه القبطان «مانيثو»، الذي وصل صباح اليوم بشحنة من المتفجرات.

خفض نيال صوته، وقال: ألم تحاول العناكب اعتقاله؟

لاحت علامات الحيرة على وجه ماسيج، وقال: تعتقله؟ ولم تفعل ذلك؟

هز نيال كتفيه، وقال: يبدو أن الخنافس تعتقد أن العناكب تريد الدخول في معركة.

هز ماسيج رأسه، وقال: هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها مثل هذا الكلام.
- أليست العناكب غاضبة بشأن التفجير؟

بدا واضحاً أن ماسيج قد شعر بأن نيال يتحدث بالألغاز، فقال: غاضباً؟ ولم ذلك؟ لقد كان حادثاً. أليس كذلك؟

رد نيال بسرعة: آه. نعم، أتصور ذلك.

قاطعتهما في تلك اللحظة فتاة، خرجت من مبنى البلدية، فشعر نيال بالارتياح. كانت تحمل صحفة عليها مرطبات للسائقين. انتهز فرصة انهماك ماسيج بشرب عصير الفاكهة من آنية خزفية، وانسل مبتعداً.

دخل مبنى البلدية، فألفاه مكتظاً بالخنافس والبشر، الذين يهرعون لإنجاز أعمالهم. ربت أحدهم على كتفه، وهو يقف منتظراً أن تتعود عيناه على الضوء الخافت داخل المبنى.

قال له ميلو: أهلاً يا نيال! تأخرت كثيراً عن اجتماع المجلس. لقد انتهى لتوه.
- ماذا جرى؟

اقترب ميلو منه وقال له بصوت خفيض: لقد تنازلوا عن مطلبهم، كما توقعت.
- لِمَ؟
- شاع الخبر بأنهم يجبرون بلدو على الرحيل عن المدينة. وتعرف أن الكثيرين يعتبرونه بطلاً، لذلك فقد أعلن نصف الشباب أنهم سيرحلون معه، إذا ما مضى، مما جعل المجلس يعيد التفكير في الأمر.
- إذن ماذا سيحدث الآن؟
- لا أعرف. ذلك يعتمد على بلدو. لماذا لا تسأله بنفسك - إنه هناك.

انهمك دوجنز، عند أقصى طرف الممشى، في مناقشة مع الرجل الأشقر. ولما رأى نيال، قطع الحديث، وقال: إننا كنا نتحدث بشأنك. هذا مانيثو كبير مهندسي المتفجرات.

تصافحا، ولاحظ نيال أن مانيثو شاب قوي البنية، له وجه عريض، وسيم، مشوب بالحمرة من تأثير الشمس والريح، وذراعان مفتولان. مال قلب نيال له في الحال.

قال دوجنز: لقد وصل مانيثو إلى الميناء صباح اليوم. ولم يكن موجوداً هنا خلال الأسابيع الثلاثة الماضية.

سأل نيال مانيثو: هل واجهت أية متاعب مع العناكب؟

قطب الشاب، وقال: لا، بل إنني لا أظن أن هناك أية ضغائن. فقد خصصت لي فرقة لمساعدتي في تفريغ الشحنة، كما أعادتني إلى هنا في عربة. ثم علمت الآن أننا في حالة حرب معها.

هز دوجنز رأسه، وقال: لا أدري ما سيحدث، بل إنني لا أعرف ما سأقوم به.

ثم وضع يده على كتف مانيثو، وقال له: امض الآن لتقدم تقريراً إلى موستيج عن الرحلة، وتناول طعامك، ثم تعالَ إلى بيتي بعد ذلك!

شاهد نيال، بعد أن خرجا إلى ضوء الشمس، ستة من أعضاء المجلس البلدي، من بينهم بايبس وكوربن، يتحلقون، وقد انهمكوا، على ما يبدو، في مناقشة حامية. عرف نيال ودوجنز من النظرات العدائية التي صوبوها إليهما، أنهما موضوع النقاش.

تأبط دوجنز ذراع نيال، وسأله: أتشعر برغبة في المشي؟

ـ بطبيعة الحال.

تقدم دوجنز نيال إلى خلف مبنى البلدية، ثم إلى الطريق، الذي أفضى بهما إلى المحجر. حيا الكثيرون دوجنز، فقد كان شخصية محبوبة، بل إن الخنافس حيّته باحترام، لكنه رد عليهم بعينين زائغتين، فقد بدا عليه القلق، ولم يتحدث سوى بعد أن أصبحا بمفرديهما، وراء آخر المنازل.

ـ الأمر أسوأ مما كنت أظن. لقد بعثت العناكب برسولين لمقابلة السيد، وجميع أعضاء المجلس، مما يعني أنها مصممة على إقامة سلام.

ـ أهذا أمر سيّىء؟

حدق دوجنز فيه بدهشة، وقال: سيّىء؟ إنها كارثة دامية، وهذا يعني أنها ستأمرنا بتدمير الأسلحة الحاصدة.

ـ ما الذي يجعلك واثقاً من ذلك؟

ـ إحساسي الداخلي. لقد تركت العناكب مانيثو يدخل الميناء، دون إثارة أية متاعب، رغم أنه شاهد في مدينة العناكب نتائج الانفجار، الذي أتى على نصف حي العبيد، لكنها قالت له إنه مجرد حادث. بل إن واحداً لم يذكر شيئاً عن غارتنا على الثكنات، وهذا يعني أنها تسعى لأن توضح لنا أنها مستعدة للتسامح والنسيان. وسيقول سفراؤها: كل شيء يعود إلى وضعه الطبيعي، وعلينا أن نبحث خلافاتنا.

ـ لعلها تريد السلام حقاً.

دهش نيال من الكلمات التي نطق بها، وكأنها خرجت دون إرادته.

رد دوجنز بغضب: بالطبع تريد السلام، ولكن بشروطها. إنها تسعى جميعها إلى إقناع السيد لإصدار أوامره بتدمير الأسلحة الحاصدة، وبتسليمك إليها.

ـ قد لا تطلب العناكب من الخنافس أن تسلمني لها. لقد تحدثت لتوي مع أحد سائقي العربات، وقال إن الجميع يظن أنني في عداد الموتى.

نظر دوجنز إليه شزراً، وتساءل: ماذا؟ هل ذكر لك السبب؟

ـ قال إنه عرف ذلك من سائقي عربة كازاك.

قطب دوجنز، وراح يعض على شفته، ثم قال: هذا مثير. إذن فإن سيد العناكب ظن أنه نجح في خنقك في ذلك اليوم. لكنه ما كان سيعيد الكرة اليوم، ما لم يكتشف فشله. ذلك يعني أن الخنافس لن تسلمك، وأنه مصمم على التخلص منك بأية وسيلة... وهذا يعني أمراً واحداً، وهو أن طلبه الأساسي هو تدمير الأسلحة الحاصدة.

ـ لكن أليس من المؤكد أن يرفض السيد ذلك؟

هز دوجنز رأسه، وقال: إنه حكيم، لكنني لا أظن أنه قد بدأ يتفهم طبيعة الحشرات. إنه يفترض أن الجميع مهذبون مثله.

خفض صوته، رغم أن ذلك لم يكن ضرورياً، وأضاف: سأقول لك سراً، إنني لم أفهم مطلقاً كيف يكون الشخص حكيماً وأحمق في وقت واحد.

أثارت هذه الكلمات في نيال أحاسيس داخلية مفاجئة، رافقها شعور غريب بالانفعال. فقد أدرك أن هناك أموراً معينة يجهلها دوجنز تماماً. وهذا الجهل جعله خادماً، مثار إعجاب الجميع، مما ساعده على تركيز كل اهتمامه بالمشاكل العملية. وذلك يعني أنه لن يشك أبداً في وجود عالم تتمتع فيه الأشجار بملاطفة الرياح لها، وتلقي فيه الأزهار بشرر الطاقة الحية.

وصلا إلى قمة رابية، بدا العشب حولها بنياً ذابلاً، لكنه اختفى فيما وراءها، لتتحول الأرض إلى مجرد تربة سوداء. وفي هذه المنطقة كان دوجنز قد أطلق نار سلاحه الحاصد. لاح المكان خالياً من أية صخور ضخمة، إلا أن نيال رأى، عندما دقق النظر، عنكبوتاً نافقاً ممدداً على ظهره، وقد تكومت قائمتاه فوق معدته. اقترب منه، ولمسه بطرف خفه، فوجد لحمه متفحماً، كالخشب المحترق.

سارا نحو عشرة أمتار، فوق التربة الصلبة، ثم بدت الأرض، تحت قدميهما، على

وشك الاختفاء، ووجدا نفسيهما يقفان على شفا جرف حاد، يبلغ عمقه نحو اثنتي عشر قدماً، ويمتد لمئات الأمتار على الجانبين. ظن نيال في بداية الأمر، أن ذلك يعود إلى ظاهرة طبيعية، لكنه أدرك، عندما رأى الصخور المنصهرة، أن نيران الأسلحة الحاصدة هي التي تسببت في هذا. لقد نجرت الأرض، بالمعنى الحرفي للكلمة، بالسهولة ذاتها التي يذوب بها الثلج. فهم، للمرة الأولى، مدى قوة الأسلحة الحاصدة المدمرة المرعبة.

تنهد، وقال: إذن لا عجب أن تخشى جاننا.

رد دوجنز متسائلاً: هل تظن أنها على استعداد لنسيان كل هذا؟

سارا بمحاذاة حافة المنخفض، وقد شعر نيال بالدهشة، والصدمة، لضخامة مساحة المنطقة، التي تعرضت للنيران، فقطرها لا يقل عن نصف ميل، ومن السهل تحديد الوضع الدقيق للمنطاد، عندما سحب دوجنز الزناد. لقد أصابت النيران الأرض، فشقت وادياً عميقاً، يصل طوله إلى مئات عديدة من الأمتار. ثم انتشرت، مثل تدفق مياه من خرطوم، على الجوانب، لتسقط حائطاً من الصخور، وتؤدي إلى خلخلة الأرض. لقد دُمر كل شيء في هذا المكان، أو تبخر بالكامل، بينما أثرت النيران على الأشياء البعيدة، فطيرتها مثلما تفعل العاصفة الهوجاء بأوراق الأشجار. ووجدا، في هذه المنطقة، جثث العناكب ممددة بين الأشجار المجتثة الجذور، وشظايا الصخور.

لم ينبس أي منهما ببنت شفة، وهما يسيران حول هذه المنطقة من الأرض المتفحمة. ثم أعرب دوجنز في النهاية عن الفكرة التي شغلت كليهما أشار ناحية بنايات مدينة العناكب، عند الأفق الجنوبي، وقال: بإمكان حاصد واحد تدمير ذلك المكان في أقل من دقيقة.

- وأيضاً كل البشر هناك.

ألقى دوجنز عليه نظرة خاطفة، وقال: ألا يستحق الأمر التضحية؟

- كلا. قد تكون أسرتي بينهم.

هز دوجنز رأسه، وقال: آه، لست جاداً، إنها مجرد فكرة..

انزلقت قدم نيال فوق شيء رخو. لقد كان فطراً صغيراً، سحقه تحت خفه. ندت عنه صرخة اشمئزاز، ثم لاحظ كلاهما، للمرة الأولى، أن هناك الكثير من الحشرات تزحف نحوهما مثل اليرقات الرخوية الرمادية. وصلت إحداها إلى كاحل نيال، ومدت مجساتها الرمادية، في محاولة للصعود إلى قدمه، لكنه ركلها بعيداً.

- شيء غريب. من أين جاءت؟

أشار دوجنز، وقال: جذبتها العناكب القتيلة.

كان هذا صحيحاً، فعلى بعد عشرة أمتار تمددت جثة عنكبوت متحللة، وقد نتأت الأحشاء، مثل بالونات من البطن المفتوحة، وراحت حشود من الفطريات الرخوية تتغذى على اللحم، كجيش من الديدان.

ركل نيال فطراً، حاول الزحف فوق ساقه. شكلت الفطريات دائرة عريضة حول العنكبوت النافقة، وبدا أن الفطريات، التي كانت تزحف نحوهما، فقدت اهتمامها بهما. وحينما اقتربا من المكان الذي بدآ منه، توقف نيال وألقى نظرة على جثة متفحمة، تشبه الصخرة ممدة على ظهرها. خدعته عيناه للحظة، وظن أنها تحاول تعديل وضعها. ثم حدثت حركة أخرى، جعلتهما يتوقفان من جديد. ندت عن الجسم دون شك هزة خفيفة، وشاهد كلاهما شقّاً يظهر في المعدة. انفتح ببطء مثل جرح، وزحف فطر رخوي خارجاً منه، وهو يجر شريحة من الأمعاء خلفه.

كشر دوجنز اشمئزازاً، وبدأ يسير مبتعداً، فقال له نيال: انتظر لحظة!

دار ببطء حول الجثة المتفحمة، محاولاً حبس أنفاسه، بسبب الرائحة العطنة.

حدق فيه دوجنز غير مصدق، وقال: ماذا تفعل بحق السماء؟

ـ لا أستطيع أن أفهم كيف دخل الفطر إلى معدته.

دفع الجثة بقدمه، وقلبها، فوجد الظهر لامعاً مثل خشب محترق.

ـ من خلال فمه.

أشار نيال، وهو يقول: مستحيل، ففكا العنكبوت مطبقان من جراء الألم، الذي شعر به، وهو يموت.

قطب دوجنز، وقال: ربما من الفتحة الأخرى.

أحس نيال فجأة بوخز في فروة رأسه، فقد بدت الفكرة التي ومضت في ذهنه غير معقولة على الإطلاق، فامتنع عن صياغتها في كلمات.

قال، في نهاية المطاف: إني أتساءل هل من الممكن... أن تتحول العناكب إلى فطريات رخوية؟

ـ لا أعتقد ذلك.

أنعم نيال النظر في البطن المفتوحة، وهو يحاول بذل جهد كبير لكبت اشمئزازه. عرف الآن أن الحركة المضطربة، تعود إلى وجود آلاف الكائنات الصغيرة، كاليرقات، ولكن حينما

دقق النظر رأى أن كل كائن ما هو إلا فطر رخوي صغير، يهاجم بعضها، خاصة الكبير الحجم، البعض الآخر ويلتهمه، وينمو المهاجمون بسرعة فائقة، بل إنه لاحظ زيادة في حجمها، وهو ينظر إليهما.

راح أكبر الفطريات يجول فوق ظهور رفاقه، مثل كائن ضخم مخيف، ويترك خلفه، وهو يسير، بقعاً خالية على الأمعاء الرمادية، غطتها في الحال مرة أخرى الفطريات الصغيرة. وزاد حجم الفطر، في أقل من خمس دقائق، حتى أصبح بحجم راحة يده.

أشار نيال قائلاً: انظر! إنه يمتصها، مثلما تمتص قطرة المطر، القطرة الأخرى.

نظر إليه دوجنز شزراً، هز كتفيه، وقال: وما الغريب في ذلك؟

ـ هذا يعني أنها مخلوقة من المادة ذاتها.

راح الفطر، آكل لحم جنسه، يشق طريقه ليخرج من المعدة، وراقبه كلاهما بإحساس اختلط فيه الاشمئزاز بالانبهار. اتجه مباشرة نحو دوجنز، وحاول الزحف على قدمه. ركله بعنف بعيداً، لكن قدمه غرقت فيه، وتعلق بأصابعه. أبعده بقدمه الأخرى، لكنه حاول العودة من جديد.

ضحك نيال، وقال: لا يتعين عليك أن تركله، أصدر إليه أمراً بالابتعاد، واستخدم مرآة التأمل!

ـ كيف؟

ـ انظر، أدر هذا الجانب إلى الداخل، وركز ذهنك! ثم استخدم الجانب الآخر لتوجيه طاقتك للخارج! هذه هي وظيفتها.

أمسك دوجنز بالمرآة في يده، وقلبها.

ـ ركز ذهنك، كما فعلت مع الذباب الصمغي!

حدق دوجنز في الفطر، وقطب ما بين حاجبيه، وهز رأسه، وقال:

ـ يبدو أنها لا تعمل.

ـ ذلك لأنك لا تستخدمها على نحو صحيح. حاول تجميع طاقاتك بداخلك، ثم ادفعها للخارج!

قطب دوجنز مرة أخرى بنوع من التركيز الحاد. لاحظ نيال، أنه غير قادر على إدراك إمكانيات مرآة التأمل، وبدلاً من أن يستخدم طاقات القلب، راح يحاول استخدام قوة ذهنه، كما لو أنه يمسك بحاصد، ذكّر نيال برجل يصيح بأعلى صوته.

كان الفطر ما يزال يزحف نحو قدمه، لكنه اضطر إلى التقهقر، ثم توقف على نحو مفاجىء. حاول التقدم، لكن دوجنز قطب من جديد، فتوقف. تهلل وجهه، وقال: إنها تعمل.

عبس في الفطر، فبدأ بعد لحظة، يبتعد. بذل جهداً كبيراً للتركيز، فتوقف، ثم زحف نحوه.

هز رأسه، وقال: يا له من أمر لا يصدق!

انحنى حتى بات وجهه على بعد قدمين من الفطر، معتقداً، على ما يبدو، أن هذا الوضع سيزيد الطاقة، التي يبذلها. لم يحدث شيء في البداية، ثم راح الفطر يدفع نفسه لأعلى، كما لو أنه يحاول النهوض.

قطب دوجنز، وقال: أحاول أن أجعله ينقلب على ظهره.

حدق في الفطر، ليوقفه قبل أن يبتعد. لمس مرآة التأمل، بأطراف أصابعه، وقال: أتعرف أنه إذا ما توفر لنا عدد كاف منها، فإننا لن نحتاج إلى الأسلحة الحاصدة. بمقدورنا هزيمة العناكب، بالطريقة ذاتها، التي تمارسها معتنا.

شعر نيال بانفعال دوجنز، وهو ينطق بهذه الكلمات.

بدأ الفطر يبتعد مسرعاً، فلحقه دوجنز، وهو يقطب ما بين حاجبيه. توقف لحظة، ثم راح يتحرك مبتعداً، بسرعة غير عادية هذه المرة.

ارتسمت علامات الحيرة على وجه دوجنز، وقال: ما الذي حدث؟

ـ لِمَ؟

قطب مرة أخرى، ووقف فوق الفطر، الذي توقف من جديد، ثم عاد للتحرك، فقال دوجنز: «إنها لا تعمل. أجد بمقدوري وقفه، ثم يبدو وقد غير رأيه. . لا بد وأن الإرهاق قد أصابني».

رشق نيال بنظرة مستر يبة، وقال: هل تقوم بتحريكه؟ هز نيال رأسه، وقال: لست أنا الذي أفعل ذلك، إنها القوة.

ـ أية قوة؟

ـ لا أعرف ماهيتها. ولكنها قوة ما من تحت الأرض، يبدو أنها تسيطر على الفطريات الرخوية.

نظر دوجنز إليه مشدوهاً، وقال: أتستطيع الشعور بها؟ وهل هي المسؤولة عن مقاومته لك؟

- باستطاعتي الشعور بها إلى حد ما . .

تقدم عدة خطوات، حتى أصبح أمام الفطر، ثم جثا على يديه وركبتيه، وعبس، وحملق فيه. بدأ الفطر يتحرك مبتعداً، ثم توقف. لكنه عاد إلى التحرك. شد دوجنز قسمات وجهه، حتى نفرت عروقه على جبهته، وكاد يغمض عينيه. بدأ الفطر، فجأة، يتحرك عائداً نحوه. استرخت عضلات وجهه، وندت عنه ابتسامة.

التفت إلى نيال، وقال. حققت أداء أفضل لقد توقف الآن عن المقاومة.

- نعم. يبدو أن القوة قد أذعنت.

- كيف اكتشفت هذه القوة؟

- اكتشفتها في تلك الليلة، التي التهم فيها الفطر، البائس «سيبريان».

جعل دوحنز الفطر ينقلب على ظهره، حيث تمدد لا حول له ولا قوة. ونجح، بعد جهد، في تعديل وضعه من جديد، فقلبه مرة أخرى. بدا واضحاً أنه يشعر بالنشوة، بفضل تلك القوة التي اكتشفها حديثاً.

قال، وقد استغرقه التأمل· أود معرفة المزيد عن هذه القوة.

هز نيال كتفيه، وقال: إنها تبدو مثل مويجات بركة ماء. ألم تسمع عنها من قبل؟

- كلا، رغم أن زوجة سيميون تعودت على التحدث عن شيء من هذا القبيل.

تخبط الفطر ليعدل وضعه، لكن دوجنز جعله ينقلب مرة أخرى.

سأله نيال بشغف: ماذا قالت؟

- لا أدري، إذ لم أكن أولي هذا الموضوع أهمية كبيرة.

- أبوسعنا الذهاب إليها، للاستماع إلى قصتها؟

- لا، للأسف، فقد ماتت.

اتسعت عيناه، وتساءل· ما هذا الذي يحدث الآن؟

حاصرتها الفطريات الرخوية، مثل جيش من النمال، من جميع الاتجاهات. لم يكن هناك شيء يثير الخوف من حركتها، فقد بدا أن الفضول، هو الذي يدفعها لهذا التجمع لكن نيال أدرك أن هذه الأعداد الهائلة قد تتغلب عليهما، إذا ما ظلا في مكانهما، فقال لدوجنز «لنبتعد من هنا!».

ولكن بمجرد أن تحركا باتجاه الرابية، تزايدت سرعة حركة الفطريات، بشكل أثار

دهشتهما. وراحت تزحف على الأرض، مثل مياه الفيضان، وسرعان ما حاصرتهما من ثلاثة جوانب وعندما بدأ يهرولان، تدفقت باتجاه أقدامهما، وأحسا، بعد لحظة، بأجسامها اللينة، تحت خفّيهما. زلت قدما دوجنز، وسقط على الأرض، فغطت، في غضون لحظات، يديه، وتحركت بسرعة نحو ذراعيه. صرخ، وقد اعتراه الغضب والاشمئزاز، وراح ينفضها عن نفسه، بعد أن خلفت علامات حمراء صغيرة، فوق جلده. توقف نيال للحظة. فأخذت تزحف فوق ساقيه، فأحس ببرودة ونعومة، كما لو أنهما يتعرضان لربت خفيف.

بدأ كلاهما يهرع باتجاه خط العشب المحترق، الذي يمثل حد النهاية للدمار الذي لحق بالمنطقة. وجدا أمامهما ضفة ارتفعت عن الأرض، بفعل نيران حاصد دوجنز، فحاولا صعودها، لكنهما انزلقا مرة أخرى. راح دوجنز يدفع بعصبية الفطريات، التي كست ذراعيه وكتفيه. وجدا أن الضفة أقل ارتفاعاً على بعد خمسين متراً إلى يمينهما، فاندفعا إليها، وهما يدوسان فوق الأجسام اللينة. نجح نيال في الوصول إلى أعلى الضفة باندفاعة قوية، ثم استدار وساعد دوجنز على الصعود. شعرا بالارتياح، حينما وجدا أن الفطريات قد توقفت، عند سفح الرابية، ولم تبذل أي جهد لصعودها.

نجح دوجنز في التخلص من معظم الفطريات، ودفعها بقوة تحت قدميه أما نيال فقد فضل استخدام قوته الذهنية، حيث أدى تركيزه الذهني الشديد إلى تراجع الأجسام الرمادية، إلى ما دون قدميه، تاركة علامات لامعة فوق بشرته.

أخذ دوجنز يمسح العلامات بحفنة من العشب الذابل، وهو يسب مشمئزاً.

ـ كائنات كريهة، كنت أود أن يكون الحاصد معي.

ـ ولكنك تمتلك مرآة التأمل.

عادت البهجة إليه فجأة، وقال: هذا صحيح، ولكنها لا تنجز العمل بالسرعة ذاتها التي يحققها الحاصد.

ألقى نظرة على جيش الفطريات، التي بدأت تتقهقر عائدة إلى جثث العناكب، وقال: ما الذي جعلها تهاجمنا؟

ـ القوة. لم يعجبها أن نتغلب عليها.

ـ ولكن ما هي هذه القوة؟

ـ تخمينك جيد مثل تخميني.

لم ينبس دوجنز ببنت شفة، وهما في طريقهما عائدين إلى المدينة، واستغرقه التفكير.

ثم سأل نيال، في نهاية المطاف: قلت إنك لاحظت هذه القوة، عندما التهم الفطر سيبريان.

ـ نعم.

ـ كيف؟

ـ شعرت بها.

ـ وهل بوسعك الشعور بها الآن؟

ـ بإمكاني، إذا ما تركت نفسي تسترخي بعمق.

ـ أهذا نوع من قوة الإرادة؟

ـ لا أعتقد ذلك. ليس تماماً.

ـ هل سبب هذه القوة سيد العناكب؟

هز رأسه، وقال: لا. إنها في غاية القوة.

ـ ولكن ماذا يحدث، إذا ما استخدمتها العناكب مع «م. ر. أ»؟

استطرد، عندما ارتسمت علامات عدم الفهم على وجه نيال: ألا تعرف شيئاً عن «م. ر. أ»؟ التفاعل القوي متعدد العناصر؟ إنه الأسلوب الذي تستخدمه الخنافس لمنع العناكب من غزو المدينة. بمقدورها إقفال إرادتها معاً لتشكل نوعاً من الحاجز.

ـ وهل تستطيع العناكب أيضاً القيام بالشيء ذاته؟

ـ بالطبع. ولكن يكون للمدافعين وضع متميز. فالطريقة الوحيدة لكسر الحاجز هي تحطيم إرادة المدافعين.

ـ أتعني أن بإمكان مجموعة من العناكب، أو الخنافس، تحقيق قوة إرادة أكبر مما يستطيعه كائن واحد بمفرده؟

ـ نعم، قوة إرادة أكبر بكثير، تزيد مائة مرة عن قوة الإرادة الواحدة.

ثم خلع مرآة التأمل، ووضعها في راحة يده، وقال: وباستطاعة البشر تحقيق الشيء ذاته، إذا ما كان لديهم ما يكفي من هذه المرايا.

مرا بجوار البيت، الذي يبنيه الذباب الصمغي. كست أجسامها الذهبية اللامعة، المشربة بلون وردي فاتح، الجزء الأعلى للمبنى. صم أزيزها آذانهما، عندما اقتربا منها. توقفا أمامها، وحدق دوجنز فيها، وقد غضن جبهته في تكشيرة تركيز. كانت النتيجة مذهلة، فقد توقف الأزيز في الحال، وساد صمت غريب. ثم راحت أجسام الذباب الصمغي الذهبية تتساقط كالمطر عند قاعدة المبنى نصف المكتمل، بينما استقر ذباب آخر على الجدران، وسقط متخبطاً.

حملق دوجنز في دهشة، وقال: هذه أقوى مما كنت أظن.

هرعا فوق العشب، فبدا الذناب عن قرب، كما لو أنه مصاب بدوار. أثار دوجنز بعضه بقدمه، فقال له نيال: لا تفعل ذلك، فقد توقظه.

ـ ليكن.

حاول دوجنز التركيز مرة أخرى، وغضن أنفه وجبهته، ثم تقهقر للخلف، حينما طار سرب من الذباب الصمغي، ودخل بعضه إلى جسمه، من تحت ردائه القصير.

راح يدفع ساقيه، ويسب، فانفجر نيال ضاحكاً.

ـ لا تقتله! أصدر أمراً إليه بالابتعاد!

ركز دوجنز من جديد، فخرجت نحو ست ذبابات من تحت ملابسه. علت ابتسامة وجهه، فبدا مثل تلميذ مبتهج.

ـ إنه لأمر مذهل، يا لها من مرآة! لم يكن ينبغي أن تظل محفوظة في المتحف، كل هذه السنين.

جعل الذباب يعود إلى أعلى المبنى، ويحوم حوله، في سحابة كثيفة، ولكن صامتة. أدهشته القوة التي يتمتع بها، فدفعه ليستقر على الجدران، ثم يختفي داخل البيت. تزايد طموحه، فجعل الذباب يشكل سرباً، كذيل المذنّب، ويدور حول البيت بطريقة حلزونية، وهو يتألق في الجو.

لاحظ نيال، وهو يشاهده، أنه ما يزال عاجزاً عن استخدام إمكانات مرآة التأمل بالكامل. أمسكها في يده، وأدارها من جانب إلى جانب آخر، كما لو أنه يوجه أشعة طاقتها. وراح يستخدم قوة الإرادة العدوانية غير المدربة النابعة من الرأس، بدلاً من استخدام سطحها المقعر في تركيز طاقاته الداخلية. حققت الطاقة، التي تمكن من استخدامها بهذا الأسلوب، نتيجة مذهلة، لكن الجهد استنزفه، وراح العرق يتصبب منه. كان نيال على وشك توضيح كل هذه الأمور له، إلا أنه أدرك بغريزته خطأ ذلك، فقد يشعر بأن هناك من يراقب تصرفاته، ويوجهه.

أثار أمر آخر فضول نيال، فرغم الاتصال المباشر بين إرادة دوجنز، وإرادة الذباب الصمغي، لكنه لم يكن مدركاً أنه يستنزفه، راح دوجنز، أكبر فأكبر، حتى بدا مثل حلقة من الدخان ذهبي اللون، يدور حول البيت، وهو يتراقص، مثل راقص باليه في الجو. توقع أن يصدر دوجنز، بين لحظة وأخرى، أمراً له بالتوقف، والعودة إلى الجدران، لكنه واصل بنشوة

عجيبة عملية التركيز، وزاد جهده، حين أصبح الذباب مستنزفاً. كان نيال على وشك التدخل، لكن بريق السعادة الغامرة في عيني دوجنز، جعله يتراجع.

توقف الدوران الذهبي، على حين غرة، وتساقطت الأجسام من جديد، مثل المطر، على الأرض. ارتسمت علامات الحيرة والإحباط على وجه دوجنز، مثل طفل تحطمت لعبته. اتجه نحو الذباب، ودفعه بقدمه.

قال نيال: أخشى أن يكون قد نفق.

دمدم دوجنز قائلاً: اللعنة!

ـ هل بوسعك الحصول على المزيد منه؟

ـ بالطبع، إننا نربيه. ولكن ما نحتاج إليه يزيد عن هذا الذي نفق.

ربت على مرآة التأمل بحنو، وأعادها إلى قميصه.

شاهدا، عندما قطعا نصف الطريق إلى المدينة، مناطيد عنكبوتية، اندفع اثنان منها بسرعة باتجاه مدينة العناكب. شعر نيال، للحظة، بالذعر، والرغبة في الاحتباء.

قال دوجنز: ينتابني شعور بالخوف.

ـ لِمَ؟

لم يحر دوجنز رداً، ووقف محدقاً في المناطيد بنوع من العداء. وصلت، في أقل من دقيقة، إلى برج مبنى البلدية، وهبطت بزاوية حادة، ثم اختفت عن الأنظار.

ـ هل تعتقد أنها تحمل السفراء؟

تنهد دوجنز، وقال: من يكون غيرهم، ولكنني أريد أن أعرف سبب هذه السرعة، التي ينطلقون بها.

ـ أظن أنهم يريدون التوصل إلى اتفاق.

ـ هذا ما يثير قلقي.

ثم أمسك بمرفق نيال، وقال: من الأفضل أن نعود.

- ٣ -

افترشت المناطيد المرجة أمام مبنى البلدية، وأحاطها الصبية، الذين أخذوا يحملقون فيها بافتتان، وهي تهبط ببطء، ولم يعيروا العنكبوت الذئبيّ البني، الذي وقف يحرسها أي اهتمام. هرعت فتاة، في رداء خدم الخنافس الأصفر، نحوها، وحين أنعم نيال النظر فيها، أدرك أنها دونا.

سألها دوجنز: ماذا يجري؟

نظرت باتجاه مبنى البلدية، وقالت: إنها هناك.

- مَن؟

همست دونا قائلة: الأميرة ميرلو.

سألها دوجنز: كم عدد العناكب؟

- واحد فقط.

تبادل نيال ودوجنز النظرات.

قال دوجنز: ذلك يعني أنها أحد السفراء، يا للمكر!

شعر نيال، عندما تردد اسم ميرلو، بمزيج من الانفعال والخوف. تطلعت إليه دونا بعينين متسائلتين، وقالت: لن تدعها تقنعك بالعودة إلى مدينة العناكب؟

حدق فيها بدهشة، وقال: «كلا، بالطبع»، وكان على وشك أن يضيف «أتحسبينني قد جننت؟»، لكنه أحس أن ذلك قد يؤذي مشاعرها.

أقبل خنفساء حارس عليهم من مبنى البلدية، وأخذت دونا تراقبه بخوف، وهو يتحدث إلى دوجنز بلغة الإشارات التي يصنعها بقرنيه، وبصوته الغريب.

التفت دوجنز إلى نيال، وقال: إنه يطلب منا أن نتبعه، فالمجلس يستدعينا.

أمسكت دونا بيد نيال، ورجته أن يكون على حذر.

ضغط يدها، وقال: «لا عليك». لكن ابتسامته أظهرت ثقة أكبر مما يشعر بها.

سـار الاثنان خلف الحـارس، حتى وصلا إلى القـاعة، فـوجد نيـال أن النشـاط يبـدو عادياً، فبدأ توتره يخف، وكان للضوء الخافت البـارد تأثـيره في تخفيف حدة انفعـاله. بـل إنه شعر بالابتهاج، لأنه سيرى السيد مرة أخرى. لكن مرشدهما توقف عنـد قمة الـدرج، الذي يفضي إلى الحجرات التحتية، ووجه المزيد من الإشارات.

أشار دوجنز إلى الباب، وقال: يقول إن عليك الانتظار هنا.

دفع نيال الباب، فوجد نفسه داخل حجرة خـالية، ضـوؤها أقـوى من ضوء القـاعة. هب نسيم خفيف من النافذة المفتوحة. كـانت الحجرة مؤثثـة ببضعة مقـاعد بسيـطة، وأريكة عـلى شكل خنفسـاء جاثم. جلس عليهـا، وألقى برأسـه للخلف، وأغمض عينيه. اكتست الأريكة بقماش حريري ناعم، كان لطيفاً على بشرته.

أحس بالراحة وهو بمفـرده، فرغم أنـه يحب دوجنز، إلا أنـه يشعر بـالاستنزاف معـه؛ فكل أفكاره وأحـاسيسه تتـوجه نحـو أهداف عمليـة محضة، والعـالم بالنسبـة له ليس المكـان الموجود بالفعل، ولكنه ذلك الذي يستغله ويتلاعب به. كان يشعر، بعد ساعة معه، بحاجة ماسة لنسيان العالم الخارجي، والتغلغل داخل نفسه.

كانت الحجرة باردة ومريحة، وأحس بالرذاذ المتناثر من النافورة، التي يراها من النافذة، وتناهت إلى مسامعه أصوات الصبية. تنهد بعمق، واسترخى، كما لـو أنه يغـرق في أريكة من أوراق الأشجـار. قاوم رغبتـه في النوم، وركـز ذهنه، إلى أن أصبـح مدركـاً لأعماق الصمت بداخله. ومضت نقطة الضوء، للحظات، بداخل جمجمتـه، وشعر، وهـو مسترخ، بـالتدفق المترقرق للقوة، التي أخذت تنساب بهدوء، مثل مويجات تتدافع أمام الشاطىء.

ثم أدرك، على حين غـرة، مدى التـوتر الـذي يضرب أعماق ذهنـه. لم يكن إحساسـاً بالخطر، ولكنه مجرد تحذير. كان قد اعتراه الشعور ذاته من قبل، عندما حُجز في حجرة بقصر كازاك؛ وهو الإحساس بأنه مُراقَب.

حرص ألا تشي تعبيرات وجهه بمعرفته، وحاول أن يجعـل أي شخص يراقبـه يظن أنـه نائم. راح يمشط الحجرة بذهنه، وهـو مستلق على ظهـره، ويتنفس بانتـظام. استغرق لحـظة قبل أن يتأكد أن الكائن المختبىء يـراقبه من خـلال النافـذة. أحدث أحـد الأبواب صريراً، فأعطاه المـبرر للتحرك، وفتـح عينيه. تثـاءب، وجلس، وهو يحـدق في النافـذة. لكنه دهش عندما لم يجد شيئاً، ولم ير سوى السماء الصافية. نهض واقفاً، وهـرع نحوهـا، ثم مد يـده، وكأنه يتمطى، وأزاح الستارة قليلاً. أزت ذبابـة فوق رأسـه، واستقرت عنـد زاوية السقف.

أغمض عينيه، وأخذ يتنفس الهواء البارد، بعد أن عرف من جهاز المراقبة بداخله أنه تعرض للمراقبة من فوق رأسه.

سار عائداً إلى الأريكة، وأخذ يربت على قماش الوسادة الناعم، ثم أمسك بها من طرفها، على نحو مفاجىء، وقذف بها لأعلى. كانت تصويبة ناجحة، أكدت مهارته كصائد منذ الصغر، فقد اصطدمت الحشرة بالوسادة في منتصف الطريق، لترتطم بالجدار، ثم تسقط على الأرض. اجتاز الحجرة في خطوة واحدة وأحس بتهشم الجسم المدرع تحت خفه. كانت ذبابة صغيرة، يقل طول جناحها عن بوصتين. نظف الخف في السجادة، وذهب وأغلق النافذة. اختفى إحساسه بأنه مُراقَب، بمجرد أن أغمض عينيه من جديد.

شعر براحة تامة في الحال، ولكن طرأت على ذهنه فكرة مخيفة، باحتمال أن يكون قد تعرض للمراقبة، من خلال ذهن حشرة، وذلك يعني أن خصوصيته قد انتهكت، وأن سيد العناكب قد عرف كل شيء فعله، أو قاله، خلال الأيام القليلة الماضية. ورغم أنه استبعد هذا الاحتمال، لثقته بأن نظام الإنذار في عقله الباطن كان سيحذره، إلا أنه ظل يشعر بعدم الأمان. أثار قلقه احتمال أن يكون هدف سيد الموت هو أن يزرع في نفسه هذا الإحساس.

جفل من قرقعة مزلاج الباب، بسبب هذه الحساسية المفرطة. دخلت ميرلو، وأغلقت الباب خلفها، وثبتت وتداً خشبياً فوق المزلاج، حتى تمنع فتحه. كانت ترتدي ثوباً قصيراً من نسيج حريري أحمر، ترك ذراعيها عاريتين، بينما انسدل شعرها الأشقر بنعومة على كتفيها. خفق فؤاده، حينما التفتت إليه مبتسمة، وأحس أنه لم يرها بمثل هذا الجمال من قبل.

لم تنبس ببنت شفة، وظلت واقفة ترنو إليه، ثم أقبلت عليه، ونظرت في وجهه للحظة، ثم لفت ذراعيها حول رقبته، وقبّلته. أحس ببرودة ذراعيها العاريتين على جسمه، لكن فمها كان دافئاً. أدرك، في تلك اللحظة، أنه كان مخطئاً عندما ظن أن اهتمامه بها قد تلاشى. لم يصدق، وهو يحتضنها بشدة، أنها تقبله الآن، وأنها تريده، مثلما يريدها.

ابتعدت عنه، وأخذت تداعب بأصابعها شعره، وتمسح خدها في عنقه.

ـ لقد جئت لأصطحبك معي.

ـ تعرفين أنني لن أستطيع الذهاب معك.

ـ ألا تود البقاء معي؟

ـ أريد بالطبع. لكنني أرغب أيضاً في البقاء على قيد الحياة.

وضعت شفتيها على أذنه، فأثارت نعومتها إحساساً قوياً، جعل جسمه ينقبض.

ـ دعنا من هذه المناقشة الآن. أريدك أن تُقبلني!

أمسكته من يده، وسحبته نحو الأريكة. راقبها، بقليل من الدهشة، وهي تفحص الباب، لتتأكد من أن المزلاج في مكانه، ثم استلقت، وجعلته يتمدد بجوارها. وغابا مرة أخرى، في نشوة الاتصال الجسدي، ينهل كل منهما من جوهر الآخر، كما لو أن دافعهما هو الجوع والعطش. أدرك مرة أخرى، حقيقتها الداخلية، إنها امرأة عملية تعرف بالتحديد ما تريده، ولا تخشى المحاولة. لم تعد هذه الحقيقة تثير نفوره، فرغبته جعلت ذلك أمراً تافهاً. بل إنه أدرك وجود شيء غير شخصي يتحكم في رغبتها، وهو أنها تشعر بالملل والإحباط، وتريد أن تغيب عن الوعي بين ذراعي رجل. وهذا أيضاً أمر تافه بالمقارنة مع النشوة البالغة، التي يمنحها كل منهما للآخر، وينقل إليها طاقة حياته الذكرية، ويمتص طاقتها الأنثوية. كانت هذه بمثابة عملية جسدية بسيطة، مثل تناول الطعام، لكنهما شعرا بأنهما مناسبان، على نحو غريب، لإرضاء كل منهما لجوع الآخر.

أبعدت ميرلو نفسها عنه، ودفعته بخفة، ثم جلست على حافة الأريكة، لتمشط شعرها. ابتسمت له، وأسندت راحتها على خده.

ـ أريدك أن تعود معي!

وضعت يدها على فمه، حينما بدأ يهز رأسه علامة الرفض، وقالت: أعدك بأنها لن تؤذيك، ولن أسمح لها بذلك.

أبعد يدها بلطف، وقال: لقد حاول قتلي اليوم.

ـ أعرف.

حدق فيها بدهشة، وقال: أتعرفين؟

ـ نعم، لقد تحدثت مع سيد العناكب، وأبلغني أنه حاول قتلك.

ـ وما زلت ترغبين في أن أعود معك؟

ونظر في عينيها بشك واضح، لكن تعبيرهما كان واضحاً وصافياً.

ـ هذا هو سبب رغبتي في إعادتك؛ فبمقدور سيد العناكب قتلك في أي وقت يشاء، وعنده الكثير من الخدم.

ـ هل طلب منك أن تقولي هذا؟

ـ لا. أقوله لأنه الصدق.

دفعها بعيداً عنه، وجلس، ثم قال: إذا ما خُيرت بين الموت بين أصدقاء، أو وسط أعداء، فإنني أفضل الموت بين الأصدقاء.

ـ لكنك لن تكون بين أعداء، بل ستكون بين أناس تعرفهم ـ بين أمك وأخيك،

وشقيقتيك، وانجليد وماسيج، أتدري أن أبي قد مات؟

أومأ قائلاً: نعم، وأشعر بالأسى.

ـ ذلك يعني أنني لم أعد أميرة، بل ملكة. وسوف تكون زوجي، وبالتالي ملكاً.

سألها بلطف: أتظنين أن هذا سينقذ حياتي؟

هزت رأسها بصبر نافد، وقالت: يريد سيد العناكب السلام، وأنا أعرف ذلك. فالعناكب ليست كالشر، وليست حالمة، بل واقعية. أنا أفهمها لأن أبي كان واقعياً. وهي تعرف أن بمقدور خدم الخنافس تدمير مدينتها، بمن فيها. وهذا هو سبب رغبتها في عودتك معي. إنها تعرف أن باستطاعة الخنافس السيطرة على خدمها. لكنك رجل حر، ولن تستطيع السيطرة عليك.

ابتسم، وقال: إذن تريدك أن تسيطري عليّ بالنيابة عنها؟

هزت كتفيها، وضحكت قائلة: بالطبع، ولِمَ لا؟ يتعين أن نكون واقعيين أيضاً. إذا كنت زوجي، وتقطن في مدينة العناكب، فلن تتعرض لأي خطر منها.

ـ لكنني سأظل تحت رحمتها. ومن الممكن أن يحنث سيد العناكب بوعده معي.

علت وجهها ابتسامة واثقة، وقالت: ربما، لكنه لن يفعل ذلك معي.

ـ أتعتقدين أنه يثق بك؟

ـ بطبيعة الحال.

ـ إذن لماذا أرسل خدمه للتجسس علينا؟

أشار إلى الذبابة المقتولة، وقال: إنها من خدم سيد العناكب، وقد قتلتها قبيل قدومك.

حدقت ميرلو بفضول في الحشرة النافقة، وأحس بأنها لا تصدقه.

ـ وكيف عرفت ذلك؟

ـ بمقدوري الإحساس بمثل هذه الأمور. وهذا هو سر رغبة سيد العناكب في قتلي.

عادت، وجلست بجواره، وأخذت كلتا يديه في يديها.

حدقت في عينيه، وقالت باقتناع تام: لو أنك زوجي، فلن يكون هناك ما يدعوه للخوف منك.

ثم دنت منه، حتى بات فمها قريباً من فمه، وقالت: أرجوك أن تثق بي!

جفل كلاهما عندما سمعا طرقاً على الباب، وانفصلا وهما يشعران بالذنب.

قالت بطريقة مهيبة: مَن بالباب؟

ـ بلدوجنز.

اتجهت نحو الباب، وأزاحت الوتد الخشبي عن المزلاج، وفتحته. نظر دوجنز إليها بإعجاب، فحدقت فيه ببرود.

قال لها: أنت مطلوبة في قاعة المجلس.

التفتت، وتطلعت بتساؤل إلى نيال، فقال دوجنز: «لا. أنت بمفردك» أحس نيال أن دوجنز يكن لها عداء واضحاً، رغم إعجابه بها.

التفتت إلى نيال، وقالت: ليكن. انتظرني هنا!

خرجت دون أن تلتفت، وأغلق دوجنز الباب خلفها.

ـ إنها تهوى بالتأكيد إصدار الأوامر.

ـ هي أميرة، بل في الواقع ملكة.

ـ ما الذي تريده منك؟

ـ تريد أن أعود معها.

حدق دوجنز فيه بدهشة، وقال: لا بد أنها تظنك أحمق.

ـ لا. تعتقد أنني سأكون في أمان.

ـ إذن لا بد أنها هي الحمقاء.

قرر نيال ألا يجادله، خاصة وأن علامات التوتر والقلق ترتسم على وجهه.

ـ ماذا حدث في قاعة المجلس؟

رد دوجنز بعصبية: الأمور تتفاقم. فأول شيء طلبه سفير العناكب، هو إعادة المناطيد العنكبوتية. وقد بدا هذا المطلب معقولاً، فوافق عليه المجلس في الحال. وذلك يعني أنها جمدت حركتنا.

ـ ما زلنا نملك أقدامنا. ولكن ماذا عن الأسلحة الحاصدة؟

ـ إنهم يبحثون ذلك الآن. يريد السفير تدميرها.

ـ وماذا تتوقع أن يحدث؟

هز دوجنز رأسه باكتئاب، وقال. أخشى ألا يكون القرار لصالحنا. فالخنافس تكره الأسلحة الحاصدة، مثلما تكرهها العناكب. ولكن يبدو أنها ستقر على الأقل بملكيتنا لها، نظراً لأننا عثرنا عليها. لقد طلبوا مني أن أبحث ذلك مع الآخرين.

ـ هذا يمنحنا الأمل.

ـ يبقى القرار النهائي في يد المجلس.

ـ ما الذي تقترح أن نقوم به؟

ـ هناك أمر واحد يجب علينا تنفيذه، هو أن نظل متقدمين خطوة عن العناكب.

اتجه نحو الباب، وفتحه بهدوء، فلم يجد أحداً بالخارج. أغلقه، ووقف، وظهره له.

ـ أما زلت ترغب في قتل سيد العناكب؟

انتفض قلب نيال، وقال: بطبيعة الحال. اليوم؟

ـ قد يكون تحقيق ذلك غير ممكن اليوم. علينا أن ننتظره حتى تهب ريح الشمال، لنتمكن من استخدام المناطيد. فليس باستطاعتنا السير على الأقدام إلى مدينة العناكب، فسوف تكون متأهبة لمواجهتنا.

ـ مواجهتنا؟

أومأ دوجنز، وقال: لن نتركك تنجز هذه المهمة بمفردك، فقد تُقتل. وسيتعين، في تلك الحالة، أن يقوم شخص آخر بمحاولة جديدة. وإذا ما حاولنا قتله وفشلنا، فسوف نكون في وضع أسوأ من ذي قبل.

ـ إذن لن نتمكن من القيام بشيء حتى تتغير الريح؟

ـ هذا صحيح، ولكنها قد تتغير عند الغسق. ففي مثل هذه الأيام، تهب الرياح من الجبال. ويتعين علينا، في غضون ذلك، أن نتحدث إلى الآخرين، ومن الأفضل العودة الآن إلى بيتي.

ـ لقد وعدت ميرلو بانتظارها.

رد دوجنز ساخراً: لم تعدها، فقد أمرتك بانتظارها. وليس أمامنا أي وقت نضيعه.

ثم دفع نيال من كتفه، وقال: ستعثر عليك إذا ما أرادتك.

تبعه، على مضض، إلى خارج الحجرة. أخذت بعد لحظة عيونهما تطرف من جراء أشعة شمس العصر الذهبية. كان العنكبوت الذئبي ما زال واقفاً يحرس المناطيد، لكن جموع الصبية اختفت.

أقبل أوليس عليهما، مجتازاً العشب، وقال: جئت أفتش عنكما.

أمسكه دوجنز من ذراعه، وقال: اصغ إليّ! أريدك أن تنقل رسالة إلى هاستور وكوزمن، اطلب منهما أن يعدّا المناطيد العنكبوتية. وإذا ما سألهما أي شخص عما يصنعان، اطلب منهما أن يعلنا موافقتنا على إعادتها إلى العناكب.

لما هرع أوليس مبتعداً، طلب منه العودة بأسرع ما يمكن.

سأله نيال: هل تفكر في عصيان المجلس؟

ـ لم يتم التوصل إلى اتفاقية حتى الآن. وإلى أن يحدث ذلك، فإن المناطيد تظل بحوزتنا.

كان مانيثو بانتظارهما في حديقة بيت دوجنز، وهرع لمقابلتهما، وسأل بلهفة: ما الذي حدث؟

ربت دوجنز على ذراعه المفتولة، وقال: لا شيء. سنعقد اجتماعاً لمناقشة بعض السياسات. أترغب في الانضمام إلينا؟

لم تخدعه نبرة صوت دوجنز، فرد قائلاً: نعم أرغب في ذلك.

اعتذر نيال بعد أن دخلوا البيت، وقال: «سأعود بعد لحظات». فقد بدأ يشعر بالاستنزاف، بعد ثلاثة أيام من الخمول، وأحس أنه بحاجة إلى مرآة التأمل لمساعدته على التركيز. ودخل دوجنز ومانيثو إلى حجرة الطعام.

اشتمّ، بمجرد أن فتح باب حجرة النوم، رائحة خضراوات عطنة، تماثل رائحة مياه مستنقعات كريهة. ظن، للحظة، أن النبات الأفعواني لم يعد موجوداً. ثم اكتشف أنه سقط على الأرض، وتحولت الساق الخضراء إلى اللون الأبيض المصفر، وأصبحت رخوة ولينة، كما ابيضت الأوراق، وانكمشت، فبدت مثل أيدي متغضنة. انحنى لينظر عن قرب، فوجد أن النبات قد مات منذ ساعات.

أغلق النافذة، ثم جلس على طرف الفراش. ترددت كلمات ميرلو في رأسه: «إذا ما قرر سيد العناكب قتلك، فلن يمنعه شيء»، وامتزج فجأة شعوره بالتعب بهاجس شر جعل قلبه ينقبض، كما لو أن الأرض قد انشقت تحت قدميه.

أخذ مرآة التأمل من فوق الكرسي، وعلقها حول رقبته، فأحدثت ألماً حاداً، فأسرع بقلبها على الجهة الأخرى. أغمض عينيه، محاولاً مقاومة الشعور بالدوار والهزيمة، ونجحت المحاولة، لكن الجهد الذي بذله استنزف قواه.

لما دخل حجرة الطعام، تطلع سيميون إليه، وقد علت وجهه ابتسامة ودية، تحولت إلى تعبير ينم عن القلق.

ـ تبدو منهكاً، كان يجب أن تبقى في الفرش.

اغتصب نيال ابتسامة، وقال: أنا بخير، لكن نباتك قد مات.

ـ مات؟ هل أنت متأكد؟

سار نيال خلفه في الممشى، فاشتما رائحة النبات العطن المنبعثة من الباب المفتوح. ركع سيميون إلى جانب النبات، وفحص كل الرؤوس التي تشبه الأفعى بعناية. وقف دوجنز في الممشى، وخلفه ميلو ومانيثو، وقد تغضّن أنفه من الاشمئزاز.

أخرج سيميون من جيبه مدية صغيرة مطوية. أمسك بأكبر رأس في يده، وفتحه، فبدا اللب صلباً. عرف نيال، الذي أخذ يتابعه من فوق كتفه، سبب اختياره لهذا الرأس الكبير. نظر بإمعان، فرأى شوكة، تشبه الإبرة، اخترقت اللب من الداخل، وخرجت من الجهة الأخرى.

أمسك سيميون الرأس بيديه القويتين، وفتحه. تمددت بالداخل بعوضة سوداء ضخمة، برز زبانيها، يبلغ طولها نحو أربع بوصات.

جثا دوجنز بجانبه، وقال: هذه مجرد بعوضة مستنقعات عادية من الدلتا. لماذا قتلت النبات؟

استخدم سيميون المدية، ليشير إلى الزباني الناتىء، وقال: أظن أن هذا الزباني ممزوج بسمسم قوي ـ أعتقد أنه عصارة النبات الشيطاني، التي يؤدي التعرض لها إلى الموت الفوري.

تناول قطعة قماش من فوق طاولة صغيرة، ولفها بعناية، ثم نظف الرأس، ولفّه داخل قطعة القماش، وسلمه إلى ميلو، قائلاً: «اطلب من لوكريتيا أن تحرقه، دون أن تخرجه من قطعة القماش».

استغرق جميعهم في التفكير، بعد أن عادوا إلى حجرة الطعام، وحاول نيال مرة أخرى التغلب على إحساسه بالاكتئاب والخوف.

عاد أوليس، وقال: يبلغكم كوزمن أن المناطيد ستكون مُعدة في غضون نصف ساعة.

لاحظ نيال علامات الانفعال على وجهه مع اقتراب ساعة العمل. وعندما لم يرد أحد عليه، تطلع في الوجوه من حوله، وقال: هل حدث شيء؟.

وصف له نيال ما جرى، فتلاشى انفعاله، وظهرت علامات التفكير على وجهه، ثم قال: يبدو أن سيد العناكب مصمم على قتلك.

هز نيال رأسه، وقال: لا أظن ذلك. فإذا ما قتلني الآن، فإنه سيقوض مفاوضات السلام. وهذا آخر شيء يريده.

أومأ سيميون، وقال: أتفق مع ما قال نيال، وأحسب ما حدث مجرد انذار، بأنه لو لم نقم سلاماً، فباستطاعته القضاء علينا جميعاً.

قال دوجنز بهدوء: وإذا ما حققنا سلاماً معه، فسيظل قادراً على القضاء علينا جميعاً، ولكن دون أي عناء.

تساءل مانيثو بتردد: إنه ليس قرارنا بالتأكيد؟ إنه يتعين على السيد والمجلس اتخاذ قرار بشأن إقامة السلام.

أومأ دوجنز، وقال: وهذا هو السبب وراء ضرورة اتفاقنا عصر اليوم، قبل أن يتوصلوا إلى قرار.

بدا مانيثو زائغ البصر، وقال: ولكن ماذا عسانا نصنع؟

رد دوجنز: لنبحث في حقيقة الأمر. عندما حاول سيد الموت قتل نيال، رفض السيد إبرام اتفاقية سلام، وقال إن العناكب فقدت كل حق في إلزامنا بالتعاون معها. لذلك فإنني أعتقد أن من حقنا الافتراض بأنه لن يغير موقفه، ويسلم نيال إلى العناكب. لكنه وافق بالفعل على تسليم المناطيد، وهذا يشير إلى استعداده لقبول حل وسط. والسؤال الوحيد المعلق الآن هو: هل ستتضمن التسوية مطالبتنا بتدمير الأسلحة الحاصدة؟ إذا ما تضمنت ذلك، فسوف نعود إلى الوضع الذي كنا فيه من قبل ـ باستثناء أن سيد العناكب يعتبرنا الآن أعداءه. وأعرف، مثلما تعرفون، أن العناكب لا تغفر مطلقاً لأي شخص قتل واحداً من نوعها. ونحن مسؤولون معاً عن مقتل مئات العناكب، وبالتالي فإنني أعتقد أنه يجب علينا تنفيذ خطتنا، سواء توصل المجلس إلى سلام، أو لم يتوصل، فسيد العناكب سينتهز أية فرصة للانتقام.

قال سيميون: إذن أتقترح مهاجمة العناكب الآن ـ حتى إذا كانت تسعى لإقامة سلام؟

أومأ دوجنز، وقال: أقترح أن نحاول القضاء على سيد العناكب، قبل أن تتاح له فرصة القضاء علينا.

قطّب سيميون، فكاد حاجباه الكثيفان أن يغطيا عينيه، وقال: هل نحن موقنون أنه يريد القضاء علينا؟

ثم وجه حديثه إلى نيال، وسأله: أنت أكثرنا تعرضاً للخطر. ماذا تعتقد؟

ـ دأبت الأميرة ميرلـو على السعي لإقنـاعي بأن سيـد العناكب يـريد السـلام، وينبغي الاعتراف بأنها قد نجحت في ذلك إلى حد كبير.

قاطعه دوجنز، قائلاً: إنها مدفوعة لإقناعك. وهذا هو ما طلبه منها سيد العناكب.

بذل جهداً واضحاً لاستعادة رباطة جأشه، واستطرد: إنها تريد السلام بطبيعة الحال. وأسهل طريقة لتحقيقه هو قتل كـل أعدائهـا. وأحسب أن سيد العنـاكب لا يتحمل وجـود خونة، وبالتالي يجب التحرك، قبل أن تتاح له فرصة القضاء علينا.

بدت علامات الاستياء واضحة على وجه سيميون، فعبس، وهز رأسه، ثم قال: تشير إلى أن سيد العناكب لا يتحمـل وجود خـونة. ولكن أهـذا صحيح؟ لقـد استمرت معـاهدة السـلام ثلاثـمائة عـام حتى الآن، ولم تحدث، طـوال هذه الفـترة، أية خيـانـة بـين العنـاكب والخنـافس. وأنت تعرف معـاهـدة السـلام مثلما أعـرفهـا، وتضم مئـة وثمـاني عشرة مـادة. وعندما وضع الأعداء القدامى معاهـدة مطولـة مثل هـذه، ما كـانوا عـلى استعداد لانتهـاكها بسهولة.

أومأ دوجنز، وقال: ما تقـوله صحيـح، وأحفظ معظم مـواد المعاهـدة عن ظهر قلب. لكنها أبرمت منذ ثلاثة قرون، وقد تغيرت أمور عديدة من ذلك الوقت. تدرك العناكب جيداً أن البشر هم أخطر أعدائها. وهذا هو ما دفعها إلى استعبادنا وتحويلنا إلى ماشيـة. واضطرت إلى منحنا درجة من الحرية، ومـع ذلك فـإن المعاهـدة تحظر علينـا تعلم القراءة والكتـابة، أو استخدام أية آلة، حتى لو كانت مصباح ضغط.

نقر على الطاولة ببراجمه، وقال: لماذا كنت، في اعتقادك، متعطشاً للعثور على الأسلحة الحاصدة؟ لم يكن ذلك لمهاجمة العناكب، ولكن لإجبارها على الدخول في مفاوضات معنا. ما أريده هو أن أكون حراً في استخـدام عقلي دون الحصـول على تصريـح من العناكب. وهـذا بـالتأكيـد من حق كل إنسـان. والآن، فإننـا نمتلك الأسلحة الحـاصـدة، الأمـر الـذي يعني امتلاكنا للوسيلة، التي نطالب بها بحق التفكير لأنفسنا. وتعرف العناكب أننا مصممون عـلى نيل حريتنا بأي ثمن ـ وسوف ننجح ـ إن عاجلاً أو آجـلاً. وهي تدرك أنها فقـدت سيطرتهـا علينا في نهاية المطاف.

التفت إلى سيميون، وقال: لهذه الأسباب تهعى إلى قتلنـا، بمجرد أن تحـين الفرصـة. ولهذه الأسباب أيضاً لا نستطيع الثقة بها.

كان دوجنز يتحدث بثقة وهدوء، مما أثار جواً من الاقتناع بين الحاضرين، ولاحظ نيال

أنه يستخدم، دون أن يعي، قوة مرآة التأمل، مما أضفى على حججه التي ساقها، مزيداً من الاقناع.

مع ذلك بدا واضحاً، من تكشيرة سيميون، أنه لم يقتنع، وقال: إذن يجب أن ترتبط، في تلك الحالة، بمعاهدة أقوى. ويجب عليها أن تقسم بأنها لن تحاول انتهاكها.

هز دوجنز رأسه، وقال: لا أعتقد أن مثل هذا القسم قائم.

قال سيميون: إذن أنت مخطىء. فقد قضى «بانديون» شقيق زوجتي حياته يدرس العناكب ـ حيث عمل مساعداً لمدير الميناء بسنوات عديدة، وكان يحتك بها يومياً. وقد أكد لي أنها تؤمن بآلهتها، مثلما نؤمن نحن بآلهتنا. وقص عليّ حادثة جن فيها جنون عنكبوت ذئبيّ، بعد أن التهم ذبابة سامة، فقتل أربعة بحّارة. ونجح الباقون في احتجازه داخل مخزن السفينة، ولكن عندما وصلوا إلى الميناء، لم يجرؤ أحد على إطلاق سراحه. ذهب بانديون، وتحدث إليه، فوجده قد جن من الألم، وبات على حافة الموت. لكنه وعده بأن يطلق سراحه إذا أقسم بـ «إبليس» إله الظلام، و«نوادا» إلهة الدلتا. ورغم أن العنكبوت كان يعاني سكرات الموت، إلا أنه التزم بوعده، ولم يهاجم أحداً. ومات، وهو يتشنج، بعد ساعات قليلة. وهذا يثبت أن العنكبوت يمكن أن يلتزم بالعهد الذي يقطعه على نفسه.

قال دوججنز: نعم، يمكن أن يلتزم عنكبوت ذئبي عادي بعهده. لكن أتحسب أن سيد العناكب يمكن أن يلتزم بمثل هذه الخرافات؟

ـ نعم. لأنها لا تعتقد أنها خرافات.

هز دوجنز كتفيه، وقال: الأمر الذي يعني عدم وجود ضمان بأن سيد العناكب يمكن أن يلتزم بأي عهد يقطعه على نفسه. أخشى أن نستمر في مثل هذا الجدل بقية اليوم، دون التوصل لأي شيء، بينما يجب علينا التوصل لقرار.

تبادل النظرات مع الآخرين، وقال: ما رأي الآخرين في ذلك؟

ساد صمت، كسره نيال سائلاً سيميون: تقول إن هناك آلهة للدلتا، أتعني الدلتا الكبرى؟

ـ نعم. فالدلتا من أماكنها المقدسة.

أثارت الكلمات قشعريرة في فروة رأس نيال، فسأله: أتعرف سبب ذلك؟

رأى بزاوية عينيه إيماءة من دوجنز، تدل على نفاد صبره، فتجاهلها.

قال سيميون: ربما لأن الدلتا نابضة بالحياة. كما تُعرف نوادا بنهر الحياة.

انتاب نيال، مرة أخرى شعور، كما لو أن ماءً بارداً يتدفق فوق جلده.

ـ نهر الحياة أم واهبة الحياة؟

ـ نهر الحياة.

التفت نيال إلى دوجنز، وهو يحاول السيطرة على انفعاله، حتى لا ينعكس على صوته، وقال: ألا ترى؟ إن الدلتا هي محور القوة.

قال دوجنز: ما الذي يجعلك تظن ذلك؟

ـ أتذكر ما قلته بأن القوة مثل مويجات فوق صفحة بركة ماء؟ إذا كان هذا صحيحاً، فلا بد وأن يكون للمويجات مركز. ويتعين أن يكون هذا المركز في الدلتا.

التفت إلى سيميون، وقال: لقد كنت هناك. ألم تشعر بقوة ما تنبع من تحت الأرض؟

قطب سيميون، وهز رأسه، وقال: لم أشعر بأي شيء، وَلا أظن أنني أتمتع بحساسية تجاه مثل هذه الأمور، على عكس زوجتي، التي دائماً ما تقول لي إن هناك ذبذبة تصدر من تحت الأرض في الدلتا.

بدا أن هذا الاعتراف قد أثار ارتباكه، فقال: لقد حسبت أنها تتخيل حدوث أشياء.

ـ ولِمَ؟

ابتسم سيميون وراح يتذكر، قائلاً: من السهل أن تترك لخيالك العنان في الدلتا. إنها تجعلني أفكر دوماً في قطعة جبن عطنة ممتلئة بالديدان. وينتابك شعور بأنك مُراقب طوال الوقت. فالسرطانات العنكبوتية تتبعك، واليعاسيب الضخمة تتفقدك. بل لقد اعتراني شعور بأن هناك نوعاً من التواجد. . .

ـ إذن لماذا لا تصدق ما قالته لك بشأن الذبذبة؟

قطب، وسرح بفكره، ثم قال: أميل إلى الدليل القوي. أتذكر حادثة غريبة. . . كنا قد وصلنا لتونا إلى الدلتا عصر أحد الأيام ـ لجمع عصير الأوريتس ـ عندما هبت عاصفة رعديّة عاتية، وخشينا أن تطيح بنا. وحين اقتربت من رؤوسنا، لمع وميض برق هائل، وسمعت أعلى صوت لقصف رعد حتى الآن. ثم انتاب كلينا ذلك الشعور الغريب بأن شيئاً قد حدث. لا أستطيع أن أوضحه سوى بالقول إن شعورنا تجاه كل شيء تغير. فقد اختفى الإحساس بأننا مراقبان، وعندما انتهت العاصفة، أخذت كل الحشرات تتخبط، وكأنها تعرضت لصدمة، وكذلك كل النباتات. شاهدنا يعسوباً يتخبط في نبات خناق الذباب، وتوقعنا أن يمتصه، لكن النبات أخذ يخنقه ببطء شديد، فتمكن من الهرب.

سأله دوجنز: ما سبب ذلك في اعتقادك؟

ـ أظن أن الأمر له علاقة بالبرق، لكنه لا يؤثر على كل النباتات والحشرات. فقد استمر عدة ساعات، وحصلنا على عصير الأوريتس، دون أي عناء ـ بل أن النبات لم يحاول تحذيرها، ولم يهاجمنا أي كائن، رغم أن «فالدا» تعثرت في عقرب. وعادت الأمور، في اليوم التالي، إلى وضعها الطبيعي، وعاد إلينا الشعور بأننا مراقبان.

أومأ مانيثو، وقال: شعرت بالشيء ذاته، عندما هبطنا فوق أرض الدلتا من أجل الحصول على الماء، وأحسسنا بأننا مراقبون. وكلما تذكرت ذلك، أشعر بالوخز في مؤخرة عنقي.

سأله نيال: هل لاحظت هذه الذبذبة الجوفية؟

استغرق مانيثو في التفكير، وقطب ثم قال: نعم، أظن ذلك، رغم أنني لم أفكر فيها سوى الآن فقط.

سأل دوجنز سيميون هل تحدثت إلى أي شخص عن هذه التجربة التي خضتها في الدلتا؟

ولما هز رأسه نافياً قال له: ولِمَ لا؟

قال سيميون: لم يبد لي الأمر بهذا القدر من الأهمية. فالدلتا مكان غريب، يمكن أن يحدث فيه أي شيء.

تطلع دوجنز إليه بدهشة، وقال: أرى أنها مسألة هامة.

تجاهل سيميون الانتقاد الضمني في عبارة دوجنز، وقال: إحدى قواعد العلم الأولية تدعو إلى عدم بناء أية نظرية على دليل غير كاف.

قال دوجنز: لكنك قلت لي صباح اليوم إن النباتات الأفعوانية تنمو بشكل أكبر في الدلتا. ألا تظن أن ذلك بمثابة دليل قوي؟

ـ دليل على أي شيء؟ يمكن أن يرجع ذلك إلى التربة، أو الحرارة، أو الرطوبة، أو كل هذه الأشياء مجتمعة. ومع ذلك فعليّ أن اعترف بأن القوة الجوفية، التي تتحدث عنها، يمكن أن توضح الكثير من الأمور المحيرة.

قال نيال: بإمكان القوة التي تجعل النباتات تنمو بشكل أكبر، أن تجعل الحشرات تنمو بشكل أكبر.

هز سيميون رأسه، وقال: ليس للحشرات جذور.

ـ وكيف لك أن تعرف أن الجذور ضرورية؟ فالفطريات الرخوة ليس لها أي جذور.

تطلع سيميون إليه ببلاهة، وقال: الفطريات الرخوة؟

قال دوجنز: أتعرف أنه عندما تموت العناكب، تتحول إلى فطريات رخوة؟

ألقى سيميون عليه نظرة متشككة، وقال: ما هذا الذي تقوله، قصة خيالية؟

ـ لا. إنها حدثت في الواقع. إذا كنت لا تصدق ما أقول، فاذهب لترى بنفسك العناكب النافقة بالقرب من المحجر!

أخذ سيميون يفكر فيما قاله دوجنز، ثم قال: من المحتمل جداً حدوث ذلك، فالفطريات الرخوة تهاجم العناكب عندما تموت.

رد دوجنز بانفعال قائلاً: لا. إن العناكب تتحول إلى فطريات. لقد راقبناها عصر اليوم.

مد نيال يده داخل ردائه، وهم يتبادلون الحديث، وقلب مرآة التأمل، فشعر في الحال بالهدوء والسكينة، واختفى فجأة انفعاله الذي كاد أن يسبب له ألماً، وحل مكانه إحساس جديد بضبط النفس.

التفت إلى سيميون، وقال: ألا تدرك معنى هذا؟ لقد قلت منذ أيام إنك لا تستطيع أن تصدق أن العناكب كانت من قبل كائنات صغيرة. وهذا يوضح الأمر. فالقوة التي جعلت نباتات الدلتا تنمو بشكل أكبر، أثرت أيضاً على العناكب. وهذا هو السبب الذي يجعل العناكب تقدس الدلتا. وهو أيضاً السبب الذي يجعلها تطلق على الدلتا إلهة نهر الحياة. إنها نهر الحياة، والنمو.

ـ إذن لماذا لم تحول البشر إلى عمالقة؟

ـ أعتقد أنني أعرف الإجابة على هذا السؤال. لأننا لا نستطيع التقاط الذبذبة. لقد افتقدنا التعامل مع قدراتنا الطبيعية، وبالغنا في استخدام عقولنا.

سأله ميلو: ومن أين تأتي هذه القوة، على ما تعتقد؟

ـ لا أدري. ربما تكون موجودة على الأرض بصفة دائمة، وربما تكون القوة التي تجعل كل الكائنات الحية تنمو، ولكنها تتركز بشكل أقوى في منطقة الدلتا.

ابتسم أوليس، وقال: وربما تكون ممتطية ذيل المذنّب.

تجاهل سيميون ما قاله أوليس، وسأل نيال: إذا كانت العناكب قد نمت في الفترة الأخيرة، فما هو السبب الذي جعل قوة ارادتها أقوى من قوتنا بكثير؟

ـ أعتقد أن ذلك يرجع إلى إدراك العناكب الدائم لقوة الإرادة؛ فقد قضت حياتها قابعة في نسيجها، مترقبة سقوط الحشرات في النسيج. وعندما تقترب حشرة، تحاول أن تأمرها بالدخول في النسيج. ولم يكن البشر في حاجة مطلقاً لذلك النوع من الإرادة. لقد تعلمنا استخدام عقولنا وأيدينا. واسمحوا لي أن أكشف لكم عن شيء آخر، سيؤدي إلى هزيمة العناكب على يد البشر في النهاية. فالعناكب لا تتمتع بملكة الخيال، التي بدونها تصبح قوة الإرادة عديمة الجدوى. وذلك لأن الخيال هو وحده القادر على تحديد ما نريده. فما الذي تفعله العناكب بقوة ارادتها؟ تقبع في نسيجها طوال اليوم. بل إنها لم تشيد لنفسها مدينة، فقد قطنت مدينة قديمة، كان يسكنها البشر من قبل. ويبدو أن هدفها الرئيسي هو استعباد البشر، والحيلولة دون استخدامنا لقدراتنا على نحو صحيح. كما أنها غير مؤهلة لتكون سادة الأرض. وهذا هو السبب الذي يدعونا إلى قتالها.

أومأ دوجنز موافقاً، وقال: أحسنت القول.

سأل سيميون نيال: أتظن أن هذه القوة تتمتع بالذكاء؟

ـ ليس بالمعنى الذي نعرفه. فعلى حد علمي، أعتقد أن غرضها الوحيد هو أن تمد في حياة الكائنات، وذلك من خلال جعلها تصارع من أجل البقاء. وهذه هي المشكلة الأساسية بالنسبة للكائنات الحية ـ فهي تصل إلى نقطة إحباط معينة، ثم تستسلم. وهذه القوة تمنعها من الاستسلام بسهولة. . .

قال ميلو: إذن فهي العدو الحقيقي للجنس البشري؟

أثار التعليق حيرة نيال، فقال: العدو؟

ـ نعم. إذا كانت تساعد أشكال الحياة الأقل ذكاءً على مواجهة الأشكال الأكثر ذكاء. . .

هز نيال رأسه، وقد انتابته الشكوك.

قال دوجنز إلى الأمام، وقال: بمعنى آخر، إذاً أردنا القضاء على العناكب، فيتعين علينا القضاء على هذه القوة.

نظر نيال إليه بدهشة، وقال: القضاء عليها؟ لا أظن أن باستطاعتك تدمير قوة.

قال سيميون: ولم لا؟ إذا كان بمقدور البرق شل نشاطها، فبإمكان الحاصد تدميرها.

انفعل دوجنز بشكل مفاجىء، وقال: هذا صحيح. إذا كان مركز القوة موجوداً في الدلتا، فينبغي علينا تحديد موقعه.

سأل نيال: ولكن كيف؟ يمكن أن يكون في أي مكان.

ابتسم سيميون، وقال: أعتقد أن باستطاعتي الإجابة على هذا السؤال. التفت الجميع إليه، فاستطرد قائلاً: لم أنته بعد من قصتي عن الدلتا. بعد أيام من عودتنا، تحدثت مع قائدة مسؤولة عن فرقة عبيد. قالت لي امراً غريباً - أن عنكبوتاً سقط من نسيجه خارج مركز الضباط، وقُتل. تعرفون أن هذا أمرٌ غير مرجّح. ولما قلّبت الأمر مع «فالدا» على وجوهه المختلفة، رأينا أنه لا بد وأن يكون ذلك قد حدث في الوقت ذاته الذي حدثت فيه العاصفة في الدلتا.

سأله دوجنز: متى حدثت العاصفة؟

- قبل ساعتين من حلول الظلام، بأحد أيام الصيف.

أومأ سيميون قائلاً: أي في الوقت الذي كان كل البشر قد آبوا إلى أحيائهم. وبالتالي فإن تأثيرها وقع على كل العناكب.

- هذا صحيح.

ران صمت، وراحوا يستوعبون معنى هذا التفسير.

قال دوجنز في النهاية: «أظن أننا قد توصلنا إلى الحل»، ونظر إلى نيال قائلاً: ألا تعتقد ذلك؟

هز نيال رأسه، وأحس بشيء ما في تصرف دوجنز، أثار قلقه.

- ولكن ما الطريقة التي يمكن أن نعثر بها على المركز؟

- لسنا مضطرين لذلك. لقد رأيت مدى قوة الحاصد، وبمقدورنا تدمير الدلتا بأسرها في غضون نصف ساعة.

قال سيميون: قد لا يتطلب الأمر ذلك. فالعاصفة كانت فوق الرؤوس مباشرة، عندما حدث وميض البرق. وهذا يعني أن المركز لا بد وأن يكون قد أنسدّ تماماً.

- أتستطيع وصف المكان الذي كنت فيه بالتحديد؟

- بإمكاني رسم خريطة للمكان.

اتجه دوجنز نحو خزانة، وعاد ومعه قطعة من الفحم النباتي. أشار إلى غطاء الطاولة الأبيض، وقال: ارسم على هذا!

رسم سيميون خطين، التقيا من أسفل، ليشكلا رقم سبعة. وقال: «هذه هي نقطة

التقاء النهرين العظيمين، اللذين ينبعان من الجنوب. وتنتشر مياههما في المنطقة الواقعة بينهما - وهي عبارة عن مستنقعات وغابات، كما تعلمون. كما توجد الغابة هنا حول جانبي حوض النهرين. وتنمو أفضل نباتات «الأوريتس» هنا، على حافة الغابة والمستنقعات، إلى الخلف من هنا». وأشار إلى منطقة جنوب نقطة الالتقاء، وقال: «يكاد يكون من المستحيل اختراق الغابة. وكنا في هذا المكان بالتحديد». ووضع علامة عند منطقة تقع إلى الجنوب من نقطة التقاء النهرين، وأضاف: «وأعتقد أن مركز القوة يوجد في مكان ما بالغابة.

وقف دوجنز خلف سيميون، محدقاً في الخريطة، ثم قال: يتعين علينا عبور أحد النهرين، من أجل الوصول إلى الغابة.

- نعم، وهي عملية محفوفة بالمخاطر. فهناك عناكب مياه عملاقة، تصل في ضخامتها إلى حجم الأخطبوط، تختبىء تحت سطح الماء.

قطب دوجنز، وقال: لم أكن أعرف أن هناك عناكب في الدلتا.

- لا تقارن بعناكب الموت. فهي، على حد علمي، ليست بالقدر ذاته من الذكاء، ولا تمتلك قوة الإرادة نفسها.

نظر إلى نيال، واستطرد: وهو ما يؤكد نظريتك بشأن العناكب. فعناكب المياه تصطاد فريستها، مثل التماسيح. وبالتالي فإنها لم تحاول تطوير قوة إرادتها. لكن لها فكوكاً مثل الشَرَك.

قال مانيثو: كما يتعيَّن اتخاذ الحيطة من شيء آخر، وهو العلقة الحمراء. لقد خاض أحد رجالي في المياه، محاولاً اصطياد قريدس ضخم. هرع عائداً بعد بضع دقائق، وقد اكتست ساقاه بهذه الأشياء الحمراء الهائلة، التي تماثل اليرقات اللامعة الكبيرة. لم نستطع تخليصه منها، ولكن لحسن الحظ تفتق ذهن أحد أفراد المجموعة عن فكرة إشعال نار. فجلبنا الخشب الطافي فوق سطح الماء، وأشعلنا فيه النار. تساقطت اليرقات بمجرد أن لمسها اللهب. لكنها كانت قد أحدثت فجوات عميقة في لحم الساق، وصلت في عمقها إلى العظم. ولقي الرجل حتفه ونحن في طريق العودة.

نظر ميلو إلى سيميون بدهشة، وقال: هل ذهبت إلى هذا المكان لمجرد جمع الدواء؟

- إنه دواء قوي للغاية. بإمكانك أن تجمع في يوم ما يكفي لعلاج كل سكان هذه المدينة لمدة عام. وبالإضافة إلى ذلك، فإننا لم نغامر بالدخول إلى المنطقة الخطرة، فنبات «الأورتيس» ينمو على حافة الغابة، ولا أتصور أن أحداً يمكن أن يدخل هذا المكان، ويبقى على قيد الحياة لأكثر من بضع ساعات.

وأشار بإصبعه إلى المنطقة الواقعة بين النهرين.

قال دوجينز: لسنا مضطرين للدخول في هذه المنطقة، بل إننا سنطير فوقها على متن منطاد ـ أليس كذلك؟

رد سيميون قائلاً: ليس هناك ما يمنعنا من ذلك، بشرط أن تهب الريح في الاتجاه الصحيح.

أخذ الجميع ينظرون إلى الخطوط المرسومة بالفحم فوق مفرش الطاولة، كما لو أنهم يستشفون منها المزيد من المعلومات.

سأل دوجنز نيال: ماذا يعني هذا الشيء في نظرك، شجرة عملاقة أم نباتاً؟
ـ ربما لا يعني شيئاً على الإطلاق. وقد يكون مجرد تركيز للقوة.

قال دوجنز: لا يهم شكله، فالأسلحة الحاصدة سوف تتعامل معه.

انفتح الباب، ودخل أصغر أبناء دوجنز، وهو صبي في الخامسة من عمره. قال بصوت واضح: يوجد خنفساء عند الباب، ويقول إنه يريد التحدث معك.
ـ شكراً يا بُني.

ربت دوجنز على رأس الصبي، وهو يغادر الحجرة، فتأثر نيال من هذه الرقة الأبوية، التي تعكسها الإيماءة.

عاد دوجنز بعد لحظة، وأومأ إلى نيال قائلاً: يريد السيد رؤيتنا، ومن الأفضل أن ينتظر الباقون هنا.

كان الجو قد سكن في الخارج، كما لو أن حر النهار قد استنزفه. تناهت إلى مسامعهما صيحات الصبية من بعيد. بدت، في هذا الجو المسالم، أفكار الموت والدمار خيالية على نحو غريب.

لم ينبس كلاهما ببنت شفة، وهما يسيران خلف الحارس، عائدين إلى مبنى البلدية، ومنه إلى الممر الكائن تحت الأرض. فهم نيال، وهو يمشي بحذر فوق الأرض غير المستوية، ويعتمد على الجدران الخشنة الملمس، ليشق طريقه وسط الضوء الخافت، السبب وراء ترك الخنافس لهذا الجزء من المبنى غير مكتمل. فهي تكره عالم البشر، الذي يمتاز بالسطوح الملساء المسطحة، وبالزوايا الدقيقة، وتحلم بالعصور السابقة، التي كانت فيها الحياة بسيطة وطبيعية.

توقّف الحارس، وفتح باب حجرة المجلس التي بدت مثل مغارة تحت البحر، نتيجة للضوء الأخضر الخافت، الذي لفها. رأى نيال الخنافس جاثمة، وميرلو جالسة في فجوة

بالجدار، وبدا شعرها متوهجاً في الضوء الخافت، كأنه معدن نفيس. وقف عنكبوت موت أسود، أمام كرسي السيد. التفت لتفقد نيال ودوجنز، وشعر نيال بقوة إرادته تمشطه، فاقشعر، مما جعل شعر ذراعيه يقب. انحنى دوجنز أمام السيد، ففعل نيال الشيء ذاته.

تحدث السيد بصوته الغريب، الذي يشبه الصفير، ولم يحرك قائمتيه الأماميتين. ودهش نيال مرة أخرى لأنه يفهم صوته، وكأنه يتحدث بلغته.

ـ طلبنا منك العودة، لنعرف ما إذا كنت قد توصلت لقرار بشأن أسلحة القتل؟ (لم تكن هناك في لغة الخنافس كلمة تعادل الحاصد).

قال دوجنز: قرارنا هو ما يوصي به المجلس.

لم يحاول التهرب من الإجابة، ففي ظل هذا الجو، وأمام مجلس الخنافس، ونظرات السيد، لم تكن هناك أية إجابة أخرى غير ما قاله. كما أحس نيال كصبي لا حول له ولا قوة في حضور السيد رغم وجود مرآة التأمل معه.

قال السيد: أحسنت. إذن لتستمع إلى قرار المجلس. لقد قررنا، إلى حين استكمال معاهدة السلام، عدم تدمير أسلحة القتل. ولكن سيتم التحفظ عليها في مكان أمين تحت إشراف الخنافس. ولن يسمح لأي إنسان بالوصول إليها، دون الحصول على تصريح من أحد أعضاء المجلس. لقد توصلنا إلى هذا القرار آخذين في الاعتبار القلق الذي أبديته إزاء التفوق العددي للعناكب، وهو قلق لا نشارك فيه ـ فالخنافس تثق ثقة مطلقة بحلفائها العناكب. لكننا نرغب أيضاً في أخذ اعتراضات خدمنا من البشر بعين الاعتبار. وإلى أن تستكمل معاهدة السلام، فإن العلاقات بين العناكب والخنافس ستعود إلى وضعها الطبيعي، كما نصت بنود معاهدة السلام الأولى. أما فيما يخص خدمنا البشر، فإن البنود الخاصة بحظر امتلاكهم للكتب سوف تلغى. وقد اقترح هذا التغيير سيد العناكب، الذي عرض أيضاً تعديل البند الخاص باستخدام الآلات، بما يسمح باستخدام أدوات ميكانيكية بسيطة. لقد أعربت بالفعل عن امتناني، نيابة عنك، لكرمه الذي أبداه. ، وسيتم تحديد طبيعة هذه الأدوات الميكانيكية، من خلال لجنة مشتركة، تضم كل الأطراف المعنية. أما المسألة الوحيدة، التي تظل معلقة فهي خاصة بمصير السجين الهارب نيال. لقد وافقت العناكب على عدم اعتباره سجيناً، وسوف يكون له مطلق الحرية في تقرير مستقبله. وأعربت عن استعدادي للسماح له بالبقاء هنا، كخادم للخنافس.

رفع نيال رأسه، وأومأ معرباً عن امتنانه، فاستطرد السيد قائلاً: لكن العناكب وجهت إليه الدعوة أيضاً للعودة إلى مدينتها، ويكون زوجاً للمشرفة الجديدة. ألقى نظرة عجلى على

ميرلو، التي كانت تحدق في الأرض، وقد بدا أنها لم تفهم كل هذه الجلبة الغريبة.

مضى السيد قائلاً: فإذا ما قرر الموافقة على هذا العرض، فسوف يتم ضمان سلامته، من خلال إصدار ملحق منفصل لمعاهدة السلام. أما إذا رغب في الرحيل في أي وقت، فإننا سنضمن أيضاً حريته.

قال نيال: «أشكرك». وتطلعت ميرلو إليه، وابتسمت.

نظر السيد إلى دوجنز، وقال: هل لديك أية تعقيبات أو أسئلة؟
- لا، أيها السيد.
- حسن جداً. سيجتمع صباح غد ثلاثة أعضاء من المجلس، وثلاثة سفراء من مدينة العناكب، لبحث الصيغة التي ستكون عليها معاهدة السلام. وإذا كنت ترغب في الحضور، فإننا نسمح لك بذلك.

انحنى دوجنز شاكراً، وفعل نيال الشيء ذاته. أدرك من خلال تصرفات السيد بأن المقابلة قد وصلت إلى نهايتها. انحنى كلاهما إجلالاً، واستدارا. راقبهما عنكبوت الموت بسلبية، وهما يغادران الحجرة، وأحس بمحاولة غير بارعة لسبر أغوار ذهنه. أصبحا بمفردهما، بعد لحظة، في الممشى.

سارا عائدين إلى القاعة الرئيسية، دون أن ينبسا ببنت شفة، فقد انشغل كلاهما بأفكاره. كانت القاعة خالية، وقد حل وقت الغسق، وخف النشاط بالخارج. أشار دوجنز إلى يافطة فوق الباب كُتب عليها «مدير المتفجرات»، وقال «هلم ندخل إلى مكتبي!».

كاد الظلام يلف الحجرة، وشاهدا من خلال النافذة ما تبقى من أشعة الشمس الغاربة، فوق أسطح المنازل. ألقى دوجنز بنفسه فوق المقعد خلف مكتبه، وطلب من نيال أن يجلس فوق مقعد آخر. جلس دوجنز مقطباً أمام مكتبه، وأخذ يطقطق بلسانه، فسأله نيال: «هل أنت راضٍ؟».

بدا دوجنز كمن يستيقظ من نوم، وقال: ماذا؟ راضٍ!
- لقد منحتك ما تريده - السماح بالقراءة والكتابة، وباستخدام الآلات.
- ذلك ليس تنازلاً. فكل خدم الخنافس يعرفون القراءة والكتابة. وهي لم تقل إن بإمكاننا استخدام الآلات، بل أشارت إلى أدوات ميكانيكية معينة. ومن المرجح أنها تعني الساعات الميقاتية للبيض، وموازين المطبخ، ونحن نستخدمها بالفعل، بدون الحصول على تصريح من العناكب.
- لكنها وافقت على عدم تدمير الأسلحة الحاصدة.

هز دوجنز كتفيه، وقال: يظل الأمر سيئاً. فإذا ما سلمنا الأسلحة الحاصدة للخنافس، فلن نراها مرة أخرى.

ـ لكنك ستتأكد على الأقل أن العناكب لن تجرؤ على شن هجوم مفاجىء.

أومأ دوجنز، موافقاً على كلامه، وقال: هذا صحيح. ولكن إذا ما تخلّينا عن الأسلحة الحاصدة، فسوف نفقد قدرتنا على المساومة، وسنعود إلى ما كنا عليه من قبل.

ـ ليس تماماً. فإذا كان مسموحاً لك بقراءة الكتب، فبمقدورك تعلم كيفية صنع الآلات على الورق. ولن تتمكن من منعك، بل سيكون بمقدورك تعلّم كيفية صنع حاصد.

ـ مستحيل. إننا نحتاج، حتى نتوصل إلى ذلك، إلى معرفة التكنولوجيا النووية برمتها. وستبذل العناكب قصارى جهدها لعدم تمكيننا من ذلك.

ثم هز كتفيه، وقال: أرى من الأفضل أن نعود إلى الآخرين، ونقص عليهم ما حدث.

هم بالوقوف، لكنه عاد إلى الجلوس مرة أخرى، وقال: ولكن ماذا عنك؟ ما الذي ستفعله؟

ـ لا أدري.

ـ لِمَ لا تقبل عرض العناكب؟ لن تتعرض لأي ضرر إذا ضمنت ذلك معاهدة السلام. وبإمكانك الرحيل في أي وقت، إن لم يعجبك عرضها.

هز نيال رأسه، وقال: لا. لا أستطيع قبول عرضها. لقد عرض عليّ كازاك الشيء ذاته، وقد رفضته.

لم يفهم دوجنز ذو الطبيعة العملية سبب رفض نيال، فقال له: ولكن لِمَ؟

ـ لن تفهم لأنك لم تقطن مطلقاً في الصحراء. ولكن لو أنك قضيت حياتك مختبئاً تحت الأرض، فسوف تفهم السبب. لا أريد إقامة علاقات صداقة مع العناكب، بل لا أريد أن أتعلم العمل معها.

ـ إذن ما الذي تريده؟

ـ أريد القضاء عليها.

ـ قد لا يكون ذلك ممكناً.

ـ ربما تكون على صواب. ولكن كل ما أعرفه هو أن البشر كانوا ذات يوم سادة الأرض، والآن فإن العناكب هي السادة.

ـ وكذلك الخنافس.

ـ نعم والخنافس أيضاً.

ـ إذن ستقيم معنا هنا.

هز نيال رأسه، وقال: حتى هذا لا أستطيع تحمله.

أحس بعلامات السخط في صوت دوجنز: وهو يقول: ولم لا؟

ـ لأنني اعتزم مواصلة العمل ضد العناكب، وإذا ما فعلت ذلك؟ فإنني سأنتهك الوعد، الذي قطعته أمام الخنافس.

ـ إذن ماذا ستفعل؟

فكر نيال ملياً، ثم قال: سأعود إلى الصحراء.

ـ وماذا تفعل هناك؟

ـ لا أعرف. قد أبحث عن بشر آخرين مثلي ـ بشر يكرهون العناكب ويرغبون في القضاء عليها. لا بد وأن هناك ترسانات أخرى تحت الأرض، مثل تلك التي توجد في مدينة العناكب، وقد نعثر فيها على أسلحة حاصدة أخرى.

هز دوجنز رأسه بعنف، وقال: هذا جنون!

نظر نيال إليه بدهشة، وتساءل: لِمَ؟

ـ لأنني أتفق معك في كل كلمة قلتها. فأنا أريد القضاء على العناكب، وكذلك الآخرون: ميلو، أوليس، ومانيثو، وغيرهم. ولا يرغب أحد منا في العمل معّها.

ـ والمعاهدة؟

دمدم دوجنز، وقال: إنها لم تُوقع بعد.

ـ إذن ماذا عسانا نصنع، من وجهة نظرك؟

التفت دوجنز إلى النافذة، وقال: أول ما يتعين علينا القيام به هو... ثم توقف عن الكلام، وتصلب جسمه. تطلع نيال إليه، متسائلاً عن سبب رد فعله. كان الظلام قد أرخى سدله، ولم يتمكن من رؤية شيء سوى السماء البرتقالية القاتمة، والسحب الدخانية المتصاعدة. أشار دوجنز بإصبعه، وقال بصوت متوتر: ذلك يجيب على سؤالك.

ـ لا أفهم.

أمسك بذراع نيال، وقال: الريح تغير اتجاهها. هلم بنا إلى الخارج!

غرقت القاعة في الظلام، فاضطرّ لتحسّس طريقهما عبرها. كانت الأبواب الخشبية الكبيرة قد أغلقت، فغادرا المبنى من باب جانبي. طيّرت الريح أطراف ثيابهما بمجرّد خروجهما، وهبوطهما الدرج.

بلل دوجنز سبابته بفمه، ورفعه لأعلى، ثم قال: «إنها ريح شمالية غربية» والتفت إلى نيال، وأضاف، وقد لمعت عيناه بتعبير غريب، وهو خليط من الانفعال، وشيء يماثل الخوف: «ألا تعتقد أن هذا بمثابة دلالة؟»

هرع أوليس باتجاههما، قبل أن يتمكن نيال من الإجابة. وضع دوجنز ذراعه حول كتفيه، وهمس قائلاً: أصغ إليّ الآن. أريدك أن تذهب وتنقل رسالة إلى كوزمن وهاستور، اطلب منهما إعداد المناطيد الثلاثة، وتجهيز طعام وشراب يكفي لستة أفراد. وقل لهما إننا سنكون بحاجة إلى الأسلحة الحاصدة!

التمعت عينا أوليس، وقال: متى تريد الرحيل؟

- بمجرد حلول الظلام.

- أليس من الأفضل الانتظار حتى بزوغ القمر؟

- كلا. لا نريد أن يرانا أحد.

انتاب نيال، وهما في طريقهما عائدان إلى بيت دوجنز، شعور بالخوف الممزوج بالانفعال، لكن شكوكه اختفت على الأقل، فقد أدرك أنه لم يعد أمامهم أي خيار.

الجزء الثاني

الدلتا

- ٤ -

تراجعت أضواء مدينة الخنافس بسرعة تحتهم، ولفّهم بعد لحظات ظلام دامس جعل نيال لا يستطيع رؤية بشرة يده البيضاء أمام عينيه. حدثت هزات عنيفة قليلة، خلال هذه المرحلة من الصعود، عندما أصبح الحبل المتصل بين المناطيد مشدوداً، إلا أنه بات بعد ذلك مرخياً، وتم الصعود في هدوء. توقف بعد خمس دقائق عصف الرياح، حيث لم تلتقِ عند هذا الارتفاع بأي شيء يعترضها، وبالتالي لم يكن لها أي صوت. ونظراً لأنهم كانوا يتحركون بسرعة، تعادل سرعة الهواء المتحرك، فإن الريح بدت هادئة، حتى كادت ألا تزيد عن مجرد نسيم عليل. انتابهم شعور غريب، وهم معلقون في الهواء، دون حراك، وسط ظلام مطبق، وقد أدركوا أنهم ابتعدوا عن الأرض لمئات الأقدام، ويطيرون بسرعة تزيد عن ثلاثين ميلاً في الساعة، وبهذه السرعة سيصلون إلى الدلتا في وقت يزيد قليلاً عن الأربع ساعات.

خف السواد بالتدريج، ليتحول إلى غسق رمادي، وتمكن نيال من رؤية مانيثو، وهو يقف في أقصى طرف المحمل التحتي، ناشراً ذراعيه ليمسك بدعائم المنطاد. حزر نيال أن عينيه بدأتا تتعودان على الظلام، لكنه أدرك، وسط دهشته، أن الضوء تسرب من الأفق الغربي، حيث عكست السحب، الوردية اللون، الشمس الغاربة. استغرق الأمر بضع لحظات، ليكتشف أن الارتفاع، الذي وصلوا إليه، سمح لهم بالرؤية عبر سطح الأرض المقوس لمسافة كبيرة. ساعده الضوء على رؤية المنطادين الآخرين، اللذين يطيران على ارتفاع مماثل لمنطاده. كان المنطاد، الذي يضم دوجنز وميلو، يبعد عنه لمسافة تقل عن خمسين متراً، ولذلك فإن الحبل، الذي يربطهما، تدلى على شكل قوس. أشار دوجنز، وصاح قائلاً شيئاً ما، لكن الريح حالت دون سماع صوته. اختفت الشمس مرة أخرى، بعد مضي عشر دقائق، ولفّهم من جديد ظلام دامس.

أحس بالأرض تحت قدميه صلبة، فقد تم وضع لوح خشبي دائري كبير في قاع المحمل التحتي. وفوق هذا اللوح، وُضع كيسان منتفخان من القماش، يحتويان على الطعام، وقد تم ربطهما في دعامات المنطاد حتى لا يسقطا. وضمّ نيال، بين قدميه، كيساً أصغر،

يحتوي على سلاحه الحاصد، وعدد من القنابل الحارقة. وانتشرت البطانيات فوق الأرضية الخشبية، وتم تثبيتها عند الأطراف، حتى لا تتحرك أو تطوى. وقد أظهر كوزمن وهاستور، اللذان أعدا معظم الأشياء، درجة ملحوظة من الرعاية، وبعد النظر. ولم تصدر منهما أية إشارة، تدل على الإحباط الشديد، الذي من المؤكد أنهما شعرا به عندما رحلوا بدونهما.

شعر نيال بالدفء، وهو يرتدي رداء من الفراء، منحته إياه حريم دوجنز، كسا جسمه حتى كاحليه، بينما انتعل حذاء عالي الرقبة، وهو نوع من النعال، لم يكن معتاداً عليه بالمرة، مصنوع من القماش، وله نعل من المطاط السميك، جعله يشعر في البداية بالسخونة وعدم الراحة، ولكنه امتن له، بعد نصف ساعة في المنطاد، فقد جعل الدفء يسري في جسمه، عند هذا الارتفاع، حيث اقتربت درجة الحرارة من الصفر.

أنار وميض ضوء مفاجىء، وجه مانيثو، الذي كان جالساً على الأرض، يشعل علبة القدح. أمسكت النار، بعد لحظات، برقاقات الخشب، التي استخدمها مانيثو في إشعال مصباح زيتي صغير، أخذ لهبه يتردد، بغير استقرار، لكنه راح يراجع من خلال البوصلة.

جثم نيال بجانبه، وقال: هل نسير في الطريق الصحيح؟

أومأ مانيثو بالإيجاب.

- متى سيرتفع القمر؟

أشار مانيثو إلى السماء، وقال: لن يرتفع، فهناك سحب ثقيلة.

تطلع نيال في الظلام، ورأى، بعد لحظة، عدداً قليلاً من النجوم، سرعان ما اختفت، فتساءل: ماذا عسانا نصنع؟

قال مانيثو باكتئاب: ليس أمامنا سوى الأمل.

ثم أطفأ المصباح الزيتي.

- لِمَ فعلت ذلك؟

- ليس بمقدورنا المخاطرة، فقد يقع وينسكب على الأرضية، وليس هناك، على أية حال، شيء نريد رؤيته.

- أليس من الأفضل أن نتشاور مع الآخرين؟

- بلى. سوف أفعل ذلك، ولكن أبق هنا، وإلا فإن الأرضية ستميل.

كانوا قد اتخذوا ترتيبات لحالة طوارىء مثل هذه. ارتخى الحبل حول المنطاد، واتصل بكل دعامة، وإذا ما أراد منطاد الاقتراب من الآخر، فما عليه سوى أن يجذب الحبل. لاحظ نيال، من الذبذبات، بالمحمل التحتي، أن هذا هو ما يفعله مانيثو. أحس، بعد بضع

دقائق، بارتطام خفيف، فعرف أن المنطادين قد باتا متجاورين. وتناهى إلى مسامعه صوت دوجنز، وهو يسأل: هل لديك أية فكرة عن موقعنا الآن؟

ـ لا. ولكن لا بد أننا نبعد عشرة أميال على الأقل عن الساحل. أشعر بقلق إزاء هذه السحب. وإذا لم تنقشع، فلن نعرف ما إذا كنا قد وصلنا إلى اليابسة.

ـ هل أنت على يقين بأننا لم نصل بعد إلى اليابسة؟

ـ من السهل علينا معرفة ذلك.

سمع صلصلة القنابل الحارقة، عندما مد مانيثو يده بداخل الكيس. نهض نيال بحذر، ونظر من فوق الحافة، وقد استند على إحدى الدعامات. شعر بهزة، حينما ألقى مانيثو بالقنبلة. بدا، للحظة، أن شيئاً لن يحدث، ثم ومض ضوء أصغر وهاج من تحتهما، تزايد وهو يسقط، ثم عكست مياه البحر، فجأة، الوميض إليهما. لمح نيال، للحظة قصيرة، المياه السوداء والزبد الأبيض، للأمواج المتكسرة، ثم خبا الضوء. كانت هذه الثواني القليلة كافية، كي يعرفوا منها أن البحر يمتد تحتهم من جميع الاتجاهات. شعر نيال بصدمة خوف لأول مرة منذ أن ركب المنطاد. كان يشعر، من قبل، بالأمان والظلام يلفه، لكنه أدرك الآن أنه معلق في فراغ شاسع.

قال دوجنز: بإمكاننا الارتفاع فوق السحب، ولكننا لن نكون في وضع أفضل. ما رأيك؟

ـ لا فائدة من ذلك، فسوف نظل غير قادرين على رؤية اليابسة حتى عندما نقترب منها. الشيء الوحيد الذي بوسعنا أن نفعله هو مواصلة إلقاء القنابل الحارقة، كلما شعرنا بأننا قد اقتربنا. كم لدينا منها؟

ـ اثنتا عشرة قنبلة لكل منا.

ـ إذن فإن لدينا اثنتين وسبعين قنبلة ـ وإحدى وسبعين بدون القنبلة، التي ألقيتها. هذا يكفي.

ـ في هذه الحالة، يتعين أن نأكل شيئاً، فأنا أشعر بجوع شديد.

ترك مانيثو الحبل، وجلس على أرضية المنطاد. حدثت هزة خفيفة، بعد بضع لحظات، عندما وصل الحبل إلى أقصى مداه.

استخدم مانيثو مرة أخرى علبة القدح، وأشعل المصباح الزيتي الصغير، وأحكم إمساكه إلى أن اقتعد نيال الأرضية. كان مانيثو يزيد في الوزن عن نيال بحوالي خمسين رطلاً على الأقل، لذلك فقد مالت الأرضية تحت ضغط وزنه. أعادا ترتيب أوضاعهما بشيء من

الصعوبة، وبكثير من الحذر، في مقابل الأكياس، حتى توزع الثقل بشكل مستوٍ. ثم سلم مانيثو المصباح لنيال، بينما فك أحد أكياس القماش، وأخرج منه سلّة من الأغصان المجدولة، بداخلها فطائر من الخبز، عسل، لحم طرائد مطهية، جبن ماعز، تفاح، وإبريق به نبيذ ذهبي. جلسا القرفصاء ليتناولا طعامهما، لم تكن حوائط المحمل التحتي مصممة بحيث تتحمل ظهر إنسان، وأخذت تتثنى، من أي ضغط عليها، على نحو خطير.

لو أن نيال أغمض عينيه، لتخيل نفسه يعود إلى الحجر. أثار النبيذ والطعام إحساساً بالأمن والتفاؤل، أدخل على نفسه السرور، ولم يعد الأمر يهم إذا ما كان يتأرجح في الفضاء، وهو معلق فوق المحيط لمسافة ألف قدم. مع ذلك فقد جعله هذا الإحساس يدرك مدى التغير الذي طرأ عليه، فقد بدا الآن أن الصبي، الذي عاش في الحجر، ينتمي إلى عهد بعيد في حياته.

أيقظته ومضة ضوء مبهرة، كان دوجنز قد أسقط قنبلة حارقة أخرى، كشفت عن الشيء ذاته، كما حدث من قبل: البحر الأسود، المرقط باللون الأبيض، الممتد إلى ما لا نهاية تحتهم. أفرغا قارورة النبيذ، وألقى مانيثو بالزجاجة الفارغة، فشعر نيال بارتياح غريب، وهو يتخيَّل سقوطها وسط السواد. أطفأ مانيثو مرة أخرى المصباح.

بدأ المطر ينهمر، بعد ذلك مباشرة. رفع نيال غطاء رأس الرداء المصنوع من الفراء، واستخدم رباطه ليحكم لفه حول رأسه. كان الرداء مصنوعاً من جلد حيوان مملح، وواق من الماء تماماً. لكن تساقط المطر فوق غطاء الرأس أذهب النوم عن عينيه، وجعله هذا بالتالي يدرك خطر الاستسلام للإحساس بالأمن الكاذب. لو أنهم يمضون الآن في الطريق الصحيح، فلا بد أنهم قطعوا نصف المسافة إلى الدلتا. ويقول سيميون إن نقطة التقاء النهرين تبعد نحو ميل فوق اليابسة من الساحل. وسوف يكون من السهل، وهم يطيرون بالسرعة الحالية، تحديد المكان، والهبوط في الصحراء، عند الجانب القصي من الدلتا. . .

مد يده داخل ردائه، وقلب مرآة التأمل، حتى يسيطر على احساسه بالقلق. تلاشى شعوره بالنعاس في الحال. ولكن ذلك كان غير ذي جدوى في البداية، بل إنه أصبح مدركاً على نحو أكبر بالمطر، وبتمايل المنطاد. ثم تحولت أفكاره إلى الحيوان الاسفنجي، الذي يستقر على ارتفاع بضع بوصات من رأسه، وبات على الفور مدركاً لوجوده. بدا الأمر كما لو أنه نقطة ضوء خافت، محاطة بخيوط طاقة طويلة، امتدت وسط الظلام. كان ثمة نبض ثابت الإيقاع، مثل دقات قلب في مركز نقطة الضوء، حيث تتجمع كل هذه الخيوط. أحس بأنه قد أصبح جزءاً من هذه النبضة، عندما ركز فيها. انتابه شعور غريب بأنها تحاول إجراء

اتصال معه. ثم أصبح هو نفسه النبضة. وبدا جسمه بعيداً وغريباً عنه، كما لو أنه ينتمي إلى شخص آخر.

لم يعد الظلام يلفه الآن. أدرك أن عينيه مغمضتان، ومع ذلك فإنهما بدتا مفتوحتين. كان يشق طريقه، وسط سديم أحمر، وحين ركز حواسه، رأى بوضوح، كأنه في وضح النهار، غطاء السحب القاتمة فوقه، والقمر شبه المكتمل يميل فوقهم. وفي الأسفل، رأى الأمواج المتكسرة. بل إنه اخترق، بجهد أكبر، سطح البحر، وتعرف على القاع.

شعر بالحيوانات الإسفنجية، في المنطادين الآخرين، واختلطت خيوط طاقته بخيوطها، واختلطت مداركها بمداركه. عرف الآن السر وراء بقاء المناطيد عند الارتفاع ذاته، وسبب عدم اصطدامها ببعضها البعض، فالحيوانات الاسفنجية تتعرف على بعضها، وتحافظ على المسافة بينها. انتابه إحساس غريب بأنها قادرة على تنظيم مدى ارتفاع المنطاد، ليس من خلال كمية الغاز التي تنفثها، أو تمتصها فحسب، بل لقدرتها على توجيهه أيضاً.

أصبح إدراكه مطابقاً الآن لإدراك الحيوانات الإسفنجية، ولم يعد يشعر بالقلق إزاء وضعه الراهن. وتلاشى نفاد صبره، ولم يعد الأمر يهم إذا ما كان في الهواء، أو فوق الأرض، وشعر أن بإمكانه الشعور بالسعادة إذا ما ظل المنطاد معلقاً بين السحب والبحر إلى الأبد. بدا إدراكه الإنساني، بيقظته وتوتره الأبديين، وكأنه مجرد ذكرى بعيدة، وبدلاً من أن يظل معلقاً في حالة من الإدراك قريبة من النوم، بات في حالة من الوعي الكامل.

أدرك أن «خيوط الطاقة»، التي ينفثها الحيوان الإسفنجي، ما هي في الواقع سوى جيشان لنوع من الطاقة، منخفضة التردد، وأنها ترتدّ عائدة عند اصطدامها بأي شيء، الأمر الذي يمكنه من «رؤيتها». دُهش لإدراكه بأنه يمتلك هذه القدرة ذاتها، ولكن بدرجة أقل كثيراً، حيث أنه لم يضطر مطلقاً لتطويرها، بعكس الحيوانات الإسفنجية، إذ أنه كان يفضل دائماً الاعتماد على حاستي النظر والسمع. والشيء ذاته صحيح بالنسبة لمانيثو، الذي يحدق الآن في الظلام، وهو بين النوم واليقظة. ترك إرادته تنهار، بعد أن شعر بالضجر، مما جعل ذهنه يتوقف تقريباً عن نفث «خيوط الطاقة».

أدرك على نحو مفاجيء أن هذه هي المشكلة الأساسية لكل البشر. فبمجرد شعورهم بالضجر، يتركون إرادتهم تنهار. ولا ترتكب العناكب ذلك الخطأ الجسيم، وهذا هو السبب الذي جعلها سادة العالم. فهي غير قادرة على الشعور بالضجر...

سحب دوجنز قنبلة حارقة أخرى من كيسه، وراقبه نيال وهو يحرك أداة التوقيت، ويلقي بها. تابعها وهي تهوي عبر الهواء الأحمر، حتى انشطرت فجأة ـ ورأى شظاياها هذه

المرة وهي تتناثر. رأى، بعينيه البشريتين، الانفجار كـوميض براق من الضـوء الأصفر، لكن حواسه الإسفنجية رأته كـانفجار مـزعج للطاقـة التي خرجت مثـل صوت يتـذبذب، ويـتردد صداه في العالم.

لم تكن هناك ضرورة للقنبلة الخارقة بالنسبـة لنيال، الـذي عرف، من خـلال حواسـه الممتدة أن الساحـل أصبح عـلى بعد عشرين ميـلاً إلى الجنوب. وتمتـد الصحراء فيـما وراءه. وسوف يعبرون الشريط الساحلي، بخط سيرهم الحالي، على بعد نحو ستة أميال شرقي الدلتـا. أدرك نيال، من هذه المسافة البعيدة، أن الساحل، الذي يقتربون منه، مكان منعـزل وقاس، به مستنقعات طينية، تتحول بعد عدة أميال للداخـل إلى صحراء صخرية. ولكن، على بعد بضعة أميال أخرى نحو الغريب، يوجد شاطىء رملي طويـل، يحميه حـاجز أمـواج طبيعي، من الأحجار المرجانية والجيرية. وهذه هي المنطقة، التي وصفها سيميـون، بأنها أفضـل مكان للهبوط فيه.

لم يكن ضروريـاً أن يصدر نيـال أمـراً ذهنيـاً إلى الحيـوان الإسفنجي، حيث أن ذهنـه ونظامه العصبي باتا امتداداً لذهنه. استدار الحيوان في حركـة طبيعية، تشبـه حركـة السبَّاح، عندما يغير اتجاهـه، في شكل قـوس بطيء طـويل، حتى أصبح في اتجاه الشـاطىء الرمـلي. دُهش من ميكانيكية العمليـة، حيث بدا الحيـوان الإسفنجي وكأنـه يتحدى قـوى الطبيعـة، واتجـاه الريـح. وبقدر مـا استطاع أن يفهم، فـإن السر يكمن في عدم إدراك الحيـوان لحقيقة انتهاكه لقانون الطبيعة.

فتح نيال عينيه، ودُهش عندما اكتشف أن الظلام قـد تبدد، والأمـطار توقفت، وبـزغ القمر من وراء السحب. مال للأمام وهز ذراع مانيثو، الذي استيقظ جافلاً.

قال نيال: اننا نقترب من الساحل.

هب مانيثو واقفاً، وأنعم النظر، وقال: لا أستطيـع أن أرى شيئاً. ـ لأنـه ما زال يبعـد عشرين ميلاً.

وقف مانيثو جامداً كتمثال، وهو يحدق في الأفق. ثم رفع يـديه نحـو فمه، بعـد خمس دقائق، وزأر قائلاً: «الساحل أمامنا». التفت إلى نيال، وقال، وقد علت وجهـه ابتسامـة تنم عن الرضا: «لقد كان خط سيرنا صحيحاً».

أصدر نيال أوامره إلى الحيوان الإسفنجي بالهبوط ببطء، عنـدما تمكنـا من تمييز أشجـار النخيل، وسط الرمال البيضاء. اختفى القمر، خلف السحب البيضاء، معـظم الوقت أثنـاء عملية الهبوط. ولما ظهر مرة أخرى، كـانوا يبتعـدون عن الشاطىء مسـافة ميـل، وتناهى إلى

مسامعهم هدير الأمواج، وتحطمها على الشاطىء، وتناثرها داخل المحمل التحتي. لعق نيال شفتيه، فأحس بطعم الملح. اهتز المحمل، بعد لحظات، من تأثير موجة عاتية، ثم انطلق فوق الشاطىء، حتى توقف على بعد عشرة أمتار من صف لأشجار النخيل. بدأ المنطاد في الحال ينهار فوق النخيل. شق نيال طريقه خارجاً من أسفل، وقد تعرقل للحظة في ساقي مانيثو المفتولتين، ثم وجد نفسه على يديه وركبتيه فوق الرمل الناعم.

غمره شعور غريب، وهو يحس بالأرض الصلبة تحت قدميه مرة أخرى، ويرى الأمواج وهي تتكسر ضعيفة على الرمل الأبيض، تصلبت قدماه، وأخذتا تؤلمانه، وهو يسير على الشاطىء باتجاه دوجنز وميلو، لكنه شعر بالنشوة، مع كل خطوة، فوق الرمل الرطب. وعلى بعد خمسين متراً أخرى، أخذ سيميون وأوليس يتخبطان، لإبعاد منطادهما عن شجرتي نخيل انحشر بينهما.

كان دوجنز في حالة من الابتهاج الشديد، وألقى بذراعه حول كتف نيال، وضغطه، وأشار بيده الأخرى إلى الشاطىء، الذي ينيره القمر.

ـ ما رأيك في هذا؟ قلت لك إنني محظوظ.

أمضوا نصف ساعة في تفريغ المناطيد، وسحبها، وطيها، ووضعها في مكان آمن وسط الأشجار. عثر ميلو، على بعد مائة متر، على بركة صخرية، تصب فيها المياه من نهير أودعوا فيه الحيوانات الإسفنجية، وأفرغوا وعاء من الديدان فوقها. بدأ الجميع يشعر بعاطفة معينة تجاه الحيوانات الرخوية، ذات الرائحة الكريهة.

امتدت أشجار النخيل بطول الشاطىء، وكانت توجد عند أقصى طرف الأشجار حفرة رملية، مغطاة بالعشب، وضعوا فيها أشياءهم، والأكياس، التي تحوي الأسلحة الحاصدة، والقنابل الحارقة. أراد ميلو وأوليس، اللذان كانا في حالة من الانفعال والبهجة، إشعال نار لإعداد وجبة، لكن سيميون نصحهما بـألا يفعلا، فقد يؤدي ذلك إلى جذب زائرين غير مرغوبين من داخل الدلتا. استخدم نيال، في الوقت ذاته، مديته ليحفر تجويفاً صغيراً في الرمل، فرش فوقه الرداء المصنوع من اللدائن، الذي جلبه معه من البرج الأبيض. صنع وسادة من بطانية مطوية، وكسا نفسه ببطانية أخرى، ما تزال رطبة من تأثير الأمطار. شعر براحة كبيرة، تفوق تلك التي يمكن أن يوفرها له فراش من أوراق الأشجار، أو الحلفاء، وفي غضون دقائق استغرق في نوم عميق.

لما فتح عينيه مرة أخرى، وجد السماء وقد أصبحت رمادية اللون، فقد انبلج الفجر، رغم أن الشمس لم تسطع بعد. كان أول شيء يلاحظه هو الرائحة المميزة للدلتا. لم تكن

مجرد رائحة خضراوات عطنة، ولكنها رائحة من نوع آخر من الصعب تمييزها، جعلته يفكر في الأرض السوداء الرطبة، وفي الفطريات البيضاء. أصبح مدركاً للذبذبة، وهو يركز ذهنه في هذه الرائحة، محاولاً معرفة كنهها. لم يكن الأمر يحتاج إلى الانسحاب بشكل متعمد. لحالة من الاسترخاء الداخلي، فهنا عند حافة الدلتا تكون الذبذبة محسوسة بشكل واضح، مثل تنفس حيوان هائل.

كان من الواضح أن الآخرين مستغرفون في النوم، لكنه عندما دفع نفسه لينهض مستنداً على كوعه، التفت سيميون إليه مبتسماً، فقد كان مستيقظاً منذ فترة.

سأله سيميون بصوت خافت، حتى لا يوقظ الآخرين: ألم تشعر بالجوع بعد؟

أدرك أنه جائع، فقال له: بلى.

أزاح سيميون البطانية عنه، ونهض واقفاً، وأومأ إلى نيال قائلاً: تلك هي مشكلة الدلتا. لنرَ ما إذا كان بمقدورنا العثور على أي إفطار.

أخرج من كيسه مدية طويلة، يبدو أن نصلها، وهو على شكل منجل، مصمم لقطع النباتات. حمل أيضاً كيساً ضخماً من القماش، له حمالة كتفية. ثم شقا طريقهما، بخطوات حذرة حول النائمين، إلى قمة سلسلة من الكثبان الرملية، تمتد في أقصى جانب التجويف. شاهد نيال بإعجاب، بعد أن ازداد ضوء النهار، اخضرار النباتات، وغنى ألوان الأزهار، كما لاحت أوراق الشجيرات كأنها قد رُشت بدهان أخضر لامع، بينما بدت الأزهار الحمراء، والصفراء، والبنفسجية، التي انتشرت بوفرة فوق التربة الرمليّة، كما لو أنها تحاول لفت الأنظار إليها، مثل شفتين نديتين لفتاة جذابة. أثار هذا المنظر إعجابه للوهلة الأولى، كما أثار نفوره على نحو غريب.

كان المنظر مثيراً من فوق الكثبان الرملية، حيث امتدت الدلتا أمامهما. لاحظا من مكانهما أنها عبارة عن حوض من الأراضي الواطئة، تصل أعرض نقطة فيها إلى نحو خمسين ميلاً، وتحيط بها التلال من الشرق والغرب. كان معظمها، في تلك اللحظة، في الظلال، حيث ارتفعت الشمس بالكاد فوق الأفق الشرقي. انتشر سديم فضي فوق منطقتها الوسطى، التي تمتاز عن غيرها بوجود تل صغير مغطى بالأشجار. كما لاحظ تألق مياه نهر، تشقّ طريقها بين نباتات، شديدة الاخضرار. بدت الدلتا، في هذه الساعة المبكرة من الصباح، آمنة وورومانسية، لكن رائحتها المميزة كانت الشيء الوحيد الذي حمل رسالة تهديد.

سارا إلى واد آخر، اكتست جوانبه بسجادة من النباتات الخضراء اللامعة، تماثل بقلة مائية مبالغاً في نضجها. داسا فوقها بأقدامهما، فصدرت عنها رائحة حريفة، لكنها ليست

مقززة. كان يوجد بأقصى طرف الوادي عدد من الشجيرات الخفيضة، ذات أوراق على شكل القلوب، وذات ثمار صفراء كروية بها بقع بنفسجية.

أشار سيميون إليها، وقال: ذلك ما نبحث عنه. شجيرة السيف.

ـ هل ثمارها طيبة الطعم؟

ـ لا. إن طعمها رهيب.

اقتربا من شجيرة، تألّقت أوراقها الندية تحت أشعة الشمس. هَم نيال باقتطاف إحدى الثمار. لكن سيميون أمسك برسغه.

ـ انتظر! إذا كنت تريد البقاء على قيد الحياة في الدلتا، فلا تَنْصَعْ وراء دافعك الأول مطلقاً. فكل شيء تقريباً تنظر إليه يحوي شركاً.

وضع سيميون يده في جيب ردائه، وأخرج قفازاً جلدياً، ووضعه عند طرف المدية الطويلة، ثم مده حتى لمس إحدى الثمرات. حدثت عند أعماق الشجيرة حركة مفاجئة جعلت نيال يرتد، ثم رأى أن شوكة سوداء طويلة طعنت القفاز. سحب سيميون بسرعة نصل المدية من القفاز، فسقط عند أقدامهما، التقطه سيميون، ونزع منه الشوكة، التي كانت من خشب صلب لامع، ومدببة بشكل حاد مثل إبرة. وضع سيميون القفاز مرة أخرى في المدية، وحده هذه المرة نحو ثمرة قريبة من الأرض. قفزت شوكة مرة أخرى من خلف الثمرة، وطعنت القفاز. سحب سيميون من جديد النصل وأبعد الشوكة. كرر هذه العملية ثلاث مرات أخرى، ولكن عندما كررها للمرة الرابعة، لم يحدث شيء. حاول سيميون من جديد، وحينما لم يظهر أي رد فعلٍ من الشجيرة، مد يده وقطف الثمرة. وضع ست ثمرات في الكيس المدلى من كتفه.

ـ أرأيت؟ إن النبات يتعلم بسرعة، فلا تحاول ذلك مرة أخرى!

جثا نيال لينظر داخل الشجيرة، في محاولة لمعرفة أصل الأشواك.

قال سيميون: لقد تعلمت أن اليد خطرة، ولذلك تحاول قتل من يقربها.

ـ ولكن ماذا تفعل بمن تقتله؟

ـ تجتذبه إلى وسطها، وتتركه يتعطن، ثم تمتصه بطريقة أو بأخرى.

تطلع نيال بامتعاض إلى الشجيرة، التي تبدو غير مؤذية، وقال: «إنها حقاً مضللة».

ـ لكن يمكن فهمها. هل لك أن تتخيل، وقد انزرعت قدماك في الأرض، أتستطيع التحرك؟

أشار نيال إلى الأوراق شديدة الاخضرار تحت قدميه، ذات الرائحة الطيبة، وقال: أ
خطيرة؟

ـ إذا ما نمت فوقها فقط. هذه الرائحة مخدرة، وسوف تجد نفسك مستغرقاً في أحلا
لذيذة، ولن تستيقظ أبداً. مثل ذلك الشيء هناك. وأشار إلى رابية صغيرة تكسوها نباتـا
لامعة.

ـ ما هذا؟

ـ لا أدري، ربما يكون خنزيراً وحشياً هبط من الغابة.

انحنى نيال، وأنعم النظر في الرابية، بعد أن أزاح بعض الأوراق. رأى بقايا فراء
لكن السيقان البيضاء الشاحبة انغرزت في اللحم، لذلك لم يظهر معظمها من التربة.

قال سيميون: عندما تكون الضحية نائمة، ينمو هذا الفراء حولها من كل جانب، ا
غضون ساعات، ويلتهمها، وهي ما تزال حية.

عادا أدراجهما نحو المخيم. توقف سيميون فجأة، وقال: آه. هذا ما كنت أبحث
عنه.

تقدم نيال نحو أجمة بها شجيرات، ذات أزهار، ألوانها بهيجة، فرأى، عندما اقترب
أن سيميون مهتم بشجيرة رمادية ملتوية، تغطيها كريات شوكية، يبلغ قطر الواحدة نحـ
ثلاث بوصات.

ـ ما هذه؟

ـ نسميها الواقية.

ـ أهي خطرة؟

ـ إذا ما تعثرت فيها دون أن تراها. فأشواكها مسممة، وتسبب أوراماً مؤلمة للغاية.

رفع سيميون مديته، وقطع إحدى الكريات، فسقطت على الأرض، مثل رأس
مقطوع. دس سيميون يده في القفاز، والتقط الكرة بحذر في إحدى الأشواك. ثم ثبتها على
الأرض، وأخذ يقطع الشوك، حتى أزاله، أو كسره. ووضعها في الكيس، ومضى يجمع ست
كرات أخرى.

قال بارتياح: لقد قمنا بعمل رائع هذا الصباح. فهذه الأشياء تساوي وزنها ذهباً.

ـ ما فائدتها؟

ـ تردع الحشرات.

كان الآخرون ما يزالون نائمين، فاتجها نحو الشاطىء. كان البحر هادئاً ساحراً، وراحت المويجات الخفيفة تتكسر، فوق الرمل الناعم. ورسمت أشعة الشمس البازغة خيوطاً ذهبية شديدة التألق، فوق صفحة الماء.

ـ ماذا سنفعل الآن؟

ـ سنحاول العثور على شيء نتناوله في الإفطار.

تفقدا البركة، التي تضم الحيوانات الإسفنجية، التي سبحت في الحال نحوهما فاتحة أفواهها لتكشف عن ألسنة وردية صغيرة. تناول سيميون إحدى الثمار الصفراء، من كيسه، ونزع قشرتها الصلبة، ووضعها فوق صخرة مسطحة، وقسمها إلى قطع صغيرة. راقبه نيال متشككاً، فقد شعر أن الحيوانات الإسفنجية لن تبدي اهتماماً بهذه الثمرة. ولكن بمجرد أن ألقى بها سيميون في البركة، قفزت الكائنات، والتقطتها بأفواهها المفتوحة. ولم تتبق شريحة واحدة من الثمرة، في غضون ثلاثين ثانية. التقط نيال القشرة واشتمها، ثم ألقى بها مشمئزاً، فقد كانت رائحتها تماثل تماماً رائحة اللحم المتعطن.

قال سيميون: إنها ليست الرائحة، التي تجتذب الكائنات، بل يبدو أنها تحوي بعض الزيت، الذي لا تستطيع الحيوانات مقاومته.

واصلا السير على الشاطىء، حتى وصلا إلى مكان انحدرت فيه الصخور المكسوة بالعشب نحو البحر. صعدا هذه الصخور، ليجدا نفسيهما ينظران إلى أسفل في بركة عميقة، اكتسى قاعها بأعشاب بحرية، بدت كما لو أنها مصنوعة من نسيج عنكبوتي أخضر. وارتفع القاع الصخري باتجاه البحر، ولذلك فإن البركة تظل ممتلئة إلى نصفها فقط بالماء، حتى لو حدث مد. جلسا، وقد تدلت أقدامهما فوق صفحة الماء، بينما راحا يقشران الثمار الصفراء. ثم قطع سيميون إحداها إلى مكعبات كبيرة، وعصر أحد هذه المكعبات بيده، فانسال العصير الزيتي فوق سطح الماء، فتلطخ بلون بنفسجي. وعندما ألقى سيميون باللب المسحوق، غاص ببطء إلى القاع، واختفى وسط الأعشاب البحرية. حدثت حركة، في الحال، عند أقصى طرف البركة، ثم خرج كائن غريب متقزح اللون، يزيد طوله عن ست بوصات، من تحت صخرة معلقة، واختفى وسط الأعشاب البحرية، حيث توجد قطعة من الثمرة. لم يكن نيال قد رأى من قبل قط القريدس، لذلك لم يدرك أنه ضخم. تبعته روبيان أخرى من كل مكان في البركة، بينما خرج حبار بني صغير، من كهف أسود تحت السطح، واستولى على شريحة من الثمرة، وعاد ليختفي في الكهف. انتهى سيميون من تقطيع الثمار، وألقى بها في البركة، التي باتت، بمجرد أن انتهى، مملوءة بالقريدس، الذي أخذ يتخبط للحصول على القطع.

اتجه سيميون، في الوقت ذاته، نحو طرف البركة المواجه للبحر، وفي يده المدية الطويلة، وأخذ يخوض بحذر في الماء. كان القريدس منشغلاً في الوليمة، فلم يبد اهتماماً بسيميون، وهو يغرس نصل مديته في واحد منها، ويخرجه إلى الرمل. جمع، في أقل من خمس دقائق، أكثر من عشرة منها. التقطها نيال، وهي ما تزال تتلوى، ووضعها في الكيس.

كان سيميون يضع مديته فوق قريدس كبير الحجم، وينتظر أن يغوص للقاع، عندما لاحظ نيال وميضاً أحمر عند أقصى طرف البركة. ظن، للحظة، أنه قريدس آخر، ثم أدرك، عندما أصبح تحت أشعة الشمس، ورأى قرنيه المتموجين، أنه حيوان صدفي مائي ضخم. جعله حجمه الهائل ينحشر، للحظة، عند مدخل الكهف الكائن تحت الماء. كان رد فعل سيميون سريعاً على الصيحة المذعورة التي أطلقها نيال، وقفز باتجاه الطرف الضحل من البركة. تبعه سرطان البحر الضخم، وفي اللحظة التي أطبق فيها مخلبه على ساق سيميون، كان نيال قد سحبه خارج الماء.

أُصيب نيال بالذعر، وهو يرى هذا الكائن البحري، يحاول الخروج من البركة لمهاجمتها، وكان بالنسبة له يماثل عقرباً هائلاً. لكن سيميون ثبت في مكانه، وعندما خرج سرطان البحر فوق الصخرة الملساء، رفع المدية، وهوى بها بكل قوته. سقط المخلب المفصول عند قدمي نيال، وأخذ يتشنج فوق الصخرة، التي انقسمت مثل جوزة مشقوقة. رفع سيميون المدية مرة أخرى، ولكن نحو عيونه هذه المرة، إلا أنه تراجع، واختفى في الماء.

نظر سيميون إلى ربلة ساقه اليمنى، فوجد اللحم قد تمزق، وأخذ ينزف بغزارة. لكنه حين تفقد الجرح عن قرب، وجده أقل خطورة مما بدا. لقد أمسك المخلب بالجزء اللين من الجلد، ومزقه، فتدلى، ولكن الجرح كان سطحياً. بدا واضحاً أن سيميون قد استعد للطوارىء، فقد أخرج من جيبه ضمادة، ولف بها ربلة ساقه. نظر نيال، في الوقت ذاته، إلى المخلب، الذي ما يزال ينفتح وينغلق، وذلك بافتتان مشوب بالرعب. كان طوله يبلغ نحو قدمين، ولاح حاداً بما يكفي لقطع ساق إنسان. لما توقف عن الحركة، رفعه نيال بكلتا يديه. قال سيميون وهو يتألم: ضعه في الكيس، فسوف نحتاج إليه في الإفطار!

كان المخلب أكبر من أن يوضع في الكيس، ولذلك اضطر لحمله بكلتا يديه.

لما أصبحا على بعد خمسمائة متر من المخيم، شاهدا دخاناً، فعرفا أن أحدهم قد أشعل ناراً. ارتفع الدخان بشكل عمودي في الهواء، فقال سيميون: لقد توقفت الريح.

قابلا مانيثو، الذي كان عائداً من النهر، ومعه قدر صغيرة بها ماء صافٍ. ووجدا أوليس، وقد تسلق نخلة، وأخذ يلقي ثمار البلح، بينما نشر دوجنز بطانية على الأرض،

لتكـون بمثابـة مفرش سفـرة، وأخذ يقـطع شرائح من رغيف خبـز أبيض طـويـل. ولمـا رأى القريدس، ابتسم، وراح يفرك يديه.

ـ هذا طبقي الأثير. لكني لم أر قريدساً بمثل هذا الحجم.

واتسعت عيناه، عندما رأى مخلب سرطان البحـر، وقال: إن طهي ذلـك الشيء سوف يستغرق اليوم بأكمله.

ابتسم سيميون، وقال: آه. لا أعتقد ذلك.

ألقوا بالمخلب وسط النار، فأخذت الفقاعـات تتشكل حـوله، وتصـاعد البخـار، بينما دفعوا القريدس وسط الرماد الساخن عند حافـة النار، غـطوه بالأغصـان المحترقـة. استغرق الأمـر نحو نصف سـاعة لإنضـاج معظمـه، ثم نزعـوا القشور المحـترقة، وأكلوا لحمـه، بعد إضافة الملح والزبد إليه. شعر نيال أن هذا ألـذ طعام تـذوقه في حيـاته، والتهم اثنـين بشهية رجل جائع. قلبوا، حـين تحولت النـار، بعد نحـو ساعـة، إلى رماد سـاخن، مخلب سرطان البحر، ووضعوه فوق بطانية، ثم سحبوه فوق رمال الشاطىء إلى البحر. تصدعت الصدفة، التي قاومت حرارة النار، بمجرد القاء المخلب في الماء. تمكن نيال من نزع شريحـة على شكـل شظية، وترك ماء البحر يبرد مـا بداخله. ولما برد المخلب، حملوه عـائدين إلى المخيم، حيث حطم سيميون الغلاف الصدفي بصخرة، ثم وزع على الجميع أجزاء منه. شعر نيال بـالأسف لأنه تناول قبل ذلك اثنين من القريـدس، فقد كـان لحم سرطان البحـر ريانـاً وشهياً، لكنـه اضطر للاعتراف بهزيمته، بعد أن تنـاول أقل من نصف حصتـه. والتهم سيميون كـل حصته بتصميم بالغ، وأحس نيال بسعادة سيميون وهو يقضم جزءاً من المخلب، الذي كـاد أن يبتر ساقه.

ولما انتهوا من الطعام، تناولوا شراباً قوياً مركباً من أعشاب منقوعة في ماء ساخن. عثر سيميون على حجر مفلطح، استخدمه في فتح الكريات الشوكية الـرماديـة. احتوت كـل كرة على ثمرة بيضاء ملساء، لهـا رائحة نفـاذة غريبـة، تؤلم العـين، سلم كل فـرد واحدة منهـا، وطلب منهم خلع مـلابسهم بـالكـامـل، وتـدليـك أنفسهم، من شعـر الـرأس حتى أخمص القدمين، بعصيرها، الذي أثار اهتياجاً مؤلماً، خاصة في المناطق الـرقيقة من الجسم. وعنـدما طلب مني دوجنز تدليك العصير في المنطقة الصلعاء بمؤخرة رأسه، تقلصت عضلات وجهه، وتساءل: «أيتعين علي ذلك؟».

ـ نعم، وسوف تشعر بالراحة، قبل أن ينقضي اليوم.

فك سيميون الضمادة من حول ساقه، ودلـك الثمرة البيضـاء فوق الجـرح، وقد أطبق

أسنـانه من الألم. ولكن حين دلك اللحم الممـزق ببقية العصـير، ومسحه بعنـاية بحفنـة من العشب، تـوقف النـزيف في الحـال، وابيض الجـرح، والتـأم، فبـدا واضحـاً أن للعصـير خصائص قوية لمداواة الجروح.

تـطلع مـانيثـو إلى الشمس، التي ارتفعت في السـماء، وقـال: «ألم يحن الـوقت كي نتحرك؟».

هز سيميون، الذي أخذ يعيد لف الجرح بضمادة نظيفة، رأسه، وقـال: كلا. إن أول درس عليـك أن تعيـه في الـدلتـا، هـو ألا تتسرع مـطلقـاً. الآن أصـغ! ثم تلفت حـولـه، وأضاف: وهذا ينطبق على الجميع. فاجلسوا وانصتوا للحظة. أريدكم أن تضعوا ما سأقولـه في أذهانكم، إذا أردتم البقاء أحياء. لعلكم تعرفون أن النبات لا يتسرع على الإطلاق. وإذا شئتم البقاء على قيد الحياة في الدلتا، فعليكم أن تتعلموا التفكير بأسلوب النبات.

واستطرد: هناك أمر آخر أريـد قوله، وقد لا تصدقونـه، ولكن بمقدور النباتات قـراءة أذهانكم. وذلك يعني أنه عندما تشعرون بالاجهاد والتـوتر، فـإنها تعرف ذلـك. إذن فالأمـر الأكـثر أهمية هـو أن تتذكـروا ضرورة بقاء عقـولكم في وضع سليم في الـدلتـا، وإن لم تفعلوا ذلك، فلن تخرجوا منها أبداً.

قال ميلو: ولكن أليس من المؤكد أن تحمينا الأسلحة الحاصدة من معظم هذه الأشياء؟

- ربما. ولكن أريدك أن تضع في ذهنك أن الدلتا تمـاثل كـائناً حياً وحيد الخليـة. ولا يبدو أنها تضع مثل هذه الأشياء في اعتبارها، وأومأ إلى المدية، ثم أضاف، ولكني أعتقد أننـا قد نواجه رد فعل عنيفاً إذا ما حاولنا شق طريقنا بـالقوة. لست عـلى يقين ممـا أقولـه، ولكني أشعر بأنني على صواب.

ونـظر إلى دوجنز، وقـال: في مكان مثـل هذا، فـإن قـوة الـذهن أكـثر أهميـة من قـوة الأسلحة النارية.

قال دوجنز: تعرف عن الدلتا أكثر مما يعرفه أي واحد منا. ولذلـك عليك أن تنصحنـا بما ينبغي علينا عمله.

- حسناً. قبل كل شيء فإن الجو ساكن، وبـالتالي لن نتمكن من استخـدام المناطيـد. وذلك يعني أنه يتعين علينا السير على الأقدام. يبلغ عرض الدلتا نحـو سبعين ميـلاً، والشيء الذي نبحث عنه يوجد في الوسط، وأنا لم أذهب إلى هنـاك من قبل، وكـل ما أعـرفه هـو أنه يقع في النقطة، التي يلتقي عندها النهـران. ولكن من الأفضل أن نتحـرك بين التـلال، فهي

أقل خطورة. وكلما ارتفعنا، أصبحنا في أمان. وربما تكون الشجرة الخانقة هي الخطر الحقيقي الوحيد، عند ارتفاع يصل إلى ألف قدم.

قال مانيثو: لم أسمع قط بهذه الشجرة.

ـ من المحتمل أنك لم تسمع قط بمعظم الأشجار والنباتات في الدلتا، ويتراءى لي أن نصفها من الأنواع الجديدة، ولم تطلق عليها أسماء، وتماثل الشجرة الخانفة شجرة أخرى تعودت على تسميتها بالصفصاف الأفعواني، وبها الكثير من النباتات المتسلقة المعلقة، المكسوة بالطحاب، والتي تبدو غير ضارة. ولكن النباتات المتسلقة في الشجرة الخانقة تنتظر حتى تقترب منها، ثم تنقض عليك.

تساءل مانيثو: وماذا عن النهر؟ هل هو صالح للملاحة؟

ـ يحتمل، رغم أنه مملوء بالحواجز الرملية، والبحيرات الطينية. لكنه مملوء أيضاً بعقارب الماء الضخمة، التي بمقدورها التغلب على أي قارب أو طوف. كما أن به يعاسيب آكلة للحوم، ذات مخالب قوية، بإمكانهم قضم ذراع إنسان. وبالتالي فإنني أرى أنه من الأفضل الالتزام بالتلال. ثمة كائنات أخرى يتعين علينا توخي الحذر منها، وهي السرطانات الحربائية، التي تهوى التمدد في كائن تحت أوراق النباتات السحلبية بالمستنقعات، والتي لها مخالب، بقوة ذلك المخلب، الذي التهمناه لتونا.

قال أوليس: هذا مجرد اقتراح... ولكن أليس من الأفضل الانتظار حتى تشتد الريح، وتهب في الاتجاه الصحيح، بما يسمح لنا باستخدام المناطيد؟

نظر سيميون إلى دوجنز، وقال: بإمكاننا ذلك. ولكن هذا قد يضطرنا للانتظار عدة أيام، أو حتى أسابيع.

هز دوجنز رأسه، وقال: لا. من الأفضل التحرك الآن. فقد تقرر العناكب المجيء إلى هنا، للعثور علينا، إذا ما بقينا لفترة طويلة.

أومأ سيميون وقال: وأنا أتفق معه في هذا الرأي. إن الشيء الوحيد الذي يجب علينا اتخاذ قرار بشأنه هو ما سنأخذه معنا، فنحن لا نستطيع حمل كل ما لدينا، واقترح أن تكون حركتنا خفيفة وسريعة.

أفرغوا محتويات أكياس القماش على الأرض. كانت هناك كميات كبيرة من الغذاء والشراب ـ معظمها داخل قوارير خشبية محكمة الغلق، بالإضافة إلى امدادات طبية. ضم كل كيس مُدية ذات نصل طويل، معلقةفي خرام، وفأساً حادة للغاية، ودلواً من القماش. وصرراً خفيفة تحمل على الظهر.

قال دوجنز: على كل واحد منكم أن يحدد الكمية التي يريد حملها، ولكن لا بد أن تكون خفيفة.

وضع نيال في صرته فطائر جافة، وكمية من الخبز، قدراً من العسل، صندوقاً من اللحم المجفف، وقارورة من النبيذ الذهبي. كما وضع أيضاً ضمادات، وفأساً صغيرة. بدا واضحاً أن الرداء المصنوع من الفراء، الذي سافر به، ثقيل بالنسبة لجو الدلتا، فتخلى عنه على مضض. واكتسى، بدلاً من ذلك، برداء مصنوع من قماش رمادي خشن. وضع في أحد الجيوب القضيب المتداخل، وفي الآخر الرداء المعدني الرفيع، الذي حصل عليه من البرج الأبيض.

أدركوا أن ترك الأكياس على الأرض سوف يلفت انتباه الحيوانات، فأغلقوها بعناية، ثم تسلق أوليس إحدى الأشجار الساحقة، حتى وصل إلى قمتها، وهو يحمل حبلاً، ورفع الأكياس، الواحد تلو الآخر، وربطها إلى جذع الشجرة. كما علقوا المناطيد المطوية، كإجراء وقائي، على الفروع المنخفضة، حتى تكون بعيدة عن العواصف، أو المد العالي.

أفرغ نيال صندوقاً من الديدان في البركة، التي تحوي الحيوانات الإسفنجية، واضطر إلى استنشاق الرائحة العطنة، التي جعلته يتقهقر، لكنه أدرك أن هذا هو أسلوب الحيوانات الإسفنجية في الإعراب عن امتنانها. لاح البحر ساكناً، والشاطىء نظيفاً، آمناً، فكان من الصعب عليهم تصور أنهم على وشك الانتقال لأخطر مكان في العالم.

كانت الشمس في كبد السماء، والحر شديداً، عندما انطلقوا. قادهم سيميون إلى قمة سلسلة من الكثبان الرملية، وتوقفوا أثناء شرحه لملامح الدلتا الرئيسية. اكتسى الحوض الأوسط بسجادة من السحب الضبابية، وتمكنوا من رؤية النهرين، وهما ينحدران من الجنوب الشرقي، والجنوب الغربي، رغم اختفاء النقطة، التي التقيا عندها وسط الغابة. كما أخفى السديم، التل الصغير بين النهرين. رأى نيال، في هذا الضوء المبهر، الظلال الخضراء المختلفة، التي شكلت رقعة في الحوض، كما اكتست التلال المغطاة بالأشجار، بظلال خضراء مشوبة بالزرقة.

أشار سيميون باتجاه الشرق، وقال: سنحاول الوصول إلى أقرب نقطة من قمة التلال، حيث تقل كثافة الأشجار، ويكون الجو هناك ألطف، وأقل خطراً.

أشار مانيثو إلى المنحدرات، التي تغطيها الأشجار، باتجاه الغرب، وقال: تلك تبدو أسهل.

ـ نعم. ولكن سيتعين علينا عبور النهر، ولا أريد المخاطرة بذلك.

ابتعدوا عن الشجيرات التي تماثل أوراقها السيوف، وأوضح سيميون أنه يريد تجنب النباتات، التي تشبه قرّة العين، المنتشرة فوق الأرض، بسبب رائحتها المخدرة. ولكن قبل أن يقطعوا نصف ميل آخر، وجدوا أنفسهم فجأة أمام سجادة من الأوراق اللامعة انتشرت بامتداد المنحدرات، التي تغطيها الأشجار. كانت البدائل أمامهم، العودة من حيث أتوا، أو الالتفاف باتجاه الشمال نحو البحر، ثم العودة إلى التربة الرملية والعشب.

قال سيميون: أرى أنه يتعين علينا المخاطرة، بما أننا في عجلة من أمرنا. ولكننا سنحاول الالتزام بالحافة الشمالية. وإذا ما أحس أحدكم بالدوار، فعليه أن يبلغنا بذلك على الفور.

شعروا، وهم يتقدمون، وسط سجادة الأوراق، التي تماثل في ألوانها نبات اللبلاب، بالرائحة الطيبة، واكتست أحذيتهم بالمادة البيضاء المزبدة، التي تفرزها السيقان المهشمة. دُهش نيال الذي توقع أن يسيطر عليه الدوار، لشعوره بالحيوية والنشاط. بدت الرائحة لذيذة للغاية، مما أغراه بغمس أصبعه في المادة المزبدة لتذوّقها، لكنه قاوم هذا الإغراء.

أدرك أن هذا الشعور بالسيطرة المتزايدة، نابع من مرآة التأمل. أحس بقوة ذهنه وجسمه، ولم يعد يتصبب عرقاً، رغم ثقل ما يحمله، بالإضافة إلى الحاصد، الذي علقه فوق كيسه. من الواضح أن الآخرين شعروا بنشوة مماثلة، وأصبح أوليس ثرثاراً على نحو مفاجىء، وأخذت يتحدث عن جمال الأزهار، التي تنمو بين الأوراق اللامعة.

كانت سفوح التلال، التي تكسوها الأشجار، تبعد عنهم نحو ميل. أشار ميلو بإصبعه إلى منطقة تبدو فيها الأشجار أقل كثافة، وتمكنوا من رؤية منطقة مقطوعة الأشجار، قد تكون بداية لطريق يفضي إلى أعلى التل.

ـ لماذا لا نتجه إلى هناك؟

دُهش نيال، عندما سمع سيميون يقول: نعم، أظن أنه أقرب كثيراً.

أحاطهم، بعد خمس دقائق، بحر من الأوراق، التي تماثل نباتات قرة العين. أخذ نيال يتنفس بعمق، فقد كان الهواء كالنبيذ تماماً، يثير الشعور ذاته بالخفة والنشاط. وعندما أحس بالنشوة، أراد أن يعرف ما إذا كانت مرآة التأمل هي التي كشفت ذلك، فمد يده داخل سترته، وقلب الجانب المقعر، إلى الداخل.

جعله التأثير يلهث، فقد شعر بألم حاد في مؤخرة فروة رأسه، وتبخر الإحساس بالنشوة، مثلما تختفي الشمس فجأة وراء السحب. بدا ثقل الكيس، الذي يحمله على ظهره، وقد تضاعف. أحس برغبة جامحة في قلب مرآة التأمل مرة أخرى، لكنه عدل عن رأيه، في

اللحظة التي تحركت فيها يده. لماذا تقضي المرآة على إحساسه بالوضوح والسيطرة، بدلاً من زيادته؟ قاوم الصداع بتركيز ذهنه. ومع ذلك فقد تفاقمت الأمور. بدأ يشعر بالاختناق والدوار، وبدت ساقاه وقد تجمدتا كحجرين. وأصبح إغراء قلب المرآة لا يقاوم، فترك يده تزحف إلى داخل قميصه. وفي تلك اللحظة، جعله شيء من العناد يتردد، حيث بدا أن الراحة تبعد بضع ثوانٍ، فتحمل عامداً الإحساس بالاختناق والدوار. لقد تعلّم من تجاربه السابقة أنه إذا ما جعل هذه الإحاسيس تصل إلى الذروة، فسوف تختفي.

حدث ما كان يتوقعه، فقد ازداد الصداع، حتى بدت عيناه على وشك البروز من محجريهما، ثم تلاشى الألم، وحلّ مكانه إحساس بالراحة. لكن ساقيه ظلّتا ثقيلتين، كما وجد صعوبة مستمرة في التنفس.

أدرك فجأة وبدهشة ما حدث. فالإحساس بالنشوة والخفة لم تثره كميات النباتات المحدرة، بل قوة الحياة الغريبة، التي تنفثها الدلتا. تمكن النبات المماثل لقرة العين، من مراكمة ونقل هذه الحيوية، بطريقة غريبة، مستخدماً الضوء، الذي انعكس من سطح أوراقه اللامعة. أدرك الآن ما حدث، فقد لاحظ أنهم محاطون بقوة الطاقة المبهرة، التي أحس بها في الأزهار، بحديقة بيت دوجنز، وأنهم يتنفسون هذه الطاقة، وكذلك أبخرة النباتات المخدرة. ولأن الطاقة أقوى بكثير من الأبخرة، فإنهم لم يتأثروا بالرائحة المخدرة. ولكن ما السبب الذي يجعل النبات يتعمد إبطال مفعول تأثيره المخدر؟

جاءت الإجابة بعد بضع ثوانٍ. توقف أوليس فجأة عن الكلام، بعد ثرثرته المستمرة، ثم التفت إلى رفاقه، وقد بدت عليه علامات الحيرة. ولما سأله دوجنز: «ما الأمر؟» بدا في غاية الشحوب، ثم انهار عند اقدامه. جثا نيال في الحال، ورفع رأسه، فوجد أن وجهه قد ترقط بالزبد الحليبي.

بدت علامات الشحوب والإجهاد على الآخرين أيضاً. كما راح دوجنز يطرف بعينيه، ففهم نيال ما حدث. فقد توقف النبات عن بثّ ومضات الحيوية، ليتركهم تحت رحمة الأبخرة المخدرة.

سحب نيال الكيس من فوق ظهر أوليس، وأعطاه ليلو. وقال لمانيثو: اعط سيميون الحاصد، واحمل الكيس، وساعدني على رفعه، فسوف نضطر إلى حمله.

بدا مانيثو شاحباً، لكنه كان قادراً على استدعاء احتياطي قوته الجسدية. انحنى، دون أن ينبس ببنت شفة، وأمسك بذراعي أوليس، وجعله ينهض على قدميه. ثم ألقى بالجسم المترنح فوق كتفه القوية.

قال نيال لمانيثو: «سأحمل كيسك». وسحبه من فوق ظهره ووضعه فوق كتفه، لما أخذ الحاصد، وسلمه إلى دوجنز.

أشار إلى مكان يستطيعون منه رؤية الغابة بوضوح، وقال: علينا أن نسرع، لنتجه إلى هناك!

راحوا يسيرون فوق النباتات، ويهشمون سيقانها الهشة بأقدامهم. شعر نيال، وهم يواصلون تقدمهم، بأن النبات يحاول الالتفاف حول كواحلهم. أصبحت الرؤية غير واضحة، وأحس ببدايات تأثير الشراب، وضع في ذهنه هدفاً واحداً، وهو الوصول إلى حافة الغابة، والهروب من هذه النباتات المتسلقة، التي بدت رائحتها مثيرة للاشمئزاز.

لم يعد قادراً على مواصلة السير. وجد أنهم يدوسون على أعشاب إسفنجية، وأن أشجار الغابة باتت على مسافة تقل عن مائة متر. ألقى بالأكياس من فوق ظهره، وارتمى على الأرض ورأسه بين ركبتيه. وضع مانيثو أوليس بجانبه، وألقى بنفسه، ووجهه لأسفل، فوق العشب. كان دوجنز آخر من خرج من بحر الأوراق الخضراء، تعثر في سيره إلى أن وصل للعشب، فسقط على الأرض. ثم نزع عنه كيسه، وتمدد على ظهره، وقد نشر ذراعيه.

تمددوا نحو عشر دقائق، حتى شعروا بحر الظهيرة، فتحامل نيال على نفسه، وتحرك وهو يتعثر، إلى ظل أقرب الأشجار. انضم إليه الآخرون في الحال، وقد سحب مانيثو أوليس من تحت إبطيه. اختار نيال شجرة صغيرة اكتسى جذعها بلحاء فضي أملس، جلس، وأراح ظهره عليه. بدت الأوراق فوق رأسه ـ وهي أوراق عريضة خضراء وحمراء، يزيد عرض كل ورقة عن عرض الكف ـ تخشخش، كما لو أن نسيماً يداعبها. لكنه أغمض عينيه، بمجرد أن جلس، وشعر مرة أخرى بالإحساس المنعش البارد، كما لو أن مياه شلال تتناثر عليه في جلسته. فتح عينيه، وقد أصبح مدركاً أن الشجرة، مثل النبات المخدر، قادرة على نقل وابل من الطاقة الحيوية.

عرف الآن أن هذا يعني خطورة الشجرة؛ فالغرض من وابل الطاقة هو حثه على البقاء، وربما النوم. لاحظ باهتمام ما يحدث، وقد أخذ حذره من هذا الاحتمال. راحت الفروع الخارجية للشجرة تنحني ببطء باتجاهه. كان إحساساً مخيفاً، كمراقبة الحركات البطيئة لحيوان يستعد لاصطياد فريسته، لكنه شعر، مع وجود الحاصد على بعد بضع بوصات فقط من أطراف أصابعه، بأنه يستطيع تحمل الانتظار لمعرفة ما سيحدث. راحت الفروع تنخفض أكثر فأكثر، حتى كادت تلمس الأرض، ووجد نفسه محاطاً بخيمة خضراء، منعت دخول أشعة الشمس. ثم أدرك أن اللحاء الأملس، الذي يسند إليه ظهره، قد بدأ يهتز اهتزازاً

خفيفاً، كما لو أنه يستيقظ. وجده، حين أنعم النظر فيه، يتغير، فقد اختفى السطح الأملس، وراحت تظهر فجوات صغيرة. تناهت إلى مسامعه، بعد بضع ثوانٍ، هسهسة خفيفة، تماثل صوت غاز يتسرب، واشتم رائحة طيبة مستساغة، أثارت في جسمه النشوة. بدا الأمر وكأنه يرى مروجاً معشوشبة عريضة، وتلالاً بعيدة. تحول هذا إلى إحساس بتراخ لذيذ، مما أغراه على الاستلقاء فوق العشب، والاستغراق في النوم. لكنه جلس، بدلاً من ذلك، وزحف على أطرافه الأربعة خارجاً من الخيمة الورقية.

لاح المنظر من الخارج كما لو أن الشجرة قد تحولت إلى بيت أخضر صغير. التقت الأوراق لتشكل معاً قالباً مغطى، هدفه هو منع تسرب الغاز المخدر. وقف، ولاحظ الفروع وهي تتباعد ببطء عن بعضها البعض، وترتفع عن الأرض. ثم عادت الشجرة، بعد خمس دقائق، إلى الوضع الذي كانت عليه عندما جلس تحت ظلها.

استلقى الآخرون، وقد أغمضوا عيونهم، ورأى نيال أن الفروع فوقهم طبيعية. طرأت فكرة على ذهنه، فأمسك أوليس من رسغيه، وسحبه إلى أن وصل تحت الشجرة، ذات اللحاء الفضي. أراح ظهره على الجذع، ثم جلس بجواره. اهتزت الفروع، ثم احاطهما، بعد لحظات قليلة، وابل طاقة الحياة، مثل رذاذ عطري. تحرك أوليس، وفتح عينيه. هز رأسه، وتطلع إلى نيال، وقد علت وجهه ابتسامة تنم عن البهجة، وسأله بمرح: «كيف وصلت إلى هنا؟»

ـ حملك مانيثو.

قال أوليس بصوت طبيعي للغاية: لقد فعل خيراً. ماذا جرى؟ في الوقت الذي راح نيال يوضح فيه لأوليس ما حدث، أخذت الشجرة تنفث غازها المخدر، وتميل بفروعها ببطء وهدوء نحو الأرض. كان أوليس مستغرقاً تماماً، فلم يلحظ ما يحدث. ولما أشار نيال إلى أنهما أصبحا الآن داخل خيمة من الورق الأخضر، تلفت حوله بدهشة، وتساءل: «ما الذي ستفعله الشجرة؟».

ـ من المرجح أنها ستلتهمنا. بإمكانك البقاء لمعرفة ما سيحدث.

لاحظ نيال، بعد أن زحفا إلى ضوء الشمس مرة أخرى، تورد خدي أوليس، وإشراق عينيه، كما اختفى شعوره بالتراخي، وبدا كما لو أنه استيقظ لتوه من نوم عميق طوال الليل، أعاد إليه النشاط.

ذهب نيال، وأيقظ سيميون، فوجده شاحب الوجه، أخذ يتأوه وهو يحاول الجلوس.

أشار نيال إلى الشجرة، وقال: أتعرف ماهية تلك الشجرة؟

حدق فيه بفتور، ورد: لا. لِمَ؟

أعاد نيال على سمعه ما حدث.

ـ ولم تشعر بأي تأثير؟

ـ كلا ألبتة. لا يحدث شيء إذا ما تحركت قبل أن تجعلك تنام. جرب بنفسك.

تركهم سيميون يساعدونه على النهوض، لكنهم اضطروا لإعانته على السير تحت الفروع. وجدوا أنفسهم، بعد لحظات، يتعرضون لوابل من القوة الحيوية. تنهد سيميون، ثم راح يتنفس بعمق وهدوء، ومال رأسه على الجذع. ولما وصلت الفروع إلى الأرض، كان قد راح في نوم عميق. لكن الدم عاد إلى وجنتيه.

هز أوليس ذراعه، قال: حان وقت التحرك!

أفاق سيميون، وتبعهم على مضض، وهم يزحفون إلى الخارج، ثم وقف، وحدق بانبهار ورعب للفروع، وهي ترتفع ببطء في الهواء، ولاح في حركتها شيء يماثل التنويم المغناطيسي.

قال أوليس: ولكن ما الذي تفعله تلك الشجرة؟

أمسك سيميون بطرف فرع بين أصابعه، وقال: هنا تكمن الإجابة.

كان الطرف أملس، مثل جلد مطاط، وينتهي بسن غير حاد، ولكن عندما ضغط سيميون عليه، انفتح السن، وكشف عن فم صغير مستدير.

هز رأسه بحزن، وقال: من المرجح أنه مصاص للدماء. يا له من أمر يدعو للرثاء أن يكون شيء بهذا القدر من الجمال ذا طبيعة خائنة.

سأل مانيثو، الذي جلس، واضعاً رأسه بين يديه: ماذا تسمى هذه الشجرة؟

ـ ليس لها اسم، على حد علمي.

قال أوليس: يتعين أن نسميها شجرةالأرجوان.

دمدم سيميون قائلاً: ذلك ينطبق على كل شيء في الدلتا.

ومال على دوجنز، وهزه، وهو يقول: استيقظ! لدينا ما نريدك أن تراه. وقف نيال، وأخذ يراقب مانيثو، دوجنز وميلو، وهم يجربون سحر الانتعاش، الذي تمنحه شجرة الأرجوان، وقد انضم إليهم مرة أخرى أوليس وسيميون.

لم يشعر نيال برغبة في إعادة التجربة، وأدرك أن لا فائدة من ذلك، وأن المسألة تماثل

تناول الطعام عندما لا يكون جائعاً. فمبقدور قوة الدلتا الغريبة زيادة الحيوية إلى مستوى معين فقط، أما أكثر من ذلك، فمتروك للشخص نفسه.

بدأت الشمس تهبط من سمتها، فقرر نيال أن الوقت قد أصبح عصراً.

قال سيميون، وهم يبدأون في سحب أكياسهم: قبل أن ننطلق، هناك مسألة ينبغي بحثها. لقد عرفتم ما تكنه الدلتا. هل نريد حقاً الاستمرار؟ أليس من الحكمة العودة إلى مخيمنا، والانتظار حتى تهب الريح، كي نتمكن من استخدام المناطيد؟

قال أوليس: أريد مواصلة ما بدأناه.

تجاهله سيميون، وراح يتطلع إلى دوجنز الذي قطب، وأخذ يعض على شفته، ثم قال: أتظن أنه من المحتمل أن نواجه أي شيء لا تستطيع الأسلحة الحاصدة التعامل معه؟

هز سيميون كتفيه، وقال: من المستحيل الإجابة على هذا السؤال.

لكنه أضاف، بعد فترة صمت: ولكن من غير المرجح أن نواجه شيئاً نعجز عن التصدي له بالأسلحة.

قال دوجنز: إذن أعتقد أنه يجب علينا مواصلة السير.

ونظر حوله، ثم قال: ما رأي الباقين؟

قال مانيثو وأوليس وميلو في صوت واحد: لنواصل السير.

- وما رأيك يا نيال؟
- أعتقد أنه ينبغي علينا أن نعود الآن، ثم نستأنف السير صباح غد.
- وأنت يا سيميون؟
- اتفق مع نيال.

قال دوجنز: إذن النتيجة أربعة إلى اثنين، لننطلق!

هز سيميون كتفيه، وقال: ولكن أرى أن القرار أثار ضيق نيال.

سار دوجنز ومانيثو في المقدمة، وخلفهما نيال وسيميون، ومضوا في طريق يفضي بهم مباشرة لأعلى التل. ورغم أن الأشجار كانت شائكة وكثيفة، إلا أنها لم تكن متلاصقة، ولم يضطروا لاستخدام المدى سوى في حالات نادرة. وجدوا صعوبة في صعود التل، ولكن ظلال الأشجار خففت من مشقة الصعود، وعندما وصلوا إلى أعلى بعد ساعة من السير، أصبح الهواء بارداً منعشاً. دُهش نيال من التغير، الذي طرأ على طبيعة الأشجار، ورأى عند

الروابي أشجاراً متنوّعة على نحو مذهل، مما جعله يعتقد أنـه لا توجـد شجرتـان متماثلتـان. كما لاحظ أنها مدركة لوجودهم، وأن الجذوع تعتريها رعشات خفيفة، وهم يمرون بجوارها، بينما تهتز الفروع، وكأن النسيم يداعبها. اختفى هذا التنوع، بعد أن واصلوا الصعود، وأصبحت الأشجار ضخمة. وفي النهاية بدت الغابـة، مثل أيـة غابـة، في أية منـطقة معتـدلة، مـا عدا الأشجار الهائلة، التي كانت سامقة حولهم، وكأنها أعمدة تسند السماء.

وصلوا، بعـد ساعتـين من مغادرة الـوادي، إلى منطقـة مقطوعـة الأشجار، تـطل على التـلال الغربيـة. كانـوا فوق سلسلة تـلال، تمتد بـزاوية يمنى إلى الـطريق الذي يسـيرون فيـه، بينـما امتد جـانب التل، فيـما وراء ذلك لمسـافة ألف قـدم أخرى عـلى الأقـل. خفت كثـافـة الأشجار هنا، وبدا كما لو أن الحيوانـات تستخدم الـطريق بامتـداد سلسلة التلال. استـأنفوا السير، بعد أن استراحوا لفترة من الوقت، وشربوا من ماء نهير. لم يواجهوا أي شيء خطير على مدى أكثر من نصف ساعة. أخـذ البعوض الكبـير والصغير يئـز حولهم، من حـين إلى آخر، ولكن يبدو أن العصير، الذي دهنوا به أجسامهم، منعه من مهاجمتهم.

تساءل أوليس: هل سنخيم هنا؟

أومأ دوجنز، وقال: أظن ذلك.

ـ يا للأسف! أود أن أعثر على شجرة أخرى من أشجار الأرجوان.

ـ إن المكان هنا شديد الارتفاع.

ساروا لمسافة مائة متر أخرى، وهـم مستمتعون بالسير فوق أرض مستويـة. قال أوليس فجأة: إنه ليس كذلك!

بدت علامات الحيرة على وجه دوجنز، وسأله: ليس ماذا؟

ـ ليس شديد الارتفاع. انظر!

وأشـار إلى وادٍ منخفض، انحـدر إلى الشرق من سلسلة التـلال. رأوا عشبـاً شـديـد الاخضرار بين الأشجار، وأزهاراً زرقاء لامعة، تنتصب في وسطهـا شجرة تمـاثل الشجـرة ذات اللحاء الفضي، والأوراق العريضة.

التفت أوليس إلى دوجنز، وسأله: هل لنا أن نجربها؟

بـدا أن دوجنز لا يـرغب في التوقف عن السـير، ولكن بعد سـاعتين من تسلق التـل، شعر الجميع بالتعب والإرهاق، وتصلّب الأقدام.

هز كتفيه، وقال: ليكن ذلك.

ألقى أوليس، وقد تهلل وجهه من الفرح، بكيسه على الأرض، ثم جذب نبال من ردائه، وقال: «سأسابقك».

ما حدث بعد ذلك، أصابهم جميعاً بالدهشة. فقد جرى أوليس فوق العشب باتجاه الشجرة كطفل يلهو. كانت الأرض مستوية، مما أعطاهم القدرة على الرؤية لمسافة خمسين متراً في كلا الاتجاهين. ثم وجدوا أوليس، وقد أحاط به، على حين غرة، شيء أسود نتأ من الأرض. ظن نيال، للحظة، أنها زهرة سوداء ضخمة، ذات رأس شبيه بالبوق، ثم انقسم الرأس إلى مجسات، التفت حول ذراعي أوليس ورقبته، فراح يصرخ ويتخبط.

كان دوجنز أول من أفاق من الصدمة، فسحب الحاصد من كيسه، وصوبه نحو أوليس، لكن سيميون أنزل بسرعة الماسورة، وقال: «لا تفعل! إنك ستقتله».

كانت صرخات أوليس مرعبة، لكنها توقفت حينما التف مجس أسود حول رأسه، وغطى فمه.

قال دوجنز: يا إلهي! ما هذا؟

رد سيميون، وهو يسحب مديته من الجراب، قائلاً: إنه جبار أرضي، ويمكن قتله إذا ما بترنا جذوره.

جرى فوق العشب، وخلفه مانيثو. لم يظهر من أوليس سوى رأسه، أما بقية جسمه فقد اختفى تحت الجبار الأسود، بينما اختفت ساقاه في الأرض، لكنه ظل يتخبط بعنف. سحب مانيثو مديته للخلف، وضرب عند المكان الذي خرج منه الجبار في الأرض. أظهر الجلد مقاومة، كما لو أنه مطاط. واصل مانيثو وسيميون توجيه الضربات فبدأ الجبار يختفي مرة أخرى تحت الأرض اللينة. أدركا أن توجيه ضربات أخرى، قد يُعرض أوليس للخطر، فألقى مانيثو بمديته، ولف ذراعيه حول الجبار، الذي سرعان ما التفت مجساته حول رقبته. وعندما حاول سيميون تخليص مانيثو، أمسك به هو أيضاً. برزت مجموعة مجسات للجبار من تحت الأرض، حيث راحت تلتف حول ساقي مانيثو.

هرع ميلو، وتقدم حاملاً الحاصد، واتجه نحو أقصى طرف المجموعة المتخبطة، ليتجنب مانيثو وسيميون، وصوب بحذر نحو الأرض. لم يشاهدوا أشعته بوضوح تحت ضوء الشمس، لكنهم سمعوا نشيش الأرض المبللة، ورأوا سحابة بخار. حرك الحاصد ببطء من جانب إلى آخر، ثم توقف التخبط فجأة. انهار الجبار على جانبه، مثل زهرة سوداء طويلة، ومعه مانيثو وسيميون. وجدوا مانيثو يسحب، بعد لحظة، أوليس إلى سطح الأرض، وقد تحرك الجبار، الذي انفصل عنه جذره، معهما.

صاح دوجنز: هل أنت بخير؟

أومأ أوليس، وهو يسعل، ثم تقيّأ:

انضم نيال إليهم، ونظر في الفجوة، فرأى كتلة سوداء لامعة، بدت مثل بقايا يرقة هائلة، ما تزال تتحرك، وهي تنفث رائحة، تماثل رائحة الدلتا العطنة. استمرت بقية الحبار الأرضي تتخبّط، وتتلوّى على الأرض، مفرزة مادة لزجة خضراء اللون، لكنه لم يعد قادراً على إلحاق المزيد من الضرر بأحد.

استعاد أوليس، بعد أن تمدد، ووجهه إلى الأرض لمدة عشر دقائق، قوته ونهض واقفاً. سار بخطوات ثقيلة تحت فروع شجرة الأرجوان، وجلس، وقد أسند ظهره إلى جذعها، مغمضاً عينيه. ثم فتحهما بعد بضع لحظات.

ـ لم يحدث شيء.

تطلع نيال إلى الفروع، فلم يلحظ أية حركة فيها.

قال ميلو: ربما تكون درجة الحرارة منخفضة للغاية هنا.

هز سيميون رأسه، وقال: في تلك الحالة، ما الذي يجعل الشجرة تنمو هنا؟ إنها ستتعرض للموت.

تغضن وجهه، عندما ذهب وجلس بجوار أوليس، وبدت علامات الاشمئزاز عليه، وقال: أنت بحاجة لأن تستحم يا بني! ثم تبدلت العلامات على وجهه وقال. لقد فهمت الآن. إن الشجرة لن تهاجمك، لأنك قد اكتسيت بالمادة اللزجة، التي أفرزها هذا المخلوق البشع.

صاح مانيثو: أرى نهراً هناك.

هبط أوليس التل بخطوات مرتعشة، وقد اتكأ على ميلو. ثم خلع ملابسه ونزل إلى الماء، الذي وصل إلى خصره. ولما خرج، بعد خمس دقائق، قدم له ميلو رداءً احتياطياً، أصفر اللون، غير مهندم، لكنه كان بديلاً مقبولاً لرداء السفر الرمادي، الذي أصبح متصلباً بفعل المادة اللزجة الغروية. حينما جلس تحت ظلال شجرة الأرجوان للمرة الثانية، اهتزت الفروع هزات خفيفة، وبدأت تنحني ببطء إلى أسفل. ذهب الآخرون وجلسوا بجواره، وأسندوا ظهورهم إلى الجذع، وشعر نيال مرة أخرى بانتعاش وانتشاء، يماثل إحساسه عندما تتساقط على جسمه قطرات المياه وهو يغتسل. بدأ الاجهاد ينزاح عن جسمه، ويحلّ مكانه للحظة، إحساس قريب من الألم. ولما اشتم رائحة الغاز الغريبة اللذيذة، فتح عينيه، فوجد

أن الفروع قد لمست الأرض. هز دوجنز، الذي جلس بجواره، وقال له: «من الأفضل أن نتحرك الآن قبل أن نتعرض للالتهام».

زحفوا على مضض، مبتعدين عن الخيمة الخضراء. بذل بعض الفروع جهداً فاتراً للالتصاق بهم، لكنهم أزاحوها بسهولة، فالشجرة تعتمد على تخدير ضحاياها ليصبحوا في حالة من الضعف تحول دون مقاومتهم لها.

تلاشى الإجهاد، الذي شعر به نيال من قبل، لكن عضلات مفاصله ظلت تؤلمه، بسبب عملية التسلق، التي استغرقت فترة.

سأل أوليس: هل تشعر بالقوة التي تجعلك تواصل السير؟

قال دون حماس: أظن ذلك.

قال سيميون: سوف يحل الظلام في غضون ساعتين، ومن الأفضل أن نبدأ البحث عن مكان لننصب فيه خيامنا.

حملوا أكياسهم، وواصلوا السير بامتداد سلسلة التلال. لكن تجربة الجبار الأرضي هزتهم جميعاً، فركزوا عيونهم على الطريق أمامهم. توقف سيميون، بعد أن قطعوا نصف ميل آخر، وأشار إلى منطقة عشبية مقطوعة الأشجار، أسفل الطريق مباشرة، وقال: «انظروا! هناك واحد آخر».

لم يدركوا في البداية ما يعنيه. ثم تمكّن نيال من تمييز بقعة قائمة غير متناسقة، وسط دائرة من الأزهار الزرقاء.

ـ هل أنت واثق مما تراه؟

ـ تماماً. اقتربوا أكثر، وانظروا عن قرب!

اتجهوا نحو البقعة بحذر، وأمسك دوجنز حاصده، وهو في وضع الاستعداد. أدرك نيال، وقد انتابه الرعب، أنه يتعرض للمراقبة، واكتشف أن البقع الصغيرة لفطريات بيضاء، ما هي إلا عيون ضاقت، عندما دنوا منها.

أطلق دوجنز النار، وقال باشمئزاز: «سأقتله». أصاب اللهب الأزرق الرفيع، الذي يماثل خيطاً زجاجياً مضيئاً، بقعة الأرض السوداء. تناهت إلى مسامعهم أصوات هسيس عنيف، مثل صوت بخار متسرب، فارتدوا جميعاً للخلف في ذعر، حين برز الجبار من الأرض، وقد راحت مجساته تتذبذب، وضربتهم رائحة العطن مثل لطمة. زادت الرائحة عندما شطرته الأشعة. أخذوا يهرعون مبتعدين، وقد أصابتهم رائحة جلد الكائن المحترق بالأعياء.

صاح سيميون فجأة: توقفوا!

توقف الجميع، فقال سيميون: نحن نعدو بسرعة، ماذا يحدث لو أن أحد هذه الكائنات يتمدد في طريقنا؟ إننا نعرض حياتنا للخطر.

نظر إلى دوجنز، واستطرد قائلاً: «من الأفضل ألا نقتل أي شيء حتى نضطر إلى ذلك.

شعر دوجنز بوجاهة التوبيخ، فقال: «آسف. لكنني حسبت أن الأرض ستكون أفضل بدون ذلك الشيء».

هز سيميون كتفيه، قال: ذلك ما تراه، ولكن إذا كنا نراه تهوراً وطيشاً، إذن فهو تصرف خاطىء. لنواصل السير ببطء، ونركز على الطريق.

بدأ الضوء يخفت. وعندما وصلوا، بعد نصف ساعة، إلى منطقة أخرى مقطوعة الأشجار، كانت الشمس تلامس قمم التلال الغربية.

أسند أوليس ظهره إلى جذع شجرة، وقال: هل بالإمكان التوقف الآن؟ أنا في غاية التعب.

شحب وجهه، وراح العرق يتفصد منه.

نظر دوجنز إلى سيميون، وقال: ماذا تقول؟ هل سننصب خيامنا هنا؟

مسح سيميون الأرض بعينيه، وقال: أظن أنها آمنة.

ألقوا بأكياسهم على الأرض، بارتياح. استلقى أوليس على ظهره، وأغمض عينيه، وفي غضون لحظات، راح في سبات عميق وبينما ذهب مانيثو للبحث عن ماء، جمع نيال وميلو أغصان الأشجار اليابسة، وهما يحملان سلاحيهما في وضع الاستعداد، لكنهما لم يصادفا شيئاً أثار ذعرهما. عثر نيال على شجيرة فراولة، ورغم أنها لم تصل بعد إلى درجة النضج، إلا أنها كانت لذيذة. جلسوا، بعد نصف ساعة، حول النار، وقد لفهم الغسق، وتناولوا وجبة من لحم سرطان البحر المطهي - وكان سيميون قد احتفظ بما تبقى من لحم المخلب - وجبن الماعز، وفطائر مجففة مكسوة بالزبد، وفراولة برية. ثم تناولوا بعد الوجبة كأساً من النبيذ الذهبي. لم يشعروا، بعد الانتهاء من وجبتهم، أن الخطر يحيط بهم. وعاودتهم الفكرة التي رسموها في أذهانهم منذ البداية لرحلتهم إلى الدلتا على أنها مغامرة مثيرة. ولو لم يكونوا قد تعودوا الحذر، لما انتابهم أي خوف. ومع ذلك شعر نيال بالقلق، وهو ينظر إلى أوليس، الذي راح في نوم عميق. فقد بدا وجهه شاحباً، بينما لا يكاد يسمع تنفسه. ولما حاول ميلو

ايقاظه لتناول الطعام، فتح عينيه، وابتسم، وهز رأسه. لاحظ نيال، بعد ذلك، أن سيميون ينظر بين فترة وأخرى إلى وجه أوليس النائم، فانقبض قلبه.

عندما حل الظلام، ألقى مانيثو بمزيد من الخشب في النار، وسرعان ما أضاء اللهب المكان المقطوع الأشجار. تمطّى نيال، وتساءل إذا ما كان بوسعه أن يستريح داخل البطاطين.

برز شيء من وسط الظلام، محدثاً طنيناً، ليضرب مؤخرة رأسه، ثم يطير إلى داخل النار. وثب الجميع واقفين. كانت فراشة زاهية الألوان، يصل طول جناحها إلى قدمين، جذبها اللهب، فسقطت في النار، وراحت تضرب بجناحيها بهستيرية، فملأت الجو، بالشرر والرماد. أمسك مانيثو بفرع جاف، وأسقط الفراشة على الأرض، ثم قتلها بضربة واحدة. ولكن بمجرد أن عادوا إلى أماكنهم حول النار، خرجت فراشتان أخريان من الظلام، واتجهتا نحو اللهب مباشرة. كان حجمهما الهائل يعني أنهما ستثيران رماد الخشب، في كافة أنحاء المكان. تخبطت أجنحة أخرى في الظلام، وباتت النار مجرد كتلة من الجمرات المتوهجة، والرماد الساخن، ولم يعد هناك ضوء يكفي لجذب المزيد من الفراشات. ولذلك فقد تمددوا في الظلام، تحيط بهم رائحة دخان الخشب، والأقمشة المحترقة؛ حيث تساقطت الجمرات فوق البطاطين، وأخذوا يتبادلون أطراف الحديث عن الغد، وما يمكن أن يواجههم فيه، وعن طبيعة رد فعل الخنافس والعناكب على اختفائهم. نشر نيال مرة أخرى، الرداء المعدني فوق العشب كملاءة، ولف نفسه ببطانيتين، واستخدم الرداء الاحتياطي، الموجود في كيس المؤونة، كوسادة. خف الحديث تدريجياً، ثم راح أحدهم يشخر.

كان نيال قد نام، عندما أيقظه صوت ميلو، الذي راح يردد بهدوء: «سيميون» ولكن لم يرد أحد، فقد كان سيميون هو الذي يشخر. أخذ ميلو ينادي على سيميون بصوت أعلى. تناهى إلى مسامعه صوت دوجنز، وهو يسأله: «ماذا جرى؟»

ـ أظن أن أوليس قد مات.

استيقظوا جميعاً. استخدم مانيثو علبة القدح ليشعل ناراً. وفي غضون ذلك وضع نيال يده فوق جبهة أوليس، فعرف أن ميلو على صواب، فقد كان أوليس بارداً وساكناً، وبدا وجهه في ضوء اللهب شاحباً، كالرخام، فشعر بموجة من الأسف والأسى.

قال سيميون: ولكن ما الذي قتله؟ هل بسبب لهب رقاقات الخشب المحترقة؟ وراح يفحص ذراعي أوليس العاريتين، ثم ساقيه. وحين تأرجح ضوء اللهب فوق ركبة أوليس، أشار سيميون، قائلاً: هذا ما قتله.

كانت الركبة اليمنى متورمة، وبها كدمات. رأى نيال، عندما فحصها عن قرب، ثقباً صغيراً في وسط الورم.

قال سيميون: لا بد أن لذلك الحبار زبانياً. أعتقد أنه كان يعرج. . .

لم يكن هناك شيء يمكن القيام به وسط الظلام، فغطوا جثة أوليس ببطانية، ونقلوها بالقرب من الجمرات، كما لو أن الدفء قد يعيد إليه الحياة. ثم تمددوا، وناموا من جديد. أحس نيال بأن ميلو يصرخ، رغم أنه لم ير أو يسمع شيئاً.

تمدد متيقظاً محدقاً في السماء السوداء، وقد تلاشت أية رغبة للنوم. بدأ، لأول مرة منذ أن تركوا مدينة الخنافس، يتساءل عن الهدف الذي يسعون إلى تحقيقه. لقد هزه موت ماركوس، يورج، سيبريان، وأخيراً أوليس. أحسّ بكل كيانه يتشنج، وقد انتابه شعور بالبؤس والثورة. لم يعد مجدياً القول بأن موتهم جزء من نضال بطولي. فقد بدا موتهم مجرد خطأ أحمق.

كانت ثورته الداخلية في غاية الحدة، فوجد أنه من الصعب عليه الاستلقاء ساكناً. حثته غريزته الطبيعية على النهوض والتجول، لكنه أدرك أن ذلك سيكون تهوراً يعرضه للخطر. لذلك فقد ركز كل قوة إرادته بكبح جماح رغبته في التحرك، وأجبر نفسه على الاستلقاء ساكناً تحت البطاطين.

تناهي إلى مسامعه صوت صرخة حيوان، وتحطم جسم ثقيل. مد يده بحذر ليتأكد من أن الحاصد قريب منه، وأحس بالارتياح، عندما أمسكت أصابعه بالمكان الذي تلتقي فيه الماسورة بأصل السلاح. ثم تراءى له أنه يرى صورة دوجنز وهو يقضي على الحبار الأرضي، فتبلور إحساسه بالاستياء. فهم، للمرة الأولى، طبيعة المزيج الغريب بين العار والنشوة، وهو المزيج الذي شعر به عندما حمل الحاصد للمرة الأولى. لقد جاءت النشوة من الإحساس بالقوة، لكنها النوع الخاطىء للقوة.

أصابته بصيرته بالحيرة، للحظة. ففوق كل شيء يعد الحبار الأرضي مخلوقاً مرعباً وخطيراً، ولا أحد يلوم دوجنز لأنه قتله. ومع ذلك لم يكن هناك ما يدعو للقضاء عليه. فقد كان بإمكانه محاولة قهره بذهنه، ليتخلص من مشاعر الخوف والاشمئزاز، اللذين أثارهما لديه منظره.

ذكّره ثقل القضيب المتداخل فوق فخذه بالبرج الأبيض. بدا له فجأة الآن، أنه يسمع كلمات السيد ستيج، التي رنت في أذنيه بوضوح، فظن أنها نابعة من داخل رأسه. «أريد

معرفة السبب، الذي يجعلك تظن أن العناكب تستحق الفناء، والإنسان يستحق البقاء. هل البشر أفضل من العناكب؟»

لقد ذهب ستيج مباشرة إلى هدفه. ما الحق الذي يجعل الإنسان يسعى للاستيلاء على الأرض من العناكب؟ لقد أظهر تاريخه السابق أنه غير مناسب ليكون سيد الأرض؛ فقد فشلت كل إنجازاته في تحقيق السعادة له، وتأكد فشله حين رحل عن الأرض، واستعمر مجموعة نجوم الظُلمان.

أيمكن أن يكون هذا هو الرد على أحجية ستيج؟ أيكون هو السبب وراء عدم قدرته على مساعدة نيال على التخلص من العناكب؟ انقبض قلبه من جراء هذا التفكير، ومع ذلك فكلما قلب الأمر على أوجهه المختلفة، وجده محتملاً. وعندما فكّر في الذباب الصمغي، وكيف أن دوجنز أجبره على الطيران، حتى استنزف ونفق، شعر بالحزن والعار. ومع ذلك فعندما يتذكر مرحه، وهو يصوب الحاصد إلى العناكب، ويسحب الزناد، يجد أنه ليس في وضع أفضل من دوجنز.

أثارت هذه الأفكار شعوراً مخيفاً لديه، فأحس كأنه يسقط من فوق تل. كما اختلط عليه الأمر، بطريقة غريبة، فمنذ بضع دقائق لم يكن يشعر بأي شك في هدفه الأساسي، وهو المساعدة على تحرير الإنسان من هيمنة العناكب، أما الآن فقد بدا الأمر، على نحو مفاجىء، محلّ تساؤلات عديدة.

بدأ أحدهم يشخر، قد يكون دوجنز، فشعر بشيء من الراحة، حيث أعاده ذلك إلى حالته الطبيعية. فكر، للحظة، في أن يأسه ما هو إلا نوع من الخطأ وحالة مؤقتة من الإحباط. ثم عاد ذهنه إلى الحقيقة الأساسية، وهي أن البشر ليسوا مناسبين ليكونوا سادة الأرض بشكل أكبر من العناكب، وأحس مرة أخرى بأنه يسقط من علٍ.

زحفت أصابعه إلى مرآة التأمل، ثم تراجعت. بدا له أن لا جدوى من استخدامها، كما لم يشعر برغبة في تركيز ذهنه. ثم قلبها، كما لو أنه يتحداها أن تحدث أي تغيير في إحساسه باليأس. شعر كأن قبضة تطبق على عقله، وتلاشى يأسه، وأحس، مرة أخرى، بالقوة والسيطرة. أدرك بسرعة خاطفة الإجابة على المشكلة. لقد وصلت الحضارة الإنسانية إلى درجة الفشل، لأن الإنسان نجح في السيطرة على العالم المادي، دون السيطرة على عقله. ولكن هذا لا يعني أنه ليس للإنسان الحق في أن يكون سيد الأرض، فالعناكب تفتقر هي الأخرى للسيطرة على عقولها ـ وقد أكد ذلك قسوتها وحماقتها، واللهو الذي تمارسه وهي تستخدم قوتها. أما الإنسان فيتمتع، على الأقل، بالبصيرة، التي يدرك عن طريقها أنه يفتقر

للسيطرة على ذهنه. ويمكن أن يزعم، في هذا الصدد، أنه أفضل من العناكب...

بدأ لون السماء فوق رأسه يتحول إلى الأزرق الفاتح، فتمكن من رؤية الحدود السوداء لقمم الأشجار في الفراغ الأزرق. راح القمر يرتفع، وراء الأشجار، وبالرغم من أنه لم يظهر، لكن ضوءه انعكس من خلال السحابة الوحيدة، التي تحركت فوق رأسه. شعر بأن الضوء يترشح في عالمه الداخلي. لم يكن مصدراً مرئياً بعد، لكن المعرفة بوجوده أثارت فيه إحساساً بالراحة والأمان.

- ٥ -

أدرك نيال، بمجرد أن أفاق، ذبذبة الدلتا، التي لم تعد تذكره بتنفس حيوان هائل، بل بذبذبة آلة ضخمة آتية من مكان بعيد.

باتت السماء، فوق قمم الأشجار، بالجبهة الشرقية، فاتحة اللون، رغم أن الظلام ما زال يلفهم. إلا أن المستنقعات دونهم وضحت تحت أشعة الشمس الواهنة. فَهم أن ذبذبة القوة الملحة، ما هي إلا استجابة لظهور الشمس. أثار هذا التفكير فضوله. فإذا كانت القوة تستجيب للفجر، فلا بد أنها تستيقظ من نومها، مثل نبات أو حيوان هائل. . .

كان من السهل عليه، وهو ما يزال يترنح بين النوم واليقظة، أن يغرق في سكون الوعي العميق. أدرك، حين فعل ذلك، وجود الأشجار، وعرف أنها تسيقظ هي الأخرى. فهم فجأة سبب ضخامتها؛ فالقوة النابعة من تحت الأرض، توقظها من وعيها النباتي الضئيل، الذي يشبه الحلم، وتمنحها طاقة أكبر. ولكن لأن درجة الحرارة هنا منخفضة للغاية، مما يحول دون استيعاب هذا الوعي الجديد، فإنها توجه جهدها لأعلى، نحو السماء.

تغلغلت الذبذبة إلى نيال أيضاً، مثيرة نشوة غريبة. ومع ذلك فإنه لم يشعر برغبة في الاستسلام لها؛ إذ أن ذلك يعني خفض مستوى ذكائه لمعدل أقل. فقد طور الجنس البشري بالفعل معدلاً عالياً من الذبذبة، ورغم أن جسمه استجاب لهذه الطاقة القوية، فإن ذهنه وجدها عادية لا تلبي طموحه. ومع ذلك، فقد منحته الشجاعة، لأنها جعلته يدرك أنه قادر على زيادة معدل هذه الذبذبة إلى مستوى ذبذبة ذهنه.

كان الآخرون مستغرقين في النوم. فحمل حاصده، وشق طريقه بين سلاسل التلال، إلى أن وصل للمجرى المائي، الذي كانت مياهه ضحلة في هذا المكان. خلع رداءه، وجلس فيه، فأحس بنشوة ساكن الصحراء عندما يرى ماء وفيراً، انعكست السماء الشاحبة على صفحته. عاوده، من جديد، السراب، الذي تراءى له، وهو في المجرى الضحل، في قرية النمال. استمر ذلك لجزء من الثانية فقط، لكنه غمره بشعور غريب من البهجة. لمح، وهو يداعب جسمه بالماء، مصدر هذه البهجة. بدا الأمر كما لو أن باباً قد انفتح، ليرى، على

نحو مفاجىء، عالماً سحرياً داخلياً هائلاً. فهم، في تلك اللحظة، السبب وراء تدفق ذبذبة الدلتا بجانبه، لتتركه دون أن تصيبه بشيء، ذلك لأنه يمتلك بالفعل داخله هذا المصدر الهائل للبهجة، والتي تزيد كثافتها بكثير عن كثافة طاقة الدلتا، التي تنبع من جوف الأرض. كما أن حياته ليست مقتصرة على اللحظة الراهنة، كما هو الحال في الأشجار، فكلّ لحظة بهجة مرّ بها، يتمّ تخزينها بعناية في عالمه السحري الداخلي، بانتظار إعادة الحياة إليها بكل كثافتها الأصليّة. إنه الإدراك بأن البشر، وليست النباتات والحيوانات، هم سادة العصر، وليسوا عبيده.

لم يبال البرد، بعد أن سحب رداءه ليغطي جسمه المبلل، وفي الواقع، فإن المشقة، التي عانى منها، أثارت في نفسه نشوة وبهجة غريبة. حمل الحاصد كيفما اتفق، وهو في طريق العودة. فقد عرف بحدسه أنه في ظل هذه الحالة الذهنية، لن تكون حياته تحت رحمة أي حادث عارض.

كان سيميون قد استيقظ بالفعل، وانهمك في لف جثة أوليس داخل بطانية. استيقظ مانيثو، وتلفت حوله، وقد علت وجهه ابتسامة عريضة منشرحة، وتثاءب.

ـ هذا المكان يجعل الشخص نهماً، بإمكاني التهام جمل مشوي.

قال سيميون: ليس هناك وقت للشواء، فأمامنا يوم طويل. هل تستطيع تسلق الأشجار؟

تطلع مانيثو بشك إلى الأعمدة، التي ترتفع لنحو مائة قدم فوقهم، وقال: أظنّ ذلك. لِمَ؟

ـ أعتقد أنه يتعين علينا ترك أوليس فوق شجرة، بدلاً من دفنه. ففي هذه الأرض، لن يبقى طويلاً، ولكن إذا ما وضعناه فوق شجرة، فقد نتمكن من العودة وحمله معنا إلى المدينة ودفنه هناك.

جلس ميلو، الذي أيقظته أصواتهم، وأزاح عنه البطاطين. بدا شاحباً ومجهداً، من الواضح أنه لم ينم نوماً هادئاً. وضع يده على خد أوليس، وقال: هل أنت متيقن أنه قد مات؟

ـ تماماً. إنه متصلب كلوح خشبي.

بدا وجه ميلو جامداً، وهو يحملق في صديقه، وكأن مشاعره قد تجمدت.

تناولوا طعام الإفطار من الخبز واللحم المجفف، ومع أكواب من الماء البارد. لم يكن هناك وقت لإضرام نار، فقد أحس الجميع بضرورة التحرك على الفور، فتناولوا طعامهم بأسرع ما يمكن. كان ميلو أول من انتهى من طعامه، فأخذ من كيسه لفة من حبل رفيع،

وربط في طرف الحبل قطعة ثقيلة من خشب محترق في النار، ثم ألقى بها، بكل ما أوتي من قوة، نحو أقرب فرع شجرة، كان جذعها بعرض عشرة رجال معاً. لم يصل الحبل إليه، وكادت قطعة من الخشب تسقط فوق رأس مانيثو، الذي التقطها، وألقى بها بقوة، فطارت في الهواء، والتف الحبل حول الفرع، وسقط من الجهة الأخرى. كان طول الحبل يزيد عن مثلي المسافة بين الأرض والفرع. أمسك مانيثو كلا الطرفين بإحكام بيديه الضخمتين، وتسلق عليه حتى وصل إليه، ثم رفع جثة أوليس المتصلبة، داخل البطانية، في الهواء، وربطها بإحكام بالحبل حول الفرع، ثم هبط إلى الأرض. وقفوا للحظة، محدقين في سكون لأعلى، مودعين أوليس، وتقدمهم دوجنز، دون أن ينبس بكلمة، ليواصلوا السير.

ساروا لمدة ساعتين بين سلاسل التلال، إلى أن اختفت، ووجدوا أنفسهم أمام وادٍ تحيط به الأشجار، تمكنوا، في هذا المكان، من رؤية منطقة الدلتا الوسطى دونهم، بغابتها الخضراء المصفرّة، وشاهدوا في منتصفها المياه اللامعة. كان النهران يلتقيان على بعد عشرة أميال إلى الجنوب، وارتفع بينهما التل المكسو بأشجار نمت وسط مستنقعات مسطحة، كنصب غريب. رأوا، من هذه المسافة، أن التل يعلوه بناء يماثل البرج.

أصبح أمامهم الآن خياران، إما هبوط الوادي إلى الغابة تحتهم، أو السير إلى أقصى طرف الواردي، والاستمرار في الاتجاه ذاته، مثلما حدث في رحلة سلسلة التلال، التي أفضت بهم إلى هذا المكان. ونظراً لوجود اتفاق ضمني بأن هدفهم الآني هو نقطة التقاء النهرين، فقد بدا من المعقول مواصلة خط السير الحالي وسط الغابة، وتأجيل الهبوط إلى السهل حتى آخر لحظة. ولذلك فقد جددوا نشاطهم في مياه النهر المتدفقة، التي تجري إلى الوادي، ثم صعدوا التل المكسو بالعشب، نحو أقرب فجوة بين الأشجار.

لاحظ نيال، وهم يصعدون التل، أن طبيعة النباتات مختلفة. فالعشب أكثر سماكة واخضراراً منه على الجانب الآخر من المجرى، وعندما تعثر بالمصادفة وسقط عليه بكلتا يديه، انتابه شعور غريب غير متوقع، فقد تراءى له أنه نابض بالحياة، ويتلوى ليبتعد عنه، وأحس بأنه كثيف ورطب، ولما قبض عليه بشدة، شعر كما لو أنه يقبض بأصابعه على مجموعة من المجسات الخضراء الرفيعة. حاول قطعة بالمديه، لكنه بدا صلباً، قوياً.

لاحظوا، عندما اقتربوا، أن طبيعة الأشجار قد اختلفت أيضاً. فهي ما تزال ضخمة، لكنها لم تعد عريضة، أو مستقيمة الجذوع. إنها ليست غابة، ولكنها أحراش استوائية؛ فالجذوع سوداء، شكل العديد منها يماثل شكل الزواحف المحرشفة، بعضها كان عريضاً عند القاعدة، مستدق الطرف تحت الفروع، وكلها ذات أشكال ملتوية، وكأنّ عملاقاً قد أحاطها

بذراعيه، محاولاً نزعها من الأرض. وتنبض هذه الأشجار بالحياة بشكل يفوق أشجار الغابة على الجانب الآخر من الوادي، كما يبدو وكأن جذورها تحاول شق طريقها خارج التربة. جعل بعضها نيال يتذكر متقزّزاً العناكب الجاثمة. شعر، بمجرد أن أصبح بينها، بأنه مُراقب، كما لو أن عيوناً خفية تتفحصه من بين الفروع.

كانت الأرض تحت قدميه مكسوة بالنباتات الصغيرة والمتسلقة، ومن بينها العديد من الأزهار الغريبة الشكل. حدَّق دوجنز في هذه النباتات متشكّكاً، وسأل سيميون: أهي مأمونة الجانب؟

ـ عند هذا الارتفاع نعم. ولكن ذلك الشيء خطير.

وأشار بإصبعه إلى زهرة قرنفلية جذابة بشكل ملفت، برزت من وسط نباتات متسلقة تبدو كالأفاعي. ثم التفت إلى مانيثو، وقال: أعطني مديتك!

عبر المنطقة المقطوعة الأشجار، وقد أمسك مدية في كل يد، واقترب من الزهرة، التي بلغ عرضها نحو قدمين. بدت البتلات غريبة الشكل، مثل أشرعة قارب، لكن منظرها أوحى بأنها غير ضارة. مد سيميون يده اليسرى، التي تحمل المدية، ولمس الزهرة، فقبضت البتلات في الحال، على النصل، وسقطت المدية من يده، فنزل بيده الأخرى، التي يحمل بها المدية الثانية، وبحركة واحدة قوية قطع العنق الأخضر العريض، الذي يسند الزهرة، فراح يتلوى كأفعى، بل ونزف منه، وسط دهشة نيال، سائل أحمر كالدم. هوت الزهرة القرنفلية، وهي ما تزال تقبض على المدية، وسط النباتات المتسلّقة، عند قاعدة الساق. انحنى سيميون، وسحب المدية من مقبضها. انتصبت النباتات الزاحفة، فجأة، وقبضت على رسغه وساعده. أخذ يوجه لها ضربات متتالية بالمدية، في يده اليمنى، ونجح في قطع معظمها، ولكن، في هذه الأثناء، برز من قاع التربة نبات متسلق ضخم، يبلغ عرضه نحو سمك ذراع مانيثو، والتف حول كاحل سيميون، الذي التفت، وصاح: «ساعدوني»، ثم فقد توازنه، وسقط وهو يئن من الذعر، عندما راح النبات الزاحف الكثيف يجره إلى وسط الأجمة.

هرع الآخرون لنجدته، في غضون لحظات وأخذوا يوجهون ضربات متتالية إلى النباتات المتسلقة. لاحظ نيال أن الساق، الذي لا رأس له، يهاجم هو الآخر سيميون، ويلتف حول أحد إبطيه، ويحاول جره إلى الأوراق العريضة، فشطره بضربة واحدة. لكن الأمر استغرق أكثر من خمس دقائق قبل أن ينجحوا في تخليص سيميون الذي نهض واقفاً على قدميه، وألقى نظرة على النبات، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة كالحة.

ـ ليكن هذا درساً لكل من يبالغ في الثقة بنفسه. لقد كان التعامل مع هذه الأشياء

اللعينة سهلاً عندما كنت هنا آخر مرة ـ منذ خمس سنوات. أما الآن فقد ازدادت خطورتها كثيراً، وهذا يعني أنها في حالة تغير دائم.

ثم نظر حوله، واستطرد: لم يبق شيء على حاله في الدلتا.

مسح السائل، المماثل للدم، الذي راح يتحدر على خده، ثم تحسس العصير بأصابعه، واشتمّه. كانت الزهرة القرنفلية ممددة على الأرض، وما تزال بتلاتها تقبض على المدية، التي التقطها سيميون، وقطع بها إحدى البتلات، واشتمها، ثم وضع جزءاً منها في فمه.

قال دوجنز: احترس! قد تكون سامّة.

ـ هذا الاحتمال ليس وارداً، فلهذا الشيء نظام دفاعي مختلف.

ثم استطرد وهو يلوكها: إن طعمها مثير! جرّبها!

وقدم قطعة إلى دوجنز، الذي هز رأسه رافضاً إياها، لكن نيال قبلها، وقضم منها على مهل، فوجدها مستساغة الطعم، وذكّره مذاقها بالنبيذ الذهبي. قطع بتلة أخرى من الزهرة، وقدمها لميلو، قائلاً: جربها! إنها لذيذة. ثم تغلب دوجنز على شكوكه، خلال دقائق، وراح يمضغ قطعة منها بابتهاج واضح.

قال سيميون: إنه نبات صائد بطبيعة الحال. فالزهرة تجتذب الحشرات إلى الأجمة، وتلتهمها.

ثم أشار إلى نبات متسلق، يشبه الأفعى، يتمدد ممزقاً عند أقدامهم، وقال:

ـ وهذا يسعى إلى أسر الحيوانات الكبيرة.

قال ميلو: لم أر أية حيوانات حتى الآن.

ـ سترى.

قال مانيثو: لا يوجد العديد منها بالتأكيد، وسط نباتات مثل هذه.

هز سيميون رأسه، وقال: إذا كانت الدلتا كأي مكان آخر على الأرض، فأنت محق فيما تقوله. ولكن الدلتا عبارة عن بوتقة صهر، متطورة باستمرار. فكل هذه الأشياء حولنا تحت التجربة. وإذا لم يتمكن أحدها من البقاء على قيد الحياة، فسوف يلغى من الوجود، ليحل شيء آخر مكانه. ولذلك فهناك إحلال مستمر لأشكال جديدة مختلفة من الحياة.

كان لحم الزهرة القرنفلية مريحاً للمعدة، وبدا أنه يحتوي على مادة منبهة، أثارت حالة من الانتعاش. شعر الجميع بنشوة، وثقة أكبر، حين استأنفوا رحلتهم. ورغم أن الأرض اكتست بأنواع عديدة من الشجيرات، والأزهار، والنباتات المتسلقة، إلا أن كل ذلك لم يشكل أية عقبة حقيقية أمام تقدمهم. فكانوا يرفعون أقدامهم، ويدوسون بثبات فوق

الأرض، فتتهشم النباتات تحتها، وتُصدر رائحة طيبة عطرة، يلفها عبير الأزهار. تصرف نيال بحذر بعد تجربة اليوم السابق، فبذل جهداً لكي يسترخي، مما جعله يدرك أن هذه النباتات لا تحاول بث ذبذبات الدلتا، وبالتالي فإنها ليست مؤذية. لكنه وجد صعوبة في الإبقاء على تلك الحالة من الإدراك المسترخي، نظراً لأن لكل شيء يمر به نوعاً من الإدراك الخاص به، بدءاً من النباتات السحلبية العملاقة، التي يقتصر هدفها الوحيد على جذب النحل لينثر الطبقة الغبارية، التي يكتسي بها جسمه، وحتى الأشجار الخانقة المرعبة، بنباتاتها المتسلقة التي تماثل المجسات، والتي تسعى كي تلتف حول الضحية وتخنقها. كان يشعر في البداية بالانتعاش وهو يخوض هذا الوعي المتعدد الجوانب، ويدرك أن وعيه الإنساني المحدود ليس إلا نوعاً واحداً من بين أنواع عديدة، لكنه أحس بعد نصف ساعة بالتشبع من هذه الانطباعات الجديدة، وشعر بالراحة، عندما عاد بإدراكه إلى حالته الطبيعية، المحدودة الضيقة.

كان واضحاً أن الطريق، الذي يسيرون فيه، قد مهدته الحيوانات، أو ربما حيوان واحد هائل، حيث نحيت، في بعض الأماكن، أشجار ضخمة، بينما سويت شجيرات عديدة بالأرض. بدأ الطريق، بعد ستة أميال، ينعطف إلى أسفل التل، ولاحظوا الارتفاع التدريجي في درجة الحرارة. تناهى إلى مسامعهم طنين الحشرات الضعيف والمستمر، بينما ازدادت كثافة النباتات. التف نبات متسلق، بنفسجي اللون، فجأة حول ساق مانيشو، ولما أبعده بضربة واحدة، أخذ ينتفض، ويتلوى كدودة منشطرة، وأخذ سائل أزرق ينز من طرفه المقطوع. سمعوا أزيزاً حاداً، جعلهم يتقهقرون مذعورين، والتقطت حشرة طائرة، لها جسم طويل، وعينان خضراوان، وزباني مدبب ناتىء من الذيل، شريحة النبات. قال سيميون إنها من النُعر(*). كانت الذبذبة، طويلة القوائم، التي خطفت النبات المتسلق، ذكراً، وبالتالي غير مضرة بالنسبة للبشر، فالذكور يفضلون امتصاص رحيق الأزهار. ووصف سيميون الأنثى، التي تمتص الدم، بأنها واحدة من الحشرات الأكثر خطراً في الدلتا. ويقيهم العصير، الذي دلكوا به أجسامهم، خطر النُعَر، وبعوضة الملاريا، ولكن نظراً لأن مفعوله قد خف، خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية، فقد توقفوا ودلكوا أجسامهم بمزيد منه، خاصة في الأماكن المكشوفة من البشرة، كما نقعوا ملابسهم فيه، وقد تعودوا على رائحته الأمونية الحادة، وما عادوا يستغربونها.

انحدر الطريق، الذي اصطفت على جانبيه الأشجار، وتمكنوا من مشاهدة وادي

(*) فصيلة من الذباب الضخم اللاسع.

الدلتا. رأوا، أمامهم مباشرة، ربما على بعد عشرة أميال، تلّاً له بروز يشبه البرج. بدا شكله مثيراً، كما لو كان رأس عملاق، تحلل الجزء الأسفل منه متخذاً شكل لحية متدفقة، امتزجت مع الغابة التي تحتها، بينما بدا البروز، الذي على شكل برج، كنتوء مدبب فوق خوذة غريبة الشكل.

سأل نيال سيميون: أتعرف ما هذا الشيء؟

ـ لا. لم أقترب منه قط لأكتشف كنهه. وفي الواقع فإنني لم أقترب إلى هذا الحد من قبل.

ازدادت رائحة النباتات العطنة، عندما هبطوا المنحدر، وأصبحت الأرض، التي تكسوها أوراق الأشجار، رطبة ولينة. وحين التف نبات متسلق آخر حول كاحل ميلو، رفع دوجنز حاصده، وقال: لِمَ لا نطلق النار في الاتجاه الذي نسير فيه لنمهد طريقنا؟

هز سيميون رأسه، وقال: ليس بعد. فهذا المكان نابض بالحياة، ولا يمكنك أن تعرف طبيعة رد فعله.

نظر دوجنز إليه بشيء من الدهشة، كما لو أنه يشك في سلامة عقله، لكنه خفض الحاصد.

رأوا في النهاية، وبعد عشر دقائق، الكائن الذي مهد الطريق وسط الأشجار. فقد انعطف الطريق أمامهم، ولما اقتربوا من الانحناءة، لاحظ نيال ميلاً مفاجئاً في قمة شجرة، تبعد عنهم نحو بضع مئات من الأمتار. أمسك بذراع سيميون، وتوقف الجميع، ثم راحوا يتقدمون بحذر. استداروا مع الانعطافة، ثم توقفوا، وقد علت علامات الدهشة وجوه الجميع، ظنوا أن الكائن الأخضر الهائل، الذي اتجه نحوهم ببطء يسروع عملاق، ولكن انعكاس الشمس على درعه الأخضر، أكد أنه دودة ألفية. وتيقنوا من ذلك، عندما سحب رأسه من النباتات، ونظر نحوهم بفضول، ليكشف عن رأسه البشع، وقوائمه الملتوية الصغيرة، التي تقوست للخارج، مثل فكي سرطان بحري. رفع دوجنز الحاصد مرة أخرى، لكن سيميون دفعه لأسفل بهدوء.

ـ إنها غير مؤذية على الإطلاق، ما لم تمش فوقك.

سد جسم الدودة الألفية الطريق، الذي يبلغ عرضه نحو ثمانية أقدام، ولا يقل طوله عن عشرين متراً. نظرت بعيونها المفلطحة الغريبة نحوهم، لبضع لحظات، ثم حنت رأسها، وواصلت التهام العشب. راح فكاها يصدران جلبة طحن مستمرة، بينما حركت رأسها ببطء، من جانب إلى آخر، وهي تجمع الأزهار والنباتات المتسلقة، بدقة، كآلة حاصدة.

التهمت العشب بسرعة فائقة، وتقدمت نحو عشرة أقدام باتجاههم، وهم يحملقون فيها. وحين تمدّدت زهرة نضرة بعيداً عن متناولها، عند منطقة خالية بجانب الطريق، هزت بهدوء النصف الأخير من جسمها، فتحطمت الأشجار والأزهار على الجانبين، فأحدثت جلبة. ثم استأنفت، بعد أن نظفت بكفاءة المنطقة من الأزهار، تقدمها البطيء.

نظر الجميع إلى سيميون، ليحدد لهم ما يفعلونه، فقال: لنجرب المرور من جانبها، فلن تهاجمنا.

قال دوجنز: وإذا ما مشت فوقنا؟

ـ هذا أمر غير مرجح. لنحاول على أية حال.

ولكن بمجرد أن اقتربوا بضعة أقدام منها، رفعت رأسها مرة أخرى، ونفثت فجأة رائحة جعلتهم يتقهقرون، وهم يترنحون ويسعلون. فقد كانت أسوأ ما اشتمّ نيال في حياته.

قال مانيثو، وهو ما يزال يسعل ويتقيأ: لنلف حولها، فلا شيء يمكن أن يكون أسوأ من هذه الرائحة.

ابتعدوا عن الطريق، إلى المنطقة التي تكسوها الأعشاب، وقد شهروا أسلحتهم الحاصدة. تلوّت النباتات المتسلقة تحت أقدامهم، لكنها لم تبذل أية محاولة لمهاجمتهم. استنتج نيال أن هذا يرجع إلى خوفها من الدودة الألفية القريبة منها، التي استأصلت النباتات الأخرى من جذورها. توقف مانيثو، الذي سار في المقدمة، حين وجد الطريق وقد سدته شجرة تفترش أغصانها، الملتوية كمجسات، الأرض، ولكن عندما تفقدها عن قرب، اكتشف أنها شجرة صفصاف أفعوانية، وهي من فصيلة الشجرة الخانقة، ولكنها غير مؤذية، فأزاحوا الفروع عن طريقهم، دون أية صعوبة. إلا أنهم واجهوا، بعد عشرة أمتار، الشجرة الخانقة ذاتها. بدت للوهلة الأولى مثل شجرة الصفصاف الأفعوانية، حيث اكتسى جذعها برقائق مُشعِرة غريبة، ومئات من النباتات الخضراء المصفرة المتسلقة، التي تبدو مثل شعر امرأة. لكن هذه النباتات لاحت أكثر نضارة واخضراراً من النباتات المعلقة في شجرة الصفصاف الأفعوانية، التي تجتذب نوعاً من الطحالب الرمادية، تتعلق بالنباتات، وتكسوها بإفرازات رطبة، فتقلل من نضارتها.

وبينما راح سيميون يوضح الاختلاف بين الشجرتين، حطت انثى ذبابة النُعرة، ووقفت على مؤخرة رأس مانيثو، واستعدت لغرس خرطومها، الذي يماثل المبضع، داخل الجلد ولكن يرجح أن تكون رائحة العصير الواقي قد اربكتها، للحظات كانت كافية لأن يمد مانيثو يده، ويمسك بأحد جناحيها، ويلقي بها بعنف بعيداً عنه. فسقطت على الأرض عند

قدمي نيال، ثم طارت في الحال وحطت فوق النباتات المعلقة. لم يحدث شيء للحظة، ثم سقطت النُعرة، وهي تتخبط، وبدت كأنها على وشك الهرب، ثم التفت المجسات حول جسمها بسرعة مذهلة، واختفت داخل الفروع. طنت الذبابة طنيناً يائساً، وهي تتلاشى. ارتخت النباتات المتسلقة، بعد بضع لحظات، وبدت الشجرة مرة أخرى مسالمة، مثل ابنة عمها شجرة الصفصاف الأفعوانية.

ـ ماذا جرى للذبابة؟

قال سيميون: ثمة فم في أعلى الجذع.

أصيبوا جميعاً بقشعريرة، وهم يفكرون في ذلك.

خف الآن صوت الدودة الألفية، وهي تأكل العشب، خلفهم، ونظراً لأن شجرة سدت عليهم الطريق، فقد قرروا العودة من حيث أتوا. عرجوا إلى طريق خالٍ تماماً من أي نباتات. وكأن إنساناً قد مهده. كانت الدودة الألفية قد تقدمت حوالي مائة متر نحو التل.

قال ميلو: انظروا! إنها تستدير.

رفعت الدودة رأسها، وراحت تلتهم النباتات عند حافة الطريق، ثم نظرت إليهم، وقد تدلت من بين فكيها شريحة من النبات المتسلق، وحينما شعرت أنهم مسالمون، واصلت أكلها.

قال نيال: إن ذيلها يأكل هو الآخر.

حدقوا في دهشة فاغرين أفواههم. لم يكن هناك أي شك، فللدودة رأس عند ذيلها. بدا الرأس الذي التفت ناحيتهم أصغر وأكثر حدة من الرأس الآخر، لكنه راح يؤدي وظيفته بالكفاءة ذاتها، رغم أنه تغاضى عن أعشاب عصيرية عديدة، خاصة تلك التي على حافة الطريق، ولكن الرأس، الذي في المؤخرة، التهم كل الأعشاب، بدقة متناهية، حيث كان لديه متسع من الوقت لاستكمال مهمته. رمقتهم الدودة، وهي تمضغ النبات المتسلق، الذي راح يتلوى باهتياج، وهو يختفي في ركن فمها، بعيونها الناعسة المفلطحة، التي ندت عنها شحنة من الأشمئزاز، فانفجروا جميعاً ضاحكين، وتعالت ضحكاتهم عندما ذُعرت الدودة، وهرعت للأمام عدة أمتار.

قال دوجنز: حسناً، يبدو أن للدلتا جوها المرح.

رد سيميون: ذلك الشيء لم يظهر له رأسان لمجرد إثارة الضحك.

واصلوا هبوط التل، وقد ارتفعت معنوياتهم، وشعروا بالمتعة والأمان، نتيجة لعدم وجود أية نباتات تحت أقدامهم. لكن نيال سرح بفكره بعيداً، وتعمد المشي وراء الآخرين،

حتى لا يضطر للدخول في مناقشة معهم. فقد أثارت رؤية الدودة الألفية ذات الرأسين دهشته، وانفعاله الشديد. بدا الكائن مثيراً للضحك، رغم أن السبب وراء مظهره غير الطبيعي خطير للغاية، وأدرك مدى الكارثة من تطور هذا الكائن. أدت الطاقة الهائلة في الدلتا إلى نموه حتى أصبح بضخامة صف من البيوت، وذلك يعني أنه سيكرس كل وقته، بل وحياته لالتهام الطعام حتى يُشبع جسمه العملاق، مما يجعله معرضاً للأعداء، ومشغولاً عنهم، وبالتالي فقد طور رأسين حتى يتمكن من رؤية أعدائه، وهم يقتربون من كلا الاتجاهين. ولكن في تلك الحالة، لماذا لم يطور سلسلة من العيون بامتداد عموده الفقري، أو على جانبيه؟ الحل المنطقي لذلك هو أنه كان عليه أن يقلص حجمه، ويطور أسلحة أقوى. لكن افتقاره للعقل منعه من تحقيق الخيار الصحيح . . .

كل هذا أفضى به مرة أخرى إلى السؤال التالي: ما الخطأ الذي حدث بالنسبة لتطور الإنسان؟ لقد جعلته ملايين السنين من الصراع، متخصصاً في فن البقاء على قيد الحياة. واتخذ تطوره مساراً منحدراً، متسماً بالعِرض. ثم لماذا أصيب بالإحباط والاستياء، عندما أجبره المذنَّب على الرحيل عن الأرض؟ ولماذا يبدو البشر عاجزين عن تحقيق السعادة الحقيقية؟

بدت الإجابة واضحة إلى حد ما: فقد كان الإنسان عاجزاً عن تقدير قيمة الحياة، بدون مشاكل. ومع هذا فقد وجد الإجابة غير منطقية، إذ أن الإنسان استحدث الحضارة لحل مشاكله: مشكلة الغذاء، مشكلة الأمن، ومشكلة سلام العقل. إذن لماذا شعر بالضجر والاستياء، بعد أن توصل الى حلول لها. . . ؟

قال ميلو: آه. . انظروا! هناك أشجار من الفصيلة ذاتها.

أصبحت الغابة أقل كثافة، عندما اقتربوا من حافتها، فتمكنوا من الرؤية لمسافة أبعد خلال الأشجار. لاحظوا كثافة الأعشاب تحت أقدامهم، ولكنها لم تكن من الفصيلة الخانقة. انتصبت على بعد عشرة أمتار، في منطقة صغيرة مقطوعة الأشجار، شجرة أرجوان كبيرة، يصل طولها إلى مثلي طول الأشجار، التي مروا بها من قبل، بدت بهيجة المنظر، بأوراقها المهتزة.

قال ميلو: هل يمكن أن نتوقف لنجربها؟

رد دوجنز: لا. فأمامنا طريق طويل، ينبغي قطعه، وقد أصبح الوقت ظهراً.

ـ لن يستغرق الأمر أكثر من خمس دقائق.

ـ ليس هناك متسع من الوقت.

قال مانيثو: بمقدوري تجربتها خلال لحظات.
وقال ميلو بسرعة: وأنا كذلك.
توقفوا، وأنزلوا الأكياس من فوق ظهورهم.
قال دوجنز: يا إلهي!
ـ ماذا؟
أشار نحو الأرض، وصاح: انظروا!

لم ير نيال شيئاً غير عادي، في العشب الأخضر الكثيف، فقال له دوجنز: انظر!

رفع كيسه، فوجد الأرض تحته، خالية من العشب. أنزل الكيس ببطء، فوق رقعة أخرى من الأرض، على بعد بضعة أقدام، فهرب العشب مبتعداً، بحركة هادئة كالموجة، وحين رفع الكيس، وجد الأرض خالية من العشب مرة أخرى. لكن البقعة البنية الجرداء، التي تبعد عنهم بنحو بضعة أقدام، كستها الأعشاب.
ـ أرأيت شيئاً كهذا من قبل؟
هز سيميون رأسه نافياً، وقال: مطلقاً.

انحنى، والتقط عشبة، وحين سقط ظل يده فوقها، تفرقت بقية الأعشاب. أمسك بها تحت ضوء الشمس، وقال: انظر!

نظر نيال من فوق كتفه، فرأى جذوراً بيضاء صغيرة، عند أصل العشبة، التي لم يزد سمكها عن ربع بوصة. وأخذت هذه الجذور تتلوى، كأنها قوائم دودة ألفية، حين ضغط سيميون عليها.
ـ عشب مَشّاء!

جثا نيال على الأرض، وقبض على حزمة من العشب، الذي حاول الهرب من ظل يده، لكنه لم يتمكن من التحرك بسرعة. بدا كأنه يحاول الإفلات من يده. لاحظ، حين قلبه، ألوفاً من القوائم البيضاء الرفيعة، التي راحت تتلوى. أعاده إلى الأرض، في وسط الطريق، الذي مهدته الدودة الألفية، فأحس به كأنه قد اطمأن للبقاء في هذه البقعة. أمعن النظر فيه، فوجد القوائم الصغيرة وقد اختفت، في تلك اللحظة، داخل التربة. ولكن بمجرد أن مد يده، ليسقط ظلها عليه، خرج من الأرض، وتحرك مبتعداً، ليتمركز مرة أخرى على بعد بضع بوصات.

اقتلع عشبة واحدة، وقضمها بتأن. وجد مذاقها مستساغاً، ممتعاً، فابتلعها في الحال.

ضحك ميلو، وقال: هل لك أن تتصور التعبير الذي يرتسم على وجه تلك الدودة

الألفيـة، وهي تحاول قضم كميـة هائلة منهـا، وتكتشف، في النهايـة، أنها قضمت حفنة من التربة؟

قال سيميون: إن حركتها ليست سريعة بالقـدر الذي يمكنهـا من الهرب بعيـداً عن أية حيوانات عادية تقتات على الأعشاب، انظر!

حرك يده فوق العشب، الذي انكمش ليتحول إلى كتلة سميكة، في محـاولة للهـرب. وأعاقها هذا التزاحم والانكماش، وأثار حركة كالموجة البطيئة.

ـ إذن لماذا يتحرك؟

ـ للهرب من الشمس، عندما يكون الجو حاراً، ومن الـظل، حين يكـون الجو شـديد البرودة. وهو مثل آخر على تطور الكائنات المستمر في الدلتا.

نـظر حولـه في إعجاب، وقـال: هذا المكـان يمكن أن يجعل ألف عـامـل منهمكـين في العمل، لمدة قرن.

قال ميلو: أُفضل أن أبقى في بلدي.

عبرت وجهه سحابة حزن، فعرف نيال أنه يفكر في أوليس.

قال دوجنز: أرى أن بإمكاننا التوقف هنا، لتناول الطعام، فالمنطقة التي سنجتازها، لا يتوفر فيها الكثير من الأماكن الظليلة.

كانت الأرض أمامهم تنتشر بها المستنقعات، والأعشاب الخضراء الكثيفة، والشجيرات اليانعة، ولكن لم يكن هناك سوى القليل من الأشجار.

قال مانيثو: أرى هناك أزهاراً قرنفلية أخرى، هل لي أن أجلبها؟

رد دوجنز: ولكن كن على حذر!

ثم التفت إلى نيال، وقال: من الأفضل أن تذهب معه.

كانت الشجيرة، وسط الأشجار، على الجـانب القصي من الطريق. لاحظ نيـال، وهما يقـتربان، الـرعشة الخـفيفـة التي انتقلت بين كـل أوراقها. أطبق يـده على الحـاصد، ولكن عندما أصبحا على بعد بضعة أقدام منها توقفت عن الحركة. نشرت الأزهار القرنفلية رائحتها الـطيبة القـوية، وبـدت الشجيرة آمنـة مثل أيكـة في بستان. اختبـأت المجسات، التي تمـاثل السياط وراء الأوراق الزاهية. وقفا يتأملانها للحـظة، ويراقبـان أية دلالـة قد تكشف عن أن الشجيرة تدرك وجودهما، لكنها ظلت دون حراك.

رفع مانيثو المدية، وبحركة سريعة قطع إحدى الأزهار، فسقطت على بعد بضعة أقدام

على الأرض القاحلة. قفز مانيثو، في اللحظة ذاتها، للخلف. لكنه لم يتحرك بالسرعة الكافية لإبعاده عن المجس الأخضر، الذي انطلق من الشجيرة، وقبض على رسغه. التفّت مجسات أخرى حول ساقيه، أثناء محاولته الإفلات. حاول مجس آخر الإمساك بنيال، لكنه كان يقف بعيداً عن مداه.

صوب نيال بدقة، ثم ضغط الزناد. مزقت الأشعة الزرقاء المجس، الذي كان يقبض على رسغ مانيثو. وخفض سلاحه ليشطر المجسات الأسمك، التي قبضت على ساقيه. تدحرج مانيثو ليسقط على الأرض. راحت الأطراف المقطوعة للمجسات تتلوى، بينما تقهقرت الأخرى عائدة إلى الشجيرة.

التقط مانيثو الزهرة القرنفلية، فحاولت على الفور إطباق أوراقها على يده، لكنها كانت واهنة للغاية، فلم تتمكن من إحكام قبضتها. قطع مانيثو شريحة من البتلة، ووضعها في فمه.

ـ ممتازة، وأفضل من الأخرى.

ـ لا بد وأنها كذلك، فالنبات أشد خطراً.

تقاسما البتلات، وأكلاها مع الفطائر واللحم المجفف. كانت النكهة، كما قال مانيثو، أشهى من تلك التي تذوقاها من قبل. ودهش نيال حين لاحظ أن رائحتها تماثل العسل، أما نكهتها فذكرته باللحم الطازج. أضفت البتلات العصيرية مذاقاً لذيذاً على اللحم المجفف والفطائر.

ألقى دوجنز نظرة سريعة إلى الشمس، وقال: لقد حان وقت التحرك.

أحس نيال، عندما تكلم دوجنز، بوخز في فخده الأيمن، فأدرك على الفور أنها الذبذبة الغريبة، التي يحدثها القضيب المتداخل. مد يده إلى جيبه، فوجد أن الوخز الكهربائي شديد للغاية على أطراف أصابعه، فسحب يده بسرعة. توقف الوخز عندما أوشك أن يخرجه من جيبه.

لاحظ سيميون تغيراً في تعبيرات وجهه، فسأله: أحدث شيء؟

ـ لا.

اعتقد نيال أن الأمر لا بد وأن له علاقة بجو الدلتا المتغير.

وقف ميلو، وقال: سأذهب لأجلس تحت ظلال الشجرة للحظات.

قال سيميون: أسرع، وخذ معك الحاصد!

نظر ميلو بدهشة، وتساءل: الحاصد؟

ـ لا تخاطر بحياتك في الدلتا.

رأى نيال أن الجلوس لبضع دقائق تحت ظلال الشجرة سوف يبدد حالة النعاس، التي شعر بها بعد تناول الطعام. فحمل حاصده واقتفى أثر ميلو. نهض مانيثو واقفاً هو الآخر.

حين انحنى ميلو ليتفادى الفروع، رأى نيال أنها تهتز. استثيرت حاسة الخطر لديه فجأة، فقد بدا الاهتزاز مثل تعطش حيوان جائع للطعام. توقف، وصاح: «كن على حذر!». لكن الشجرة أسرعت، وأطبقت فروعها عليه، في اللحظة التي صاح فيها، كما لو أنها شرك. كانت الحركة السريعة للغاية، مثل قفزة لعنكبوت الباب المسحور. صرخ ميلو عندما أطبقت الفروع عليه، بحركة تلقائية تماثل حركة انقباض أصابع اليد.

رفع نيال الحاصد، لكنه تردد. فوسط هذه الكتلة الملتوية من الفروع، التي انطبقت على الجذع، كان من المستحيل تحديد مكان ميلو. إلا أن الصرخة المذعورة التي أطلقها ميلو مستغيثاً: «ساعدوني!» أبعدت تردده. صوب الحاصد على الجزء الأعلى من الشجرة، وسحب الزناد، وهو يحرك السلاح في الجانبين. أصدرت الشجرة هسيساً مثل أفعى غاضبة، عندما انهارت الفروع العلوية منها. لكن الفروع التحتية واصلت إحكام قبضتها، وضغطها، وانغلقت على بعضها بشدة، حتى برزت جذور الشجرة فوق سطح الأرض. صوّب الحاصد لأسفل، وسحب الزناد. ارتعشت الشجرة، وأخذ بعض الفروع يتلوى في حركة مذعورة. تراجع حين بدأت الشجرة تسقط باتجاهه. وفي اللحظة ذاتها، توقف ميلو عن الصراخ. ضرب أحد الفروع نيال، فسقط على الأرض، وهوت الشجرة على بعد بضعة أمتار منه.

قاومت الفروع، وهم يحاولون فكها، وبدا الأمر كأنهم يحاولون تخفيف قبضة أصابع حديدية. ثم نحى مانيثو أحد الفروع جانباً بالقوة، وصاح: «لقد عثرت عليه، اعطني حاصداً!». سلمه نيال حاصده، فصوبه مانيثو، وشطر بعناية أعلى ستة أقدام من الشجرة. خففت الفروع فجأة قبضتها. نحاها سيميون، وخلص ميلو، الذي كان وجهه ممتقعاً، وملابسه ملطخة بالدم.

انحنى سيميون فوقه، ومزق رداءه، ثم وضع أذنه فوق صدره.

ـ ما يزال يتنفس. أحضر قليلاً من الماء!

أحضر دوجنز زجاجة ماء فَرشها سيميون على وجه ميلو، مستخدماً يده لإبعاد الدم. هش نيال بعنف نُعرة، حاولت الوقوف على صدر ميلو، فأبعدها بضعة أقدام فتح ميلو عينيه، وحاول أن يلتفت.

ـ هل أنت بخير؟

حاول أن يتكلم، لكن صوته انحبس، قامت النعرة بمحاولة ثانية للوقوف عليـه، لكن مانيثو وجه إليها لطمة بيده الضخمة، ألقت بهـا على الأرض، ثم سحقهـا بقدمـه، فانتشرت في الهواء الرائحة الغريبة اللاذعة.

نزعوا رداءه، وغسلوا جسمه في الماء البارد. رأوا، بعد أن نظفوا جسمـه من الدم، أن جلده اكتسى برضوض صغيرة، وعلامات ثقوب، كما لو أن ألف شوكة قد اخترقتـه. كما راح ينزف من أنفه، فتحسس سيميون أطرافه، وضغط عليها بـاحثاً عن كسر في عـظامه، فشهق ميلو، وصرخ، ثم غاب عن الوعي.

لاحظ سيميون أن كاحله متورم، فقال: لا يـوجد كسر في عـظامه، عـلى حد علمي. لكنه لن يستطيع المشي لبضعة أيام.

ثار دوجنز غاضباً، وقال: ماذا عسانا نصنع الآن؟

ـ أمامنا خياران، إما أن نصنع نقّالة ونحمله عائدين، أو نتركه هنا.

فتح ميلو عينيه، وقال بصوت واهن محشرج: أمضوا أنتم في سبيلكم!

تبادلوا النظرات، وقال سيميون: سأضطر لملازمته، إذ ليس بوسعه البقاء بمفرده.

حاول ميلو النهوض معتمداً على كوعه، وقال: أستطيع البقاء. وسأكون على ما يـرام. إنه خطأي على أية حال...

نظر دوجنز إليه شزراً، وقال: نعم إنه خطؤك أيها الأبله.

قال نيال: لا، إنه خطأي، لقد حاول السيد ستيج تحذيري.

نظروا إليه، وقد علت وجوههم علامات الاستفهـام، فأضـاف: لقد أصـدر القضيب وخزاً لبضع ثوانٍ، قبل أن يذهب إلى الشجرة.

أخـرج نيال القضيب من جيبـه، وقال: لقـد أدركت سبب هـذا الـوخـز بعـد فـوات الأوان.

نظر سيميون باستغراب إلى الأسطوانة المعدنية، وتساءل: حَذرك؟ كيف يمكنـه معرفـة ما سيحدث؟ إنه مجرد حاسب آلي.

وضعـه في جيبه مـرة أخرى، وقـال: إن بمقدوره قـراءة الأذهان. ولكن كـان يجب أن أكتشف ذلك بنفسي. لقد أدركت عندما فصلنا رأس تلك الزهرة القرنفلية، أنها أسرع عشر مرات من الأخرى، والسبب أنها أكثر قرباً من مركز القوة. لـذلك لم تكن بحـاجة لأن تُفقـد

ضحيّتها الصواب بالمخدرات ـ لأن بمقدورها تحقيق هدفها بالسرعة الفائقة التي رأيناها.

قال دوجنز: إذا كنت على صواب، فإننا نتعرض لخطر متزايد، كلما اقتربنا من المركز.

هز نيال كتفيه، ولم يحر رداً.

جلسوا، وقد لفهم صمت كئيب، يراقبون سيميون، وهو يداوي جروح ميلو، التي استمرت في النزيف كلما تم تنظيفها. بل إن ميلو نفسه راح ينظر إلى جُسمه بتجرد غريب.

ـ أظن أن هذه الشجرة قد حقنتني بمخدر، أو سم. أشعر بخدر شديد.

ثم غاب عن الوعي مرة أخرى.

استخدم سيميون كل الضمادات، في محاولة لوقف النزيف، لكنها تشربت بالدماء في غضون دقائق.

قال سيميون: أخشى أن يكون على صواب، لا بد أن الشجرة حقنته بمادة مضادة للتجلط. وإذا ما استمر هذا الوضع، فسوف ينزف حتى يموت، في أقل من ساعة.

سأله دوجنز: هل هناك أي شيء يمكن أن نفعله؟

ـ سوف يساعد الطين على وقف النزيف، وكذلك أوراق شجيرة «السوفا».

ـ كيف تبدو هذه الأوراق؟

ـ هي أوراق طويلة، في وسطها كرمة بنفسجية اللون.

قال مانيثو: لقد رأيت أوراقاً تشبهها، ونحن في طريقنا إلى هنا، لونها أخضر داكن للغاية، بلون اللبلاب.

ـ إنها هي.

ـ سأذهب وأحضرها.

ـ كن على حذر، فنحن لا نستطيع تحمل فقدان شخص آخر.

حاولوا، عندما مضى مانيثو، إعداد الطين في دلو من القماش وذلك بخلط التربة مع الماء. لكنهم لم يتوصلوا إلى نتيجة مرضية، بسبب جفاف التربة.

ـ قال نيال: يتناهى إلى مسمعي خرير ماء، من جدول، بالقرب من الشجيرة ذات الزهرة القرنفلية.

تابع سيميون يائساً الدم، وهو ينزف، وقال: ليكن. حاولوا ذلك!

حمل نيال الحاصد بيد، والدلو القماشي بالأخرى. تقدم بحذر بالغ، وسار في طريق طويل ليتفادى الشجيرة ذات الأزهار القرنفلية. وجد بعدها أيكة وبها أشجار صفصاف

أفعوانية، تفحصها بعناية، وتأكد من وجود الطحالب الرمادية بفروعها، ثم شق طريقه بينها. عثر على الجدول، الذي يبحث عنه، في الجانب القصي من الأيكة. كسا عشب أخضر كثيف، وأزهار صفراء صغيرة ضفتيه المنحدرتين. تنحى العشب جانباً، وهو يهبط الضفة، ليكشف عن الأرض الجرداء، بينما انسحبت الأزهار داخل الأرض، لتبقى قمم رؤوسها فقط فوق التربة. لف حولها بحذر حتى لا يدوسها.

كانت المياه ضحلة، ومغطاة بالعشب الأخضر، ذي الأوراق اللامعة، التي تشبه نباتات قرة العين. وعندما وطأ فوقه، زلت قدماه لتنغرسا في الطين الغريني. تمكن من ملء الدلو بالطين اللزج، بعد أن نزع العشب عنه.

غسل يديه، بعد أن ملأ الدلو، في المياه العكرة. جفل وهو يتسلق صاعداً، إذ رأى على بعد ستة أقدام منه وجهاً يحدق فيه، بعينين ناتئتين، وفم عريض يشبه فم الضفدع، ويبلغ حجمه مثلي وجه الإنسان. بحث عن الحاصد كرد فعل تلقائي، لكنه تذكر أنه وضعه فوق الضفة. اختفى الوجه بعد لحظة، لكنه لمح جسماً منتصباً، لونه أبيض مائل للرمادي، يختفي بين الأشجار، عند أقصى طرف الجدول. وقف يحدق فيه لدقيقة على الأقل، لكنه لم يلحظ أية حركة أخرى، فتنهد بارتياح عميق.

شعر بالأسف، لأنه انشغل بالطين، وسمح للكائن الذي يشبه الضفدع بالاقتراب منه، لكنه أحس بالارتياح حين بدت عليه علامات الذعر، الذي شعر به هو أيضاً. رفع الدلو إلى أعلى الضفة، ثم تبعه متسلقاً، ومن شدة انهماكه لم يهتم بتجنب المشي فوق الأزهار. التقط حاصده، وأحس للحظة بالأسف لأنه تركه فوق الضفة، لكنه أدرك أن المسألة لم تكن ستختلف كثيراً، فهو ما كان سيؤذي الكائن، وهو يفر من أمامه. ثم سار عائداً، وقد شغله التفكير، بينما حمل الحاصد بيده الأخرى، ليوازن ثقل الدلو.

ندت عن سيميون زفرة ارتياح، عندما رأى الطين. نظف أحد الجروح الصغيرة، ثم وضع حفنة من الطين فوقها. تنهد بسعادة، بعد ثلاثين ثانية، حينما لم تظهر أية دلالة على تجدد النزيف، وأخذ يزيل الضمادات، التي امتلأت ببقع الدم.

عاد مانيتو حاملاً دلو مملوءاً بأوراق الأشجار، يتوسط كل ورقة شيء أسود متورم، يشبه حبة العنب الصغيرة. ولما شق سيميون أحدها بإبهامه، تعبق الجو برائحة طبيّة غريبة. نظف سيميون الجروح بمساعدة مانيتو ودوجنز، وعصر ورقة من شجرة «السوفا» فوق كل جرح، ثم وضع حفنة من الطين البني الداكن. اكتسى ميلو، في أقل من عشر دقائق، بالطين من رأسه حتى أخمص قدميه. لكنه راح يتنفس بانتظام، وتورد خداه.

انتظر نيال حتى انتهوا، قبل أن يحدثهم بما رآه. قـطب سيميون، وهـز كتفيه، وقـال: لقد سمعت أشياء كثيرة، لكنني لم أر شيئاً منها.

قال نيال: لقد كان مسالماً تماماً، وفر بمجرد أن تلفّتّ للبحث عن الحاصد.

رد سيميون: قليل من كائنات الدلتا مسالم، فهي لا تستطيع البقاء، إذا ظلت مسالمة.

أدركوا من وضع الشمس في السماء، أن الوقت قد أصبـح عصراً، ولم يتبق أمامهم من ضوء النهار سوى سبع ساعات.

تساءل مانيثو: ما رأيكم في أن أُعد نقالة لميلو؟

نظر دوجنز إلى سيميون، وقال: أنت أدرى بالدلتا. ماذا عسانا نفعل؟

هز سيميون كتفيه، وقال: أرى أن تمضوا أنتم الثلاثة، وتتركوني هنا مع ميلو.

ـ أتعتقد أنك ستكون بخير؟

ـ ولمَ لا. إنني بهذا الحاصد سأكون أكثر خطراً من أي كائن آخر في الدلتا.

نظر دوجنز إلى نيال ومانيثو. لم تكن هناك حـاجة لقـول أي شيء. فالجميـع يعرف مـا يدور برأسه، فإذا ما تخلف سيميون، ستكـون رحلتهم محفوفـة بالأخـطار. كما سيتعـرض هو أيضاً لخطر كبير إذا ما واجه بمفرده الليل مع رجـل مصاب. ولـذلك فـإن الخيار الـوحيد هـو الاعتراف بالهزيمة والعودة من حيث أتوا. أثارت هذه الفكـرة تمرد نيـال، وأحس بالعنـاد ذاته يطل من عيون رفاقه.

قال دوجنز: ليكن.

انحنى وراح يغلق كيسه، وفعل نيال ومانيثو الشيء ذاته.

قـال سيميون: أريـدكم أن تتذكـروا أمراً واحـداً. تتزايـد خـطورة الـدلتـا، كلما قـل انتباهكم، لذلك احرصوا على أن تكونوا في حالة يقظة دائمة!

وضع دوجنز يـده فوق كتف سيميـون، وقال: ولتهتم أنت أيضـاً بنفسك. ونـأمل أن نعود غداً، وإذا لم نعـد في غضون يـومين، فحـاول أن ترجـع إلى الوطن، ولكن لا تنس أن تترك علامة نفهم منها ما صنعت!

ـ سأفعل.

رحلوا دون أن ينـظروا خلفهم. أفضى بهم الطريق بسرعـة، إلى حافـة الغـابـة. امتـد أمامهم، في نهاية المطاف، حوض الدلتا الكبرى، وتمكنوا من تكوين فكرة دقيقة عن جغرافيـة المكـان. فهناك، ربمـا على بعـد عشرين متراً، تمتـد سلسلة التلال الغـربية، التي تتـوازى مع السلسلة، التي تمتد الآن خلفهم. وعن يمينهم، تنحدر الـدلتا بـالتدريـج نحو البحـر، ونحو

سهل مقفر، يكسوه العشب، والشجيرات القصيرة. استمرت سلسلة التلال عن يسارهم، ورأوا، فيما وراء المستنقعات طريقاً يفضي إلى الغابة. أضحت سلسلة التلال المزدوجة، في البعيد، أقل ارتفاعاً، وهم يقتربون منها. هبت ريح جافة ساخنة من هذا الاتجاه. امتدت المستنقعات في مواجهتهم، وحين هبطوا إلى السهل، لاحظوا أنه مغطى بنباتات قصب طويلة، يمكن أن تخفي رجلاً. كانت رائحة العطن هي الوحيدة المنبعثة من الغابة، ودمدمة الريح هي الصوت الوحيد المسموع وسط القصب.

بدا الهدف ـ وهو التل المطل على نقطة النهرين ـ أمامهم. ولكن لم يعثروا على طريق يفضي إليه. وعندما عبروا منطقة الأعشاب الفاصلة، وجدوا أنفسهم في مواجهة غابة القصب والشجيرات. تقدمهم مانيثو، حاملاً المدية في يده، متجهاً نحوها مباشرة. لم يعترضهم شيء لمسافة مائتي متر على الأقل، ورغم أن الأرض، تحت أقدامهم، كانت لينة، إلا أنها تحملت خطواتهم فوقها. ثم تغيرت طبيعة القصب، الذي أصبح أطول، وأكثر كثافة، فاضطروا لاستخدام المدى. وكان بعضه صلباً وقوياً، مثل خشب البامبو. استغرق الأمر ربع ساعة أخرى، ليتقدموا مائة متر فقط، وراح مانيثو يتنفس بصعوبة، مع تزايد الحر والرطوبة في الجو.

قال دوجنز: توقفا للحظة! لا أمل في أن نحقق شيئاً، إذا استمر هذا الوضع. وقد نظل لأسابيع هنا إذا ما تحركنا بهذا المعدل.

أمسك بالحاصد، وقال: سأجرب طريقة أخرى.

جثا على ركبتيه، وصوب الحاصد، ثم سحب الزناد. هشمت الأشعة الزرقاء الرفيعة، وهو يحرك يده يميناً ويساراً، عيدان القصب، مثل منجل هائل، فتساقطت على الجانبين فوق الأرض، ليظهر أمامهم طريق ممهد يمتد بضع مئات من الأمتار.

قال دوجنز، وقد انفرجت أساريره، من نشوة الانتصار:

ـ هكذا يكون التصرف.

ثم تقدمها. ولكن رغم أنهم أصبحوا قادرين على السير فوق عيدان القصب، بعدما كانوا يهشمونها، أو ينحّونها، فإن تقدمهم ظل بطيئاً. فقد شكلت العيدان سجادة كثيفة، سقطت فيها أقدامهم، وراحوا ينكفئون، في كل خطوة تقريباً. بل كانت هناك أماكن تزداد فيها كثافة القصب، ويجدون صعوبة بالغة في المرور فوقها. استخدم دوجنز الحاصد مرتين، قبل أن يعترفوا بالهزيمة. راحوا يتخبطون، وهم يتقدمون لمدة ساعة على الأقل، حتى وجدوا طريقاً عريضاً مستقيماً وسط القصب، ورأوا العديد من العيدان الأكثر سماكة من تلك التي

واجهتهم في بداية الطريق. اكتشفوا أنهم لم يبتعدوا كثيراً عن البقعة التي تركوها منذ ساعة.

قال دوجنز: نحتاج إلى دودة ألفية أليفة لتتقدمنا.

وحدق مكتئباً في القصب المحيط بهم، والذي يصل طول بعضه إلى ثمانية أقدام. ثم أضاف: أحسب أن من الأفضل العودة، والبحث عن طريق آخر.

جلسوا لمدة خمس دقائق، حتى عاد تنفسهم إلى حالته الطبيعية، وجفف نيال العرق، الذي تحدر فوق وجهه وعنقه، بمنديل، فقد كان الهواء خانقاً. رفع مانيشو يده، وهم يهمون بالوقوف، ليلتزموا الصمت. تناهى إلى مسامعهم صوت شيء يتهشّم وسط عيدان القصب. أخذ الصوت يقترب شيئاً فشيئاً، حتى بدا أنه يتجه نحوهم مباشرة. وقفوا بهدوء، شاهرين أسلحتهم، وأصابعهم على الزناد. لكن الحيوان غير اتجاهه، على بعد بضعة أمتار منهم، وصاحبته جلبة نخر خافتة، وصوت تنفس ثقيل.

وقعت أبصارهم، بعد لحظة، على كائن، له ظهر مدرع ومحدب، يتحرك بين عيدان القصب، على بعد بضعة أمتار. ظن نيال، للحظة، أنه ينتمي لفصيلة سلاحف ضخمة. اندفع الحيوان خارجاً من القصب خلفهم، وعبر الطريق، الذي مهدوه لتوهم. لمحوا وجهاً مفلطحاً، يشبه وجه ضفدع الطين، به نتوءات على شكل قرون فوق حاجبيه، وله ظهر مدرع هائل، وقوائم قصيرة قوية، وأرجل عريضة ذات أنسجة، كأرجل البطة، تتحرك كيفما اتفق، ثم لمحوا، في النهاية، ذيلاً قصيراً، لكنه مدرع وقوي.

قال مانيشو: يا إلهي، ما هذا الحيوان؟

رد دوجنز: ليس لمعظم هذه الكائنات اسماء. ولكنني أخمن أن السبب الذي يجعله يثير كل هذه الضجة، هو أنه لا يوجد أي شيء يمكن أن يلحق به الأذى، وهو داخل كل هذه المدرعات.

عادوا أدراجهم، ثم توقفوا عند الطريق، الذي هشم فيه الكائن عيدان القصب. لم يعد الحيوان مرئياً، بينما ظلت أصوات تهشم العيدان تصل أسماعهم من بعيد.

قال دوجنز: لنسلك ذلك الطريق، فهو أفضل من العودة.

أصبح السير أسهل، وهم يقتفون أثر الوحش المدرع. فقد أدى ثقل جسمه إلى تسوية عيدان القصب بالأرض، بل إنه حطم شجيرة صغيرة في طريقه. ساروا في طريق ينعطف يميناً. ولكن بعد مسافة ربع ميل، باتت الأرض مشبعة بالماء، الذي راح ينبثق من بين عيدان القصب، وهم يدوسون عليها. اختفى أثر الكائن داخل العيدان، عند هذه النقطة، ووجدوا أنفسهم يتجهون، مرة أخرى، نحو قلب الدلتا.

كان نيال، الذي يسير في المؤخرة، يلقي نظرات عجلى خلفه، بين حين وآخر، ليس لكونه يشك أن شيئاً يقتفي أثرهم، ولكن لشعوره بالمسؤولية، وأنه يجب أن يلفت انتباه سيميون، ليأخذ حذره. ولكن، بعد أن غيروا اتجاههم، وساروا لبضع مئات من الأمتار، انتابه إحساس غير مريح، فتوقف ونظر خلفه: هل كان هذا وهماً، أم أن عينيه لمحتا حركة عند النقطة التي اختفى فيها أثر الكائن داخل القصب؟ واصل مانيشو ودوجنز سيرهما، غير مدركين أن نيال قد توقف. وحين ابتعد وقع أقدامهما، وساد السكون، سمع صوتاً آخر؛ حركة انسلال وسط القصب، على يساره بنحو بضعة أقدام. مال للأمام، وأرهف السمع، ولكن عندما تحرك، تهشم عود قصب، فتوقفت الخشخشة في الحال. لم يشعر بالخوف، فقد منحه ثقل الحاصد في يديه إحساساً بالسيطرة على الموقف. تقدم للأمام بحذر، مستخدماً ماسورة الحاصد، لتنحية عيدان القصب.

وعلى حين غرة، وجد نفسه وجهاً لوجه أمام الكائن، الذي يشبه الضفدع. فقد كان يبعد عنه مسافة تقل عن قدمين، وقد أذهلته الصدمة، مثلما أذهلت نيال، الذي تجمد في مكانه، فتساقط القصب، ورفع ذراعيه، بصورة غريزية، ليحمي نفسه من السقوط. تحولت شفتا الكائن إلى ما يشبه العقدة، ووجد نيال نفسه ينظر إلى صفين من الأنياب الصفراء المدببة. سمع هسهسة، ثم اندفع سائل دافيء إلى خديه وصدغه. ولما عاد إليه توازنه، كان الكائن قد مضى، ولمح جسمه الرمادي، وهو يشق طريقه وسط عيدان القصب بخفة، فلم تتهشم.

سمع دوجنز، وهو يهتف: نيال! أين أنت؟

أصابه السائل، الذي سال فوق خديه، بألم حاد، فانحنى، وغسل بشرته بحفنة من الماء العكر.

قال دوجنز: ماذا جرى؟

ـ كان ثمة من يتبعنا.

بدأ جلده يؤلمه، فبلل منديله، ودلك به خده، وقال:

ـ إنه ذلك الكائن، الذي يشبه الضفدع. لقد بصق عليّ.

وقفوا مكانهم، يرهفون السمع، لمدة خمس دقائق على الأقل، لكنهم لم يسمعوا أي صوت.

سأله دوجنز: أما زلت تعتقد أنه غير مؤذ؟

ـ ليس بعد أن رأيت أسنانه. إنه آكل لحوم بالتأكيد.

تطلع دوجنز إلى السماء، وقال: من الأفضل أن نواصل السير؛ فالجميع يعتقد أن المستنقعات ليست المكان المناسب لتمضية الليل.

بدأ وجه نيال، بعد أن استأنفوا السير، يؤلمه، واضطر للتوقف بعد عشر دقائق، ليغتسل مرة أخرى. نظر دوجنز إليه، وقد بدت عليه علامات القلق، وقال:

ـ إنه يزداد احمراراً، لا بد أنه سم من نوع ما.

قال مانيثو: لقد تعرض أحد البحارة، ذات مرة، لأصلة باصقة، وكادت تصيبه بالعمى.

ارتجف نيال، وهو يفكر في احتمال إصابة عينيه بهذا السم الحارق.

واصلوا السير في طريقهم، وسط عيدان القصب المهشمة. تحولت الأرض بالتدريج إلى مستنقعات، وأدرك الجميع أن العيدان، ونباتات السُمار الكثيفة، المفروشة على الأرض، هي التي يمكن أن تمنع الطين من الوصول إلى ركبهم. أحسوا بآلام في أقدامهم، وتفصد العرق من أجسامهم، من شدة الحر، فبلل ملابسهم، فبدوا كما لو كانوا يسبحون.

أصبح القصب أقل كثافة وطولاً. تناهى إلى مسامعهم صوت الكائن المدرع، وهو يتحرك في مكان ما. راح نيال ينظر خلفه من حين إلى آخر، لكنه لم ير أي حيوان من تلك الكائنات الشبيهة بالضفادع. بات من الصعب عليه الاستمرار في تركيز انتباهه، فقد تركزت رغبته الآن في العثور على مكان يستريحون فيه.

وطأ مانيثو، الذي كان يسير في المقدمة، فوق كتلة من القصب، ثم سقط في الماء، الذي وصل إلى خصره. ساعداه على الخروج، وانتشلا حذاءه القماشي، الذي التصق بالطين. شعر نيال، حين خاض وسط القصب، بحركة حول خصره، فأبعد ذراعه بسرعة، حيث رأى علقة سوداء، يبلغ طولها أربع بوصات على الأقل، تزحف فوق ساعده. أبعدها باشمئزاز، ثم استخدم حزمة من العشب المبلل ليمسح بعنف المنطقة اللزجة، التي خلّفتها.

بات الطريق، الذي يسلكونه، وعراً، ومع ذلك استبعدوا فكرة العودة. وقفوا حائرين، لا يعرفون ماذا عساهم يصنعون، لكن صرخة ألم شتتت ما يشعرون به من إجهاد. تناهت إلى أسماعهم أصوات تساقط أشياء في الماء، وزئير مدو. ثم ساد الصمت، على نحو مفاجىء تماماً.

تلاشى الإرهاق، ووقفوا يتبادلون النظرات، وقد شهروا أسلحتهم الحاصدة. لم يعد يصل إلى أسماعهم الآن سوى أصوات واهنة لتناثر المياه، وقرقرة..

قال نيال: أرى من الأفضل أن نعود أدراجنا.

قطب دوجنز، وقال: أريد أن أعرف ماذا يجري هناك.

بدأ يتحرك للأمام بحذر، متفحصاً كل خطوة، قبل أن يخطوها. اقتفى الآخران أثراه، بحذر، استدار دوجنز عند انعطافة في الطريق، ورفع حاصده. ثم خفضه ببطء، والتفت إليهما، وطلب منهما التحرك بهدوء، فانضما إليه، بعد لحظة.

وجدوا أمامهم عدداً من المستنقعات، امتزجت مياهها بالطين. ارتفع حدب الكائن المدرع، من وسط الماء، وقد أشاح برأسه بعيداً عنهم. فلم يتمكنوا من رؤية ما يأكله، لكن حركاته دلت بوضوح على أنه يقبض على شيء بين كفيه الأماميين، وينهش لحمه. أدار رأسه، والتفت إليهم، وكأن الحاسة السادسة لديه قد خدرته من شيء. نظر إليهم شزراً، بعينيه الصغيرتين، من تحت النتوءات القرنية فوق جبهته، فرأوا أن وجهه ذا الثآليل، الشبيه بوجه الضفدع، مغطى بالدم، الذي راح يتساقط من فكيه. استعد نيال للضغط على الزناد، لكن الكائن انصرف عنهم، بعد أن تفحصهم للحظة، ليواصل تناول طعامه. بدا واضحاً أنه شعر بالأمان التام، وهو داخل غطائه المدرع، فلم يعر لوجود هذه الكائنات البشرية أي اهتمام.

تبادلوا النظرات، فالطريق أمامهم كان مغلقاً. ورأوا، خلف الكائن المدرع، المستنقعات وقد وصلت إلى نهايتها، وأن الأرض آخذة في الصعود التدريجي نحو الروابي.

وعلى الجانب الآخر منها، ربما على بعد خمسة أميال، ارتفع التل ذو البروز، الذي يشبه البرج. إلا أنهم رأوا، من هذه المسافة، أن البروز ليس برجاً صنعه إنسان، ولكنه بدا مثل قرن مكسور لكائن مدرع ضخم.

تراجعوا عدة خطوات، ليتدارسوا وضعهم، فوجدوا أنه إلى الشمال منهم يمتد المزيد من المستنقعات، وليس هناك ما يبرر السير في هذا الاتجاه، وإذا ما أرادوا الالتفاف حول الكائن، فإن عليهم الاتجاه نحو الجنوب، وشق طريقهم وسط نباتات القصب مرة أخرى.

ارتفعت معنوياتهم، حين فكروا في إمكانية تجاوز المستنقعات، صوّب دوجنز الحاصد، وضبطه على أدنى درجة، ثم سحب الزناد. انهارت عيدان القصب أمامهم، كما لو أن عملاقاً خفياً قد سار بينها. سمعوا، في اللحظة ذاتها هسهسة حيوان مصاب.

قال دوجنز: لقد أصبنا أحدها.

شقوا طريقهم، وقد شهروا أسلحتهم، فعثروا، على بعد عشرة أمتار، على بقايا

الكائن. وجدوا أن جثته الرمادية قد شطرها الحاصد، الذي أصابت أشعته مكاناً تحت الخصر بعدة بوصات. ظهرت الأسنان الصفراء، بين الشفتين المفتوحتين، اللتين تعبران عن حالة الألم التي انتابته. رأى نيال داخل الفم المفتوح، فوق ظهر اللسان، الأنبوب الضيق، الذي يخرج منه السم.

كان الكائن، في الواقع، أقرب في الشبه بإنسان منه إلى ضفدع، رغم أن الأرجل ذات وترات، والقوائم الطويلة، كثيفة الشعر وقوية. ورغم أن القائمتين الأماميتين كانتا ذاتي وترات أيضاً، إلا أن الأصابع تتمتع بقدرة الإمساك بالأشياء. بدا لون اللحم أزرق مائلاً للرمادي. انبعثت رائحة مقززة من الأمعاء المكشوفة، فابتعدوا مسرعين، بعد أن توقفوا للحظة. تناهت إلى أسماعهم أصوات خشخشة صادرة من عيدان القصب حولهم، فأدركوا أن هناك من يتبعهم.

رأوا، بعد ربع ساعة، الروابي، فيما وراء المستنقعات. قلّت كثافة القصب على الجانبين، فتمكّنوا من الرؤية لمسافة تصل إلى عشرة أمتار. ورغم أنهم ظلوا يسمعون أصوات أجسام متحركة، فإنهم لم يلمحوا أية كائنات.

لم يعد ضرورياً الآن استخدام الحاصد، لتمهيد طريق، وسط المستنقعات، فقد أضحت عيدان القصب متباعدة، ولم يواجهوا أية عقبات. لكن الأرض تحت أقدامهم باتت أكثر لزوجة. وفقد نيال حذاءه، واضطر إلى انتشاله من الطين الأسود اللزج، الذي نشر في الجو الرائحة العطنة المألوفة. تعودوا على هذه الرائحة، وتوقفوا في إحدى المرات لتأمل الطين.

صرخ مانيثو، حين بدت الأرض الصلبة على مرمى البصر، وأخذ يغوص في الطين، واختفى نصف جسمه الأسفل، حتى خصره. أمسك نيال ودوجنز بيديه، وراحا يشدانه. وفي تلك اللحظة، صاح مانيثو: «انتبها!» فالتفتا ليجدا قطيعاً من الكائنات، التي تشبه الضفادع، تندفع بسرعة من وسط القصب باتجاههما. ترك نيال ودوجنز يدي مانيثو، فغاص، في الحال، في المياه الطينية، وخطفا سلاحيهما من على الأرض. كان دوجنز أول من أطلق النار، فشق اللهب الأزرق طريقاً بين الأجسام المهرولة، وأشعل النار في عيدان القصب، خلفها. مع ذلك فقد واصلت بقية الكائنات عدوها، باتجاههما. أطلق نيال النار، وقد صوب الحاصد إلى قوائمها، وهو يحرك يديه ببطء متعمد؛ فقد شعر بالاشمئزاز من حركة انشطار أجسامها، كما لو أنه يلحم منجلاً، لكنه لم يجد أية طريقة أخرى. بدا الأمر كما لو أن الكائنات لا تشعر بأي خوف، كأنها فقدت أي إحساس بالرغبة في البقاء، ليصبح هدفها

الوحيد هو القضاء على هؤلاء الدخلاء، وليتحول موت بقية الكائنات المرافقة إلى مسألة تافهة.

ثم توقف الزحف نحوهما، وتغطت الأرض بأجسام الكائنات، وقد بترت قوائم معظمها، التي ظلت تتلوى، بينما تحولت مجموعة أخرى منها إلى مجرد بقايا متفحمة؛ فقد استخدم دوجنز حاصده، وهو على درجة طاقة مرتفعة. عبقت رائحة اللحم المحترق الجو، فخفض نيال حاصده، وهو يشعر بالغيثان. استمر دوجنز في إطلاق النار، حتى لم تعد هناك أية حركة. أزت ماسورة الحاصد الساخنة، عندما أعاده دوجنز إلى مكانه فوق الأرض المبتلة.

غاص مانيشو في الأرض إلى أن وصل الطين إلى صدره، وكلما ازداد تخبطه، غاص جسمه. ولما حاول نيال ودوجنز سحبه للخارج، انزلقت أقدامهما فوق الأرض الطينية. أخرج نيال، في نهاية الأمر، حبلاً من صرته، وقاما بربطه تحت إبطي مانيشو، ثم تقهقرا، حتى عثرا على أرض صلبة، وبذلا كل ما لديهما من قوة، وساعدهما مانيشو بالتشبث بالأرض. خرج جسمه فجأة من المستنقع، بينما سقط نيال ودوجنز على ظهريهما.

جلسا في مكانهما لمدة عشر دقائق، لالتقاط الأنفاس، بينما حاول مانيشو تنظيف نفسه من الطين، مستعيناً بحزمة من الأعشاب. هبطت الشمس فوق قمم التلال الغربية، فأدركوا أن الظلام سيحل بعد أقل من ساعتين. لكنهم رأوا من مكانهم أن النقطة، التي تنتهي عندها المستنقعات، وتبدأ بعدها الأرض الصلبة، تبعد بضع مئات من الأمتار فقط.

وقف نيال، وحمل كيسه فوق ظهره، كما نهض الآخران بتثاقل. نظر مانيشو خلفه إلى البقايا المتفحمة، وقال:

ـ لندع الله ألا نراها مرة أخرى.

قال دوجنز: آمين.

تقدموا ببطء وحذر، وسط برك المياه الراكدة، التي غطتها النباتات، وغُثاء مادة خضراء تشبه العوالق. كان عليهم، ليصلوا إلى الأرض الصلبة، أن يسيروا في طريق متعرج بينها. نظر مانيشو، الذي تقدمهما، من فوق كتفه، وقال:

ـ أتعرفان ما الذي أريده حقاً؟

ـ لا.

ـ حمّام ساخن.

ضحك دوجنز، وأشار إلى سطح البركة المغطى بالنباتات، وقال: أتصلح هذه البركة لحمامك؟

انشق السطح الأخضر، وهو يتحدث، وحدق وجهٌ يشبه الضفدع فيهم. رآه مانيثو وقطب جبينه. ثم انفتح الفم، قبل أن يتمكن نيال من تحذيرهما، وقذف بسم أخضر اللون، ليصيب وجه مانيثو، الذي صرخ، وترنح متقهقراً. صاح دوجنز غاضباً، ورفع حاصده، وأطلق النار، لكنه أخطأه. فأحاطت بهم، فجأة، سحابة كثيفة من البخار الساخن. جثا نيال على ركبتيه، وغطى وجهه بيديه، لكن البخار شق طريقه إلى عينيه وأنفه. أحس، للحظة، باليأس التام، ثم تراجع البخار، فتمكن من الرؤية مرة أخرى. كادت البركة، التي كان يحدق فيها منذ بضع ثوانٍ، أن تختفي لتحل مكانها حفرة من الطين الأسود، المغطى بالنباتات، والعوالق الخضراء. وراحت المياه تتدفق من بركة مجاورة. أما الكائن الذي يشبه الضفدع، فقد تمدد في الطين، ووجهه إلى أعلى، وقد باعد ما بين قائمتيه، وانتفخ جسمه، وبات أبيض اللون، وتدلى اللحم من أحد قائمتيه، ليكشف عن العظم، فقد اكتوى جسمه بالبخار الساخن.

راح مانيثو يصرخ ويولول، ضاغطاً وجهه على الأرض المبللة. ألقى دوجنز ونيال بكيسيهما، وأخرجا قطعة قماش إضافية، ونقعاها في الماء. أدرك نيال مدى المعاناة التي يشعر بها، خاصة وأن وجهه ما يزال يؤلمه، وتشققت بشرة خديه، وامتلأت بالبثور. أخذ مانيثو يئن، ويحاولان الإمساك به، ووضع قطعة القماش المنقوعة فوق عينيه، ثم جلس، وأخذ يهتز للخلف والأمام في ألم، بينما نظر نيال ودوجنز إليه بأسى.

شعر مانيثو في النهاية، بقدر من الراحة، بعد أن تمدد، ووضع جبهته، وعينيه في مياه يئن، وهما يحاولان الإمساك به، ووضع قطعة القماش المنقوعة فوق عينيه، ثم جلس، وأخذ يهتز للخلف والأمام في ألم، بينما نظر نيال ودوجنز إليه بأسى.

ـ لقد أُصبت بالعمى! لا أستطيع رؤية شيء.

انهار على أطرافه الأربعة، فوق الأرض، وهو يبكي. نظر نيال إليه، وقد أحس بالبؤس، وتمنى أن يكون الألم، الذي يعاني هو منه أعظم، حتى لا يشعر بالحزن، والشفقة عليه.

وضع دوجنز ذراعه بحنو حول كتفي مانيثو، وقال: أعرف أن عينيك تؤلمانك، ولكن علينا أن نواصل السير، وإلا فإننا سنموت هنا.

بذل مانيثو جهداً للسيطرة على نفسه، وقال: عليك أن تقودني!

ـ نعم سوف نقودك.

نهض مانيثو، وقال: أي طريق سنسلك؟

نظر دوجنز إلى نيال، وقال: سنعود أدراجنا.

- وسط المستنقعات؟

- إنها الطريق الوحيد. علينا أن نعيده إلى سيميون، فليس هناك ما يدعو لاستمراره معنا، وهو لا يستطيع أن يرى شيئاً.

أدرك نيال أنه على صواب، فتطلع خلفه نحو الشمس، وقال:

- يجب علينا أن نسرع الخطى.

أخذت أسنان مانيثو تصطك، فقال ببؤس: آسف.

رد دوجنز بحنو: ليس هناك ما يدعو للأسف. هل بوسعك العودة إلى المخيم؟

- نعم. لكنني لا أستطيع أن أرى.

- سوف تكون على ما يرام. وسوف نأخذ بيدك، ولكن يتعين علينا أن نتحرك الآن.

وضعا حاصد مانيثو فوق الكيس، الذي يحمله على ظهره، وأشفقا عليه من هذا الحمل الثقيل، ولكن لم يكن هناك أي حلّ عملي آخر، وإذا حمله أحدهما، سينخفض معدل السير إلى النصف.

دُهش نيال، وهم عائدون وسط عيدان القصب، حين شعر أن تعبه قد تلاشى. فقد جددت الأزمة قوته، وساعدته على السحب من احتياطي طاقته الكامنة. تركز اهتمامه الوحيد في العودة إلى مكان المخيم، قبل هبوط الظلام. أمسكا بيدي مانيثو، وأخذا يسرعان الخطى. أدرك مانيثو، هو الآخر، أن حياتهم تتوقف على السرعة، فلم يجأر بالشكوى، حين تعثر، وسقط على ركبتيه. راح يسأل بين فترة وأخرى: هل حل الظلام؟ فيجيبانه: لا. ليس بعد. كان نيال قد اقتنع، بينه وبين نفسه، عندما انطلقوا في رحلة العودة، بأن الظلام سوف يلفهم قبل وصولهم إلى المخيم، بفترة طويلة، لكن معدل تقدمهم شجعه، فعاوده الأمل مرة أخرى.

ولما وصلوا إلى الزاوية، التي لمحوا منها للمرة الأولى أحد الضفادع، التي تشبه البشر، عرف أنهم قطعوا أكثر من نصف المسافة، فراح قلبه يخفق فجأة. وصلوا بعد عشرين دقيقة إلى طريقهم الأصلي. غابت الشمس وراء الأفق الغربي، لكن السماء ظلت بلون الغسق. ثم خرجوا، فجأة من وسط القصب، ورأى نيال ضوءاً، من بين الأشجار، أمامه مباشرة. راح هو ودوجنز يصيحان معاً: سيميون! ميلو! علت وجه مانيثو المتورم ابتسامة. وصلوا، بعد خمس دقائق، إلى المنطقة المقطوعة الأشجار، التي أضاءتها نار المخيم، بينما راح سيميون

يساعدهما في نقل مانيثو. رفع ميلو، الذي كان يتمدد بجوار النار، وقد لف نفسه ببطانية، جسمه، وهو يتألم مستنداً إلى كوعه، وقال:

ـ هل عدتم بهذه السرعة؟ هل وفقتم في الرحلة؟

ألقى نيال بنفسه على الأرض مباعداً ما بين ساقيه، وأغمض عينيه. شعر بالبهجة والاسترخاء لبضع دقائق، كما أحس بالأمان الكامل، الذي كان دائماً ما يشعر به وهو صبي بين ذراعي أمه. لم يعد يهمه أن الأخطار ما تزال تحيق بهم، وأنهم قد لا يستطيعون الهرب مطلقاً من هذا المكان المرعب. لكنهم الآن في أمان، ولذلك فقد استرخى، كما لو كان رجلاً مجهداً وجد أمامه فراشاً من الريش.

فيما راح دوجنز يروي ما حدث لهم، وضع سيميون أوراق شجيرة السوفا في الماء ليغليها، ثم غسل بها عيني مانيثو، الذي أخذ يئن من الألم، والسائل يتحدر فوق عينيه. لكنه تنهد بعمق، بعد لحظات، وابتسم بارتياح. ثم صنع سيميون كمادات من أوراق السوفا، وأخذ يضعها فوق جفونه. تأكدوا، بعد بضع دقائق، من انتظام تنفسه وهدوئه، أنه راح في نوم عميق.

سأله دوجنز بهدوء: أتعتقد أنه سيرى مرة أخرى؟

ـ لا أدري. لو أنه يشبه سم الأفعى الباصقة، فإنه لن يؤدي إلى العمى، بشرط أن يُنظف في الحال.

نظر دوجنز بشفقة إلى وجه مانيثو المتورم، وقال: أرجو أن يكون بخير.

بدأت النجوم تلمع وسط السماء المظلمة، وهب نسيم عليل على الوادي، من جهة البحر، ورغم أن الأشجار تحميهم، إلا أن الهواء راح يتنهد ويئن وسط فروع الأشجار.

سأل نيال سيميون: لماذا لا توجد فراشات؟

ـ لأن هذا المكان يشكل خطراً بالغاً عليها، إنها تفضل التلال المرتفعة، حيث لا تلتهمها النباتات.

ـ هل تنام النباتات أثناء الليل؟

ـ من المرجح ذلك. ألم تلحظ أن الأعشاب قد توقفت عن الحركة؟

ـ كلا، لم ألحظ شيئاً.

نزع نيال حزمة من الأعشاب السميكة، وقربها من النار، فرأى أن القوائم البيضاء

الصغيرة ساكنة لا تتحرك. وعندما ألقى بها مرة أخرى على الأرض، لم تبذل أية محاولة لغرس نفسها في التربة.

ـ إذن فالدلتا أكثر أماناً أثناء الليل؟

ـ هي كذلك، ما لم توجد حيوانات.

قال دوجنز، وهو يتثاءب: من الأفضل أن نتناوب الحراسة.

ـ أعتقد ذلك. وقد تعودتُ البقاء مستيقظاً طوال الليل، ولذلك فسوف أتولى نوبة الحراسة الأولى.

تناولوا ما تبقى من لحم سرطان البحر، مع الفطائر المجففة، لكن نيال أحس بتعب شديد، أنساه جوعه. فلم يأكل سوى القليل، ثم دفع صحنه جانباً، واستلقى على أن يكمل طعامه بعد أن يستريح، لكنه راح في نوم عميق، في غضون لحظات.

شعر كأنه لم ينم سوى بضع ثوانٍ، عندما هزه دوجنز، فقال وهو نائم: سوف أكمله بعد قليل.

ولكن حين فتح عينيه، رأى النار وقد تحولت إلى كومة من الرماد الأبيض، والجذوات الحمراء، وأن سيميون وميلو نائمان.

همس دوجنز: لقد حان وقت نوبتك.

ـ ما الوقت الآن؟

ـ حوالي الثانية قبل الفجر.

تثاءب، وجلس وهو يرتعش. كانت الريح الباردة ما تزال تعوي وسط الأشجار.

أشار دوجنز إلى الظلام، وقال: ثمة شيء يتحرك هناك. ولكني لا أظن أنه سيجرؤ على الاقتراب.

ألقى بفرع جاف آخر في النار، وكان سيميون قد جمع كومة من الفروع، واستخدم الحاصد ليقطعها قطعاً صغيرة، وفي لحظات بدأ اللهب يتصاعد.

قال دوجنز: سأذهب لأنام.

ولف نفسه ببطانية، واستلقى بجانب النار، وفي أقل من خمس دقائق كان يشخر بهدوء.

حدق نيال بقلق في الظلام. لم يتمكن من سماع شيء، نتيجة لعصف الرياح، لكن تراءى له أنه لمح بريق عينين وسط الأشجار. رفع الحاصد، ثم تراجع، فلو كان حيواناً

ضخماً، فإن خواره سوف يوقظ الآخرين. ألقى بفرع آخر في النار، ولف نفسه في بطانيته، وجلس، وظهره لجذع شجرة الأرجوان، ووضع الحاصد بين ركبتيه.

تنبهت حواسه، بعد أن شعر أنه مُراقب. مد يده داخل ردائه، وقلب مرآة التأمل نحو صدره، فزاد في الحال تركيزه، لكنه أدرك أنه قد يتعرض لهجوم من الخلف، إذا ما ظل جالساً، وظهره لجذع الشجرة. حاول استخدام ذهنه لمسح المكان المظلم المحيط به، ولاكتشاف مكان الخطر الكامن، إلا أن التركيز، الذي أحدثته مرآة التأمل، جعل ذلك مستحيلاً. مد يده، على مضض، داخل ردائه، وقلب مرآة التأمل مرة أخرى. من خلال تحفيز نقطة الضوء المتوهجة داخل جمجمته، خلق حالة من السكون الداخلي، امتد فيه إدراكه إلى الظلام، مثل نسيج عنكبوتي. أدرك فجأة طبيعة الحيوان الذي يراقبهم من وسط الظلام. بدا أنه ليس من الزواحف أو الحيوانات، ولكنه خليط من الاثنين معاً، ورغم صغر حجمه، إلا أنه في غاية القوة، وبمقدوره الانقضاض عليه في وثبة واحدة. وقد اجتذبته رائحتهم، التي أثارت فيه حالة من الجوع الشديد. لكن الحيوان شعر أيضاً بأن هذه الكائنات الغريبة، التي أثارت شهيته، أكثر خطورة مما تبدو، وأنه من الغباء الاستسلام لجوعه، وشن هجوم عليها.

لم يشعر نيال بأي قلق أو إحساس بالخطر، لأنه كان مستوعباً لاحتياجات ورغبات الكائن، ومتعاطفاً معه، بعد أن شعر كما لو أن هويتهما قد امتزجتا معاً.

كان من الصعب عليه أن يدرك إذا ما كان يستند بظهره إلى جذع شجرة، أم يجثم وراء شجيرة، واضعاً يديه اللتين تشبهان المخلبين على الأرض أمامه. انتابه في الوقت ذاته إحساس غريب بالاختناق والشفقة. فهذا الحيوان محاصر داخل مصيدة رغباته وغرائزه، كأنه حبيس في زنزانة، وتخيّله كآلة قاتلة.

ضاق نيال ذرعاً بدوره كمجرد مُراقِب، وأراد أن يعرف مدى قدرته على التأثير على الحيوان. لكن حالته الذهنية بدت سالبة تماماً، كما لو أنه مجرد عنكبوت في قلب نسيجه. مد يده داخل قميصه ببطء، وهو يحاول الإبقاء على حالته الذهنية السالبة، التي اضطربت بمجرد أن لمس بأصابعه مرآة التأمل. لكن الجهد، الذي بذله للتركيز، أعاد حالته إلى وضعها الأول. ثم قلبها، بصبر وأناة، حتى أصبح الجانب المقعر في مواجهة صدره. حدث صراع، للحظة، عندما هدد تزايد الحيوية، التي أثارتها المرآة، بتمزيق نسيج العنكبوت، وتصفية إدراكه الذهني.

استرخى، مرة أخرى، واستخدم تنفسه للسيطرة على التوتر، الذي بدأ يعتريه. ثم تعدل الموقفان، على حين غرة، ولم تعد قوة مرآة التأمل تهدد بتمزيق نسيج العنكبوت.

أدهشته نتيجة هذا التعديل كثيراً، ففقد اهتمامه بالكائن المتواري وسط الظلام، بعد أن أصبح يشكل جزءاً من مداركه. لكنه ذهل من إمكانية تحقيق التوازن التام لهذين الجانبين من كيانه، وهما قوة الإرادة، وإدراكه الذهني. وأنه بإمكان قوة الإرادة السيطرة على الإدراك الذهني، دون أن تدمره. لقد كان يؤمن، دون أن يطرح المسألة على نفسه، أو يفكر فيها، وكأنها أمر مسلم به، بأن الجانبين ضدان تماماً لا يمكن أن يلتقيا؛ فالإدراك الذهني لفهم العالم، وقوة الإرادة للسيطرة عليه. أما الآن فقد أدرك وهو في هذه الحالة من التآلف بين الجانبين، أنه كان مخطئاً، فالإدراك الذهني ما هو سوى وسيلة للتغلغل إلى عالمه الداخلي.

كان إحساساً مثيراً. فقد شعر كما لو أنه يقف فوق عتبة مملكته الداخلية، ينظر من علٍ إليها، مثلما كان ينظر إلى أرض ديرا من قمة القلعة فوق الهضبة. بدت كل حياته الماضية ماثلة أمامه، بالقدر ذاته من الواقعية، التي يشعر بها في الوقت الحالي. ولو أنه رفع ناظريه، لأصبح مدركاً لآفاق أبعد كثيراً من هذا، لحيوات وراء الحياة الحالية، ولحيوات كل الكائنات البشرية الأخرى. كان هذا يماثل الإحساس ذاته، الذي انتابه وهو يجلس في الجدول منذ بضع ساعات، لكنه ارتفع ليصل إلى درجة أرقى من الواقع.

لقد توصل الآن للإجابة عن السؤال، الذي أزعجه منذ أن وصل إلى الدلتا، وهو لماذا دأب الإنسان دائماً على الشعور بالاستياء من حياته؟ أصبحت الإجابة واضحة، وهي: لأن كل إنسان يحتضن داخل نفسه الطاقة التي تسمو على الحاضر، وتهيمن على كيانه الداخلي. كان الإنسان معداً لأن يكون سيد هذه المملكة الذهنية، وليس منفياً، يائساً، محاصراً في الحاضر، دائم التغير. ولأن كل البشر وُلدوا بهذه المعرفة الغريزية، فإن أحداً لم يشعر بالرضا تجاه اللحظة الراهنة، مهما تمكنت من تلبية رغباته.

أثار هذا الإدراك إحساساً بالحزن العميق، بدأ يشعر بالشفقة على الكائن الجاثم خلف الشجيرة، الذي ينتظر اللحظة التي يثب فيها عليهم، ويمزقهم إرباً. فهذا الكائن لا يمتلك مملكة ذهنية، وهو سجين العالم المادي، مثل السجين وراء القضبان. وهذا هو السبب الذي يجعل الدلتا مكاناً مليئاً بأعمال العنف والوحشية، وبإحباط السجناء الذين يتضورون جوعاً.

لقد كانت الحياة على الأرض، بطبيعة الحال، تماثل الحياة في الدلتا. فإذا ما تركت الكائنات الحية لحالها، فسوف تركن للراحة، والاسترخاء، تحت الشمس، في الطين. لقد تعلمت القوة الكامنة وراء التطور، حيلة دفعتهم بها إلى البؤس والموت جوعاً. ومع ذلك فقد سُمح للإنسان، على الأقل، بالتطور ببطء على مدار ملايين السنين، وهذا المعدل كان سريعاً للغاية في حد ذاته. لكن كائنات الدلتا أُضطرت للتطور بسرعة تفوق ذلك مائة مرة. وهذا

هو السبب الذي يجعل الحياة في الدلتا تصبح بمثابة دعابة مرعبة مثيرة للغثيان. وتماثل بوتقة الانصهار التطورية هذه حلماً سادياً، فقد أجبرت هذه الكائنات على التطور لمجرد أن تتمكن من القضاء على بعضها البعض، مثل العناكب، التي تطورت كي تتمكن من القضاء على الكائنات البشرية . . .

أخرجه طنين بعوضة من حالة التأمل، التي استغرقته، فراح يهشها بطريقة تلقائية. أدرك مندهشاً أن الفجر قد انبلج، وأن النار قد تحولت منذ فترة طويلة إلى كومة من الرماد الأبيض.

رأى على بعد مائة قدم خطوط الشجيرة، التي ما يزال الحيوان الجائع رابضاً خلفها. كانت ذبذبات جوعه مثل صرخة بؤس. أحس أن القضاء عليه سيريحه من هذا الألم. . . ولكنه أدرك، رغم أنه رفع حاصده، استحالة ذلك، وصوب النار، بدلاً من ذلك، إلى الشجرة خلف الشجيرة، وشطر فرعاً مائلاً. حدثت حركة عنيفة، ثم اختفى الكائن، بوثبة واحدة، بين الأشجار. لمح نيال ظهراً أخضر محرشفاً، وقوائم طويلة، كقدم ضفدع ضخم.

استغرق الآخرون في النوم، فالتقط نيال فرعاً جافاً، وقلب النار حتى ظهرت الجمرات الحمراء، فاشتعلت من جديد. ظل انفعاله متوهجاً بداخله، لكن الرؤى اختفت، ليعود إلى اللحظة الراهنة. بات كل ما تبقى مجرد ذكرى مختلطة لتلك الهيمنة، التي لمحها من أبراج قلعته الداخلية. وعندما شعر بتدفق القوة الكامنة تحت الأرض، التي نفخت الحياة في الدلتا، انتابه إحساس مزعج، هو مزيج من الغضب والانفعال؛ الغضب من القوة، التي أحدثت هذه الدعابة الكئيبة، والانفعال من قوة ذهنه، التي رأت ما هو أبعد من أغراضها القصيرة النظر.

- ٦ -

ازداد تـورم وجه مـانيثو، حتى كـاد لا يتعرف عليـه أحد، وبـدا كأنـه تعـرض لضرب وحشي. ولكن عندما باعد بأصابعه بين كريـات اللحم المنتفخة، التي أخفت عينيـه وقال إنـه تمكن من رؤية ضوء النهار، رفع من معنوياتهم، فقد كان التفكـير في إصابتـه بالعمى الـدائم يثير رعبهم، بشكل أكبر من التفكير في الموت.

لكن ميلو ظل يعاني من حالة ضعف عامة، وقال إن ساقيه متخدرتـان، وحينها حـاول النهوض، سقط في الحال. ازرقت قدماه وساقاه، ولما فحصها سيميون، بدت عليه علامـات القلق. لكنه قرر أن يجرب علاجاً تعلمه من جدته، وهـو غلي أوراق الشجـرة الـتي تسببت في الإصابة، واستخدامها مثل الكمادات.

لم يكن هناك متسع من الوقت أمام نيال ودوجنز للانتظار لمعرفة النتيجة، فأمـامهما يـوم طويل، وأي تأخير قد يعرضهما للخطر. انطلقا مرة أخرى تجاه التل الغريب، الذي بـدا مثل رأس عملاق، وذلك بعد أن تناولا إفـطاراً خفيفاً، من اللحم المجفف، والفـطائر، وشراب من الأعشاب، المحلاة بالعسل.

رافقهمـا سيميون حتى حافة الغابة، وكانت الشمس قد ارتفعت فوق قمة التل خلفهما، بينما لف ضباب فضي رقيق حوض الدلتا الأوسط.

قال سيميون: لقد كنت أفضل الذهاب معكما، لكن هذا مستحيل. لذلـك اسمحا لي أن أسدي لكما نصيحة، كي أشعر بالراحـة. أعرف أن هنـاك الكثير من المخـاطر في الـدلتا، لكن الخطر الأعظم يكمن في ذهنيكما. تقضي الدلتا عادة على أولئك الـذين لديهم استـعـداد للانهيار، وتضطر لتجاهل أولئك الذين يرفضون أن يكونوا ضحايا لها. عليكـما أن تدركـا أن ضمانتكما الأساسية للبقاء على قيد الحياة هي التصميم، فتحليا بالشجاعة، ولكن بدون تهور، وليحطكما الله برعايته.

تصافحوا، وضغط سيميون بشدة عـلى يد نيـال، الذي أدرك، دون أن يحـاول سبر غـور

ذهنـه، أن الرجـل العجوز يشعـر بأنـه لن يراهمـا مرة أخـرى. وقف سيميون وظـل يتابعهـما بعينيه، حتى اختفيا بين عيدان القصب.

كانا قد قررا، قبل الرحيل، أن يسيرا في الطريق، الذي سلكـاه من قبل، حتى يصـلا إلى حافة المستنقعات الغربية. ولكن الشيء الذي لم يتـوقعاه، أن يجـدا الطريق وقـد طُمست معالمه. ونمت عيدان قصب جديدة مكان النباتات التي قطعاها بأسلحتهـما الحاصـدة، ووصل طولها لأكثر من قدم. تمكنا من شق طريقهما، وسط القصب الجديـد، دون أية صعـوبة. كـما اكتشفـا أن معظم النبـاتات، التي سحقهـا الكائن، الـذي يشبـه وجهـه الضفـدع، نمت من جديد، لكنهـا كانت أقـل كثافـة، فانهارت حينـما تعرضت لأشعـة الحاصـد. أدى شعورهمـا بالنشاط، بعد أن استراحا خلال الليل، إلى تقدمهما بتروٍ، فكـانا يتـوقفان، من حـين لآخر، للإصغاء لأي صوت يشير إلى وجود من يتبعهما، ولكنهما لم يسمعا شيئـاً سوى عصف الـرياح بين عيدان القصب الطويلة.

استغـرقا أكـثر من ساعتـين، حتى وصلا إلى المكـان الـذي سـد فيه الكـائن الـطريق عليهما. كانت الدلالة الوحيدة على وجوده بقعـة حمراء في ميـاه البركـة، حيث التهم ضحيته. كشف طريق مؤلف من عيدان القصب المهشمة، عند أقصى طـرف هذه الـبركة، أن الكـائن قد واصل السير باتجاه حافة المستنقعات. لم يضيعا وقتاً في محاولة السير حول الـبركة، ولكنهـما استدارا، وسارا في طريقهما السابق صوب المكان الذي هاجمهما فيه الكائن.

أصيبا بالدهشة، عندما اكتشفا عدم وجود أية دلالة تشير إلى صراعهـما مع الكـائنات، حيث توقَّعا رؤية أكوام من بقاياها المتفحِّمة. لم يتبقَّ أي شيء، بـل لم يجدا أي أثـر للأعشـاب، التي أحرقتها أشعة الأسلحة الحاصدة، ولم يكن أمامهما سوى العشب الأخضر الجديد، الذي نما في التربة الطينية.

قطب دوجنز، وقال: معنى ذلك أن من المرجح وجود المزيد من الضفادع حولنا، ولا بد أنها سحبت الجثث بعيداً.

لكن نيال راح يحدق، وقد انتابته الحيرة، في حفـرة دقيقة الاستـدارة، في الطين عنـد قدميه. وما أثار فضوله هو أنها أخذت تمتلـئ ببطء بالمـاء. سحب مديتـه، وغرسهـا في الأرض المبللة، وحركها بشكل دائري ليرفع شريحة من الطين مخـروطية الشكـل، فانـتزعها بعشبهـا. ارتد للخلف مذعوراً مما رآه. كان النصل قـد شطر دودة بيضـاء ضخمة، يصـل قطرهـا إلى نحو بوصة. راح أحد نصفيهـا يحفر نفقـاً في الطين، ثم اختفى، وهمـا يتابعـانه، بينـما تلوى النصف الآخر بيأس، في قـاع الحفرة، التي يغمـرها المـاء ببطء. ثم انزلقت دودة أخـرى من

فوق حافة الحفرة. ولمح نيال فمهـا، الذي يشبـه فم سمكة القـرش، وأسنانها المـدببة، التي قضمت بها قطعـة لحم بحجم رأسها. ظهـرت، بعد لحـظات، دودتان أخـريان، شـاركتا في الوليمة، بدا واضحاً أن الأرض، تحت أقـدامهما، تعج بهذه الكـائنات. أحسن نيـال، وهو يراقبها بانبهار واشمئزاز، في الوقت ذاته، بلمسة خفيفـة على كعب قـدمه، فـارتد مـذعوراً، ليرى دودة أخرى قد نتأت من الأرض خلفه، وهي تتلوى كثعبان. شطرها بضربة واحدة من مديته، فأخذ الجسم المقطوع الرأس، يتلوَّى على الأرض، بينما ظهـرت ديدان أخـرى، هاجمت الجسم.

بصق دوجنـز، وقـال: نحمـد الله أننـا لم ننم في المستنقعـات، فهـذه الأشيـاء اللعينـة كالأسماك الضارية.

أدركا، بعد أن اختفت الدودة المقطوعة الرأس، ما حدث لجثث الضفادع.

هرعا باتجاه مكان مرتفع، وأخذا يحدقان بريبة في الـبركة، التي يكسـوها الـزبد، والتي هوجم مانيثو عندها، لكنهما لم يلحظا أية حركة فوق سطحها الأخضر. وطئت أقدامهما، بعـد خمس دقائق، فوق أرض صلبة مرة أخرى.

تـوقفا لاستكشـاف المنطقـة المحيطة بهـما. كانـا يقفان فـوق أعشـاب خشنـة، شبيهـة بالسلك، تضارب لونها الأخضر الداكن مع لون المستنقعات الأخضر. بدا المكـان، وكأنـه لا يمت للدلتا بصلة، وكأنما ينتمي لمنطقـة ذات مناخ بـارد. تحولت الأرض أمـامهما، إلى سلسلة من الروابي، برزت من بينهـا الصخور الجـرانيتية، وتـدرجت الأرض، إلى الجنوب، واختفى العشب الأخضر الداكن، ليفسح المجال أمام نباتات خضراء فاتحة، وقد لفها الضباب الفضي الخفيف. وفيما وراءها، تمكنـا من رؤية الفجـوة، التي شكلت حدود الـدلتا الجنـوبية، وسط التلال. أما إلى الشمال، فقد انحدرت الأرض بتدرج نحو البحر، وحلت التربة الطينية محـل العشب الأخضر الـداكن. وشاهـدا، في البعيد، انعكـاس أشعة الشمس فـوق صفحة ميـاه البحـر. بدا أنهما يقفـان فوق مـا يشبه جـزيرة من الأرض الصخـرية الصلبـة، وسط حوض الدلتا.

تلفت دوجنز حوله بريبة، وقد شهر حاصـده، وقال: لا أستـطيع الاقتنـاع بأن المكـان آمن، كما يبدو، لا بد أن هناك شركاً في مكان ما.

تطلع إلى السلسلة الصخرية، التي تبعد نحـو نصف ميل، وقـال: أريد أن أعـرف ما يوجد على الجانب الآخر من هذه السلسلة.

قـال نيال: الـدلتا تـزداد خطورة، كـما يقول سيميـون، كلما اقترينـا من المركـز.

دمدم دوجنز قائلاً: وأنى له أن يعرف؟ إنه لم يأت إلى المركز قط.

انحنى نيال، وحاول خلع بعض العشب، الذي بدا صلباً على غير المتوقع، فاضطر لتحريك نصل المدية يميناً ويساراً، حتى يتمكن من نزعه. أحس بوخز في أصابعه يماثل الوخز الخفيف، الذي يشعر به عندما يقبض على القضيب المتداخل، لكنه أقوى.

سأله دوجنز: ما الأمر؟

- حاول أن تنتزع بالمدية بعض العشب.

انحنى دوجنز، وقبض على العشبة بقوة بين إبهامه وسبابته، وغرس المدية، لكنه تركها في الحال، وأخذ يحدق بدهشة في أصابعه.

- لقد أصابني هذا الشيء اللعين بالصدمة.

انحنى نيال، ووضع يده، وراحتها لأسفل، فوق العشب. وأدرك أنه قد ارتكب خطأ، حينما فعل ذلك، فقد كانت الصدمة قوية، فرفع يده وهو يصرخ من الألم. تبادلا النظرات، فسأله نيال: ماذا يعني ذلك؟

- صدمة كهربائية.
- إذن لماذا لم تصل إلى أقدامنا؟
- لأنك تنتعل حذاء مصنوعاً من المطاط.

نظر نيال إلى الأعشاب، وقد علت وجهه علامات الحيرة.

- إذن لماذا لم أشعر بها حينما لمست العشب للمرة الأولى؟
- ربما لأنك لم تحاول نزعه عندئذ.

تقدم نيال بضع خطوات حذرة، وقال: أتظن أن السير فوقه سيكون آمناً؟

- نعم، طالما ننتعل أحذيتنا المطاطية.

لكن نيال راح يطأ فوق العشب بحذر، وهما يتقدمان نحو السلسلة الصخرية، وهو لا يصدق أن حذاءه يمكن أن يضمن له السلامة.

- لماذا ينفث العشب هذه الصدمات الكهربائية؟
- للدفاع عن نفسه، على ما أظن.

مرا بعد مائة متر بجيفة طائر متعفنة، فخمن نيال أنه نسر. كان مخلباه منقبضين من حالة ألم شديد على ما يبدو، بينما دل منقاره المفتوح، على أنه كان يصيح.

- ولكن ما السبب الذي يدعو إلى قتل طائر؟ فالطيور لا تقتات على العشب.

ـ ولكن جيفها تخصب التربة.

نظر نيال إلى العشب، الـذي يشبه السلك بـاشمئزاز، وقـال: ليس جذّابـاً مثل العشب العادي.

ـ ذلك هو الثمن الذي يدفعه مقابل الدفاع عن النفس.

أخـذا يصعـدان بـاتجـاه قمـة سلسلة الصخـور الهـائلة، التي يمكن لحيـوان أن يختفي وراءها، فتقدما بحذر شـاهرين حـاصديهـما. ولكن عندمـا وصلا إليهـا، وجداهـا منبسطة، فتأكدا أن حذرهما لم يعد له ضرورة. انحدرت الأرض الخلاء أمامهما لمسافة ميل تقريباً، قبل أن تكسوها أشجار غنية بألوانها. وبعـدها تمكنـا من رؤية أقـرب نهرين، تدفقت ميـاهها من طرف الدلتا الجنوبي، في مجرى متعرج في وسط الأحـراش والمستنقعات. ارتفـع التل أمـامهما مباشرة عند الجانب الآخر من المجرى، ببروزه، الـذي يماثـل البرج. لم يكن يبعـد الآن أكثر من ثلاثة أميال، ولم يعد شبيهاً بالرأس، كما وضح أن البروز ليس برجاً، بل تراءى لهما، من هذا البعد، كأنه امتداد للنباتات فوق التل، أو بقايا شجرة هائلة.

قال دوجنز متأملاً: إنها تبدو كما لو أن صاعقة قد أصابتها.

تمكنا في هذا الموقع الممتـاز، من رؤية نقـطة التقاء النهـرين عند سفـح التل من الجهـة الشـمالية. بـدا واضحاً أن ميـاه النهرين، عنـد جانب التـل البعيـد، أسرع وأقـوى من ميـاه المجـرى، الذي تمكنـا من رؤيتـه. واتحـد النهـران، فيـما وراء نقـطة الالتقـاء، ليشكـلا نهراً عريضاً، تتدفق مياهه بقوة.

أخـــرج دوجنـز من جيبـــه منـديـــلاً، ومســـح جبينـــه، وتنفّس بعمق وقـــال: أشعـــر بالاختناق، لا بد أن درجة الحـرارة تبلغ مائـة وعشر درجات. انتـاب نيال الإحسـاس ذاته، رغم أنهما كانا واقفـين تحت ظلال صخـرة جرانيتيـة بارزة. أدهشـه التغير المفـاجيء في درجة الحرارة، فعلى جانب المنحدر البعيد كان الجو دافئاً، ولكنه لم يكن حاراً بهذا الشكل. اعـترته ريبـة مفاجئـة، فمد يـده إلى داخل ردائـه، وقلب مرآة التـأمل، فتحـولت حالـة التركيـز إلى إحساس بالراحة، ولم يعد الحر خانقاً.

ـ هل عدلت مرآتك؟

قال دوجنز: بالطبع.

ـ اقلبها!

انصاع دوجنز لما طلبه منه نيال، ثم نظر إليه بدهشة.

ـ ماذا حدث؟

قال نيال: إنه ليس الحر، ولكنها القوة الجوفية.

ـ لا أفهم. كيف تجعلك تشعر بالحر؟

ـ بتخفيض درجة مقاومتك. فبمجرد أن تشعر بالاختناق، ستجد نفسك تعتقد تلقائياً أن الجو حار.

ـ أتظن أنها تدرك وجودنا؟

ـ لا أدري.

أثار هذا السؤال اضطراب نيال. فالقوة تبدو هوجاء مثل الريح، ومع ذلك فإنها تتصرف أحياناً بذكاء، كما حدث عندما قاومت سيطرتهما على الحيوانات الفطرية. انقبض قلبه وهو يفكر في احتمال ادراكها لوجودهما.

قال دوجنز: أريد أن أجلس لأستريح، لكنني لا أعتقد أن بإمكاننا المخاطرة بذلك، فقد نصاب بصدمة كهربائية، وبالتالي علينا أن نواصل السير.

هبطا التل، ولم يعد الهواء يخنقهما، مع ذلك فقد شعرا بكآبة الجو حولهما، وأن الشمس نفسها تخفق، مثل قلب نابض.

قال دوجنز: ما هذا؟

برز جلمود جرانيتي في الأرض، على يسارهما، وشاهدا تحته فجوة، ولمع شيء ما أبيض اللون، وسط العشب الأخضر المشوب بالزرقة، في أعماق الفجوة.

قال نيال: عظام.

اقترب دوجنز منها، وقال: يا إلهي، لا بد أنها عظام حيوان هائل.

تمكنا من رؤية القفص الصدري الضخم، وجمجمة تشير إلى أنها تنتمي لفأر كبير، وراء الهيكل العظمي، تراصت فقاريات الذيل الطويل القوي، وكأن اللحم قد انسل من العظم.

جفل نيال، حينما لمح وميضاً في الجو، فقد بدا كما لو أن شخصاً قد هز ستارة شفافة أمام عينيه، ليعشي بصره. رفع حاصده، وقد اعتراه شعور مفاجيء بالخطر.

نظر إليه دوجنز بدهشة، وقال: ما الأمر؟

وجد، عندما التفت، وقد احتقن وجهه، أن العظام تتحرك، وكذلك فقاريات الذيل، التي انتفضت من فوق الأرض، واهتزت الضلوع، ثم تحرك الهيكل العظمي برمته، وراح

يأخذ الوضع المنتصب. انفتح فكاه الناتئان، وأصدر صوتاً يثير الصمم، هو خليط من الزئير والصراخ.

أطلق نيال ودوجنز النار معاً. ونظراً لأنهما ضبطا الأسلحة عند أدنى معدل للطاقة، فإن الأشعة الزرقاء الرفيعة كادت تكون غير مرئية، لكنها بمجرد أن أصابت الهيكل العظمي، في منطقة التقاء الصدر بالرقبة، توقف الزئير على نحو مفاجىء، مثلما بدأ. انقلب الكائن باتجاهما من جراء قوة الدفع، فارتد كلاهما، للخلف بصورة غريزية. اصطدم بالأرض بقوة، ولم تقرقع العظام كما توقعا، ولكن ما سمعاه كان ارتطاماً مكتوماً للحم على الأرض الصلبة. أخذت رقبته تنبض من الألم، الذي يسبق الموت، وراحا يحدقان بدهشة في العينين المملوءتين بالكراهية، اللتين التقتا بعيونهما للحظة. كان الاثنان مستعدين لإطلاق النار مرة أخرى، لكن الأمر لم يكن يتطلب ذلك، فقد كادت أشعة الطاقة تبتر رقبة الكائن.

تمدد الآن ساكناً، وبدا واضحاً أن له رقبة، لكن اللحم كان شفافاً مثل الحلوى الهلامية، وتمكنا من رؤية شبكة العروق، التي مزقتها نيران الأسلحة. كما كان الجسم نفسه شفافاً، وتمكنا، خلال القفص الصدري، من رؤية حدود القلب، الذي يبلغ حجمه رأس إنسان.

أخذا يدوران حوله بحذر، وقد جفلا عندما تشنجت قائمتاه. وبعد أن نفق هذا الحيوان الهائل، لم يعد من الممكن معرفة السبب، الذي جعلهما لا يدركان أنه كائن حي، وليس مجرد كومة من العظام.

مد نيال يده، ولمس الذيل، فوجد البشرة صلبة، وباردة، تماثل في ملمسها الجلد. تحول اللحم، الذي يماثل الحلوى الهلامية، إلى اللون البنفسجي الخفيف، وأدركا أن الحيوان ما هو سوى عظاءة عملاقة. وظهر من معدل نمو عضلات قائمتيها الخلفيتين، أنها كانت قادرة على السير منتصبة.

هز دوجنز رأسه في حيرة، وقال: ولكن كيف لم نلحظها؟

بدا السؤال صعب الإجابة. فقد يكون اللحم شبه الشفاف غير مرئي في الماء العكر، أو في الظلام، ولكن ليس تحت أشعة شمس الظهيرة القوية. كان الدم، الذي يسيل من الجرح الغائر في الرقبة، في صفاء الماء، لكنه ظل مرئياً، وقد اكتست المخالب الطويلة الملتوية للأرجل الأمامية بقشرة، من الواضح أنها دم متجلط.

راحا يحدقان في الجثة، ولم يتوصلا إلى إجابة شافية، فمضيا في طريقهما ليهبطا التل. سمعا، بعد أن قطعا نحو مائة متر، تصفيق جناحين. ورأيا طائراً ضخماً ينطلق نحوهما.

رفعا سلاحيهما، ثم خفضاهما من جديد، فقد أبدى الطائر اهتماماً بالحيوان النافق فقط. هبط فوق رأسه، وهاجم عينيه، تزاحمت، في غضون لحظات، طيور أخرى فوق الجيفة، ومزقتها بمخالبها، ومناقيرها.

طرأت لنيال فكرة مفاجئة، فقال: إنها تسترد ما سلبه منها.

ـ تسترد ما سلبه منها؟

ـ ذلك واضح من الطريقة التي يوقع بها ضحيته. إنه يظل قابعاً، مثل كومة من العظام، وحين يلمحه نسر، ويحط فوقه، ليرى ما إذا كان هناك أي لحم متبق فوق العظام، يقبض عليه، ويفترسه.

ـ ولكن كيف يفعل ذلك؟

قدّم حدَس نيال مرة أخرى الإجابة، فقال: تخميني أنه يقوم بالتأثير على العقل. فهو يأمره بألا يراه. وإذا كان باستطاعة عنكبوت أن يأمر ذبابة بالدخول في نسيجه، فماذا يمنع سحلية من إصدار أمر لطائر بعدم رؤية لحمها؟

اقتربا الآن من حافة الغابة، وأدركا أن غنى ألوانها يرجع إلى تعدد أنواع أزهارها. بدت الغابة، من بعد، مثل إحدى الحدائق المزروعة، في مدينة الخنافس، بترتيب وتناسق ألوانها: الأصفر، البنفسجي، الأحمر، البرتقالي، وسط ظلال خضراء تلف كل شيء. تلاشى هذا الانطباع عندما اقتربا، وأدركا أنها مجرد برية ذات أشجار متشابكة، ومع ذلك ظلا يشعران بأنها حديقة أفرطت نباتاتها في النمو.

اقتربا بحذر، وقد شهرا سلاحيهما، ولكن لم يبد أن ثمة سبباً واضحاً لهذا الحذر. كانت أقرب شجيرة منها مكسوة بأزهار صفراء ضخمة، على شكل بوق، لها رائحة مميزة، لا تختلف عن رائحة الورود. زحفت نحلة مكسوة بالفراء، بحجم قبضة اليد، خارجة من أحد الأبواق، ظنّت وهي تطير نحو الغابة، وبدا واضحاً أنها لم تشعر بأي خطر. تغير شكل العشب، بمجرد اقترابهما من الأشجار، وأصبح وفيراً، أخضر اللون، وحينما انحنى نيال، وشد عشبة انخلعت دون مقاومة.

مسحا الأرض، بحثاً عن أية دلالة تشي بوجود الفطريات السوداء، وفحصا كل شجرة، قد تدرك وجودهما. بدا كل شيء طبيعياً تماماً. وكانت الأشجار والشجيرات متباعدة، بالقدر الذي أتاح لهما فرصة الرؤية بينها. ورغم وجود الكثير من النمل، وبعض الحشرات الأخرى، فإنهما لم يشعرا بأي تهديد.

قال دوجنز: لا أثق في تلك الرائحة، فقد تكون مخدرة.

هز نيال كتفيه، وقال: لنبق هنا حتى نتأكد من تأثيرها، فأنا أشعر بالعطش على أية حال.

كان حلق نيال، قد جف بعد المواجهة مع العظاءة. جلسا فوق العشب، على بعد عشرة أقدام من أقرب شجيرة. ملأ نيال قارورة الماء من النهر، قبل أن ينطلقا. كانت المياه دافئة، إلا أنها قد روت ظمأه على الأقل. راودته رغبة في احتساء قليل من النبيذ الذهبي، فقد كانت القارورة ما تزال نصف مملوءة ـ لكنه رأى أنه ليس من الحكمة احتساء شيء في هذا الجو الحار. تناول فطيرة وتفاحة، وكذلك فعل دوجنز، وعندما انتهى من طعامه، جلس القرفصاء، وبذل جهداً لتحقيق درجة من الهدوء الداخلي. لم يكن ذلك صعباً، وسط هذه البيئة المحيطة به؛ فشذا الأزهار، وثراء ألوانها، جعلت الغابة تبدو مثل حديقة غناء. أشعرته الشجيرة ذات الأزهار الصفراء، وهو في هذه الحالة، بالجذل، كما لو أن أبواقها تصدح بالمرح.

قال دوجنز، الذي كان يراقبه: حسناً، ماذا تظن؟

ـ لا أشعر بأي خطر. أعتقد أنه يتعين علينا أن. . . ما هذا؟

أصاخ كلاهما السمع. وتساءل نيال: هل سمعت شيئاً؟

ـ أظن أنني سمعت صيحة.

ترددت الصيحة مرة أخرى، ولم يعد هناك أي مجال للشك في ذلك.

ـ نيال!

تخدر لحم نيال من الخوف والرهبة، فقد كان ما سمعه هو صوت أخيه ڤيج، وبدا أنه آت من الجانب الآخر للغابة. نهض واقفاً، ووضع يديه عند فمه، ولكن قبل أن يتمكن من الصياح، هب دوجنز، ووضع يده على شفتيه، وقال له:

ـ لا تفعل، فقد تكون شركاً.

ـ لكنه صوت أخي.

ـ ذلك لن يغير من الأمر شيئاً. لا تصح!

ردد الصوت مرة أخرى اسم نيال، فبدا واضحاً بصورة لا تدع مجالاً للشك أنه صوت ڤيج.

قال دوجنز: لا بد أن العناكب قد أحضرته إلى هنا.

ـ ولكن لدينا أسلحتنا الحاصدة.

شد دوجنز على ذراعه، وقال: إذا ما كانت تحتفظ بأخيك رهينة، فإننا لن نستطيع استخدام الأسلحة الحاصدة، فهذا هو ما تعتمد عليه.

هز نيال رأسه بيأس، فقال له دوجنز: أصغ إليّ! ماذا عساك تفعل إذا ما هددتك بقتل أخيك، إن لم تستسلم لها؟ أتفعل ذلك أم لا؟ هذا هو السبب الذي يجعلك لا ترد على الصوت.

ـ ولكن ربما يكون بمفرده.

عاد الصوت يصيح من جديد، بشيء من الإلحاح: نيال!

بدا من غير المعقول ألا يرد على الصوت، لكنه تمالك نفسه، وبذل جهداً للتحكم في إرادته، فشعر بألم حاد.

قال دوجنز: كيف يمكن أن يكون بمفرده؟ فكِر في ذلك. إنه لا يعرف مكانك، وحتى إذا عرف، فإنه لا يستطيع القدوم إلى الدلتا بمفرده، ولا بد أن أحدهم قد أحضره.

شعر نيال بالحر اللافح يحرق خديه، واختلط عليه الأمر، ولم يعد يعرف ماذا يصنع.

ـ ربما من الأفضل أن نعود أدراجنا.

ـ وما جدوى ذلك؟ يتعين علينا مواصلة ما بدأناه.

قال بدون اقتناع: نعم.

شعر بأن قلبه قد تحول إلى رصاص، وملأه صوت أخيه بالاشتياق، ليستنزف كل يقينه الداخلي.

حملا صرّتيهما، وتقدما بحذر نحو الأشجار. كان الجو ألطف، ومحملاً بشذا الأزهار، وباتت الألوان المحيطة بهما نابضة بالحياة، كما لو أن بعض الأزهار قد توهجت بفعل ضوء صادر من داخلها. لكن هذا الشذا الذكي لم يثر في نيال سوى الشعور بالحنين. توهج خداه، ولم تعد ساقاه تتحملان ثقل جسمه، وألقت الشكوك والمخاوف بظلالها على ذهنه. راح يفكر في احتمال أن تكون أمه هناك هي الأخرى، وربما شقيقتاه أيضاً. جعله هذا التفكير يرغب في الصراخ من شدة اليأس.

مد يده داخل ردائه، وقلب مرآة التأمل، فشعر بألم حاد في مؤخرة فروة رأسه، فقاوم رغبة عارمة في إعادة المرآة لوضعها السابق. لكن الألم تلاشى، بعد فترة من التركيز والإطباق على أسنانه، وأصبح مدركاً لمدى استنزاف الخوف والقلق لقوته. ثم عاد إليه تصميمه، مثل قبضة مطبقة بداخله، فحقق له الارتياح. أدرك فجأة أنه مهما كان حجم المشكلات فإنه من

السخف تركها تستنزف كل قوته، وأحس أن هـذا الموقف يماثل موقف رجل يشعـر بعطش شديد، ويتعمد إهدار قطرات الماء الأخيرة لديه على الرمل.

تلاشى شعوره بالحنين، كما لو أن كـابوسـاً قد انـزاح. وأصبح بمقـدوره الآن النظر إلى المشكلة بصورة موضوعية، فعادت إليه شجاعته. فلو أن العنـاكـب تأسر ڤيـج ـ وهو مـا يبدو افتراضاً معقولاً، فلا بد أن العناكب قد رأتها، وهما يهبطان من فوق التل. وفي هذه الحالـة، فـإنه من المـرجح أنها تـتربص بانتظارهما. ولكن عنـدما تـذكـر مـدى السرعـة التي أسره بهـا العنكبوت الذئبيّ في الصحـراء، أدرك أن العناكب يمكنهـا، بمنتهى السهـولـة، الانقضـاض عليهما من وراء شجيرة أو صخرة، قبل أن يتاح لهما الوقت للمقاومة. إذن لماذا سمحت لڤيج بـأن يكشف عن وجودهـا وينادي عليـه؟ بدا الأمـر غير مفهـوم بالمـرة. ولكن بعد أن اتخـذا حذرهما، لم يعد من المحتمل أن تفاجئهما أية حركة.

لم تكن هناك سوى إجـابة واحـدة، وهي أن العناكب تخشى الأسلحـة الحاصـدة، ولن تقدم على فعل أي شيء يثيرهما، ويجعلهما يطلقان النار. وإذا كان هـذا الافتراض صحيحـاً، فإن الأمل ما يزال قائماً. فهذا يعني أن العناكب راغبة في التفاوض. . .

أثار هذا التفكير تفاؤله، وشعر بالندم لأنه وصل، في لحظة معينة، إلى حافة الاستسلام التام. استغرب مدى تأثير تجدد الأمل بداخله على طاقاته الحيوية. ولاحظ، عـلى حين غـرة، جمال الأزهار، ومدى تنوع ألوانها. فهنالك الأزهار الصفراء، التي تأخذ شكل الأبواق، ذات الرائحة التي تـذكّره بـالورود، والـزهور الـبرتقاليـة، ذات الرائحـة المميزة، التي تشبـه رائحة الفاكهة الحمضية، والشجيرات، التي تكسوها أزهار بنفسجية، ذكّره شكلها بفم مفتوح، ولها رائحة نفاذة قوية غير مستساغـة. بل إن هنالك أزهـاراً خضراء ذات بتلات مخـططة بخطوط بيضاء عريضة، ولها رائحـة ذكّرتـه بجوز الهنـد أو العسل. كـما رأى، بين العشب، زهـرات قرمزية وبيضاء، ملأه شذاها الرائع النقي، بالشعور بالبراءة. كما لاحظ أن الزهور المحتجبـة في ظلال الأشجار، تبدو مشعة، كما لو أن لها رائحة فوسفورية.

جعلته أحاسيسه المرهفة يدرك أن كل زهرة تؤثر فيه بطريقتها الخاصة. ولاحظ شعـوره الغريب بالمرح، الذي أثارته الزهرة الصفراء، التي على شكل بوق، لكنه خمن أن ذلك نتيجة للونها الزاهي. أدرك الآن أن الأجمة برمتها تنفث ذبذبة ما تثير هذا الشعور بالمرح، المميز مثل نغمة موسيقية. وأثارت الأزهار الحمراء القانية حالة من الانفعـال، جعلته يشعـر بومضـة من الوحشية، وبرغبة في لطم أي شخص. وأثارت الأزهار البرتقالية شعوراً حاداً بـالبهجة ذكّـره بميرلو ودونا وأودينا، وبدت كأنها تحـوي عصارة الأنـوثة. أمـا الزهـور البيضاء الكبـيرة، التي

تستظل بأشجار الليلك، فقد غمرته بشعور غريب بـالحنين، ارتبط ببلد مجهـول رياحـه باردة نشطة، وأنهاره مغطاة بالجليد، من الخريف حتى الربيع. كان غريباً عليـه أن يمشي وسط هذه الأزهار، ويشعر بكل هذه الأحاسيس، والمشاعـر التي يصعب وصفها، كـأنه يسبـح في مياه، تتغير درجة حرارتها، من لحظة إلى أخرى.

قال دوجنز: ما هذا؟

توقفا، وأصاخا السمع. لم يسمع نيال شيئاً، وكان الهواء مملوءً بطنين النحل والحشرات الأخرى. ولكن بدا له، عندما ركز حواسه، أنه سمع أصـواتاً بعيـدة. ثم خرجت نحلة من إحدى الزهرات البنفسجية، وطنت بجوار أذنه، وتوقفت الأصوات بمجرد أن خف تركيزه.

قال دوجنز، وقد بدا عليه التوتر: ألا تسمعها؟

لاحظ نيال أن وجهه قد أصبح في غاية الشحوب.

- أصوات؟

- أصوات أطفال.

أصاخ نيال السمـع، وبدا أنـه سمع أصـواتاً بعيـدة، ولكن قد تكـون خريـر ماء، أو صيحة طائرة.

- اسمع شيئاً، لكنه آت من بعيد.

نظر دوجنز إليه في دهشة، وقال: من بعيد؟

- عم تتحدث؟ إنها أصوات بعيدة.

أمسك دوجنز بذراعه، وحاول أن يوجهه إلى مصدر الصوت.

قاوم نيال حركة دوجنز، وقال: لا. انتظر!

توقف دوجنز، على مضض، وبدا أن عاطفة قوية تسيطر عليه.

قال نيال: أخبرني أولاً عن طبيعة الأصوات التي تسمعها!

لاحت عـلامات الحـيرة والإحباط عـلى وجه دوجنـز، وقـال: إنـك تعـرف بـالفعـل، إنها... أصوات.

- أهي قريبة؟

حدق دوجنز فيه، كما لو أنه يشك في سلامة قواه العقلية، وتساءل:

- ألا تسمعها؟

- أسمع شيئاً، لكنه توقف الآن.

قال دوجنز: أتعني أنك لا تستطيع سماعها؟
ـ انصت إليّ. أعتقد أن ما تسمعه مجرد وهم.
ـ إذن لماذا تسمعه أنت أيضاً؟
ـ لا أدري. أظن أنني قد عدلت إحساسي على موجة ذهنك.
ـ ولا تستطيع سماعها حقاً؟ أتمزح؟
ـ كلا بالطبع. ما طبيعة هذه الأصوات؟

شعر دوجنز بالحيرة والقلق، وقال: أصوات أطفال.

ـ أطفالك؟

هز كتفيه، وقال: كل أصوات الأطفال متماثلة.

لكن نيال لم يخدع بهذه الإجابة، ووضع يده على كتف دوجنز، قائلاً:

ـ ليست هناك أصوات. إنها داخل رأسك.

بدا واضحاً أن دوجنز قد صدقه إلى حد ما، لكنه تساءل:

ـ إذن ما الذي أثارها؟
ـ لا أعرف. لكنني أظن أنني أعرف كيفية وقفها..

أشار إلى الشجيرة ذات الأزهار البنفسجية، التي أشعرته رائحتها القوية النفاذة بضيق في التنفس والاكتئاب، وقال له: حاول أن تقطع هذه الشجيرة بسلاحك!

حدق فيه دوجنز بتساؤل، فقال له: افعل ما قلته لك!

هزَّ دوجنز كتفيه، وتراجع عدة خطوات، ورفع سلاحه، وتأكّد أنه عند أدنى معدّل، ثم أطلق النار. بدت الأشعة، في ظلال الغابة، مثل الثلج الأزرق. كانت الشجيرة قريبة للغاية من الأرض، فلم يريا جذعها، لكنها اهتزت عندما أصابتها الأشعة، ثم انقلبت ببطء على الأرض. انتابت نيال في تلك اللحظة سلسلة من المشاعر المتباينة؛ شفقة، رعب، غضب، حزن، وبؤس، وبرز بين كل هذه المشاعر، الإحساس بالوحشية. لكن حين اصطدمت الشجيرة بالأرض، وتوقفت عن بث الذبذبات، تلاشت كل هذه المشاعر، مثل صخب أصوات غاضبة تتلاشى في البعيد. وأحس فجأة بالحرية والراحة.

حدق دوجنز فيه بدهشة، فقال نيال: ما الذي تسمعه؟

ـ لقد توقفت الأصوات. ما الذي فعلته؟
ـ أنت الذي فعلت ذلك، بقطع الشجيرة.

حملق دوجنز فيها، وقال: وما علاقة الشجيرة بالأصوات؟

هز نيال رأسه، وقال: لا أفهم، ولكن كل ما أعرفه هو أن تلك الأشياء بمقدورها اقتحام أذهاننا ـ مثل تلك العظاءة، وبإمكانها أن تجعلنا نتخيل أشياء ليست موجودة.

لاحظ أن دوجنز وجد صعوبة في الاقتناع، نظراً لتركيبته الذهنية، التي يغلب عليها الطابع العملي.

ـ لِمَ طلبت مني اقتلاع هذه الشجيرة؟

ـ إصابة أية شجرة كانت ستحقق الهدف ذاته، إنها مثل العناكب، إذا ما قتلت أحدها، ستشعر الأخرى بالشيء نفسه.

لاحظ نيال، وهو يتكلم أنه لم يعد يشتمّ رائحة الأزهار. انحنى، واشتمّ إحدى الأزهار البرتقالية، فوجدها بلا رائحة.

ـ أترى؟ حتى الرائحة ليست حقيقية، إنها آتية من داخل ذهنك.

لقد كان إحساساً مثيراً للانزعاج، فقد أدرك أنه من الممكن أن تنخدع حواسه بسهولة، وأن يتحول العالم الواقعي من حوله، إلى عالم خيالي مزيف. ومع ذلك فقد شعر، وهما يجتازان الغابة، ببهجة غريبة، كما لو أنه يتنفس هواء بارداً نقياً، وأن عبئاً قد أزيح بعيداً عن حواسه.

ـ هل كان صوت أخيك وهماً هو الآخر؟

ـ أظن أنه لا بد وأن يكون كذلك.

كان من الصعب على أحاسيسه قبول ذلك، لكن المنطق أكد له حقيقة ما قاله.

ـ لماذا تفعل ذلك؟

ـ أعتقد أنها كانت تسعى لدفعنا إلى العودة من حيث أتينا.

ـ ولكن لِمَ؟

لم يحر نيال رداً. سارا في طريق شديد الانحدار، فاضطرا للسير ببطء حتى يتجنبا الانزلاق. أصبحت الأشجار والشجيرات الآن متباعدة عن بعضها البعض. ثم مرا بصف من الأشجار، وأصبحا خارج الغابة، ليجدا نفسيهما يتطلعان إلى منحدر أجرد، ينتهي عند منطقة غابات أخرى. شاهدا من فوق قمم الأشجار، على مسافة تقل عن ميل، النصف الأعلى للتل الكبير.

كان المشهد بالنسبة لنيال كما لو أنه يراه للمرة الأولى. لاح التل، مستدير الشكل، وبدا واضحاً من هذه المسافة أن البروز عند القمة ليس برجاً، أو أصل شجرة. كان عرضه

عند القاعدة يبلغ مثلي عرضه عند القمة، وبدا مماثلاً لساق نبات مهشمة، كما لو أن التل عبارة عن بصلة نبات عملاقة، غرس بستاني مهمل نصفها فقط في التربة. أما الجزء الأعلى من المنحدر، على الجانب الشمالي من التل، فيماثل شكل جبهة إنسان، مما يجعل البروز يماثل قبعة صغيرة. عرف الآن السر وراء الإحساس الغريب، الذي أثاره شكل التل، حيث أنه يبدو مثل كائن حي. أدرك عندما رآه، بيقين لا يداخله أي شك، أن هذا هو ما يسعون وراءه. لم تعد الذبذبة، التي تماثل الموجة قاصرة على الأرض تحت أقدامهما، فقد أحس بنبضها في الجو من حوله، رغم أن الهواء كان في غاية الهدوء.

كان إحساساً غريباً، أثار فيه مزيجاً من الانفعال والبغض، الانفعال من قوة الذبذبة الهائلة، التي بدت مجردة ومثيرة مثل عاصفة في البحر، والبغض نتيجة للإحساس بأن القوة تفتقر إلى الرقة والرهافة، فبدت مثل موسيقى تعزف بصوت مدوٍ.

عندما ألقى نظرة سريعة على دوجنز، أثار فضوله التعبير، الذي كسا وجهه، فقد بدا كما لو أنه اشتم رائحة عطنة غير متوقعة.

ـ ما الأمر؟

قال دوجنز بتردد: شيء ما... كريه. ألا تشعر به؟

رد نيال، وقد ازداد فضوله: ماذا يشبه ذلك الشعور؟

كان دوجنز على وشك الكلام، لكنه هز كتفيه، وعدل، ثم أشار إلى التل، الذي يشبه القبة.

نظر إلى نيال، وقال: ذلك ما نبحث عنه. أليس كذلك؟

ـ ربما.

ارتسمت ابتسامة كئيبة على شفتي دوجنز، ورفع الحاصد، وعدل قوته إلى الحد الأقصى.

ـ ينبغي أن نفعل ذلك، حتى من هذه المسافة.

قال نيال بسرعة: انتظر!

ـ لِمَ؟

ـ قد يكون الأمر خطيراً. تذكر ما حدث عندما أطلقت النار على تلك البركة.

خفض دوجنز سلاحه، فأدرك نيال أنه أذعن لقوة مرآة التأمل، وليس لقوة حجته. ودهش من مدى إحساسه بالراحة.

واصلا هبوط المنحدر، وكانت الأرض ناعمة وصلبة، مثل حمم بركانية، وانتشرت الأخاديد الصغيرة فوق سطحها نتيجة لانهار الأمطار.

كانت الغابة، التي تواجههما مختلفة تماماً في طبيعتها، عن تلك التي تركاها خلفهما. فجذوع الأشجار شديدة الالتواء، بالغة النشوة، ولم يكن هناك سوى القليل، الذي بدا مستقيماً، كما تلاصقت الأشجار بشدة، حتى تداخلت وتشابكت جذورها العارية. وهذا يعني أن فروعها وأوراقها، ذات اللون الأخضر الفاتح، متشابكة، مما يجعلها تعطي انطباعاً بوجود سقف ممتد فوق الرؤوس. امتدت الغابة عدة أميال في الاتجاهين، وبدا أنها تشكل حاجزاً لا يمكن اختراقه.

لاحظ نيال، بعد أن قطعا نصف الطريق، وهما يهبطان التل، ظاهرة غريبة. فقد ازدادت صعوبة كل خطوة وللأمام، كما لو أنهما يخوضان في الماء. ألقى دوجنز نظرة عجلى إليه، لكنه لم ينبس ببنت شفة. أدرك كلاهما الدلالات على وجود إرادة مناوئة. أصبحت المقاومة، بعد عشرة أمتار أخرى، في غاية القوة، فاضطرا للاستناد على حافة المنحدر، والسير للأمام، وهما منحنيان، كما لو أنهما يتجنبان رياحاً هوجاء. انزلقت أقدامهما على السطح الناعم، وهما يحاولان الاندفاع للأمام. لم يعد التقدم ممكناً، بعد أن باتا على بعد مائة متر من الأشجار. وأحسا كما لو أن عاصفة غير منظورة تحاصرهما. انحنى نيال بشدة، وحاول الزحف للأمام، ولكنه شعر كأن يدين تمسكان بكتفيه، وتدفعانه للخلف. جلس كلاهما على الأرض، وتبادلا النظرات، وقد شعرا بالاجهاد، وتصبب العرق من جسميهما بغزارة.

قال دوجنز مقطباً: يبدو أن هناك شيئاً يريد عرقلة تقدمنا.

تطلع نحو قمم الأشجار، ولكن لم يعد التل مرئياً.

قال نيال: إنها الأشجار.

حدق دوجنز بدهشة، وقال: هل أنت على يقين؟

أحس نيال أن ضغط الإرادة تمارسه الفروع المتشابكة، فقال: تماماً.

نظر دوجنز إلى الفروع بفضول، قال: لنتحقق من ذلك.

لم يحاول نيال إيقافه هذه المرة، فقد أثارت فيه قوة الإرادة شعوراً قوياً بالاشمئزاز. ضبط دوجنز معدل القوة عند أدنى مستوى، ثم صوب السلاح إلى أقرب الأشجار، وسحب الزناد. شطرت الأشعة الرفيعة الجذوع، وانهار نحو ستة منها على الأرض. ومع ذلك ظلت الأشجار منتصبة، تمسك بها الفروع المتداخلة. رفع دوجنز السلاح لأعلى، وأطلق النار.

تطاير الجزء الأوسط للجذوع، هذه المرة، وتصاعدت رائحة الخشب المحترق. وسقط بعض الأشجار محطماً، بينما ظلت أشجار أخرى معلقة في الهواء، نتيجة لتشابك فروعها مع أشجار أخرى، كما تساقط غبار أصغر من فوق قمم الأشجار. لكن المقاومة ظلت قوية على حالها، بل شعرا بأنها قد زادت.

التفت دوجنز إلى نيال، وقال: هل أنت واثق من صواب رأيك بشأن الأشجار؟

ـ أعتقد ذلك.

أحس نيال، وهو يقول ذلك، بالقوة تنبعث من الفروع الملتوية.

ـ ليكن. فلنجرب هذا.

زاد دوجنز الطاقة من جديد، وصوب هذه المرة بالقرب من الأرض. زأرت الأشعة الزرقاء مثل لهب، وتحللت جذوع الأشجار، وانشق طريق، على نحو مفاجىء، وسط الغابة. ثم توقفت المقاومة بصورة غير متوقعة، فاندفع كلاهما إلى الأمام، وانزلقا لعدة أقدم.

تطلع دوجنز إلى نيال، وقد تحدر العرق فوق وجهه، وقال: نعم، لقد كنت محقاً.

اشتعلت النيران في بعض الأشجار، وتصاعد الدخان من الخشب المحترق، وتساقط الغبار الأصفر كالمطر، ليفرش الأرض التي غطاها السواد. أثار منظر الممر المتفحم بين الجذوع، إحساساً غريباً في نيال، اختلطت فيه الشفقة بالأسف. كان ثمة أمر يتعلق بقوة الحاصد أثارت قلقه.

نهض دوجنز واقفاً، ودعا نيال لمواصلة السير.

لكن نيال تردد، وقال: أشعر بقلق إزاء ذلك الغبار الأصفر، لننتظر حتى يتوقف عن التساقط.

تقدم دوجنز للأمام نحو الأشجار، واشتمّ الرائحة، وقال: إنه مجرد غبار الطَّلع.

لكنه راح يعطس بعنف، واستمر على ذلك الحال لبضع دقائق. وقال والدمع ينهمر من عينيه: يا إلهي! إنك على صواب، إنه مثل الفلفل الأسود.

جلسا في انتظار توقف سقوط الغبار، بينما راح دوجنز يعطس من حين إلى آخر. ولما خلا الجو من الدخان، اكتشفا أن الحاصد قد فتح ممراً عند الجهة البعيدة من الأشجار. لمعت مياه في أشعة الشمس، عند أقصى طرف النفق، الذي تغطيه الفروع المتدلية.

فتح دوجنز كيسه، وأخذ رشفة طويلة من النبيذ، وتنهد بارتياح، وقال: سأكون سعيداً عندما نعود إلى ديارنا مرة أخرى. إن هذا المكان مملوء بالأشياء الشريرة.

وجد نيال هذه الفكرة غريبة، فقال: الأشياء الشريرة؟ لا. أظن ذلك إنها مجرد أشياء لا تبدي اهتماماً بالكائنات البشرية.

أخذ دوجنز رشفة أخرى، ثم أعاد القارورة إلى الكيس، وقال: الأمر لم يختلف كثيراً. لنستأنف السير! فلن نعود إلى ديارنا مطلقاً، إذا مكثنا هنا طوال اليوم.

نهض نيال واقفاً على مضض، وقال: لا تَنْسَ ما قاله سيميون لنا ـ لا تتعجل الأمور مطلقاً في الدلتا.

تقدما نحو حافة الغابة، وكان عرض الطريق، الذي مهده الحاصد، يبلغ نحو ثمانية أقدم. أدرك نيال، على نحو مفاجىء، وهو ينظر إلى الفتحة، التي تشبه النفق بين الأشجار، مدى القوة المرعبة، التي شقت هذا الطريق وسط الغابة. كان بعض الجذوع قد انشطرت طولياً، كما لو أن فأساً قد قطعها، بينما تعلقت الأشجار الأخرى فوق رؤوسهم، وقد منعتها من السقوط الفروع المتشابكة. ووجد أن الحاصد قد شق، تحت قدميه، أخدوداً في الأرض، بدا منبسطاً كما لو أنه طريق مهده إنسان. اكتست الأرض، مثل جذوع الأشجار المحترقة، بطبقة صفراء سميكة من غبار الطَّلع.

لكنهما اكتشفا، بمجرد أن سارا فوقه، أنه زلق كالطين. وكاد نيال يسقط، فاضطر أن يتشبث بجذع شجرة، ليحافظ على توازنه. أحس باللزوجة فوق أنفه وعينيه، بفعل الطين. أخذا يعطسان، بعد لحظة. وأراد أن يهرش في الأماكن التي استقر فوقها غبار الطَّلع، حيث أحس بتهيج شديد في جسمه.

تراجع نيال، ثم جلس مرة أخرى، وقال: أظن أنه من الأفضل أن نبحث عن طريق آخر نسلكه.

ـ طريق آخر؟ ليس هناك طريق آخر.

وألقى نظرة على صف الأشجار الممتدة في الاتجاهين.

ـ إذا ما اتجهنا شمالاً، فإننا سنصل إلى المستنقعات.

هز دوجنز رأسه بعناد، وقال، وهو يهرش خده بعنف: لن أدع غبار الطَّلع يوقف تقدمي، حتى لو أصابني بالحمى.

أخرج نيال رداءه الإضافي من كيسه، وقطع شريطاً منه، وغمسه في بعض الماء من قارورته، ومسح الغبار الأصفر من فوق يديه.

قال دوجنز: أعرف الحل.

وقطع هو الآخر شريطاً عريضاً من ردائه الإضافي، وغمسه في الماء، ثم لفه حول وجهه، ليشكل قناعاً لم تظهر منه سوى عينيه، وقال: بهذا لن يتمكن مني.

فعل نيال الشيء ذاته، فشعر ببرودة القناع اللطيفة على وجهه. ثم أخرج من جيبه الأنبوب، الذي يحتوي على الرداء المعدني. نظر دوجنز إليه بدهشة، وهو ينشره.

ـ فيم يستخدم هذا؟

ـ لإبعاد الطّلع عن جلدي.

أشار دوجنز بإصبعه، وقال: ثمة ماء هناك، بإمكانك التخلّص منه في خمس دقائق.

ـ أفضل ألا يتعرض جلدي له. إنه يلسع.

فتح السّحاب، ووضع جسمه بداخله. كان الرداء منتفخاً بشكل يثير الضيق. وعندما أغلقه حتى رقبته، بدا مثل خفاش فضي اللون. شعر بحر يثير الاختناق، وتصبب العرق من جسمه، فالتصق الرداء بجلده.

قال دوجنز ساخراً: هل أصبحت مستعداً؟

أومأ نيال، بعد أن غطى رأسه بالغطاء. وجد أنه من المستحيل أن يحمل الكيس على ظهره، فاضطر لأن يحمله في يد، والحاصد في اليد الأخرى.

سأل دوجنز: لِمَ لا ترتدي معطفك؟ إنه سيكسو ذراعيك وساقيك.

رد دوجنز باقتضاب: بإمكاني تحمل الموقف.

لم يكن من السهل على نيال السير، حيث أخذ الرداء الفضفاض يتثنى فوق ساقيه، مما جعله يمشي متثاقلاً، جاراً قدميه، فأخذ دوجنز يرقبه بطرف عينه، لكنه لم ينبس ببنت شفة.

أثارت أقدامهما سحباً من الغبار الأصفر، وهما سائران بين الأشجار. أخذ دوجنز يسعل، رغم القناع، الذي وضعه على وجهه.

التفت إلى نيال، وقال: سأمضي قدماً، وسألقاك عند الطرف الآخر.

سار بخطى سريعة، فارتفع الغبار في سحب حول قدميه. استخدم نيال يديه من داخل القفازين، لشد القماش المبلل تحت ذقنه، لكن الغبار جعل عينيه تدمعان، وأثار وخزاً فوق جبهته الرطبة. حاول سحب القناع لأعلى، حتى يغطي عينيه وجبهته، واكتشف أن بوسعه الرؤية من خلاله، بعد أن جعل الماء النسيج القطني شبه شفاف، فشعر بالارتياح. أخذ يتنفس من خلال فمه المفتوح، وقد أدرك أن ذلك أسلم من التنفس من خلال الأنف، حيث أن كل شهيق يؤدي إلى التصاق النسيج بشفتيه، ومنع الغبار الأصفر من الدخول.

كانت الحرارة، التي أحدثها الرداء خانقة، راحت تصعد في موجات إلى عنقه، لكنه قاوم إغراء الإسراع، رغم أن اللسع جعل عينيه تدمعان، فلم يتمكن من الرؤية. ثم وجد نفسه، فجأة، تحت أشعة الشمس مرة أخرى.

قال دوجنز: هل أنت بخير؟

- نعم. وأنت؟

- سأكون بخير عندما أغتسل، وأبعد عن جسمي هذا الغبار اللعين.

أزاح نيال القناع، فوجد أن سطحه الخارجي قد اكتسى بطبقة سميكة من غبار الطَّلع. كان من الصعب مقاومة اغراء تدليك عينيه الدامعتين بأصابعه، المكسوة بالقفاز، لكنه اكتشف أنه مغطى أيضاً بالغبار. فتح الرداء، وهو يسعل ويعطس، ثم أخرج نفسه منه، وهو يشعر بأن خديه وجبهته تتوهج من الحر اللافح.

كانا يقفان فوق أرض طينية صلبة تنحدر نحو النهر، الذي راحت مياهه، البنيّة اللون، تتحرك ببطء. امتدت على الجانب البعيد من النهر، مزارع من النباتات الكثيفة، ووجدا أن النباتات المتسلقة كثيفة للغاية، وتراءت لهما كالأفاعي. وارتفع التل ذاته عن الأرض، مثل جلمود هائل، فبدا وسط الأرض المنبسطة المحيطة به، كما لو أنه قد سقط من السماء.

حدق نيال بفزع في وجه دوجنز، الذي تورم واصطبغ باللون الأحمر، كما لو أن الشمس قد سفعته. راح دوجنز يهرش بعصبية جبهته، فتركت أظافره بقعاً من الدم.

قال، وقد بدا الألم على قسمات وجهه: لقد كنت مصيباً، فهذا الغبار يلحق بالجلد أبلغ الضرر.

وألقى بالحاصد على الأرض، بجوار الكيس، وهرع نحو النهر، فجرى نيال خلفه، وهو يصيح: انتظر! فقد يكون خطيراً.

أمسك نيال بدوجنز من ثيابه، واضطر للتشبث بقدميه، حتى يمنعه من الاندفاع نحو النهر، وهو يصيح: قف!

وعندما توقف دوجنز، وهو يسب ويدلك عينيه، أخذ نيال رداءه الإضافي من كيسه، وغمسه في الماء، ثم أعطاه لدوجنز، الذي وضعه فوق وجهه، وهو يتنهد بارتياح. كانت جبهة نيال تؤلمه، كما لو أن سائلاً ساخناً قد حرقها.

ولذلك فقد أدرك مدى معاناة دوجنز. أخرج الدلو المصنوع من القماش من قاع

الكيس، وغمره في الماء. أحس بوجود دوامة تحت السطح العكر، فعرف أن هناك من يراقب وجودهما. جعل دوجنز ينحني، وصب فوق رأسه وكتفيه الماء الدافىء.

راح دوجنز يئن، وقال: هذا لا يكفي، أريد أن ألقي بنفسي في الماء، فأنا أشعر بحريق يؤلم ذراعي وساقي.

ـ لا. ثمة شيء في الماء. انتظر!

التقط الحاصد، وتأكد أنه عند أدنى درجة، ثم أطلق النار على الدوامة في الماء، فتناثر محدثاً هسيساً جعله يرتد للخلف. وعندما هدأ، لمح فكين مفتوحين، وأسناناً مدببة، فأطلق النار مرّة أخرى، وهو يحرِّك الحاصد ببطء من جانب إلى آخر، فكاد الهسيس يصم أذنيه. وجد نفسه، لبضع ثوانٍ، وسط ضباب كثيف، ثم هدأ الجو، وسكنت صفحة الماء.

ـ أظن أن الماء بات آمناً الآن. فلتجربه!

اندفع دوجنز إلى الماء، وقد ندت عنه صيحة ارتياح، وغاص حتى ركبتيه. راقب نيال السطح، وقد تأهب لإطلاق النار من جديد، بينما غمر الماء دوجنز حتى كتفيه، حدثت دوامة أخرى في المياه بأعلى النهر، في غضون عشر ثوانٍ، وتحركت باتجاههما، أطلق نيال النار بدون تردد. صرخ دوجنز في ذعر بعد بضع ثوان، وصاح: إن الماء يغلي!

سحبه من رسغه، وساعده على الخروج من الماء، وهو يقول له: من الأفضل أن تتعرض للغليان، على أن يتم التهامك حياً.

اكتسى جسم دوجنز بالطين البني. ولكن عندما حدق نيال عن قرب، رأى أن الطين يتحرك. مسح بعضه بقطعة قماش مبللة، فرأى أنها قد اكتست بكائنات صغير تشبه السرطانات، شفافة كالثلج، وراح دوجنز ينزف من عشرات الأماكن التي تعرضت لعض هذه الكائنات، وكان ألمه شديداً، فلم يلحظها. ملأ نيال الدلو المصنوع من القماش بالماء عدة مرات، وصبه فوق دوجنز حتى انزاح الطين عنه. شقت الكائنات، التي تشبه السرطانات، بمجرد سقوطها على الأرض، طريقها نحو النهر.

استلقى دوجنز على الأرض، لمدة نصف ساعة، وقد أغمض عينيه، وأطبق أسنانه، بينما راح نيال يصب الدلو وراء الآخر فوقه. أخذ دوجنز يسب ويلعن بعد أن تورم جلده، وازداد احمراراً. ثم توقف فجأة عن الحراك. جثا نيال بجواره، ووضع أذنه على صدره، فوجد قلبه ينبض بسرعة. بدا واضحاً أن دوجنز قد أصيب بإغماءة. كان نيال يشعر هو الآخر بألم. تورمت جبهته، بينما راح الجانب الأيسر من وجهه يؤلمه من تأثير سم الكائن، الذي يشبه الضفدع، لكن ذلك كله بدا بسيطاً.

حين عاد دوجنز إلى وعيه مرة أخرى، أخـذ يهذي، وظن أن نيـال هو سيميـون، فراح يسأله عن لوكاستا وسليما. صرخ عندما حاول نيال تهدئته بصب الماء فوق ذراعيه، وقال إنـه ماء مغلي. ثم راح يتلوى، ويرغي ويزبد، بينما بدت عينـاه مثـل عيني حيوان مـرعب. منعه نيال ثلاث مرات من التدحرج نحو النهر، قبل أن يغيب عن الوعي مرة أخـرى. لكن تنفسه بدأ ينتظم بعد فترة. تضاءل إحساس نيال بالتهـاب جبهته، فخمّن أن دوجنـز لم يعد يعـاني من الألم هـوالآخر، ثم استغـرق بعد نصف سـاعة، في نـوم عادي، ولم يتشنـج سوى للحـظات قصيرة، لكن ذراعيه وساقيه تورمت، لتزيد عن مثلي حجمهـا الطبيعي، وبـدا وجهه كبـالون شديد الانتفاخ.

دهش نيال حين أدرك أن الغسق قد حل. لقـد فقد وعيـه بالـوقت، وظن أنه مـا يزال عصراً. راح الآن، ولأول مرة، يُقيّم الوضع الذي هما فيه. إن قضـاء الليل في هـذا المكان، سيعرضهما للخطر دون شك، فالنهر يعج بالكائنات الحية، وإحساسه المستمر بأنهما يتعرضـان للمراقبة، جعله في حالة حذر دائم. ولكن، حتى إذا استطاع حمل دوجنز عـلى ظهره، فليس هناك مكان يذهب إليه. فخلفهما بمائـة متر تـوجد الغـابة، والـطبقة الكثيفـة من غبار الـطّلع الأصفر، وأمامهما بعشرين متراً يوجد النهر، بكائناته المختفيـة تحت سطحـه، لكنها تـظل أقل خطراً من الغبار الأصفر، فبوسعهما، على الأقل، القضاء عليها بالحـاصد، بينـما من الصعب التخلص من الغبـار. وإلى الجنوب، يختفي النهـر، ليتحول إلى مستنقعـات وسط الغـابـات، وإلى الشمال، يتحول أيضاً إلى مستنقعات قبل أن يصب في البحر. وبالتالي فليس أمامهما أي خيار سوى البقاء في مكانهما.

هبت ريح باردة من البحر، بينما بـدأت الشمس تغيب وراء الأفق. نشر نيال بـطاطينه على الأرض، وجر دوجنز فوقها، ولفه بها. وذهب، بعد ذلك، يحضر كيس دوجنز، والـرداء المعدني، الذي كان ما يزال ملقى بالقرب من الأشجار. حمل، بطريقة غريزية، حاصده معـه. استخدم قطعة قماش مبللة ليزيل غبار الطّلع عن الكيس، ثم بدأ يمسح الرداء المعدني. ألقى نظرة عجلى، وهو يفعل ذلك، إلى دوجنز، فـدهش حينما رآه يتحـرك، وينزلق بـاتجاه النهـر. شك، للحظة، بـأن الإضاءة الخـافتة تضلل عينيـه، ثم أخذ يعـدو باتجاهه عنـدما أصبحت حركته حقيقة مؤكدة. وجد أنه من غير الممكن استخدام الحاصد من مكانه، فـدوجنز يتمـدد بينه وبين النهر. وبات على بعد بضعة أقدام من الميـاه، وبدا أنـه يتحرك طـوعاً، كـما لو أنـه ينزلق من فوق تل. رفع نيال الحاصد، وصوب بدقة، وأطلق النـار. سمع هسيس البخـار، وتـوقف دوجنز عن الحـركة، لكنـه وجده، عنـدما وصـل إليه بعـد لحظة، نـائمـاً، ويتنفس بانتظام. كانت الحركة في غاية الهدوء، فلم يشعر بها. تمـدد مجس مقطوع، عـلى بعد بضعـة

أقدام منه، بالقرب من الشاطىء، طوله نحو أربعة أقدام، وكان رفيعاً للغاية، ويتلألأ بفعل المادة الغروية. ولما ركله في الماء، سقط بقوة، محدثاً صوتاً كسوط من الجلد.

سمع في وسط النهر صوت تناثر مياه، ورأى دوامة. رفع الحاصد، وقد شعر بالغضب والإحباط، وأطلق النار في الماء، وهو يحرك سلاحه يميناً ويساراً، متجاهلاً البخار، الذي لفه، وسفع وجهه. أخذ سطح الماء يغلي، ولا بد أن يكون أي كائن حي في أعماقه قد شوي حياً. ظل مطبقاً على أسنانه من الغضب، وراح يحدق في الماء القاتم، بانتظار أية دلالة تنم عن حركة. شعر برغبة عارمة في التدمير، أغرته بضبط الحاصد على أعلى درجة، وإطلاق النار على التل الذي يعلوهما. تذكّر ويده على الزناد، دوجنز، وأدرك أن ما سيقدم عليه، سيثير أعمال العنف، ولو حدث ذلك، سيكون دوجنز أعزل لا حول له ولا قوة. خفض الحاصد على مضض، وتبخر الغضب ببطء، لكنه خلّف إحساساً غريباً بالقوة الكامنة، التي تنبض في دمه.

سحب الرداء المعدني، ثم مضى وجلس القرفصاء بجوار دوجنز، وقد استقر الحاصد في حجره. لم يشعر بأية رغبة في الاسترخاء، أو النوم، أو بأي إحساس بالجوع، فقد بدا أن حالة الطوارىء قد استدعت مخزون التحمل العميق لديه. ولما تلاشى الضوء في السماء، ولاحت أول نجمة في الشمال، راح يصغي إلى الجلبة، التي يحدثها النهر، محاولاً التمييز بين الصوت العادي، وصوت الدوامة، التي تعني وجود كائنات حية. تباطأت نبضات قلبه، وأصبحت هادئة للغاية، فكاد لا يشعر بها. انتابه مرة أخرى إحساس بأنه عنكبوت يتربص داخل نسيجه يدرك كل ذبذبات الليل. بدا، وهو في عمق هذا السكون الداخلي، أنه في قلب صمت رهيب.

مع ذلك كان هناك أمر ما يتعلق بالصمت أثار حيرته. وقد ظل فترة من الوقت يشعر بهذه الحيرة، قبل أن يفهم كنهه. فهو لم يعد، في هذه الحالة، معرضاً للمراقبة. وكان منذ وصوله إلى الدلتا يشعر بأن عدواً غير منظور يراقبه. لم يكن ذلك إحساساً مريحاً أو مثيراً للضيق، لكنه كان مجرد إحساس بأن الدلتا مدركة لوجوده. أما الآن فقد اختفى هذا الشعور.

مد يده إلى ردائه، وقلب ببطء مرآة التأمل. لم يحدث في هذه المرة أي صراع، بل مجرد إحساس بالتركيز والقوة، امتزجا مع حالة السكون. ولما تزايدت حدة تركيزه، وتمددت أحاسيسه وسط ظلام الليل، فهم ما حدث. فالصمت هو رد فعل على نوبة غضبه المفاجىء، الذي أثار خوف الدلتا. كان يبدو، وهو جالس القرفصاء، والحاصد ملقى في

حجره، مثل ثعبان سام، متربص، يتحين الفرصة لتوجيه ضربته. وقد كتمت الدلتا أنفاسها، وهي تشعر بالرعب إزاء الخطوة التالية، التي سيقدم عليها.

ثم أدرك، فجأة، ما ينبغي عليه عمله. فنهض واقفاً، وفتح سحّاب الرداء المعدني، وتركه يسقط عند قدميه. والتقط الحاصدين، وسار باتجاه النهر. أشارت عليه ثورته الذاتية المنطقية، وهو يتقدم، بأن ما هو مقدم عليه يعد عملاً انتحارياً. لكن دافعاً أعمق استبعد ذلك. توقف عند حافة الماء، ثم ألقى بحاصد تلو الآخر، في وسط النهر. أثار اصطدامهما بالماء صوتاً عالياً، كسر حدة الصمت الغريب. ثم وقف مترقباً ما سيحدث بعد ذلك.

ما حدث كان غير متوقع للوهلة الأولى. فقد تناهى إلى سمعه صوت قرقرة في النهرة، كما لو أن كائناً ضخماً قد انتابته حالة انزعاج، ولطمت قطرات قليلة من الماء وجهه. ثم امتلأ الليل بالأصوات العادية: تدفق المياه، خشخشة أوراق الأشجار وسط الريح، صياح الوطاويط، وصرخة حيوان ليلي بعيدة. ظاهرياً، لم يتغير شيء، فما يزال إنساناً وحيداً في قلب الدلتا، لكنه شعر بأنه لم يعد متطفلاً عليها. فإيماءة حسن النوايا، التي أبداها، لاقت قبولاً لديها.

شق طريقه عائداً وسط الظلام، وجلس مرة أخرى، بجوار دوجنز. أحس الآن بهدوء، وصبر غريبين. فقد عمل ما عليه، ولم يعد هناك شيء يفعله سوى الانتظار. جلس واضعاً يديه فوق ركبتيه، يصغي إلى أصوات الليل دون أي قلق أو توتر. فقد أبرمت الدلتا هدنة معه، وأدرك أنه ليس هناك ما يدعو للخوف.

ارتفع القمر، بعد نصف ساعة، فتمكن من رؤية الأشياء المحيطة به. كانت السماء صافية، والنجوم زاهية. ووسط هذا الضوء الساطع، تمكن من رؤية المستنقعات إلى الشمال، والغابة إلى الجنوب، وكلاهما بدا هادئاً تحت ضوء القمر. كما ظهر الجانب الجنوبي من التل في غاية الوضوح، وكان يماثل، من هذه الزاوية، وجه إنسان.

أدرك، وهو يتطلع إليه الآن، أمراً تغلغل في كيانه، خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية، فقد كان مقتنعاً بأن هذا ليس تلاً، بل هو نبات عملاق إنه الكائن الذي أطلق عليه سيميون رسم «نوادا» إلهة الدلتا.

- ٧ -

صدر الأمر بعد حوالي ساعة، عندما توسط القمر السماء. كان جالساً، وقد استرخت عضلاته، ومستعداً لتلقي أية إشارات، عندما حثه دافع للوقوف، وخلع حذائه. لو أنه حيوان، لنفذ هذا القرار على أنه قرار نابع منه، ولكن لكونه إنساناً، فقد راقب جزءاً آخر منه، وكأنه منفصل عنه، الحيوان الذي استجاب لرغباته، وأدرك أنه ينصاع للأمر.

بعد أن خلع حذاءه، أخرج مرآة التأمل من حول رقبته، ووضعها بجانبه. ثم أخرج القضيب المتداخل من جيبه، ووضعه على الأرض. كان دوجنز مستغرقاً في النوم، وقد تمدد على ظهره، وبدا وجهه شاحباً تحت ضوء القمر، لكنه لم يعد متورماً. راح يتنفس محدثاً صوتاً كالصفير، فغطاه نيال بالرداء المعدني، وأدخل طرفه تحت ذقنه. ثم سار بمحاذاة النهر، وهو ما يزال منصاعاً للأمر.

راح يخطو فوق الطين الذي جففته الشمس لمسافة ميل تقريباً. بدت جذوع الأشجار الملتوية، على يساره، كما لو أنها مصنوعة من الحديد، وكانت فروعها ساكنة في النسيم العليل، لا يصدر عنها أي صوت. وراحت مياه النهر، على الجانب الآخر، تتدفق بهدوء، تحت ضوء القمر، بينما أخذت تتردد جلبة القرقرة، كما لو أن كائناً ضخماً يقترب من السطح، ثم يغوص مرة أخرى. كان الكائن الحي الوحيد الذي رآه، هو تمساح ضخم لاح طافياً، وليس سابحاً باتجاه التيار، وظهرت خياشيمه فوق سطح الماء، بينما ظلت عيناه الشريرتان تتبعانه، وهو يمشي بمحاذاة النهر، دون أن يشعر بأي خطر.

وصل إلى مكان بات فيه النهر عريضاً، وقد سدته إلى حد ما أوراق وفروع الأشجار. خاض فيه بدون تردد، فغاصت قدماه، لعمق ستة أقدام، في الطين اللزج، ثم وصل إلى موضع ينتشر فيه الحصى. التفت كائنات صغيرة حول أصابع قدميه. استمر في التقدم، وهو منحنٍ للأمام، إلى أن وصل الماء لمستوى خصره. التوى فرع تحت قدميه وجرح ساقه، واندفع كائن لدن وأملس من تحته، ولامس ساقه، وهو ينسل مبتعداً، فتسارعت نبضات

قلبه. خاض ببطء، قاطعاً بضع بوصات في كل خطوة، حتى أصبحت المياه ضحلة، وتخبط في الطين إلى أن صعد إلى الضفة الأخرى.

استدار إلى الشمال مرة أخرى، بفعل الدافع الداخلي ذاته، وعاد في الاتجاه الذي جاء منه. كانت النباتات على هذا الجانب من النهر كثيفة، واقتربت، في مواضع عديدة، من حافة النهر، فاضطر للسير بحذر وسط الظلال السوداء التي تتحرك تحت ضوء القمر. انطلق طائر من وسط فروع شجيرة، وصفق بجناحيه محلقاً بين الأشجار، محدثاً جلبة غريبة. اصطدم جسم ثقيل بالأرض، فتجاهله. وحينما تمكن مرة أخرى من رؤية دوجنز نائماً تحت ضوء القمر، أشار إليه دافع داخلي بالالتفاف يساراً نحو الأشجار. وصل إلى مكان لم يتمكن ضوء القمر من التغلغل إليه، واضطر لتلمس طريقه بيديه. مع ذلك تمكن من السير بمعدل تحركه تحت ضوء القمر حذرته حاسته السادسة، عندما كان على وشك السقوط فوق جذور ملتوية، أو الاصطدام بشجيرة.

أصبحت الأرض فجأة مستوية تحت قدميه، وبدت صلبة مثل الطين الجاف لضفة النهر. أخذ يصعد، وفي غضون بضع دقائق، بات تحت ضوء القمر مرة أخرى، وأخذ يتطلع إلى النهر، وقمم الأشجار. قطع نصف المسافة نحو جانب التل الجنوبي. كانت هناك، على الجانب الآخر، نباتات كثيفة متشابكة، تراءى له اجتيازها مستحيلاً، لكنه سرعان ما أصبح فوق ربوة تمكن عندها من رؤية نهر، أعرض من ذلك الذي عبره، عرف من تموجات سطحه، تحت ضوء القمر، أن مياهه تتدفق سريعة إلى غرب التل.

تزايدت وعورة الطريق الذي أخذ يصعد بشكل حاد، فاضطر للاعتماد على الشجيرات، والحشائش. أصبح الصعود، بعد نصف ساعة، عندما اقترب من القمة، شديد الصعوبة، فقرر أن يبحث عن طريق آخر. تحرك بشكل جانبي إلى أن وجد مكاناً تكثر فيه النباتات التي ساعدته على مواصلة الصعود. بلغ ارتفاع الطريق الأخير نحو خمسين قدماً، وكان شديد الانحدار، وحينما استدار ونظر إلى الخلف، شعر بالدوار والخوف، وأدرك أن الإرادة التي توجه تحركاته ولا تملك القوة التي تحول دون سقوطه، ودق عنقه.

أصبح، فجأة، عند القمة، وأخذ يزحف فوق حافة المضبة التي يوجد في وسطها الشيء، والذي ظن خطأ أنه برج. أدرك الآن أنه ليس برجاً أو شجرة مبتورة. فليست هناك أية جذور ظاهرة، أو أية علامة مميزة واضحة بين قاعدته والأرض التي ينتصب فوقها. بدا أنه مصنوع من مادة ليفية رمادية اللون، وأحس، عندما جرى بيده فوق سطحه الخشن، أنه يماثل لحاء شجرة. كانت قطعة طولية من هذا «اللحاء» قد تمزقت عند الجانب الغربي منه، الذي غمره ضوء القمر، والتفت على نفسها، لتصل إلى القاعدة، وقد تحول لونها إلى البني

المحروق. وبدا الجزء العميق، الذي انفصلت عنه، مثل الجرح. ومن الواضح أن ما حدث قد سببته صاعقة. كما بدت القطع الممزقة عند القمة التي تعلو رأسه بمسافة ثلاثين قدماً تقريباً، ملتوية وبنية داكنة أيضاً.

رأى في الأسفل، على الجانب الشمالي، التقاء النهرين. فقد كان هذا الجانب من التل الذي يبدو شكله كالوجه، أكثر انحداراً من الجانب الذي صعده، فرأى الماء تحته مباشرة. استطاع أن يتابع مجرى النهر، وهو يتدفق من وسط المستنقعات، نحو البحر، وهذا المشهد من الصعب رؤيته وسط نباتات القصب الطويلة. ورأى إلى الجنوب، وسط التلال، الغابة وقد لاحت في غاية الهدوء والسلام، تحت ضوء القمر. ورغم ذلك، فقد رأى كائناً يشبه الخفاش، يزيد حجمه عدة مرات عن حجم الطائر، ويصفق بجناحيه في ضوء القمر، ثم يتجه نحو الأشجار، وهو يطلق صيحة غريبة مزعجة. كما تناهت إلى مسامعه صرخة مذعورة لكائن يعاني ألماً.

ولمح من خلال فجوة في التلال الصحراء ذات اللون الرمادي الفضي - وهي الصحراء التي عبرها وهو في طريق عودته من مدينة كازاك. انتابه، للحظة، إحساس طاغ بالحنين، وتوهم أن أباه يقف بجواره. لكن خياله تلاشى بسرعة، ليخلف شعوراً بالفراغ.

انتابه، بعد أن وصل إلى هدفه، هبوط مفاجىء. كان قد ترك زمام نفسه خلال الساعة الماضية لذلك الدافع الذي حرك قدميه، في غياب إرادته، مثل ورقة شجرة يتقاذفها التيار. لكنه اختفى الآن. ظل على حالته السلبية، بانتظار صدور أوامر أخرى. لكن لم يحدث شيء. أخذ يتجول حول الجذل، ويفحصه بعناية، حيث لم يجد شيئاً آخر يفعله. كانت القاعدة متقوسة نحو الأرض، مثل قاعدة شجرة هائلة، ولم تكن هناك أية نقطة واضحة تختفي عندها داخل الأرض. وفي الواقع كانت التربة تحت قدميه صلبة ورمادية، مثل الجذل نفسه. وأكد كل هذا صحة ما عرفه بالفعل، وهو أنه لا يقف على تل، ولكن على قمة نبات ضخم. فقد رأى على الجذل نفسه نتوءات صلبة توحي بأن أوراق نباتات قد نمت في ذلك المكان، ولكنها ذبلت منذ زمن طويل.

جلس عند قاعدة الجذل، وحدق نحو البحر. أخذ يتثاءب، حين أصبح القمر في كبد السماء، وتبخر شعوره باستعجال الفهم. تساءل عما إذا كان قد أخطأ، عندما اعتقد أنه قد جيء به إلى هنا لغرض ما، ربما يكون صعود التل مسألة متعلقة بطقوس دينية صرفة، وربما طُلب منه تكرار الطقوس الدينية، كدلالة لإثبات الثقة والموافقة. وفي هذه الحالة فإن مهمته تكون قد اكتملت، وليس هناك ما يقوم به سوى العودة من حيث أتى. ولكن عندما اتجه نحو الحافة، ونظر إلى أسفل، قرر أنه من الأسلم الانتظار حتى طلوع الفجر.

لم يكن موضعه عند قاعدة الجذل مريحاً، نظراً لكونها متقوسة نحو الأسفل، مما اضطره للجلوس، وظهره بزاوية معينة. ولكن حين انزلق لأسفل ليأخذ وضعاً أكثر راحة، وجد أن الجزء المتقوس قد بات بمثابة وسادة ممتازة، بل وأن هناك موضعاً منخفضاً أسند مؤخرة رأسه إليه. تنهد من التعب، وأغمض عينيه. جرفته، بمجرد أن فعل ذلك، موجة من السلام تدفقت من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، وسرى الدفء في يديه وقدميه العارية. بدأ يشعر مرة أخرى بأنه خاضع للسيطرة، لكن القوة المجهولة تدفعه هذه المرة للاسترخاء.

كان أول ما لاحظه حين وصل إلى معدل السكون الداخلي أنه لم يعد مدركاً لحركة القوة المترقرقة التي تشبه الموجة. انتابته الحيرة للحظة، ثم فهم الأمر. فهو في المركز الذي تنبعث منه الأمواج، ودائماً ما يكون المركز ساكناً.

لم يعد يشعر بأي إجهاد، الأمر الذي أثار استغرابه. أدرك حالة الهدوء التي تلف جسمه المستريح، مثل وهج استمتاع ذاتي، لكن رغبته في النوم تلاشت. وتملكته، بدلاً من ذلك، حالة انفعال حذرة لكنها صامتة. فهم لأول مرة المدى الذي يقلص به ثقل الجسم حرية العقل. شعر الآن بصفاء ووضوح ذهنه، مثل صباح أحد أيام الصيف الهادئة. وأحس كأنه يفكر في حياته، وفي حياة كل البشر من ارتفاع شاهق. ومع ذلك استمر استرخاء جسمه، ووصل إلى النقطة التي ذاب فيها وعيه بشكل طبيعي، ليتحول إلى صور وأحلام. بدا كما لو أنه يقف على عتبة حجرة انتظار العقل الباطن، فقد بدأت الأصوات والصور التي لا يتحكم فيها تغزو هويته الشخصية. ولكن فيما رفض الانقياد إلى هذه العتبة، كان بمقدوره العودة إلى وعيه الكامل.

أدهشته مقدرته على منع نفسه من الاستسلام للنوم، وأدرك أن سيطرته الطبيعية على نفسه تعادل المهمة الملقاة على عاتقه. فالقوة الداخلية التي جاءت به إلى هنا، تقدم له الإرشاد والتوجيه اللذين لم يتقبلهما عقله بعد. كما انتابته الدهشة لأن هذه القوة لا تقوم بمناورات للسيطرة عليه، بل تعامله على قدم المساواة، وتحترم فرديته.

ثم انقاد إلى عالم الصور الحية التي شاهدها مرات عديدة على أرض الحدود بين النوم واليقظة. إنه عالم الأحلام، الذي دأب على ولوجه كل ليلة منذ أن وُلد، والذي بات مألوفاً لديه مثل الأجواء المحيطة بالجحر. مع ذلك فهذه هي المرة الأولى التي يراه فيها بوعيه المستيقظ. فقد ازيحت ستارة فقدان الذاكرة العادية التي تفصل بين النوم واليقظة، وبات مدركاً للصور الداخلية التي لاحت، في ظل تخيلات الأحلام المتغيرة، حقيقية ودائمة، مثل عالم الواقع الخارجي.

ولما تلاشت صـور أحلامـه، فهم السبـب الذي تم بمقتضـاه السماح لـه بالـتريث عند المنطقة الفاصلة بين اليقظة والنوم؛ فهذا هو مستوى الوعـي الذي يسعى لـلاتصال بـه. إن الكيان، الذي قدسته العناكب، باعتباره إلّهة الدلتا، يعيش بشكل دائـم عند المستوى الذي يسمى عنـد البشر الوعي البـاطن. وهذا هـو السبب الذي جعلهـا غير قـادرة على الاتصـال عندما كان مستيقظاً، فكلام الإلهة سيصبح، بالنسبة للذهنه الواعي، لا معنى له، مثل صوت تكسر الأمواج على الشاطىء.

أما الآن، وهو بين الحلم واليقظة، فإن كلامها في غاية الوضوح، كما لو أنه يوجه بلغة منطوقة. لكنها لغة بدون كلمات، ذكّرتـه بما حـدث عندمـا خاطبـه السيد لأول مـرة بشكل مباشر، فلم يكن هناك إحساس «بصوت» داخل صدره، ولكن كان هناك إحسـاس باتصـال مباشر. وصل إليه المعنى الآن في غاية الوضوح، وعرضت الآلهة الرد على أي سؤال يريـد أن يطرحه.

كان أول رد فعل له هو نوع من الشلل الداخـلي. شعر بشيء من التجـديف أن يوجـه سؤالاً إلى إلّهـة. لكن رد الفعل العصبي هـذا أثار استجـابة فـورية. فقـد أحيط علماً، مـن خلال الصـور التي تتحدث في غاية الوضوح، كما لو أنها كلمات، بأنه إلّه مثلما هي إلّهـة. في الواقع لم تكن من جنس معين. ففي كوكبها الأصلي، لم يكن هناك ذكور وإناث. وكان هـذا الكـوكب ـ المعروف لـدى علماء الفلك في أواخر القـرن العشرين باسم «أ. ل (الفـا ـ ليراي) ٣» ـ الثالث في المجموعـة الشمسيـة لنجم أزرق يسمى «النسر الـواقع» في كـوكبة القيثـارة. ولكون هذا الكوكب أكبر من الشمس بقليـل، فقد تمتـع بجاذبيـة تزيـد بنحو مـائة مـرة عن الجاذبية الأرضية، ولذلك فإن رجلاً على سطحه سيزن عشرة أطنان، ولن يكون بمقدوره رفع مجرد رموش عينيه. وبالتالي فإن التناسل عن طريق الجنس أمر مستحيـل، وتستمر الحيـاة على الكوكب من خلال نوع من التوالد الذاتي.

ونـظراً للجاذبيـة الهائلة، تقـدمت الحيـاة عـلى كـوكب أ. ل ٣ بمعـدل أبـطأ بكثـير من الأرض. فقد ظهرت الحياة على الكوكب لأول مرةمنذ نحو خمسـة آلاف مليون سنـة، مقابـل ثلاثة آلاف مليون سنة فقط على الأرض. وبعد ثلاثة مليارات ونصف مليار سنة أنتج كوكب أ. ل ٣ أول أشكال الحياة الذكية.

ولكن لم يُنظر إليها على الأرض باعتبارها كائنات حية، نظراً لأنها تشبـه الجبال المنتشرة فـوق الأرض، ولكن على كـوكب أ. ل ٣، فإن تـطوير فكـرة يستغـرق وقتـاً يصـل إلى عـدد سنوات عمر الإنسان.

وبعد نصف مليار سنة حقق التطور أفضل شكل حتى الآن، وهو النوع الذي تنتمي إليه «الإلهة». وأطلق أهل الأرض على هذه الكائنات الكروية اسم النباتات التي حققت، على عكس شكل الحياة «الجبلي»، درجة معينة من الفردية (رغم أن الإلهة بدت بالنسبة لحواس نيال الحائرة غير فردية مثل البحر). وعلاوة على ذلك فقد حقق كل فرد من هذا النوع اتصالاً ذهنياً مع الأفراد الآخرين، وتمكن من الوصول إلى ذاكرة كل أسلافه.

عُرضت على نيال، رداً على سؤاله غير المنطوق، صورة عن الأوضاع فوق سطح «أ. ل ٣». كان التألق هو الانطباع الأول، إذ راح النجم الأزرق العظيم يلمع في السماء ـ وهو يزيد خمسين مرة في إشراقه عن شمسنا ـ وبدا كأن ومضات برق مستمرة تضيء كل شيء. وفي هذا الضوء الباهر لاح له الكوكب المسطح الكبير وقد امتد في كل اتجاه إلى ما لا نهاية. ونظراً لأن «أ. ل ٣» أكبر بكثير من الأرض، فإن أفقه بدا بعيداً للغاية. وظهر كوكبنا صغيراً جداً، بالمقارنة مع «أ. ل ٣». وفي وسط هذا الكوكب بدت الجبال التي يزيد ارتفاعها ألف مرة عن ارتفاع الجبال على الأرض مثل أقماع متساوية في الحجم. وقد انكسرت الرتابة السائدة فوق هذا الكوكب الباهر بوجود بضعة نباتات نصف كروية تعتمد كل منها على مساق ـ أطول بكثير من الجذع الذي يستند إليه الآن ـ تقوم من خلاله بالاتصال مع النباتات الأخرى التي من نوعها.

ومنذ مائة وخمسين مليون سنة وقع تحت هذا السطح المستوي المستقر انفجار أحدث حفرة هائلة، وألقى في الفضاء كمية من المواد كانت كافية لتشكيل كل كواكب المجموعة الشمسية التي تنتمي إليها الأرض. ويرجع سبب هذا الانفجار إلى قوة جاذبية شظية أحد النجوم انطلقت من مجرة منفجرة. وتعلق بعض المواد في «ذيل» هذه الشظية التي تشبه المذنب، وأبحر في الفضاء لآلاف عديدة من السنين. وخلال هذه الفترة ظلت الحياة قابعة في الذيل ـ على شكل خلايا ميكروسكوبية ـ ولكنها خاملة بفعل صدمة الاندفاع، ومجمدة بفعل البرد الجليدي في الفضاء. وحين عاد إليها وعيها من جديد وجدت نفسها محاصرة في ذيل مذنب آخر ـ لم يكن شريحة أحد النجوم هذه المرة، بل كرة من الغاز يبلغ قطرها خمسين ألف ميل ـ وكانت في طريقها إلى مجموعتنا الشمسية.

وعندما ألقى الانفجار في البداية بهذه الخلايا الحية إلى الفضاء هيمنت على الأرض الدنيا صورات الضخمة التي تنتمي للعصر الجوراسي. ولما حف ذيل المذنب «أوبيك» بالأرض، مخلفاً بعض هذه الخلايا البوغية في الغلاف الجوي المحيط بالأرض، كان معظم الجنس البشري قد هجر الكوكب في مركبات فضاء هائلة، وبدأ رحلته الطويلة إلى مجموعة نجوم الظُلمات، وحمل الكوكب اسم «الأرض الجديدة».

وسقط معظم الخلايا البوغية في المحيط وهلك أما البقية فقد سقطت في الصحاري، أو المناطق القطبية، واضطرت إلى الانسحاب والبقاء في حالة السُبات الشتوي الدفاعي. ولم تنجح سوى خمكس خلايا في النمو: اثنتان في وسط افريقيا، وواحدة في جنوب الصين، وأخرى فوق جزيرة أمام ساحل بورنيو، وواحدة في الدلتا الكبرى.

وكانت الحياة في غاية الصعوبة، حتى بالنسبة للخلايا الناجية التي تعودت على التطور ببطء على مدار آلاف السنين معتمدة على مجال جاذبية قوية. ولكن في ظل الجاذبية المنخفضة للأرض، فقد تسارع معدل عملياتها الجزيئية، فانتفخت مثل البالونات حتى باتت معرضة لخطر الانفجار. ولو مرت أية كائنات أرضية بظروف مماثلة لكانت قد فنيت. ولكن النباتات العملاقة حققت درجة من السيطرة على أجسامها، يراها البشر أشبه بالمعجزة. فقد تكيفت مع ظروف الأرض ـ رغم أنها كانت تنمو بمعدل يزيد عشر مرات عن معدل زيادتها على كوكبها ـ وتغذت على طاقاتها وغلافها الجوي، وحققت في غضون أعوام تطوراً كان سيستغرق قروناً فوق كوكب أ. ل ٣.

وبالتالي وجدت هذه النباتات مليون ميل من نجم عادي يسمى الشمس. وتطورت في هذه النباتات نزعة الصراع من أجل البقاء بمعدل من الوعي أعلى بكثير من معدله لدى تلك التي ظلت فوق كوكبها. وبالمقارنة مع أشكال الحياة الأخرى على الأرض، أدركت أنها تواجه ظروفاً معوقة. فعلى الأرض الحياة النباتية هي فقط التي ليس بمقدورها التحرك بحرية، ولكن في مجال جاذبيتنا المنخفض يحدث التنقل بسهولة. وحين بدأت هذه النباتات الخمسية الغريبة في التطور كان لحمها رقيقاً وشهياً، وجده العديد من أنواع الطيور والحشرات لذيذاً. ولم تكن أمامها سوى طريقة واحدة فقط للدفاع عن نفسها، وذلك عن طريق استغلالها قدراتها التخاطرية لتحقيق سيطرة مباشرة على أذهان هذه الضواري. ومن هنا تمكنت الخلية البوغية الصغيرة التي هبطت على طين الدلتا اللين أن تصبح امبراطورة الدلتا، والمهيمنة المطلقة على كل أشكال الحياة فيها.

كان بمقدور نيال تتبع القصة بدون أية صعوبة، فقد سُردت عليه من خلال سلسلة من الصور في بساطة كتب الأطفال المصورة. لكنه أراد أن يعرف السبب الذي دفع النباتات العملاقة لبث موجات الحيوية الخالصة لأشكال الحياة الأخرى ـ وهي الحيوية التي مكنت العناكب أن تصبح سادة الأرض ـ إلا أنه وجد من الصعب عليه فهم هذه النقطة، فقد دلت الإجابة، كما ظهرت أمامه، على أن هذه النباتات الغريبة وجدت الأرض مثيرة للضجر بسبب افتقارها للتنوع. ولكن لو أخذنا في الاعتبار طبيعة كوكبها الرتيبة، فستبدو هذه الإجابة غير منطقية. لكنه بدأ يستوعب الأمر. فعلى الكوكب الذي نمت فيه هذه النباتات،

التزم كل واحد منها بمكان محدد، لكنه تحرك بذهنه إلى أماكن أخرى، وذلك بمجرد التعرف على هوية ذهن نبات آخر من فصيلته. بل إن النمو ذاته كان جهداً جماعياً جباراً شارك كل نبات فيه بدور. وهذا هو السبب الذي يفسر توقف نموها على الأرض. فلم يكن هناك العدد الكافي منها لدعم ضغط الأفكار الضروري.

أدرك نيال، دون مزيد من الإيضاح، أنه لم يكن هناك سوى حل واحد. فإذا ما كان يتعين تطور هذه النباتات فإنها بحاجة إلى صحبة كائنات عملاقة أخرى مثلها. وإذا لم تكن موجودة فإنها ستضطر لخلقها، وذلك عن طريق حقن الحيوانات والطيور، بل والأشجار والنباتات، بمزيد من الحياة.

بدت المهمة مستحيلة. لكن النباتات امتلكت صبراً لا حدود له. ونظراً لأن قدراتها التخاطرية مكنتها من الاتصال بأذهان الكائنات الحية الأخرى فإن الأمر لم يكن يعني أكثر من زيادة قدراتها عن طريق بث الحيوية الخالصة ـ أي قوة حياة الأرض نفسها. وأصبحت امبراطورة النباتات ورفيقاتها بمثابة محطات بث هائلة.

وبدأت كل الكائنات التي بمقدورها استقبال هذه الذبذبات تنمو بمعدل متسارع. ولسوء الحظ فإن هذه الكائنات لم تتضمن الإنسان الذي كان ذكاؤه قد تطور بالفعل بمعدل حال دون استفادته من هذه الحيوية الخام. لكن العديد من الكائنات الأخرى امتلأت بإحساس الطاقة والقوة المتهورة التي وصلت في حالات عديدة إلى درجة عالية جعلتها لا تخشى الموت نفسه. (تذكر نيال الطريقة الانتحارية التي واصلت بها الكائنات التي تشبه الضفادع هجومها، رغم رؤيتها لرفاقها وقد افنتها الأسلحة الحاصدة). وتطورت أنواع عديدة من الحشرات لتتحول إلى حشرات عملاقة ـ وقد كانت الحشرات أكثر تأثراً بموجات الحيوية هذه ـ بل إن فطر الأشجار البسيط، وهو نوع من أنواع الفطريات، تطور ليتحول إلى فطر رخوي متحرك. وأصبحت نباتات عادية كثيرة تقتات على الحشرات، مثل الأعشاب الأفعوانية، والشجرة الخانقة. وتحولت يرقة الحدائق العادية إلى حبار أرضي يخفي نفسه في التربة، مثلما يختفي الأخطبوط في قاع المحيط.

لكن العناكب تمثل القصة الأكثر نجاحاً. فهذه الحشرات تمثل نوعاً قابلاً للتكيف يتراوح بين العنكبوت السرطاني الصغير وبين العنكبوت الضخم آكل الطيور الذي يعيش في الغابات الاستوائية. وكانت العناكب من الأنواع التي تقبلت أكثر من غيرها ذبذبات امبراطورة النباتات؛ فهيكلها الخلوي ـ المماثل لهيكل فطر الحبار ـ موصل جيد بشكل خاص لقوة الحياة. كما امتلكت الكثير من الصفات التي امتازت بها النباتات، مثل الصبر والحذر

والتصميم، وطورت، خلال نموها في الجسم، نسبة ذكاء هائلة، مع قوة إرادة.

وكان الإنسان نفسه هو العدو الأكبر للعناكب خلال الأيام الأولى. فعندما احتك ذيل مذنب «أوبيك» المشع بالأرض تعرض تسعون في المائة من البشر الباقين للفناء. وعانى الكثير من أولئك الذين نجوا من أمراض اشعاعية، ومن تغيرات وراثية - بل إن إحدى المجموعات في وسط آسيا ظهرت لها مخالب في أيديها وأقدامها. وأدت هذه الكارثة إلى ارتداد الإنسان إلى المرحلة البدائية. وانتقل من المدن إلى القرى مرة أخرى، ولم يعد يستخدم القنابل الذرية، والأسلحة الحاصدة، ومسدسات الليزر التي تخلها عنها وعاد الى الرمح والقوس والسهم. ورغم كل ذلك فقد ظل عدواً خطيراً. وقام أحد القادة العظام، وهو «إيفار» القوي، بغزو أراضي معظم جيرانه من البشر، واستخدم العبيد في بناء مدينة «كورش» المسورة التي باتت حصينة مثل طيبة، أو بابل، وطرد كل العناكب بعيداً عن بلاد ما بين النهرين، وأصبح حاكماً على مجتمع زراعي ناهض. أما حفيده «سكابتا» الماكر فقد أوقع قائد العناكب في كمين بوادٍ ضيق يسمى «مورسات»، وقتل ثمانية آلاف منها في هجوم مباغت. وبعد ذلك. وهاجم عاصمتها الواقعة على ضفاف النهر العظيم، وحرقها بالكامل. لكن سكابتا كان قاسياً بالإضافة إلى مكره، وقتل الكثير من رعاياه، الأمر الذي أدى في النهاية إلى اغتياله على يد وزيره «جروديج» الذي تولى ابنه «تريفيج» الحكم. وجاء بعد تريفيج أعظم الملوك المحاربين، وهو «فاكين» الحكيم، ابن فلاح بسيط عاش على حافة الصحراء، وكان يتمتع بقوة جسدية هائلة لما رأته «مانسيا» ابنة الملك، عندما خرجت للصيد، وقعت في حبه وتزوجته. وخلال حكم فاكين الذي استمر ثمانية وستين عاماً، غزا الإنسان أرض العناكب، وطردها إلى ما وراء حدود أرض فاكين، بل قام البشر باصطيادها للحصول على سمها الذي يُبقي الحيوانات في حالة شلل خلال أشهر الشتاء الطويلة، عندما يكون الغذاء شحيحاً.

وجاءت نقطة التحول بعد موت فاكين، خلال فترة حكم «شيب» سيد العناكب. وتشير الأسطورة إلى الطريقة التي تعلم بها شيب أسرار الروح البشرية، من المرتد «هالات» الذي خان جنسه ليحظى بحب الأميرة «تيرول». لكن الحقيقة أقل مأساوية من ذلك. فالعناكب تعلمت من هزائمها، في ظل حكم فاكين الحكيم، أن عدوها الحقيقي ليس الإقدام البشري، ولكن الذكاء الذي يتمتع به الإنسان. وكان من بين مستشاري سيد الموت عجوز اسمه «كيسيب»، يُعرف أيضاً بين أفراد نوعه بالحكيم. (كانت مفاجأة لنيال أن يعرف أن للعناكب أيضاً مفكريها وحكماءها). افتتن كيسيب بأسرار السلوك البشري، وراح يكرس أيامه لدراسة مجموعة من الأسرى البشر. وجاء اكتشافه الكبير بالصدفة، حينما احضروا إلى بيته طفلاً حديث الولادة، لامرأة ماتت أثناء الوضع. اعتنت إحدى بناته

بالطفل الذي كان يسمى «جوراك»، وعاملته كحيوان أليف. دُهش كيسيب عندما وجد الطفل متعلقاً بشدة بابنته، وبه شخصياً، وبدا أنه يعتبر نفسه عنكبوتياً وليس إنساناً. وبدأ يفهم، من خلال جوراك، قلب الإنسان وروحه، وأدرك مدى سهولة التحكم في الإنسان من خلال عواطفه وتوقه إلى الأمن.

من هنا بدأت العناكب تقوم بعملية الاستيلاء على الأطفال حديثي الولادة من أمهاتهم لتربيهم بين العناكب الصغيرة. وبهذه الطريقة نجحت في تكوين طبقة خدم من البشر يكنون ولاءً تاماً للعناكب، ويحتقرون رفاقهم البشر. وكان فاكين الحكيم قد استخدم عناكب الصحراء الرمادية كجواسيس، أما الآن فقد استخدم سادة العناكب الخدم من البشر بالأسلوب ذاته. وتعرضت المجتمعات البشرية التي واصلت المقاومة ضد العناكب، للخيانة. وفي غضون أجيال قليلة، تم تدمير تراث فاكين الحكيم، وتم قتل أو أسر كل البشر في بلاد ما بين النهرين.

صُدم نيال عندما أدرك أن العناكب تدين بانتصارها إلى خدمها من البشر، ولكن لم يكن هذا أسوأ ما في الأمر. فقد علم أنه قد قامت ثورة للعبيد خلال حكم «جريب» الذي خلف «كيسيب»، تم التخطيط لها بعناية، وقبل قمعها قُتل الآلاف من العناكب، خدمها من البشر. وطلب سيد الموت من «جريب» التوصل إلى طريقة لمنع تكرار مثل هذه الكارثة مرة أخرى. وكان أول اقتراح يطرحه جريب هو قتل جميع العبيد، حتى يكون البشر الباقون من الخدم الموالين للعناكب. لكن هذا الاقتراح لم يكن عملياً، فهناك عدد كبير من العبيد، بالإضافة إلى أن العناكب تريد الحفاظ على هذه الطبقة لأنها اكتشفت أن طعم اللحم البشري لذيذ، وهي ليست مستعدة بطبيعة الحال لالتهام خدمها الموالين.

وتوصل أحد خرم «جريب» من البشر إلى الحل. ولم يتم حفظ اسم الخائن، وكل ما عُرف عنه أنه قُتل في عملية تربية الماشية. لقد كان هذا الرجل هو الذي اقترح أن تقوم العناكب بتربية العبيد بالطريقة التي تُربي بها الماشية، واختار بعناية أكثر البشر بدانة وغباء للتناسل، وللإبقاء على النوع. وأي إنسان يظهر دلائل على ذكاء غير عادي يتم القضاء عليه قبل فترة طويلة من وصوله إلى سن الرجولة. وتم تطبيق هذه الأفكار، وحققت العناكب في غضون جيل واحد هدفها، وهو الإخضاع الكامل لأخطر أعدائها. وأصبح البشر ينظرون إليها على أنها سادتهم. ولم يعد التحدي ـ أو حتى الاستياء ـ موضوعاً لأي تفكير.

تزايد غضب نيال، وهو يصغي لكل هذه القصة، حتى شعر بالاختناق من تفاصيلها. وكان غضبه موجهاً ضد النباتات العملاقة والعناكب؛ فهي المسؤولة عن جعلها سادة

الأرض. واعترته، وهو يفكر فيهـا وفي فكوكها السامة وعيونها الشريرة، موجة من الاشمئزاز والكراهية. كيف يمكن لأي إنسان أن يأخذ جانب النوع الذي قتـل والتهـم واستعبد رفاقه من البشر؟

بدا أن غضبه قد أثار استجابة شخصية أكبر في النباتات، وجاء الرد في وضوح الحديث الإنساني. وجه النبات حديثه إليه مباشرة، كما لو أنه يتحدث بصوت مرتفع، وبدا أنه يقول:
ـ إذن كيف بمقدورك أن تقف بجانب نوعك؟ لقـد قتـل واستعبـد والتهم رفاقـه من الكائنـات قبل أن تفعل العناكب ذلك بفـترة طويلة. وقتـل البشر أعداءهم واستعبـدوهم وربوا الحيوانات لالتهامها. كيف لك أن تقول إنهم أفضل من العناكب؟

شعر، للحظة، بالخوف من تهوره. ثم أدرك أن هذا الخوف لا أساس له. فإمـبراطورة النباتات بمثابة إنسان خارق، وبالتالي لن ينتابها أي ضيق. وبالإضافة إلى ذلك، بوسعها فهم أفكاره سواء تحدث عنها، أم لم يتحدث. كما شجعه إحساسه أنه لم يكن مخطئاً تمامـاً عنـدما فكر في العناكـب وما فعلته بعائلته، فتزايد شعوره بالغضب.
ـ لقد احترم البشر الذكاء. وتدرك العناكب أن البشر أذكياء مثلها تماماً، ومع ذلك فقد صممت على القضاء عليهم.
ـ كما ستقضي أنت على العناكب.

قال بتحدٍ: نعم، سأقضي عليها.

ثم تلاشى غضبه، وأدرك وهو ينظر إلى روح امـبراطورة النباتـات أنـه لا علاقـة لها بالموضوع. فما يشغل بال النباتات العملاقة ليست الأنواع، بل عملية التطور، ولا يهمهـا مَنْ يكونون السادة، ومَن العبيد.

وإلى جانب ذلـك فإن القصة لم تنته بعد. فقد أدركت النباتات، بعد قـرن من استعباد الإنسـان أن هنـاك خـطأ مـا، إذ تبـاطـأ تـطور العنـاكب، وأصبحت كسـالى تفضـل البقـاء طوال اليوم في نسيجها، تصطاد الذبـاب لمجـرد المتعة الـرياضيـة، وتملأ بـطونها بلحم البشر والحيوانات. وقد حاولت النبـاتات زيـادة معدل حقن الحيـوية، لكن ذلـك لم يغير من الأمـر شيئاً، وبدا أن العناكب تقبل ذلك على أنه هدية مجانية.

ثم فهمت النباتات الخطأ الذي وقعت فيه. فعلى كوكبـها كانت الحياة صعبة وقاسيـة للغاية، مما جعل الصراع من أجل التطور يأتي في المرتبة الثانية. أما الأرض، بـالمقارنـة، فقد اتسمت بـالتنوع، وكـانت النتيجـة أن كـائنتـاتهـا تـطورت حينـما كـانت تتـورط في صراع أو مواجهة. ولم يطرأ أي تغير هام على العناكـب خلال العشرة ملايين سنة الأولى من تطورهـا.

وبعد أن أصبحت في غضون قرون قليلة سادة الأرض، غمرها الشعور بالسعادة والأمان، ولم تعد ترى سبباً لبذل أي مجهود يساعدها على التطور.

وقررت النباتات الدخول في تجربة جديدة. فقد دأبت خنافس المدفعية على النظر إلى العناكب على أنها عدوها اللدود. وهي تدافع عن نفسها بإحداث انفجار صغير من الغاز الساخن الذي يردع معظم أعدائها الطبيعيين. ولكن إذا ما سقطت خنفساءة في نسيج العنكبوت، وبدأ يغزل شرنقة الحرير حولها، فإنها تصاب بالشلل، إذ أن نظام اطلاق الغاز ينشط إذا ما تعرضت لهجوم مباشر فقط.

واتجهت النباتات العملاقة إلى تركيز جهودها على خنفساء المدفعية، وحددت طول موجة الحيوية التي تستجيب لها الخنافس، وبثت هذه الموجة بكثافة متزايدة. وتعلمت الخنافس بمجرد أن أصبحت «أكثر حيوية» كيفية التغلب على هذا النقص. فحين يحاول عنكبوت إيقاع خنفساءة في حريره تتسارع بالهرب منه، وتنفث دفعة من غازها الساخن.

وكانت العناكب قد تعودت على الأسلوب القديم فشعرت بالحنق من هذا التحدي. وتصاعد غضبها إلى أن قررت ضرورة إبادة الخنافس. (ابتسم نيال بامتعاض، فقد كان هذا هو ما توقعه). لكن الخنافس كانت قد كسبت ثقة جديدة من حصانتها، ودافعت عن نفسها بشجاعة وتصميم. وحين ضاعفت العناكب جهودها ضاعفت الخنافس مقاومتها. وخلال القرون التي راح فيها الجانبان يتصارعان من أجل الهيمنة قام كلاهما بتطوير معدلات جديدة من قوة الإرادة والذكاء. وفي النهاية ساد الذكاء والرأي الصائب. وعندما اقترح سيد الخنافس هدنة وافقت العناكب عليها بلهفة. ولكن حينما استقرت الأمور، وعاش الجانبان في هدوء، بدأ التطور يراوح مكانه مرة أخرى.

وأكدت التجربة ما عرفته النباتات بالفعل، وهو أن الكائنات على الأرض تتطور عندما تضطر للصراع. وبذلك أثبتت محاولة خلق كائنات عظمى فشلها.

ومع ذلك ظل هناك احتمال آخر...

فقد ارتكب سادة الموت خطأ خطيراً إذ كانوا على ثقة من أن الإنسان لم يعد يشكل خطراً على نوعهم. صحيح أن البشر في الصحراء ظلوا أحراراً، لكنهم كانوا مفيدين في عملية التكاثر، واقتنعت العناكب بأنهم لا يشكلون أي تهديد حقيقي.

لكنها أدركت الآن، بعد فوات الأوان، مدى حماقتها. وجاء هذا الإدراك بشكل مفاجىء تماماً بعد يوم واحد من الغارة على الحصن. فقد قُتل ما يزيد عن ثلاثة آلاف منها، بينما عدد كبير آخر في حالة كرب. وأحس كل عنكبوت في المنطقة المحيطة بالحصن

بمدى العـذاب الذي تواجهه العناكب. وفي ذلك اليوم أدرك سادة العناكب أن صراعهم من أجل السيادة على الأرض قد انتهى بالفشل.

غمرت الفكرة نيال بشعور المنتصر، وتذكر ابتهاجه وهو يصوب الحاصد إلى عنكبـوت ويسحب الزناد. لكن إحساسه تلاشـى بعد أن شعـر باشمئـزاز امبراطـورة النباتـات، ووجد نفسه مثل صبي ضُبط وهو يقوم بعمل محظور. حـاول كبح جمـاح أفكاره، كـما لو أنـه يحبس انفاسه. وحين وصل هذا الجهد إلى أقصى مـداه لم يتمالك نفسه، وتساءل في نهاية المطاف:

ـ ما الذي تعتزمين القيام به؟

فاجأته الإجابة.

ـ الموقف أصبح الآن بين يديك.

استغـرق الأمـر بضـع لحظـات قبـل أن يتمكن من استيعـاب هـذا الاتصـال المثـير للدهشة. واضطربت أفكاره. أتعني النبات. . . ؟

تساءل: أتعنين أن بمقدورنا تنفيذ ما نشاء؟

ـ لا نستطيع منعكم.

لم يصدق ما يسمعه.

ـ بمقدورك منعي من الرحيل، بمقدورك ذلك.

لم يكن بإمكانه إخفاء أفكاره، فقال: اقتليني!

ـ لا. لقـد جئت إلى هنا حسن النيـة لأننا أبـرمنا اتفـاقاً. ولا نستـطيـع خـرق هـذا الاتفاق.

هز رأسه في حيـرة وتساءل: ولكن ما الذي تريدين مني أن أفعل؟

جاءه الرد في غاية الوضوح، كما لو أنه منطوق.

ـ يجب أن تفكر، ثم تتخذ قرارك. أنت حر.

أصابته الفكرة بالتوتر. فقد بدا مستحيلاًأن تُعرض عليه الحرية المطلقة. مع ذلـك كان ذهن النبات مفتوحاً أمامه: ولا يمكن أن يكون هناك أي خداع.

ـ نحن أحرار في استخدام الأسلحة الحاصدة ضد العناكب؟

ـ إذا ما قررتم ذلك.

تخيل عودته إلى مدينة الخنافس، وقيامه بتعبئة البشر لمحاربة العناكب. وتصـور الهجوم على مدينتها، وتدمير مقر سيد الموت. واستطاع رسم صورة للعناكب وهي تفر من مدينتها في

حالة ذعر، ثم اصطيادها الواحد تلو الآخر. ويتحد البشر بعد ذلك لإعادة بناء المدينة، ويعيدون اكتشاف أسرار الماضي بمساعدة البرج الأبيض حتى لا يكون هناك سبب للخوف من العناكب. وسوف تنير الأضواء المباني المرتفعة، ويلهو الأطفال بسعادة في الحدائق، ويملأ الرجال والنساء الطرقات وهم يتوجهون إلى أشغالهم اليومية، ولن يكون هناك أي نسيج عنكبوتي شرير فوق الرؤوس ويستأنف الإنسان من جديد الاضطلاع بدوره الصحيح سيداً على الأرض... إنها رؤيا رائعة غمرته بالنشوة.

ـ وماذا بعد؟

أوقف السؤال قطار أفكاره المنطلق، ولم يتمكن من استيعابه، وراح يكرر بعدم فهم: ماذا بعد؟

ـ ما الذي سيفعله البشر عندما يصبحون سادة الأرض؟

وجد أن السؤال لا معنى له. أليست الإجابة واضحة؟ إنهم سيشيدون حضارة جديدة ويعيشون في سلام.

ـ كما فعلوا في الماضي؟

وجد هذه الأسئلة مزعجة. فطالما أن بوسع امبراطورة النباتات قراءة ذهنه فما الذي يجعلها تتجشم عناء طرح الأسئلة؟

ـ حتى تفكر ملياً في الأمر. فعندما تغادر هذا المكان سيكون لك مطلق الحرية في القيام بما تشاء. ولكن قبل أن تتخذ قرارك أريدك أن تفكر في العواقب.

هز رأسه وقال: صحيح أن البشر خاضوا في الماضي حروباً لا نهاية لها. ولكن قبل رحيلهم عن الأرض بقرن لم تكن هناك أية حروب.

ساد الصمت بعد هذه الجملة، وانتظر السؤال التالي. ولكن حين لم تطرح أية أسئلة وجد نفسه يفكر فيما قاله لتوه. صحيح لم تقع حرب أخرى، فقد أبلغه الرجل العجوز في البرج الأبيض بذلك، لكنه قال أيضاً: «بحلول الوقت الذي رحل فيه البشر عن الأرض لم يكونوا قد توصلوا إلى لغز سر السعادة». تردد صدى الكلمات في ذاكرة نيال في غاية الوضوح، كما لو أنها قد قيلت لتوها. كما تردد صدى جملة أخرى: لقد ألف عالم أحياء شهير كتاباً أكد فيه أن البشر سيموتون في النهاية من الملل.

قال: لن أموت من الملل. سوف أستغل مرآة التأمل في تعلم السيطرة على ذهني.

ـ سوف تفعل ذلك. ولكن ماذا عن الآخرين؟

ترافقت مع السؤال صورة دوجنز. عندئذ فهم السبب الذي يجعل النبات يطرح الأسئلة، فهو لا يريد معرفة ما يدور في ذهنه من أفكار، وإنما يريده أن يدرك بنفسه ما يفكر فيه.

قال: من المؤكد أن بمقدورهم التعلم أيضاً.

لكنه رأى أن كلامه يفتقر إلى عنصر الاقناع.

- أتعتقد أنهم سيتعلمون بيسر إذا ما أصبحوا سادة الأرض؟ وعندما ظل صامتاً استطرد النبات: لقد رأيت ما حدث حين تحقق النجاح للعناكب وخنافس المدفعية. فما الذي يجعلك تظن أن البشر مختلفون؟ قال بتؤدة: البشر مختلفون. فهم ليسوا كسالى مثل العناكب.

- ربما هذا صحيح. ولكن يرجع ذلك إلى أن حريتهم محدودة. ألم تلحظ مطلقاً أن البشر يكونون في أفضل أحوالهم عندما يحصلون على قدر محدود من الحرية؟ ثم يقاتلون ويناضلون لنيل مزيد من الحرية. وإذا ما نال البشر فجأة قدراً كبيراً من الحرية فإنهم يشعرون بالحيرة والاضطراب، ويفقدون إحساسهم بالغرض من صراعهم.

لم يحر رداً، فقد عرف أن كل ما قاله النبات صحيح.

- ماذا تظن سيحدث إذا ما قضى البشر على العناكب؟ حاول أن تتخيل ما يمكن أن يحدث. في البداية سيبتهجون لأنهم نالوا حريتهم، وسيقومون بإعادة بناء مدينتهم، وحرق كل الأنسجة العنكبوتية، ومواصلة الاحتفالات العظيمة. ثم يبدأون تعليم أنفسهم كل الأشياء، التي حظرتها عليهم العناكب - مثل صنع الطائرات والسفن ومركبات الفضاء. ولكن في غضون أعوام قليلة سوف ينسون أنهم كانوا عبيداً لدى العناكب. وسينظرون إلى حريتهم على أنها مسألة مسلّم بها. وسوف ينشغل أحفادهم بالبحث عن المغامرة للهروب من حالة السأم. تعرف أن كل ذلك حدث من قبل. أتريد أن يحدث الشيء ذاته مرة أخرى؟

هز رأسه، وبدأ يقينه الداخلي يتلاشى.

- ليس كل البشر يحبون ذلك.
- أتعرف واحداً لا يحب ذلك؟

عندما فكر في الأمر كان عليه أن يعترف بفشله. فكر في كازاك ورغبته في تحقيق القوة، وفي انجليد بغطرستها وغرورها، وفي ميرلو بأنانيتها وطريقتها الخاصة في الحب، فبدا واضحاً أن النبات على حق. بل أن دوجنز الذي يمتاز بحسن طباعه شخصيته محدودة

بشكل غريب، ويعاني من ثقة متزايدة في النفس، وعدم إدراك تام لجوانب النقص في تركيبته.

ـ إذن ماذا تريدين منا أن نفعل؟

ورغم أنه طرح السؤال، إلا أنه عرف ما ستكون عليه الإجابة.

ـ يتعين عليك أن تقرر بنفسك.

ـ لكنك تقولين إنه يجب علينا أن نتعلم التعايش مع العناكب؟

لم تصله أية إجابة فرأى أن السكوت علامة على الموافقة. طرأت على ذهنه فكرة وهو يتأمل ذلك.

ـ قد نضطر ـ إذا ما طردناها خارج المدينة ـ إلى إبرام هدنة معها مثل تلك التي أبرمتها مع الخنافس.

ـ لا. ذلك مستحيل.

ـ لِمَ؟

ـ لأنكم سوف تستخدمون الأسلحة الحاصدة لطردها من المدينة. وبمجرد استخدامكم لها ضد العناكب، ستكونون قد بدأتم عملية لن يكون بمقدوركم السيطرة عليها. وستجدون أنفسكم مضطرين للاستمرار فيها إلى أن تقضوا عليها.

وجد هذا الكلام منطقياً. فإنسان يحمل حاصداً هو في نظر العناكب أفعى قاتلة تثير فيها الخوف والاشمئزاز. وسوف ترد العناكب عاجلاً أم آجلاً بالعدوان، وسيضطر البشر إلى القضاء عليها.

ـ ولكن إذا لم نستطع استخدام الأسلحة الحاصدة فكيف لنا أن نجبر العناكب على منحنا حريتنا؟

ـ ليس بوسعي الإجابة عن ذلك. لا بد وأن تفكر في ذلك حتى تتوصل إلى حل.

اعترته موجة من الغضب والإحباط، وبدا كما لو أنه سقط في شرك نسيج عنكبوتي منطقي يشوب كل حل محتمل فيه نقيصة ما. لقد كان دافعه الأساسي هو القضاء على العناكب، ولكن إذا ما تحقق له ذلك فإن الإنسان سيصبح سيد الأرض. إلا أنه لم يستعد بعد ليصبح سيد الأرض، ولتحقيق ذلك فإنه بحاجة لمزيد من السيطرة على ذهنه، وسيكون بمقدوره تحقيق تلك السيطرة على نحو أيسر إذا ما ظلت العناكب على الأرض لتذكّره بضرورة مواصلة الصراع لنيل حريته. بدت المسألة محيرة على نحو لا يمكن تصوره، ولكن الإنسان في حاجة إلى العناكب أكثر من حاجة العناكب إلى الإنسان.

وإذا ما استخدم الإنسان الأسلحة الحاصدة فإنه سيقضي على العناكب. ولكن إذا ما دمر الأسلحة الحاصدة فما الذي سيحول دون انتقام العناكب ورغبتها في إفناء الكائنات التي كادت أن تقضي عليها؟

لم يبد أن هناك حلاً لهذه المشكلة. وبذل جهداً للسيطرة على إحساسه المتزايد باليأس.
ـ هل بوسعكِ تقديم يد المساعدة؟

ران صمت، ولكنه شعر هذه المرة ببادرة أمل، فقد بدا كما لو أن امبراطورة النباتات تحاول الإجابة على سؤاله. ثم انتابه إحساس بوخز خفيف في جلد جبهته ذكّره بأمر ما لم يتمكن للحظة من تحديده. لكنه تذكر مع تزايد الوخز اللبادتين اللتين كانتا تضغطان على جبهته في البرج الأبيض. أدرك فجأة كما لو أن جسمه يطفو، في الوقت الذي تزايد فيه الوخز، حتى تحول الى وهج مكثف من النشوة. أدرك في هذه المرة ما يحدث. فالنبات يبذل جهداً هائلاً لزيادة معدل ذبذبة الحياة الى ان يتمكن الكائن البشري من استيعابها مباشرة. ولكن كان هذا شبه مستحيل؛ فالنبات نفسه لم يكن على معدل مرتفع بالقدر الذي يكفي لتحويل قوة الحياة الخام للأرض إلى ذبذبات مكثفة مطلوبة لتحفيز الذهن البشري. ورغم ذلك راح النبات يبذل جهداً جباراً لرفعه الى معدل أكبر من الإدراك.

ثم حدث أمر ما. ففي اللحظة التي ضعفت فيها طاقة النبات بدا أن طاقة أخرى قد اضطلعت بالمهمة وبسهولة غريبة غمرت ذهن نيال بفيضان من الضوء الأبيض في وسطه صوت لا يختلف عن رنين جرس. ثم لاح الأمر، مرة أخرى، كما لو أن الشمس قد ارتفعت من تحت أفق ما بداخله فغمره إحساس بقوة طاغية ترتفع من أعماقه، وتسعى لشق طريقها بقوة للخروج من خلال مخرج جسمه الضيق، كما لو أن قوة جارفة تحاول الاندفاع من وادٍ ضيق. شعر أن جسمه قد ينفجر إذا ما استمر هذا الوضع، لكنه لم يول أهمية لهذا الإحساس، فقد بدا جسمه مجرد عائق.

ثم سيطر على القوة نظراً لإدراكه بأن جذورها تتغلغل بداخله، وأوقف التجربة بشكل متعمد؛ فقد رأى كل ما يريد رؤيته. ارتجف جسمه من الانهاك بعد أن انحسرت الطاقة مثل موجة ترتد على نفسها. تنهد بعمق، وترك التعب يغسله مثل حمام دافيء يمحو إدراكه.

- ٨ -

حين عاد إليه وعيه شعر بأشعة الشمس فوق وجهه وذراعيه العاريتين، كما أحس بدوار غريب. فتح عينيه فانتفض مذعوراً عندما رأى طائراً هائلاً على بعد بضعة أقدام يتطلع إليه. بدا منقاره المقوس كبيراً يستطيع به فصل رأسه عن جسمه. لكن الأمر الذي أثار حيرته هو أنه وجد نفسه ينظر إلى طائرين، ورغم أنهما مختلفان اختلافاً بيناً، إلا أنهما وقفا في المكان ذاته. تمكن من رؤية هذا الكائن الشرس بغاية الوضوح برأسه الخالي من الريش ومخالبه القوية. ولكنه رأى فوق هذا الكائن طائراً آخر أكبر قليلاً منه، له جسم شفاف، ولا يبدو شرساً على الإطلاق، بل إنه لطيف ودود، ويفتقر في الوقت ذاته للثقة بالنفس. وعندما تحرك وجلس ارتفع الطائر، وحلق مبتعداً، ليختفي فوق أشجار الغابة ضارباً الهواء بجناحيه الضخمين.

هب واقفاً، وتطلع نحو الشرق فوجد أن قرص الشمس قد قطع نصف المسافة نحو قمة سلسلة الجبال، مما يشير إلى أنه قد مرت ساعة على الأقل منذ بزوغ الفجر. ارتفع ضباب فضي خفيف فوق الأشجار فبدت له الغابة تتنهد بارتياح لقدوم الشمس.

رأى بوضوح، حينما حجب الشمس عن عينيه بيديه، ونظر نحو الجهة الشرقية للنهر، الفجوة في الأشجار التي صنعها دوجنز بنار حاصده، والجسم الساكن الذي يتمدد على الأرض الطيبة الصفراء، فعرف أنه دوجنز.

هبت ريح قوية من ناحية البحر فأسعده الهواء المنعش النقي الذي يدخل رئتيه، ورغم أنه تعود على رائحة الدلتا العطنة، إلا أنه ظل يشعر بالاشمئزاز منها. سار حول حافة التل الشرقية حتى وجد مكاناً أقل انحداراً من الأماكن الأخرى، فبدأ رحلة الهبوط التي بدت في ضوء الشمس الباهر أكثر خطورة منها في ضوء القمر، وأدرك أنه إذا انزلقت قدماه سقط لمسافة ألف قدم ليقع وسط الأشجار المحيطة بالنهر. حرص على ألا ينظر لأسفل. وركز اهتمامه على حركة يديه وقدميه. انعطف وهو يتحرك بشكل مائل نحو جهة التل الجنوبية، ووجد نفسه، في نهاية المطاف، يقف على الطريق الذي يفضي إلى الغابة.

ركز ذهنه، خلال رحلة الهبوط، فلم ير شيئاً سوى ما يوجد أمام عينيه. ولكن بمجرد أن استرخى، بدأ يشعر من جديد بما يحيط به، وأدرك القوة المتصاعدة التي تدفقت في صورة موجات عبر الأرض، وأحس كما لو أنه يمشي فوق رأس عملاق نائم. جعلته هذه القوة يدرك وجود عالمين في الوقت ذاته، فأثناء تدفقها عبر الأرض تمكن من متابعة تقدمها، وهذا يعني أن الأرض شفافة. بدا الأمر كما لو أنه في وجهه أربع عيون، اثنتان يرى بهما العالم المادي، واثنتان يرى بهما عالم الواقع الأكثر عمقاً. ولما نظر إلى قمم الأشجار وجد الطيور وقد حلقت حولها مذعورة وأخذت تصيح وتضرب الهواء بأجنحتها. كانت ضخمة، وتبدو خطيرة، ولكن عندما نظر إليها بعينيه الأخريين وجدها غير مؤذية، كالحيوانات الأليفة، وأحس أنها تقوم بمجرد استعراض للقوة بهدف الدفاع عن أرضها، ولا تعتزم الاقتراب منه. رأى كائناً يشبه الخفاش يرمقه شذراً من فوق شجرة سامقة، بدا خطيراً بوجهه الشيطاني، وروحه المملوءة بالقسوة والعنف، ولكن عندما التقت عيناه بعيني نيال أشاح بنظره، فقد أحس بأنه كائن خطير هو أيضاً.

شق طريقه وسط الغابة، وهو يشعر بالدهشة من سهولة السير في الظلام، رغم وجود العديد من الأشجار المنهارة، والأخاديد العميقة، نتيجة لهطول الأمطار. تجاهل عامداً عينيه الأخريين، وركز انتباهه على الأرض. دُهش حين وجد نبتة متعرشة سميكة نريد ارتفاعها عن قدم تعرقل طريقه. لم يتذكر أنه تسلقها ليلة أمس. بدأت تتحرك عندما دنا منها، ليكتشف أنها أفعى خضراء انتفخ جزؤها الأوسط على نحو غريب، بعد أن ابتلعت إحدى الطرائد. عرف عندما استخدم عينيه الأخريين أن هذه الطريدة هي كائن يشبه الخنزير، مكسو بشعر أسود كثيف، أخذ يتحلل ببطء نتيجة للعصائر الهاضمة القوية التي تفرزها الأفعى.

وبدت الأصلة نفسها غير مخيفة على الإطلاق، ودرجة إدراكها أعلى بقليل من إدراك الأشجار، وقد جعلتها الحياة على الأرض تشعر بأنها مهددة، وقد أرادت في هذه اللحظة أن تنام دون أن يزعجها شيء.

أدرك أن هذه الرؤية المزدوجة هي مجرد امتداد لقدرته العادية على تجميد روحه، وتعريض نفسه لأذهان الكائنات الأخرى، لكن هذه القدرة تطورت لتصل إلى ذروة جديد من الحدة نتيجة لتجارب الساعات القليلة الماضية. لقد شعر بالاستغراب في بداية الأمر عندما جرى اتصال بينه وبين امبراطورة النباتات، لكنه سرعان ما أصبح ماهراً في تفسير الاتصالات التي باتت في غاية الوضوح، وكأنها لغة انسانية. وهذه المهارة نفسها تسمح له الآن بتفسير الذبذبات الصادرة من العالم حوله بسرعة وتلقائية، ولم يعد بحاجة لأي تفسير

لها، فقد بدت له وكأنها رؤية مباشرة. كما فتحت هذه المهارة أمامه عوالم من الاحتمالات، فالرؤية المزدوجة التي يتمتع بها الآن ليست هي نهاية المطاف بالنسبة لحدود الإدراك الذاتي، بل بوسعه إذا أراد أن يرى معدلات أخرى من الواقع، ليتمتع برؤية ثلاثية ورباعية وخماسية. لم يكن قد أدرك قط بهذا الوضوح أن المنظور الإنساني العادي هو شكل من أشكال العمى.

وجد نفسه، حينما خرج من وسط الأشجار، يقف على ضفة النهر، ويتطلع مباشرة إلى دوجنز. بدت المياه هادئة متدفقة، لكن رؤيته المضاعفة جعلته يدرك أنه تحت سطح الماء ببضعة أقدام يتمدد تمساح ضخم يحدق فيه، ويأمل أن يقترب ليجره داخل الماء. تمنى، للحظة، أن يكون الحاصد معه، لكنه أدرك في الحال أنه غير ضروري، فآلية روح هذا التمساح بسيطة للغاية، ومن السهل عليه زرع الشكوك داخل ذهنه، والايحاء إليه بأن هذا الكائن الذي يقف على قدمين أكثر خطورة بكثير مما يبدو. غاص التمساح بهدوء إلى طين الأعماق حيث شعر بالأمان.

سار نيال جنوباً بامتداد ضفة النهر حتى وصل إلى المكان الذي عبر منه ليلة أمس. لم يجد أية كائنات كبيرة هنا، حيث المياه ضحلة، بل مئات من الكائنات الصغيرة تعيش تحت الشجرة التي سقطت في هذا المكان من النهر، وعاقت إلى حد ما تدفق المياه. وبدت الكائنات مثل سرب من اليراعات متعددة الألوان، تتدافع حول بيتها. لكنه أدرك، وهو يخوض ببطء في الماء، وقد رفع ذراعيه إلى رأسه ليحافظ على توازنه، وجود كائن ضخم يبعد بضع مئات من الأمتار عنه، وقد بدأ يخرج بهدوء من الطين ليسبح نحوه. إلا أنه فشل هذه المرة في الإيحاء له بخطورته، لكن جهازه العصبي كان في غاية البساطة مما جعل من السهل تشويشه برسائل كاذبة جعلته يتقدم نحوه ببطء شديد. وحين خرج نيال من النهر، بعد أن وصل إلى الضفة الأخرى، لمح وهو ينظر خلفه شيئاً بدا مثل كتلة تتلوى من الأعشاب الرمادية، يكسوها طين لزج، برزت فوق السطح، للحظة، حين ألقى بها التيار فوق جذع شجرة.

كان دوجنز مستلقياً على ظهره، فمه مفتوح، ويشخر بهدوء، وقد غطاه الرداء المعدني من رأسه حتى أخمص قدميه. استطاع نيال أن يعرف، من خلال سبر غور ذهنه النائم، أنه ما يزال يعاني من الإجهاد، ويحتاج لساعات نوم عديدة أخرى، ولكن من الصعب تحقيق ذلك، فهذا المكان في غاية الخطورة.

فتح نيال كيسه الذي غطاه الندى، وأخرج قارورة الماء الذي كان بارداً منعشاً، لا

بد وأن الليل كان أبرد مما أعتقد. ثم تناول قطعة من الفطير الجاف امتد خط الأشجار، بفروعها المتشابكة، وجذورها المتداخلة، في كلا الاتجاهين لأميال عديدة، فإلى الجنوب امتدت الأشجار حتى تداخلت مع الغابة، وإلى الشمال حتى المستنقعات. وسيستغرق الدوران حول هذه الأشجار معظم ساعات اليوم، فإنه من الأسهل أن يعودا من الطريق الذي جاءا منه. وسوف يحمي الرداء المعدني أحدهما. فهل سيكون من الممكن استخدام كل قطع القماش الإضافية لعمل رداء مؤقت يحمي الآخر؟ ألقى ببطانيته وردائه الإضافي على الأرض، ثم وجد أن ذلك يتجاوز مهارتها. قد يكون بمقدور خياط ماهر تحقيق ذلك، ولكنهما لن يتمكنا من القيام بأي شيء، خاصة وأنه ليس بحوزتها خيط وإبرة.

انتعشت آماله عندما وصل إلى فجوة بين الأشجار. كان النسيم قد دفع غبار الطَّلع ليتجمع في أكوام على هيئة رمل متراكم. تشكلت قطرات لامعة من الندى فوق هذه الأكوام. من المحتمل أن يكون الندى قد أثر في الغبار فحوله الى مستحلب يتعذر تطايره. انحنى للأمام، ولمس بحذر أقرب كومة بطرف سبابته، ثم فرك الغبار الأصفر الدقيق بين سبابته وإبهامه. أحس بملمسه اللزج، وشعر بالابتهاج لأنه لم يعد شديد اللزوجة. انحنى بحرص وأخذ مقداراً ضئيلاً من الغبار بين إبهامه وسبابته وفركه على ظهر يده. ورغم ذلك لم يشعر بأي شيء يثير القلق. انتظر لبضع دقائق حتى اقتنع بأنه ليس هناك أي تأثير مؤجل، ثم أخذ مقدار ضئيلاً آخر، كاختبار أخير، واستنشقه بأنفه فعطس، لكنه لم. يشعر بأي التهاب، ولم يظهر له أي تأثير. نهض واقفاً وراح يضحك مبتهجاً. ثم ذهب وهز دوجنز من كتفه.

- بلدو، استيقظ!

تثاءب دوجنز، وفتح عينيه ببطء، وحدق في نيال، للحظة، دون أن يتعرف عليه. ثم تذكر المكان الذي هو فيه، وجلس.

سأله نيال: هل أنت على ما يرام؟

- أظن ذلك.

ثم نظر إلى ذراعيه اللتين ما زالتا تغطيهما بقع حمراء، وقال: إن هذه البقع تؤلمني، على أية حال. هل لك أن تناولني قارورة الماء؟

أخذ رشفة كبيرة من قارورته، ثم أزاح الرداء المعدني عنه، وأمال رأسه إلى الخلف، ونظر إلى امبراطورة النباتات. ارتسمت وهو يحدق فيها ابتسامة على شفتيه عكست ما يشعر به من حقد، وأشار إليها قائلاً: هذه هي التي نبحث عنها.

ـ ما الذي يجعلك متيقن بهذا الشكل؟
ـ لا أدري. إحساسي يؤكد لي ذلك.

ونظر إلى الأرض، وقال: أين الأسلحة الحاصدة؟

قال نيـال وهو يطوي الرداء المعدني: ألقيت بها في النهر.

ظن أنه يداعبـه فقال: بالله عليك، أين هي؟

ـ قلت لك إني ألقيت بها في النهر.

نظر دوجنز في وجهـه فعرف من ملامحه أنه جاد. حدق فيه غير مصـدق وقال:

ـ ولكن لِمَ؟

ـ لأنها الطريقة الوحيـدة التي تضمن لنا الخروج من هذا المكان حيّيْنْ.

صاح دوجنز باستغراب: حيّان؟

واندفع نحو حافة النهر، وخشي نيال، للحظة، أن يقفز في الماء. كـانت هناك دوامـة، وبدا ظهر تمساح فوق السطح. ارتد دوجنـز ووقف محدقاً، وقد استعد للتقهقر، حتى غـاص الكائن مرة أخرى. التفت لنيال في إيماءة يـأس وسأله:

ـ وكيف سنخرج من هذا المكان اللعين بدون أسلحة؟
ـ قد يكون ذلك أسهل مما تظن.

فوجىء دوجنز بالثقة الواضحة في نبرة صوتـه فقال: لِمَ؟

ـ أشار إلى خط الأشجـار وقال: لعلها تريد التخلص منا: ما هو الغرض من وجودها على ما تعتقد؟

ضحك دوجنز ساخـراً وقال: لتعرقل خروجنا من هذا المكان!

قال نيال بهدوء: لا. لتوقف دخولنا إليه. إنها تريدنا أن نرحل.

واتجه نحو الفجوة بين الأشجار، وأخذ حفنة من غبار الـطَّلـع وتركـه ينساب من بـين أصابعه إلى الأرض وقال: إنه غير مُضر الآن.

ثم عـاد ودلك ذراع دوجنز ببعض الغبـار وقال: «أترى، إنه لم يعد يلهب الجلد».

هز دوجنز ذراعـه وأخذ يحدق فيه بعصبية. ثم ندت عنه ابتسامـة عكست ارتياحـه. وقال متهللاً: لنخرج من هذا المكان قبل أن يغير رأيه!

جمعا حاجياتهما بسرعة، وبعد بضع دقائق كانا يشقان طريقهـما ببطء بين الأشجـار. لم

يكن حذرهما ضرورياً، فقد بدا غبار الطَّلع الآن هامداً، بل إنه لم يتصاعد في الأماكن التي يتراكم فيها كثيفاً على الأرض ليتحول إلى سحب خانقة، رغم مرورهما فوقه بأقدامهما. لكن نيال لم يشعر بالإرتياح إلا بعد وصولهما إلى الجانب البعيد، حيث أحس، ببصيرته الحادة، بالعداء الذي تكنه الأشجار لهؤلاء المتطفلين الذين يتسمون بالعنف.

امتد أمامهما الطريق الرمادي الشديد الانحدار الذي تتخلله آلاف القنوات المائية التي جعلت السير صعباً. راح دوجنز يتنفس بصعوبة بعد أن قطعا نصف الطريق في صعود التل. وأصبح وجهه في غاية الشحوب. تأوه وضغط جنبه بيده.

- سأضطر للتوقف. أشعر بألم في جنبي.

جلسا معاً على الأرض الصلبة، وكان من الصعب العثور على موضع مريح. فاضطرا للتشبث بالأرض بأعقاب أقدامهما كي لا ينزلقا. بدا دوجنز مستنزفاً، وأصبح خداه غائرين، ولاحت وجنتاه أكثر بروزاً مما كانتا عليه بالأمس.

قال نيال: أتريد أن تعرف الطريقة التي تستعيد بها طاقتك؟

هز دوجنز كتفيه، وأغمض عينيه وقال: كيف؟

- استخدم مرآة التأمل!

قال دوجنز باكتئاب: إنها ستزيد الأمر سوءاً.

- لا. لن يحدث ذلك. أدرها للداخل، وحاول تركيز طاقاتك داخل نفسك!

مد دوجنز يده بضجر داخل ردائه وقلب المرآة. وأطلق زفرة ألم بعد لحظة.

- إنها تؤلمني!

- أعرف ذلك. ولكن استمر!

أطبق دوجنز أسنانه، وأغمض عينيه نصف إغماض، وأخذت قطرات العرق تتحدر فوق جبهته. استمر في تركيز طاقاته رغم الألم الواضح. راح يتنفس بصعوبة، ثم زفر زفرة بطيئة. توردت وجنتاه بعد أن استرخت عضلات وجهه. فتح عينيه ونظر إلى نيال وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة عكست دهشته.

- ذلك مدهش! ما الذي حدث؟

- إنه لم يكن الإجهاد الذي شعرت به. لقد اعترتك حالة من اليأس والإحباط، مما أدى إلى تزايد شعورك بالإجهاد.

- أين تعلمت ذلك؟

- بالتجربة.

نهض دوجنز واقفاً، وقال: حسناً، لنواصل سيرنا!

وصلا، بعد نصف ساعة، إلى مشارف الغابة التي جعلتهما ألوانها المتعددة الغنية يشعران بالراحة، بعد أن تعودا على لون المنحدر الرمادي. أدخل العشب الكثيف الناعم الذي يسيران فوقه البهجة إلى قلبيهما. ولاحظ نيال أن الشذا أكثر تنوعاً من ذي قبل، بعد أن كان بالأمس ثقيلاً غريباً كشذا حديقة شرقية، أما الآن فإن الروائح خفيفة، مما جعلهما يشعران بانتشاء غريب، ورغبة في الضحك. وجد أنه لا يستطيع تصديق أن سيمفونية الشذا هذه موجودة في ذهنه فقط، فبذل جهداً ليفسر ذلك برؤيته المزدوجة ففهم في الحال. لقد كانت النباتات منتشية لأن هؤلاء الغرباء غير مسلحين، وراحت تصب شعورها بالراحة في فيضان من المعنويات المرتفعة. وعندما نظر إليها بعينيه الأخريين بدت ألوانها الشاحبة، لكنه بات مدركاً للجذور والفروع والسائل الذي يجري في أوعيتها مثل ضوء أخضر. كان بوسعه أن يرى أيضاً الهواء وقد امتلأ برذاذ متألق من السعادة التي هبطت عليهما مثل الرذاذ المتناثر من نافورة، وهذه السعادة هي التي فسرتها حواسه بأنها الشذا دائم التغير.

صُدم حين ألقى نظرة سريعة على دوجنز. فقد أصبح هو الآخر شفافاً، مما جعله يتغلغل في لحمه، ويرى تفاصيل هيكله العظمى. رأى بوضوح الشرايين والأوردة وحركة القلب وهو يضخ الدم. لكنه لاحظ أيضاً أن القلب مسؤول عن نسيج متدفق من اللون غمر الجسم كله وامتد إلى ما وراءه. كان مزيجاً من الأحمر والبرتقالي والأصفر، ولكن طغى عليها اللون الأزرق والأخضر التفاحي، وبدا أن نبضات القلب تغذيه. وبينما راح دوجنز يستجيب للمرح الذي غمر الجو من حوله، أخذ المد اللوني يفيض بشكل أكبر وأكبر ليتجاوز حدود جسمه، حتى امتد ست بوصات بعيداً عن سطح جلده. لاحظ نيال ذلك لبضع لحظات فقط، ثم تلاشت رؤيته المزدوجة، وبات العالم مرة أخرى طبيعياً. فهم أن ذلك كان ضرورياً ـ فرؤيته لعالمين في وقت واحد مجرد تبديد لطاقاته ـ لكنها خلفت وراءها مسحة أسف.

شاهدا على الجانب البعيد من الغابة منحدراً تكسوه الأعشاب السميكة السلكية، برزت عند قمته أصابع جرانيتية. لاحظ نيال تغيراً في أحاسيسه وهو يرى امتزاج الأعشاب الغنية الرقيقة بهذه الأعشاب الخشنة. شعر كما لو أنه يتعرض لرياح باردة شديدة. كان قد اعتراهما، في آخر مرة لهما فوق هذا المنحدر، إحساس بضيق الصدر والاختناق، الأمر الذي فسره نيال على أنه تدخل متعمد للعشب في جهازيهما العصبيين. راح العشب يرسل الآن موجات القوة العنيفة وجدها في لحظات معينة مُنشطة، أدرك ذهنه أنها تحتوي على عنصر وحشي غريب. جعلته ومضة خاطفة من الرؤية المزدوجة يفهم أن هذه القوة تتجمع من

الأرض نفسها، وأنها مثل ريح سوداء، تندفع من قاعدة التل الجرانيتية. كانت طاقة الحياة في جسميهـما في غاية المهارة، الأمر الذي حـال دون استجابتهـا للتيـار الـوحشي، ولكن لأنهما مجهـدان فإن جسميهما قاما بتعديـل وضعهما لـلاستفادة من الـطاقة الخـام التي بدت مميـزة كالرائحة، وجعلت نيال يفكر في جلمود يتعرض لرذاذ شـلال ماء. بـدا أنه يحمـل إليه شـذا الأرض نفسهـا ـ ليس سطحهـا، ولكن داخلها الصخـري المحترق، حيث أحـدثت الضغوط الهائلة دوامة من الطاقة المغناطيسية. اعتراه، للحظة، شعور بالسخط والبؤس، وبـدا من غير المنطقي أن تكون حواس الإنسان محدودة بهذا الشكـــل الذي لا يجعله يـرى التنوع الغـريب للقوى المحيطة به. ولكن سرعان ما حل مكان هذا الشعـور اعتراف بأن هذه المحدودية قـد اختارها الإنسان لنفسه، ويمكن أن يستبدلها، إذا شـاء، بشكل من أشكـال الوعي أكـثر ثراء وتطوراً.

انتاب نيال، وهما يجتازان الفجـوة التي قتلا عنـدها الكـائن العظائي العمـلاق، شعور بالذعر عندما رأى عظامه البيضـاء وهي تتـلألأ تحت، أشعة الشمس. ولكن عنـدما استخـدم عينيه الأخرييـن لاحظ بارتياح أنها بالفعل مجرد هيكل عظمي لحيوان نافق، وأنـه لم يتبق أي أثر، ولو طفيف، للحم.

وحين وصلا إلى قمة التـل توقفا لالتقاط الأنفاس. جلس نيـال على العشـب دون أن يفكر، فشعر بوخز خفيف أثار نشوتـه في الأماكن التي لامس فيها جلده الرطب، لكنـه بدا مع ذلـك مثل أي عشب عادي.

ألقى دوجنز عليه نظرة متسائلة، ثم جلس هو الآخر.

ـ هل نسيت؟

هز نيال رأسـه وقال: ليس تماماً.

كـان في الواقـع قد نسي، لكنـه عرف أيضـاً، بعقله الباطن، أن العشب أصبـح آمنـاً الآن.

أخذا يحدقان في المستنقعات البنيـة المليئة بنبـاتات القصب الطويلـة التي تقطع عنـد التلال البعيـدة حيث ينتـظرهما رفيقـاهما الآخـران، فشعرا بالحمـاس لأنهما بـاتا قـريبين من هدفهما.

رمقه دوجنز بطرف عينـه وقال: تعرف شيئاً لا أعرفه. ما هو؟

لم يتـظاهر نيـال بعدم الفهم، فقـد كان ينتـظر منـه هـذا السـؤال منـذ أن بـدأ رحلة

العودة قبل ساعتين. أشار إلى تجويف الدلتا بغاباتها التي يتصاعد البخار منها، ومستنقعاتها الرطبة، وقال:

ـ تعتبر العناكب والخنافس هذا المكان مقدساً، إنه معبد الإلهة نوادا. لقد دخلناه مسلحين بأسلحة الدمار، وكانت الدلتا تتأهب لإفنائنا. ولكن بعد أن تخلصنا من هذه الأسلحة فإن الإلهة تسمح لنا بالذهاب في سلام.

قال دوجنز بتؤدة: لقد مر وقت كنت فيه مثل ساحر يحاول اكتشاف المخبوء.

هز نيال رأسه وقال: لم يكن هذا سحراً، إنه مجرد إحساس.

ثم نهض واقفاً وأضاف: من الأفضل أن نتحرك إذا أردنا الوصول قبل حلول الظلام.

لم يطرأ أي شيء خلال الجزء الثاني من رحلتهما. فعندما وصلا إلى المستنقعات سارا في الطريق الممهد وسط عيدان القصب. ضربتهما أشعة الشمس التي توسطت السماء الزرقاء، وبدت تموج بالطاقة، لكنهما لم يشعرا بالإجهاد، فقد كانت هناك قوة داخلية ما تدفعهما. راحت يعاسيب يزيد طولها عن متر تئز حولهما، ثم تطير لأعلى مرة أخرى لتثير تياراً هوائياً بأجنحتها القوية. وأخذ البعوض، في المستنقعات، يحدث ضجة صاخبة، وهو يئز حول رأسيهما، مما جعلهما يجفلان في بعض الأحيان، خاصة عندما يطير بالقرب من أذنيهما. لكن أحدهما لم يتعرض لقرصة واحدة.

لاحظ نيال، حين هبطت الشمس نحو التلال الغربية، أن الحشرات باتت أقل نشاطاً، بل إن تغريد الطيور خفت كثيراً. كما أحس هو نفسه بتثاقل لذيذ في أطرافه. لقد سحبت امبراطورة النباتات طاقاتها لتغرب مع الشمس، وكانت رغبته في النوم دليلاً على مدى تأثير ذبذبة النبات. لكنه تمكن، بعد أن قلب مرآة التأمل، من استعادة حذره وتركيزه. وعلى عكس كائنات الدلتا الأخرى فهو لا يعتمد على طاقات امبراطورة النباتات لأن مصدر طاقته ينبع من داخله.

كان بوسعه، عندما حل الغسق، رؤية قمم عيدان القصب، والمنطقة الخضراء، التي امتدت بين المستنقعات، وخط الأشجار عند قاعدة التل الشرقية. وشاهدا كلاهما، حين خرجا من وسط القصب، الشرر المتصاعد الذي يدل على النار المشتعلة عند المخيم. توقف دوجنز ووضع يده عند فمه وصاح: «سيميون». ارتد صدى الصوت من جانب التلال، وأثار ذعر الطيور التي حلقت فوق قمم الأشجار. تناهى إلى مسامعهما بعد لحظة صوت واهن يرد على النداء. شاهدا، وهما يهرعان صاعدين التل نحو الأشجار، ضوءاً يتقدم

باتجاهها. ثم وجدا سيميون يقف أمامها حاملاً مشعلاً. وعندما باتا على بعد عشرة أمتار وضع المشعل بحذر على الأرض، ثم جرى نحوهما واحتضنهما. احتضن نيال بشدة فكادت ضلوعه تتكسر.

ـ الحمد لله على عودتكما. لقد اعتقدنا أننا لن نراكما مرة أخرى.

كان الصوت أجش ومتزناً كالمعتاد، لكنه يخفي الكثير من الإرتياح. أضاء اللهب المتصاعد من النار المكان كما لو كان الوقت نهاراً. إلا أن نيال لاحظ بنظرة خاطفة أنه لم يحدث أي تغيير منذ أن غادرا المكان؛ فميلو ما يزال مستلقياً فوق فراش من أوراق الشجر والأعشاب، وملفوفاً في البطاطين، ومانيثو يقف بجوار النار وهو يبتسم، ولكن عندما تحرك نحوهما مشى بخطوات رجل أعمى. لاحظ نيال، وهو يحتضنه، وجود مقلتين بيضاوين تحت الرموش المتورمة.

استرخى نيال بعد نصف ساعة، وجلس فوق فراش من فروع الأشجار، واحتسى قدحاً من النبيذ، وأخذ يتابع سيميون وهو يقطع الخضراوات لإعداد الطعام. وجد بجواره على الأرض جلد حيوان كان قد اصطاده صباح اليوم وهو يغلي لحمه الآن في قدر الطعام. كان له فنطيسة خنزير، لكنه تغطى بفراء رمادي ناعم، وله قائمتان خلفيتان طويلتان وقويتان تماثلان قائمتي الأرنب. أسالت الرائحة التي تهب من القدر لعابه.

طرح دوجنز على ميلو سؤالاً، وعندما لم يتلق رداً اكتشف أنه قد ارتاح في النوم. قال سيميون بهدوء: إنه على هذا الحال منذ رحيلكما، يقضي معظم وقته نائماً.

ـ حتى يتحسن ويتمكن من استئناف السير على ما تظن؟

ـ ليس قبل بضعة أيام.

ـ إذن سيتعين أن نصنع له نقالة ونحمله. لا نستطيع أن ننتظر كل هذا الوقت.

صب سيميون الخضراوات والجذور في قدر الطعام وقال:

ـ هل هناك أي سبب يستدعي إسراعنا في العودة؟

هز دوجنز رأسه، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يعترف فيها، ولو ضمنياً، بأن المهمة قد باءت بالفشل، وقال:

ـ ليس بوسعنا البقاء بعيداً عن المدينة لفترة طويلة؛ فلا أحد يعرف ما الذي قد تفعله الحشرات.

غلب النعاس نيال من تأثير الجو الدافىء الذي أحدثته النار، إنه لم ينم منذ ثمانٍ وأربعين ساعة. ورغم أن ذهنه امتلأ بأصوات النوم فإن حاسة ما بداخله رفضت أن يتخلى عن وعيه.

بدأ للحظة أنه يحوم فوق موطن أرواح مظلم ليس له أية ملامح مميزة، مثلما الفضاء الخارجي. ثم أدرك أنه ينزلق من جديد في حالة أشبه بالحلم، وقد أحس بذبذبة امبراطورة النباتات. ولكن لم يكن هناك أي اتصال هذه المرة، بل ولا يبدو حتى أنها تدرك وجوده. إلا أن ذبذبتها الليلية الناعمة جعلته يشعر بالسلام. وأدرك أن هذا هو الغرض منها تحقيق الاسترخاء، وتجديد نشاط القوى الحيوية.

ثم بدا أن وعيه قد امتد ليشمل الآخرين، واعتراه إحساس حاد بالقلق، كما لو أن ريحاً باردة تستنزف دفئه. تمكن بعد لحظة من اكتشاف مصدرين لذلك. الأول هو مانيثو الذي كان يجلس هادئاً بجوار النار يصغي للحديث، فقد تملكه يأس أسود نظراً لأنه يشعر بدفء النار لكنه لا يراها، كما انهارت شجاعته عندما فكر في احتمال أن يقضي بقية حياته في هذا الظلام.

أما المصدر الآخر للقلق فهو ميلو المستغرق في نوم عميق. أدرك نيال، فجأة، ما يعانيه من متاعب؛ فليس السم هو الذي يستنزف حيويته وإنما نوع من الفطريات الحية تجري في أوعيته الدموية. وهذا الفطر هو جزء من سائل شجرة الأرجوان، وهو من الطفيليات. وكلما جدد حيويته بالغذاء والنوم استنزف الفطر هذه الحيوية المتجددة مرة أخرى، وشعر ميلو باليأس إزاء هذا الفطر، نظراً لأن قواه الحيوية كانت على مستوى أعلى من قوى هذا الطفيل، كما تفتقر الى قوة الانتقام.

بدت الإجابة واضحة بالنسبة لنيال. فميلو بحاجة إلى أن يتناغم مع ذبذبة امبراطورة النباتات التي بوسعها مهاجمة الطفيل بمستوى قواه. لكن ميلو عاجز تماماً عن القيام بهذه المهمة، كما أنه غير واع بقوة ذهنه ليقوم بالسيطرة على استجاباته الحيوية.

ولكن ذهنه في حالة سلبية الآن، فهو غارق في نوم منهك. ترك نيال قواه الحيوية تمتزج بقوى ميلو حتى باتا متزامنين. ثم راح يهدىء من أعصابه المتوترة للغاية، ويضفي على معنوياته المتنافرة حالة من الاسترخاء. كانت مشكلة ميلو تكمن في أنه قضى حياته في مدينة الخنافس التي تكفل له كل الحماية، فلم تكن هناك حاجة لاستدعاء طاقاته العميقة. ولذلك فإنه يشعر الآن باليأس. ونظراً لأن مستوى ذهنه لا يزيد كثيراً عن ذهن صبي فإنه من السهل التأثير فيه. ولما أصبح تنفسه هادئاً ومنتظماً استرخى كيانه حتى وصل إلى معدل ذبذبة امبراطورة النباتات، ثم بدأت الطاقة تتدفق بهدوء إلى أوعيته الدموية لتوقظ مقاومة قواه الحيوية. أدرك نيال، عند هذه المرحلة، أن بمقدوره أن يتركه لإرادته.

هزه سيميون من كتفه وقال له: هل أنت مستعد لتناول طعامك؟

تثاءب وأجبر نفسه على الجلوس، فناوله سيميون وعاءً به «يخنة» ساخنة وقطعة

خبز. باتت النار كتلة من الجمرات راحت تشتعل في وسطها بضعة ألواح من الخشب الذي أضيف إليها.

ـ كم ساعة نمت؟

ـ نحو ساعتين أو ثلاث ساعات.

سمعا صوتاً آتياً من وسط الظلال يقول: هل تبقى أي شيء من الطعام.

نظر سيميون حوله في دهشة وقال: هل استيقظت يا ميلو؟ لدينا الكثير من اليخنة. هل أنت جائع؟

قال ميلو بحزم ووضوح: أتضور جوعاً. تبادل دوجنز وسيميون النظرات، وراح سيميون يملأ الوعاء باليخنة.

ـ إبق مكانك! سوف أحضر الطعام إليك.

ـ لا أريد أن أبقى هنا. لقد استلقيت بما فيه الكفاية.

ونهض واقفاً على نحو مفاجىء. كان رداؤه متجعداً، وشعره أشعث، لكن خديه كانا قد توردا أخذ يضحك، ثم قال وهو ينظر الى جلد الحيوان:

ـ ما هذا الكائن المرعب؟

ـ إنه الذي ستأكل لحمه، قد يبدو غريباً، لكنه لذيذ المذاق. تناول ميلو الوعاء، وأخرج قائمة بأصابعه وراح يقضمها وهو يقول:

ـ لذيذة، إنها أفضل من لحم أرنب.

في الواقع كان للحم الكائن الغريب مذاق لذيذ وكأنه لحم خروف مشوي.

سأله دوجنز: أتظن أنه بوسعك استئناف السير غداً؟

ازدرد ميلو طعامه وأومأ بحماس قائلاً: نعم، فقد أخذت كفايتي من هذا المكان.

ـ إذن سننطلق عند الفجر.

حدق سيميون ودوجنز في ميلو، وهو يتناول طعامه، غير مصدقين ما حدث له من تحول. ركز ميلو، وهو لا يدري أنه عاد لتوه من على حافة الموت، في طعامه بانهماك طفل جائع.

أتى نيال على حسائه، وابتلع البقية الباقية في الوعاء، ثم استلقى ولف بطانية حول كتفيه واستغرق، في غضون لحظات، في نوم عميق هادىء.

وحين فتح عينيه كان القمر ما يزال فوق رأسه، والسماء زرقاء، فعرف أن الفجر على

وشـك الانبلاج. وجـد الآخرين يحـزمون أمتعتهـم ويلفـون بطاطينهم، وقـد تركـوه لينعم بقسط أكبر من النوم.

تناولوا وجبة إفطار خفيفـة من الفطائـر الجافـة والفاكهـة، وجلسوا حـول نار صغـيرة. وعندما أخـذ ضوء الفجـر يتغلغل في السـماء راحت الطيـور تغرد، وأوراق الأشجـار تحدث خشخشة بفعل نسائم الفجر. بدا سيميون ودوجنـز وقد استغرقهما التفكير، فخمن نيال أنهما يفكران فيما سيحدث عندما يعودون إلى المدينة.

ارتسمت على وجه ميلو ابتسامة مرحة. من الواضح أنه يشعر بالابتهاج لأنه سيعود إلى وطنه. حدق مانيثو أمامه مباشـرة وهو يأكل، وكـان يتكلم عندمـا يخاطبـه أحد فقط. أشفق نيال عليـه وهو ينظر إلى وجهه الجامد.

تساءل سيميون: هل قررنا أي طريق سنسلك؟

قال دوجنز: أظن أنه يتعين علينا العودة من الطريق الذي جئنا منه.

رد نيال متردداً: ولِمَ لا نسلك طريق الوادي مباشرة؟

قـطب سيميـون وقـال: إنـه كـثر خـطورة. فهنـاك أفـاعي المستنقعـات، ونبـاتـات «الأورتيس»، والحشرات مصاصة الدماء، وغيـرها لا يعلمها إلا الله.

وألقى نظرة على مانيثـو وكأنه يقول: ليس من حقنا أن نخاطـر ومعنا رجل أعمى.

قال ميلـو كما لو أنه قد قرأ أفكار سيميون: لا أبالي المخاطر.

التفت دوجنز إلى نيـال وسأله: ما رأيك؟

فكـر نيال في الأمـر وقال: لا أظن أننـا سنتعـرض لأي أذى إذا مـا سلكنـا طـريق الوادي.

ألقى سيميون نظرة متسـائلة على دوجنـز الذي قـال: إذا كان نيـال يعتقد أنـه طريق آمـن فإني مستعد لخوض التجربة.

هز سيميون كتفيـه ونظر إليـه وكأنه يقول: في هذه الحالة لا تلمني.

انطلقوا بعد عشر دقائـق حـين أصبحت الشمس فوق أشجـار الصنوبـر السامقـة على قمة التل، والسديم يتصاعد من المستنقعات والغابة. بـدت امبراطـورة النباتـات مثل وجـه عظيم يحدق باتجاه البحر، وانسدل شعرها الطويل على كتفيها. أحس نيـال وهو ينظر إليـها بقوة غريبـة تتدفق من خلال جلـده لتثير شعوراً بالابتهاج، ورؤية خـاطفة لأمـاكن أخرى.

استمر ذلك الإحساس للحظة فقط، لكنه خلف وهج ثقة وحبوراً. كما جعله يدرك أن موقفه تجاه القوة قد تغير. فمنذ يومين كان يراها عادية، غير مقنعة. أما الآن فقد عرف أن الغرض من بثها ليس مصلحته الشخصية، ولكن بوسعه أن يستمتع بها مثل الريح أو البحر.

ساروا نحو الشمال باتجاه البحر، وسط شريط من الأعشاب يفصل بين عيدان القصب الطويلة والغابة. ومشوا فرادى، سيميون في المقدمة، يليه دوجنز، ثم مانيثو ونيال وميلو. كان تقدمهم بطيئاً، إذ لم تكن الأرض مستوية، كما سدت الشجيرات الطريق أمامهم أحياناً، بينما اضطروا لاقتياد مانيثو من ذراعه. لم يكن أحد يريد أن يظهر أي قلق، وأصر مانيثو على الاعتقاد بأنه يرى أشكالاً معتمة في ضوء الشمس، ومن الواضح أنه أراد الاعتقاد بأن نظره سيعود إليه، لكنه راح يتخبط ويتعثر.

بعد ميل حلت المستنقعات ببرك مياهها المكتسية بالزبد وكتل الأعشاب شديدة الاخضرار محل القصب، وباتت التربة، تحت أقدامهم، ناعمة ولينة. كما تغير شكل الغابة. فقد أصبحت الأشجار، عن يمينهم ملتوية وقصيرة، وانتشرت الشجيرات الشوكية التي من بينها تعرف نيال على الشجيرة السيفية الخطيرة بثمارها الصفراء الملطخة باللون البنفسجي. كما رأى بجانبها شجرة أكبر ذات أوراق صفراء ريانة، وثمار خضراء داكنة تشبه نباتات اليقطين، وكل واحدة بحجم ليمون الجنة الكبير. انشق بعض هذه الثمار فبدا لونها مرجانياً من الداخل، وبها بذور ضخمة وسائل غليظ القوام راح يتساقط على الأرض. كانت الرائحة قوية ولذيذة على نحو يفوق الوصف. سأل نيال سيميون:

- هل تعرف اسم هذه الشجيرات؟
- لا. لكنني لا أثق فيها.
- ولِمَ لا؟
- لأن ثمارها طيبة المذاق للغاية.

توقفوا ليستمتعوا بالرائحة الغنية. انفتحت إحدى الثمار وانفصل نصفاها ببطء لتصبح مثل فم مفتوح. حطت حشرة عصوية جذبتها الرائحة المثيرة فوق قشرة النبات، ومالت برأسها لتتذوق العصير غليظ القوام. فتحولت الثمرة، على نحو مفاجيء، إلى كرة مرة أخرى، وراحت الحشرة تتخبط بعنف وقد انحشر رأسها داخل الفم، الذي أطبق عليها في غمضة عين. أدركوا أن النبات يتمتع بقدرة على الامتصاص، إذ راحت تسحب الحشرة بوصة وراء أخرى إلى أن اختفت قائمتاها الخلفيتان المتخبطتان.

قال ميلو: ألا يستطيع حقاً إلحاق الأذى بالبشر؟

هز سيميون رأسه وقال: لا أستطيع التخمين.

بذل نيال جهداً لفهم الشجيرة برؤيته المزدوجة. ما رآه جعل جلده ينكمش من الذعر. فقد أفرزت الشجيرة، فجأة، هواء عابقاً بالتهديد كعنكبوت موت يستعد لغرس مخالبه في ضحيته. فقد رأى، تحت الأوراق الضخمة الريانة التي بدت غير ضارة من الخارج، أن الفروع مرنة وملتفة مثل المجسات، وأن لكل فرع زبانياً مختفياً عند طرفه. أحس بإحباط الشجيرة وهم يبتعدون عنها، فقد كانت تنتظر أن يقترب أحد منهم ويحاول قطف ثمرة من ثمارها.

باتت الأرض لينة بشكل متزايد، وكلما هبطوا في حوض عريض ضحل تزايدت ليونة التربة تحت أقدامهم لتغوص حتى العقب مع كل خطوة. كان من الضروري شد الأربطة حول أعلى أحذيتهم كي لا تنخلع. كان بمقدورهم الانتقال إلى أرض صلبة بالسير نحو التل إلى الأشجار، لكنهم شعروا، بشكل غريزي، أن خطراً يتهددهم هناك. فمعظم الأرض تحت الأشجار تغطيها أعشاب متشابكة، أو طبقة رقيقة من الطحالب الخضراء. خمن نيال، نتيجة للمعرفة التي كونها عن الدلتا، أن معظم هذه الأماكن تخفي مخاضاً، وانه من الأسلم السير وسط المستنقعات، رغم أن كل خطوة فيها تثير رائحة عطنة. وحين بذل جهداً لتنشيط الرؤية المزدوجة التي باتت مسألة صعبة بعد تزايد إجهاده أحس بأن هناك عيوناً خفية تتفحصهم. لكنه لم ير أي كائن حي بخلاف الطيور والأفاعي.

أصبح تقدمهم بطيئاً، بعد ساعتين، حين أصبحت الشمس فوق رؤوسهم، وشعروا بالتعب، وراح نيال يتساءل عما إذا كان اختيار الوادي قراراً حكيماً. ثم لاحظوا أن الأرض قد باتت صلبة بعد أن أخذت في الارتفاع، وأن عشب المستنقعات الشوكي قد أفسح مجالاً لعشب خشن نما فوق تربة رملية. وجدوا أنفسهم، فجأة، فوق قمة بروز غير مرتفع يطل على بركة ماء تبعد عنهم نحو خمسمائة متر وتحيط بها الشجيرات. ألقى دوجنز بكيسه على الأرض، وتمدد بجانبها، وقد تنهد بارتياح قائلاً:

ـ أظن أننا نستحق فترة راحة.

أشار ميلو بإصبعه وقال: ما هذا؟

رأوا، عند حافة الغابة، شجرة ملتوية ذات أوراق رمادية شوكية وقد ظهر أحد الزواحف بلونه البرتقالي الأحمر الزاهي، بين ألوانها الباهتة، وقد التف حول الجذع وتلطخ ببقع خضراء وصفراء ـ فبدا مثل نوع من الفطريات. وتدلت من فوق رأس الزاحف الذي

اختفى بين فروع الشجيرة عناقيد عديدة من الفاكهة الخضراء شبه الشفافة، تماثل عناقيد العنب.

أمسك سيميون بذراعي ميلو وهو يحاول التقدم نحو الشجرة وقال له:

ـ كن على حذر!

ـ لا تخف.

حمل ميلو الحاصد وضبطه على وضع الاستعداد، وسار نحو الشجرة. ذهب نيال معه وقد فتنته الألوان الصارخة، ولحق بهما سيميون. كان الكائن الزاحف جميلاً لا شك في ذلك، فألوانه متعددة غنية مثل الأشجار وسط جو خريفي. مال سيميون للأمام، وأخذ يحدق في عناقيد العنب.

ـ لا أدري ما إذا كانت صالحة للأكل؟

بذل نيال جهداً لتركيز رؤيته المزدوجة، لكن تعبه جعل المهمة صعبة، واضطر لشد عضلات وجهه وزيادة معدل تركيزه قبل أن يتمكن من تغيير بصيرته الداخلية. ولكن بمجرد أن حدث هذا تغلب عليه إحساس بالخطر؛ فالكائن الزاحف والشجرة كائنان حيان يدركان تماماً وجودهم. أمسك بذراع ميلو وهو يخطو للأمام في محاولة للوصول إلى عناقيد العنب وقال له:

ـ لا تقترب أكثر من هذا!

لم يكد يكمل جملته حتى انحل ذيل الزاحف ـ الذي بدا مطموراً في التربة ـ عن الجذع وتلوى نحو ميلو، والتفت ذيول تشبه الجذور المشعرة حول رسغه. تراجع ميلو بسرعة للخلف، وفقدت الجذور قبضتها. ثم اهتزت الشجرة بأوراقها الجافة كما لو أنها تنتفض مُحبَطة.

قال ميلو: كائن قذر!

ورفع الحاصد واستعد لإطلاق النار، لكن نيال دفع الماسورة لأسفل وقال: لا!

ـ ولِمَ لا؟

وحاول رفع الماسورة مرة أخرى.

دفع نيال الماسورة لأسفل بكلتا يديه حتى أصبحت مصوبة إلى الأرض، فاستسلم ميلو على مضض وقال غاضباً:

ـ لا أرى سبباً يمنعني من إطلاق النار.

ـ أترغب في العودة إلى الساحل حياً؟

ـ بطبيعة الحال.
ـ إذن لا تستخدم حاصدك.

زمجر ميلو، ومضى، ثم جلس.

سأل سيميون نيال: لِمَ تقول هذا؟
ـ لأن كل النباتات مدركة لبعضها. وإذا ما قتلت نباتاً فإن الكل سيشعر بما فعلت.
ـ ولكن أيغير هذا من الأمر شيئاً؟ إن ذلك سيجعلها أكثر حذراً.
ـ هـذا ليس صحيحاً.. إنها أكـثر شراسة من الحيـوانـات البريـة لأنها تفتقـر لميـزة الحركة. وبمجـرد أن يتعرض واحـد منها للقتـل تبدأ الأخـرى في البحث عن وسيلة للقضاء على المتطفل.

سأله سيميون بفضـول بعد أن جلسوا وفتحوا أكياسهم:
ـ كيف عرفت كل هذا؟

هز نيال رأسـه وقال: من الصعب الشرح، لكنني أشعر بذلك.
ـ ألهذا السبب قلت لنا إن من الأسلم استخدام الوادي؟
ـ نعم.

ابتسم دوجنز بسخريـة وقال:
ـ ألهذا السبب ألقيت بسلاحينا في النهر؟

حدق ميلو فيـه وقال: هل ألقيت بالأسلحة في النهر؟

وعندما أومأ نيال بالإيجـاب سأله:
ـ ولكن لِمَ؟

وجد من الصعب اختيار كلمات دقيقة، فقال بعد تردد:
ـ لأنـه إذا أردت البقاء حيـاً في الدلتـا تعيـن أن تصبـح جزءاً منهـا ووجب أن تنال ثقتها.
ـ ولكن ماذا يحدث لو أن شيئاً هاجمك؟

لم ير أي جدوى من الجدل، فذهناهما مختلفان تماماً.

فقال: لا أستطيع توضيح الأمر لك.

لكن سيميون راح ينظر إليـه وقد ارتسم على وجهه تعبير غامـض وقال:
ـ لِمَ لا تجرب؟

أخذ نفساً عميقاً، ولم يكن يعرف من أين يبدأ فقال:

ـ لكل شيء في الدلتا أسلحته الخاصة بالدفاع والهجوم. لكن الأسلحة الحاصدة أقواها على الإطلاق. إنها في غاية القوة، مما يجعلنا نشعر بأمان كاذب.

أحس بأنه لم يعبر عن نفسه بشكل جيد فتساءل سيميون:

ـ قوة كاذبة؟

شعر بالارتياح حين وجد أن ما قاله بدا مفهوماً، فقال:

ـ هذا صحيح. نعم، إنها قوة كاذبة، تجعلنا نشعر بقدرة أكبر من قوتنا الحقيقية.

رد سيميون بهدوء: لكن العناكب طورت قدرة أكبر من تلك التي نتمتع بها.

هز نيال رأسه وقال: إذا كان هذا صحيحاً فإنها تستحق أن تكون سادة الأرض، لكن هذا ليس صحيحاً.

قال دوجنز الذي امتلأ فمه بالطعام: اتركه يتناول طعامه.

لكن سيميون أخذ ينظر إلى نيال باهتمام بالغ وسأله: ماذا تعني بشأن موضوع العناكب؟

إنها لا تمتلك في الواقع قدرات أكبر من قدراتنا. فالمسألة أننا لم نتعلم طريقة استغلال قوانا.

ثم رمق ميلو بنظرة تحدٍ وقال: ولن نتعلم ذلك مطلقاً ما دمنا نعتمد على الأسلحة الحاصدة.

سأله سيميون: ولكن كيف سنستطيع مواجهة العناكب بدون الأسلحة الحاصدة؟ أم إنك لا ترى ضرورة وراء محاربتها؟

قال نيال: يتعين علينا محاربتها، ولكن بطريقتها. وسنضطر، عاجلاً أو آجلاً، إلى تعلم التعايش معها.

نظر دوجنز إليه بدهشة وقال: حسبت أنك تريد إفناءها.

ـ نعم، كنت أريد ذلك. ولكن كان هذا قبل قدومي إلى الدلتا.

سأله سيميون: إذن فإنك تعتقد أنه لا يتعين علينا استخدام أسلحتنا الحاصدة.

ـ يجب ألا نستخدمها.

ـ لِمَ؟

ـ لأننا لو استخدمناها لم نتمكن من القضاء عليها.

ـ سأله ميلو: وماذا عسانا نفعل بالأسلحة الحاصدة؟

هز نيال رأسه وقال: إذا كنتم تريدون معرفة ما أفكر فيه . .

ثم تردد.

فقال سيميون: نعم، نريد.

ـ أعتقد أنه يجب علينا إلقاؤها في البركة.

صاح ميلو بدهشة وأشار سيميون له ليلزم الصمت ثم سأل نيال بهدوء:

ـ وما الذي يمكن أن نجنيه من إلقائها في البركة؟

ـ قد يؤدي ذلك إلى عودة البصر إلى عيني مانيثو.

جفل نيال من الكلمات التي انزلقت من لسانه، وأحس بالأسف لأنه قالها ولم يتمكن من وقفها.

نظر دوجنز إليه شزراً وسأله: أتظن أن هذا يمكن أن يحدث؟

ـ نعم.

قالها نيال وهو يشعر كأنه صبي يريد إنقاذ ماء وجهه. وأحس بالخجل حين نظر إلى مانيثو.

قال سيميون بتؤدة: قد يتعين علينا، في تلك الحالة، خوض التجربة.

انقبض قلب نيال أراد القول بأنه لم يكن يعني ذلك. ثم تكلم مانيثو للمرة الأولى.

ـ لا أريد من أحد التضحية من أجلي.

لم يكن في صوت مانيثو أي انفعال، لكن كلماته كشفت أن نيال قد أعاد إليه الأمل.

تبادلوا النظرات فيما بينهم، ثم نظروا إلى مانيثو. شعروا جميعاً بالذنب لكونه أعمى رغم إمكانية عودة البصر إليه. رفع سيميون عينيه نحو البحر وقال:

ـ لقد تجاوزنا أسوأ مرحلة في رحلتنا. وسوف نصل إلى البحر، إذا حالفنا الحظ، في غضون ساعتين.

حولوا أنظارهم إلى دوجنز الذي تظاهر بالانهماك في الطعام، لكنهم شعروا أنه يدرك أنهم سيطلبون منه اتخاذ قرار.

هز كتفيه، في نهاية المطاف، وقال:

ـ ليكن. افعلوا ما تشاءون!

قال ميلـو وقد اعترته الشكوك: أظن أن هذا جنون!

لم يجبه أحد. فالتفت إلى نيـال وقال:
ـ أتعتقد أن هذا سيساعد أوليس؟

هز نيال رأسه، لكنه لم يحر جواباً.

هز ميلو كتفيه يائساً، ثم أشاح بوجهه.

قدم سيميون سلاحه إلى نيـال وقال:
ـ هل لك أن تقوم بالمهمة؟

أخذ نيال الحاصـد دون أن ينبس ببنت شفة. راح يتمتم دعاء ذهنيـاً وهو يسـير نحو البركة، ثم تطلع إلى امبراطورة النباتـات التي بدت من هذه الزاوية غير مميـزة، مثل أي تـل آخر. مشى نحو مكان مرتفـع يشرف على الـبركة، ورفـع الحاصـد فوق رأسـه وألقى بـه بأقصى ما أوتي من قوة. شعر، عندما فعل ذلك، بنشوة غريبة. وحين عـاد سلمه سيميـون الحـاصد الثانـي فألقـاه، مرة أخـرى، بكل قوتـه فـارتطم بـالماء محـدثاً رذاذاً واختفى في الحال. أخذ سيميون الحاصد الثالث من يدي ميلـو الذي تخلى عنـه على مضض. فألقى به نيـال في وسط البحيرة. وحـين اختفى محدثـاً رذاذاً اضطرب سـطح المـاء وأخـذ يبقبق، ثم ظهرت فجأة في الماء حركة أشبه بالدوامة.

قال دوجنز: ثمة شيء هناك.

رد ميلو: عسى ألا يكون كائناً جائعاً.

نظروا جميعاً إلى مانيشـو الذي التفت بوجهه نحو الـبركة، فسحبـه سيميون من ذراعـه بهـدوء وقال له:
ـ اغسل عينيك في الماء.

جثا مانيشـو وهو لا يدرك أن الماء دونه بمسافة ستة أقدام، فقال له:
ـ لا، ليس هنا، تعال إلى هنا.

اقتادوه إلى بقعة انحدرت فيها الأرض نحو البركـة. جثا مانيشـو وخفض يـديه حتى لمستا السطح. ثم أمال رأسه وألقى ببعض المـاء العكر على عينيه، لكنه أطلق في الحال صرخة ألم.

قال وهو ينتفض ويدلك عينيه بعصبية بيديه: إنها مؤلمة.

هرع ميلـو وأحضر قطعة قماش. ضغـطها بشـدة على وجهـه وأطبق أسنانـه. انحنى

نيـال وأخذ قليـلاً من الماء في راحـة يده، ثم رشهـا على عينيـه. جعله الألم يصرخ، فقد كـانت المياه شديدة الملوحة، غنيـة بالمعـادن، فلسعته كـالحمض. تحدرت قـطرة إلى فمـه فـوجدهـا مريرة بشكل فظيع.

ناول دوجنز مانيثو قارورة بها قليل من النبيـذ وقال له: احتس هذا! هز مانيثو رأسـه، ودفعها بعيـداً وهو في حالة من الكرب. جثا سيميون أمـامـه وقبض على رسغيـه وقال له:
ـ دعني أفحصك.

خفض مانيثو يديه عـلى مضض، لكنه اضـطر إلى إغماض عينيـه نصف إغـماضـة وهو يئن. دمدم سيميون بكلمـات ليهدىء من روعه، ووضع اصابعه فوق خده المتـورم وسحب برفق جفنه الأسفل. سكن مانيثـو فجأة، وعكست مـلامح وجهـه عدم تصـديق ما يحـدث وقال:

ـ إنني أراك!

فتح كلتا عينيـه بصعوبـة وحدق في سيميون. ثم راح يضحك بهستيريـة وهـو يمسح عينيـه ليبعد الدمـوع التي أخذت تتحدر فوق وجنتيه. حملق حولـه وقال:
ـ نعم، لقد عاد البصر إليّ مرة أخرى.

ثم هب واقـفاً ولف ذراعيه حول نيـال واحتضنه بشدة، وأخذت لحيته الخشنـة تحتك بأذنه.

ـ لقد كنت على صواب!

سأله سيميون: هل ترانا بوضوح؟
ـ ليس في غاية الوضوح، ولكنني أراكم.

وأخذ يحدق حوله بابتهـاج ودهشة.

نظر ميلو إلى نيال برهبـة وسأله:
ـ كيف فعلت ذلك؟ أهذا نوع من السحر؟

هـز نيال كتفيــه وقال: لا أعتقـد، ولكن من المحتمل أن يكـون هذا المـاء قد أبـطل مفعول السم.

لكنه لاحظ أن ميلو قد أحس أنه يحاول التواضع.

تقبل مانيثو الآن النبيـذ واحتساه دفعة واحـدة دون أن ينزل القارورة من بين شفتيه. ثم جلسوا بعد ذلـك وأكملوا تناول طعـامهم. شعروا جميعـاً بالحـماس، فقد بـدا ما حـدث

وكأنه فأل طيب. واعترى نيال نفسه احساس غريب بأنه هو الذي عاد إليه بصره، وراح ينظر إلى كل شيء بشك مفعم بالبهجة. وأدرك، حين فكر في الأمر، أنه من المرجح أن ذلك يرجع إلى نوع من التقمص العاطفي بينه وبين مانيثو.

كانت معنوياتهم مرتفعة حين استأنفوا السير، وباتت الأرض تحت أقدامهم صلبة مرة أخرى، والبحر قريباً منهم. وقدروا أن بوسعهم الوصول إليه عند العصر إذا ما استمروا بهذا المعدل. ساروا وسط العشب والشجيرات الخفيضة التي اكتسى معظمها بثمار التوت الزاهية، فأخذوا حذرهم منها، وابتعدوا عنها لمسافة كافية. انحدرت الأرض عن يسارهم تجاه النهر الذي أصبح على وشك إنهاء رحلته ليصب في البحر من خلال مستنقعات منبسطة. هبت عاصفة ممطرة بعد الظهر بقليل من جهة التلال الغربية، وغيرت الريح اتجاهها فجأة، وتلبدت سحب سوداء منخفضة فوق قمم التلال وكأنها جيش يستعد للغزو، ثم انهمرت عليه الأمطار بعد عشر دقائق، وأخذ البرق يومض، والرعد يدوي ليصم الآذان، وتحولت الأرض تحت أقدامهم إلى مستنقعات من ضراوة المطر الغزير. لم يجدوا فائدة من التوقف، فالشجيرات لا تشكل أي ملجأ من المطر، كما تشكلت في الأرض سيول راحت تتدفق من فوق التل باتجاه النهر. بللتهم مياه الأمطار في غضون ثوانٍ حتى وصلت إلى جلدهم، رغم المعاطف التي يرتدونها، بينما امتلأت أحذيتهم بالماء. واصلوا سيرهم وهم يتخبطون، وأخذت تتقاذفهم الريح ويعميهم المطر الذي أخذ يتحدر فوق أجسامهم، كما لو أنهم عراة. وحين سقط نيال على الأرض ساعدته يد مانيثو القوية على النهوض مرة أخرى، ثم وضع ذراعه حول كتفيه وضغط عليهما بشدة. نظر نيال إلى وجهه فرآه يضحك جذلاً وقد رفع وجهه ليسقط فوقه المطر الغزير، فشاركه مرة أخرى، ابتهاجه، بعد أن عاد إليه بصره وإحساسه بالمطر.

ثم سكن كل شيء فجأة، واختفت السحب وراء قمم التلال الشرقية، وراحت أشعة الشمس تدفىء أجسامهم الباردة. ولم يعد هناك سوى صوت خوض أقدامهم في المياه التي واصلت التدفق من فوق التل. توقفوا وخلعوا أحذيتهم، ثم ساروا حفاة بعد أن علقوها مقلوبة فوق أكياسهم. جفت ملابسهم تحت حر الشمس، كما لم يعد العشب مبللاً. شاهدوا أمامهم البحر يتألق تحت أشعة الشمس كما لو أن المطر قد غسله.

توقف دوجنز الذي كان يسير في المقدمة وحدق فجأة في شيء.

سأله نيال: ما الأمر؟

أشار بإصبعه قائلاً: أفاعٍ .

راح شيء أبيض بين شجرتي «وزال» يخرج من فتحة في الأرض. وأخذ الشيء ذاته يتكرر حولهم. حدقوا باشمئزاز، وشعر نيال، للحظة، بالأسف لأنه قد ألقى بالأسلحة الحاصدة. ثم قال سيميون.

ـ إنها ليست أفاعي. إنها فطور!

قفز نيال للخلف حين لمس شيء قصبة ساقه، ثم عرف أنه عود نبات يندفع خارج التربة بحركات أقرب إلى تلوي دودة، أو ذات الأربع والأربعين. راحت الأزهار والفطور تخرج حولهم من التربة مثل زواحف صغيرة. أخذت كرات منتفخة تكبر كالبالونات، ثم توقف نموها فجأة، بينما انفجرت كرات أخرى لتملأ الجو برائحة رطبة.

تذكر نيال حين اينعت الصحراء في طفولته؛ لكن ما يحدث الآن يتم بغاية السرعة. وجدوا أنفسهم، في أقل من ربع ساعة، يسيرون وسط بحر من الأزهار والفطريات متعددة الألوان، وامتلأ الجو بخليط من الشذا بعضه طيب، والآخر كريه. شاهدوا فطراً بلون الكبد رائحته مثل لحم عطن. إلا أن الروائح الكريهة لم تبدد شعور نيال بالبهجة، وأحس كما لو أنه قد عاد الى طفولته، وأنهم يقطنون مرة أخرى في الجحر عند سفح الهضبة، وأن أباه و«هرولف» و«ثورج» ما يزالون أحياء. تذكر، مرة أخرى، انفعاله وهو يتأرجح على ظهر أمه، من طريقهم إلى بيتهم الجديد. كان بإمكانه أن يتذوق الطعم المر لدرنة ريانة، خلعتها أمه في التربة بمدية، وأن يشتم رائحة شجيرات «الكريوسوت» المتفحمة، ورائحة الخنافس النمرية الغريبة المميزة التي ظلت تحوم حول الجحر لأشهر عديدة. دُهش حين أدرك أن الصبي البالغ من العمر سبع سنوات ما يزال قابعاً داخله، وأن كل ذكرى من الذكريات ما تزال محفوظة كما هي، وكأن الزمن لم يتحرك. شعر وهو يطأ بقدميه وسط الأزهار التي كانت سيقانها باردة على ساقيه أن الدلتا قد أعادت إليه طفولته، وأن هذه هي هدية الوداع التي تقدمها له امبراطورة النباتات.

دنوا بعد ساعتين من البحر، وتناهت إلى أسماعهم صرخات طيور النورس. أطاحت بهم، مرة أخرى، النباتات الخضراء. والشجيرات التي بدت أوراقها اللامعة كما لو أنها قد رُسمت بألوان زيتية. اضطروا للالتفاف باتجاه الشرق ليتجنبوا النبات المماثل للبلاب، برائحته المخدرة، والشجيرات السيفية التي يصعب اختراقها، والتي امتدت على شكل قوس عريض يزيد عن نصف ميل. أدى ذلك إلى اتجاههم نحو سفح التلال الشرقية، وصولاً إلى النقطة التي بدأوا منها رحلتهم عبر الغابة. تذكر نيال أوليس فلفته، للمرة الأولى بعد ظهر هذا اليوم، سحابة من الحزن.

حملت الريح إليهم رائحة البحر وبعد عشر دقائق وصلوا إلى الرمال الدافئة وتناهت إلى أسماعهم أصوات تكسر الأمواج على الشاطىء. طرح نيال كيسه على الأرض فشعر بالراحة والخفة، كما لو أنه على وشك التحليق فوق الأرض. جرى على الشاطىء وخاض في الماء، وراحت الأمواج تتلاطم حول خصره. أحس، وهو يقف وسط الماء، مغمض العينين، ويهتز للأمام والخلف، بفعل حركة مياه البحر، بأن التعب قد انسل خارجاً من جسمه، ليحل مكانه شعور بالنشوة جعله يقهقه.

تلفت حوله حين تناهت إلى مسامعه صيحة أطلقها ميلو الذي راح يشير بإصبعه نحو الشاطىء. لم يستطع نيال، للحظة، فهم السبب الذي أثار انفعال ميلو، لكنه رأى ذيل الدخان الذي ارتفع من وراء أشجار النخيل على بعد نصف ميل. توجه إلى الشاطىء على عجل، وبالسرعة التي سمح بها ثقل الماء.

قال سيميون باكتئاب، قد يكونون خدم العناكب. وإذا ما صح ذلك، فإنها قد أحضرتهم إلى هنا.

هز نيال رأسه وقال: لا أظن ذلك.

- ولِمَ لا؟

- هي تعتقد أننا ما زلنا مسلحين بالأسلحة الحاصدة، ولن تخاطر بالدخول في مواجهة مباشرة معنا.

تطلع مانيثو في وجوههم وقال: من المحتمل أن يكونوا أهلنا جاءوا للبحث عنا.

ساروا ملاصقين لأشجار النخيل، وتقدموا ببطء بمحاذاة الشاطىء. راحت الريح تهب من الجهة الشمالية الغربية، لكنها لم تحمل لهم أية أصوات بشرية. وصلوا إلى فجوة وسط الأشجار، وأصبح الدخان المتصاعد على بعد بضع مئات من الأمتار، فصعدوا بحذر هضبة رأوا من فوقها النار تشتعل عند المكان الذي استراحوا فيه خلال الليلة الأولى لهم في الدلتا. وبالقرب من النار كان رجل ينام تحت ظلال الأشجار.

التفت ميلو إليهم وقال: أظن أنه ليس أوليس.

قال دوجنز: لا تكن أحمق. لقد مات.

- لكن معه كيساً يماثل أكياسنا.

كان الكيس الملقى بجوار النار يماثل في الواقع الأكياس التي يحملونها.

جرى ميلو بأقصى سرعة، ثم تناهت إلى أسماعهم صيحة. نهض الرجل واقفاً وحدق. التفت ميلو إليهم ولوح بذراعيه وهو يصيح:

«إنه أوليس». جرى كل منهما نحو الآخر وتعانقا ورقصا من شدة الفرح.

قال دوجنز: الحمد لله إننا لم ندفنه.

أخذوا يضربون أوليس على ظهره ويصافحونه. بدا شاحباً، وقد نمت لحيته، لكنه لم يتغير عن آخر مرة رأوه فيها.

لم يكن هناك وقت لشرح ما حدث، فقد أدى شعورهم بالارتياح إلى تشوش فكرهم. أخذوا يقصون ما حدث لهم بطريقة متقطعة تقفز فوق تسلسل الأحداث، ولم يتم تجميع فصول القصة إلا بعد مرور عدة ساعات، حين التفوا حول النار في الظلام. تسلق نيال الشجرة السامقة وأنزل أكياسهم المصنوعة من القماش، والمناطيد العنكبوتية. أخذ مانيثو صنارة الصيد ومضى إلى الصخور ليصطاد سمكاً لعشائهم. وحمل أوليس وميلو وعاءً به ديدان لإطعام الحيوانات الإسفنجية التي رحبت بوصولهم بنفث فقاعات من الغاز، كريه الرائحة. استلقى دوجنز الذي يعاني من الإجهاد بعد تورم قدميه، تحت ظلال أشجار النخيل، ونام دون حراك حتى حلول الغسق. تحمم نيال في البحر، وجفف نفسه تحت أشعة الشمس، ثم مضى وجلس بجوار مانيثو الذي اصطاد ثلاث سمكات بوري كبيرة، وكان يهم باصطياد المزيد إلا أنهم وجدوا أن السمك يكفي لإعداد وجبة للاحتفال بهذه المناسبة.

غلفوا السمك بأوراق الأشجار، ثم أضافوا إليه طبقة من الطين ووضعوه في الرماد الساخن. وبينما راح مانيثو يعد الطعام، حدق الآخرون في النجوم اللامعة، وتركوا أنفسهم لسحر الدلتا الغريب الذي تمتزج فيه رائحة الخطر بشعور عجيب بالحرية. ثم أخرج مانيثو السمك من الرماد بغصن شجرة ليمتلىء الهواء فجأة برائحة السمك اللذيذ الذي تم صيده وإعداده طازجاً. وطرد الطعام والنبيذ جو التفكير ليحل مكانه شعور بالابتهاج لأنهم عادوا سالمين من قلب الدلتا وتجمعوا مرة أخرى.

أثار أوليس قهقهات الآخرين، أثناء تناول الطعام، وهو يصف لهم حاله حين استيقظ ليجد نفسه مربوطاً إلى فرع شجرة يرتفع عن الأرض بمسافة خمسين قدماً، فراح ينادي على رفاقه ساخطاً، وقد اقتنع بأنهم يلهون معه. ولم يدرك حقيقة الوضع إلا حينما لاحظ أنه ملفوف في بطانية قد أحكمت حوله بأغصان شائكة طويلة، حينئذ عرف أنهم تركوه معتقدين أنه قد فارق الحياة. نجح، بعد تخبط استمر فترة طويلة، في تحرير ذراعه اليمنى -

فقد ربطه مانيثو بشدة، خوفاً من ن تحاول الطيور الجارحة فتح البطانية ـ وفك في نهاية المطاف العقدة المزدوجة على صدره. بذل جهداً كبيراً حتى حرر نفسه دون أن يحطم الفرع. وسقطت البطانية على الأرض، لكنه أمسك بالحبل في آخر لحظة، وإلا فإنه كان سيظل فوق الفرع حتى الآن. (استمروا في الضحك، ليس لمجرد التسلية، بل من منطلق إعجابهم بخفة ظل أوليس وهو يعيد رواية قصة لا بد وأنه وجدها مأساوية). وبعد ذلك جثا فوق شعاب الشجرة، مما سمح للدورة الدموية بالعودة إلى طبيعتها، وربط طرف الحبل حول االفرع وهبط عليه إلى الأرض حيث وجد كيسه مربوطاً عند قاعدة الشجرة، ورماد النار الذي كان بارداً، فعرف أنه قد مرت عدة أيام كما لاحظ وجود آثار لأرجل حيوانات شرسة. وبعد أن تناول طعامه واحتسى قدراً من النبيذ ليستعيد معنوياته، انطلق عائداً في رحلة طويلة إلى الشاطىء الذي وجده، لحسن الحظ، هادئاً.

سأله نيال: متى حدث كل هذا؟

ـ أمس.

ـ متى استيقظت؟

ـ عند الفجر، أيقظني تغريد الطيور.

استغرق نيال في التفكير. فقد استعاد أوليس وعيه في الوقت الذي استيقظ هو فيه فوق قمة امبراطورة النباتات. .

سأل دوجنز أوليس: ماذا فعلت بحاصدك؟

بدت علامات الدهشة على وجه أوليس الذي قال: أحسب أنك قد حملته معك.

لم يستطع أحد أن يتذكر على وجه الدقة ما الذي حدث للسلاح، وكل ما تذكره ميلو أنه تركه بجوار كيس أوليس عند قاعدة الشجرة.

هز أوليس رأسه وقال: من المؤكد أنه لم يكن هناك.

تبادلوا النظرات، وقال نيال:

ـ لحسن الحظ إنك لم تكن بحاجة إليه.

قال دوجنز: لو كان معه لاستخدمه.

رد نيال: أشك في ذلك.

رمقه سيميون، لكنه لم يحر جواباً.

نام نيال قبل الآخرين بفترة طويلة، فقد كان من غير الممكن أن يظل مستيقظاً بعد

الوجبة الدسمة وهواء الليل العليل. استيقظ، من وقت لآخر، على صوت ضحكاتهم، أو على ضوء مفاجىء حين يضعون الفروع الجافة في النار. واختلطت بأحلامه عبارات من أحاديثهم، مثل «أضخم دودة ألفية رأيتها في حياتي» و «بدت مثل ضفادع تجاوزت حجمها العادي». وفي نهاية المطاف لم يسمع سوى صوت تكسر الأمواج على الشاطىء، وخشخشة سعف النخيل بفعل الريح.

ثم هزه سيميون من كتفه وهو يقول:

ـ استيقظ، فالرياح تهب من الاتجاه الجنوبي الغربي، ويتعين علينا أن نُعد المناطيد.

- ٩ -

أحس نيال، حين باتت الدلتا وراء الأفق، بأنه معلق بلا حراك في فضاء لا ريح فيه بين البحر والسماء. كانت السماء فوقهم زرقاء صافية، بينما امتد البحر إلى ما لا نهاية حولهم. لم يدركوا أنهم يتحركون بسرعة إلا من برودة الهواء. لا بد وأنه يوم شتوي صاف.

تجمعت المناطيد الثلاثة مرة أخرى، لكن نيال شارك سيميون المحمل التحتي هذه المرة؛ ووقع الاختيار عليه كملاح للمنطاد نظراً لدرايته بالشريط الساحلي. وقفا في الاتجاهين المتقابلين للمحمل، للحفاظ على توازن المنطاد، وحتى ابتعد عن الأرض. لم ينبسا ببنت شفة رغم مرور أكثر من ساعة على رحلة الطيران فقد أحسا بالتوتر نتيجة لارتفاع المنطاد بهما، وللهوة السحيقة تحتهما. بدا الطيران أثناء النهار أكثر خطورة منه في الليل.

حين شعر نيال بالبرد جلس بحذر على الأرضية ولف نفسه بمعطف. فتح كيسه وأخذ فطيرة وشريحة من اللحم المجفف، فإنه لم تسنح لهم فرصة تناول الطعام قبل مغادرتهم الشاطىء. انضم إليه سيميون، وراحا يأكلان في صمت لبضع دقائق. ثم قال سيميون:

ـ ثمة أمر أريد أن تشرحه لي. لقد حدث شيء غريب الليلة الماضية حين كنت بعيداً عن المكان مع بلدو. كنت أجلس أثناء نوبة الحراسة وأسمع صوت حيوان شرس في الغابة. كان يراقبنا وينتظر الفرصة ليشن هجوماً علينا. ثم حدث أمر ما لا أستطيع وصفه الا بالقول إنني فقدت شعوري بالخطر المحدق بنا. وفي الواقع فإنني كنت على يقين تام من ذلك، مما جعلني استلقي وأستغرق في النوم.

شرب قليلاً من الماء، ثم أضاف: أتعرف ما الذي حدث؟

قال نيال: حدث ذلك حينما ألقيت بالأسلحة الحاصدة في الماء.

ـ لِمَ فعلت ذلك؟

كان نيال يتوقع السؤال، لكنه لم يكن على استعداد للإجابة عنه. فقد رفض، على

مدى اليومين الماضيين، رفضاً باتاً أن يتحدث عما حدث له. وبدا الأمر كما لو أن قوة خفية تأمره بالتزام الصمت. أما الآن فقد شعر حين طرح عليه سيميون السؤال بأن هذا الرفض الداخلي يذوب. وأدرك أنه قد سُمح له بالتحدث. راح يصف له اللحظات التي فقد فيها أعصابه وأخذ يطلق النهار باتجاه النهر. انتابته قشعريرة وهو يروي كيف كاد يقضي على امبراطورة النباتات. ثم انتابه دافع مفاجىء جعله يلقي بالأسلحة الحاصدة في الماء ويطيع الأمر بعبور النهر. اتضحت، وهو يتحدث، أمور عديدة لأول مرة. فقد أدرك أنه بمقدور الإلهة القضاء عليهم في أي وقت بعد هبوطهم على أرض الدلتا، بل وأنها تجشمت عناء مخاطرة محسوبة، وسمحت لرجلين مسلحين بالاقتراب منها. لكنه فهم أن الدافع الذي اجتذبه إلى قلب الدلتا ما هو سوى استدعاء من الإلهة نفسها.

حاول، بعد ذلك، وصف مقابلته مع اامبراطورة النباتات، لكنه بدأ يشعر بإحباط متزايد. وبدت الكلمات تُحرق ما يحاول قوله. اصغى سيميون دون أن يقاطعه فامتن له، ومع ذلك فقد أحس كما لو أنه يحاول الحفاظ على توازنه فوق جليد زلق. أجفل سيميون حين اختتم كلامه قائلاً: «ثم استيقظت، وكان الصباح قد حل».

- أهذا كل شيء؟
- هذا كل ما أستطيع توضيحه.
- إذن فإنك لم تتعلم أي شيء يساعدنا على مواجهة العناكب؟

شعر نيال بالإحباط، فقد كان يأمل أن يفهمه سيميون، وقال:

- لا. لقد حاولت توضيح الأمر لك - إنه يتعين علينا أن نتعلم التعايش مع العناكب.

رمقه سيميون بنظرة تنم عن التهكم وسأله:

- وتعلمت ماذا عسانا نفعل إذا ما قررت العناكب شن هجوم علينا؟

حاول نيال ترتيب أفكاره، لكنه قال في النهاية:

- لا.
- إذن فقد عدنا إلى النقطة التي بدأنا منها، وربما أسوأ منها.
- لِمَ تقول ذلك؟
- لأنه لم يعد لدينا أية قوة نساوم بها، لقد تخلينا عن أسلحتنا الحاصدة في الدلتا، وستصادر الخنافس الأسلحة الباقية. وسيكون بمقدور العناكب القيام بما يحلو لها.
- بشرط أن توافق الخنافس التي لن تسمح باستعبادنا.

وضع يده عليه كتف نيال وقال: قد لا يكون أمامها خيار. لقد أتيحت لي الفرصة

للتفكير في كل هذا خلال الأيام القليلة الماضية. دأبت الخنافس على منح خدمها قدراً كبيراً من الحرية، ودأبت العناكب على عدم تقبل هذا الوضع بحجة أن البشر لا يرضون بقدر ضئيل من الحرية، إنهم يريدون دائماً المزيد منها. وترى أن البشر يشكلون دوماً خطراً ما لم يظلوا مستعبدين. ويبدو الأمر الآن كما لو أنهم على صواب. كيف تستطيع الخنافس الدفاع عن نفسها في مواجهة ذلك المنطق؟ لقد تعين عليها الاعتراف بأن البشر قتلة خطرون. ونحن قد أطحنا بقوة المساومة الوحيدة التي نملكها.

ـ مع ذلك، كنا على صواب حين تخلصنا من الأسلحة الحاصدة. إنها الطريقة الوحيدة.

أخذ سيميون يفكر في الأمر، ثم أشاح بعينيه الرماديتين وقال:

ـ أظن أنك على صواب. لكنني لا أميل إلى التفكير في عواقب هذا التصرف.

قطعت حديثهما صيحة فنهضا واقفين بحذر، وتفرقا على جانبي المحمل التحتي. شاهدا دوجنز في المنطاد المجاور يشير بإصبعه نحو الأفق الشمالي. وحين ظلل نيال عينيه بيده رأى خط الساحل، تلوح الجبال خلفه في الأفق.

تمكنوا، بعد ربع ساعة، من رؤية المعالم الساحلية، فقد شاهدوا خط الأجراف الرمادية المرتفعة، ثم جزيرة بنية تقع الى الشمال من الأجراف، وقد ارتفعت عن سطح البحر مثل حصن.

قال سيميون: نحن نتجه نحو أقصى الشمال.

وأشار إلى لسان من الأرض نحو الجنوب وأضاف: إن الميناء يقع على الجانب الآخر من تلك البقعة.

ـ وماذا يعني ذلك؟

ـ يعني أن عودتنا إلى المدينة ستستغرق يوماً، وآمل ألا نقابل أية عناكب.

أصاب الهواء البارد نيال بالقشعريرة. مد يده إلى داخل معطفه وقلب مرآة التأمل. جعله التركيز المفاجىء يشعر بالتحسن، واكتشف حين ركز ذهنه أن بوسعه إثارة وهج دافىء في يديه وقدميه. أغمض عينيه واسترخى. بات مدركاً تماماً، بعد لحظة، للفطر الذي فوق رأسه، ولخيوط الطاقة التي امتدت حول الفطر في الفضاء مثل نسيج عنكبوتي هائل. تعمد مزج وعيه بوعي الإسفنج والحيوانات الإسفنجية الأخرى في المناطيد المجاورة. أثارته النتيجة، فقد بدا العالم من حوله وقد تحول إلى نمط عملاق من الطاقة مثل نسيج عنكبوتي. كما بدا الفضاء نفسه وقد تلاشى وتحول إلى طاقة.

أدهشتـه الألوان، فقـد كـان نسيـج الـطاقـة بنفسجي اللون، بينـما بـدت الحيـوانـات الإسفنجية كبقع زرقاء ضئيلـة لها خيوط خلفية بنية شفافة. أما الطاقات الأخـرى التي تهب من البحـر فذات لـون ازرق شديـد الشحوب. وكـانت هناك طـاقـة خضراء فـوق الأرض البعيـدة تغيرت إلى اللون الرمادي فـوق الجبال. وتحـول سيميون الـذي يقف على بعـد خطوات قليلة منه إلى كتلة حمراء من الطاقة، ولكن عندما حدق فيها أدرك أن هذه الـطاقة تنتشر كالدخان، وأنها تتسرب مبتعدة عنه، وأن سيميون ينفث طاقة بديلة من جسمه.

أدرك نيال أن طاقاته كـانت تتسرب هي الأخـرى قبـل أن يقلب مرآة التـأمل. لكنـه تمكن، حين ركز ذهنه، من السيطرة على هذا التبديد لـطاقته الحيـوية. كـما أدرك أن بمقدوره استيعاب الطاقـة من النسيج البنفسجي، وكـذلك من الأرض والبحـر. كان مصـدر الطاقـة النبفسجية يكمن فيما وراء الأفق الجنوبي، وعرف أن هذا المصدر هو امبراطورة النباتـات التي امتصت طـاقة الأرض الخضـراء وركـزتها، ثم بثتهـا، حتى تتمكن الكـائنـات الحيـة، مثـل الإسفنج، من امتصاصها. لكن الإسفنج كان ضئيلاً للغاية، وغـير مؤهل لاستغـلال الطاقـة على نحو سليم، إذ بإمكانه تخزين قدر ضئيل منها فقط. أما سيميون الذي استطاع تخزين كميات كبيرة منها فلم يكن مدركاً لوجودها.

كان بوسع نيال أن يخزن الطاقة، فكل ما تعين عليه هو مجرد امتصاصها، مثل سمكـة تأكل العوالق، ثم منعها من التسرب مـرة أخرى. وبعـد أن اتقن هذه الحيلة تزايـد وهج الدفء بداخل جسمـه حتى شعر كما لو أنه يجلس بجوار نار ضخمة. لاحـظ حينما نـظر إلى جسمه أنه لم يعد أحمر شاحباً، بل تحول إلى لون الياقوت الأحمر الداكن.

وضع سيميون يده على ذراعـه فأعاده مرة أخرى إلى وعيه بالعالم المادي.

ـ سأذهب لإطلاق الضعط. لا بد وأن الريـح ستكون أقـل قوة قـرب الأرض. وليس هناك ما يدعو للابتعاد أكثر من ذلك.

ومد يده نحو صمام اطلاق الضغط.

أحس نيـال أن قلق سيميون ليس لـه معنى، فهو يـدرك أن الريـح ما هي سـوى مجرد شكـل بسيـط من أشكـال الطاقـة، وبالتـالي فهي جزء من نمط طـاقـة واسـع، هم أنفسهـم محوره. ولذلك فإذا رغبوا في تغيير النمط فما عليهم سوى بـذل جهـد إرادي تلقـائي، مثل طير يغير اتجاه طيرانه. بل إن الحيوانات الإسفنجية تعرف كيفية القيام بهذه المهمة.

أغمض نيال عينيـه وركز ذهنه على لسان الأرض إلى الجنـوب منهم. ثم بذل جهـداً لامتصاص مزيد من الطاقة. كانت هذه العملية تماثل إلى حد كبير مهمة زيادة الوزن، لذلك

فقـد تدلى نسيـج الطاقـة العنكبوتي تحتـه، الأمر الـذي خلق دوامـة من الـطاقـة الخـاضعـة للسيــطرة امتصت الـطاقــات المحيـطة بهــا. اهـتز منــطادهمـا بعنف فــاضــطرا الى التشبث بحافتي المحمل التحتي.

قال سيميـون الذي أحس أنه المسؤول عما حدث:

ـ آسف.

شعـر بعد بضع دقائق بالارتياح، وربت على كتف نيـال قائلاً:

ـ اعتقد أن الوضع بات أفضل الآن.

ولوح، وهو يشعر بالانتصار لدوجنز في المنطاد المجاور.

لم يحر نيال رداً، فقد كان يركز، مثل ربان، عـلى توجيـه تيارات الطاقـة ومنعهـا من جرفهما أبعـد مما يـريدان. وجـد أن هذا أسهـل إذا ما ظـل مغمض العينين، ثم أدرك كميـة الطاقة التي يسيطر عليها بالتحديد. وحين فتح عينيه مرة أخـرى تمكن من رؤية ما بعد لسان الأرض، بمنارته، الى جدران الميناء الصخرية الضخمة. عبروا بعد عشرين دقيقة الساحل الى الشمال من اللسان ورأوا عن يمينهم الميناء وأرصفته. كانوا على ارتفاع منخفض فتمكنوا من رؤيـة البشر والعناكب يتحركون فوق الأرصفة توقف البشر عن أداء عملهم وراحوا يحدقون في المناطيد الثلاثة الغريبة التي تتصل معاً بالحبال، بينما شعر نيال بالاستياء البارد الذي لاحت علاماته في نظرات العديد من العناكب. لكنه أحس أيضاً بكفاءة مختلفة في أشعة الإرادة التي راحت تتفحصهم، فقد اتسمت الأشعة بالحذر. لقد تعلمت العناكب أن تخشى البشر وتحترمهم.

شـاهدوا، إلى الشـمال الشرقي، مباني مـدينة العناكــب وهي تنتشر في المنخفض بـين التلال، كما رأوا عند الجانب البعيد من التـلال أبراج الخنافس الحمراء الملتوية. وسرعان مـا امتـدت مدينـة العناكب دونهم. وخفق قلب نيـال حين رأى الـبرج الأبيض يتلألأ في ضـوء الشمس. ثم أدرك مرة أخرى أنه مُراقَب، وانتـابه من جـديد شعـور بالشـك والحذر. لكنـه أحس بنوع مختلف من المراقبـة يأتي من مقر سيد العناكب؛ نظرة حـاقدة تتفحصهم، كـما لو أن حيواناً جائعاً يتابع فريسته المرتقبة. وهنـا لم يكن ثمة أي إحسـاس بالخـوف، بل كـراهية فقط.

هب عليهم نسيم خفيف بعـد أن توغلت المنـاطيد داخـل اليـابسـة، فقـد احـاطتهم سلسلة من التلال الساحلية، وهي المنطقة التي اختارها البشر الأوائل لتكون موقعاً لمدينتهم. وحين بدأوا رحلـة الهبوط الطويلة تجاه مدينة الخنافـس لم تكن هناك حاجة لتوجيه المنـاطيد، فقد حملتهم الريح مباشرة نحو المساحة الخضراء بالساحة الرئيسية. هرع الرجال والنساء نحـو

الساحة حين عرفوا بقدومهم، وتجمع حشد فوق درجات مبنى البلدية والمباني المجاورة. فكوا الحبال التي تصل المناطيد بعضها ببعض وتركوها تتدلى نحو الأرض. وحين اقتربوا قفز الرجال وأمسكوا بالحبال، ووجهوا المناطيد نحو منطقة الحشائش. اصطدموا بالأرض، ووجد نيال نفسه، فجأة، ممداً على أرضية المحمل التحتي يتجرجر على الأرض، والمنطاد فوقه. سحبته أيدٍ بعد لحظات، وساعدته على الوقوف. لفت فتاة ذراعيها حول عنقه، وطبعت قبلة على خده. لقد كانت دونا التي رأى، وسط دهشته، الدموع في عينيها.

- لِمَ تبكين؟

- لم أكن أظن أنني سأراك مرة أخرى. . .

شعر بالاستغراب حينما لامست قدماه الأرض الصلبة، وأحس بالهواء دافئاً ومنعشاً، وبشذا الأزهار وكأنه يربت عليه.

لقي الآخرون استقبالاً حاراً مماثلاً، وكاد دوجنز يتعثر في أطفاله ويسقط على الأرض. وأحاط حشد من الرجال والنساء بميلو وأوليس ومانيثو.

صافح «كريسبن» نيال واحتضنه بذراعه الأخرى وسأله بصوت خفيض:

- أذهبتم حقاً إلى الدلتا؟

- نعم. ماذا حدث خلال فترة غيابنا؟

تلفت كريسبن حوله وقال: لقد غضب السيد لأنك رحلت دون إذن. وألقي بهاستور وكوزمن في السجن منذ رحيلكم، وتقوم العناكب بتفتيش مبنى البلدية يومياً.

- وماذا حدث للأسلحة الحاصدة؟

- لقد وضعوا أيديهم عليها.

- ولكن ألم يتم تدميرها؟

- كلا. ولكني أعتقد أنهم يتشاورون بهذا الشأن.

تقدم حارس خنفساء من بين الحشود نحوهما فخمن نيال ما يريد.

همست دونا في أذن نيال:

- هل صحيح أنك ستتزوج من ميرلو؟

- مَن قال لك ذلك؟

- الجميع سمع هذه الشائعة.

ثم أضافت ساخرة:
ـ أعتقد أنها هي التي بدأتها.

رد نيال ضاحكاً: إذن فقد نسيت أن تخبرني.

ابتسمت دونا بارتياح.

همس دوجنز في أذن نيال:
ـ لقد بدأت المتاعب. من الأفضل أن تتركني أعالج الأمور.

توقف الحارس الخنفساء وتحدث إلى دوجنز بلغة الإشارة، ورد دوجنز بالطريقة ذاتها، وتحدث في الوقت نفسه بصوت مرتفع حتى يفهم نيال.

ـ قُل للسيد بأننا سنكون هناك.

والتفت إلى نيال وقال:
ـ لقد تم استدعاؤنا للمثول أمام المجلس في غضون ساعة.

وحين استدار الخنفساء ليمضي ناغم نيال ذبذبته على الموجة الذهنية له.
ـ انتظر!

التفت الخنفساء ونظر إليه بدهشة. وحين تبادلا النظرات اكتشف نيال أن الاتصال المباشر بينهما طبيعي، مثل الكلام.

ـ أرجو أن تبلغ السيد بأنني أرغب في التحدث إليه.

تساءل دوجنز: ما الذي يجري؟

راح الحارس الخنفساء يتطلع إليه في دهشة، فقال نيال:

ـ لقد أبلغته بأنني أريد التحدث إلى السيد في الحال.

نظر إليه دوجنز بدهشة وقال:
ـ ولكن لِمَ؟ إنك لن تلقى سوى اللوم.
ـ هذا لا يهم.

هز دوجنز كتفيه وقال:
ـ حسناً، لن تضر هذه المقابلة في شيء.

والتفت إلى الحارس وأشار إليه بيديه ففهم الحارس ما يريد وعاد باتجاه مبنى البلدية.

قال دوجنز: آمل ألا تضع على عاتقك كل اللوم.

هز نيال كتفيــه وقال: لن يكـون هناك أي لـوم. فمن حقنا أن نـذهب إلى أي مكان نريده.

وراح يتبع الحـارس فبدت علامات الذعر على وجه دوجنـز وقال:

ـ انتظر دقيقة!

تجـاهله نيـال وهـرع وراء الحارس الـذي سـار بخـطى واسعــة تسـاعـده قـوائمه الطويلـة التي حملته فوق رؤوس الحشد. واضطر نيال للاعتـذار وهو يدفع الواقفين. استدار الخنفساء يساراً، ثم اختفى عند زاوية مبنى البلدية، ولما وصـل نيال إلى هنـاك وجده واقفـاً أمـام أحد الأبـراج الحمراء الملتـوية. وحـين هرع في الشـارع اختفى الحارس داخل البرج. توقف نيـال بعد بضع لحظـات أمام المدخل، ووجدها فرصة لالتقاط أنفاسه.

كان البـاب الـذي يقف أمامـه مقوسـاً ومحفوراً في جــدار تزيـد سماكتـه عن قدم. ورأى، بعـد أن نزل منحـدراً هابـطاً، بابـاً آخر مصنـوعاً من مـادة شمعية ثقيلة. أحس أن الخنافس لم تستطع الاستفادة من اختراع البشر للأبواب ذات المفصـلات، لكنها فضلت هـذه الأبواب السميكة غير العملية. كما لاحظ أن الممر المقوس يزيد ارتفاعه قليلاً جداً عن طولـه هو نفسه، وقد اضـطر الحارس الخنفسـاء إلى أن يضغط بطنـه في الجدار للدخـول. ساعـدته هـذه الملاحظات على تهدئة توتره، كما كشفت أن الخنافس ما تزال رغم ذكائها مرتبطة بماضيها.

بذل جهداً ليسترخي، لكنه وجـد أن الأمر سهـل، فسرعان مـا خف توتـره، مما جعله يشعر برغبة في النوم. ثم لفـه شعور بـالدفء، وأدرك أنـه محاط بـوهج من الـطاقـة بـدا أن البيت نفسه ينفثها. وكان الوهج مثل لهب أزرق متصاعد. فهم الآن سبب إحـاطة كـل بيت من بيوت الخنافس بخندق مائي ضيق. فهذا يمنع اللهب من الانتشار، وبالتالي تزيد كثافته. لفته الطاقة بوهـج لطيف كـالنسيم، وجعلت جلده يقشعر من الـدفء كما لـو أنه يتعـرض لحمام شمس.

انسـل الحارس الخنفسـاء خارجـاً من الممـر بعـد أن ضغط جسمه، وهي عمليـة من الـواضح أنه تعـود عليها، وأومـأ إلى نيال بـالخروج مثله. فخـطا إلى الـداخــل حيث ألفـاه مظلماً. فتوقـف وقد أحس وكـأنه معصـوب العينين، بعـد أن جاء لتـوه من ضوء الشمس البـاهر. ولكن بعـد نحو دقيقـة بدأت الأمـور تتحسن، وتمكن من رؤيـة ألسنـة اللهب الأزرق الخافت. سار بحذر فوق المرتفـع حيث بـدت الأرض زلقة تحت حـذائه الجلدي، ثم وجـد نفســه في بهو كبيـر لفه ظـلام دامس، بـاستثنـاء ضـوء اللهب الأزرق الخـافت. رأى حـول

القاعة حجرات ذات مداخل شبه مستديرة، وأحس بوجود الخنافس الأخرى، وراقبه من أحد المداخل خنفساء مدفعية ضئيل له بشرة خضراء فضية وعينان يشع منها الفضول.

وقف أمام مرتفع آخر من الأرض رأى عند قمته قوساً عريضاً أدرك أنه مدخل حجرة السيد. وحين راح يصعد المرتفع بدا كأن صوت السيد يتحدث إليه من الهواء.

ـ لا بد أن يخلع البشر أحذيتهم قبل دخول مقر «السارلاب».

ترافق مع هذه الكلمات شعور بالانفعال كان مثل ريح باردة. أثار ذلك إحساساً غريباً بالارتياح، فقد كشف أن السيد يتأثر بالعواطف، وبالتالي فإنه ليس كائناً فوق مستوى البشر تماماً. انحنى وخلع حذاءه وتركه على الأرض، ثم صعد المرتفع حافي القدمين.

وقف في وسط المدخل وقد شعر أن الدخول إلى الحجرة بدون دعوة سيثير المزيد من الاستفزاز. كانت حجرة السيد على شكل كرة ضخمة، وبدا أن هذا وسط السقف. اكتست الأرضية المقوسة بسجادة من أوراق الأشجار الخضراء والعشب، وطبقة سميكة من الطحالب. رأى صخوراً ضخمة في الحجرة، وقطعة هائلة من الخشب المتآكل، من الواضح أن هذه الأشياء تؤدي الوظيفة التي يؤديها أثاث المنزل بالنسبة للإنسان.

كان السيد مستلقياً وسط الحجرة وقد طوى قوائمه تحته، ومع ذلك فإن عينيه كانتا في مستوى أعلى من عيني نيال.

لم يتلق دعوة بدخول الحجرة، وبدلاً من ذلك سأله السيد:

ـ لماذا طلبت مقابلتي؟

توصل نيال لاكتشاف مثير. ففي المقابلات السابقة التي تحدّث فيها إلى السيد كان يرد بلغة البشر ويعتمد على قدرة السيد على قراءة أفكاره. أما منذ التقائه بإمبراطورة النباتات فإن الكلمات لم يعد لها أية ضرورة، وبات بإمكانه نقل ما يعنيه بذهنه فقط، فقال:

ـ لقد جئت لأنني بحاجة إلى مساعدتك.

جاءه الرد مثل عاصفة ثلجية:

ـ ليس لك الحق في طلب مساعدتي، لقد حرضت خدمي على العصيان.

بذل جهد كبيراً قبل أن يرد للسيطرة على أي شعور بالاشمئزاز أو الذعر.

ـ لم أقل إنني جئت لأطلب مساعدتك، بل قلت لقد جئت لأنني بحاجة إلى مساعدتك.

صمت فترة كي يتضح المعنى، ثم قال:

ـ ليس أمامك خيار سوى الموافقة على طلبي.

كان متوقعاً أن تؤدي هذه الكلمات إلى إثارة غضب السيد، إلا أنها أدت في الواقع إلى التأثير العكسي.

شدت الكلمات انتباه السيد الذي تسال:

ـ لِمَ تقول ذلك؟

ـ يتعين عليك أن تبرم اتفاق السلام مع العناكب، وأن تقرر ما ستفعله مع خدمك. وسوف تحتاج إلى مساعدتي لتحقيق هذيه الأمرين.

انتابه شعور غريب، فقبل أن يدخل الحجرة لم تكن لديه فكرة عما سيقوله، أما الآن فقد بدت الكلمات وكأنها تخرج من داخله، كما لو أن منطقاً داخلياً يحكمها. وكل ما عليه هو مجرد التحكم في عواطفه حتى لا يتداخل أي شعور شخصي مع ما يقول، ثم فهم على وجه الدقة ما الذي ينبغي عليه قوله.

سأله السيد: كيف تستطيع مساعدتي في إبرام السلام مع العناكب؟

ـ لا بد وأن أذهب لمقابلة سيد العناكب، وسوف أبرم معه اتفاقية سلام.

ـ إذا ما أصبحت تحت رحمته فسوف يقتلك.

ـ هذا صحيح، ولذلك فإنني بحاجة إلى مساعدتك.

ـ أفصح؟

ـ لقد وضعتم أيديكم الآن على الأسلحة الحاصدة. وإذا ما قتلني سيد العناكب فعليك أن تعيدها إلى خدمك كي يكون بوسعهم الانتقام. وإذا ما وعدت بذلك فإن سيد العناكب لن يجرؤ على قتلي.

ـ لديكم أسلحتكم، فلماذا تحتاجون إلى الأسلحة الأخرى؟

ـ لقد تركناها في الدلتا.

أحس بمدى المفاجأة التي شعر بها السيد، فتساءل في ريبة:

ـ لِمَ؟

قاوم محاولة من السيد لسبر أغوار ذهنه فكانت هذه المحاولة بمثابة دلالة على علاقتهما الجديدة.

ـ لأنها في غاية الخطورة.

وحين أحس نيال بحيرة السيد أدرك فجأة أنه قد انتصر.

ساد صمت، ثم قال السيد:

ـ أدرك أن تغيراً ما قد طرأ عليك منذ أواخر مرة وقفت فيها أمامي. الآن تتحدث بثقة. لقد كنت اعتزم إصدار الأوامر بعقابك على الفور، وعقاب بلدو وخدمي الآخرين. لكنني أرى أن ذلك لن يفيد.

أدام النظر إلى نيال مفكراً، لكنه تخلى عن محاولة سبر أغوار ذهنه وقال في النهاية:

ـ سوف أحقق ما طلبته، وسأرسل أحد خدمي ليرافقك إلى سيد العناكب، وسوف يسلمه رسالة بأنك تحت حمايتي الشخصية، وسيفهم سيد الموت ذلك. متى تعتزم الذهاب إليه؟

ـ أرغب في التوجه إليه في الحال.

ـ حسناً جداً.

لم تصدر عن السيد أية إشارة، لكن خنفساً صغيراً يكاد طوله يزيد عن طول طفل ظهر في الحجرة. لم يتمكن نيال من فهم الكلمات التي تبودلت بينهما، لكنها بدت بلا معنى، مثل خشخشة أوراق جافة. ثم انسحب الخنفساء الصغير، وقال السيد:

ـ أمر آخر أريد أن أوضحه. فسيد العناكب ماكر وخبيث، لكنه عند كلمته، فإذا ما وعدك بشيء، فسوف يفي بوعده. وإذا ما استطعت التوصل إلى اتفاق سلام بشأن مصير الخدم من البشر فإننا سنكون ممتنين لك. وربما تنجح في مسعاك، فأنا أشعر أنك تخفي سراً.

لم يحر جواباً، فقد تعلم أن يسيطر على استجاباته، ولذلك فقد بدا ذهنه خالياً من أي شيء. قال السيد:

ـ امض الآن! وسوف يذهب معك كبير المستشارين.

ـ أشكرك.

استدار وانسحب من حضرة السيد. قطع نصف الطريق وهو يهبط المنحدر قبل أن يتذكر إن كان عليه أن ينحني أو يظهر أية دلالة على التبجيل.

بهرت أشعة الشمس في الخارج بصره فاضطر إلى إغماض عينيه. شعر بلمسة على كتفه وهو يقف متردداً. قام الخنفسا بأداء إشارات بقائمتيه الأماميتين، مصحوبة بصفير. رد نيال بعرض أفكاره:

ـ لا أستطيع فهم لغتك. أرجوك أن تحاول إجراء الاتصال بذهنك.

حدق الخنفساء فيه بعينيه السوداويين الخاليتين من أي تعبير. من الواضح أنه لم يتمكن

من التعبير عن نفسه بلغة البشر. أشار في النهاية إلى نيال أن يتبعه فانطلقا معاً باتجاه الساحة.

كان حشد البشر قد تفرق، ولم تكن هناك سوى مجموعة من الصبية تتابع أوليس وميلو وهما يطويان المناطيد. وجدا عربة بجوارها أربعة من السائقين بانتظارهما خارج مبنى البلدية. أشار الخنفساء إلى نيال بأن يصعد، وبمجرد أن جلس بدأ سائقو العربة يتحركون.

هبط دوجنز درج مبنى البلدية مسرعاً ولوح بذراعيه قائلاً:

- توقفوا دقيقة!

- فتوقف سائقو العربة.

- ماذا حدث؟

أحس نيال بتوتر دوجنز وعصبيته.

التفت الخنفساء إلى دوجنز وتحدث إليه بلغة الخنافس فشحب وجهه.

- يقول إنك ستذهب إلى سيد العناكب.

- نعم

- هل طلب السيد منك ذلك؟

- لا، لقد اتخذت القرار بنفسي.

- ولكن لِمَ؟ هل جننت؟

قاطع الخنفساء دوجنز، وأخذ نيال يراقب الاثنين وهما يتبادلان الإشارات. التفت دوجنز إلى نيال وهز رأسه في سخط، وقال وهو يحاول التحكم في أعصابه:

- لن يغير هذا من الأمر شيئاً. يقول إنه سيذهب معك ليحيط سيد العناكب علماً بأنك تحت حماية السيد. ولكن لن يغير هذا من الأمر شيئاً. لقد حاول بالفعل قتلك أمام السيد.

وضع نيال يده على كتف دوجنز محاولاً تهدئته وقال:

- لا عليك. لقد وعد السيد بأن يعيد إليكم الأسلحة الحاصدة إذا قتلني سيد العناكب حتى تتمكنوا من الانتقام.

حدق دوجنز فيه بريبة وقال:

- هل وعد بذلك حقاً؟

- نعم.

فكر دوجنز للحظة، ثم هز رأسه قائلاً:
ـ لكن ما تفعله يتسم بالجنون. لماذا تريد الذهاب بمفردك؟
ـ لقد سببت هذه المتاعب، ويجب أن أحاول حلها الآن.
ـ في هذه الحالة سآتي معك.

بدأ يصعد إلى العربة، لكن نيال منعه وقال وهو يضع يده فوق كتفه:
ـ لا. عليّ أن أذهب بمفردي.

حدق دوجنز في عينيه كما لو أنه يحاول قراءة أفكاره، ثم قال في نهاية المطاف:
ـ آمل أن تكون مدركاً لما تفعله.
ـ أظن ذلك.

تمنى نيال ألا تكون عيناه قد وشتا بعدم اقتناعه، وقال:
ـ يتعين عليّ أن أمضي الآن. أعتقد أن السيد قد ألغى اجتماع المجلس. إلى اللقاء حتى نلتقي مرة أخرى.

مال للأمام وأصدر إشارة لكبير السائقين بالتحرك فانطلقت العربة. رأى، حين انعطفت إلى الشارع الرئيسي، دونا تعبر العشب وتهرع باتجاهه وهي تناديه، فقرر ألا يتوقف حتى لا يضطر للمزيد من الشرح.

تبع الخنفساء العربة وهو يسير بخطى طويلة غير متسرعة، ولم يبذل جهداً للسير في محاذاة السائقين. تجاوزوا بعد عشر دقائق حدود المدينة وأصبحوا في الحقول المنبسطة. كان صباحاً اتسم فيه الجو بالصفاء، وهب نسيم عليل، وحمل الهواء رائحة خريف وشيك. بدأت أوراق الأشجار تتحول إلى اللون البني، وظللت الأشجار الطريق وسط الغابة، وتلألأت مياه النهر الذي يجري بجانبهم. جعله خرير الماء يشعر بحالة من الهدوء تغلبت على توتره.

حين فكر مرة أخرى في الحديث الذي أجراه مع السيد اعترته الدهشة والحيرة. بدا غريباً أن يخاطب السيد بقليل من الاحترام. وعندما حاول إعادة تصور حالته الذهنية خلال المقابلة أدرك أن كلماته كانت تعبر عن إحساس عميق بالاقتناع الداخلي. ولكن ما كُنه هذا الاقتناع بالتحديد؟ كلما فكر في ذلك راوغته الحقيقة.

كان ثمة أمر واحد في غاية الوضوح، وهو أن الخنافس، رغم قوتها وحكمتها، تفتقر إلى فهم مدى توق الإنسان إلى الحرية. وهي أقل قسوة من العناكب، إلا أنها تعامل خدمها

من البشر كالأطفال. ولم يبد أنها تدرك أن الإنسان يشعر بالاستياء لكونه خادماً مهما لقي من معاملة حسنة. ونتيجة لعدم إدراكها فقد أفسحت الطريق أمام حدوث تمرد.

باتوا على بعد نحو ميل من ضواحي مدينة العناكب. انتشرت الحقول المزروعة على جانبي الطريق، ورأى في أحدها مجموعة من الرجال يحرثون الأرض وتشرف عليهم امرأة. بدا المشهد تحت أشعة الشمس الرقيقة كأنه في عالم ريفي هادىء. وجد نفسه يفكر في الطبيعة البشرية المثيرة للحيرة، فالبشر يتوقون إلى الحرية، ومع ذلك فإنهم يتوقون أيضاً للراحة والأمان. أحس أن هاتين الرغبتين متضاربتان، وشعر بالحيرة والاضطراب وهو يفكر في ذلك.

ثم وصل سائقو العربة إلى قمة التل الذي يمثل الحدود الخارجية لمدينة العناكب، واعتراه مرة أخرى شعور بالرهبة وهو يتطلع إلى مجموعة عريضة من المساكن البشرية. بدا الأمر لا يصدق؛ فهذه المدينة العظيمة كان يسكنها ذات مرة مئات الالآف من البشر الذين كانوا السادة، والذين لم يدينوا بأي ولاء سواء للعناكب أو للخنافس. أخذوا يهبطون التل، وتحرك سائقو العربة بسرعة، وأخذت أنسجة العناكب الخاوية تتموج فوق رؤوسهم وسط النسيم الدافىء. حاول نيال، بينما راحت العربة تقعقع على الطريق العريض، أن يتذكر أول مرة شاهد فيها مدينة العناكب. فبالأمس كانوا يتخبطون وسط مستنقعات الدلتا، وأمس الأول عاد مع دوجنز من ضفاف النهر العظيم، وقبل ذلك بيوم. . . وحين انتهى من ذكرياته دهش إذ أدرك أنه لم يمر سوى أسبوعين منذ أن نزل في الميناء.

وقبل ذلك بثلاثة أيام فقط كان أبوه ما يزال على قيد الحياة، وكانوا ما يزالون يعيشون في الجحر. بدا الأمر في غاية الغرابة، ففي غضون سبعة عشر يوماً فقط خاض تجربة قد تستغرق حياة معظم الرجال.

عرف فجأة، حين دخلوا حي العبيد، الإجابة عن السؤال الذي أثار حيرته. وهو: لماذا يتوق البشر للحرية بشكل أكبر من الأمن والراحة؟ لأن الحرية تعني ثراء التجربة التي تعني بدورها اكتشاف قدراتهم. فبدون ثراء التجربة لا يمكن أن يكون هناك أي اكتشاف لطاقاتهم الداخلية. ولهذا السبب كره الانسان الاستبعاد لأنه يعني الركود الداخلي. . .

أثارت الروائح المألوفة لحي العبيد، ومشاهد الأسماك المعلقة في صفوف، والفئران الباحثة عن الطعام في الحارات، شعوراً مفاجئاً بالحنين. كان عليه أن يُذكر نفسه، مرة أخرى، بأنه لم يمض سوى أقل من أسبوعين منذ أن رأى هذه الشوارع القذرة. كما دُهش من التغيرات التي طرأت عليه خلال هذه الفترة القصيرة.

اقتربوا من الجسر الممتد فوق النهر. رأى في نهاية الشارع، خلف الجسر، البرج الأبيض الذي يقع خلفه مقر سيد العناكب. لاحظ بارتياح أنه قد سيطر على شعوره اللاإرادي بالخوف قبل أن يتدفق في جهازه العصبي. رأى، بعد لحظة، العربة التي كانت تقف في وسط الطريق على الطرف الآخر من الجسر. أمسك سائقان يقفان في وضع الانتباه، بالعريشين. تعرف في الحال على الفتاة الجالسة داخلها، وحين اقترب لوحت له بيدها وترجلت. توقف سائقو عربة نيال من تلقاء أنفسهم، وأحنوا رؤوسهم تبجيلاً. صعدت إلى جانبه ومالت على أقرب سائق وربتت على كتفه قائلة: «استمر، ولكن ببطء!» وتجاهلت تماماً الخنفساء الذي بدت علامات الدهشة في عينيه السودواوين الجاحظتين.

قال نيال: كيف عرفت بأنني آت؟

ـ نحن النساء لنا أسرارنا.

وندت عن شفتي ميرلو ابتسامة ساحرة وهي تضيف: هل قررت الأخذ بنصيحتي؟

طرحت هذا السؤال وكأنها تستكمل حديثاً بدأ لتوه.

ـ اتعنين بذلك الزواج مني؟

تضرج وجهها، وألقت نظرة خاطفة على سائقي العربة على أمل ألا يكونوا قد استرقوا السمع، وقالت: لا. إنني أعني التوصل إلى تفاهم مع سيد العناكب.

هز رأسه وقال: لا أظن ذلك.

اتسعت عيناها دهشة، وقالت: إذن، ما الذي أتى بك إلى هنا؟ في محاولة للتفاوض مع سيد العناكب.

تضرج خداها وهي تحاول خفض صوتها، والتمعت عيناها وهي تقول: غير معقول ما تقوله!

طيرت الريح فستانها الأحمر فكشفت عن ساقيها الخمريتين الجميلتين. أبدى جزء من نيال إعجابه بجمالها، بينما نظر جزء آخر منه إليها بهدوء ساخر. رآها، من خلال عيني عواطفه مرغوبة بشكل جنوني، بينما رآها، بعينيه الأخريين، فتاة مدللة تعودت على نيل ما تريد، وعلى تصميمها لضمه إلى نفسها. بل إنها ارتدت هذا الفستان الشفاف لتحقيق هذا الهدف، فهي تدرك أنه يجعلها، تحت أشعة الشمس الساطعة، عارية بالفعل، وليس هناك رجل يستطيع مقاومتها حين تستخدم كل أسلحة فتنتها. لاحظ بفضول أنها تفرز قوة كهربائية معينة تؤدي الى تسارع نبضات قلبه. ولكن في الوقت الذي رآها فيه فاتنة بعواطفه،

فإن جزءاً آخر منه نظر إليها بطريقة ساخرة. فقد رآها هذا الشخص الآخر من خلال عينيه الأخريين طفلة رائعة، لكنها عنيدة، وأدرك أن أي تورط عاطفي طويل الأمد معها سوف ينتهي بكارثة.

مالت للأمام وقالت لسائقي العربة:

ـ احملونا إلى قصري!

هز نيال رأسه وقال: لا. يتعين عليّ أن أقابل سيد العناكب.

قالت بصوت ناعم: أعرف ذلك، لكن تعال وتحدث معي أولاً!

عرف أنها سوف تستخدم كل فنون الإقناع. ولم يستسغ فكرة مقاومتها فقال:

ـ آسف. فلا بد وأن أقابل سيد العناكب.

ـ ليكن. ولكن أرجوك أن تصغي لما سأقوله.

ربتت على يديه بأصابعها الرقيقة ونظرت إلى عينيه وقالت:

ـ أتعرف أن سيد العناكب قد توصل إلى اتفاق مع الخنافس؟

قال بدهشة: لا. لا أعرف.

ـ لقد توصلوا إلى اتفاق بمجرد رحيلك. وبالمناسبة ما كان يتعين أن ترحل، فقد أثار ذلك غضب الخنافس. ومن الغباء أن تثير غضبها في الوقت الذي تسعى فيه إلى ضمها لجانبك.

تساءل بصبر: ما هذا الاتفاق؟

ـ اتفقوا على أنهم كانوا قد منحوا خدمهم قدراً كبيراً جداً من الحرية، مما جعلهم ناكرين للجميل ومتمردين. كما اتفقوا على مصادرة هذه الأسلحة المخيفة، ووعدوا بعدم إعادتها لكم تحت أي ظروف.

ـ كيف عرفت كل هذا؟

ـ أعرف كل شيء يحدث.

تساءل مرة أخرى: ما الذي يحدث لو أن الخدم قرروا أنهم لا يريدون أن يكونوا خدماً بعد الآن؟

هزت رأسها، وبدا واضحاً أن الفكرة بدت غريبة عنها، وقالت:

ـ من الغباء أن يقرروا ذلك.

ـ لِمَ؟

- لست مضطرة لأن أشرح لك أسبابي.

كانوا قد وصلوا إلى طرف الساحة المواجهة للبرج الأبيض ومقر سيد العناكب. تصاعد دخان أسود من نار مشتعلة عند الجانب البعيد للبرج، ووقف حشد من العبيد حولها يلقون بأشياء وسط اللهب، بينما راح آخرون يجرون العربات عبر العشب.

وأخذ عدد من المشرفين والخدم يتابعون الموقف من بعيد.

تساءل نيال: ماذا يحرقون؟

أومأت إلى الحشد وقالت: مجرد كتب. انظر إليهم. ماذا كانوا يفعلون لو لم يكونوا خدماً؟ إنهم في غاية السعادة، بل إن «ماسيج» وآخرين يستمتعون بالإقامة هنا. وأنا على يقين من أن أهلك يشعرون بالإحساس ذاته.

قال نيال: لا أريد أن أكون خادماً.

- إنك تشبهني. لقد خلقنا لنكون حكاماً.

وخفضت صوتها وقربت شفتيها من شفتيه وقالت:

- لهذا السبب ينتمي كل منا للآخر.

ثم تذكرت أنها في مكان عام فأبعدت وجهها، وضغطت على يده مرة أخرى وقالت: أليس كذلك؟

- لو أن ما تقولينه صحيح فإنه لن يكون أمامي بديل.

- هذا صحيح، ولن يلومك أحد.

سألها: لماذا يحرقون الكتب؟

- إن هذا أحدث ما اقترحه سيد العناكب. لقد أدرك فجأة أن هذا المكان مملوء بالكتب المخبأة في اليوت القديمة.

- لكن خدمه ليس باستطاعتهم القراءة.

- بلى، ولكن قد يجدون الدافع لتعلمها.

أضطر سائقو عربتها للتوقف لإفساح الطريق أمام عربة محملة بكتب جميعها مغلف بجلد أزرق مرصع بحروف من ماء الذهب، من الواضح أنها جُلبت من إحدى المكتبات.

قالت ميرلو: لقد وعدت الخنافس بالقيام بالشيء ذاته في «كراشفيل». إن خدمها لم

يلتزموا بالقانون لأجيال. أما الآن فإنهم سيقومون بتسليم كتبهم. واعتقد أن هذا سيكون أمراً جيداً.

ـ لِمَ؟

ـ آمل ألا تستمر في طرح الأسئلة عليّ؟ أليس ذلك واضحاً؟ إن بنداً من معاهدة السلام يقضي بألا تسمح لخدمها بالقراءة. وقد دأبت الخنافس على السماح لخدمها بخرق المعاهدة. والآن فقد وافقت على وقف عدم الانصياع لبنود المعاهدة. وأظن ذلك سيفيد كثيراً.

ـ لِمَ؟

قالت بصبر نافد: لأنه ليس من المفيد أن يتعلم الخدم القراءة. أنت لا تستطيع القراءة، ومع ذلك لا تشعر بأي نقص، أليس كذلك؟

ـ لكنني أستطيع القراءة.

عكست عيناها للحظة حالة الذعر التي انتابتها وقالت:

ـ أتستطيع القراءة حقاً؟ حسناً، لا يهم طالما أن العناكب لم تكتشف ذلك.

ـ لهذا السبب لا أريد أن أكون خادماً. أرغب في أن يسمح لي باتخاذ القرار الذي أراه مناسباً تجاه هذه الأمور.

عكست عيناها حالة الذهول التي اعترتها، وبدا واضحاً أنها تفكر في شيء آخر وهي تقول:

ـ نعم، أدري. ولا أظن أنها ستهتم بذلك. وعلى أية حال فإنه لن يبقى أي كتاب حين تنتهي المهمة.

توقفوا أمام مقر سيد العناكب حيث وقف عنكبوتان ذئبيان في الحراسة تحت الرواق عند المدخل. بدا أن ميرلو قد فوجئت بالمكان الذي وصلوا إليه فمالت للأمام وربتت على كتف أقرب سائق غاضبة وقالت:

ـ أعتقد أنني طلبت منك الذهاب إلى قصري.

قال نيال: لا. لا بد وأن أقابل سيد العناكب أولاً.

رمقت سائقي العربة شزراً وقالت: ولكن لا بد وأن ينفذوا ما يُطلب منهم. وأحس نيال مرة أخرى بطبيعة الطفلة المدللة، وشعر بالحزن.

هرع خنفساء المدفعية نحو الأبواب الرئيسية التي انفتحت وخرج منها عنكبوت

موت أسود قصير وبدين أكدت قوائمه المقوسة مدى قوته. اعترى نيال عندما حدق فيه العنكبوت إحساس قوي بالخطر.

همست ميرلو في أذنه قائلة:

ـ هذا هو «سكوربو» قائد الحرس.

كادت موجة العداء التي بثها العنكبوت تخنق نيال، مما دفعه لمحاولة استخدام مرآة التأمل ليعرب عن تحديه، لكنه استبعد الفكرة في الحال، فاستفزازه لن يجدي في شيء.

جرت محادثة قصيرة بين العنكبوت وخنفساء المدفعية التفت بعدها الخنفساء وأومأ إليه. وحين هم بالترجل خرجت ثلاثة عناكب أخرى من المبنى وأحاطت به. وبدا هذا التصرف لنيال لا معنى له، فهو لا ينوي الهرب. لكنه سرعان ما فهم الأمر، فالغرض من ذلك هو جعله يشعر بأنه أسير، وسيكون محظوظاً لو نجا بحياته. أحس بقوة إرادتها المعادية تضغط عليه بلا هوادة.

ترجلت ميرلو هي الأخرى في أعقابه، وحاول الحرس من العناكب الوقوف في طريقها، لكنها شقت طريقها بثبات لتقف بجانب نيال.

قال نيال: لا يمكنك الدخول معي.

ـ إن بوسعي دخول أي مكان أريده. إنني الأميرة.

نظرت شزراً إلى أقرب حارس عنكبوت، فأحس بالغضب لأن من يتحداه هو مجرد إنسان. لكن وجود قائد الحرس أجبره على كظم غيظه. أدرك نيال كل ما يجول في ذهن العنكبوت من الانفعال، وخشي من رد فعله إذا ما ألحقت العناكب الأذى بميرلو، فأمسكها من يدها وقال:

ـ أرجوك أن تذهبي الآن، فعلي أن أتعامل مع هذا الأمر بمفردي.

ردت بعناد: سأذهب وقتما أشاء.

ضغط أحد العناكب على كتف نيال ودفعه للدخول. سارت ميرلو بجانبه حين تخطوا الباب إلى داخل المبنى المظلم، وقد تناست مقت الحرس من العناكب. وقف قائد الحرس على أحد الجانبين وراقبهما بنظرة متأملة فضولية فأحس نيال بغريزته أنه أخطر بكثير من [illegible]ناكب الأخرى. أثار هذا العداء الوحشي غضبه، لكنه أدرك ضرورة التحكم في عواطفه.

أحس أيضاً أن خنفساء المدفعية يشعر بالاستياء وعدم الثقة. فقد كان ينبغي، وفقاً

لنظام اللياقة، أن يُعامل باحترام وتوقير، لكن العناكب عاملته على أنه متطفل غير مرغوب فيه، وهذا يمثل إيماءة عدم احترام تجاه سيد الخنافس.

مع ذلك لم تكن هناك أية فظاظة صريحة، ولم يكن على يقين ممّا إذا كان ينبغي عليه أن يظهر استياءه أو يلزم الصمت. وحين أحس نيال بحيرته اعترته من جديد موجة الكراهية تجاه العناكب.

كان يتوقع أن ترافقه العناكب إلى أعلى، إلا أنها توقفت عند زاوية القاعة المظلمة. وقف الحرس الثلاثة حولهم، وفاحت من أجسامهم رائحة حريفة غريبة وجدها نيال مقززة. ومع ذلك فقد بدت، من الناحية الجسمانية، أقل خطراً من العناكب الذئبية المُشعِرة، لكنها أظهرت طبيعتها العنيفة بوضوح.

نفد صبر ميرلو؛ فقد جعلها تعودها اليومي على العناكب جريئة فاندفعت وسط العناكب. ووقفت في مواجهة القائد.

ـ لماذا نظل منتظرين هكذا؟

حدق العنكبوت فيها، وبدا من قسمات وجهه أنه يدعي عدم الفهم، وهذه هي الطريقة التي تظهر بها العناكب احتقارها. أحمرّ وجه ميرلو من الغضب وعادت إلى نيال قائلة:

ـ سوف أتقدم بشكوى ضدهم لدى سيد العناكب، فليس من حقهم معاملتنا كالخدم.

قال نيال بهدوء: لا أحد يجب أن يُعامل كخادم.

انفتحت الأبواب ودخل عنكبوت آخر. تعودت عينا نيال الآن على الضوء الخافت، وتمكن من رؤية العنكبوت الذي كان عجوزاً تكاد قوائمه الطويلة الرفيعة لا تتحمل ثقل جسمه الضخم. حدقت ميرلو فيه باهتمام استيقظ بداخلها لتوه، وهمست في أذن نيال حين صعد العنكبوت الدرج واختفى عند الزاوية:

ـ إنه «درافيج» كبير مستشاري سيد العناكب. لا بد وأنهم يعتبرونك شخصاً في غاية الأهمية.

أحس نيال فجأة أنها معجبة بشخصيته.

أومأ القائد للحرس فربت أقرب حارس على ظهر نيال برفق ليتحرك. التفتت ميرلو إلى الحارس وقالت بسخط:

أحذرك أن تلمسني!

ثم أدركت أن القائد يقف أمامها ويسد عليها الطريق. نظرت إليه شزراً وقالت:

ـ سوف أدخل معه.

وحاولت التقدم، ولكن حاجزاً خفياً أوقفها. كان القائد يستخدم قوة إرادته لمنعها من التقدم. اتسعت عيناها من الحنق، فأمسك نيال بذراعها وقال:

ـ أرجوك أن تنتظري هنا. يجب أن أذهب بمفردي.

بذلت جهداً للسيطرة على نفسها وقالت:

ـ حسناً.

حدقت في القائد، ثم استدارت وخرجت من الباب الموارب. تنفس نيال الصعداء، وأحس أنه محمل بمشاكل عديدة تحول دون اهتمامه بتهور ميرلو.

راحوا يصعدون الدرج. بدا هذا المبنى، في آخر مرة دخله، مفعماً بالنشاط. تذكر العنكبوت الذي يرقى إلى درجة رقيب وهو يصدر الأوامر إلى العناكب الذئبية. أما الآن فإن المكان يبدو وقد لفه صمت غريب. أغمض عينيه وبذل جهداً ليسترخي. فهم في الحال سر هذا السكون، فالمدينة بأسرها في حالة حداد على مئات الموتى من العناكب، وعلى العديد من العناكب التي تنتظر الموت، في هذه اللحظة، متأثرة بحروقها. لم يكن يتخيل أن العناكب يمكن أن يحزن بعضها على بعض مثل البشر، وغمرته، للحظة، موجة من التعاطف. ثم تعثر فدفعه العنكبوت الذي يسير خلفه في مؤخرة عنقه. تلاشى التعاطف وحل مكانه الاشمئزاز، ولكن بدرجة أقل من ذي قبل.

انفتح الباب المكسو بالقماش الأسود حين اقتربوا منه، فلاحت أمامهم القاعة المظلمة وقد اكتست بنسيج العناكب. تذكّر نيال أنه هنا كسفير، وليس كأسير، ولكن كان من الصعب عليه التحكم في شعوره المفاجيء بالذعر الذي ضغط على قلبه. تنحى الحراس الثلاثة، للمرة الأولى، وسمحوا له بالدخول بمفرده. سار قائد الحرس أمامه، بينما مشى سفير الخنافس خلفه. توقف القائد، ثم تنحى جانباً ووقف على بعد بضعة أقدام. وقف نيال وخنفساء المدفعية جنباً إلى جنب وأخذا يحدقان في الظلام. حاول اختراق الظلام ببصيرته المزدوجة، لكن الأمر بدا كما لو أن ستارة ما تقف حائلاً أمام عينيه.

ثم تردد الصوت الهادىء المألوف داخل صدر نيال، وقال ساخراً: بوسعك الآن أن تسمعني.

قال نيال: «نعم». وقد استخدم ذهنه فقط لنقل الكلمة وتوجيهها إلى الحاضر الخفي وسط الظلام.

عمت فترة صمت. وقال الصوت بهدوء: أنت تفهمني هذه المرة.

رد بصوت داخلي هادىء واثق من نفسه أثار دهشة سيد العناكب:

ـ نعم أفهمك.

وجه سيد العناكب حديثه إلى قائد الحرس:

ـ إنه يعلق شيئاً ما حول رقبته. انزعه عنه!

لم يكن نيال يرغب في أن يتحسس مخلب العنكبوت رقبته. فمد يده وأخرج مرآة التأمل وسلمها إلى القائد، لكنه شعر بالأسف لافتقادها.

قال رسول الخنافس:

ـ هل لي أن أقرأ الرسالة التي أحملها؟

أرسل سيد العناكب نبضاً يدلل على الإذن له بذلك، فقال السفير:

ـ يرغب سيد الخنافس أن أبلغكم بأن هذا الإنسان تحت حمايته، وأنه واثق أنك ستحسن معاملته.

جاء رد سيد العناكب مثل نوبة غضب عاتية، وقال:

ـ لقد قتل هذا الإنسان الكثير من شعبي. إنه يستحق الموت ألف مرة. وأظن أن حق مطالبتي به يفوق بكثير حق سيدك.

أخذ النسيج ذاته يصدر ذبذبات كما لو أن جسماً هائلاً يهزه.

قال الخنفساء: قد يكون الأمر كذلك، ولكن. . .

ـ لقد نقلت لنا رسالتك. والآن امض!

كان التهديد الذي يحمله هذا الأمر هائلاً فأصاب نيال بالقشعريرة، وتوقع أن يغادر السفير القاعة، إذ ليس هناك أي رد آخر على هذا الأمر. لكنه دُهش حين وجد أن الخنفساء لم يتحرك من مكانه.

ـ إنني أطالب بحق البقاء باعتباري مرافقاً له.

تحدث بهدوء، وبدون أي انفعال، لكن نيال لاحظ نبرة تصميم حديدية وراء هذه الكلمات. فهم في الحال السبب الذي جعل العناكب تشن حرباً ضد خنافس المدفعية، والسبب الذي أجبرها على إبرام سلام معها.

تقدم قائد الحرس خطوة للأمام، وبدا مستعداً للاعتدا على السفير، إلا أن أمراً صامتاً

من سيد العناكب جعله ينسحب. وحين تحدث سيد العناكب مرة أخرى بدا صوته أكثر هدوءاً واعتدالاً.

ـ لقد طلبت منك مغادرة المكان، فوجودك غير مطلوب.

قال السفير بصوت واضح:

ـ إن فظاظتك تجبرني على الحديث بصراحة. يرغب سيدي في إحاطتك علماً بأنك إذا قتلت هذا الإنسان فإنه سيضطر إلى تسليم الأسلحة المسروقة إلى الخدم من البشر ويتركهم ينتقمون له، مما يعني مزيداً من القتلى بين صفوف شعبك.

بدت الحجرة حتى قبل أن ينتهي من كلامه وقد امتلأت بغضب بارد وعنيف يرقى إلى قوة عاصفة عاتية في البحر، واستجمع نيال قواه بصورة غريزية واستعد لتلقي ضربة وحشية. وحين نظر إلى السفير الخنفساء رأى أنه لم يتأثر بهذا الغضب، بل راح يحدق بهدوء في الظلام الذي يلف الأنسجة. فأثار ذلك إعجابه، مما جعله يسيطر من جديد على نفسه.

أدرك سيد العناكب أن هذا الغضب قد فضح افتقاره للسيطرة على نفسه. وحين تحدث مرة أخرى أصبح صوته هادئاً بشكل غير متوقع:

ـ لا اعتزم قتلك. فالموت في غاية السهولة. والآن أسد لي معروفاً واتركني وشأني معه!

لم يتحرك الخنفساء قيد أنملة، وقال:

ـ آسف. يجب أن أبقى.

تقدم القائد خطوة، مرة أخرى، مهدداً، لكن أمراً صامتاً أوقفه من جديد. ساد صمت، ثم قال سيد العناكب:

ـ حسناً. إبق! ولكن نظراً لأن هذا المكان خاضع لهيمنتي فأنا الذي أضع الشروط. ويجب أن تعد بالتزام الصمت. اتفقنا؟

ـ اتفقنا.

ـ وإذا لم تلتزم بوعدك لم التزم باتفاقنا، وسوف يفقد الأسير حياته.

قال السفير بعناد: لا أستطيع الموافقة على ذلك.

ـ موافقتك أو عدمها لن تغير من الأمر شيئاً. إلزم الصمت الآن!

أحس نيال أن أعصاب سيد العناكب تكاد تفلت منه.

ثم تحدث بصوت من داخل صـدره مرة أخرى.

ـ يبـدو أنني سأبقي على حياتك. ولكن جريمـة كتلك التي ارتكبتهـا لا يمكن أن تمـر دون عقاب. وبالتالي فقد قـررت أن تتذوق أنت أيضـاً ألم افتقاد أعـز أقربـائك. ولا بـد أن يموت أفراد أسرتك بدلاً منك.

لم يحر نيال رداً، لكن قلبه انسحق حزناً وغماً.

قال سيد العناكب للسفير:

ـ أتوافق على أنه ليس من حقك الاعتراض على ما يحدث للأسرى الآخرين لدي؟

التزم السفير الصمت، للحظة، ثم أومأ بالموافقة.

سمحت هذه اللحظة لنيال بالتفكيـر فقال:

ـ تريد تعاوني، وإذا ما ألحقت ضرراً بأسرتـي فسيكون ذلك مستحيلاً.

رد الصوت بهدوء، رغم نبرة الوحشية:

ـ ليس هنـاك شيء مستحيل. وسـوف أثبت لك ذلـك. سوف تنحنـي وتعـترف بأنني سيدك.

وقف نيال، منتظراً. لم يكن قد خطر له من قبل الانحنـاء أمام سيـد العناكب. مـلأته الفكـرة ازدراء وغضباً وانتـابه الـذعر حينـما شعر بـإرادة سيد العنـاكب تمتلك جسمـه. حـاول المقاومة، لكن ذلك كان مستحيلاً، فهذه الإرادة تمـاثل أفعى ضخمـة تلتف حولـه وتضغط على جسمه الذي بات غير قادر تماماً على الحركة، كما أصبح، في الوقت ذاته، متخـدراً كـما لو أنه تجمد داخل كتلة من الثلج. بل أصابت الإرادة عضـلات عينيه بالشـلل فلم يستطع النظر بطرف عينه إلى السفير، ولم تستطع عضلة، أو عصب واحد، إطاعة إرادته.

ثم شعر بركبتيه تنثنيـان ليجثو على الأرض. انحنى رأسه في إيماءة خضـوع، وتمددت يداه أمامه، ولمس الأرض بجبهته، وتحركت شفتاه، وسمع صوته يقول:

ـ أنت سيدي العظيم.

قال الصوت:

ـ حسناً. قف الآن واطلب من السفير مغادرة الحجرة!

وقف جسم نيال، مرة أخرى، مثل قفاز يطيع اليد الخفية بداخله، والتفت نحو السفير الخنفساء وقال صوته:

ـ أطلب منك الآن أن تتركني بمفردي مع سيد الموت!

أحس أن ذهن الخنفساء يحاول سبر غور ذهنه، لكنه لم يستطع التناغم مع طول موجته وأدرك وهو يحدق في عينيه السوداوين أنه غير قادر على تغيير التعبير البادي في عينيه.

رد الخنفساء:

ـ آسف، فسوف أعصي سيدي إذا ما تركتك بمفردك هنا.

بعث نيال برسالة امتنان نبضية، وأحس بارتياح عندما عرف أن السفير الخنفساء قد تلقاها، فقد دلت رعشات قرنيه على ذلك. وعندما أدرك أنه نجح في الاتصال ساعده ذلك على تحرير نفسه من الشعور بالعجز الذي جعل ذهنه يتخدر ويستلم لحالة الخضوع. ولكن حينما حاول نقل رسالة أخرى وجد أن ذهن نفسه استحوذت عليه إرادة سيد العناكب، وبالتالي فقد تجمدت النبضة الذهنية.

سمع صوت سيد العناكب:

ـ قل لي الآن سبب قدومك إلى هنا.

ـ طلب مني سيد الخنافس أن أنقل رغبته في إعادة السلام بين شعبه وشعبك. وأنا على استعداد للقيام بأي شيء يؤدي إلى تحقيق ذلك.

ـ حتى لو كان ذلك يعني أن تقسم بأن تصبح خادمي؟

ـ نعم.

ـ إذن أجث وقل: أنا، من هذه اللحظة، خادم سيد الموت، وأقسم على إطاعة كل أوامره.

قاوم نيال، للسيطرة على نفسه، وللإطاحة بالقبضة الحديدية التي تحكمت في جسمه وذهنه. نجحت مقاومته للحظة، وبدت في عينيه دلائل التحدي، وظلت شفتاه مطبقتين. ثم باتت الضغوط أكبر مما يحتمل. سمع صوته يقول:

ـ من هذه اللحظة أنا خادم سيد الموت، وأقسم أن أطيع كل أوامره.

ورغم أنه نطق بهذه الجملة إلا أن ذهنه استمرَّ يعرب عن التحدّي، فأثار ذلك فيه شعوراً بالانتصار، وتأكّد أن إرادته ما تزال حرّة لم تتحطّم. وعرف من تزايد الضغوط عليه أن هذا يثير حنق عدوه الذي لن يرضيه سوى خضوعه التام، وتحطيم إرادته، وإجباره على الإذعان واستجداء رحمته. لكن نيال أدرك، رغم بؤسه، أن إرادته بعيدة عن سيرة العناكب.

أحسَّ الخنفساء السفير بالحيرة، ولم يقتنع تماماً بإذعان نيال البادي من تصرفاته

وشعر بأن هناك أسباباً تجعله يتظاهر بالخضوع لإرادة سيد العناكب. لكنه صمم على ألا يغادر المكان بدون نيال الذي شعر بامتنان عميق له.

قال سيد العناكب:

ـ لقد قبلت قسم الولاء. والآن سوف تخضع لأول اختبار. يجب عليك أن تخبر أسرتك أنهم سيموتون ليكفّروا عن جريمتك ضد شعبي.

ثم قال لقائد الحرس:

ـ أحضر الأسرى!

قال السفير غاضباً:

ـ هذا كثير.

رد سيد العناكب:

ـ لقد حنثت بوعدك بأن تلتزم الصمت.

ساد الحجرة على حين غرة جو من التهديد، وأحس نيال، رغم أنه لم يستطع الالتفات، أن السفير قرر إطاعة سيد العناكب.

مضى قائد الحرس إلى الباب الذي سمعه نيال وهو ينفتح. ثم تناهى إلى مسامعه وقع أقدام تدخل الحجرة. مر أخوه «ڤيج» بجانبه، لكنه لم يستطع، للحظة، التعرف عليه. كان ڤيج يعتمر قبعة من الفراء غطّت وجهه مثل الغماء، ورُبطت يداه وراء ظهره. ثم دخلت «سيريز» ومعها «رونا» و«مارا»، وثلاثتهن يعتمرن غماءات الفراء ذاتها، كما ربطت أيديهن خلف ظهورهن. وربطت سيريز ورونا ومارا بحبل من معاصمهن. أمرهم القائد بالتوقف فوقفوا مذعنين في مواجهة النسيج المظلم. أحسَّ نيال أنهم فاترو الهمّة، كما لو أنهم مخدرون. ثم أمرهم القائد بأن يستديروا، فاكتشف نيال أن الغماءات هي أقنعة ذات فتحات للعينين والفم أدرك من خلالها أن أفواههم مكممة. انتابته قشعريرة مرعبة وهو يرى هذه الغماءات والعيون الجامدة التي تطلعت من ورائها. شعر فجأة بالسعادة إزاء هذه القبضة الجليدية التي عصرته بلا رحمة، فقد أدت إلى تخدير اليأس الذي تصاعد بداخله. اعترته الشكوك، لأول مرة، في أن سيد الموت يخطط لتنفيذ أمر في غاية الوحشية.

ورغم الحنق والبؤس ظل جزء منه هادئاً، وكان هذا هو الدرس الذي تعلمه خلال الأسابيع القليلة الماضية ـ تخيل، وهو يحدق في النسيج، أنه ما يزال يمتلك مرآة التأمل، وأنها معلقة حول رقبته، ثم تخيل أنه مد يده وقلبها.

أعطى حنقه قوة دفع لإرادته، وشمله، مرة أخرى، إحساس مفاجىء بالتركيز والقوة، وتبخر شعوره باليأس والبؤس ليحل مكانه تصميم لا يلين. بدا الأمر كما لو أنه يستيقظ من نوم عميق. انتابته صدمة حين أحسَّ أنه كاد يتخلّى عن إرادته، ولو أن هذا حدث لكان قد ارتكب أكبر حماقة في حياته؛ فإرادته هي الشيء الوحيد لديه الذي لا يمكن تحطيمه أو السيطرة عليه.

ظل جسمه في قبضة سيد الموت، وتجاوزت عيناه أمه وأخذت تحدق في الظلام الذي يلف النسيج. أحس أن سيد الموت يستمتع بهذه اللحظة، وبمدى قوته المطلقة. أتاح ذلك له الوقت لبحث موقفه. اعتزم سيد العناكب إجباره على النطق بحكم الإعدام ضد أسرته، أو على تنفيذ الحكم. واعتقد أن هذا سيؤدي إلى تدمير إرادته والإطاحة بأي أمل باق له في الحرية. وبالتالي فقد كان من المحتم أن يرفض حدوث ذلك، فسبيله الوحيد لتحدي سيد العناكب هو رفض التخلي عن إرادته. جعله هذا التفكير يشعر بقدر من الارتياح.

فهم فجأة عندئذ رسالة امبراطورة النباتات الأخيرة. فقد سألها: أليس هناك شيء يمكنك القيام به لمساعدتي؟ وجاءه الرد في صورة استعراض للقوة. بدا الأمر كما لو أن الامبراطورة تريد أن تقول: لست بحاجة لمساعدتي، بإمكانك تحقيق كل شيء بنفسك.

إذن فالإجابة تكمن في رفض الاستسلام، ففي الوقت الذي تظل فيه الإرادة صلبة يبقى الذهن حصناً منيعاً لا يمكن أن يغزوه أحد. والأمل يكمن في القوة الذهنية الغريبة هذه تجاه العالم الخارجي، إنها القوة التي لم يستطع الذهن نفسه فهمها.

ومع ذلك كيف يمكن لهذه القوة مساعدته في ظل الظروف الراهنة؟ استدعى العناكب، لكنه لم ينجح، فقد كانت هناك قوة ما اعترضت نفاذ بصيرته مثل ستارة.

قال سيد العناكب:

ـ تحدث إلى أسرتك.

التفت وجه نيال إلى ڤيج فلم يجد أحداً، فقد اختفت أسرته، وأصبح المكان الذي كانوا يقفون فيه منذ لحظة خالياً. منعته صلابة جهازه العصبي من الشعور بالمفاجأة، فقوة سيد العناكب تتحكم حتى في ضربات قلبه. فهم على حين غرة ما حدث. فقد واصل النظر بعينيه الأخريين اللتين تأكد من خلالهما أن أسرته مجرد ظلال خاوية وأوهام صنعها سيد العناكب. لكن أسرته ظهرت من جديد أمامه بمجرد أن استبعد بصيرته المزدوجة. وقفوا في

مواجهته تحدِّق فيه عيونهم من وراء فتحات الغماءات فدُهش من مدى كمال الوهم. كانت أمه ترتدي الجلد الحيواني الرث الذي رآها به في آخر مرّة. أما الطفلتان فكانتا بزي الحضانة الأزرق الذي بات مجعداً. تغلغل سيد العناكب في ذهنه وجعله يحلم.

سمع صوته يقول:

- لقد أُمِرت بإبلاغكم أنه قد صدرت ضدكم أحكام بالإعدام، وذلك للتكفير عن جريمتي التي اقترفتها ضد شعب هذه المدينة. وسوف تموتون جميعاً في الحال. مَن منكم يريد أن يكون الأول؟

حاولت مارا أن تجري نحوه، لكنها تعثَّرت ووقعت بعد أن وصل الحبل لآخر مداه. حاول لا إرادياً التقدم لإنقاذها، لكنه وجد نفسه عاجزاً عن الحركة. التفتت سيريز نصف التفاتة وانحنت في محاولة لمساعدتها بيديها المربوطتين. فهم نيال الآن سبب ارتدائهم الغماءات المصنوعة من الفراء، فمجرد رؤية وجوههم سيجعله يدرك أنهم أشباح. لقد افتقر سيد العناكب لحدة الذكاء الذي يجعله يصنع وجهاً بشرياً يعكس روحاً بشرية. ولذلك فقد غطى وجوههم وكم أفواههم حتى لا يتكلموا. لكنه أدرك، بعد أن عرف ذلك، أن الأمر ما يزال غير مقنع، فبمقدور الشخص المكمم أن يثير أي ضجة، وهؤلاء الأشباح يلتزمون الصمت التام.

قال سيد العناكب:

- إذا لم يكن هناك أحد على استعداد للتطوّع فعليك أن تحدد بنفسك أيهم تختار كي يموت أولاً؟

أحس نيال بيده ترتفع وتشير إلى ڤيج.

قال سيد العناكب: حسناً، ما دمت أنت الذي اخترت.

أصابت ڤيج لطمة جعلته يترنَّح. جثا على الأرض وراح يتلوَّى من الألم كما لو أن قبضة حديدية خفية تطبق عليه. ندت صرخة مكتومة من وراء الكمامة، ثم سمع صوت تهشم عظام. وبعد لحظة تكسرت ضلوعه وتشوه جسمه. وتوقفت الصرخات المكتومة فجأة، وبدأ الدم يسيل من الأطراف الممزقة. بدا الأمر كما لو أن إسفنجة تم عصرها حتى لم تعد تحتوي على أية مادة رطبة. تناثر الدم على الأرض، ثم تُرك الجسم ليسقط مثل دمية مهشمة، وقد التوت رقبته للوراء فوق عنقه، بينما جحظت العينان من خلال فتحات الغماءة.

قال صوت سيد العناكب بسخرية: والآن، من سيكون التالي؟

انتابت نيال حالة من الرعب والغضب، ورغم معرفته بأن ما حدث مجرد وهم إلا أن العنف هزه بشدة. ولو كان يملك القوة لتحول حنقه وكراهيته إلى دمار يقضي على كل عنكبوت في المدينة. عزز الغضب تصميمه على أن شيئاً لن يحطم إرادته. وأتته القوة من داخله، ففي الوقت الذي ظلت فيه إرادته متماسكة بقي صامداً وقادراً على تحدي سيد العناكب إلى النهاية. أطبقت قدراته الحيوية بداخله مثل قبضة فحدث له نوع من الانفجار الداخلي هو مزيج من الحنق والازدراء.

بدا الأمر كما لو أنه انكمش وراء حدود داخلية ليحرر الغضب جهازه العصبي من قبضة سيد العناكب الحديدية، وأصبح قلبه فجأة مثل مولد يدفع الدم إلى شرايينه. كان ما حدث بعد ذلك مألوفاً له. فقد شعر بنفاذ بصيرة خاطف وإدراك بطبيعة الحرية التي تعني أنه حر هنا والآن، ثم تصاعد بداخله احساس بسعادة صافية. ثم بدا أن قوة أخرى تصعد من داخل أعماقه وتزيح حدود شخصيته الطبيعية، وتعيد مرة أخرى إدراكه الغريب بأنه ليس نفسه. وأدت هذه القوة إلى فك حالة الشلل التي أصابت أطرافه فاستطاع التحرك مرة أخرى. شعر بأن ارادة سيد العناكب تجفل، كما لو أنها تحاول تجنب لطمه. ظلت شفتاه مطبقتين تماماً. ومع ذلك فقد بدا الأمر كما لو أن كل كيانه قد أطلق صرخة انتصار غمرت الحجرة كومضة ضوء خاطفة. واستطاع بنظره أن يخترق، للمرة الأولى، غابة النسيج المتشابك.

كتم أنفاسه من شدة دهشته واستغرابه لما رأى، إذ لم ير سيد الموت الجبار ذي المائة عين، بل مجموعة من العناكب الصغيرة التي غطت أجسامها السوداء النسيج مثل ذبذبات واقعة في شرك، وراح بعضها يتحرك بعصبية ويتجه نحو زاوية النسيج، مما جعله يهتز ويتذبذب. انتابته، للحظة، شكوك بأن هذا وهم آخر من صنع سيد العناكب، لكن الضوء تزايد ببطء وهو يحدق غير مصدق عينيه، فرأى أعمق نقطة في النسيج، فتوقفت العناكب عن الحركة كما لو أنها أدركت استحالة إخفاء نفسها أكثر من ذلك، وحملقت فيه بعيونها السوداء المدورة، ولم يعد يشك في حقيقتها، بعد أن أحس بخوفها، وحيرتها.

تقدم خطوة للأمام نحو النسيج فقام قائد الحرس بحركة مفاجئة، لكنه ابتعد منكمشاً حين التفت له نيال واستعد للدفاع عن نفسه. بدا أن ضوءاً أزرق شاحباً قد لفه، وجعله الشعر الدقيق فوق جلده يبدو كأنه مغطى بغبار طباشيري. تقدم خطوتين أخريين حتى بات واقفاً في المكان الذي تمددت فيه جثة أخيه قبل بضع لحظات. تمكن في هذا المكان من رؤية ما بداخل النسيج الذي بدت خيوطه المتشابكة شفافة. كان في

مـواجهته، في قلب النسيج عنكبوت صغـير فروي لـون جسمـه رمـادي بحكم تقـدمـه في العمر، وكشف حجمه عن أنه أنثى. كانت تحتفظ بمـوقعها، بخـلاف الآخرين، وتحـدق فيه بنظرة تحدٍّ عصبية. وبدا واضحاً أنها أكبر سنّاً بكثير من العناكب الأخرى التي اكتشف بعد إمعان النظر في النسيج أنها إناث أيضاً.

قال بشك:

ـ إذن أنتِ سيد الموت؟

لم تحر رداً، ولكن حين تقدم خطوة أخـرى انكمشـت ورفعت قائمتها الأمامية لتغطي بها وجهها، فقد أصابها الضوء الأزرق بالألم. التفت نيـال وبحث عن مصدر الضوء، ولكن بـدا أن الضوء يلف الحجـرة كلها بـوهجه، وكـذلك بحـالة من الجمـود الغـريب، وبصمت نتجت عنه حالة من الانهاك والاختناق. بدا الأمر كـما لو أن العـالم برمتـه قد تـوقف كساعـة تجمدت عقاربها. لكنه أدرك حين نظر إلى جسـمه أنه مصدر هذا الـوهج الأزرق. بـل إنه رأى بدهشة أن يديه تتوهّجان كمـا لو أنهما مصنـوعتان من الحـديد السـاخن. وعندئـذ فقط عرف السبب الذي جعـل الوهـج مألـوفاً لـه، إنه الضـوء الذي رآه فـوق كوكب امـبراطورة النباتات، ضوء النجم الذي يسمى «النسر الواقع».

أظلمت الحجـرة، وبدت وكـأنها تنكمش. وفي اللحـظة التي أدرك فيهـا ذلـك أخـذ الضـوء يتلاشى. ثم اختفى الـوهج، ولاح الأمـر كما لـو أن الوقت قـد استـأنف تقـدمـه من جديد. واختفت حالة الجمود ثقيلة الوطأة، ودبت في الحجرة الحيـاة والحركـة. وحينئذ، فهم سبب شعوره بالاختناق. فبينما كان الضوء يشـع توقفت ذبـذبة الـدلتا. كـما فهـم في الوقت ذاتـه طبيعة إحساسه باليقين الداخلي الغـريب الذي تملكه خلال الساعات القليلة المـاضية، والذي أضفى على تصرفاته ثقـة من يمشي وهو نـائم. لقد وجهت الإلهـة قـراراته وسيطرت عليها.

حدق في النسيـج فلم ير أية حركة. وحين التفـت ونظر إلى السفـير الخنفسـاء ذهـل عندما وجده منبطحاً على الأرض، وكذلك قائد الحرس. ولما مال على الخنفسـاء ووضع يـده فوق درعه، تململ السفير، فسأله:

ـ هل أنت بخير؟

دُهش حين رد الخنفسـاء بوهن قائلاً:

ـ نعم يا سيدي.

كان قائد الحرس ممـدَّداً وقد وضع قائمتيـه تحت جسمه، فتـأكد من خـلال سبر غـور

أفكاره أنه يعاني من الصدمة والإنهاك. وحين قال له: «انهض!» لـم تتحـرّك، فركله بحـذائه في المنطقة اللينة تحت بطنـه فنهض مسرعاً ووقف على قائمتيه.

عاد نيال إلى النسيـج وقال:

ـ ليخرج الجميع.

عمت فترة سكون، ثم بدأ النسيج يتذبذب. كـانت الأنثى المتقدمـة في العمر أول من خـرج. تحرّكت ببطء كـما لو أن أطـرافها متصلّبـة. خرجت الأخـريـات بعـدهـا الـواحـدة تلو الأخـرى وشكّلت صفـاً خلفهـا كـالجنـود. أثــار آخـر عنكبــوت خـرج ذبــذبـات أكــبر من الآخـريات. وبـدت قوائمـه مقوسـة تحت ثقل جسمـه الضخم. كـان هـذا «دراڤيـج» كبـير مستشاري سيد الموت.

تقدم حتى وقف أمام العنكبوتة العجـوز التي كانت أطـول قليلاً منـه، ورأى عن قرب أن جلدها يبدو لامعاً ومشققـاً كالجلد القديم. ورغم إدراكه بقدرتها على قتله بضربة واحدة من مخالبهـا إلا أنه لم يشعر بأي خوف، فقد أحس بأن الصدمة قـد هزتهـا بعنـف وحطمت معنوياتها، كما لاحظ أنها تنظر إليه بخوف لا عقلاني.

قال: ابعدي الآخرين! أريد التحدث إليك على انفراد.

وحين تقدم دراڤيج خطوة نحو البـاب قال له: لا. ابق أنت!

خرجت العنكبوتات الأخريات من الحجرة، وأحصاها فوجدهـا اثنتي عشرة. راح يسبر أغـوار أذهانها وهي في طـريقها للخـارج. كانت مـدركة لما يفعله، لكنها لم تبـذل أيـة محـاولـة لمنعه. اكتشـف أن هذه الإنـاث الاثنتي عشرة تشكل المجلس الحـاكم لمدينـة العناكب. وكن أصغر في العمر بكثير من سيد المـوت، أما أصغـرهن فكانت أنثى في منتصف العمـر. ورغم أن وظيفتهن الـرسمية تعـادل وظيفة عضـو مجـلس إلا أن كل واحـدة كانت حـاكماً بـأمره، فقد كان باستطاعة أذهانهن الاندماج معاً في ذهن واحد، وقد شكّل الأمـر الذي أصـدره إليهن بالخروج من الحجرة إهانة لهن، إلا أنهن تقبلنه دون طرح أسئلـة نظراً لاعتقادهن بأن هـذه هي إرادة الإلهة.

كان سيد العناكب ـ هكذا استمر نيال في تسميتها ـ الأكبر سناً بين الأخريات، أما بين البشر فإنها تبلغ من العمر مائة عام. أصبح ذهنها مفتوحـاً الآن أمامـه، فرأى أنها تجمـع بين أخـطاء امرأة عجـوز وفضائلهـا. كانت متعجـرفة حـادّة الطبـاع صـارمـة، كـما كـانت مـاكـرة حكيمـة بعيدة النـظر شلّت بقبضتها الحـديديـة جسمه. وأدرك أن مـا حدث هـو جهد مشـترك

بذله كل أعضاء المجلس بتنسيق من دوافيج الذي استخدم ذهنه كعامل مساعد لتوحيد الأخريات.

كان درافيج هو الذي أثار أكبر قدر من اهتمام نيال، فقد وجد أن ذهنه مجرد وموضوعي على نحو غريب، وأحسّ فيه بنوع الحكمة التي شعر بها في السيد ستيج. وبينما كان سيد العناكب مستغرقاً تماماً في شؤونه الذاتية بدا ذهن درافيج موجهاً نحو العالم خارج نفسه، ومع ذلك فقد وجد نيال عنصراً غريباً وغير مفهوم بالمرة في عملياته العقلية.

حين انغلق الباب وراء قائد الحرس كان درافج أول من تكلم، فشعر نيال بتوتره.

ـ هل أنت إله أم إنسان؟

ضحك نيال وقال: إنسان، بطبيعة الحال.

قال سيد العناكب: لكنك رسول الإلهة.

جاءت العبارة في صورة تصريح، ولم تكن سؤالاً.

رد، قائلاً: نعم.

قام كلا العنكبوتين بحركة غريبة، رفعا قرونهما المتشابكة بزاوية تبلغ خمساً وأربعين درجة، وخفضا في الوقت ذاته، بطينهما حتى لمسا الأرض، بينما ظل وضع القوائم دون تغيير.

قال سيد العناكب: ما هي إرادتها؟

رد نيال: أولاً ألا يصبح أفراد شعبي عبيداً بعد الآن، ولا بد أن ينال البشر الحرية التي تتمتّع بها العناكب، أو الخنافس. وإذا ما اختاروا خدمتكم طائعين فلهم ما يريدون. ولكن يجب أن يترك للجميع الخيار.

وحين لم يصدر عنهما أي رد تساءل: حسناً؟

قال سيد العناكب: سيتم تنفيذ ما طلبت.

فهم نيال حينئذ أن سكوتهما يعني الموافقة؛ فردهما عليه بمثل دلالة على عدم الاحترام نظراً لأنه تضمن اختياراً.

قال: ثانياً تقضي إرادة الإلهة أن تكون هناك معاهدة سلام بين العناكب والبشر مثل المعاهدة بين العناكب وخنافس المدفعية. ولا بد أن يحترم الجانبان بنودها بالكامل، ومن ينتهكها يُعرض نفسه وشعبه لعقاب شديد.

رد سيد العناكب، بعد فترة صمت:

ـ سيتم تنفيذ ذلك.

بدا الأمر مثيراً للحيرة، فقد كان يتوقع نوعاً من المقاومة، أو على الأقل، دلالة على الممانعة أو الاستياء. فقد جعله هذا الإذعان التام يشعر بعدم ثقة فيما سيفعله بعد ذلك. ولإخفاء تردّده توجه إلى النافذة ومزّق بعض خيوط النسيج السميكة التي تكسوها فتغلغل شعاع من ضوء الشمس من خلال الزجاج المغبر. جفل العنكبوتان من الضوء، ورأى نيال حين تعودت عيناه الضياء سحباً من الدخان تتصاعد في الجو. وامتلأت الساحة دونه بالناس، وحاولت عربة أخرى مُحمَّلة بالكتب شق طريقها وسط الحشود، كما رأى مجموعة هائلة من الكتب غير المحترقة ملقاة عند قاعدة البرج الأبيض بانتظار إلقائها في النار.

التفت نيال إلى سيد العناكب وقال:

ـ أصدر إليهم أمراً بوقف حرق الكتب!

خرج دواڤيج دون أن ينطق بكلمة، وعاد بعد بضع دقائق ووقف صامتاً بجوار سيد العناكب. فهم نيال في ومضة نفاذ بصيرة سبب إطاعتهما لأوامره بدون استياء أو ممانعة. لقد رأيا لتوهما معجزة، وتطلعا إلى وجه الإلهة، وتحدثا معها مباشرة، وهذه الحجرة ستصبح من الآن فصاعداً مكاناً مقدساً. ولن يكون هناك أي شيء مهم بالمقارنة مع هذه المعجزة التي توقع في النفس روعاً، وأي شعور شخصي مجرد سيعني سخفاً تجديفياً. ونظراً لأن نيال هو أداة الإلهة فإن أي شيء يقوله أو يفعله فوق المساءلة.

لكنهما عاملا أيضاً مبعوث الإلهة بعدم احترام وحشي يستحقان عليه، وفقاً لمعيار قيمهما البدائية أبشع درجات الموت. وأدرك أن هذا هو السبب وراء امتزاج إحساس الرهبة بالخوف.

وقف نيال أمام سيد العناكب وسأله:

ـ أتتوقع مني انتقاماً؟

رد في الحال قائلاً: نعم.

التفت إلى دواڤيج وسأله:

ـ وأنت؟

تردد دواڤيج ثم قال: لا.

دُهش نيال، وقال: ولِمَ لا؟

ـ لأنك ما كنت ستطرح السؤال إذا ما اعتزمت الانتقام.

ضحك نيال وازداد احترامه لدراڤيج. وفي الواقع فقد اختفت كراهيته للعناكب تقريباً منذ اللحظة التي لم يعد فيها تحت رجمتها.

ـ أنت على صواب، فالانتقام لا معنى له.

أحس بارتياحها، ووجد أنهما لم يبذلا أية محاولة لإغلاق ذهنيهما حين راح يسبر غورهما، كما لو أنهما اعتبرا ذلك حقاً من حقوقه.

قال لهما:

ـ صحيح أنني مسؤول عن مقتل العديد من شعبكم، لكنكم أيضاً مسؤولون عن مقتل الكثير من شعبي. والآن حان وقت السلام، ويجب ألا يكون هناك مزيد من القتلى، وينبغي أن يتوقّف الاضطهاد. وعليكم أن تعرفوا أن رغبة الإنسان في المعرفة قوية قوة شهيته للطعام. إن أعمق وأقوى رغباته هي أن يكون حراً في استخدام عقله لأنه يعرف بصورة غريزية أن مصدر القوة هو الذهن، وأنه يجب أن يتعلم اكتشاف إمكاناته. وقد اعتبركم عدوه لأنكم حاولتم منعه من تلبية هذه الرغبة.

انتظرهما كي يعلقا على ما قاله، وحين آثرا الصمت قال لهما:

ـ أرجو أن تعبرا عما يجول بذهنيكما بحرية.

قال دراڤيج:

ـ لقد أرادت العناكب دائماً السلام، لكن الإنسان هو الذي أجبرنا على أن نصبح السادة لأنه لم يمنحنا السلام. لقد قضى الإنسان كل وقته، حينما كان حراً، في شن الحروب ومحاولة القضاء علينا. وهذا هو ما أجبرنا على استعباده.

أضاف سيد العناكب قائلاً:

ـ ولم تحدث أية حروب خلال القرنين الماضيين.

لم ينبس نيال ببنت شفة، فقد عرف أن ما يقولانه صحيح، لكنه قال في النهاية:

ـ ولكن إرادة الإلهة الآن أن يتعلم البشر والعناكب العمل معاً. وإذا ما استطعنا تحقيق ذلك فسوف نتوصل إلى سلام دائم تحميه الإلهة. شعر وهو يتحدَّث أن كلماته تحمل سلطة أكبر مما لديه.

قام العنكبوتان بأداء طقوس التبجيل الغريبة مرة أخرى.

أحس أنه قال ما فيه الكفاية فاستدار نحو الباب وقال:

ـ لا بد وأن أذهب إلى شعبي الآن. ولكن انتظروا عودتي، فسوف أحضر معي أعضاء مجلس من البشر الأحرار لوضع بنود معاهدة السلام التي ينبغي أن تكون عادلة لشعبكم وشعبي. ومن الآن فصاعداً سوف يكون البشر والعناكب على قدم المساواة.

قال سيد العناكب:

ـ لك ما شئت.

فتح دراڤيج الباب له، وحين خرج نيال إلى القاعة ذُهل حين تهاوى الحارسان العنكبوتان على الأرض وقوائمها تحت جسميهما، وكانت حركتهما مفاجئة كما لو أنهما قد سقطا مغشياً عليهما.

التفت نيال إلى دراڤيج، وقال:

ـ ماذا ألم بهما؟

ـ إنهما يظهران التوقير لمبعوث الإلهة.

اضطر نيال وهو يهبط الدرج يتقدّمه دراڤيج لمقاومة إحساسه بأن كل ما يراه من صنع خياله. فعلى كل درجة يؤدي الحرّاس العناكب الطقوس نفسها، بل إن العشرات منها انهارت على الأرض بالأسفل عند القاعة الرئيسية التي باتت كما لو أنها مستودع للجثث. بل إن أذهانها بدت سالبة وساكنة، وكأن الحياة فيها قد توقّفت بالكامل.

أحسَّ بالارتياح حين خرج إلى ضوء الشمس التي تبارك بدفئها بعد الظلام البارد الذي لفّ المبنى. ازدحمت الساحة أمام المبنى بالبشر، وحين خرج تناهت إلى مسامعه همهمات تتسم بالانفعال. ثم جثا الجميع بإشارة آمرة من دراڤيج وانحنوا في احترام. بل أن ميرلو التي كانت تقف بالقرب من الدرج جثت وأحنت رأسها.

أحس نيال بوجهه يحمر من الحيرة، والتفت إلى دراڤيج وقال له:

ـ أرجوك أن تطلب منهم النهوض.

قال دراڤيج بتبجيل:

ـ سيكون ذلك منافياً للقانون؛ فباعتبارك حاكم المدينة لا بد وأن تلقى التبجيل الذي يلقاه سيد العناكب.

نظر نيال إليه متشككاً وقال:

ـ حاكم المدينة؟

ـ بالطبع. فبوصفك مبعوث الآلهة فأنت تحكم حياة جميع الذين يخضعون لها.

نظر إلى الحشود الجاثية التي بدت أجسامها بقوة أجسام العناكب، ولم يصدق ما يراه. تطلع إلى دراڤيج وتخلى عن فكرته أن يأمرهم بالنهوض، وأخذ يهبط الدرج مسرعاً باتجاه سائقي العربة المنتظرين. ولكنه حين مر بجوار ميرلو لمحها وهي ترفع رأسها وترمقه بنظرة ساخرة، فشعر بالامتنان لأنها فعلت ذلك.

أبحر نيال بعد مرور ستة أسابيع على توقيع معاهدة السلام من الميناء في قارب قبطانه مانيثو، وكان يرافقه سيميون وأخوه ڤيج. كان الهدف من الرحلة أن يفي بالعهد الذي قطعه على نفسه في ذلك اليوم الذي سدّ فيه فتحة الجحر بأن يعود إلى الصحراء ويدفن أباه بطريقة تليق بمحارب. وحين أعلن هذه الرغبة أمام أعضاء مجلس البشر الأحرار صوتوا في الحال من أجل أن تدفن عظام أولف في مقبرة من الرخام بساحة المدينة الرئيسية. لكنه رفض اقتراحاً بأن يبحر مع أسطول صغير من السفن، وأن يعود إلى المدينة في موكب كبير. ولتفادي هذا الجدل فقد انسل عند الفجر، ولم يُبلغ أحداً سوى أمه عن المكان الذي يقصده.

كان الصباح مشرقاً وصافياً، لكن النسيم الشمالي الغربي حمل شذا الخريف. ساعدهم الشراع مثلّث الشكل على الإبحار نحو الجنوب ـ وعلى المسار الذي سيفضي بهم، كما يقول مانيثو، إلى الشاطىء الذي أبحر منه نيال منذ ثلاثة أشهر.

وقف نيال وقد أسند ذراعيه فوق حافة القارب، وأخذ يحدق في البحر الذي انعكست أشعة الشمس على مويجاته المتلاطمة. أحس مرة أخرى بذلك الشعور الغريب بالنشوة الذي يثيره فيه الماء وكأنه يمثل، في حد ذاته، مادة سحرية تخفي في أعماقها سر السعادة. بدا كل كيانه وقد استرخى، وهو يحدق في الشريط الساحلي الذي راحوا يبتعدون عنه، فتنهّد بارتياح عميق وغمره شعور مبهج بأن الحياة غنيّة تمنح خيراتها بلا حدود.

ولكن هذه كانت المرّة الأولى منذ أسابيع عديدة يشعر فيها بهذا الإحساس، وتتاح له فرصة سبر أغوار أفكاره. لقد أثبتت الحياة، بعد أن أصبح حاكماً، أنها أكثر دقة مما توقع. لقد انهمك الناس، على مدى ثلاثة أيام، منذ توقيع معاهدة السلام، في سلسلة من الاحتفالات الصاخبة تخللتها مهرجانات امتدت حتى الصباح. وأصبح بإمكان الرجال والنساء، لأول مرة منذ قرنين، الاختلاط بحرية، كما أطلق سراح الأطفال من الحضانات للمشاركة في الاحتفالات. واختفت رونا ومارا ودونا لمدة أربع وعشرين ساعة، وعدن إلى

القصر وقد صبغن وجوههن بـألوان زاهيـة، ووضعن حول أعنـاقهن أكاليـل الزهـور. واحتسى ڤيج الكثير من النبيـذ فنام طوال اليوم الثـالث، واستيقظ في صباح اليـوم التـالي وهـو يعاني من صداع جعله يعتقد أنه يحتضر. لكن نيال لم يشارك في الاحتفالات، وقضى معظم الأيام الثلاثة منهكماً في مناقشات مع مجلس البشر الأحـرار يحاول استحداث صيغة لأسلوب عمـل جـديد يحل محل الأسلوب الإجباري الحالي الذي يطبق على مواطنيه.

بدا الأمر، في البداية، غاية في البساطة، فـالبشر أصبحوا الآن أحـراراً، ومن حق كل فرد أن يختار العمل الذي يهواه. ولكن أحد أعضـاء المجلس أشار إلى أنـه في هذه الحـالة لن يفضل أحد أداء الأعمال القذرة مثل تنظيف المجاري أو التخلص من النفايات. وبالتالي فقد تم الاتفاق في نهاية المطـاف على أنه يتعين، في الوقت الحالي، أن يلتزم كل فرد بعمله الـراهن، وأن أي تغيـير لا بد وأن تصـدق محكمة عليـه. ولكن تم الاتفاق بـالإجماع عـلى أنه يجب أن يذهب البشر إلى مواقـع أعمالهم بـالطريقـة التي تناسبهم، بـدلاً من السير في جمـاعات تحت قيادة العناكب الذئبيـة أو المشرفات.

أعقبت هذه المـداولات منـاقشة بشـأن مستقبل العبيـد، وما إذا كـان يتعين اعتبـارهم بشراً أحـراراً، وهل يسمـح لهم بالإقـامة في الأمـاكن التـي يختارونها أم لا؟ فليس ذنبهم أن ذكاءهم دون المستوى العـادي. قرر المجلس في النهـاية أن العبيـد سيكونـون أكثر سعـادة في المنطقـة التي يقيمـون فيها حـالياً بـالمدينـة، وأن السماح لهم بـاختيـار وظـائفهم سيؤدي إلى اختلاط الأمر عليهم. ولكن التغيير الوحيـد الذي سيطـرأ هـو أنـه لن يشار إليهم عـلى أنهم عبيد، بل على أنهم مواطنـون ليس لهم حق التصويت.

وبالنسبة لمعظم القضايا الأخرى ـ مثل وضع القائدات، الحق في السفـر، إنشاء شبكـة لوسائل النقل العام ـ فقد تقرر أن تبقى الأمور عـلى ما هي عليـه. أما أهم تغيـير طـرأ فهـو السماح للرجل والمرأة بالزواج وتأثيث بيت الزوجية معاً، وإلغاء نـظام الحضانـة. وحين نقـل نيال هذه القرارات إلى دراڤيـج بدت علامات الارتياح واضحة على وجـه كبير المستشـاريـن وهنّأ نيال على حكمته واعتداله.

كـانت قائـدة حرس نيـال الخاص فتـاة آية في الجـمال، لهـا شعـر داكن اللون، تسمى «نفتيس». أيقظته عند فجر اليوم التالي للاحتفـال لتخبره أن جميع أفراد القوة العـاملة تقريبـاً لم يـذهبوا إلى مـواقع عملهم. وحـين خرج للتحقق من الأمـر تعـثّر في رجـل سكّـير كـان ينـام عند المدخل، بينما وجد ستة آخرين من الأزقة. قـال لنفتيس إن اليوم سيكـون عطلة عـامة، ولكن لا بد وأن يكـون جميع العمال في مواقعهم عنـد فجر اليـوم التالي. وفي الصبـاح انتظم

نحو ربع القوة العاملة، فطلب من نفتيس، مرة أخرى، أن تعلن هذا اليوم عطلة عامة، ولكن عليها أن تضيف أن أي عامل يتخلف عن العمل في اليوم التالي سوف يتعرض للعقاب. وعلى الرغم من ذلك لم ينتظم في الصباح سوى ثلث القوة، فذهب نيال ليستشير دراڤيج. وفي أقل من ساعة كانت القائدات بأسواطهن يدفعن العمال المتخلفين إلى الشوارع، وقد نظمتهم العناكب الذئبية في فرق. ومنذ ذلك الوقت أصبحت القائدات والعناكب الذئبية مسؤولة، مرة أخرى، عن العمال، ولم تعد هناك حالات تغيب. والغريب أن العمال أنفسهم شعروا بالرضا لعودتهم إلى النظام القديم.

واجه في وقت لاحق من ذلك اليوم قراراً أكثر صعوبة. فقد عثر على رجل ميت ملقى في زقاق وما تزال المدية التي قُتل بها منغرسة في صدره. ولاحظ أحد الأشخاص، في دور تحتي قريب، أن رجلاً كان نائماً، ملابسه ملطخة بالدماء اسمه «أوتو» ويعمل سائق عربة، وقد اعترف دون ضغط بأنه طعن أعز أصدقائه بالمدية في صراع على فتاة.

أرسل نيال في طلب سيميون لاستشارته فقال له إنه وفقاً لقانون الخنافس فإن من تثبت إدانته في جريمة قتل يُعدم على يد جلاد. صدمته الفكرة، لكنه اتفق مع سيميون على أنه إذا ما صدر عفو عن القاتل، على أساس أنه قتل صديقه خلال شجار وهو تحت تأثير الخمر، فإن ذلك سيكون سابقة، إذ لم تقع حالة قتل في مدينة العناكب يمكن أن يتذكرها أحد من الأحياء. راح نيال يفكر في المشكلة معظم اليوم، في الوقت الذي احتجز فيه القاتل في سجن مؤقت في بيت خالٍ، إذ لم يكن في مدينة العناكب سجن رسمي نظراً لأن معظم الجرائم كانت عقوبتها في الماضي الإعدام، وشعر أن فكرة تنفيذ الحكم في كائن من بني جلدته مسألة وحشية، وأن فكرة بناء سجن وحبسه فيه بقية حياته تبدو أسوأ. سأل دراڤيج إذا كان من الممكن نفي الرجل إلى مكان بعيد فأشار إلى أن ذلك سيعني الموت المحقق نظراً لأن المناطق النائية تعج بالكائنات الشرسة الخطيرة. شعر، بعد ليلة انتابه فيها الأرق، بالارتياح حين علم أن أوتو وفر عليه اتخاذ قرار وشنق نفسه في زنزانته. ولكن عندما نقلت إليه نفتيس الخبر أحس بأنه تقدم في العمر عشر سنوات منذ صباح أمس.

خصص معظم وقته، خلال الأسابيع الأولى من توليه منصب سيد مدينة العناكب، لأعمال الإدارة والتخطيط. كانت نفتيس توقظه عند الفجر، وعادة ما كان يستقبل المسؤولين وأعضاء المجلس أثناء تناوله طعام الإفطار، وغالباً ما قضى بقية الساعات الصباح في جولات بالمدينة والضواحي المحيطة ليتخذ قراراته بشأن أفضل السبل لتوظيف فرق العمال. (وقدر أن إجراء الإصلاحات بالميناء سيستغرق خمس سنوات).

كان يحضر عند العصر اجتماعاً للمجلس عادة ما يستمر حتى المساء. وحين يعود إلى المنزل مجهداً في أغلب الأحوال لا يستطيع البقاء مستيقظاً أكثر من ساعة يستمع خلالها بكياسة لسيريز التي ستعرض عليه أحداث اليوم ومتاعبها في البيت، ويحاول جاهداً ألا يتثاءب، ولكنه غالباً ما ينام فوق كومة من الوسائد فتغطيه أمه ببطانية وتطفىء الشموع وتأمر الخادمات والموسيقيين بالانسحاب من الحجرة.

ومع ذلك فقد كان لهذه الحياة الجديدة جانبها المريح. فقد اختار لإقامته قصراً مهيباً عند زاوية الشارع الرئيسي في مواجهة مقر سيد العناكب مباشرة، وراحت مجموعة مكونة من خمسين رجلاً تعمل منذ الفجر حتى الغسق لإصلاح حجراته الخربة وإعادة زخرفتها. تولت سيريز مسؤولية الشؤون المنزلية؛ بينما أشرفت أختها «سنيفنا» على العمل، وتولت دونا مسؤولية تعليم رونا ومارا. أحست النساء بالرضا، وكذلك ڤيج الذي أقام هو أيضاً في القصر واختار لنفسه جناحاً من الحجرات على الجانب الآخر من الفناء، حيث أقام بصورة مستقلة. واستمتع ڤيج، بوصفه شقيق الحاكم، بمركز يحسد عليه، وأطاعه كل الرجال وأعجبت به النساء. وكان يعتبر، بشعره الأسود الأجعد وعينيه الزرقاوين، أحد أكثر العُزاب المرغوب فيهم بالمدينة، فدائماً يُشاهد وبصحبته امرأة فاتنة. وأشيع أن المائة عضو بمجلس القائدات تنافسن فيما بينهن على إقناعه بإقامة علاقات دائمة. ولكن بدا أنه قد صمم على معاملتهن بالتساوي قبل أن يتخذ قراره.

كان الأمر الذي يستمتع به نيال أكثر من غيره هو التجول في الشوارع عند الغسق، ومشاهدة الرجال والنساء وهم يسيرون متشابكي الأذرع. وكانت الطرقات تكتظ دائماً بالناس في تلك الساعة، ويجلس الرجال أمام البيوت يلعبون النرد، بينما يجلس آخرون يتناولون عشاءهم. لم يعد أحد يتطلع بعصبية إلى خيوط العناكب الممتدة فوق الرؤوس. ولكن أمراً واحداً أثار ضيقه، وهو أنه بمجرد أن يتعرف الرجال عليه يجثون على الأرض ويظلون على هذا الوضع إلى أن يختفي عن الأنظار. حاول إصدار بيان يطلب منهم فيه أن يتجاهلوه، ولكن لم يؤد ذلك إلى شيء. قال له ڤيج أنه استمع إلى محادثة بين رجلين أصر خلالها أحدهما على أن نيال ساحر، بينما اعتقد الآخر أنه إله أو كائن غير عادي. لم يدخل هذا الكلام السرور إلى قلب نيال، بل شعر بالحزن والغم.

ووصل استياؤه إلى مداه في اليوم الذي أعلن فيه اعتزامه العودة إلى «شمال خايباد» ليُحضر جثمان أبيه. فقد أصدر المجلس في الحال قراراً بأن تدفن عظام أولف في مقبرة مهيبة من الرخام في وسط الشارع الرئيسي. ثم صوتوا، رغم احتجاج نيال، على أن يرافقه ألف

رجل مسلح، وأن يستقبلهم لدى عودتهم موكب ضخم يشارك فيه الجميع. بعث نيال بمجرد خروجه من اجتماع المجلس برسالة سرية إلى مانيثو وسيميون، فانسلوا عند صباح اليوم التالي من المدينة واستقلوا القارب الذي كان بانتظارهم.

كانت هذه هي الأفكار التي شغلت نيال وهو متكىء على حافة القارب يراقب خط الشاطىء وهو يتلاشى في البحر. ومع ذلك فقد بدا إحساسه بالحزن جزءاً سخيفاً من استغراقه في شؤونه الذاتية، وغمره النسيم العليل والسماء الصافية بإحساس الحرية والانفعال، ولم يفهم سبب شعوره العميق بالإحباط والاستياء. إن أية مشكلة واجهته خلال الأسابيع القليلة الماضية لم تكن مستعصية الحل، لكنه يدرك الآن أن المشكلة الحقيقية تكمن في حدود وعيه.

صعد ڤيج إلى إلى سطح القارب وهو يمسك بشريحة كبيرة من اللحم المشوي، بينما يحمل في يده الأخرى كأساً من النبيذ.

ـ ثمة إفطار بالأسفل.

ـ ألن تأتي؟

ـ كلا. أفضل تناول طعامي في الهواء الطلق.

شرد بعينيه بصورة لا إرادية ليتطلّع إلى المشرفة الجميلة عارية النهدين التي تتحدث مع مانيثو.

كان سيميون بمفرده في قمرة القبطان يزيل العمود الفقرة من سمكة مشوية. تغطت المائدة بأطباق اللحم البارد. والخضراوات المخلّلة والمربى والعسل. قطع نيال لنفسه شريحة من اللحم المشوي وصب كأساً من عصير البابايا. ألقى سيميون عليه نظرة عجلى وقال:

ـ سوف يشعر أعضاء المجلس بالضيق عندما يكتشفون رحيلك.

ـ لم يكن هناك مفر من ذلك، فأنا لا أريد أن أصطحب معي ألف رجل وعشرين قارباً.

عصر سيميون ليمونة فوق سمكته وقال:

ـ إنهم يسعون لإرضائك ويكنون لك احتراماً عظيماً.

ـ أعرف.

هزَّ سيميون رأسه، وبدا واضحاً أنه كان ينتظر أن تسنح له الفرصة ليقول: من واجب الحاكم أن يسمح للآخرين بأن يعبّروا عن تبجيلهم له. إنه لا يتولّى الحكم لمجرّد تحقيق أهدافه، بل لمنح

الشعب شيئاً يتطلّع إليه. والبلد السعيد هو الأرض التي يحكمها حاكم يحترمه ويبجّله الجميع. وبهذا يكون قد خدم شعبه.

ـ هذه ليست الطريقة التي خدم بها كازاك شعبه.

ـ ولذلك لم يحترموه كما يحترمونك. ألا تدرك أنك أول إنسان حصل على أفضل شيء من العناكب؟ لقد أصبحت أحد أبطالهم، مثل إيثار القوي وفاكين الحكيم. ما الذي تتوقعه غير ذلك؟

ـ إنها الإلهة التي حصلت على أفضل شيء من العناكب، لا أنا.

ـ لكن الإلهة ما كانت لتستطيع القيام بذلك بدون مساعدتك.

وضع الشوكة على المائدة وقال بتأكيد:

ـ إن ما حدث خلال الأسابيع القليلة الماضية هو نوع من المعجزة. بل إنني أكاد أصدق ما جرى. وحين أخبرني بلدو أنك تريد تحرير البشر من العناكب قلت لنفسي: يا للشاب المسكين، إنه بحاجة للتعايش مع الواقع، ولكنك حققت ما أردت. إنها واحدة من تلك الأساطير التي نحكيها، ويتعين أن نعاملك باحترام.

قال نيال:

ـ لقد أردت أن يكون البشر أحراراً ـ كما كنا في الصحراء ـ وليس أن يضربوا جباههم في الأرض في كل مرة أمر من أمامهم.

تنهد سيميون وقال:

ـ البشر لا يريدون قدراً كبيراً من الحرية، فذلك يجعلهم يشعرون بالاضطراب. ليس بوسعك أن تعطيهم أكثر مما يريدون. أنظر ماذا حدث في مدينتنا. لقد قالت لنا الخنافس إننا جميعاً أحرار ونستطيع الذهاب إلى أي مكان نريده، والقيام بأي شيء نرغب فيه، ولكن لم يستغل أحد منا، بما فيهم أنا، هذه الفرصة. إن الأمر يستغرق وقتاً حتى يتعود البشر على الحرية.

ـ أتظن أنهم سيتعودون عليها؟

ـ نعم، بشرط أن تُمنح لهم بجرعات صغيرة.

ثم أنعم النظر في نيال بتعاطف وقال:

ـ تبدو متعكر المزاج في الفترة الأخيرة. ما الأمر؟

فكر نيال في الأمر، ثم ضحك قائلاً:

ـ أظن أنني تصرفت كحاكم، هذا كل ما في الأمر.

دهن سيميون قطعة خبز بالزبد وقال:
ـ إذن ماذا عساك تصنع بدلاً من ذلك؟
ـ بداية أود أن أمضي وقتاً أكبر في البرج الأبيض. لقد دخلته مرتين فقط خلال الأسابيع الستة الماضية لأطلب نصيحة ستيج. وأرغب في تمضية أيام هناك ـ نعم، بل شهور أو سنوات ـ لأتعلم من تجارب الماضي. فهذا أهم بكثير من إصلاح المجاري أو التحدث عن نقص الوحدات السكنية. إنه المكان الأكثر فتنة في العالم، وسوف أصطحبك معي عندما نعود. ولكن دائماً لا يتوفر الوقت لذلك.
ـ ليس هناك شيء يوقفك عن تمضية ساعتين في اليوم هناك.
ـ لا أجد وقتاً، وهذا ليس كل شيء. أريد أن يتوفر لي الوقت لأستغرق في أفكاري. وأنا استمتع بهذه الرحلة، لأنني لست محاطاً بأحد. أريد فرصة لأتعلم استخدام ذهني. لقد أصبت حين قلت إن البشر لا يعرفون طريقة استغلال حريتهم، ولكن هذا يرجع لأنهم لا يجيدون استخدام عقولهم. فحين يصبحون أحراراً يشعرون بالسأم ويبحثون حولهم عن شيء يفعلونه. واضطر وأنا في بداية تعلم كيفية استخدام القوة الذهنية إلى قضاء معظم اليوم في اجتماعات المجلس.
ـ أظن أن بوسعي طرح حلول مختلفة. فإذا لم تكن تريد أن تكون حاكماً فبإمكانك أن تستقيل وتنتقل إلى مدينتنا، أو تدرب نائباً يؤدي عنك الوظائف المملة، أو تتزوج ميرلو وتترك لها كل الأمور، فهي مثل أبيها تهوى إصدار الأوامر.

ضحك نيال وقال:
ـ لهذا السبب لا أظن أنني سأتزوجها.

قاطعهما مانيشو الذي دخل القمرة وبرفقته مشرفة حسناء، ولحقهما في الحال فيج فتوقفا عن مواصلة الحديث في الموضوع. لكن نيال شعر بعد أن صعد إلى سطح القارب بعد نصف ساعة بجذل غريب. فقد جعله الحديث مع سيميون أكثر وعياً بأبعاد المشكلة، وبالتالي أقرب خطوة من الحل.

لاحت جبال شمال خايباد في غضون أقل من ساعتين في الأفق. ثم اقترب القارب بعد نصف ساعة منها فاستطاع رؤية الممر الذي كان قد لمح البحر من عنده للمرة الأولى بين الأطراف الصخرية انقبض قلبه وانتابه شعور هو خليط من البهجة والحزن، فقد كان ذلك أشبه بالعودة إلى عالم الصبا.

رسوا عند العصر بأمان في الخليج. وتساءل نيال وهو يتجه بالقارب إلى الشاطىء

بصحبة المشرفة الحسناء التي راحت تجذف، عن سبب شعوره بالابتهاج وهو يعود إلى الأماكن المألوفة لديه. ثم اكتشف الإجابة، فالأمر يرجع إلى أن العودة تجعلنا نشعر بأننا سادة الزمن، لا ضحاياه.

قرروا النزول إلى الشاطىء في الحال، نظراً لأنه ما يزال هناك متسع من الوقت، قبل أن تغرب الشمس. حمل ستة رجال محفة وضعوا فوقها التابوت الفارغ الذي أعده أمهر نجار في مدينة الخنافس، وقد تم تغطيته بقماش من وبر الإبل لحمايته من الخدوش. سار خلفهم ستة بحّارة مسلّحين بالرماح والأقواس والسهام لحمايتهم. وحمل ستّة حمّالين المؤن الغذائية. وشكل نيال وسيميون وڤيج ومانيثو بقية الفريق وقف ڤيج يتطلّع بأسف إلى المشرفة الحسناء وهي تعود إلى القارب الطويل. لم. يستطع نيال فهم سبب افتتنانه بها. فقد رأى أنها مرغوبة جسدياً، ولكن حين سبر أغوار ذهنها وجده مملوءاً بأشياء عادية تافهة وعاجزاً تماماً عن أداء أي نوع من التفكير الجاد. عرف ڤيج ذلك أيضاً، ولكن بدا أنه لا يهتم له.

ساروا على مدى الأربع ساعات التالية وسط السهول الساحلية الخصبة باتجاه الجبال. طنت الدبابير واليعاسيب حولهم، بينما سقسقت الجنادب تحت أقدامهم. تذكر نيال مدى حبه لهذا المكان منذ بضعة أشهر مضت، واعتقاده بأنه كالجنة، أما الآن فإنه يبدو بالمقارنة مع الريف الأخضر المورق المحيط بمدينة العناكب مكاناً قاحلاً منفراً. ومع ذلك جعله الهواء الدافىء يتذكر «هرولف» و«ثورج» وأباه، فغمره إحساس بافتقاد الأحبة.

كانت الجبال تنتصب شاهقة أمامهم حين توقّفوا قبل ساعة من حلول الغسق. أدرك نيال أن هذا المكان قريب جداً من الموقع الذي أسرته فيه العناكب الذئبية. تذكر أن عشاءه في تلك الليلة كان عبارة عن لحم قوارض مجفف، وخبز رديء، شرب بعده حليب جوز الهند. أما الآن فإن عشاءهم يتكون من سمك مشوي اصطاده البحارة أثناء رحلتهم في البحر، وخبز طازج، وجبن الماعز، وخُضَر. واحتسوا معه النبيذ المعتق الذي وضعوه في سلسلة من القش ليحافظ على درجة برودته. ولكن رغم شعوره بالبهجة، وهو مستلق بجوار النار التي أشعلوها، ويستمع إلى البحارة وهم ينشدون الأغاني عن «شناندوا» و«ريو جراند»، فقد شعر بإرهاق بالغ حال دون تمتعه بالسعادة للحال الذي بات عليه، فغلبه النوم قبل أن يفرغ البحارة من إنشادهم بفترة طويلة.

استيقظوا قبل ساعتين من انبلاج الفجر، واستأنفوا السير، والنجوم ما تزال في السماء. وكانت هذه أصعب مرحلة في الرحلة ـ فعليهم أن يصعدوا لمسافة عشرة أميال للوصول إلى

قمة الممر. وأرادوا قطع هذه المسافة، قبل أن تجعل أشعة الشمس مهمتهم غير محتملة. بزغ الفجر حين وصلوا إلى سفح التل شديد الانحدار. ورغم أن البحارة كانوا رجالاً شديدي البأس، وجميعهم في حالة جسمانية ممتازة، فقد لاحت عليهم علامات الاجهاد. ألقى نيال نظرة سريعة على مانيثو الذي أخذ يتنفس بصعوبة وقال له:

- ألا تظن أنه ينبغي علينا أن نمنحهم فترة راحة؟

قال مانيثو بمرح:

- هذا الأمر عائد إليك، فأنت القائد.

اكتشف نيال فجأة أنهم يعترونه قائد هذه البعثة والرجل الذي يصدر الأوامر. تضرج وجهه وهو يقول:

- في هذه الحالة فإنني أرى أن نتوقف لتناول طعام الإفطار.

ردد مانيثو الأمر بصوت مرتفع فجلسوا على جانب الطريق وتناولوا حليب جوز الهند والخبز والجبن. كان صعباً عليه التأقلم مع منصبه الجديد كقائد رغم مرور شهرين على ذلك.

توقفوا مرة أخرى بين أطراف الأصحار الرمليّة الهائلة ليستمتعوا بنسيم البحر. أصبح بإمكانهم الآن أن ينظروا إلى الصحراء التي قضى فيها نيال وڤيج معظم حياتها، وأن يروا على بعد البحر الداخلي الذي يسمّى «يثلام». التفت نيال إلى ڤيج وقال له:

- من المؤسف أننا لم نحضر ماسيج معنا، فقد كان سيستمتع برؤية أرض وطنه رغم بعد المسافة.

هز ڤيج رأسه وضحك قائلاً:

- ما كان سيستمتع بهذا المشهد. لقد سألته ما إذا كان يريد الذهاب معنا فقال إنه يأمل ألا يرى هذا المكان الرهيب مرة أخرى. ويشعر معظم الآخرين بالشيء ذاته. بل إنهم كانوا تحت حكم العناكب أكثر سعادة من وجودهم تحت الأرض.

هزَّ نيال رأسه بأسى، فهو يشعر براحة حين يرى الهضبة والبحيرة المالحة المتألقة اللتين تثيران فيه ذكريات سعيدة عن أول إحساس له بالحرية الحقيقية.

كان هبوط المنحدر سهلاً، ولكن بعد أن أعاقت الجبال وصول نسيم البحر إليهم أصبح الجو حاراً وخانقاً. غطى العرق المختلط بالغار وجوههم حين وصلوا إلى السهل

الأحمر الذي تنتشر فيه الأعمدة الصخرية الغريبة التي تآكلت بفعل الرياح. ولكن نظراً لعدم وجود أي مكان يحتمون فيه من الشمس التي باتت فوق رؤوسهم مباشرة فإنه لم يكن هناك معنى للتوقف للراحة، فواصلوا السير بخطى بطيئة فوق الرمل الأحمر. ثم تذكر نيال الحوض الجرانيتي بجانب الطريق فتسارعت خطاهم حين أخبرهم عنه وراحوا ينشدون أغنية تتعلق بالسير. اعترت نيال، مرة أخرى، الحيرة بشأن إرادة الإنسان؛ فالسأم قد يخنقه حتى الموت، ثم ينتعش من جديد في لحظة واحدة بمجرد أن يلقي كلمة تشجيع.

ولكن حين داروا حول الزاوية ليصبح الحوض على مرمى بصرهم توقّفوا مذعورين. فقد تمددت حشرة ضخمة من ذوات الأربع والأربعين في قاع الحوض مستغلة المساحة الضئيلة من الظلال. حذرتها ذبذبة وقع أقدامهم من اقترابهم فتطلعت إليهم وقد انتصبت قرونها. ونظراً لأن الحوض يقع على الجانب الشرقي من الطريق، ويوجد تل صخري شديد الانحدار على الجانب الآخر، فإنه كان من الصعب تجنب الاقتراب منه بالدوران حوله.

تقدم نيال باتجاهه ببطء، وقد توسط ڤيج ومانيثو، وكله أمل أن تتقهقر الحشرة عندما ترى عدّة أشخاص. ولكن لعلّ الكائن قد اكتشف لتوّه هذا الحوض، أو ربما لم يكن على استعداد للتخلّي عن الموقع البارد الوحيد في هذا المكان فرفع نصف جسمه الأمامي حين اقتربوا منه، وانتصب متوعداً، وراح يصدر هسيساً حاداً. كان طوله لا يقل عن ثمانية أقدام، وعيناه جامدتان مثل عيني أفعى. توقّف ڤيج ومانيثو، بينما خطا نيال خطوة أخرى للأمام. دمدم سيميون محذّراً قبل أن يندفع الكائن فجأة نحوهم بسرعة مرعبة بقوائمه القصيرة.

سمع نيال هسيساً في الهواء، بالقرب من كتفه، وانغرس سهم في الفم المفتوح. أطلق الكائن صرخة ألم غريبة لا تختلف كثيراً عن نقيق الضفدع. اصطدم سهم آخر بظهره المدرع البني اللامع فصرخ مهدداً، وتحركت قوائمه القصيرة مثل مائة ذراع غاضب فمنح الرماة فرصة لإطلاق سهامهم على منطقة البطن اللينة، وقد اندفع أحد السهام بقوة هائلة ليختفي مثل ريشة داخل بطنه سمعوا صوته وهو يصطدم بالغطاء المدرع من الداخل. دُهشوا حين واصل الكائن تقدمه معتمداً في حركته على قوائمه الخلفية. ثم قفز أضخم البحارة للأمام وسدد رمحه بكل ما أوتي من قوة بين الفكين المفتوحين. التقط ذهن نيال وميض رد فعله الغريزي، وهو الإدراك المفاجيء بأن الموت بات حتمياً، فتوقف، ثم استدار وهرع بسرعة ملحوظة في الاتجاه العكسي تاركاً خلفه خيطاً من الدم الأحمر الوردي وقطرات من سائل أخضر. راقبوه وهو يزحف نحو الصخور عند حافة الطريق

وقد أعاقت السهام المغروسة فيه تقدمه. تذكر نيال فجأة الحيوان الذي حاول مهاجمته حين نام تحت الصخرة القريبة تحميه شجيرة شوكية. أحس بحدسه أن ذلك الحيوان هو هذا الكائن الذي يبحث الآن عن مكان يموت فيه.

انتابتهم جميعاً نوبة من الحماس، ولم يعد الحر خانقاً، واختفى الإجهاد مع عضلات أقدامهم، وتلقى البحّار الذي رمى أول سهم التهنئة من الجميع، وراح الآخرون يشرحون بالتفصيل كيفية انتظارهم اللحظة المناسبة لإطلاق السهام، والزاوية الدقيقة التي اخترقت فيها سهامهم البطن. ملأوا زجاجات من ماء الحوض المثلج وشربوا بنهم، ثم صبوا باقي الماء فوق رؤوسهم وصدورهم. وجلسوا تحت شريط الظل الضيق عند سفح الصخرة وأعدوا وجبة من الخبز والبصل.

استغرق سيميون في التفكير، ثم قال:

ـ ما الدافع الذي جعله يهاجمنا رغم إدراكه بأننا نفوقه عدداً؟

قال نيال:

ـ من المرجح أنه يعتبر هذا المكان وطنه.

ـ لكن الآبار وعيون الماء ليست مطلقاً أرض أي حيوان، فالجميع يستخدمها.

ثم تطلع سيميون إلى الصحراء بشجيراتها ونباتات الصبار وقال:

ـ أشك أنه قد واجه بشراً من قبل، وقد وجد أن من السهل إرهابهم.

ـ ماذا، في هذا المكان؟

ـ ولم لا؟ لقد كنت تقيم في الصحراء.

ذلك صحيح. حدق نيال في موجات الحر التي تومض فوق الرمال، وتساءل عمّا إذا كانت هذه الصخور والشجيرات تخفي فتحات لجحور تحت الأرض. وما عدد البشر الآخرين المنكمشين خوفاً في الكهوف تحت الأرض، أو حتى في مدن تحت الأرض في المناطق القاحلة؟ اتخذ قراراً بأن يجد يوماً ما وسيلة للاتصال بهؤلاء المشردين ليؤكد لهم أن بوسعهم الإقامة مرة أخرى في الأماكن المفتوحة، كبشر أحرار.

استأنفوا بعد أن استرخوا وجدّدوا نشاطهم لمدة ساعة، مسيرتهم. واختفت عند العصر الصحراء الحمراء ليحل مكانها الحصى البركاني الأسود وأحجار البازلت، وانعطف الطريق بين الشجيرات الشوكية، وجنبات الطرفاء، إلى الغرب، ورأوا البراكين عند الجانب البعيد لأرض النمال. مرت أربع ساعات، ودنت الشمس من الأفق الغربي، وهم يسيرون فوق الرمال، فعرف نيال أنهم اقتربوا من أرضه. بدأ الرجال يشعرون بالإرهاق، ولكنهم

ساروا بنشاط متجدّد حين أبلغهم أنهم باتوا قريبين من هدفهم، وزادت حماستهم عندما أيقنوا أنهم سيعودون إلى وطنهم في الغد. فقد أثار خلاء الصحراء في قاطني المدن إحساساً بأنهم يضيعون وقتهم هباء.

بدأت النجوم الأولى تظهر في الجهة الشرقية من السماء حين رأى نيال مجموعة نباتات الصبار الإبري المألوفة التي أثارت انفعال ڤيج فانطلق باتجاهها. لوح لهم بيديه بعد عشر دقائق وهو يقف تحت صبّار اليتوع الذي كان ينمو عند مدخل الجحر.

ـ إنه ما يزال مغلقاً.

وجدوه حين لحقوا به يستخدم حجراً مفلطحاً للحفر في الرمال التي تراكمت فوق المدخل بكميات هائلة، مما يشير إلى حدوث عاصفة رملية مؤخراً. تولّى الحمّالون الذين يحملون الجواريف مهمة الحفر، بينما ذهب الآخرون للبحث عن وقود، ونصحهم نيال بألا يتحركوا فرادى خشية أن يتعرضوا لخنفساء نمرية، أو عقرب ـ فالقليل من الكائنات الصحراوية يشن هجوماً على أكثر من رجل. اصطدم جاروف بصخرة حين تصاعد لهب النار الموقدة ليختلط بهواء الليل، ووجد نيال نفسه ينظر إلى الحجر المفلطح الكبير الذي غطى مدخل الجحر. اكتشف في الحال أن الحجارة التي أغلق بها المدخل ما تزال في مكانها. أمسك مانيثو وسيميون بالمشاعل، بينما أزاح نيال وڤيج الحجارة وحفرا بأيديهما توقع نيال انبعاث رائحة عطنة، لكنهم اشتموا بعد إزاحة الصخرة الأخيرة التي سدت المدخل رائحة الخنافس النمرية المألوفة الممزوجة برائحة سُكنى البشر المميزة. أخذ نيال المشعل من يد مانيثو وهبط إلى الظلام. وجد كل شيء على حاله كما تركه يوم رحيله، ورأى فوق فراش أبيه هيئة إنسان ما تزال ملفوفة بقطعة قماش. ولكن حين تحامل على نفسه وأزاح القماش وجد أنه ينظر إلى محجرين في جمجمة. لقد تحلل اللحم بسرعة من فوق عظام أولف، وسط الجو الحار في الجحر، مخلفاً مجرد هيكل عظمي مكسو بشرائح عطنة من القماش.

أنزلوا التابوت إلى الجحر، ثم رفع نيال وڤيج الفراش بأكمله بحشية العشب ونقلاه بعناية إلى داخل التابوت المبطن بالحرير. نحى نيال عاطفته جانباً وركّز ذهنه لمنع الهيكل العظمي من التفكك، ولكن حين انعكس ضوء المشعل فوق الأسنان الأمامية ورأى الفرجة الصغيرة بين الشفتين، وقد كانت تضفي سحراً على ابتسامة أبيه، غمره فجأة إحساس بفقدان عزيز غالٍ فجلس بجوار التابوت ودفن وجهه في راحتيه وبكى كما لم يبك منذ كان طفلاً. لم يبذل ڤيج أية محاولة لتهدئته، بل أن خديه تخضبا بالدموع. وحين كفكف نيال

عبراته ووضع يديه العظيمتين على شكل صليب أحس بالراحة والارتياح، كما لو أنه قد أجرى اتصالاً مع روح أبيه المتوفى.

أخرجا التابوت من الجحر، وأراد نيال أن يتمدَّد أبوه تحت النجوم قبل أن يُغلق الغطاء عليه للأبد. لكنه أخذ قطعة القماش من الجحر ووضعها فوق التابوت ليترك الجمجمة فقط مكشوفة. فقد بدا من غير اللائق أن يترك ريح الليل تعبث بعظامه.

كان نيال يخطِّط منذ أن بدأ الرحلة لقضاء ليلة أخيرة في الجحر والنوم فوق فراشه. لكنه أدرك وهو يجلس أمام النار ملفوفاً ببطانية ليقي نفسه برد الليل والريح التي راحت تهب من الشمال الغربي أنه من غير الممكن أن ينام تحت الأرض، فقد تعود على الريح وهي تلفح وجهه. جلس هو وفِيج بعيداً عن الآخرين، وراحا يأكلان ويشربان باقتصاد، ووجدا من الصعب عليها تصديق عودتها إلى الصحراء، ووقوع أحداث عديدة في غضون ثلاثة أشهر، منذ كان هذا المكان موطنهما. ولكن حين أنشد البحارة أغانيهم الشجية - وهي الطريقة الخاصة بهم لإظهار احترامهم للرجل الذي ينعكس ضوء القمر فوق عظام وجنتيه - تدلت جفون عيونها، وامتزجت ذكريات الماضي مع تطلعات المستقبل التي جسدتها أحلام اليقظة. اقتربا من النار وجذبا البطاطين حول أكتافهما وغرقا في نوم عميق. وسرعان ما لفّ البحّارة الذين أجهدتهم الرحلة الطويلة الصمت، ثم غلبهم النوم.

أيقظت طقطقة اللهب نيال، فقد وضع أحدهم شجرة «كريوسوت» في جمرات النار الخامدة. عرف أنه سيميون الذي حلس القرفصاء ولفّ معطفاً من الفراء حول كتفيه. رأى في الظلام كائناً ضخماً يتحرَّك بين الصخور فعرف من حركته غير المتناسقة أنه عقرب ذكر كبير، من المحتمل أنه كان يراقبهم وينتظر اللحظة المناسبة لشن هجوم عليهم، لكنه تراجع الآن واختفى في الظلام.

استلقى نيال على ظهره، وتطلع إلى النجوم. لقد علمه السيد ستيج طريقة تمييز النجوم الكبيرة والكوكبات: النجم القطبي، الدب الأكبر والدب الأصغر، الكلب والأسد. كان النجم القطبي قريباً الآن من الأفق الشمالي، وفوقه الدب الأكبر، وهذا يعني أن الفجر سينبلج في غضون ساعتين تقريباً. تعقّب خطاً يمر وسط نجوم كوكبة الدب فوجد أن «النسر الواقع» قريب هو الآخر من الأفق. تلألأ في جو الصحراء الصافي كالماس الأزرق. كان الانفجار الهائل الذي وقع منذ مائة وخمسين مليون سنة قد ألقى بأبواغ النباتات الامبراطورة باتجاه المجموعة الشمسية. فما الذي حدث للنباتات التي ظلت فوق «أ - ل - ٣»؟

هل حققت الآن أقصى هدف لتطورها وأصبحت كائنات خارقة؟ أم هل اختفت وحلت مكانها أنواع أخرى؟

استطاع أن يميز برجي العقرب والميزان فوق الأفق الجنوبي، ورأى تحت الأفق مباشرة الظُّلمان، وراح يفكر في البشر الذين عاشوا فوق هذا الكوكب البعيد. وطبقاً لما قاله السيد ستيج فإن مناخ «الأرض الجديدة» يشبه في أشياء كثيرة مناخ كوكبنا، وأن نسبة الأوكسيجين إلى النتروجين في الجو هي نفسها على وجه الدقة. وأقام البشر المستوطنات فوق الكواكب الأخرى الدائرة في مجموعتهم، بل بنوا أيضاً مدينة ذات قباب فوق القمر الخالي من الهواء.

لكن ستيج لم يقل له شيئاً حتى الآن عن تاريخ هؤلاء الرواد، ولم تتح لنيال الفرصة للاستفسار عن ذلك. تملكه الفضول وهو مستلق يحدق في السماء، وصاغ مائة سؤال. أثمة أشكال أخرى للمياه الزكية فوق الأرض الجديدة؟ هل بإمكان رجالها ونسائها الحياة دون صراع؟ هل ظلوا كما هم دون أن تطرأ عليهم تغييرات جسمانية في بيئتهم الجديدة؟ هل لهم أي أعداء طبيعيين؟ هل لديهم أشجار ونباتات مثل تلك التي على الأرض؟ وبحار وأنهار؟ ولكن الأهم من ذلك، هل نجحوا في حل مشكلات الطبيعة البشرية المستعصية التي جعلت تاريخ الإنسان عبارة عن سجل من الوحشية والحماقة، مثير للإحباط؟ هل علمهم الهروب من الأرض، والمصاعب التي واجهتهم لاستحداث حضارة جديدة استغلال العقل وإيقاظه ومنعه من النوم مرة أخرى؟

أدرك الآن أن هذه كانت مشكلة البشر الأساسية. فحين واجهوا المخاطر والصعوبات تعلموا القتال على نحو رائع، ولكن بمجرد أن انتصروا فقدوا كل الأرض التي حصلوا عليها وغرقوا في الكسل وأصبحوا ضحايا للتفاهة. وبدوا عاجزين عن الحفاظ على الشعور بالإلحاح. وكأن الجميع مصابون بداء النوم. ولو أن بشر «الأرض الجديدة» قد حلّوا هذه المشكلة لكانوا أقرب للآلهة منهم للبشر.

ألقى سيميون بمزيد من الخشب في النار، واعتدل نيال ليأخذ وضع الجلوس فسأله سيميون:

ـ أتحب أن تتناول مشروباً ساخناً؟

أومأ بالإيجاب. وزحف نحو النار، وربض بجانبها وقد لف نفسه بالبطاطين؛ فقد كانت رياح الصحراء مثل مدية. وضع سيميون خليطاً من الأعشاب المجففة في ماء مغلي. ظهر ضوء شاحب فوق الأفق الشرقي.

ـ هل بقيت مستيقظاً طوال الليل؟

ـ لا. ولكن شيئاً أيقظني، له عيون حمراء.

نظر سيميون إلى الصبار الإبري، فقال نيال:

ـ من المحتمل أن يكون عقرباً بنياً يعيش تحت الصخرة، فقد كاد يلتهم «مارا» حين كانت طفلة.

امتعض سيميون وشعر بالاشمئزاز، ثم قال:

ـ أظن أنني أفضل الحضارة.

جلسا يدفئان أيديهما فوق الأكواز الساخنة ويتنفسان البخار ذا العبير. نفخت الريح في قطع الخشب فزاد اشتعالها. استغرق كل منهما في أفكاره لفترة، ثم قال سيميون:

ـ ألم تتساءل مطلقاً عن سبب اصرار سيد العناكب على التظاهر بأنها ذكر؟

ـ لأن سيد العناكب اسم يثير الرعب في النفوس بشكل أكبر من سيدة العناكب.

ـ أجدهما في الحالتين سيئين.

ـ إننا نعتقد أن الرجال أكثر قدرة على فعل الشر من النساء. ويبدو أن البشر، لسبب ما، يعجبون بالذين يثيرون خوفهم.

ـ ذلك تسليم سيء بالأمر.

ـ لقد تعلمت ذلك في البرج الأبيض. إن الأمر الأساسي الذي صدمني في تاريخ البشر هو أن معظم القادة العظام مهووسون بالقتل، بل إنهم أطلقوا على أنفسهم أسماء مثل إيفان الرهيب وعبد الله اللعين، ومن المفترض أن هذا مديح لهم، وكلما كانوا أكثر إثارة للرعب تزايد عدد المعجبين بهم. في الواقع أن البشر يتسمون بقدر كبير من الغباء.

نظر إليه سيميون بطرف عينه وقال:

ـ إذن ألم يكن من الأفضل تركهم تحت هيمنة العناكب.

ـ كلا. لأنه مهما كان غباء البشر فإنهم بحاجة إلى الحرية التي من خلالها يمكن أن يصبحوا أقل غباء. إنهم يتعلمون بالتجربة والخطأ، ويحتاجون إلى من يسمح لهم بارتكاب الأخطاء، وإلى التفكير في حلول لمشكلاتهم. أتظن حقاً أنه من الأفضل أن يظلوا عبيداً لدى العناكب؟

ـ لا. ولكنك قلت بنفسك إنك شعرت بالاستياء وهم يضربون رؤوسهم في الأرض في كل مرة تسير من أمامهم.

ـ نعم، وهذا هو التناقض الظاهري الغريب للطبيعة البشرية. إنهم يريدون الحرية

أكثر من أي شيء آخر في العالم، ومع ذلك فبمجرد أن ينالوها، يرغبون في إعطائها لزعيم. إنهم دائماً يبحثون عن شخص يعجبون به. وهذا لأن كل البشر يتوقون إلى الإحساس بالغرض من الصراع. ولأنهم لا يملكون ذلك فإنهم يريدون تسليم حريتهم لشخص بمقدوره منحهم هذا الإحساس. ولكن هذا لا يعني أنهم في وضع أفضل بدون الحرية. فذلك يعني فقط أنه يتعين عليهم أن يتعلموا البحث عن الغرض داخل أنفسهم.

ـ ولكن كيف ستعلمهم أن يفعلوا ذلك.

ـ لا أدري. ولكني سأجد الوسيلة عاجلاً أم آجلاً.

ـ أظن أنك لا تفضل أن تكون حاكماً؟

ـ لا أحب ذلك، إنه عمل شاق. ولكن يتعين أن يقوم به شخص آخر يعلِّمهم طريقة تنظيم حياتهم وإعادة بناء مدينتهم وتربية أطفالهم. لقد حاولت العناكب سلب ذكائهم. وافترض أن وظيفتي تكمن في محاولة رده إليهم. وإذا ما نجحت في تحقيق ذلك فلن يكونوا بحاجة إلى حاكم.

ـ إنهم بحاجة دائماً إلى حاكم لأنه بمثابة عذر للكسل، بل إنه من الممكن أن يكون البشر الأذكياء كسالى. إنني لا أسخر من البشر. فكلما فعلت من أجلهم المزيد ازداد تبجيلهم وإعجابهم بك، وأصروا على التطلع إليك. إنهم يجدون متعة في ضرب رؤوسهم بالأرض. لماذا يريدون وضع رفات أبيك في ضريح ضخم، على ما تظن؟ ليجدوا شخصاً آخر يوقرونه ويعجبون به.

أذهلت الملاحظة نيال فاستدار والتفت إلى التابوت الذي تلألأت مقابضه المصنوعة من الذهب المصقول تحت أشعة الشمس. ثم ضحك فجأة وهب واقفاً:

ـ نعم، إنك على صواب، بطبيعة الحال. لقد كنت أحمق فلم أدرك ذلك.

حملق سيميون فيه وقد اعترته الحيرة وسأله:

ـ تدرك ماذا؟

مال نيال، وهز أقرب رجل من كتفه، وكان أحد حاملي التابوت.

ـ عليك بإيقاظ الآخرين، وأبلغهم بأن يذهبوا ليجمعوا المزيد من الوقود.

خمن سيميون ما يدور في ذهنه فقال له:

ـ أتعتقد أن هذا التصرف يتسم بالحكمة؟

ـ أنا على يقين من ذلك، بالإضافة إلى أنه ما كان سيرقد بارتياح في وسط المدينة.

ـ ولكن ماذا عن أمك؟

ـ سوف تتفهم الأمر.

جلس ڤيج بعد أن أيقظه ما يحدث وفرك عينيه، ثم تساءل:

ـ ماذا يحدث؟ هل حان وقت الرحيل؟

ـ ليس بعد. انهض وساعدني في حمل هذا!

ـ ماذا ستفعل؟

ـ سأضعه في المكان الذي ينتمي إليه هنا في الصحراء. أتريد حقاً أن ترى أباك مدفوناً في مقبرة من الرخام؟

نظر ڤيج إليه بحيرة للحظة ثم هز رأسه علامة النفي وقال:

ـ لا. إنني لم أحبذ الفكر مطلقاً.

نهض واقفاً، وحملا معاً التابوت ونقلاه إلى وسط النار فحطّم بثقله شجيرات الكريوسوت نصف المحترقة، واستقرّ في وسط اللهب. بدأ الطلاء يتقشّر، ثم يحترق ويتحول إلى لهب، بينما تطاير الشرر الأحمر حوله. ألقى نيال بغطاء التابوت فوق اللهب. وحين عاد الرجال حاملين شجيرات الكريوسوت والخشب الجاف أمرهم بإلقائه في النار. تزايد حجم النار بعد عشر دقائق، واضطروا إلى الوقوف بعيداً عنها، وعندئذ اختفى التابوت وسط اللهب.

شعر نيال بالابتهاج وهو يرى رفات أبيه يتحول إلى دخان ورماد. وأصبح الأسف والأسى ينتميان للماضي، والبشر مغرمون بالتعلق بالماضي. وهذا اللهب جعله يحكم بالمستقبل.

التفت إلى مانيثو عندما هدأت النار وتحوّلت إلى كومة من الرماد المتوهّج وقال له:

ـ أصدر الأوامر للرجال بجمع أغراضهم. لقد حان وقت العودة إلى الوطن.

مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف: ٨٣٨١٥٧-٨٣٧٧٠٢ - بيروت - لبنان

مؤلفات كولن ولسون

ضياع في سوهو	ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق
المعقول واللامعقول في الأدب الحديث	ترجمة أنيس زكي حسن
أصول الدافع الجنسي	ترجمة يوسف شرورو وسمير كتاب
اللامنتمي	ترجمة أنيس زكي حسن
ما بعد اللامنتمي	ترجمة يوسف شرورو وسمير كتاب
القفص الزجاجي	ترجمة سامي خشبة
طقوس في الظلام	ترجمة فاروق محمد يوسف
سقوط الحضارة	ترجمة أنيس زكي حسن
رحلة نحو البداية	ترجمة سامي خشبة
الشعر والصوفية	ترجمة عمر الدايراوي
الحالم	ترجمة سامي خشبة
إله المتاهة	ترجمة سامي خشبة
الإنسان وقواه الخفية	ترجمة سامي خشبة
الشك	ترجمة يوسف شرورو
خفايا الحياة	ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد
ما بعد الحياة	ترجمة محمد جلال عباس

تصميم الغلاف:
نجاح طاهر

